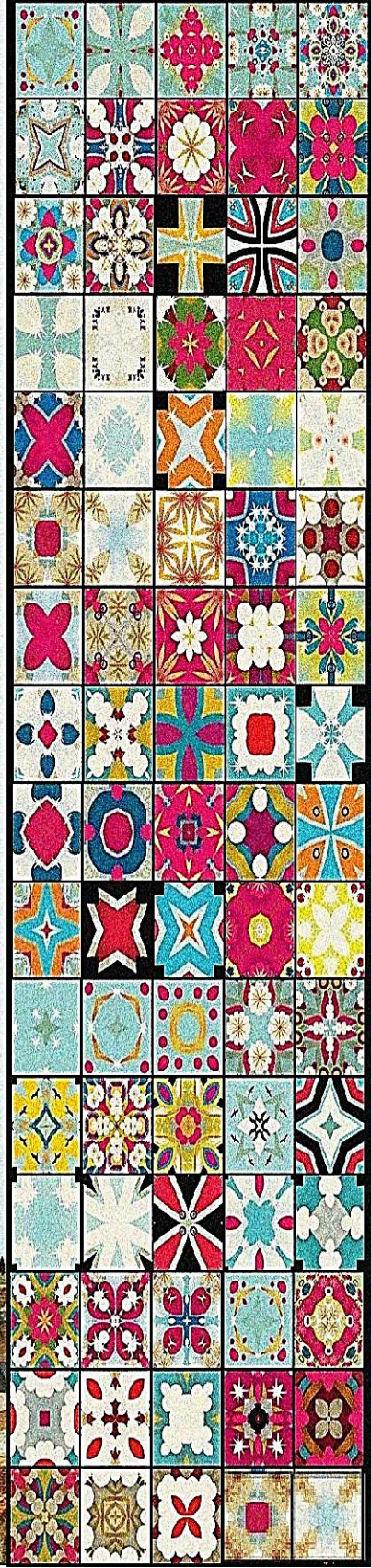
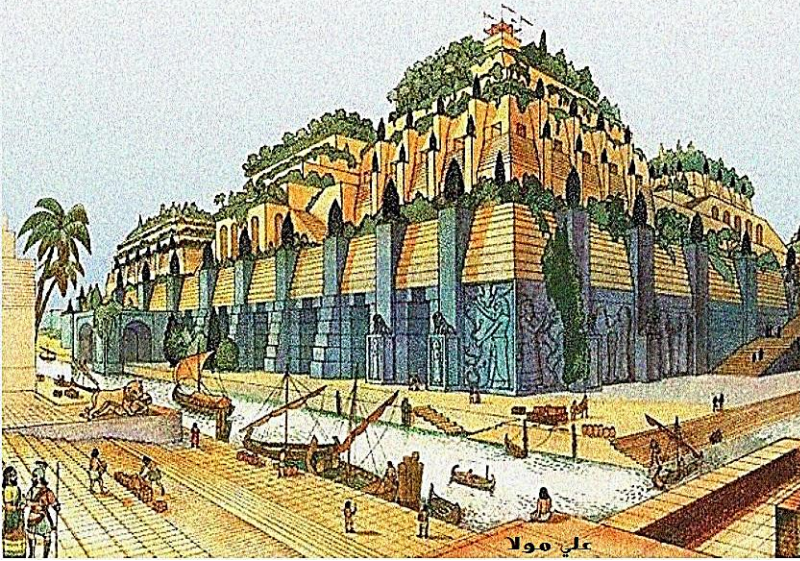


إشراف : ف . دياكوف / س . كوفاليف

# الحضارات القديمة

## الجزء الأول

ترجمة : نسيم واكيم اليازجي







# الحضارات القديمة

## الجزء الأول





إشراف: ف. د. بياكوف س. كوفاليف

# الحضارات القديمة

الجزء الأول

ترجمة نسيم واكيم البيازجي

منشورات دار علاء الطبع  
دمشق



حقوق النشر محفوظة  
لدار علاء الدين

دمشق - الطبعة الأولى ٢٠٠٠ - ١٠٠٠ نسخة

---

التنضيد الضوئي والإخراج الفني: سلام أبوكرم.  
التدقيق اللغوي الأستاذ: صالح جاد الله شقير.

يطلب الكتاب على العنوان التالي : دمشق ص.ب : ٣٠٥٩٨  
هاتف:- ٥٦١٧٠٧١ فاكس: ٥٦١٣٢٤١ -

- جميع الأفكار والآراء الواردة في الكتاب تعبر عن وجهة نظر المؤلف.
- في حال أخذ أية مادة من الكتاب يرجى التنويه إلى المصدر.

# الفصل الأول

## المجتمع البدائي

### المقدمة

النظام المشاعي البدائي: يدرس الفصل الأول من التاريخ ولادة، تطور وتفكك النظام المشاعي البدائي. نقصد بهذا التعبير التشكيلة الاجتماعية والاقتصادية التي عاشت حقبة طويلة من الزمان، أي منذ ظهور المجتمع البشري حتى تشكيل الدول الأولى. وبينما قسم تاريخ المجتمع الطبقي (عبودية، إقطاعية، رأسمالية) ولم يتجاوز خمسة آلاف سنة، فقد استمر النظام المشاعي البدائي مئات آلاف السنين.

ما هي سماته المتميزة؟ في المجتمع البدائي، بنيت علاقات الإنتاج على الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج، وعلى رأسها، الأرض. بسبب ضعف مستوى القوى المنتجة، الذي يحول دون الامتلاك الفردي لوسائل العيش الضرورية: كان الناس ملزمين بالعيش والعمل سوية والعمل الجماعي يولد الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج وثمار العمل. ما يجنيه الناس معا يخصصهم معا. لم تكن قد ولدت بعد فكرة الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، ولا استغلال الإنسان للإنسان، ولا الطبقات.

فالنظام المشاعي البدائي مرحلة واسعة من تاريخ البشرية وعامة، هذا يعني أن كل الشعوب مرت من هنا، وأن المجتمع المنقسم إلى طبقات غير خاص بشعب دون آخر، وأن المجتمع بني على يقايا النظام المشاعي البدائي.

يخص تاريخ المجتمع البدائي العصور الغابرة، التي تخولنا دراستها إلقاء الضوء على مسائل هامة مثل أصل الإنسان، ولادة الدين، والفنون والعلوم، تشكل الطبقات والدولة، كما يتقصى الدرب الصعب الذي شقته البشرية، والنضال البطولي الذي خاضه جدودنا لمواجهة الطبيعة.

إن تاريخ المجتمع البدائي، كغيره، عام: غرضه دراسة قوانين ارتقاء النظام



المشاعي البدائي. ولا أحد يستطيع دراسة هذه القوانين إلا على ضوء المادية الجدلية والتاريخية.

لقد توقف بناء الماركسية على قضايا التاريخ البدائي في العديد من أعمالهم. في "الإيديولوجيا الألمانية" التي كتبت في ١٨٤٥ - ١٨٤٦، أشار ماركس وإنجلز، عند بداية نشاطهما الاجتماعي، أن الناس، منذ فجر المجتمع البشري، يوم كانوا يعيشون على الصيد والقتل والزراعة، وتربية الدواجن، عرفوا ملكية العشيرة، أي هيمنة الملكية التعاونية. "ورأس المال"، "انتي دوهرينغ" وأعمال أخرى مثل رسائل ماركس وإنجلز تتضمن ملاحظات قيمة في مختلف مشاكل نظام المشاعية البدائية. وفي العام ١٨٧٦، كتب إنجلز "دور العمل في انتقال القرد إلى إنسان" الذي يعطي شرحاً معمقاً علمياً ومادياً، للتطور المعقد لظهور الإنسان.

كان العلم البورجوازي قد كدس حوالي العام ١٨٨٠ كفاً من الوثائق؛ ولدى دراستها بطريقة نقدية، شرع ماركس وإنجلز بعمل توليفي حول تاريخ المجتمع البدائي. بدأ العمل ماركس الذي اطلع وعلق على أهم ما جاء في كتاب للعالم الشهير الأمريكي ل. هـ. مورغن. وبعد موت ماركس، تابع إنجلز العمل وأنجزه؛ ونشر في العام ١٨٨٤ كتاباً هاماً بعنوان: "أصل الأسرة، والملكية الخاصة والدولة"، يكشف، استناداً إلى وقائع عديدة، عن القوانين الأساسية لارتقاء المجتمع البدائي ويعطي تاريخه الأول الجاد العلمي.

لم يكتف ماركس وإنجلز بنقد النظريات اللا-علمية وتعليل قوانين ارتقاء المجتمع البدائي، بل دلا على الخاصة المؤقتة لمؤسسات مثل الطبقات، الملكية الخاصة والدولة. وهكذا أفادنا من تاريخ المجتمع البدائي لبيينا نظرية الاشتراكية العلمية.

كان لينين قد عمق علم المجتمع البدائي. وظهرت ملاحظات هامة، تتعلق بالسمات الأساسية للنظام المشاعي البدائي، في أعماله من هم أصدقاء الشعب وكيف يناضلون ضد الاشتراكية الديمقراطية، والقضية الزراعية و"ملاحظات ماركس ومؤتمره في الدولة".

### مصادر أخبار النظام المشاعي البدائي

لدراسة المجتمع البدائي خواصها. فبينما تركت لنا حقب التاريخ البشري التالية نصوباً عديدة ومتنوعة (مخطوطات، مدونات، وغيرها)، كان النظام المشاعي البدائي، بعامه، مجهول الكتابة، الأمر الذي يلزمنا البحث عن آثار من نوع آخر.

لقد استقينا المعلومات الأساسية حول المجتمع البدائي من مصدرين تاريخيين: علم العاديات وعلم العراقة. الأول يعيد تركيب ماضي البشرية استناداً إلى آثار الثقافة المادية؛ بهدف البحث عنها، وضعها وتصنيفها. تتضمن هذه الآثار معلومات عن العمل، والأسلحة والأواني، مخلفات السكان والسكن، الأعمال الفنية ومواد الطقوس والشعائر. وتميز بقايا العاديات أيضاً، إلى مدى ضيق، أيديولوجيا الماضي. يسبر علماء الآثار التجمعات القديمة (محطات، قرى) ونقوشات وأنصاب شخصية أو اجتماعية؛ يحفرون الطبقات الأثرية، أي الأرض التي تضم المخلفات اللاعضوية والعضوية للحياة والنشاط البشري، والتي يتجاوز عمقها أو سماكتها أحياناً عشرات الأمتار. في هذا المجال، تمكننا الجيولوجيا، البقايا الحيوانية القديمة، وكذلك النباتية من تحديد دقيق لتتابع الحضارات. ولقد أعدت حديثاً سبل فيزيائية - كيميائية لمعرفة عمر اللقى. سبل مؤسسة على دراسة التحولات التي تعرضت لها البقايا العضوية خلال آلاف السنين. كما يكشف الباحثون في العظام، في فضلات المحارق، وغيرها، كمية النظير الكربوني المشع، المسمى "كربون 14". ولدى معرفتهم أنه يعود لحوالي ٥٥٠٠ سنة، يحددون تاريخ النقش أو الحفر أو التجمع.

يدرس علم العراقة ثقافة وأخلاق القبائل والشعوب، بخاصة، الشعوب القديمة. ففي القرن التاسع عشر وحتى القرن العشرين، كانت مناطق أفريقية، أمريكية، أسيوية، محيطية، وبعض أقاليم روسيا، تسكنها شعوب ما تزال تحافظ على بقايا من النظام المشباعي البدائي. كانت هذه التجمعات الشعبية كثيرة جداً منذ ألفي عام، في زمن هيرودوت، سترابون، تاسيت وكتاب آخرين من العصور الغابرة، الذين تحدثوا عن أشياء هامة.

يعالج علم العراقة: الإنتاج، الثقافة المادية، النظام الاجتماعي والحياة الروحية لهذه الشعوب، ويعيد تركيب سمات المجتمع البدائي استناداً إلى بقاياه؛ وكذلك المعطيات الانتية هي الوحيدة التي تنير تاريخ الأسرة، التنظيمات الإرشادية، التقاليد الشفهية والحق في المجتمع البدائي. ولجمع وثائق غنية، يجب على علماء الشعوب أن يبقوا مدة طويلة في كنف هذه القبيلة أو تلك، يتعلمون لغتها، يتعرفون عاداتها. مثلاً، كان ل. هـ. مورغن ضيف قبيلة السينكواز، وعاش الرحالة الروسي الشهير ميكلوكوف - ماكلاي مدة طويلة عند البابو في غينيا الجديدة، يدرسان عاداتها وحتى يجهدان في الدفاع عنها ضد الاضطهاد الاستعماري.

تشكل المواد الاثنية، على قيمتها الكبرى، نواقص عميقة. بداية، كانت القبائل الأكثر تخلفا التي لم يدرسها أي انثوغرافي قد تطورت فعلا لدى اتصالها بالشعوب المتحضرة وخضعت للتأثير المدمر الذي تنتشره الرأسمالية. فأخلاقها وعاداتها توفّر غالبا مزيجا غريبا من التشبه بالقديم ومن العناصر الجديدة.

بالتالي يعطي العلماء الذين درسوا تجمعات شعبية من مستويات ارتقاء متباينة، سمات عامة. أما كيف نعرف أشكال اقتصادها وتنظيماتها الاجتماعية والايديولوجية، وأيهما أقدم، وكيف ننقل من الوصف البسيط للأدوات، للمساكن، للنقوش إلى تاريخ المجتمع. دون تحديد الوثائق المتوفرة في سرير *DE PROTUSTE*<sup>1</sup> للمخطط التحكيمي؟ لا يمكن تخطي هذه العقبة إلا بتعاقد مواد العاديات مع المواد الأثنية.

### حقب تاريخ المجتمع البدائي

خلال آلاف السنين، تعرض المجتمع البدائي إلى تبدلات هامة اقتصادية واجتماعية. فلا بد إذن من تمييز عدة مراحل في تاريخه. لنعرف حسب أي مبدأ يتم هذا. منذ النصف الثاني من القرن الماضي، أدخل عالم الآثار الدانمركي ش. تومسون في تصنيف اللقى فكرة ثلاثة "أعمار" أو "عصور": عصر الحجر، "البرونز والحديد، حسب المادة الأساسية المستخدمة في صناعة الأدوات، واختار هذا المبدأ لتقسيم ما قبل التاريخ. وبالتالي قسم كلا من هذه العصور إلى محطات: مثلا، في عصر الحجر، ميز الحجر القديم *PALEOLITHIQUE*، الحجر الأوسط *MESOLITHIQUE*، والحجر الجديد *NEOLITHIQUE*، التي تختلف من حيث عمل الحجر ومهمة أو وظيفة الأدوات. وقسمت هذه المحطات إلى حجر قديم أبعد وأقرب وإلى مراحل أو حضارات تمتاز بهذه الآثار المادية أو تلك؛ تسمى المرحلة بشكل عام باسم المكان الذي اكتشفت فيه المواد الخاصة به (شاليان، أشليان، موستريان، الخ).

يقدم هذا التصنيف مكاسب أكيدة قبلها علماء آثار ومؤرخو العالم قاطبة. لكنها تعاب كونها وحيدة الجانب، وترجع الفرق بين مراحل التاريخ البدائي إلى طبيعة المادة الأولى بأداة وأسلوب عملها: قد يفضي هذا إلى تفسيرات آلية للتاريخ، وإلى فصل التطور التقني

<sup>1</sup> - *de procuste* أسطورة يونانية تقول إن بروكست هذا كان يذهب ويعذب المسافرين.



عن تطور المجتمع. وهكذا، تخص نفس الحقبة الأثرية غالباً شعوباً من مستويات تطور، بينما انحل وتفكك النظام البدائي في أمكنة أخرى وفي بعض الأمصار تكون الزراعة وتربية الدواجن في بدايتها ويستمر النظام القبلي في الحياة. وهكذا لا يمكن ربط هذه النماذج الثلاثة بنفس المحطة التاريخية.

وحوالي العام ١٨٨٠، اقترح ل. هـ. مورغن تصنيفاً آخر، في كتابه "المجتمع القديم" بخلاف التصنيف الأول، لا يكفي التصنيف الجديد بالمعيار التكنولوجي بل يبنى على الخصيصة العامة للثقافة المادية لكل حقبة. يميز مورغن محطتين في التاريخ البدائي: الوحشية والبربرية. تنتهي الأولى مع اختراع القوس والنشاب؛ وتبدأ الثانية باختراع الفخار وتشمل ولادة وتطور الزراعة والتدجين. تقسم كل محطة إلى ثلاث درجات: سفلى، وسطى، وعليا.

يعتمد انجلز تصنيف مورغن في الفصل الأول من كتابه "أصل الأسرة، والملكية الخاصة والدولة. لكنه يراه غير كاف ويشير إلى أن جمع المواد الأولى تكرهه على إفساح المجال لنهج آخر.

وفي الوقت الراهن، يرى بعض العلماء أن التقسيم المورغاني لتاريخ المجتمع البدائي عفى عليه الزمن، ولم يعد ينسجم مع المكتشفات الأخيرة لعلمي الآثار والعراقة؛ لكن ليس ثمة حل شامل عام حتى الآن.

يرى كل المؤرخين ضرورة إيجاد مكان خاص للمحطة الأولى للتاريخ البدائي، في أثنائها يتم التشكل البيولوجي للإنسان ذاته؛ يسمى اتفاقاً محطة القطيع البدائي<sup>١</sup>.

ولقد تلت محطة القطيع البدائي محطة النظام القبلي، الذي ترافق أوجهه بعامة مع نظام الأمومة، أي المساواة بين الرجل والمرأة.

أخيراً، وشم تطور القوى المنتجة، ولادة التدجين، حراثة الأرض بالسكة الحديدية ومعالجة المعادن (البرونز والحديد)، بداية مرحلة الاستغلال الأولى والملكية الخاصة: استبدلت الأمومة بالأبوة، والديموقراطية القبلية بالديموقراطية العسكرية التي هيأت إرساء أسس الدولة.

<sup>١</sup> - اقرأ ف. انجلز "أصل الأسرة، والملكية الخاصة والدولة، المنشورات الاجتماعية، باريس ١٩٥٤ ص ٢٨، ولينين، الأعمال الكاملة، مجلد ٣٥، ص ٩٣، (منشورات - روسية).

طبعاً، لا يجوز أن ننظر الآن إلى هذا التصنيف المبني على سمة العلاقات الاجتماعية إلا كفرضية.

فالتقسيم إلى مراحل أو محطات يمكن من تقديم تنسيق التطور التاريخي. والصعوبة الأخرى الكأداء هي التسلسل التاريخي لهذه المحطة أو تلك. وغالباً ما نكون أمام استحالة تحديد دقيق لبداية أو نهاية هذه المرحلة أو تلك مما قبل التاريخ: فكلما توغلنا في الزمن، كان التسلسل التاريخي المطلق غير أكيد.

### نظرة في التاريخ

لمدة طويلة، بقيت حياة الإنسان الأول غامضة. كان كتاب التاريخ القديم يرددون خرافة "العصر الذهبي" الذي كان في فجر البشرية، أو يرسمون كائنات حيوانية سلاحها يداها، أسنانها وهراواتها. ففي العصر الوسيط، حالت هيمنة الكنيسة دون تطور الأفكار العلمية حول الأزمنة البدائية: يعلم اللاهوتيون أن الناس الأولين، آدم وحواء، خلقهم الله، وتؤكد الكنيسة سلطتها بطردهما من الجنة، والطوفان وحكايا التوراة الساذجة. وكانت الأنبياء حول أخلاق الشعوب المتخلفة مجرد خيالات: كانوا يتصورون هؤلاء الناس برؤوس كلاب أو حتى بدون رأس، والعينان في الصدر.

فقط، المكتشفات الجغرافية الضخمة التي تمت من القرن الخامس عشر حتى الثامن عشر، بدءاً برحلات كولومبوس وماجلان (وبخاصة رحلات المستكشفين الروس كراتشنيكوف، بالاس، ميللر)، التي أطلعت علماء أوروبا على حياة الشعوب المتخلفة، دشنت علم العراقة وسهلت طرح مسألة التاريخ البدائي.

ففي بداية القرن الثامن عشر، كان المبشر لافتو، الذي عاش طويلاً في كنف هنود أمريكا الشمالية، أول من نشر فكرة تقول: إن عادات الأوربيين تقدر أن تعلل وتجلو تاريخهم البعيد. مع ذلك، وحتى منتصف القرن التاسع عشر، اكتفى العلم بالفرضيات التحكيمية حول ما قبل التاريخ، وتحدث كثير من المتشككين بالعزوف عن دراسته، بدعوى أننا لن نعرف المرحلة الغامضة، بل الطلاس، التي سبقت اكتشاف الكتابة.

لقد اصطدمت أولى الحفريات الأثرية التي كشفت أدوات الناس بين الحيوانات المتحجرة في بداية العصر الرابع (مسنري في انكلترا حوالي ١٨٣٠ ويوشردي بيرش في فرنسا حوالي ١٨٤٠)، اصطدمت بالجحود، بل الموقف المعادي بصراحة، رغم أنها

طرحت أسس علم الآثار وإناسة العالم البدائي وانتقال الفرضيات النظرية إلى وثائق جادة حول مجتمع ما قبل التاريخ. ولم يعرف العالم المتكف القيمة الصحيحة لأعمال مسنري وبوشردى بيرش إلا بعد كشوفات داروين.

كان تاريخ المجتمع البدائي موضع اهتمام عميق لدى الديموقراطيين الثوريين الروس، وفي مقدمتهم تشرنتسكي، الذي قال: إن المجتمع الأبوي الذي افترض العدالة بين الناس، كان محطة شاملة. واهتم بخاصة بانتقال مشاعية الأرض إلى الملكية الخاصة، فسهل عليه فهم تاريخ الزراعة الروسي.

في القرن التاسع عشر، أسهم العلم البورجوازي بسعة بتتهيج المعارف حول المجتمع البدائي. ولقد اعتمد القانوني السويسري ج.ج. باشوفن على دارسي العصور القديمة للتدليل على وجود عهد الأمومة، الذي تلاه عهد الأبوة. وتقصى ل.ه. مورغن كنصير للمادية العفوية أو الطبيعية طبيعة النظام القبلي، فأيد فكرة وحدة ارتقاء البشرية وجهد في إجلاء التطور التاريخي لليونان والرومان مستنداً إلى دراسة التنظيم الاجتماعي لدى هنود أمريكا الشمالية. وطرح العالم والسياسي التقدمي الفرنسي ج. موتليت وعالم الآثار السويدي او. موتليوس أسس تصنيف آثار العصر الحجري والبرونزي. ودرس العالم الروسي م. كوفالفسكي المجتمع الأبوي وبرهن أنه كان شكلاً انتقالياً بين الأمومة والأسرة وحيدة الزواج المعاصرة. أخيراً، كتب ن. سير، الذي كان أول من عمم في روسيا نظرية ماركس في الاقتصاد، مقالات حول الثقافة الاقتصادية البدائية التي لم تفقد أهميتها حتى يومنا هذا.

لقد جمع علماء العراقة والآثار البورجوازيون في القرن العشرين وثائق واسعة وفيرة حول تاريخ المجتمع البدائي، الأمر الذي حولهم تقويم الكثير من بيانات أسلافهم النظرية، التي كانت بالضرورة تقريبية، بسبب نقص الوقائع المعروفة. وبينما أشار مورغن وموتليت إلى خط واحد لارتقاء المجتمع البشري، استطاع علماء القرن العشرين ترسم طرق معقدة وعديدة لتقدم الإنسان، حتى في العصر الحجري الأقدم *PALEOLITHIQUE* إذ أنجز المؤرخ الإنكليزي ج. كلارك ميزان الأعمال المنجزة قبله ودلّ إلى التطور الاقتصادي لحياة مختلف التجمعات البدائية في أوروبا انطلاقاً من العصر الحجري الوسيط *MESOLITHIQUE*.



لكن بعض مؤرخي الحقبة الامبريالية، بنقدهم الأفكار البيانية لعلماء القرن التاسع عشر حول الارتقاء البشري، أنكروا إنكاراً قاطعاً مبدأ الارتقاء. وحسب نظرية الروابط الثقافية، لعالم العراقة الألماني ف. غرينر لم تكن الثقافة البشرية، عوضاً من التطور عبر الزمن، سوى ثقافة متنوعة، وكانت البشرية كلها جملة من الحلقات الثقافية الجامدة. كما لجأ العالم الألماني او. مانجن إلى علم الآثار لنشر أفكاره ناكراً عملية الارتقاء. ترك فلسفة المعطيات، ويقدم تاريخ المجتمع البدائي كمحصلة لهجرات القبائل المنتسبة إلى مختلف الحلقات أو الروابط الثقافية. أفضت هذه النظريات إلى المفاهيم الرجعية المكشوفة لصاحبها ج. كوسينا، الذي جعل من تاريخ المجتمع البدائي تمجيذاً لحملات وغزوات أسلاف "العرق الآري".

يبرهن العديد من علماء العراقة البورجوازيين على الطبيعة الأبدية والثابتة للملكية الخاصة، لاستغلال الإنسان للإنسان، والدور التابع للمرأة في الأسرة وفي المجتمع والكثير من قاذورات النظام الرأسمالي الأخرى، ونسيوا وجود الطبقات في المحطات الأقدم من المجتمع البشري. كما ساهم علم العراقة البورجوازي في تبرير الاضطهاد الامبريالي في المستعمرات.

لكن علماء الآثار والعراقة التقدميين في القرن العشرين، مثل أ. اردلسكا، ج. ليبس، ف. بواس، رفضوا هذه النظريات الرجعية وهاجموها ودافعوا عن خيرة تقاليد تطوريي القرن الماضي. علماء الطبيعة أمثال ج. شيلد، أنصار أفكار ماركس.

والمؤرخون السوفييات، الأوفياء للماركسية-اللينينية، حققوا نجاحات ضخمة في دراسة ما قبل التاريخ. فأعمال علماء الآثار ف. غورودتسوف، ب. إيمانكو، أ. برسوف، ت. باسيك، ب. بوفتين، س. كسليف، ف. رافدونكا، وآخرون مكنوا من متابعة التاريخ في مناطق عدة خلال آلاف السنين، منذ مراحل المجتمع البدائي الأول حتى ولادة المجتمع الطبقي. إذ أعطوا كمية من المواد والوثائق من أجل الدراسة النظرية لأهم تطورات ما قبل التاريخ. ونشرت نتائج أعمال علم الآثار بانتظام في دوريات "علم الآثار السوفيياتي" و"أنباء" معهد تاريخ الثقافة المادية.

وساهم علماء الإناسة السوفييات إ. روغنسكي، ف. بوناك، م. نستورك، وسواهم بعمق بإيضاح أصل الإنسان، العنصر الأساسي للدراسة الجادة للمحطة الأولى للمجتمع

البشري، وتقصوا أيضا مسألة تشكل الأعراق ودلّوا على ضحالة النظرية العرقية. وعززت معرفة ما قبل التاريخ بأسلوب م. غيراسمون الذي أعاد تركيب الوجه البشري استنادا إلى عظم الجمجمة. خلق غيراسمون عشرات البورتريهات \_ *PORTROITS* ، لأناس عاشوا منذ آلاف السنين.

وأعمال علماء العراقة السوفيات س. تولستوف، م. كوسفنن د. أولدروج، س. توكريف، وسواهم، ساهمت بوضوح بدراسة نظام المشاعية البدائية أصل الزراعة والتدجين، ولادة الأديان أدركت بروح مادية، وبرهن أن الأمومة كانت مرحلة عامة من تاريخ البشرية، وعرفت بالتالي السمات المحددة لتفكك نظام القبلية وتشكل المجتمع التالي، وغير ذلك. ودوريات علم العراقة عندها هي مجلات "العراقة السوفياتي"، "أعمال معهد علم العراقة وحولية متحف الاناسة والعراقة".



## الفصل الثاني

### القطيع البدائي

#### ظهور النظام القبلي

ظهور الإنسان: يبدأ تاريخ البشرية بظهور الإنسان والمجتمع الإنساني. لقد دعم العلماء المثاليون طويلا نظرية الحد المغلق بين الإنسان و الحيوان. تشتق هذه النظرية من الأسطورة التوراتية. عارضها داروين بفرضية تقول: إن الإنسان انحدر من عرق قردي راق يشبه البشر. والمكتشفات اللاحقة أكدت رأيه وأثبتت أنه في نهاية العصر الثالث أو بداية العصر الرابع عاشت فعلا قرود مشابهة، يمكن اعتبارها أسلافا للإنسان.

هكذا، في جنوب أفريقيا ، اكتشف كثير من عظام القرود العالية سميت *AUSTRALOPITHEQUES*. كانت تعيش في مغارات حراجية أو شبه صحراوية، تمشي على قوائمها الخلفية، وتقتص الحيوانات الأصغر، ولل هجوم والدفاع، كانت تستخدم عصاة أو عظاما ضخمة طويلة، وقد أفضى الغذاء اللحمي، الوقوف واستخدام الأطراف الأمامية لتناول الأشياء إلى كبر حجم دماغها.

إن مسألة معرفة إن كان القرد الاسترالي سلفنا المباشر، أو يشكل "فرعا جانبيا" في تكوين الإنسان، تبقى معلقة. لكن الأمر الأكيد هو أن الإنسان المتحجر ينحدر من قردة مشابهة، اكتشفت عظامها في أماكن عديدة من العالم القديم، بخاصة في القفقاس. ومن زرافات القردة الشبيهة بالإنسان انحدر، في بداية العصر الرابع (أي منذ مليون سنة)، قطيع الإنسان البدائي.

لقد كان موضوع مكان إتمام تحول القرد إلى إنسان مجالا لمناظرات حادة وحيوية: تبني بعض العلماء نظرية التعددية ، وأكدوا أن التطور حدث بالتوازي في أماكن عدة وأن الإنسان انحدر من أنواع مختلفة من القردة. ليس العلماء السوفييات من هذا الرأي، بل هم يرون أن القرد تحول إلى إنسان في إقليم من الأرض الواسعة التي تشمل

جنوب آسيا ، الشرق الأدنى، شرق القفقاس و بقاع واسعة من أفريقيا؛ والوضع الراهن للعلوم يسمح بتحديد التطور بدقة كبرى.

يعلل بعض الباحثين ظهور الإنسان بأسباب طارئة ، خارجية. هكذا يقدم الأكاديمي ب. سوشكين اختفاء الغابات كعنصر أساسي: فاضطرار القرد للعيش على الأرض خلق تباينا في أطرافه وجعله يمشي منتصباً. تتكرر هذه النظرية تحول القرد إلى إنسان تحولا منتظما.

إن تعليلا علميا فعلا للظاهرة زودنا به انجلز في كتابه "دور العمل في تحويل القرد إلى إنسان". حيث يشير المؤلف إلى أن العنصر الأساسي هو العمل. "العمل خلق الإنسان نفسه"<sup>١</sup>. لكن بم بدا هذا العمل البشري؟ كانت القردة تتناول حجرا أو عصاة كما كان يفعل القرد الأسترالي، لكن أحدا لم يستطع صنع الأداة الأكثر بدائية. فبصنع الأدوات يبدأ العمل.

إن النشاط الجاد المتأثر، صنع الأدوات البدائية ،أفضى إلى تقسيم الوظائف بين الأعضاء الأمامية والخلفية. وتصير صناعة الأدوات المهمة النوعية للطرفين الأماميين، الأمر الذي زاد مهارتهما وحولهما إلى يدين. وبكلمة، لم تكن "اليدين عضو العمل فقط، بل أيضا ثمرة العمل"<sup>٢</sup>.

كلما أطلقت اليدين وتخصصتا بمهمة العمل، تدعمت عادة المشية المنتصبة أكثر فأكثر، وهذا أدى بدوره إلى تطور اليدين وحررهما من أجل النشاط الجاد، وعزز بالتالي تطور الحنجرة والحبال الصوتية. ولقد أثبتت دراسة عظام الإنسان المتحجرة أن تباين الأطراف يسبق ارتقاء الجمجمة، وهذا يؤكد تماما فكرة انجلز حول دور العمل في دور ظهور الإنسان.

### البشر المتحجرون

لقد اكتشفت في جاوا في الأعوام ١٨٩١-١٨٩٤، أقدم بقايا الإنسان المتحجر المسمى إنسان جاوا. ومؤخرا وجدت في جاوا عظام أنواع أخرى. وحوالي ١٩٢٥، اكتشف عالم

<sup>١</sup> - ف. انجلز ، دياكتيك الطبيعة، دار المنشورات الاجتماعية، باريس ١٩٥٥، ص ١٧١.

<sup>٢</sup> - المصدر ذاته، ص ١٧٢.

الأثار الصيني بي اوان-تشونغ في كهف شوكو-تيان، قرب بكين، رفاة عظيمة لحوالي ٢٥ نموذجاً لرجل متحجر سمي إنسان بكين. كما كشفت عظام مبعثرة عديدة، أكثرها افكاك وأسنان لكائنات قريبة من إنسان بكين، في وسط فيات-نام، في جنوب أفريقيا وقرب هيلدبورغ، في ألمانيا. وفي العام ١٩٥٤، عثر علماء فرنسيون في الجزائر على بقايا من نموذج إنسان آخر مما قبل التاريخ، سمي اتلانتروب.

إن الأحفاد المباشرين للناس المتحجرين هم النياندرتاليون ونموذجهم إنسان نياندرتال، وقد سمي هكذا لأن رفاته وجدت في وادي بهذا الاسم، قرب دوسلدروف. كان النياندرتاليون يسكنون العالم القديم، وصودفت بقاياهم في جاوا، في أفريقيا، في الشرق الأدنى ومناطق أخرى أوروبية. وعلى الأرض الروسية عثر عليهم علماء الآثار السوفييات: ففي ١٩٢٤، اكتشف ج. بونتش \_ اوسمولوفسكي أجزاء من هيكل عظمي في مغارة تشيك \_ تشاك، في جنوب أوزبكستان.

يتميز الناس المتحجرون عن البشر الحاليين بجمجمة مائلة وتجويف جمجمي منخفض؛ وأقواس حواجب متينة فوق العينين، العظام الوجهية بارزة، وفقدان الذقن.

كانوا يمشون بسيقان ملتوية ويركضون وقد انحنوا كثيراً إلى الأمام؛ تشبه أيديهم القوائم، أي أن الإبهام كان أقل تعاضاً مما لدى إنسان هذه الأيام. غير أنهم يتميزون بوضوح عن القردة العليا بالمشية وسعة العلبة الجمجمة. من حيث الحجم، يتجاوز دماغ ابن جاوا (٩٠٠ سم<sup>٣</sup>) كثيراً دماغ الغوريلا أو الإنسان الأسترالي، ودماغ ابن بكين أكبر (حتى ١٢٠٠ سم<sup>٣</sup>) ودماغ إنسان نياندرتال (قاربة ١٤٠٠ سم<sup>٣</sup>) يقترب من السعة الوسطى لجمجمة الإنسان الحالي (١٤٠٠ - ١٥٠٠ سم<sup>٣</sup>).

بخلاف الإنسان الأسترالي، ما كان البشر المتحجرون يكتفون باستعمال بعض المواد (عصا أو عظم)، بل كانوا يعرفون صناعة الأدوات. إذ وجدت بين رفاة ابن بكين والنياندرتاليين، أدوات حجرية بدائية. وفي كثير من المناطق، اكتشف علماء الآثار أدوات ليست من عظام الناس المتحجرين.

عاش ابن جاوا، ابن بكين وابن نياندرتال في العصر الأبعد أي الأدنى - الأقل تطوراً.

## العصر الحجري الأدنى

في بداية العصر الرابع، عند تشكل المجتمع البشري، كان المناخ أطف وأكثُر رطوبة. كانت أوروبا مغطاة بغابات شبه استوائية تسكنها الماضغات، الخرطوميات ووحيديات القرن غير الموجودة في هذه الأيام. لكن شيئاً فشيئاً صار المناخ أقسى: الجليديات ترحف آتية من الشمال. طبقة كثيفة من الجليد غطت مساحات شاسعة من أوروبا وأمريكا الشمالية. وجليديات أخرى كانت تهبّط من سلاسل جبال الألب وهملايا.

وفي الجوار المباشرة للجليد استبدلت الغابات شبه الاستوائية بالتوندرا حيث ترعى الماموث الوبري، الأحقب والحصان الوحش. يشمل العصر الحجري الأدنى بالتحديد مرحلة تمتد من بدء العصر الرابع حتى نهاية العصر الجليدي (قرابة أربعين ألف سنة).

كانت صناعات العصر الحجري الأدنى بدائية. عدا الهراوات، استخدمت شظايا الحجارة ذات الحواف الحادة. وشيئاً فشيئاً، تعلموا أن يصنعوا من الصوان قبضات سمكة، بشكل اللوزة، تزن أحياناً أكثر من كيلو. كانت تقطع بواسطة صوانات أخرى. أفادت هذه الأداة البدائية بتفصيل أوتاد خشبية، لقلع الجذور، لتحطيم ثلعات الأرض، لذبح حيوان جريح؛ لا شك أنها لم تستخدم في الصيد بخاصة، فأى عصي تقوم بهذا الغرض. فضلاً عن هذا، كان الناس يعدون صفائح من الصوان الحاد.

بهذوء، تتكسد الخبرة وتحسن التقنية: في بقاع عديدة وسبل متباينة، ينتقل الناس إلى صنع أدوات أصغر وأنعم. وتصير أهم الوسائل الصوانية النياندرتالية صفائح مثثة الشكل: مروسة للقص أو الثقب، مكاشط لسلخ الحيوانات الذبيحة. أداة القنص هي المذراة والرمح الخشبي المصنوعان من الخشب.

طبعاً، لم يكن لإنسان بكن مساكن ثابتة ولا ألبسة. كثيراً ما كانت الأشجار ملاجئ للإنسان نقيه من الحيوانات المتوحشة. وانتهى إلى تعلم إعداد ستائر أو حواجز تحميه من تقلبات الجو، ثم احتل كهوف الحيوانات المقترسة التي يستخدم جلودها لصنع سرير وثوب، نوع من غطاء الرأس مجهز بأربطة أو علاقات.

لقد تعلم أناس العصر الحجري الأدنى إيقاد النار. ربما كان أولاً يستخدم ويحفظ النار الطبيعية ويعتذ أوقدها بضدم قطعتي صوان ببعضهما أو بحك قطعة خشبية بقضيب خاص. والنتار الناتج يحمى ويشتعل؛ وأنذ تمد فتيلة صوفية أو ليفة نباتية تلتهب، ثم ينفخ

على النار لتتقد. كانت صعوبة العملية تكره الناس البدائيين على معاملة النار بعناية. كان استخدام النار ذا أهمية بالغة: فهي تقي البشر من البرد والكواسر، وتمكنهم من شوي أغذيتهم، الأمر الذي يسهل التمثل الغذائي ويغني الوجبة. إن اختراع النار... أعطى الإنسان لأول مرة السيادة على قوة طبيعية، وبهذا، أبعدته عن مملكة الحيوان<sup>١</sup>. في الاتحاد السوفياتي، كانت قد اكتشفت أقدم أدوات الإنسان المتحجر فوق تلة ساتاني \_ دار، في أرمينيا، واكتشفت آثار أخرى من العصر الحجري الأدنى في القفقاس، في أبخازيا وفي جنوب أوسيتي، في القرم، في حوض الدنيبر والدنستر وفي المجرى الأوسط للقولغا.

### أخلاق أول تعاونية بشرية وتنظيمها الاجتماعي

كانت التجمعات الأكثر تخلفاً، التي لم يدرسها أبداً علماء العراق، أرقى بكثير من البشر المتحجرين من العصر الحجري الأدنى. ولا يمكن معرفة حياة أول تعاونية بشرية إلا استناداً إلى المواد الأثرية، الأمر الذي يجعل آراءنا حول تنظيمها الاجتماعي ناقصة جداً وفرنسية.

كان إنسان العصر الحجري الأدنى يعيش من القطاف والصيد. يقات بالثمار، بالجذور والعنب البري، يأسر بعض الضرعيات الصغيرة، الضب والحشرات. وبدأ مبكراً بصيد الحيوانات الضخمة: في محطات قبل التاريخ، يكشف علماء الآثار غالباً، بين الأدوات البدائية، عظام الماموث والبيزون، الأحصنة والغزلان، التي بقر أغلبها ليأخذ نخاعها. كان الإنسان البدائي يأكل كل شيء، الأمر الذي مكّنه من العيش في كل مكان.

كانت حياته قاسية: ما كان يستطيع منافسة الكواسر الرهيبة في بداية العصر الرابع لا بسرعة الركض، ولا بالقوة الجسدية. كان الجوع يترصده أبداً، وكذلك الموت بين مخالب الحيوانات. وعقد زحف الجليد نضاله ضد الطبيعة. بقي الإنسان القديم على قيد الحياة بفعل سببين اثنين: بداية، صار كائناً واعياً يصنع أدوات، ثم، عمل منذ البدء متعاوناً.

إن صنع الأداة نفسها غير ممكن إلا تعاونياً، لأن هذا الأخير هو الذي يصون ويعضد

<sup>١</sup> - أنجلز، أنتي دوهرينغ، دار المنشورات الاجتماعية، باريس ١٩٥٦، ص ١٤٧.



الانجازات، الخبرة البدائية بمادة الانتاج، ويؤمن توريثها. والصيد، بخاصة صيد الحيوانات الضخمة التي تخاف النار وتدافع برشق الحجارة نحو وهدة أو سبحة، كان يتم جماعة.

هذا هو تجمع إنسان العصر الحجري الأدنى الذي سمي اتفاقا القطيع البدائي. كان قليل العدد وغير مستقر ولا شك: كان يستطيع بأعضائه الانتقال إلى قطيع آخر. كان يرأسه مشرف، رجل أو امرأة. وتسود حياته الجنسية الببلية والاختلاط، مع إمكانية قيام علاقة بين اثنين فقط، رجل وامرأة، مستقرة إلى هذا الحد أو ذاك.

إن شكل الأداة البدائي، مستوى الاقتصاد المتخلف، والنضال الضاري مع الطبيعة، كلها عاشت في قلب القطيع البدائي "الفردية الحيوانية" الموروثة من الأسلاف الحيوانية، التي تتبدى أحيانا بصراعات دامية، بفصول من الكفاح من أجل الوجود. كما عرفت حالات من أكل لحوم البشر.

تدرجيا، ومع رسوخ التنظيم الاجتماعي في التجمع البشري ومضاعفة منجزات الانتاج، تراجعت الغرائز الحيوانية؛ كما قال لينين، أخذ القطيع البدائي والمشاعية البدائية "الفردية الحيوانية" لدى البشر الأقدمين<sup>١</sup>.

### ولادة الفكر واللغة

تتجم ولادة الفكر من نشاط الناس المنتج. والعبور من الاستخدام الغريزي للهراوة والحجر إلى صناعة الأدوات، على جلاقتها، أفرز النشاط العقلي لدى الإنسان، والوعي. وشكلت منجزات الانتاج الخبرة الأولى عنده واستقرت في ذهنه. والعمل التعاوني صان منجزات الانتاج وبصم الفكر البدائي بسمته النموذجية: في الأزمنة الأولى، ما كان الإنسان ينفصل عن التجمع التعاوني.

واللغة قديمة أيضا كالفكر "... اللغة هي الوعي العملي، حية لدى الجميع، حية إذن عندي، واقعية، واللغة لا تولد، كما الوعي، إلا من الحاجة، من ضرورة المتاجرة مع الناس الآخرين"، كتب ماركس وإنجلز. والمفاهيم الأولى العامة لا تعرف في التجمع التعاوني إلا إذا حددتها الأصوات. والتلاقي بين الناس والعمل التعاوني يستحيلان بدون اللغة.

<sup>١</sup> - لينين، الأعمال الكاملة، المجلد ٣، ص ٩٢ (منشورات روسية).

ليس لدينا أي فكرة عن بنية اللغات البدائية. بل يفترض العالم السوفيياتي ف. بوناك أنها ولدت من الإشارات الصائتة لدى القردة شبيهة الإنسان، وتنامت مع تكديس خبرة الإنتاج، وتطورت الحجرة بفعل الوضع العمودي وتراجع حجم الفك الأسفل. كانت هذه اللغات تتألف من عدد متواضع من الكلمات أو، بكلمة أدق، من عبارات وحيدة المقطع، منعزلة وعديدة الدلالة. وكان كلام الإنسان البدائي يترافق مع حركات لا تلعب مع ذلك سوى دور ثانوي.

### الانتقال إلى العصر الحجري الأعلى

لقد أتى بعد العصر الحجري الأدنى، حسب التصنيف المقبول في علم الآثار، العصور الحجري الأعلى (دام من الألف الأربعين حتى الألف الثاني عشر قبل الميلاد). تبدلت الشروط المناخية مرارا في أثناء هذه الحقبة. تراجع الجليد وصار المناخ في أوروبا وسيبيريا الجنوبية معتدلا. ثم عاد الجليد، هذه الهجمة الرابعة والأخيرة، الأقل عتسا مما سبق، جعلت المناخ مع ذلك قاسيا جدا. بادت الماموث، انتشر الأحقب على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، والقرم والقفقاس.

تم الانتقال إلى العصر الحجري الأعلى بتطورات هامة في بنية الإنسان الجسدية، وكذلك بطبيعة الإنتاج والتنظيم الاجتماعي. والنموذج البيولوجي المعاصر: الإنسان العاقل *HOMO SOPIEMS*، تشكل نهائيا؛ وتطورت تقنيات واقتصاد التجمع التعاوني وظهرت بخاصة أدوات نوعية، مخصصة لصنع أدوات أخرى، ووسائل من الخشب والعظم أو من الخشب والعظم معا؛ غادر الناس الكهف ليعيشوا في ملاجئ مصنوعة ومدفأة؛ وتشكل نمط جديد من التنظيم الاجتماعي: القبيلة البدائية؛ أخيرا، ظهرت الفنون. كل هذا خول العالمين السوفيياتيين إي. روغنسكي وف. إياكوف اعتبار الانتقال إلى العصر الحجري الأعلى، وانتقال إنسان نياندرتال إلى الإنسان العاقل، كوثبة نوعية تبقى أهميتها التاريخية مع ذلك أقل من انتقال القردة من النموذج الاسترالي إلى الإنسان المتحجر من النموذج الجاوي. وكان الانتقال إلى نوع جديد قد أعده ارتقاء المجتمع البشري في نهاية العصر الحجري الأدنى.

تثبت بقايا العصر الحجري الأعلى في أوروبا الغربية والشرقية تنامي القوى المنتجة. وتتجاوز تقنيات هذه الحقبة كثيرا تقنيات العصر السابق؛ اتقنت صناعة الأدوات الصوانية،

وضغطت مساحتها: بمساعدة قضيب عظمي، يؤخذ ببساطة، من شظية صوانية، صفيحات ناعمة، للحصول على أداة مشدبة ذات حواف حادة ومتينة. وعدا الحجر، صنعوا العظم والقرن.

كانت الوسائل المستخدمة لجني الغذاء متنوعة جدا: صنعت الرماح القصيرة ذات الرأس العاجي أو الصواني، والخناجر من القرون، والخطافات للصيد والقنص، والمكاشط والصفائح لسلخ الحيوانات الذبيحة ومعالجة الجلود؛ وخيطة الثياب من جلود المواشي بابر عظمية. وأعدت الأزامل لحفر أو نحت القرن أو العظم.

اتسع صيد الحيوانات اتساعا لم يسبق له مثيل: في المحطات، يكتشف علماء الآثار بقايا وفيرة من الأسلاب. ففي بردقوست (تشكوسلوفاكيا) مدفون عظام لألف ماموث. وحوالي نهاية هذه الحقبة، مورس الصيد أيضا بسعة. حدد هذا التطور في الإنتاج أسلوب حياة أكثر حضارية، نشهد شاهدا رائعا عليه في غنى آثار العصر الحجري الأعلى.

يبدأ الإنسان باحتلال ملاجئ مصنوعة، ذات طنف، أخصاص وملاجئ محفورة في الأرض. كشف علماء آثار (ب. أفمانكو، س. زامياتين وسواهما) عن أكواخ من العصر الحجري الأعلى على ضفتي الدون وغيرها. كانت مساكن من التراب المقولب، بشكل بيضوي. أخذ الماموث تدعم السقف المغطى بالتراب. في وسط الكوخ توضع موقدة أو أكثر تغذيها عظام الحيوانات. إلى جانب المساكن حفروا حفرا لحفظ الطرائد والأغذية الأخرى.

على أرض روسيا. عثروا على آثار من العصر الحجري الأعلى في شرق القفقاس، في حوض الدنيبر والدون، وعلى مجرى تشوسوفايا وفي سيبيريا.

تشكل ثقافة القبائل التي كانت تعيش بعيدا عن مناطق الجليد سمات فريدة. في أفريقيا الشمالية ازدهرت حضارة سميت كابسا (الآن غافسا، في تونس)؛ وبخلاف صيادي وقناصي الشمال، كان تجمع كابسا يعيش على القطاف؛ ما كانوا يخشون مهاجمة الوحوش كالأسد والفهد، لكن المكان الرئيسي لاقتصادهم يرجع إلى جمع الرخويات الأكلة، السلاحف، بيض النعام، وغيرها. وشروط اقتصادية مشابهة كانت، يومئذ، في شرق الأبيض المتوسط، في القرم وفي القفقاس.

## تشكل القبيلة

لقد وطد التطور التدريجي لقوى الإنتاج والانتقال إلى الحياة المقيمة التجمع التعاوني البشري، ونجم عن هذا كبح "الفردية الحيوانية". وبارح القطيع البدائي المكان لتنظيم إجتماعي أرقى.

ارتقت البنية القطيعية أساسا في ثلاثة مناحي. بداية، مكن نمو إنتاجية العمل الناس من الحياة في تجمعات أقل عددا، أتت من القطيع لكنها استمرت في إقامة علاقات اقتصادية معه. تعتبر هذه التجمعات متقاربة ويمكن أن تساعد بعضها، بل تتبادل الدعوة إلى حقول الصيد.

ثم، منع التجمع البدائي العلاقات الزوجية الداخلية. يرتبط هذا التدبير المسمى الزواج الخارجي، بشكل متين مع التطور الاقتصادي. ولم يعد الزواج ظاهرة بيولوجية بحتة، بل مؤسسة نظمها المجتمع.

لم يدم الزواج الخارجي سوى حقبة معينة، لأن القطيع البدائي كان تعاونية مغلقة، لا تتصل بغيرها. وصار الزواج الخارجي ممكنا بعدما اعتبرت تجمعات الأمومة والتبني ذات علاقات قريى واستمر أفرادها يتزاوجون فيما بينهم. إذن، عدا المبدأ السلبي: منع الزيجات ضمن التعاونية، أدخل الزواج الخارجي مبدأ إيجابيا: الالتزام بالزواج من أعضاء تعاونية أخرى، لكنها تعاونية معينة. فمن الآن فصاعدا، ارتبط تجمعان متقاربان بعادة الزواج المتبادل: لا يمكن الزواج إلا من تجمع بنوي. سميت هذه العادة التي تنص على الزواج في حدود التعاونية الكبرى الزواج اللحمي.

هكذا تكون في الوقت ذاته قبيلة خارجية الزواج، وعشيرة لحمية الزواج مؤلفة من مشاعيتين متقاربتين. اعتبر انجلز هذا الزواج المزدوج الشكل الأول لمجتمع الزواج الخارجي المبني على القبيلة. ثمة شواهد من مستويات أرقى بكثير: رآها علماء العراقة لدى شعوب معاصرة، مثل التركمان، الايفانك، القرغيز وكراكليك. كانت تجمعات القبيلة خارجية الزواج تتكاثر ببطء.

كان الزواج في هذه المرحلة جماعيا، أي نساء مشاعية ما هن نساء فعليات أو مفترضات لكل رجال مشاعية أخرى من القبيلة. رغم أن هذا النظام لا يلغي الصيغة المؤقتة للزواج المستقر إلى هذا الحد أو ذاك، ليس لأحد حق منع شريكه.

شواهد الزواج الجماعي مستمرة لدى الشعوب التي درسها علماء العراقة، لدى الاستراليين، مثلاً، الذين تنقسم قبيلتهم إلى جماعتين أو أربع جماعات مرتبطة زواجياً؛ وفي روسيا، لوحظت القضية لدى النيجكس (غولياك)؛ وفي نهاية القرن التاسع عشر لاحظ ل. سترنبرغ أن الحكومة القيصريّة نفتهم إلى الشرق الأقصى لنشاطهم في صفوف "منظمة إرادة الشعب".

أخيراً، تتعدّد بنية القطيع البدائي نتيجة ارتفاع التقسيم الطبيعي للعمل. ربما كان تقسيم العمل حسب العمر موجوداً منذ ولادة المجتمع البشري، لكن رجال ونساء آنئذ كانوا يلعبون ذات الدور في الاقتصاد. فقط في نهاية العصر الحجري الأدنى انقسم العمل حسب الجنس: تخصص الرجال بالصيد وتركوا القطاف للنساء والفتيان. يفترض عالم الآثار ب. فمانكو أن الأدوات النياندرتالية تخصّ الجنسين: فكانت الشظايا الحادة سكاكين للرجال، وللنساء المكاشط.

يلحظ علماء العراقة تقسيم العمل حسب الجنس والعمر لدى مختلف الشعوب. هكذا، في استراليا، النساء والفتيان يصيدون ويقطفون عطاءات الطبيعة. بينما الرجال يقنصون. ينتج من هذا فرق معين أكيد بين رجال ونساء القبيلة: يخيمون منعزلين، لا يعدون ذات الطعام، يتكلمون لهجات مختلفة. على هذا، يضع مبدأ تقسيم العمل على رأس القبيلة جماعة من الشيوخ، كنوز الخبرة والتجربة الاجتماعية.

في بداية العصر الحجري الأعلى، فقدت التعاونية البشرية إذن بنيتها الجماعية البكوي: بحسب تطور القوى المنتجة وتقسيم العمل، يترك القطيع مكانه لتنظيم أرقى: الشكل البدائي للمشاعية المبنية على القبيلة.

### تشكل النموذج البيولوجي للإنسان المعاصر

يتميز إنسان العصر الحجري الأعلى جسدياً عن مثيله النياندرتالي. تثبت بنية عموده الفقري المشية بالوضع المنتصب مطلقاً. لا يتجاوز حجم دماغه (١٤٠٠ سم<sup>٣</sup>) أبداً سعة قحف سلالته، لكن شكله بدل الأجزاء الصدغية، الجبهية والجدارية، أي الأجزاء المتعلقة بتطور الكلمة. التي تميز الإنسان كأننا اجتماعياً، كبرت بشكل محسوس. وبالتالي، صارت الجمجمة مستطيلة، تحررت الجبهة، لم تعد أقواس الحاجبين كثيفة. وأخيراً، الفك الأسفل أقل ثقلاً وتشكل الذقن، على أثر تطور اللغة المستخدمة.

لقد حاول العلم التاريخي البورجوازي مرارا أن يثبت أن "الإنسان العاقل" كان قد ظهر منذ الزمن السحيق وأنه "كان يعمر الأرض" مع اليناندرتالي في حقبة واحدة. وهكذا كان المؤرخون البورجوازيون يحاولون بتر الإنسان المعاصر عن أسلافه ويقدمون ظهوره كأعجوبة. إذن، ينحدر "الإنسان الحكيم" **L'HOMME SAGE** "مباشرة من إنسان يناندرتال في نهاية العصر الحجري الأدنى. معروف اليوم أن أعمدة فقرية عديدة لليناندرتاليين تقدم سمات انتقالية كثيرة. اكتشف أحدها في العام ١٩٥٣ العالم الأثري أ. فورموزوف في ستاروسليا، في القرم.

إن عوامل عديدة تعلق تشكل النوع البيولوجي للإنسان الحالي. فكتافة الصيد والنمو المكافيء لنسبة الغذاء اللحمي عززت التطور الجسدي لأسلافنا؛ وتعقيد النشاط المنتج طور وحسن الفكر والكلام؛ والكبح المتدرج للغرائز الحيوانية وتحديد الروابط الجنسية داخل القطيع ساهم أيضا بارتفاع الكائن البشري. وانتهى التطور بظهور "**L'HOMO S. APIEMS**".

إن عددا من النماذج العرقية تمثل إنسان العصر الحجري الأعلى. ففي أوروبا، ثمة النموذج الأوروبي "**EUROPAIOLE**" المسمى أيضا كرو — ماينون (نسبة إلى كهف في الميدي الفرنسي)؛ وجد منه بقايا على الأرض الروسية. كان إنسان كرو — ماينون كبير القامة، عريض الوجه، ناتئ الذقن. وفي إفريقيا (في جنوب الصحراء وفي أوروبا الجنوبية (إيطاليا)، اكتشفت هياكل عظمية بشرية تشابه كثيرا نموذج العرق الزنجي الحالي. سكن زنوج العصر الحجري الأعلى في وقت ما أوروبا الشرقية، منها الحجري الأعلى لنهر الدون. وفي الصين، في المغارة العليا لشو كو تيان، وفي سيبيريا، ليس بعيدا عن كراسنويارسك، اكتشفت رفاة إنسان من النموذج المنغولي.

إن مسألة العروق قضية إيديولوجية وسياسية حادة جدا، فقد سعى علماء رجعيون من العالم الرأسمالي إلى النظرية العرقية محاولين تبرير العدوان على الشعوب الأخرى واستعبادها. ونشروا نظرية مغلفة بغلاف العلم حول وجود عروق عليا وأخرى دنيا. وحاول مؤرخون بورجوازيون "تلقيحها" بمفاهيم خاطئة. يدعي البعض أن الأعراق وجدت في كل الأزمنة، وأن أوروبا مسكونة أبدا بإنسان النموذج الراهن. بينما الزنوج وأعراق أخرى "أدنى" انحدرت من أنواع أقل رقيًا: ابن جاوا، ابن بكين واليناندرتالي. وهكذا نرى ضرورة وضع النقاط على الحروف.

لقد قرر العلماء المتقدمون أن العروق البشرية الثلاثة الكبرى (زنجي، أروبي، منغولي) لا تتميز عن بعضها إلا بالمظهر الخارجي، الثانوي (لون الجلد، شكل العينين، والشعر، وسواها). لكن حجم القحف، هيكل اليدين، الكفاءات الذهنية والجسدية متشابهة. فلا فوقية أو غلبة لعرق على آخر.

لقد كشف علماء الطبيعة أن الأعراق لا تشكل استمرارا للارتقاء التاريخي. الفيناندرتاليون المنتشرون في أمصار عديدة من العالم القديم يتشابهون فيما بينهم أكثر من تشابه الأعراق المتشكلة أخيرا في هذه المناطق. وبالتالي، لم تعرف النماذج العرقية إلا منذ العصر الحجري الأعلى.

كيف يعلل تشكل الأعراق؟ منذ نهاية العصر الحجري الأول، لمست فوارق في الثقافة المادية في بعض الأقاليم، تابعة من تغرد الشروط الطبيعية وبخاصة المادة المتوفرة لصنع الأدوات. وتنامت هذه الفوارق في العصر الحجري الأعلى، والنظام الاقتصادي التعاوني. ينكر عالم الآثار الروسي، س. زمياتنين تميز ثلاث مناطق كبرى. خلال هذا الزمن، بسمات نوعية في ثقافتها المادية: المناطق الأفرو-أوسطية، الأروبية غير الجبلية والصينية-السيبيرية. لسبب أو آخر، كانت معزولة في بداية العصر الحجري الأعلى؛ الأمر الذي حدد الفوارق الثقافية. فقد أثار انعزالها بالضرورة تكديسا تدريجيا لتمايزات خارجية، ثانوية، مرتبطة إلى حد ما بالشروط الطبيعية لهذه المنطقة أو تلك.

هكذا، يتلاءم تشكل النوع البيولوجي للإنسان المعاصر مع ولادة التجمع المبني على القبيلة، الذي بلغ أوجه في الحقب الأثرية التالية.

## الفصل الثالث

### أوج النظام المشاعي البدائي

#### الخصائص الأساسية لتجمع الأمومة

كانت قمة المجتمع البدائي، الشكل الاجتماعي الأساسي، هي التجمع المبني على العشيرة أي التعاونية المتحدة بمصالح اقتصادية وروحية، ذات الأصل الواحد وروابط القرني. ولما كان الزواج من الخارج هو القانون الأساسي، فلن يتيسر للعشيرة الوجود إلا بالاتصال بالعشائر الأخرى من ذات القبيلة.

التجمع البدائي العشائري، الذي ولد في ذلك النظام الأمومي الجماعي، لن يكسب إلا أموميا، أي مبنيا على وشائج القرني لجهة الأم. هذا يعني، في الزواج الجماعي، أي قيام رابطة أمومة بين عدة نساء لعدد من الرجال، عدم إمكانية قيام رابطة أبوية: الابن يعرف أمه، لكنه لا يعرف أباه، فالأبوان ينتسبان بالضرورة إلى عدة عشائر، والابن جزء من عشيرة الأم دوما.

إن عشيرة الأم هي نقطة الانطلاق في التجمع العشائري وبالتالي، هي حقبة أساسية في ارتقاء المجتمع البشري. في ظل الأمومة، المرأة تساوي الرجل في الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

يجهد مؤرخون بورجوازيون لنفي هذه الفكرة التي يتبناها انجلز. هكذا، ابتغى عالم العراقة الألماني هـ. شورتز التذليل أن الرجل كان دوما رأس الأسرة، "حامل المبدأ النشط، الخالق"، وليست الأمومة إلا شذوذا. إن هذه المزاعم التي تهدف البرهنة على أبدية دور المرأة تابعا أو مرووسا، تناقض الواقع. نحضها الأدب السوفيياتي في "الأمومة" بقلم م. كوسفن. وذكر علماء العراقة السوفييات أ. أنسموف، أ. زولاتريف وآخرون شواهد أمومة لدى مختلف شعوب شمال آسيا (إيفانكس، أولتش، وسواها). إن العلم البورجوازي يعتبر ممثلا كلاسيكيا للعلاقات الأبوية.



يبدأ أوج نظام العشائر مع العصر الحجري الوسيط ويستمر إلى العصر الحجري الجديد.

### تطور القوى المنتجة في العصر الحجري الوسيط والعصر الحجري الجديد الأدنى

منذ بداية العصر الحجري الأعلى، يتراجع الجليد، وتغطي مساحات واسعة من أوروبا وآسيا، الصحراوية والسهبية حتى آنئذ، بغابات كثيفة. وتباد القطعان العشبية الضخمة، التي كانت ضحايا صيادي العصر الحجري الأعلى، أو تهاجر نحو الشمال. وفي نهاية العصر الجليدي (حوالي اثني عشر ألف سنة قبل الميلاد) وتوسع الغابات، ألغيت الشروط المألوفة لإثارة الطرائد: اقتصر الإنسان على صيد الطرائد الصغيرة والأنعام غير الجماعية، كالأيل. جعلت هذه الشروط (القاسية) الحياة المستقرة التي اختيرت في أيام صيد الماموت الوفير، مستحيلة. فاضطر الإنسان من جديد العودة إلى الترحال بحثاً عن الغذاء.

تطلب هذا الوضع في المقام الأول تحسين وسائل الصيد: لذا انتشر القوس والنشاب منذ العصر الحجري الأعلى عند إنسان كايسا والقبائل القريبة منها، وبخاصة في العصر الحجري الوسيط (من الألف الثاني عشر حتى الألف السادس قبل الميلاد، طاردا الخطاف. فالسهم سلاح أكثر إتقاناً من الرمح القصير أو المزارق. وهو عند الرمي أقدر على إصابة الهدف وعند الفشل، يمكن في الحال إطلاق قوس آخر. ويؤمن القوس والنشاب صيد الطيور.

تضم محطات العصر الحجري الأوسط عددا ضخما من الأدوات المصنوعة الصخور البركانية الثلاثية، بشكل شبه منحرف أو بشكل الهلال، بيد خشبية أو قرن، وتساهم بخاصة بترويس السهم. كشف الكثير من محطات العصر الحجري الأوسط في القرم. وعلى نهر الدونetz وغيرها.

في هذه الحقبة أتى الصياد بموازر هام هو الكلب. تعود أقدم عظام الكلب الأليف التي عثر عليها، إلى العصر الحجري الأعلى (أفونتوفا غورا، قرب كراسنويارسك)؛ وتصادف كثيرا عظام الكلب في محطات العصر الحجري الأوسط، في القرم؛ كان هذا أول حيوان دجنه الإنسان وآلفه.

ولقد أكره تراجع توفر الصيد الإنسان على البحث عن مصادر غذاء جديدة. وسيكون القطف أغناها: جمعت الرخويات القابلة للأكل، الثمار، الجوز، عسل النمل البري، وسواها. لدى قبائل الساحل، كان جني الرخويات النشاط الاقتصادي الرئيسي، كما تشهد الأكوام الضخمة من الأصداف المكتشفة في أمكنة عديدة وسميت "قنات المطبخ".

مع بدء العصر الحجري الأدنى (حوالي الألف الخامس قبل الميلاد) يأخذ القنص أهمية كبرى. يقيم الصيادون والقناصون على شواطئ البحار وضيفاف الأنهر، في جزر البحيرات، ويبنون غالبا مساكنهم على الأعمدة، قرب الشطآن. في هذه الحقبة. أتقن الناس عمل الخشب. بالبلطات والمطارق الضخمة يصنعون الطوافات، القوارب، والمساكن الخشبية. ومن العصر الحجري الأدنى جمعت بقايا بيوت ومراكب في روسيا البيضاء، استونيا، على مجاري الفولغا العليا وسواها.

حسب تراجع الجليديات، يعمر الصيادون والقناصون أقاليم جديدة: في العصر الحجري الوسيط سكنت استراليا وأمريكا، ومضيق بهرينغ؛ وفي تقدمهم نحو الشمال، وصل الناس إلى شواطئ المحيط المتجمد الشمالي قرب مورمانسك.

إن معطيات علم العراقة تخولنا الحديث بصورة أصبح عن المجتمع البدائي خلال العصر الحجري الأوسط والعصر الحجري الجديد الأدنى، لأن بعض التجمعات البشرية التي درست حفظت لنا بعض آثاره. لا شك أنهم ساروا دريا طويلة تاريخية صعبة؛ فعلاقاتهم الاجتماعية وأيديولوجيتهم تختلف بوضوح عن الأشكال البدائية للمجتمع والأيديولوجيا التي تكونت في أوج عصر الأمومة. لكنهم في الشروط الطبيعية القاسية، مارسوا تقنية واقتصادا قديما. لا بل عادوا أحيانا إلى أدوات العصر الحجري القديم.

إلى الجماعات الأثنية الأكثر تخلفا ينتسب التسمانيون، الذين أبادهم المستعمرون الانكليز في ١٨٨٠، وسكان أستراليا الأصليون، والفوجيون، وشيوجنوب أفريقيا وقبائل أخرى. كانوا يتغذون من الصيد والقطف، وبعضهم يهتم بالقنص، وكانوا يعيشون جماعات صغيرة وعشائر ألفتها الشروط القاسية. الأستراليون خير من يمثل هذه الأقاخذ.

كانوا يستخدمون في الصيد الهراوة المقذوفة والنصال الحادة التي طرقتها الحداد، ولرمي السهام كانوا يستخدمون أداة خاصة تقوي الضربة وتزيد مداها، كما استعملوا البلطة الحجرية.

عدا الصيد، كانوا يجمعون بيض اللقلق، الحلزون، الضفادع، والجذور، واستنادا إلى أحد علماء الأعراق، كانوا يعرفون قرابة ثلاثمائة نوع من النباتات القابلة للأكل. كان تقسيم العمل يخضع لمبدأ العمر والجنس: الرجال يصطادون، والنساء والأبناء، مسلحين بالعصي، يبحثون عن الغذاء في التربة. و كان الصيد والقنص يتمان جماعة. كانت شروط القارة الأسترالية الطبيعية القاسية تكره السكان على الترحال المستمر بحثا عن الماء و الغذاء، ولاتقاء البرد كانوا ينصبون أكواخا أو أخصاصا بسيطة، فضلا عن قدرتهم على بناء نوع من البيوت المتينة بأغصان و قشور الأوكالبتوس<sup>١</sup>. وثيابهم البسيطة جدا، تنحصر أحيانا بأنواع من النبات الكثيف المربوط عند البطن. كان الأستراليون يعيشون أسرا من أربعين فردا يتقفلون على "أرض غذائية" محددة، محرمة على "الغير". وعلى رأس الأسرة الشيوخ.

### العصر الحجري الأعلى

يتميز هذا العصر بتقنية جديدة لعمل الحجر: الصقل، الثقب، والنشر. يتم الصقل على شرائح من البلاط المصنوع من الصلصال المبلل. ويتم الثقب بواسطة حجر صوان أو أنابيب من سيقان الخيزران المقاوم، أو العظام المجوفة، تبرم باليد أولا، ثم بواسطة حبال مقوسة؛ على الخشب المروس يصب الرمل الرطب. أن صقل وثقب الصخر الصلب تطور طويل جدا: فصنع بلطة جيدة، بهذه الطريقة، يدوم عدة سنين.

استمرت غالبية قبائل العصر الحجري الأعلى بالحياة على الصيد، القنص والجمع. ففي شمال القسم الأوربي من الاتحاد السوفياتي، كانوا ينكبون بخاصة على صيد وقنص الطيور المائية. كانت المحطات الحجرية في هذه المنطقة تجاور الماء بشكل عام: كان الناس يسكنون كهوفا محفورة في الأرض أو بيوتا مرفوعة على أوتاد، على ضفاف البحيرات. وكان صيد الطرائد الضخمة (كالأيائل، وسواها) يلعب دورا اقتصاديا هاما.

وكان الاقتصاد المؤسس على الصيد والقنص، في العصر الحجري الأعلى، معروفا في مناطق أخرى من الاتحاد السوفياتي: على شطآن بحر آزوف، حول بحيرة بايكال، في آسيا الصغرى. وعلى شواطئ أمر-داريا، اكتشف العالم السوفياتي س-تولستوف آثار

<sup>١</sup> - شجر حراجي يزرع في المناطق الحارة - المترجم.

ثقافة مبنية على الصيد والقنص، سميت حضارة كلتمينار (من نهاية القرن الرابع حتى بداية القرن الثالث الألفي قبل الميلاد).

إن مناطق عديدة من الكرة الأرضية سكنتها قبائل مائتزال ثقافتها تحافظ على خصيصة العصر الحجري الجديد. هكذا، في نهاية القرن السابع عشر، صادف الرحالة القوزاقي ف. أتلانوف في كاماشانكا الاينلمن الذين وصف نظامهم وبدقة المستكشف الشهير س. كراشنيكوف. كانت قبائل الاينلمن قد صنعت الباطات الحجرية، انشغلت بالصيد، بالقنص وبالانتقاط. ولقد دجنوا وربوا أعدادا ضخمة من كلاب الجر وعاشوا حياة مستقرة وثابتة في مخيمات محصنة.

توفر لنا مواد علم العراقة فكرة تامة عن الصيد، والقنص والانتقاط لدى القبائل البدائية. كان الصيد يتطلب جهودا شاقة، ومهارة ودما باردا: يبقى الصياد فترة طويلة يتربص ويكمن للطريدة لمسافة واسعة. ابتكر الصيادون العديد من أنواع الشرك: فخ مطمور بالتراب، أي أجهزة يكفي أن تلمس لكي ينطلق الثبوت إلى الحيوان ويرمي به أرضا؛ المقلاع والشباك للطيور والأيائل. كانوا مهرة بالتقرب من الطريدة، مقنعين بجلد الدواب، فيشدونها بتقليد صوتها. ومن أهم نجاحات صيادي الشمال هو ابتكار التزلج الذي يخولهم مطاردة الحيوان عبر حقول الثلج.

ومن أجل صيد السمك، كانوا يقيمون السدود على الأنهار، والشباك والصنارات (المعروفة منذ العصر الحجري الوسيط)؛ ويأسرون السمك بالقفف، والرماح القصيرة والخطاطيف.

ولقد أفضى تحسين القطاف إلى تشكل القبائل التي يسميها ج. ليبس "القاطنون". ومنذ نهاية العصر الحجري الوسيط، سكن الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط شعب ينتسب للحضارة المسماة "ثاتوفيين" (الألف الرابع قبل الميلاد)، شعب حصد سنابل الحبوب البرية؛ ولقد تكاثرت هذه القبائل في العصر الحجري الحديث.

يطلعنا علم العراقة بوضوح على أخلاق "القاطنين" الذين حصدوا بانتظام الرز البري والتقطوا ثمار الصنوبر والسنديان. وفي أيام نضج البلوط، كان هنود كاليفورنيا يرتحلون جميعا (كل القرية) إلى غابات السنديان، يسقط الرجال الثمار ضربا بالعصي، تحمله النسوة بالسال، ينزعن قشرته، يجففنه ليصنعن منه مؤونة يحفظ في خصائص مبنية على الشجر

أو الأوتاد، يعد الخبز ومشققاته من البلوط المسحوق. كان القاطفون يعرفون طرقا عديدة لحفظ الحبوب؛ بخاصة التخمير. لكن القنص يبقى المصدر الأهم للغذاء.

ومن جهة أخرى، يتسم العصر الحجري الأعلى بالزراعة والتدجين البدائيين. لقد صاغ عالم الجغرافيا والعراقة الألماني ي. هاهن نظرية مثالية في ظهور الزراعة والتدجين، هادفا لتعليل هذا التقدم بالأفكار الدينية. يرى أن التدجين نجم من عبادة الحيوانات، وبدأ بتأهيل الحيوان المقدس. أما الزراعة، فقد ولدت من عبادة الأرض - الأم، واشتق الحرث من نحلة تقديس خصوبة التربة.

لكننا لسنا بحاجة للجوء إلى النحل والطوائف لفهم كيف ترك "الحصاد البري" المكان تدريجيا للزراعة البدائية، ولتسمية النباتات؛ فبالإنتقاء الاصطناعي، التهجين وخلق الشروط المناسبة (تعمير الأرض، الري، الإصلاح والتحسين)، عدل الناس الأنواع شيئا فشيئا وحسنوها. بداية، كان الحراث يحرثون بالعصا المروسة المستخدمة في اللقط؛ ثم ابتكرت المجرفة. وخلق القاطفون أيضا سكين الحصاد وجرن الحبوب.

كانوا يبذرون غالبا الأراضي السبخية، الغنية بالطمي والمغمورة بالفيضانات. وكانت الأرض الخصبة، المشربة بالماء، تمنهم بمحاصيل وفيرة. لذا كانوا يعتدون على الغابات. كان العمل هنا قاسيا؛ يمكن قطع العليق والأغصان بالبلطة الحجرية، لكن قص الأشجار الضخمة مستحيل؛ كانوا يعرونها من قشورها والجذوع تشخص هنا وهنا في الحقول. ثم يحرقون الخشب اليابس ويذرون الرماد كسماد. وبعد أعوام، عند استنفاد التربة، يستصلحون قطعا آخر. كان هذا يسمى زراعة الفرج<sup>1</sup>.

أصول التدجين غير واضحة. على كل حال، يفترض أسلوب حياة مستقرة، ظهر بوضوح لدى القاطفين. بداية، كانت الحيوانات المقنوسة تشكل مصدرا هاما للغذاء: تررب في الأحواش، حيث يتدجن هذا أو ذلك فجأة. ولقد مضى زمن طويل قبل أن ينجح الناس في جعلها تتكاثر عندهم. مع ذلك، لم يكن التدجين أبدا ذا قيمة اقتصادية. فالتدجين الفعلي بدأ مع بدء تأهيل الأنعام، وخلق عروق جديدة، أليفة. فكانت هذه النقطة، الناجمة عن نشاط الإنسان الواعي بطيئة جدا.

<sup>1</sup> - يمكن زراعة السهول. حيث لا أشجار.

لقد اطلعت المرأة بالزراعة البدائية المتولدة من عملية القطاف، أما التدجين، المشتق من القنص، كان أساسا مهمة الرجل. وهكذا، حرص تطور هذين المنهلين الاقتصاديين على تقسيم العمل حسب الجنس.

كان التدجين والزراعة في البداية جنينيين. ارتقاوهما وانتشارهما في الاقتصاد لا يلحظان إلا نادرا في العصر الحجري الحديث: أيا كان الأمر، إنها بداية مرحلة جديدة تاريخية.

يدعي أنصار نظرية "الحلقات الثقافية"، مثلا، الأثني الألماني أو ما نجن، أن الزراعة والتدجين تشكلا في نفس المكان، ومنه انتشرا إلى أقاليم أخرى. بينما بدأ العمل في الأرض وتأهيل الحيوان في بقاع مختلفة في العالم القديم والجديد.

تقع المواطن الأولى للزراعة والتدجين في الشمال الشرقي من أفريقيا، وفي غرب إيران وفي وادي الهندوس. تشهد آثار العصر الحجري الأعلى في وادي النيل، التي تعود إلى الألف الخامس قبل الميلاد، أن الشعب المقيم في شمال شرق أفريقيا كان يربي الخراف، البقر والخنازير، ويبنى القمح والشعير. لكن الصيد والقنص استمرا طويلا في لعب دور هام.

كانت أقدم آثار الزراعة والتدجين قد اكتشفت في تركمانيا، في طبقات هضبة أنو (في الألف الرابع قبل الميلاد)، حيث عثر على عظام بقرة، خنزير وخروف، وبقايا قمح وشعير. وعند تخوم الألفين الرابع والثالث، ظهرت الزراعة في شرق القفقاس وفي الأورال: يشهد الكثير من المعاول المصنوعة من العظم والقرون في محطة العصر الحجري الجديد للـ"سهم" (قرب نجني - تاغي، في الأورال) أن الزراعة وجدت هناك في زمن بعيد. مما قبل التاريخ.

ففي القرن الثالث قبل الميلاد، كانت بعض قبائل اربوا تبذر القمح، الشعير، السنرة البيضاء، العدس، الحمص، الجزر، وبدون ريب التفاح. وكانت شعوب الشرق الأدنى تعرف آنئذ كثيرا من النباتات البقلية والمثمرة: البلح، الزيتون، الكرمة، التين، اليقطين، البصل، الثوم، الخس والسهم.

أول الحيوانات الأليفة المنتشرة في منطقة الغابات هي الخنزير والبقرة؛ ولقد تأخر تدجين الخروف.

وشعوب قديمة من أمريكا والمحيط مارسوا طويلا الحرث البدائي للأرض، قبل أن يتقنوا على تربية الحيوان، لقلة الحيوانات القابلة للتأهيل وأسباب أخرى طبيعية غير مناسبة. هكذا، البابوس في غينيا الجديدة الذين درسهم العالم الشهير ميكلوكو - ماكلي، كانوا أرقى من الأيتمن، لأنهم زرعوا البقول. ووجدت بذور الزراعة لدى العديد من قبائل الصيادين في البرازيل: أما بعض قبائل الهنود في شمال أمريكا، فقد عرفوا الفاصوليا، الذرة، اليقطين، والتبغ.

### أدوات وسلاح قمة نظام العشائر

تطلعنا معطيات علم الآثار والعراقة على بعض نقاط المجتمع البشري في أوج نظام العشائر. إنسان تلك الحقبة أرقى بوضوح من أسلافه المتحجرين، الذين اقتصر أداتهم على سلاح صواني بدون تسوية. لكن تجربة وخبرة الأجيال أفضت إلى خلق أدوات متنوعة ومعقدة.

إن أدوات وأسلحة كانت قد صنعت من صخور مختلفة، بخاصة من الصوان، العظم القرون، الخشب، القواقع، الأوتار والجلد وسواها. ففي الصيد، تستخدم كل الوسائل. كان للمزراق والرمح رؤوس حجرية وعظمية، مصنوعة بعناية ومهارة؛ ولزيادة قوة الضربة ومداه، كانوا يستخدمون شظيرة قذف تشبه الشظيرة الاسترالية. كان الابتكار الأهم هو البوميران، المعروف لدى الاستراليين وبعض شعوب الهنود وأمريكا الشمالية: إنه قطعة خشب مقوسة تطير وهي تدور وتضرب الطريدة فجأة؛ ومنها ما يعود إلى قدمي الصياد إذا أخطأت الضربة.

القوس والنشاب هما السلاح الأكثر انتشارا في ذلك العصر. ثمة أقواس خشبية بسيطة ذات قبضة، وأخرى مؤلفة من نصل خشبي، من قرن وعظم. أبعادها متباينة جدا، تبلغ أحيانا قمة الإنسان. يصنع الحبل من القنب أو الألياف النباتية؛ والسهم مصنوعة عادة من الخشب أو الخيزران، مع ترويسة حجرية أو عظمية وريشة تنظم التحليق. كانت أساليب القذف متباينة جدا. للتسديد على طير، مثلا. ينام بعض الصيادين على ظهورهم، القوس مضغوط بين الساقين، ويمدون الحبل باليدين. كثير من القبائل يسمم أسهمه، ويستعمل هنود شمال أمريكا أسهما مشتعلة.

لم يكن ثمة فرق كبير بين أسلحة الصيد والمركة؛ كانت فؤوس الهنود الحمر

مستخدمة كبلطات بيتية. وكان السلاح الدفاعي يلعب مع ذلك دورا نوعيا قاتاليا: كالدرع ذي الأشكال والأبعاد المتباينة جدا، المصنوع من الخشب، والأكمام المجدولة من الجلد، وسعف النخيل، والخيزران، وسواها.

لم تكن الأدوات الزراعية أقل تنوعا. كانت التربة تتكش بمنكاش يقتصر على عصا بسيطة معقدة ومصنوع في حالات أخرى من نصل حجري أو من قرن الأيل ومن نراع خشبي. وللحصاد، تؤخذ السكاكين والمناجل الحجرية أو الغضارية، تتركب عليها صفيحة قاطعة، يضرب القمح بالعصي، ولطحن الحبوب يستخدمون الأجران، حجارة واسعة عالية الحواف أحيانا، وأيدي الأجران البيضوية.

كان إنسان العصر الحجري الحديث يصنع أدوات نوعية، صقيلة دوما أو تكاد: أزامل، بلطات، سكاكين، صحنون وغيرها. تتكيف البلطة الصقيلة مع ذراع مكوع يضغط نوعا من الحجر؛ ثم يثبت بالأحزمة والقطران. وتركب البلطة المنقوبة على ذراع مستقيم. لقد عزز ظهور هذه الأدوات التي مكنت الإنسان من قطع الأشجار الضخمة، عزز ارتفاع المسكن وصقل فن العمل بالخشب.

ولصناعة النسيج، ابتكر مغزل جهاز طرفه الأدنى بمعزل حجري أو غضاري؛ ظهرت مهنة النسيج، كما تثبت لدى العصر الحجري الجديد في وادي النيل؛ كانت الألبسة تخاطم بإبر عظيمة.

في أثناء الهجرات، كان الناس يحملون متاعهم؛ كانت وسيلة النقل الأبسط عربية تجرها الكلاب، تحمل الخيمة وأوعية المنزل الصلبة. ومنذ الألف الرابع قبل الميلاد، استعمل الحمار كدابة، ولركوب متن. الأنهار والبحيرات، صنعت، منذ العصر الحجري الوسيط، فلوكات من جذوع الأشجار المحفورة أو من الخشب والقشور.

### المسكن، الأثاث، الألبسة

بقيت المغارة المحفورة في الأرض، المستخدمة في العصر الحجري القديم، الشكل الرئيسي للسكن في الإقليم المعتدل في العصر الحجري الحديث.

فضلا عن هذا، كانت الخيمة القائمة على أعمدة مغطاة بالجلود، بلحاء الشجر، وفي المناطق الاستوائية، بسعف النخيل. ثم ظهر البيت المستطيل أو البيضاوي، بجدران وسقف. كان سكان المناطق المعتدلة في أوروبا يبنون بيوتهم بعمامة بالعصي الضخمة؛



أحيانا كانت الجدران من حصر الصنصاف المطلية بمزيج من الغضار والروث. وكانوا يغطون البيوت بالقش، بالخيزران، بلحاء الشجر وبتلع الأعشاب؛ وكان السقف مائلا تسهلا لانسياب ماء المطر. وفي شبه جزيرة البلقان تبنى البيوت بالأجر؛ وفي جزيرة كريت، من الحجارة الكلسية؛ هنا، كان السطح منبسطا، مخصص لجمع ماء المطر وليس لتسريبه. وكانت أرض البيت مغطاة بقشر السندر أو حصير القصب.

كانوا يرفعون البيوت على أعمدة خشبية، غالبا في المناطق المستنقعية، وعلى البحيرات، وفي الأمكنة الجافة، ليتقوا الوحوش والعداء. تثبت على الأعمدة شرائح خشبية وفوقها يقوم العرزال. كشف التنقيب في سويسرا عن آثار هذه الأكواخ، التي صنعها السكان بأدوات العصر الحجري الحديث، العائشين على الزراعة وتربية المواشي والطيور.

لم تكن المساكن الأولى مجهزة بأبواب أو نوافذ: حصيرة بسيطة تسد المدخل. أما في أثناء العصر الحجري الحديث، جهزت قبائل الشرق - الأدنى بيوتها بأبواب تدور في أجران حجرية. وإن كان الموقد في الداخل، يفتحون ثغرة لتهديب الدخان. يستضيئون بفتيلة تسبح في كوب مليء بالشحم أو المشاعل.

ينام الناس على الأرض، على طبقة من الأغصان، من الجلد والحصير، أو في أراجيح. والوسادة تكاة خشبية. لم تعرف مناطق الشمال السرير إلا في العصر الحجري الحديث. وكانوا يقدون على الحصر أو الجلود؛ وتعود المقاعد إلى زمن أبعد. كانت أنية المائدة من الجلد، من الخشب، من الأغصان المحفورة أو من القشور؛ وجذع الخيزران المحفور والكرنيب يستخدم كوعاء أو أنية. لكن ابتكار صناعة الخزف أو الفخار مكن الناس من طهي الغذاء بشكل منهجي، الأمر الذي أغنى إلى مدى بعيد انتقاء الأغذية وجعلها أكثر قابلية للهضم. وأقدم طريقة لصناعة الفخار تكمن في الحصول على خليط من الفخار والرمل، لصنع مكاء نابضية تتضد بشكل حلقي أو حلزوني. وهذه الأواني تشوى بالنار. وكان عندهم قدور مدببة أو دائرية.

كانت النساء تمارس هذا الفن: ولدى بعض الشعوب، كان محرما على الرجال الاقتراب من أمكنة صناعة الأواني حيث تزين النسوة أوعيتهم بصمت مطلق. فأفضت صناعة الفخار إذن إلى تقسيم العمل حسب الجنس.

يثبت ظهور الأوعية الغضارية أسلوب حياة أكثر استقراراً، إذ يستحيل نقل هذه الأوعية الثقيلة وسريعة العطب مراراً متتالية.

وتستخدم الألبسة لوقاية الجسم من البرد والهواطل (المطر والثلج وسواء). أشكالها الأقدم هي الصدر، القبعة، المريلة والتتورة، لكن هذا لم يكن متوفراً لدى كل الشعوب. مثلاً، يقتصر لباس الغوجيين على مريلة ومربع جلدي مرمي على الكتفين. وبعد هذا \_ وفي بعض الأمكنة فقط \_ ظهرت الأكمام والسرراويل. السترة والسرراويل هي أيضاً من أصل أحدث. والمادة الأولية المتنوعة لصنع الثوب، ترتبط بشروط طبيعية: الجلد، أوراق الشجر ولحاءه، والأسل؛ وبعد ابتكار الغزل والنسيج، صنعوا ثياباً من الصوف وأنسجة من ألياف النبات: كالقراص، الكتان، القنب والقطن.

استخدام الحذاء، الذي تخلف عن اللباس، تحدد في بعض الأمصار، وقد صنع من الجلد والفرو، وأحياناً من الخشب والتيل.

### تنظيم الإنتاج

في أوج النظام العشائري، كان الشكل الأساسي للإنتاج هو التعاون البسيط، العمل المشترك من كل عناصر العشيرة. غارات الصيد، والصيد بالشبك، ولقطف المنظم \_ ما كان يمكن تحقيق كل هذه الأشكال من العمل إلا تعاونياً.

لم يلغ تطور الزراعة البدائية الصفة التعاونية للعمل، بل رسخه: لأن صعوبات حراث التربة بأدوات بدائية صلبة (بلطة من حجر لإصلاح الأرض. منكاش من خشب أو عصي بسيطة لتسوية التربة وتمهيدها) كانت تفرض وحدة الجهود.

عاش العمل التعاوني في الأرض مع كل الشعوب التي مارست الزراعة؛ بابوغيانيا \_ الجديدة بدأوا بتسوية التربة بالعصى المدببة؛ وخلف صفوف الرجال المكلفين بهذا العمل، تأتي النساء المسلحات بمعزقة بدائية، ثم الأبناء الذين يفتنون الكدر بأيديهم ويرفعون الحصى. وكل العمل اللاحق (البذر، العزق، التسييج، الحماية من الطفيليات، الطيور والقواضم، والجني) تقع على كاهل النسوة فالعمل إذن مشترك وتعاوني.

العمل الجماعي يفترض الملكية الجماعية. ترى العشيرة حقل صيدها ملكية مشتركة وتصد بحزم دخول الغرباء والطفيليين إليه. للعشيرة (أو جزء منها) المساكن وأحياناً حتى بعض الأدوات (المراكب الكبيرة، وشباك الصيد)؛ بداية، كانت الدواب ملكية جماعية، هي

الأخرى. أخيراً، تثبت المخلفات الأثنية أن بعض التجمعات الشعبية (مثلاً، النيفيك والاييفيك) كانوا يعتبرون النار ملكية جماعية و لا يتركونها إلا للأقرباء.

بينما كانت غالبية الأدوات ملكية شخصية. القوس والسهام، المناكيش، البلطات، الخ. تخص من استعملها وصنعها. وكذلك الحلي ووسائل الزينة. وانتقل هذا بسرعة إلى المواشي. غير أن الملكية الشخصية لوسائل العمل، كالأنعام والحلي كانت خاضعة للملكية الجماعية لوسيلة الإنتاج الأساسية: الأرض، وانتقال الأشياء الشخصية لم يتم بإرادة صاحبها: التركة تبقى بشكل عام في العشيرة؛ وعلى من يذبح خنزيره أن يوزع اللحم للأهل؛ ليس لأحد أن يكتنز، لأن الرأي العام يريد أن تقسم الفضلة بين أعضاء العشيرة.

التدبير المنزلي كان أيضاً ذا طبيعة مشتركة. كانوا يسكنون في بيوت تتسع حتى لمئات الناس. الشكل الأولي للمسكن الضخم تمثله مساكن حضارة كلتمنار في المجرى الأسفل لنهر آمو \_ داريا، التي أعاد تشكيلها س. تولستوف؛ كان بيتاً واسعاً بمخطط دائري، في وسطه تنفذ النار باستمرار. تبني الأسر فيها مطبخها قرب مواقد مقامة حوله وهنا يبيتون.

في تلك الحقبة، كانت قبائل العصر الحجري الحديث في أوروبا الوسطى، الذين يعملون في الأرض بالمنكاش في المناطق الغابية للدانوب والرين، تبني بيوتاً واسعة (حتى ٣٥م طولاً) بجدران من حصر الصفصاف قامت على أعمدة. وتدرجياً، في أثناء الألف الثالث قبل الميلاد، تقلصت أبعاد المسكن، وفي نهاية العصر الحجري الحديث عم الكوخ الصغير المصنوع من الأغصان.

يطلعنا علم العراقة على تربية وأخلاق سكان "البيوت الضخمة". يقص مورغن أن الإروكو كانوا يعيشون جماعات كبيرة العدد في بيوت شاسعة مصنوعة بالأعمدة، مخصصة لخمس حتى عشرين أسرة. لكل أسرة حيز يشرف على الرواق العنام حيث أقيمت المواقد. الجماعة الكبرى تدبر بيتها شراكة: كل ثمار الصيد والقنص والزراعة تحت تصرف التعاونية. لكنه لاحظ لدى الإروكو بداية فردانية الإنتاج، فالصيد بالقوس خول الإنسان أن يجني غذاءه بشخصه وحده. كانت ثقافة عهد الفخار فردية جزئياً، وما تزال توزع الأنصبة بين الأسر. إنما ما تزال القبيلة تحافظ على حقوقها في ملكية الأرض. لكل شاب هندي يتزوج، قطعة من الأرض لا يجوز له التصرف بها، مقطوعة من الأرض المشتركة.

هكذا إذن، في أوج نظام العشير، كان يهيمن الإنتاج والإدارة التعاونيان؛ لكن مع تطور القوى المنتجة يتفرد الإنتاج، الأمر الذي أفضى إلى انزوال الأسر. تشهد على هذا الأكواخ الصغيرة لأبناء الدانوب في العصر الحجري الأعلى. ومع ذلك، بقيت وسائل الإنتاج الأساسية بيد العشير.

اقتسام العمل حسب الجنس، الذي يعود إلى العصر الحجري الأدنى، تدعم أكثر فأكثر مع تطور أشكال الاقتصاد الجديدة. فالصيد والتجدين المشتقان منه هما مهمة الرجل، بينما تضطلع المرأة بالقطف والجمع، بحرث التربة وتتفرغ للشؤون الإدارية والتدبيرية، بما فيها صنع الفخار. ينجم من هذا روابط ذكرية وأنثوية متميزة، لها محالها وأعيادها وطقوسها الخاصة.

### العشير الأمومي

كانت الوحدة الأساسية للمجتمع هي العشير الأمومي. أعطت الزراعة والفخار أهمية واسعة للدور الاقتصادي للمرأة، وفي أوج نظام العشير، شغلت المرأة أحياناً موقعاً أوسع من موقع الرجل.

وكما دل مورغان، كانت عادات الإروكوا تمثل سمات الأمومة بوضوح؛ فبعد الزواج، ينتقل الزوج إلى عشير زوجته ويقوم في "بيتها" الواسع. وإن لم يستطع تأمين غذائه يمكن طرده، حتى ولو كان والد أسرة عديدة الأبناء، إلا إذا ناصرتة خالة أو جد متنفذ. وأبناء الإروكوا ينتسبون إلى عشير الأم.

في أوج النظام العشيري، تدعمت الأسرة، دون أن تصبح مع ذلك الخلية القائدة في المجتمع. وبسبب الزواج الخارجي، كان الأزواج ينتسبون إلى عشائر عديدة، وبعد تفكك العائلة كانت أرزاقها توزع بين التعاونيتين. لم يكن للأسرة بشكل عام حقل مغذي: تبقى الأرزاق منفصلة؛ كان الزوج غالباً مرتبطاً بمصالح اقتصادية بأعضاء عشيره ويشترك بنشاطهم الإنتاجي. تؤخذ الأسرة إذن من اتحاد زواجي غير مستقر، مؤقت؛ يعقد الزواج دون صيغ وطقوس متميزة، وينفسخ بسهولة بطلب أحد الزوجين. وكانت تستمر بقايا الزواج الجماعي بشكل زنا مشروع، زواج السلف (إلزام الأرملة على الزواج من أخ المتوفى) أو زواج من الأخت الصغرى (حق ممنوع للرجل أن يتزوج شقيقة زوجته، بعد موتها).

كان أبناء العشير يقطنون سوياً أو يشكلون عدة بيوت أو أسر، تسمى "أسر كبيرة أمومية: وكان لهم حقوق محدودة. للرجل والمرأة حق الانتخاب، وحسب الحاجة، يخلعون رئيسهم والقائد العسكري المسمى أو المعين لمدة الصراع أو الخصام. كان أفراد العشير مستعدون للتأزر والدفاع المتبادل. وللعشير أعياده الدينية ومقابره.

وثمة تنظيم اجتماعي أوسع هو الأخوة المؤلف من عدة عشائر (في الأصل، عدد زوجي). كان عشيراً كبير ثم تفتت. كان تضامنه يتبدى بمجلس عام وأعياد مشتركة؛ وفي أثناء النزاعات المسلحة، تصير الأخوية وحدة مقاتلة. والوحدة التي تلت المجتمع البدائي كانت القبيلة التي تملك أرضاً خاصاً بها تجاور منطقة محايدة، عادة غابضة، لها لغتها وعبادتها. ومجلس القبيلة، الذي يضم قادة العشائر والقادة العسكريين، يعلن الحرب ويعقد السلم، لكن القرارات تؤخذ بالضرورة بالإجماع. ورئيس القبيلة، وهو عادة رئيس العشير، لم يكن ذا سلطة واسعة.

نفوذ الرئيس يتعلق بمناقبه الشخصية: مهارة في الصيد، يقظة في المعركة، الحكمة، الأريحية، وسواها. وسلطته غير وراثية، بل مبنية على رضى الجمهور وليس على القوة البدنية: الرئيس معرض دوماً للإزاحة. ليس أغنى من الآخرين. يقتسم مع ذويه حصته من الصيد والمنتوج الزراعي. وهذا يساهم بتوطيد مقامه.

يعترف للمرأة باحترام واسع، إنها التي تضطلع بإدارة المنزل وقد تكون المنظم الفعلي للنشاط الإنتاجي للعائلة الأمومية الكبرى؛ والرئيس نفسه يشتركها في شؤون العشير. وتنظيم العشير ديموقراطي كلياً: لا ميزة لأحد والكل أحرار. الإنسان البدائي لا يميز بين واجباته وحقوقه: اشتراكه بالإنتاج، الاجتماعات، وبالمعارك الحربية حق وواجب. رغم أن هذا النشاط تطوعي، رفضه يعرض الرفض عملياً للإبعاد الاجتماعي. لكننا نخطئ إن نظرنا إلى هذا العهد نظرة مثالية. فالافتقار إلى القوى المنتجة، والاكراه الشخصي في الصراع الضاري مع الطبيعة، تترجم بعادات قاسية، فظة، بخاصة وأد حديثي الولادة المشوهين جسداً وذهناً.

العشير والقبيلة مؤسستان مغلفتان. وبينما تسوى الخلافات الداخلية بمشاركة كل عناصر العشير، تستوجب الأضرار التي يسببها عشير آخر الثأر أو الانتقام: الكل يدافع عن المتضرر. والقبيلة مغلفة هي الأخرى: كل شيء خارجي، هو خارج القانون. وفي

الحديث عن الحرب في المجتمع البدائي، يلذ للكتاب البرجوازيين الرجعيين أن يذكروا "وحشية" قصص سلخ الرأس، وصيادي البشر، وأكل لحم البشر، والتعذيب وسواها. رغم ندرة هذه الوقائع أصلاً، فهي تكثر فقط بتأثير المستعمرين الأوروبيين، المستغنيين من إثارة القبائل ضد بعضها. وليس صدفة أن يتحدث مكلوكو - مأكلي عن مزاج البابو المسالم.

وإن بالغ العلماء البرجوازيون بدور الحروب في المجتمع البدائي، فذلك ليثبتوا أنها قائمة أبداً وليبرروا إيدولوجية الفتن غير الإنسانية. في الحق، ليست الحرب ظاهرة طبيعية. فالأستراليون، مثلاً، لا يقتتلون تقريباً أبداً وتطور معاركهم تحت نظر شيوخهم الذين يوقفونها ما أن تذهب الأمور بعيداً. ونادراً ما كانت هذه "الحروب" دموية. فقط في نهاية العصر، يوم وصل نظام العشير إلى أوجه، كثرت النزاعات المسلحة و توحشت. فمع توطد أسلوب الحياة المستقر و تكديس المؤن، كانت القبيلة الحبيسة ضمن تخوم محددة، تبدو أكثر عدائية تجاه الجوار. و تجر الحروب غالباً الدمار و المذابح. و ليس بدون سبب أن تحاط القرى من الآن فصاعداً بالأسوار أو تبنى في أمكنة حصينة صعبة المنال. أحياناً، يلتحق المنهزمون بعشير من القبيلة المنتصرة. وفي أثناء الاحتفال، يأخذ أحد الأسرى ثدي امرأة عجوز، رمزا لتكوين القرابة عن طريق الأم.

و لقد ظهر أخيراً أن ضيق نظام العشير، في الواقع، و تقاليده تخنق مصالح الفرد، تحد حريته، وروح المبادرة لديه. فكان لا بد من تفكك النظام المشاعي البدائي.

### الثقافة الروحية في أوج نظام العشير

لقد أكد تنامي قوى النتاج تطور الحياة الروحية للبشرية. فتجويد وسائل الصيد والقتل، وتدجين المواشي، و ثقافة المزروعات، وتنفيذ تقب، نشر وصقل الحجر، وبناء البيوت، وصنع الفخار، والنسيج - كل هذا وسع شيئاً فشيئاً تجربة وخبرة الإنسان التقنية وأعني روحه وفكره.

يتبدى تقدم الفكر الإنساني بخاصة بتكوين الآراء المجردة، التي ساهمت بتعميق مبادرة فن الحساب. ففي فجر التاريخ، لم يكن الإنسان يحسب أو يعد ٣،٢،١ على الأكثر. لكن الذاكرة الأريية طورت هذه الطاقة الحسابية إلى مدى جيد: كانوا يتذكرون كل خووف من القطيع، كل شجرة مثمرة، لكنهم لم يتوصلوا بعد لفهم تجريدي لعدد الأشجار أو

الخراف. ولم يتطور الحساب إلا في مرحلة متقدمة من ارتقاء الفكر.

الخبرة المكتسبة في مجال الإنتاج أثرت مباشرة على اللغة. تكشف أعمال مؤسسي الماركسية-اللينينية جوهر وخصيصة اللغة كظاهرة اجتماعية وتجلو إشكالية تطورها المعقد. ولما كانت اللغة مرتبطة صحيحا بنشاط وطاقة الإنسان الإنتاجية، فقد تأثرت مباشرة بالتبدلات التي عرفها الإنتاج. بداية، تمتاز اللغة بطبيعتها المحددة، بسبب التطور البطيء للفكر المجرد. يشير علماء العرابة أن لغات غالبية الشعوب المتخلفة المعاصرة فقيرة بالمفاهيم المجردة. إنها تخلو من كلمات مثل "سمكة"، "طير"، "حيوان"، بينما تكثر فيها التعبيرات المتنوعة التي تدل على أنواع (ونماذج) الأشجار، الحيوانات، الطيور وسواها. وتظهر هذه السمة الوصفية أيضا في بنيتها القواعدية، مثلا، في وجود المثنى والمثلث، في مضاعفة الأنواع (الصفوف) والأغراض، وغيرها. ونمو مكتسبات العمل يوسع المفردات ويجود البنية القواعدية. وارتقاء الفكر يولد باستمرار تعابير مجردة. والخبرة التي اخترتها الأجيال مكنت الإنسان البدائي من التلاوم في الوسط المحيط: يعرف الصياد، استنادا إلى البصمات أو الإمارات، مع أي حيوان يتعامل، ذكرا أم أنثى، شابا بغيرا أو شيخا مدربا. وقد خبر كل عادات الطريدة، ينصب الصياد بمهارة الأشارك في الأمكنة الملائمة. ومشية الحيوانات وهيئته تنبئه بمجيء الربيع. إن روابط عديدة وعلاقات منطقية، تكون خبرة البشرية البدائية.

هكذا تطورت معارف الإنسان الإيجابية، وأفكاره حول نفسه وحول العالم المحيط. والمسير الطويل في السهوب والأحراج ألزمه أن يسترشد بالنجوم، وبالتالي استنادا إلى "الخريطة الكوكبية"، وضع النجوم في السماء. وتعلم بسرعة أن يرسم على الرمل أو القشور خرائط جغرافية بدائية.

عودت الزراعة الإنسان على الفصول التي يجب معرفتها لتنفيذ في الوقت المعين الأعمال، والبذور، مثلا، وأفضت مراقبة الفصول إلى خلق تقويم بدائي، شهوره (القمريّة بعامة) غير متساوية.

لعلاج الأمراض لجأوا إلى الأمور البسيطة، كالتدليك وسواه. لكن هذا الطب البدائي، التجريبي تماما، غير مؤسس بعد على معرفة الجسم البشري.

لم يتوصل الإنسان إلى تركيب الخبرة التي جمعها جيلا بعد جيل إلا ببطء شديد: فقد عرف تحضير سم زعاف دون تعليل فاعليته.

وفي أيام نظام العشير عرف أول أشكال الكتابة: *LA PICTOGRAPHIE* (الكتابة بالرسم).

لرسم حصان مغطى بالبقع يتصور الإنسان البدائي موتان الفحم. وثمة طرق أخرى للنقش أو الحفر: صفائح، أوتار أو حبال معقدة. في هذه الحالة، لكل شارة معناها التوافقي. وظهر أول أشكال الكتابة تشهد على تطور كبير في الفكر المجرد.

تنتقل الخبرة في مجال الإنتاج وبذور المعارف العلمية في العشير أو القبيلة إلى الجيل الجديد بواسطة التربية. وفي ظل نظام العشير، التربية نفسها ذات طبيعة عامة: يوضع الذكور والإناث تحت رقابة كبارهم. يستقل الأبناء بسرعة ويساهمون وهم صغار بنشاط العشير الإنتاجي، بخاصة الصيد، حيث يدون الصبر والمواظبة والمهارة الغريبة. يستطيع صغار الكنعول البقاء لساعات طويلة في الكمين دون حركة، والحبوب في يدهم المبسوطة: وما أن يقع طير على لقيته، حتى يلتقط بحركة رشيفة.

مختلف مكاسب العمل، التدريب الجسدي والصحي، بذور المعارف العلمية وتقاليد العشير \_ هي العناصر المكونة للتربية في المجتمع البدائي. وعند حلول المراهقة، يخضع الصبية وأحياناً البنات لسلسلة من الاختبارات تسمى "المبادرة". تتم في أيام الأعياد وفي جو رسمي. إنها فريضة موروثية في أثناء أدائها يلتزم الصبية أن يثبتوا ليس فقط أنهم يعرفون تقاليد العشير والقبيلة، بل أيضاً أنهم يتحملون جيداً مصاعبها: يصفعون، تكسر أسنانهم، تشرط أجسامهم بعمق، ويكرهون أيضاً على التمدد فوق محطبة مغطاة بالأعصان الخضراء، ويستمررون رغم الحرارة وأذى الدخان، حتى يأمر الشيوخ بإنهاء العذاب. فقط، ذلك الذي عبر المحنة أو المبادمة بصير عضواً كامل العضوية في العشير، بينما يحال الضعفاء إلى الامتھان العام.

في المجتمع البدائي، ظهرت بدايات الفنون التشكيلية. وفن العصر الحجري الأعلى تعبيره بحت. ففي عمق الكهوف المظلمة، على ضوء الجمر الشاحب، وضع الفنانون رسوماً ملونة: أحصنة غضوب، بيزون تخب أو تنام نوماً هادئاً، ومناظر صيد واسعة. وفي الحقبه ذاتها، نقشت بالعاج أو بالقرن تماثيل لأبائل منطلقة بأقصى سرعتها أو كائنات بشرية (بخاصة نساء) يعتمرن قبعات غريبة ويتدلى من كفلهن حزام أشبه بالذيل. وبدءاً من العصر الحجري الأوسط، فقدت الفنون في الغالب واقعيتها: صارت الرسوم تشابكاً



من الشارات التوافقية التي لا تشبه أحياناً الكائن الذي تمثله.

الإنسان البدائي يهوى الزينة والمظهر: يشم وجهه أو يديه، يحمل الأساور والأطواق لا بل يصقل أسنانه، يخضب جلده ويصبغ شعره. يزين بعشق مسكنه، أواني المنزل وبعض أثاثه. وخزفه بعمامة مفتول أو مضلع أو محفور. الأعمدة والأواني الخشبية منقوشة وملونة. للوشم والنقش على الخشب معنى رمزي: الدوائر والزخارف عليه تلخص أساطير وخرافات عائلية وملاحم.

الموسيقى البدائية غير معروفة طبعاً إلا من المعطيات الأثنية. الوسيلة الموسيقية الأقدم هي القوس: أحد أطرافه يدخل الفم المستخدم كصندوق رنين، بينما يؤخذ الصوت من الوتر بضربه بقضيب صغير. ثم أعطي القوس صندوق رنين مصنوع، الأمر الذي أفضى إلى ابتكار أدوات وترية. كما حاز الإنسان البدائي أدوات وترية ينقرها الهواء والصدم. كانت الطبلبة-الصغيرة (الطنطن) أكثرها انتشاراً. وكان الرقص المديد يرافق الموسيقى البدائية في أغلب الأحيان. وكثيراً ما يستبدل هذا الرقص برقص إيمائي.

والثقافة الشفهية (الفولكلور) يتميز بتنوع واسع. لكل القبائل أساطيرها التي تستدعي أصل العالم والناس الأولين، وماضي القبيلة، نضال الإنسان ضد الطبيعة وانتصاراته على الوحوش والعمالقة. أساطير مليئة عادة بالتفاؤل والثقة بانتصار الإنسان على القوى المعادية.

### الدين البدائي

عدا الآراء الصحيحة حول العالم، كان لدى الإنسان مفاهيم خاطئة، خيالية، أو معتقدات دينية. لإيضاح أصل الدين، نشر ي.ب. تايلور، العالم الإنكليزي للقرن التاسع عشر، نظرية مثالية تقول إن المعتقدات الدينية صدرت من تأملات الإنسان البدائي. وبدفع التفكير بالأحلام والموت، خلص الإنسان إلى أنه له مثيل، روح قادرة على ترك الجسم، ثم بسط هذه الفكرة على الطبيعة، وهب أرواحاً أو نفوساً للحيوانات، للنباتات وللحجارة. إنما، في الحق، لا ينبع الدين من تأملات لغو، لا نفع فيها، بل من نشاط الإنسان المنتج: نتيجة تطور بسيط، غير كاف في الخبرة والفكر البشري، تتكون في الأغلب آراء خطأ حول موقفه من الطبيعة.

في ظل نظام العشير، كان الإنسان يزعم أنه جدير بممارسة سلطة فوق \_ طبيعية

على الطبيعة، والحيوانات والنباتات، بواسطة حركات سحرية، تولد مع المعتقدات الدينية. وثمة إيماءات تقلد الصيد حفظت حتى نهاية القرن التاسع عشر لدى عدد كبير من التجمعات الشعبية، بما فيها تجمعات شمال روسيا. الائلمن، مثلاً، يعدون قبل صيد الحوت مجسماً له، مصنوعاً من الأعشاب، يوضع على ظهر امرأة. وهذه ترحف حول الموقد، وينقض الأبناء عليها ويحولون الجسم إلى نثار. الأمر الذي يؤمن نجاح المشروع. وينظم الهنود الحمر قبل صيد البيزون رقصات تدوم أياماً مستمرة، يجب أن تؤثر على الحيوانات، وتقنعها بالاستسلام للقتل. ولمشاهد الصيد المرسومة في مغائر العصر الحجري الأعلى مغزى سحري.

في الشعائر الأقدم، كثيراً ما تذكر أنواع الطرائد. وتدرجياً، ومع تطور هذه العبادة، يميز من بين جملة هذه الحيوانات (أو النباتات بالنسبة لمن ينكب على القطف) نوع معين يدعى أنه عضو في العشير المقصود. هو الطوطم، الذي يتصور العشير أنه انحدر منه. هكذا كانت الطوطمية، وهي عبادة الحيوان المصطاد، ثم ترتبط بتطور الإنتاج بشكل مغلوطة.

نحن نتصور أفكار الاستراليين التي تتصور أن كل جمع اقتصادي قريب هذا الحيوان أو النبات أو ذلك (أمو<sup>١</sup>، كنغر<sup>٢</sup>، وسواها). والشعيرة الأساسية لهذه العبادة تكمن في أن أحد الأقدمين يداعب بطن الناس بحجر خاص، مردداً: "ليكن غذاؤكم وفيراً" يعني هذا، بداية، تأمين نجاح النشاط المنتج عن طريق السحر.

لكن المعتقدات الطوطمية تحوي التناقض الذي اشترط تطورها لاحقاً: فالطوطم (المعبود) هو بنفس الوقت غنيمة الصياد والجد العام للعشير. إذن، الصيد للطوطم هو صيد لأحد الأهل، وقتل الحيوان الموقر يجب أن يعرض سمعة الصياد للثلم أو يعرضه للخطر، بل يدينه. تتبدى هذه التناقضات خاصة في عبادة الدب، التي يمارسها الايفانك وكثير من شعوب سيبيريا الأخرى العائشة على الصيد، التي تتقدم وتطلب عفو وغفران الحيوان الذي اصطادته.

<sup>١</sup> - طائر من فصيلة النعاميات.

<sup>٢</sup> - جنس حيوانات أسترالية من فصيلة الجرابيات، ذو أيد قصيرة وأرجل طويلة.

ثمة عنصر رئيسي آخر في العبادة في ظل نظام العشير هو فكرة "الإلهة"، المرأة الخبيرة في العرافة والسحر والرقى. يكمن هذا في أساس عشير الأمومة، حيث تجسد المرأة اتحاد التعاونية. بينما ينتسب الرجال إلى فخذ أو عشير آخر أو حتى إلى عدد من الأخاذ الغربية. والاعتقاد بقيم المرأة السحرية يعود إلى العصر الحجري الأعلى، كما يتثبت النصب النسوية لتلك الحقبة، المكتشفة في أوروبا وجنوب سيبيريا. ويتميز سحر النساء، تشهد هذه النصب على العبادة المنحدرة من الجدة، مؤسسة العشيرة.

في ذات العصر تتشكل عبادة "الروح" أو "النفس" التي تحيي الطبيعة. وهذا ما يسمى الإحيائية<sup>١</sup>. فالنفس، حسب المفاهيم البدائية، كحيوان مستنقر، يسكن كل الأشياء.

لدى إنسان العصر الحجري الأعلى فكرة مشوشة جدا حول الموت: بداية، لا يفصلون العالم الواقع عن "الغيبي". والخوف من الموتى أتاها شينا فشيئا، حسب الشعائر التي تهدف لتلطيف الأمر، وحماية الأحياء من الأموات.

في أثناء تطور الزراعة والتججين، انزاحت الطوطمية، الديانة المهيمنة في أيام الصيد والقطاف، إلى المقام الثاني لتحل محلها أفكار شديدة التعقيد. فالأرض، طاقة الخصب، تصير مطرح العبادة التي، في شروط نظام الأمومة، تختلط مع تقديس الإلهة؛ هذا هو أصل عبادة الأرض الموضع، الهادفة المساهمة بخصب التربة والمتجسدة بممارسة سحر خصبها.

ارتقاء الاقتصاد والفكر يدفع الإنسان إلى تمييز قوى الطبيعة المعتبرة حتى آنئذ ككل. ويسند مقام هام إلى القوى الفضائية والظواهر الطبيعية: الشمس، المطر وغيره، التي تؤمن المحصول، ومن هنا كان المجتمع البشري. مع ذلك، كثيرا ما اختلطت عبادة الطبيعة مع بقايا الطوطمية، فتولدت صور هجينة مثل الشمس \_ الحيوان أو الشمس \_ الطير.

من جهة أخرى، غير توطيد نظام العشير، عبادة الموتى. فلا ينظر إلى المتوفين كقوة معادية يجب التخلص منها بأسرع ما يمكن: بل بدأوا يرون فيها أصولا تحميمهم. نجم هذا من أن الإنسان، وقد عرف شيئا عن الطبيعة بالتجربة، انتقل من عبادة الجد

<sup>١</sup> - الاعتقاد أن النفس هي مبدأ الفكر والحياة العضوية في وقت واحد.

الحيوان، الطوطم) إلى عبادة الجد البشري. في هذه الحقبة بدأت خرافات انتصار الإنسان على أخوته -الطيور والحيوانات- والتجسيم، خلع الصفات البشرية على الله وتشبيهه بالإنسان).

وفي عبادة الأرض، وقوى الطبيعة والجدود، يعود الدور الأول إلى التضحية والصلاة. والصلاة هي التعبير المباشر عن الرغبة: تسأل أرواح الحيوانات، والأطفال، موسما وفيرا. وتكمن التضحية الأولى في تغذية الروح لكسب رعايتها. تروى الخرافة الساذجة لدى هنود الشيبويز، أن الشمس عندما تجوع ترمي فتى جميلا بحجر وتمرضه؛ فلا يشفى حتى يقدم لها تضحية.

وهكذا، بالأصل، كانت الشعائر ترتبط بتطورات المنتج وتطرح هدفا لها التأثير على الطبيعة عن طريق السحر. وفي الوقت ذاته، كانت المنعكس الخيالي للقوى المهيمنة على الناس في حياتهم اليومية.

اعتقادا بقدرتهم على التأثير على الطبيعة بالسحر لتأمين نجاح الصيد، القطاف، والقنص، ما كان للناس، بالمحصلة، إلا تعزيز علاقتهم بالطبيعة: وكان السحر يحول اهتمامهم عن الحاجات الفعلية، ويحجم طاقتهم الخلاقة. وهكذا كرس الدين البدائي عجز الإنسان أمام الطبيعة، العجز الذي كان هو نفسه منعكسا.



## الفصل الرابع

### تفكك النظام المشاعي البدائي.

#### نشكّل الطبقات والدولة

##### الزراعة والتدجين الراقيان. بداية التعدين

إن تفكك نظام العشير وتشكّل مجتمع منقسم إلى طبقات هدف أولاً إلى تطور القوى المنتجة وبخاصة الزراعة والتدجين، وقد صارا فرعي النشاط الاقتصادي الرئيسيين.

ففي بعض البلدان ترجع ولادة الزراعة والتدجين الراقيين إلى العصر الحجري الأعلى؛ لكن اتساعهما بدأ في عصر النحاس. يبدأ العمل بالنحاس في الشرق الأدنى حوالي الألف الرابع قبل الميلاد. وصل إلى أوروبا متأخراً، في الألف الثالث. بداية، استخدم الناس النحاس الطبيعي وعالجوه بارداً. واكتشاف إمكانية صهره وجعله بالشكل المطلوب، طور صناعة الأدوات. كان المعدن المنصهر يصب في قوالب، وبعد تجرده تخضع الأداة إلى التشذيب والتلميس بالمطرقة الحجرية.

مع ذلك لم يستطع النحاس إبعاد الحجر، الذي لم يكن آنذاك أقوى منه. فمن أجل أعمال الزراعة، وقطع الأشجار وحتى العمل بالنحاس، كانوا يستخدمون دوماً أدوات حجرية من العصر الحجري الحديث، أو العظم أو الخشب.

ذكر أنجلز طريقتين أساسيتين لتطور المجتمع في تلك المرحلة. عن الطريق الأول، يذكر قبائل نصف الكرة الغربي. كان لدى هنود المكسيك الجديدة وقبائل أخرى أمريكية، أثناء الغزو الإسباني، تقنيات راقية، مبنية على حرث الأرض بالمعول؛ حيث تزرع النسل للذرة المروية... وكانوا يبنون منازل واسعة بالأجر أو الحجر، تحوي حتى خمسمائة غرفة؛ مع استمرار صناعة الفخار وتطورها بوضوح؛ لكن العمل بالنحاس، كان قد عرف.

واتبعت الطريق الثاني قبائل من العالم القديم، كان اقتصادها مبنياً على التدجين الرأقي، بينما لعبت الزراعة دوراً مساعداً واستعمل الدخن علفاً رئيسياً. تثبت المعطيات الأثرية المكتشفة بعد موت أنجلز هذا التحديد للأمور؛ فقد اكتشف، بخاصة في العالم القديم، آثار حرث التربة يشبه حرثها في المكسيك الجديدة، وقد انتشر في أمصار عديدة: وادي النيل، الفرات، الهند وهوانغ \_ هو، آسيا الصغرى، شبه جزيرة البلقان، آسيا الوسطى (حضارة آناو)، وأوكرانيا.

في الألف الرابع قبل الميلاد، كان وادي النيل أهلاً بحراث مقيمين يعرفون صنع السكاكين، الأبازيم والصنارات من النحاس، مع استخدامهم بخاصة البلطات والسكاكين من الصخور الصلبة، ومرتدات من خشب وأغراض من العاج. وعرفوا تقنية مياه النيل نحو حقولهم، وكان هذا الري الملائم لخصب التربة وحرارة المناخ يضمن محاصيل وفيرة ونمو سريعاً للقوى المنتجة. وكانت أعمال المصريين الهيدروليكية مع ذلك بدائية: وكانوا يحفرون أقبية في أجراف النيل لتسهيل وصول الماء إلى الحقول، وأقاموا سدوداً لتسوية أمور البيع.

عندما لا تسمح الشروط الطبيعية للحراث في العصر الحجري الجديد أن يروي أرضه، كان يتباطأ نمو القوى المنتجة طبعاً. ففي الألف الثالث قبل الميلاد، كان في أوكرانيا، رومانيا، وبلغاريا حضارة زراعية، سميت تريبولية، اكتشفها عالم الآثار الروسي ف. كفيكو، ودرسها بعمق العلماء السوفييات، وعلى رأسهم ت. باسيك. كان عمل التريبوليين الأساسي حرث الأرض بالمنكاش؛ لكنهم كانوا يربون أيضاً أنواعاً عديدة من الدواب. كانت معاولهم ومناجلهم بعامة من الحجر أو القرن؛ وكان النحاس يستخدم لصنع البلطات. وبيوت الآجر، الواسعة والمستطيلة، كانت تتألف من عدة بيوت مبنية حول ميدان مركزي.

كانت مادة الأثاث الأساسية هي الآجر: صنعوا منه المناضد، المقاعد، والأفران. كانت فخاريات التريبوليين غريبة تأثير الفضول، شديدة التنوع، مع قواعد منبسطة (فالقدر المديب لا يمكن وضعه على المائدة أو في الفرن) عدا أواني المطبخ الضخمة، عثر على الكثير من القدور المدهونة، المزدانة بالحلزانات وأحياناً برسومات تمثل وجوه الحيوانات. بين المواد الأكثر تمايزاً لهذه الحضارة، كان ثمة نصب آجرية تمثل الجدود، وتؤكد

عهد الأمومة، طبعاً في شروط الزراعة البدائية، التي تمارسها النساء أساساً. يعود تشكل قبائل الأبوة إلى عهد أقل قدماً: عهد البرونز. والبرونز، خليط من النحاس والقصدير أو مواد أخرى، اكتشف في الألف الثالث قبل الميلاد. كانت الأدوات البرونزية امتن وأرق من الأشياء النحاسية، لكن انتشارها كان بطيئاً: بداية، استخدم هذا المعدن لصنع الأسلحة والحلي. فالنحاس، القصدير، والرصاص التي تشكل البرونز، نادرة في الطبيعة واستخراجها صعب. فقط إتقان الصناعة المنجمية المكشوفة، قليلة العمق في منتصف الألف الثاني، سمحت بحفر مناجم بعمق حتى مائة متر. وحتى هذا العصر استخدم المنكاش والمناجل البرونزية، لكن هذا الخليط، كما النحاس، لم يستطع أن يطرد الحجر.

ساهم استخدام الأدوات المعدنية بإتقان العمل بالخشب. فصار نجارو عصر البرونز يقدر أن يبني بيوتا متينة، يربط العوارض بالأسنان أو الحدود. لكن الابتكار الأهم هو ابتكار العربة. التي ظهرت في الشرق الأدنى قبل ٣٠٠٠ عام من الميلاد. ومنذ منتصف الألف الثالث، كانت قد عرفت في سهوب أوروبا الشرقية: في *kourgane* من شط النيجر المستقيم، اكتشفت بقايا عربة خشبية، ذات عجلتين، تعود لتلك الحقبة. كانت عجلاتها الكثيفة، المستديرة، المصنوعة من قطعة، ذات تقويع دائرية من أجل المحور. إلى هذه العربات الثقيلة كانوا يقرنون الثيران. وحوالي بداية الألف الثاني ابتكرت العجلة الدائرية، الذي مكن من صنع عربات خفيفة، تجرها أحصنة رشيقة.

لم تكن الأشكال القديمة لتربية الطيور والمواشي الموجودة أكثر أيام السنة ترعى في الغابة، الأوراق والبلوط، لم تكن توفر النمو السريع لهذه الأنعام. وكان ارتقاء هذا الفرع الاقتصادي عنصر تشكيل الشعوب المتنقلة التي تربي قطعانها في الوديان في أثناء الشتاء، والمناخ معتدل، وفي الصيف في الجبال. وكان استخدام الحصان كراحلة ركوب وابتكار العربة شروطاً طبيعية للانتقال إلى حياة الترحال، وتعبير آخر، ولادة تدجين واسع. وإلى عنصر الزنك بالضبط يعود تشكيل شعوب هيكسوس، كاسيت، الآيين، الذين ربوا الخيول والحيوانات الأخرى وتميزوا بترحالهم. وفي الألف الثاني كانت المنطقة الغابية في روسيا أهلة بالقبائل الرعوية لحضارة فاتيا نوفو، التي كانت تربي الأبقار، الخراف، الخنازير والخيول. وحتى على الجانب الشمالي للبحر الأسود، صارت تربية المواشي أساساً



اقتصاديا: كان أحفاد التريبوليين، مع الحياة المستقرة، يفضلون التدجين على الزراعة. لكن وضع التدجين كان مغائرا في سهوب جنوب سيبيريا، الأهلة في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد بالمدينين والزراع القاطنين كهوفا واسعة مستطيلة ذات عدة مواعد. ففي نهاية الألف الثاني، صارت تربية الأغنام الشاغل الأساسي: كان سكان السهول ينتقلون بالعربات، خلف قطعانهم. وهكذا، تحولت التربية التي كانت في البداية مستقرة ومرفقة بزراعة مساعدة، إلى تربية راحلة واسعة.

في هذه الحقبة، كان التدجين في مده الأوسع في القفقاس، أحد مراكز صناعة البرونز. وعصر البرونز في آسيا الوسطى لم يدرس بعد جيدا، وثمة مجال لاكتشافات هامة فيه.

كانت بعض شعوب الاتحاد السوفييتي في مستوى من التطور الملائم المماثل عند بدء اتصالها مع الروس. فالتشوكتش، الذين حافظوا على تقنية العصر الحجري الحديث. كانوا يربون قطعانا واسعة من الرنة<sup>١</sup>، معها يتجولون عبر السهول الواسعة في الشمال. عرف الإنسان الحديد بعد البرونز. والاستخدام المتفرق للحديد النيزكي قد وجد حتما منذ الألف الثالث والثاني، لكن صناعة الحديد الفعلية لم تظهر إلا في نهاية الألف الثاني. انتشر هذا المعدن انتشارا واسعا، وأبعد الحجر والبرونز إلى الخط الثاني. صفتان أمثا له الانتصار على المواد الأولية الأخرى: بداية، يعطي أدوات أصلب وأرق؛ ثم، هو واسع الوجود في باطن الأرض ولا يتطلب استخراجة أجهزة معقدة.

لقد أمن تطور صناعة الحديد للناس أدوات متينة وفيرة. صنعوا البلطات والمعاول، المناجل، الرفوش، عدا الأسلحة. وسهل استخدام الأدوات الحديدية العمل بالحجر وأتقنت تسوية الحجارة تقنية البناء. والبلطة والرفش مكن من استئصال أرومات الأشجار، واستصلاح مساحات واسعة من الغابات من أجل الحرث والرعي.

يتلاءم عصر الحديد مع حرث مناطق واسعة بواسطة سكة الحديد. فالمحراث البسيط، الذي ظهر بدون شك في الشرق الأدنى في الألف الرابع، كان من الخشب، لكن صناعة هذه الأداة، المؤلفة على الأقل من جزئين مترابطين، لم تكن ممكنة إلا بعد انطلاق

---

<sup>١</sup> - حيوان مجتر من فصيلة الأيليات.

النجارة، الناجم من استخدام أدوات معدنية. في أوروبا، لم يعرف المحراث قبل العصر البرونزي. كان يخدم التربة فقط، وكانوا يضطرون لحراث الأرض طولا وعرضا. ولم تعرف سكة المحراث المعدنية إلا في بداية عصر الحديد، واستئصال الجذور الكثيفة نشر استخدام السكة في كل المناطق معتدلة المناخ. وكانت أهم حيوانات الجر الثور والحصار.

### العبودية البطزركية

إن حراث الحقول والمراعي بالمنكاش في الأراضي المروية، والتدجين الواسع وبخاصة العمل بالأرض بالسكة الحديدية، زاد كثيرا من إنتاجية العمل: صار يوسع الإنسان من الآن إنتاج كثير من الأشياء تؤمن له صيانة قواه وتربية الأبناء. وبدأ الحراث والمربون يجنون من المنتج أكثر من الصيادين والقناصين؛ وكان نتاجهم أكثر أمنا من الطريدة المعرضة للهرب بسهولة. وراحت القبائل الزراعية تدخر كمية من المؤن تحفظ في حفر أو صناديق خشبية؛ وتجنّي القبائل الرعوية من قطعانها الحليب واللحم، الصوف والجلد، اللباد لبناء المسكن، العظام والروث الجاف للتدفئة. وهكذا توصل الإنسان لإنتاج أكثر مما يستهلك. نجم عن هذا الاستغلال، تمكين الإنسان من تملك ملكية منهجية لأكثر مما يستهلك، وهو منتج عمل شخص آخر. وعوضا عن قتل المساجين لتقديمهم ضحايا للآلهة أو لأكلهم، أو بشكل أصبح ضمهم إلى الفخذ أو القبيلة، مكنت من زيادة الإنتاج من استغلال جهدهم، واستثمارهم كأحرى.

تطلعنا مخلفات الأعراق على العبودية البدائية، التي تذكر بالعلاقات الاجتماعية الوليدة في أثناء تشكل أولى الطبقات. تطور هذا بشكل ملحوظ لدى الهنود صيادي شمال غرب أمريكا الشمالية (جزيرة فانكوفر، جنوب ألaska). كانت هذه التجمعات تستخدم بعض الأدوات الحجرية، يدخر النحاس لصناعة الحلي فقط؛ كانت زراعتهم متخلفة ويعيشون أساسا على الصيد، لكن وفرة السمك مكنتهم من إنتاج فضلات ضخمة. فكان المردود الكبير للصيد الأساس الاقتصادي لتطور العبودية لدى الهنود الحمر في أمريكا الشمالية.

حسب إحصائيات علماء العراقة بلغ عدد العبيد في ذلك البلد ٧/١ السكان ولا غرابة، وفي بعض الأحيان الثلث. كان المصدر الأساسي للعبودية هو الحرب؛ كان الهنود يهاجمون جيرانهم غالبا في الليل ويقتادون الأسرى، نساء ورجالا. ومن يؤسر أثناء القتال

يتحول إلى عبد. وتشكل العبيد بطريق النخاسة. كان جهدهم يستغل في مختلف فروع الاقتصاد: يقيمون الحواجز من أجل الصيد، يجدفون على المراكب، ينظفون الأسماك، ويقومون بأعمال إدارة المنزل الصعبة. ونادراً ما اشتركوا بالأعمال النبيلة: صيد الحوت، بناء المراكب، وصنع السهام. كان العبد محروماً من الحقوق وليس لحياته أي قيمة. وكانوا يذبحون في مآتم القيادات. يقص الضابط البحار الروسي ج. دافيدوف، الذي تواجد في ألاسكا في بداية القرن التاسع عشر، يقص أن الهنود في أثناء الاحتفاء بهذه المآتم، يُرقصون عبيدهم ويطلقون عليهم السهام. ويقتل العبيد لدى بناء بيت جديد وعند وصول القائد؛ وكان أكل لحوم البشر يمارس أيضاً. كانت هذه المذابح واحدة من بقايا فترة عدم الإفادة من عمل أسرى الحرب. وكانت غزوات الشباب الهنود ذات طبيعة أخرى: يهربون العبيد بحرق وسلب أكوأخهم.

العبودية هي الشكل الأول لاستغلال الإنسان على يد إنسان آخر. وظهورها حادثة طبيعية ومنطقية، ناجمة من تطور القوى المنتجة. على ذلك، عرف هذا العهد تطوراً واسعاً. فاستغلال العبيد ساهم بتكديس الخيرات الناتجة حتماً من النمو اللاحق للإنتاج؛ كما غززت العبودية تقسيم العمل.

أقدم أشكال العبودية هو ما يسمى العبودية الأبوية (أو الأهلية)؛ في ذلك الزمن، لم يكن للعبودية بعد دور في الإنتاج، كان العبد يعمل إلى جانب الرجل الحر، كمساعد له. كما كان له أن يمتلك خصاً، وقطيع خنازير وقطعة أرض. وكان يرتدي ثياباً مشابهة لثياب الحر وأبناؤهما يلعبون سوياً؛ ولم يكن التزاوج بينهما نادراً؛ ليست المرأة فقط تتزوج من حر وتتجب له أطفالاً أحراراً، بل العبد أيضاً يتزوج حرة ويعيش معها في بيته. على ذلك، كان ملكاً لسيده الذي له حق الحياة والموت.

### الإنتاج البضاعي

لقد نتج عن تطور الزراعة والتدجين زيادة إنتاجية العمل، وولد تبادل المنتجات بانتظام. التداول المتفرق، النادر عرف منذ عصور قديمة، أما الآن فقط تعمم هذا النهج إلى هذا الحد أو ذاك.

من حيث أن القبائل الرعوية تمتاز عن كتلة البربر، رأى أنجلز أن بذور التقسيم الاجتماعي الواسع للعمل، يختلف عن تقسيمه حسب العمر والجنس، الذي عرف في أيام

نظام العشير.<sup>١</sup> إن القبائل الرعوية، يقول انجلز، تنتج ليس فقط أكثر، بل تنتج أغذية أخرى غير بقايا البربر. وبدأ القاطنون والصيادون يكثرون من تبادل منتوجهم مع القبائل الرعوية المجاورة.

لكن التقسيم الثاني الواسع للعمل الاجتماعي قوامه وحشهم، فافتقدت المهنة عن الزراعة. وعقد اكتشاف البرونز ومعالجة فلزات الحديد صناعة الأدوات بشكل ملحوظ. كان فلز النحاس قد استخرج من المناجم، نقلته العربات في دلاء جلدية وحطم بمطرقة حجرية؛ ثم صب مع الفحم الخشبي في أفران محفورة في التربة، يصلها الهواء بأنابيب آجرية. وللحصول على الحديد بدءا بالفلز، استخدموا موقدا واطنا من حجر وأجر. لكن لا بد من تحديد هذه العقدة الضخمة للحصول على معدن صلب، لهذا يحمى حتى الاحمرار ويطرق بسكبه فوق الفحم الخشبي. يستخدم الحداد كل أنواع الأدوات السندان، المطرقة، القارص، النصل، وسواها. تطلب تعقيد تطور التعدين توفر صاهرين وحدادين مختصين.

جعل تطور التعدين التقنية المهنية أكثر تعقيدا، وهذا ما أفضى إلى تباين المهن.

ففي الهند، في فارس، فيما بين النهرين، في مصر، ظهر منذ الألف الثالث الفخاريون الحرفيون الذين، عوضا من صنع القواعد باليد، صنعوها بوضعها على قرص يدور، سمي "قرص الفخار". وفي البلقان، لم يعرف هذا القرص إلا في الألف الثاني. وتعود أقدم الأوعية المكتشفة في تركمانيا إلى الحقبة ذاتها. واستخدم الفخاريون أيضا فرنا خاصا للطهي والخبز. وإلى الفخاريين، الصاهرين والحدادين أضيف النجارون، النساجون، الصائغون، ومعدو الحجارة وغيرهم. وهكذا، تفرعت من الاقتصاد الخدمي عدة فروع كي يصل إلى أيدي المختصين؛ وانفصلت الحرفة عن الزراعة.

سابقا، لم تتم أغلب المبادلات بين أشخاص منعزلين، معرضين للأخطار والأخطاء، بل بين عشائر يمثلهم الرؤساء أو الشيوخ. وكان التبادل البدائي يتم بين مختلف المشاعيات، لأن كلا منها تنتج ذات الشيء، الأمر الذي يجعل التبادل محالا. كانوا يتبادلون بخاصة مواد الزينة والحلي، وأوعية من النحاس والسيراميك. ولدى تطور التبادل بين القبائل، لعبت بعضها، بفعل موقعها الجغرافي، دور الوسيط.

غير التقسيم الثاني الواسع للعمل الاجتماعي من طبيعة التبادل وأفضى إلى الإنتاج

<sup>١</sup> - ف. انجلز. أصل الأسرة، الملكية الخاصة والدولة، دار المنشورات الاجتماعية، باريس ١٩٥٤.

البضائعي، يعني صنع منتجات معدة خصيصا للتبادل. فالحرفيون (الحدادون، الفخارون، والنساجون، الخ) لا يستطيعون الحياة إلا بتبادل ثمره عملهم مع مواد أخرى. وكلما انتظم التبادل برز أكثر مفهوم القيمة والسعر. بداية، كان التبادل تحكميا: اليوم خنزير مقابل حقيين، وغدا ستة خنازير. ويستقر التبادل المعادل شيئا فشيئا، ويساهم تطور المهن فيه إلى حد بعيد. ففي العمل الحرفي (الأكثر استقلالا عن الصدفة من الصيد والقطاف من الزراعة والتدجين للبدائيين، حيث يلعب الحظ والوقت دورا واسعا) يتعلم الإنسان ويعرف العلاقة بين كمية العمل المبذول وكمية البضاعة الناتجة. فالحرفي هو أول من قاس قيمة المنتج بكمية العمل المبذول لإنتاجه.

يسعى الإنتاج البضاعي إلى تكديس الثروات، الأمر الذي يولد الحاجة لبضائع قابلة للحفظ والتخزين. فالحبوب، الثمار، السمك والمواد الغذائية الأخرى سريعة التلف، بينما الماشية، القواقع النادرة والمعادن الثمينة تقوم تماما بهذا الدور. يشير ماركس إلى أن تداول البضائع منذ حالتها الجنينية، يولد الميل إلى تقليد ليس المنتج نفسه، بل شكله المتبدل "خروجه الذهبي". عوضا عن تكديس الاحتياط بشكله الطبيعي، يسعى الناس إلى استبداله بالقواقع النادرة أو المعادن الثمينة، التي، عند الحاجة، يمكن تبديلها بمواد غذائية، ألبسة، أوعية، الخ. وبعبارة أخرى، تهدف فضلة المنتج إلى التحول إلى كنز، إلى مال. والكنوز المكدسة شاهد فعلي على قدرة الأسرة الأبوية.

كلما تطور التبادل وحدد مفهوم القيمة، صار المال مقياس القيمة ووسيلة التداول. وتترك المقايضة المكان للتبادل النقدي. بداية، استبدل النقد بالماشية، ثم بالقواقع أو المحارات، والمعادن الثمينة، وغيرها.

### تحول الأمومة إلى أبوة

لقد بدل تطور التدجين الرعوي وحرث الأرض بالسكة الحديد والتقسيم الثاني الواسع للعمل الاجتماعي نظام العلاقات الأسرية. يصف أنجلز هذا التبدل فيقول: ثورة في رحم الأسرة. فبينما كانت المرأة في ذروة نظام الأفخاذ تتمتع بحقوق الرجل ذاتها و، لدى

<sup>1</sup> - إ. ماركس، رأس المال، المجلد الأول، الكتاب الأول، دار المنشورات الاجتماعية، باريس، ١٩٥٠، ص ١٢٦.

المزارعين البدائيين، كانت تتمتع حتى بالهيمنة كونها ترشد الاقتصاد وتديره، أمن تحول الزراعة والتدجين إلى فرعين اقتصاديين أساسيين، أمن للرجل، الراعي والحارث، الأفضلية وتصدر المجتمع. وألغيت مواقع المرأة حتى في المنزل، الذي انتقل كثير من فروعه إلى مجال عمل الصانع الحرفيين (الرجال). وهكذا، استبعدت المرأة نهائيا من الإنتاج، ولم يبق لها سوى مهام منزلية لا أهمية لها. فضلا عن استخدام المنزل العبيد أكثر فأكثر، الأمر الذي زعزع أعمال المنزل وساهم أيضا بتحجيم المرأة إلى وضع قريب من العبودية. "حتى في البيت، يقول أنجلز، أخذ الرجل بيده الإدارة؛ أبعدت المرأة، استبعدت، وصارت عبدة ملاذ الرجل وأداة عادية من أدوات الإنتاج".<sup>١</sup>

في بعض الحالات تيسر للأبوة أن تقوم لدى شعوب ليست من الرعاة ولا من الحراث، بل حيث يحوز عمل الرجل \_ صيادا كان أم قناصا \_ لسبب أو آخر، قيمة اجتماعية أعلى بوضوح من قيمة العمل المنزلي الباقي في يدي المرأة. بالعكس، حيث بدأ تفكك نظام الأقخاذ في شروط الزراعة البدائية (مثلا، في قبيلة الآشانتس الأفريقية)، كانت المرأة تساوي الرجل أو تفضله. أخيرا، فقد بقيت المرأة، لدى بعض الشعوب، محترمة مكرمة. هكذا، كانت نساء مربحي الخيول السومرية تحمل السلاح، الأمر الذي سهل خلق الخرافة الأغريقية حول قبائل الأمازون.

تم انتقال الأمومة إلى أبوة ببطء، وبأشكال متنوعة. بداية، بقيت أرومة الأمومة وتعايشت مع أرومة الأبوة: أعتبر أعضاء عشير الأب أهلا للأبناء، دون أن يفقد عشير الأم حقوق الأهل. نجم من هذه الخؤولة، نظام علاقات يحتل الخال الدور الأول فيه، أي الذكر الأقرب من جهة الأم. فلا الأب ولا الأم، بل أخ الأم هو المكلف بتربية وحماية الأبناء: وهو أهم من الأب. وتمركز الزواج يتبدل رويدا رويدا. في الأمومة، كان الزواج أموميا: يقيم الزوج في كنف عشير زوجته (أو في عائلة الأمومة الكبرى)؛ وعند الانتقال إلى الأبوة، صار أبوي المركز: تقيم المرأة لدى عشير زوجها.

لا يقتصر تشكل علاقات الأبوة على تغيير تمركز الزواج ومفهوم القرابة، بل ولد نظام أسري جديد: الأسرة الأبوية. تتألف الأسرة الأبوية الكبرى من عدة أجيال من

<sup>١</sup> - ف. أنجلز، أصل الأسرة، الملكية الخاصة والدولة، ص ٥٧.

الرجال، من صلب أب واحد، يقطنون مع نسائهم في دار واحدة، يتغذون ويلبسون من نفس المصدر ويشتركون في كل ما يملكون. وكما دل العالم الشهير الروسي م. كوفالفسكي، الأسرة الأبوية الكبرى هي انتقال أسرة الأمومة إلى أسرة أحادية الزواج.

على رأسها أحد الشيوخ، سيد البيت، الذي يرشد ويوجه كل حياة المشاعية البدائية. وسيد البيت هذا غالبا منتخب؛ يحد سلطته مجلس الأسرة، المؤلف من نساء ورجال راشدين، يقدم الحساب لهم. الشؤون الهامة: نقل الأرزاق، التدابير الانضباطية التي يفرضها على أعضاء الأسرة، زواج الشباب، الخ، من اختصاص المجلس.

في الأسرة الأبوية، الهيمنة للرجل. ويبدو دور المرأة الثانوي في الزواج الذي تراجع في الأغلب إلى شراء الخطيبة من أبيها. والزواج الواحد مفروض على المرأة فقط: عدم وفاء الزوجة ثمنه عقوبة صارمة، بينما يحق للزوج اتخاذ خليلات له من الأسرى. بوسع الزوج إرسال زوجته، دون أي دعوى، إلى دار والدها، بينما لا يحق للزوجة الطلاق إلا نادرا. فضلا عن هذا، عند وفاة الزوج، على الحليلة أو الخليلة أن تضحي أحيانا، لتدفن مع الحصان، والسلاح وأغراض الميت المفضلة.

لم تنجم إزاحة المرأة عن أفضلية الرجل "الطبيعية"، كما يدعي بعض المؤرخين البورجوازيين؛ بل هي محصلة ثورة اقتصادية. يكتب أنجلز في هذا أيضا: "لن يتحقق عتق المرأة وتحررها، يجب عليها أولا أن تشارك في الإنتاج على نطاق اجتماعي واسع وأن لا يشغلها العمل المنزلي إلا في حدود ضيقة<sup>١</sup>". ولا يمكن ممارسة هذا المبدأ إلا في ظل الاشتراكية التي تؤمن المساواة الفعلية بين المرأة والرجل.

من جهة أخرى، حفظت أسرة الأبوة بقايا من الأمومة: المرأة الأكبر سنا التي توجه عمل النساء الأخريات والبنات الشباب، تتمتع بسلطة واسعة. وتضم الأسرة الأبوية أيضا العبيد.

لقد هدم تشكلها البطيء، نظام العشير. وفي البداية كان العشير الأبوي الذي حافظ على عناصر المشاعية والوحدة: ملكية العشير للأرض، ميراث متبادل في رحم العشير، عند عدم وجود ورثة مباشرين من جهة الأب. الأرزاق، على رأسها الأرض، يجب أن

<sup>١</sup> - ف. أنجلز، أصل الأسرة، الملكية الفردية والدولة، ص ١٤٨.

تبقى مشاعية روحية: واجب المعاضدة، الواصل حتى الثأر، الأعياد المشتركة والمقبرة المشتركة. لكن العشير الأبوي يمتاز بعمق عن مشاعية الأمومة، لأنه كان يرهص بذور الملكية الخاصة.

### ولادة الملكية الخاصة

أفضى نمو انتاجية العمل إلى جعل الإنتاج فرديا. فالتدجين والزراعة المتطوران، عدا الصناعة الحرفية، لا تفترضان التعاون البسيط إلا في حالات استثنائية، مثلاً، لبناء وترميم منشآت الري. فالإنتاج الفردي هو المبدأ الاقتصادي الذي أنتج الملكية الأسرية وتكديس الثروات بين يدي بعض الناس.

يمكننا أن نرى المرحلة الأولى من التطور لدى هنود شمال غرب أمريكا الشمالية، حيث ما يزال العشير يملك مجاري المياه وأرض الصيد والقطاف، بينما تمتلك الأسر الأدوات، السلاح، العبيد وحواجز الصيد على الأنهار، القوارب والفراء.

ما يزال الاقتصاد الفردي يتطور لدى القبائل الرعوية والزراعية. فيعطى مردود التدجين كل أسرة إمكانية مصارعة الطبيعة. وساحت البلطة الحديدية لاستصلاح الأرض وسكة المحراث الحديدية المقرونة إلى ثورين، سمحت للأسرة أن تحرث الأرض التي لم يكن حرثها سابقاً إلا على أيدي ومساعدة التعاونية الزراعية المجهزة بالمعول فقط.

كما نجم عن الإنتاج الفردي تركز الوفرة بين أيدي بعض الأسر، التي حققت الغنى. ومنذ انهاء الألف الرابع قبل الميلاد، ظهرت في وادي النيل أسر غنية لم تعد تضع موتاهما في حفر بسيطة تعلوها طبقة عليا هشة من الآجر، بل في قبور فخمة، مؤلفة من عشرات الغرف. وعلى الأرض الروسية، أقدم أثر يثبت وجود أسر غنية، هو *KOURGANE*

مايكوف، الذي يعود إلى الألف الثالث. فقد كشفت التنقيبات، تحت ردم سماكته أحد عشر متراً، بقايا رجل بتياب تزدان بسبائك ذهبية تمثل أسوداً وثيراناً، يحيط رأسه إكليان؛ ستة أنابيب من الفضة، ونصب ضخمة لثيران، كانت تحمل سراقق في السابق. ويضم الرسم ألوان ذهبية، فضية، وحجرية، وأغراضاً نحاسية (خنجر، بلطات، الخ)، وجنتين لامرأتين، ضحيتين ولا شك للمأتم لمرافقة المتوفى إلى العالم الآخر.

عدد كبير من الآثار المماثلة يعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد، لدى انطلاقه صناعة البرونز والتدجين. لقد نقب ب. كوفتين في جيورجيا عن رموس رعاة في بداية



الأنف الثاني، كان موتاهما محمولين على عربات خاصة. وعدا عظام الحيوانات والفخاريات، وجدت أوان ذهبية وفضية مزدانة برسوم حيوانات وعظام. ووجدت قبور غنية أخرى من عهد البرونز في السهوب الجنوبية لشاطيء البحر الأسود وحوض الغولغا. في الأصل، لم تكن الثروات المكنوزة ملكا حصريا للأسرة. فقوانين الضيافة والتعاقد تلزم الأغنياء الجدد بترك جزء من أرزاقهم إلى أعضاء القبيلة الآخرين: فالرؤساء، والشيوخ، كانوا يلتزمون من حين إلى آخر بذبح الماشية للأعياد وتوزيعها: وعند وفاة أحد الأثرياء، ينفق جزء من ثروته لوجبة المأتم، وجزء آخر يدفن مع الجسد، وجزء ثالث يعود ليوزع في العشير. فالثروة الشخصية، المعارضة لتقاليد النظام العشيري، كانت بداية مقسمة.

مع ذلك، ولد تكديس الثروات بين يدي الأسر الملكية الفردية التي، بخلاف الملكية الشخصية التي تشكلت في أوج النظام العشيري، استخدمت لاستثمار عمل الآخر. فالملكية الفردية في الأسرة تتناول الماشية، المسكن، الثروة، بينما بقيت الأرض طويلا ملكية تعاونية، جماعية. والسمة المميزة للملكية الفردية هي بعامة قابلية التصرف ب: العبيد، الماشية، المراكب، الخ.، التي تخص الأسرة الأبوية، تصير بضائع يمكن بيعها أو تبديلها. وهكذا هربت الملكية الفردية من مراقبة المشاعة.

### تفكك نظام العشير

أفضى تطور الإنتاج إلى نشر اللامساواة التي تمثل بداية الصفة الجمعية: تشكل في القبيلة ثلاث شرائح تتمتع بحقوق متباينة. كان هذا إحدى محصلات قسمة العمل: كما أشار ماركس وانجلز، ولدت قسمة العمل البدائية نظام الفئات المغلقة. وبالفعل، حولت قسمة العمل الاجتماعية الكبرى المهنيين، وعلى رأسهم الحدادون، إلى فئة مغلقة، متميزة في بعض الحالات، مهانة في حالات أخرى. وكان المحاربون يقدرون أن يشكلوا فئة خاصة بهم. وهكذا تشكل، شيئا فشيئا نظام التراتب.

تراكم المدخرات الكبير والمتعظم، منذ ظهور الكنوز، وتحوله إلى نقود، خلق الفرق بالثروة بين أفخاذ وعائلات أبوية في نفس العشير. إذ امتلكت بعض العائلات الكبرى أخصب الأراضي وأوسعها، القطعان العديدة، والكثير من العبيد. وافتقرت عائلات أخرى، فقدت مواشيتها، وأرهقتها الفاقة في السنين القاحلة. كما ولد اتساع الملكية الخاصة التناحرات التي ساهمت أيضا بتفكك العشير. فمن جهة، يسعى قائد العائلة إلى امتلاك كل ما ينخص المشاعة الأبوية، والتأثير على أرزاق ومصائر أعضائها؛ وأصل هذا السعي،

في النهاية العائلة الضخمة إلى العبودية، رابطا إياها بسلطة رب البيت المطلقة. ومن طرف آخر، هدم تزايد فردية الإنتاج على أثر تطور الزراعة بسكة الحديد، العائلة الكبرى من الداخل. ففي أحشائها، ولدت الأسر الصغيرة التي حصلت على ملكيتها الخاصة، و مسكنها و غذائها. حدث تجزؤ العائلة الكبرى بالضرورة قبل هذا: فمن المشاعة الأبوية المتضخمة، انفصلت مشاعة بنوية، كبرت و تجزأت بدورها. لكن كلما تأكد الاقتصاد الفردي و توطد، ازداد توزع و تجزؤ العائلة الكبرى و أفضى إلى انفراط منهجي للعائلات الصغيرة المزودة بملكيتها.

قضى تطور الملكية الفردية بالتدرج على عادة توزيع الأرزاق و أرسى حقوق الأبناء الوراثية. ينجم من هذا أن العائلة الصغيرة، أو العائلة الفردية، تأسست على هيمنة الرجل و هدفت إلى ولادة أبناء لا ريب في انتسابهم الأبوي.

إن تبدد المشاعة إلى عائلات صغيرة أغلبها سيعيش وحده، كان كثيفا بخاصة في المشاعات الفقيرة، الأضعف من وجهة نظر الاقتصاد. بالمقابل، تجهد المشاعات الغنية في الحفاظ على تقاليد العشير، وهذا لعدة أسباب أهمها الإبقاء على طاعة عبيدها. و بالتالي، يأخذ تعاضد العشير في أثناء تشتت المشاعة معنى آخر. وبينما كان في السابق يتوجب على أعضاء التعاونية الأوفر حظا أن يفتسموا مع الآخرين نتاج عملهم، كلما كانت الثروة أكبر، يطلب هؤلاء الذين يقومون بهذا التوزيع هدايا بالمقابل. وينظم رؤساء العائلات الكبرى الغنية ما يسمى 'بوتلاتش'<sup>1</sup>، يوم توزع الأدوات، المواشي، الجلود، الخ، على رجال العشير والقبيلة. وبعد فترة زمنية، بعيد من أخذ ما أخذ وزيادة. وفي حالات أخوى، يفترض الرجل من الرئيس أو سيد البيت. وإن لم يستطع إيفاء دينه، سقط في حظيرة الدائن. أخيرا، يتيسر للرؤساء والأعضاء الأغنياء، الأغنى أرضا، ومصائد ومراعسي، أن يعتمدوا دوما على مساعدة الآخرين الذين، لهذا الواقع، يعملون مجانا. وهكذا تصير مبادئ التعاضد، المنحرفة في أثناء تفكك نظام العشير ونمو الثروة، وسيلة استغلال الأغنياء للفقراء. من هنا كان صالح الأثرياء في الحفاظ على علاقات كانوا هم أنفسهم أدانوها منذ برهة.

هكذا كانت الأسر الأبوية الغنية بالضبط هي التي تحافظ على التقاليد وترعاها بالظاهر. وبينما كانت المشاعات الفقيرة تنتقل إلى أسر صغيرة تنتقل إلى أفخاذ أجنبية، ينعزل الأغنياء كنبلاء بالولادة. وهم وحدهم يتذكرون أصلهم ويفخرون به، ويتحدثون

<sup>1</sup> — مهرجان ديني عند الهنود الحمر، يتبادل فيه الهدايا.

دوما عن جدودهم الأماجد وهكذا تلتحق الثروة ب"النبل" الوراثي. في هذه الحقبة من الزمن كان الغنى يرافق النبل أبدا. والفقراء، ما أن يخرجوا من العشير، حتى يفقدوا دعم المنظمة التي كانوا آنذ قوتها الواقية الوحيدة. لذا يشهد ارتباطهم بالأغنياء، بالنبلاء: يدفعهم عزهم الاقتصادي والاضطهاد الذي يمارسه أغنياء العشيرة إلى وضع أنفسهم تحت "حماية" الرؤساء والشيوخ، فيتحولون أخيرا إلى شبه عبيد. ويتفاهم التناقض بين الأغنياء والفقراء من الآن ومعه بين العبيد والرجال الأحرار. وعقبت فوارق الثروة في رحم العشير والقبيلة شراكة المصالح البدائية، مخلفة الاستثمار والتناحر.

بداية، بقيت الأسر المستقلة، المنحدرة من العشير الأبوي، على تواصل. لكن فوارق الثروة والتناحر بين غني وفقير قطع كل أواصر القرى. أحيانا، كانت إقامة العائلات الصغيرة عند عشائر أخرى تتم التفكك. فذابت وحدة العشير والأرض، وهي إحدى أهم سمات المجتمع المشاعي البدائي. ولم تعد الأفخاذ الجديدة تبنى على أساس القرابة الدموية، بل على أساس الجوار؛ الأمر الذي نسميه مشاعيات "الجوار" أو "الأرض".

يمكن أن تتكون من أسر كبيرة وصغيرة متقاربة، وأيضا من أسر انحدرت من أفخاذ مختلفة، لكن في الحالين لا يعتبر أعضاؤها أقباء. فخلق مشاعيات الجوار سهل النشاط الاقتصادي؛ وعند تفكك العشير، كانت الشكل الوحيد الممكن للاتحاد بين الناس، تحفظ في بنيتها بعض سمات العشير: المشاعة تتمتع، مثلا، بحق الأفضلية على أراضي أعضائها، الحق الذي يمكن أن يترجم أحيانا إلى تقسيم جديد دوري، له موظفوه الخاصون. إذن، تتضمن كل مشاعة ثنائية، كانت تسمى تناقضات بين ملكية الأرض المشتركة والملكية الخاصة لكل عائلة: البيت والباحة، الماشية والأدوات. ففي رحم مشاعة الجوار "الزراعة المجزأة"، والملكية الفردية للثمار، تعطي الفردية انطلاقة لا تقاس بتنظيم مشاعات أكثر بدائية<sup>١</sup> وتصير هذه الثنائية مع الزمن مصدر تشتيت مشاعية الجوار

وحسب الشروط الطبيعية والتاريخية، تشكلت نماذج عديدة من مشاعيات الجوار المتميزة بدرجة تطور الملكية الخاصة.

### الديموقراطية العسكرية

إن تفكك نظام العشير كان يثر العلاقات الاجتماعية القائمة ولا يمكن أن يتم سلميا. ويشير مؤسسو الماركسية أن الاضطهاد هو قابلة المجتمع القديم، وأم المجتمع الجديد. كلن

<sup>١</sup> - ١. ك. ماركس و ف. أنجلز، محفوظات، ي باند، ص ٣٣٧، معهد الماركسية اللينينية.

النبل الولادي بحاجة لتنظيم يتكفل بالدفاع عن الثروات وكبح كفاح العبيد والفقراء؛ أي حاجة لبناء فوقي سياسي يعزز مجيء مجتمع جديد طبقي.

بدائية، اضطلمت بهذه المهام اتحادات سرية ذكرية. في تلك الحقبة والثروة تحتل أهمية بالغة، لم يكن القبول في الاتحادات السرية مشروطاً بالمبادرة، إنما بالولائم والهبات: فالشباب الذي لا يستطيع أبوه أن يذبح لمأدبة ما كفاية من الخزائير، أبواب الاتحاد مغلقة في وجهه. إذن، في ذلك العهد، لم تكن الاتحادات السرية ترفض العبيد والنساء فقط، بل أيضاً الفقراء الأحرار. ويعارض الاتحاد كلياً من ليس عضواً فيه ويجهد، بالتالي، أن يؤثر على السر. وتعمل الاتحادات السرية على إخافة الجهلاء، وتقتص منهم، وتخلهم. هيمنت هذه الاتحادات على ظاهرات الحياة الاجتماعية الجديدة، وفي رأسها الأبوة والثروة.

كان لها الحق في أن تعلن قداسة ملكية أعضائها وتعاقب بقسوة وفظاظة من يجرؤ على الاعتداء عليها. وبالمقابل، كانت ملكيات الجهلاء أو الدنيويين غير محمية وتتعرض للنهب. ويضطهد الاتحاد المرأة والعبيد، ويبرز سطوة الرجل والسيد. يلزم المدنيين المتخلفين بالوفاء وفي حال العجز يصادر أرزاقهم. وقد يتولى القضاء أحياناً للنظر في الخلافات بين القرى. تمنع إراقة الدم أثناء جلساته القضائية العليا. لكن القرية المدانة كلنت تعاقب بلا رحمة: محاربون مقنعون يهاجمونها ليلاً، على ضوء المشاعل وصخب الصاخبين المتسكعين، ويسيطون على المواشي.

كلما توطد تفوق الأغنياء والنبلاء، تترك الديمقراطية القديمة المكان لفوقية سياسية جديدة: الديمقراطية العسكرية. يقودها، كما العشير، قائد، مجلس شيوخ وجمعية شعبية. لكن هذه التنظيمات كانت ذات طبيعة أخرى. الرئيس الأكبر يختار من الرؤساء الأغنى في الأسر الأبوية؛ ثم تصير مهمته وراثية في حدود هذه الأسرة النبيلة أو تلك. تستند سلطته إلى غناه، وعدد ذويه وعبيده وناس قبيلته، قبل مناقبه الشخصية. وكثيراً ما دعم سطوته بتصرفات بربرية. هكذا، عند موت زعيم داهومي (أفريقيا الغربية)، يقتل على القبر أولئك الذين حفروه؛ فضلاً عن دفن نسائه، ثمانون راقصاً وخمسون مقاتلاً أحياء؛ وطيلة ١٦ شهراً التالية ترسل له رسائل للاطلاع على أحداث البلد. يقر الزعيم ومجلس الشيوخ دوماً كل القرارات، بينما يقتصر دور الجمعية الشعبية، المكونة فقط من المحاربين، على الإصغاء لهما منفعة بالصراخ وحققة السلاح.

إن سمي البناء الفوقي السياسي لزمن تفكك العشير ديمقراطية عسكرية، فذلك لأن

الحرب وتنظيم الشعب لهذه الغايات يصير آنئذ وظائف عادية للحياة البشرية. وتبدل الحرب طبيعتها: سابقا كانت تنشب الحرب للثأر من خرق الحدود أو لبسط حقول الصيد، أما الآن تهدف الحرب النهب؛ ويصير الإغتناء مهنة. في هذه الحروب، تتشكل الاتحادات القبلية، يأمرها زعيم منتخب من بين رؤساء القبيلة. وتعزز حروب السلب سلطتها التي تنبسط لتتحول إلى سلطة أبدية. وفي الوقت ذاته، نرى ولادة المؤسسة التي تدعم جدا سلطة الزعيم: جمعية السلاح. فحرب السلب تهيم مكانا لشركات أو حلفاء خاصة تتعرض للأخطار والأهوال، مستقلة عن العشير. يجمع الرئيس حوله رجالا يعيشون السلب ويتحدون بالوفاء وليس بالقرب. كان ثمة أبناء نبلاء وعبيد أيضا. وبدعم من جمعيته، يصل الرئيس العسكري أخيرا إلى السلطة المطلقة. هكذا تتفصل المنظمات التي توجهها الديمقراطية العشيرية من الشعب وتصير نقيضه: منظمات هيمنة واضطهاد موجهة ضد الشعب.

### ولادة الدولة

ليس في التاريخ البورجوازي مسألة أكثر ضبابية من مسألة الدولة. فالمؤرخون الفلاسفة والحقوقيون البورجوازيون يقدمون الدولة كمنظمة تهدف الخير العام. ويجهدون في تجميلها وجعلها مثالية، المحامي عن كل الناس، أيا كانت طبقتهم. في الحق، الدولة هي "...جهاز مرهون للحفاظ على هيمنة طبقة على أخرى".<sup>١</sup> آلة مؤذية تولد حيث تكون الطبقات قد وجدت؛ يشهد تأسيسها تناقضات لا حل لها من أجل منظمات النظام العشيري. وبعبارة أخرى، ما أن تتشكل طبقات من عبيد وأناس أحرار، ويظهر التناحر بين العبيد والأحرار، بين الأغنياء والفقراء، حتى تظهر الحاجة للمنظمات التي عوضا من إخماد هذه التناقضات، تضغط على مصالح طبقة لمصلحة طبقة أخرى، تضطهد العبيد والفقراء لمصلحة النبل العبودي.

لقد نهضت الدولة على أنقاض نظام العشائر، الذي ربي في رحمه منظمات الدولة. تتميز الدولة بسمتين: بداية، وجود سلطة عامة منعزلة عن المجتمع وتعارضه (أركان هذه السلطة هم أخوة السلاح والمحكمة المكونة من الزعماء والشيوخ)؛ وبالتالي، يتحد الناس حسب مبدأ الأرض وليس مبدأ القرى. تقوم الدولة بمهمتين أساسيتين: كبح مقاومة الجماهير الشعبية (أولا) وتوسيع حدودها أو تدافع عنها ضد الجوار.

يجد تباين الطبقات والدولة تعبيره الإيديولوجي في الدين. ففي أيام انهيار نظام

<sup>١</sup> - لينين، الدولة، للنشر باللغات الأجنبية، موسكو ١٩٥٤، ص ١٥

العشائر، كانت عبادة الأجداد مقدس وتمارس بحماس في كنف الأسر النبيلة، بينما يفقد الفقراء، الزاحفون بأفخادهم وأخلافهم، بشكل طبيعي حتى ذكرى أصولهم. تنبع من هذا فكرة الفرق بين أقدار مصائر المتوفين بالنسبة للأغنياء (النبلاء) والفقراء. يتصور بعض الشعوب أن الفقراء يتحولون بعد الوفاة إلى حيوانات، بينما يؤول الأغنياء إلى أرواح إنسانية الشكل. وتعتقد قبائل أخرى أن أرواح الأغنياء والقادة فقط خالدة بينما تنفسخ أرواح الفقراء والمرووسين. في أثناء تفكك نظام الأفخاذ، يعود دور يزداد بروزاً لعبادة الرئيس والقبيلة. ينتقل هذا منذ الآن كرمز لرفاه التعاونية. ويطلب منه أيضاً النقاء المطلق: لا وجود للعاهات والجروح؛ لا تناول إلا الغذاء الخاص، مثلاً حليب قطيع معين. والقيافة تشهد على الازدهار العام: تزدهي قبائل الزولو المحاربة ببداية زعمائها المفرطة، فبعضهم ينتقل أو يتحرك بصعوبة بدون معونة. لا ينشغل هؤلاء القادة بالإنتاج، تطول أظافرهم وتطول. وروح القائد المتوفى قوة سحرية واسعة، قادرة على مؤازرة الآخرين. فتطلب عبادة فخمة وتقديساً فريداً وفي أثناء محو ذكرى الوجود الحقيقي للزعيم، تصير روحه روح حامي القبيلة. هو ذا تعدد الآلهة الممزوج بالمعتقدات القديمة: فكرة السلف الحامي الإنساني الشكل تختلط بفكرة الطوطم وقوى الطبيعة. من هنا أدرك الله بداية إلهاً — حيواناً، إلهاً — شمساً، إلهاً — قمراً، الخ. فتشكلت تدريجياً شريحة مغلقة مهنتها إدارة العبادة. هي الكليروس الذي يدعي أنه الأقرب إلى أرواح الجدود ويطلب لهذا السبب حق التأثير عليهم. فمن الآن وصاعداً، التأثير على الأرواح، أي على الطبيعة، هو امتيازها. مرتكباً ثياباً باذخة مزدانة بالتمائم، خافي الوجه وراء قناع حيوان، يصير الكاهن، المسلح بالبطلة وقضيبها الموروث، وسيطاً بين المجتمع وقوى الطبيعة: ومحتكراً هذا الحق، يحول الأفكار السانجة في تمكنه من التأثير بالسحر على الحيوانات والنباتات بواسطة التأثير على المجتمع ذاته. ففي أيدي فئة مغلقة قليلة العدد تدافع عن مصالح النبالة بتصوير العبادة الدينية في المجتمع المنقسم إلى طبقات وسيلة ضغط. والتفسير الخيالي لظواهر الطبيعة التي تهيمن على الإنسان، يستغلها النبلاء، لاستعباد الكادحين، إخضاعهم لقوى فوق — طبيعية وللقوى الاجتماعية الجديدة. ويصير الدين أداة هيمنة في يد طبقة على أخرى.

لقد ولدت الطبقات والدولة في شروط وفترات متباعدة. وهكذا، بفضل الري، يتوصل سكان وادي النيل، قبل اكتشاف البرونز إلى إنتاجية عمل تمكن من تشكل طبقات. وفي هذه المنطقة، وكذلك فيما بين النهرين، تشكلت الدولة في العصر الحجري الجديد، أي نهاية الألف الرابع قبل الميلاد. في حالات أخرى، أمّن ارتفاع الزراعة واتساع التدجين

اقتسام المجتمع إلى طبقات في عصر البرونز، كما لدى الحثيين وبعض شعوب آسيا الأخرى. إنما الأمر بالنسبة لأغلب شعوب أوروبا، آسيا وأفريقيا، تفكك النظام العشائري ولا تظهر الطبقات إلا بعد خلق صناعة الحديد. وفيما يخص العالم الجديد، انتقل عدد صغير فقط من القبائل (بخاصة في المكسيك والبيرو)، عند اكتشاف أمريكا، إلى تفكك النظام العشائري وأسس أولى الدول. مع أن الحديد لم يكن قد عرف بعد.

#### اللوحة الأولى: تاريخ المجتمع البدائي

الزمن الجيولوجية	تاريخ مطلق	عصور وحقب	تشكل الإنسان	طبيعة العلاقات الاجتماعية
بليستوسين		العصر الحجوي الأدنى		
محطة قبل الجليدية	منذ مليون سنة	بريسليان	ظهور الإنسان	قطيع بدائي
	من ٤٠٠٠٠ - ١٠٠٠٠	سليمان		
بداية المحطة الجليدية	من ١٠٠٠٠ - ٤٠٠٠٠	آشليان	إنسان نياندرتال	
التوسع الجليدي الأقصى	حوالي ٤٠٠٠	موس تريان		
نهاية المحطة الجليدية	من ٤٠٠٠ - ١٢٠٠٠	العصر الحجوي الأعلى	الإنسان العاقل	بداية عصر الأمومة
الرابع....	من ١٢٠٠٠ - ٦٠٠٠	العصر الحجوي الأوسط		انطلاقه نظام العشائر
	من ٤٠٠٠ - ٣٠٠٠	الحجر الجديد الأعلى		تفكك نظام العشير وظهور الطبقات في الشرق
	من ٣٠٠٠ - ٢٠٠٠	عصر البرونز		تفكك نظام العشير في المنطقة السهبية من أوروبا وآسيا
	١٠٠٠	عصر الحديد		تشكل الطبقات في اليونان وروما

## الفصل الخامس

### الشرق

#### تمهيد

##### بلدان الشرق القديمة:

في الشرق تكونت أولى الدول. الشرق القديم مساحة شاسعة يبدأ من مصر حتى الصين ويضم الجزء الجنوبي من آسيا وشمال - شرق أفريقيا. يطلعا تاريخ شعوبه على ولادة وتطور أقدم دول العبودية، المبنية على اقتسام المجتمع البدائي إلى طبقات.

يضم بلدان هذا الشرق شرط طبيعي فريد هو تنالي الوديان الخصبة مع أمصار واسعة صحراوية والسلاسل الجبلية. خمسة وديان واسعة نهريّة: وادي النيل في أفريقيا الشمالية، وادي دجلة والفرات (ما بين النهرين) في الجنوب - الغربي من آسيا، قرب الخليج العربي، وديان الهندوس والغانج في الهندستان ووادي هوانغ - هو في الصين. تحد وادي النيل من الغرب الصحراء الكبرى؛ تتاخم بين النهرين من الغرب الصحراء العربية وفي الشرق سلسلة زاغروس؛ في الشمال والشمال الشرقي من وادي الغانج، تنتصب جبال هماليا؛ ويضم وادي هوانغ - هو في الشمال والشمال الغربي مناطق منغوليا الصحراوية.

إنها لوديان ملائمة جدا للزراعة. تروي فيضانات مجاري المياه هنا الحقول، المناخ حار، التربة ثرية ومهيأة للعمل. وقد بدأت الزراعة هنا قبل غيرها - وتطورت بسرعة.

في أثناء تاريخها، خلقت مجتمعات الشرق حضارات غابرة مارست تأثيرا عظيما على ارتقاء بلدان القديمة أوروبا. كانت الحضارات الأكثر نفوذا هي حضارات مصر، ما بين النهرين وبلدان وسيطة بين فلسطين وسوريا. أقامت



هذه البلدان، الواقعة في منطقة البحر الأبيض المتوسط، علاقات تجارية وثقافية مع جيرانها، بما فيها مناطق الشاطئ الأوربي، التي أخذت قبائلها وشعوبها من مصر، ما بين النهرين، فلسطين، سوريا والهند الكثير من عناصر ثقافتها. انتقلت هذه المكتسبات إلى شعوب أوروبا الحديثة وصارت وقفا على الحضارة الأوروبية.

يبدأ تاريخ الشرق بتشكيل المجتمع العبودي والدولة، أي نهاية الألف الرابع قبل الميلاد. لا يريد التقليد ان ينتهي التاريخ القديم بتوقيت أو حتى بقرن محدد: ففي الغرب، وصل بنا حتى انهيار إمبراطورية الفرس (القرن الرابع قبل الميلاد)، بينما استمر تاريخ الهند والصين حتى قيام النظام الإقطاعي، الذي بزغ في القرون الأولى للميلاد.

هكذا، كانت الأطر الإقليمية والمتسلسلة زمنياً للتاريخ القديم للشرق اتفاقية: لا يشمل بعامة تاريخ الإيجيين قبل-الهليينيين، الذين عاشوا في الألف الثاني قبل الميلاد ولم يقيموا علاقات مع بلدان الشرق. كان المجتمع العبودي والدولة في الشرق ذا سمات نوعية يمكن معارضتها بالسمات القديمة اليونانية-الرومانية.

هذه السمات هي:

١ - تطور ضعيف للنهج العبودي، استمرار طويل للعبودية الأبوية وأشكال استثمار شبه - أبوية. ٢ - تطور ضعيف في ملكية الأرض الخاصة واستقرار مشاعة الجوار. ٣ - بناء فوق سياسي مبني أساساً على سلطة ملكية عاتية (الـ"استبداد الشرقي").

لكنّا ونحن نشير إلى هذه الخواص الاقتصادية والسياسية، يجب أن نتذكر أنها لم تكن دوماً ملازمة لكل الدول؛ وبالتالي، كانت تظهر هنا خصائص واضحة للمجتمع العبودي الكلاسيكي. ومن جهة أخرى، حفظت دول اليونان والرومان القديمة - بخاصة في بداية تاريخها - كثيراً من العناصر النموذجية للأنظمة الاجتماعية في الشرق.

ليس ثمة أي فرق مبني بين دول الشرق والقديم الكلاسيكي: الخصائص الثانوية التي تميزها لا تمنعنا من تصنيفها في نفس الشكل الاجتماعي والاقتصادي. يقدم تاريخ الشرق فائدة كبيرة: منها ولدت أول المجتمعات المقسومة إلى طبقات

ووضعت أسس الثقافة المادية والروحية التي تشبهت بها شعوب اليونان وروما وصارت أخيرا وقفا على الحضارة المعاصرة.

### مصادر تاريخ الشرق القديم

يجب تقسيمها إلى ثلاث مجموعات: نصوص يونانية ولاينية، بقايا آثار ونصوص بلغات الشعوب الشرقية.

النصوص اليونانية واللاتينية، التي درست منذ زمن، والتوراة، الذي سنتناوله فيما بعد، تقدمتها حتى بداية القرن التاسع عشر إعادة كتابة تاريخ الشرق القديم. إنها أعمال مؤرخي وجغرافي العصور القديمة، الذين زار بعضهم مصر، سوريا وما بين النهرين، بينما بنى البعض الآخر على معلومات متداولة أو فسروا كتباً اختفت الآن. يبين هؤلاء الباحثين، يعين مكان خاص لهيرودوت، الكاتب اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد، الذي ارتحل كثيرا، لا حظ وتحدث عن أعراف وعادات البلدان التي زارها؛ ويذكر أيضا خرافات كثيرة حول ماضي مصر ودول أخرى.

لكن كتابات هيرودوت أتت بأخطاء جسيمة انعكست على أعمال بداية القرن التاسع عشر. لقد عاش هيرودوت في نهاية التاريخ القديم للشرق: كان معاصرا لملوك فارس، لكن ٢٥٠٠ عام تفصله عن المراحل الأولى لتاريخ مصر وما بين النهرين؛ فضلا عن أنه لم يكن يعرف اللغات الشرقية. وإن كانت هذه الأخبار عن فارس ذات قيمة فعلية، فما يقصه عن مصر سطحي. متناقض وخرافي. فعمل هيرودوت لا يمكن أن يكون مصدرا إلا لدراسة الحقبة الأخيرة من التاريخ القديم للشرق. وينطبق هذا أكثر على باحثين أحدث (سترابون، ديودور، بلوتارك) الذين لا يقدمون سوى معلومات متفرقة غير مترابطة حول هذه المسألة أو تلك.

بين المؤرخين الذين كتبوا باليونانية، يجب تمييز الكاهن المصري مانيتون (القرن الثالث قبل الميلاد): لقد دخل دور محفوظات المعابد وأمل أن يطلع قراء اليونان على تاريخ بلدهم. للأسف، لم يحفظ كتابه ونحن لا نعرف منه إلا استشهادات واردة في أعمال لاحقة. وهذا ما وقع لأعمال الكاهن البابلوني بيروز، معاصر مانيتون، الذي جاول أن يكتب تاريخ ما بين النهرين.

إن نصوص الباحثين القدماء لا تتضمن إلا معطيات عفاء حول التاريخ القديم

للشرق الأدنى؛ وقليلًا ما تناولوا الهند (ثمة بعض الأخبار حول النظام الاجتماعي والسياسي لهذا البلد في حدود القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد في كتاب ميخاستيم، سفير اليونان لدى الهند، لكنه لم يصلنا إلا ناقصًا)؛ أما الصين، يكاد مؤرخو القديم لا يعرفون عنها شيئًا. لذا بقي العلماء حتى بداية الحفريات الأثرية في الشرق بدون وثائق حول تاريخه فلا يقدرّون إنجاز دراسة معمقة عنه.

بدأت التنقيبات المنهجية في الشرق الأدنى في منتصف القرن التاسع عشر. كشف بوتا ولايار آثارًا في القصور الملكية الآشورية. ثم سبروا خرائب مدن ما بين النهرين الأدنى، منها بابل ولاغاش. وشرع بأعمال ضخمة في مصر، حيث تدرس بقايا المعابد والقبور.

زودتنا حفريات نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ببعض المعارف الشرقية. فقد عثر ج. مورغن في مصر وغرب إيران على آثار سبقت ولادة المجتمع الطبقي؛ ودرس الإنجليزي فلاندر بترى بخاصة مدينة كاهون، ليس عنواحة الفيوم وفي آسيا الصغرى؛ قرب بوغاز - كوي، سبر واككر وماكريدي بي هاتوزا، عاصمة الحثيين.

كان نشاط علماء الآثار كبير الفائدة بخاصة فيما بين الحربين ١٩٢٠ - ١٩٣٠. ففي هذه الفترة اكتشفت حضارة الهند القديمة (تنقيبات موهاندجو - دارو وهارابا في حوض الهندوس)، وتنقيبات عن مدينة صينية قرب أنيان، مقابر ومدن سومرية تخص المجتمع البدائي وأول مجتمع طبقي، دراسة المدن الأكادية (كيش، أشنوناك، إلخ)، واكتشاف مملكة مارني في المجرى الأوسط للفرات ومدينة أوغاريت الفينيقية، وتنقيبات في شمال سوريا (مدينتا ألاا وسامال) وكثير من اللقى الأخرى التي غيرت بعمق أفكارنا حول تاريخ الشرق. وأعمال العشرينات والثلاثينات، المنفذة بمهارة رائعة كالتى وردت الآن، كشفت عن تجليات حضارة منسية حتى آنئذ أو يشار إليها لمأما.

وتمت مكتشفات هامة في تلك الحقبة في مصر: نجحوا منذ ١٩٢٢ في العثور على رمس سليم لأحد الفراعنة، وقبل الحرب العالمية الثانية اكتشف رمس آخر في تانيس. ورغم أن الرمس الأول (توتأنخامون) لم تعش سوى عدة سنوات وماتت شابة، والبثاني (شيشانك الأول) الذي حكم في نهاية تاريخ مصر القديمة، يوم لم تعد البلاد تستطيع ادعاء السيادة في الشرق - الأدنى، فللمسعين أهمية استثنائية لدراسة تاريخ وثقافة مصر. وفي شامكارا

سبرت رموس أقدم ملوك وكبار موظفي مصر، أهمها رمس هيمكي الذي يعد أكثر من خمسين حجرة.

ليس لمكتشفات العقد الأخير أن تنافس لقي ماري وأوغاريت، هارابا وآلالاه، لكنها أضاءت بعض قضايا التاريخ القديم: لقد حددت تنقيبات تل-حسون (الآشوري) وأمكنة أخرى آراءنا حول بدء الزراعة والتدجين وحول ظهور مدن في الشرق-الأدنى، وتشهد حفريات جيزير، هاتسور، بيت-تسور مراكز أخرى في فلسطين على الثقافة الرفيعة لهذا البلد في العصر الكنعاني وتسهل بعمق إلقاء نظرة جديدة على تاريخه. وفي حلوان (مصر) بدأوا حفريات لمدينة أموات واسعة تعود إلى أيام تشكل الدولة المصرية، وفي الصين، قرب دانيان، اكتشف قبر ضخم من النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد.

تزودنا أعمال علماء الآثار السوفيات في شرق القفقاس وآسيا الوسطى أيضا بمواد رفيعة الأهمية: حرر ب.بيوتروفسكي خرائب حصن أورارتي في كارمير-بلور قرب إيريفان، ثم اكتشفت في نفس المنطقة بقايا قلعة أورارتي آخر على هضبة آرسن-بيرد. وعثر س.تولستوف وزملاؤه على عدد كبير من الآثار التي تتحدث عن تاريخ القبائل الرعوية وولادة دول عبودية في آسيا الوسطى.

فقد أغنى علم الآثار بعمق معارفنا حول معرفة الشرق، وأزال النسيان عن حضارات مهولة أو تكاد تكون غير معروفة. فحفريات مراكز قديمة ثقافية شرقية تأتي دوما بأبناء جديدة تدرس وتعمق معرفتنا. تضيء الحفريات قبل كل شيء الآثار المادية التي توضح بذاتها تاريخ الشرق الاجتماعي والاقتصادي: الأدوات، الفخاريات، عظام الحيوانات، وبقايا أخرى تكشف ارتفاع الاقتصاد؛ وترسم خرائب القصور والمسكن البسيطة صورة عن المدينة القديمة. فقد أعطت حفريات عالم الآثار م.زغوتيم، الذي كشف سنة ١٩٥٤ قبر سبماحييت، أحد فراعنة الأسرة الثالثة غير المعروف حتى آنذ، أعطت موادا هامة حول مصر. وأتاحت أعمال باروت في ماري إعادة تركيب قصر ملكي، ومعبد للإلهة عشتار، ومدرسة ملحقة بالقصر. وكانت البيوت الشعبية مبنية بطمي الأنهار.

وتشهد مقبرة ماري على فاروق كبير في الثروة: فإلى جانب قبور بسيطة ترايبية، وجدت قبور فخمة من البلاط الحجري. ولوحة مشابهة قمتها مدن قديمة أخرى في الشرق، منذ كاحون في واحة الفيوم حتى أنيان على ضفة هوانغ-هو.

لكن البقايا المادية لم تميز العلاقات الاجتماعية إلا باختصار: فللحصول على صورة صحيحة لمجتمع العبودية، ولأشكال الملكية أو البنية الفوقية السياسية، لابد من الكلام عن التاريخ المدني. ونحن نولي أهمية خاصة لمعرفة الرسوم الموجودة على المواد الأكثر تنوعاً: معدن، حجر، عظم، ألواح آجرية، البردي والرق. فلم تحظ أغلب نصوص لغات شعوب الشرق القديم بالدراسة إلا بعد حفريات القرن التاسع عشر والعشرين. بل إن بعضها فقط عرف (بخاصة باللغتين الصينية والهندية) استناداً إلى مخطوطات محفوظة في بعض المكتبات، وهكذا كان وضع التوراة.

إن التوراة، أحد أعقد مصادر تاريخ الشرق الأدنى، فهو جمع لتقاليد من كل نوع، مخرافات سامية وبخاصة عبرانية، وجدت في حقب متباعدة بدءاً بالألف الثاني وجمعت حوالي القرن الثاني قبل الميلاد. تعرض قسم أساسي منه ولاشك لتحريفات وتعديلات مقصودة، خدمة لمصالح الكهنوت. التوراة هو كتاب العبرانيين المقدس، وبعدهم لبعض المسيحيين: وبعد زمن طويل اعتبر من وحي الله نفسه. فمن الطبيعي أن تقبل المعلومات الواردة فيه حول تاريخ العبرانيين وجيرانهم، في العصر الوسيط دون شكوك أو انتقادات. فقط، نقد التوراة، الذي تطور في النضال ضد الصورة للعصر الوسيط، الإقطاعي، عن العالم، هو الذي رفع الأقوال المكررة، والتناقضات والأخطاء الواردة في هذا الكتاب "المقدس". كان المبادر الأول لهذا النقد هو الفيلسوف المادي للقرن السابع عشر ب.سبينوزا، وقبله، آبن إيزرا، أحد علماء القرن الثاني عشر، الذي أشار إلى تناقضات في النص التوراتي. وتابع باحثون بورجوازيون آراء سبينوزا، (ج.ويلهوزن، س.مونكل وآخرون)، وخطا مؤرخون سوفيات (ن.نيكولسكي، أ.رانوفيتش) خطوة أخرى على هذا الطريق: عوضاً من الاكتفاء بالنقد الأدبي البحث للنص، جاهدوا في تحرير الآراء الاجتماعية في كل كتاب والأصول الاجتماعية للتعديلات والتحريفات التي أدخلها المنقحون لأغراض معينة، أولها خدمة الأكليروس قديماً وخدمة للسياسة حالياً. ولقد دعمت نقد التوراة النصوص العبرية القديمة المكتشفة في العام ١٩٥٠ في الأردن؛ تعود هذه النصوص إلى الحقبة الممتدة من القرن الثالث قبل الميلاد حتى القرن الثاني بعد الميلاد، وتتضمن فيما تتضمن أجزاء من التوراة تختلف بشكل ملموس عن النص التقليدي، المعروف في نسخات القرن الوسيط.

يدل هذا أن معطيات التوراة لاتساهم في دراسة تاريخ الشرق الأدنى (مبدئياً في الألف الأول قبل الميلاد) إلا بشرط تمحيصها بحذر وأستذة.

أهم بما لايقاس، من وجهة النظر التوثيقية، الكتابات المصرية، السومرية، الأكادية، الحثية، الأورارتية، وغيرها التي عثر على أغلبها في أثناء التنقيبات. كان علماء من القرن الثامن عشر قد اطلع على هذه الآثار (نقوش على الصخر والجدران، والبردي)، لكن أحدا لم يستطع أن يتقصاها، لأن فن قراءة الهيروغليفية (وهي كتابة أغلب شعوب الشرق الأدنى) كان قد أهمل تماماً وقبل دراسة هذه النصوص، كان يجب تعلم إزالة رموزها.

كان شامبوليون قد حل إشكالية الكتابة المصرية المعروفة بثلاثة أشكال، منذ العام ١٨٢٢. اعتمد على نقش مسمى "حجر الرشيد، أو صخرة روزيت"، الموجود في مرفأ مصري بهذا الاسم. تكرر النقش ثلاث مرات: باليوناني، بالهيروغليفي القديم وبحروف ديموطية (سريعة مصرية من أصل أحدث).

كشفت قراءة النص اليوناني أن هذا قرار الفرعون بتولية الخامسة، بنقوش على الصخرة باللغة المصرية (مرتين) وبال يونانية. فصلنا على ترجمة النص المصري. كان معروفاً قبل شامبليون، أن الأسماء الملكية محاطة بإطار بيضوي، اسمه "كرتوش" بفضل كرتوش، حدد شامبليون الحروف الهيروغليفية التي تشكل اسم الفرعون ووجد مفتاح الكتابة المصرية.

وبالطريقة ذاتها، قرأ في نقوش أخرى أسماء كليوباترا، بيرنييه، الكسندر، ثم حل رموز الأسماء المصرية تحوتمس ورمسيس. وبامتلاكه عدداً كبيراً من الشارات قرأ الأسماء ونصوصاً كاملة. ومعرفة اللغة القبطية (لغة مصرية مسيحية)، والعربية والعبرية أعانته على تذليل هذه المهمة. وضع معنى لكثير من التراكيب الهيروغليفية وأنشأ كتاب صرف ونحو (قواعد) مصرية. ومنذئذ، صار للغة المصرية أساس متين.

ولقد تم حل رموز الكتابة المسمارية على يد غروتغاند واولنسون.

وفي العام ١٨٠٢، نجح غروتغاند، بقوة المثابرة والطروح المبتكرة، بترجمة القسم الأعظم للنقش الفارسي لأيام كيركسس، المرسوم بثلاثة أنماط من الحروف المسمارية. لكنه لم يجد معنى لكل الإشارات، المسألة التي أفلقت علماء العالم قاطبة طيلة نصف قرن

تقريباً. كان نص بابل هو النص الأصعب، الذي تمثل شاراته مقاطع وكلمات كاملة، دون الاهتمام أن كل شارة لها عدة معاني. وكانت الكتابة المسمارية البابلية قد حلت رموزها نهائياً حوالي العام ١٨٥٠م، حصيلة لاكتشاف راولنسن نقشا ضخما للملك داريوس بثلاث لغات - *susienne*، الفارسية القديمة والبابلية - على صخرة بأستون *be'histoun*. كان النص الفارسي، وقد قرئ بدون صعوبة، يتضمن حوالي ٢٠٠ اسم ملك، وبلد وشعب. الأمر الذي مكن راولنسون، هانكس وأوبيرت من حل لغز الجزء الفارسي أولاً، ثم الجزء البابلي من النقش؛ باستخدام لوحات مدرسية، وجدت أننذ في بقايا قصر آشور بانيبال. كانت تحمل، إلى اليسار، شارات تمثل كلمات تامة (رموز فكرة)، وإلى اليمين، ذات الكلمات مرسومة بمقاطع وشارات صوتية. فالكتابة المسمارية المستخدمة فيما بين النهرين كانت إذن بالغة التعقيد وتبدو بثلاثة أنواع من الحروف: رموز فكرة، مقطعي وصوتي - رمزي *phonogramme*.

كانت قراءة النصوص الحثية والأورائية سهلة، لأنها كانت بالحروف الأكادية؛ لكنها كانت صعبة على الفهم، لأن العلماء كانوا يجهلون هاتين اللغتين. ومنذ منتصف القرن التاسع عشر حاول العالم الإنجليزي سايس قراءة وترجمة عدة نقوش أورائية؛ فقد أقام عالم الأسلحة ك. كاتكوف لدراسة هذه اللغة وساعده عالم الآشوريات المعروف م. نكولوسكي والعالم السوفيياتي ج. فلكتشيفلي. وبدأ ب. هروزني بدراسة اللغة الحثية في أثناء الحرب العالمية الأولى؛ وفي العام ١٩٥٢، نشر ج. فريدرك أول قاموس حثي. والآن تحقق تقدم واسع في قراءة النصوص المسمارية. وبالتالي حل أربعة علماء رموز الرقيم الفينيقية لكتابة الأبجدية.

كانت الهيروغليفية الحثية صعبة على الفهم؛ لكن تنقيبات كارا-تبيي (فني سيليسيا) التي جرت في العام ١٩٥٠ زودت العلماء بنقوش مزدوجة اللغة من القرن السابع قبل الميلاد، بحروف فينيقية وهيروغليفية حثية. وهكذا وضعت القاعدة اللغوية الضرورية لهذه الدراسة.

لم تحل رموز الكتابة الهيروغليفية للغة الهندية القديمة، التي اكتشفت آثارها في أثناء التنقيب في موهندجودارو وهارابا. فضلاً عن ضرورة بذل جهود كبرى أخرى من أجل لغات الشرق الباقية: تحديد القواعد، تأليف المعاجم، تحقيق صحة القراءة. فليس بدون

سبب يرى العلماء أنفسهم مضطرين باستمرار على تغيير تدوين أسماء العلم، التعابير، وتصحيح الترجمات الموجودة.

إن النصوص بلغات الشرق القديمة بالغة التنوع. يمكن تصنيفها في عينتين رئيسيتين: وثائق وأخبار. ينتسب للعينة الأولى قبل كل شيء القوانين. عدا التشريع العبراني، الملحق بالتوراة، يجهل علماء القرن التاسع عشر قوانين دول الشرق القديمة: ففي عامي ١٩٠١-١٩٠٢ اكتشفت شريعة حمورابي، ملك بابل. ثم، اغتنى العلم بشرائع أخرى (مقاطع متناثرة غير كاملة ولا مترابطة) من ملوك ما بين النهرين، الحثيين، الآشوريين؛ وقد اكتشف حديثا في توما الجبل (هرموبولس القديمة) أجزاء من الشريعة المصرية تخص الملكية، الإيجار والميراث.

تتألف أغلب المصادر الوثائقية من نصوص رسمية: علاقات الموظفين، عناوين الشراء، كتب العبادة، أعمال التبادل، عقود الإيجار، قرض وإيداع، إلخ. في أثناء التنقيب في مدن ما بين النهرين المنخفضة (شورباك، لاغاش، لارسا وغيرها)، جمعت مئات آلاف الرقم الآجرية تحمل وثائق من هذا الشكل، التي تتيح -بسبب عددها ذاته- التغلغل في حياة البلاد الاقتصادية في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد. واكتشف أرشيفات مشابهة في مدينة كحوريت دي نوزي، في ماري، في مركز مقاطعة غانيز وغيره. وظهرت بعض الرقم في حفريات كارمير-بلور. وقد نشرت الرقم المسماة "الكنز"، أصول بيرسيولس، مصادر ثمينة لدراسة موضوع ما يزال مجهولا: وضع المنتجين المباشرين في فارس القديمة. أما الوثائق المصرية، البردي أو الحجارة والصخور المنحوتة، فقد وصلتنا بعدد أقل بكثير من عدد الرقم الآجرية؛ فضلا عن أنها تعود إلى أيام السيطرة الفارسية.

المكان الهام تحتله الوثيقة المسماة "اكتشاف حران"، لائحة بمواطن المعمرين الآشوريين في هذه المنطقة، بما فيها المواشي، الأعمال الهيدروليكية، والعبيد، إلخ. تتضمن المصادر الوثائقية أخيرا رسائل الأشخاص المتميزين، الموظفين والملوك، الواصلة إلينا بعدد كبير؛ أهم هذه المراسلات هي رسائل حمورابي، التي تعالج مختلف القضايا الاقتصادية، الإدارية والمالية. وثمة مجموعتان من الرسائل لها أهمية كبرى لفهم تاريخ السياسة الخارجية في الشرق الأدنى: أرشيفات ملوك ماري التي تجلو العلاقات بين



بابل، بلد ماري، وآشور في النصف الأول من القرن الثامن عشر قبل الميلاد، والرسائل المسماة تل الحمارنة، المرسلة إلى الفراعنة آمثوفس الثالث وأخناتون (نهاية القرن الخامس عشر بداية الرابع عشر قبل الميلاد) من المتنفذين السوريين وملوك آشور، بابل، ميتاني ودول أخرى. وجدت في مكان عاصمة أخناتون، التي تقع خرائبها قرب تل الحمارنة.

تشكل بعض النصوص التاريخية أهم المصادر الإخبارية. هي النقوش الموقوفة للحملات العسكرية، التي نحتها الفراعنة على جدران المعابد الخارجية؛ سير أو تراجم شخصية كاملة للملوك، مثل سيرة إيدريمي، ملك ألاش (القرن الخامس عشر قبل الميلاد)، منقوشة على نصب؛ وقائع تاريخية تشبه واقعات الحثيين، تتحدث بالتفصيل عن النزاعات في السياسة الخارجية بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر.

ونموذج آخر من المصادر، النصوص الأدبية، الأخبار، الحكايات والخرافات التي تطلعنا ليس فقط على تاريخ الثقافة الروحية، إنما على العلاقات الاجتماعية أيضا. هكذا، يمتلك العلماء الآن نصوصا متنوعة مكتوبة بعدة لغات شرقية. يزداد عدد هذه النصوص من عام إلى آخر. وهي المصادر الرئيسية لدراسة تاريخ الشرق.

### دراسة تاريخ الشرق القديم

رغم الأعمال الحديثة، منذ القرن الثامن وبداية التاسع عشر، لمباشرة دراسة تاريخ الشرق القديم، لم تتمكن هذه المحاولات أن تتجح؛ فنقص المصادر جعل الكتابات خيالية وسطحية. فقط تكديس المعطيات الأثرية وحل رموز الكتابة خولت العلماء في النصف الثاني من القرن الماضي الانتقال من المخططات النظرية إلى محاولة إعادة كتابة تاريخ مصر وما بين النهرين استنادا إلى معطيات ملموسة ومحددة. اكتفى بعض دارسي مصر وآشور بعامة بنشر النصوص والتعليق عليها، لكن في نهاية القرن التاسع عشر ظهرت مؤلفات توليف جمعي لـ آد. إيرمن، ج. ماسبيرو وغيرهما.

في هذه الجعبة إذن انبعثت قضية العلاقات بين الحضارة المكتشفة وحضارات الشعوب القديمة الأخرى؛ أرادوا حلها بنظرية الوحدة البابلية، لوضعها العالمين ف. ديليتزش وه. وينكلر. تتضمن هذه النظرية ولاشك فكرة صحيحة: بمقارنة الخرافات البابلية بالأساطير التوراتية (وفيما بعد، بعد اكتشاف شريعة حمورابي، الحق البابلي إلى

الحق العبري، استخلص ديليتزش ووينكلر أن التشريع والخرافات الواردة في التوراة ولدت بتأثير الثقافة البابلية، الأقدم جدا من العبرية. إنه استنتاج هام يساعد بخاصة في نقد التوراة. لكن أنصار هذه النظرية (الوحدة البابلية) لم يلقوا عند هذه الملاحظة الصحيحة (بل الفريدة): إنما عموما مدعين أن الحضارة الإنسانية كلها تأخذ جذرها من بابل، التي كانت مهد الثقافة المصرية، اليونانية، الصينية وحتى البيرووية (نسبة إلى البيرو).

هكذا وصلوا إلى خلاصة خاطئة كلية، وهي أن القيم الرئيسية للحضارة خلقت حتى نقطة معينة (في بابل)، لتشتع بالتالي في أنحاء العالم قاطبة.

ليس هذا كل شيء. بل على تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين، حينما كتب وينكلر أعماله، لم تكن الثقافة القديمة السومرية قد كشفت بعد وكان العلماء يجهلون ولادة الحضارة السومرية البابلية. لذا اتسمت الثقافة البابلية، كما يتصورها وينكلر، بصيغة أسطورية: وكأنها سابقة الوجود، انبعثت جاهزة في لحظة معينة، كما أننا التي خرجت من رأس زيوس مسلحة.

وبعبارة أخرى، العيب الأساسي في نظرية الوحدة البابلية، هو جودها الارتقاء؛ الأمر هام جدا بالنسبة لنظرية ظهرت في ظل الامبريالية.

لقد انتقدها بعض العلماء البورجوازيين، في مقدمتهم إد. ماير، مؤلف تاريخ العصور القديمة (١٨٨٤-١٩٠٢) في عدة مجلدات، الذي يتضمن فضلا عن الشرق الأدنى اليونان وروما. استنادا إلى دراسة مصادر عديدة، يتضمن كتاب ماير الكثير من الملاحظات والخلاصات الهامة. كان المؤلف محقا في استقائه وجهة نظر التاريخ العام ليدل على طريق التطور الوحيد لشعوب العصور القديمة. لكنه أخطأ الدرب، لأنه عاصر التاريخ القديم، غير مبال بطبيعة مجتمعاته العبودية وقدمها كإقطاعية في الحقبة الأولى من عهدها وكرأسمالية في الحقبة التالية. إن هذا التعليل اللا-تاريخي للنظام الاجتماعي لبلدان الشرق القديمة أتبعه كثير من الباحثين، مثل ج. هـ. بريستد الذي يجد في تاريخ مصر، حقبة التفكك الإقطاعي والاستبداد المستتير. ولقد عاشت نظرية الإقطاع الشرقي في العصور القديمة حتى يومنا هذا وهي بادية في مؤلفات ل. ديلاپورت "شعوب شرق البحر الأبيض المتوسط" (١٩٤٨) وكتاب ي. درتون وج. فياندير "مصر" (١٩٥٢).

ثمة علماء في الغرب يتبنون التاريخ الفاشي، ويدرسون تاريخ الشرق القديم بالروح

العرقية، ويقومون من القبائل الهند-أوربية (الآرية) عرقا متفوقا، حامل التقدم، ومن جهة أخرى، ينادون بالملكية المستبدة باعتبارها خير الأنظمة.

يحاول آخرون بعقوبة إعطاء دورة التاريخ تعليلا مادريا فتوصلوا، بدراسة ذات المصادر، إلى وعي خصائص ارتقاء مجتمع الشرق القديم أو نظامه السياسي. نذكر هنا ت. هـ. جاكوبسون الذي شكك، في كتابه المخصص للنظام السياسي لأولى الدول السومرية، بالنظرية الرجعية حول خلود الاستبداد الشرقي. ويهتم المؤرخون الأجانب الحاليون بحيوية بولادة الحضارة في الشرق؛ وأعمال المؤرخ الانكليزي ج. شيلد تعالج هذه المسألة. ويهتمون أكثر فأكثر بالبلدان الواقعة وراء "الشرق الكلاسيكي": الهند والصين.

لكن رغم النتائج القيمة، ورغم وفرة الوثائق، لم يستطع العلم البورجوازي المعاصر أن يؤلف التاريخ القديم للشرق؛ يشهد على ذلك المجلد الأول من "تاريخ الحضارات القديمة" المنشور في باريس ١٩٥٣، ومؤلفات مثل "تاريخ العالم" (بيرون، ١٩٥٢-١٩٥٦)، و"شعوب وحضارات" (باريس، ١٩٣٦-١٩٥٣). والنظرة المثالية للعالم، المثالية البورجوازية، لا تترك المجال للدين، إعمال قضايا اليهودية، الملكية، المجتمع المجاور: المشكلات الاجتماعية، الحضارة على نظرية الركود، وغيرها من السمات النوعية لأغلب المؤلفات المعاصرة حول تاريخ الشرق.

### تسلسل الأحداث (تاريخيا)

إن تسلسل الأحداث واحدة من أعقد قضايا تاريخ الشرق. فالشعوب الشرقية تؤرخ الأحداث استنادا إلى سني الملك أو غيرها من الظواهر الطارئة ("السنة التي تلت تأسيس دورماتي")؛ فليس ثمة نقطة انطلاق عامة. ولتثبيت تسلسل الأحداث في الشرق تستخدم لوائح الملوك والأسر المالكة مع إشارة لمدة الملك؛ لوائح الملوك الآشوريين، مثلا كاملة ونتيح تدوين واقعات التاريخ الآشوري انطلاقا من العام ٩١١ قبل الميلاد. تستخدم وثائق مشابهة لتسلسل الأحداث في أزمنة غابرة. هكذا وضع مانيتون لائحة الأسر المالكة المصرية، ويردي تورين تعطي لائحة الفراعنة (مع ثغرات ضخمة، لغير هذا، وليس لتاريخ مصر كله). والعلماء أيضا لم ينجحوا بإعادة كتابة إلا تسلسل الأحداث النسبي (تتابع) أحداث الألف الثالث والثاني قبل الميلاد؛ وذكر الظواهر الفلكية في النصوص

القديمة كانت تخول الباحث من تحديد تسلسل الأحداث المطلق لبعض الفترات التاريخية؛ لكن فصوص الألفين الثالث والثاني لا تذكر منها سوى القليل. والتزامن الوارد في بعض الوثائق (منها رسائل تل العمارنة) يذكر رجال السياسة المعاصرون وسبل تحقيق التواريخ.

ساهمت كل هذه العوامل لوضع التسلسل الحثي العام الذي حدد، مثلاً، ملك حمورابي في القرن الواحد والعشرين، أو العشرين قبل الميلاد. لكن المراسلة الدبلوماسية التي وجدت في ماري و"اللائحة الملكية كورساباد" التي نشرت في ١٩٤٢-١٩٤٣ مكنّت من مراجعة كل التسلسل الحثي في الشرق. وكما دل و.ف. البرايت، يجب "تقليصها" وبخاصة، حكم حمورابي يعود إلى القرن الثامن عشر. أيدت هذه النتيجة لما اكتشف في ألالاه وأوغاريت، التي تشهد على تشابه كبير بين فخاريات أيام حمورابي والقرن الخامس عشر قبل الميلاد. لا يمكن قبل فارق ٥٠٠ عام، فضلاً عن العثور على آثار من عهد حمورابي في طبقة أرضية أحدث من تلك التي حوت الأشياء المصرية من عهد أمينصحيث الثالث؛ وإن دراسة القويم المصري حدثت منذ زمن بعيد في النصيف الثاني من القرن التاسع عشر قبل الميلاد.

حتى اليوم لم تحل كل قضايا الخلاف حول تسلسل الأحداث في الشرق، وكثير من العلماء يفضلون على التسلسل "القصير" لأولبرايت التسلسل "الوسطى" الذي يطرحه س.سميث وأ. أنياد. لكن القول بثقة أن التسلسل "الطويل"، المعمول به قبل الحرب العالمية الثانية، فات زمانه. وستفضي مكتشفات جديدة إلى تحديد أكيد لتسلسل الأحداث في مابين النهرين ومصر.

لم يعد تسلسل أحداث البلدان الأخرى للكلف الثاني (مملكة الحثيين، ميتاني، سوريا، إلخ) إعداداً مرضياً، وسيوضح في الأغلب بفضل التزامن مع تاريخ بابل ومصر.



## الفصل السادس

### سومر وأكاد

#### جغرافيا ما بين النهرين

إن وادي دجلة والفرات، الذي حمل الاسم الإغريقي ميزوبوتامي ("بلدان ما بين النهرين")، هو مهد الدول التي تعد بين الأقدم في العالم. ينبع دجلة والفرات من جبال أرمينيا. في البداية، يكونان قريبين جداً من بعضهما، ثم يتباعدان جداً ولا يقتربان مرة أخرى إلا عند دخولهما أرض العراق الحالي. هنا يبدأ الوادي المسمى ميزوبوتامي. يقسم الوادي قسمين، الأعلى والأدنى، يختلفان في شروطهما الطبيعية.

في الغرب، يتأخم ما بين النهرين أرض العرب على طول الوادي تقريباً؛ في الطرف الشمالي الغربي فقط، في القطع الأقرب إلى البحر الأبيض المتوسط، ينضاف إلى وادي أورانت الخصب. في الشرق، على طول ميزوبوتامي، تنتصب جبال زاغروس التي تفصلها عن إيران. يصب ميزوبوتامي في الخليج العربي. لعب هذا الوضع الجغرافي دوراً هاماً في تاريخ البلاد القديم. كانت الشعوب التي تقطنه في صراع مستمر مع القبائل الجبلية والسهبية الراغبة في ولوج الوادي الخصب واحتلاله. أما العلاقات التجارية والثقافية، كانت شعوب الميزوبوتامي تباشرها مبدئياً مع بلدان البحر الأبيض المتوسط (عن طريق وادي الأورانت).

تتألف تربة الميزوبوتامي - الأسفل بخاصة من الطمي. من الألف الرابع حتى الألف الأول قبل الميلاد، كان الشط الذي يحده الخليج العربي إلى الشمال مما هو عليه الآن ب ٢٥٠ كم تقريباً، وكان لدجلة والفرات مصباتها الخاصة. في الأزمنة الغابرة، كانا يصبان ولاشك في البحر في النقطة الأكثر تقارباً بينهما الآن. وتربة الطمي للميزوبوتامي الأسفل خصبة جداً. لكن حرارتها تكلف الناس بذل جهود مضيئة.

تتأني الصعوبة أساساً من جفاف الصيف ، والاجتياحات التي يسببها الفيضان . فتفيض الأنهار على مساحة أرضية واسعة تبقى غارقة حتى شهر تموز . وأثناء الفيضان وبعده، حتى تشرين الثاني، يكون الطقس جميلاً، وتجف التربة بالتدريج، لكن بصورة غير منتظمة أبداً. في المناطق العالية، يتم الجفاف عاجلاً، ونفسو التربة كالحجر، وتتشقق؛ وفي المنخفضات، بالعكس، يتجمع الماء ويشكل أهواراً، مواطن للحميات. إن لم تحارب هذه الشروط السلبية يعاني الشعب الجوع والأمراض التي تهلكه. هذا مايكشفه لنا التاريخ الحديث والمعاصر للميزوبوتامي. لكن الجزء المنخفض من هذه المنطقة كان في العصور القديمة مناطق خصبة تغذي جماهير غفيرة؛ وفي ذلك العصر، كان عمل الأجيال العديدة قد خلق شبكة معقدة من المنشآت التي تنظم الفيضانات وتؤمن احتياطات من الماء من أجل الفصل الجاف.

كان فقدان المواد الأولية (الحجارة والمعادن)، بشكل تام تقريباً، وهو مالا غنى عنه لتطوير الاقتصاد، إحدى سمات هذه المنطقة. ومن حيث الشجر، لاينبت هنا سوى النخيل، ثماره غداء، لكن خشبه ليس مادة بناءية. كان الغضار هو الثروة الوحيدة: يصنع منه الآجر، والأواني وحتى الرقم للكتابة. أما في الميزوبوتامي الأعلى، التربة والمناخ شيء آخر، فيضاناته أقل إيذاء. وحياته الاقتصادية أيضاً وأخلاقه مختلفة.

### تشكل الطبقات والدول في الميزوبوتامي-الأسفل

أقدم قرية اكتشفت في الميزوبوتامي هي تل-حسون، في شمال البلاد: من العصر الحجري القديم والألف الخامس تحديداً. في هذه المنطقة سارع الناس نحو الزراعة البدائية. وهنا أقام أوائل المزارعين والمدجنين. ويرى كثير من العلماء أن الناس انتقلوا من هنا في بداية الألف الرابع إلى ميزوبوتامي-الأسفل (سومر) وشرعوا يصلحون الأراضي السبخية في مجرى الفرات الأدنى.

لقد استقر الشعب السومري قديماً على المرتفعات التي لاتصلها الفيضانات. كانوا يعيشون من الصيد، من الزراعة بالنكاش، ومن تربية المواشي، و يصنعون الخزف الملون وأدوات نحاسية (الخطاطيف، السكاكين، إلخ). كان الناس يقطنون أكواخا من آجر وخيزران وكانوا أيضاً يجهلون الفارق الاجتماعي والرزقي، كما تشهد وحدة شكل القبور

والمآتم. ونصب المرأة الأجرية المكتشفة، تجعلنا نقول أن عهد الأم في سومر دام حتى النصف الأول من الألف الرابع.

لقد وسعت منشآت الري كثيراً القوى المنتجة، لأنها أمنت سقاية الحقول بشكل منتظم، لمنع التربة من الانهيار والسبخية. وكانت المياه الزائدة تساق من الأمكنة المغمورة نحو مجمعات وغدران، وفي وقت الجفاف، يصل ماء التجمعات والأنهار نفسها إلى الحقول بالأقنية. ولاتقاء اجتياح الأراضي المنخفضة، تحاط بالسود. بداية، كانت أعمال الري تتم بمآزر هذه المشاعة العشرية أو تلك، لكن إنجازها على مدى واسع كان يتطلب توحيد جهود عدة تعاونيات.

لقد أفضى التطور اللاحق للقوى المنتجة إلى تفكك النظام المشاعي البدائي وإلى تشكل طبقات اجتماعية. فالأعمال الفنية في النصف الثاني من الألف الرابع تمثل معارك، مقتلين على العربات، واتخاذ أسرى. ثم ينحدر الأسرى إلى عبيد ويستخدم عملهم فني اقتصاد النبل أو في بناء منشآت للري.

ترافق هذا التقدم الاجتماعي الهام مع تبدلات ثقافية عميقة: ظهور الكتابة (بداية نقشية)، بناء صروح دينية (معابد) من الطمي الغضار. ولقد وصلتنا من ذاك الزمن نقوش عديدة تمثل مشاهد الصيد أو العبادة وأختام دائرية، الأولى في ميزوبوتامي: يدحرجونها على الآجر الطري حيث تترك بصمة تخدم مثلاً كإشارة على الملكية الخاصة.

يربط مؤرخون بورجوازيون مثل سيبيرس وباروت هذه التطورات الاقتصادية والثقافية بغزو عروق جديدة: وإلى هذا الزمن يرجعون غزو السومريين، الآتين من الخارج، حاملين الكتابة، النقش أو الحفر والأختام وفق البناء الدقيق والجميل. إن هذه النظرية التي تنكر، إجمالاً، فكرة الارتقاء التقني وتقيم مقامه تقدم هجرة شعب ما هجرها بعض الأخصائيين الغربيين بخاصة فرانكورت وشيلد اللذين أثبتا وجود استمرارية بين السكان الزراعيين البدائيين لميزوبوتامي الأسفل وسومري النصف الثاني من الألف الرابع. لذا يدعوا شيلد سكان هذه المنطقة الأقدمين قبائل جنود السومريين.

تظهر طبقة المجتمع ثابتة في الخفريات التي كشفت مدينة الأموات الملكية في أور، في جنوب سومر (بداية الألف الثالث). بخلاف قبور العشير. كانت مدينة الأموات هذه مبنية بالآجر، مؤلفة من عدة غرف؛ والميت المزدان بالحلي كان مدفوناً مع عربات مقرونة



إلى ثيران، ومحاربين مسلحين، وفصيل من العبيد من الجنسين. وقبور الملوك في أور (ومراكز أخرى من ميزوبوتامي، مثل كيش وماري) تشهد على تشكل الدولة في هذه البلاد في بداية الألف الثالث.

في الأصل، تشكلت هنا دول مستقلة (أريدو، أور، شوروياك، أوما، لاغاش، ليسش، ماري، إلخ)، كان سكانها غير متجانسين: أكاد، الواقعة في شمال سومر، والمجرى الأوسط للفرات تسكنهما قبائل تختلف عن السومريين، من حيث الشكل واللغة. تتكلمان لغة سامية (الأكادية) وتقرّب قبائل السهوب التي تعيش في غرب ميزوبوتامي؛ لاشك في أن سامي أكاد أتوا من الغرب.

مع ذلك، لم يكن السومريون والأكاديون في بداية الألف الثالث يختلفون من حيث مستوى التطور الاقتصادي: كان الشعبان يشكلان دولا عبودية في محطتها الأولى.

#### اقتصاد ومجتمع سومر وأكاد

إن نصوصا عديدة رسمية (آية بخاصة من أرشيفات شوروياك ولاغاش تطلعنا بالتفصيل على اقتصاد ميزوبوتامي في منتصف الألف الثالث. أساس الزراعة يقوم على الري، شبكة واسعة من الأقنية، السدود والحراجز التي تتيح سقاية منتظمة للحقول. ويتم العمل بالأرض بواسطة محراث بسيط من الخشب، تجره الحمير أو الثيران؛ وكان المنكاش مستخدما بتوسع. والمنجل منشار من صوان بغمد آجري. يقطع ساق القمح بعامة تحت السنبلة تماما، وبعد الحصاد تجلب الماشية إلى الحقول. لدرس السنابل، تدوسها على البيدر الثيران والحمير. يجمع الحب في أكوام، يذرى بالمذراة وينقل إلى الامراء. ثم يهرس أو يسحق بالحجر.

كانت الحبوب الأكثر انتشارا هي الشعير والحنطة الرومية التي تستخدم لصنع الخبز والجعة. وكان السومريون يزرعون الكتان، العنس والسمسم لاستخراج الزيت. والشجرة المثمرة الأهم هي النخيل؛ من خشبها تصنع الأوعية المنزلية، وبأليافها -الحبال والحصر؛ تشكل ثمارها أغذية متنوعة. وبذورها المنقوعة بالماء تستخدم علفا. وتأتي الكرمة من سومر، وكان خمر الشمال هاما بشكل عام.

كانت تربة المواشي أيضا متطورة في ميزوبوتامي السفلى: فالنصوص الأقدم تذكر وفرة الغنم. تربي المواشي في المراعي المستنقعية والجبلية؛ وفي الزرائب، تغذى

بالحبوب. وتعطي الأبقار اللحم والحليب الذي يصنعون منه الزبدة والجبن؛ وتربى الخراف للحمها وصوفها؛ وكما قلنا أنفاً، تستخدم الحمير والثيران دابة ركوب. لم يعرف السومريون الحصان. أخيراً، لعبت تربية البط والحيش دوراً واسعاً.

ينتج من هذا أن الأشكال القديمة بحثاً عن الغذاء -الصيد والقنص- تراجعت إلى المقام الثاني، رغم أن جمهرة من الميزوبوتاميين استمرت في العيش على الصيد.

بقيت الأدوات حتى الألف الثالث بدائية جداً: أغلبها من الحجر والآجر، كان النحاس قد ظهر منذ الألف الرابع، لكنهم لم يتعلموا صنع البرونز إلا في النصف الثاني من الألف الثالث. بالمقابل، كان الفخار السومري، الحرفي حتماً، يستخدم في صنع الأواني والأوعية المشوية. وكان التجارون يعرفون صناعة العربات والقوارب، ويطرق صناعات السلاح الخناجر والسهام. والثياب منسوجة من الصوف والكتان، وأسلحة الوقاية هي من جلد. ويتقن الجواهريون صناعة الحلي من الذهب والفضة والحجارة الثمينة.

تقنية بناء المسكن بدائية تماماً: البيوت البسيطة من الغضار والخيزران، وتشاد المعابد والقصور فقط من الآجر الخريني. تزدان هذه الصروح بنقوش قليلة البروز استمدت عناصرها من الأسطورة والتاريخ.

طبعاً، لم يكن الحرفي منعزلاً أبداً عن الزراعة وتجهيز الإنتاج البضاعي. على ذلك، ومنذ الألف الثالث، يستورد السومريون من بعيد المعدن والصخور أو الحجارة، وخشب الأرز والخمر. كانت طرق المواصلات الرئيسية هي الفرات ودجلة وكذلك الأبنية الواسعة الفاصلة بينها. وتقل كل الأحوال على ظهور الحمير.

والشكل الاستثماري الأقدم، الناجم عن التطور الكبير بقوى الإنتاج، هو استغلال عمل العبيد. وحسب إحصائيات (تقريبية جداً طبعاً) لـ أ.دياكونوف، كان عبيد لاغاش يشكلون نصف السكان، في أواسط الألف الثالث، وعدد النساء يتجاوز عدد الرجال. كانت المصادر الرئيسية للعبودية الحروب وشراء العبيد من البلدان المجاورة (بعمامة قليلة العدد)؛ واستثناء، كانوا يشترون الفتيان. وتحول الناس المدنيين الأحرار إلى عبيد، لم يكن في البدء موجوداً: أشير إلى هذا الأمر لأول مرة في وثائق القرن الرابع عشر قبل الميلاد.

كانت العبودية في سومر وأكاد ذات طبيعة أبوية: لا يحتل العبيد حيزاً خاصاً بهم في الإنتاج ويعملون بالتساوي مع الناس الأحرار، وغالباً في عمل واحد. كان كدحهم مستغلاً

في المنزل؛ ويرسلون أيضا لبناء منشآت الري، وإلى حراثة أرض البقول وبساتين الثمار؛ كان ثمة عبيد رعاة وعبيد حصادين. ويخصص عدد كبير منهم للمعابد وحكام المدن، وكان الأعيان يمتلكون عبيدا أيضا.

تتألف جمهرة السكان من مالكي عقاريين، وأعضاء المشاعة. ولقد ولدت مشاعة الجوار السومرية الأكادية عند تطور الزراعة المروية: كان التنظيم الاقتصادي العادي في ميزوبوتامي السفلى يرتبط بالتوزيع المنتظم للماء. كانت مشاعة الجوار إذن شديدة الاهتمام بان تبقى بين يديها الملكية العليا لمصادر الماء -قطاعات الأنهار والأقنية، أكثر من اهتمامها بالإدارة العليا للأرض. وفي الوقت ذاته، كان إنشاء منشآت الري، فتح وإغلاق المسود، تنظيف الأقنية -كان كل هذا يعضد المشاعة، لأنه يفرض التعاون البسيط، العمل المتكاتف بين أعضائها: وكانت هذه الاهتمامات تتطلب الإنجاز بوقت قصير وتحتم توافر جهود مئات الأيدي. والدور المهيمن لملكية الماء في ميزوبوتامي السفلى سمح بتسمية مشاعة السومريين-الأكاديين مشاعة المياه والأراضي.

كانت مشاعة المياه والأراضي تضم عائلات كبيرة وصغيرة؛ وكانت هذه العائلات دوما ذات طبيعة أبوية، تحددها هيمنة الزراعة بسكة حديدية للمحراث وتربية الدواجن، رغم نفوذ الكثير من بقايا عهد الأمومة، خاصة في جنوب البلاد. كانت المواشي والأراضي ملكية خاصة للأسر الصغيرة، لكن الأسرة الكبيرة كالمشاعة لها حقوق واسعة تحدد حقوق المالكين. يتضح هذا في عقود الشراء في شوروباك (القرن السادس عشر والرابع قبل الميلاد). فحسب هذه العقود يبيع الأرض عدد من الشركاء المشايخين، بينما يتلقى ذوهم (أ، جوارهم) هدايا لقاء خسارتهم حقوق تملكهم الأرض المباعه. تطلق عليهم الوثائق التعبير المعبر "أكل-مساهم بالسعر". وعرفت أيضا انتقالات حيث تبيع الأسرة الكبيرة مشاعة الجوار الأرض: بدون شك، كان جزء من الأرض يخص مشاعة الجوار والأسر الكبيرة.

لم تكن إعادة توزيع الأرض، المواشي والأرزاق الأخرى بين أعضاء المشاعة عادلة: كان نبلاء الدم يمتلكون أراضي واسعة تبلغ ١٠٠-٣٠٠ هكتار. وكانت ملكية الأشراف تبقى في يد العائلات الكبرى. وكان النبلاء بالولادة يعملون على دعم تقاليد نظام العشير في المرحلة الأخيرة، ويستند نفوذهم غالبا إلى الحفاظ على علاقات الأسر الكبيرة والعشير.

وكان النبلاء يشغلون في أراضيهم ليس العبيد فقط، بل أيضا ذويهم الذين كانوا أحرارا وافتقروا.

كانت ملكية المعابد تحتل مكانا هاما في اقتصاد البلاد: حوالي منتصف الألف الثالث، كانت المعابد في لاغاش تمتلك نصف أراضي المملكة المحروثة. تتكون سيادة الاكليروس من النبلاء، وتفيد ملكية المعابد إذن في دعم سلطة النبلاء بالولادة.

كانت أملاك المعابد تستغل بطريقتين: يؤجر قسم إلى مزارعين أحرار، يتلقون غالبا أيضا المواشي وحبوب البذار ويؤدون لقاء التمتع بهذه الأرض جزءا من محصولها؛ وكان القسم الثاني، الموضوع تحت رقابة المعبد المباشرة، يحرثه العبيد ومزارعون أحرار، يتوجب عليهم تسليم كل الموسم إلى أمراء المعبد ويستلمون حبوبا لقاء تعبهم وأحيانا منتوجات أخرى.

يضم جهاز المعبد، عدا الكاهنين، حرفيين، كتابا، مرتلين، وسوامم. ويوظف رهطا يشكل جزءا هاما من مرتزقة الدولة. لاتنفصل الأراضي المؤجرة للخدم، كونها أملاك معبد، لكن العلاقات الأبوية، وهي دوما في خدمة مشاعات الجوار، قد فقدت دورها الرئيسي هنا.

يتمتع كبار القسس أيضا بأراض واسعة إلى هذا الحد أو ذاك، يحرثها عبيد، رجال أحرار ومأجورون ومزارعون. ويسلب النبلاء حصة النخب من مردود تربية المواشي ويتلقون حصصا ضخمة مما يعتبر احتياط المعبد.

### النظام السياسي لسومر وأكاد

في منتصف الألف الثالث كان في ميزوبوتامي كثير من الدول الصغرى المستقلة. لاتتجاوز مساحة إحداها، المسماة لاغاش، (بما فيها الأراضي غير المروية)، ٣٠٠٠ كم<sup>٢</sup> وتضم ستة محلات هامة إلى هذا الحد أو ذاك، محاطة بأسوار، وعدد الناس الإجمالي ليس أكثر من ١٥٠٠٠٠ إنسان. وفيها ٢٠ معبدا ومحرمات، وفقا على عدة مقدسات.

على رأس الدولة عاهل يسمى باتيزي (يقرأ بعض العلماء هذه الكلمة السومرية "أنزي"، وأحيانا لوغال (السيد:بالمعنى الأدبي). بشكل عام، يجب اختيار هذا الباتيزي من أسرة شهيرة، بحيث يكون خلفه أحد أبنائه. كان يمارس مهام الكاهن الأكبر ويمثل الآلهة؛ يقود مرتزقة المعبد، يحكم اقتصاد المعبد، أهمها أعمال البناء والري. بداية، كان يعتبر

الملك-الكاهن، وأيضاً عادة القتل أو المصير الشعائري للملك، المرتبط بهذه الفكرة، التي عاشت طويلاً في ما بين النهرين، لا تتبدى إلا بشكل "طهارة" دورية للشخص الملكي. في منتصف الألف الثالث لم يكن الباتيزي بعد هو المالك الأعلى لكل أراضي الدولة. وأحياناً كان ملوك سومر وأكاد يشتركون أراض من الأسر الكبرى أو المشاعات المجاورة. ولا يسمح للباتيزي أن يتصرف بأمالك المعابد.

في المدن، كان يوجد جمعيات شعبية ومجالس شيوخ، تتولى الحقوق الفعلية: تنتخب (وتقيل ربما) العاهل، تحقق العدالة، تتخذ التدابير الإدارية، تناقش مع الباتيزي المسائل السياسية الأساسية (إعلان الحرب، مثلاً)، يقبلون مواطنين جدد في المشاعة، تدبر الأملاك العامة، إلخ. ومن مجلس الشيوخ يسمى ممثلو الإدارة، مثل مرعى المشاعة.

كان الجيش ما يزال منظمة شعبية: كان جنوده بنفس الوقت حراثاً، رعاة، مزارعين في أرض المعابد. كل هذا يخلو أن نؤكد استمرار مظاهر هامة من الديمقراطية العسكرية في الميزوبوتامي السفلى-على الأقل حتى منتصف الألف الثالث.

من جهة أخرى، بزغت خصائص سياسية جديدة: ظهرت وظيفة إدارة المعابد، التي يديرها الموظف، الذي يصدر توجيهاته لفصيل من الكتاب؛ وتشكل حرس خاص للباتيزي. كل هذا النهج، المرتبط مباشرة بالباتيزي، يختلف جذرياً عن تقاليد الديمقراطية العسكرية. لقد أثارت الحاجة للاستفادة الحكيمة من شبكة الري، وحصر العلاقات الاقتصادية بين المناطق التوجه إلى توحيد سومر سياسياً. وشددت ضرورة تعميق السلطة على العبيد هذه الحركة المركزية. ادعت بعض الدول المسيطرة ونجحت بضم أراض واسعة. وبدأ ملك كيش أور هذا الدور، لكن ايناتوم، عاهل لاغاش (القرن الخامس عشر)، نجح في دحر هذين الخصمين وبسط سيطرته حتى حدود ماري. غير أن هذه الإلحاقات لم تكن مستقرة.

### الصراع الاجتماعي في سومر وأكاد

لقد تراقق تشكل الطبقات والدول فيما بين النهرين الأسفل طبعاً بنضال ضار بين العبيد والسادة، بين الناس الفقراء ونبلاء الدم. وبالعنف والاضطهاد مورست السيطرة على العبيد المزارعين، الهيمنة التي تثير غضب ومقاومة المنتجين المباشرين. أخيراً، كانت نبالة الدم القديمة، المستقوية بأرزاقها الشاسعة وبموقعها المتميز في المعابد، تتناقض وتعارض الارستقراطية الحديثة، الناشئة من غزوات القتال والإدارة. للأسف، المصادر التاريخية

لا تقول شيئاً هاماً في هذا المجال.

إن أحد النصوص التي تعكس بحيوية النضال بين الشرائح الاجتماعية في لاغاش هو نقش الملك أوروكاجينا. نقرأ في هذا النص أن سلفه، الباتيزي لوغالندا، أذى حقوق المشاعات لصالح "المتنفذين"، مزق "قرارات الماضي"، أقام رقباء في كل مشاعات لاغاش، الذين فرض عليهم ضرائب تعسفية لمصلحته ومصلحة كهنته. وهؤلاء الرقباء، غير المكتفين بالضرائب، راحوا ببساطة ينهايرون الناس. انتزعوا من الفلاحين مواشيهم، طيورهم، الأواني النحاسية، الألبسة، خيرة الأشجار وأطيب الثمار، ويطلبون أسعاراً باهظة لدفن موتاهم أو إقامة المآتم أو الولائم. ويصادر الباتيزي ورجاله صوف أجمل الخراف البيضاء، ويفرضون على الخراف الأخرى فريضة خمسة شيكلات من الفضة لكل رأس؛ ويدخلون أيضاً حقوق الجمارك على الوثائق والأعمال القضائية. ولدى مجيئه (حوالي ٢٣٧٠ قبل الميلاد) أعاد أوروكاجينا ضوابط الضرائب القديمة، منع الابتزاز ودفع المال، وعزل المراقبين من المشاعات. وكان يزدهي، في نصه المنقوش، بأنه "أرسي الحرية". لكن النبلاء حافظوا، حتى بعد هذه الإصلاحات، على سلطة واسعة اقتصادية لم يستطع الباتيزي أن يلغيها. واستمر تفكك مشاعية الجوار. ويعيد، فقدت لاغاش استقلالها. وجدد باتيزي أوما ولوغالجيزي الصراع ضد أوروكاجينا، مستفيداً من الاضطرابات التي نشبت في هذه الدولة، هزم جيشها وألحق لاغاش. جعله هذا النصر قوياً ليخضع مؤقتاً كل سومر. وجعل مدينة أوروك القديمة عاصمة لدولته.

### ميزوبوتامي تحت حكم ملوك أكاد

في غضون ذلك، صار عواهل أكاد عتاة أقوىاء في شمال البلاد. كانت مدينة أكاد واقعة بين الفرات ودجلة، في نقطة اقتراب النهرين من بعضهما كثيراً. وليس بعيداً منها، على الفرات، كانت مدينة سيبار، مع معبد إله-الشمس شاماش، الذي شيده السومريون لكن الساميين احتلواها ووسعوها؛ وعلى دجلة بنوا مركزاً هاماً، أوبيس. وفي جنوب سيبار، أيضاً على الفرات، أنشئت كيش، أقدم مدينة في ميزوبوتامي. وبين دجلة والفرات، وجد معبر قوافل في غربه طرق أرابيا وفي الشرق الطرق الواصلة إلى جبال زاغروس. ويقدم موقع أكاد المركزي مكسباً كبيراً لملكها، مكنه من احتلال أراض تقع بين سيبار وأوبيس. وكان سارغون، ملك أكاد أول من نجح هنا حوالي ٢٣٦٩ قبل الميلاد.

لم يكن سارغون من سلالة باتيزي أكاد؛ فأسس أسرة جديدة. غير معروف بالضبط

ظروف وصوله إلى السلطة. بل كباقي قادة العصور القديمة، استوحى خرافات يصعب إرجاع بذورها إلى التاريخ.

اعتمد سارغون بعد وصوله إلى حكم أكاد على الجيش: خلق جحفا من ٥٤٠٠ مقاتل محترف. وبينما كانت ميليشيا المعابد السومرية المؤلفة من جنود ثقيلي السلاح، يقاتلون بأرتال متراسة ويرمون الأعداء بحراب طويلة، كان الدور الأول في جيش سارغون يعود إلى السهام ورماتها. كان أكثرها محروما من ملكية الأرض، قطعوا صلاتهم بمشاعاتهم وصاروا رصيда للملك.

في هذه الحقبة، نضجت ميزوبوتامي السفلى لتبني المركزة. فبدونها، لن يتيسر التطور للاقتصاد المبني على لاري؛ فالالاقتصاد معوق بحدود الدولة الصغرى التي تملك كل منها قطعا مختلفة القياس والمساحة. أخيرا، كان توسع العبودية يفرض منظمة سياسية قادرة لتأخذ في قبضتها الصارمة شرائح العبيد.

بدأ سارغون توحيد أكاد. فبعد أن صار ملك كيش ورئيسا لكل الدول الأكادية، شهد هجمات موفقة على الجنوب. انتصر على لوغالزاجيزي، استولى على أور ولاغاش، بلغ الشط وأخضع جنوب البحر كله. فتحت سلطة سارغون وأتباعه خلقت أول مملكة موحدة في ميزوبوتامي.

اشتد ساعد أكاد بشكل فريد في أيام حفيد سارغون، نارامسين (القرن الثالث والعشرون قبل الميلاد)، الذي لقب بـ"ملك أقطار العالم الأربعة". أخضع منطقة ماري وقبائل جبال زاغروس ومدن عيلام. وفي الشمال، بلغت قواته جبال أرمينيا.

بدأ ملوك أكاد أعمالا إنشائية ضخمة؛ أعاد سارغون بناء كيش، احتل قصر أكاد، وبنى عدة معابد. وأخذت أعمال الري بعدها الأوسع: بخاصة، حفرت قناة وصلت دجلة بالفرات. فتأزم وضع المشاعات التي أكره أفرادها على المشاركة بأعمال القصر؛ بنفس الوقت، وسع ملوك أكاد حقولهم، بإلزام المشاعات ببيع أراضيها. فقد عثر على نقش أكلادي يتحدث عن شراء أراضي الناس من قبل الملوك؛ كانت الأراضي مقسمة إلى أسهم واسعة تقيس حتى ٢٠٠٠ هكتار. ورغم أن البيع قرر في الجمعية الشبهية (ذكر هذا في النقش الملكي)، كان سعر الشراء (من الحبوب، النقود، الثياب، العبيد، إلخ)، يدفع إلى عميد العشائر وقرابته.

لقد أثار توسع الأعباء، احتكار أراضي المشاعات، وأخيرا، حروب الغزو الضارية،

نقمة الشعب. ثمة مصادر، أحدث، تتحدث عن عصيانين نشبا في نهاية ملك سارغون. وكانت انتفاضة هامة في أيام نارامسين. قاد الانتفاضة النبلاء الذين خشوا استيلاء الأرستقراطية الجديدة العسكرية والإدارية، مدعومة من السلطة الملكية في أكاد، وأبدوا غضبهم من اتساع الأملاك الملكية على حساب المدن والمعابد. واصطدم الملك أيضا بمقاومة الحكام السومريين، المعادين لمركزه دولة كهذه.

كبح نارامسين كل التمردات، لكن أتباعه لن ينجحوا بالحفاظ على وحدة مملكة "الأقطار الأربعة"؛ وإلى الاضطرابات السياسية الداخلية، أضيف التهديد الأجنبي. وحوالي العام ٢٢٠٠، هوجمت أكاد وسومر من قبل *Les Gouti*، الذي سماهم الميزوبوتاميون "أبالسة الجبال". سحق الغوتي مملكة أكاد، استباحوا مدنها (بخاصة مدن الشمال)، وفرضوا على الناس ضريبة باهظة. كانت معاناة مدن الجنوب السومرية أخف لأنهم عرفوا كيف يحافظون على استقلالهم. قادوا النضال ضد الغوتي، هزمهم ودحروهم من البلاد. وبعد زمن، توحدت سومر وأكاد من جديد، بزعامة أور هذه المرة.

### زعامة أور (٢١١٨-٢٠٠٧ ق.م)

سمي ملوك أور الذين وحدوا تحت سلطتهم ميزوبوتامي-السفلى "ملوك سومر وأكاد"؛ ثم سموا أسرة أور الثالثة. كان أشهرهم شولجي، الذي حكم قرابة خمسين عاما. ونجح باخضاع آشور (على دجلة) وحقق عدة انتصارات على محاربي عيلام.

في أيام أسرة أور الثالثة، استمرت الزراعة المروية والمهن بالتطور؛ أصلح السومريون والأكاديون مساحات واسعة من الأرض على طول مجرى دجلة، لم تكن تغمرها الفيضانات: أقاموا تقنيات نوعية لرفع الماء إلى مستوى "الحقول العالية".

مارسوا الزراعة بالسكة الحديد في كل مكان؛ فعوض المحراث البسيط الذي لا يتجاوز "هرش" التربة، استخدمت سكة الحديد التي تقلب التربة؛ وعوض الحمير، قرنوا الثيران. وأصلحت سومر الكثير من الحقول لزراعة النخيل وفي أكاد غرسوا الكروم.

تشير نصوص عديدة من الألف الثالث إلى ورشات البرونز، الفخار، التجارة الدقيقة، النسيج ومستودعات المعادن، الصوف، الخشب، إلخ. ووسع ارتقاء الزراعة والمهن والإنتاج البضاعي ومنت العلاقات بين مختلف مناطق البلاد.

خلق التطور الاقتصادي في نهاية الألف الثالث تيارين للتقدم الاقتصادي والاجتماعي. قبل كل شيء - تدعت الملكية الخاصة للأرض، في الحقول العالية والتي تسقى طبيعيا.



وراحت الملكيات العامة تنتقل شيئاً فشيئاً إلى أيدي الأسر الصغيرة والكبيرة، الأمر الذي أفضى إلى فوارق الثروة. وفقد كثير من الناس أرضهم وصاروا أجراء أو مزارعين صغاراً يعملون في حقول المالكين الكبار ويبيعون أحياناً كعبيد يؤمن لهم الحد الأدنى من الغذاء واللباس ، ويحدد حجم الأعمال.

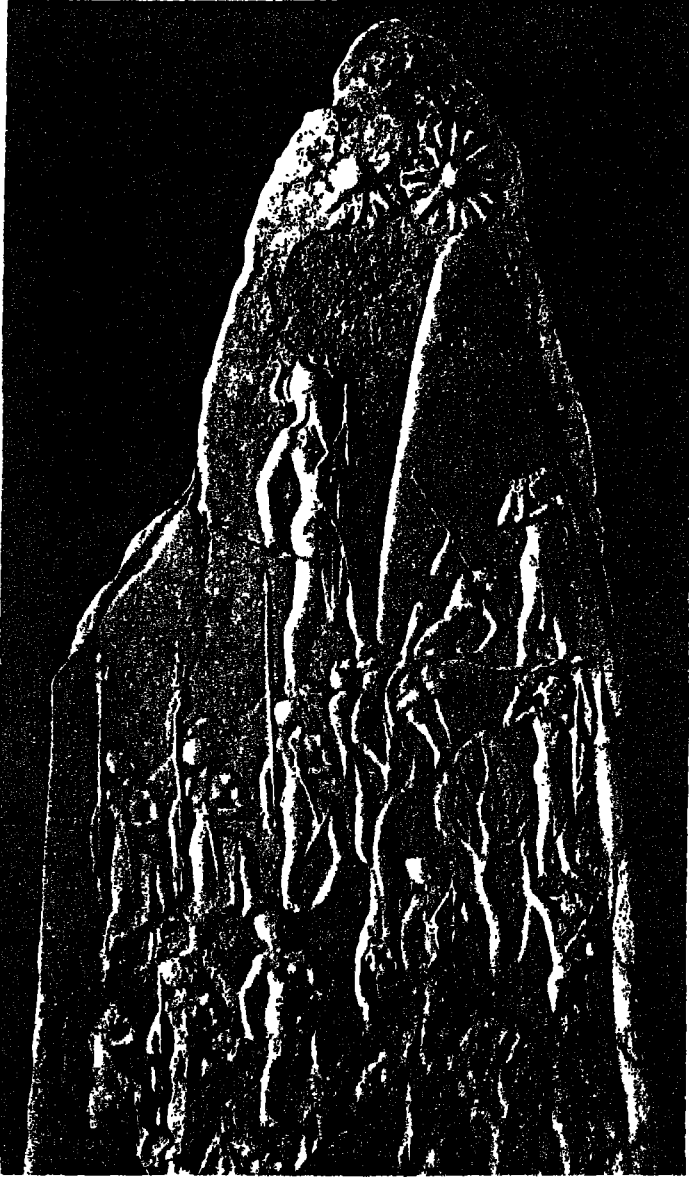
تفاقم تطور الربا الناجم عن اتساع الإنتاج السلعي، وضع الناس الأحرار؛ فراح المقرضون (بخاصة الرهبان والراهبات) يضاربون على المراعي، الحقول، والبيوت، يقرضون الفقراء الحبوب، المال، الأجر، رباً فاحشاً؛ فيتحول المدين العاجز إلى الخدمة: يعمل عندهم هو أو ذروه.

كرس تشريع أسرة أور الثالثة تطور الملكية الفردية. والتيار الآخر هو ترسيخ اقتصاد القصر. واستمراً لسياسة أسلافهم احتل ملوك الأسرة الثالثة أراضي المعابد وأخضعوها كلياً لإرادتهم. وألحق العاهل عدداً كبيراً من أرزاق المشاعة. وجعلها ملكيات كبرى تعمل فيها جمهرة من النساء العبيد والـ"غروشي". كان الغروشي (الأسرى وأبناء البلد) يعملون في المجال الملكي طيلة العام، فتزلهم وسائل إنتاجهم.

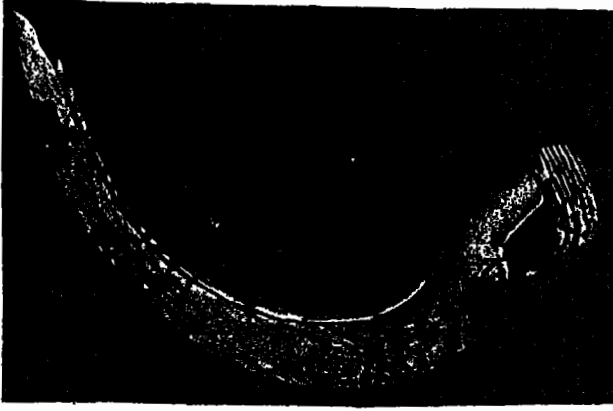
عدا الغروشي، كان القصر يستخدم، بخاصة أثناء الحصاد، جمهرة مياومين أحراراً. وكان الغروشي، والنساء العبيد يخدمون في ورشات الملك.

إن توطيد الاقتصاد الملكي ، وملكية الملك العقارية ساهمت بمركزة البلد سياسياً. كانت سلطة الحكام في مدن سومر وأكاد عملياً باطلة: إذ لم يكونوا إلا موظفين يعينهم ويسرحهم عاهلهم؛ وهكذا أطلقت طليقة الرحمة على سلالات النبالة القديمة. ولإرساء سلطتهم، أله ملوك أسرة أور الثالثة أنفسهم: وشلغي وابنه أعلنوا إلهين. والأعمال الفنية لتلك الحقبة تقدم غالباً الآلهة يسلمون إمارات السلطة الملكية وشعاراتها إلى عاهل سومر وأكاد.

لكن الاتساع غير المحدود للاقتصاد الملكي، حول العمال الأحرار إلى غروشي محرومين من كل الحقوق، وطور الربا والخدمة لقاء الدين، كل هذا كان يضعف المملكة. كان خلفاء شولغي يصدون بصعوبة قصوى ضغط الجوار: كانت عيالهم التي ماتزال تعترف بسلطة ملوك أور، قد استعادت استقلالها وانتقلت إلى الهجوم؛ وفي الغرب، تغلغلت في البلاد قبائل رحل من الصحراء السورية، كانوا يتكلمون إحدى اللهجات السامية، العمورية. وفي العام ٢٠٠٧ هدم العيلاميون المدن السومرية وسجنوا آخر ملوك الأسرة. ثم أسس العموريون في مدن أكاد وسومر عدة أسر مستقلة.



معلة لانتصار نارامسين من القرن ٢٣ ق.م



منجل يده من خشب ونصله من الصوان



إنينا إلهة الخصب

## الفصل السابع

# بابل

### تأسيس الامبراطورية البابلية

بعد سقوط أسرة أور الثالثة، أقام العموريون في ميزوبوتامي-السفلى. وأسسوا فيها مملكتين، بعاصمتين هما: إيزن ولارسا. ثمة وثيقة تلفت الانتباه من السلطة الملكية في إيزن هي القانون الذي كتبه ليبيتشتار، باللغة السومرية. وإلى الشمال قليلا، وجدت دولة مارى وأشنوناك. كانت هذه الدول تتحارب من أجل السيطرة فيميزوبوتامي السفلى والوسطى. ولم يحقق أحد مشاريعه: وحد جزء واسع من البلاد على يد عاهل بابل، المملكة الصغيرة العمورية، التي أسست في القرن التاسع عشر قبل الميلاد. أفاد ملوك بابل من موقع هذه المدينة المناسب، المبنية عند نقطة اقتراب دجلة والفرات من بعضهما، عند تقاطع الطرق التجارية للشرق الأوسط؛ فضلا عن دعم الوضع السياسي لملوك بابل: كانت مارى وأشنوناك قد ضعفتا جراء الصراع ضد آشور التي كانت سطوتها تنمى، بينما كانت لارسا تواجه ضغط العيلاميين حتى احتلتها إحدى أسرهم بدورها (نهاية القرن التاسع عشر قبل الميلاد).

إن حقبة وجود امبراطورية بابل القديمة (١٨٩٤-١٥٩٥ ق.م) هي فصل هام من تاريخ ميزوبوتامي. تشكلت هذه الجنسية البابلية وكذلك حضارة بابل، التي امتصت كل ماكان أنجز سابقا في ميزوبوتامي. ومدينة صغيرة لاشان لها في عهد أوائل الملوك العموريين، صارت بابل مركزا هاما تجاريا، سياسيا وثقافيا، وحافظت على دورها حتى العهد الهليني، رغم النكبات والعداوات.

لم تتم وحدة ميزوبوتامي تحت سلطة بابل إلا بعد صراع دام مائة عام وفي أيام الملك السادس للأسرة، الشهير حمورابي. كان الهم الأول لملوك بابل هو دحر الإمارات العمورية الأخرى المحتلة من مراكز أكادية ضخمة.

أنجز حمورابي الوحدة في منتصف القرن الثامن عشر. بدأ بضم المدن السومرية أوروك وإيزن. لكن جنوب سومر بقيت تحت سيطرة العيلامي ريمسين. وفي الشمال كانت السلطة البابلية غير مستقرة، رغم اتحاد حمورابي وملك ماري زيمريلين. لم تكن الظروف لصالح بابل. أخيراً، وبعد أن دحر مملكة أنوناك وصان الحدود الشمالية في ثلاثينات حكمه الأولى، تصدى حمورابي لريمسين في العام التالي ووحد كل الجنوب. وخوفاً من سطوة بابل القادمة، تخلى زيمريلين عن مواجهته. وبينما كان حمورابي يشن حملة ضده، احتل ونهب مدينة ماري.

ثم تابع تقدمه نحو الشمال وأخضع مملكة آشور الصغيرة. خلقت هذه الظروف امبراطورية بابلية مستبدة مركزية. لأنها وحدتها. وقد نجم تلازمها عن عوامل عديدة.

أضعف ملوك أور نبلاء سومر وأكاد، لكن العموريين والعيلاميين قضوا عليهم نهائياً. لم يعد أمام ملوك بابل إلا القبائل العمورية والمشاعات الحضرية والزراعية لسومر وأكاد، التي يسهل حكمها ضمن المناطق، أو الأقاليم التي يديرها موظفون ملكيون. لم تعانِ أكاد، وهي القطر الزراعي الرئيسي في ظل سسارغون، ماعاناه الجنوب السومري من الاحتلال. كان الاحتلال العموري تسرباً تدريجياً، وكان شعب أكاد قريب المحتلين، يتكلم لغة يفهمونها، يبجل نفس المقدسات، وذا عادات مشابهة. فكانت سومر، المدمرة، رزقاً وشعباً، تابعة تماماً لاقتصاد أكاد.

أفاد ملوك بابل من الخبرة الإدارية والسياسية التي كونها ملوك أسرة أور الثالثة وملوك إيزن ولارسا. تحقق هذا بوضوح فريد فيما يخص الحق. فقانون حمورابي عكس كثيراً من شريعة ليببشتار؛ نصوص البيع والشراء والدين حافظت على الصيغ والعبارات السومرية. على ذلك، أوجدت شريعة حمورابي مؤسسات جديدة.

خلقت ايديولوجيا جديدة لتبرير التصرف المطلق، وعبادة جديدة أرسيت في كل أنحاء الامبراطورية: عبادة مردوخ، الإله الأعظم. كان مردوخ سابقاً إله بابل. ويعون كهنته ومسايعيم، خلقوا له أساطير جديدة، أضيفت إلى الخرافات السومرية القديمة وأحييتها. وهكذا صار مردوخ الإله المعظم.

## حكومة وشريعة حمورابي

قدر الملك السادس من الأسرة البابلية الأولى، حمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠ قبل الميلاد)، أن يوحد ميزوبوتاميا ويكون الامبراطورية البابلية.

كانت الامبراطورية مقسومة إلى إقليمين إداريين حسب مبادئ مختلفة. حكم أكاد وشمال سومر حكام يحملون ألقاباً متنوعة، حسب منطقة عملهم ومهامهم. عينوا للأقاليم والمدن؛ ولقبهم "شوكالو"، رجال مكلفون بجمع الضرائب، بإرسال الناس إلى الورشات الملكية، وعند هؤلاء جهاز ضخم من المفوضين ومجندي اليد العاملة. يهتم الشوكامو أولاً بالضرائب، بـ"أعمال للقصر" وتنظيم الجيش. في أيام حمورابي (وقبله أيضاً) كان ثمة جيش دائم، مكون من محاربين من مختلف الرتب. من أجل عملهم، يملكون قطعاً من الأرض. تذكر الوثائق أربع مراتب عسكرية: ديكوم ولوبتوم للضباط، ريدوم وبيروم للجند (حتى هنا لا يعرف بالضبط ما يميزهم).

نصف الامبراطورية الآخر، سومر الجنوبية، يحكمه الوزير سينيدينام. يضم الاقتصاد الشخصي للملك، أرزاق عقارية وقطعان ضخمة كانت تخص ريمسين. يراقب الوزير المدراء والموظفين الآخرين، ويصرف كل المكاتب الإدارية والمالية التابعة.

هكذا ظهرت بكل وضوح مهمة الاستبداد الشرقي الذي وصفه ماركس سرقة الشعب. والمهمة الثانية، سرقة الشعوب الأخرى، كانت أقل أهمية في حكم حمورابي مما كان في مملكة سومر وأكاد في ظل أسرة أور الثالثة، أو، بعدئذ، في آشوريا. والمهمة الثالثة، الري، يكمن بخاصة بمراقبة وصيانة الأقنية والقناطر. أعمال هذا النوع مذكورة في قرارات حمورابي. وكان تنظيمها مسنداً إلى رجال مختصين، اسمهم "رجال الأقنية". فتحت إدارتهم ثم خفر القناة العظمى المسماة إكراما للملك "خير-حمورابي".

لم يكن النهج الإداري الموصوف آنفاً، إجمالاً، جديداً، لأن قواعده كانت قد وضعت في أيام أسرة أور الثالثة. واقتصر عمل ملوك بابل على التنفيذ والتلاوم مع شروط الشمال والجنوب النوعية.

كان الحدث الرئيس هو إعلان وتنفيذ شريعة جديدة. ولقد فرض هذا التدبير ضرورة تبديل الشريعة السومرية، التي وضعتها أسرة أور الثالثة، وملوك ليببشتار، التي لم تعد تتجاوب مع الشروط الاقتصادية والاجتماعية في الامبراطورية البابلية. فضلاً عن أن هذه

الشرعية كانت قد كتبت بالسومرية التي لا يفهمها الشعب. فشرعية حمورابي أثير تاريخي هام لميزوبوتامي ، ووثيقة ثمينة تكشف بنية المجتمع في ذلك الزمن، تظهر الشرائح الاجتماعية التي كان يعتمد عليها ملوك بابل ، وعن أي مصالح يدافعون في المقام الأول.

كما أطلعنا شرعية حمورابي على الطبقات والفئات الاجتماعية في مجتمع بابل وعلاقاتهم الحقوقية. تتألف الشرعية من ثلاثة أبواب: مقدمة، متن وخلاصة. تتضمن المقدمة عبارات تفخيم لمؤسسة "العدالة والسعادة" لكل رعايا الملك. ضم التشريع ٢٨٢ مادة، ضاع منها ٣٣ مادة بسبب التلف الذي لحق المسلة البابلية التي نقشت عليها: وحفظ بعضها نتيجة العثور على أجزاء من النقش وجدت في أماكن أخرى. نص التشريع على الجرائم، الأسرة، الملكية، الميراث والالتزامات، عدة مواد للحق العام وغيرها للعبودية. نرى فيها، من أولها إلى آخرها، ضرورة صيانة حقوق الملكية العقارية، والكهنة، والتجار والمرايين، بخاصة حقهم في تملك العبيد. سرقة العبد وإخفاء العبد الهارب عقوبتها الموت. وفي الخلاصة، يزدهي الملك مرة أخرى بالحماية التي يحيط رعاياه بها؛ يسمى "ملك الحق" ويلعن أولئك الذين يتجرون على تخريب المسلة حيث نقشت القوانين. تدافع هذه القوانين عن حقوق ومصالح أعيان المجتمع البابلي.

عدا الشرعية، بقي لنا من امبراطورية بابل القديمة مئات الوثائق ورسائل الشؤون الخاصة، التي تخولنا تمييز أخلاقهم واقتصادهم، رغم بقاء العديد من قضايا التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لبابل محل نقاش.

### الزراعة، الملكية العقارية، والتمتع بالأرض

كان شعب امبراطورية بابل يعيش أساسا من الزراعة. ولم تكن تربية المواشي الواسعة قد انتشرت إلا في الجنوب، كما في السابق، على الشط الذي يقدم مراع واسعة للأمكنة السبخية.

بين المزروعات، يخصص المقام الأول للقمح، للشعير والحنطة الرومية. وأهم شجرة مثمرة هي النخلة. كانت الحقول تعطي، في الشروط العادية محاصيل وفيرة تكفي حاجات السكان وتخلق فضلة أيضا، يذهب جزء منها لتعريم مخازن الملك والمعابد، بصفة فريضة عينية، وكان الباقي يباع في السوق. كان احتياطي قمح القصر والمعبد يوضع جزئيا في التداول (عند عبور القبائل الرعوية في الصحراء السورية). وكانت الحبوب تشكل أيضا

القيمة الأولى في التداول الزراعي.

كان الملك اسمياً المالك الأعلى لكل أرض الامبراطورية. لكن امتداد المجالات الموضوعية تحت مراقبة القصر المباشرة أقل فعلياً بالنسبة لأيام أسرة أور الثالثة. وكانت المجالات الملكية الواسعة (في الجنوب، مثلاً) في الغالب مقسمة إلى أسهم صغيرة بالأجرة للموظفي الكبار، للمحاربين أو المزارعين، الذين يدفعون عينا (قمحاً). وكانت هذه الأسهم لاتتفصل عن الأرض العامة.

قسم من الأرض يخص المعابد، لكن أبعاده أقل مما كانت في الألف الثالث. و ينطبق هذا أيضاً على مشاعات الجوار: وتشير المصادر أيضاً إلى الأراضي العامة التي يديرها الشيوخ، لكن لم يبق منها شيء يذكر. للمشاعات حقوق حصرية على قطاعات الأقنية (حتى منع الصيد فيها على الأجانب)، لكن الأرض كانت تنتقل إلى أيدي الأسر.

من المستحيل أن نحصى الآن المساحة الكلية للأرض التي تخص العائلات الأبوية والعائلات الصغيرة. والأمر البين، هو أن تطور الإنتاج البضاعي والنهج العبودي كان يساهم بتوطيد الملكية الخاصة. ولقد عثر على أرشيفات المرابين الذين كانوا يعتمدون على الحقول والبساتين. لكن بعكس الأسر النبيلة للدول السومرية الأولى، التي كانت تملك الأملاك الشاسعة، كان الملوك البابليون مغبونين. واستناداً إلى إحصاءات تقريبية، لم يكن ٩٠% من المالكين الفرديين يملكون سوى ٨,٥ هكتاراً مربعاً، والحقول التي تسمح عشرات الهكتارات تعد بالوحدات، وأوسع ملكية عرفت يومئذ كانت تسمح ٣١,٥ هكتار.

كان الملوك الخاصون يؤجرون قسماً كبيراً من أراضيهم، بالأسهم، إلى منتجين صغار. وعلى المزارعين أن يدفعوا حتى ثلثي المحصول. لم تكن زراعة الحبوب في الحقول الخاصة تكفي بشكل عام وسوى تغذية المالك نفسه، وعبده وأجرائه. وكل المالكين كانوا موظفين ممتازين ملكيين، وكهنة أو تجارياً كباراً ومرابين. لا يأتي دخلهم الرئيسي من الأراضي بل من وظيفتهم (لدى القصر أو المعبد) أو العمليات التجارية والربوية. كانت الشريحة العليا من الموظفين الإدارة أو القصر يعيشون على حساب البلاط ويحظون من حين إلى آخر على هدايا قيمة من الملك. وكانوا يغتنون بابتزاز مرؤوسهم. ويقتسم الاكليروس عائدات المعابد المأخوذة بداية من الخزينة الملكية من أجل الصيانة. ثم من تربية المواشي والربا، أخيراً من احتفالات الأضاحي، التي يدفعها الخواص والعوام.



هكذا إذا، كما في الألف الثالث، كانت هذه الشريحة من مستغلي المجتمع البابلي تعيش على حساب المشاعات الريفية والعيبد. فالمجتمع العبودي في الشرق القديم يتسم بالاستثمار المزدوج.

### حرف وتجارة

تتخطى الحرف في دولة بابل إطار المشاعات. فقد ظهر، في المدن، حرفيون يعيشون من حرفهم. كان لهم في باحة السوق حانوت أو منقش حيث يأخذون الطلبات وينفذونها. لكن، إلى جانب الحرفين المقيمين على نفقتهم، كان ثمة منهم من يعمل في ورشات تخصص أفرادا. تنص شريعة حمورابي، في عداد هؤلاء الحرفيين، الفخاريين، قصاصي الصخور، الخياطيين، الحدادين والدباغين. لم تكن شروطهم جيدة دوماً، لأن الملك التزم بتعيين لهم الحد الأدنى من الأجرة اليومية.

كانت التجارة تتطور بشكل محسوس. الملك والكهنة يستسلمون لتجارة الجملة بواسطة الموظفين المحظوظين والمرابين، الذين يستغلون هذا الأمر لإتمام مضارباتهم. لهم زلمهم ومنديبوهم الذين ينتهي أمرهم إلى تاجر. يبيع المندوبون والمرابون القمح، الصوف، زيت السمسم، البلح المواشي، الفضة والنحاس. يزاول كثير منهم الربا، يقرضون بفوائد باهظة الحبوب والنقود: ٢٠% للدراهم، ٣٣.٣% (قرابة الثلث) للحبوب. لم يكن الكهنة رجال المعابد يخلون بهذا العمل. تتم التجارة بالمفرق في السوق، في مجال النقش أو يدا بيد.

### التصنيف الاجتماعي للناس الأحرار

تميز شريعة حمورابي عينتين من الناس الأحرار: ١- إنسان بلا أهمية (موشكنو)؛ ٢- "إنسان" أو "ابن إنسان". عبيد ومالكون. لكن غير متساوين بالحقوق. ينجم الفرق في بعض القرارات من التعويضات. هكذا، في حال سرقة الماشية، التعويض على الأميلو أعلى بثلاثين مرة من سعر المادة المسروقة، بينما لاتساوي أكثر من عشر مرات في حال التعويض على الموشكنو؛ ومن يعور أميلو أو يكسر له عظما، يخضع للأذى ذاته، وإذا وقع هذا الأذى على موشكنو، يحتاج تنفيذ العقوبة إلى وكالة.

كيف يعالج هذا الفرق؟ وضع المؤرخون الروس عدة فرضيات. يرى الأكاديمي ستروفي أن "الأميلو"، المواطن البابلي المتمتع بكل الحقوق، هو المنتصر أو الفاتح العموري، وأن مصطلح "موشكنو" يعني شعب سومر وأكاد الحر الخاضع؛ وحسب

دياكونوف، الأميلو هو عضو المشاعة، بينما الموشكنو، مزارع الملك، هو من استعبده العجز عن تأدية ضرائب الدولة. وفي هذه العينة، يصنف الحراثون الذين يتوجب عليهم أن يؤديوا أتاوات قمحا مايدفعه الموظفون المحظيون والمرابون والكهنة الذين تلقوا أراضيهم من الملك. فقط المحاربون، رغم أن أرضهم من الملك، كانوا يبقون أعضاء المشاعات ولم يكونوا موشكنو.

أيا كان تفسير هذه المصطلحات، يمكن أن نعرف، استنادا إلى شريعة حمورابي ووثائق الشؤون العامة، العديد من أنواع المواطنين الأحرار. فهم أعضاء المشاعات، المزارعون المملوكون الذين يؤدون ضريبة عينية، المحاربون الذين يتلقون أراض غير قابلة للتصرف، الحرفيون، الموظفون المحظيون والمرابون الذين كانوا في وقت معا تجارا، مرابين ووكلاء، أخيرا الكهنة والأرستقراطية العليا.

### وضع المشاعات

كانت المشاعات الريفية، المؤلفة من الحراثين الأحرار، مرتبطة قبل كل شيء بالحقوق والواجبات المشتركة الخاصة بالري. وكان الري المنتظم، وبالتالي، الموسم يرتبطان بصيانة المنشآت: الأكنية، تجمعات المياه والسدود. كان يتوجب على كل عناصر المشاعة أن يساهموا بالأعمال، وهذا يعطي الحق لكل منهم أن يروي حقله بقنوات وخزانات مياه المشاعة. وتصلح المشاعة أيضا التلف والضرر الذي تسببه مشاعة الجوار أو أي نفقة أخرى، إن بخطئها خربت المياه السدود وغمرت الحقول والمراعي. وكان رفع الضرر يوزع بين كل الأعضاء. وتتعهد المشاعة ماديا دم القتل أو السرقة التي تقع على أرضها ولم يكتشف الجاني.

كل عضو في المشاعة، أو بالضبط، كل مشاعة عائلية تدير حقلها الخاص. وليس ثمن معلومات محدودة حول الحق الذي تأخذه لقاء هذا. ولقد وصلتنا عقود بيع حقول عقدها الحراثون، لكن الصعوبة في عدم معرفة نوع القطعة التي بيعت: موروثة أم مملوكة حديثا. وكان تفكك المشاعات يتم بخاصة جراء دمار الناس، الذين يفقدون أرضهم أو لم يحصلوا على أرض عند التوزيع على أعضاء الأسرة الكبيرة. هؤلاء الصعاليك يصيرون مزارعين أو يضافون إلى فئة الأجراء التي يشير إليها تشريع حمورابي. ويعملون رعاة، حراثين، وبستانيين؛ "تعرفه الملك" تقدم لهم أدنى الأجور؟ لكن عددهم لم يكن يكفي طلب المالكين

أثناء الأعمال العاجلة الموسمية أو غيرها، كالحصاد، جني البلح أو غرس حقول جديدة بالنخيل. فيضطر المالكون آنئذ أن يتوجهوا إلى المشاعات، ليعقدوا معها عقودا للحصول على اليد العاملة المطلوبة. كثيرا ما عقدت هذه العقود مسبقا. يصرف المستخدم مبلغا ما ليلزم عددا من الشغيلة ليأتوا بالوقت المحدد. في حال عدم التنفيذ، تقام دعوى على المشاعة. وهكذا كثيرا ما يخضع المالكون للمشاعات في الأوقات الحرجة.

في الوقت نفسه، كان أعضاء المشاعة يحرمون من الحقوق في بعض المناسبات، فعندما يكون العمل في بيت الملك، مثلا، لايهتم القانون بمدة السخرة ولا بطبيعتها. يطلب منهم حفر الأبنية الملكية وترميمها أو تنظيفها، بناء وإصلاح القصور والمعابد، جز الماشية، ونقل الأحمال، إلخ. ويسهر زلم الملك على ماتقدم التعاونيات من رجال راشدين وأشداء. كانت شروط العمل متساوية لدى الأحرار والعبيد. فالسوط يداعب ظهور هؤلاء وأولئك. لاستحق السخرات الملكية أي أجر أو ثواب؛ فقط العمال الأحرار يحظون بجعالة غذائية، كالعبيد.

### الأسرة الأبوية

في الامبراطورية البابلية، كان يوجد، عدا مشاعات الجوار، مشاعات أسرية. ولم تكن التبدلات الجارية عندهم، منذ أسرة أور الثالثة، ذات أهمية.

فالمشاعة الأسرية البابلية ذات طبيعة أبوية. الرئيس هو الأب؛ نادرا، عند وفاته، ينتقل دوره إلى الأم. والأسرة الأبوية مؤلفة من الأب، ونسائه، وأبنائه وأحيانا أحفاده. كان اسمه الموقوف عليه "بيت الأب"، "البيت الأبوي"؛ ورزقه يسمى "رزق البيت الأبوي". لا يستخدم تشريع حمورابي إلا هذا التعبير، لايوجد في القانون أي عبارة تشير إلى الملكية الشخصية. يتضمن "رزق بيت الأب" الأرض، البيت ومنشآت الاستثمار، الماشية، العبيد، الأوعية، منتوج الحقل، النحاس، الفضة والذهب.

لقد ترجمت التبدلات في وضع المشاعة العائلية بإرساء دعائم الملكية الفردية واتجاه الجيل الجديد نحو إضعاف القيود التقليدية التي كانت تقف حائلا في وجه الغنى الشخصي لأعضاء المشاعة. كان هذا واضحا في الأوساط العبودية الغنية. كانت شريعة حمورابي تشجع هذه الاتجاهات وتتص على تغييرات في الأوضاع الأسرية.

يقدر كل عضو في الأسرة أن يمتلك رزقا يخصه، يسمى سيبتو، الغنيمة (أي الرزق

الذي كسبه أو حازه الإنسان بنفسه، بجهده الشخصي أو وسائله الخاصة). فقد خضع قننون التملك في الأسرة إلى تبدل أساسي: من الآن، يحق للأب ترك جزء من ثروته لولده، "الأول في نظره". تصير هذه الحصة سيبتو من جناها. ثم، توطد شرعة حمورابي القسمة وتعطلها بالتفصيل. تعين حصة الأم، البنات العازبات، الأبناء الذين لهم خليات، مع الاحتفاظ دوماً على تساوي حصص الأبناء. لكن هذه القاعدة الأخيرة غير مرعية الإجراء دوماً. فاتفاقات بين الورثة تخلق قسمة غير متساوية، فيحظى الابن البكر بأكبر نصيب أو أجود حصة. يفضل الأبناء الآخرون أن يبيعوه نصيبهم أثناء القسمة. ويحدث أحياناً أن تحرم البنات وكذلك الأمهات. وهكذا أرسى الملكية الفردية تفكك المشاعة العائلية؛ لكن هذه الأخيرة استمرت بالوجود، لأن الأخوة الأبناء، بعد أن يسلبوا أخوتهم الأصغر وأخواتهم ويتزوجون، يصيرون قادة مشاعات جديدة. وينجم عن هذا، كما الأمر في المشاعات الريفية، استبعاد من الإرث له، ومنهم يؤخذ موظفو الملك العزبان، الأتباع، ومنهم يخرج مرتكبو الجرائم، إلخ.

في الأسرة الأبوية، المرأة أقل امتيازاً من الرجل. وعقوبة المرأة الزانية أشد كثيراً من الرجل غير المخلص. طلب الزوجة بالتفريق صعب. وينص القانون على حالات تخضع المرأة فيها لمساكنة المرأة الثانية، أو الخلية المختارة من العبيد. على ذلك، المرأة البابلية غير محرومة من كل الحقوق. فالمرأة الشرعية، المتزوجة بعقد، ترث، عند وفاة الزوج، مهرها، وحصة تساوي حصة الابن، إلا إذا كان الميت قد أعطاها هبة ما. ويقدر الزوج أن يطلق متى يشاء المرأة العاقر، لكنها عندئذ تأخذ مهرها. وتحصل البنات، غير المتزوجات حتى وفاة الأب، نصيب الذكر. وبعض شرائع النساء، بعامية، الراهبة والأرملة، مسموح لهن مزاوله مختلف الأعمال المشروعة باسمهن، وحيازة أملاك، وامتلاكها، ويصرفن شؤونهن، يشترين أرزاقاً منقولة وغير منقولة ويمارسن الربا.

### العبودية

في الإمبراطورية البابلية، حافظت العبودية إجمالاً على ماكانت عليه في الألف الثالث. وحفظت العبودية الألفية أهميتها. العبد ملكية مطلقة للمالك، يستطيع بيعه ومبادلته بالنقود، وأن يوصي به، وأخيراً، أن يرهنه كأي سلعة. وفي حال رفض الطاعة، يسمح القانون للمالك أن يشوه عبده كأن يبتز أحد أعضائه (المادة ٢٨٢). بعض العبيد يوشمون

واللحية التي تخفي الوشم بدون إذن عقوبتها قطع الأصابع (المادة ٢٢٦). وعند قتل عبد الغير بدون قصد، يفدي الجاني جنايته ببساطة بعيد ما (المادة ٢٣١). يمكن عتق العبد بالتخلص أي الوفاء وبالتبني.

تتمتع المرأة العبدية بمكان خاص في المشاعة العائلية. إن كانت المرأة المشروعة عاقرا حق للزوج أن يتخذ له خليفة، وهي غالبا عبدة؛ أحيانا، تختارها المرأة المشروعة من عبيدها. في هذه الحالة لاتعتق العبدية، لكن هذا لايمنعها، إن توفرت الفرصة السانحة، من أن تحكم الأسرة، وتستبعد المرأة المشروعة إلى المقام الثاني. أبناؤها أحرار، لكنهم لايرثون إلا إذا وافق الأب على صيغة "أنتم أبنائي".

أثمة الكثير من الوثائق الخاصة بالمعاملات التجارية أو سواها: كان العبيد يباعون ويشتررون، يقدمون هدايا، يتركون إرثا، ومطرح تأجير. في بعض الحقول كان عددهم كبيرا، ولايتجاوز مع ذلك العشرات. بعامة، يحتفظ البيت بخمسة منهم كحد أقصى. كانوا في الأغلب، أسرى حرب، أو عبيدا مشترين، وأحيانا مدانين.

في أيام حمورابي، ازداد عدد العبيد لعدم وفاء الدين، على أثر استبعاد المحرومين من الإرث ومن ازدياد المشاعات التي لاتملك أرضا. يحدد القانون الاستبعاد لدين بثلاث سنين. ولقد حرصت على هذا التدبير الاضطرابات الناجمة عن اتساع هذا النوع من العبيد وازدياد عدد المفقرين والعاطلين عن العمل، علما أن المصادر التاريخية لاتذكرهم.

#### الخصائص العامة للامبراطورية البابلية

في القرن السابع عشر قبل الميلاد، كانت ميزوبوتاميا في قمة الازدهار الاقتصادي والسياسي. حسنت طرق إدارة شبكة الري واستخدمت آلات الرفع على نطاق واسع، وطورت سكة الحراثة؛ واستخدم الحصان كحيوان أليف. تقدمت الحرف، بخاصة البرونزية: استخدمت المناجل والأدوات البرونزية الأخرى، التي تسهل العمل في الحجر والخشب. اتسع الإنتاج البضاعي، تطورت التجارة في داخل بابل وامتدت إلى البلدان المجاورة: عيلام، سوريا، آشور وسواها.

وطد نمو الإنتاج البضاعي الملكية الخاصة للأرض والعبد. لكن الملكية الفردية بقيت محدودة (بخاصة فيما يخص الوصية) وحافظت العبودية على الخاصة الأبوية (بوسع العبد أن يتزوج من حرة).

الحقول الشاسعة التي يتصرف الملك، المعابد ونبلاء الدم، التي كانت تميز تاريخ ميزوبوتاميا، تقلصت جدا أو اختفت تماما. والشكل النموذج للاقتصاد هو الملكية الصغيرة أو المتوسطة المؤسسة على استغلال عدد بسيط من العبيد. وتوارث الأشكال الأبوية لارتباط الناس الأحرار، عدا عبودية الدين؛ وعاش الغورشي أيضا أيامهم.

تزعت القسم في مشاعات الجوار، إذ حافظت إجمالا على حقوقها في أعمال الوي، لكن المشاعة العائلية بقيت هي خلية الاقتصاد الرئيسية. والفرق بالثورة الذي فاقمه الربا والضرائب الباهظة، فكل مساحات شرائح واسعة من محرومي الإرث الذين آل بعضهم إلى خدمة الملك كمزارعين أو محاربين، وانحدر الآخرون إلى عبودية الدين.

حاول حمورابي كبح تحكم التانكاروم: حددت عبودية الدين بثلاث سنوات، ألغى حق الهرامي بالدخول إلى بيت المدين، واضطره التانكاروم على أخذ وكالة في عدم مساعدته. كانت هذه التدابير تهدف إلى تمتين وحدة الفئة الحرة وتوحيد مختلف شرائحها ضد العبيد. لكنها لم تنجح: تطلعت رسائل العصر على حالات خرق قوانين حمورابي من قبل التانكاروم، بخاصة وضع اليد أو حجز أراضي مزارعي ومقاتلي الملك التي لايجوز التصرف بها.

فالمجتمع البابلي لم يعرف التناحر بين الأحرار والعبيد فقط، بل أيضا التناقضات بين مختلف الشرائح الحرة.

كانت دولة العبودية، المدافع عن مصالح الطبقة المهيمنة، استبدادية، ملكية مطلقة حيث يحكم الملك بواسطة العديد من الموظفين والقضاة.

### سقوط امبراطورية بابل، عصر الكاسيت

انهارت امبراطورية بابل على عهد آخر ملكين من الأسرة البابلية الأولى، هاجمها أربعة أعداء، الواحد بعد الآخر: ساميو المناطق البحرية من سومر، عيلاميو زاغروس، الحثيون الآتون من الشمال، أخيرا مربو الخيول الكاسيت الذين كانوا يعيشون في شمال عيلام. تحقق النصر على يد القبائل البحرية التي احتلت جنوب الامبراطورية، والكاسيت الذين أقاموا في وسط وشمال بابل.

أسس الملك الكاسيت غانداش فيها أسرة. وأخضع خلفاؤه القسم الجنوبي من البلاد. دامت السيطرة الكاسيت حتى ١١٦٥ قبل الميلاد.

انحدر الكاسيت من الجبال وصاروا سادة بابل، واحتلوا بالمشاعات العشيرية. وبعد أن احتلوا مساحات واسعة منهوبة وخالية من السكان جراء الغزوات والحروب، سارعوا إلى الزراعة المقيمة، التي أخذوا أساليبها من البابليين. اعتمد الملوك الكاسيت على جنودهم ومجنديهم، لكنهم أوجدوا أيضا حلفاء بين كهنة بابل، بخاصة كهنة المدينة المقدسة نيبور.

انقسم العهد الكاسيت إلى مرحلتين، خلال المرحلة الأولى، حتى الربع الأخير من القرن الخامس عشر، عاشت البلاد دمارا رهيبا وكسادا اقتصاديا. إذ شرعوا بأعمال ضخمة لترميم شبكة الري، وأعادوا بناء السدود وأداروا خزانات جديدة.

في نهاية القرن الخامس تبدأ المرحلة الثانية. خلالها تتطور الحياة الاقتصادية بسرعة قصوى. أقيمت تجارة منتظمة مع مصر وغيرها، الأمر الذي دفع ملوك الكاسيت إلى إصلاح دروب القوافل. وبذلوا جهودا جبارة لحماية هذه المسالك من اللصوص. وفي الوقت ذاته، أعيد تشييد المعابد. تفككت مشاعات الكاسيت، لذا أرسيت دعائم الملكية الخاصة. كافأ الملوك "إلى الأبد" النبلاء بالأراضي التي انتزعوها من المشاعات. القوارات الملكية في التملك والمكافأة منقوشة بشكل عام على الحجارة والصخور المسماة كودورو، الموضوعة على حدود الأراضي المقصودة. كانت أبعاد هذه الحقول الجديدة أكبر بكثير مما كانت في أيام امبراطورية بابل القديمة (من ٢٠-٢٠٠ هكتار)؛ لكن عددها كان حتما أقل بكثير من زمن حمورابي.

لقد نجمت انطلاقا الاقتصاد الملكي والفردى من نهب المشاعات وأعضائها، الذين ملأ ارتاحوا بعد من الحروب والدمار. وافترض ازدهار الحضارة الملكية تجدد الاضطهاد، وأفضى فتح ورشات لبناء معابد جديدة إلى تفاقم السخرات. خدمة للقصر. وانتزاع أملاك الناس العاديين سلب أسر للفلاحين، الذين لا يتلقون شيئا لقاء هذا، لأن الأذاء، إن حدث، يأخذ الشيوخ. أفادت هذه المظالم المرابين. وصارت عملياتهم اللصوصية أكثر توحشا حتى أن بعضهم راحوا يجنون الضرائب الملكية ويسرقون الناس بدون رحمة.

## الفصل الثامن

# الحضارة البابلية

### أهمية الحضارة البابلية

يعني هذا التعبير حضارة ميزوبوتاميا-السفلى. تشكلت في أثناء ارتقاء هذه البلاد تاريخيا، في القرن الرابع قبل الميلاد عند أقول امبراطورية بابل القديمة. عواملها الرئيسية هي أنجازات سومر الثقافية، التي قبلها الأكاديون وطوروها، وتبعهم في هذا البابليون. فالأصح إذن أن نسميها: الحضارة السومرية- البابلية. أسست الحضارتان الآشورية والكلدانية، اللتان تلتاها ولم تتخطياها. مارست الحضارة البابلية منذ الألف الثانية قبل الميلاد تأثيرا واسعا وعميقا على البلدان المجاورة: سوريا، فنيقيا وفلسطين، وعلى الحثيين وغيرهم. في الحقبة الآشورية والكلدانية، امتد نفوذها إلى الشمال الغربي، في البلدان التي يغمرها بحر إيجه، وإلى الشمال (أورارتو) وإلى الشرق (إيران). ولقد نقل العبريون، اليونان والرومان بصمات عميقة من الحضارة البابلية إلى شعوب أوروبا، ما نزال نرى تجلياتها في الحضارة الأوروبية المعاصرة.

### الكتابة

كل النصوص المكتشفة في ميزوبوتاميا هي الكتابة المسماة مسمارية، المؤلفة حروفها أساسا من زوايا مرسومة أفقيا أو عموديا. ولدت هذه الكتابة في النصف الأول من الألف الثالثة قبل الميلاد، مشتقة من الصور المنقوشة في الشارات المسمارية. تخمن بسهولة الرسوم المقصودة: إنسان، حيوان، أغراس، جبال، غابات، مياه، أوعية منزلية وأدوات. تختلف رسمه هذه الحروف حسب المواد المفيدة، ومعنى الشارات ويهدف توسيع الكتابة. وأهم وأقدم المكتشفات هي رموز فكرة منقوشة على صفائح صخرية أو حجرية، أي شارات يمثل كل منها كلمة أو فكرة. ثم صارت المادة الأكثر تداولاً لكتابة من شرائح الفخار؛ النص المنقوش على الشريحة الرطبة بحيث تترك شارة بشكل زاوية.



هكذا استعويض عن الرسوم القلمية بشارات مسمارية، لكن بعضها استمر حتى منتصف الألف الثالث.

في الوقت ذاته تبدل معنى الحروف، والرموز تتغير شيئاً فشيئاً إلى الشارات المقطعية التي تشكل من الآن أغلب شارات الكتابة المسمارية. لكن عدداً من الشارات المصورة بقيت وأظهر غيرها يمثل أصواتاً أبجدية. فالنهج المسماري إذن شديد التعقيد وصعب الدراسة. يعد قراءة ٦٠٠ حرف لكثير منها عدة معاني.

إن مؤسسي الكتابة المسمارية هم السومريون. تعلمها الأكليديون، ثم انتقلت إلى العيلاميين، والبابليين، والآشوريين والحثيين. وأفاد منها الفينيقيون ليصنعوا أبجديتهم الأولى. واقتبسها الأورارتيون، الذين كانوا يقطنون أرض أرمينيا الحالية؛ واستوعبها وعدلها الفرس الذين غزوا ميزوبوتاميا حوالي العام ٣٥٠ قبل الميلاد.

### الدين

الدين البابلي، كما وصلنا في نصوص الألف الثالث، هو توليفة من العوامل السومرية والسامية. وثمة عبادات أخرى ذات اسم مزدوج؛ ولغيرها اسم سامي أو سومي. البابليون<sup>١</sup> البابلي، كبير العدد، لأقل من ١٠٠ إله. في رأسهم "الآلهة الكبار" الذين كانوا المعبود المحلي في مدن سومر وأكاد. وهم: أنليل، الإله الأكبر عند السومريين وهو أيضاً إله أرضي: أنوم، إله أوروك؛ إيا، إله إيرودو. في الألف الثالث جمعهم الكهنة في ثلاثي أسمي، وأعطى أنوم مملكة السموات، وإيا مملكة البحار والمياه الجوفية. عدا هذا الثلاث، ثمة حلقة أخرى من العبادات معروفة ومعترف بها في أرجاء البلاد قاطبة: إله الشمس شاماش (إله مدينة سيبار)، إله القمر سن (إله مدينة أور) وإلهان زراعيان: تموز وزوجته عشتار.

كان تموز وعشتار إلهي النبات والخصب. تقام كل عام أعياد موت وبعث تموز، المترافقة بالأسرار التي تقدم عشتار تبكي زوجها، نزولها "نحو الأرض دونما عودة" للبحث عن المتوفى، ونضالها ضد إلهة مملكة الظلمات أرشيغال، وبعث تموز وظهوره ثانية على الأرض. وفي مشاعات الجوار، تسجل هذه الأعياد بداية ونهاية أعمال الحقول؛ وكانت

---

<sup>١</sup> - مجمع الأرباب عند القنما.

الطقوس والشعائر الدرامية، المدن الكبرى، تجرى الاحتفالات الشعبية بأبهة وإجلال، مع أضحاحي لاتحصى.

ترتبط عبادات شاموش وسن سوية أيضا بالإنتاج: عبادة شاموش ترتبط بالزراعة، وعبادة سن ترتبط بتربية الدواجن. لكن شاموش يمارس في البانتيون الرسمي وظائف إله العدالة. كان معبده الرئيس، في سيبار، مقر محكمة أعلى الدعاوى ويوجد إلى جانبها مركز للعقود والإجراءات القضائية.

تمثل الآلهة عشتار في الميثولوجيا الرسمية الكوكب عطارد؛ بهذا الشكل، يشكل الكهنة الكوكبية الأولى من الآلهة النجوم: شاماش، سن، عشتار.

بعد تأسيس امبراطورية بابل القديمة، صار ملك الآلهة مردوخ، الذي هو أصلا إله بابل. وأعطى لقب بل (سيد)، لقب أنليل حتى آنثذ؛ ومنحه الكهنة مهمات أنليل وتموز.

باسمه، تحتفل بابل في الربيع بعيد رأس السنة، المسمى زاغ-موك. ذكرى نصر مردوك على تيامات، ومجيئه إلى العرش الإلهي، خلق العالم والناس وإرساء سماء بابل.

تنفذ طقوس درامية لدى قراءة قصيدة الخلق، التي تعرض الحلقات الرئيسية. في معبد منعزل، اسمه "قاعة الأقدار"، يرأس الكهنة المستقبل أمام أنصاب الآلهة، أي بحضورهم. ولقد لعبت هذه التكهّنات دورا هاما، لأن الملك مضطر لاستيحائها في ممارسة سياسته. ينهي العيد بشعائر مستقاة من طقوس تموز وعشتار. يمثل أحدهما الموت وبعث بل-مردوخ. ويقرأ نص يذكر بشكل فريد بقصة موت وقيامه يسوع. وطقس آخر، يرمز إلى زواج مردوخ من زوجته ساربانيتو، وذلك لتأمين خصب الأرض.

لا يقتصر الدين البابلي عند عبادة "الآلهة العظام" وآلهة الزراعة. ليس الشعب فقط، بل أصحاب العبيد أيضا كانوا يؤمنون بالإحيائية وماقبلها، التي ترجع إلى عهد المجتمع البدائي. كانوا يقبلون تعدد الأرواح، طيبة كانت أم سيئة، التي تحكم ظواهر الطبيعة، ترسل الأمراض والموت، تؤازر الناس في عملهم وحياتهم. من هذه الأرواح، نذكر أرواح الأنهار والقنوات التي تمارس عبادتها في الدين الرسمي والأرواح الأليفة، وأرواح الأموات التي تقدم لها الأضحاح بانتظام. أخيرا يولي المجتمع البابلي كله أهمية بالغة لطقوس السحر، المستقاة من فكرة أرواح الخير والشر. ولقد تمثل علم الأبالسة والسحر الشعبي في الدين الرسمي وطورها. وإلى جانب المعابد، أنشئت المعاهد الخاصة للتعزيز التي تولى

علم الأبلسة وتنتشر أسطورة خضوع الأرواح إلى الآلهة "الكبار" أنوم، أنليل وإيا. وتقيم هذه المعابد الاحتفالات الرسمية لإقناع الناس بالصيغ والشعائر السحرية وهدايتهم إليها، حيث تقدم الأضحيات. وعلى أثر هذا التبدل، تتشكل طوائف خاصة، تكتمل فيما بعد على يد العبادة الأشوية.

كان إكليروس المعابد الرسمي لبابل والمدن الأخرى غير العدد، ويقسم إلى عدة مراتب، حسب التصنيف والوظيفة. وكان ثمة راهبات من مستويات عديدة، يخدمن في معهد شاماش في سيبار، حيث بنى لهن ملك أكاد مسكنا ضخما مع استثمار مساعدة وحديقة أشجار مثمرة واسعة. في أثناء الاحتفال يساعدن مرتلون ومرتلات، وموسيقيون وكل أنواع الخدم. ومهنة الكاهن، الجزيلة العطاء تنتقل بالوراثة في المشاعة الأسرية؛ عند اقتسام أرزاق البيت الأبوي، كانت مهنة الكهنة توزع بين الأبناء، بحيث يمارسها كل منهم لمدة سنة، ومن كان دوره يجتني أرباح تلك السنة. وإن انتقلت المهام الكهنوتية للابن البكر، ينال أخوته حصة تحسم من باقي الإرث. كان الاكليروس يتمتع بنفوذ واسع، لأنهم يتولون شؤون السلاح الأهم وهو التأليه في الحياة الدينية في تلك العهود، وكذلك مناهل خيرات المعابد الوفيرة المتسعة باستمرار عن طريق أعمال الربا.

#### الأدب السومري-البابلي

لقد وصلنا عدد لا بأس به من الأعمال الأدبية السومرية والبابلية من الألف الثالث والثاني. ينسب مضمونها بطريقة أو بأخرى إلى الدين. أغلبها نصوص طقسية أو سحرية، والأعمال الأخرى التي لاتخص العبادة، تعالج مع ذلك مواضيع دينية، بخاصة ميثولوجية. والكتابات التي تخص موضوعات أخرى نادرة.

ميثولوجيا الدين الرسمي هي خلاصة الميثولوجيا الشعبية، أحد أهم عناصر التقليد الشفهي أو الفولكلوري. لا نجد في الاعمال السومرية البابلية مقاطع فولكلورية عديدة. تستخلص بكل وضوح من الأساطير المتحدة عن أصل العالم، الناس، الزراعة، الحياة الأبدية، بشكل خرافات ساذجة تشبه قصصا شعبية من المضمون ذاته. استخدم شعراء بابل هذه الخرافات السومرية لخلق أعمال رائعة. أهم هذه الأعمال هو القصيدة المعنونة، حسب كلماتها الأولى، الخلق. مستلهمة من القصيدة السومرية خلق العالم، ويطلبها أنليل؛ لكن الكهنة البابليين استبدلوه بمردوخ. وأجمل إنجاز من الأدب البابلي هو القصيدة الملحمية

جلجامش. كانت النصوص الأولى التي تحدثت عن مآثر هذا المقدم الشهم بالسومرية؛ أخذها كتاب بابليون، من طبقة الكهنة على الأرجح وحوروها. وهكذا ظهرت ملحمة جلجامش البابلية، مكتوبة على إثني عشر رقما كبيرة، تتضمن كل منها نوعا من الغناء المنفرد. تخولنا فكرته ومواصفاته الشعرية بتصنيفه بين ألمع أعمال الأدب العالمي.

ليس القصيد أبدا من الأعمال الطقسية. ولا يرتبط بأسطورة معينة، ولا بشعيرة ما. استخدم المؤلف الخرافات والحكايات الشعبية لإبداع عمل مستقل عن الحياة والموت.

كان هذا الموضوع يشغل منذ زمن بعيد المجتمع السومري-البابلي. وكان ثمة أساطير تعمل لإيضاح سبب خلود الآلهة وموت البشر. تقول إحداها: إن علة الموت البشري هي جنون الإنسان الأول، أدايا، الابن الأعز عند الإله إيا الذي أعطاه الحكمة العظمى، وليس الحياة الخالدة. قدمت مناسبة حيازة الخلود يوما لأدايا، لكنه رفضها. أنذر بالمثل أمام الإله أنوم لأنه كسر جناحي ريح الجنوب. فأخطره إيا أن غداء وماء الموت سيقدمان له وليس له أن يذوقهما. وأثناء المحاكمة، أخذ الآلهة الآخرون الدفاع عنه وأنوم، رقيق القلب، حمل له غداء وماء الحياة؛ لكن أدايا رفض تناولها. دهش أنوم وسأله السبب. فأجاب: "الآخر قال: لن تأكل ولن تشرب." آنئذ أمر أنوم بعودته إلى الأرض. تسعى هذه الخرافة، التي ابتكرها الكهنة إلى الوفاق بين الناس وقدرهم وإقناعهم بعجزهم أمام الآلهة. لكن هذا التعليل لم يرض مفكري المجتمع البابلي. فطرح ملحمة جلجامش القضية مجددا. ولم تعط جوابا شافيا.

جلجامش هو الملك الخرافي لأوروك، المدينة السومرية الأقدم. أله بعد موته وأقيمت في ياوروك عبادة لمجده. تقدمه الملحمة كمقدم جبار، جميل وعادل، إله العوام: أنجز أنكيديو، صديقه ورفيق السلاح، مآثر لا مثيل لها جعلته يحظى بحب الإلهة عشتار. لكن جلجامش رفض هذه الهبات. غضبت عشتار وأرسلت ضده الثور السماوي الذي يخرب حقول القمح، لكن جلجامش وأنكيديو قتلاه. آنئذ، بناء على طلب عشتار، أنزلت الآلهة بأنكيديو مرضا مميتا. ارتعب جلجامش لموت صديقه، وأخذ خوف فيما يخصه هو:

جلجامش على قبر أنكيديو، صديقه،

يبكي بمرارة ويهرب من المعمة:

"وأنا أيضا سأموت مثل إيباني"<sup>١</sup>

تغلغل الألم إلى أحشائي،

إني أخشى الموت وأهرب من المعركة."

يقرر جلجامش كشف سر الحياة والموت. فقد علمته الخرافات القديمة أن ثمة أناسا منحتهم الآلهة الخلود: أوتنابشيم وزوجته. فيشرع برحلة خطيرة عبر البلدان المقدسة بحثا عن أوتنابشيم ليسأله كيف حصل على الخلود. وبعد تجول طويل، يجتاز عقبات رهيبة تعترض دربه ، ويبلغ شاطئ البحر السماوي. وهنا صابئية تعترضه (عابدة الشمس) وتنبئه أنه يتابع هدفا خياليا، فالخلود وقف على الآلهة فقط. وتتصحح العودة على أعقابها والتمتع بالحياة. لكن هذه القناعة، المنتشرة جدا بين عليا القوم البابلي لم ترض جلجامش مطلقا. فيتابع سبيله ويلقى أوتنابشيم الذي لايمك شيئا يعزيه يقوله له. بل يقص عليه أن الآلهة، الغاضبة على البشر، أرسلت إلى الأرض طوفانا. الكل هلك، سوى أوتنابشيم وأسرته، وأن الإله إيا، الذي كان يحذب عليه اتقى النازلة وحرص على بناء مركب. وينتهي الطوفان، وتستقبل الآلهة في كنفها الزوجين الملكيين وتمنحهما الخلود. استخلاصا، يطلب أوتنابشيم من جلجامش: "أي إله ضمك إلى المجموعة، لتلقى الحياة التي عنها تبحث؟" ولما لم يكن أحد الآلهة كلف بهذه المهمة، يحاول جلجامش، بناء على نصيحة أوتنابشيم، قهر الموت بمختلف الطرق السحرية لكنه يفشل في هذا أيضا، منهكا، محطما، يعود إلى مسقط رأسه ويستدعي من مملكة الموتى أنكيكو ليعترف "بقانون الحياة" وبالحظ التعس لعناصر نرغال وأرشكيغال. نهاية الملحمة مفقودة. يجب الإقرار أن جلجامش ملت. دون أن يحل لغز الموت والحياة، لكن عمله هام، لأنه أول محاولة لنقد الدين. يجرؤ جلجامش على تحدي الآلهة ويتفوق عليها أحيانا، وتضطر الآلهة للصفح عن هذا التمرد. لقد أثرت هذه الملحمة تأثيرا عميقا في أدب الشعوب الأخرى في العصور الغابرة. وبين الكتابات الإرشادية، أهمها "حوار السيد والعبد" الذي يعكس لأخلاقية سادة المجتمع العبودي.

عاش السيد حسب مبدأ: "استغل الحياة مادمت على الأرض". وينتهي بالقرف: الحرب، الطرد أو الصيد، الحب، بناء البيوت، المكائد كل هذا يقززه. خائب الظن بالآلهة،

<sup>١</sup> - تسمية أخرى لأنكيكو.

يستخلص أن لا الأضاحي ولا السحر تمكن الآلهة من "جعل الإنسان يتبعها كالكلب". فلم يبق له سوى: "أن يكسر عنقه ويرمي نفسه في الماء".

كان لدى البابليين أيضا ثروة وفيرة من الحكم والأمثال والقواعد الأخلاقية، التي يرجع أحدها بالتأكيد في مجمله، إلى أيام الامبراطورية القديمة. يزخر بالخوف من المؤامرات والاضطرابات الداخلية. يعظ بأخلاق عالم التناحر والخضوع للمستغلين. تنتهي هذه التوصيات، الموجهة في الأرجح إلى أعضاء المشاعة، بنصيحة بليغة المغزى، التضرع إلى الآلهة: "التضحية تطيل الحياة، والصلاة تكفر عن الخطيئة".

في الادب الدنيوي، يجب تصنيف بعض النقوش الملكية للألف الثالث والرابع الأول من الألف الثاني. تقص هذه النصوص القريبة من الخرافات بمضمونها، أحداثاً تاريخية. مثل نقش أوركاينا العظيم الذي يتحدث عن بؤس سكان لاغاش عند توليه العرش ويحكي عن ثروته. ونقش حاكم لاغاش، إيناتون، حول غزوته المظفرة ضد عاهل أوما.

### بذور المعارف العلمية

في عهد امبراطورية بابل القديمة، كان في ميزوبوتاميا-السفلى بذور علمية، تمارس في الحياة اليومية والاقتصاد. تفيد بخاصة في الفلك والرياضيات وتنفع في حساب الزمن، مسح الأراض، تسوية شبكة الري، وكذلك في أعمال التبادل والربا.

كانت عوامل الفلك، المعدة والمعدلة في ميزوبوتاميا في الألف الثالث وفي بداية الألف الثاني، والتي تطورت في أثناء العصور التالية، أساس الفلك اليوناني، ثم العربي، الذي أخذ منه الفلك الأوري جذوره.

الأفكار الفلكية لدى كهنة بابل مشتقة من علم الفلك البدائي. كانت الأرض، السماء والمحيط، في نظرهم، هي عناصر العالم الأساسية. الأرض نوع من الجبل الدائري، منتصب في وسط المحيط الأولي. وفوق الأرض يقوم، ككوب مقلوب، الفضاء السماوي أو الهوائي، الذي يهيمن عليه سد سماوي، تسكنه الآلهة، محاط بمحيط سماوي تصل أطرافه السفلى المحيط الأرضي. بداية، شبهت النجوم بخراف ترعى في السد السماوي، والشمس والقمر فلكان خلقهما الآلهة. وتحدث الكسوفات لأن أرواحاً شريرة خبأت القمر أو الشمس. وفي بداية الألف الثاني، ميز علماء الفلك من النجوم الثابتة خمسة كواكب معروفة اليوم بأسمائها اللاتينية: فينوس، مارس، جوبيتر، مركوري وساتورن. في نفس الحقبة تكونت

مجموعات نجمية؛ ثم، ميز اثنا عشر مجموعة نجمية "على درب الشمس" (الكسوفية)، المسماة زودياك، وأقر أنه قرب "دب الشمس" هذا تقع الكواكب المسماة أعلاه. لا يعرف الكهنة تفسير الكسوف أو الخسوف يومئذ ويخلطون الظاهرات الفلكية والتغيرات المناخية. وعلى قاعدة الملاحظات الفلكية البدائية، أعد تقويم يشبه التقويم الذي وضعه الصينيون؛ والمناهج الأمريكية القديمة تمت لهم أيضاً. وقد لعب التقويم البابلي دوراً فريداً في تاريخ الحضارة، وخدم جزئياً نموذجاً متطوراً لدى الشعوب الأوروبية.

كان كهنة بابل يجهلون في تفسير المستقبل استناداً إلى الظاهرات السماوية والفلكية. لا يمكن وصف هذا النهج بترو بعلم فلك، لأن التفاسير تستند إلى تطابق النبوءات الأرصادية-المناخية والفلكية. مثلاً: "إن غضب أداد (إله العاصفة) يوم اختفاء القمر، سيكون الموسم وفيراً وتستقر الأسعار". وكان التقديس بعامه ذا أهمية سياسية عميقة.

لقد أفضت متطلبات الحياة، في بداية الألف الثانية، إلى تطوير ملحوظ بعلموم الرياضيات. وكان الانجاز الهام الذي اضطلع به الرياضيون البابليون هو ما عرف بـ "نهج الوضع القائم": الاعتراف أن رقماً واحداً يمكن أن يكون ذا قيم مختلفة، حسب وضعه في العدد. بهذا الصدد، سبقت بابل اليونان والرومان. لكن العد الستيني عرقل التطور جداً. إن المصدر الفعلي لهذه الموضوعات مجهول: ربما كانت مرتبطة بالعينات العددية "المقدسة"، المستخلصة من حساب الزمن: ٧، استناداً إلى عدد أيام المرحلة القمرية، و ١٢، استناداً إلى أشهر السنة. فوجود العدد ستون  $60 \times 12$  في هذا النهج يكشف أنه مأخوذ أيضاً من الحساب أو العد على أصابع اليد، الممارس بسعة في العصر البدائي. أما المعارف الرياضية، فقد عرف البابليون في بداية الألف الثاني العمليات الحسابية الأربعة، والتربيع والتجذير المربع، وكذلك مبادئ الهندسة الضرورية لقياس السطوح. وكانت الصيغ الهندسية مستخدمة في قياس الأراضي، الحقول، المراعي والأماكن. ولقد عثر المنقبون على خرائط ومخططات مترافقة بالحسابات المناسبة.

وأخيراً، استقر العد الستون على يد البابليين، في علاقته المرجحة بقياس الدائرة التي ترسمها الشمس في السماء. كانوا يحسبون أننا إذا رتبنا جنباً إلى جنب، على خط السير النهاري للشمس، أقرصاً مساوية للقرص الشمسي، نحصل على ١٨٠، إذن ٣٦٠ لليوم الكامل. يتضح الأمر بالصيغة التالية: تخطو الشمس في اليوم ٣٦٠ خطوة. هذه القسمة،

المطبقة على كل الدوائر، اقتبسها الرومان وتبنتها فيما بعد الهندسة الأوروبية: هي ذي قسمة الدائرة إلى ٣٦٠ درجة و(في اللاتيني *gradus*، الخطوة).

كان البابليون قد حددوا ١٢ ساعة للنهار ومثلها لليل؛ وفيما بعد قسمت الساعة إلى ٦٠ دقيقة والدقيقة إلى ٦٠ ثانية. ينسب هذا التفريغ إلى تاريخ العلم الأوربي.

قسم البابليون الشهر إلى أربعة أجزاء، حسب مراحل القمر؛ لكن إعطاء الأسبوع سبعة أيام، لم يأت قبل منتصف الألف الأول قبل الميلاد، تأسيس الآلهة السبعة "الكبار" الأفلاك: الشمس، القمر، والكواكب الخمسة المرئية بالعين المجردة، التي منها أخذت الأيام اسمها. وعن طريق الرومان، انتقل الأسبوع بأيامه السبعة إلى شعوب أوروبا وعم العالم قاطبة.

### الفنون التشكيلية

السومريون هم أصحاب أولى نماذج الفن التشكيلي والمعماري في ميزوبوتاميا؛ قلدت أكاد وبابل وطورت الطرق والأسلوب التي أبدعت في سومر. وتؤرخ أغلب الأعمال الفنية التي وصلتنا بالنصف الأول من الألف الثالثة. لكن هذا لا يثبت أن الفن في ظل أسرة أور الثالثة وفي أيام امبراطورية بابل القديمة قد انهار بالنسبة إلى العصور السابقة. المقصود هو الظروف الخارجية، بخاصة الهزائم الحربية التي أتت على يد مملكة أور والامبراطورية البابلية. خلال هذه الحقبة المضطربة، أتلّف الكثير من الأعمال الفنية، وأغلب الأعمال الفنية التي حفظت حتى هذه الأيام نقلها المحاربون العيلاميون والحثيون إلى العواصم.

مثلت الفنون التشكيلية أساساً بالمنمنمات والنحت. أسلوب المنمنمات بدائي: جذع بشري مواجه، وجه جانبي، أفضاء جانبية والواحد وراء الآخر. كل الشخص بنموذج واحد، لكن الألبسة السومرية تختلف بوضوح عن الأكادية. تماثيل الحكام والملوك تتميز بكثافة الجذع؛ ورؤوسها متقنة وتوحي بالحياة.

صور الحيوانات طبيعية تماماً، أنيقة وجيدة التناسب الجسدي. يتأتى هذا من أن الفن الحيواني<sup>١</sup> ذو تقاليد قديمة جداً، تعود إلى العصر الحجري الأعلى.

---

<sup>١</sup> - الذي يشبه الحيوانات.



إن أجمل المنحوتات السومرية هي لوحات الثيران، البقر والعجول مع رعاتها، التي تزين معبدا من محيط أور (بداية الألف الثالث). نذكر أيضا منحوتات "مسلة النسر"، مع نصب لايناتوم وغزوته المظفرة ضد أوما. للأسف لم يصلنا سوى جزء منها. ونرى فيها أرباب كتبية من محاربي لاغاش، برئاسة إيناتوم. بحماية الدروع، والرماح المروسة، يدوسون بالأقدام الأعداء الصرعى. وفصيلان آخران يمثلان هرما من محاربي لاغاش سقطوا في ساحة الشرف وكلفوا بحرق الأموات، وسرب من النسر ينهش جثث محاربي أوما. وعثر المنقبون أيضا على أنية رائعة فضية لأنتمين، حاكم لاغاش، منحوتة بدقة على نقد إله الصيد إيميج، الطير المقدس ينشرب مخالبه بأسدين. وبين أنصاب الحكام الأهم، ثمة ثلاثة لغوديا الذي حكم لاغاش في أيام سسيطرة أسرة غوتي؛ اثنان جالسان، الثالث واقف. الثلاثة للأسف مشوهة ومقطوعة الرأس؛ وقد عثر المنقبون على رأسين منفصلين.

بين أعمال أكاد الفنية، نذكر "مسلة انتصار نارامسين" وتمثال لحمورابي. الأولى نذكرى لإرسالية في بلاد جبيلية: العاهل؛ محاط بمحاربيه، يجلس قرب قمة. وحمورابي على المسلة التي حملت شريعته، يمثل بين يدي الإله شاماش ليسلمه القانون.

الرسم الجداري معروف منذ نهاية الألف الثالث. لدينا منه نموذج رائع، وجد في قصر ملكي في ماري. يعرض هذا الرسم احتفالا حيث يراق الخمر تكريما لاستجابة الآلهة لابتهاال الناس بأن يكون الموسم وفيرا.

هكذا إذن، منذ الألف الثالثة والثانية قبل الميلاد، عرفت حضارة مااجدة في بلاد ميزوبوتاميا-السفلى: السومريون والأكاديون يمتلكون بذور المعارف العلمية، كتابة متطورة، وأدبا راتعا. لكن الانعكاس المخلص للواقع غير ممكن في زمن يهيمن فيه مفهوم للعالم يتبناه الكهنوت، حيث يمجّد الدين السلطة الملكية وينذر الإنسان لإحساس الإحباط الناجم عن ضآلته.

## الفصل التاسع

### مصر القديمة

#### الشروط الطبيعية

تشغل مصر الوادي الضيق للنيل المحاط بالجبال من الغرب والشرق؛ يتراوح عرض الوادي بين ١٥-٢٥ كم. تفصله الجبال الغربية عن الصحراء، المسماة في العصر القديم الصحراء الليبية. خلف الجبال الشرقية، يمتد شاطئ البحر الأحمر. في الجنوب تقطع مجرى النيل سيول تجعل الإبحار صعب وتعزل مصر عن بلدان الجنوب. وفي الشمال، يعرض الوادي وينتهي بدلًا النيل. في الماضي، كانت المنطقة غير مزروعة، مستنقعية ومحرومة من الموارد الملائمة.

الوضع الجغرافي لوادي النيل يوفر له مكاسب ضخمة نسبة إلى وادي ما بين النهرين -ميزوبوتاميا- الجبال المحيطة به غنية بحجارة البناء: غرانيت، بازلت، كلكير. الجبال الشرقية وبخاصة جبال النوبة تحوي منخربات ثرة من الذهب. تنمو في الوادي جواهر ثمينة، كالنخيل، والأثل، والجميز -تين فرعون- تستخدم جذوعها في بناء المراكب النهرية وكل أنواع الهياكل. يصب النيل في البحر الأبيض المتوسط، الشريان الرئيس في تجارة العصور القديمة. أخيراً، الزراعة هنا أكثر منها في ميزوبوتاميا.

مصر نوع من الواحة في طرف الصحراء؛ المطر نادر جداً هنا، وينظر إلى هذا المطر النادر نذير شؤم. لكن فيضان النيل يؤمن للبلاد رطوبة كافية وأجود أنواع السماد، أي الطمي. والنهر الذي يبدأ يطفح في شهر تموز، يغمر كل الوادي. يبقى الماء حتى تشرين الثاني، ثم ينخفض بالتدريج. وبعد الشح، يبقى على التربة طمي خصب، مركب من بقايا النباتات المائية العفنة والجزيئات المعدنية. وفي كانون الثاني، تفلح الأرض وتبذر. وبفعل الغرين الذي يغطيها، تعطي محاصيل وفيرة. فمن الطبيعي أن يقدس المصريون النيل منذ أقدم العصور.

تقي الرمال والبحر مصر من الهجمات المفاجئة. ومن هذا الطرف، كان موقعها أفضل من موقع ميزوبوتاميا سهلة البلوغ. على هذا، لم تكن مصر بمنجى من الغزوات، لكنها كانت أقل بكثير مما تعرضت له ميزوبوتاميا. ومصر لم تصب بالدمار الرهيب الذي تحملته بابل، مثلا.

### سكان مصر الأولون

في العصر الحجري القديم، يوم كانت الأمطار الغزيرة تحمي النمو السريع للأشجار والنباتات حيث تنبسط اليوم رمال الصحراء الرتيبة، لم يلج الناس أبدا وادي النيل، الذين إذ كانوا يعتبرون فيضانه الصاخب داهية دهياء. وأدوات العصر الحجري القديم لم تكتشف إلا في الجبال الواقعة على ضفاف الوادي. فقط، تطور الجني جيد التنظيم وزراعة الأرض المروية طبيعيا، شددت الناس إلى أرض ضفاف النيل، لكن هذا كان في العصر الحجري الحديث والوسيط.

كانت قبائل العصر الحجري الحديث تعمر مصر في الألف الخامسة قبل الميلاد، تعيش من الصيد والقصص، لكنها تهتم أيضا بالزراعة وتربية المواشي والطيور: كانت تزرع القمح، الشعير والكتان، تربي الخنازير، الأبقار والأغنام. بداية، أقام الناس في أرباض الوادي حيث كانت الواحات (الغيوم)، حيث تسيل السيول الجبلية التي توفر الماء الضروري للحقول.

تنسب قبائل وادي النيل إلى مجموعات أثنية مختلفة، كما تثبت أبحاث تكون الإنسان التي تكشف أن سكان مصر الأولين يضمون جماعات تمت إلى الليبيين، والزنوج وربما إلى قبائل سامية من جنوب فلسطين.

لقد توثقت معطيات الانثروبولوجيا<sup>١</sup> بالمواد الأثرية التي تشهد على وجود مختلف نماذج القبور: على المجرى الأوسط للنيل، كانت قبائل الحضارة "التايزية" *taienne* تدفن موتاهم في مقابر خاصة، تاركة أباريق مترعة بالغذاء، بينما يدفن سكان شمال مصر (مناطق حلوان، مريمدي) وفياتهم تحت تراب أكواخهم، على الخاصة، باتجاه النيل، ولايمونونهم، مفترضين على الأرجح أن أرواح الموتى تقاسم كل يوم الأحياء وجبتهم.

---

<sup>١</sup> - تكون الإنسان.

أخيراً، تثبت دراسة اللغة المصرية القديمة -استناداً إلى الآثار التي تعود إلى حوالي ٣٠٠٠ عام قبل الميلاد- أنها تتضمن، عدا العناصر *chamitiques*<sup>١</sup>، عناصر سامية. يمنحنا كل هذا الافتراض أن الأمة المصرية تكونت في وادي النيل بعد اتصال جماعات أثنية أتت من الغرب، والجنوب والشرق.

في الألف الرابعة قبل الميلاد، حققت القبائل المصرية تقدماً عميقاً في مختلف فروع الاقتصاد: فنضوب الواحات وجفاف السيول أكرهم على حراثة الأراضي التي يرونها النيل؛ ولصنع الأدوات والحلي استخدموا المعادن (الذهب، النحاس)، الأمر الذي دفع المصريين على إقامة وشائج متينة مع البلدان المجاورة؛ وإتقان صناعة الصوان والخزف. أفضى كل هذا إلى زيادة السكان، وتعزيز وضع القبائل من جهة، ومن جهة أخرى، إلى ظهور عدم المساواة بالثروة والشروط، وقسمة المجتمع إلى عبيد، أحرار وأرستقراط. وتفكك نظام العشير.

### مشاعية الجوار والقبائل (مشاعية الجوار *les nomes*)

في المرحلة التي تلت الارتقاء الاقتصادي، اتجه الناس لتشييد منشآت بدائية للري لتنظيم وصول مياه النيل -مصدر الماء الوحيد- إلى الحقول. ومع الزمن، كون الطمي، على طول النهر، هضاباً عالية كونت في سنة الفيض الضعيف، عقبات في وجه الغمر، وحالت دون تصريف المياه من الأراضي؛ وفقدان المصرف سبب المستنقعات. كانت أولى أعمال الري كانت حفرأ بسيطة في جروف النيل، حيث السدود الخاصة تنظم الصبيب. وفيما بعد، تعلم المصريون إدارة الأبنية التي تحول المياه وتسقي بالدور الحقول المحيطة بالسدود.

رفع استخدام المحراث مردود العمل الزراعي، وابتكار الدوران حوالي ٣٠٠٠ عام قبل الميلاد يثبت أن صنع الفخار كان قد صار حرفة مميزة. وظهر صناع مهنيون -باعة الخردوات، قصاصو الحجارة- في الأرجح في الفترة ذاتها. وأقيمت علاقات غير منتظمة مع البلدان المجاورة، وربما حتى مع سومر. وأخيراً كان ابتكار الكتابة الرسمية إنجاز العصر الأهم.

<sup>١</sup> - مجموعة لغات: مصرية، بربر، وفي أفريقيا، كوشيتيك *couchitique*.

المعطيات الأثرية التي تميز تطور العلاقات الاجتماعية شديدة الإيجاز. يمكن أن نقول: إن العبودية بدأت في الألف الرابعة: فالتمائيل الصغيرة للأسرى وقد قيدت أيديهم إلى ظهورهم هي البرهان على هذا، كما يبدو. وإلى جانب الملكية على الشيوخ، ولدت الملكية الخاصة: شاراتها، المسماة تامغا، نقشت بعمامة على الدوارق؛ في الغالب، دوارق نفس القبر تحمل ذات التامغا. وتطور تربية الأنعام والطيور، والزراعة بالسكة الحديد، والمهن، قلص الدور الاقتصادي للمرأة في الإنتاج وأفضى إلى إرساء عهد الأبوة. وقد انتهت هذه التطورات إلى هدم نظام العشير وولادة مشاعية الجوار، المؤلفة من الأسر الصغيرة والكبيرة. وكما هو الأمر في ميزوبوتاميا، مشاعية الجوار هي مشاعية المياه والأرض، أي الملكية المشتركة بالأرض والماء خاصة.

شكلت بعض المشاعيات جزءا من اتحادات أرضية أوسع، طبعاً من القبائل السابقة؛ كان اسمها في مصر (سبات)، لكن المؤرخين اعتادوا إعطاءها الاسم اليوناني قبيلة *nome*. ومن الملفت أن الكتابة النقشية-التصويرية *pictagaphique* المصرية تمثل الـ(السبات) بصورة حقل مقطوع من القنوات، وكان تنظيم شبكة الري واحداً من أهم اهتمامات القبائل.

بالأصل، كانت القبائل منفصلة عن بعضها، خاصة في الدلتا، حيث تشكل أفرع النيل والمستنقعات حدوداً طبيعية.

ربما كان لكل قبيلة لهجتها؛ على كل حال كان لها أساطيرها وخرافاتها، كانت أكبر القبائل هي القبيلة الفيلية<sup>١</sup> في أقصى الجنوب، و *raconpolis, Abidos, hie* كانت *Memphis et Bouto* القبائل تتحارب، من أجل توزيع الأسلاب أو العبيد، أو بسبب النزاعات التي يثيرها شح المياه. ثمة نقوشات على صفائح من العاج أو الحجر تمثل مشاهد المعركة؛ وتكشف أنهم كانوا يتخاصمون بشأن الماء والأرض.

يرأس كل قبيلة رئيس، أحدهم هو الملك العقرب، الذي وضع تحت سلطته مساحات من الأرض تبدأ من هياراكونبوليس حتى مامفيس. قبضة أسلحته الحجرية المكتشفة في هياراكونبوليس، مزينة بصور أبو منجل<sup>٢</sup> مربوط، يرمز إلى أعداء الـ"الملك". ورايات

<sup>١</sup> - نسبة إلى الفيل.

<sup>٢</sup> - طائر مائي طويل القامتين والمنقار.

مزينة بحروف هيروغليفية تخفق فوقه: يذكر هذا المشهد على الأرجح بانتصار العقرب على العواهل الخصوم.

تحمل هذه القبضة رسم العقرب يمارس مهام الملك-الكاهن: المنكاش باليد، يحرسه اثنان من ذويه يهشان بالمروحة، يرسم التلم الأول لتأمين موسم وفير، ورجل آخر يرمي الحب في التلم، يأخذه من سلة.

المعطيات التي بين يدينا عاجزة عن تمييز سلطة الملك العقرب. وبما أن الدولة لم تكن قد وجدت بعد، كان لابد من اعتبار العقرب رئيس قبيلة وليس ملكاً باتساع الكلمة. ينتج من هذا أن محاولات توحيد وادي النيل سبقت تشكل الدولة. وفي هذه الحقبة الزمنية، على الأرجح، تشكل اتحادان كبيران من القبائل، يحكم الأول الدلتا الإقليم المتاخم لممفيس (سمي مصر-السفلى)، والآخر (مصر-العليا) يمتد نحو الجنوب حتى الفاننتين *Elephantine*. بداية، كان مركز مصر-السفلى بوتو *Bouto*. ومركز مصر-العليا هياراكو مبوليس.

### الإمبراطورية الثينية

تشكل الدولة بعيد ملك العقرب، في أيام الأسرتين المالكتين الأولى والثانية (نهاية الألف الرابعة). قبور هذا العهد تشهد على مساواة واضحة في الثروة والشروط: الناس البسطاء مدفونون في حفر بسيطة تضم سحلية بسيطة، بينما قبور الملوك والسادة صروح معمارية فعلاً. فقبر حيماكى، مثلاً، يضم ٥٠ غرفة وجد فيها حوالي ٢٠٠٠ مادة (رغم سرقتها فيما مضى من الزمن). ومنحوتات وأنصاب العصر تقدم عامة الشعب عارياً تقريباً، الشعور حليقة، مع أن النبلاء يرتدون أفخم الثياب والشعور المستعارة للرأس واللحي. وكان عبيد الملوك والنبلاء مدفونين قرب سادتهم.

المحطة الأولى من وجود الدولة المصرية سميت الإمبراطورية الثينية. تدوم تقريباً من القرن الثلاثين حتى القرن التاسع والعشرين قبل الميلاد. وربما ولدت الدولة في نهاية الألف الرابعة؛ لكن الثابت أنها وجدت في العام ٣٠٠٠ قبل الميلاد. تثبت الآثار النادرة لاتحاد الشمال والجنوب أن النضال الذي سبقها كان طويلاً وضارياً. ونحن نجهل اسم الملك الذي وحد البلاد. وحسب موروث جمعة هيرودوت، كان مؤسس الأسرة الأولى هو مينيس. لكنه كان اتحاداً غير مستقر. شريحة حجرية نقص حكاية انتصار نارمير، ملك مصر-العليا، على مصر-السفلى؛ وبعد هزيمة العدو، أسر نارمير ٦٠٠٠ مقاتل. ربما كان

الحديث يدور حول إيادة تمرد نشب في الشمال.  
في نهاية حكم الأسرة الثانية أعلن عصيان آخر في مصر-السفلى، كلفت إيادته  
خمسين ألف قتيل.

## الفصل العاشر

# إمبراطورية مصر القديمة

### الاقتصاد والنظام الاجتماعي

عاشت دولة العبودية المصرية قرابة ألفين وخمسمائة سنة: من نهاية الألف الرابعة حتى العام ٥٢٥ قبل الميلاد يوم قهرها الفرس. وينقسم تاريخ الدولة المصرية إلى خمس محطات: الإمبراطورية الثنية، الإمبراطورية القديمة، الإمبراطورية الوسطى، الإمبراطورية الجديدة والعهد الأخير. وتميزت أيضا حقبة انتقالية. تنقسم العهود إلى أسر مالكة. الإمبراطورية القديمة التي تمتد تقريبا من القرن ٢٨ حتى ٢٤ قبل الميلاد، تبدأ مع الأسرة الثالثة وتنتهي مع الأسرة الثامنة (لأنعرف شيئا تقريبا عن الأسرتين الأولى والثانية).

في مصر كما في ميزوبوتاميا، يؤسس الاقتصاد على حراثة الحقول وتربية المواشي والطيور، وري معقد، زراعة الكرمة، والأشجار المثمرة، مواد زراعية بدائية، من نموذج العصر الحجري الجديد. كان المنكاش والتقف لنقل التراب الأدوات الوحيدتين المستخدمتين في حفر الترع وتشبيد السدود؛ كانوا يحرثون بالمنكاش أو المحراث الخشبي، تجره البقر؛ وفي الحصاد استخدم نصل الصوان ذو المقبض الخشبي؛ يداس العنب بالأقدام ويدرس القمح بوطء البهائم الصغيرة على السنابل المنتشرة على البيدر.

كانت أدوات الحرفيين من الحجارة من الخشب ومن النحاس؛ كان أغلب الأدوات النحاسية مطروقا وليس مصبوبا أو مسكوبا. وكانت الأدوات النحاسية تستخدم بسعة لتسوية الخشب وبخاصة الحجارة الطرية.

بواسطة السكاكين والبلطات النحاسية، صنعوا المراكب (التي وجد بعضها قرب القبور الملكية، وسكة المحراث الحديدية، ومواد أخرى؛ كان قاطعو الحجارة المصريون، المسلحون بهذه الأدوات البدائية نفسها، يصنعون صفائح كلسية قابلة للإتقان.



لقد وصلتنا أعمال هامة، نحوت وجداريات قبور تخص الارستقراطية المصرية، تمثل أنواعا من الأعمال الزراعية ونشاطات الورشات الحرفية. بعض هذه الورشات متخصص: النجارة الضخمة والدقيقة، مخابغ، نسيج منفذ أعمال دقيقة لكنها من نوع محدد؛ هكذا صنعت ورشات النجارة حاجات دقيقة من الخشب وكذلك المراكب الضخمة.

وحلقات أخرى من مهن مختلفة: باعة الخردوات والصاغة، الدباغون، قاطعو الحجارة، إلخ. أغلب الحرفيين ذكور؛ فقط النساجون، في زمن الإمبراطورية القديمة، نسوة. ومكان خاص يعود للمهن التي تعالج المنتجات الغذائية، على رأسها الأفران ومعامل الجعة.

رغم تطور المهن يستمر الوفرة في الاجمالي الطبيعي؛ إن نزل جزء من المنتجات إلى السوق، يظل التبادل بدائيا: يبادل منتج بآخر؛ السمك، مثلا، يبادل بالحذاء أو الخضار لقاء النسيج. ولما كانت النقود لم تعرف بعد، يبادل النحاس بالوزن. على هذا، ترسخت العلاقات الاقتصادية مع البلدان المجاورة، بخاصة مع سوريا، فمنها يأتي خشب الأرز. والسلع الآتية من سوريا وأثيوبيا هي بعامة المواد الكمالية التي لاتهم طبقة الكادحين.

العلاقات الاجتماعية في الإمبراطورية القديمة غير معروفة: فلم يعثر تقريبا على وثائق الشؤون المصرية المماثلة لرقم الفخار السومرية للألف الثالثة؛ أما المشاهد التي تزين جدران القبور تشير جيدا إلى تقنيات الإنتاج، لكنها لاتحولنا معرفة وبالضبط لمن تخص الأرض، ولم تكن الشرط الاجتماعي للرعاة، الحصادين أو قاطعي الطرق.

في المجتمع المصري، انتشرت العبودية. شكلت الحرب مصدراً للأسرى وبالتالي للعبودية (من الاثيوبيين والليبيين) الذين يأتي بهم الملوك من غزواتهم. يختال عاهل من الأسرة الرابعة، في نقوشه، انه أسر مرة مائة ألف أسير ومرة أخرى سبعة آلاف. لكن ماعدا هؤلاء الأسرى، كان بين العبيد مصريون استعبدوا؛ فانهدار الناس الأحرار إلى عبيد مذكور في النقوش العائدة إلى نهاية الإمبراطورية القديمة. ومعروف أيضاً أن العبيد كانوا يشرون ويباعون.

ليست حياتهم أكثر من مكان للفرضيات. وفي كل حال، تبقى العبودية أبوية: فالعبيد لايشغلون مكاناً خاصاً في عملية الإنتاج؛ الناس الأحرار وحتى الارستقراطيون -سادة وكهنة- يشاركون بالأعمال الزراعية وغيرها.

أنباء الملكية ضئيلة جداً. في الأرجح، كانت النواة الاقتصادية للمجتمع دوماً هي مشاعية الجوار التي تنظم توزيع المياه على الأراضي. وربما حفظت المشاعية المصرية أنواعاً من العمل التعاوني في تقسيم أعمال الري ومنشآته أو درس القمح: وتدرس القرى حبوبها على بيدر مشترك. وليس واضحاً أمر التنظيم الداخلي للمشاعية المصرية، لكن الثابت ان الأرض والأنعام كانت، في زمن الإمبراطورية القديمة، تباع أو تترك إرثاً. وحسب ف. أفدييف، كانت جمعية خاصة تضطلع بشؤون المشاعية (توزيع المياه، والدعاوى وسواها).

كانت المشاعية تتضمن أسراً أبوية صغيرة وكبيرة. وكان المالك الرئيس هو الابن البكر، الذي يحصل على الثروة كلها أو الجزء الأهم؛ على ذلك، لرئيس الأسرة الحق في أن يوصي بأرزاقه لشخص غريب. تتمتع سيده البيت بنفوذ واسع: المصري هو ابن هذه وليس ابن ذاك؛ وبقايا الأمومة كانت تبين أيضاً في قدرة المرأة على حكم البلاد (نظرياً) ينتقل عرش مصر من الأم إلى البنت. وفي حقول وورشات الملك، والمعابد والسادة، لا يعمل العبيد فقط، بل أيضاً الناس الأحرار، المشار إليهم في بعض النصوص باسم ميرتو *mertou*. ويشكلون عادة طواقم يديرها رؤوساء. ورسوم ونقوش القبور، تقدم هؤلاء الرؤساء مسلحين بسوط أو هراوة. لانعرف إن كان الـ(ميرتو) أعضاء في المشاعية أم أنهم تركوها لسبب ما. يفترض بعض العلماء أنهم كانوا عبيداً، لكن غير معروف كيف يحدث هذا.

كان الحسبة يراقبون بدقة عمل العمال. وفي أثناء تنفيذ المهمة، كان هؤلاء يتلقون أغذية: خبز، بيرة وخضار. ولانعرف كيف كانت تنظم السخرة؛ أما المؤكد، أنها لاتستغرق كل وقت الشغيلة: لهم أن يعملوا لحسابهم ويبيعون في السوق ماينتجون. تشمل الطبقة السيدة نبلاء القصر وارشتراطية القبائل (النوم)، الذين انحدر أغلبهم من حكام النوم). كان السادة يملكون أراض شاسعة تشمل قرى منفصلة. وكان يدير الاقتصاد العديد من الموظفين والحسبة. كان قسم من هذه الأملاك ميراثاً، لكن النبلاء يتلقون أيضاً أراضي من الملك، مكافأة لخدمتهم. كان علياً الكهنة ينتسبون أيضاً إلى الطبقة المهيمنة. عدا أعيان الارشتراطية، كان ثمة موظفون صغار وكهنة يملكون عبيدين أو ثلاثة عبيد (بعامة من النساء). ليس لهم ان يبنوا قبوراً فخمة، بل يسكنون أقبية مزدانة بالنقوش والنحت.

## النظام السياسي للإمبراطورية القديمة

في أوج الإمبراطورية القديمة، كانت الدولة المصرية هيئة استبدادية تدافع عن مصالح النبالة المستعبدة. وكانت أعتى وأشد مركزية من دولة سارغون في ميزوبوتاميا؛ يعلل هذا بخاصة في الشروط الطبيعية لوادي النيل، حيث تقيم القبائل في بقعة ضيقة على حوافي نهر فريد. والتوزيع المعقل للمياه والاستثمار الطبيعي لوسائل النقل غير ممكنة إلا في مصر موحدة.

كانت ممفيس عاصمة الإمبراطورية القديمة، في مصر-السفلى. وكما تدل المعطيات الأثرية، كانت أملاك وقصور الأرسطراطية في هذه المنطقة. فحول ممفيس (في الجيزة، أبوصير، ساكاراه، إلخ.) عثر على الشهود الرئيسيين لازدهار الإمبراطورية القديمة، بينما لم يعثروا في باقي بقاع البلاد سوى على آثار منعزلة. ومصر-السفلى (بخاصة الدلتا)، المنطقة التي احتلها نارمير وملوك آخرون من الأسر الأولى، كانت تشمل غالبية المراعي والكروم الملكية، بينما كانت مروج الدلتا تغذي قطعانا ضخمة من البقر والأغنام. وكانت الأملاك الملكية القاعدة المادية للسلطة الحاكمة.

كان الملك، الذي دعي فيما بعد فرعون (*depeaa* التي تعني بالمصرية "البيت الكبير") يحكم حكما مطلقا يعين الموظفين الكبار، يعزل الحكام، يفرض الأتاوات، يرسل الجيوش إلى البلدان المجاورة، إلخ. يقدر أن يصادر أرزاق رعاياه ويحكمهم بالموت بدون محاكمة. ليدعم نفوذه، قدس وأعلن "الإله الأكبر": تعبد ابتهالي يقام حول شخصه. ويعتبر حتى تقبيل حذائه يعتبر شرفا عظيما. يقدمه فنانون مصر معادلا للآلهة.

كان الفرعون يرتكز إلى جهاز واسع من الموظفين يديرهم الوزير الأول، المسمى بالعربية الـ: "وزير". كان الوزير قائد الجيوش، والقاضي الأول؛ فرض الضرائب، أعمال الري ومنشأته، وبكلمة، كل المهام الرئيسة للحكومة المصرية تصدر عنه. تحت إشرافه "ست قاعات" تحقق العدالة، و"غرف" أخرى ترأس مختلف فروع الاقتصاد.

كان عدد خدمات الدولة المصرية الاستبدادية الرئيسة ثلاثا: العامة التي تتولى بخاصة أعمال الري؛ الجيش ("قاعة السلاح") التي تسرق الشعوب الأخرى. كان الجيش المصري ميليشيات مؤلفة من فئات تجهزها القبائل (النوم) ومتطوعين أثيوبيين. يمكن الظن أن هذه الوحدات تفتقر للانضباط؛ وفي كل حال، يذكر أحد القادة بفخر أن فصائله لا تسرق

المصريين، لاتحطم الأبواب لتنهب الخبز والحبوب. كان المحاربون مسلحين بأقواس وأكوام من الحجارة، وفيما بعد استخدموا الخناجر والبلطات البرونزية كسلاح دفاعي، وتدرعوا بدروع مصنوعة من جلد الحيوانات. وكانت التكنات تشكل منشآت دفاعية حصينة: هكذا، كانت القلعة القريبة من أبيدوس ذات سورين من الآجر، تقيس من الداخل ١٢م ارتفاعا وسماكة القاعدة قرابة ٦م.

كانت المعابد تساهم بنشاط بتعزيز السلطة الملكية. وعند أفول الإمبراطورية القديمة، تلقى بعضها الوثائق التي توزع المرتبات الملكية على، ليس فقط الكهنة، بل على كل الجهاز، الأحرار والعبيد.

لقد أثارت قضية الوثائق جدلا عنيفا: اعتبرها اغلب العلماء امتيازات ورأوا فيها برهانا على وجود الإقطاع في مصر القديمة. إن وثائق الإمبراطورية القديمة لاتمت بصلة إلى امتيازات العصر الوسيط: فهي لاتعطي المعابد أي استقلال، أي حق مدني على جهازها، بل تهدف إلى حرمانها من سلطة الحكام الذين يفرضون السخرة على السكان المحليين، وبهذا تجعل المعابد دعاء لسياسة الفرعون.

### انطلاق سياسي للإمبراطورية القديمة

إن التاريخ السياسي للإمبراطورية القديمة غير معروف معرفة كافية؛ فالنقوش المحفورة على القبور لاتعطي سوى معلومات جزئية عن هذا الحدث أو ذاك (أحيانا رئيسي)؛ والنصوص الأحدث على البابينوس المصري والمانتون تتضمن بخاصة خرافات تصعب غربلتها وأخذ الوقائع التاريخية منها. هذا إذا لم نذكر أن التسلسل التاريخي للإمبراطورية القديمة مستقر استقرارا تقريبا.

كان فراعنة الأسرتين الثالثة والرابعة فاتحين غزاة. يتميز سينفرو، من الأسرة الرابعة يتميز بشكل فريد: حملة إلى إثيوبيا جلبت له الكثير من الأسرى و٢٠٠٠٠٠ رأس من الماشية؛ وانتصر على ليبيا، وضم إلى مصر سيناء الغنية بمعدن النحاس وأرسل حملة إلى فينيقيا لتأمين خشب الأرز. وعلى تخوم مصر أقام حصونا حصينة لحماية البلاد من الغزوات. واستمرت حروب الغزو في حكم ابنه شيبويس (خوفو باليونانية) الذي غزا هو الآخر سيناء.

ويشرع ملوك الأسرتين الثالثة والرابعة بأعمال بناء ضخمة، على رأسها، الأهرامات،

التي رتبها اليونانيون مؤخرا بين عجائب العالم السبع. الأهرامات قبور رائعة للملوك، مبنية بالكتل الحجرية. أضخمها (قرب قرية الجيزة، في أنحاء ممفيس) بني من أجل خوفو؛ يبلغ طول ضلع القاعدة ٢٣٠م، وارتفاعه ٤٦,٥م، ومكون من مليوني حجر زنة الواحد منها ٢,٥ طنا. في داخل هذا الصرح العملاق أروقة وقاعات.

كان الأهرام الذي ضم جثمان الفرعون، مخصصا للطقوس الإلهية التي، حسب المعتقدات المصرية، تؤمن بعث الملك ودخوله مقام الآلهة في السماء. إلى جانب الأهرام تقام المعابد حيث يحيي الكهنة احتفالات سحرية.

كانت الأهرامات محاطة بقبور الملوك التي تسمى بالعربي مصطبة *mastaba*. ففي زمن حكم الأسرتين، الأولى والثانية، ماكان يسمح أن تكون قبور السادة أوسع من قبور الملوك. ومصاطب الإمبراطورية القديمة، وهي صروح حجرية، تبدو ضئيلة قياسا مع الأهرامات الضخمة؛ يشير هذا الفرق بشكل ما إلى عتو ملوك مصر وسعة نفوذهم واستبدادهم.

لبناء الأهرامات كانوا يجندون فصائل من العمال الذين يتلقون من المخازن الملكية مواد الإعاشة والثياب. وجدت شارات على الأهرامات خولت الأثريين حساب عدد هذه الورديات. نعرف، مثلا، أن أهرام خوفو كان يشغل أربعة ورديات، مكونة من قاطعي الحجارة المهرة، يقودها مهندس معماري من لدن الملك ورئيس عمال. كان يساعد البنائين جماهير من اليد العاملة، كان يوجد بينهم بالتأكيد أعضاء من المشاعات، انتزعوا من العمل الحقلّي وأرسلوا إلى الجيزة لقص الحجارة، وحملها حتى الورشة على ظهورهم ورفعها، بواسطة صقالات خشبية وحبال، إلى علو مذهل.

كان البناء يتطلب جهودا جبارة. سمع المؤرخون اليونان أحاديثا عن غضب الشعب الناتج عن هذه الأعمال: حسب ديودور، رمى المتمردون رفات الفراعنة خارج قبورهم الفخمة.

أيا كان الأمر، فقد عزف فراعنة الأسرة الخامسة عن بناء أهرامات ضخمة: فقبورهم المبنية في سكاراه، متواضعة جدا قياسا إلى قبور الجيزة. مع ذلك، رفع هؤلاء الملوك على شرف را، إله هليوبوليس، معابد مزينة بالمسلات البيضاء بارتفاع سبعين مترا.

تابع فراعنة الأسرة الخامسة حروب الفتوح: تتحدث نقوشهم عن نزاعات مع قبائل

سيناء، الرازياس في ليبيا. تعززت مع سوريا العلاقات الاقتصادية والدبلوماسية؛ وجدت منحوتة تمثل مراكب آتية من شواطئ فينيقيا ويفترض بعض الباحثين تمثيل وصول أميرة سورية تزوجت الفرعون ساهورا. وفي أيام بيبي الأول، من الأسرة الخامسة، نظمت بعثات ضخمة: كانت الجيوش المصرية تتغلغل من حين إلى آخر في شمال أثيوبيا وجنوب فلسطين. والمنحوتة أروي نقص عن الدمار المرتكب في فلسطين: دمر الغزاة المحال، قطعوا أشجار التين والعنب، ورجعوا بمساجين يسميهم المصريون اسما معبرا "الموتى الأحياء".

### تنامي نفوذ أرسقراطية الس(نوم) وتراجع سياسة مصر

في أيام حكم الأسرتين الثالثة والرابعة، كانت السلطة الملكية تتوطد: كان هذا ضروريا لتوحيد مصر وتأمين مسار طبيعي لنهج الري؛ وسحق مقاومة العبيد والمشاعات والحصول على سرايا العبيد من أثيوبيا، ليبيا وفلسطين؛ أخيرا لتكنيس بقايا النظام العشيري. كان الفرعنة سنيفرو، خوفا وأخلافهما قد نجحوا، إجمالا، بتحقيق هذه المهام.

بدءا بمنتصف الألف الثالث، لوحظ اتساع سلطة النبلاء، بخاصة حكام الس(نوم). وفي أيام الأسرتين الخامسة والسادسة، صارت قبور السادة أفخم. لم تعد تقاس في منطقة ممفيس، بل في الس(نومات). كان حكام الس(نوم) يعززون مواقعهم في الأقاليم ويصيرون سادة وارثين ومستقلين. وكوفور، حاكم اللياننتين، الذي حكم في أيام الأسرة السادسة، يخاطر ويرسل حملات إلى أثيوبيا للحصول على العاج، البخور وجلود الحيوانات. يعترف بالسلطة الاسمية للفرعون ويهديه قزما للتعبير عن الفرق، لكنه يحتفظ بأضخم الأسلاب.

كيف يعمل نمو سلطة الحكام؟ المصادر التي نملكها حاليا لاتعطينا سوى الافتراضات. من الطبيعي أن يغضب استغلال البلاد في مصلحة شريحة ضعيفة من النبلاء تقم في ممفيس، أن يغضب الشعب غضبا جديا، وخاصة في مصر العليا. ومن جهة أخرى، أن يقلص التوزيع المستمر للأرض على السادة والمعابد (بخاصة في أيام الأسرتين الخامسة والسادسة)، ان يقلص بوضوح الأملاك الملكية ويضعف السلطة الفعلية للفرعنة. ولقد أفضى تطور الملكية الخاصة وتفكك المشاعة المجاورة إلى اتساع أملاك الحكام؛ وكان هؤلاء يستغلون الغضب العام الذي تسببه الأعمال الضخمة الملكية، وسياسة الموظفين الضريبية. وفي نقوشهم، كان الحكام يقفون مدافعين عن الشعب: يفخر أحدهم ويتباهى

بتقديم الخبز، الجعة والثياب للبوساء؛ ويعلن حاكم آخر أنه الأخير في المدينة، انه نيل  
الـ(نوم). وكان تعزيز وتوطيد نفوذ الحكام، يترجم إلى ضعف وتراجع لسلطة الفراعنة.  
لا بل فقد آخر ملوك الأسرة السادسة كل نفوذ، ويقول لنا مانيتون: إن سبعين فرعوناً من  
الأسرة السابعة حكموا إجمالاً سبعين يوماً. على احتمال أن الأسرة السابعة لم توجد أصلاً،  
فالخرافة التي ينقلها لنا مانيتون تثبتنا عن جو تلك الحقبة المضطرب. ولم يدم ملك الأسرة  
الثامنة طويلاً. وفي نهاية المطاف، آلت مصر إلى نومات، أي إيالات.

لقد انعكس تصدع البلاد بعنف على الري: في كثير من الأمكنة أهملت المنشآت،  
وركدت المياه، مشكلة المستنقعات. ونشبت النزاعات بين النومات، ونجم أغلبها عن توزيع  
الماء. كان الحكام يهاجمون في الأغلب المناطق المجاورة التي يبحث سكانها عن ملجأ لهم  
في المستنقعات.

وترافق تخلخل امبراطورية مصر مع نضال طبقي حاد: كتابات بعض الحكام  
لا تتحدث إلا عن "الاضطرابات" التي تقلب المدن؛ ويفخر هؤلاء الحكام بكبح الاضطرابات  
بمؤازرة سرايا المحاربين.

وفي هذه الحقبة، على الأرجح، أفادت قبائل سامية من الصحراء السورية من خور  
الدولة المصرية لتتغلغل في شرق الدلتا.

## الفصل الحادي عشر

### امبراطورية مصر الوسطى

#### إعادة توحيد مصر

أدى تفكك البلاد إلى مناطق منعزلة إلى انهيار الري، اندلاع الحروب الداخلية، وبالتالي، الجوع. تشير مدونات العصر إلى الفقر المدقع الذي دفع إلى أكل لحوم البشر. فكان توسيع حقول القمح، وإعادة الأرض إلى الإنتاج مسألة في غاية الإلحاح. وفي الأرجح، في حقبة الانتقال إلى الإمبراطورية الوسطى يبدأ المزارعون المصريون باستخدام الحقول السهلية، أي الحقول التي لا يغمرها النيل في أثناء الفيضان. كانوا ملزمين على سقيتها بواسطة الآلات الرافعة التي كان الشادوف أبسطها. وربما كانت حراثة الحقول العالية سببا في ظهور سكة حديد متقنة، مزودة بمقبض يسهل عمل الفلاح. طيلة المرحلة الانتقالية، تخفي الحقول الواسعة من أرسنقراطية العاصمة، فقد تعبت كثيرا فرق *demertou* العديدة. وصارت أملاك السادة أقل اتساعا وحرثها بشكل عام عبيد سموا "رؤوسا". في النصوص القديمة. يملك السيد ٢٠-٣٠ "رأسا أغلبهم نساء. كان قسم من العبيد أجانب، سوريين، مثلا.

في الوقت ذاته، تأخذ العناصر الغنية في المشاعة نفوذا أوسع فأوسع: تسميهم المصادر *puissante nezes* ("nezeses" تعني "صغير") أي الأقوياء الصغار. امتلك هؤلاء الأقوياء الصغار أراض واسعة، ومواش وعبيدا؛ وأحيانا صاروا سادة *seigneuss*، في هذه الحالة، كانوا يعلنون في مدوناتهم التوصل إلى النبيل بطرقهم الخاصة وليس بالولادة. وهكذا في هذا العصر المضطرب، تتغير بنية الطبقة المهيمنة في الإمبراطورية القديمة، كان المقام الأول وفقا على أصحاب الرتب العالية الذين يقطنون عادة العاصمة ويستغلون فسي أطيافهم الشاسعة المصريين الأحرار، أما الآن تتألف الطبقة الحاكمة من أصحاب العبيد، الذين يملكون أراض أضيق وكان بعضهم منذ مدة بسيطة أعضاء بسطاء في المشاعات.



كانت هذه الأرستقراطية الجديدة -بخاصة الأقوياء الصغار- مشغولين بتوحيد مصر، الأمر الذي يعدمهم ليس فقط بإصلاح شبكة الري ونهاية الحروب الأهلية، بل أيضا بتوطيد جهاز الدولة ؛ فكانوا بحاجة لحكومة قوية لتثبيت وضعهم في البلاد وزيادة عدد عبيدهم في أثناء الامتداد.

بداية، تحقق التوحيد حول هيراكليوبوليس، التي نجح أمراؤها بإخضاع ممفيس؛ وفي الجنوب، امتدت أراضيهم حتى أبيدوس . ثمة نص محفوظ ملفت، يرسم العلاقات الاجتماعية تحت حكم هيراكليوبوليس: هو تعليمات الملك كحيثي. يدافع كاتب هذا النص السياسي -وهو الملك بالذات أو مستشاره- يدافع بوضوح عن مصالح الطبقة الحاكمة. المحروم من الملك، متمرد أبدا. ويجب على الملك أن يكون قاسيا مع الشعب. أما السادة ورثة التاج عليهم أن يصونوا ملكهم وحياتهم. لأن "ثروتهم تفيد التاج". بين الأرستقراطية التي يعتمد عليها ملك هيراكليوبوليس، يشغل الأقوياء الصغار مقاما هاما. ينصح كحيثي الثالث وريثه برفع الناس حسب مهنتهم، بحسب "أهليتهم" وليس بناء على أصلهم.

تدل هذه الوثيقة أن كحيثي الثاني يؤسس سلطته على طبقة محددة. ويذكر أيضا السند المادي لهذه السلطة: جيش ممتلئ من الشباب (ربما كانوا أولئك الذين تركوا أسرهم الأبوية المتصدعة). وتكشف وصايا كحيثي الثالث عن مفهوم جديد للسلطة الملكية: لم يعد الملك "إلها"، بل هو راع صالح، حكيم يهتم بشعبه. يقدم كاتب النص عاهل هيراكليوبوليس مدافعا عن "الأرملة واليتيم".

لكن الجيش المحترف والديماغوجية لم تؤمن الاستقرار لهذه الأسرة: فالوحدة أنتت من الجنوب، من حكام طيبة؛ فالتناحرات الاجتماعية فيها يجب أن تكون أقل حدة مما في الشمال حيث سلطة الحكام تتجاوز غالبا سلطة الفرعون. وعواهل طيبة الذين سموا مانتوحتيب، حكموا مصر كلها: والرواية التاريخية تربط مانتوحتيب طيبة بالأسرة الثانية عشرة (من القرن العشرين حتى بداية القرن الثامن عشر قبل الميلاد).

### السياسة الداخلية والخارجية للإمبراطورية الوسطى

إن مؤسس الأسرة الثانية عشرة أمنحيت الأول هو الذي قضى نهائيا على التوجه الانفصالي لدى الحكام وخلق دولة وطيدة. لكن رؤساء القبائل (النوم)، مع الاعتراف بسلطة الفرعون المركزية، حافظوا على استقلال محلي. وحافظت القبائل على إدارتها، وعدالتها

وخزيرتها، التي تأسست في أيام الأسر السابقة، والقوى المسلحة المستقلة. كان الفراعنة مضطرين للاكتفاء بإرسال الرجال إلى الأعمال الملكية. واحتفظ أعيان القبائل بفرض الضرائب وتجنيد اليد العاملة للملك ولأنفسهم.

من وجهة النظر الضريبية، كانت أملاك بعض الـ(نومات) الضخمة تقسم إلى منطقتين: منطقة الملك ومنطقة الحاكم. وكان على الحكام رؤساء النومات، بناء على أمر فرعون، أن يتبعوه في الحملات العسكرية. لكنهم كانوا يتصرفون كملوك صغار، سموا "السادة" يبنون قبورا، ويشيدون معابد للآلهة المحلية.

كان فراعنة الإمبراطورية الوسطى يمارسون وظائف ويتخذون تدابير في مصر كلها. نذكر بهذا الصدد، الهم الذي يعانونه من ترميم وإصلاح نظام الري. تم أكبر هذه الأعمال على بعد ٥٠ كم جنوب-غرب ممفيس، حيث كان يوجد من زمن سحيق القدم منخفض واسع أوطأ من البحر بـ ٤٠ كم. كانت فيضانات النيل قد حولته إلى بحيرة شاسعة -بحيرة مورييس- المحاطة بالمستنقعات. بدأ أمنمحت الثالث (١٨٤٩-١٨٠١) أعمالا ضخمة لتجفيف المنطقة. بنيت حول البحيرة حواجز سميكة وحفرت قنوات لتغذيتها وتصريف المياه الزائدة. جففوا أكثر من ٢٥٠٠ هكتار وصارت قابلة للزراعة. وأقيم فيها نصبان، هائلان للفرعون، وقصر، ومعبد، بل ولدت هنا مدينة كاملة.

اتخذت تدابير أخرى على مستوى الوطن تهدف الدفاع عن الحدود. فحوالي نهاية الإمبراطورية القديمة كانت النومات السامية قد بدأت التغلغل في مصر. وإلى هذا التهديد الآتي من الشرق، أضيف خطر غزو الأثيوبيين من الجنوب. ولتفادوا كل هذا، دعموا الحدود الشرقية خلف الدلتا. نشبت الحروب مجددا؛ وانتهت في حكم سنوسرت الثالث، والد أمنمحت الثالث، بإخضاع القبائل الأثيوبية على طول ٣٠٠ كم من مجرى النيل. وعلى الحدود الجديدة، قرب المحال الحالية كومح وسمح، بنى سنوسرت الثالث قلعتين ضخمتين، مازالت بقاياهما شامخة حتى اليوم. كانت حماية الحدود تحتاج إلى جيش دائم. واحتاج الفراعنة الجيش لحماية سلطتهم أيضا في داخل البلاد. تشكل هذا الجيش من المصريين حصرا؛ نجل تجنيده ونفقاته ومرتبته.

أرسل فراعنة الإمبراطورية الوسطى أيضا بعثات تجارية، أساسا إلى فينيقيا: إلى جبيل وأغاريت، في شمال البلاد. وأرسوا أيضا حركة العبور مع البلدان الإيجية. وكانت

التجارة أنشط منها في زمن الإمبراطورية القديمة، فقد وجدت في أيام الأسرة الثانية عشرة طبقة تجارة ومحاسبة هامة.

أفضت كل هذه العوامل إلى انطلاق القوى المنتجة، انطلاقاً لم تعرفها الإمبراطورية القديمة. وساهم ترميم وإصلاح نظام السقاية في ازدهار الزراعة؛ وإتقان المهن. تضع التنقيبات بين يدينا معلومات هامة حول المدن المصرية. دعم ارتقاء المهن والإنتاج والتجارة الإنتاج البضاعي خاصة في نهاية الإمبراطورية الوسطى، وصار الذهب أساس القيمة. ولقد أمن نفوذ هذا المعدن في مصر بالاستيلاء على مناجمه في أثيوبيا.

### العلاقات الاجتماعية

تفاقمت التناحرات الاجتماعية في أيام الإمبراطورية الوسطى. تطورت العبودية؛ إذ لم يعد أصحاب الأتبان الواسعة -النبلاء- هم فقط من يملكون عبيداً، بل أيضاً صار الموظفون الصغار وحتى الناس العاديون صار عندهم عبيد. واتسعت اليد العاملة العبيدة بفعل الحروب التي تأتي بالمساجين من سوريا، فلسطين وأثيوبيا. لكن عموم الشعب المصري -الزراع وأعضاء المشاعات- لم يستفيدوا من تحسن وضع الدولة ولا من نقص الفرائض والأتاوات الملكية، لأن استقلال السادة أثقل كاهلهم بنير مزدوج، نير الملك والسادة. ونجم عن هذا فقر شديد لدى الفلاحين. وتحدثت أعمال العصر الأدبية عن بؤسهم: الجوع يجوس حول أكواخ الحراث، فالعمل المضني لا يكفي لتأمين حياة العامل. كل الناس تسرقه، ينتزعون منه الحبوب التي يخصصها للسوق، ويصادرون حميره، وشعييره، ويضربونه بدون رحمة ويمنعونه من الاحتجاج. وإن ذهب ليشكو الابتزاز والاعتصاب والقهر، لا يجد العدل في أي مكان، حتى لدى كبار الموظفين الذين يحاول استدرار عطفهم بشكاويه وتفعجاته.

كان هذا قدر الصناع، النساجين، الحدادين أيضاً، المدانين بحياة لا راحة فيها، بعمل مهلك، وبالعوز والجوع. لا أحد سعيد سوى الموظفين والمدونين الذين يدبجون لوائح بالقادرين على المساهمة، واليد العاملة والذين يرافقون ملاحظي ومراقبي ورشات الملك والسادة. ولقد تحدثت تنقيبات مدينة الفيوم، قرب بحيرة مورييس، في أنحاء كاحوم، المدينة الحالية، عن حي فقير يسكنه صغار الحانوتيين، الصناع وباقي أصناف الكادحين. وكانوا يأوون إلى الأكواخ الترابية، حيث يعيشون فوق بعضهم. والأحياء المجاورة،

الموقوفة على الكهنة والموظفين، تضم عمارات من ٥٠-٧٠ غرفة، في وسط حقول واسعة مزروعة على الأرجح بالكروم والأشجار المثمرة. فظهور عدد ضخم من الصناعات في المدن سببه فقر الفلاحين الذين غادروا الريف بحثا عن عمل. وحي الأغنياء، في كاحوم، كان منعزلا عن حي العمال بسور سميك وكان محميا بسرية عسكرية قوية. تشهد هذه السمة المتميزة على الجو السائد الذي يخيم في مصر الإمبراطورية الوسطى. كان المتنفذون يخشون تمرد الفلاحين المضطهدين، والصناع والعبيد. وكانوا يحسون الأرض تמיד تحت أقدامهم، ومن ضعف سلطة فرعون "الإلهية" والخوف من الآلهة بالذات. فالدين الرسمي، باحتفالاته الفخمة واكليروسه الضخم، كان غريبا عن الشعب. فالكهنة أيضا يعيشون من عمل الفلاحين المقهورين والعبيد والضرائب العالية التي تهدر على المعابد. أفضى هذا الضنك والتوتر، بعيد الأسرة الثانية عشر، إلى اضطرابات انتهت بانهياء الإمبراطورية الوسطى.

#### انتفاضة الفلاحين والعبيد في منتصف القرن الثامن عشر قبل الميلاد.

سرعان ما نشبت الاضطرابات بعد موت أمنمحت الثالث، آخر ملك قوي من الأسرة الثانية عشر. وعاشت البلاد فترة تمرد وحروب داخلية، دامت قرابة ثمانين عاما. لانملك أي معلومة موثوقة حول هذا الموضوع. وإن كشفت بعض الأخبار المبعثرة أن الملوك حكموا فترات قصيرة، وأن أحدهم لم يملك سوى ثلاثة أيام ناقصة وأن ملكا آخر دعي مير-ميشو، أي رئيس الـ"عسكر".

ربما في هذه الحقبة وقعت الأحداث المذكورة في نصين أدبيين. هما "نبوءات نفرتيتي" المحفوظة في متحف الأرميتاج، في لينينغراد، والثاني إنذار حكيم (جامعة ليد) في هولندا، وصف حي لوقائع توجب على المنشيء أن ينقلها إلى الملك. إيبور يطلع الفرعون على الكوارث الرهيبة التي، كما يرى، أصابت مصر بسبب حكومة ملحدة، أهملت الإجلال المتوجب للآلهة والواجبات التي فرضها الدين. واستنادا إلى لغته، يعود هذا العمل إلى عهد الإمبراطورية الوسطى. يرى الأكاديمي ستروني أن الأحداث التي ذكرتها نفرتيتي وإيبور تعود إلى حكم الأسرة ١٣، أي نهاية الإمبراطورية الوسطى؛ لكن بعض الباحثين السوفييات والأجانب يشكون بالأمر ويفترضون أن النصين أقدم من هذا.

ويقص "إنذار حكيم" انتفاضة جماهيرية للفلاحين، الحرفيين والعبيد، عمت مصر

قبطية. المتمردون بؤساء لا يملكون شيئاً، سجنوا الملك، طردوا الأغنياء من قصورهم، رموا مومياءات الفراعنة خارج القبور، احتلوا المعابد ودمروا المكاتب الدينية. احتلوا المخازن الملكية، الأميرية والكليركية، وأعلنوا القمح المخزون ملكية عامة. واحتل العصاة مساكن الأغنياء، ولبسوا ثياب السادة وتزينوا بحليهم وألزمهم أن يعملوا لمصلحتهم. وحسب تعبير إيبور، "دارت الأرض كدورة الفواخيري". واحتل المنتفضون قصر العدل، دمروا أثاثه، ورموا في الشارع لفائف القوانين، أبادوا المدونين ولوائح الموسم. وهكذا بقي بيت الملك بدون مدخول، والمعابد بدون قرابين. لسوء الحظ، لم تذكر المصادر السلطة التي حلت محل الفرعون المخلوع.

استغلت القبائل الرحل الآسيوية ضعف وتصدع مصر، واحتلت في العام ١٧١٠ قبل الميلاد شمال وادي النيل. يسمى مانيتون هؤلاء المحتلين بالـ "هكسوس". عاصمة ملوكهم هي أفاريس، في مصر السفلى. وفرضت ضرائب ثقيلة على المصريين، وصار الفلاحون عبيدا لدى الغزاة الأعراب. قدم الهكسوس براهين على التسامح تجاه أرسقراطية البلد؛ في الجنوب وجزئيا في الشمال، تركوا السلطة في أيدي الحكام السابقين، وأخضعوهم إلى مراقبتهم. سلبت المعابد ودمر بعضها. دام نير الهكسوس أكثر من مائة عام ولم يرحلوا إلا في أيام الفراعنة الأوائل للامبراطورية الجديدة.

## الفصل الثاني عشر

# إمبراطورية مصر الحديثة

### طرد الهكسوس وتوحيد مصر

بدأت حركة التحرر في الجنوب، حيث كانت سلطة ملوك الهكسوس أضعف مما كانت في الشمال. كانت الحركة وطنية. استلم ملوك طيبة القيادة. في البداية، لم يجدوا أي سند حول ملوك الجنوب الآخرين؛ لكنهم بموازنة المليشيا الشعبية قاموا شيئاً فشيئاً بمهمتهم وهم يقاتلون دفعة واحدة خصومهم والهكسوس. حفظ الشعب ذكرى مبادرة التحرر، ملك طيبة كاميس.

بعد نضال طويل، تحررت مصر وتوحدت في حوالي العام ١٥٦٠ قبل الميلاد على يد ملك طيبة أحمس الأول، الذي أخضع قادة متمردي الجنوب، ومشى نحو الشمال، دحر الهكسوس، احتل أفاريس وطرد غزاة البلاد. وبهذا الملك بدأت الأسرة الثامنة عشر، التي في ظلها بلغت مصر الموحدة قمة نفوذها وحضارتها.

وسم توحيد مصر في عهد الإمبراطورية الجديدة بتنامي القوى المنتجة. اتقنت آلات الإنتاج. ازداد مردود الزراعة والحرفة، قويت التجارة وانبسطت في داخل البلاد وراء تخومها. ولقد توطد توحيد مصر وتدعمت السلطة الفرعونية بلجوء أحمس الأول للحركة الشعبية في مناضلة الهكسوس والسادة الانفصاليين. ولم يبق في قيادة الأرياف سوى الحكام الطيعين والذين أعيدوا إلى حالة الحكام البسطاء، بدون حق التوريث. وتولى رجال من الفراعنة حكم الأمصار.

وهكذا، في أيام الأسرة الثامنة عشر، تركزت حكومة مصر. يجدد أحمس تنظيم جيشه وينشره في كل المناطق. يعيش المحاربون على حساب الفرعون ويتلقى الضباط، فضلاً عن هذا، أراض ذات أبعاد متواضعة. جندت القوات من الشعب المصري الريفي والمديني. لم يفتقر المتطوعون، لأن البلد الذي دمرته الاضطرابات، ونهب الهكسوس

والحرب، في هذا البلد فقد مئات الناس أملاكهم وفقدوا القدرة على استعادتها. تشكلت الوحدات من المشاة، الذين يختلفون عن مشاة الإمبراطورية القديمة والوسطى في أن الجند بعهد الدولة ويتسلحون من المخازن الملكية. كل الأسلحة المعروفة حتى أنثذ -أقواس، أسهم، خناجر - أنقنت؛ وظهر السيف. التجديد الرئيس هو تأهيل قوة متميزة من قادة الدبابات، مؤلفة بخاصة من النبلاء والأغنياء. وللدخول إلى مدرسة الدبابات، كان لابد من توفر حماة متنفذين. الجيش إذن هو ركن السلطة الملكية.

فقد مكنت إعادة تنظيم الجيش أحمس من الرجوع إلى شن حملات خارجية. وسجلت غزواته بداية فتوح الأسرة الثامنة عشرة، التي أفضت إلى خلق دولة عسكرية ضخمة.

### فتوح فراعنة الأسرة الثامنة عشرة

تمت غزوات أحمس بعد توحيد مصر بهدف الفتح والنهب. وبمطاردة الهكسوس، تغلغل الفرعون في آسيا، لكننا لانعرف تفاصيل هذه العمليات. معرفتنا أحسن حول غزوة النوبة التي هدفت إعادة السلطة المصرية على الأملاك الفرعونية القديمة في هذه المنطقة. ولقد أولى أوائل خلفاء أحمس هذه المهمة. لكن الفراعنة التاليين لم يكتفوا بهذا. بل باشروا حملات جديدة على فلسطين وسوريا، بغاية السيطرة على الدول الفينيقية وغيرها للحصول على الذهب، الفضة، الخشب، الخمر، المواشي، والعبيد، وليس بالتبادل التجاري، بل كضريبة، مستمرة وبكميات ضخمة. كانت هذه الحملات تسهم قمة المجتمع العبودي: فرعون، أسرته، موظفوه الكبار، الاكليروس والجنرالات. وأفاد جنود الجيش المصري أيضا من هذه الحروب، لأن كلا منهم حصل على شيء من الغنيمة.

لم يتم فتح فلسطين وسوريا إلا بعد حملات صعبة، بدأه اخلفاء أحمس. وأخيرا سقطتا بأيدي الفراعنة في أيام تحوتمس الثالث (١٥٢٥-١٤٩١).

كانت حقبة هذه الحروب قاسية، أولا، لأن الجيش المصري لم يكن جرارا يقاتل ضد عدة تحالفات من المدن والأراضي. كان عدوه الأهم دولة قوية، تشكلت حول قادش على العاصي، المدينة التي قامت في أخصب منطقة في سوريا وأكثرها ازدهارا. بموازرة ملوك قادش، انتفضت المدن والإمارات الخاضعة لفلسطين وجنوب سوريا ضد الهيمنة والاحتلال المصري، واضطر تحوتمس الثالث إلى إرسال عدة حملات لتهدة إلى هذا الحد، أو ذاك أمراء فلسطين وعدد من المدن الفينيقية. وبهذا فقط تمكن من الانتفاف حول قادش. كانت

المدينة جيدة التحصين، قد احتلت ودمرت بعد حصار طويل ومعارك ضارية. ثم انطلق فرعون نحو الشمال وأدرك الفرات بعد حملتين متتاليتين. وهكذا خلق احتلال فلسطين وسوريا من مصر أقوى دولة في الشرق الأدنى، ولقد أرسل ملك الكاسيت في بابل وملك الحثيين إلى تحوتمس الثالث هدايا رائعة. كما فعلت الكنوز المنهوبة من فلسطين وسوريا فعلها في مصر.

لتقدير ضخامة نهب البلدان المحتلة على يد تحوتمس الثالث، يكفي ذكر بعض الأرقام: جلبت الحملة ضد المدينة الفلسطينية ماجيدو للفرعون مئات المساجين، ٩٢٤ دبابة، ٢٢٣٨ حصانا، ٢٠٠٠ رأس بقر، ٢٢٥٠٠ رأس من المواشي الصغيرة، ١١٣٠٠٠ صاع من القمح، ٢٠٠ قطعة سلاح فردي، حوالي ٢٠٠ كغ ذهب وفضة. فضلا عن هذا، خضوع الإمارات والممالك لدفع ضريبة سنوية.

نال الجيش قسما من الأسلاب، لكن القسم الأكبر والضريبة وضعت تحت تصرف الفرعون الذي وزعها حسب رغبته. الغنائم، المواشي والعبيد ذهبت أولا إلى المعابد، في رأسها معبد الإله الرسمي آمون، في طيبة. استنادا إلى المدونات الملكية لذلك العهد، كان هذا المعبد يتلقى بعد كل حملة عددا كبيرا من العبيد، من المواشي "التي لاتحصى"، سبائك الذهب، الفضة والحلي؛ فضلا عن تلقيه جزءا من جبل لبنان وثلاث مدن، هدية. وكنوز مماثلة تذهب إلى المخازن والأهرامات الملكية؛ وعدد من العبيد وآلاف الدواب كانت في طريقها نحو أملاك الفرعون.

لكن تحوتمس الثالث، رغم انتصاراته، لم يستطع ان يبقى ذا سطوة في سوريا وفلسطين. فبعد هذه البلاد والمناطق الصحراوية التي تفصلها عن وادي النيل حرمة من توطيد وجوده وتأمين مراقبة صارمة. فكان يضطر، من حين إلى حين، ان يرسل حملات لكبح التمردات. وبنهاية ملك تحوتمس الثالث الطويل، ينظم أمراء قادش ضده انتفاضة واسعة المدى. وليهزم المتمردين، أرسل الحملة الأخيرة إلى آسيا، احتل من جديد قادش وأرسى سلطته. لكن الصراع، في أيام خلفائه، عاد وتتابع دون انقطاع.

عدا حملته إلى آسيا، اندفع تحوتمس الثالث نحو الغرب، وراء النيل، وأخضع جزءا من ليبيا. وفي نهاية ملكه، دخل النوبة ووسع حدود مصر باتجاه الجنوب حتى الشلال الرابع.



وتحت ملك تحوتمس الثالث تشكلت الدولة العسكرية المصرية. دامت ٢٠٠ عام، لكنها، في القرن الثاني لوجودها اضطرت أن تتصدى لنضال شرس انتهى باندحارها.

### العلاقات الاجتماعية بعد الفتوح

لقد أفضت السياسة العدوانية لفرعنة الأسرة الثامنة عشرة إلى توسيع الدولة. فنظام الحكم السابق الذي لم يعد يلائم الشروط المستجدة. عوضا عن وزير واحد، أقيم اثنان: واحد للجنوب، والثاني للشمال. لكن وزير الجنوب حافظ على السلطة وطرح القضايا التي تهم كل البلاد. خدمت حكومته بواسطة جهاز ضخم من الموظفين والمدونين، ووحدت كل المصالح: إدارة، ري، الأملاك، العدل والجيش؛ وتوجب على الخدمات، ومصالح الدولة المحلية والعامّة أن تقدم للوزير تقارير دورية؛ كان يدرس الشكاوي، يناقش شخصيا الشؤون الهامة، يحل الخصومات العقارية، ويصادق على الوثائق. كانت القضايا العقارية هامة بشكل فريد، لأن الأرض كلها نزعّت من يد فرعون.

مارست الفتوح تأثيرا حادا على العلاقات الاجتماعية. احتلت زمرتان من هذه العلاقات مقام الصدارة. شملت الزمرة الأولى نبلاء القصر والإكليروس. اللذين اغتنيا بشكل خرافي على حساب البلدان والشعوب المحتلة وکانا، فضلا عن هذا، قد دعما سلطتهما بتوسيع أملاكهما. فقسم واسع من الأرض ترك بسكانه للمعابد.

وهكذا، صارت المعابد مالكا عقاريا كبيرا. أوطدها وأغناها، معبد آمون في طيبة، والذي كان يتلقى باستمرار أراض جديدة. أعطى تحوتمس الثالث آمون خيرة الحقول والمروج في مصر العليا والسفلى، والأراضي العالية، والمساجين الآسيويين والزنوج الذين يجب عليهم أن يملؤوا أهرامات الإله. كان معبد آمون يمتلك من الأرض والعبيد والفلاحين أكثر من كل المعابد الأخرى مجتمعة. لعب هذا التمييز دورا هاما في تاريخ مصر اللاحق.

كانت الزمرة الثانية من العلاقات الاجتماعية الهامة هي الشريحة العسكرية، حديثة الأصل والمنبت، المؤلفة من ضباط قادة وأمراء. كان الضباط الأمراء، الذين يعينهم الفرعون في الوظائف الإدارية العليا والمركزية ويسميهم القصر، قادرين على التأثير في رسم السياسة الداخلية. وكان الضباط القادة ومرووسيهم يتلقون أراض لقاء خدماتهم، ونظرا لعدددهم الكبير، كانوا يشكلون دعامة متينة للسلطة الملكية. فمن الطبيعي أن يكون فرعون مهتما برغباتهم.

كان شرط الفلاحين يبقى إجمالاً على حاله. كان أعضاء المشاعات مرفقين دوماً بالضرائب والبخرة وخدمة الملك والمعابد. وتنتقل الفتوحات هذا النير، بتخريض المنتصرين على إعادة بناء وعلى نطاق واسع المعابد والقصور: كانت مصر عامرة بصروح ضخمة، بعظمة وروعة لاسابق لها، تدهش أطلالها حتى اليوم زائريها. أما الفلاحة في الإمبراطورية الجديدة، تزرع تحت وزر هذه الأعمال. فينظر إلى الفرائض الملكية كأمر مقيم أبداً.

كان أسرى الحرب وسكان البلاد المهزومة يسخمون عدد العبيد. كان يصعب تحديد عددهم؛ فكانوا يحصون بعشرات الألوف. وكان العبيد موزعين بغير عدل. الملك والمعابد يمتلكون الغالبية. ونبلاء القصر والأرستقراطية العسكرية يملكون منهم الكثير. فبعد كل حملة كان فرعون يوزع المساجين بكرم. تثبت النصوص أن جنوداً بسطاء، ومزارعين وصناعاً كانوا يملكون عبيدين أو ثلاثة. يستخدمون في الحقول، في المقالع في نقل الأحمال، وخدماء في المعابد، إلخ.

كما عززت الفتوح أيضاً التجارة الخارجية، واحتكار الفرعون وكهنة آمون. كانت التجارة تتم بإرسال حملات خاصة إلى الجنوب، إلى بونت *pount*، وإلى جزر بحر إيجه، لأن ماكان يريد الملك والكهنة الحصول عليه، كان يسلم، منذ فتح فلسطين وسوريا، بشكل ضريبة سنوية. فقط مدينة صور الفينيقية حافظت على حق إقامة علاقات تجارية مع مصر.

أرسلت حملتان ضخمتان إلى الجنوب، أرسلت الأولى الملكة حاتشبسوت، وأرسل الثانية تحوتمس الثالث. أهمها حملة حاتشبسوت، عادت بكمية كبيرة من العاج، الراتنج العطر، الأبنوس، الفضة، الذهب، الريحان الشامي، القردة، الكلاب والعبيد.

كان الفرعون والكهنة يبادلون ثمار الاسلاب بسلع يستوردها التجار المكيون من بابل، قبرص، كريت وجزر إيجه أخرى. وكان يتوجب على التجار أن يقدموا أولاً عروضهم للفرعون والـ"إله آمون" ولا يبيعون إلا ما تبقى. كان هذا يفضي كهنة المعابد الأخرى، والتجار أنفسهم، الذين كبر عددهم يوضح في أيام الإمبراطورية الجديدة. وكان حديثو النعمة، مالكو العبيد السابقون الصغار، أثرياء الحروب، يعارضون نبلاء القصر الشيوخ والإكليروس.

هكذا، في المجتمع المصري أيام تحوتمس الثالث، يتفاقم التناحر ليس فقط بين المستعبدين والعمال، بل أيضا بين المستعبدين أنفسهم.

### إصلاح أخناتون الديني والصراع الاجتماعي والسياسي الذي تلاه

في أيام حكم خلفاء تحوتمس الثالث، تتضح أزمة سياسية في الدولة المصرية العسكرية. ينشب الصراع بين الملوك الصغار لبلدان آسيا المحتلة، بينما تتغلغل فيها قبائل سامية على الأرجح ومذكورة في التقارير المقدمة إلى الفرعون تحت اسم شابيرو، آتية من الجزيرة العربية. يتقدم الحثيون في سوريا من الشمال. ولعدم كفاية السرايا العسكرية، لم يتيسر للحكام تهدئة الملوك الصغار الأخذين بخناق بعضهم البعض، ولا إيقاف لغزو الشابيرو. وكان الفراغة عاجزين عن الرد أيضاً، بسبب استحالة استبقاء القوات الضخمة، المجندة من السكان الأحرار، في الأرض المحتلة. ولم يجروا أن يرسلوا إلى سوريا الألوية المنتشرة في مصر، لأن الجو مضطرب في داخل البلاد. فمنذ نهاية ملك أمنوفيس الثالث، عبرت شرائح متباينة عن عدم رضاها عن كهنة آمون، الذين تعمق نفوذهم. اشترك أمنوفيس الرابع (١٤٢٤-١٣٨٨) بالمقاومة وحاول، مع مساعده، إنقاذ السلطة الملكية من تسلط كهنة آمون والنبلاء السابقين، الذين كانوا يرون في عبادة هذا الإله دعماً إيديولوجياً هاما والذين كانوا يجهدون في إعادة السلطة لحكام الـ(نومات). أما الفرعون، كان يطمح في امتلاك واستقرار السلطنتين السياسية والدينية. وجمهرة الشعب الحر، التي تشكل سلاح المشاة المصري، كانت تؤازره في مخططة وكانت لتحسين مستقبلها تعتمد انتزاع ملكية النبلاء والكهنوت.

لم يكن ممكناً تحقيق الهدف الذي يطرحه أمنوفيس الرابع إلا بإصلاح ديني. حاول الفرعون بداية معارضة آمون بإله الشمس رع، الشعبي جداً. سام كاهنا كبيراً لرع وشرع ببناء هيكل له في طيبة. لكن عبادة هذا الإله، المرتبطة بمنطقة هليوبوليس قليلة الإنتاج، لم تنجح. الأمر الذي دفع أمنوفيس الرابع إلى صرم العلاقة مع كل الأكليروس وعبادة الآلهة التقليديين، ليقيم إليها وحيداً لمصر هو قرص الشمس آتون. وبرر هذه العبادة بأن الشمس تنير وتدفيء العالم كله. وسمي الملك أخناتون ("النافع من يرضي آتون")، وأغلق المعابد القديمة وابتنى محارب لآتون في أرجاء مصر. غادر طيبة، تل-العمارنة، وسماها أخناتون ("أفق آتون"). وهنا نهض معبد آتون الرئيسي الذي سمي الفرعون كبير كهنته.

أثار هذا التحول المفاجئ في السياسة الدينية مقاومة ضارية من قبل الكهنوت والنبالة القديمة. في هذا الوضع، لم يكن للفرعون سوى جيش من المرتزقة والأرستقراطية الجديدة التي أفادت من الإصلاح بابتلاع قسم من الأرض المنتزعة من الإكليروس، والفلاحون، الذين أملوا تحسين حياتهم، لم يتأخروا عن التأكيد في أن شرطهم مازال متافهما وليس موضع اهتمام المصلحين. فالنفقات الضخمة لعبادة آتون والقصر الملكي كانت تتلف الخزينة، وأساليب الحرب والضريرية نضبت بسبب توقف الغزو، فانعكس كل هذا على استغلال الفلاحين. وأشعل كهنة آمون الغضب الشعبي؛ إذ نشروا تنبؤات عن غضب الآلهة، وعن الاعتداءات التي تهدد أمن البلاد، وغيرها.

كان النبلاء يدبرون مؤامرات ضد أختاتون. لكن الفرعون كبّح بالحديد والنار التمردات على يد جنوده. وبعيد هذا مات، خلفا لخليفته امبراطورية مصدعة. ونشبت الاضطرابات في الداخل، بينما كانت ضرائب كحايرو تتسرب أكثر فأكثر إلى الأملاك الآسيوية؛ كان الحثيون قد احتلوا شمال سوريا، وانفصل الملوك الصغار عن مصر، الواحد تلو الآخر. وبعد ثلاث سنين من موت أختاتون، اضطر خليفته الثاني توتانكحاتون لمصالحة كهنة آمون. وعاد أدراجه إلى طيبة وبدل اسمه إلى توث أنخامون. وتلت موته اضطرابات رهيبة. كبّحها الجنرال المصري حورمحب، سليل أسرة نبيلة سابقة. وبمساعدة كهنة آمون، صعد إلى العرش وأسس الأسرة التاسعة عشرة. اتخذ تدابير حازمة بهدف تهدئة الإمبراطورية وعمد إلى إصلاح ديني كامل. لعن أختاتون، وألغى اسمه واسم آتون من كل مكان؛ أخلت مدينة أختاتون وهجرت. استعادت معابد آمون أملاكها؛ وأقيمت من جديد عبادة الآلهة السابقة.

فشل إصلاح أختاتون، لأنه كان مصطنعا. فلم تستفد منه أية شريحة من المجتمع المصري، عدا كهنة آتون والأرستقراطية الجديدة.

### الأسرة التاسعة عشرة وسقوط الإمبراطورية الجديدة

نشط فراغة الأسرة التاسعة عشرة بخاصة لاستقرار سيطرة مصر على سوريا وفلسطين، وفي جنوب النوبة، حيث كانت الانتفاضات قد نشبت في أيام أختاتون. ولقد شن سيتي الأول ورمسيس الثاني حروبا طاحنة على فلسطين وسوريا. لم يعودوا يعتمدون على الجحافل المصرية، بل على المرتزقة الليبيين والسوريين، الذين يتقاضون رواتبهم من

الاحتياطات الواسعة من القمح، الذهب والفضة. يشهد الانتقال إلى نظام الجيش المرتزق أن تجنيد المحاربين من المصريين كان قد أصبح صعباً، وأن العمال دللوا على عداوتهم لسلطة الفرعون والكهنوت.

نجح سيتي من جديد في إخضاع صور التي انفصلت عن مصر في أيام اخناتون وتوطيد المواصلات البحرية مع سوريا، ثم احتل مجدداً شمال فلسطين ومنطقة لبنان. وبنى فيها عدة قلاع وخلق قاعدة لينطلق أبعد نحو الشمال. حاول خلفه رمسيس الثاني تحقيق هذا المشروع. كانت مهمته هذه كاداءً، لأن سوريا كلها كانت آنئذ تقريباً في أيدي عدو جبار هو الحيثيون. انتهت حملة رمسيس الثاني الأولى بالفشل: تعرض جيشه لهزيمة على يد قادش وكاد الملك نفسه أن يقع في الأسر (سنة ١٣١٢). لكن الحملة الثانية حققت هذا المشروع. تمكن الفرعون من بلوغ المجرى الأعلى للعاصي واستقر هنا. في غضون ذلك، كان الصراع على العرش يعصف في الإمبراطورية الحيثية، الأمر الذي أجبر الملك هاتوسيل أن يبرم معاهدة مع رميسي الثاني (١٣١٧-١٢٥١)، نصت أن الفريقين ملتزمان بالعيش بسلام وبالمساعدة المتبادلة في حال التعرض لهجوم معاد. وختمت المعاهدة بزواج الفرعون من أميرة حيثية. لكن هذا النجاح لم يؤمن أبداً السيطرة المصرية على سوريا. فانتماضات الملوك الصغار السوريين والفلسطينيين تجددت في المنطقة العربية وجزر إيجة. وفي أواسط القرن الثاني عشر، تحررت سوريا وفلسطين نهائياً من ربة مصر.

بعد موت رمسيس الثاني ضعفت سلطة الفرعون في مصر نفسها. لكن ميرنماتح، خلفه المباشر، استطاع صيانة السلطة، والتصدي ورد هجوم الشعوب البحرية والحفاظ على التاج. وبعده، خضعت البلاد للاضطرابات والفوضى: "كل يفعل مايشاء"، يحكم السادة حكماً مطلقاً في (نومات). واستغل إيارسو "السوري" الوضع ليستولي على السلطة. وبعد خمسة أعوام من الصراع الداخلي، تولى العرش ستنكحت، سليل الأسرة العشرين، التي اتبع فراعتها سياسة عبادة آمون، وحاولوا عبثاً كبح الحركة الانفصالية في المناطق الآسيوية. وفي هذه الحقبة بدأت تنفذ الكنوز الخيالية واحتياطات الأرزاق الواسعة؛ حتى الفلاحون السخرة رفضوا أحياناً العمل، لأنهم لم يستلموا مرتباتهم. وحدثت أحداث مماثلة في طيبة، في ورشات المعابد.

تمرد الفلاحون الساخطون من الجوع والجور في القرى. واستمرت سلطة الفرعون

بالتصديق، بينما كانت تتوسع سلطة الكاهن الأكبر للإله آمون. وحوالي منتصف ملك الأسرة العشرين، كان كهنة آمون يمتلكون قرابة ٨٠٠٠٠ عبد، وكان لدى الكاهن الأكبر جيش كبير وعدد ضخم من الموظفين والمديرين. وتصير مهمته وراثية تنتقل من الأب إلى الابن، بشكل مؤبد. سابقاً كان الكاهن الأكبر يخضع أساساً للملك، أما الآن يولييه آمون بالذات ويستقل عن العاهل.

كلما ضعفت سلطة الفرعون، توطدت سلطة النبالة المحلية: كهنوت، موظفون كبار، وتجار. وتتسع الأملاك الخاصة بشراء أراضي الفلاحين المرفقين أو الاحتكارات. نجم عن هذا تفكك سريع في المشاعات الريفية واستقرار الحق في الملك العقاري الفردي. وتضاعفت انتفاضات الفلاحين التي يشترك فيها العبيد عادة.

### عصر الانحطاط

لقد أفضى تصدع السلطة المركزية والاستقلال المتنامي لارستقراطية الـ(نومات) وبعض رفاق الكهنة إلى تشتت مصري جديد، بعد أن أنهكتها الحروب الطويلة. فقد صار حيريهو، كبير كهنة آمون، في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، فرعون الأسرة الواحد والعشرين، لكنه لم يحكم مصر كلها. إذ كان الـ(نومات) الشمال ملوكها المحليون. وتم التوحيد في القرن العاشر، هذه المرة بقيادة أجنبية. فقد نجم عن تنامي دور جيش المرتزقة تسليم العرش إلى سليل أسرة أرستقراطية من جنرالات ليبيا دافع عن مصر: شيشانك الأول. وأفضى تدفق القوات الليبية إلى توطيد الإمبراطورية توطيدا ملحوظا. شن شيشانك حربا مظفرة على فلسطين وبنى عدة صروح، أكثرها قلاع. لكن صراعا استجد في ظل خلفائه وتجزأت مصر إلى عدة دول مستقلة.

بفعل هذا الضعف، أخضع عواهل النوبة مصر في القرن الثامن قبل الميلاد. لم يجلب الفراعنة الليبيين شيئا جديدا إلى البلاد، والدولة النوبية نفسها تطورت بتأثير مصر. ففي أثناء ملك الأسرة النوبية، هاجم الآشوريون مصر، ورغم مقاومة ضارية، قهر أسلرهادون البلاد في ٦٧١. لكن الهيمنة الآشورية بقيت عارضة إذ كان المصريون يستغلون أبسط الفرص ليستعيدوا استقلالهم. وفي ملك آشور بانيبال، دمر الآشوريون مصر مرتين، لأنهم لم يستطيعوا الصمود إلا باستغلال الصراع بين عواهل النوبة والملوك الصغار لنومات - قبائل - الشمال. كان أقوى هذه الدول تلك التي تشكلت حول مدينة سيناء، في الدلتا، بمساعدة الآشوريين.

استغل بسمتيك الأول (حوالي ٦٥٤-٦١١) اتفاقات نشطة مع بلدان شرق البحر الأبيض المتوسط، على رأسهم اليونان، حيث تصدر مصر قمحها. فظهر العديد من التجار والمرتقة في مصر وأسسوا مستعمرات. إن هذه الانطلاقة القصيرة، المعروفة باسم حقبة سايت *saite*، متميزة بتطو الإنتاج البضاعي، وبداية التداول النقدي وارتقاء المهن. وساهمت بهذه الانطلاقة المبادلات التجارية والثقافية مع اليونان وآسيا الصغرى. كانت السياسة الخارجية للفراعنة الساييت تهدف إلى رفع النفوذ العالمي لبلادهم بعقد أحلاف مع الدول العظمى، لأن ضعف مصر النسبي لم يعد يسمح للفراعنة أن يتصرفوا كفاتحين.

كانت السياسة الخارجية الأنشط هي سياسة نيشايو الثاني (نحو ٦١١-٥٩٥)، الذي وسع التجارة مع البلدان المجاورة (في أيامه حفر قناة النيل على البحر الأحمر) وحلول أن يخلق بواسطة الأحلاف العسكرية نقاط ارتكاز في فلسطين، في سوريا وعلى المجرى الأوسط لنهر الفرات. لكن القوات المتحالفة المصرية والآشورية انهزمت أمام البابليين في كركميش وانتقلت الهيمنة في الشرق الأدنى إلى إمبراطورية بابل الجديدة. فرضت القوة العاتية للأرستقراطية والكهنة على الفراعنة الساييت أن يبحثوا عن دعم التجار والمرتقة، الأمر الذي حجم تيار مصادقة اليونان في سياستهم الخارجية. فالمنح والامتيازات الواسعة للتجار الأجانب، ونفقات جيش المرتقة الضخمة أغضبت الشعب المصري، الذي انتفض. واستلم جنرال من عند فرعون، قيادة المنتفضين، وهزم المرتقة وتولى العرش تحت اسم أحمس الثاني (أماسيس) (٥٦٩-٥٢٥). تابع أحمس الثاني السياسة التقليدية لأسرة الساييت، عزز الروابط مع اليونان وشجع إقامة المستعمرات اليونانية على الأرض المصرية.

إن سحق إمبراطورية بابل الجديدة والدول الأخرى في الشرق الأدنى، خول مصر تفعيل سياستها الخارجية لبعض الوقت. فتغلغت قوات فرعون من جديد في فلسطين. لكن هذا الانتعاش كان قصير الأمد. فمنذ السنة الأولى لملك خليفة أحمس الثاني، بسمتيك الثالث، دخلت القوات الفارسية مصر، الممزقة بالصراع الداخلي، وهزمت قوات فرعون في بيلوز (٢٥٢ ق.م)، وأنهت استقلالها. ولقد مارست حضارة مصر، المدينة بازدهارها للعلاقات التجارية والسياسية مع اليونان، نفوذًا واسعًا على الحضارة الإغريقية.

## الفصل الثالث عشر

# الحضارة المصرية

### خصائص عامة

لقد خلق الشعب المصري، خلال تاريخه الطويل حضارة رائعة. فنحن مدينون له بأعمال أدبية خالدة. إن صروحته، نقوشه ورسومه تؤخذ نماذج حتى اليوم، شأنه في هذا شأن اليونان القديمة.

تستقي الآداب والفنون المصرية من تقاليد ثرة، فالشعب المصري صان أبداً وحدثه وميزاته النوعية. إن بعثات عديدة على النيل وفي البحر، مع أخطارها ومغامراتها، تغذي الخيال، تعمق وتوسع أفق الناس وتساهم بتطوير الأدب العلماني. وفي الوقت ذاته حسنت، الوفرة بحجارة البناء والمواد الثمينة، كالذهب، والأبنوس والعاج فن العمارة والنقش والفنون التطبيقية.

من الخطأ اعتبار الحضارة المصرية كإقطاعية لأرستقراطية العبودية. فالأقاصيص، حكايات المغرامات، قصائد الحب ومختلف أجناس الأدب تنهل بالتأكيد من منهل الفولكلور المصري الغني. والفنون التشكيلية تستند كلياً إلى تقاليد شعبية تعود إلى عهد المجتمع البدائي. وكان العديد من أروع هذه الفنون عمل فنانين الشعب الكبار.

### الدين

يقدم الدين المصري نفس الثنائية التي قدمها الدين البابلي. فمن جهة، عبادة الآلهة "العظام" والميثولوجيا الملائمة، حيث تتغلغل التأملات التي سعى إليها الكهنوت لتدعيم نظام العبودية. ومن جهة أخرى، لدينا معطيات حول وجود دين شعبي زراعي، بأساطيره واحتفالاته التي ترتبط إلى حد ما بالدين الرسمي.

كان لكل نوم إله، إله المزدوج أو الثلاثي. تعود عبادتهم إلى بداية المجتمع البدائي، لأن لآلهة النوم تمت دوماً برباط القربى مع الطواطم القديمة. ينتسب الإله المحلي إلى



حيوان معين، وسمي الكثير من النومات باسم حيوانات: نوم الكركدن، الغزال، الفحل، الصقر، الأرنب، وغيرها. وغالباً تبقى عبادة الحيوانات بشكلها البدائي: ففي ممفيس، مثلاً، يعبد الثور آبيس، تجسيداُ للإله فتاح؛ وفي تينيس، الصقر حوروس؛ ولقد اعتادوا تقديم الآلهة والآلهات بشكل حيوانات أو كائنات بجسد بشري ورأس حيوان. من هذه الزاوية، يتفق الدين الرسمي مع الدين الشعبي، لأن هيرودوت يقول: إن عبادة الحيوانات كانت منتشرة في كل البلاد. بقيت هذه العبادة حتى التاريخ المصري. لكن آلهة النومات لم تتمتع بالسحر. فقط آلهة النومات الأوسع والتي لها تأثير سياسي، يمكن أن تأخذ الصفة القومية. هذا ماكان فتاح في ممفيس، را في إينو (هليوبوليس)، أوزيرس في أييدوس، هوريس في تينيس، وأمون في طيبة، وغيرها. كان لبعضها، مثل را، إله الشمس، أوزيرس وإيزيس، آلهة النبات والخصب، وظائف ترجع إلى أقدم العهود؛ ولقد حافظت على مقامها في الدين الشعبي. ويأخذ بعضها نسبة من تعاليم الدين والكهنوت: هكذا، أعلن فتاح خالقاً للعالم، والآلهة والناس.

دور الإله الأسمى، سيد الآلهة، أسند لأمون، إله الشمس، الذي يقدم برأس فحل، في أثناء التفوق في طيبة خلال الإمبراطورية الوسطى وبخاصة أيام الإمبراطورية الجديدة؛ وصارت عبادته العبادة الرئيسة في مصر.

كانت العبادة الأكثر شعبية هي عبادة أوزيرس وإيزيس. وصار أوزيرس إله المملكة النباتية. تقول إحدى الأساطير: إنه سمي إله القمح والشعير. ترتبط مثيولوجيته ارتباطاً وثيقاً بالخاصة الزراعية لعبادته: سيث، إله الصحراء الشرس، قتله وقطع جسمه إرباً؛ ثم هوروس، ابن أوزيرس، بعثه. وأعلنه الكهنة أيضاً ملك وقاضي الأموات. لكن التقليد الشعبي يثابر على تقديمه إلهاً للزراعة. وبدءاً من الإمبراطورية الوسطى، منذ أن كان الكهنوت أوزيرس ملك وقاضي الأموات، صارت عبادته أداة اضطهاد جديدة في يد الكهنوت والأرستقراطية الاستعبادية.

في الدين المصري، يعود دور هام إلى عبادة الفرعون، المعتبر صورة حية للشمس. وقد كان لهذه العبادة أهمية سياسية عظيمة: تقس الدولة وتظهر المعامل. وبعد موته، يتحد الفرعون المعبود بأوزيرس. ففي النصوص الدينية القديمة المرسومة على جدران الأهرامات يسمى الملك المتوفى أوزيرس، والتعازيم الجنائزية تعلن دوماً أن المعامل سيعبث

حيًا كما الإله. وهكذا، خدمت عبادة أوزيرس الفكرة السياسية المركزية في الدين المصوي: تأليه السلطة الملكية وتقديس الدولة الاستعبادية.

كانت الطقوس السحرية منتشرة في البلاد. يمارسها كهنة المعابد العظمى، بخاصة في أثناء العبادة الجنائزية وأفكار الآخرة. جمعت هذه الصيغ في "كتاب الموتى"، العمل الضخم المتضمن أكثر من مائة فصل ووفرة من الرسوم، بعضها ملون؛ جمع في حقبه الإمبراطورية الجديدة، استناداً إلى مدونات كهنوتية أقدم. عند جنازة الملوك والموظفين الكبار، توضع لفائف "كتاب الموتى" في القبر لتقي الميت من أهوال ما بعد الموت وتأمين غيبته بعد الموت. من لايملك كتاب السحر الثمين هذا، عليه أن يحيا حياة فاضلة، أي أن يخضع للأقوياء. هكذا إذن تستخدم العبادة الجنائزية أيضاً كوسيلة ضغط روحي على العمال.

### الكتابة

إن الكتابة، التي يسميها اليونان الهيروغليفية -"الصور المقدسة"- مشتقة من النقر التصويرية للأزمنة البدائية. فأقدم كتابة مصرية كانت نقرا تصويريا: كل شارة مرسومة تمثل مفهوما، وربما جملة قصيرة. ولقد استمرت الكتابة الهيروغليفية في مصر حتى نهاية تاريخها القديم؛ لكن الرسم تبدل شيئا فشيئا، وإلى جانب الحروف الأولية ظهرت حروف أخرى، مبسطة سهلة الكتابة. ومنذ الإمبراطورية القديمة، وجدت كتابة سماها اليونان *hieratique*. وفي القرن الثامن قبل الميلاد، ارتقت وتحولت إلى كتابة معروفة باسم يوناني *de'motique*.

تعد الكتابة الهيروغليفية المصرية قرابة سبعمائة شارة إجمالا. وفي ملك الأسرتين الأوليين اكتسب الكثير من الهيروغليف معنى مقطوعا و٢٤ حرفا سميت حروفا صامتة. شكلت هذه الـ ٢٤ شارة وعشرات أخرى -٧٠ إجمالا- أساسا للكتابة المصرية. كانت الكتابة إذن معقدة كالمسمارية البابلية. كانوا يكتبون على الحجر، الخشب، الرق والقماش، لكن المادة الأكثر رواجاً كانت البردي، المصنوعة من سيقان أو جذوع النخيل، الذي ينمو على ضفاف النيل. إن الكتابة المصرية ذات أهمية تاريخية كبرى. ففي النصف الثاني من الألف الثانية قبل الميلاد، استخدمت كنموذج للكتابة الأبجدية الفينيقية، التي تعد ٢٤ شارة فقط.

## الأدب

إن الكتابات في الإمبراطورية القديمة أساساً دينية وتحوي بخاصة نصوصاً سحرية منقوشة على جدران الأهرامات، الأقبية والقبور. يجب الاعتقاد أنهم، منذ ذلك العهد، رتبت وكتبت طقوس الأسرار التي تلعب في أعياد أوزيرس والآلهة الأخرى والألحان على شرف "كبار" الآلهة. تعود النصوص والألحان التي وصلتنا إلى الإمبراطوريتين الوسطى والجديدة. أحسنها نشيد ولحن الآمون وآتون، كتبهم أخناتون. وفي عهد الإمبراطورية الجديدة، يذبح كهنة المعابد الرئيسة نصوصاً لاهوتية تعرض نظريات نسب الآلهة وتشكل الكون، لمدارس متخاصمة مختلفة.

يبين بذور الأدب النقي منذ عصر الإمبراطورية القديمة. إنها النقوش الجنائزية التي تقص، على الشخص الأول، حياة الميت. فأقدم السيرات، التي تؤرخ للأسرة الثالثة، هي سرد جاف ومختصر لأملالك، وظائف ومناقب المتوفى. لكن في أيام الأسرة السادسة، تصير موضوعات مفصلة تقدم أحياناً بعض الخواص الأدبية. مثل سيرة نيافة أونى التي خدمت ثلاثة فراعنة من الأسرة السادسة، أونى الذي شن الحملة الأولى على سادة النومات الآسيوية، وحكم الجنوب، وقاد الحملات على النيل حتى المناطق الجنوبية وأثيوبيا. نقرأ العديد من القصص الجميلة من هذا النوع في تراجم كثيرة لموظفين كبار من الإمبراطورية الوسطى والجديدة؛ تشير إلى سيرة مانتوحتب، معاصر سنوسرت الأول، وسيرة أحمس التي خدمت أحمس وأمنوفس الأول، وسير ركحميري وأنيوتف التي خدمت تحوتمس الثالث. تضم سيرة ركحميري، بخاصة، عرضاً رائعاً للحقوق، والواجبات وطرق حكم الوزير في الإمبراطورية الجديدة. إن قصة سنوحيه، التي ظهرت في الإمبراطورية الوسطى، تقدم أيضاً سيرة ذاتية؛ تقص مغامرات الأمير سنوحيه، الذي أصيب بنكبة في بداية ملك سنوسرت الأول ولجأ إلى سوريا. عاش أعواماً في كنف قبيلة سورية، في خدمة شيخها؛ وصفت العادات والتقاليد بموهبة. ثم، يسمح لسنوحيه بالعودة إلى مصر، حيث يستقبله الفرعون بحفاوة ويسبغ عليه الأمجاد.

يتضمن أدب الإمبراطورية الجديدة مختلف الأجناس، أشعاراً ونثراً. ونحن نعرف قصائد حب كتبت بغنائية فاتنة، وأغاني في احتساء الخمرة، وخرافات، وأحاجي. وثمة أيضاً قصص، حكايا حول روائع المرزبان الملكي، وأنباء عن رحلات غريبة في الجنوب وفي آسيا. وثمة عملان يتمتعان بتفرد هام. الأول، يؤرخ للإمبراطورية الوسطى، وهو

قصة موجزة لكنه تصوير لبعثة مصرية إلى بونت، الذي غرقت سفينته وقذفته الأمواج إلى جزيرة يحكمها ثعبان، ثم، عودته إلى مسقط رأسه. وكتبت الثانية في أيام الإمبراطورية الجديدة، وهي "قصة الأخوين" يستلهمان أساطير الآلهة. مغامرات الأخ الأصغر الذي يموت ويبعث حياً في عدة مناسبات، تذكر بخرافة أوزيرس. وكانت الأقاصيص التي تستقي موضوعها من التقاليد الشعبية، واسعة الانتشار. أبرزها قصة الأمير الذي يتوقع له عند ولادته، موت مبكر. حماه أبوه ما استطاع. لكنه مأن يشب، حتى يرحل إلى بلاد بعيدة. حيث يتزوج ابنة الملك الذي ينقذ حياته بقتل الثعبان الذي يزحف نحوه تحت جناح الليل. ويهرب بأعجوبة من كركدن كان يهدده. نهاية القصة ضاعته، لكن الأمير يلقي نهايته على الأرجح من قبل كلب مذكور في نبوءة الحيوانات الثلاثة التي تسبب موته.

إلى جانب هذه الخرافات، ثمة قصص مستندة إلى واقعات تاريخية، مثل، حكاية الملك سكينجرا الذي بدأ الصراع ضد الهكسوس، أو رئيس تحوتمس الثالث، الذي احتل مدينة يافا. تصدر هذه القصص بالتأكد من الحوليات الملكية التي، في أيام الإمبراطورية الجديدة، تأخذ شكلاً أدبياً وتسجل أحياناً إمارة الموهبة. كانت تقص الغزوات، الفتوح وأعمال الفرعون العظيمة؛ أشهرها وأروعها، "حوليات" تحوتمس الثالث، ونقوشات رمسيس الثاني حول غزوته لقادش؛ ولقد خلدت معمعة قادش بقصيدة شهيرة، لأحد شعراء القصر، التي بدلت هزيمة الفرعون إلى نصر.

منذ الإمبراطورية القديمة، كان في مصر أدب تعليمي. وكان إما معلومات مباشرة، أو تنبؤية. تطلعننا هذه الكتابات على أخلاق عليّة المجتمع الاستعبادي. مثلاً، المعلومات التي تتبع من الأرستقراطية العسكرية. الخصيصة النموذجية لبعض هذه الأعمال، مثل "تشيد عازف القيثارة"، وبخاصة "حوار رجل تعب من الحياة مع روحه"، الذي يعود للإمبراطورية الوسطى، هي التشاؤم والخيبة. وتعكس التبدلات الاجتماعية العميقة الحادثة في المجتمع المصري وحياة الفقراء المضنية، الذين يضطهدهم سادة العبيد.

### الفنون التشكيلية وفن العمارة

لقد تطورت الفنون التشكيلية في مصر بشكل ملحوظ في أيام الإمبراطورية القديمة، لكن ليس في كل الأجناس.

يومئذ، حقق فن الأنصاب التذكارية إنجازات مشهودة. فأنصاب الملوك والوزراء جيدة التناسب، ولكل منها وجهه الخاص، الذي يتلاءم حتماً مع النموذج؛ لكن وقفاتها فيها

شيء من الفجاجة، مصطنع. أحسن أمثلة الحفر والنحت المصري هي النصب القاعد للفرعون شافرا (شفرن)، وتمثال الكاهن رانيفر والنصب المشهور لأحد النساخ متربعا، محفوظاً في اللوفر. تأخذ الرسوم النافرة مدى أوسع. بخاصة على القبور. وتمثل مشاهد من حياة الدفين والأعمال الناجزة في ممتلكاته. تنسب إلى هذه الصور السلطة السحرية التي تؤمن للميت الحياة التي عاشها في الأرض. عيبها فقدان التأمل وتبسيطة الأشكال. الإنسان مقدم بطريقة توفيقية: الرأس بجانب، والجذع مواجه. لكن الطيور والحيوانات من واقعية مذهمة. والمنحوتات غالباً مطلية: كان الصناع يعرفون صنع الألوان المقاومة جداً، التي حافظت على ألونها حتى الآن.

في أيام الإمبراطورية الوسطى، أتقن النحت والحفر وصنع التماثيل، وإلى جانب المنحوتات المطلية ظهرت الجداريات الحقيقية، التي تقدم نماذج رائعة من المناظر الطبيعية، والرسوم الشخصية *portraits*، مشاهد المعارك وسواها. وكان فنانون الإمبراطورية الجديدة أمهر أيضاً. إذ لم تعد تماثيلهم بليدة خرقاء وساكنة لا حركة فيها؛ وظهرت تماثيل نصفية *bustes* رائعة. وكانت رائعات الإمبراطورية الوسطى والجديدة هي تماثيل أمنمحت الأول، رمسيس الثاني ورأس نفرتيتي، زوجة اخناتون. بين المنحوتات، تميز تركيبات دقيقة ومعقدة تذكر حملة حتشبسوت إلى بونت، معركة قادش، والعمليات الحربية لسي تي الأول. وحقق الرسم أيضاً تقدماً واسعاً. أعطى صوراً صادقة للنبات، للطيور للحيوانات وللوجوه البشرية. والشخص، البعيدة عن كل تبسيط، تصوير رسوماً شخصية *portraits*.

لقد مارس ذوق وأستذة فناني مصر نفوذاً دامغاً في إنتاج السلع المتداولة وسائل التعبد. ولقد عثر في قبور الإمبراطورية الوسطى والجديدة على كمية من الأنصاب الخشبية والحجرية التي تمثل العبيد، الحراث، الرعاة، الصناع، المحاربين وسوى ذلك. وثمة أنصاب صغيرة -"متجاوبة"- تلبية نداء الدفين والعمل من أجله. هذه الأنصاب منحوتة بمهارة. فالإمبراطورية الحديثة والعهد التالية تركت لنا عدداً لا يحصى من مواد الاستخدام المألوف، المرايا، الصناديق، الموبيليا المرصعة، علب العطور، الجرار، الصحون، الأواني، الحلى -كلها من الذهب، الفضة، العاج، الأبنوس، البرونز، الزجاج، إلخ. لم يعط هذه السلع صناع بسطاء، بل فنانون تدربوا جيداً بتدريبات نوعية.

بلغ فن العمارة في مصر درجة عالية من الإتقان. آثارهم الأقدم هي القبور الضخمة،

وأهرامات الملوك ومصاطب السادة. المنظر المعروض يتحد فيها مع خطوط في غاية البساطة. وفي أيام الإمبراطورية القديمة، كان بناء المعابد أقل أهمية. وفي هذا الزمان استخدمت أعمدة موشورية أو بشكل النباتات. إذ ترجع أجمل المعابد إلى الإمبراطورية الحديثة. وأطلال الكرنك والأقصر -في مكان طيبة القديمة- وآثار أخرى تعطي فكرة عن عظمة ومجد هذه القبور. في المدخل تبنى الأروقة بأساليب متباينة؛ الأدرج العريضة والمداخل تزين بعنقاوات مصطنعة. يتضمن معبد الكرنك قاعة واسعة من ١٣٤ عموداً سمكية تؤلف ١٦ صفاً؛ بمساحة ٢٥٠٠٠ م<sup>٢</sup>. مثل هذه الأبنية تتطلب مهارة واسعة من البنائين. عدا المعابد، بنوا قصوراً ملكية غاية في الإتقان. لكنها وقد كانت من الخشب، لم نستطع أن نحكم عليها إلا من خلال صور المنحوتات البارزة.

### تقنية بذور العلم

إن صروح مصر الضخمة -الأهرامات والمعابد- كانت مبنية بتقنية بدائية. كل الأعمال تم باليد، بعرق الفلاحين والعبيد. لكنها تنجز دوماً بناء على مخططات وحسابات مهندسي العمارة وملاحظي الورشات الآخرين. وتشاد التصاميم طبعاً بالخبرة المنقولة من جيل إلى جيل، وليس على مبادئ نظرية للآلية.

كانت ضخامة الأعمال تتطلب حسابات أولية بالأرقام المدورة، أي الصحيحة بدون كسور. فمن أجل قياس الحقول بهدف زيادة الضرائب، كان يجب أيضاً معرفة حساب السطوح. لذا كان الحساب متطوراً جداً في مصر. وانطلاقاً من النهج الطبيعي للحساب باليد (خمسة أصابع) وبالنهج العشري، خلق المصريون العد العشري لتقدير الأعداد ١٠، ١٠٠، إلخ. حتى ١٠ ملايين. وكانت الهندسة متطورة أيضاً. فلا تقاس مساحة المستطيل فقط بل أيضاً حجم الدائرة، بإعطاء رقم ٣,١٤، كان الفلكيون يدرسون السماء ويضعون لوائح للنجوم حسب تجمعها، دون أن يساوا البابليين. كان التقويم المصري (الموضوع في أيام الإمبراطورية القديمة) شمسياً، لكنه غير مستخلص من مراقبة حركة الشمس السنوية: وكنقطة انطلاق، اعتبروا يوم بزوغ الشمس سيربوس؛ وفي تلك الحقبة بدأت الفيضانات بعامة. وبعد عدة أعوام من المراقبة تحققوا أن الأمر يتكرر كل ٣٦٥ يوماً وأعطيت هذه المدة للسنة، التي قسمت إلى ١٢ شهراً و٣٠ يوماً لكل شهر. وخمسة أيام أعياد في آخر العام. لكن هذه السنة تتأخر حوالي ٦ ساعات عن العام الشمسي؛ وفي التقويم الحديث، جرى التصحيح بواسطة سنة الكبيس من ٣٦٦ يوماً، الذي يتكرر كل أربعة

أعوام. لم يجر المصريون هذا التصحيح، وخلال قرون، سينمو الفرق ولم يكن يلغى إلا كل ١٤٦٠ عاماً. لاحظ هذه الدورة الفلكيون المصريون الذين سموه زمن سوتيس (اسم مصري لسيرْيوس). وقد حقق الطب في مصر تقدماً ملحوظاً. وضرورة فتح الجثة لتحنيطها حسب العادة الدينية خولهم دراسة التشريح، وهذا، بدوره، أظهر بذور علم الفيزيولوجيا وعلم الطب. ويبحث الأطباء المصريون عن سبب الأمراض في تلف الأعضاء، لكنهم لم يستطيعوا التخلص من السحر، وفي أعرفهم بل أساطيرهم تتجاوز الريع السحرية مع الوصايا الطبية البحتة.

## الفصل الرابع عشر

# الإمبراطورية الحثية

### الأصول

تشكلت الإمبراطورية الحثية في شرق آسيا الصغرى، في حوض حاليس *halys*، الإقليم الذي سمي مؤخرًا كبادوس *capadoce*. لم تكن شروط البلاد تسمح بزراعة أراض مروية. لأن حاليس نهر أقل أهمية بكثير من النيل والفرات. كان الحثيون قد تعلموا حفر أقبية صغيرة لسقاية المراعي والكروم، لكن الزراعة لعبت عندهم دورا أقل من تربية المواشي والطيور. ففي مراعي الجبل، كانوا يملكون قطعانا غفيرة من الأحصنة والخرفان: كانت هذه المنطقة تزودهم، منذ الألف الثالثة قبل الميلاد، بصوف ممتاز.

كانت كبادوس غنية بالمعادن (بخاصة الفضة) وشهيرة بفن التصنيع المعدني؛ وكانت الجبال عامرة بالغابات والحجارة.

كان الشعب متنافرا: في الألف الثالثة كان ثمة قبائل هاتي *hatti* التي أعطت البلاد اسمها؛ كانت لغتهم تقرب لغة ترانسقازيا؛ على ذلك تمثل الثقافة المادية للهاتي والقبائل القفقازية القديمة تماثلات عديدة. وفيما بعد، على الأرجح على تخوم الألفين الثالث والثاني، غزت آسيا الصغرى قبائل أخرى: النيزيت واللويت الذين يتكلمون لغات هند-أوربية. لكن بعد اجتلال قبائل الهاتي البلاد سموا أنفسهم حثيين [*he'the'ens ou hittites*].

تشكل الطبقات الاجتماعية والدولة عند الحثيين غير معروف كفاية. يمكن الافتراض أن تطور التنجين الضخم وصناعة البرونز خلقت، في بداية الألف الثاني، الأساس الاقتصادي للعبودية.

ففي تلك الحقبة تشكل في شرق آسيا الصغرى قبائل (أو اتحاد قبلي) كانت تقاثل بعضها. تجمعت هذه القبائل حول مراكز جيدة التحصين، أهمها كوسار، نيشاساح وحاتوزا. بداية، استلم القيادة ملوك كوسار الذين استعبدوا نيشاساح ودمروا حاتوزا. وبعدئذ صارت



هذه الأخيرة عاصمة الإمبراطورية الحثية.

استناداً إلى التنقيبات، كان لحاتوزا سوران. وكانت جدرانها مؤلفة من حاجز ترابي ومن البلاط الحجري والآجر المشوي؛ وزودت بأبراج تتدرج بفواصل منتظمة. كل هذا أعطى المدينة مظهر البقعة المحصنة.

القليل مما لدينا من تاريخ الحثيين الأول، يشهد على نضال شرس بين العبيد والأحرار، بلغ أقصاه في النصف الثاني من القرن السابع عشر قبل الميلاد، أثناء تمرد "عبيد الأبناء الملكيين" الذين دمروا بيوت السادة و"أراقوا دمهم". وكانت تناسلات قاسية تمزق على الأرجح الطبقة الحاكمة: كانت تتضح أولاً بالنزاع بين مدعي التاج، الأمر الذي أوجب، في القرن السادس عشر، إصلاحاً يهدف تسوية الخلافة. وأخيراً نعرف أن الملوك الحثيين شرعوا، في نهاية القرن السابع عشر وبداية السادس عشر، بحروب الفتح: كان أكثرها نجاحاً غزوات مورسيل الأول الذي احتل كحالبا (حلب) في شمال سوريا، ثم تغلغل في بابل وهزمها ودمرها.

لكن معرفتنا أحسن بكثير للإمبراطورية الحثية منذ القرن الخامس عشر حتى القرن الثالث عشر قبل الميلاد. كسرات من القوانين حفظت، تعطينا فكرة عن العلاقات الاجتماعية في تلك الحقبة، وحوليات تتضمن معلومات مفصلة عن الدبلوماسية والحروب.

### النظام الاجتماعي

كانت الإمبراطورية الحثية دولة استعبادية؛ فالملك، المعابد وحتى بعض الأفراد يملكون عبيداً؛ ويعد بعض الحقول أكثر من مائة منهم. كان العبيد بخاصة صناعات ورعاة. عند ارتكاب الجريمة ذاتها، يدفع الحر تعويضاً وعقوبة العبد الموت أو بتر أحد الأعضاء: يقطع أنف وأذن العبد إن أحرق أو سرق. كان العبد يشبه مادة ما والرجل الحر عن قتل عبد لا يعتبر قاتلاً؛ بل عليه أن يعرض الخسارة على المالك بإعطائه عبداً (أو أكثر).

بيد أن بعض سمات الحق الحثي تثبت قدم العبودية. وكان العبيد يقدر أن يملكوا رزقاً أو عقاراً وأن يقتطعوا من الغرامات التي ترهقهم: وأن يتزوجوا من حرائر، ويتدخلوا في بعض الحالات - بالمحاكم؛ عند التفريق بين عبد وامرأة حرة، يقتسم الزوجان الأولاد والأرزاق.

عدا العبيد، كان المجتمع الحثي يتضمن عينات أخرى من المنتجين المباشرين

المستثمرين. فأقرب أقرباء الحثيين الهبار *les hippars*. ربما كان هؤلاء من مناطق محتلة، أو كانوا منفيين ليعملوا سخرة لمصلحة الملك؛ وكانوا أحيانا ملزمين بالأعمال العسكرية. كان الهبار يتحدثون في جماعات تحمي أعضائها كفالات متينة. المقصود كما يبدو نوع من مشاعات الجوار. كان العبيد والهبار من أصل أجنبي وبعمامة أسرى. لكن الحثيين الأحرار قد يعودون أيضا إلى العبودية: في سنة قحط، تعرضوا لخطر الوقوع وإلى الأبد في قبضة ذلك الذي "جعلهم أحياء" بسبب قرض، لولم يقدموا عاملا آخر عوضا عنهم. كان الفقراء يتدرون أن يبيعوا أبناءهم (أمر ملفت، لم يسمح بهذا الحق للهبار).

أقل قسوة كان تعلق الناس (بالنصيب الوراثي). كانوا حتما أناسا خرجوا من المشاعة واکرھوا أن يصيروا زبائن الحثيين المخولين كل الحقوق المدنية، ومحاربين وملاك عقارات يعملون في الأرض. وكان لهم بعض الحقوق في الاقتصاد حيثما استخدموا: عند فسخ العقد، يتلقون ثلث الثروة.

كانت الكتلة الأساسية من السكان الأحرار مؤلفة من أعضاء المشاعات. كان لدى مشاعات الجوار حقوقا لاتقبل القسمة، رغم انتقال القسم الأكبر من الأرض إلى أيدي الأسر الأبوية ووزعت الأسهم على الأسر الصغيرة. كان قائد الأسرة الكبرى هو المدير الأعلى للكرزاق وينفذ السخرة للدولة؛ وكان "صاحب الدم"، أي قاضي الجرائم التي يقتربها أعضاء الأسرة؛ وكانت تبدو هنا بقايا نظام العشير في أخذ الثأر، في الكفالة المتينة وزواج السلفة. كانت الأرض قابلة للتحويل، لكن البيع والشراء يعتبر إجراما، عقوبته تضحية تكفيرية. والحالة الجنينية للملكية العقارية الفرديّة ترجم أيضا بتفاهة السعر: حقل من ٣٥ هكتارا يساوي عشر ثور. والكروم التي صارت، بالمقابل، ملكية خاصة في عهد أقدم، كانت أحسن قيمة: كرمة تساوي أربعين حقلا قابلا للزراعة.

كان أعضاء المشاعات، الذين حصلوا على نصيب من الأرض منظم، ملزمين بكل أنواع السخرة المسماة لوزي *louzzi*، التي تشمل كل الأعمال: بناء القلاع والمعابد، إصلاح الطرق، القطاف، إلخ. وكان عليهم، أيضا، تأدية الخدمة العسكرية؛ ومن يهرب من هذا يصادر حقله. فمالك الأرض يضطلع بمهام المالك السابق.

---

<sup>١</sup> - قانون عبراني يفرض على الشقيق أن يتزوج زوجة شقيقه المتوفى بدون ذرية.

كان الصناع خاضعين أيضا للسخرة؛ فقط، بعض المتميزين من المحاربين، الكهنة، ومن تلقى سهما من الأرض من الملك مع إجازة خاصة، يعفى من السخرة. كان النبلاء في قمة الطبقة المتنفذة: أعضاء الأسرة المالكة، الكهنة، القادة العسكريون، المنحدرون من أرستقراطية الدم، الذين يبقون غالبا سادة أيضا فسي إقطاعاتهم يملكون الأرض والعبيد ونصيبا من أسلاب الحرب.

### النظام السياسي

في رأس الإمبراطورية الحثية، كان "الملك المعظم" الذي يدعى "الشمس". ويعتبر مانح الخير والسعادة للشعب، يتم طقوسا ويوجه أعيادا دينية بصفة الكاهن-الأكبر. ويعبد بعد موته. ويشغل الملك وظائف عدة: قيادة الجيش، المرشد المشرف والقاضي الأعلى. كانت السلطة الملكية محاطة بمجلس يسمى بانك *pank*. لغويا، هذه الكلمة تعني كثرة أو حشد. بالأصل، مجلس محاربي موسار، لكن بحسب تطور النظام العبودي، تفقد منظمات الديمقراطية العسكرية سلطتها: يتقلص البانك ليصبح مجلسا أرستقراطيا يمثل قمة الشريحة الحاكمة. ويتمتع البانك، المكون من أهل الملك المباشرين (ابن، أخ، إلخ)، ومن الأصهار والقادة العسكريين، بحقوق واسعة، بخاصة حق محاكمة العاهل؛ والعاهل بالعكس، لا يقدر أن يحكم بالموت على عضو من الأسرة المالكة بدون موافقة البانك. صحيح أن الملك يقدر أن يعيد النظر بقرار البانك، بخاصة تخفيف عقوبة ما.

وهكذا، كان نظام الإمبراطورية، في أيامه الأولى، أرستقراطيا: القمة النبيلة (أسر الملك) التي تملك القطعان الضخمة، العديد من العبيد، والتي توجه "بيوتسا" (أسر أبوية) متنفذة، تتمتع بسلطة واسعة ونجحت في تحجيم العاهل. لكن، فيما بعد، عندما صارت الإمبراطورية دولة عسكرية قوية، توطدت السلطة الملكية وفقد البانك نفوذه.

كان نظام الأرستقراطية يفرض إدارة لامركزية. بالفعل، لم تكن الشروط الطبيعية لآسيا الصغرى قادرة على المساهمة بوحدة البلاد: لكن الافتقار لشبكات الري ولد، كما في مصر، الحاجة للمركزية. وكانت بعض المناطق مستقلة كليا من وجهة نظر الاقتصاد.

كانت الدولة الحثية موزعة إلى أقاليم خاضعة لحكام، مختارين غالبا من الأسرة المالكة ويحملون لقب "ملك". وعلى تخوم الإمبراطورية، وجدت محميات سوت علاقاتها مع المالك الأكبر "معاهدات خاصة تتوقع الأحداث الخاصة في حالة الحرب، وحصة

الأسلاب وحقوق التجارة والعلاقات الدبلوماسية مع البلدان الأخرى. كان لهذه المحميات حق إعلان الحرب وتوسيع حدودها على حساب الجوار غير الخاضعين للإمبراطورية الحثية.

كانت السلطة العليا للملك المعظم تمتد أيضاً إلى مدن مقدسة مثل أرينا ونيريك، التي تتمتع باستقلال أكيد. وفي الأرياف، يضطلع شيوخ المشاعات بالوظائف الإدارية والقضائية.

### تشكل الدولة العسكرية

في نهاية القرن الخامس عشر قبل الميلاد، مارس الملوك الحثيون سيادة خارجية فعالة، تهدف إلى توسيع الأملاك بالسلاح والدبلوماسية. يومئذ، كانت السيطرة في الشوق-الأدنى بيد الكوريت، مربّي الخيول الذين شكلوا في النصف الأول من الألف الثاني عدة دول صغيرة في شمال ميزوبوتاميا وسوريا؛ كانت الشريحة العليا من السكان أرسنقراطية تقاتل على عربات. وفي القرن الخامس عشر، توحد الكوريت في مملكة شاسعة، ميتاني، ممتدة من كحالبها والألاح حتى نوزي، الواقعة شرق دجلة. اضطرت آشوريا بالذات للاعتراف بتفوقها، جلب ملك ميتاني من آشور، عاصمة آشوريا، باباً من الذهب والفضة زين به قصره في فاشوغاني (على الخابور). وكانت الدولة الأخرى القوية في الشرق - الأدنى آنئذ هي مصر التي، في أيام تحوتمس الثالث، وسعت حدودها حتى شمال الفرات.

لكن وضع هاتين الإمبراطوريتين تزعزع حوالي نهاية القرن الخامس عشر. نجهل الأسباب الداخلية التي أضعفت ميتاني، مع أن رسائل تل العمارنة تكشف أن ملوك آشوريا حققوا في هذا الزمن استقلالهم؛ وفي فاشوغاني ذاتها (عاصمة ميتاني) انطلقت ثورات في القصر وتفجر الصراع على السلطة والميراث. وفي مصر، انتهت حروب الفتح في أيام أمنوفس الثالث؛ وفي أيام أخناتون، خلفه، بدأت إمبراطورية مصر، التي أهلكتها ومزقتها الصراع السياسي، بالتفكك.

في ظل هذه الظروف المواتية، شرع نبلاء العبودية الحثيون بانتشار واسع. ودل ملوكهم شوبولويوما على مهارته الدبلوماسية. فبفعل السلاح والمفاوضات، توصل إلى مد نفوذ إمبراطوريته مداً ملموساً وجعلها أقوى دولة في الشرق الأدنى.

نجح بداية بفتح الكوريت: انتصرت قواته في شمال سوريا، اجتازت الفرات ودمرت فاشوغاني. وبعد هذه الهزيمة، قلبت الاضطرابات ميتاني: أكرهت ثورة من القصر، نجهل

أسبابها وحوافزها، ماتوا، وريث العرش، على الهرب إلى عند الكاسيت. وباعترافه، استقبل استقبالا باردا، وخوفا من أن يسلمه الكاسيت للأشوريين أو لأعدائه في فاشوغاني، "استسلم مع ثلاث عربات فقط وعدد بسيط من الحواشي إلى قصر شوبولياما، دون أن يكون معه بديل للثوب الذي يرتديه". أدرك شوبولياما الفوائد التي يجنيها من التقرب من الوريث الشرعي لتاج ميتاني. أعطاه ابنته زوجة وأرسل قواته ضد المتمردين. ويصير ماتوا ملك ميتاني، لكن البلاد صارت محمية للإمبراطورية الحثية؛ وفي معاهدة نوعية، عدد ماتوا المكاسب التي قدمها له "الملك الأعظم" واعترف بتفوق شوبولياما.

دعم هذا الأخير نفوذه في شمال سوريا. ارتبطت كحالب وقمرقيش بالإمبراطورية، ووضعت تحت إمرة الأمراء الحثيين. حث شوبولياما الملوك الصغار في سوريا وفينيقيا على التمرد على مصر؛ وكان رجل السياسة الحثية في سوريا أزيرو، عاهل بلاد عمورو، الذي شهر السلاح ضد خلفاء الفرعون. لم يرسل أكناتون تعزيزات، رغم إلحاح ملك بيلوس، فاحتل أزيرو هذه المدينة؛ فقد أمن غضب الجماهير الشعبية من اضطهاد الموظفين المصريين، أمن دعما ملموسا لأزيرو. فقدت مصر امتيازاتها في سوريا وفي فينيقيا، لصالح الحثيين، الذين كان اشتراكهم ضئيلا في هذا الصراع؛ وهكذا ألحقت الدولتان الصغيرتان سوريا وفينيقيا بدائرة نفوذ الإمبراطورية الحثية.

أخيرا، حاول سوبولياما التدخل في شؤون مصر الداخلية بعد موت أكناتون، والبلاد فريسة صراعات داخلية أودت بفرعون بعد أن حرم السلطة. كان سوبولياما يرغب في تزويج أحد الأمراء الحثيين من أرملة أحد الفرعنة السابقين (ربما كان توتانخامون)، آملا تحويل مصر -كما فعل بميتاني- إلى محمية. لكن مشروعه فشل.

لقد وسمت مملكة سوبوليامي الإمبراطورية الحثية بالأوج السياسي. واختفت شيئا فشيئا الخصائص الخاصة بالممالك الأولى؛ وسلطة الملك الذي كان يدير التوسع العسكري في إمبراطورية العبودية، تدعمت واقتربت، بطبيعتها، من الاستبداد المصري والبابلي.

كانت أسلاب الحرب الضخمة وآلاف الهبار المستقرون على الأرض الملكية الأساس المادي لسلطة "الملك الأعظم"، "الشمس".

### انهيار الإمبراطورية الحثية

لم يستطع ازدهار الإمبراطورية أن يستمر طويلا، لأن دولة سوبولياما مترامية

الأطراف كانت تفتقر للحمة والانسجام. كانت حروب الفتح تتطلب جهودا ضخمة وتستنفذ الاحتياط البشري: فليس بدون سبب ألزم الحثيون الهبار بخدمة الجيش. وكانت السخرة تنقل كاهل الفلاحين، أعضاء المشاعات؛ فانتهى الجوع والاستعباد إلى دمار اقتصاد الحراثين والمدجنين.

اصطدم أول خلفاء سوبولولياما بمصاعب جديدة. كان على ولده مورسيل الثاني أن يقاتل قبائل الكسكاثيين الذي يسكنون جنوب البحر الأسود، وغرب مملكة أكحيواوا التي أسسها اليونان (الأثينيون)، الذين كانوا يقطنون بلوبونيز في منتصف الألف الثانية قبل الميلاد.

في نهاية القرن الخامس عشر، نشب نزاع مسلح بين الحثيين والمصريين الذين، في ملك رمسيس الثاني، كانوا يطمعون من جديد بسوريا. انهزم المصريون أمام قادش (١٣١٢)، واستنادا إلى المصادر الحثية، مشوا بسرعة إلى دمشق. لكن هذا كان آخر نصر هام للحثيين.

لقد ترك حاتوسيل الثالث، الذي أتى إلى السلطة في بداية القرن الثالث عشر، سيرة ذاتية ملفتة، تتضمن ذاتية لاتناقش تهدف أساسا تبرير اغتصابه العرش. لم يكن لحاتوسيل، ابن حاتوسيل الثاني، أي حق بالعرش. بل كان يحكم عدة أمصار من الإمبراطورية والمدينة المقدسة نيريك. ولما صار حفيد حاتوسيل، أوركتشوب "الملك الأعظم" كاد له عمه وظاهر أعداء العاهل الحثيني. ونجح أخيرا بقلب أوركتشوب (باتهامه إياه في سيرته الذاتية بمخططات ضارة ومهلكة ونفيه إلى جزيرة في البحر الأبيض المتوسط. وقد فاقم هذا الصراع الملكي من وضع الدولة.

كانت سياسة حاتوسيل الثالث دفاعية بحتة؛ أوقف تقدم الكاسكيين وعقد في ١٢٩٦ معاهدة مع رمسيس الثاني. كانت العلاقات مع آشوريا أقل حظا: احتل ملك هذه البلاد مناطق المجرى الأوسط للفرات، حيث كانت ميتاني، وطمح بان يعادل "الملك الأعظم" الحثيني؛ ورغب في أن يناديه حاتوسيل الثاني "ياأخ". رفض هذا. "نحن من أم واحدة؟" أجاب. لكن هذا الجواب لم يمنع طبعاً من توطيد آشوريا وأكحيواوا أيضاً. وفي نهاية القرن الثالث عشر؛ نشب عصيان عنيف في الأمصار الغربية وأفضى إلى انفصالها. وحوالي العام ١٢٠٠ قبل الميلاد، انهارت الإمبراطورية الحثية. وفي نفس الحقبة، احتل الأثينيون،

أحلاف الحثيين، مدينة طروادة. وهاجم هؤلاء وشعوب أخرى من "شعوب البحر" شواطئ مصر وأبحروا إلى فلسطين.

### الحضارة الحثية

كانت الثقافة الحثية بالغة التنوع: يكفي القول: إن رعاياها كانوا يتكلمون عدة لغات وتستخدم نهجين من الكتابة: الحروف المسمارية المأخوذة من الساميين والهيروغليفية.

يؤمن الحثيون بعدد كبير من الآلهة، منهم ثلاثة معظومون بشكل فريد: الإلهة-الأم العظيمة، إله العاصفة وتليينو الذي بعث حيا كما تموز البابلي.

تروي الخرافة أن تليينو اختفى غاضبا على الآلهة والحيوانات والناس، وكونه يحسد قوى الطبيعة جلب غيابه البؤس والجوع (وهذه من بقايا العبادات القديمة لبطل التشكل الإنساني) بحثت الآلهة عن تليينو، لكن لا النسر ولاحتى إله العاصفة استطاعا العثور عليه. فقط النحلة، مرسله من الإلهة العظيمة، أدركته وأقنعتة بنسيان الغضب.

رغم بقايا العبادات القديمة، عبادة قوى الطبيعة، كان الدين الحثي، في مجمله، قوة ايدولوجية كبيرة تدافع عن الطبقة الحاكمة المالكة: فقد عثروا ليس بعيدا عن حاثوسا على منحوتة تمثل الإله يعانق الملك.

لقد خضع الدين الحثي إلى فنون الأديان والميثولوجيا الكوريت والسومرية-الأكدية. إذ قبل الحثيون التعبد لإله العاصفة الكوريتي تشوب ومجدوا ثيرانهم المقدسة؛ وتعبدوا أيضا عشتار، وسن وآلهة بابلية أخرى. وبدوره، أثر الدين الحثي بالميثولوجيا الإغريقية: فربما من هنا أتت عبادة أبولون الذي يحمي، حسب أسطورة حرب طروادة، الطرواديين من الأتنيين.

الأعمال الفنية التي وصلتنا في غالبها منحوتات حجرية. وجوه الآلهة ثقيلة وسلكنة، لكن المشاهد التي رسمها فنانون ليسوا عبيدا، معبرة وحية. إن منحوتة قرقميش ذات أهمية فريدة: فيها مشاهد عن المعارك، الحيوانات، وكائنات حيوانية خيالية. وجدت منحوتات أقدم قرب حاثوسا: حيوانات، أزهار رائعة، منقوشة بموهبة؛ وخنزير بري مخيف يهجم على صياد، ركبتة في الأرض، يصده بهدوء بقوسه، إلى جانب أيل يحني رأسه الخشبي نحو زهرة غريبة.

قليلة هي الأشياء التي نعرفها عن الأدب الحثي. كان الحثيون يكتبون بعامة على

ألواح خشبية، وأغلب موجودات مكتبة حاتوسا الضخمة فقدت. وبين النذر اليسير المتبقي نقرأ نصوصاً مستوحاة من الميثولوجيا؛ على ذلك، يعتبرها بعض العلماء تراجعاً لملاحم كوريت. السمة الأصلية لهذه الحكايا قحة الآلهة، البادية بخاصة في قصة كوماربي. كان كوماربي ملك الآلهة؛ لكن ثمة آخرون راغبون في انتزاع سلطته، فقرر خلق معين له يعتمد عليه. ولما كان أحد الشجعان يبغى الحصول على أم مناضلة شجاعة، تزوج كوماربي من صخرة أنجبت له ابناً سمي أوللكومو. خباه أبوه في صندوق حيث كبر بدون علم أحد. لكن الآلهة علمت بوجوده وخلصت إلى إغوائه وتضليله. والآلهة عشتار، المزدانة بأحلى الحلبي، تغني أمام الصخرة الجبارة. لكن جهدها ضاع، لأن أوللكومي كان بدون عينيّن ولا أذنيّن. بثست الآلهة ورمت حلبيها في الأرض. يرى بعض الباحثين أن خرافة كوماربي مارست أثرها على الأساطير الإغريقية، بخاصة على أسطورة كرونوس، أب زيوس *Zeus*.





كبير آلهة الحثيين، بصورة محارب

## الفصل الخامس عشر

### فينيقيا وفلسطين

#### أصل الدول الفينيقية

يعني اسم فينيقيا شريطاً رقيقاً ناعماً من الشاطئ السوري، يبدأ من صور حتى أوغاريت. وفي الشرق، تمتد سلسلة جبال لبنان المغطاة بالغابات الكثيفة. ثم تتقدم الجبال حتى الشاطئ وتسقط رأساً في البحر. الأراضي القابلة للزراعة ضيقة لكنها شديدة الخصب. في المنحدرات تتوفر المراعي. وفي العصور الغابرة، عرف هذا الشط أكثر من عشر مدن بحرية، كانت كل منها صاحبة للمنطقة المحيطة.

اشتهر الفينيقيون بجرأة وإقدام بحارتهم ونشاط تجارهم.

هذه التسمية "فينيقيون"، التي اختارها المؤرخون الإغريق، اصطلاحية؛ لم يعرفها السكان الأصليون. كان جدودهم يسكنون حتى الألف الثالثة جنوب وغرب فلسطين. وكانوا عدة قبائل تتكلم لغات سامية. وفي الألف الثالثة بدأوا تقدمهم نحو الشمال، على طول شاطئ البحر الأبيض المتوسط.

بنيت هذه القبائل على الشاطئ السوري أولى مساكنها، التي آلت إلى أوغاريت، جبيل (بيبلوس بالإغريقية) وصيدون. وفيما بعد يظهر مستقبل تسور (*tsor* بالإغريقي *tyr*) صور.

بداية، كانت هذه الأماكن قرى صيادين تجمعوا في مشاعات؛ لكنها سرعان ما تحولت إلى مدن، وصارت مراكز للمناطق حيث استقر المهاجرون بمشاعات الجوار. لقد ارتبط تحول مشاعات العشير إلى مشاعات جوار بولادة طبقات اجتماعية وتأسيس دول فينيقية. ليس لدينا أية معلومة دقيقة حول هذا التطور؛ تدعي الخرافة أن مؤسس وملك صيدون الأول هو كيريت *ke're't*، الذي امتلك جيشاً خاصاً به؛ وفي صيدون أقيمت معابد لآلهة القبائل.

### نظرة في التاريخ السياسي للممالك الفينيقية

لم تتحد دول فينيقيا الصغيرة أبدا في دولة واحدة. بل عاش كل منها حياته السياسية. وعبر التاريخ، تميزت أربع ممالك: أوغاريت، جبيل، صيدون وصور، بغناها ومناعتها. قبل أن يغزو تحوتمس الثالث فلسطين وسوريا، كانت الممالك الفينيقية مستقلة. وكانت جبيل وأغاريت تشغلان المكانة الأهم.

كانت جبيل قد عقدت، منذ الألف الثالثة، ارتباطات تجارية مع مصر. وكانت أوغاريت قد صارت في نهاية الألف الثالثة مدينة هامة تتاجر مع مصر وكريت وفي النصف الأول من الألف الثالثة، ازدهرت أوغاريت، وكانت عامرة بالمعابد والقصور؛ يقطن التجار والسادة في بيوت من حجر فخمة الأثاث ومزودة بأقبيبة المؤونة والطبخ. وكان تجار كريت يسكنون حيا خاصا بهم؛ ويتاجرون أيضا مع قبرص.

في منتصف الألف الثانية قبل الميلاد، خضعت المدن الفينيقية ثلاثمائة سنة لمصر والحثيين الذين غزوا في النصف الأول من القرن الرابع عشر شمال سوريا، وألحقت مؤقتا أوغاريت وجبيل. ومنئذ وحتى نهاية الألف الثانية، تعيش فينيقيا عهد انحطاط، ناجم أولا بأول عن حروب مصر والحثيين، الجارية على أرضها، ثم "دخول شعوب البحر" الآتية من الجزر الإيجية.

في نهاية القرن الثالث عشر، سمح ضعف مصر وانحطاط الامبراطورية الحثيية لممالك الفينيقية أن تستعيد استقلالها. وفي تلك الحقبة كانت المكانة الأولى تخص صور التي، كونها واقعة في جزيرة، لم تعان كثيرا من ويلات الحروب والاعتداءات. كان عاقلها الأشهر حيرام الذي ملك في منتصف القرن العاشر. كان بإمرته أسطول تجاري ضخم يستغل نفوذه في أرجاء البحر الأبيض المتوسط؛ وسع حصن صور ليجعل منها قلعة منيعة الجانب، قاومت حملة الآشوريين.

دام هذا الاستقلال حتى نهاية القرن الثامن، يوم فقدت الممالك الفينيقية استقلالها إلى الأبد على يد الآشوريين.

### النظام الاقتصادي، الاجتماعي والسياسي للممالك الفينيقية

إن الوثائق التي عثر عليها في أثناء التنقيب في أوغاريت، تميز بعض مظاهر النظام الاقتصادي والاجتماعي لهذه الدولة. كانت غالبية الناس يزرعون الحبوب والكرمة في

وادي العاصي الخصبة، وخلفه، في الصحراء، تمر حدود المملكة. وكانت الأرض تعطى مواسم وفيرة؛ وكان مايزيد يباع إلى تجار أوغاريت الأجانب. وكان الزراع يعيشون نظاماً مشاعياً. مشاعات الجوار تصدر من مشاعات العشير، وقد حافظ بعضها على اسمه القديم. كانوا يدفعون مرتبات إلى الملك ويزودونه باليد العاملة لأعماله. كان كل منها ملزماً بأن يعمل من ١٣ يوماً حتى شهرين سخرة، ويقدمون للجيش رماة الأقواس. وفي المنطقة الشاطئية، كانت تقم مشاعات الصيادين الذين يجندون في الأسطول الملكي.

كانت رعايا أوغاريت مؤلفة من صناعيين، تجار، كهنة وكبار الموظفين؛ والكل عدا الصناعيين، يملك عبداً. ويحوز بعضهم كروماً متواضعة المساحة. فالعبودية تشكل خصيصة ألفة. وفي إحصاءات الوصيات أو عقود البيع، يذكر العبيد في خانة الدواب والمواد الثمينة كالبرونز والفضة. كان عدد العبيد قليلاً؛ والسيد الذي يفقد عبيدين أو ثلاثة يتعرض للافتقار فعلاً، لا بل للدمار. وكانت أراضي الملك مخدومة جيداً؛ والقصور تغص بالخدم، ويعمل عبيد آخرون في مراعي وكروم العاهل أو يجذفون على مراكبه. أكثر العبيد يشتري من السوق. تطورت العبودية بخاصة في صور، في الألف الأول. وكان ملوك صور يملكون تجارة بحرية رائجة ومقاتلين أشداء كفاء، ويهتم تجاره بمعاملة العبيد المخلوبين من حيث يوجد مستوطنات لصور.

منذ النصف الأول من الألف الثانية، تشكلت شريحة غفيرة من التجار في الممالك الفينيقية. كانت لا تعمل إلا بتجارة الوساطة. بين البضائع الكثيرة المصدرة، لنذكر كمادة منتجة في فينيقيا نفسها سوى القمح، الخمر، خشب لبنان المجفف؛ ماعدا ذلك يستورد من الخارج عيشى أو يبادل في بلاد ليباع أو يقايض في بلد آخر. وقد بقي الملوك، حتى أقول الدول الفينيقية، على رأس البائعين والشايعين. وفي الألف الثانية، كان تجار فينيقيا الأشهر في العالم؛ ولقد أشار ماركس<sup>١</sup> إلى دورهم الهام في التجارة.

من حيث النظام السياسي، كانت الممالك الفينيقية استبداديات صغيرة. نجهل بنية جهاز الدولة، لكننا نعرف جيداً أيديولوجية السلطة الملكية. كان ملوك فينيقيا يدعون الطبيعة الإلهية. فملوك صيدون، مثلاً، ينسبون ذريتهم إلى آلهة (كربت، الملك الخرافي، وصار

١ - ك. ماركس، رأس المال، الكتاب الأول، المجلد الأول، منشورات اجتماعية، باريس ١٩٥٠ ص ١٣٧ / ملاحظة ٣.

إلهاً؛ ومؤسس جبيل كان يزعم الإله إل *EL*، وإله صور كان يسمى ملكارث ("ملك المدينة" بالفينيقية). ومنظمة العبادة الرسمية تتلاءم مع هذه الإيديولوجيا التيقراطية: كان ملوك جبيل، أوغاريت، صور وصيدون في ذات الوقت كهنة الآلهة العليا لمدنهم ويرأسون شخصياً الاحتفالات الطقسية الضخمة. لكنهم لم يكونوا مطلقي السلطة كما كان ملوك بابل وفراعنة مصر.

الظلم الاجتماعي الذي توطد منذ بزوغ الممالك التجارية والعبودية الغنية، وتطور العبودية أثارا اضطرابات ومكائد لم تتوقف، وكذلك ثورات في أوساط الأسر المالكة. وحدثت تشوشات في صور حوالي نهاية القرن التاسع، عندما دبرت أخت الملك مكيدة ضده. ليس لدينا معطيات حول حقوق العبيد، عدا لقصة بالغة الغموض حول عصيان نشب في صور في القرن الخامس قبل الميلاد، يوم كانت جزءاً من فارس.

#### . إبحار ومستوطنات

يعتبر الفينيقيون أجود بحارة العصور القديمة. وقد تطور العمل البحري بفعل الوضع البحري لكل هذه الممالك، التي يعيش سكان شطآنها من الصيد ويرحلون كثيراً في عباب البحر على متن مراكب خفيفة ذات مجاذيف. فمذ الألف الثالث كان الفينيقيون يبحرون حتى مصر وحتى بحر إيجة. وفي الألف الثانية، وصلوا في الغرب، إلى نوميديا وإيبيريا (إسبانيا). وكان بحارة صور أول من وصل مضيق جبل طارق، ولدى رؤية بحر بدون حدود، اعتقدوا أنهم في طرف الدنيا. وسما الصخرتين الضخمتين التي انتصبتا وجها لوجه أمامهم، على الشط الأوربي سوتا *Ceuta*، عمودي ملكارث، مفترضين أن الإله غرسهما هنا بيده بالذات من أجل تحديد الأرض. وفيما بعد، وبعد التحقق أن العالم لا ينتهي هنا، تجاوزوا جبل طارق عدة مرات. لكن هذه الفكرة المرتبطة بالمضيق عاشت وأخذها اليونان والرومان، وسموها عمودي هرقل.

في الألف الأولى قبل الميلاد، خرج الفينيقيون من البحر الأبيض المتوسط: وفي القرن السادس، سار البحار القرطاجي حانون على طول شواطئ إفريقيا الغربية حتى الكاميرون الحالية، ووصف رحلته في نص وصلنا مترجماً إلى الإغريقية.

أثناء بعثاتهم البحرية، أسس الفينيقيون مستوطنات، وعقدوا معاهدات تجارية مع سكان جزر البحر الأبيض المتوسط وجنوبه. لكننا نخطئ إن نحن اعتقدنا أن هؤلاء التجار كانوا

دوما مسالمين؛ فإذا ما أتت السانحة، يسارعون إلى نهب القبائل التي تسكن شواطئ أفريقيا، أسبانيا وآسيا الصغرى. وكانت التجارة متبادلة. حيث كانوا يقدرون استقبال ويستمرار بضائع ثمينة وتأسيس مرافئ سهلة التناول، كان الفينيقيون يشيدون مستعمرات، تصير فيما بعد مدنا كبيرة. كان منها في جزر بحر إيجه ومضائق الدردنيل وأمكنة أخرى. حوالي العام ٨٠٠ قبل الميلاد بنيت أهم مدينة، قرطاجة "المدينة الجديدة" قرب تونس الحالية وسرعان ما صارت أروج مركز تجاري في غرب المتوسط.

لقد طور الإبحار البناء البحري في صور، صيدون وجبيل. وعمر أهالي صور أسطولا كاملا لملك آشوريا سناشرب. وجهزوا سفنا لسلطان فار التي صارت تجهز المدن الفينيقية لحروبها.

### الحضارة الفينيقية

تدل المكتشفات في أوغاريت وجبيل أن الفينيقيين خلقوا حضارة أصيلة في كل المجالات: الدين، الكتابة، الآداب والفن.

إن الدين الفينيقي، ككل أديان الشرق القديم، يتميز بتعايش العبادة الرسمية والعبادة الشعبية، الزراعية. ولكل دولة آلهتها الرسمية: بلع وبعلات، سيد وسيدة المدينة أو المملكة. وفي جبيل، كان أدونيس واستارتيه؛ في أغاريت، آليين وأنيت؛ في صور، ملكارث (اسم "زوجته" غير معروف). وكان ثمة آلهة آخرون. ويلتقي دين الدولة ودين الشعب في نقطة: عبادة آلهة النبات والخصب. البعل والبعلات في كل مملكة موقران ليس فقط كحاميين للبلاد، بل كإلهين للخصب والنبات. وكانت تنسب هذه المقامات لأدونيس وأيضا لآليين، ملكارث، استارتيه وأنيت. يعلن العيد الرئيس للتعبد في كل مكان بدء الأعمال الزراعية ويرتبط بأسطورة البعث وظهور إله النبات والخصب.

في دين الشعب، يخص المقام الأول العبادات الزراعية، الموقوفة على "آلهة الخير" لمطر، خصب التربة، الحرث والبذر، المواسم، الحصاد، القمح والخمرة. وحسب المثلوجيا الشعبية، "تول" هذه الآلة أو تظهر في أثناء فصل الأعمال الحقلية؛ ويعطي هذا "لاين البحر" آليين، موزع المطر، الذي يهطل فجأة قبل البذر وينتصر على إله الجفاف موت Mot. فالحرث والبذر، الحصاد وجمع الثمار تترافق مع طقوس سحرية تؤمن وفرتها تتم كل هذه الطقوس جماعيا في المشاعات.

كان الأدب الفينيقي يؤثر معالجة الموضوعات الاجتماعية الميثولوجية. فنصوص أوغاريت تصف موت آيين، نزوله إلى المملكة السفلى لموت *Mot*، بعثه وعودته إلى الأرض، مجيئه وبناء معبد لمجده. وعدا الشعر الميثولوجي، كان ثمة الأدب القصصي. فالتقيب في أوغاريت كشف لنا ملحمة كيريت، ملك صيدون الخرافي. وثمة أيضا أجزاء من حوليات صور تحكي على الأرجح قصة المدينة منذ القديم الغابر حتى الألف الأولى، ووصفا لملك صيدون الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد. وأحد أهم نجاحات الحضارة الفينيقية هو إبداع الكتابة الأبجدية. وتطور الإبحار والتجارة أوجب كتابة مناسبة سهلة، أبسط من المسمارية والهيروغليفية. وفي الألف الثانية قبل الميلاد، تشكلت الكتابة الأبجدية كما يبدو بالموازاة في مختلف المدن: ففي الشمال، في أوغاريت، بنيت الكتابة على المسمارية، بينما أخذوا في النوبة نموذج الهيروغليف المصري الذي يبرز الصوت أو الرنة أو اللحن *lesoase*. واستخدمت الحروف الفينيقية بدورها في تأسيس الأبجدية الإغريقية، الآرامية، اللاتينية والروسية. وليس صدفة أن تشتق كلمة أبجدية ذاتها من كلمتين فينيقيتين: *aleph* (ثور) و *beth* (بيت)، أي *aleph beth* (ألفا بيت)، لتصير أخيرا *aleph* و *beta* باليونانية.

كان ينقص الأبجدية الفينيقية الشارات لتقديم الحروف الصوتية *voy elles*، المبدأ الموجود حتى اليوم في الكتابة العبرية والعربية.

لقد وجدوا في جبيل وأغاريت نماذج عديدة من الفن الفينيقي، أنصابا ضخمة وصغيرة للآلهة، ومسلات وعليها منحوتات، وسلعا ذهبية، فضية، برونزية وخشبية، مشربيات بديكور أحمر. تعود هذه الأعمال إلى حقبة عديدة، من الألف الثالثة حتى منتصف الألف الأولى قبل الميلاد. وفي صيدون، وفي المعمرات الفينيقية في قبرص وغيرها، اكتشفت كمية من الأغراض العائدة للألف الأولى. وقد خلق الفنانون أسلوبا أصيلا، فينيقيا أو سوريا، مستقى من التقاليد المصرية والحثية-الكوريت. ومن أعمال الفن الفينيقي الرائعة هي منحوتات القبر الضخم لآحيرام، ملك جبيل (القرن الثالث عشر-الثاني عشر)، مسلات أوغاريت التي تحمل صورة آيين، أوزانا من البرونز بشكل ثيران، صحنون فضية تبرز أسطورة أدونيس. كما مارس الفن الفينيقي نفوذا واسعا على شعوب سوريا وفلسطين، بخاصة الفن العبري.

## قبائل اسرائيل وجودها وتغلغلها في شانآن Chanaan

لقد سمي الإغريق البلاد الواقعة في جنوب سوريا، فلسطين، استنادا إلى الفلستنس الذين كانوا يعيشون منذ القرن الثالث عشر على الشاطئ الجنوبي الشرقي للبحر المتوسط. وكان نهر الأردن الذي يجتاز البلاد من الشمال إلى الجنوب ويصب في البحر الميت. يقسم فلسطين إلى منطقتين متميزتين: غرب الوادي، الأراضي الخصبة، ووفرة النبات؛ والضفة الشرقية صخرية وجرداء. في الشمال، تنتصب ملتقيات لبنان الغربي الغابية؛ وفي الجنوب بحر الميت، تنبسط السهول التي تزهو في أثناء فصل الأمطار وتتحول إلى صحراء خلال فصل الجفاف.

في الألف الثانية قبل الميلاد، كانت فلسطين المسماة آنذ شانآن عامرة بالشانانيين، الذين يتكلمون لغة سامية، والكوريت. كانت هذه المناطق الخصبة تثير، منذ الألف الثالثة، اهتمام واشتياق المصريين أبان حكم فراعنة الأسرة الثامنة عشرة، استعبدها كما استعبدوا فينيقيا. وفي نهاية الألف الثانية بعد غزوات "شعوب البحر" فقدت مصر فلسطين التي أضحت رهان الصراع بين مختلف القبائل.

آنذ تبدأ بالتغلغل في فلسطين، من خلف الأردن، قبائل عبرية متحدة تحت اسم اسرائيل. لم تكن هذه الحركة حملة عسكرية منظمة، بل تسال بطى للقبائل المنعزلة، التي، في بعض الحالات، كانت تبني أبناء البلد الأصليين أو تستعدهم، وفي حالات أخرى، تقيم في أراض غير مأهولة، جنبا إلى جنب مع الشانانيين. وبعد الهجرة حافظت القبائل الاسرائيلية، وخاصة قبائل الجودا، والقبائل المجاورة، القاطنة في المنطقة شبه -الصحراوية في نوب فلسطين، حافظت على النظام العشيري لبعض الوقت. لكن أسلوب حياتهم الرعوي تحول، شيئا فشيئا، إلى الأسلوب الزراعي، الغالب في الشمال ومركز الشانآن منذ القرن الحادي عشر قبل الميلاد. وأمسيت القبائل المؤسسة على العشير مشاعات جوار، رغم بقاء بعض التقاليد القديمة، التي تؤثر على النظام الاجتماعي والسياسي للمهاجرين. ومع انتشارها على أرض واسعة وانتقالها إلى حياة الزراعة المقيمين، حافظت القبائل طويلا على أعرافها وعاداتها العشيرية الحضرية، العسكرية والدينية. مع ذلك، خلق تطور العبودية والامساواة المادية، منذ نهاية الألف الثانية، الشروط الاقتصادية لولادة الدولة.

في القرن الثاني عشر والحادي عشر، تغلغلت قبائل أخرى في شانآن. ساميون رحل



من شرق الأردن وصلوا من الشرق؛ وأبحر أحد "شعوب البحر" الفلسطينيين، إلى الغرب، على الشط الفلسطيني. وقف الاسرائيليون على رأس الغزة الآتين من الشرق بوسائلكهم الخاصة. أما الفلسطينيون، دلوا أنهم رهييون. جيوش بسيف من حديد، احتلت الشط وبدأت غزو داخل البلاد: بنوا فيها ميادين محصنة (أهمها أشدود أو آزوت وغزة) وأسسوا عدة إمارات.

أسهمت الحرب ضد الفلسطينيين في توحيد القبائل الاسرائيلية في دولة واحدة. نفذ المحاولة الأولى قائد من القبيلة اسمه سول *Saül*، ما أن صار ملكا، حتى حارب الفلسطينيين. واشتركت القبائل الاسرائيلية في الجنوب (بما فيها يهودا) بالصراع. ولدى موت سول، عادت المعارك بقيادة مروض ومدرب سول، دافيد، من قبيلة يهودا. وما أن استلم عرش يهودا، حتى وحد تحت سلطته القبائل الاسرائيلية من جنوب ووسط شأنان. عرفت هذه الدولة باسم مملكة اسرائيل أو يهودا. نجحوا في دحر الفلسطينيين وطردتهم من البلاد. وقد خلد هذا النصر سلطة دافيد (بداية القرن العاشر قبل الميلاد).

### مملكتنا إسرائيل ويهوذا

بعد دحر الفلسطينيين، قام دافيد بعدة حملات في الشمال وبسط سلطته على القبائل الاسرائيلية في تلك المناطق. واختار عاصمة له مدينة القدس القديمة (أورشليم) وبنى مقام له في جبل صهيون، المحصن بحيث يستطيع "العرجان والعميان" الدفاع عنه. وهنا شيد لإله قبيلة يهودا يهوه معبدا بشكل خيمة، حسب عادة القبائل الراحلة.

خلف دافيد، الذي مات في بداية القرن العاشر قبل الميلاد، ولده سلومون الذي أنجز بناء القدس. كان سلومون، وكان ملكه سلميا، نموذج الاستبدادي للشرق القديم. يدفع له السكان الأتاوات الطبيعية. واستنادا إلى "كتب الملوك" وهي فصل من التوراة -كانت مملكة سلومون من خمس دوائر، تخضع كل منها فقط إلى التقسيم البلدي. على رأس كل دائرة، وضع العاهل حاكما مكلفا بحماية "الملك وبيته"، يعني الاسرة المالكة وحاشيتها، بإرسال الفرائض الطبيعية إلى القدس، المترتبة على منطقته. وكان موظف خاص مكلفا بإدارة الأعمال "بيت الملك" المفروضة على كل "اسرائيلي". ثلاثون ألف رجل يؤدون أدوارهم بالسخرة. وهكذا بنى القصر الملكي ومعبد يهوه.

القصر والمعبد لا يدهشان بأبعادهما، لكن، استنادا للنصوص، كانا آية في الإبداع من

الداخل والخارج. ولقد بنى سلومون تحصينات وقلاعاً عديدة. والتتقيبات وضعت أيدينا على بقايا من تحصينات القدس والإصطبلات الملكية في مجيدو. وألزم الملك أيضاً السكان الأصليين، الشانآن، بالسخرة. وعقد عقوداً تجارية مع فينيقيا، مصر، سوريا، الجزيرة العربية، التي صوّرت له الخيول، العبيد، الذهب، الفضة، الحجارة الثمينة، الزيوت العطرية ومواد البذخ الأخرى.

كانت ورشات سولمون الواسعة، وصيانة قصره، وبذخ حياته، تستند إلى العمل الإجباري وسلب رعاياه. فليس غريباً أن يكون الوضع في فلسطين في، نهاية حكمه، حرجاً جداً. وتفاقم الوضع أيضاً، الملك لم يكن يهتم بمصالح قبائل الشمال بل يولي ارسنقراطية يهودا كل رعايته. فتبدى الغضب بخاصة لدى إيفاريجيم، أكبر القبائل الإسرائيلية، وتمردت. كبح العصيان لكن تجدد الصراع بعد موت سولمون أفضى إلى قسمة الدولة إلى مملكتين: يهودا وإسرائيل (٩٣٥ قبل الميلاد).

لقد مزقت الصراعات الداخلية مملكة إسرائيل. وبعد ٥٠ عاماً من النزاعات، سقط العرش بيد قائد الميليشيات الشعبية أومري (٨٩٠ قبل الميلاد). كان عهد أسرته الألمع في تاريخ المملكة. شيد أومري على قمة شومرون عاصمة جديدة وقصراً منيفاً ومعبداً اكتشف بقية منه عند التنقيبات، وسمي شومرون (السامرة)، باسم الجبل. كان هذا العاهل وخلفاؤه على اتصال دائم مع فينيقياً وقادوا حملة مظفرة ضد ملوك سوريا في دمشق الذين كانوا يطمحون في إخضاع إسرائيل. إنما في الداخل، كان الوضع مضطرباً. فالى عبء الأتاوات أضيف الجوع (الذي سبقه زمن طويل من الجفاف والقحط). ويتمرد الفلاحون، يبلغ الغليان الجيش، تقلب أسرة أومري وتبدأ المملكة بالانهيار. وفي القرن الثامن، تتتابع الحروب الداخلية، بينما يظهر عدو رهيب على الحدود: آشوريا. في ٧٢٢، بعد تصد إسرائيليين يانس، يحتل الملك الآشوري صارغون السامرة ويدمرها. وهنا انتهت مملكة إسرائيل.

دامت مملكة يهودا أكثر من هذا. ففي القرنين التاسع والثامن، حاول ملوكها عدة مرات إعادة سلطتهم إلى الشمال. كانوا أضعف من أن يشنوا حرباً؛ لكنهم كانوا يحاولون تأريث متاعب هذه المملكة ويثثون الدعايات الدينية، لكن عبثاً. وبعد سقوط ودمار سماره، حل الفقر في القدس: وانتظروا ذات المصير. حاصرت القوات الآشورية المدينة. لكن عدة منغرات أجبرت ملك آشوريا على رفع الحصار. وأكره حزقيا، ملك يهودا على دفع ضريبة ضخمة والاعتراف بتفوقه. وبعد هذا، استمرت المملكة بالحياة قرابة قرن ونصف.

### النظام الاجتماعي والنضال الطبقي في إسرائيل ويهودا.

كان الاقتصاد الفلسطيني في النصف الأول من الألف الأول يرتكز على الزراعة وتربية الدواجن والطيور. كان هذا يهيمن في الجنوب، في الأقاليم السهلية والجبلية: كانوا يربون صغار الحيوانات، الماعز والغنم. وفي شمال يهودا وإسرائيل، كان يعيش الناس أساسا على زراعة الحبوب، الكرمة، الزيتون والتين. وكانت الأرض تحرق بسكة حديد، ويتم الحصاد بمناجل حديد: أدوات من حديد اكتشفت في هذه البقاع تعود للقرن التاسع عشر.

كانت المهن تتفرع من الزراعة: الحدادون، الفخارون، والنجارون صناعيون محترفون. وقد تسارع تطور الصناعة بتأثير المدن الفينيقية الأرقى حضارة.

كان تطور العلاقات الاجتماعية في فلسطين قد حدده واقع القبائل العبرية الرحل التي غرست في وسط اقتصادي واجتماعي جديد، حيث حازت الحرف والتجارة، الربا، والملكية تقاليد متينة، ولدت منذ زمن في المراكز الفينيقية والشانآن. فتكون مجال في المجتمع العبري لبروز ظاهرات متناقضة من جهة، بقايا نظام عشيري مستقر بكل وضوح؛ ومن جهة أخرى، كانت الملكية الخاصة، الربي، الفرق في الثروة، يتطور بسرعة.

كانت المشاعة هي الخلية الاجتماعية الأساسية : بداية ، يعني هذا التعبير المشاعة المؤسسة على العشير، لكنه ضم فيما بعد مشاعة الجوار. وكانت هذه تحافظ على بقايا هامة من نظام العشير: مجلس العشير، مقبرة العشير، الثأر، إلخ. يحكم المشاعة أحد الشيوخ (ناشي). وكانت مشاعة الجوار مبنية على الملكية التعاونية-الجماعية للأرض. فمنذ القرن الثامن قبل الميلاد، كان في يهودا مشاعات هيأت أرضا للزراعة تعاونيا ووزع محصولها بين الأعضاء. لكن الأرض، في أغلب الحالات، كانت على الأرجح تقسم إلى أسهم أو حصص فردية عن طريق القرعة؛ وكانت القسمة تتم في اجتماع عام يترافق مع طقوس نوعية. كان هذا أمرا عاديا يدل على إعادة توزيع الأرض دوريا. وكان لكل مشاعة معبدها وكاهنها. وكان أعضاؤها متعاقدين على التزامات عديدة: إنقاذ من يقع منهم عبدا لعجز وفاء الدين، معاقبة جماعية للجناة والتوسط بين القاتل والمنتمق لتجنب الثأر.

رغم بقايا نظام العشير، دفنت العدالة في المجتمع العبري في النصف الأول من الألف الأولى قبل الميلاد. كان الأغنياء يملكون قطعانا غفيرة من الغنم، الماعز، الحمير، والعيبد من الجنسين وكل الأرزاق. وكانوا يبنون بيوتا من طابق واحد؛ والقبو للعيبد والعوام،

والأعلى لأسرة السيد، التي تتناول المرطبات، مساء، على سطح المنزل.

كان تشكل الملكية الفردية (المواشي، ثم الأرض) واسع الانتشار في فلسطين: فالأرض المشاع كانت تنتقل إلى رؤساء الأسر الأبوية. وغياب نظام ري واسع تتطلب إدارته وإعادته إلى الحياة تعاوناً بسيطاً، أفضى إلى تفكك المشاعة: يمكن بناء خزانات لمياه المطر يعمل أفراد الأسرة وعبيدهم الخاصين. وكانت الملكية الفردية واسعة التطور في فلسطين بحيث لا يملك الملك نفسه حق مصادرة الأرض.

القد نجم عن تطور الملكية الخاصة الربل وسبب خراب بعض أعضاء المشاعة، الذي تقاوم نتيجة الحروب والأثاوات الثقيلة. فيصير البؤساء الذين لا يستطيعون وفاء دينهم عبيد دائنهم. وكثيراً ما ترك المفلسون المشاعات ليعملوا أجراء، أو يلجؤون إلى الجبال، أو إلى غابات ضفاف الأردن، هرباً من الدائنين، أو من "وكلاء" الملك.

لم يكتف المزارعون بمقاومة سلبية. وفي ظل أسرة أومري، كان شعب إسرائيل يتململ ضد الملوك وأصحاب الحظوة لديهم. كانت هذه التمردات ذات خصيصة دينية. وكان الفلاحون الذين يأملون بالتبديل الاجتماعي، يبنون آمالهم على مجيء ملك عادل، "مسيح حقيقي"، مسيح الله ورسول الله بالذات، يلغي نير العمل الثقيل وعصا الوكلاء - المراقبين، من أجل توطيد السلام والعدالة. كان الناطقون باسمهم الأنبياء الذين يقودون أحياناً الحركات الشعبية في القرنين التاسع والثامن (على ألا يخلطوا بينهم وبين الأنبياء الذين يعملون في المعابد الملكية في القدس والسامرة كعملاء مخلصين للكهنوت والملك). كانت الحركات الشعبية تفضي أحياناً إلى تبديل الأسرة المالكة، لكن وضع الكاهنين لم يكن يتبدل. وفي القرن الثامن تبدل الغضب إلى عصيان. أنبياء يراسون "سقوط كل السروج"، "المذبحة الكبرى" للعاطلين الذين يضطهدون الشعب: الإله نفسه حضر الهجوم الجديد، وبعد قلب العاهل الملحد وأتباعه، يلغى الملك، يهدم القصر الملكي وإلى الأبد؛ الشعب ذاته سيصير ملكاً، تتوارى الفاقة والقط، وتغمر المملكة الجديدة بالمسرة والخير الأبدى.

دون الوصول إلى ثورة اجتماعية، كانت الحركات الشعبية إنذاراً جدياً للأرستقراطية المستعبدة. إذ اضطر الملوك لاتخاذ تدابير لتحسين وضع الفقراء. وسن قانون لتحديد العبودية الناجمة عن الدين بست سنوات؛ ونشرت قرارات تهدف إلى الدفاع عن الأراامل واليتامى، الذين كثروا في أيام الحرب، وحقوق المأجورين. وقانون العام "اليوبيلي" (الذي أعد، لكنه لم يطبق أبداً، كما يبدو) كان يبغى إعادة، بعد مدة معينة، الأرض المستلبة.

## أقول نجم مملكة يهودا

بعد سقوط مملكة إسرائيل. أكره ملوك يهودا، كما قلنا آنفاً، على الاعتراف بتفوق ملك آشوريا. واضطروا أن يدفعوا له ضريبة باهظة وقعت كلها على عنق الفلاحين. أثارت هذه الاغتصابات الجديدة في منتصف القرن السابع تمرداً. قلب الشعب المتمرد الملك آمنون. واستلم العرش أشعيا وهو في عامه الثامن؛ حكم أكثر من ثلاثين عاماً وكان آخر عاقل كبير في البلاد.

كانت الأمباطورية الآشورية في حالة انحطاط، في أيام الملك أشعيا، الأمر الذي مكّنه من استعادة استقلال بلاده. وبعد هذا، حاول توطيد دولة الاستعباد، ومركزة الحكومة. وإبغى الإصلاح عام ٦٢١ قبل الميلاد بحرمان المشاعات استقلالها. ألغى الملك كل المهام القضائية، ووظف قضاته في كل مكان؛ وأرسل إلى كل المشاعات موظفين مكلفين بتجنيد الجنود. وأصدر قراراً بمنع تغيير الحدود، دفاعاً عن حقوق المالكين الفرديين ضد محاولات المشاعات لاستعادة الأراضي المستلبة. لكن الأمر الأهم للإصلاح مركزة العبادة في القدس. كانت العبادات المحلية محظورة، والمعابد الإقليمية مدمرة؛ وصار، من الآن، المعبد الوحيد الوطني هو معبد القدس. بهذا التدبير، وافق الملك من جهة على طمع كهنة القدس في احتكار العبادة والبحث، من جهة أخرى، عن تحجيم خطر الحركات الشعبية، التي قادها أنبياء وكهنة معابد المشاعات وأرشدوها. وفي نفس الوقت، ألغى أشعيا من القدس العبادات الأجنبية التي أدخلها أسلافه وكل العبادات التقليدية، عدا عبادة يهوه، الذي صار إله يهودا الوحيد.

لكن محاولة التمرکز هذه لم تقدر أن تتخذ المملكة. فجيّشان الجماهير الشعبية تتابع، وعلاقتهم مع الملك تفاقمت أكثر فأكثر. وفي نهاية القرن السابع، مشى فرعون مصر نيشايو إلى البلاد. خسر أشعيا المعركة. وسلم نيشايو العرش لابن أشعيا الأصغر وفرض عليه ضريبة ثقيلة. بعيد هذا، غزت قوات الملك البابلي نبوخذ نصر سوريا وفلسطين. وفي ٥٨٦ ق.م احتلت القدس ودمرت، أحرقت معبدها واقتيد كل السكان عدا "الفقراء" (المزارعين)، أسرى إلى بابل. ولم تعد مملكة يهودا موجودة كدولة مستقلة.

## حضارة إسرائيل ويهودا

لقد أثرت الثقافة التي خلفها الشعب الإسرائيلي مؤخراً على الحضارة الأوربية. فالدين الأكثر انتشاراً في أوربا، المسيحية، ولد في ظل الدين اليهودي الذي ماثلته في عدة عوامل؛ ولقد استلهم الشعراء، الكتاب والفنانون الأوربيون موضوعاتهم ونماذجهم من الأدب

التوراتي (أي الإسرائيلي اليهودي).

دين إسرائيل ودين يهوه هما النتيجة ذاتها للبنية الاجتماعية الفينيقية (قبيلة وعشيرة)؛ تتضمن كلها عدة عناصر مشتركة. الإله الرئيس ليهودا كان يسمى يهوه، وإسرائيل شلادي *shaddai*، عدا هذه الآلهة، كانوا يعبدون شالم، إله السعادة، استرثيه، إلهة الخصب، وغيرهم. بداية، كان يهوه يجسد القوى الرهيبة للجبال الجرداء، وانتقل ليصير إله العاصفة والأمطار، المحمول فوق الغيوم. وفي أثناء سيطرة يهودا على إسرائيل ومجيء أسرة يهودا، تتلمذ يهوه على الكهنة في صف خلق العالم (السماء، الأرض، النبات، الحيوان، والإنسان)، حامى المملكة والملك. تقدم الميثولوجيا والخرافة يهوه قائداً، مستشاراً، القاضي والأب المغذي لشعبه، يعطي الخبز، الزيت والخمر، ويعاقب عند الحاجة. لقد حوِّفَظَ إذن حتى في المجتمع الطبقي على السمات النوعية لإله قبيلة يهودية.

كان الدين الشعبي ذا خصيصة زراعية واضحة. بين الآلهة العبرية الوطنية، كان أيضاً إله الشمس (شاميش)، الأرض المسماة أم الحياة، وإله القمح داغان *Dagan*. ولكل مشاعة أيضاً إلهها المحلي، بعل ("السيد")، الموزع المباشر للخبز، الزيت والخمر. وكانت الشعائر الشعبية موزعة حتى الأعمال الحقلية وتمارس في أثناء ثلاثة أعياد: أولاً حصاد الشعير، حصاد القمح، قطاف الثمار والإعداد للبذر. كان هذا الأخير هو العيد الأهم، يحتفى به في المشاعات بمناسبة انتهاء السنة الزراعية.

أدب إسرائيل ويهودا ثري جداً. فالأساطير العبرية تحدثت عن خلق العالم، عن الناس الأوائل وعن الطوفان؛ تذكر هذه امحتواها الأساطير البابلية، لكنها أقل إحياءً. والجنس الإنشائي يتضمن أعمالاً أصيلة أصالة مطلقة. في القرنين الثامن والتاسع أنشئ بالتوازي في يهودا وإسرائيل قصتان في أصل القبائل العبرية وتاريخها قبل تشكل المملكة. استوحتا الخرافات والتقاليد الشعبية ببساطة الأسلوب والوعي. ابتغى الكاتبان أموراً محددة: يسعى الكاتب اليهودي إلى إثبات أحقية قبائل يهودا بالمقام الأول، بينما يدعي الكاتب الإسرائيلي العكس. وتظهر في يهودا قصص ضخمة تمجد حياة دافيد وسلومون وتتصرهما. وفي قصر ملوك يهودا وإسرائيل كان يوجد مؤرخون يكتبون حوليات كل مملكة. ومنذ ظهور الأنبياء، بدأوا بجمع أقوالهم والخرافات التي تدور حولهم. وبعد سقوط مملكة يهودا، استخدمت هذه القصص أساساً لـ"كتب الأنبياء" في التوراة، أجودها من حيث الأدب والموقف الجدلي، هي قصص أشعيا *issais* وجرميا *je're'mie*. وعبادة يهوه تنسخ مجالاً للعديد من التراتيل والصلوات تسمى "مزامير". وبعد هذا، جمعت الأغاني والقصص

الشعبي. وأضموه من أناشيد الزفاف، "نشيد الأناشيد"، اشتهرت في العالم قاطبة. الكتاب مجهولون أو مُغفلون؛ لاهوتيون يهود من نهاية الألف الأولى قبل الميلاد ينسبونها إلى عدة شخصيات تاريخية يهودية-إسرائيلية، قادة وأنبياء خرافيين. نخب هؤلاء اللاهوتيون وحوروا وبدلوا الأعمال الأدبية لأيام المملكة لتكون الفصول الرئيسة في التوراة (العهد القديم)، الذي يصير بعد هذا الكتاب المقدس لليهود والمسيحيين. ينسبون لموسى كل القوانين التي سنّها ونشرها الملوك وطقوس التضحية، السحر والعيد المقام في معبد القدس.

### الصحراء العربية وسورية

في شرق وجنوب-شرق فنيقيا وفلسطين، كانت تمتد سهول مأهولة بمد جنين يتكلمون لغات سامية. ونظام العشير وحتى بقايا من عهد الأمومة استمرت حتى نهاية الألف الأولى قبل الميلاد. لكن في بعض المناطق تتشكل دول العبودية. وفي جنوب الصحراء العربية، ظهرت العبودية في حدود الألفين الثاني والأول؛ وتشكلت هنا عدة ممالك: دولة الميديين، السبئيين وسواهما. نظامها الاجتماعي والسياسي غير معروف جيدا؛ لكننا نعرف أن العرب أقاموا في الألف الأولى علاقات اقتصادية وسياسية مع دول الشرق-الأدنى، مع فلسطين خاصة: ففي القرن التاسع اشتركت قبائل عربية في صراع ملكي سوريا وفلسطين ضد آشوريا.

لقد عزز تدجين الجمل تطور التجارة مع فلسطين وميزوبوتاميا؛ وفي الوقت ذاته، كان تجار الصحراء العربية يتاجرون مع الهند وأفريقيا، فمنها يجلبون العطور.

حوالي نهاية الألف الثانية، تغلغت قبائل المدجنين الأراميين في سوريا، أثبتة من للصحراء العربية. دحروا الآشوريين وبنوا عدة دول صغيرة عبودية، كانت دمشق في المقدمة. وفي القرن التاسع شنت دمشق ضد الآشوريين صراعا ضاريا: وفي العام ٨٥٤ ق.م تنتصر القوات الدمشقية، الإسرائيلية والقبائل العربية في كركر على الجيوش الآشورية التي كانت قد دخلت سوريا. وتتشكل في شمال هذه البلاد إمارات خثية-أرامية.

لكن هذه القبائل المبعثرة، المتحاربة أبدا، لم تستطع المقاومة الطويلة للضغط البشوي الآشوري فسقطت في قبضتها في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد.

## الفصل السادس عشر

### آشوريا، أورارتو وبابل الكلدانية

#### آشوريا وأصل شعبها

سميت آشوريا منطقة شمال ميزوبوتاميا، الواقعة على مجرى دجلة الأوسط. في شمال العراق الحالي. بشروطها الطبيعية، تتميز آشوريا بوضوح عن ميزوبوتاميا- السفلى. يبتعد هنا دجلة عن الفرات مسافة تتراوح بين ٣٠٠-٤٠٠ كم، فيضانهما أضعف مما هو في بابل، وتتهل عملية الري هنا فقط من مياه دجلة، والآبار والمطر المجموع في خزانات خاصة. وفي الشرق، آشوريا محاطة بالجبال التي تتقدم حتى دجلة: وآشوريا، أول عاصمة للبلاد، ماكانت تبعد عن الجبال سوى أربعين كيلومترا ، وإلى الشمال، حيث انتقل تركز آشوريا في الألف الثانية، تتاخم الجبال ضفة النهر.

أثرت الطبيعة الجبلية للمنطقة الممتدة إلى شرق نهر دجلة، في الاقتصاد والتاريخ الاجتماعي والسياسي لآشوريا. لم تكن المشاعات الجبلية تقدر على العيش من الزراعة فقط. فتربية المواشي والطيور والقنص لعبا دورا هاما في وجودها. أخيرا، كانت أطراف الجبال تؤمن الخشب، الحجر والمعادن.

كان أقدم سكان الشرق-الأدنى على الأرجح هم الكوريت، أقرباء الأورارتيين، وفي الألف الثالثة، بدأ الأكاديون التغلغل في بقاع مجرى دجلة الأوسط. أسسوا فيه عدة محال سكنية، بها سميت آشور استنادا إلى القبيلة وإلهها. كانت آشور على دجلة، إلى شمال بابل بـ ٣٥٠ كم. وجدت فيها منحوتات ونقوش هامة. خاصة منحوتة لملك آشور شمشي-أداد، معاصر حمورابي، الذي يحكي عن إنشاء معبد يوقف لإله آشور. ومنذ الألف الثالثة، عقدت المدينة علاقات تجارية مع المنطقة المجاورة لكبادوسيا *Cappadoce*.

#### آشوريا في الألف الثالثة والثانية قبل الميلاد

نحن لانعرف الشيء الكثير عن آشوريا الألف الثالثة. واستنادا إلى بعض الوثائق التي



وصلتنا، كان المجتمع الآشوري من نهاية الألف الثالثة وبعض قرون الألف الثانية مجتمعاً عبودياً. وسميت الدولة بـ"مشاعة آشور"؛ كان في رأسها إيشاكو، العاهل الوارث الذي لم يفقد مشيخة القبيلة والعشير والذي لم يصير مستبداً شرقياً سوى في الحقبة التالية. استمرت حياة الناس في مشاعات، لكن مشاعات العشير كانت تتحول باستمرار إلى مشاعات جوار. كانت الارستقراطية العبودية التي ولدت في تلك الحقبة مؤلفة من العشائر القديمة والموظفين الملكيين الكبار الذين ظهروا بعد تشكل مملكة آشور. لم تتخلف جماعة التجار عن اللحاق بهم. فالتطور المبكر للتجارة الآشورية يعلل في أن ميزوبوتاميا-السفلى كانت محرومة من الطبقات المعدنية وتتلقى المعادن من آشوريا، من آسيا الصغرى ومن أرمينيا الحالية حيث يستخرج النحاس والفضة. كان الطريق إلى هذين المصرين يعبر آشوريا، الأمر الذي مكن ملوكها من استلام وساطة التجارة بالمعادن والأخشاب. نتج من هذا غنى سريع لأعيان المجتمع الآشوري ونمو حاد في مركزها، مدينة آشور. أسس التجار في كبادوسيا معمرات تجارية، تطلعنا وثائقها على اقتصاد وأخلاق التجار الآشوريين، سادة العبيد. كان هؤلاء قلة. وكان التجار يشترونهم من لولوبي *Loulloubi*، القبائل الفقيرة في سلسلة جبال زاغروس، حيث كان الأهل يضطرون لبيع أبنائهم مقابل القمح. كان العبيد يقومون بأعمال الخدمة. والتجار يختارون منهم رجالاً موثوقين يشرفون على البيت في أثناء رحيل رب البيت إلى كبادوسيا. وكان عبيد آخرون يعملون حمالين، بغالين وحراساً مسلحين للقوافل.

كان النظام السياسي لتلك الحقبة المسماة "آشوريا القديمة" انتقالياً بين دولة العبودية البدائية التي تقدم أيضاً سمات مشاعية، وبين الاستبدادية العبودية. وكانت سلطة عاهل آشور محدودة بمنظمة تعاونية عليا، تحمل أيضاً اسم "مشاعة آشور". لم يكن هذا المجلس يضم سوى "الكبار" بينما يعيش الشعب بعيداً عن الحكومة. وكان العاهل يحمل لقب "نائب الإله أنليل"؛ كان يرأس مجلس الكبار، يوجه الشؤون الدينية وطبعاً الحربية. العدالة، الخزينة والاقتصاد غير خاضعة للموظفين النوعيين. يشبه هذا النظام إذن من بعض الوجوه حكومة القلة في اليونان القديمة. ولم تتسع سلطة العاهل إلا بعد الفتوح الأولى، عندما لقب شامشي-أداد الأول بـ"ملك الكون".

في القرن السادس عشر انتقلت سلطة الشرق-الأدنى إلى ميتاني. إذ لم نتعرف على

النظام الداخلي لمناطق ميتاني الشرقية إلا عن طريق الوثائق المكتشفة في محلة نوزي لكوريت. وربما قامت علاقات مشابهة في آشوريا، المحكومة في منتصف الألف الثانية بحكام ميتاني. فهؤلاء، غير الراغبين في زيادة الضرائب وتنظيم السخرة للعاهل، كانوا يشغلون الشعب لمصلحتهم وينهبونه لجيوبهم وجيوب أتباعهم، بدعوى تغطية الأتاوات "النوعية". ونتيجة هذا الاستغلال الغاشم، منذ أواسط الألف الثانية؛ دمر العديد من مشلعات الكوريت: وكان المرابون يفيدون من الوضع لاستخدام الفلاحين واحتلال أراضيهم. ولما كانت التقاليد تمنع هذا، كانوا يلجأون إلى الحيل والخداع. إذ يصير المدينون المعسرون، حسب العادة، عبيداً وقتيين للدائنين. لكن القانون لم يحدد مدة هذا الاستعباد، فيدوم من ٦-٥٠ سنة، حسب الاتفاق المعقود بين المرابي والمدين، وبعد بدء المدة المحدودة يلزم الرجل المستعبد على الاعتراف باستعباده المؤبد. وكان المستغلون بنفس الطريقة يحتلون أرض ومرعى الحراث المدمرين أو المفلسين. والمحاكم المكونة من هؤلاء أنفسهم تشرع هذه "العقود وهذا الرضى" الباغي.

في القرن الخامس عشر استعادت آشوريا استقلالها وبدأت مرحلة الانطلاق، المسماة "مرحلة آشوريا الوسطى". ولقد تركت لنا وفرة من الوثائق التي تدل بكل أشكالها على العلاقات الاجتماعية والسياسية لذلك العهد. كان أساس المجتمع والدولة الآشورية النظام المشاعي، الذي تعيشه جمهرة الناس المزارعين. لم تكن المشاعات منسجمة مطلقاً، لأنها عدا الأعضاء البسطاء كانت تضم "كبار العائلات". وكانت كل أرض المشاعة محاطة بـ"رابطات أعيان الإقطاعيين" التي عقوبة من لا يحترمها أو يحاول تغييرها مائة عصا، وغرامة وشهر من "الأعمال الملكية"، أقصى وأقصى عقوبة حسب القانون الآشوري. وكانت أرض المشاعة مقسومة إلى أراض قابلة للزراعة وأراض احتياط. وهذه الأخيرة موزعة إلى حصص بالقرعة ويعاد توزيعها من حين لآخر. والحصص محاطة بإقطاعات صغيرة عقوبة الاعتداء عليها ٥٠ عصا، غرامة، وشهر من "الأعمال الملكية". وكانت أرض المشاعة تخص حقاً وفعلاً المشاعة. لكن، برضى أعضائها، كان يمكن استلاب بعض الحصص، الأمر الذي صار فيما بعد أحد أسباب تفكك النظام المشاعي. المشاعات تدفع الضرائب - "حصة الملك" - دون حساب الخدمة العسكرية والسخرات: إدارة الأبنية والطرق، إشادة المعابد، القصور والصروح الأخرى. وكان الاستغلال المفروض من الملك

والعناصر الفنية في المشاعة نفسها، يفضي إلى خراب أعضائها بل المشاعات كلها . والتوسع السريع للأملاك الفردية. ففي آشوريا لتلك الحقبة، كان عدد المالكين العقاريين ومساحات أراضيهم أوسع مما كان في بابل. كان كثير من المالكين يحوزون بالفعل أراضي المدينين الذين "اختاروهم" فيصير شرطهم أقرب إلى العبودية..

في القرنين الرابع عشر والثالث قبل الميلاد، ظهرت أول شريعة آشورية تشرع وتخلد التطور العملي للملكية العقارية الخاصة. عقدت هذه القوانين القسمة غير العادلة للثروة. إذ يخصص الابن البكر بنصيبين من الميراث، يختار هو نصيبا عادلا ويتلقى الآخر بالقرعة. يقسم الباقي بالتساوي بين الأخوة الآخرين، أيا كان عددهم. ثم، تسلب عناصر الإفقار المتزايدة أبدا أرض ورزق المشاعات. والأخوة الصغار، الذين لا يكفيهم نصيبهم، كانوا بعمامة يبيعون أرضهم ويبحثون عن كسب حياتهم بسبل أخرى. من هذه الشرائع المعوزة، كان ملوك آشوريا يجندون الألوف من أجل حروبهم وفتوحهم. ولم تكن القسمة غير العادلة هي التدابير الوحيدة الملحوظة في القوانين الآشورية للدفاع عن الملكية العقارية الخاصة وتشجيعها. فمن يختصب حق التملك، كانت عقوبته أشد من تعويض الضرر وأقصى. فالأصول القضائية النوعية، التي تتدخل لتثبيت أعمال بيع الأرض والبيت، تدافع عن مصالح وحقوق الحائز.

بعد أن جند جيشا جرارا، شرع ملك آشوريا سلمنصر الأول في القرن الثالث عشر حملات استمرت في حكم ابنه توكولتي نورتا الأول. كانت المهمة الأساسية لسلمنصر السحق النهائي لميتاني، التي أضعفها الحثيون، ووقاية الحدود الآشورية من الإمبراطورية الحثية. نجح بهذا: دمرت ميتاني وبلغ الجيش الآشوري نهر الفرات. وسعت الحملات التالية تخوم البلاد إلى الغرب حتى كركميش، وإلى الشمال حتى بحيرة فان Van، وإلى الجنوب حتى بابل. حول توكولتي-نورتا، الراغب في تقليص النفوذ السياسي للنيل، حول العاصمة إلى مدينة جديدة، سماها "حصن توكولتي نورتا". كان هذا الانطلاق العسكري لآشوريا قصير العمر. إذ سقط توكولتي نورتا ضحية مكيدة؛ وبعد موته، عرفت البلاد عهد الانحطاط.

### الدولة العسكرية الآشورية في الألف الأولى

في نهاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد، كانت آشوريا تخضع لتهديد الآراميين الذين

غزوا البلاد مرارا، نهبوا واستعبدوا الناس، ساقوا القطعان، دمروا وأحرقوا المدن والقرى. لجأ سكان الوديان إلى الجبال، وخوت المدن. ثم جاء عدو آخر. قبائل كانت تعيش في أرمينيا الحالية، حول بحيرة فان Van وإلى الشمال قليلا. الآشوريون يسمونهم أورارتيين (أورارتو).

في القرن العاشر قبل الميلاد، ضعف هجوم الآراميين على آشوريا. قسم من الغزاة استقر بين دجلة والفرات، واندمج بالتدريج وتوقفت الغارات. فعاد الآشوريون شيئا فشيئا إلى التخریب، وفي نهاية القرن العاشر تيسر لملوكها أن ينتقلوا إلى الهجوم على الأورارتيين، والآراميين وجبلي الشرق. انتهى هذا الهجوم في بداية القرن التاسع بانتصارات أور -نذير- بعل الثاني (٨٣٣-٨٥٩ ق.م. أخضع الملوك الصغار الآراميين واقتاد آلاف الأسرى، الأمر الذي مكّنه من تنفيذ أعمال هائلة في كلج. بنى فيها قصرا منيفا مزدانا بالمنحوتات والزخارف، ومشاهد النصر، وشيد ميادين محصنة على حدود المملكة. ووضع آشور -نذير- بعل أسسا لمستقبل آشوريا العسكري. وفي نهاية القرن التاسع، أضعفت آشوريا الاضطرابات الداخلية، الناجمة من كره الاستقراطية التي حاولت الانتقال من نهب الأرض المحتلة إلى ضمها نهائيا؛ أزروهم في هذا الجنود البسطاء، أعضاء المشاعات، الذين يعانون من حرمان الأرض، لكن أصحاب الامتيازات وقادة الجيش الذين يبتلعون القسم الأكبر من الغنائم، ماكانوا يهتمون بتوطيد الفتوح بل يفضلون الغزو المتكرر لنفس البلاد، التي يدمرون كليا قواها المنتجة؛ فضلا عن هذا، حمل هجوم الأورارتيين (نهاية القرن التاسع -نهاية القرن الثامن) ضربة قاسية لآشوريا.

لم يستفك التوسع الآشوري إلا في أواسط القرن الثامن. فقد تبنى الملكان تيغلاث-فلازر الثالث (٧٤٥-٧٢٧) وسرغون الثاني (٧٢٢-٧٠٥) سياسة عدوانية أساسا. أعادوا تجهيز الجيش. وانطلاقا من تيغلاث-فلازر، ضمت القوات الآشورية محاربين ذوي رملح يقودون عربات تقترن زوجا من الأحصنة؛ وسلاح خيالة أضخم مرتين من وحدات العربات؛ وسلاح مشاة معزز، مسلح برماح ودروع؛ وسلاح مشاة خفيف، مؤلف من رملة سهام وأضخم مرتين من السلاح السابق. ووحدات خاصة تتلاءم مع النسف والتفجير والمدفعية، وأيضا وحدات حفر وبناء ضخمة، مؤلفة بشكل عام من العبيد، ومن مساجين الحرب السابقين. وفي أثناء القتال، تقيم هذه الوحدات المساعدة جسورا عائمة، تشق

الطرق، وتشييد معسكرات محصنة، وتحمل الأثقال، إلخ. وخلال حصار الميادين، تحفر الخنادق، ترمي المنجنيقات قذائفها لهدم الاستحكامات والأبراج؛ وأثناء الهجوم، يتسلقون السلالم المعدة مسبقا. وكانت العربات معروفة أيضا لدى الهكسوس والمصريين، لكن ملوك آشوريا كانوا أول من استخدم منهاجيا سلاح الخيالة. ثم تعلموا تعزيز فعل كل هذه الأسلحة؛ تبدأ المعركة بهجوم العربات، تتبعها المشاة، التي تهاجم صفوف الخصم المشتتة، المصدعة؛ ويطارد الفرسان العدو المتراجع أو المنهزم. ولقد أدخل سرغون تجديدا هاما في التجنيد: عدا الرجال الذين يؤدون الخدمة العسكرية الإلزامية، طوع مرتزقة، في البداية من الآشوريين، ثم من الأجانب.

ازداد مع الزمن عدد المتطوعين أو المرتزقة بشكل محسوس؛ واستخدم ملوك آشوريا هؤلاء المتطوعين في داخل البلاد.

لقد شن تيغلات-فلازر الثالث وسرغون الثاني أقسى حروب الفتح: احتل الأول، قاهر القوات المتحالفة التابعة لملكي دمشق وإسرائيل، احتل كل سوريا. بما فيها دمشق. وألحق بابل نهائيا وسمي ملك بابل. وأخيرا، أنزل هزيمة منكرة بمملكة أورارتو، التي تكونت في القرن التاسع قبل الميلاد وصارت أنطلاقا من القرن الثامن عدو آشوريا الرئيس. ولقد خاض ملك أورارتو، أرغشتي (٧٨١-٧٦٠)، صراعا ضد عدو آشوريا وحقق نصرا على عاھلها. وصارت الحرب مع أورارتو المهمة العسكرية الأولى إذن لدى الملوك الآشوريين. كلف سرغون الثاني بحل هذا العبء. وبما أنه كان مطمئنا إلى الحدود السورية والفلسطينية، وكان قد دمر مملكة إسرائيل والإمارات الحثية-الآرامية التي بقيت في منطقة كركميش، وجه كل قواته إلى أورارتو. أضعف غزو سرغون هذه المملكة التي عاشت حتى القرن السادس قبل الميلاد، يوم أبادها الميديون.

لكن خلفاء سرغون لم يتابعوا حروب الغزو بشكل منهجي. بل جاهدوا للتمدد نحو الجنوب الغربي، لاحتلال مصر. سحق سنحريب مقاومة البابليين واستباح مدينتهم أو عاصمتهم؛ ساعدته في هذا مملكة يهودا؛ وبلغ خليفته أسارهدون في العام ٦٧١ مصر وهزمها. لكن هذا النصر كان عارضا، لأن الملك الآشوري لم يتمكن أن يترك في مصر حامية كافية؛ وبعد عشرين عاما، استعادت مصر استقلالها.

بعد أسارهدون، انصب النشاط العسكري لملوك آشوريا مبدئيا على توطيد نفوذهم

في البلدان المحتلة والخاضعة لدفع الضرائب. إذ كانوا مكرهين على إرسال التعزيزات لكبح التمردات العديدة وزيادة الأتاوات، مع الاحتفاظ بأفواج غفيرة في آشوريا ذاتها، بسبب الخليان المتسع أبدا في داخل البلاد.

### النظام السياسي في الدولة العسكرية الآشورية

كانت آشوريا في قمة الاستبداد الشرقي، لكن تنظيمها يقدم بعض الخصائص. كان الملك يستند أولا على الجيش والاستقرابية العسكرية. ولدى قدومه، قدم نفسه أولا إلى القوات وانتظر تأييدها. وكان ملوك آشوريا يعززون نفوذهم بإعلان الألوهية أو قداسة السلطة الملكية. لكن هذا كان يضعهم في علاقة متينة مع كهنة آشوريا، بابل والبلدان الأخرى المحتلة. وفرض عليهم أوسع الاهتمام بالمعابد، في آشوريا كما في بابل، وإعفاءها من الضرائب، من السخرة وحتى من القضاء الملكي. وأوسع الامتيازات أعطيت للمعابد والكهنوت في آشور وبابل.

تتلاءم إدارة مناطق الدولة مع شروط تجعل هذه المناطق متكاملة. وفي آشوريا بخاصة، كانت الإدارة تتبع تقاليد الحكومة الملكية في بلدان ميزوبوتاميا. وكانت الأراضي المحتلة تعيش في ظل أنظمة متباينة. والبقاع الكوريت، وهي الأقرب إلى آشوريا، كان لها حكامها. وكانت بابل تخضع أيضا لمشرفين يختارهم الملك من أهله وذويه، لكنها حافظت على شريعتها وعدالتها. وكانت مدن بابل، سيبار ونيبور تتمتع بوضع خاص فيما يتعلق بالضرائب. إنما تخضع البقاع البلدان المحتلة فيما وراء ميزوبوتاميا لمعاملة أخرى. ففي مملكة إسرائيل القديمة، مثلا، وفي بعض أقاليم سوريا أبيد السكان أونفوا، وحل محلهم معمرن آشوريون؛ وكانت الإدارة في يد حكام ملكيين. وفي مكان آخر، بخاصة في صور، صيدا، يهودا وفي بعض البقاع السورية، ترك الملوك الصغار والأمراء، الذين التزموا بدفع الضريبة، بتقديم الجنود وبالخضوع لكل الأوامر السلطانية.

كانت آشوريا ومناطق الإمبراطورية كافة مرتبطة أبدا بالبريد. ولتأمين هذه المواصلات والتنقلات العسكرية، شق الملوك طرقا مزودة بمحطات تفصل بينها مسافة منتظمة وكانوا يحاولون أيضا، لكن عبثا، مراقبة إدارة حكامهم. وكانت مستشارية القصر تتلقى شكاوى الظلم والعسف وسرقات نواب-الملك. لكن هذه الشكاوى نادرا ما حققت العدالة، وكانت السلطات المحلية، والحكام وأتباعهم، يعيشون على هواهم. وكانت المحصلة

هي المصدر الرئيس لدخول الموظفين الآشوريين من أكبرهم حتى أصغرهم. وكانت الشريحة العليا المدنية والعسكرية والمعابد تتلقى من الملك، أملاكا مع كل الاحتياجات والعبيد وإعفاءات من السخرة ومن الضرائب. وقد تضاعفت هذه العطاءات بخاصة مع مجيء آشور بانيبال.

### الاقتصاد والمجتمع الآشوري في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد

في هذه الحقبة الزمنية، عرفت الحياة الاقتصادية في آشوريا تبدلات ضخمة، ناجمة ليس من نمو القوى المنتجة، إنما من الكميات الكبيرة من أسلاب الحرب والضرائب الثقيلة التي تدفعها رعايا البلاد المحتلة. الأمر الذي أدى إلى حدة تطور التجارة. أغنت الغنائم قادة الجيش، الكهنة، كبار الموظفين والجنود؛ كانت الضريبة، قبل أن تصل إلى خزينة الملك، تمر أيضا على أيدي العسكريين والموظفين الشرهة. وكان الجنود والمنفعون الآخرون يكسبون كثيرا من الحاجات الكمالية ويبيعونها في السوق. ويتشكل سوق مشابه في نينيف، التي صارت المركز الدائم الملكي منذ القرن الثامن. في ذلك الزمن كان يوجد هنا ("من" التجار أكثر مما يوجد من النجوم في السماء). وفتحوا أيضا سوقا لتجارة العبيد الذين كانوا أسرى حرب. كانت هذه الانطلاقة التجارية، الناجمة عن الانتصارات العسكرية، مؤقتة؛ وبدأ الانحطاط منذ توقفت الحملات المظفرة.

عدا التجار، كان يوجد شريحة استعبادية غنية ومتنفذة، مكونة من كهنة، من مداهنين ومن موظفين محليين. وأصحاب الدور الأبرز هم الكهنة الذين يتلقون من الملك الأراضي الشاسعة، في آشوريا وفي البلدان الخاضعة. وكانت ملكية السادة العقارية تتضخم أيضا، وبخاصة عن طريق الهبات التي يمنحهم إياها السلطان مكافأة لخدماتهم. وتترافق أعمال المنح غالبا بوثائق تعفو الحق من الضريبة والسيد من الخدمة العسكرية وأعمال البناء. وكما الأمر في أيام آشوريا الوسطى، كانت هذه الشريحة تستغل ليس العبيد فقط، إنما الحراث المستخدمين أيضا والسكان المنفيين من البلاد الملحقة. تمتاز آشوريا القرن الثامن بزيادة سريعة لعدد العبيد. فعشرات آلاف الأسرى الذين يسوقهم الملوك المنتصرون كانوا يسقطون في جحيم العبودية. أغلبهم يعمل لدى الملك والمعابد. ففي قصر سرغون على الأقل ٣-٤ آلاف عبد.

آلاف العبيد يخدمون في الجيش، يشقون الطرق ويمهدونها، يحفرون القنوات، يبنون

صروح نينيف العملاقة، إنها العاصمة الجديدة. وكثير من هذه الصروح يخص المعابد؛ وبعض الأفراد الأعيان أيضا يحظون بالدور الفخمة. يباع العبيد جماعات من ١٠-٢٠، وبعمامة، تباع الأسرة كلها. ومنتوج عملهم يتسع بشكل ملفت. بهذا الصدد، يندو العبد الآشوري لتلك الحقبة من النموذج الإغريقي-الروماني. كان اتساع الاستعباد موقتا ليلغى بسقوط الامبراطورية. لكن العبودية فعلت فعلها في هذه الكارثة.

أثارت الظواهر الواردة أعلاه انحطاط النظام المشاعي. تنقلص المشاعات، تفقد استقلالها، تسقط تحت وزر الوكلاء الذين يسميهم الملك أو الحكام، ويبادل أعضاؤها بالضريبة غير المؤداة وعدم تنفيذ السخرة. مع ذلك استمرت وشائجهم في المشاعة بشكل رئيس للإفادة المشتركة من المياه.

كان العدد الإجمالي لأعضاء المشاعات الأحرار أقل بوضوح من عدد الحرائين المستخدمين والعبيد من مختلف الشرائح.

### سقوط آشوريا

كان فتح مصر آخر نصر عسكري يحققه الآشوريون بقيادة أسارحدون. وفي أيام ابنه أصور بنبال (منتصف القرن السابع)، تصدع نفوذ الدولة بسرعة ثم انهارت كلها، وقد ألغمتها الأزمة الداخلية وانتفاضات الشعوب الملحقة.

إن اتساع العبودية لم يقلل من إثارة الصراع الطبقي. فعدم توفر إعلام مباشر عن عصيانات العبيد، لايلغى اطلاعنا على انتشار عادة تقييد العبيد المتمردين بالحديد. وكانت الشعوب الملحقة وأعضاء المشاعات الأصليون يتمردون أيضاً. وفي أيام أصور بنيبال، قادت عبدة انتفاضة أرامية. وليس من شك أن الفلاحين الآشوريين، الذين دمرهم التجنيد، والعمل الشاق والأتاوات، كانوا ينتفضون، هم أيضاً. وفي الوقت ذاته، ضعف السند العسكري للعاهل.. فتوقف الحملات العسكرية أوقف فيض الأسلاب، وتمردات الشعوب الملحقة المستمرة هددت زيادة الضرائب. فنضب باب الإنفاق على المتطوعين؛ ولم تعد القوات المؤلفة من آشوريين موثوقة.

في هذه الظروف، كان أول نزاع خارجي يمكن أن يكون نذير انهيار. أتت هذه الساعة في نهاية القرن السابع قبل الميلاد. آنئذ، تأسست في إيران مملكة الميديين، على حدود الآشوريين. عقد ملك ميديا سياخار Cyaxare مع الأمير الكلديني نبوبولسار



الذي كان قد احتل بابل. واحتلت قواهما المتحالفة نينيف في العام ٦١٢ وأبادت فلول الجيش الآشوري في العام ٦٠٥ في كركمش. وانتقلت آشوريا إلى سلطة ملك الميديين، بينما تأسست أسرة نبوبولسار الكلداني في بابل.

### الحضارة الآشورية

إن نواة الشعب الآشوري كونه من أصل أكادي، كانت كتابة، دين وأدب آشوريا تكرارا أو اشتقاقا خفيفا من العناصر البابلية. والسمات الأصلية لا تظهر إلا في الفنون التشكيلية، في أوج ازدهار الامبراطورية.

الآلهة هم أنفسهم آلهة بابل. لكن السمة النوعية لمجمع الارباب الآشوري هو تفوق الإله السابق لقبيلة آشور. كانت مهامه الأولية كأب وحامي القبيلة زراعية، ومن ثم يصير إله الحرب والنصر. وفي أثناء الحملة تحمل رايات لمثاله أو رسمه؛ أثنى نصيب من الغنائم تذهب إلى معابده. وكان الموظفون العسكريون أيضا ينسبون لعشتار، ربة الخصب، التي كانت عبادتها قديمة جدا وشعبية.

ويقوم الكهنة الآشوريون الطقوس المعروفة في بابل. آشور بانبيال يجمع في قصره بنينيف كل الأعمال الأدبية البابلية. منها قصيدة "المجد لله في العلى...، الأناشيد والنصوص السحرية البابلية. في العبادة، لاشيء خاص بالآشوريين إلا استئزال المطر وأناشيد آشور. كان فرع أدبي خاص، الحوليات الملكية وتطور جدا في آشوريا. والملوك المنتصرون يصرون على تأييد ذكرى انتصاراتهم بنقوش صخرية حيث دارت المعارك وتمت الغزوات، ويصفون مآثرهم على جدران وأبواب القصور وعلى الآثار التذكارية.

إن هذه النصوص المكتوبة بأسلوب فخم تمجيدي، بصيغ وعبارات مقدسة، هي بالنسبة لنا المصدر الرئيس لتاريخ الدولة العسكري الآشوري.

لقد بدأ ملوك القرنين التاسع والثامن بناء القصور المنيفة، التي عثر على أطلالها في أثناء الحفريات. إنها قصور كالاح ونينيف، وسرعون في دورشاروكين، إلى شمال نينيف بـ ٢٥ كم. لا يوجد منها اليوم سوى الخرائب التي تعطي مع ذلك فكرة عن عظمتها وروعته. والأعمال الفنية التي تزينها باقية أيضا. أبدعها تماثيل الملوك والثيران الضخمة المجنحة، عفاريت حراس الأبواب.

كشفوا أيضا منحوتات تمثل حياة السلاطين في زمن الحرب والسلام، مع حدائقهم

وغدرانهم، ونسائهم، وأقربائهم وعبيدهم. تشكل هذه النقوش والمنحوتات عنصرا أصيلا في الفن الآشوري. فالحيوانات هنا توضح بها الحياة.

### مملكة أورارتو

كانت القبائل الأورارتية تعيش في الطرف الشرقي من آسيا الصغرى، في منطقة بحيرة فان Van المالحة. طبيعة أورارتو شديدة التنوع. الهضبة العليا لأرمينيا مفصولة عن آسيا الوسطى بالفراة؛ في الشرق تمتد سلسلة جبال زاغروس، وفي الغرب التورس الأرمني. الأرض الخصبة والقابلة للزراعة غير متوفرة إلا في الوديان والسهول. كانت الجبال غنية بالحديد، النحاس وحجارة البناء؛ وغابات ومراع جبلية تغطي منحدراتها. إنها شروط ملائمة بخاصة لتربية المواشي والطيور والصناعة. ولقد بلغوا في هذا المضمار شأوا بعيدا من الارتقاء، بخاصة صناعة الأدوات البرونزية والحديد. والزراعة، التي تحتم الري الاصطناعي، لم تتطور إلا بمقدار ما يهيء الأورارتيون شبكتهم المعقدة. ذكرت قبائل أورارتو لأول مرة في نقوشات ملك آشوريا سلمانصر الأول، حوالي بداية القرن الثالث عشر قبل الميلاد: ثمة قضية اتحاد قبلي مسمى أورارتو ومكون من ثماني "بلدان" صغيرة. احتلها سلماناصر، دمر وأحرق محالها، أخذ الأسرى وحولهم إلى عبيد. وفرض على من بقي من الناس دفع ضريبة ثقيلة. وفي القرن الثاني عشر، اختفى ذكر أورارتو من المنقوشات، التي تتحدث مع ذلك عن عدة غزوات في بلدان نيري Nairi، واقعة حول بحيرة فان. كانت القبائل الملحقة تنتفض باستمرار، ويرد ملوك آشوريا بالنار والحديد.

في بداية الألف الأولى قبل الميلاد، نشأت عدة دول -هويوشيكيا، موماسير وغيرها- في منطقة بحيرة فان. إحداها أورارتو، عاصمتها توروشبا واقعة على ضفاف البحيرة. تكال نضال هذه الدولة ضد آشوريا في القرن التاسع بتشكيل مملكة للأورارتيين وحدهم. والاتحاد، البياديء بشاردورس الأول، ملك توروشبا، أول من سمي "ملك الجماهير *roi des multitudes*" متلقيا الضريبة من "كل الملوك"، انتهى بحفيده مينوا، الذي خلف لنا ١٠١ نقشا مسماريا ٣١٠ منها تحكي عن بناء قلاع على تخوم توروشبا وفي الشمال، وكذلك القصور والمعابد و١٩ تخصص حفر القنوات.

بسط ملوك أورارتو شيئا فشيئا حدودهم نحو الشرق والجنوب. وتغلغل الأورارتيون

في شرق القفقاس، في مناطق المجاري العليا لكورا وأراكس. وأقاموا حكاما يديرون البلاد المغزوة ويجنون منها الأتاوات.

بدأت أعمال ضخمة في المملكة. وبنيت حصون؛ وقد صار حصن أرجشكنيلي على جرف نهر أراكس، في أرمينيا الحالية، المبني في ملك أرجشتي، خليفة مينوا، صار المركز العسكري والإداري لملوك أورارتو في شرق القفقاس وميدانهم لفتوحات جديدة. كانت المدينة ذات أسوار منيعة من البازلت، مائزال بقاياها بادية حتى اليوم.

بلغت أورارتو مجدها الأعظم في النصف الأول من القرن الثامن قبل الميلاد، في ملك أرجشتي الأول (٧٨١-٧٦٠) وشارودوش الثاني (٧٦٠-٧٣٠). شن أرجشتي عدة حملات إلى الشرق، هزم آشوريا، وطد نفوذه في شرق القفقاس، في منطقة بحيرة سيفان *Se'van*. تطلعنا منحوتة ضخمة اسمها حوليات كحوركهور *Khorkhor*، على ضخرة فان *Van*، على كل حملاته. كان في أورارتو آنذ عدد غفير من الأسرى الذين ألوا إلى العبودية.

#### اقتصاد ومجتمع أورارتو

إن الوثائق التي وصلتنا عن مجتمع أورارتو هي حوليات حرب أو منقوشات تتحدث عن الأعمال. والنصوص التي تميز النظام الداخلي لاتحوي أبدا معلومات حول العلاقات الاجتماعية والاقتصادية.

كما نعلم، كان مجتمع أورارتو عبوديا، على رأس الدولة الملك الذي يستند إلى نبلاء الدم. والأرستقراطية العسكرية، المغتنية بالحرب ومالكة أوسع الأملاك، كانت قوية جدا. وعلى أرض الملك، والمعابد والنبلاء، تحرث المروج وتغرس الكروم. ولسقايتها أقيم عدد كبير من البحيرات الاصطناعية وشبكة ضخمة من القنوات توفر الماء للحقول، للقرى وإلى حصون الجبل. كان تشييد هذه المنشآت ضرورة فرضها إقليم أورارتو الذي كان بالغ القحط.

كانت تربية المواشي والطيور متطورة جدا. ظهرت في هضبة أرمينيا منذ العصر الحجري الحديث، ولم تفقد دورها الهام في العصور التالية. كان شيوخ القبائل، ثم الملوك، المعابد والسادة يملكون قطعانا وقطعانا من الأبقار والمواشي الصغيرة ذات القرون والأحصنة. في الصيف، ترعى المواشي في الجبل، يحرسها الرعاة والجنود.

كان اقتصاد الملوك وأعيان الكهنوت والعلمانيين عبوديا. كان العبيد كثر، لأن كل

حملة ملكية تأتي بالآلاف الأسرى؛ هكذا، في أثناء حروب شرق القفقاس، أسر أرجشتي أكثر من ١٨٠٠٠ إنسان. كان شغل العبيد يقتصر في الأرجح على حراثة المراعي وغرس الكروم وحراسة القطعان. وكانوا يكلفونهم أيضا ببناء الحصون وحفر القنوات أحيانا. كانت رعايا الملك الريفية تعيش، حسب الأقاليم، من الزراعة وتربية الأنعام؛ وكانت قطعاً ملتزمة بالأتاوات والسخرة المعتادة في بلدان الشرق. المؤسف أن النقوش الأورارتية المكتشفة حتى الآن لا تعطي أية معلومة حول هذا الموضوع.

لم يكن ثمة أية مدينة بمعنى الكلمة الواسع، تكون مراكز تجارة وصناعة. وكانت المهن الريفية متطورة في الضواحي الواسعة. ورشات ضخمة تخدم الملك والمعابد. وإنتاجهم، وخاصة الآيات الفنية، تنتشر على طريق التجار، ليس فقط في أورارتو، بل في الخارج.

لقد عرفنا المواطن الأورارتية بفضل التتقيبات التي قام بها ب. بتروفسكي ليس بعيداً عن إيريفان، على هضبة كرمير-بلور حيث دفنت قلعة تشبايني. كانت مؤلفة من حصن يضم قصر الحاكم ومتطلباته العديدة، من الورشات والمخازن، وسواها. يحيطها جمع من المساكن الصغيرة لا يملك سكانها ماشية ولا استثماراً زراعية: هم على الأرجح جنود أو صناعيون يتلقون معاشهم اليومي من أهراء الدولة.

### سقوط أورارتو

لما كان سقوط آشوريا يتسع في أيام ملك تغلاش-فلاसार الثالث، في القرن الثامن قبل الميلاد، كانت أركان أورارتو ترتج بعنف. لكن الحروب الطويلة ضد آشوريا، انتهت في ٧٤٣ بهزيمة قوات شاردورس الثاني الذي اضطر أن يطوي رايته ويتراجع على أبواب نهر الفرات. وبعد موته، عمت الاضطرابات وانفصلت بعض المناطق الملحقة عن أورارتو. لكن الضربة القاصمة أتت في العام ٧١٤ من ملك آشوريا سرغون، الذي سحق الجيش الأورارتي. وتجدد أورارتو قواتها في بداية القرن السابع، عندما نجح الملك روزاس في عقد تحالف مع السومريين، الآتين من الشمال في القرن الثامن من شرق القفقاس والشرق الأدنى. ويشن الأورارتيون المتحالفون مع السومريين حرباً مظفرة في آسيا الصغرى. ويبدأ روزاس الثاني أيضاً أعمالاً ضخمة؛ ففي أيام ملكه بنيت، خاصة، قلعة تشبايني. وكانت العلاقات مع آشوريا مسالمة: من المعروف أن روزاس الثاني وأشور نبال تبادلوا السفراء.

لم يعط التاريخ معطيات محدودة حول سقوط مملكة أورارتو. معروف فقط أنها تعرضت في بداية القرن السابع لهجوم عاصف من السيث *Seythes*: كشفت تنقيبات تشباني آثار دمارها على يد السيث في بداية القرن السادس. وفي القرن السادس أباد الميديون أورارتو. وبعد زوال مملكة أورارتو، انتقلت السيادة على أرضها لبعض الوقت إلى قبيلة أرمنية، وبالتالي أخذت البلاد كلها اسم أرمنيا. وشكل اختلاط سكان أورارتو الأصليون مع القبائل الآتية فيما بعد، في أثناء قرون، الجنسية الأرمنية. وهكذا في القرن الثاني قبل الميلاد ولدت المملكة الأرمنية.

### الحضارة الأورارتية

إن ثقافة أورارتو أحد روافد الحضارة الآشورية. فمن هذه الأخيرة استقى الأورارتيون الكتابة المسمارية، بعد تبسيطها وإتقانها بعض الشيء. وأعمال الفن التشكيلي التي وصلتنا تشهد على قوة التأثير الآشوري حتى أن علماء الآثار كانوا ينسبون بداية لآشوريا منحوتات أورارتية أصلا. فالمواد البرونزية كانت تتم في الورشات الملكية حسب أسلوب أصيل، لكن الديكور يتم حسب النماذج الآشورية. ويبن أجود نماذج الفن الأورارتي، نذكر من عرش: قدم تحمل صورة إله مجنح، وثيران مجنحة وكان ثمة أيضا قناديل رائعة من البرونز. وكان الصحن مزدانا بصور نساء مجنحة؛ وكشفوا تماثيل للإلهات قاعدات. وتؤكد الأغراض الفخارية المعية تضاهي هذا. وتشهد أطلال القلاع الحجرية على مهارة البناء. والآثار الأروع معماريا هي حصون ضواحي إيريفان، المنتصبة فوق تلال كرمير-بلور وأرين-بيرد، وقلعة تورشبا.

كان على رأس آلهة دين الدولة الإله الأعظم هالديا، وإله الحرب تيشيبا وإله الشمس شيفيني. وتبدأ النقوش الكتابية بعامة بخطاب للإله هالديا، وكان الملوك يقدمون له حسابا عن انتصاراتهم العسكرية. كان هالديا بالتأكيد إله أوراتي الأصل، تعبد له إحدى قبائل المملكة الأولى. وتيشيبا، الذي يشبه اسمه اسم تيشوب، إله الحثيين والكوريت، أقرب جوار أورارتو الغربيين، كان أيضا إله الصواعق والعواصف. وشيفيني هو الإله-الشمس التقليدي. عدا هؤلاء الآلهة الثلاثة الكبار، كان في البانتيون الرسمي قرابة عشرين غيرهم، أقل أهمية، ويعطى المقام الأول بينهم لآلهة شفعاء المشاعات. من المؤكد أن بعض الأساطير قدستهم، لكن العلم لم يعثر على أي منها. أما دين أورارتو الشعبي غير معروف جيدا. ثمة معطيات حول وجود عبادة للحيوانات والأشجار. فعبادة الشجرة المقدسة خاصة بالدين الرسمي: كثيرا مارسوا على الأختام الأورارتية شجرة ما وكان أحد هذه الأختام يمثل احتفالا بالشجرة.

## كالديا أو امبراطورية بابل الجديدة

بعد ثلاثمائة عام من السيطرة الآشورية، استعادت بابل استقلالها في العام ٦٢٦ ق.م، في أيام ملك خالديا نبوبولسر. دامت الإمبراطورية التي أسسها حوالي ٩٠ عاماً، حتى احتلها الفرس في العام ٥٣٨.

القبائل الكالدية، وأصلها من الجزيرة العربية، تبدأ بالتغلغل في بابل في القرن ١٢ وتستقر في مشاعات عشيرية، يتحول بعضها إلى مشاعات جوار. لم ينجز هذا التطور في أثناء تأسيس الامبراطورية الكالدية، لأن وثائق زمن ملوك آشوريا أساحدون وأشور بنبال تثبت وجود هذين النوعين من المشاعات. وكان ممثلو النبلاء القبليون مؤتمنين في القصر وفي جيش الملوك الكالديين. ويلاحظ أيضاً في بابل، طيلة هذه الحقبة اختلاط بين عناصر مقيمة وأخرى راحلة، وهي سلالات القبائل المؤسسة على العشير.

كان الملوك يستندون إلى مشاعات الكالديين التي كانت لهم احتياطاً لقوات مسلحة وتشكل جمهرة المكلفين. وفي الوقت ذاته، كانوا يبحثون عن مساندة كهنة بابل الذين يتمتعون بنفوذ كبير بين سكان مدينة بابل. وقد وجدت سلاطين كالديا، غير الراضيين عن تجديد وتزيين المعابد التي كانت موجودة لدى قدامهم، جددوا عبادة كثير من الآلهة المنسيين. وساندتهم الكهنة، لأنهم مثل المرابين العلمانيين، كانوا واسعي الثروة فسي أيام الدولة العسكرية الآشورية، وكانوا يأملون، منذ سقوط آشوريا، أن يروا عودة دولة مماثلة في ظل الملوك الكالديين. كان "بيت" اجيبي آنذ، في طليعة ممثلي رأس المال المرابي؛ ولا بد من الاعتقاد أن "بيتاً كبيراً" آخر قد أسس آنذ للربى، هو بيت موراشو، في نيبور، الذي أرخت وراثته المحفوظة حتى أيامنا في زمن لاحق. كان يدير العمليات المالية "لبيت" رب الأسرة. وكما في الماضي، كانت العقود تهتم أولاً بالقمح. لكن المرابين كانوا يحوزون أيضاً أراض، حقولاً ومراعي مؤجرة للزراعة. وكانت أصابعهم الجشعة تعري أعضاء المشاعات وكذلك كان يفعل الجند. وكانوا يستخدمون كثيراً كمصدر للربح القنوات الملكية التي يستأجروها ويحملون تبعة تمتعهم بها في المحال المجاورة.

إن خصيصة العبودية في بابل، في العهد الكالدي، بقيت تقريباً كما هي في القرنين الثالث والثاني؛ كانت العبودية أساساً خدمية والاستعباد بسبب الديون كان عارضاً، والفرق الوحيد هو في أن مدتها الشرعية لثلاث سنوات لم تكن تحترم دوماً وتستمر عقوبة المدينين

المعسرين حتى عشر سنوات في خدمة دائنيهم. ولاتلحظ التبدلات إلا فيما يخص عدد العبيد وطريقة استغلالهم. فقد وسعت حروب الفتوح التي شنّها الملوك الكالديون عدد العبيد كثيراً وبسرعة كما الأمر في آشوريا. كان العبيد، هنا أيضاً، يعملون في الأملاك الملكية، في تشييد القصور والمعابد. وفي الاقتصاد الفردي، وجد مبدأ جديد: سمح للسادة بتشغيل العبيد لمصلحتهم الخاصة (بعمالة في الصناعة والزراعة)، بشرط أن يدفعوا لهم كل سنة تعويضاً سمي "mandattou". إليكم إجراءات العمل في الصناعة: يعلّم المربي عبده مهنة ما ويعينه في فتح ورشة، على أن يصرف له سنوياً "تعويضاً" نقدياً. وهكذا قد يفتني العبيد العائشون من هذا الأسلوب ويصيرون أحياناً مربين بدورهم ويحوزون إمكانية التحرر. يدعي مستشرقون بورجوازيون أن بابل حوت آنذاك "مشاريع صناعية" ضخمة كانت تستخدم عبيداً. لكن هذا حديث تحكيمي، لأن الوثائق لا تتحدث إلا عن المواد الأولية التي توزعها المعابد والمرابون على النساجين العاملين في بيتهم.

كان نضال العبيد يشتد بنسبة ازدياد عددهم. وتكاثر الهرب "يطلب مالكو العبيد من البائعين ضماناً ضد تمرد وعدم طاعة" الذين اشتروهم.

أعظم ملك في الأسرة الكالدية هو خليفة نبوبولسر، نبختنصر الثاني (٦٠٤-٥٦٢). استعاد حروب الغزو، احتل سوريا، فلسطين وفينيقيّا؛ لكن حملته إلى مصر فشلت. وبالأسلاب، الضرائب ومئات الأسرى تمكن من تجديد مركز بابل، الذي تضرر كثيراً في أيام سنحريب. فضلاً عن هذا، بني في الضاحية الشمالية قصر استراحة شامخاً. كان الشريان الرئيس للمدينة، المسمى "الطريق المقدس للانبثاق"، الذي يصل القصر بالمعابد، كان مزدياناً بجدار مبني من الآجر ونحت عليه أسد، وثور وحيوانات أخرى ورموز مقدسة. عاشت بابل بعد أفول الامبراطورية الكالدية، وانتشرت شهرتها كأعظم مدن العالم أبعد بكثير من شهرة ميزوبوتاميا.

كانت نهاية الامبراطورية الكالدية بعيد موت نبختنصر. وتشكلت مكانها امبراطورية قوية، هي إمبراطورية الفرس، في إيران في منتصف القرن الرابع. أخضع ملكها سبيروس Cyrus ميديا وآشوريا التي كان قد غزاها. ثم مشى إلى بابل. جابهه ملك بابل، نبونيد، بجيشه، لكنه دحر وانهزم. وبعد أن صارت ملكاً فارسياً (٥٣٨) فقدت بابل استقلالها إلى الأبد.

## الفصل السابع عشر

# إيران

### البلاد والسكان

تقع الأرض التي بنيت عليها أول دولة من القبائل الإيرانية في شرق ما بين النهرين-ميزوبوتاميا. وهضبة إيران الواسعة التي تشغل منها القسم الأكبر، تحدها من الغرب سلسلة جبال زاغروس، وشمالا البحر الكاسبيني *Caspienne*، وجنوبا الخليج العربي، وشرقا، تمتد حتى الهند. والجبال التي تحيط الهضبة من كل جهة، بأنهارها المندفعة، ووديانها الجميلة وغاباتها الغنية الوفرة، توفر أراض صالحة للزراعة و تربية المواشي والطيور، الأمر الذي حدد العبور المبكر إلى عالم حياة الاستقرار. لكن التقدم إلى عمق الهضبة، يبدل الشروط فجأة، تختفي مجاري المياه والبحيرات، ويصير المناخ قاريا. في فصل الشتاء الطقس بارد جدا، وفصل الصيف قاتظ، الأمطار نادرة، التربة جدداء تقريبا، والقدرة الإنبائية بائسة.

إيران غنية بالمعادن النافعة. في مناطقها الجبلية، يستخرج النحاس، الحديد، الرصاص، الذهب، الفضة، الرخام الأبيض والملون، الحجارة الدقيقة، بخاصة اللازورد. الغابات التي تغطي الجبال غنية بالصنوبر، بالسنديان والهور، أي المواد التي توفر خير خشب للبناء. كانت سفوح زاغروس مغروسة بالأشجار المثمرة: تفاح، إجاص، سفرجل، الكرز، الدراق، وغيرها. وعلى الأرض المروية، تنجح زراعة الحبوب: شعير، قمح، والذرة البيضاء.

لقد أخذت تربية الدواجن بعدا كبيرا. وفي البقاع الغربية، كان التدجين مستقرا؛ وفي الشرق راحلا. تربي القبائل حيوانات ضخمة وصغيرة ذات قرون، وخيولا وجمالاً. والغابات والسهوب الغنية بالطرائد خولت السكان الأصليين الاهتمام بالقنص. في الأزمنة الغابرة، كانت هذه الأرض أهلة بقبائل من أصول مختلفة، تفكك نظامها



المشاعي البدائي. وكانت القبائل الشرقية تعيش من التدجين؛ وساكنو الشمال-الشرقي والغرب يحرقون الأرض. لم تكن الزراعة ممكنة إلا في حال تأمين نظام ري معقد. وكانت القبائل الرعوية الراحلة تهاجم غالبا الحرائث المقيمين. وبفعل حضارات الشرق الأدنى، تطورت القبائل الغربية تطورا مدهشا.

تدل التنقيبات التي جرت في جنوب شرق الهضبة الإيرانية في المدينة العيلامية سوز *Suse* وبرزبوليس (مدينة الفرس)، على تطور الحضارة المحلية منذ العصر الحجري الحديث. واستنادا إلى نصوص سومرية. تقول إن دولة عبودية تشكلت منذ الألف الثالثة قبل الميلاد في عيلام، في وديان قارون وقرقاج. وفي نهاية الألف الثالثة غزى العيلاميون مابين النهرين السفلى وأخضعوا شعبها. وليس سوى الملك البابلي حمورابي، موحد ما بين النهرين، تمكن من طردهم.

لقد عجل نمو القوى المنتجة -تقدم الزراعة، توسع صناعة النحاس والبرونز، انطلاق السيراميك والمهن الأخرى- عجل في الألفين الثالث والثاني التمايز الاجتماعي وأفرز أشكالا بدائية من العبودية، الأمر الذي نشط تفتح الحضارة. وفي الألف الثالثة، تظهر الكتابة السطرية، المشتقة من التصويرية. وتشهد آثار من الحضارة العيلامية أن الكتابة قد خضعت إلى نفوذ قوي سومري وأكادي.

. انتهازا للضعف البابلي، يحاول العيلاميون في نهاية الألف الثانية وبداية الألف الأولى، إلحاق ميزوبوتاميا مجددا.

في القرنين الثامن والسابع، ق.م خاض الآشوريون ضد الإبرانيين صراعا مريرا؛ ولم تنهزم عيلام إلا في العام ٦٤٥، على يد آشوربنبال. لكن حتى بعد هذه الهزيمة، استمر شعبها يلعب دورا هاما في امبراطورية الفرس، كما تشهد حفريات حديثة لقصر ملكي في ببرزبوليس، حيث عثروا على عدة ألوف من الرقم العيلامية.

في آسيا الوسطى، على أرض خوارزم، سوجديان، باكريان ومرجيان (إقليم بينسير-داريا ومورغاب)، كان يعيش في الألفين الرابعة والثالثة قناصون وصيادون شبه-رحل، في مشاعات عشيرية. وقد كشفت تنقيبات الآثاريين السوفيات أن زراعة الأرض بالمنكاش، والتدجين وربما بداية التعدين يعود هنا إلى بداية الألف الثانية قبل الميلاد وأن حضارة هذه القبائل تمت إلى حضارة بعض قبائل كرخستان وسيبيريا وهضبة إيران.

في الألف الثانية، تعرضت هذه البلاد لتغلغل جماعات تتحدث بلغات إيرانية امتزجت على الأرجح بالرعايا الأصليين.

في بداية الألف الأولى، ولد نمو القوى المنتجة (ظهور تعدين الحديد، إدارة مناهج واسعة في الري، وإتقان السيراميك)، ولد الفرق الاجتماعي، العبودية وتشكل دول العبودية البدائية في خوارزم وبكتريان.

في نهاية الألف الثانية، تغلغت قبائل تتحدث بلغات هندو-إيرانية في إيران (ربما أتت من آسيا الوسطى). ألحقت السكان الأصليين وفرضت عليهم ضريبة، وهي تمتزج بهم. كان هؤلاء القادمون الجدد يمارسون أساسا تربية الدواجن.

"أفستا Avesta"، الكتاب المقدس للإيرانيين القدماء، يعطينا فكرة عن نظامهم الاجتماعي. كان العشير الامومي أنثذ يتفكك، وكانت تتشكل أسرة تحث سيطرة الأب. والمشاعات المبنية على العشير تجمعت في قبائل، كونت بدورها اتحادات يرأسها شيخ منتخب. وفي هذه الحقبة يتميز انقسام المجتمع إلى طبقات. ويشغل نبلاء الدم والكهنة، مالكو القطعان الغنيرة، موقعا متميزا: يقود ممثلوهم المشاعات العائلية، العشير، القبائل والاتحادات القبلية. وكانت العبودية قد ظهرت، لكنها طيلة هذه الحقبة لم تكن متطورة ومن طبيعة أبوية.

### مملكة ميديا

بدءا من القرن التاسع، تذكر الحوليات الآشورية غالبا أسماء مجموعتين من القبائل الإيرانية: الميديون والفرس. كان الأولون يسكنون شمال غرب هضبة إيران، في جنوب الغاسيان. والمعطيات الوجيزة في الوثائق الآشورية وأنباء هيرودوت تمنحنا الافتراض أن الميديين كانوا في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد في وضع تفكك نظام العشير. فكان الفرعان الرئيسان في الاقتصاد هما الزراعة والتدجين، بينما كانت الحرف تبدأ بالتطور. كان الميديون يجيدون العمل بالنحاس، البرونز، الذهب والالكتروم (خليطة من الذهب والفضة). والمنقوشات الكتابية الآشورية تتحدث عن حروب ضد الميديين وأسر العديد من المهنين، وتحويلهم إلى عبيد. وكان الميديون، الشهيرون بتربية الخيول، استخدموا منذ زمن غابر العربة ذات العجلة الدائرية.

تأخذ العبودية عندهم شيئا فشيئا دورا أوسع. وتقدمهم وتطورهم على القبائل الإيرانية

الأخرى، يرجع إلى اتصالهم بآشوريا وعيلام والطريق التجاري الرحب الذي يصل ميزوبوتاميا بالهند عبر زاغروس.

التاريخ السياسي الميدي مكتوب مجدداً إلى حد ما استناداً إلى الأنباء شبه الخرافية التي دونها هيرودوت وإلى النصوص الآشورية. يقص هيرودوت أن دجوسيه *De'joe's* جمع في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد تحت سلطته القبائل الميديّة وأسس مملكة ميديا. هذه الصورة أيدتها جزئياً الحوليات الآشورية التي تذكر شخصاً اسمه دجاو ككو. وفي أثناء القرنين الثامن والسابع، تعرضت ميديا لعدة غزوات على يد الآشوريين ووقعت في قبضتهم إلى هذا الحد أو ذاك. وأمام التصدع الآشوري في نهاية القرن السابع، خاض الميديون معهم عدة حملات. وهكذا في العام ٦٢٥، شن الملك فرأورتس، الذي جمع كل القبائل الميديّة في دولة واحدة، شن على الآشوريين حرباً انتهت بهزيمة وموت فأورتس، بسبب المساعدة التي تلقاها الآشوريون من قبائل السيث التي تدخلت فجأة.

رد ابن فرأورتس، سياخار (٦٢٥-٥٨٥) هجوم السيثيين ونظم جيشه. والميليشيا الميديّة التي تقاتل عشوائياً، صنعت حسب السلاح (قذيفة، سهم، مقلع)، وأخذ كل سلاح حيزه المحدد في المعركة.

حالف سياخار ملك بابل نبختنصر، واعتبر عدوه الأول آشوريا. ومن ٦١٢-٦٠٥، وجهت القوات المتحالفة من الميديين والبابليين إلى آشوريا ضربة قاصمة. وبدمار نينيفيا أنجز انهيار الإمبراطورية الآشورية. ومن ثم احتل سياخار فارس، أورارتو وكبادوس. واصطدم هجوم الميديين اللاحق باتجاه الغرب، في آسيا الصغرى، بمقاومة ضارية من ملوك ليديا *Lydia*، الدولة القوية، الواقعة في غرب نهر حاليس *Halys*. وفي ٢٨ أيار ٥٨٥، توقف القتال بين الميديين والليديين بسبب كسوف الشمس الذي توقعه، كما يقول الإغريقون، الفيلسوف تالس *Thales*. وبعد أن كفت النزاعات، عقد سياخار صلحاً مع ملك ليديا أليأتس. واعتبر نهر حاليس حداً فاصلاً بين المملكتين.

تابع خليفة سياخار، أستياج *Astyage* (٥٨٥-٥٥٠)، سياسة التوسع. لم يستطع أن يحتل آسيا الصغرى، فبعث قواته لغزو ميزوبوتاميا وشمال سوريا. يترافق ملكه مع أوج مملكة الميديين، الذين تمتد أراضيهم الواسعة من أواسط هضبة إيران حتى ضفاف حاليس، إلى سوريا والخليج العربي.

## أمبراطورية الفرس، غزو سيرس وقمبيز

أوقفت قبائل فارس توسع مملكة الميديين. فالحوليات الآشورية، كما أشرنا أعلاه، أشارت إلى الفرس منذ القرن التاسع قبل الميلاد. كانت هذه القبائل تقرب الميديين. وعلى الأرجح بعد سحق عيلام على يد الآشوريين، تقدمت من الشمال في المناطق التي تتاخم الخليج العربي. كان تطورهم أقل مستوى من الميديين. وفي ٥٥٨، اتحد الفرس ضد الميديين بقيادة سيرس الثاني (ذكر قائد القبائل الفارسية سيرس الأول في حوليات آشور نببال). فيكون سيرس مؤسس مملكة جديدة، تسجل ولادتها تحولا في تاريخ الشرق القديم.

وفي ٥٥٣ تمشي قوات سيرس إلى مسديا. يدوم الصراع ثلاث سنوات وينتهي فسي ٥٥٠ بنصر الفرس. ساهمت أرستقراطية جيش أستياج إلى حد بعيد بهذه الهزيمة، لأنها خانت ملكها وحتى سلمته لسيرس. احتل هذا الأخير عاصمة أستياج عقبتان *Ecboutana*، كما تقول حولية نبنيذ، استولوا على "الفضة، الذهب، وكل ثروة عقبتان. وصارت ميديا من الآن جزءاً من أمبراطورية الفرس. ولقد عجل انتصار سيرس باختفاء بقايا النظام المشاعي البدائي لدى القبائل الفارسية. واحتد انقسام المجتمع إلى طبقات. وحرص الغزو العبودية. وكان على رأس الدولة ملك خضعت له كل القبائل الإيرانية.

يجاهد سيرس وأرستقراطيته، المتلهفون للأسلاب والغنائم، لتوسيع حدود الأمبراطورية. ونتيجة الحملات بقيادة سيرس، ألحقت إيران، المتخلفة من وجهة نظر الاقتصاد والمأهولة أساسا بقبائل رعوية، ألحقت دولا أرقى حضارة منها لكنها تصدعت في نهاية القرن السابع وبداية القرن السادس جراء الحروب الخارجية والصراع الاجتماعي. فضلا عن هذا، كانت أوساط التجار والمرابين في بابل، آشوريا، فينيقيا وبلدان أخرى توى مصالحتها في أن لا يكون في الشرق الأدنى سوى امبراطورية واحدة، بحكومة قوية لكبح التمردات الشعبية، وتقوية الاقتصاد وتطوير التجارة الدولية. وكان تجديد وتنظيم جيش الفرس. ويحتل سيرس بسرعة أرمينيا وكبادوس؛ وفي ٥٤٦ اكتسح ليديا واستولى على ثروات لاتحصى من كريزوس *Cre'sus*، مكدة في ساردس *Sardes*، عاصمة هذه المملكة. بعيد هذا، أخضع سيرس كل آسيا الصغرى تقريبا، بما فيها المدن اليونانية في جنوب بحر إيجه. وألزم الكل بدفع الضريبة.

بعد أن حاصر ميزوبوتاميا في الشرق، في الشمال وفي الغرب وطوق كل الدروب

التجارية، تمكن سيرس أن يفكر بإلحاق عدوه الرئيس، بابل الكلدانية. وأنجزت المهمة بدون عقبات كداء. فالأرستقراطية، الكهنة، التجار والمرابون البابليون فتحوا الأبواب أمام الجيش الفارسي؛ كانوا يأملون في توسيع أعمالهم التجارية والمالية في إمبراطورية جديدة أوسع من إمبراطوريتهم. دخل سيرس بابل في العام ٥٣٨، أباد آخر فلول الأسرة المالكة وأعلن نفسه ملكاً على بابل. ونشر بهذه المناسبة بياناً وصلنا نصه المحفوظ حتى اليوم وفيه يعد بالحفاظ على النظام القائم في بابل، واحترام آلهتها، ودعم تطوير المدينة.

كان دور مصر قد أتى، مصر التي قد يخلق فتحها من سيرس سيد الشرق الأدنى كله. لكنه قبل أن يبدأ حملة ضد هذا البلد، مشى نحو الشمال الشرقي لكي يوطد هيمنة فارس السياسية. لكن قبائل الساسيين والماساجيت الذين يعيشون حياة ترحال في سهوب آسيا الوسطى قاوموه ببطولة. وقتل سيرس في إحدى المعارك في العام ٥٢٩.

تلاه ابنه قمبيز. ورغبة في إرضاء شهوات الأرستقراطية الفارسية، التي تلتقي مع رغبات الأوساط التجارية والمرايية في البلدان المغزوة، كَوّن هذا العاهل أهدافاً أوسع جسماً من سلفه: كان يبغى بسط سلطته على القسم الأعظم من حوض البحر المتوسط، حتى قرطاجة. دونت حربه ضد مصر بنصوص إغريقية ومصرية. وفي ٥٢٥، هزم قمبيز، المدعوم بجيش بري قوي، وأسطول وضعه تحت إمرته الفينيقيون، القبارصة والساميون هزم المصريين في بيلوز. وبعد أن احتل البلد وكبح بالحديد كل مقاومة مصرية دفاعاً عن حريتهم، أرسل قمبيز عدة حملات بهدف فتح قرطاجة وأثيوبيا، اللتين كانت ثرواتها خيالية. لكنه فشل هذه المرة. وفي أثناء إحدى هذه المعارك انتفضت مصر ضد السيطرة الفارسية. أباد قمبيز التمرد، وقضى على آخر فراغة الأسرة السادسة والعشرين، بسامتيك الثالث في المنبحة. كانت الإمبراطورية الواسعة الناجمة عن فتوح سيرس وقمبيز غير مستقرة وعارضة، لأن القبائل والشعوب التي تشكل جزءاً منها كانت تعيش في عزلة، دون روابط اقتصادية متينة ولا لغة مشتركة.

### تمرد الـ"مجوس" وفتوح داريوس الأول، ابن حستاسب.

كانت الحروب المستمرة التي تتطلب جهوداً جبارة من كل قوى البلاد، تغضب جماهير إيران ذاتها والمناطق المغزوة. أفاد بعض النبلاء والكهنة، المعادين لمركزه السلطة الملكية من هذا الوضع. وبينما كان قمبيز يقود حملاته باتجاه الجنوب، نشب تمرد قبائل

إيرانية في ميديا؛ امتد التمرد إلى كل البلدان التي احتلها الفرس وربما أدى هذا التمرد وغيره إلى تفكك الامبراطورية. وكان موجهو التمرد هم كهنة ميديين -الـ"مجوس"- وبعض عناصر نبلاء الدم. وعلى رأس الحركة، كان المجوسي غوماتا المدعي بأنه أمير بارديا، أخ قمبيز. لكن قمبيز، وهو يستعد للحرب، قتل هذا الأخ الأصغر خشية أن يحتل العرش في غيابه. كان الهدف الرئيس للتمرد كما يبدو إعادة السلطة إلى الميديين وإضعاف نفوذ الفرس.

وضع قمبيز في الصورة، فمشى إلى ميديا بغية تسوية الحساب مع المتمردين، لكنه مات في الطريق (٥٢٣). وبقيت ظروف موته غامضة.

اضطلع بالمهمة أحد أعضاء الأسرة المالكة الأشميد، داريوس الأول، ابن حيستاسب (٥٢١-٤٨٦). وبعد أن هزم المجوس في ميديا وأعدم برديا المدعي، اضطر لشن هجوم ضارٍ ضد حركات انفصالية ونحرية نشبت في كل أرجاء مورغاب في تركمانيا) ونشب في ٥٢٢ تمرد شرس يبدو أن كل الشعب اشترك فيه. أبيد بأمر من داريوس، بوخشية فريده، لأن طبيعته الوطنية جعلته في نظر الفرس أخطر من العصيانات الانفصالية. دون داريوس هذه الأحداث على صخرة شهيرة في بحستون *Be'histoun*.

باشر داريوس، والبالغ بدم المتمردين الانفصاليين والانتفاضات الشعبية، إصلاحات هامة بغية تطويع أركان الدولة، وسحق في البيضة التوجهات الانفصالية وساهم في تطوير الزراعة، والمهن والتجارة.

### امبراطورية داريوس

قسم العاهل امبراطوريته إلى محافظات سميت سترابيس *Satrapios*، يختلف عددها حسب المناهل (٢٠ وأكثر). والأرض، المعتبرة ملكا للملك، كانت بتصرف المشاعات التي تعمل بها تضم المحافظة منطقة تشكلت عبر التاريخ وسكنتها جماعة عرقية محددة. على رأس المحافظة حاكم، يسميه الملك، بقبض على السلطين التنفيذية والقضائية، لكن كثيرا من المحافظات حافظت عل حاكمها الأصلي -ابن البلد- الذي يدير الشؤون الداخلية جزئيا ويقى مرتبطا بالحاكم. ويمسك داريوس بيديه عادة في المحافظات الأشكال المحلية الإدارية والقضائية، والعبادة، لأن لا يخضب الأهالي بالاعتداء على تقاليدهم. عدا الحاكم، يسمى في كل محافظة قائد حامية يرتبط مباشرة بالسلطات المركزية. كان هذا، من جهة، لتطويع

رقابة الموظفين المكلفين بتقديم تقرير عن زملائهم ومن جهة أخرى، الحذر من أي تدبير انفصالي من قبل الحكام والقادة العسكريين الجشعين. وخلق داريس شبكة واسعة من الجواسيس يراقب عناصرها الحكام والرؤساء.

كانت المحافظات تدفع ضريبة نوعية أو طبيعية أو الاثنين. يبلغ الدخل السنوي الذي يجمعه داريس من المحافظات حوالي ١٤٥٦٠ تالان<sup>١</sup>. تمون مصر فقط بالقمح ١٢٠٠٠٠ محارب فارسي.

ومن أجل تطوير التجارة وتمتين الوشائج بين المحافظات، وكذلك الأهداف الاستراتيجية، شرع ببناء طرق واسعة. كان أهمها "الطريق الملكي من أفيز حتى سوز، الذي يجتاز دجلة والفرات وطوله حوالي ٢٤٠٠ كم. وطريق آخر يصل بابل بالهند. كانت الطرقات موضع عناية وصيانة دائمة. كل ٢٠ كم، أقيمت محطة تبديل وبريد وخانات. ثمة نص منحوت لداريس يتحدث عن فتح قناة تصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر، حفرت بأمر من الملكة المصرية حاتشبسوت. ولقد أنجز داريوس إصلاحا نقديا بهدف استقرار المبادلات وتسوية الحياة الاقتصادية في الامبراطورية الفارسية. صكوا نقدا وحيدا، سموه "داريك *Darique*". يحق للملك وحده أن يصكها. ومن حق الحكام صك القطع الفضية والنحاسية، وأعطى هذا من الحق للولاة أبناء البلد. وتوجهات داريس في المركزات اتضحت تماما في إصلاحه العسكري. فقد حدد شخصا عدد القوات في كل محافظة وفي كل حامية، وكان هو يعين عناصر كل سلاح (رامي مقلع، سهام، خيال وسواه) في الحامية. في الجيوش والحاميات، كان الفرس يشكلون النواة فقط، بينما كانت القاعدة الواسعة من الجند الذين يجندون من ممثلي مختلف القبائل والرعايا. وبعمامة، كان الفرس يتمتعون بامتيازات في كل الامبراطورية. وكانت قبائلهم المهتمة أساسا، عدا الخدمة العسكرية، بالزراعة والتدجين، معفية من الضرائب والسخرة.

ولقد أفضت إصلاحات داريس الأول العسكرية والإدارية ووجود العديد من المراكز الاقتصادية الكبرى، أفضت إلى تطوير التجارة الداخلية، والخارجية العابرة، التي كانت مراكزها مدن الشرق الرئيسية، بخاصة بابل. حيث شكلوا رابطات سرقة الشعب

<sup>١</sup> - وحدة وزن في اليونان القديمة تساوي من ٢٠-٢٧ كغ، أو وزن تالان ذهب أو فضة.

المشروعة. تمول مصارفهم بفوائد بامضة الأوساط القائدة وحتى محافظات الامبراطورية الفارسية كلها. وكان التجار والمرابون، الذين يجنون مكاسب خيالية من استئجار المزارع والتجارة، يدعمون داريوس الأول في مشاريعه العدوانية الضخمة وإصلاحاته الداخلية.

### انحطاط الامبراطورية الفارسية

وهو ينظم الحكم، كان داريوس يتابع توسيع إمبراطوريته. في الغرب، بإفريقيا، ضم سرينيد وبرقة؛ في الشرق، ثبت حدودا على طول الهند؛ في الشمال، غزا عدة أمصار من آسيا الوسطى: خوارزم، سوجديان، بكتريان وغيرها. وصارت محافظة بكتريان مركز الأملاك الشرقية للفرس. كان يحكمها بعامه أحد اقرباء السلطان. تقول أبحاث س.تولستوف أن دولة عبيدية تشكلت بين القرنين الثامن والسادس في خوارزم، في جنوب بحر الأورال و، إلى الجنوب قليلا، مملكة سوجديان، تابعة للكولى؛ ولدت أيضا في بكتريان ومرجيان تشكيلات سياسية. والحاضرات الشاسعة ومنشآت الري الضخمة في خوارزم، التي كشفها المنقبون السوفييات، هي الشواهد الخرساء على العظمة الأقل لهذه الدولة. كان أساس اقتصادها آنذ، الزراعة المروية. ورغم أن الامبراطورية الفارسية كانت في ذروة مجدها، وشملت خوارزم، سوجديان، بكتريان ومرجيان، لم تكن علاقة خوارزم بها إلا إسمية، لأن ملوكها كانوا جزءا من الاتحاد العتيذ بين القبائل الرحل من السيس والمسجيت. كان هذا الاتحاد على رأس القبائل الفارسية التي، لتأكيد نفوذها في آسيا الوسطى، شنوا الحرب على قبائل شواطئ الأورال. شرع سيرس في ٥٢٩ وداريس الأول في ٥١٧ حملات ضد الساس والمسجيت، التي انتهت إجمالا بالفشل، على أن داريوس، في منحوتته في بحستون، يتكلم عن أسر ملك الساس. وفي ٥١٣، أرسل داريوس حملة لشق طريق جديد نحو أمصاره في آسيا الوسطى ويهاجم المسجيت من الغرب. لكن هذا كان فشلا ذريعا. وقد سعت القبائل السيثية وقد حصلت على حريتها إلى تكتيك حرب المقاومة: جذبت كواكب خيالتها الجيش الفارسي إلى سهب غير مسكون، مدمرة كل شيء في طريقها. وقد يئس داريوس من ملاقعة العدو في معركة نظامية والمرض يفتك بقواته، ونقص التموين والصدمات، طوى لجام حصانه إلى آسيا الصغرى. وفيما بعد، نجح بالمقابل، بفتح تراس *Thrace*، مسدوان وجزر في بحر إيجة.

وفي بداية القرن الخامس، يحاول الفرس إخضاع اليونان القارية. لكن دول اليونان



الصغرى واجهت المعتدين بمقاومة ضارية، وكبدتهم خسائر كبيرة وحافظت على استقلالها. وفي ٤٩٠ قبل الميلاد، انزلوا هزيمة منكرة بالفرس الذين أبحروا إلى المراتون. وبعد عشر من السنين، في ٤٨٠، لقي ابن داريوس، خرخش (٤٨٦-٤٦٥)، مصرعه قرب جزيرة سلامين. ولم يعد الفرس دولة لاتقهر. وقواته غير المتجانسة، مهما كانت جرارة، لن تستطيع القضاء على فصائل يونانية صغيرة تحدوها إرادة الدفاع عن أرض الوطن ضد الدخلاء. كانت جيوش سيرس وقمميز قوية بوحدتها، بمصالحها المشتركة. لكن جيوش أحلافهم، المكونة بخاصة من ممثلي الشعوب الخاضعة، لم تكن مبالية بفتوحات الفرس، ولا بتوطيد دولتهم. في أيام حكم أرترخرس (٤٦٥-٤٢٥) وداريس الثاني (٤٢٠-٤٠٥) تفاقمت التناحرات بين الارستقراطية العسكرية والإدارة الفارسية وشعوب الأقاليم الملحقة. فالضرائب الباهظة، والسخرات الثقيلة، وتعسفات مستأجري المزارع العامة ألهبت الغل على الفرس، فضلا عن ضعف الجيش متعدد العناصر. وهكذا فككت مؤامرات القصر، والاضطرابات، وتمرد المحافظات الانفصالي وتعسفات الموظفين، فككت دولة الإشميد. تصدى أرترخرس الثاني (٤٠٤-٣٥٩) لبعض الوقت لموقف الفرس في حوض بحر إيجه بواسطة صلح سمي: أنتسديدس" عقد في ٣٨٧ مع إسبارطة، لكنه اضطر في المناطق الأخرى من الامبراطورية إلى كبح العصيانات والإضرابات. وفي ٤٠٥، في بداية حكمه، تنفصل مصر عن الفرس وتدافع عن استقلالها خلال ٦٥ عاما (حتى العام ٣٤٠). وفي العام ٤٠١، تمرد أخ أرترخرس الثاني، سيرس الابن، حاكم فريجي وكبادوس الكبرى، تمرد ليحتل العرش. لكنه فشل وقتل في معركة كوناخا *Counaxa*.

ويتسارع تفكك الامبراطورية الفارسية. ارتخرخس الثالث (٣٥٩-٣٣٨) يكبح بصعوبة انتفاضة في مصر، في فينيقيا وفي قبرص؛ وفي أيام داريوس الثالث (٣٣٨-٣٣٠)، سقطت امبراطورية الأشمنيد تحت ضربات دولة جديدة عبودية، أسسها المقدونيون. سنبحت بالتفصيل ظروف هذا الانهيار في الفصول الآتية.

### حضارة ودين إيران

كمصادر لدراسة دين شعوب آسيا الوسطى وإيران، لدينا الكتاب المقدس أفسستا *Avesta*، وكتابات هيرودوت وبلوتارك وبعض الكتابات المنقوشة عن أيام أشمنيد. كان الدين الإيراني يعكس عز الإنسان في صراعه مع الطبيعة. وكانت القبائل تعبد الحيوانات

المقدسة، مثلاً، الكلب، والثور. إن هذا النوع من العبادة التي يمارسها الإيرانيون والشعوب الأخرى هي بقايا من الطوطمية. أما الآلهة الرئيسيون، كانت تجسد قوى الطبيعة. وكانت العبادات الأكثر انتشاراً هي الأرض، السماء، الماء، النار، هذه الأخيرة مرتبطة بمتانة عبادة القبائل الإيرانية لأحورامازدا (أرموزد بالإغريقية).

دور هام يعود للنجوم، بخاصة الشمس، يجسدها الإله ميثرا *Mithra*. عبادة ميثرا مرتبطة بالزراعة وتربية الأنعام. وكرمز للقوى المنتجة في الطبيعة، تصوير ميثرا حامياً الموتى وإله الحرب. والدين الإيراني القديم يجهل المعابد. التعبّد -صلوات وأضاحي- كانت في الأمكنة المناسبة.

مؤخراً أولى اهتمام كبير لعبادة الدولة المبنية، حسب الخرافة، بأمر زرتوسرا (بالإغريقية زورواستر، ومنه اسم زورواستريم، المعطى للدين). كثير من العلماء يرون أن زورواستريم ولد في آسيا الوسطى، أو بالأصح في خوارزم. كان ذا طبيعة مزدوجة. تقول نظريته أن أحوارامازدا، إله النور والرزق، في صراع أبدي مع أحرمان، إله الظلمات والشر. الأول يعلم الناس الفضائل والنظام، الزراعة والمهن؛ ويذكر الثاني في كل مكان الشر والاضطرابات والبلبلات. فكل مؤمن ملزم إذن بتوطيد قوانين أحورامازدا، أن يعيش في الرحمة، يطيع الملوك، يمارس بحماس الزراعة والتجدين، فيكافأ بعد نصر أحوارامازدا.

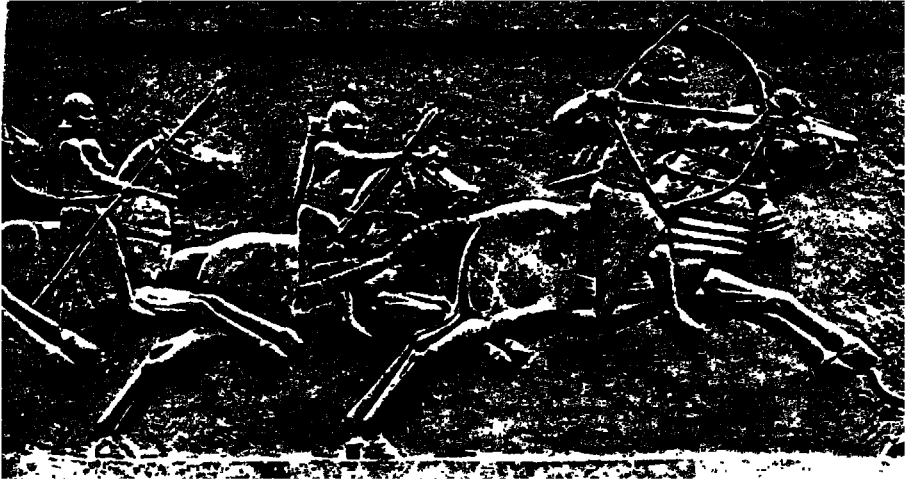
تعبّر هذه الثنائية بوضوح عن المنحى الاجتماعي والسياسي للأغنياء الذين يسعون أبداً إلى تشريع تفوقهم على جماهير الكادحين الفقيرة، بتقديم هذه المقولة كتجسيد لمبدأ "النور" والالتصاق والانسجام". لذا ينص الدين على الخضوع المطلق للسلطة الملكية والعمل المطيع كمصلحة الشرائع المهيمنة.

نستطيع أن نكون فكرة عن الفن الإيراني القديم استناداً إلى الآثار والنقوش والمتنحوتات. فنماذج العمارة الرائعة الواصلة إلينا، مثل أطلال القصر الملكي في سوز والقاعة ذات المائة عمود في قصر برسبوليس، تدل أن هذا الفن، مابقي قوميًا-وطنياً، كان يستلهم أعمال شعوب أرقى، غزاها الفرس. مثلاً فكرة القصر ذي المائة عمود مقتبسة من مصر، وطفن قناطر سوز-من آشوريا، وبناء قصر على أرض منبسطة وتزيينها بالنقوش والزخارف-من آسيا الصغرى. لكنه بمجمله، فن أصيل له شخصيته الخاصة ومحياه

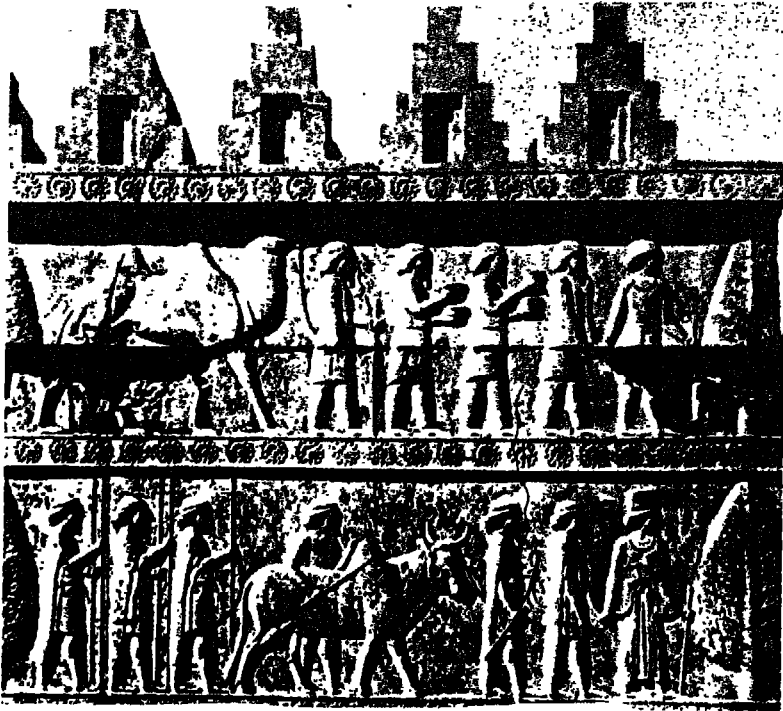
المتميز. ومدونات داريوس الأول-النحتية أو الكتابية تقص أنها بنيت بيد الأسرى الأيونيين، المصريين، البابليين، الليديين وسواهم. وفي صروحهم الشامخة، يعرض طغاة أسر الأشمنيد عظمة وغنى أمبراطوريتهم.

لم نترك لنا مصر القديمة أي أثر أدبي، سوى بعض المدونات المختصرة والوثائق على الرقم الفخارية أو الآجرية، فمن الصعب تصور ماذا كان الادب الإيراني. بل يمكن فقط الافتراض أنه تطور بتأثير النماذج التي أبدعتها شعوب آسيا الصغرى والشرق-الأدنى. فالكتابة المسمارية التي استعملها الأشمنيد على الأرجح منذ سيرس، تصدر من ميزوبوتاميا. وقد استخدمت أيضا بالمدونات الملكية الرسمية. أما أغلب نصوص عهد داريوس، فهي بالأرمنية. والتقويم الإيراني، الذي جدده كله تقريبا الباحثون، يشهد، هو الآخر، على التأثير البابلي.

والقليل المعروف من حضارة الأشمنيد، يثبت الانتقائية. تعلل هذ الطبيعة العسكرية للدولة ذاتها، التي تجني باللصوصية المنجزات الثقافية للشعوب الأخرى. لكن في الوقت ذاته، عملت أمبراطورية فارس على تقريب وتفاهم الحضارات الشرقية وحضارات العهود القديمة الكلاسيكية، التي اغتنت بهذه اللقاءات.



من مشاهد الصيد



جدارية على جدار أحد قصور الإمبراطورية الفارسية



## الفصل الثامن عشر

### الهند

#### البلد والشعب

بعكس مصر وما بين النهرين، تتميز الهند بتنوع وتعقد شروطها الطبيعية. تقع الهند في آسيا الجنوبية. تقسم إلى منطقتين واضحتين: الشمال والجنوب. تشغل الأولى شبه جزيرة ديكان (هندوستان)؛ وتقع الثانية في اليابسة. تنفصل الهند عن البلدان الأخرى بجبال منها هماليا، أعلى سلسلة في العالم، وبالبهار التي تعرقل اتصالها بالشعوب الأخرى.

ولما كان مناخ الهند حاراً، كانت العوامل الرئيسة في حياتها الاقتصادية قضية الماء. الصيف (تموز-أب) الفصل المطير، أمر يساعد الزراعة، لكن التبدلات المناخية غير متساوية أبداً: في الشمال الشرقي وفي الجنوب الهواطل غزيرة جداً، وفي الشمال الغربي ودخل البلاد تقل، وفي كثير من الأمكنة، لا تكفي للأعمال الزراعية، الأمر الذي يفرض الري بالآلة.

إن شبكة الهند النهرية كثيفة؛ لكن أغلب الأنهار تمتاز بصبيب غير منتظم، وبالتهور والاندماج في مجاري ضيقة؛ فقط نهرا الهندوس والغانج (وروافدهما) لهما عبر التاريخ أهمية اقتصادية. ولم تستخدم مجاري المياه الأخرى بالري ولا بالنقل. كانت الحواجز الطبيعية (الجبال والغابات الكثيفة) تحول دون اتصال شعوب الهند فيما بينها، فتتابع تطورها بإيقاع متنوع وبأشكال متباينة جداً. وحتى من الوجهة البدنية، تتفرد شعوب مختلف أقاليم الهند بشدة بعضها عن بعض. والألسنة مختلفة هي الأخرى، أغلبها من عائلتين لغويتين: أندو-أوربية وال دراويدية<sup>١</sup>. يتكلم بلغات المجموعة الأولى شعوب الشمال أساساً،

<sup>١</sup> - نسبة إلى شعوب الدراويد الساكنة شمال الهند.

وينطق بلغات المجموعة الثانية شعوب الجنوب. ويرجع اقتراب لهجة شعوب شمال الهند من شعوب خارج الحدود إلى هجرة شعوب الهند التي تتكلم لغات أندو-أوربية. وشعوب شمال غرب الهند، المسماة بالـ"الآريين" معتبرون عادة دخلاء.

لكن العالم العلمي لم يحدد بعد حقبة دخولهم البلاد، أو أصلهم، ولا طبيعة دخولهم.

### حضارة هارابا Harappa

الهند مأهولة منذ أبعد الأزمان. وهي واحدة من أقدم مواطني الحضارة. فمنذ الألف الثالثة، ازدهرت حضارة عظيمة في شمال-غرب البلاد، في وادي نهر الهندوس. في هذه الحقبة تقريبا، مارس الهنود الزراعة والتدجين وبدأوا العمل بالمعادن. الأمر الذي خولهم استثمار الأرض على أبعد نطاق.

كان الناس يبذرون الحبوب (شعير، قمح)، والزراعات السبخة (البطيخ)، والأشجار المثمرة (البلح)؛ وكان الهنود أول من أنبت القطن. منذ الألف الرابعة أو الخامسة، كان مناخ وادي نهر الهندوس أكثر رطوبة بحيث تستطيع الحبوب النماء في أرض غير مروية. فضلا عن هذا، كانوا يستنبتون طبعاً تربة غرينية تروى في أيام الفيضان. ربما كانت السقاية موجودة، لكن ليس لدينا براهين لا تدحض. وكان تدجين الدواب (الخراف، الجاموس، الدرباني<sup>٢</sup>، الخنزير، وغيرها) يلعب في الاقتصاد دوراً ثميناً.

في نهاية الألف الثالثة وبداية الألف الثانية قبل الميلاد (أي في أيام أوج انطلاقة حضارة الهارابا كما يبدو)، كان الهنود يعرفون صناعة البرونز؛ ومن هذا المعدن صنعوا أدوات عمل (مناجل، بلطات، أزامل، مناشير)، وأسلحة (خناجر، سهام وقذائف)، وأوعية منزلية (سكاكين، صحن، آلات حلاقة، ومرايا). وفروع أخرى صناعية (خيوط نسيج، صناعة القرميد، الفخار، الذهب والمجوهرات، إلخ) بلغت مستوى رفيعاً. وكمية كبيرة من الأوزان، الأختام وأغراض متنوعة مصنوعة من مواد أولية مستوردة، تشهد على علاقات تجارية مع مناطق أخرى من الهند، ومع الأجانب.

ولقد كشفوا أكثر من ٢٠٠٠ خاتم بأحرف هيروغليفية. المؤسف أن هذه الكتابة، رغم الجهود العلمية، لم تحل رموزها بعد.

---

<sup>٢</sup> - حيوان ضرعى ذو سنام من الفصيلة البقرية.

كانت المراكز الرئيسية لحضارة هارابا. كما عثروا على خرائب عشرات المدن التي عاشت وبادت في وادي نهر الهندوس منذ ٤٠٠٠ عام. كانت هارابا أشهر المدن (التي أعطت اسمها لما سمي حضارة) وكذلك موهندجو-دارو. كانت هذه الحضارات العظيمة التي يعد سكانها عشرات الألوف ، كانت تمتد على ضفاف الأنهار وتسود الإقليم المحيط. كانت شوارعها مستقيمة وعمودية على بعضها البعض. وكانت بيوتها ذات الطابق الواحد أو الطابقين مبنية بالقرميد المشوي وتقدم من الخارج منظرا متواضعا ورتيبا، إنما لا تنقصه الراحة: وكان ثمة محلات خاصة بالغسل والوضوء، وتمديدات مياه بسيطة، تشكل جزءا من شبكة المدينة، رائعة بالنسبة لعصرها. وبعيدا عن مركز المدن، أقاموا حصونا تتضمن هياكل التعبد والإدارة، وأهرامات الحبوب، والطواحين وحتى مساكن للعمال.

تمكننا المعطيات التي بين يدينا من افتراض وجود، في وادي نهر الهندوس، منذ الألف الثالثة قبل الميلاد، المجتمع العبودي الذي، من حيث مستوى ثقافته، لم يكن يتخلف في شيء عن مجتمعات ذلك العهد فيما بين النهرين ومصر.

حول منتصف الألف الثانية قبل الميلاد، بدأت هذه الحضارة تتراجع؛ وغادر السكان مدينتي هارابا وموهندجو-دارو. وباختصار، دمرت حضارة هارابا دمرت بأيدي معتدين أندو-أوروبيين، الآريين، الذين دخلوا الهند من الشمال الغربي. لكن البراهمين غير كافية حتى الآن لتأكيد هذا الرأي. على هذا، لم تدمر حضارة هارابا دمارا تاما، وهي ما تزال مرتبطة بقوة بحضارة المحطات التالية.

### الهند في منتصف الألف الثانية حتى منتصف الألف الأولى قبل الميلاد

لدراسة الحقبة الماضية لم يكن لدينا إلا آثار مادية، لكننا نملك الآن مدونات: إنها بخاصة نصوص استلهم ديني (الفيدا) وقصائد ملحمية (ماهابها راتا ورامايانا). إنما لا نلمس أي رابط مباشر بين هذين العهدين التاريخيين. على هذا، تخص معطيات المناهل الأدبية مناطق أخرى: وادي الغانج الأعلى وملتقيات هملايا.

في هذا العصر انتقلت الهند إلى عهد الحديد. باستخدام أدوات من حديد متينة ومريحة، يمكن التوجه بجرأة إلى استصلاح الغابات والأدغال وحرثة التربة الأقسى؛ وفي ذات الوقت، تسهل أعمال الري والتجفيف كثيرا، وأيضا تطور المهن. واستثمر بسعة وادي الغانج، وأراضي الهند الوسطى. وهنا أيضا ولدت مدن وحضارة راقية.



عندما تحدثنا عن عهد هارابا توقعنا افتراضاً فقط وجود مجتمع عبودي. لكننا الآن نقول بثقة أكبر أن ذلك المجتمع وجد فعلاً في تلك الحقبة. فأقدم فيدا، ريح-فيدا، تشير إلى عدد من العبيد. كان هؤلاء قد عرفوا باسم "داسيا" *dasya*، الذي يعني أصلاً "العدو"، "الدخيل"؛ وهذا برهان أن أول العبيد كانوا أسرى حرب. وينضم إليهم بالتالي العبيد الذين كانوا سابقاً رجالاً أحراراً سقطوا في البؤس، وكانوا قد باعوا حريتهم وحرية أبنائهم. وخضع أبناء النساء العبدات إلى نير العبودية.

كان العبيد ملكية مطلقة لساكنيهم. يمكن بيعهم إهداؤهم أو تقديمهم مهراً. ويمكن أن يخدموا في أي عمل. ومضى وقت قبل أن يبدل المجتمع البنية بعد ظهور العبودية، لكن عندما يبدأ هذا التطور، ينقُى مع ذلك بقايا قوية من النظام المشاعي البدائي، خاصة، النظام نفسه يستمر ويتشبث.

وتظهر الدولة عندما ينقسم المجتمع إلى طبقات. وتستلم الأرستقراطية زمام الحكومة القبلية وتستخدمها للحفاظ على طاعة العبيد وأعضاء المشاعات الأكثر فقراً. ويصير شيخ *-radjah-* نوعاً من الملك. لكن هذه الدول العبودية تبقى لمدة طويلة محافظة على أشكالها القبلية القديمة وعناصر ديموقراطية بدائية، خاصة بالنظام المشاعي.

مع تشكل الطبقات، يتجلى الظلم الاجتماعي أكثر فأكثر، وتتكون شريحة هرمية تؤيد هذا النظام. ينقسم الشعب إلى أربع فئات. وتشكل أرستقراطية الدم والقبيلة فئتين -البراهمان والكشترين *les brahmanes & les khatryas*. إلى الفئة الأولى تنسب ذريات الكهنة، وإلى الثانية ينتسب النبلاء العسكريون. والجماهير العريضة لأعضاء المشاعات الأحرار تشكل فئة فيسياس *Vaicyas*. والأجانب الأحرار الذين لا يملكون شيئاً في المشاعة ولا يحق لهم الاشتراك باتخاذ قرارات القبيلة، ولا باحتفالات العبادة، إلخ. يشكلون الفئة الأخيرة: الكودرا *les coudras*. ولما كان هؤلاء الأخيرون "غير مطلعين على الأسرار"، ينظر إليهم كأناس "يولدون مرة واحدة"، بعكس "الولادة مرتين"، أي ولادة الفئة الأعلى (طقس المسارح<sup>٣</sup> يخلد هذه الولادة الثانية). ولما كان الانتساب إلى إحدى الفئات قد حدد بالولادة، فليس لأحد بشكل عام أن ينتقل من فئة إلى أخرى، والتزاوج بين أعضاء فئات متباعدة كلن

<sup>٢</sup> - احتفالات تقام لإيقاف عضو جديد على بعض أسرار الديانات القديمة والجمعيات السرية الحديثة.

عادة ممنوعا. لا تتمتع الفئات بنفس الحقوق أمام القانون؛ والجرائم التي يرتكبها أعضاء الفئات الدنيا عقوبتها أقسى بكثير من عقوبة الفئات العليا لنفس الظروف.

كانت البراهمية دين أول مجتمع هندي عبودي، كانت المعتقدات الدينية في زمن نظام المشاعة البدائي (التي وصلتنا جزئيا عبر الفارسة) تستند إلى عبادة قوى الطبيعة والإحيائية؛ انسجمت هذه العوامل مع حاجات المجتمع الجديد. وصارت الآلهة حماة الملك والنبلاء. واستخدم الكهنة فكرة التقمص لدعم أن انتقال الروح إلى جسد إنسان يتمتع بوضع اجتماعي رفيع إلى هذا الحد أو ذلك يتعلق بسلوك الدفين. كان العامل نفسه إذن مسؤولا عن النير الذي يلحقه وعن الشروط السيئة في حياته. وبنت البراهمية الدولة على التعاليم المقدسة، وسمو شخصية الملك، وأبدية الظلم الاجتماعي (نظام الفئات *varnas*)، إلخ. وشيئا فشيئا ولد طقس معقد، وكان إتمام مختلف مستحقات العبادة يتطلب إعدادا نوعيا.

أمام تقطيع أو تقسيم الدولة وعدد القبائل الكبير لم يكن لدى البراهمية إله أعلى بل عدة هرميات من الآلهة. كان الإله الأعظم سيفا *Civa* تارة، مجسدا قوى الطبيعة (يرتبط هذا الإله أيضا بعبادات قديمة جدا للخصب)، وحينما فيشنو *VichnouK*، حارس كل الموجودات وواحدا من أقدم تشخيصات الشمس. وحاول الكهنوت أيضا أن يضع في رأس البانتيون براهما، خالق العالم، لكن يبدو أن عبادته لم تدم.

### الهند في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد

لقد رسم النصف الأول من الألف الأولى قبل الميلاد بحروب مستمرة بين دول الهند. كما بدد تطور القوى المنتجة وعلاقات العبودية بالتدريج بقايا نظام العشير وصارت الدول ذات طبيعة استبدادية. وفي أواسط الألف الأولى كان في شمال الهند عدد الدول الكبرى المستقلة قليلا نسبيا، وتتابع هذا التقلص، وشيئا فشيئا ابتلعت الكيانات الصغيرة.

انتهى صراع مرير بين الدول الأعتى -كوسالا وماغادا- بظفر الأخيرة. وفي منتصف القرن الرابع قبل الميلاد، امتدت سلطة ملوك ماغادا على كل وادي الغانج وقسم من الهند الوسطى؛ وصارت ماغادا الدولة الرئيسية في الهند.

وفي أواسط الألف الأولى قبل الميلاد، ضاعفت الهند علاقاتها مع البلدان الأخرى. وفي نهاية القرن السادس احتل ملك الفرس دارس الأول قسما من وادي الهندوس. وانضمت محافظة هندية إلى إمبراطورية الأشمنيد.

وراح يزداد زوار الهند الأجانب من البحارة والتجار. وبعد رحلات طويلة في الأقاليم الجبلية، والصحارى التي تلهبها الشمس أو اتساع البحار، بدت البلاد بنظرهم أغنى وأكثر خرافة مما هي . وحدث أن ابتكروا في هذا الموضوع قصصاً ليزيدوا دهشة السامعين. وهكذا بدأوا ، في العام ٢٠٠ ق.م يتصورون الهند كـ"بلد العجائب"، وكان هذا التخيل قوياً بحيث حفظ جزئياً حتى أيامنا.

بهذا التقويم المفرط لثروة الهند التي، إضافة إلى عوامل أخرى، حرضت المقدونيين واليونان على غزوها في العام ٣٢٧ قبل الميلاد، بعد أن حطموا إمبراطورية الفرس. ولم يكن شمال غرب الهند يؤمئذ يمثل أي انسجام سياسي. ونجح إسكندر المقدوني أن يقيم حلفاً مع بعض ملوك الهند المتنازعين مع بعضهم البعض. ودرح بورس، أجد أقوى ملوك البنجاب، الذي رفض الخضوع، دحر في معركة ضارية. وكان الإسكندر ينوي استمرار الزحف نحو الشرق، واحتلال وادي الغانج. لكن أمام مقاومة الهنود الشرسة، رفض الجيش المقدوني، الذي أصنته المعارك، رفض الخضوع لقائده. واضطر الإسكندر أن يقاتل متراجعاً وغادر الهند. بعيد هذا، بدأ التنازع بين القادة المقدونيين والملوك الخاضعين؛ وتمرد السكان الأصليون على الأجانب. ومنذ العام ٣١٧ قبل الميلاد، لم يبق في الهند أي حامية مقدونية.

### البوذية

في منتصف الألف الأولى قبل الميلاد بينما كان نظام العبودية متطوراً في الهند انبعثت عدة دول هنا، ولم تعد البارهمية ترضي مالكي العبيد. فانبثق دين جديد، البوذية مشتق من بوذا: الـ"ملهم"، لقب المبشر الذي كان ينسب إليه، في الخرافات، مبدع الشريعة الأساسية للدين الجديد)، انبثق في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد؛ كان رصيد النزاعات المتفاقمة أكثر فأكثر في أحشاء المجتمع، التي يستدعيها تطور العبودية، وتشكل دول الاستبداد المؤسسة على استثمار العبيد، واشتداد حدة الظلم الاجتماعي. وفي الدين البوذي، ليس للكادحين سوى أفق واحد هو روحهم، والتخلي عن كل محاولة لتبديل العلاقات الاجتماعية.

وتبنت البوذية موضوعات التقمص. وهنا، الحياة شر كلها، أن تعيش يعني المعاناة. يجب إذن الجهاد لوقف تطور انبعثات النفس المتتابعة، المفضية إلى النرفانا، أي كبح

النفس. يتم بعث النفس حسب الأفعال التي جرت في أثناء الحياة السابقة، وسلوك الإنسان هو نفسه نتيجة لرغباته. إذن، بالعزوف عن الرغبات نصل إلى النرفانا. وأولئك الراغبون في "نجاتهم"، يجب أن يهربوا من مبادئ الدنيا ويصيروا كهنة.

لا ترى البوذية أن الآلهة تحمي الناس ولا التضحية لهم؛ لا جدوى من الكهنة، فكل منا بوسعنا أن ننفذ نفسه من البعث بوسائله الخاصة. والأصل الرفيع، الانتساب إلى هذه الجماعة أو تلك، أو أن تكون عضواً في فئة أو شريحة، لا تلعب أي دور في ولوج النرفانا. العبد فقط محروم منها، لأنه، حتى ولو بالرغبات، يبقى غير حر بأفعاله.

كانت البوذية تنشر السلبية، والقبول المذعن للواقع، وتجريد المضطهدين أخلاقياً من سلاحهم في نضالهم ضد مضطهديهم، وليس فقط لم تتعرض للحرمان والمعاناة (ليس ثمة إلا بين الكهنة)، بل صارت منذ القرن الخامس قبل الميلاد دعامة للنبلاء العبوديين، بينما كانت رابطات الكهنة تتلقى عطايا وهبات أكثر فأكثر كرماء. في هذه الحقبة، لم تعد الولادة السامية، ولا الانتساب الواقعي إلى هذه القبيلة أو تلك، دوراً أساسياً. المهم الثروة، امتلاك العبيد. لهذا، قدمت البوذية، التي كانت أرقى من العبادات القبلية، أساساً أيديولوجياً جديداً للدول العبودية الكبرى التي تتشكل. فضلاً عن هذا، راح الكهنة، المنظمين جيداً والاضباطيين، يخدمون بفاعلية السلطة، الأمر لم يتيسر للكهنة البراهميين الموزعين والمنقسمين أبداً.

### إمبراطورية المورياس Mouryas

كان على رأس الانتفاضة ضد المقدونيين، التي شبت في شمال غرب الهند، أحد كبار رجال الدولة الذين لم تعرفهم الهند: تشانداغوبتا. رغم أن شخصيته ونشاطه ترك أثراً عميقاً على معاصريه وعلى الأجيال التالية، لا نملك سوى القليل من المعلومات لكي نفيه حقاً. كان ينتسب إلى شريحة الكودرا، أي الرابعة، حثالة المجتمع، وكان يعمل في كنف ملك ماغادها، لكنه لم ينسجم معه، هرب إلى البنجاب، حيث نظم عصياناً ضد المقدونيين. ولما تكفل العصيان بالنجاح (وحتى قبل)، قاد حملة ضد ماغادا. يذكر الباحثون عدة تواريخ مقاربة للعام ٣٢٠ قبل الميلاد)، ثم أزاح الأسرة المالكة الهانداس Handas واحتل العرش. كان اسم أسرة تشاندرأغوبتا هو موريا، لذا سميت الإمبراطورية والأسرة اللتان أسسهما: موريا. ثم قدر أن يخضع الشمال كله (وربما قسماً من الجنوب) وأرسي دعائم الدولة الأوسع في الهند القديمة.

أخذت إمبراطورية المورياس أوج اتساعها في أيام أسوكا (٢٧٣-٢٣٧) حفيد تشاندرأغوبتا. إذ ضمت الإمبراطورية الهند كلها (عدا منطقة تقع في جنوب شبه الجزيرة) وأفغانستان الحالية.

في هذا العهد، أنجز الشعب الهندي إنجازات ضخمة في تطوير القوى المنتجة. يدحر الحديد المستخدم نهائياً المعادن الأخرى في صناعة أدوات العمل. وتصير حراثة التربة قاعدة الحياة الاقتصادية؛ ولم تعد تربية الدواجن سوى رافد للزراعة؛ ويفقد الصيد والقنص أهميتها أيضاً. ويتطور الري ويتقن. وجنى الصناعيون العاملون في المعادن، وناسجو القطن، معمرو السفن النهرية والبحرية خير النتائج. وراجت التجارة الداخلية والخارجية: التجارة البحرية مع مصر، ميزوبوتاميا، سيلان وبلدان جنوب شرق آسيا؛ وتجارة برية مع إيران وبلدان آسيا الوسطى. وتدخل في التداول نقود نحاسية وفضية. وتتسع المدن، أي مراكز حضارة الهند العبودية. ويشير اليونان الموجودون آنذاك في الهند، في كتاباتهم إلى عددها الكبير وغناها وامتداد باتالپوترا *patalipoutra*، عاصمة ماغادا.

لم تكن الهند العبودية، حتى في أيام ملك مورياس (القرن الرابع - الثاني قبل الميلاد)، متطورة مثل بلدان العصر القديم الكلاسيكية. فليس فيها مزارع كبيرة ولا ورشات واسعة توظف جمهرة من العبيد. على ذلك، كان العبيد كثيراً. كانوا يعملون في أملاك الملك، النبلاء وفي الإقطاعات الصغيرة، بل بخاصة في الاقتصاد الخدمي، حيث لا يختلف شرطهم في شيء في الغالب عن شرط الخدم، وعدم كفاية الإنتاج البضائعي وقوة بقايا نظام المشاعية البدائية أعطت العبودية خصيصة الأبوية.

وما كبح بعنف تطور علاقات العبودية هو ثبات المشاعية، الناجم عن طبيعة الإنتاج: إن أعمالاً مثل تجفيف أو إرواء مساحات واسعة، وضرورة حماية حقول القمح من العصفافير والدواب الأليفة، من الكواسر، واستصلاح الأدغال، إلخ، كانت تتطلب جهوداً تعاونية جيدة التنظيم، وخاصة إذا أخذنا بالاعتبار المستوى لتلك الحقبة. كل هذا أوقف فرق الثروة والشرط وصان ملكية الأراضي الجماعية. فضلاً عن هذا، كانت المشاعة منظمة مستقلة إلى نقطة معينة: اقتصادياً، كانت قليلة الاتصال بالمدينة. والتجارة، التي كانت تتطور في الداخل، لم تكن تخصصها أبداً. كان لها إدارتها الخاصة، الانتخابية أو الوراثية. وأتاوات الدولة كانت تقع على المشاعة كلها وليس على كل فرد على حدة.

كانت إمبراطورية المورياس مؤلفة من قبائل وجماعات أثنية متباينة جداً من حيث التطور والرقى. وبحسب مائعرف، لم يكن عندهم نظام إداري وحيد. فالقبائل والدول الخاضعة كانت تبقى مستقلة ويتوجب عليها دفع الضريبة فقط وتجهز السرايا العسكرية. ولمراقبة الملوك الملحقين، أقيمت حكومات في مختلف البقاع.

كان العاهل يستند إلى الجيش. يقول الكتاب الإغريق أن تشاندراغوبتا يقدر، في حالة الحرب، أن يجهز جيش من ٦٠٠ ألف رجل مشاة، ٣٠ ألف خيال و ٩٠٠٠ فيل. فكانت صيانة الجهاز الحكومي والعسكري تكلف غالباً. وللنهوض بهذه الأعباء كان الملك يفرض الضرائب مستغلاً المشاعات (كان المبلغ المطلوب بـ ٦/١ الموسم) ويعين مكوساً على التجار. وكان العاهل يزيد الضرائب على الأراضي الملحقة ويقبض من عائدات أملاكه الشخصية. فضلاً عن هذا، كان الناس الأحرار ملزمين بأعمال السخرة.

وتصير العبودية القاعدة الايديولوجية في إمبراطورية المورياس في أيام ملك أسوكا. ويهتدي هذا إلى البوذية ويعمل لنشرها في الهند وغيرها؛ وقدّر أن يدعم المنظمة الدينية. ومعلومات هامة تاريخية عن هذا العهد موجودة في مدونات أسوكا، محفورة بالصخر وعلى الأعمدة، حيث يمكن قراءة أوامره فيما يخص مراقبة مبادئ البوذية الأخلاقية (خضوع للسلطات، الاحترام، الالتزام بطهارة ونقاء الفكر وتجنب العار، إلخ).

رغم جهوده، لم يستطع أسوكا أن يؤسس دولة متينة وموحدة. وما أن مات، حتى سقطت الإمبراطورية في هاوية الانحطاط. وفي حوالي العام ١٨٧، أزيح عن العرش أخو ممثلي الأسرة وقتل بيد القائد العسكري الذي أرسى أسرة جديدة، هي سونغما *Counga*.

ليست الأسباب الداخلية وحدها جلبت انحطاط إمبراطورية المورياس. بل الهزائم في السياسة الخارجية أفضت إلى هذا أيضاً. وفي بداية القرن الثاني قبل الميلاد، توغل يونان بكتريان في الهند واستقروا في البنجاب. وفي نهاية القرن الثاني قهرهم المساجيت *Massage'tes*، إحدى رعايا آسيا الوسطى، ودعوا في الهند الساكاس *les Sakas*. أخضعت هذه القبائل شمال غرب البلاد وربما حتى بعض أراضي الهند الوسطى.

### إمبراطورية الكوشان وإمبراطورية غوبتا

بدءاً بالقرن الأول بعد الميلاد، سادت إحدى قبائل الساكاس. استقرت على أرض طاجاكستان الحالية، وعرفت في التاريخ باسم كوشان. وفي منتصف القرن الأول بعد

الميلاد، شرع الكوشان بفتح الهند، أخضعوا الدول الصغيرة في شمال البلد، حكموا بملوك البارث أو الإغريق. وفي بداية القرن الثاني، تملك إمبراطورية الكوشان كانشكا (٧٨-١٢٣) مساحة شاسعة من آسيا الوسطى، من سن-كيانغ، من إيران الشرقية ومن الهند ذاتها، حتى نهر نربودا في الجنوب، وحتى مدينة بيناريس في الشرق. كانت العاصمة بوروشابرا (اليوم بيشاور)، الواقعة على درب الكبير الذي يصل هند الكوشان بأقاليم آسيا الوسطى.

كانت هذه الدولة، عديدة القوميات، مركز تبادل ثقافي واسع النشاط والمدى. فقد أفاء الهنود من حضارة شعوب آسيا الوسطى (في فن العمارة والفنون التشكيلية)، ومن جهتها مارست الهند تأثيراً واسعاً على الشعوب الأخرى. ماثل الكوشان بسرعة الحضارة الهندية. وصار للبوذية أنصار بينهم. كان كانيشكا رائداً متحمساً. بنى عدة أديرة، وأمر بتشييد المعابد، شجع نشاط المبشرين؛ ومن مجمع بوذي، تلقى هذا الدين صيغة جديدة: الماهايانا. ومنذئذ، انتشرت البوذية في آسيا الوسطى والصين.

لم يتيسر لإمبراطورية الكوشان، المؤلفة من أعراق عدة، أن تعيش طويلاً. تصدّعت بعد موت كانيشكا وحوالي العام ٢٣٠ صار أولها أكيداً.

في منتصف القرن الرابع، ظهرت إمبراطورية غوبتا: وكانت آخر دولة كبيرة عبودية في الهند. بقي المركز في ماغادا، وكما في أيام أسرة المورياس، العاصمة هي باتالابورا. ومؤسس أسرة غوبتا عاقل من المرتبة الثانية، ملك في ماغادا: تشاندرا غوبتا الأول (٣٢٠-٣٣٠). نجح في بسط نفوذه على ماغادا كلها. وقد ستر ابنه، سامودرا غوبتا (٣٣٠-٣٣٨) عدة حملات مظفرة وأخضع عدة ممالك من وادي الغانج الأعلى والهند الوسطى. نهب الكثير من الهند الجنوبية، ودمرها حوالي منتصف القرن الرابع.

بلغت إمبراطورية غوبتا أوج مجدها في أيام ملك تشاندراغوبتا الثاني (٣٨٠-٤١٤) الذي احتل قسماً كبيراً من البنجاب وبقاعاً من الهند الغربية؛ امتدت دولته من خليج البنغال حتى الخليج العربي.

في منتصف القرن الخامس، تعرض شمال الهند لغزو هانس هفتاليت أت من آسيا الوسطى، تنفق إلى إمبراطورية غوبتا وغيرها. تتابع العدوان طيلة أعوام، وبجاح متباين. لكن إمبراطورية غوبتا، التي بدأت العهد الإقطاعي، لم تكن قادرة على مواجهة حروب طويلة. وفي نهاية القرن الخامس، اقتصرت سيطرة إمبراطورية أسرة غوبتا على ماغادا وبقاع في شرق وجنوب هذه الدولة. ومنذئذ، انقطعت المعلومات الخليفة بالحديث عن هذه الإمبراطورية.

## أزمة العبودية وولادة الإقطاع

تجسد القرون الأولى بعد الميلاد رواجاً اقتصادياً واسعاً في الهند. في هذه الحقبة تبدأ المنطقة الجنوبية بالتطور السريع، بينما كان تطورها حتى الآن أبطأ من تطور الشمال. إذ يباشر الهنود المناوبة الزراعية، واستخدام الأسمدة، وضم أراض جديدة من الأدغال المستصلحة؛ وتطور الري. تشهد أنصاب وأعمدة من الفولاذ والبرونز، محفوظة حتى الآن، تشهد بوضوح على المستوى الرفيع لتقنية هذا العهد. تنحت المعابد في الصخر، الأمر الذي يتطلب يداً عاملة غفيرة، وحسابات معقدة وعملاً ماهراً بالحجر. كانت تجارة الهند واسعة، بحرية وبرية؛ نتاج مع كبار بلدان العالم المتمدن، تصدر النسيج، الخزاف، الجواهر، العطور، وتستورد معادن غير مطرقة، معادن ثمينة، أحصنة، عبيداً. كان الهنود بارعين بصنع النقود الذهبية.

لكن أزمة النظام العبودي ذرت قرنهما، وانبثقت علاقات اقتصادية جديدة. إذ بدأ عمل العبيد الموظفين في الإنتاج. وعثر الكثير منهم على استخدام في القصور الملكية والنبلاء والأغنياء. وفي تلك الحقبة، يتبدى ميل لاستخدام الناس الأحرار، أعضاء المشاعات؛ إنه الإقطاع. وعزفت الدولة أكثر فأكثر عن أداء ديونها عيناً أو نقداً، بل استلم النبلاء أصحاب العبيد، والكهنة وكبار الموظفين أسهماً من الأرض؛ والضرائب المفروضة على المشاعات لم تعد تعطى للدولة، بل للأشخاص الذين تخلت لهم الدولة عن حقوقها. وشيئاً فشيئاً امتلك هؤلاء الأشخاص الأرض نهائياً واستعبدوا الفلاحين الأحرار؛ الأمر سهل فكل الوظائف الممنوحة تصير وراثية. وكثير من القبائل التي كانت متخلفة (بخاصة في الهند الوسطى والجنوبية) بدأت تجني عند انهيار الممالك العبودية من خيرات الحضارة وتدخل أبوابها، أي تنتقل إلى محطة جديدة هي الإقطاع دون إن تعرف النظام العبودي؛ في هذه الحالة كانت طبقة الإقطاعية تصدر من الأرستقراطية القبلية.

لدى دراسة التشكيلية الإقطاعية، ليس لنا أن نهمل دور المعابد والصوامع البوذية الذين كانوا يتلقون هبةً أملاكاً واسعة مع المشاعات التي كانت تعيش فيها. فيتحول الكهنوت البوذي رويداً رويداً إلى إقطاعيين، ويشكل أعضاء المشاعات التابعة لهم طبقة من الألقان. يقدر استعباد الفلاحين الأحرار، يتبدل وضعهم الاجتماعي: كانوا سابقاً من الشرائح الوسطى فصاروا من الدنيا.

تنبثق تبدلات هامة في المذهب البوذي. فقد تبين أن محاولات جعل البوذية دين الدولة أمر غير مجد، لأن الدول الكبرى العبودية، التي تخدم إيدلوجيتها، بدت هي ذاتها



غير وطيدة. وكان مكان انتشار البوذية بخاصة، في المدن؛ وبقي الريف أميناً للعبادات القديمة. إن اضطرار البوذية على العيش مدة طويلة بجوار هذه التقاليد، فرض عليها التحول التدريجي. ففي ماهيانا، البوذي، الرجل الذي يتبع طريق الخلاص، يضحى إلهاً كلي-العظمة تبني له معابد رائعة؛ ويسعى إلى مفاهيم جديدة: الجنة والنار، وتمارس طقوس فخمة، إلخ... وينتهي الامتداد الأعظم للبوذية مع مرحلة الكوشان. ويتقلص دورها في أيام ملك غوبتا. تتبدى مقاومة الإقطاعي أكثر فأكثر؛ وتأتي هذه العبادات لتستبعد البوذية. إن هذه العبادات هي نفسها التي ولدت هذا الحشد من المعتقدات الدينية التي تسمى عادة هندويزم، الدين الأكثر انتشاراً في الهند.

### الشرائح المغلقة

في أثناء القرون الأولى بعد الميلاد يتشكل تدريجياً نظام الشرائح المغلقة. إنها الشرائح المغلقة بشكل مطلق، التي تشغل في الحياة الاقتصادية والاجتماعية موقعاً متميزاً بالعرف والقانون؛ كان الانتساب إلى إحدى هذه الشرائح بالولادة. وبينما ولدت الفئات أو *Varnas* على أثر تفاقم الظلم الاجتماعي، صدرت الشرائح المغلقة عن تقسيم العمل.

فالتقسيم الاجتماعي للعمل حتى بشكله البدائي، أفرز فئات مختلفة من الناس، يركن كل منها إلى دائرة نشاطه. طالما استمرت المشاعة الرفيعة وعاشت بقايا قوية من إيديولوجيا القبيلة، لن يتيسر لهذه الفئات أن توطد أقدامها إلا بالإفادة من تنظيم وإيدولوجيا المشاعة. يقرأ هذا في الاسم الذي تحمله هذه الفئات الاجتماعية: "جاتي" *Jati* التي تعني نرية، قبيلة أصل، ويبدو أن كلمة *Caste* البرتغالية هي الترجمة الأكثر دقة.

ليس لأحد أن يتزوج من شريحته المغلقة؛ مبدئياً تمارس كل شريحة مهنة محددة ولا يجوز الانتقال إلى أخرى؛ ولها إدارتها الداخلية الخاصة بها؛ التضامن المتبادل متوجب على الأعضاء، الذين يقومون جماعة بالتعبد الديني، ويسيرون دورة العمل، ويراقبون قواعد العلاقات القائمة بين الأعضاء مختلف الشرائح، إلخ... كانت الشرائح تولد في إطار الظلم الاجتماعي، بينما الفئات موجودة قبلاً. فليس لها إلا أن تشغل وضعاً اجتماعياً متناظراً. عادة، تتشكل الشرائح بداية في أحشاء الفئات التي تضم الشعب الكادح: الوسط والعامة؛ بين البراهميين، لا تتطور الشرائح مطلقاً. تشمل الفئات الوسطى شرائح يحترث أعضاؤها أرض الدولة ونبلاء العبودية ويخدمونهم كعمال مستقلين أو مختصين مهرة: مزارعين، تجار، صناعيين مرتاحين، إلخ. والشرائح التي كانت بخدمة الشرائح الزراعية (أي الرعي، حرف قروية، إلخ)، وتلك التي تمارس في المدن مهناً أقل امتيازاً (حدادين،

فخارين، نساجين، إلخ.) كانوا من الفئات الدنيا، العوام.

القبائل المتخلفة والمنتشرة في مناطق قليلة الإنتاج من وجهة الاقتصاد، تفتقد إمكانية الانتقال إلى مرحلة أرقى اقتصاديا. كانت مكتفية بالعيش من الصيد، القنص، اقتصاد الغابة، إلخ. وإن رحلت إلى المدن أو القرى واستقرت تعمل الأعمال الأقل تخصصا، الأقل أجوا، والأكثر امتهانا (مياوم، كناس شوارع، جامع قمامة، حفار قبر، جلد، إلخ.). شكلت هذه التل الاجتماعية شرائح عديدة "المنبوذون" لا يجوز لأعضاء الشرائح "النقية" أن تتعامل معها؛ وإلى هؤلاء "المنبوذين ربما انضم العبيد السابقون، الذين كان يقيمهم السادة على أراضيهم. والطبقات المستغلة، المهتمة كثيرا بعزل العمال، كانوا يشجعون ويدعمون مختلف الشرائح المغلقة، خاصة أولئك الذين لم يرثوا شيئا، الأكثر استثمارا: المنبوذون".

### حضارة الهند القديمة

إننا مدينون لشعوب الهند مساهمتهم الجليلة في الحضارة العالمية. فقد أعطى علماء الرياضيات العالم نهج كتابة أعداد مقبولة بعامة حتى اليوم (نهج أو قيمة الرقم في العدد تتعلق بمكانه)، كذلك بعض الأرقام (بخاصة الصفر) التي اقتبسوها من شعوب الشرق الأدنى والمعروفة في أوربا بصيغة لا تتغير وباسم "أرقام عربية". وكان الهنود القدماء يعرفون استخراج الجذور المربعة والمكعبة، ويحسبون بشكل دقيق العدد ٣٣، وكانوا يدركون القوانين الجذرية لعلم حساب المثلثات. واقتبست الشعوب الأوربية للقرن الوسيط عناصر الجبر من العرب، لكن هؤلاء يعترفون أنهم تعلموا هذا من الهنود.

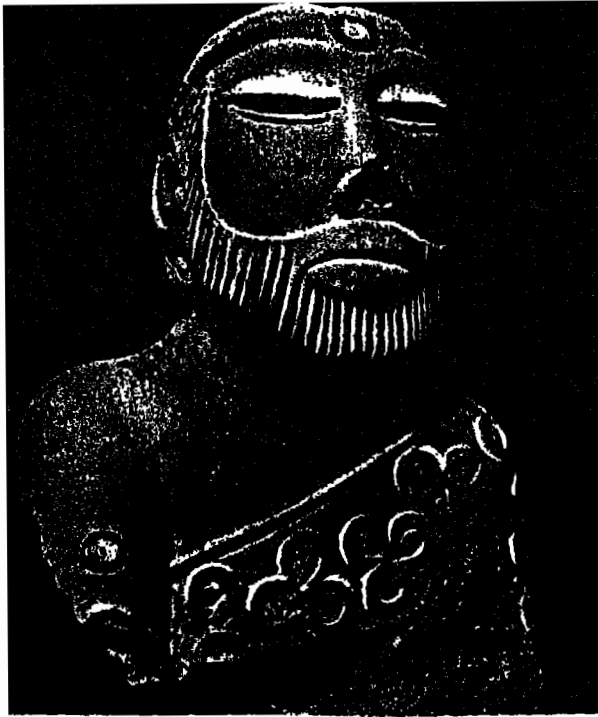
لقد ابتكر سكان الهند القدماء الكتابة التي تشكل الأساس للشكل الخطي لدى أكثر شعوب الهند الحاليين. ومنذ القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، وضع عالم النحو والصرف البانييني أسس علم اللغة، المجال الذي قدم فيه الهنود نتائج ضخمة.

كما مهر هنود العصر القديم في الفنون التشكيلية: الحفر والجداريات. وثمة رسوم رائعة من القرن الثاني قبل الميلاد حتى القرن السابع بعد الميلاد محفوظة في معبد أجانتا المحفور في الصخر (دولة حيدر أباد).

أدب الهند القديمة غني ومتنوع. وفي القرن الأول بعد الميلاد كتبوا بالسنسكريتية، لغة أدب الهند متعددة الشعوب مهاراتا وراماياتا، قصائد ملحمية تقص مآثر الأبطال وتتضمن العديد من الخرافات القديمة جدا، تستلهم شعراء وفناني الأجيال السابقة. ومنذ زمن قديم أو بعدئذ، ربما، أدركوا ودبجوا لأول مرة قوانين، أشهرها ذلك المسمى "قانون مانو" *Lais de Manou*، نسبها كاتبها لسلف خيالي؛ مقولات في مختلف فروع العلم تعيش حتى اليوم؛

اللغة الشاحبة المستخدمة في كتابة الأعمال الأساسية للأدب البوذي. ولقد تفتح الأدب السنسكريتي في القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد، يوم أزهرت موهبة كوكبة من المع الكتاب، أشهرهم الشاعر والمسرحي كالدازا

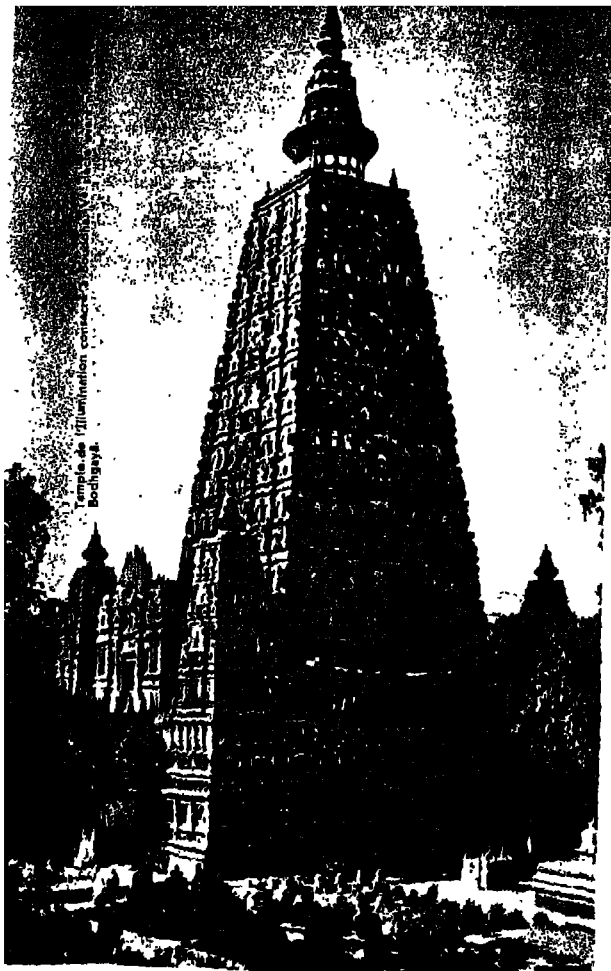
منذ زمن سحيق -ربما منذ النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد)، ولدت في الهند فلسفة مادية ترفض اللاهوت والمثالية. كان روادها يؤكدون واقعية العالم المعاش ويرون في وعي الحواس المصدر الوحيد للمعرفة والوسيلة الوحيدة للإثبات والبرهنة. وينكرون خلود النفس أو الروح، التقمص والآخر، ويهزؤون من الطقوس والأضاحي. كما نقل عدد كبير من المهاجرين المستقرين في جنوب-شرق آسيا (سيلان، الهند الصينية، وأندونيسيا) إلى أبناء البلد إنجازات الحضارة الهندية. وقد أفادت شعوب آسيا الوسطى والشرق الأدنى من الروائع التي خلقتها الهند، بلد الثقافة القديمة المتألقة.



كاهن هندي



تمثال بوذا



معبد بوذا

## الفصل التاسع عشر

### الصين

#### المناهل

إن دراسة التطور الاجتماعي والاقتصادي للصين القديمة صعب بطبيعة الكتابات التي وصلتنا. كثير من النصوص ضاع نهائياً، أو تعرض لكثير من التحوير أو التحريف، بل التفسير، إلخ.، انسجاماً مع مصالح الشرائح الحاكمة، ويستحيل غالباً تجديد الأصل. غير أن أسفاراً هامة لتاريخ الصين القديم مثل "كتاب الأشعار"، "كتاب الحوليات"، و"حوليات ملكة لو"، المنسوبة تقليدياً لكونفوشيوس، ثلاث كما يبدو النماذج الأولى السابقة. مثل "شي-كنج"، المجموعة التي تتضمن أكثر من ٣٠٠ أغنية شعبية ودينية، أبدعت بين القرنين ١١-٧ قبل الميلاد. هي منعكس كدح، أفراح وأتراح فلاحين، أعضاء مشاعات، احتجاج على الموظفين الكواسر، أضمومة من الدوافع الوطنية، مشاهد حياة يومية لبسطاء الناس ونبلائهم.

السفر الأول في تاريخ الصين العام حبره قلم أكبر علماء العصور القديمة سوما-تسيو (بين سنتي ١٤٥-٩٠ قبل الميلاد). وهو ابن أحد فلكيي القصر، رحل كثيراً عبر البلاد، مسجلاً بعناية بالغة التقاليد، جامعا الوثائق وكل ما يمكن أن يجلو له أعراف وعادات سكان الصين والبلدان المجاورة. كانت "مذكرات تاريخية" عمل حياته كلها. عمل عن حقبة تبدأ من الإمبراطور البخرافي هوانغ-تي حتى نهاية القرن الثاني قبل الميلاد؛ يتضمن السفر ٣٠ مجلداً مقسمة إلى خمسة أبواب: حياة الأباطرة، علم الأنساب وعلم تسلسل الأحداث تاريخياً، معلومات مختلفة حول الطقوس، العبادة، الري، النقد، الأسعار، التجارة، استغلال الأرض، حياة الأمراء، وحياة الأشخاص العظام. في هذا السفر يوضح سوما-تسيو شجبه للنظام القائم. ونقرأ في هذا العمل أنباء تصدر من أسانيد غير موجودة لدى أحد. وقصة آل هان Han الذين سبقوا (تستيان-هان-شو) التي كانت، بشكل ما، تنمة

لـ"مذكرات تاريخية"، كانت قد كتبتها في القرن الأول بعد الميلاد أسرة بان *Pan*، حسب سوما-نسيان، المستخدمة نموذجا لكل التواريخ الرسمية؛ يتضمن هذا العمل ١٢٠ مجلدا. وفي القرن الخامس بعد الميلاد نشر فان إي *Fanye* تاريخ الـ"هان" اللاحقين، في ١٢٠ مجلدا أيضا.

نجد معلومات تلخيصية ثمينة في العديد من الأعمال الفلسفية مثل مانسيوس، هانفي-تسو أو في أعمال رجال السياسة مثل كوانج، ولدى المؤلفين المختصين بدراسة الأعمال الأدبية للعصر القديم، وأخيرا، في الأعمال الفلسفية.

إن معطيات علم الآثار والنقوش ذات أهمية كبرى بدراسة تاريخ الصين. وأرض الصين لم تسبر حتى الآن سبرا كافيا لكشف الآثار؛ فتنقصنا معطيات لكي نطرح منهاجيا تاريخ المجتمع السابق على ظهور الطبقات الاجتماعية. ومحطات يانغ-شاو وتانغ-تسي-إي التي تؤرخ لمرحلة وسيطة بين العصرين الحجريين الوسيط والحديث واكتشفت حوالي العام ١٩٢٠، تقدم فائدة فريدة. يفترض أنها تعود إلى الألف الثالثة قبل الميلاد. وفخاريات مطلية وجدت في يونغ شاو تمثل عدة تشابهات مع التي اكتشفت في أنو (تركمانيا) وتريبوليه؛ يثبت هذا أن مستوى التطور الاجتماعي والاقتصادي لهذه الشعوب كان متماثلا تقريبا.

بشان تاريخ حقبة آل شانغ (يين) تزودنا حفريات مدينة شان (قرب المدينة الحالية أنيان) بمعطيات هامة عديدة؛ فقد عثر، بين خرائب الورشات، على قصور، معابد ومساكن خاصة، وكثير من أغراض الاستعمال الخفيف، وكتابات مرسومة على العاج، على القواقع وعلى مشربيات البرونز. وقد فكت رموز هذه النصوص. كما أكدت دراية النقوش الموجودة في أرشيف أنيان في كثير من النقاط ما نقصه علينا الأعمال الأدبية. تأتينا التفتقيات المتتابعة في الصين بعد ظفر الثورة الشعبية كل عام، خدمة للعلم، بالعديد من المعلومات حول تاريخ البلاد القديم.

### شروط طبيعية. سكان بدائيون

إن الأرض التي رأت ولادة حضارة الدولة الصينية تمتد على طول وادي هوانغ-هو في مجراه الأوسط والأدنى. فمنذ ٤٠٠٠ عام، كان سهلا وحيد الشكل، محدودا من الجنوب بالجبال ومن الشمال الغربي بهضبة أوردوس *Ordos*؛ كانت تربته الغرينية الغنية بالطمي

شديدة الخصوبة. كثيرة المستنقعات، تشقها الأنهار وتغطيها الغابات الكثيفة-العذراء. في الشمال وفي الشمال الغربي كانت تتبسط سهوب منغوليا القاحلة؛ وفي الجنوب، خلف وادي يانغ-تسو-كيانغ، تبدأ المنطقة الجبلية والحراجية للصين الجنوبية. نتيجة هذا، بقي الصينيون القدماء آلاف السنين معزولين عن مواطن الحضارة القديمة. كانت غزارة المياه تفرض الري، تصريف المياه، ومصارعة الفيضانات. لذا كان الصينيون ينسبون لبطل أساطيرهم البدائية مآثر تتعلق بترويض الأنهار، بناء السدود وحفر الأقبية.

والأرض الصينية مسكونة منذ أقدم العصور. وفي مغارة شو-كو-تيان (قرب بكين)، اكتشفت بقايا إنسان الصين الذي بشكله الخارجي، يشبه إنسان جاوا. لكن إنسان الصين كان قد عرف النار، وكان يصنع أدوات ضخمة من الحجارة ويقنص الحيوانات الضخمة.

في الطبقات العليا لهذا الكهف ذاته، عثر بي-أوان-تشونغ على بقايا إنسان يشبهنا بدنياً وكان يعيش بين الألف ٢٥ و ٥٠ قبل الميلاد.

أخيراً، كان بناء ثقافة العصر الحجري الحديث في يانغ-شاو بدون شك جود الصينيين. وحضارة أولئك الذين اكتشفت بقاياهم في طبقات كهف شو-كو-تيان تعود إلى العصر الحجري الأعلى. وأدوات الكوارتز، والقواقع المجموعة في شو-كو-تيان تكشف وجود شكل بدائي من التبادل. بهذا الصدد، دور القواقع هو الذي يوجز أو يحدد، لأن تعبير "قوقعة" موجودة في الهيروغليفية وتشير إلى مقولات "نقد"، "تجارة"، "ثروة"، إلخ. والعصو الحجري الحديث والحقبة الوسيطة بين هذا الأخير والحجري الوسيط معكوسة في الصين في حضارة يانغ-شاو متميزة بخزفيات عديدة الألوان، وحيدة الصنع. وكان يانغ-شاو، المجتمعون في تعاونيات عائلية، يعيشون في كهوف محفورة في الأرض ويحفرون الأرض بالمنكاش (ويبذرون الذرة البيضاء والصفراء)؛ يصطادون، يربون الكلاب، الخنازير، الأحصنة ويأسرون حيوانات وحشية. وفي محطات يانغ-شاو الأحدث (الألف الثانية قبل الميلاد) تظهر أسلحة برونزية: سيوف، خناجر.

كانت القرى مبنية على التلال ويحيطها سور ترابي ليحميها من هجوم الأعداء. ومن الملفات العثور غالباً على تعبير "تلة" في الهيروغليفية التي تشير إلى أسماء المدن القديمة.



## إمبراطورية آل شانغ أو آل بين

إن انتشار استخدام الأدوات النحاسية والبرونزية، وظهور زراعة الأرز، والقزازة (تربية شرايق الحرير الخام) أفضت إلى تفكك نظام العشير، إلى تشكل الطبقات الاجتماعية وإلى ولادة دولة العبودية القديمة في أيام حكم آل شانغ (آل بين) (١٧٦٦-١١٢٢). كانت هذه المملكة تشغل وادي السرير الأوسط لهوان-هو من حيث ينعطف النهر ويتجه نحو الشرق.

ثمة عدة مصادر تخولنا تمييز النظام الاجتماعي والاقتصادي. في أساس الاقتصاد كان يوجد، كما يبدو، نكش الأرض بالمنكاش. والتربة الغرينية، الناعمة والخصبة، المشغولة بأدوات بدائية من الخشب والحجر، تعطي أيضاً موسماً وفيراً. فضلاً عن الزراعة، استمروا بممارسة الصيد والقنص. وتشير آنيان الإلهية أن القناصين أثناء الاحتياي على الطرائد لحشدها في مكان ما (فخ أو كمين، مثلاً)، كانوا يقنصون مئات الحيوانات من مختلف الاحجام: أيائل، خنازير، إلخ.

كان التدجين يلعب دوراً هاماً في الاقتصاد. وكان الناس يربون الكبير والصغير من الدواب ذات القرون، والخنازير، والكلاب والطيور. والنقوش التي يمكن أن نقرأها حول المواد المقدمة كضحية، تشهد على توفر الدواب. يقص أحد هذه النصوص قصة مذبحه من ٣٠٠ بقرة و ١٠٠ خروف.

كانت المهن قد بلغت إتقاناً واسعاً. فالبرونز يستخدم في صناعة الأسلحة، وأوان شعائرية، وبعض القطع للعربات. وأكواب وجرار وأوعية أخرى مصنوعة على طريقة صنع الفخار، والغضار الأبيض من كمية استثنائية، كانت تشوى بعدئذ وتطلى، تشهد على تطور الخزف. والخيوط الحريرية المجتناة من الشرايق كانت تستخدم في النسيج. والإتقان الذي يميز كثيراً من مواد تلك الحقبة، يتطلب تدريباً صعباً وطويلاً، الأمر الذي يبرهن على انفصال المهن عن الزراعة. وفي العاصمة، كان ثمة أحياء يسكنها الصناعيون فقط: فخارون، سباكون، نحائون، غزالون، نساجون، وسواهم.

المصادر التي لدينا تشير إلى وجود، في إمبراطورية الشانغ، مختلف عينات العبيد. وكانت الحروب هي التي تمكن من توفرهم.

وتطور القوى المنتجة، تكديس الثروات وظهور العبودية ولدت في أحشاء العشير قلة

من الأسر المتميزة، التي تشكل الطبقة المتنفذة، المعارضة لجمهرة أعضاء المشاعة. وشيخ قبيلة أوانغ صار رئيسا وراثيا للدولة. وتدل دراسة مقبرة أنيان على وجود في مجتمع الشانغ فارق واضح في الثروة. وبين كثرة القبور الموضوعة رمس متواضع، اكتشفت صوامع تنغلق على أسلحة ومشربيات من البرونز الرائع، وأغراض من حجر اليشب. والعبيد مدفونون إلى جانب أصحابهم. فهنا أيضا اكتشفت لحود للأوانغ، مغلقة على كنوز خيالية. والمساكن المكتشفة تشهد أيضا أن الناس كانوا منقسمين إلى طبقات اجتماعية مختلفة في الملك.

كان في رأس المنتجين في مجتمع الشانغ الفلاحون المجتمعون في مشاعات جوار تحافظ على بقايا ثابتة من نظام العشير. وما تزال طريقة استغلال أفراد المشاعات غامضة حتى الآن.

في رأس الدولة كان الأوانغ (الامبراطور) الذي يجمع وظيفتي شيخ القبيلة وكاهنها- الأكبر. ورويدا رويدا، يحتل سمات الطاغية الشرقي، العاهل المطلق، مالك الأرض كلها، ممثل السماء لدى الناس. حول الأوانغ يلتئم وجوه الأرستقراطية، أفراد الأسرة الإمبريالية وأسر أخرى نبيلة من البلاد. من بينهم يعين موظفو الحكومة، والجنرالات، وغيرهم.

والملاحظات الأولى الفلكية، الضرورية لتقويم الأعمال الزراعية، وضعت في عهد الشانغ. وأحد أهم الاستحقاقات في هذه الحضارة هو ابتكار الكتابة الهيروغليفية، المنسوبة للإمبراطور الخرافي فو-هي Fou-Hi؛ والتي اشتقت منها الكتابة الصينية الحديثة.

مفاهيم الامبراطور الدينية للشانغ تصدر من الإحيائية، المرتبطة حميما بعبادة الأسلاف. فالجدود، بخاصة جدود الأوانغ، كانوا غالبا ما يمثلون بشكل حيواني، وهذا من بقايا الطوطمية. مثلا فو-هي كان بجسد أفعى، بينما كان رأس مبتكر الزراعة شن-هونغ، رأس ثور. وكثيرا ما يسعون إلى السحر، ويعطون بخاصة كل أنواع التفاسير لشقوق ظهر السلحفاة المرمية في النار.

### إمبراطورية آل تشو

في غرب دولة نهر وي Wei، المتفرع من هوانغ-هو، كانت تعيش قبائل التشو التي من حيث الخصائص الأكتية واللغوية، كانت تشبه، كما يبدو، آل الشانغ. في اقتصاد تشو، كانت الزراعة تلعب دورا واسعا، بينما كان الصيد والقتل أقل قيمة. وكثيرا ما كان

أباطرة الشانغ يستدعون قوات التشو العسكرية لتقاتل قبائل الشمال-الغربي الرحل. في النصف الثاني من القرن الثاني عشر قبل الميلاد خارت إمبراطورية الشانغ. تتحدث المعطيات النادرة التي بين يدينا حول هذا الموضوع عن غضب الشعب المرهق بالضرائب، ضحية الاضطهاد الفظيع والنفقات المجنونة لبناء القصور، واحتفالات الأباطرة وحاشيتهم.

وفي العام ١١٢٢ قبل الميلاد، غزا قائد التشو أو-أوانغ بجيوشه إمبراطورية الشانغ أو، في معركة طاحنة في سهب موإي (شمال-غرب هو-نان) انهزمت قوات آخر عاهل من الأسرة. واستنادا إلى الرواية الموروثة، كانت المذبحة أشبه بالمطارق الخشبية التي تسحق الذرة البيضاء السابحة في مستنقعات الدم. وبعد مقاومة قصيرة خائرة، ألحقت أرض الشانغ بدولة التشو، وسقط رهط وفير من رعاياها في أتون العبودية. ونهبت عاصمة الشانغ.

وهكذا تأسست، في نهاية القرن الثاني عشر وبداية الحادي عشر قبل الميلاد، إمبراطورية واسعة في الشرق الأقصى تشغل تقريبا وادي هوانغ-هو، أو بالضبط سريره الأوسط والأدنى، وحوض هان والسرير الأوسط والأدنى ليانغ-تسو لغتهم وتآلفت القبائل القاطنة هذه البقاع تدريجيا مع الصينيين وقبلت حضارتهم.

من القبائل الرعوية العديدة التي كانت تعيش راحلة في شمال وشمال-غرب إمبراطورية توطدت قبيلة الهوان بخاصة في بداية الألف الأولى قبل الميلاد، وتوحدت مع رحل آخرين، وغزت عدة مرات صين التشو. لكن القبائل المستقرة في جنوب يانغ-تسو وسوتشوان حافظت على استقلالها. ومنعهم أسلوب حياتهم الفريد والفوارق اللغوية من الذوبان في الشعب الصيني.

على ذلك، لم تبق دولة التشو المستبدة بعيدة مدة طويلة عن التشقق. إذ كان أباطرتها يوزعون بسعة العبيد والأملاك على ذوبيهم وأسرهم، بل سلطوهم على مشاعات الناس الأحرار. وسرعان ما فتحت الإمبراطورية إلى أكثر من ١٥٠٠ دولة صغيرة خاضعة نظريا فقط للإمبراطور. أممها، بدءا من القرن السابع قبل الميلاد، شان-تونغ، شان-سي، تشو، هو-نان وهو-بي. كانت هذه الدول تتحارب باستمرار لكسب العبيد، وضم الأراضي وتأمين السيطرة.

## مختلف مراحل تاريخ الصين القديمة

حسب مؤرخي الصين الإقطاعية، انقسم تاريخ الصين القديمة بعد زوال إمبراطورية شانغ إلى ثلاث حقب، مؤسسة على تعاقب الأسر: تشو (١١٢٢-٢٤٧ قبل الميلاد)، تسين (٢٤٦-٢٠٧ قبل الميلاد)، وهان (٢٠٦ قبل الميلاد حتى ٢٢٠ بعد الميلاد. وعلى غرار مؤرخي الصين للعصر الوسيط، الذين سعوا إلى تفسير أحداث قديمة جدا بروح عصرهم، رأى المؤرخون البورجوازيون أن عهد تشو-هان كان عهدا إقطاعيا. يتمثل هذا الموضوع بوضوح في كتاب المؤرخ الكبير المختص بشؤون الصين، هنري ماسبارو (الصين القديمة). يجب أن لا يغيب عن ذهننا أن ماسبارو، المؤرخ المثالي البورجوازي، لا يرى الإقطاع أبدا تشكيلة اجتماعية واقتصادية ذات قوى منتجة محددة وعلاقات إنتاجية ملائمة. إنما كان يفهم الإقطاع علاقات حقوقية تحدد الروابط بين سادة وأتباع وتجم ومن تجزئة البلاد التي، كانت موحدة سابقا لكنها تفككت إلى إقطاعات عديدة تعيش نهجا هرميا متماسكا إلى هذا الحد أو ذاك، تحت سلطة الإمبراطورية الشكلية إلى هذا الحد أو ذاك. إن أعمال ماسبارو، بوتتييه، فرانك، وباحتين بورجوازيين آخرين، الثمينة جدا من حيث توثيق ودقة بعض الملاحظات، تجعلنا نفهم أن ليس ثمة تطور اجتماعي في الصين وأن الإقطاع موجود في الصين على مدى تاريخها. على هذا الأساس ولدت فرضيات رجعية، تفرز العرقية، تقول إن الصينيين غير جديرين بالتقدم وهم مدينون للأجنبي بارتقاء حضارتهم. إنما بفعل أعمال الباحثين الماركسيين الصينيين والسوفييات، رفضت ترهات النظام الإقطاعي القديم في الصين. فاستقر، دونما جدل، أن المجتمع الصيني تطور من النظام المشاعي البدائي إلى الإقطاعية، عبر شكل إنتاج مبني على استغلال العبيد. صحيح أن حالة العلم الراهنة لم تسمح بعد بتاريخ العهود تأريخا دقيقا وصحيحا. وكثير من العلماء الصينيين يلحون حول الطبيعة الإقطاعية لمجتمع الهان وحتى تشو. مع ذلك ثمة أسباب للتفكير أن عهدي تشو وتسن يقع في قمة نظام العبودية، بينما يسجل عهد هان تفككه وولادة الإقطاع.

## النظام الاجتماعي والاقتصادي لإمبراطورية التشو

يتميز عهد التشو بتطور سريع للقوى المنتجة. فحوالي القرن الثاني عشر قبل الميلاد يكتشف الصينيون الحديد، رغم تأخر استخدامه على مدها إلى حقبة أحدث، بين القرنين

السادس والرابع. وفي الحقول يذر غالبا الرز. والانتقال إلى حرث الرز "المائي" يتطلب وسائل ري أكثر إتقاناً. إنها زراعة معقدة جدا تتطلب الكثير من العمل والمهارة. وتبدأ الزراعة باستعمال محراث خشبي بدائي؛ وتظهر حدائق ومروج، وتتسع زراعة التوت، مع تربية دودة الحرير التي تتغذى بها.

التنقيبات التي حققها بحاثة جمهورية الصين الشعبية على أرض إمارة تشو القديمة، دلت أن استخدام البرونز اتسع في الحياة العادية وفي الإنتاج. والمشريات البرونزية، بصناعتها الحلوة، مزدانة غالبا بنقوش دينية أو توثيقية. وصكت النقود. وأتقن نسج الحرير، النجارة-الموبيليا، والفخار ومهن أخرى. وفصلت، في أيام التشو، الصناعة نهائيا عن الزراعة. وعلى أثر تقسيم العمل، تتطور التجارة والمبادلات النقدية، وتتضخم المدن مثل هو Hp (قرب المدينة الحالية سي-آن)، ولوبي (حاليا لو-يانغ)، إلخ.

في أيام ملك التشو استمر تشكل طبقات المجتمع العبودي. ولما غزا التشو إمبراطورية الشانغ، أهدى أو-أوانغ عائلته عبيدا من أبناء البلد. وتحديثا نقوش على أواني برونزية عن تطور دولة العبودية. "أهيك، نقرأ في أحد هذه النصوص للقرن الحادي عشر قبل الميلاد، من هذه الضواحي، ٦٥٩ عبدا، غلمان اصطبلات، حراثا وندماء. أمنحك قادة وشيوخا من البربر، أكثر من ١٠٥٠ عبدا".

كانت الحروب بين الولايات تزود البلاد بالعبيد. واستنادا إلى سوما-تسيان، عشرات ألوف الرجال اقتيدوا عبيدا في أثناء هذه النزاعات. وتطور التجارة، والنقد وظهور الري. وطدت كلها في البلاد العبودية كديون. وكانت إدانة الناس الأحرار بتهمة انتهاك القوانين مصدرا آخر للعبيد. كان المدان يصير عبدا مؤقتا أو إلى الممات؛ وفي ظروف معينة كانت العبودية تطال ذرية المحكوم كلها. فعندما تكون التهمة ارتكاب جريمة، لا يكفي بعبودية الفلاح وحده، بل كل أسرته، وكضمانة أكيدة، جيرانه أيضا.

يما أن الزراعة الصينية تتطلب من الفلاح معرفة واسعة وكثيرا من الممارسة، كلن عمل العبد هنا ضيقا. فكانوا يفضلون استخدامه في بناء السدود، في حفر الأبنية، في تشييد القلاع، وتربية الدواجن، وفي المناجم. وحسب بعض المعلومات، كان العبيد يعملون نداء. فسعة المعنى لكلمة "عبد" تعكس، كما يبدو، ليس فقط تنوع أصولهم بل أيضا تنوع الأعمال التي يكلفونه بها.

كان اقتصاد المجتمع الصيني في أيام التشو يستند إلى مشاعة الجوار، المستثمرة من الدولة والأسر الأرستقراطية. وكتابات الفيلسوف مانشيوس (القرن الرابع قبل الميلاد) هي التي أطلعتنا على هذه المشاعة. يقول، إن الأرض تقسم إلى تسعة أسهم متساوية، وهي إجمالاً، تشبه هيروغليفية "تسينغ" التي تعني "بئر" لذا كل نهج تسينغ-تيان يعني "حقول الآبار". ثماني عائلات تستلم بالقرعة كل الأسهم. تستثمر كل أسرة السهم الذي استلمته، وكلهم، يستثمرون السهم التاسع الـ"كونغ-تيان" الحقل المشترك). كان هذا الأخير يحترق قبل غيره، ويخص موسمه الدولة.

في كتابات مانشيوس، إلى جانب السمة الطوباوية نقرأ مضمونا واقعيا يعكس أسلوب الاستثمار البدائي لأعضاء المشاعات. مع ذلك، ومنذ بداية عصر التشو، كما تشهد أغاني شي-كينغ، خلقت حقول واسعة تخصص الإمبراطور ووجوه الموظفين حرثها وبزرها وحصدتها فلاحو المشاعات المستعدون وكذلك العبيد. وشيئا فشيئا ترك وأهمل نهج تسينغ-تيان، وفي أثناء الحقبة الممتدة من القرن السادس حتى الرابع قبل الميلاد، اختفت "الحقول المشتركة" من كل المناطق؛ وأسس بدلا عنها محاصصة عينية تصل إلى الثلث وحتى إلى نصف منتج الحصاد. واصطدم هذا التدبير بمقاومة المشاعات الذين ضاقوا ذرعا بنير مستغليهم الغليظ. وتعكس أغنية لشي-كينغ، من قصيدة رائعة، غل الفلاحين تجاه المستغلين، والموظفين الذين يهرولون كالجرذان إلى المواسم.

"أيتها الجرذان، أيتها الجرذان، لا تقضمي قمحنا

نعيش تحت شريعتم منذ ثلاث سنين

وأنتم لاتقدمون لنا أي خير

سنترككم بعيدا.

سنذهب إلى بقعة سعيدة

إلى بقعة سعيدة، سعيدة

وسنجد العدالة...."

كان طاغوت المستعبدون يثيرون غالبا تمرد الجماهير الشعبية.

تصدر لطبقة المهيمنة في صين التشو من المحيط المباشر للإمبراطورية (أسرته)، وكذلك طغاة كبار وصغار ونبلاء الدم. فوشائج القربى كانت تلعب دورا واسعا لتحديد

درجة النبالة. انعكس هذا في الأدب، وفضلا عن الألقاب التي تعين وظيفة ("هو": رامسي السهم)، ثمة أيضا الكثير مما يشير إلى درجة القرابة ("تسو": ابن)، بوو "Pouo": خال أو عم، إلخ). وكان ممثلو السلطة الحاكمة يرتدون البسة فخمة، ولهم حاشية وحرس شخصي. ويتلقون من الإمبراطور أو من قائدهم المحلي أرضا يستطيعون أن يستغلوها وتفرض عليهم الضرائب العينية. هذا إذا لم تقع الهبة على الأرض والفلاح.

وشينا فشيئا يحرق الأرض وينميها جماعة من الناس الجدد: هم التجار والمرابون؛ قانونا، ليس لهم على الفلاح سوى حق الحراثة، أما اقتصاديا كانوا أصحاب نفوذ واسع. الصراع بينهم وبين الأرستقراطية، إحدى شرائح الطبقة المسيطرة، وشم كل تاريخ الصين القديم.

كان نظام إمبراطورية التشو السياسي استبداديا من النمط الشرقي، بمبدأ ملكية الدولة للأرض واستغلال المشاعات. "إن المشاعات القديمة، يكتب انجلز، حيثما حلت، تشكل منذ آلاف السنين أساس شكل الدولة الأكثر تخلفا وفضاظة، الاستبداد الشرقي... وكانت الدولة التي تشكلت بعد تمزيق الصين في بداية الألف الأول قبل الميلاد، موضوعة تحت وصاية الطغاة الذين، بعون جيوشهم وإدارة عريضة، كانوا يمارسون سلطة الطبقة السائدة على المشاعات وعلى العبيد. وكانت دول الصين القديمة، كدول الشرق القديم الأخرى تغطي، حسب تعبير ماركس، ثلاث وظائف: نهب الرعايا المحلية، نهب الشعوب المجاورة وإدارة الري، التي بدونها لا وجود لأي منتج.

### صراع من أجل السيطرة. تنامي نفوذ مملكة تسين

في أثناء الحروب التي لا حصر لها، تناقصت الدول كثيرا، وحوالي نهاية القرن الرابع قبل الميلاد. لم يكن قد بقي منها سوى عدد ضئيل. كانت خمس دول الأوسع والأعتى تتصارع على السلطة باستمرار. وخلال هذا الصراع، برزت سلطة دولتين: دولة التسين ودولة التشو. كانت مملكة التسين تشغل تقريبا أرض إقليم شان-سي الحالية. كانت دولة غنية، لأن تجارتها كانت رائجة مع القبائل، تشتري منهم العبيد، الدواب، الجلود وتبيعهم الحديد، الحرير، الملح والمنتجات الحرفية. ولقد قويت التسين بخاصة بعد

<sup>٤</sup> - ف. انجلز، انتي-دهرينغ، ص ٢١٢.

ممارسة إصلاحات شانغ إيان، أحد رجال السياسة الأعظم في المملكة، إصلاحات أمكن تنفيذها بتطور المبادلات التجارية والنقدية وباندفاع الاقتصاد. أهم هذه التدابير إلغاء نهج "تسينغ-تيان" (٣٥٠ قبل الميلاد)، ووضع ضريبة عينية وإجازة بيع وشراء الأرض بحرية. وهكذا دفع شانغ إيانغ إلى الأعلى قوة التجار والمرابين (النبلاء "الجدد")، وأمكن إحياء أراض كانت عذراء.

لقد أفضى إلغاء نهج "تسينغ-تيان" إلى تكديس الأرض بين يدي النبالة "الجديدة" وخراب الناس الأحرار في المشاعات. وبعد نهبهم، صار هؤلاء عبيداً. صارع شانغ إيانغ ضد امتيازات أرستقراطية الدم القديمة وسن قانوناً، يقول إن الألقاب لا يجوز أن تعطى لأحد حسب أصوله بل حسب قيمة خدماته في الحرب. وهكذا حمى شانغ إيانغ المهاجرين الآتين من البقاع المجاورة، الأمر الذي أدى إلى نمو وبحبوحة شعبية.

لتنفّيت المشاعات وإضعاف أرستقراطية الدم، اتخذ شانغ إيانغ تدابير هامة، مثلاً تدويب العائلات الأبوية وتنفيذ قسمة جديدة في الإدارة الأمر الذي قلب أراض العشائر والقبائل القديمة. وفي هذا العهد، جندت مملكة التسين العديد من الأتباع المتطوعين من بين القبائل الرحّل. وسحبت من الناس الأسلحة البرونزية واستبدلت بأسلحة حديدية.

واتساع قاعدة طرق الاستعباد في الإنتاج، وانطلاقة الاقتصاد وتقوية الطبقة الحاكمة خول التسين العبور بجرأة إلى سياسة الفتح؛ من ثم، خلق أول سلطة ملكية متركزة في الصين. قامت مملكة تشو على المجرى الأوسط لنهر إيانغ تسو. اعترضت هذه الدولة الواسعة والكثيفة السكان، التي تمتلك جيشاً جراراً، اعترضت تدابير تسينغ التوحيدية، خصمها. في هذه الحالة، كانت حاجات ضاغطة تفرض التوحيد. إذ كان الصراع في أوساط الطبقة الحاكمة يمزق البلاد ويدمر قواها المنتجة؛ فلجأ الفلاحون، وقد حرّموا من مصادر العيش، لجؤوا إلى الجبال والغابات وشكلوا فصائل مسلحة بذرت الرعب بين أصحاب العبيد والتجار.

فتكفلت مملكة التسين بتوحيد البلاد. وابتلعت بالتدريج الدول الأخرى. كانت الحروب تدور بقسوة غريبة. مثلاً عندما خضعت إمبراطورية التشو للتسين، أبيد جيشها المؤلف من ٤٠٠ ألف عنصر. وذبح الحكام وذووهم. وفي العام ٢٢١ قبل الميلاد، أعلن حاكم دولة تسين إمبراطوراً على الصين وسمي (إمبراطور تسين الأول). وتوحدت البلاد.



## إمبراطورية تسين (٢٤٦-٢٠٧ قبل الميلاد).

وطد شي هوانغ-تي الملكية المركزية وخنق التيارات الانفصالية لدى نبلاء الدم الذين فقدوا دورهم منذ توحيد البلاد. قسم الإمبراطورية إلى ٣٦ ولاية ومنع ذكر اسم الممالك القديمة. وطبقت قوانين شانغ إيانغ في كل الإمبراطورية. وأدخل شي هوانغ-تي نهجا واحدا للمقاييس والأوزان لكل البلاد ووحّد النقد. وألغيت الألقاب وصنف الناس الأحرار في عينتين: النبلاء والعوام. وإلى الولايات، يرسل المفتشون من قبل الإمبراطور مباشرة لرعاية وتنفيذ إرادته وتدابيره. وجمعت كل الأسلحة ليخلقوا منها أنصبايا بارتفاع ١٥م لتزين القصر الامبريالي. وتوحدت الكتابة الهيروغليفية (قبل هذا، كان لكل مملكة كتابتها الخاصة).

لقد مكن توحيد البلاد شي هوانغ-تي من تنشيط سياسته الخارجية. عبرت جيوش تسين نهر يونغ-تسو وانتشرت في أرض الجنوب الشاسعة. حتى فيتنام اعترفت بسيادة تشسين المطلقة. ولمقاومة القبائل الرحل وتقوية العلاقات القائمة معهم، شيد أعظم صرح في الحضارة القديمة: إنه سور الصين العظيم، الذي يمتد من خليج تشي-لي حتى الحدود الحالية لولاية كان-سو. وشرعوا بأعمال هامة في عاصمة تسين، هيان يونغ (قرب سي-آن).

على هذا، كانت إمبراطورية تسين سريعة الزوال. كانت الأعمال الواسعة المنفذة بأوامر شي هوانغ-تي تتطلب يدا عاملة غفيرة. وحسب الخرافة، إن لم نذكر سوى سور الصين العظيم، ٢ مليون عبد وفلاح ملزمون بالسخرة، كانوا يعملون تحت رقابة ٣٠٠ ألف جندي. إن هذا العمل الشاق، والفقر بالأرض، والتعرض لخطر العبودية، والابتزاز والاعتصاب، أفضى كل هذا إلى تمرد الفلاحين، الأمر الذي كان متوقعا في حياة شي هوانغ-تي. كانت النبالة القديمة، هي الأخرى، غير راضية، لأنها استعبدت من السلطة السياسية، دون أن تفقد نفوذها الاقتصادي وتأثيرها. وكانت رعايا الممالك القديمة يعانون الكثير من المضايقات. وبعد وفاة شي هوانغ-تي (٢٠٩ قبل الميلاد)، انهارت مملكة تسين، بعد أن أنهكتها انتفاضات الفلاحين والعبيد، وكذلك تمردات أصحاب العبيد والأرستقراطية.

أكان موت شي هوانغ-تي إمارة العصيان العام. مشى العبيد والفلاحون إلى القتال. وفي العام ٢٠٩، قاد فلاح فقير، تشانغ شانغ، من الولاية الحالية هو-نان، ثلاثة من ٩٠٠ فلاح كانوا أرسلوا لدعم وترميم الحدود الشمالية، من ثم، عمت تمردات الفلاحين على

الأرض كلها. وأمام هذا، امتشق ممثلو الطبقة السائدة السلاح لاستلام السلطة. كان أقواهم هيانغ يو يعتمد على أراض في الجنوب الشرقي، وموظف صغير اسمه ليو-بانغ. في أثناء الصراع، عقد هيانغ-هو وليو-بانغ اتفاقاً مؤقتاً. وبعد إخضاع الطامعين بالسلطة الأخيرة وإيادة حاشية تسين بمؤازرة الفلاحين، خنقت ثورة الفلاحين. وقتل تشانغ شانغ.

لكن انتفاضة الفلاحين سقطت بسبب عدم توفر الانضباط والتنظيم. كان القادة ينتحلون الألقاب، ينفصلون عن الجماهير، وكثير منهم حاول الاعتراف بطبقة السلطة والانضمام إليهم. على ذلك، نجم من ثورة تشانغ شانغ إبعاد الحاشية المستبدة في إمبراطورية تسين وشيء من تحسن حياة العمال. وكانت هذه واحدة من أهم الانتفاضات الشعبية في تاريخ الصين.

### إمبراطورية الهان Han السابقة (٢٠٦ قبل الميلاد حتى العام ٢٤ بعد الميلاد)

قمعت ثورة الفلاحين، وتنازع ليو-بانغ وحيانغ-يو السلطة. في هذا الصراع كان هيانغ-يو يدافع عن مصالح الأرستقراطية القديمة وعن كبار ملاكي العبيد. بينما كانت سياسة ليونانغ أمرن. ألغت تشريع تسين الصارم، الذي لأقل جنحة يهدد الفلاح الحر بالعبودية. ويمارس جيشه انضباطاً أعمى. وهكذا عرف كيف يكسب شرائح عريضة من الناس وينزل بخصمه هزيمة ساحقة (٢٠٢ قبل الميلاد). ثم أعلن نفسه إمبراطوراً. وسميت الأسرة التي أنشأها أسرة الهان<sup>٥</sup>.

استهلكت إمبراطورية الهان عمل شي هوانغ-تي: توحيد الصين. وسمحت الحياة المديدة لدولة وحيدة تحت حكم الهان باختلاط العناصر الأثنية من أصول عديدة، كانت تعمر البلاد؛ وساهم التوحيد أيضاً بصهر اللهجات والألفاظ المحلية بلغة واحدة وحيدة. وفي أيام إمبراطورية الهان أرخت الجنسية الصينية.

كان دور الهان في الصين كبيراً بحيث ساهم الصينيون فيما بينهم: رجال الهان. كانت سياسة أوائل أباطرة الهان تهدف دعم جهاز الدولة الملكي، توسيع أملاك الإمبراطورية وإحياء الاقتصاد الذي تأزم بشدة في أواخر أيام التشو والتسين.

---

<sup>٥</sup> - تتضمن ملكية الهان عهدين: عهد الهان الأول (٢٠٦ ق.م حتى العام ٢٤ بعد الميلاد، حتى ثورة الأهداب الحمراء\* وعهد الهان الثاني (٢٥-٢٢٠ للميلاد).

كانت الحكومة تشجع بناء منشآت للري، استصلاح الأراضي البائرة أو المهلة النلجم عن إنهاك الشعب. فتقليل الضريبة سيساهم في دفع الفلاح إلى تحسين حراثة الأرض وتجهيزها. وفي أثناء حكم الهان، ينتشر الحرث بمحراث تجره دواب. وتحسن نهج البذر بالمسكبة. وتتمتع شرائح عريضة من الناس بتحسين نسبي، ناتج عن استبعاد العديد من ممثلي الطبقة المسيطرة.

كما جاهدت حكومة الهان السابقين لتنظيم نشاط التجار والمرايين. جعلتهم يدفعون ثمن تمتعهم بالثروة، بحرمان ذريتهم من استلام وظائف إدارية. لكن هذا التحريم لم يرع دوما. فقد حققت التجارة والحرف تقدما واسعا. "الأصباغ والريش بمختلف الألوان يأتي من ولايات لو *Lou* وشو، الجلود المدبوغة والأمتعة العظمية والعاجية من تسين ويان *Yen*، خشب الأرز والصندل والخيزران من تسيان-نان السمك، الملح، السجاد والجلود من يان وتسي، الخيوط الملونة، النسيج الرقيق وألبسة القنب من يان ويو *You*". هذا الكلام الموثق (من معاصر) يشهد على انطلاقة التقسيم الإقليمي للعمل.

والمبادلات التجارية والنقدية تتطور بسرعة وحسب قول سوما-تسيان، كان الأغنياء يتاجرون في أرجاء الإمبراطورية كلها ويؤمنون أي بضاعة يشاؤون.

لم يخولنا الوضع الراهن لمعارفنا من إيضاح كل القضايا التي يطرحها النظام الاجتماعي والاقتصادي في إمبراطورية الهان. فهي دولة عبودية طويلة وجودها. الوثائق التي وصلتنا تتحدث عن أغنياء أصحاب مئات بل آلاف العبيد وكما في السابق، كانوا يشغلون العبيد في بناء الصروح، والمهن الصناعية والأعمال الزراعية. وكانت تجارة العبيد مع الخارج مركزة في أسواق دائمة. وتشير النصوص دوما إلى تمردات العبيد.

تبدأ ظاهرات جديدة تبرز في حياة الإمبراطورية الاجتماعية والاقتصادية. إذ راح السلاطين يوزعون على ذويهم وأسرهم وحاشيتهم أراضي مع فلاحها ليستغلوا. ويخضع الملاك العقاريون أراضيهم للمزارعة -أي التأجير بحصة-. وعل الأرض البائرة وفي مناطق الحدود يوطنون فلاحين الدولة الأتقان. وتظهر "بيوت متنفذة" في شخص كبار ملاك الأراضي الذين يملكون ما لا يحصى من الفلاحين، ولهم جيشهم الخاص، القادر على سحق أي مقاومة فلاحية وحتى الوصول إلى السلطة المركزية. تشير هذه الوقائع إلى تطور الإقطاع في المجتمع الصيني منذ أيام الهان.

وتسجل ملكية الإمبراطور يو-ني (١٤٠-٨٦ قبل الميلاد) قمة إمبراطورية الهان. فبعد قمع الأسر الأرستقراطية، عرف يو-ني كيف يوطد التجار أو الصناعيين بالسهر على تنفيذ التدابير الهادفة لدعم قدرة البلاد الاقتصادية، مثل تأسيس احتكار الدولة لاستخراج الملح ومعادن الحديد ومنع الأفراد من صك النقود.

منح رواج الاقتصاد الصين في القرن الثاني قبل الميلاد الانتقال إلى سياسة خارجية نشطة. فأخضع جيش الهان فيات-نام، فتح يان-نان وجنوب منشوريا. وكانت العلاقات مع الهون *Huns* بين أهم قضايا السياسة الخارجية. فغزواتهم المستمرة، التهديد بحلف قوي بأمرتهم وبقيادة شن يومي تي، حرض حكومة الهان للتفتيش عن حلفاء. ولهذا الغرض أرسل في العام ١٣٨ قبل الميلاد إلى الغرب سياسي قدير، الجنرال تشونغ-كيان. بمهمة إقامة صلات مع جيران الهون الغربيين، *les Massagètes*.

وبعد ترحال طويل وبقائه عشر سنين سجيناً لدى الهون، وصل تشانغ-كيان إلى آسيا الوسطى حيث زار خوارزم، بخارى ومدنا أخرى.

أيقظت المعلومات التي جلبها حول هذه البلاد الغربية في الصين اهتماماً واسعاً. ورغم أن مهمته الرئيسية: عقد حلف مع الميساجت، لم تتم، كشفت تقاريره لرجال الدولة عن وجود حضارة عظيمة تزدهر على أرض واسعة ليس لديهم عنها أي فكرة حتى آنذ. واستناداً إلى اتصالات تشانغ-كيان جهزت حملة نحو الغرب. وهكذا كانت رحلته نقطة انطلاق محادثات بين الصين ومواطن حضارية أخرى.

وبعد عدة معارك ضارية، نجح الصينيون بدحر الهون نحو الشمال و، في العام ١٠٤ قبل الميلاد، وبعد اجتياز صحراء تكلا-ماكان وجبال تيان شان، تغلغلوا في وادي فرغانا. هو ذا الأصل لأحد الطرق الرئيسية الكبرى في تجارة العهد القديم المعروف تحت اسم طريق الحرير العظيم الذي كان يصل الصين بالإمبراطورية الرومانية، بمملكة البارث *Parthes* وبالهند. على هذا الطريق صدرت الصين حريرها، حديدتها، منتوجاتها المهيمنة واستوردت مواداً هامة، الأحصنة بخاصة.

أزمة إمبراطورية الهان. إصلاحات يانغ-مانغ. عصيان "الأهداب الحمراء"

إن إطلاق اليد ببيع وشراء الأرض، وزيادة الضرائب، المتولد عن بذخ القصر المفرط واتساع السياسة الخارجية، أفضى إلى خراب الفلاحين. ورغم أن الضريبة كانت

٣٠/١ أو ١٥/١ من المحصول مبدئياً، فقد كانت، بالواقع، وبشهادة تسيان هان شو، تتجوز نصف. وكانت تفرض ضريبة أخرى على كل رجل يرغب في الإعفاء من الخدمة العسكرية. نثبت هنا كيف يصف تسيان هان شو وضع الفلاحة في الصين في القرون الأولى قبل الميلاد: "كان المتنفذون يمسحون أراضيهم بآلاف الموانع، بينما لا يملك الفقراء" مرقدة عزرة". الآباء، الأبناء، الأزواج والزوجات يعملون بالأرض طيلة العام وثروة عملهم لا تكفي غذاء لهم، بينما يفرض على الفقراء أن يكتفوا بالنخالة".

: لقد مكنت زعزعة الإمبراطورية القبائل الرحل احتلال طريق الحرير العظيم ودمار تجارة الصين الخارجية.

وتفاقمتم التمردات أكثر فأكثر (في نهاية القرن الأول قبل الميلاد)، وشارك بها العبيد والناس الأحرار الذين حرموا ملكيتهم، فبرزت الإمارات الأولى لأزمة قاصمة كانت تعد للإمبراطورية الهان.

حاولت الحكومة تجنب انفجار الغضب الشعبي بإصلاحات جزئية، بوضع، مثلاً، معيار يحدد الأرزاق العقارية (٥٠٠٠ مو) وملكية العبيد (٢٠٠). لكن هذه التدابير ذهبت هباء.

فكر المحاوله أحد أفراد العائلة المالكة، يانغ-مانغ، بمساعدة متآمرين، بالتصدي للأزمة بسبل أكثر جذرية. وبعد إزاحة الإمبراطور، نشر قراراً (في العام ١٠ قبل الميلاد) بتحويل الأرض كلها. ومننذ، صار العبيد يعتبرون أملاكاً خاصة. كان يانغ-مانغ يهدف بهذا التدبير استبدال عمل العبيد بأساليب استثمار إقطاعية. وكان يطالب أيضاً بتوزيع الأرض على كل الذين حرموا منها آنئذ. وبهذا اعتبر يانغ-مانغ تدابير كعودة لنظام "تسين-تيان".

حاول أيضاً تنظيم أسعار السوق وتنظيم رصيد للدولة بـ ١٠% في العام. فاصطدمت تدابيرها بمقاومة ضارية من الطبقة الحاكمة. فاضطر بالقوة إلى التخلي عنها.

أثار فشل هذه الإصلاحات تمرداً ضاعطاً عرض الإمبراطور للخطر. ونشبت ثورة فلاحية في عامي ١٧ و ١٨ بعد الميلاد في ولايات هو-نان، هو-بي وشان-تونغ. كان الثوار منظمين بفصائل لكل منها اسم وقائد. كانت أقواها فصائل "الأهداب الحمراء"، في

ولاية شان-تونغ، التي تدعى هكذا لأنها كانت تلون أمدابها. حاول يانغ-مانغ كبسح هذه الانتفاضة بقوة السلاح. وفي العام ٢٣، استولى الثوار على عاصمة إمبراطورية تشانغ-نغان وقتلوا يانغ-مانغ. واشترك بالتمرد أعضاء من بيت الهان الإمبريالي، كانوا مبعدين عن السلطة. وأعلن أحدهم إمبراطوراً. ثم، تحولت قوات أنصاره ضد المتمردين وأغرقوا العصيان بالدم.

### إمبراطورية الهان الأخيرة (٢٥-٢٠ بعد الميلاد)

رغم أن الثورة قمعت، اضطرت الطبقة الحاكمة لبعض التنازلات. حرر الأولاد الذين بيعوا كعبيد، وأعفي عن بعض الثوار. وجزء من الأراضي القابلة للزراعة التي كانت تخص المالكين الكبار انتقلت إلى يد الفلاحين. وقلص الإمبراطور الضريبة. وصارت العبودية أقل قسوة، وتحسنت أساليب الاستثمار، فكانت، إزاء كل هذا، انطلاقة اقتصادية جديدة. رمم نظام الري واتسع، فنمت الأرض القابلة للزراعة. واتسع استخراج معدن الحديد، وكذلك الفونت. وراج الاقتصاد. وعادت الصين في نهاية القرن الأول للميلاد إلى امتلاك طريق الحرير العظيم.

وفي العام ٩١ بعد الميلاد. احتل جنرال كبير ورجل سياسة صيني، بان-تشاو، إقليم سين-كيانغ وشن حملة إلى آسيا الوسطى، التي اضطرت إلى قبول سيادة الصين. ولاقى الهون هزيمة كاملة واضطر قسم منهم إلى دفع الضريبة للصين، واکره الآخرون على النزوح إلى الغرب.

لكن ما أن توطدت أوضاعهم، حتى عزفت الطبقة الحاكمة عن التنازلات التي أعطيت للفلاحين. وأخذ تطور تكديس الأرض إيقاعاً غير معروف. فامتلكت "البيوت النافذة" مئات ألوف الهكتارات التي حرثها الفلاحون المستعدون. ودمرت من جديد منشآت الري. وتصدعت أركان الدولة.

أثار خراب الفلاحة وتفكك جهاز الدولة حركة فلاحية واسعة، عرفت في التاريخ باسم عصيان "القبعات الصفراء". لم تكن هذه الثورة الناشئة في العام ١٨٤، في ولاية شون-كونغ تشبه أبداً ثورة "الأهداب الحمراء". فقد انبثقت بعد أن علل قانتها أهدافهم للشعب. كانوا قد خلقوا مسبقاً عشرات السرايا وحددوا يوم الهجوم. كانت الحركة مستوحاة من كتاب تلو-توكينغ.

أعلن المبشر التاوي تشانغ كيو، قائد الثورة الإلغاء الكامل للنظام القائم (سماه

الـ"سماء الغبراء") ومجيء نظام جديد، عادل (سماه اسماً خيالياً "مملكة السماء الصفراء")؛ يأتي هذا النظام عندما يتحقق (مبدأ السلم الأشمل). استلم مخطط الثورة أحد الخونة، فاستعجل الهجوم. كسب التمرد الإمبراطورية كلها بسرعة، حرر الثوار العبيد وقتلوا الموظفين المحقوقين، واقتسموا فيما بينهم السلع الثمينة التي سيطروا عليها. دامت ثورة "القبعات الصفراء" قرابة ربع قرن وأبديت بصعوبة كبرى. وفي لهيب المعارك، انهارت إمبراطورية الهان التي احتفظت بشكل من الاستغلال البالي، الساقط، أي العبودية وتركزت مكانها للنظام الإقطاعي.

### حضارة الصين القديمة

إن ضرورات من النمط العملي حرضت على ابتكار الكتابة الصينية إلى أقدم القدم. وفي النصوص المرسومة على العظام (في الألف الثانية قبل الميلاد)، عد البحاثة أكثر من ٢٠٠ هيروغليفية، هذا يعني أن الكتابة كانت قد ولدت قبل هذا التاريخ بكثير.

يمكن مقارنة تطور النهج الهيروغليفي الصيني بالنهج المصري. وقد حفظت رسومات نقشية بدائية باعتبارها تساوي كلمات. مثل الهيروغليفيات "رجل"، "ابن"، "امرأة"، "شجرة"، "علو"، "أسفل"، إلخ. وترتيب السهروغليفيات البسيطة سمح أن تشكل منها هروغليفيات أخرى، هروغليفيات من كلمة "شجرة" تعني "شابة".

وفيما بعد (في نهاية الألف الثانية وبداية الألف الأولى قبل الميلاد)، يستمر الصينيون بإتقان كتابتهم بإضافة إلى الشارة المفتاح، التي تشير إلى أي صنف من الظاهرات يعود المفهوم المعبر عنه، شارة أخرى، ذات خصيصة صوتية، ليدلوا إلى اللفظة.

وفي أيام تسين، أول ملكية مركزية، توحدت الكتابة؛ وفي عهد آل هان، أخذت تقريبا شكلها الحالي بفضل استخدام مادة جديدة: الحرير، ثم الورق (قبل هذا، استخدموا الرقائيق الخشبية). وإن كان الصينيون يكتبون حتى الآن بشكل عمودي، ذلك لأنهم كانوا يكتبون على شطائر ضيقة.

كان وضع تقويم زراعي يتطلب مراقبة الأفلاك؛ وقد دل الصينيون على مهارة مذهشة بهذا المجال. هكذا، قبل هيبارك بـ ٢٠٠ عام؛ وضع علماء الصين مبادرة الاعتدالين أي تبديل نقطة اعتدال الربيع حسب دائرة البروج. وفي أيام أسرة تسين وضع أول تقويم شمسي في العالم. صحيح أنه لم يستخدم عمليا لأن الصينيين كانوا يتبعون التقويم القمري. وكان قداماؤهم يعرفون دورية الكسوفات الشمسية.

إلى الصين يعود شرف ابتكار الفرجار. وكان لديهم أسس ثابتة في علم الرياضيات، بخاصة مبادئ الجذور المربعة والمكعبة. وقد وصلتنا أبحاث عديدة في علم وهندسة الزراعة، تمثل بياناً واضحاً في معارف التقنية الزراعية لذلك الزمن، تعطي طرقاً في الحراثة والتعديل والتسميد. وحول العديد من النباتات، وتصلح للمزارعين. قد تألق الحرفيون الصناعيون بنسج المنسوجات الفنية، مواد من البرونز، من الحديد، من العاج، من الراتنج ومن الحجارة الدقيقة.

وفي مجال الفنون التشكيلية، قدم الفنانون الصينيون روائع نادرة. فمنحوتات القبور، النصب، والآثار المعمارية، التي للأسف لم يصلنا منها سوى القليل، تشير إلى مواهب فائقة. خلقت أخطاء النظام الاجتماعي، الحروب، وتفاقم الصراع الطبقي في نهاية أيام آل تشو، خلقت كلها مناهج فلسفية ونظريات دينية طبعت بطابعها كل الإيديولوجيات الصينية. ولقد عكست نظرية كونفشيوس مصالح أرستقراطية الدم. نحن نعرف الاسم اللاتيني لهذا المفكر الكبير الصيني القديم، لأن اسمه الصيني هو كونغ-تسو، فقد ولد حوالي ٥٥٠ ومات حوالي ٤٨٠ قبل الميلاد؛ وضع نظرية مثالية تخطط السياسة بالأخلاق وأعلنت في بحوث فلسفية، لخصها رواده. وانطلاقاً من مبدأ "إنساني"، أعد كونفشيوس منهاجاً للعلاقات بين الناس، يركز إلى احترام الكبار والإتمام الدقيق لواجبات الإنسان بهذا الشرط أو ذاك تجاه المجتمع. "ليكن الأب أباً، الابن ابناً والعامل عاملاً"، يقول. ومع إقراره بالخضوع المطلق للأسمى سمح كونفشيوس بإبعاد أحد المتنفذين، إن دل أنه غير جدير بالإضطلاع بمهمته. وقد أفضى ربط أخلاق كونفشيوس بالتقيد الصارم لعبادة الأسلاف إلى طبع هذه النظرية بالطابع الديني.

وكتاب تاو-توكينغ (في القرن السادس قبل الميلاد) المنسوب للو-تسو ينسجم مع بعض التطلعات الفلاحية الأبوية وصغار الملاكين العقاريين. يصيغ هذا الكتاب التأوية. ورغم أنه يتضمن عناصر من الرؤيا المادية للعالم (نفي الإله الخالق) وجدلاً عقوياً، ينشر العودة إلى عهد سابق، معروف بالعصر الذهبي حيث يعيش الجميع حياة هادئة. ومع نقده اللاذع والحاسم لنظام المعاش، نظام "يجعل الناس يجوعون نتيجة الابتزاز والاعتصاب والضرائب"، يوصي تاو-توكينغ بالعودة إلى عهود طوباوية حيث "لا يتكالب الناس على اقتناء الكنوز". وكانت مصالح النبالة الجديدة والتجار محمية من قبل رواد مدرسة العادلين، كثير منهم رجال دولة تسين. كان المعلمون في هذه المدرسة، تشانغ يانغ، هان في-تسو



وغيرهم يطالبون بخلق دولة موحدة، بالغة المركزية، تمسك عقوباتها الصارمة الناس من حافة الإجرام وتعيدهم إلى الطبيعة البشرية-الإنسانية. وكثيرا ما تبدى الصراع بين كونفشيوس والعاقلين شرسا. ناهض الكونفوشيون ملكية هوانغ-تي و، في العام ٢١٣ قبل الميلاد، عذب الكثير منهم وأحرقت كتبهم. وفي بداية القرن الأول للميلاد، عاش فيلسوف كبير صيني مادي، يانغ تشونغ، كان يؤكد فكرة العالم المادي وينكر خلود الروح.

لقد حافظت الأعمال الأدبية التي وصلتنا على نصاعتها. ففي نهاية القرن الرابع وبداية القرن الثالث قبل الميلاد، عاش شاعر الصين العظيم، كيو-إيوان، وكان رجل دولة شهيرا. كان العدو الأزرق للأساليب البربرية والوحشية التي مارسها تسين من أجل السيطرة؛ وكان كيو-إيوان نصيرا لوحدة البلاد العفوية، الأمر الذي كلفه النفي والإبعاد.

ولقد تحدث في كتبه حول وطنه، وحول رحمة وتسامح الناس في أيام الكره والظلم. كما قدر هذا السيد، هذا الأرستقراطي، عاليا التواصل العميق مع تقاليد القصيدة الشعبية، ووثق بعمق بقوى الشعب. وفي تعميماته المترعة بالتهكم اللاذع والحزن العميق تتجلى مع ذلك رنة متفائلة.

وحافظ نثر سوما-تسين والمؤرخ بان-كيو، خلال آلاف السنين، على قيم النماذج الخالدة. تتضمن كتاباتهم خرافات وطنية، عددا كبيرا من الأمثال، من الحكم، والأغاني الشعبية. إن السيرة الشخصية الرسمية لكبار رجال الصين تأخذ غالبا في أعمالهم شكل القصص المقتبسة من الدرامية، التي تدهش الملح والنوادر وقيمتها الوثائقية، التي تشبه الحوارات المبتكرة لصحة التسلسل التاريخي للأحداث؛ وكانت تعتبر من خلال هدفها التعليمي. والموسيقى أيضا، لعبت دورا رائعا في حياة شيوخ الصين. والرقص، الغناء المتكامل مع آلات موسيقية متنوعة، يتمتعان بشعبية عميقة.

إن دور الحضارة الصينية عند شعوب آسيا يشبه دور الحضارة الإغريقية عند شعوب أوروبا. فالتقنية، الفن، الأدب والفلسفة في الصين كانت النموذج في اليابان، في كوريا، في فيتنام، وفي منغوليا. وكانت الكتابة الصينية مستخدمة حتى أمد قريب في الأعمال العلمية، في النصوص الدبلوماسية والأدب في آسيا الشرقية.

## الفصل العشرون

### اليونان

#### مدخل. مصادر معلومات وتأريخ

لقد لعبت دراسة تاريخ اليونان القديمة، وخاصة تراثها الثقافي، دوراً كبيراً في تطور علم التاريخ الحديث. ماركس وأنجلز، مؤسس هذا العلم، أفاداً جداً من تاريخ العهود القديمة. كانا أول من قدم المجتمع القديم كمجتمع عبودي، وهما بيرزان دوره التقدمي في التاريخ العالمي. إليكم ماهي، بالتالي، القضايا الأساسية في التاريخ القديم: تطور القوى المنتجة، على أساس الاستغلال العبودي، في الحرف، وبخاصة، في الزراعة؛ الطبيعة الاستغلالية في مختلف مراحل تطور المجتمع؛ ظهور الدولة وخصوها؛ الأسباب الفاعلة في تطور الحضارة القديمة؛ مراحل تاريخ المجتمع القديم بعامة والمجتمع اليوناني والروماني بخاصة.

تخص هذه القضايا أيضاً النقاط الرئيسية في دراسة تاريخ اليونان القديم. فالمكتشفات الحديثة تضيف قبساً آخر على تاريخ القبائل والشعوب التي كانت تقطن أرض اليونان القديمة، على الجو الذي ولدت فيه الحضارة اليونانية (الكريتية والمسينية). ثم تأتي الحقبة المتصلة مباشرة بتطور اليونان والمسماة "العهد الهومييري" - مرحلة تفكك المجتمع العبودي والدولة، والبناء الحضاري (من القرن الثامن حتى السادس قبل الميلاد)، الذي كان الاستعمار أحد مراحلها الهامة، ككل هذه المرحلة من التاريخ.

كانت المرحلة "الكلاسيكية" (القرن ٥-٤ قبل الميلاد)، يوم وصل المجتمع العبودي والحضارة اليونانية إلى أوج تطورها ويوم احتدت واشتدت تناحرات هذا المجتمع، كانت في أحشاء تاريخ اليونان القديم. أخيراً، المرحلة الأهم التي ينمو دورها في علم التاريخ، هي المرحلة الهلينية، مرحلة انصهار التاريخ اليوناني جزئياً بتاريخ الشرق، ومرحلة بلوغ مجتمع الرقيق أوجه (القرن ٣-٢ قبل الميلاد).

## مؤرخو اليونان

لقد ظهرت الرغبة في معرفة ماضي اليونان في القرن السادس قبل الميلاد في عمل مؤرخي العهد الإيوني من آسيا الصغرى. فقد عرض هؤلاء، بروح أدبية، الأساطير والخرافات التي تعكس بطريقة أو بأخرى أولى عصور الهلاد *Hellade*<sup>١</sup> هكذا، كتب ميليه حكايته (حوالي ٥٠٠ قبل الميلاد) أصوله، سنير "الأبطال" (هكذا يسمى اليونان أسلافهم الأسطوريين المنحدرين من الآلهة وكانوا معروفين بمآثرهم).

لقد ولد "أبو التاريخ"، هيرودوت (حوالي ٤٨٤-٤٢٥)، في هلكرناس *Halicarnasse*. آنذ، صارت أثينا، المنتصرة على الفرس، المركز الاقتصادي، السياسي والثقافي للكيان البحري العظيم الذي يسيطر على شرق البحر الأبيض المتوسط. وهنا ازدهر نظام ديموقراطية العبودية التي كان هيرودوت، المقيم في أثينا (يسمىها وطنه الثاني)، منظرها الورع. يتضمن عمل هيرودوت تسعة كتب. تخص الثلاثة الأولى تاريخ شعوب آسيا الوسطى، الفرس، آشوريا، مصر والبلدان المجاورة؛ يصف الكتاب الرابع سيثيا *Scythie*<sup>٢</sup>. يعطي كل هذا معلومات قيمة عن الهيلاد. وخصصت الكتب الباقية (٥-٩) للحروب الميديدية. غالباً ماتكون كتابات هيرودوت ساذجة؛ يؤمن بتدخل الآلهة في شؤون الناس ويقدم لنا الأساطير والخرافات كأحداث تاريخية. لكنه من جهة أخرى يسعى إلى تحليل هذه الأحداث وأعمال البشر بعقل معقولة وطبيعية. فضلاً عن هذا، يطرح أحياناً قضايا نظرية عامة حول ارتقاء الدولة والمجتمع، الأمر الذي يثبت صلته المتينة بالنضال الإيدلوجي والسياسي العنيف الدائر آنذ في أثينا. وكتابه منهل هام في دراسة الحياة السياسية والثقافية لليونان في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد.

ويطلعنا توسيديت الأثيني (حوالي ٤٦٠-٣٩٩)، في "تاريخ حرب البلبونيز"، المؤلف من ثمانية كتب والذي لم يصلنا كله، على فهم أعمق للتطور التاريخي؛ ولا يفتقر كتابه للفكر الناقد. كان الهدف من كتاب توسيديت تقديم عرض لحرب البلبونيز، الصراع الضاري بين جزئي الهلاد: أثينا، الدولة البحرية، والمجمع البلبونيني، وعلى رأسه إسبارطة. يدل

١ - الأقاليم الوسطى في اليونان القديمة.

٢ - في الجغرافيا القديمة، وبالمعنى الضيق، من الدانوب حتى الدون.

المؤرخ على اتساع هذه الحرب الاستثنائي، وإلى دورها في التاريخ: لم يخض الصراع فقط سكان الأرض الهيلينية من البحر المتوسط، بل اشترك الفرس فيه. ومدخل الكتاب الأول (فصول ١-٢١)، المسمى أثاري، حيث يعطي المؤلف، عدا الملاحظات المنهجية، معلومات هامة حول تاريخ اليونان، كتاب في غاية الأهمية. باعترافه، عمل توسيديت في تقديم الأحداث التاريخية بطريقة يجعل كتابه لا يفقد قيمته. كونه مؤرخاً تحريراً، اهتم في الوقت ذاته بكشف أسباب الأحداث ووصف الصراع السياسي الداخلي. كتب هذا الصراع بشكل خطب تخاطب قادة المعسكرين؛ ويشير المؤلف أن هذه الخطابات ألغيت فعلاً، ويقدمها، إن لم تكن كلمة فكلمة، منسجمة مع ما يمكن أن يقوله هذا الخطيب أو ذاك في مثل هذه الظروف وانطلاقاً من آرائه. ولوحات الصراع الطبقي رسمتها ريشة معلم، بخاصة وصف الحرب الأهلية في كورسير التي ساهم فيها العبيد بفاعلية. والأكثر تأثيراً لوحة التدمير الناجم عن الصراع الداخلي (كتاب ٣، فصل ٨٢-٨٤). ويقدم لنا المؤلف وصفاً بارعاً للحقد الطبقي في مجتمع الرق، الحقد البالغ ذروته أثناء الحرب الأهلية.

وبعد توسيديت، يستمر العلم التاريخي في اليونان (كباقي العلوم الاجتماعية بشكل عام) بالتطور. صحيح أن دقة التحليل العلمي التي تميز توسيديت لم يستطع أحد أن يقدمها، إلا ماندر، من المؤرخين اللاحقين؛ إنما بالمقابل، ازداد عدد المؤلفات بشكل ملحوظ. ففي أغلب مدن هيلاد ولو كانت قليلة الأهمية (وكان منها المئات، التي ظهرت، في أثناء القرون التالية، لكثير من المؤرخين الذين تصدوا لدراسة مدنهم أو بلدانهم. للأسف، لم يصلنا أغلب هذه الكتابات؛ فالزمن لم يصن إلا النثرات، وأحياناً العناوين أو أسماء الكتب فقط. لكن لهذه أيضاً أهمية كبرى؛ شواهد مختصرات أثيدس *Athides* التي وضعها كتاب أثينيون درسوا ماضي الأتيك *Attique*، وبخاصة، التقليد التاريخي.

لكن أهمية المؤلفات التاريخية اليونانية تبقى كبيرة في أي حال وصلتنا. مثل "الهيلينيون" بقلم خنوفون، الذي ظهر بعد تاريخ توسيديت وانطلاقاً من الفترة التي توقف عندها هذا المؤرخ الكبير (العام ٤١١ قبل الميلاد). ينجز خنوفون وصف حرب البلبونيز ويتابع تاريخ هيلاد حتى العام ٣٦٢. رغم أنه اتبع نهج توسيديت، فعرض الأحداث كمن اشترك فيها، لكن خنوفون كمؤرخ كان أكثر سطحية وأضيق أفقاً. كان خنوفون مواطناً أثينياً؛ لكنه، كونه يكره الديموقراطية الأثينية، كتب كصديق ومعجب بالسبارطيين

الأرستقراط. وفي "الهليونيون" يهمل الوقائع الأساسية في تاريخ أثينا الديمقراطية مثلاً، الفيدرالية الثانية البحرية لأثينا؛ وبالعكس، يبرز الأمسور الثانوية، والتي تقدم وتنفع السبارطيين. على ذلك، "الهليونيون" هو العمل الوحيد الذي يعرض بطريقة منسجمة ومنسقة ومنهاجية الحياة في النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد. وإذا ما درس بذهن ناقذ، يمكن لهذا الكتاب أن يؤازر بدراسة هذه الحقبة.

كما أننا مدينون لخوفون بكمية من الكتابات الهامة التي تميز مختلف وجوه الحياة في هيلاد في القرن الرابع قبل الميلاد؛ مثل "أناباس"، المتعلقة بغزوة الـ ١٠ آلاف وتراجعهم أو انسحابهم. وباعتباره اشترك شخصياً بالحملة. يصف خوفون القبائل والشعوب التي كانت تقطن في شرق القفقاس. لهذه المعلومات أهمية كبيرة في دراسة أرمينيا وجيورجيا في الزمن الغابر؛ وأعمال أخرى هامة لخوفون هي "جمهورية إسبارطة"، "المداخيل" (مسألة الأموال في دولة العبودية). أي ما عرف بـ "مذكرات سقراط" وغيرها.

وعلى إحدى قطع البردي الموجودة في مصر (في الأقصر) وصف لتاريخ اليونان في بداية القرن الرابع قبل الميلاد. بين العلماء المعاصرين، يفترض البعض أن هذا النص ملخص للتاريخ الهيليني لتيوبومب، المؤرخ اليوناني للنصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد. عدا "دستور أثينا" لأرسطو، الذي سنحكي عنه، المكتشف، هو الآخر، على بردي مصري، لم تصلنا الأعمال الأخرى لمؤرخي القرن الرابع.

وفي القرن الرابع، نشر إيفور عملاً ذا أهمية عالمية، كثيراً ما رجع إليه مؤرخو اليونان. لكن لم يبق منه سوى قبسات.

وأحد أشهر مؤرخي العهد القديم، بوليب (حوالي ٢٠٥-١٢٥ قبل الميلاد)، عاش في حقبة فتوحات الجمهورية الرومانية وتحولها إلى دولة بحرية جبارة. وقد كتب في النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد "التاريخ العام" يعرض فيه أحداثاً كان هو نفسه شاهداً. كان بوليب مكلفاً بالإشارة إلى الأسباب التي أسقطت كل بلدان العالم تحت النير الروماني. إنه محق تماماً بعنوانه كتابه "التاريخ العام" لأنه يشتمل على الأحداث التي جرت في العالم المتحضر كله. ومثل توسيديت، لم يكتف بوليب بتقديم نتيجة الوقائع وأسبابها؛ إنما يسعى إلى كشف القوى المحركة العامة للتطور التاريخي. وجوهر هذا التطور، برأي الكاتب، في الانتقال الأكيد من نظام الدولة إلى نظام آخر، الانتقال الذي يتم حسب قوانين محددة. يقول

كل جسم، كل دولة وكل مشروع، تنتقل كلها حسب قوانين الطبيعة، بمراحل متنامية، ثم متفتحة، وأخيراً، منحدره. رغم سذاجتها الظاهرة، كانت نظرية بوليب إنجازاً كبيراً. إذ يثبت عمله أن بلاد اليونان، وهي تخسر استقلالها السياسي، كانت تحافظ على مستوى ثقافي رفيع. ولسوء الحظ، من كتب بوليب الأربعين لم يصلنا سوى خمسة؛ وماتبقى لايزيد عن مقاطع متناثرة. على ذلك، فقد أغنى "تاريخه العام" بشكل ملموس معارفنا حول يونان القرنين الثالث والثاني.

وبعد بوليب، وفي القرن الأول قبل الميلاد، وحتى القرن الأول بعد الميلاد، تعطي اليونان، وقد صارت أحد أقاليم الإمبراطورية الرومانية، تعطي العالم عدداً من أشهر المؤرخين. مثل ديودور سيسيلى، "مكتبته التاريخية" ذات الأربعين مجلداً التي لم يصلنا منها سوى النذر اليسير. عاش ديودور في النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد. رحل كثيراً وقرأ كثيراً. وفي "مكتبته التاريخية" كان يعمل على بحث تاريخ البشرية منذ أزمنة الخرافات حتى أيامه... نقرأ في هذا السفر كثيراً من المعلومات الهامة حول تاريخ اليونان. وبجهد ومجهود ديودور الذي أفاد من وثائق عديدة مشتقة فيما بعد، يتيسر لنا أن نتقح ونتعمق "الهيلينيون" لخنوفون، وأن نجمع معطيات ثمينة حول حركات ثورية ضخمة في يونان القرن الرابع قبل الميلاد، وغير ذلك. لكن "المكتبة التاريخية" لديودور هي تجميع لأعمال مؤرخين سابقين أكثر منها عمل علمي برأسه. وفيما بعد، في القرن الثاني بعد الميلاد، كتب الكاتب والمؤرخ اليوناني أريان، حول حملات الاسكندر الكبير، السفر الأصح الذي وصلنا. وكمعاصر لآريان، كتب المؤرخ والجغرافي بوزانياس عملاً هاماً عنوانه بـ "بيانات وتعليقات حول اليونان"، أطلعنا على مختلف المناطق، والآثار المعمارية، والشوارع، والميادين، والنقوش اليونانية كما كانت منذ ١٨٠٠ سنة. وخلف استرابون، الجغرافي الكبير، الهليني، الذي كتب في حوالي بداية الميلاد، خلف معلومات تاريخية ذات أهمية قصوى. وعمله "الجغرافيا" وهو في ١٧ مجلداً يتحدث عن بلدان حوض البحر المتوسط، أفريقيا، إيران، الهند، الجزيرة العربية، مابين النهرين، أوربا الغربية وجنوب البحر الأسود. وينحو المؤلف أحياناً نحو استطراد طويل فيتحدث عن تاريخ هذا البلد أو ذاك. فنطلع، مثلاً، على كثير من المعطيات القيمة حول ماضي مدن آسيا الوسطى ومختلف مناطق هيلاد.

كان بلوتارك، كاتب سير الشخصيات السياسية الرومانية واليونانية، معاصراً لأريان وبوزانياس. وكتابات ذات أهمية كبرى في علم التاريخ، لأنه استخدم عدداً من الوثائق التي لم يصلنا منها شيء مطلقاً. وصف حياة ليكورغ، سولون، ثمستوكل، سسيمون، أرسيتيد، بيكلس، ألسبياد، دموستين، ملوك إسبارطا أجيس وكليومين (القرن الثالث قبل الميلاد) وكثير غيرهم من كبار رجالات العهود الغابرة. حفظت ٥٠ من هذه السير حتى اليوم. يبدو فيها مؤلفوها كمؤرخين، وحياة أبطالها على صلة وثيقة بالوسط التاريخي؛ لكن مهمتها الرئيسية من طبيعة تعليمية، الأمر الذي يجعلها أحياناً جزئية ضيقة المدى فالسير التي كتبها بلوتارك التي تشمل قرابة ألف عام من التاريخ القديم، هي مع ذلك ذات قيمة توثيقية كبرى. يتثير أعمال فلاسفة اليونان أيضاً الحياة الاجتماعية والسياسية لبلادهم. وهكذا أوقفت "جمهورية" أفلاطون على بناء نظام سياسي رآه مثالياً. والمسائل الاجتماعية والسياسية، كمسائل التاريخ، تشغل الجزء الأعظم من عمل أرسطو. نثبت هنا اثنين من كتبه: "السياسة" و"بناء أثينا". "السياسة" بحث واسع حول أصول الدولة، جوهرها، أشكالها، إلخ. وهي ذات أهمية كبرى لدراسة تاريخ اليونان. ويقدم مؤلف "بناء أثينا" تاريخ النظام السياسي لأثينا منذ تشكلها من أتيك *Attique* حتى نهاية حرب البلوبونير، أي حتى ٤٠٤-٤٠٣ قبل الميلاد. لم يكتشف هذا المؤلف حتى العام ١٨٩٠. ومنذئذ، تعمقت معارفنا حول الدولة الأثينية، بخاصة أن أرسطو يقدم لنا في الجزء الثاني من الكتاب، عرضاً مفصلاً عن النظام الذي كان قائماً في أثينا في حياته.

وفي كتابه "بناء أثينا" استخدم أرسطو عدداً من الوثائق، كانت المدونات والأعمال الأدبية ذات طبيعة تاريخية: الأثيد *Les Athies*، "تاريخ" هيرودوت وكمية من الحواريات المحلية. وعندما ندرس عمل أرسطو هذا، يجب أن لاننسى أنه ما كان أبداً ممن أنصار الديمقراطية الأثينية، وهذا واضح في نصوصه. و"بناء أثينا" ليس سوى جزء من عمل ضخم ضاع، بشير "سياسته". لقد كتب أرسطو وتلاميذه إجمالاً ١٥٨ "سياسته"، وبحث حول تاريخ نظام العديد من الدول المذكورة.

#### مصادر أدبية:

الإلياذة والأوديسة، قصيدتان أبدتان عن العهد القديم الهليني بقلم هوميروس، ترسمان لوحة بليغة عن حياة الشعب اليوناني منذ فجر تاريخه من القرن ١٢-٨ قبل الميلاد (سننكلم

عن هذا بالتفصيل في الفصل ٢٣، فقرة ٣). وفي نهاية القرن الثامن والسابع نبع عدد من الشعراء اليونان، شهروا بأعمالهم واقعات تاريخية. نثبث هنا بداية هيزيود، قارض قصائد تعليمية (حوالي العام ٧٠٠) حول حياة الكدح في القرى، والشعراء الغنائيين للقرنين السابع والسادس: أرشوك، ألسي، تيرتي، سولون، تيونيس، وغيرهم، تتحدث أشعارهم عن الصراع الاجتماعي والسياسي لزمانهم وهي، في الوقت عينه، ذات قيمة تاريخية. أشيل، الكاتب التراجيدي الكبير في بداية القرن الخامس، يرسم في قصيدته "الفرس" معركة سالامين التي اشترك فيها وأتم هكذا قصة هرودوت. فالكوميديات اليونانية القديمة، بخاصة كوميديات أرسطوفان، معاصر ثوسديد، كوميديات عبقرية، مقتبسة من الهجاء السياسي القاسي، ولها أيضاً قيمة كبرى باعتبارها مصادر تاريخية.

يفضل المؤرخون اليونان أن يكتبوا عن تاريخ بلادهم السياسي. وأعمال الخطباء ورجال السياسة تخولنا كشف الحياة الاجتماعية والنضال الطبقي. وخطابات العديد من الخطباء، مثل أندوسيد، ليزياس، إيزاكرا، دموستين، إشين، هيريد (القرنين ٥-٤ قبل الميلاد)، محفوظة حتى اليوم. إنها تقودنا إلى خفايا الحياة البشرية؛ والخطباء مثل ليزيلس، يكشفون أعماق الحياة الخاصة لخصومهم. وغيرهم، مثل الذين يتدخلون في الحلقات الشعبية أو ينشرون مقالات عن الشعب، يختارون موضوعاً لهم قضايا ذات راهنية اجتماعية وسياسية؛ مثل ازوكرات ودموستين اللذين عالجا القضية الدقيقة للعلاقة بين ماسدون واليونان في منتصف القرن الرابع قبل الميلاد.

### وثائق، آثار مادية

إن المنحوتات (وأكثرها على الحجارة) هي المصادر الأكثر دقة. ك منحوتة تقدم واقعة محددة من الحياة السياسية، الاجتماعية أو الخاصة بالعصر. ولقد عرف الآن عشرات الآلاف من هذه المدونات المنحوتة القديمة؛ ضم أغلبها في 'منحوتات يونانية' بـ ١٥ مجلداً (في طريقها للنشر، بعد التنقيح والتصحيح). بعضها أفعال دولة، مثل، قوانين الشرع الأثيني دراكون، القوانين القديمة لكريت، وتقارير، كشوف عن خزينة الدولة، وسواها. وغيرها شواهد قبور، يتحدث بعضها عن الحياة الخاصة. ولقد أثارت اهتماماً فريداً المنقوشات المكتشفة على الأرض الروسية، بخاصة على ضفاف البحر الأسود. وهكذا اكتشف نص اليمين المدني لشرشوزون (قرب سيباستبول الحالية)، الذي يثبت



المستوى الرفيع للحياة الاقتصادية والسياسية لهذه المدينة القديمة أيام القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد؛ ويشهد على هذا قرار مجلس الشعب على شرف المواطن بروتوجين، الذي وجد وجمع في أنقاض أولبيا القديمة (ليس بعيداً عن نيكولايف). ولقد جمع الباحث الروسي ف.لاتشيف في "مدوناته المنحوتة"، التي نشرت بثلاثة مجلدات في أعوام ١٨٨٥-١٩١٦، مدونات عن اليونان القديمة وجدت على الساحل الشمالي للبحر الأسود.

والآن، تحرر من الأنقاض المصرية نصوص كتبت على ورق البردي، أي وثائق تاريخية من نوع آخر، عثر عليها في مصر أثناء التنقيب. إنها، أولاً، حسابات لاحتصانها، ومخالصات، وغيرها، مثلاً المراسلة الواسعة لأبولونيس، الموظف الكبير والمالك العقاري واسع الثراء، مع وكيله زينون). إنها أيضاً رسائل، وتمارين طلاب، وأوامر، وسواها. كتب عليها نصوص قضائية تميز المحاكم والعلاقات بين مختلف فئات الناس. وتتضمن بعض أوراق البردي أعمالاً أدبية عن اليونان القديمة، لم تكن سليمة، بل فقرات مشتملة. هكذا نص "بناء أثينا" لأرسطو، ما كان قد وجد في العام ١٨٩٠ على ظهر ورقة بردي (ترجع إلى العام ٧٨ قبل الميلاد) تتضمن تقريراً لمدير الملكية. وعلى أوراق البردي هذه وجدت بعض النصوص الأدبية الهلينية (كوميديات ميناز، مثلاً).

على ذلك، هي ذي مواد علم الآثار، بقايا المدن، والصروح المبعثرة ومنشآت أخرى، وأيضاً مواد الاستهلاك الأهلي، هي خير من يطلعنا على اليونان القديمة. وكل أرض البلقان تقريباً، والعديد من جزر بحر إيجه، وشواطئ آسيا الصغرى، وسواحل البحر الأسود، وسيسليا وجنوب إيطاليا هي نوع من متحف واسع في الهواء الطلق. يحقق فيه علماء الآثار من مختلف البلدان تنقيباتهم منذ زمن بعيد. لكن أعمال التنقيب لم تأخذ مداها إلا في النصف الثاني من القرن ١٩.

تمكننا الحفريات الأثرية من إعادة تركيب مقبرة دلف الشهيرة، بمعابدها، ونزلها، وشارعها، وطريقها السري، وكنوزها العديدة، التي بنتها الدول اليونانية لحماية الهبات. ولقد رفع الركاب عن مدن بكاملها بشوارعها، ميادينها، قاعاتها، مسارحها، مدارسها، معابدها ومسكنها. وكانت المؤسسات التعليمية تضم أيضاً لوائح الطلاب، بأسمائهم ومناقبهم التي يدونها المعلمون. وأيضاً، في الجهة الصحراوية اليوم من آسيا الصغرى، حررت مدينة بريان *priene* الصغرى، ومدينة أولينث *olynthe* وغيرها، عادت كلها إلى النور مرة أخرى.

لقد عثر علماء الآثار السوفيات: ب. فارمكسفي، ف. بلاتفسكي، ف. غيدوكفتش، ت. كنيوفتش وغيرهم على الساحل الشمالي للبحر الأحمر شوارع، أسوار وأبراج مدن اليونان القديمة الكبرى، مثل أولبيا، شرزونيوز وغيرها. وتمت مكتشفات هامة على يد البحاثة السوفيات في شرق القفقاس (أرمينيا وجيورجيا) وفي آسيا الصغرى. وقد حرر الأستاذ تولستوف، مثلاً، في خوارزم أنقاض ميادين منيعة، وحقولاً مغطاة بنثار الخزف، ووثائق من كل نوع مطبوعة على الجلد ومحفورة على الخشب يسمح حل رموزها بكشف سر هذه الحضارة المنسية التي كانت، كما هو معروف اليوم، مرتبطة ارتباطاً متيناً بحضارة اليونان.

والنقود القديمة والصور المحفورة عليها، ووزنها وكمية المعدن فيها، إلخ. يتم كل هذا معرفتنا بتاريخ اليونان القديم. وعلم المسكوكات، أثمن مساعد للتاريخ، قدم منذ عشرات السنين إنجازات هامة في الاتحاد السوفياتي، في مجال دراسة النقود *Historiographie*.

### نتائج المؤرخين

منذ عصر النهضة، أي يوم شكلت البورجوازية طبقة، يتحقق هدف إعادة إحياء تاريخ اليونان القديم، الذي حاولت البورجوازية احتكار تراثه الثقافي الثر. فمنذ هل القرن التاسع عشر بدأ بوضوح الاهتمام الكبير بتاريخ اليونان القديم؛ وقد دفع النضال من أجل الديمقراطية البورجوازية الساسة، القضاة، المؤرخين ونقاد الأدب إلى دراسة النظام الديمقراطي في دول يونان العبودية، بخاصة في أثينا. وهكذا، رأى ج. غروت، المؤرخ الإنكليزي المعروف في النصف الأول من القرن ١٩، الذي تحدث في "تاريخ اليونان" الذي في ١٢ مجلداً (١٨٤٦-١٨٥٦) عن نظام أثينا، رأى أن هذا النظام يمكن أن يكون نموذجاً لكل ديموقراطية بورجوازية. وفي "التاريخ الهليني" بثلاث مجلدات، للعالم الألماني درويزن، والذي سبق "تاريخ اليونان"، يصور مقدونيا القديمة نموذجاً أول لبروسيا. مع أن هذه التشبيهات للتاريخ القديم تفقر كثيراً المنتج التاريخي البورجوازي للقرن ١٩، لم يتوان أحد عن دراسة المناهل الأولى، وتطوير النقد، وعلى هذه القاعدة شيد تاريخ اليونان.

كانت قضايا الحياة الساسية والثقافية في اليونان القديمة هي التي تشد الاهتمام قبل كل شيء. أما في روسيا، كان علم العهود القديمة، حتى في فجر وجوده، أكثر تقدماً مما في الغرب، لأنها كانت تطرح مسائل أعم؛ وكان النتاج التاريخي الروسي أول من تصدى لما

يخص الحياة والنضال الاجتماعي في اليونان القديم. فمؤلفات م. كوتورغا، الأستاذ في جامعة بطرسبورغ (١٨٠٩-١٨٨٦)، اشتهرت حوالي ١٨٤٠-١٨٥٠. حدد كوتورغا الوقائع الرئيسة في نظام أثينا السياسي ووضع لوحة عريضة للحياة الشعبية في اليونان. وفي كتابه "وضع العبيد والمحربين في الجمهورية الأثينية، كان أول باحث في العالم نهض لهذه الموضوعات وعمقها. وأبرز أيضاً العلاقة بين تطور الثقافة الروسية وحضارة اليونان القديمة. وفي العام ١٨٦٩، يظهر مؤلف هام لـ ف. فاسيلفسكي "الإصلاح السياسي والحركة الاجتماعية في اليونان القديمة في زمن الانحطاط" الذي لم يفقد قيمته حتى يومنا هذا.

وفي النصف الثاني من القرن ١٩ تشب ثورة حقيقية في دراسة تاريخ اليونان، وفي علم التاريخ بشكل عام، انبثقت بسبب نشر الأعمال العبقريّة لكارل ماركس وفريدريك أنجلز، بخاصة "رأس المال" (ظهر الكتاب الأول في ١٨٦٧)، وكتاب فريدريك أنجلز "أصل الأسرة، الملكية الخاصة والدولة"، المنشور في العام ١٨٨٤. ولقد أوقف الفصلان الرابع والخامس من هذا الكتاب على ("العشيرة اليونانية") و"انبعاث دولة أثينا" اللذان يتحدثان عن القضايا الجذرية في تاريخ اليونان.

في هذه البحوث الهامة، يؤسس مؤسس الماركسية القوانين الرئيسة لتطور المجتمع ويضعان حجر الزاوية للتاريخ باعتباره علماً قائماً برأسه. وكان ماركس وأنجلز أول من مزق النقاب عن صورة العبودية للإنتاج اليوناني، وبالتالي، الخصيصة العبودية للمجتمع اليوناني وثقافته. لكن هذا لم يمنعهما عن تقويم عالياً أهمية هذه الحضارة. "لكن الصعوبات ليست في وعي أن الفن اليوناني والملحمة مرتبطان ببعض أشكال التطور الاجتماعي. إنما تكمن الصعوبة في أنهما يقدمان لنا متعة وجمالية وهما لنا، من بعض الوجوه، قيمة المعايير والنماذج العسية.<sup>١</sup>

وحوالي نهاية القرن التاسع عشر، يشد التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لليونان أكثر فأكثر اهتمام المؤرخين الغربيين. وقد ظهرت نشرات جديدة لمنحوتات يونانية تسمح بتعميق التغلغل في اقتصاد الهلاد. (نشر هذه المدونات والنقوشات لأول مرة جزئياً أوغست

---

١-ك. ماركس. "مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي"، ص ١٧٥.

بوك الذي كان قد بدأ هذه المهمة في بداية القرن التاسع عشر).

وليس قليلاً ماكتب حول التطور التاريخي لمختلف فروع الاقتصاد في اليونان القديمة: الزراعة، المهن، التجارة وغيرها. وتشغل هذه المسائل، ومسائل النضال الاجتماعي والعلاقات الطبقيّة، من الآن فصاعداً حيزاً واسعاً في المؤلفات حول تاريخ اليونان. وفي أثناء انتقال الرأسمالية إلى محطتها الأعلى، الإمبريالية، ظهر من جديد انعطاف لتحديث التاريخ القديم. هكذا، كتب البحاثّة الألماني إد. ماير 'تاريخ العصور القديمة به مجلدات (كانت النشرة الأولى في العام ١٨٨٤)، حيث يرسم لوحة مزمنة لتاريخ الشرق، اليونان وروما من الأصول حتى منتصف القرن الرابع قبل الميلاد. وهو يحل ويدرس المجتمع والاقتصاد في اليونان، يرى المؤلف فيها "علاقات اقطاعية" في محطتها الأولى وحتى "الرأسمالية" في المرحلة التالية، مع الـ"معامل"، الـ"مصانع"، الـ"مصارف"، وغيرها، كمؤسسات تبعثها الرأسمالية ليس إلا. فضلاً عن هذا، يقدم النظرية الدورية القائلة إن البشرية، في مختلف الأزمنة والأمكنة، تعبر المراحل ذاتها من ارتقائها، المفضية إلى الرأسمالية؛ ويرى أن التقدم يقف هنا، وليس له سوى العودة على عقبه، الالتفاف إلى علاقات أكثر بدائية. إن النظرية الدورية، بدون نقاش، سلاح إيديولوجي للبورجوازية الإمبريالية في نضالها ضد الثورة البروليتارية والاشتراكية. وروبير بوهلمن، كاتب 'تاريخ الشيوعية والاشتراكية القديمتين"، هو الآخر من أنصار هذه الرجعية؛ فهو "يكتشف" في العالم القديم، ليس فقط، هذه الحرمات المعاصرة، بل يجهد للبرهنة أنها بالضبط سببت انحطاط الحضارة القديمة العظيمة. و"التاريخ اليوناني"، العمل الضخم للمؤرخ الألماني ج. بلوش (ظهرت الطبعة الثالثة بأربعة مجلدات في العام ١٩١٢ و ١٩٢٧) رغم طبيعته المعتدلة لا يقل عن غيره حداثة. ومثل ماير وبوهلمن، ينكر بلوش الطبيعة الرقويّة للاقتصاد اليوناني؛ بل يحجم عدد العبيد في اليونان طيلة حقبة الازدهار، ويبالغ بدور الإجارة. لكن العالم الفرنسي غلوتز ينطلق من مفهومات مغايرة تماماً، وأكثر صحة. بعيداً عن نصرة الماركسية، اتّبع في مؤلفاته مبادئ فوستل دي كولانج، وهو يشير إلى دور المشاعية والتنظيم الوثني في تاريخ اليونان. وبوضوح يتعاطف في كتاباته مع الشعب الكادح. كان الـ"علم" التاريخي الفاشي في ألمانيا يسعى إلى مثالية إسبارطة بنظامها العسكري والعبودي، وتمجيد الغزاة "الكبار" أمثال إسكندر المقدوني. ويرى مؤرخ ألماني أن انهيار

الحضارة الكريتية ناجم عن تحرير النساء. إجمالاً، يهمل المؤرخون البورجوازيون الحديثون المسائل الاجتماعية والاقتصادية والقضايا العامة في تاريخ اليونان. إن المؤلفات حول تاريخ اليونان ذات طبيعة وثائقية أكثر منها بنائية. وحتى العمل الضخم بأربعة مجلدات - لأرثر إيفانس "قصر منيوس"، الذي ظهر في لندن بين عامي ١٩٢١-١٩٢٣، يزودنا بواقعات ثمينة، دون أن يحدد العلاقات الاجتماعية في كريت، وكذلك "تاريخ كمبريدج القديم" المؤلف بالتعاون لمؤرخين إنكليز (الطبعة الثانية ١٩٢٣)، الذي خصصت كتبه ٢-٧ لتاريخ اليونان. و"تاريخ اليونان" لبجستون يغرق في نفس العيوب. تثبت هنا النجاح الضخم الذي حققه في هذه الأيام العلماء الأجانب في مجال علم الآثار والكتابة النقشية. مثلاً، كان المؤلف ذو الأربعة مجلدات لميريت، وود-جيرري وماكفرغور "اللوائح الأثينية لأتاة الأحلاف (كمبريدج، ١٩٣٩-١٩٥٠) كان ذا قيمة كبرى، لأنه يطلعنا جيداً على تاريخ أثينا والقسم الأعظم من هيلاد في القرن الخامس. وكان لحل رمز الكتابة B ميسنين على يد العالمين الإنكليزيين فانترس وشادفيك أهمية ضخمة جداً: فقد ألقى قبساً على التاريخ اليوناني من الحقبة الميسيني، التي لم تكن معروفة إلا من البقايا الأثرية.

لقد قدم العلم الروسي من نهاية القرن ١٩ حتى بداية القرن ٢٠ عدداً من العلماء الكبار، الأخصائيين بالعصور القديمة وخاصة اليونان. فقد نشروا عدة مؤلفات كان بعضها ذا طبيعة عامة وعالج بعضها مسائل نوعية. وأتت المساهمة الكبرى على يد الأكاديمي ف.لاتشيف، مؤلف الأعمال المؤسسة على دراسة النقوش القديمة المكتشفة على الساحل الشمالي للبحر الأسود (انظروا ما ورد أعلاه)، مثل "دراسة في تاريخ أولبيا القديمة ونظامها السياسي (١٨٨٧) ومقالات حول تاريخ مملكة البونت ١ pont (١٩٠٩). وله أيضاً نحن مدينون بـ"بحث في عهود اليونان القديمة في مجلدين (١٨٨٠-١٨٨٩). تفيد الطبعة الثالثة من هذا الكتاب (١٨٩٧-١٨٩٩) اليوم أيضاً كدليل بين يدي المهتمين بدراسة تاريخ اليونان القديم. ومهمة جداً أيضاً مؤلفات س.جبليف "أثينا في ٢٢٩-٣١ قبل الميلاد" صدر

---

١ - مملكة في شمال-شرق آسيا الصغرى، على جسر أوخن، أعلن استقلالها عن الفرس في العام ٣٠١ قبل الميلاد. كانت منيعة جداً في أيام مثيريدات السادس، عرفت بصراعاها ضد الرومان، الذين احتلوها في العام ٦٣ بعد الميلاد.

في العام (١٨٩٨) وأكاي *Achaie* (١٩٠٣) وبقلم م. كفوستوف "التجارة الشرقية بين مصر واليونان والرومان" (١٩٠٧)، وف. بوسسكول "بيركلس" (١٨٨٩).

العلم السوفياتي استوعب بفكر ناقد التراث الغني للمنتوج التاريخي الروسي قبل الثورة، خلق على أساس الماركسية-اللينينية أسلوباً جديداً، علمياً حقاً لكشف التاريخ القديم، بخاصة تاريخ اليونان. هذا الأسلوب هو أساس الدراسات الشاملة لتاريخ اليونان، مثل: س. كوفاليف، "تاريخ المجتمع القديم". "اليونان" (الطبعة الثانية ١٩٣٧)، و"تاريخ العهود القديمة" (١٩٣٧)؛ س. لوريه، "تاريخ اليونان" (١٩٤٠)؛ ف. سرغيف، "تاريخ اليونان القديم" (الطبعة الثانية ١٩٤٨). يتضمن هذا الكتاب الأخير جملة من التراجم الشخصية لكل حقب تاريخ اليونان القديم.

وفي الأعوام التي تلت الحرب ظهر "اليونان القديمة" (١٩٥٦)، سفر لمجموعة من من الباحثين السوفيات، و"بحوث في تاريخ اليونان القديم" (١٩٥٨)، بقلم ك. كولوبوف ول. غلوسكين. وعشرات المؤلفات الأخرى.



## الفصل الواحد والعشرون

### طبيعة اليونان

كانت اليونان القديمة تشغل متسعاً من الأرض يبلغ (٦٤٥٠٠ كم ٢ فقط) لكنه شديد التنوع من الزاوية الجغرافية. كانت تضم: (١) جنوب شبه جزيرة البلقان؛ (٢) الجزر الإيجية والأيونية؛ (٣) الأضلاع الغربية من آسيا الصغرى. وكانت تشغل اليونان القارية (البلقانية ربع اليونان كلها ولم تكن سوى شبه جزيرة مقسمة بين خلجان وسلاسل جبلية إلى ثلاثة أقاليم متميزة: الشمال، الوسط والجنوب أو بليونيز. ويتألف اليونان الشمالي نفسه من منطقتين: إيبيريا وتساليا. والبقعة الأهم من اليونان الأوسط من الزاوية السياسية هي الأتيك وبيوتيا، وهما في الشرق. وكانت أهم مناطق البليونيز الأرغوليد، لاكونيا، مسينا، إيليد وأركوديا.

تعلل هذه القسمة المتميزة لليونان القاري بأن الجبال تشرخها في كل اتجاه، بخاصة السلاسل الأعلى من ٢٠٠٠م المتجة من الشمال إلى الجنوب. وتنقسم اليونان إلى قسمين: الغربي والشرقي؛ في شمال اليونان، تقع سلسلة البند *Pinde*؛ وفي الجنوب (بليونيز)، وكتلة أشاي العريضة وأركاديا تتفرع في الجنوب إلى سلسلتين: في الشرق، البارنون، في الغرب، التايجت. من هذه السلسلة الرئيسة، تتطلق نحو الشرق عدة ملتقيات متوازية. وهكذا، في شمال اليونان، بين مقدونيا وتساليا تنتصب عدة قمم أعلاها الأولمب، ٣٠٠٠م. تحجز الجبال فيما بينها الوديان التي يتبع أغلبها مصبات الأنهار. تشكل السهول إجمالاً أقل من ١/٥ اليونان القارية. وفي الشرق مضائق ومعابر (وادي تامبي في الشمال، وتوفر ترموبيل إمكانية واسعة لتواصل وتنشيط بالتالي التطور الاقتصادي والاجتماعي.

وبينما تعزل الجبال المناطق والدول، يعزز البحر المواصلات الخارجية بين المشاعات اليونانية. تفضي الشواطئ المتعرجة إلى تطوير مبكر بالإبحار. من هذه الزاوية تصادف الشروط الجغرافية الأكثر مواءمة في شرق شبه الجزيرة وفي غرب آسيا



الصغرى، ذات الشواطئ المقطعة والتي تقدم عدداً كبيراً من الخلجان الصغيرة التي تسكنها رياح الجبال. في اليونان الوسطى والجنوبية لا يوجد أرض تبعد عن الشاطئ بأكثر من ٥٠ كم. ومن كل قمة عالية يشاهد البحر. فضلاً عن هذا، تشكل جزر بحر إيجه الكثيرة (الأرخبيل) سلاسل مستمرة، من شبه جزيرة البلقان حتى شواطئ آسيا الصغرى، حتى أن البحارة القدماء الذين يتبعون خط السير هذا، لا يفقدون رؤية الأرض.

الجزر الإيجية مقسمة إلى مجموعات. في الغرب جزيرة أوبي الكبرى، التي تمتد بالتوازي على الشط الشرقي لليونان الوسطى. غنية بخاصة بالقمح، كانت تمون به حتى الأتيك. وإلى الشمال، على طول شواطئ تراس، تتابع جزر ثاسوس، ساموتراس، ليمنوس، إمبروس وتندوس؛ وفي الشرق، بعض الجزر الواسعة تمتد أمام شاطئ آسيا الصغرى: لسبوس، شيووساموس.

في القديم، كانت جزر بحر إيجه تقسم إلى مجموعتين: السيكلاد والسبوراد. في السيكلاد تتكوكب ٢٤ جزيرة كبيرة و ٢٠٠ صغيرة، نصفها يحيط بديلوس. كانت هذه الجزيرة الضيقة الأبعاد مركزاً لتجارة نشطة ولعبادة أبولون-الدلفي، إله البحار. من كل هذه الجزر التي تحيط بديلوس، كانت الأهم هي باروس، حيث صناعة الرخام الأبيض، وناخوس، أندروس وغيرها. وبعدها، باتجاه آسيا الصغرى، تتدرج جزر سبوراد وأكبرها رودس.

في جنوب غرب بحر إيجه، توجد جزر سيثير وإجين. في الجنوب، تصل هذه الكثرة من الجزر إلى كريت، أكبرها وأخصبها، والتي كانت موطن حضارة قديمة جداً. وفي شرق كريت، ليس بعيداً عن الشواطئ الجنوبية لآسيا الصغرى وسوريا، في البحر المتوسط، تقع جزيرة قبرص، الغنية بمعدن النحاس؛ بالغابات، بالكروم والزيتون.

في أشهر الصيف الهادئة، يفيد البحارة أيضاً من انتظام الرياح والتيارات البحرية التي تتجه من البحر الأسود إلى أتيك وبلبونيز. يسر كل هذا إقامة تواصل بين اليونان والشرق الأدنى بلغت درجة متقدمة بالتطور وأفادت اليونان أكثر من الدول الأوروبية الأخرى بكنوز حضارتها.

في البحر الأيوني، بين اليونان وإيطاليا ويسياليا، ثمة قليل من الجزر: فقط كورسير، لوكد، سفالينا وإيتيك، قرب شواطئ اليونان الغربية. لذا كانت المواصلات بين هيلاد

وإيطاليا صعبة جداً. لكن اليونان مضطرة إلى استيراد القمح من هذا البلد ذي التربة الأخصب.

يدنو مناخ الشاطئ اليوناني، المعتدل والحر، من المناخ الاستوائي. وفي المناطق الجبلية فقط، وبخاصة في إبييريا، يلاحظ الجليد والحراصف الثلجية. إنه المناخ الذي حدد أسلوب حياة اليونان، سكناهم وملابسهم. في البيوت، تلعب الباحة الداخلية، المزنة بالإقاريز التي تحملها الأعمدة وتقي الناس من حر الشمس، تلعب دوراً رئيسياً؛ وكانت الصروح العامة والمعابد محاطة بالأروقة والأعمدة. والقمصان الصوفية أو الكتانية ألبسة لليونان، لكنهم عندما يخرجون يلبسون فوقها معطفاً صوفياً بدون أكمام. وينتعلون الأحفاف، المبطنة بالفرو في الشتاء. وكجميع سكان الأبيض المتوسط، كان قدماء اليونان ثنوعين بطعامهم. يتكون غذاؤهم أساساً من منتجات الطحين، البقول، الزيتون، الجبن، التين اليابس، السمك المملح، المستورد بكميات كبيرة من مملكة البونت *Pont*.

لا تتمتع اليونان بمساحات واسعة لبذر الحبوب (شعير، ذرة، دخن). أوسع السهول موجودة في تساليا، بيوثيا، لاكونيا ومسنا. والقيظ (تبلغ الحرارة ٤٠°) وجفاف الأنهار، لقلة المطر، تشكل عقبة أخرى في وجه الزراعة. ثم، في أغلب أقسام اليونان، أخذت زراعة الكرنب والزيتون، التي تتطلب عناية واسعة وإعداد أرض على سفوح الهضاب، والري، أخذت الاهتمام الملحوظ. إجمالاً، ووفرت أفضل الشروط الطبيعية مناطق شرق اليونان القاري، المغطى بالأحراج، بالشوح، بالسنديان والكستناء؛ في الوديان ينمو السور، الغار الجبلي الذي لا يلائم سوى تربية الدواجن.

وتربة اليونان غير خصبة، لكنها غنية بمواد البناء ومختلف المعادن. كانت لاكونيا غنية بمعادن الحديد؛ أوبي (منطقة شاليسيس) وقبرص بمعادن النحاس؛ في الأتيك، تستخرج شرائح الفضة؛ وفي تراس (وادي سترمون) يستخرج الذهب. وتحتضن أتيك، كورنثيا، أوبي وبيوثيا، الفخار بكميات ضخمة، موزعة في صنع الأواني الفاخرة. ليس بعيداً من الأتيك، في جزيرة سيوس، كان يوجد أكسيد الرصاص لطلي الفخار. ولقد أفضى كل هذا إلى تطور مبكر بالحرف التي، كما الزيت والخمر، لم تكن تستخدم في البلد، بل تصدر وتبدل بالقمح وباقي المواد الغذائية الهامة (لحم مملح، سمك، إلخ).

هكذا، رغم ضيق أبعادها ومناهلها الطبيعية، تمتلك اليونان كل الشروط الضرورية

لتطورها التاريخي: وضع وسيط بين آسيا الصغرى وشبه الجزيرة الإيطالية، بحر يواثم العلاقات مع شرق وجنوب البلدان المتحضرة وكل ما يبعث على تطوير المهن والتبادل.

## الفصل الثاني والعشرون

### الحضارة الإيجية

#### الاكتشافات الأثرية في القرنين ١٩ و ٢٠

لا يعرف اليونان القدماء الشيء الكثير عن الماضي البعيد لبلدهم. يفترض توسيديد وطنه مسكوناً بشعوب غريبة يسميها "بيلاسج"، "كارمن" و"ليجير". ونسب لهم منشآت حجرية ضخمة، سميت "العملاقة" (أي التي بناها العملاقة). تتحدث الخرافات عن دولة عظمى بحرية لملك كريت مينوس وقصره الواسع، اللابريث، وملك مسينا أغامنون الذي شن حرب طروادة.

لم يكن العلماء الأربيون أبداً أحسن معرفة حتى الربع الأخير من القرن ١٩. إنما في العام ١٨٧٠ و ١٨٨٠، تمت اكتشافات هامة فيما يخص العهود القديمة الكلاسيكية: فقد نشو عالم الآثار الألماني المعروف هنري شلمان في العام ١٨٧٤ كتاباً بعنوان "عهد طروادة القديمة وفي العام ١٨٧٨ و ١٨٨٦، ظهرت عدة كتب أخرى: مسينا، إيليون، طروادة وتيرانث. ولقد قال هذا العصامي والكاشف الجلود للكنوز التي كانوا يسخرون منه بشأنها، قال إنه كشف طروادة هوميروس، مقابر ومواد ثمينة في مسينا، تعود أصلاً إلى زمن أبطال الإلياذة والأوديسة.

لكن تبين حالاً أن هذا العالم لم يحترم جيداً مكتشفاته. فعالم الآثار دوربفلد، الذي كان أكثر الناس شكاً بعمل شلمان، قرر أن ينهض لمساعدته في بداية ثمانينات القرن الماضي. ودل فيما بعد (١٩٠٢)، أن شلمان كان قد خدع في تقويماته التاريخية وأن لقاءه تعود إلى عصر أقدم بكثير، لا يعرف عنه العلم شيئاً حتى آنئذ. إذ أثبتت مكتشفات شلمان وجود، في الألفين ٢٠٣ قبل الميلاد، في جنوب شرق أوروبا، حضارة تشبه بألقها وعظمتها حضارات الشرق الأدنى.

ولقد ظهر أن مااستخلصه دوربفلد غير قابل للنقاش، عندما دل في بداية القرن ٢٠

عالم الآثار الانكليزي آرثر إيفانس بتنقيباته في جزيرة كريت أن سلمان ودوريفلد لم يعطيا شيئاً عن المواطن الرئيسية لهذه الحضارة، التي كانت عالية القيمة في كريت ذاتها، وأنها أعظم وتتجاوز حتى حضارات ميزوبوتاميا والنيل. وفي مؤلفه ذي الأربعة مجلدات "قصر مينوس"، يعرض إيفانس نتائج ثلاثين سنة من التنقيب. وبمتابعة التنقيب، يتحدد في التاريخ الإنساني دور هذه الحضارة قبل-الهيلينية، المسماة "إيجية".

على ذلك نشير أن هذه المعطيات الحديثة لم يستوعبها العلم التاريخي أبداً. ولم يوضع بعدُ تأريخ مقبول بشكل عام. والتأريخ الأشهر هو الذي يقترحه إيفانس. إنه يميز ثلاث حقب مينوون (نسبة إلى اسم الملك الخرافي مينوس) تتناسب تقريباً، في الزمن، مع الإمبراطوريات الثلاث التي مرت على مصر: (١) منوين القديم (٣٠٠-١٠٠ قبل الميلاد)، (٢) منوين الوسطى (٢١٠٠-١٥٨٠)، (٣) منوين الحديثة (١٥٨٠-١٢٠٠). لكن أغلب الأخصائيين، وقد قبلوا هذا التقسيم فيما يخص كريت التي كانت على اتصال مع مصر، يستخدمون باقي مناطق الحضارة الإيجية دورية خاصة، توازي الأولى. هكذا، لليونان القاري، ثبتت القسمة الهلادية القديمة، الوسطى والحديثة (أو مسينا). فحضارة اليونان الجزيرية -نسبة إلى جزيرة- تسمى حضارة العملاقة.

### المرحلة الأولى من الحضارة الإيجية في اليونان *Le chacolitique en Grece*

لدراسة التاريخ البدائي لبلدان حوض إيجة، نطرق باب علم الآثار المعتاد (النقش على الحجر، عصر البرونز، عصر الحديد الأول). فالنقش على الحجر (٣٠٠-٢١٠٠ قبل الميلاد) هو المرحلة الأولى للحضارة الإيجية. ومركزها في أرخبيل الجزر العملاقة التي تشكل نوعاً من الجسر عبر بحر إيجة. لكن أرضها أوسع بكثير: ويكتشف أيضاً فيكريست (طبقات منوين سفلى)، في بلوبونيز (هيلاد القديمة) في اليونان الوسطى، على الشواطئ الغربية لآسيا الوسطى (طبقات سفلى من طروادة، تسمى "طروادة الأولى"، "طروادة الثانية"، ضيعة ترمي في جزيرة لسبوس). كانت هذه الحضارة نتيجة الثقافات عالية التطور في العصر الحجري الأعلى التي عاشت طويلاً في حوض بحر إيجة. ففي تلك الحقبة الزمنية كانت الأدوات الحجرية هي المسيطرة، إجمالاً. لكن صناعاتها أتقنت إلى أعلى درجة: صنع بعضها من حجر نادر، السيج<sup>١</sup>، وتبدو كنصل حاد. لم تصادف طبقات السيج

<sup>١</sup> - حجر زجاجي أسود.

إلا في جزيرة ميلوس، إحدى جزر العمالقة. وجد هنا سابقاً مزرعة صغيرة (فيلاكوبي *Phylakopie*)، كان سكانها يستخرجون السبج، يصنعونه وينشرون هذه الأدوات، الثمينة جداً في تلك الحقبة.

عدا الحجر، يبدأ استخدام المعدن، أولاً النحاس، ثم البرونز البدائي (المتضمن تقريباً ٩% من القصدير). مع أن البرونز والنحاس مايزالان نادرين لايفيان إلا لصنع بعض الأسلحة (بلاطات بدائية، بدون تقب، خناجر) وبعض الحلي (دبابيس شعر). وللتزين، يستخدم أيضاً الذهب: وفي إحدى الطبقات القديمة لطروادة (طروادة الثانية)، اكتشف سلمان كنزاً من ثمانية آلاف مادة ذهبية (سميت تحكماً "كنز بريام"، نسبة إلى ملك طروادة الوارد في الإلياذة). باختصار، كنا مازل في عصر النقش: على النحاس والحجر، حيث كان استخدام المعادن في بداياته وتهيمن فيه الأدوات الحجرية.

تثبت لنا التقنية وجود نظام اقتصادي واجتماعي في بداية تطوره.؟ والاهتمام الأساس، استناداً إلى علم الآثار، الصيد، التكنجين الضيق، حرث الأرض بالمنكاش والمقايسة البدائية المترافقة باللصوصية والقرصنة. (من هنا أتى تكديس الثروات مثل "كنز بريام". والأواني المنزلية الضخمة الفخارية وغير المتقنة تصنع باليد، بدون تدوير، والمشربيات كانت بأشكال غريبة من الجرار والأباريق -منقار الطير- وأبراش بوجوه بشرية ("إجانات جبهية")، أكواب مزدوجة، إلخ. لم يكن طلي الفخاريات قد عرف بعد، بل رسوم هندسية فقط.

كان الناس يعيشون عامة في بيوت دائرية أو بيضوية، بقية واضحة من الخوص لكن هذه المساكن كانت واسعة جداً (حتى ٢٣٠٠م)، فيها عشرة محال وتؤوي عدة تعاونيات، حتماً من نفس العشير. وكانت القبور أيضاً جماعية: "نواويس" العمالقة، قبور حجرية بشكل صندوق، وكانت الأقبية الدائرية العمالقة الكريتية تضم أحياناً حتى ١٠٠ هيكل عظمي.

لكن يجب أن نعرف أن نظام العشير كان يتفكك. كانت فيلا كوبي *PHYLAKOPIE*، في جزيرة ميلوس، مدينة حقيقية بشوارع مستقيمة، وأعمال الاستحكام والمناعة. تظهر الطبقات السفلى في طروادة (طروادة الأولى والثانية) عن وجود مساكن محصنة جداً، تمتاز عن المجموع بثرأماً. أضخمها صروح طروادة الثانية. إنها تكتن أو قلعة مخيفة ذات أسوار عملاقة، مبنية على متراس من آجر الفيضانات. مسلح بالخشب. والأسوار مجهزة

ببواب منيع بمهارة. ويمكن الباب السري المدافعين من أن يباغتوا المهاجمين من الخلف. في وسط الثكنة أو الحصن، ينهض بيت القائد المدعم، بباحته المبلطة. يفضي دهليز طويل إلى قاعة واسعة، في وسطها موقد دائري. إلى جانبه مسكن أضيّق، خصص على الأرجح للنساء. والقائد المقيم في مدينة كهذه ليس شيئاً بسيطاً، بل مستغل رعاياه، غير القادرين على النضال ضد هذه التحصينات التي بنوها بأيديهم.

في أيامنا هذه، لا يمكن للأسف أن نعرف شيئاً محدداً عن أصل هذه الرعايا التي عاشت على ساحل بحر إيجه. فالليونان، كما أشرنا، يتحدثون عن الرعايا المتأصلة على ضفاف آسيا الصغرى - كاريان، بلاسج وليليج - الذين سكنوا قبلهم بحر إيجه كله. وقد تأكد أن السكان الإيجيين من عصر النقش على الحجر كانوا قد أتوا من آسيا الصغرى، بدلالة طبيعية المواد الأثرية والمعطيات الواقعية<sup>١</sup> (أسماء الجبال، الأنهار والبقاع القائمة حتى الآن في كثير من مناطق اليونان، مثل: بارناس، سفيز، لاريسا، كورنث، إلخ). مع ذلك، تبقى القضية معلقة.

### عصر البرونز

لقد وسمت المرحلة الثانية من الحضارة الإيجية بتفتح عصر البرونز في جنوب-شرق أوروبا، يقابل ازدهاراً مماثلاً في مصر (الامبراطوريتان الوسطى والحديثة) وحضارة ميزوبوتامي. إن هذه الحقبة الواقعة بين ٢١٠٠-١٤٠٠ قبل الميلاد، هي أوج الثقافة الكريتية (مينويين الأوسط والنصف الأول من مينويين الحديث، حسب إيفان).

كانت كريت آنذاك صلة وصل بين البلدان المتحضرة في العهود القديمة. وضعها الجغرافي الموائم متمايز بأرسطو في "سياسته". ويصيح هومير ذات الفكرة في هذه العبارات البليغة:

ثمة في وسط البحر الواسع

جزيرة اسمها كريت

رائعة وخصبة، معطاء، وغاصة بالسكان،

تلتحق بها ٩٠ مدينة جميلة

سكانها لا يتكلمون اللهجة ذاتها

(أوديسة، أغنية ١٩، ١٧٢ وما بعد)

<sup>١</sup> - دراسة لغوية أو تاريخية لأصل أسماء المواقع الجغرافية.

وفي الحقبة ذاتها، يجب أن نشير إلى سبب آخر لانطلاقة كريت: كانت لكل الحضارات الشرقية للعهد البرونزي مركزاً وسيطاً بتجارة القصدير. يأتي القسم الأكبر من هذا المعدن الضروري لصناعة البرونز من الغرب، من شبه الجزيرة الإيبيرية، وكريت التي تراقب النقل، فتمسك هكذا مفتاح الصناعة الأساس في الشرق - الأدنى. تحتجز منه ماتشاء وتصنع البرونز نفسه (كان النحاس يستورد من قبرص. فلم تكن كريت إذن تلعب دور الوسيط فقط، بل دور المنتج أيضاً.

وبلغت تقنياتها واقتصادها مستوى استثنائياً. احتل التعدين المقام الأول: صنعوا من البرونز بلطات متقنة مزدوجة، خناجر، سيوفاً طولها متر، دقيقة، صقيلة، حادة، وحلي النصل بالذهب حسب الفن الدمشقي. وتحلي كؤوس وقطع ذهبية وفضية وتزين المنحوتات بدقة لاقرين لها. ولقد اكتشفوا السبيل لصنع أسلاك معدنية، نتيجة هذا صارت الحلزنة الدافع المفضل للتزيينات الكريتية.

. وكانت الصناعة الهامة الأخرى هي السيراميك، استخدمت بسعة دولا ب الخزاف والفرن المتقن. بأناقة الأشكال والرسوم التزيينية، لم يحتضن الشرق الأدنى كله مشربية أجمل من المشربيات الكريتية؛ والتي تصدر أيضاً إلى مصر، سوريا وأبعد نحو الشرق. وكان النسيج متطوراً جداً هو الآخر، بدلالة ثياب النساء المعقدة الملونة والمحلاة بالرسوم. ولابد من الإشارة إلى رسوم الأختام. والخواتم التي تزين أصابع الأرسقراطيين، والأطواق المعلقة التي تنقل أعناقهم، أذرعهم، أرجلهم وصناديقهم.

. تطور الزراعة ثابت بالخوابي الضخمة العارمة بالقمح، بالخمير وزيت الزيتون. وبقايا المرافئ والورشات وأحواض السفن، وكثير من صور المراكب تشهد على إبحار متطور وتجارة عابرة نشطة. وبصدد النقود، كانوا يستخدمون سبائك نحاسية بشكل جلد الثور أو بلطة مزدوجة، بأبعاد وأوزان مختلفة. وكانت كريت تتاجر مع بلدان بعيدة جداً.

:وكانت العمليات الاقتصادية والتبادلات التجارية مدونة بدقة بكتابة متطورة. كانوا يكتبون على صفائح من الفخار، بحروف هيروغليفية. وفيما بعد (حوالي العام ١٧٠٠) ظهرت الكتابة السطرية A، التي تحولت بعدئذ إلى الكتابة B. لكن ولا واحدة من الاثنتين حلت رموزها تماماً. فأنترك وشادويك لم ينجحاً، في العام ١٠٥٣، إلا بحل رموز B، الأحديث، ولم نعرف تماماً معاني النصوص الكريتية القديمة التي نمتلكها اليوم.



والنظام الاجتماعي، في هذا العهد، تطور جداً على أثر تطور حاد بالقوى المنتجة.



كتابة هيروغليفية كريتية من الخط A و B

يتضح هذا بجلاء في تعاون العشير في المنشآت والمدافن. البيوت صغيرة، مستطيلة، مخصصة لأسرة واحدة. والمدافن، القبور المفردة أو أقبية الأسرة، لها الصفة الفردية. يظهر كل هذا تفكك نظام العشير واقتسام المجتمع إلى طبقات. وثمة الكثير من إمارات عدم المساواة بالثروة. وفي المدن (غورينا، بالايوكاستور، بسيرا، وغيرها)، يتألف الوسط من بيوت جميلة ذات طابق واحد ونصفية، حيث يسكن النبلاء، ثم تأتي شوارع محاطة بمساكن أكثر تواضعاً، وفي القرى الكثير من الأكواخ، أو المساكن المتداعية. وكان استغلال الفقراء واضحاً جداً ويترجم على الأغلب بعبودية ناتجة عن عدم وفاء الدين، كما في بابل ومصر. في الرسوم، نرى صوراً غريبة للخدم الذين صاروا عبيداً. ومن الممكن أيضاً العثور على معلومات تخص العبيد في بعض النقوش الكريتية.

وتعد تشكيلات الطبقات الاجتماعية في كريت الانتقال إلى دولة مركزية. بداية، كان هناك عدة ممالك صغيرة تتحد بالتدريج بامبراطورية عظيمة وعاصمتها كنوسس، في شمال

الجزيرة. وكانت الامبراطوريات الكريتية تمتلك أيضاً أراضي في جزر بحر إيجه وفي جنوب شبه جزيرة البلقان. يديرها حكام يفرضون عليها الضرائب.

وعلى رأس الدولة الكريتية، ملوك كهنه حملتهم الأرستقراطية إلى السلطة. ولقد حفظ لنا الموروث التاريخي اليوناني اسم مينوس، أحد أعنى أباطرة كريت. بل يفترض أنه ليس اسماً شخصياً، بل لقب الملوك الكريتيين. وفي أيامنا، رفعت الأنقاض من قصر كنوسس العظيم ونظف ليصير مقراً لهم. إنه لصرح واسع، ذو طابقين، يشغل مساحة من الأرض تبلغ ٢ هكتار تقريباً. فيه عدة مئات من المحال -قاعات فخمة، غرف وملحقاتها- نضدت بمهارة حول باحة واسعة. من غرف الأبهة، لم تُصن إلا اثنتان: قاعة العرش وقاعة الحوض-الحمام؛ واختفى الباقي مع الطوابق المهذمة. لكن الطابق الأرضي، المكاتب وغرف الخزينة مازالت بأحسن حال، و١٨ بيت مؤونة تختزن الخوابي، الورشات الملكية والسجون. وعثر أيضاً على مدرج مسرح مخصص لـ ٥٠٠ مشاهد. وكان في القصر تمديدات ماء، وأقنية، تؤمن الراحة والأبهة النادرة. وتعطي جداريات أروقه مجموعهات فخمة وتكشف مشاهد من مصارعة الثيران التي كانت تأخذ حيزاً في قصر لابرانث عن البعد الحقيقي لخرافات اليونانية في فن عمارة ديدال (DEDALE) والبطل ثيزيه، والأميرة أريان والهريب مينوتور ٢.

كانت الامبراطورية الكريتية تعيش وفق نهج بيروقراطي متطور يشبه نظام مصر. ينقسم الموظفون إلى قادة، مراقبين، أمين خزينة وملاحظين، يضعون على أكتافهم رموزاً (قدماً، باباً، عيناً، إلخ). وكانوا موزعين إلى مديريات: مسلحة، بحرية، تموين، إلخ. ويشكل العسكريون ميليشيات مصنفة حسب السلاح. ويحتل الدور الهام محاربون يحملون سلاحاً ثقيلًا ويركبون العربات؛ وكان عندهم للتنقل شبكة طرق مبلطة. وكان الدين هو الوسيلة الأخرى لتأمين طاعة الناس. كانوا يقنعون الشعب بضرورة تكريم الإلهة-الأم، خالقة الجنس البشري، ملكة الرجال، والحيوانات والنباتات وزوجها أو ابنها العظيم الذي (يصور

---

١ - معماري يوناني باني قصر لابرانث في كريت حيث وضع مينوتور. وجبس نفسه بناء على أمر مينوس لكنه هرب بصنع لنفسه جناحين من ريش وشمع.

٢ - وحش نصفه إنسان ونصفه ثور، ابن بازيفاي.

غالباً بشكل ثور). كان الملوك يمثلها على الأرض، الأمر الذي يعطيهم القداسة والعظمة. إنما في كريت كما في مصر، لم يستطع الموظفون، ولا الجيش، ولا الكهنة أن يسحقوا مقاومة الشعب المستعبد. فمن حين إلى آخر، كانت تنشب التمردات والهجانات. انبعثت إحداهما، حسب إيفانس وبعض المختصين الآخرين، وفي مصر، في وقت واحد، في كريت، في نهاية الامبراطورية الوسطى، حوالي ١٧٥٠ قبل الميلاد. واحتل المتمردون القصور الملكية في كنوسس، وفوستوس وغيرها ودمروها، وردت الحكومة على هذه الأحداث بطبيعة أكثر ديموقراطية. لكن هذا لم يدم طويلاً؛ فلم تتأخر الأرستقراطية في استعادة موقعها وإعادة البناء بأبهة وعظمة أكثر. وحسب فرضية أخرى، انهارت القصور الكريتيّة في العام ١٧٠٠ على أثر هزة أرضية عاتية، آثارها بادية في مختلف نقاط الحوض الإيجي.

إن الطبيعة المنغلقة، المعادية للشعب وللحضارة الكريتيّة كانت السبيل الأساسي لدمارها، في أنها لغمت مقاومتها للمعتدين الدخلاء. هكذا، تثبت المعطيات الأثرية أن هجرات القبائل الرعوية، منذ الألف الثالثة، وجدت على المجرى الأسفل لنهر الدانوب في ثراس وفي اليونان الشمالي، ذات مستوى ثقافي رفيع (في العصر الحجري الجديد الأعلى مع إتيان تعدين النحاس). وفي أواسط الألف الثالثة احتلوا تساليا وأقاموا فيها منشآت حصينة (دميني مثلاً *DIMINI*)، الأمر الذي يثبت انتقالهم إلى أسلوب حياة أكثر استقراراً إذ اتسع دور الزراعة في اقتصادهم. وربما كان هؤلاء هم أسلاف اليونان القدماء.

وانطلاقاً من العام ٢٠٠٠، تتقدم القبائل اليونانية، التي كان بعضها من الآشوريين، الأيونيين، من تساليا نحو وسط اليونان وبلبونيز، كما تشير الطبقة الكثيفة من الرماد وبقايا المحال المنهوبة ووجود على هذه الأرض عدد كبير من مزارعهم، المعروفة بخزفها الأصيل، المزدان بالشرطان. وقد أفضى غزو الآشيين في حوالي العام ١٧٠٠ إلى انتزاع الأراضي الكريتيّة القارية وولادة، في هذه البقاع، مزارع أشية كان سكانها ملتمسين في قبائل وعشائر تقدم ثقافتهم خليطاً من الحضارة الآشية والكريتيّة. سماها العلم، اتفاقاً، "الحضارة المسنية (١٧٠٠-١١٠٠) نسبة إلى حاضرتها مسينا في أرغوليد *ARGOLIDE*، واعتبارها بنفس الوقت المرحلة الأخيرة من الثقافة الإيجية والمرحلة الأولى من الثقافة اليونانية.

## الفصل الثالث والعشرون

# أخلاق اليونان القديمة ونظامها الاجتماعي

### الأخلاق، النظام الاجتماعي

كان الآشيون، في أيام استقرارهم، يعيشون النظام المشاعي البدائي. وكانت القبيلة تنقسم إلى بطون تشكل قاعدة التنظيم الاجتماعي: يضم كل بطن عدة أفخاذ. بداية، كان الفخذ تعاونية اقتصادية تدير العمل في الأرض ومنها الدولاب؛ وفي الوقت ذاته، كان يمثل منظمة عسكرية بأعضائه الذكور. وفي الحياة العائلية، تستمر بعض بقايا الأمومة، تشهد على هذا الأساطير؛ ويظهر هذا في بعض العادات القديمة التي عاشت حتى العهود اللاحقة: هكذا، صانت العلاقات الأسرية في إسبارطا في العهد الكلاسيكي بقايا الزواج الجماعي. وكانت اتحادات البطون تسمى قبيلة؛ كان سكان آتيك وآثينا موزعين على أربع قبائل والسبارطيون: ثلاث قبائل؛ أما عدد البطون، حسب الكتاب اليونان الذين يقولون إن في إسبارطة ٢٧ بطناً وفي آتيك ١٢ بطناً، معلومات مشكوك بها. فالعدد على الأرجح أكثر من هذا بكثير. وعلى رأس كل بطن، زعيم منتخب.

### الحضارة الميسينية MYCENIENNE

في اليونان الوسطى وبلوبونيز، اصطدم الآشيون برعايا أصليين أقدم بكثير، قبل - الهلينية، كانوا قد خضعوا لنفوذ الثقافة الإيجية الواسعة، وأقاموا في الحاضرات الموجودة: في مسينا، في تيرانت (أرغوليد)، في آثينا وبعض قصبات آتيك، في بيلوس، في آتيب وغيرها. أباد الآشيون جزئياً أبناء البلد أصحاب الحضارة الأسمى وانصهروا مع من بقي منهم. واقتبسوا منهم أشكالاً اقتصادية أرقى: انتشار البرونز لصنع الأسلحة والأواني المنزلية، وطرقاً جديدة في البناء، وزراعة متقنة (بذر القمح، الشعير، الفول، العدس والزيتون). ومهن مثل صنع الفخار، السباكة، الحدادة وصناعة الذهب التي أخذت بُعْداً بعيداً؛ انفصلت الصنعة عن الزراعة وصارت فرعاً مستقلاً في مجال الإنتاج. وبدأ نظام

المشاعية البدائي لدى الآشيين بتفكك: صارت نبالة الدم، المغتنية والوطيدة، حوالي القرن ١٦ قبل الميلاد، صارت تدريجياً الطبقة المسيطرة. ومن القرن ١٦-١٤ قبل الميلاد، بنى في مسينا، وتيرانت، ورشوفين قصوراً فخمة محاطة بجدران منيعة تسمى "العماقة"؛ وفي تيرانت، مثلاً، يبلغ سمك هذه الجدران، المبنية بالصخور الضخمة، ٢٠م. واشتهر "باب ليون" في مسينا، في العهود القديمة. وكانت قصور مسينا أضيق من قصور كريت. ولا تشبه عمارتها عمارة كريت، لأن قسمها الرئيسي هو "MEGAROM"، مسكن واسع فيه موقد، غير موجود في كريت. ومن جهة أخرى، تكشف الجداريات والأعمال الفنية الأخرى أن قصور مسينا رافدة للحضارة الكريتية. ومقابر نبلاء مسينا (والأقنية العميقة) والقاعات الضخمة القائمة على الصخور، أصيلة جداً. فقد عثر، على الهياكل العظمية، كمية من الأغراض الذهبية: أقنعة، أكاليل، زناجير وحلي؛ والأروع، هو السيفوف البرونزية ذات المقبض الذهبي الدقيق الصنع. إن القصور المنيعة والمقابر البهية تشهد على اقتسام طبقي للمجتمع المسيني. وامتلاك النبالة العسكرية عدداً من العبيد الذين أسروا في الحروب والذين يكلفون ببناء الصروح "العماقة".

وكان بسطاء الناس، أعضاء المشاعات، سكان الضيع الفقيرة، يفقدون تدريجياً حصتهم بالأرض، يسقطون في تبعية النبلاء أو يتحولون إلى محاربين لصالحهم يوجبون على ظهر السفن الجزء الشرقي من البحر المتوسط. وقد أفاد البحارة المسينيون من خبرة الكريتيين.

اختار الآشيون الكتابة الكريتية. وفي العام ١٩٣٩، وفي الخمسينيات، لدى تنقيب بيلوس في مسينا، جمعت المئات من الرقم الفخارية المغطاة بالكتابة الكريتية B؛ وثمة علماء سوفيات وأجانب يعملون على حلها (انظر) صفحتي ٢٩٧، ٣٠٧). تتضمن هذه النصوص معطيات حول العلاقات الاقتصادية والاجتماعية (بخاصة فيما يتعلق بالعبيد واستخدامهم في العمل بالقصور). وفي الخمسينات عثر على صفائح تشبه صفائح مسينا.

وحوالي العام ١٤٥٠ قبل الميلاد، احتل الآشيون جزيرة كريت ودمروا قصور ملوك كنوسس، وبعيد هذا، قطن الآشيون والقبائل تمت لهم بالقرب في بعض الجزر رودس، قسم من قبرص) والساحل الشمالي-الغربي من آسيا الصغرى. ولقد استوحيت هذه الأحداث طبعاً من أسطورة حرب طروادة (حوالي العام ١١٨٠ قبل الميلاد)، الواردة بعقريّة في

إلياذة هوميروس. هكذا، تذكر، قبائل، قادة وأبطال من قصائد هومروس: مثلاً، "أكياوا"-  
أشيون، "أكاغامونا"-ربما كان أغاممنون.

### اجتياح الداريين. العصر الهوميري. بداية عصر الحديد

نقرأ في وثائق شرقية من القرن الثاني عشر قبل الميلاد إلى جانب الآشيين أسماء جماعات أخرى قبلية يونانية، مثل الـ"جافان" *JAVANS*: الأيونيون. وحوالي ١١٠٠، تحرك اتحاد قبلي كبير من الداريين الآتين من شمال غرب شبه جزيرة البلقان، تحرك باتجاه الجنوب. تغلغل هذا الحشد المقاتل الأقل حضارة من الآشيين، في القرن ١١ قبل الميلاد في اليونان الأوسط وبلبونييز. اقتحم الداريون أرغوليد واستولوا على مسينا والمراكز الأخرى. اختلطوا بالرعايا المحليين واستبعدوا قسماً منهم. دمرت مسينا وفقدت إلى الأبد أهميتها السياسية والثقافية. واجتاح داريون آخرون لاكونيا، لكن بعد صراع طويل وضرر. وهنا، في وادي أورانتس، ولدت فيما بعد، في القرن التاسع، دولة إسبارطة وقسم من الآشيين الباقين، التحفوا الجبال صعبة المسالك في شمال ووسط البلبونييز، أي المناطق المسماة فيما بعد أركاديا وأشايا *ARCADIA ET ACHAIE*.

لم يعان قسم من أرض اليونان القارية والجزيرية، بخاصة أتيك، موطن الأيونيين وعدد كبير من الجزر الإيجية، من الاحتلال الداريني. ومرحلة الأيونيين في شبه جزيرة البلقان غير محدودة.

إذن في بداية الألف الأولى قبل الميلاد، تشكلت الجنسية اليونانية القديمة. وانقسمت إلى مجموعات قبلية: أيونية، دارية، أشية وأبولية، التي تتكلم كل منها لهجتها الخاصة وتمتاز بتطورها الاقتصادي، الثقافي والخلقي.

نجم عن غزوة الداريين إلى حد ما انخفاض المستوى الثقافي: توقف بناء القصور، وسقطت التجارة والصناعة والفن في هاوية الانحطاط. وانحسرت العلاقات الاجتماعية. توطد العشير من جديد، وتراجع استخدام عمل العبيد. نجم هذا بسهولة، لأن مراكز الحضارة الميسينية كانت محاطة بالقبائل التي تعيش عهد الأبوة. وفي ذات الوقت، تعلم اليونان استخدام السلاح الحديدي (السيوف، والقدائف -الحرايب- السهام وأدوات حديدية أخرى؛ وبدأت صناعة الحديد، المقتبسة من آسيا الصغرى بالتطور. واستعاد إيقاع نمو القوى المنتجة تسارعه.

إلى هذه الحقبة من الزمن تنسب روائع الفن الشعبي في اليونان القديمة: الإلياذة والأوديسة، القصائد الملحمية المنسوبة إلى هوميروس، الشاعر الأعمى الخرافي. تعكس هذه القصائد مشاهد من الحياة الثقافية والاجتماعية في الحقب المسيانية وبعد المسيانية (من القرن ١٢-٨ قبل الميلاد).

تشغل الإلياذة والأوديسة أحد أهم الأمكنة في الأدب العالمي؛ فمن الطبيعي أن مسألة معرفة متى، أين وكيف ظهرت هاتان الملحمتان، تهم الحضارة الإنسانية. ففي القرن الثالث قبل الميلاد، كان بعض علماء اليونان يشك بوجود هوميروس. وبعد ألفي عام، في نهاية القرن ١٨ وبداية ١٩، طرح العالم الألماني فريدريك أوغست وولف من جديد، بكل حدة، مسألة هوميروس باعتباره ناظم الإلياذة والأوديسة. وفي كتابه معلومات تمهيدية عن هوميروس (١٧٩٥) يؤكد وولف أن هذه القصائد ولدت عفواً من أغان شعبية ملحمية. لكن "الموحدين"، خصوم وولف (منهم شيللر وغوته) يشيرون إلى أن الوحدة الفنية في أشعار هوميروس تفترض شاعراً عبقرياً. واليوم، يرى أغلب الاختصاصيين أن القصيدتين كتبتا فعلاً، إجمالاً، بقلم كاتب نابغة (هوميروس؟) في نهاية القرن ٩ أو بداية القرن ٨ قبل الميلاد؛ لكنه لم يفعل أكثر من أنه جمع بمهارة وأرابة في كتاب واحد أعمالاً فولكلورية (ملاحم مغناة خلال عصور بخناجر شعراء "منشدين").

تعكس أشعار هوميروس عدة قرون من حياة اليونان القديمة. نقرأ فيها (بخاصة الإلياذة) قصص أحداث، نماذج ومشاهد من أيام ازدهار المسيانيين، الذين سبقوا الاجتياح الدوري. ويعود موضوع الإلياذة نفسه إلى أوج المسيانيين وأسبقيتهم في أثناء الحملة ضد طروادة التي شنّها الآشيون المتحالفون تحت قيادة آغاممنون، ملك المسيانيين "الغني بالذهب" (في حوالي العام ١١٨٠ قبل الميلاد. تستدعي هذه القصيدة حرب طروادة، أو بالضبط أحد فصولها الأخيرة: الهزيمة الساحقة التي ألحقها الآشيون بالمدافعين عن "طروادة العظيمة". لكن المضمون الأساس للإلياذة يميز اليونان بعد الاجتياح الداري وحتى بداية القرن الثامن قبل الميلاد يونان "عصر هوميروس". هكذا، ذكر فيها السلاح الحديدي كثيراً ولم يكد يذكر السلاح البرونزي لندرته. فنستخلص أن الحديد كان قد عرف وانتشر، لكن الشاعر يصف الزمن الذي كان فيه هذا المعدن زماً غريباً. وتشير الأوديسة إلى عودة أبطال طروادة، وإلى الحياة اليومية لزمن السلم. هنا، يكرر الحديد ثلاث مرات أكثر مما في الإلياذة، إنما

نصادف هنا النحاس والبرونز أكثر أربع مرات من الحديد. أخيراً، نتحدث بعض المقاطع، عن تشكيلة المجتمع العبودي، المنقسم إلى طبقات، أي أنها تخص مرحلة لاحقة.

عاش المجتمع "الهومييري" من القرن ١١-٩ على قاعدة الاقتصاد الطبيعي، أي أن سكان كل ضيعة ينتجون كل مايستهلكونه. أساس الاقتصاد التدجين: الدابة هي وحدة القيمة. مثلاً رجل ضخم من النحاس يساوي ١٢ ثوراً، شابة عبدة-أربع ثيران. وللزراعة، ففي الشعر، المقام الثاني: وكأنهم لا يملكون سوى المحراث الخشبي الذي لا يعمل إلا في الأرض الطرية، والوديان الغرينية؛ إذن الزراعة في حالة متطورة: يبذرون الحنطة الرومية، الشعير، ويزرعون البقول والبساتين المثمرة. والصناعيون، الطبقة الوسيطة التي تميز الحراث ومنتجي المواد المباعة في السوق، غير موجودين بعد. يشار إلى مهنيين يعملون بناء على طلب، عمال الفخار، صناعات الجلود، الحدادون، البنائون، وصناع الذهب، الشعراء المنشدون، نذيرو الحرب، يشغلون جميعاً وضِعاً كريماً ويسمون "من يعمل من أجل الشعب" (الصناع). والإله هيفا ستوس الذي يعمل في محل حدادة وفرن له، بسندائه، ومطارقه، يبدو الممثل الرئيس لمهنة الحدادين.

العلاقات المتبعة والتجارة والنقود غير موجودة. إنما عدا وصف هذه الحياة المنعزلة عن العالم الخارجي، تحكي الأشعار قصصاً عن البحار البعيدة؛ والأوديسة نفسها تسرد تجوال وتطواف أبطالها. وأوليس نتحدث هنا عن سفرها إلى مصر؛ وثمة حكايا أخرى عن رحلات بحرية، على رأسها الأعمال التجارية. في اليونان-هوميروس، لم تكن المدينة، بصفتها مركز صناعة وتجارة، قد وجدت بعد؛ فالأشعار لا تصنفها أبداً، سوى مقطع واحد في الأوديسة حيث، مملكة *PHEACIENS* "المغربين بالمجذاف"، نرى مرفأً تجارياً فعلياً. هي ذي الحقبة الأخيرة من العهد الهومييري التي وصفت في هذه الأغنية الأوديسية.

والمجتمع الهومييري مؤسس على العشير لكن هذا يتفكك، لأن الأرزاق المنقولة وحتى البيوت ملكية خاصة؛ فقط استمرت الأرض ملكاً للمشاعة، المنقسمة إلى أسهم يتمتع به من تلقاء مدى الحياة. لذا لوحظ فرق واضح في الثروة. شيوخ العشير يحوزون عدة أسهم، واسمهم يعني "من يتصرفه كثير من الأرض".

والنبالة الغنية والمتنفذة تشغل، بعامه، وضِعاً متميزاً. إنها تمتلك عقارات منتزعة من عقارات المشايخين يسميها هوميروس "*TEMANAS*". وتشهر أشعاره فقط الحياة الهائلة



والواقعات المسلمة لهذه النبالة. في أيام السلم، يعيش الأرستقراطيون بأسر كبيرة في أملاكهم، يخدمهم العبيد. فعلاً، لم يكن عدد العبيد كبيراً، ولا يمكن وصفهم بـ"ملكية حية" كما قال أرسطو فيما بعد. نبلاء هوميروس يقاسمون عبيدهم حياتهم. هكذا، NAUSICAA "ذات الذراعين الأبيضين"، ابنة النبيل ALCINOUS، تغسل الغسيل على البحر مع عبيدها؛ وEUMÉE، عبد-راعي الخنازير، هو رجل ثقة لدى ULYSSE، إلخ. لكن العبيد في المجتمع الهومييري يمثلون الشريحة الخادمة في هذا المجتمع، جنين الطبقة العبدية القادمة. وتفكك مجتمع العشير ثابت أيضاً بالفرق الواضح في قلب المشاعة. فأشعار هوميروس تصف الوضع الحزين للأعضاء الذين فقدوا عقاراتهم ويخدمون النبلاء؛ وثمة أيضاً مسألة المهاجرين واللصوص المسلوبين النار والمكان، بل كل الحقوق.

لم يكن المجتمع قد انقسم إلى طبقات فليس ثمة دولة؛ ولم تفقد التنظيمات الإدارية والقضائية بعد صلاتها المباشرة مع الشرائح الشعبية ولا تعبر فوقها. السلطة الوليدة تتركز شيئاً فشيئاً في يد الملاك المنحدرين من نبلاء الدم؛ ومجالس الشيوخ، المجتمع حول الملاك، يتكون من ممثلي الأرستقراطية. لكن جمهرة الناس البسطاء، أعضاء المشاعات، يحفظون حقوقهم. والنبلاء (بخاصة في أيام الحرب) يهتمون بالناس، ويقيمون وزناً لإرادة الجنود البسطاء وهم مضطرون للاجتماع من أجل اتخاذ القرارات الهامة. يسمى ماركس وانجلز هذا النظام "الديموقراطية الحربية". فالديموقراطية العسكرية هي إذن التي تميز العلاقات السياسية والمرحلة الانتقالية بين المجتمع البدائي ومجتمع الرق المنقسم إلى طبقات، الذي تلاه.

#### انبثاق دين الآلهة الأولمبيين

ظهرت الإيدولوجيا الدينية في الحقبة الهومييرية. وخلق الفن الشعبي ليس فقط أغاني ملحمية، بل أيضاً "أساطير"، خرافات تتعلق بالآله، بأنصاف-الآلهة وبالأبطال. وتعتبر الأساطير عن عدة مفهومات في قوى الطبيعة وفي موقف الناس من هذه القوى في مختلف العصور من حياتهم الاقتصادية والاجتماعية. إجمالاً، الأساطير من مصدر ديني.

نصادف غالباً، في الأساطير اليونانية آلهة بأشكال حيوانية. يؤكد هذا أن هذه المعتقدات تعود إلى حقبة مختلفة عن المجتمع الطبقي، إلى الإيدولوجيا الطوطمية للأزمنة الغابرة. هكذا، كانت عبادة الأفاعي التي تمثل القوى الشيطانية (لذا سميت هذه العبادات

"CHTONIENS" من الكلمة اليونانية *CHTOM*، الأرض)، كانت منتشرة جداً منذ أقدم العصور. يمثل "ERECHTEE"، بطل ونصف-إله لآتيك، بصورة تتيين ضخمة يسكن الكهوف الصخرية في الأكروبول التي كان يحميها. وفي أثينا، عاشت طويلاً عادة تقديم القرابين على منحدرات الأكروبول لهذا التين المحسن. وبني باسمه وعلى مجده، في وسط الأكروبول، الهيكل أو المعبد المسمى "ERECHTEION".

وكان أبولون "المشرق" أو فويس، إله الشمس، كان أيضاً مرتبطاً بصميمياً بعبادة ثعلبان ضخمة، يقيم في كهف عميق من برناس قرب ديليف. ومن هنا لقب "بيتان" المعطى لأبولون ولقب بيتس المعطى لآلهات المعبد، التي تأتي العجائب. وبعد أن قتل بيتيون بضربة سهم، بنى أبولون معبده في هذا المكان؛ وهو نفسه، وقد أخذ شكل دلفين، يسبح في البحر. ويظهر لبحارة كريت، ويطلب أن يبنوا له قرب هذا الهيكل معبداً. لذا سمي هذا المكان "دلف" وهو نفسه "دلفيني". عدا دلف يوجد في اليونان محال كثيرة ترتبط بعبادة أبولون-دلفيان.

وتمجيد الذئب ترك هو الآخر آثاراً عديدة، وأمكنة عبادة عدد كبير من الآلهة الأحدث تحمل اسم *Lycee* (مثل ليسي أثينا). الآلهة المعبودة هنا تسمى "الذئب" (مثلاً، زيوس ليسيان، أبولون ليسيان) كورثة أو أخلاف للعبادات التي تركوها. واليوم كانت تعتبر في أثينا طائراً مقدساً؛ وفيما بعد صار وصف أثينا "بعيون بومة"، الإلهة التي تحمي أثينا. وعبادة النباتات انتشرت واسعة في اليونان القديمة. وفي دودان بابيري كان يوجد وسيط للوحي<sup>١</sup> شهير؛ كان يوجد هنا سديانة ضخمة، عمرها مئات السنين حتى اعتقدوا أن زيوس يسكن فيها. "يتنبأ"، الكهنة بالمستقبل حسب حفيف أوراقها.

وآثار الإحيائية، البارزة جداً في نروية نظام العشير، تضاف إلى هذا الأساس الأقدم. وبالنسبة لليونان، تجسد الطبيعة بكائنات نصف-بشر ونصف حيوان: بشر بأفخاذ تيس، أو مقدمة حصان ومؤخرة بشر، وحوريات البحر بذيل سمكة. وأرواح الغابات كانت حوريات الغابات، وأرواح البحار كانت آلهة أمواج سمكية الشكل، إلخ. كان الناس يعتقدون أن العلاقات الجيدة فقط مع هذه "الأبالسة" يمكن أن تؤمن للإنسان حياة سعيدة وأمينة (فلسفة

---

١ - كاهن أو كاهنة عند الإغريق يعتقد أن الإله يجيب بواسطته عن سؤال حول أمر من أمور الغيب.

السعادة (EUEDEMANISME) والموقد البيتي يعتبر مقدساً، لأنه كان مرتبطاً بعبادة الأسلاف. ويزين هذا الموقد بالأزهار، وتعامل شرارته بعناية، وترمى فيه أعشاب عطوة. الخطيبان، وحديثو الولادة، يقدمون له، والمنفيون يلجؤون إليه. وتمجيد الأسلاف، المرتبط صميمياً بعبادة الموقد المنزلي، كان واسع الانتشار في اليونان، حتى في الزمن التاريخي. والوثائق التي وصلتنا تزودنا بشواهد كثيرة.

وتقدّس ديمتر DEMETER، الأرض الموضع، أخذ مدى واسعاً. ففي ايلوزيس (البقعة الأخصب في جزيرة أكيلا)، صارت واحداً من أهم مراكز هذه العبادة، ظهرت أسطورة خطف ابنة ديمتر، كوري CORE (تجسيد تجديد الربيع)، من قبل قوى الظلام العائشة في أعماق الأرض. كانوا يعتقدون أن الطقوس المعقدة والغامضة وحدها (الأسرار، الطلاس) تستطيع إقناع ديمتر، الحزين والهائج، أن لا يحرم الأرض من طاقتها المنتجة. مع تفكك نظام المشاعية وتوطيد أurstقراطية الدم العسكرية، يظهر دين جديد ومعقد، دين آلهة الأولمب، سادة السماوات، "سكان الأعالي" و"ملوك العالم"، الذين يفترض أنهم يقيمون فوق جبل الأولمب. كانوا أعضاء "عشير إلهي"، يشبهون نبلاء الأرض، وكانوا قد اقتسموا الكون؛ ونضيف أن الأرض تبقى ملكهم المشترك. الآلهة الكبار هم ثلاثة أخوة: زيوس إله الرعد، إله الغيوم؛ بوزيدون، إله البحر، وادينوس، إمبراطور جهنم.

المظفر بوزيدون يجيب:

نحن ثلاثة أخوة، أبناء كرونوس وريا:

زيوس، أنا، أدينوس، الثالث الذي يحكم جهنم.

قسم العالم إلى ثلاثة أقسام، لكل إمبراطوريته.

حصتي، عندما أجرينا القسمة،

أن أسكن أبداً البحر المزدب؛

ولأدينوس مملكة الظلمات؛

ولزيوس، السماء الواسعة في الأثير وبين الغيوم؛

لكن الأرض تبقى للجميع، وكذلك

الأولمب العالي."

(الإلياذة، النشيد ١٥، ١٨٦ ويعدّه).

ثم يأتي الجيل الأصغر من الآلهة، أبناء زيوس. كان هفاستس، ابن زيوس وهيرا، إله النار، والحدادة وحامي فنون صناعة المعدن. الـ"مشرق" أبولون أو فويس، إله الشمس، يجوب السماء على مركبته النارية، وأرتمس، إله القمر، ملكة الغابات والحيوانات المتوحشة، القناصة التي لا تتعب، كانوا أبناء زيوس والإلهة ليتو. وهرمس، ابن زيوس والحورية مايا *MAIA*، كان الرحالة الأبدي، بشير زيوس، سيد السواح وقائد أرواح الموتى لدى إله الجحيم. بعد هذا، إله الحرب الدامية، أثينا، الإلهة الذكية، حامية المدن، وأفروديت، ابنة زيوس وديونس، إلهة الحب والجمال، مع ابنها إيروس، الخبيث والمتمرد، يشكلون أيضاً جزءاً من الآلهة الأولمبيين. ولقد اقتبس كثير من هؤلاء الآلهة من معتقدات الرعايا قبل الهلينية، مثل، أرتمس، لإلهة الحيوانات، وأفروديت ذات "الشعر الذهبي" التي حسب بعض الأساطير، ولدت بأعجوبة من زبد البحر كانت ممجدة بخاصة في جزيرتي قبرص وسيثير، اللتين خضعنا لتأثير قوي مينيوي وشرقي. وقد خلقت اليونان نفسها باقي الآلهة. وأعظمهم الشعراء المنتشون شكلاً يلائم ذوق وروح النبلاء القريبين منهم. لذا كان آلهة الأولمب ليس فقط إنساني الشكل، بل يمتازون بهيئة "أرستقراطية". يعيشون حياة البطالة والبذخ في قصورهم الذهبية، كما تستقر الأرستقراطية السماوية- تنغمس بالرحيق والكوثر الإلهين اللذين يعطيان الخلود، ويصغون إلى الأغاني العذبة من الحوريات. على ذلك، المنازعات والمشاجرات تكثر بينهم كما هي عند نبلاء الأرض. وإن أتى الآلهة من حين إلى آخر لمساعدة الملوك، الذين هم شفعاؤهم، كما حدث مع أوليس، يتأملون بالـ"رصانة الألمبية" آلام الناس البسطاء. في يوم آخر قرر زيوس إغراق كل الناس؛ لكن اثنين فقط أنقذهما بروميته، ومن هذين الاثنين تتجدد البشرية. التي خرجت من حياة اليأس والحيوانية بفعل النار التي سرقها من السماء بروميته نفسه. عاقب زيوس بقسوة التيتان المتمرد، بربطه إلى صخرة قفقاسية وبإرسال نسر له كل يوم، طيره المفضل، لينهش الكبد الجريح. استناداً إلى هذه الأسطورة نرى "ديناً أولمبياً" جديداً أو "دين ويوس" يتوطد في اليونان جزاء نضال حاد. وخرافات عديدة عن "تيتان" عن "عمالقة" وأبطال مقدسين تعطي فكرة واضحة عن هذا الصراع. كان البطل المفضل لدى الشعب هو هرقل الذي عاش حياته بخدمة أورستيه، الملك الفظ والجبان؛ بشراسته الغريبة، كان هذا الشجاع المقدم يجسد قوة الطبقات الشعبية، التي ترهب النبلاء. ينفذ ١٢ عملاً صعباً. وفيما بعد، يباع عبداً، يخدم

ملكة ليديا أو مفال التي تلبسه ثياب امرأة ليقوم بأعمال نسائية. كانت صورة هرقل، رمز الكادح التعس، عزيزة غالية لدى عامة الناس.

أسطورة أنيته ANTEE، ابن الأرض، الجبار الموهوب يستمد بأساً فريداً من ملامسة الأرض، هي الأخرى إبداع فن شعبي. تعكس هذه الخرافة وعي المزارعين ببأسهم ودورهم. وتعبيراً، على الأرجح، عن نزعة أرستقراطية، تقص هذه الأسطورة معركة فريدة بين أنيته وهرقل، الذي يخنق خصمه برفعه ليعزله عن أمه (الأرض).

هكذا تجد مختلف مراحل تطور النظام الاجتماعي القديم وأشكال النضال الأيدولوجي البسيط، تجد منعكسها في أساطير ومعتقدات اليونان. وفيما بعد، في زمن المجتمع العبودي المتطور، يتحول آلهة الأولمب إلى مدافعين عن مختلف عناصر الحياة السياسية. أبولون، مثلاً، صار حامياً للكهنة والمقدسات؛ بوزيدون - حامي البحارة، هرمس - حامي التجار. وعلى نطاق واسع تداول الدين رجال الأدب والفن في اليونان القديمة ليدعموا ويوطدوا أيدولوجيا الرق والعبودية.

## الفصل الرابع والعشرون

# بحث الطبقات الاجتماعية والدولة في اليونان (القرن ٨-٧ قبل الميلاد)

### المجتمع اليوناني وفق هزيود<sup>١</sup>

يتميز عصر ما بعد هوميروس بتبدلات عميقة في اقتصاد اليونان ونظامها السياسي. إذ تسارع تفكك النظام المشاعي البدائي بعد تحول، في بعض المناطق، الأرزاق والأسهم العقارية إلى ملكية خاصة أسرية. وبدأت الأسر المرتاحة تتفصل أكثر فأكثر، واستغلاً لتميزها الاقتصادي، راحت تحتكر وسائل الإنتاج الأساسية في المشاعة العشيرية: الأرض، الحيوانات والعييد. وشرع المزارعون الأحرار يسقطون شيئاً فشيئاً في أتون التبعية للنبل، وراح يزداد عدد المضطرين للتخلي عن أرضهم والتسبب عبر الوطن بحثاً عن عمل.

يرسم الشاعر هزيود لوحة معبرة عن تحكم نبل الدم بجمهرة المنتجين (نهاية القرن الثامن - بداية القرن السابع قبل الميلاد). كانت بيوتيا، بلد الشاعر، منطقة تضم عدداً كبيراً من الاقطاعات الفلاحية الصغيرة. مجد هزيود، المالك الصغير، العمل الفلاحي. "العمل، أياً كان، لا يعيب الإنسان: العار والشنار في التبتل".

وفي قصائده "الأعمال والأيام"، يرسم متعاطفاً شرط حراث فقير، سقط بين يدي غني مالك عقاري ومرابي. كانت بيوتيا تعيش في هيمنة ثلاثين نبيلاً عقارياً يصفهم هزيود "أكلة الهدايا"، "الشريحة الظالمة"، أغنياء بالأرض، بالحيوان والعييد. وفي قصيدة "الباز والعندليب" يثير اضطهاد الناس المساكين. يأخذ البازُ العندليبَ بين مخالبه، ويخاطبه:

---

١ - شاعر يوناني، ولد في أسكرا حوالي أواسط القرن الثامن قبل الميلاد، ناظم أشعار تعليمية: الأعمار والأيام، ونسب الآلهة.

أيها البائس، لم تصرخ؟ أنت من فصيلة  
أقوى منك. ستذهب حيث أخذك،  
كونك مغنياً ماهراً مخملياً  
ومنك، حسب رغبتني، سأجعل وجبة أو أطلقك  
حراً

مجنون من يقاوم من أقوى منه:  
إن يظفر وإلى الخجل يضيف  
المعاناة (شعر ٢٠٥-٢١٠)

كان هزيبود بعيداً عن التفكير بنضال سياسي من الطبقات الفقيرة، وليس له سوى أن  
يهدد "الملوك أكلة الهدايا". يقول: إن العقوبة الإلهية ستضرب المستبدين والقضاة الجائرين،  
على ذلك، يرى أن الظلم منتصر حتى في السماء. وفي قصيدة أخرى، "نسب الآلهة"، يقدم  
زيوس كطاغية سماوي، ينزل بالجبار بروميته، صديق الناس، أفدح الأوصاب.  
هكذا تدل أشعار هزيبود إلى المرحلة التي تلت عهد هوميروس، بخاصة تفكك المجتمع  
الأبوي وولادة تشكيلة العبودية؛ مجتمع منقسم إلى طرفين متعادين: طرف المسيطرين، أي  
الملاك الكبار أصحاب العبيد، المرابين، "والبسطاء غير الخالدين" المستغلين من قبل  
الآخرين؛ البؤساء، المحرومين من أي حق، الذين يعيشون أشبه بالعبيد. كما تبدو الحياة  
لهزيبود قاسية وظالمة؛ يقول إن الـ"أرض" مترعة بالمتاعب والآلام، وكذلك البحر.  
هي ذي العلاقات الطبقيّة التي توطدت في القرنين ٨ و٧ قبل الميلاد ليس فقط في  
بيوتيا، بل أيضاً في كل مناطق اليونان.

### أولى الحضارات اليونانية

في هذا العهد ولدت الحضارات، المدن-الدول العبودية التي تجمع حولها وتضم  
الأرياف المحيطة. كانت هذه الحضارات نموذجية من أجل تطور اليونان اجتماعياً. سمي  
هذا التطور الانصهاري ("تجمعاً").

ترافق تشكل الحضارات مع رواج التجارة والحرفة التي انفصلت عن الزراعة. بنيت  
أغلب هذه الحضارات، التي عرفت في القرن الثامن، على الشاطئ. هكذا كانت مدن إيونيا  
مثل ميليه، ومدن الجزر المحاذية لآسيا الوسطى: ميتيلين، سامس، ثم إيغن في خليج

سرونيك، أثينا، كورنث، ميغار، شلس وغيرها. وكانت المدن العبودية الأكثر نموذجية تمتد على طول الطرق البحرية الرئيسية، من الشرق إلى الغرب، الأمر الذي يشير إلى الصلة بين تطور العبودية ورواج التجارة والمواصلات البحرية. يكتب ك.ماركس: "في العالم القديم، أفضى العمل التجاري وتطور رأس المال البضاعي دوماً إلى اقتصاد الرق؛ حيث، حسب وجهة انطلاقه، يمكن أن يفضي إلى تحول بسيط في نهج الرق الأبوي المتوجه نحو إنتاج فضل القيمة.

وظهر في الوقت ذاته الشكل القديم للملكية العقارية: فقط، مواطن الحاضرة يقدر أن يمتلك أرضاً داخل الحاضرة.

كانت الحاضرة مركز استغلال عم العبيد والفقراء. فنبلاء الدم حولوا كل ما فيها من مؤسسات أبوية إلى أدوات لسلطتها. استبعدت رؤساء أو شيوخ العشير لتقيم الـ"أولغارشية" مكانهم، أي سيطرة بعض الأسر النبيلة. أما دور المجالس الشعبية فقد تراجع إلى العدم. بل هو من الآن لعبة بقدم الأرستقراطية.

هكذا استبدلت المشاعة الأبوية إلى مجتمع متناحر، منقسم إلى طبقات؛ والسلطة التي كانت سابقاً وظيفة إدارية بحتاً، تتجاوب ومصالح الكل، صارت أداة سطوة السلطات العشيرية القديمة. لكن الملاك العقاريين النبلاء حافظوا على بعض الأشكال الأبوية (عشائر، بطون، قبائل) كوسائل بين يدي المضطهدين "وبالتالي، استخلص أرسطو واصفاً النظام الأرستقراطي في أثينا في القرن السابع والسادس قبل الميلاد، ... العبودية هي التشكيلة الأكثر معاناة واضطهاداً للناس البسطاء.





## الفصل الخامس والعشرون

# الاستعمار اليوناني في القرن الثامن حتى السادس قبل الميلاد

### أسباب حركة التوسع وخصائصه العامة

أثار استعمال شواطئ البحر المتوسط، البريونتيدي وبونت - أوكسن (بحر مرمرة والبحر الأسود) تبدلات ضخمة في بنية الدولة، والعلاقات الاجتماعية، والأعراف والعادات في اليونان. إن تأسيس مستعمرات هلينية على أرض واسعة كهذه ذو أسباب اقتصادية، اجتماعية وسياسية. وغزو الأراضي على يد نبلاء الدم، انتزاع ملكية صغار الفلاحين، نمو الشرائح المهنية والتجارة التي تختلف مصالحها مع مصالح أرستقراطية السلطة-، كل هذا بعث صراعا اجتماعيا شرسا. والشرائح الاجتماعية المعدمة أو المقهورة في هذا الصراع كانت مكرهة على ترك الوطن وترحل لتغامر في المستعمرات. والعنصر الهام الآخر هو أن كثيرا من أقاليم اليونان القاحلة كانت بحاجة لاستيراد القمح، الأمر الذي أفضى، منذ القدم، إلى أن تقيم مدن كورنثيا، ميغار، إيجن، شالسس علاقات مع المناطق الغنية بالقمح خارج الأرض اليونانية البحت. وفي بداية الاستعمار، توافد المهاجرون إلى المستعمرات، وأعطوا هذه الحركة صفة زراعية. ثم تطلب ازدياد المهن ورواج التجارة أسواقا جديدة لتصريف المنتوجات المتنامية أبدا التي تنتجها الحرف والعبيد البربر الذين صاروا اليد العاملة الرئيسية في الإنتاج اليوناني المتوسع. وقد أسست المستعمرات حيث كان السكان الأصليون أنفسهم قد خلقوا مراكز تداول بين القبائل.

كانت هذه المستعمرات (يسمىها اليونان أبوكيا: بعيدا عن البيوت) مستقلة عن المتروبول<sup>١</sup> (المدينة-الأم) وشكلت دولة خاصة بها. ولم تكن المستعمرات والمتروبول

<sup>١</sup> - أي الدولة بالنسبة لمستعمراتها.

متصلين سوى بالآلهة والتقويم المشترك، غالبا بتسمية الموظفين، التقسيم إلى قبائل، وأيضا بعض إمارات الاحترام: "كما يحترم الأبناء الآباء كذلك تحترم المستعمرات المتروبول، كتب دنيس هلكارناس (منتصف القرن الثالث). طبعاً صارت المستعمرات شيئاً فشيئاً أسواقاً رائعة ومراكز آمنة لتجارة المتروبولات، خاصة إذا كانت هذه الأخيرة قد اشتركت بتأسيسها. في هذه الحالة، يعين المتروبول مسؤولاً لتنظيم المستعمرة. كان مكلفاً بإعادة توزيع حصص الأرض بين المعمرين؛ وهو أيضاً الذي يرسي النهج الحكومي، إلخ. كان الاستعمار يمتد بثلاثة اتجاهات: غرباً، جنوباً وشمالاً شرقاً. كان يصدر من مختلف مدن شبه جزيرة البلقان، من يونان آسيا الصغرى ومن جزر الأرخبيل. وكانت المتروبولات الأهم هي: ميليت، كورنثيا، ميغار، شالسس في أوبيا.

### المستعمرات الغربية

حسب الرواية، بعد حرب طروادة شرع اليونان باستعمار الجزء الغربي من البحر المتوسط. لكن المصادر الموثوقة تشير إلى تغلغل اليونان في إيطاليا وسيسيليا، لم يبدأ إلا في القرن الثامن. كان عدد المستعمرات اليونانية في جنوب إيطاليا كبيراً، بحيث عمد القدماء هذه المنطقة باسم اليونان الكبرى. كان اليونان قد انشدوا إليها للطف مناخها، خصوبة أرضها، غنى مراعيها، كثافة الغابات التي تقدم الخشب لبناء البواخر. كانت أقدم مستعمرة على الشاطئ الغربي هي كومس، أسسها شلسزينيوا أوبيا. اتسعت كومس واغتننت بسرعة. وخلقت بدورها مستعمرات عديدة، أهمها نابولي.

في نهاية القرن الثامن، على الشاطئ الغربي لخليج تارانتو، ولدت سيباري *Sybaris*. جعلها خصب التربة النادر وطرق المواصلات الملائمة تزدهر وتعمر بالسكان. اشتهر أهلها ببذخهم وكياستهم. وصارت كلمة "سيباري" اسماً مشتركاً يعني: الشهوانيون. وفي نفس الحقبة ظهرت كروتون، مزاحمة وخصمة سيباري، لتمتعها بمرافأ رائع وشروط ليست أقل ملائمة للزراعة. حافظت على أسبقيتها حتى ظهرت تارنتو، التي أسسها حسب الخرافة السبارطيون، أيضاً في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد. كان الترانتيون يزاولون التدجين، الزراعة وصيد السمك، ويتاجرون بالصوف، اللحم المقدد والسمك.

كانت سراكوز أهم مستعمرة يونانية أسست في سيسيليا على يد الكورنثيين في بقعة غنية بالمح، قرب أفضل مرسى على الساحل الشرقي. اتحدت مع العديد من المستعمرات:

ليونتين، كاتان، تورومن، مسينا، إلخ. وعلى ساحل سيسيليا الجنوبي انبعثت أغرجانت، الشهيرة بزيتونها. أقام الكورنثيون في جزيرة كورسير، التي قدمت مرفأً هبوطاً إلى الطريق الغربي. اغتنت كورسير بسرعة واضحة، وبعد بعض الوقت، امتلكت أسطولا تجاريا يحسب حسابه.

في نهاية القرن الثامن تغلغل يونان فوسيا (مدينة من آسيا الصغرى) في ثغر روما، حيث أسست مسيليا (اليوم مرسيليا). من هنا، مد الفونسيون نفوذهم التجاري على كل ساحل ميديا الفرنسية وشرق إسبانيا؛ وظهرت هنا عدة جزر يونانية. واحتكر المسيليون ملاحاة السواحل وأقاموا علاقات مباشرة مع بريطانيا البعيدة التي جلبوا منها القصدير.

على ذلك، فقد اصطدم الاستعمار الغربي بمقاومة الفينيقيين. لم يستعمر اليونان سوى الساحل الشرقي والجنوبي من سيسيليا، بينما كان الغرب بين يدي فينيقي قرطاجة الذين كانت مستعمراتهم في مالطا، سردينيا وغيرها. وفي العام ٥٣٥ قبل الميلاد، بعد معركة وحشية في ألاليا، قرب شواطئ كورسيكا، أوقف القرطاجيون حلفاء الأوتروسك تقدم اليونان نحو الغرب.

بينما كان الاستعمار الغربي حتى القرن السادس ذا صفة مسالمة، عارضت الدول القديمة في جنوب شرق البحر المتوسط، بشعبها الواسع الفقير والمتمدن، واجهت اليونان بمقاومة ضارية. مع ذلك، تأسست مستعمرتان على الساحل الشمال-إفريقي: نوكراس في مصر وسيرين في ليبيا. كان اليونان يستوردون من مصر القمح، الملح، المرمر، الخزف، البردي، العطور، الأدوية، البهارات، العاج، الأبنوس وكثيرا من الزيوت. كانت سيرين غنية بالحبوب: شوفان وشعير. ويطلعنا نقش اكتشف حديثا، يعود إلى عشرينات القرن الرابع قبل الميلاد، أن سيرين صدرت خلال ثلاث سنوات قرابة ٢٩ ألف طن. عدا القمح، صدرت السلفيوم، النبات الطبي الذي كانت الدولة تحتكر بيعه. وشينا فشيئا، ظهرت مدن صغيرة حول سيرين، مشكلة بلدا برأسه.

### مستعمرات سواحل ثراس، برويونند وبونت-أوكسن

كان الاستعمار اليوناني المتجه إلى الشمال والشمال الشرقي يمتد على سواحل الدردنيل، بحر مرمرا والبحر الأسود. في بداية القرنين الثامن والسابع، شخص العديد من المستعمرات في شبه جزيرة

شلسديك، التي كان أبناء شلسيس قد بنوا أكثرها (ومن هنا أتى اسم هذه المنطقة. وتبع الكورنثيون الشالسديان وأسسوا بوتيديا. وفي بداية الطرق التجارية التي تقود إلى داخل ثراس، إلى مضائق البلقان والدانوب، ولدت أبدير ومارونية.

لكي لا تترك الأفضلية التجارية لليديا، أمن المليونان مواقع لهم في مؤخرة دولة الليديين، سكنوا على الساحل الشمالي الغربي من آسيا الصغرى وتقدموا شيئا فشيئا نحو الشمال، من جهة هلسبونت وبروبونتيد. أقاموا سيزيك، مرفأ على الساحل الجنوبي لبحر مرمرا الذي كا محاطا بمستعمرات ميليزية. والساحل الشمالي لبروبونتيد كان محتلا من المغاريين الذين، بتأسيس سلسدون في مدخل بوسفور ثراس، استلموا مفتاح بونت-أوكسن. وعلى الساحل المقابل، عند مخرج هلسبونت، أرسوا بيزانسيا (في منتصف القرن السابع). كانت ميليه هي التي لعبت الدور الأول في إحياء شواطئ البحر الأسود. والقرنان السابع والسادس، عهد تغلغل المليونين في المناطق البونتيية، كانا قد وسما بازدهار ميليه التجاري والصناعي. وكثير من المليونين مخروا البحر الأسود. وفي النصف الأول من القرن السابع، بنى المليونون على ساحله الجنوبي مدينتين تجاريتين هامتين: سينوب وترايزونت. صارت سينوب بسرعة من أهم مدن البحر الأسود. كان مرفأ تحت تصرفها وكانت تتاجر بالخشب، زيت الزيتون والسمك، وبسرعة أيضا بنت لنفسها عدة مستعمرات (كوتورا، كرازونت وغيرها). وحازت هرقليا، التي بناها الميغار في منتصف الطريق بين بيزانس وسنوب، أهمية كبرى.

في النصف الأول من القرن السادس، شخضت مستعمرات أستريا وتومس وأبولونيا على الشاطئ الغربي، في جنوب الدانوب. وخلال ١٥٠ عاما (من القرنين السابع والخامس) ظهرت ثلاثة مواطن أساسية للاستعمار الهليني على الساحل الشمالي للبحر الأسود: الأول أولبيا، يقع على الشط الأيمن من هباني. وفي القرن السادس قبل الميلاد، بنى تيراس على الشاطئ الأيمن من ليमान دنستر، ومدن مملكة البوسفور المقبلة، بانتكابي ومنغوريا من جهتي مضيق كيريت. وفي القرن الخامس، ظهرت شرسنير في الطرف الجنوبي لشبه جزيرة توريد. كانت هذه المدن قد بنيت على الساحل أو جواره. وكانت طرق المواصلات التي شقت فيما بعد تمتد على ضفاف الأنهر الكبرى: دانوب، ونستر، بوج، دنير. وكانت آخر نقطة من الشمال الشرقي تقع على نهر الدون الذي حملت اسمه.

وفي شرق البحر الأسود، في كولشد، وجدت عدة مستعمرات: فازيس، ديوسكوريا وغيرها.

ببناء مستعمراتهم في شمال البحر الأسود، كان اليونان يتابعون أهدافا تجارية. فثروات هذه البلاد الطبيعية، في رأسها القمح، السمك، ثم المواشي، العسل، الشمع، والملح، كانت تشد المعمرين إليها. وقد لعب ساحل البحر الأسود دورا كبيرا كسوق للعبيد يمون اليونان القارية والأرخيل. أخيرا، خلق تصدير السمك الرائج مراكز للصناعة السمكية، مثل سنوب وبانتكاييه؛ فليس صدفة أن تحمل بعض نقود بونت-أوكسن صور السمك وأن تكون أقدم نقود أولبيا سمكية الشكل. وبالمقابل، كانت اليونان تصدر إلى المستعمرات الخمر وزيت الزيتون، ينقلونه بقوارير خاصة ضيقة الأسفل، والنسيج، والحلي، والأسلحة، والخزف وسواها. على ذلك، لم تتأخر هذه المدن عن صنع، بمساعدة السكان الأصليين، مختلف المواد لكي لا تستوردها من المتروبول.

### النتائج الاجتماعية والاقتصادية للاستعمار

لقد ساهم الاستعمار إلى حد بعيد بتطور اليونان اجتماعيا وسياسيا. فالمدن اليونانية، وقد صارت مراكز البلاد الاقتصادية، كانت تحاط بضواحي تجارية ومهنية. وقد تسارعت عزلة الحرفة عن الزراعة. هرعت الحرف إلى المدن، وتطورت الصناعات بوتيرة عالية، بخاصة التعدين، الخزف والنسيج. وتشكلت شريحة من التجار وصانعي الأسلحة، ثم من المزارعين. ومنذ القرن السابع، كان لدى اليونان نقود معدنية. ضربت إيجن ومدن أخرى الدراخما الفضية وأوبول النحاس على السندان: سلخفاة لإيجن، سمكة مجنحة لكورنثيا، وبومة لأثينا. تحسب المبالغ الضخمة على الطريقة الشرقية: ١٠٠ دراخما تساوي مين، ٦٠ مين تسمى تالان، رغم أن هذه الوحدات النقدية غير متداولة في اليونان. فظهرت شريحة تجارية جديدة، تجمع الفضة أو النقد. وتطور الإنتاج الحرفي في عدة مدن مثل ميليا، رودس، سامس إيجن، ميغار كورنثيا وأثينا، وكانت هذه السلع معدة للتصدير.

صارت مراكز التجارة والمهن أيضا مراكز للرفيق. ولما كان مردود العمل منخفضا جدا والتقنية بدائية، أخذ عمل العبيد أهمية قصوى. وكان الرفيق ينهل ليس فقط من دمار

---

<sup>١</sup> - وحدة وزن ونقد في اليونان القديمة.

وفقر الشعب اليوناني بحصر الكلمة (استخدام لقاء الديون)، بل من الحروب، ومن اللصوصية واستيراد العبيد الأجانب. في هذا العهد، لم يكن التاجر يختلف عن القرصان، وغالباً ماتت هي الصفقة بتعرية أسر المشتريين السذج، ثم يباعون عبيداً. وصار استغلال الأجانب الأسرى الشكل المهيمن في عملية النخاسة في المدن الهلينية.

لقد لاءمت العلاقات الاقتصادية والتجارية الممارسة عبر كل مناطق البحر المتوسط ودفعت تطور الحضارة اليونانية. وكان مستوى الحياة المادي والثقافي غالباً أعلى في المستعمرات منه في اليونان بحصر الكلمة. كما أفادت اليونان القارية من مدن آسيا الصغرى، بخاصة مدن أيونيا التي كانت على اتصال مباشر مع الشرق، فيما يتعلق بالثقافة المصرية، البابلية والآشورية. ويكفي أن نذكر أن الأبجدية الأيونية، المستقاة من الشرقيين (من الفينيقيين على الأرجح) التي أتقنها الأيونيون فقط، استخدمت في العالم اليوناني كله. كما أن الشرق علم اليونان صب التماثيل من المعادن، الأمر الذي ساهم بتطوير فنونهم التشكيلية. وفي أيونيا نظمت انطلاقاً من الأغاني القديمة القصائد "هوميرية" التي انتقلت فيما بعد إلى المتروبول وانتشرت في المستعمرات الغربية. وشهدت أيونيا وإيوليا ولادة القصيدة الغنائية، وعوامل العلم والفلسفة اليونانية (انظر الفصل ٣٣).

كان أسلوب حياة البذخ التي سيعيشها المعمرون يلائم عمارة مدنهم، المبنية بمخطط متناسق، بشوارع عريضة ومستقيمة تتقاطع بزوايا قائمة (مثلاً، أغرجانت، سلنانت، شرسونيز). وفي المستعمرات أنشئت أعظم صروح العصر، مثل معبد بوزديون الرائع في بوستوم.

**الصراع الاجتماعي في اليونان في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد.**  
**الاستبداد.**

لقد أفضت الانطلاقة القوية لقوى الإنتاج في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد، في الحاضرات المتطورة، إلى العديد من التبدلات الثورية التي وضعت نهاية لنظام العشير وشرعت مجتمع العبودية المنقسم إلى طبقات.

ففي كورنثيا، ميغار، سسيون، أرغوس، ميليت، وفي جزر لسبوس وسامس، والجزر الإيطالية والسيلية، كان يدور صراع ضارٍ يبين مختلف شرائح المجتمع، نجمت عنه عدة انقلابات. يعود الدور الأهم بهذه الحركات الثورية إلى الشرائح الجديدة، الحرفية

التجارية، من سكان المدن، لكن القوة الرئيسية كانت في كل مكان شريحة الفلاحين، التي كانت تعاني الأمرين من نير النبلاء. فطرد شرائح كاملة من السكان مصادرة الأرزاق وإعدام قادة الأحزاب المنهزمة صار أمراً عادياً في عدة مدن، بخاصة في أيونيا. في إحدى مراته، يقارن الشاعر الميغاري ثيونيس، نصير الأرستقراطية، المدان بالنفي، يقارن مدينته -مسقط رأسه- بسفينة تغرق: "التافهون الحقيرون هم الذي يحكمون، الخبثاء يبعدون الطيبين. إني أخشى على المركب من الغرق." وكان يدعو إلى سحق المتمردين بدون رحمة: "اسحق جمهرة الشعب البائس بعقب حدائك، اجعله يحس بوخز الدبوس، أو لسعة السوط، وقيده إلى نير ثقيل".

هناك، حيث كان الحزب الشعبي ينتصر ويقلب الأرستقراطية، كانت تنتقل السلطة إلى يدي قائد هذا الحزب الذي، في هذه الحال، كان يصير، حسب تعبير اليونان، مستبداً. المستبدون يكبحون النبلاء، يوزعون أرضهم على الفقراء، يساندون انطلاقاً المدن والتجارة، يساهمون بازدهار اقتصاد العبودية باستيراد جماهير العبيد الأجانب.

كان مستبدو المضيق (سسيون، كورنثيا وميغار) ومستبد سامس، بولكرات، الأشهر بين الطبقة. وفي سسيون، كان المستبد أوثاغوراس، الطباخ السابق، كما نقرأ فيالسن، قد أسسوا أسرة أرثغوريدس التي حكمت ١٠٠ عام (من ٦٧٠-٥٧٠). اضطهدت هذه الأسرة نبلاء سسيون؛ استبدلت الأسماء الرسمية لثلاث قبائل أرستقراطية بألقاب ساخرة (قبائل الخنازير، الحمير والخنوص القذر)، ألغوا عبادة البطل الأرستقراطي أدراس وأقاموا مكانها الإله الريفي ديونسوس ودافعوا حتى عن الأناشيد التي تشطب أشعار هو ميروس التي تمجد النبلاء. واتبع الطاغية الكورنثي سبيلوس وابنه برياندر (٦٥٧-٥٨٥) سياسة أجزأ. قلبا سيطرة الأولغارشية الأرستقراطية، وعلى رأسها أسرة بكشيادس، وصادروا أملاك النبلاء الواسعة ليوزعوها على الفقراء المدقعين الذين تحرروا من الاستعباد. وجهز براندر كورنثيا بأسطول قوي ومرافئ رائعة؛ وحاول حفر قناة في برزخ كورنثيا، لكي تمر التجارة بين بحر إيجه والبحر الأيوني في مدينته. وبلغت صناعة المعادن والسماميك الكورنثية مستوى عالياً جداً. وفي دلفيا، عرضوا، لمدة طويلة، كشيء غريب، "علبة سبيلوس" قدمها أبناؤه وهي عبارة عن نموذج رائع من عمل الحرفيين الكورنثيين. وفي هذه الحقبة احتلت كورنثيا كورسير، الجزيرة التي يعبرها الطريق إلى إيطاليا، وأسست عدة



مستعمرات، إحداها بوتيديا، على شبه جزيرة سلسديك. وفي ميغار، ثياجين قاد (حوالي العام ٦٣٠ قبل الميلاد) تمردا شعبيا نجم عنه مذبحه مواشي تخص النبلاء ووزع ما بقى حيا. ولما صار دكتاتورا لميغار، ثياجين سعى لإثارة صراع آخر في مدن أخرى (في أثينا مثلا).

لكن المستبد الأكثر شهرة كان بولكرات دي سامس. يذكره هيرودوت كمتنرد .. احتل سامس على رأس عصيان، ضد الأرستقراطية (٣٩٠، ١٢٠). وفي أثناء حكومته في منتصف القرن الرابع قبل الميلاد، وضع حدا لسيطرة كبار الملاك العقاريين في سامس وألغى بدون رحمة كل محاولاتهم لاستعادة السلطة. يقول هيرودوت أن بولكرات "كان بالفعل اليوناني الأول.. الذي فكر وحلم بإمبراطورية البحار" (٣، ١٢٢). ولهذا الهدف، خلق أسطولاً من ١٠٠ مركب وجيشاً متطوعاً؛ احتل كثيراً من الجزر وكثيراً من مدن القارة، وعقد حلفاً مع فرعون مصر أمسيس *Amasis*. ولقد ظفر بولكرات بأعمال كبيرة: وأمر ببناء رصيف كبير وحفر قناة من أجلها فتح نفقا من سبع مراحل (أكثر من اكم، عبر الجبل، وشيد معبدا "الأعم بين المعابد" (٣، ٦٠). ودعا إلى قصره الشاعر أنكوريون والطبيب ديموسيد من كريتون، لكنه نفى من سامس فيتاغورس، لسان-حال النبلاء.

رغم التقدم الاقتصادي والثقافي، المشروط إلى حد كبير بالاستعمار، ثمة فروق واضحة في تطور مختلف أقاليم اليونان: فضلا عن المناطق والحاضرات المتقدمة التي ساهمت بسعة بالحياة الاقتصادية الجديدة وتبدل العلاقات الاجتماعية، ثمة أجزاء أخرى من اليونان، مثل لاكونيا، تساليا، وكريت، حافظت على الأخلاق شبه الأبوية. ففي القرنين السابع والسادس، كانت أثيك، وعاصمتها أثينا، نموذج البلدان المتطورة، بينما كانت إسبارطة تمثل الأقطار المتخلفة.

## الفصل السادس والعشرون

### إِسْبَارْطَة

#### الأصول

الدولة الإسبارطية واحدة من أقدم دول اليونان القديم. تأسست في القرن التاسع، فلم تعرف سوى القليل من تطور القوى المنتجة وتفكك نظام العشير والاجتياح الدوري للمجتمع الآشيني البلبوني. فقد أشرنا آنفاً أن قبائل الدوريين اجتاحت في العام ١١٠٠ قبل الميلاد ليبيريا في أرغوليد وفي لاكونيا عن طريق بيوتيا ومضيق كورنثيا.

لم تجد هذه الأحداث انعكاسها إلا في الخرافات التي تناولها بعض الكتاب اليونان وأثبتتها البحوث الأثرية الراهنة. والمصادر المتعلقة بالحياة اللاحقة لإسبارطة فقيرة هي الأخرى: نجد بعض المعلومات لدى تيرتي *Tyrtée*، الشاعر الغنائي في القرن السابع قبل الميلاد، ثم لدى ثوسيديد (الكتاب الأول، ١٠١-١٠٣، ١٢٨، ١٣٤؛ الكتاب الرابع، ٨)، بخاصة في بحث خوفون "جمهورية إسبارطة ولدى بلوتارك: في سيرة ليكورغ، ليذاندر وأجزلاس. يجب أن نعامل عمل خوفون بحذر، لأنه مؤلف رجعي يمجّد نظام إسبارطة الأولغارشي. أما حياة ليكورغ، التي كتبها بلوتارك، فهي خرافية وغاصة بالخيال المجنح. تمتد لاكونيا، الوادي الخصب، التي يزورها أوارتس، بين تايجت وبارنون وتتطاول على جزء من مصب هذا الأخير. اتصالها بالبحر سيء، لأن الساحل محروم من المراسي الملائمة.

قبل الغزو الدوريني، كان سكان لاكونيا يعيشون الحياة الواردة في شعر هوميروس. فهنا نجد المدينة القديمة أمليكا، أحد مراكز الحضارة الميسينية. ولقد عثر علماء الآثار حديثاً على المقام الغني الخاص بقائد نبلاء الآخيين المحليين. عاش هذا المسكن حتى نهاية العهد الميسنس وازاله الدوريون في نهاية القرن الحادي عشر. كانت درجة الرقي الاجتماعي للرعاة الدوريين أخفض من درجة الآخرين، لكنهم كانوا يمتلكون منظمة

عسكرية ضاربة، فرضت وجودها حياة القبائل الرحل وكثرة الغزوات، التي سهلت لهم فتح لاكونيا. أعلن الدوريون ملكية مشتركة للأرض المحتلة والفلاحين الذين يعمرونها وقسموها إلى أسهم متساوية حسب عدد الأسر: كان السكان حوالي ١٠٠٠٠ وقرابة ٢٠ هكتارا لكل منهم. وشكل الغزاة الشريحة السيدة، محافظين على النظام المشاعي ليؤمنوا سيطرتهم على الرعية المغزوة. وفي القرن التاسع أنشأوا في النقطة الأوسع من الوادي مركزهم العسكري، المسمى إسبارطة أو لاسدمونيا، وسما إسبارطيين. كانت إسبارطة تضم خمس مزارع غير محصنة؛ فهي مخيم قتال دائم، ومن هنا تمكن السبارطيون أن يحكموا فلاحين، أكثر عددا بكثير من الفاتحين.

بعد أن وطدوا وجودهم في لاكونيا، بدأ السبارطيون في النصف الثاني من القرن الثامن غزو مسينا، البقعة الخصبة والكثيفة السكان، الواقعة في غرب سلسلة تايجت. ونتيجة حربين طاحنتين، لا نعرف عنها سوى الخرافات، اجتاحت الإسبارطيون في القرن السابع قبل الميلاد مسينيا<sup>١</sup> وحولوا سكانها إلى أرقاء. ادخر الأرقاء المسينيون للغزاة حقا أزرق ووضعهم في موقف الخائف دوما من العصيان. نشب أهم عصيان في العام ٤٦٤ قبل الميلاد. استغل الأرقاء زلزالا كنس إسبارطة كلها تقريبا وهجموا على الإسبارطيين الذين لم يتيسر لهم سحق مقاومة العصاة المنتشرين في جبال إيثوم عصابة المسالك. تسمى انتفاضة الأرقاء هذه "الحرب المسينية الثالثة".

### النظام الاجتماعي والأخلاق

لقد تشكلت الدولة الإسبارطية نهائيا في آخر القرن السابع، بعد أن اجتاحت الداريون لاكونيا ومسينا. يصف العلم الحديث نظامها الاجتماعي بالـ"رقيقي" ليشير إلى الفرق بين استغلال الأرقاء واستغلال العبيد، الفرق الناجم عن عمق مخلفات المشاعية البدائية، ومع هذا، إلى الطبيعة القاسية لعلاقات العبودية.

كان سكان إسبارطة منقسمين بوضوح إلى ثلاث فئات اجتماعية: إسبارطيون، بريك وأرقاء. تعيش كل واحدة، على بقعة منعزلة عن غيرها، الأمر الذي يميز جدا الطبيعة البدائية للدولة.

<sup>١</sup> - في اليونان جزيرتان متشابهتا الاسم: Mycenie و Messenie.

الإسبارطيون هم الطبقة السيدة التي لا تمارس سيادتها على الأرقاء إلا كتعاونية فوق تعاونية أخرى. رغم أن كل سهم يحرثه الأرقاء يخص أسرة إسبارطية، فهذه الأسرة تسكن في إسبارطة وليس على ملكها؛ (الإقطاعي يسكن في دمشق وملكه في أقصى الغوطة)؛ رأس الأسرة لا يدير أبدا اقتصاده، لا يوجه الأرقاء؛ ليس له أن يعتبرهم ملكه ولا يستطيع أن يطردهم، أو يبيعهم أو يقتلهم. هذه هي الدولة -الإسبارطيون منظمون ليحكموا- هم من يسود. وليس للإسبارطيين أن يحرثوا الأرض، ولا أن يمارسوا التجارة أو الحرفة. كل ما يتعلق بالأرض محرم عليهم. هم موقوفون للفن العسكري. على ذلك، تجني الأسرة الإسبارطية حصة من موسم السهم (على الأرجح النصف). ملكية السهم ومن يحرثه وراثية: لا يمكن بيعه، ولا أن يوصى به ولا تركه أو التخلي عنه لأي كان، عدا ابن رأس الأسرة.

البرياك هم أحفاد آشبي لأكونيا المحتلة وهم (حوالي ٣٠ ألف إنسان. وهم الناس الأحرار الذين يملكون عقارا ومالا منقولا. لكنهم محرومون من الحقوق السياسية ولا يتزوجون من السبارطيين. يسكنون أرضا خاصة بهم، وحدها. أساسا في منحدرات الجبل والساحل الشرقي والجنوبي، حيث يوجد الكثير من الضيع. يتمتع البرياك باستقلال يراقبه السبارطي. يمارس حراثة الأرض، والحرفة والتجارة ويدفع ضريبة للسبارطيين. البرياك ملزمون بخدمة الجيش، لكنهم يشكلون فيه وحدات قائمة برأسها. والخدمة العسكرية تبهظهم أكثر فأكثر، أي بمقدار نقص عدد السبارطيين المتمتعين بالحقوق المدنية. وهذا أحد أسباب غضبيهم المتنامي.

يشكل الأرقاء جمهرة الناس المغلوبين والمستخدمين، وهم حوالي ٢٠٠ ألف أبقاهم المنتصر على الأرض التي صارت تخص الدولة.. تزرع كل سهم عدة أسر من الأرقاء الذين، بعملهم، يغذون المالك وأسرته. وأهم ما يميز الرقيق عن العبد في الدول اليونانية الأخرى، هو أنه ملك الدولة، "عبد عام"، كما يسميه المؤلفون القدماء؛ فضلا عن هذا، ورغم ارتباطهم أساسا بوسيلة الإنتاج -الأرض- يحتفظون بنوع من الاستقلال الاقتصادي فيشبهون الأقنان. يزرعون أرض المالك السبارطي بأدواتهم ويعطونه نصيبا معينا عينا: قمح، خمر، جبن، وزيت. وبعد أن يأخذ المالك حصته (النصف)، لا يكفي ما يتبقى قوت الفلاحين الضروري، ناهيك عن الضائقة في المواسم الماحلة. وبعكس عبيد الدول الأخرى، يشن الأرقاء هنا حربا بصفتهم حراسا، مرافقين، حمالين وخدم. دعا شظف حياتهم الشاعر

السيارطي تيرتي *Tyrtee* (القرن السابع) أن يشبههم بالحمير الحاملة فوق طاقتها *.surcharges*

وتجنباً لنشوب التمردات والزيادة الخطرة في عدد الأرقاء، يتخذ السبارطيون تدابير قاسية (*les cryptios*) في كل عام يلجؤون إلى اضطهاد وقمع بل إبادة أبرز المتمردين، أجراً الأظناء. تجوب الفصائل السرية، المؤلفة من شباب السبارطيين، المكلفة بمهمة خاصة، تجوب البلد لمراقبة وإرهاب الناس. في النهار، تكمن هذه الفصائل قرب القرى، وفي الليل تذبح الأرقاء. لم تبد أية دولة قديمة هذا التوحش مع العبيد. يظهر هذا الواقع سعار التناحر والصراع الطبقي في إسبارطة.

من جراء هذا، ارتدت الأخلاق السبارطية طبيعة فريدة. كل الرجال البالغين ملتزمون بالجيش الدائم، فظ الانضباطية المستعد أبداً للهجوم. وكل إسبارطي من العشرين إلى الستين يذهب كل يوم إلى التكنات ويشترك بالتمارين القتالية. كل أبناء المدن المتمتعين بالحقوق المدنية يشكلون روابط تمتلك كل منها مكاناً يجتمع فيه أعضاؤها ويتناولون وجبة مشتركة؛ لا يغادرون هذا المكان، بل ينامون غالباً في المهاجع نفسها ويأتون مسلحين. وحسب هذه الروابط يعبأ الناس في وحدات محاربة. فهم ملزمون أن يكونوا أعضاء في الرابطة. والتعيين الشهري للوجبة المشتركة يتألف من كمية معينة من طحين الشعير، الخمر، الجبن، والتين.

تتدخل السلطات السبارطية أوسع تدخل في حياة الناس الخاصة: تهتم بالزيجات، بتربية الشباب. تفرض خضوع الأفراد خضوعاً مطلقاً لمصالح الطبقة. على الأزواج أن يربوا أولادهم، الذين سيكونون الدعامة الأكيدة لاسبارطة العبودية، تربية صحية وجادة. يبقى الأولاد عند ذويهم حتى الربيع السادس عشر. بعدها تتكفل به الدولة وتعبئه في فصائل خاصة تحت مراقبة مدرسين تتعهدهم الدولة.

في التربية والتعليم، يعود المكان الأول للتمارين الرياضية: قتال، ركض، رمي القرص والرمح أو الحربة، إلخ. للمساهمة بالتطور البدني للأبناء. ليخشوشنوا، يلزمونهم بالمشي الحافي والجسم العاري تقريباً في كل الفصول؛ بحيث يكفلون استقامتهم، براعتهم وخضوعهم.

التعليم الابتدائي قصير إلى أنى حد. يحضر الفتيان عادة الوجبة المشتركة واجتماعات يتحدثون فيها عن الشؤون والمآثر. يألّفون الحديث عن أفكارهم وأمانيتهم كجنود. وتربية

السابارطين الأخلاقية منسجمة مع الفن العسكري. وفي أثناء التمارين الرياضية، والوجبات المشتركة والمعارك الحربية ينشدون أناشيد ظفر الوطن والمواطنين الأمجاد. وفي ربيعهم الرابع عشر، يتبع المراهقون المحاربين الراشدين عبر البلاد، ليعتادوا حياة الخيام والحرمان. وفي ربيعهم العشرين، ينخرطون في العمل العسكري التام وينتسبون إلى الروابط. وتستمر خدمتهم حتى الشيخوخة.

وتربية البنات تنسجم أيضا مع مهام الدولة الهادفة الإعداد الجيد لأمهام المستقبل لجيل سليم. في الملاعب والمعاهد الرياضية، تخضع البنات كالصبيان للتمارين الرياضية فضلا عن الرقص، الموسيقى والغناء. في الدول اليونانية الأخرى تعيش النساء منعزلات، بينما في إسبارطة يبربن كتربية الرجال، حيث يتمتعن بقسط وافر من الحرية واحترام مواطنيهم. يشهد هذا الوضع على مخلفات عهد الأمومة المعروف.

### النظام السياسي

كان النظام السياسي في إسبارطة مغرقا في البدائية. وحسب الخرافة، كان قد أقره روح دلف الأعجوبي ووضعه بين يدي المشرع ليكورغ الأسطوري.

كان يقود الدولة ملكان بالوراثة. كان لهما الدور الأعظم، لكن أثرهما في السياسة ضئيل. وفي زمن السلم، تقتصر سلطتهما على التسوية الشرعية للميراث، الاشتراك بمجلس الشيوخ وممارسة مهام كهنة زيوس. وفي زمن الحرب، يقودون الجيش، وخلف حدود البلاد، يتوليان سلطة غير محدودة.

يشكل الملكان جزءا من مجلس الشيوخ المؤلف من ٣٠ شيخا، انتخبوا حتى الممات من الأرستقراطيين الذين بلغوا الستين من العمر. ومجلس الشعب المكون من السبارطين الذين أتموا الثلاثين ربيعا، يصدق قرارات مجلس الشيوخ الرئيسة، بخاصة المتعلقة بالحرب والسلم أو يرفضها، دون حق المناقشة.

وتنور الانتخابات وتتخذ القرارات في مجلس الشعب، حسب تعبير أرسطو بصورة "تافهة": بدون اقتراع، بالصياح الذي يكشف عنه الموقف السلبي أو الإيجابي من هذا الترشيح أو القرار أو ذلك. وإن كان الصخب والصياح غير معبر، ينقسم الحضور إلى طرفين.

لكل من مزارع إسبارطة الخمس مراقب، ذو سلطة مطلقة، عين على الأرجح في بداية القرن الثامن قبل الميلاد، بهدف اتقاء أو خنق تمردات الأرقاء. وهذه وظيفة سنوية. وكمحصلة لحكم القلة المبتزة، ينتخب المراقبون من الأوساط الأرستقراطية الأكثر تحفظا.

تطال مراقبتهم الملك وأعضاء مجلس الشيوخ. إنهم هم الذين يقودون بالفعل سياسة الدولة. يعلنون منذ وصولهم الحرب على الأرقاء وحتى لهم الحق بمحاكمة وإدانة بالموت الملوك المتهمين بالرغبة في تغيير النظام القائم. يأتي المراقب إذن ليتوج حكم الأقلية السبارطية، ودكتاتورية الطبقة المتوحشة ودعامة الأرستقراطية في اليونان.

في هذه الشروط، كان محالا أي تبدل متطور إلى هذا الحد أو ذلك: التجارة بالغة البدائية، وكنقد يتداولون بارات من الحديد، كان دخول الاجانب إلى البلد ممنوعا. لهذا السبب، حسب قول بلوتارك، لم تكن البواخر الغربية تدخل موانئ اسبارطة. تنفق الدولة من الضرائب المضروبة على البرياك - الطبقة الثانية - ومن المناهل الاستثنائية وأسلااب الحرب، كانت الخزينة فقيرة، لأن المداخل تدفع غالبا عينا.

كانت المؤسسة العسكرية في إسبارطة هي القوة الضاربة في اليونان كلها. كل إسبارطي محارب مقدم في تمام الجاهزية. جنود المشاة المسلحين حتى أضراسهم يعتمدون خوذة، يرتدون درعا، يحملون رمحا أو حربة وترسا دائريا صغيرا، هم أقوى سلاح في الجيش مدعوون للتمسك بمواقعهم حتى آخر لحظة. في أثناء المعارك الحربية، يمشي الجيش إلى العدو بهدوء وببطء، بصفوف متراسة، وعلى صدح الموسيقى. وسلاح المشاة السبارطي لايقاوم، وندرة أولئك الذين نجحوا في تدارك هجماتهم، لكنهم ضعيفو الخبرة بالحصار ولايعرفون الاستيلاء على المدن بختة. وبحرية إسبارطة قليلة الشأن.

في نهاية القرن السادس، سقطت بلوبونيز كلها تحت هيمنة اسبارطة. وفي حوالي العام ٥٣٠ تشكلت الجامعة البلوبونيزية التي ضمت أيضا كورنثيا، سيسيون، ميغار وجزيرة إيغن. وكان أرغو، صاحب الدور الأبرز في بلوبونيز، ومشاعات أشي Achaie، في الشمال، القوة الوحيدة التي لم تنضم إلى هذه الجامعة. ورغم أن القضايا العامة نجمت عن لقاء الحلفاء، المنعقد في إسبارطة، كانت حكومة إسبارطة بالفعل هي التي سوت القضايا المتعلقة بالجامعة.

لقد اقتبس النظام الرجعي الإسبارطي الاقتصاد، الحياة السياسية والاجتماعية من بلوبونيز ومن اليونان كلها، وكبح تطورها. وخوفا من التبدلات، دعمت اسبارطة دوما العوامل الرجعية والأشكال البالية من العلاقات الاجتماعية في دول اليونان الأخرى. ولولا تفقد تفوقها القتالي، كانت تعارض بكل السبل الوحدة مع الدول الأخرى، إذن التطور اليونان السياسي.

## الفصل السابع والعشرون

# أتيكيا في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد

### سيطرة أرستقراطية الدم

بعكس إسبارطة، قدمت أتيكيا للقرنين السادس والخامس مثال الدولة اليونانية العبودية المتطورة. يخولنا تاريخها متابعة تشكل حاضرة العبودية، سقوط أرستقراطية الدم، تجاوز مخلفات نظام العشير وظهور الشكل الأرقى لدولة العبودية: جمهورية العبودية الديموقراطية.

بين يدينا مناهل ثرة لدراسة تاريخ أتيكيا القديم. ملاحظات متفرقة تصادف لدى هيرودوت وثوسيديد، لكن المعلومات الأوفى يزودنا بها "بناء أثينا" لأرسطو و"حياة ثيزي" و"حياة سولون" بقلم بلوتارك. أخيراً، أمكن جمع وثائق غنية في أثناء تنقيبات أثرية، بخاصة في مقبرة ديبيلون وسراميك، وعلى أغورا أثينا.

أتيكيا شبه جزيرة صخرية ممتدة في البحر مساحتها ٢٥٠٠ كم<sup>٢</sup>. مغطاة بالجبال الكلسية؛ محرومة من الماء والنبات في كثير من البقاع. يدعى شمالها للشرقي العالي، وغير القابل للزراعة، الهضبة. وساحلها (الإقليم البحري) ليس خصبا أبداً، لكنه ملائم جداً لأعمال البحر. خير أقسام أتيكيا السهل المركزي، بيديون. واقعة على طول المجرى المائي الهام والوحيد، لنهر سفيز، الذي ينضب هو الآخر في الصيف، والسهل المركزي محاط بالجبال من ثلاث جهات ويغمره البحر في الجهة الرابعة-الجنوب الغربي. في هذا السهل، على ٧ كم من خليج سرونيك، توجد أثينا. كانت ثروة أتيكيا الطبيعية الفضة في لوريون، الرخام في بانتليك وهميت، وكذلك أجود الآجر التشكيلي، المستخدم كثيراً في صناعة الفخار.



في البداية، كان الشعب يعيش عشيرا في مزارع محصنة، حفظت أسماؤها بالتتابع: أشارن، ايلوزيس، كولونيا، فالير، ماراتون، إلخ. كان بعضها مراكز للبطون أو الأفخاذ. وبحسب تطور العلاقات والمبادلات، تغلب المبدأ الإقليمي وشيئا فشيئا تصير أتيكيا بلدا واحدا مركزها أكبر معقل: أكروبول أثينا. هنا يوجد قصر باسيليس، الذي حرره علماء الآثار، والمقابر الهامة: أرشتيون والباريتون. غير بعيد من هنا، على تلة آريس، كان يقوم مجلس الشيوخ، وعلى سفوح تلة أخرى، بينكس، كان يجتمع مجلس الشعب. تنسب الرواية دور التوحيد للملك ثيزي: "ألغى المجالس والمحاكم وجمع كل المواطنين في المدينة الحالية، وأقام مجلسا واحدا ومسكنا واحدا للقضاة"، يكتب ثوسيدس (المجلد الثاني، ٢١٥).

وفي الوقت ذاته، كما يقول بلوتارك (ثيزي، ٢٥)، انقسم الناس إلى ثلاث شرائح: نبلاء، مزارعون صغار، وصناع. كان النبلاء أرستقراطيين أغنياء بالأرض والماشية، تشكل الشريحتان الأخريتان الشعب الأكثر فأكثر استرقا. وعدا السكان الأصليين، كان يوجد كثير من العبيد والأجانب المقيمين في أثينا، أحرار شخصيا، لكنهم محرومون من الحقوق المدنية.

بقدر تطور التبادل وصيرورة المنتج بضائع، يتسع دور حراثة الأرض من قبل الأفراد وتوطد الملكية العقارية الخاصة. يحتكر النبلاء أخصب أراضي البيديون ويحولون أراضيهم الواسعة إلى إقطاعات. بالقرصنة وقطع الطرق يأسرون العبيد للعمل في الأرض ويستخدمون بالربى المزارعين وبلادهم. على أثر هذا التطور، "صارت كل الأرض بتصرف عدد ضئيل من الناس"، يكتب أرسطو، وكل الشعب يخدم الأغنياء: "...كان الفقراء، بنسائهم وأبنائهم عبيدا للأغنياء. كانوا يسمون "زبائن" و"سداسيون" أي يحصلون على ١/٦ منتج الأرض" (بناء روما، المجلد الثاني).

كان السداسيون على الأرجح الملاك الصغار المدنيين الذين رهنوا أرضهم لدى كبار الملاك، لذا وضعوا على أرضهم حدودا تدل إلى مبلغ الدين. وكفائدة يدفعون ١/٥ المخطول. وهكذا صارت مدينة أثينا والأكروبول، معقلها، مركز تجمع النبلاء الذين يحكمون كل رعية أتيكيا.

لقد وقتت مبادئ النظام العشيري القديم حجر عثرة في وجه اغتناء ملاك العبيد وتشكيل الدولة. وفي القرنين الثامن والسابع، حددت السلطة الملكية في أتيكيا ثم استبدلت

بتسعة حكام أوليين (أرشونت) منتخبين من الأرستقراطية ويمثلون السلطة التنفيذية العليا. وفي منتصف القرن الثامن، كانت مدة الأرشوننتية عشرة أعوام. وبدءاً من العام ٦٨٣، صارت عاماً واحداً. يرأس الجميع الأرشونت الذي يعطي اسمه لسنة حكومته؛ يراقب الشؤون الداخلية، يحل الخصومات العائلية، يهتم بوصاية الأرامل واليتامى. الأرشونت الثاني، هو القيصر، يمارس الوظائف الدينية التي كانت للملك سابقاً. الثالث، هو قائد الجيش، يشرف ويدبر الشؤون العسكرية. والأرشوننتية الستة الأعضاء الآخرون، الذين يحملون اسم الأرشونت المشرع، يسهرون على تنفيذ القوانين ويقاضون مواطنيهم. ويعقل مجلس الشيوخ، المؤلف من الأرشونت السابقين، السلطة التشريعية؛ وكذلك الجهاز الأعلى للقضاء والمراقبة. السلطة إذن بين يدي النبلاء الذين يفيدون منها من أجل استقرار سيطرتهم السياسية، بينما الشعب، حسب تعبير أرسطو، لا يملك أي حق" (بناء أثينا، المجلد الثاني، ٢).

#### أولى حركات شعب أثينا. تمرد سيلون. قوانين دراكون

إن تطور المهن والتجارة في أتيكيا، وكذلك في الحاضرات اليونانية الأخرى، أفرز فئات شعبية جديدة، مكونة من تجار وصناعيين، لا يتلاءم وضعهم السياسي مع دورهم الاقتصادي. وقد صارت أثينا، وباقي مدن اليونان الكبرى، ليس فقط مركزاً للأسر الأرستقراطية المتنفذة، بل أيضاً مركزاً للتجار، وصغار الصناعيين، والحائوتين والأجانب الأحرار شخصياً *meteque* (سيراميك، ميليت، وغيرها)، التي حازت أهمية جعلتها في القرن السابع حصوناً. كان صناع الفخار الأثينيون قد ابتكروا طلاء أسود وبدأت مشوبياتهم المزخرفة تزاحم مشربيات كورنثيا. وبدأ استثمار طبقات الفضة في لوريان، وكان مرفأ أثينا في فالير قد صار مرس بالغ الحيوية.

كانت أرستقراطية نبلاء روما تحتقر هذه الجماعة التي تعيش من التجارة والمهن المتنوعة. مع ذلك، كان النبلاء قد تحولوا إلى حلقة من كبار الملاك الذين أغناهم الريى. وقد مارس البعض منهم القرصنة. بينما انخرط آخرون، مثل أسرة الكميونيد ونسل أسرة الكودريد الملكية، وسولون، في التجارة. لكن الغالبية أفادوا من دورهم المهيمن في المنظمات الاجتماعية السابقة، بطون وأفخاذ، من أجل احتلال أراضي المشاعات التي لم تقسم بعد، واحتكرت أسهم أعضاء العشير الآخرين، واستخدمت أكثر فأكثر المسادين

المدنيين جاعلة منهم عبيداً أو خدماً. "كان عامة الناس خدماً لدى القلة...، وكان النير الأثقل يحمله العبيد"، يكتب أرسطو (بناء أثينا، المجلد الثاني، ٢) بصدد العلاقات الاجتماعية في أتيكا الريفية في القرن السابع.

لقد كبح هذا الشكل البدائي جداً من العبودية بشأن الدين، كبح تطور القوى المنتجة. وترتب على سكان الريف، عوض من أن يزداد التناقص على أثر بيع المدنيين المملّكين وأبنائهم للأجانب بيعاً جماعياً، الأمر الذي أثار حزن ورثاء بعض المعاصرين، مثل سولون. وبدأ الشعب يحتل أكثر فأكثر مكان الطليعة في مقاومة الفلاحين غير المنظمة، الناشئة بين "النبلاء والعامة" حسب تعبير أرسطو (بناء أثينا، المجلد الثاني، ١)، كان شعب المدينة يبغى التحرر من الملاكين العقاريين الكبار ويجهد في تبديل شكل الاستثمار البدائي الذي تمارسه النبالة فيحول أحرار أثينا إلى عبيد، إلى ناظم أرقى: استغلال العبيد المستورد من الخارج. فأخذ استخدام العبيد الأجانب دوراً هاماً في النشاط الاقتصادي لسكان المدن، في ورشات الحرف والمشاريع التجارية.

تطلعنا الرواية على شكل أولي لهذا الصراع في أتيكا: محاولة الأثيني سيلون قلب سلطة النبلاء وتنصيب مستبد في أثينا (في حوالي العام ٦٣٠). كان سيلون من أصل نبيل ومعروف كنجم في الألعاب الأولمبية. اعتمد في حركته على ابن حميه المستبد ميغار ثياجين. وفي أثناء الاحتفال بأحد الأعياد، احتل فجأة الأكروبول بمعونة ثلة من تلامذته. لكنه سرعان ما طوق بالنبلاء الذين كتلوا "جمهرة الحقول" المرتبطة بهم. نجح سيلون بالهرب، ولجأ أنصاره إلى معبد أثينا. ويعد أن أضناهم الحصار والجوع، قبلوا الاستسلام بشرط أن يكسبوا حياتهم. لكنهم ما أن خرجوا من مأواهم حتى ذبحوا. واعتبرت مسؤولة عن هذه المذبحة أسرة الألكشمونيد الشرسة. إن أنصار سيلون، الذين انضموا بالصدفة إلى أعداء الألكشمونيد واتهموا بحنث اليمين وارتكاب المحرمات. فنفوهم وعظام موتاهم نبشت ورميت خلف الحدود.

رغم التفاصيل الخرافية لهذه القصة التي رواها ثوسيديد (المجلد الأول، ١٢٦)، فإن مؤامرة حيكّت لاحتلال السلطة المستبدة في أثينا في تلك الحقبة. ولقد فشل سيلون لأنه لم يؤمن دعم ومساندة جماهير الريف التي آزرت الملاكين الكبار على خنق التمرد الذي لم يحده سكان المدن إعداداً جيداً.

تعتبر هذه المحاولة المهيضة في أتيكيا بداية حقبة طويلة من الاضطراب. كان النبلاء يثيرون هذه الاضطرابات لأنهم فسروا لصالحهم عادات العشير، غير المذكورة في أي مصدر ولم تنقل إلا شفاهاً. إن أول المطالب التي طرحها الشعب في نضاله من النبلاء هي إذن سن قانون مكتوب ملزم للجميع، يحكم العلاقات القضائية في المجتمع العبودي الوليد.

وخوفاً من تحول غضب الشعب إلى تمرد، اضطرت الأرستقراطية أخيراً إلى التسليم وتكليف الأرشونت دراكون (العام ٦٢١) الاهتمام بسن هذه القوانين. اشتهرت "قوانين دراكون" بقسوتها، لأنها أساساً مجموعة من عادات العشير البدائية. أي خرق بما فيها سرقة فاكهة أو يقول) كان يعاقب بالموت. يقول ديكاد (خطيب أثيني في القرن الرابع) إن دراكون كتب شريعته "ليس بالحبر، بل بالدم". على ذلك، كانت تقدمية، لأن وضع قانون ملزم للجميع يحد إلى حد ما تحكم النبلاء. كانت الشريعة المنقوشة على قطع حجرية معروضة في الأغورا، على مرأى الجميع، الأمر الذي يضع المحاكمة تحت مراقبة العامة.

#### اصلاحات سولون

لم تسو شريعة دراكون أبداً وضع الشعب الريفي وصغار الفلاحين المستخدمين. بل كانت تأزيماً وتأريثاً للصراع وإفساح المجال لانتفاضة فعلية. كان الصراع قاسياً "وتواجه الطرفان (الشعب والنبلاء) مدة طويلة"، يقول أرسطو بناءً أثينا، المجلد الخامس، ٢). يجب إذن إصلاح النظام السياسي والاجتماعي في أثينا لوضع حد للشقاق والنزاع. كان يواجه الحركة الشعبية حزب التجار المعتدلين، الذين نجحوا بتسمية الشاعر الشهير سولون حكماً عاماً. وأمام الطبيعة المهددة لوضع الجماهير الثائرة، كلف سولون، في العام ٥٩٤، بإجراء اصلاحات اجتماعية وسياسية.

سولون سليل أسرة نبيلة مفكرة. اضطرت للعمل بالتجارة منذ فتوته، الأمر الذي قربه من شعب المدينة. ومراثيه، التي أدانت الجشع والخطورة الأرستقراطية، قربت منه الناس. وبناءً على إلحاحه ومساهمته فتحت جزيرة سلامين التي تخص ميفار وأغلق المرفأ الأثينيين في فالير.

بصفته أرشونت -حاكماً أول- يقول سولون "...فتح سلسلة مايسمى ثورات سياسية، وهذا يكون بإلغاء الملكية<sup>١</sup>". بدأ نشاطه بـ"تخفيف الحمل": رفع من الحقوق حدود الرهن،

١ - ف. أنجلز. أصل الأسرة، الملكية الخاصة والدولة، ص ١٠٧.

ألغى الديون، الرهونات، وحرر كل المدنيين المحولين إلى العبودية. واشترى على نفقة الدولة كل الناس المباعين للغريب كعبيد. وللمستقبل، يحرم الدائن من كل حق شخصي على المدين أو، كما يقول أرسطو، "حرر سولون الشعب في الحاضر والمستقبل بمنع الإقراض بارتهاش الأشخاص". (بناء أثينا، الكتاب الرابع، ١). ولتحسين وضع المدنيين، قام بإصلاح نقدي استبدل النظام النقدي الإيجيبي بالنظام الأوبي: ١٠٠ دراخما جديدة، بسعر الفضة، لاتساوي إلا ٧٣ دراخما قديمة، الأمر الذي قلص الديون ٢٧%. ثم نظمت حرية الوصية وتمليك أرزاق الناس الذين لم ينجبوا أولاداً، التي كانت تعرقلها حتى آنئذ حقوق ملكية العشير والأسرة. كانت كل هذه التدابير موجهة ضد النبلاء وتهدف تحرير الفلاحين.

في واحدة من قصائده، يتحدث سولون عن إصلاحه. لا أخشى أن تلومني على هذا الإصلاح أم الأولمبيين المقدسة، الأرض السوداء، التي انتزعت منه الحدود المنتشرة في كل مكان؛ عبدة سابقاً، حرة الآن. أعدت إلى أثينا، إلى الوطن الذي أسسته الآلهة، أناساً بيعوا ظلماً إلى هذا الحد أو ذاك، منهم من نفي بسبب الضرورة الرهيبة... وغيرهم كانوا هنا يرسفون بقيود سادتهم الرهيبة، لقد حررت كل هؤلاء". (أرسطو. "بناء أثينا"، الكتاب ٢، ١٢).

لقد عززت تدابير سولون الاقتصادية اللاحقة تطوير التجارة والمهن. منع تصدير المواد الغذائية (عدا الخمر وزيت الزيتون). وأوضح استبدال النقد الإيجيبي بالنقد الأوبي أيضاً توجه السياسة التجارية والاستعمارية لأثينا، أي نحو إيونيا والمضائق الموصلة إلى البحر الأسود. وبشهادة بلوتارك، شجع سولون بكل الوسائل المهن وجذب إلى أتيكا الحرفيين الأجانب. وسن القانون الذي يخول الابن عدم طاعة أبيه إن هو لم يعلمه مهنة. وقوانين أخرى تمنع التقتير، وتحظر الترف المفرط والنفقات غير المنتجة التي يبذرها النبلاء في أثناء الزواج والمآتم، وسواها.

كان الإصلاح السياسي أهم تدابير سولون، إذ يقضي على حصر السلطة بنبلاء الدم وسن مبدأ دافع الضريبة<sup>١</sup> أو "timocracie"، حسب تعبير القدماء: لا يتعلق اشتراك المواطن بالحياة السياسية بأصله، إنما بملكه، بمدخوله وبالشريحة التي تصنفه فيها ثروته. إذن صنف المجتمع حسب دافع الضريبة بأربع شرائح: تضم الأولى الناس الأغنى،

<sup>١</sup> - نظام سياسي يقضي بأن يكون المواطن دفع ضريبة ليحق له الاقتراع.

أولئك الذين يجنون من أرضهم على الأقل ٥٠٠ عبوة من المنتوجات الزراعية (العبوة = ٥٢,٣ لتر؛ عبوة الشعير = دراخما واحدة). ويدعون (ملاك الـ ٥٠٠ عبوة). لهؤلاء فقط الحق بأن يشغلوا المناصب الأهم (أن يكون حاكما أول = *archantes*)، وبالتالي دخول مجلس الشيوخ. الشريحة الثانية مؤلفة من أبناء المدن الذين يساوي دخلهم السنوي ٣٠٠-٥٠٠ عبوة، يحملون لقب فارس، لأنهم يقنرون أن يؤديوا الخدمة العسكرية على حصان. يستطيع الفارس أن يمارس وظيفة ثانوية (مفتش أسواق، مفوض شرطة) وغيرها. والمواطنون الذين يتراوح دخلهم يمكنهم من اقتناء زوج ثيران. عليهم أن يذهبوا إلى الحرب بأثقل الأسلحة. وهم الجبهة الأساسية من المزارعين الصغار. وكمثلي الشريحتين الأوليين، يحق للشريحة الثالثة دخول مجلس الـ ٤٠٠ الذي تشكل في أيام سولون وإلى محكمة الجنايات. وبقية الرعية (مياومون وفلاحون فقراء)، تشكل الطبقة الرابعة. لا يحق لهم دخول مجلس الشعب ومحكمة الجنايات وأن يقترعوا، لا أن يقترعوا.

وبالتالي خضعت المنظمة الحكومية إلى تبدلات جوهرية. صحيح أن الأرثوذكس كان منتخبا من بين أغنى الناس ودوما من القبائل التي يقدم كل منها عشر مرشحين؛ فمن ٤٠ رجلا يختار بالقرعة تسع حكام. لكن الأمر الهام بخاصة، هو إعادة مجلس الشعب إلى الوجود، يشترك فيه كل مواطني أتيكا، وينتخب كل موظفي الدولة الأثينية.

ليس أقل أهمية التجديد في حقل القضاء. ولكي يتمكن الشعب من التدخل بالقضاء يجب أن يختار قضاة للمحاكم لتتبر شؤون الحق المدني والحق الشخصي. هكذا صار مجلس الشعب، مجلس الـ ٤٠٠ ومحكمة الجنايات الجهاز الجديد في بناء أثينا.

هكذا نرى أن النظام الذي أسسه سولون لعب دورا كبيرا تقدما: "هنا إذن دخل عنصر جديد تماما في البناء: الملكية الفردية. فحقوق وواجبات مواطني الدولة تقاس حسب سعة ملكيتهم العقارية، ويقدر زيادة نفوذ الطبقات المالكة، كان يستبعد الجهاز القديم القائم على قرابة الدم".<sup>١</sup>

فضلا عن هذا، فقد فتح إلغاء الشكل البدائي للاستعباد الناتج عن عدم القدرة على وفاء الدين، بابا واسعا لشكل أرقى من استثمار عمل العبيد: استثمار الأسرى المجلوبين من

١ - ف. انجلز. أصل الأسرة، الملكية الخاصة والدولة.

الخارج. "عوضا عن استغلال مواطنيهم بطريقة فظة، استغلوا بخاصة العبيد والزبائن اللاتيين"، يكتب انجلز. بهذا الصدد: ١

لكن سولون، النبيل الأصل والمنتسب من حيث وضعه الاقتصادي إلى أوساط أغنياء المدينة، ولمصلحتهم أنزل ضربة قاصمة بنبلأ الدم، لم يلغ كل مخلفات نظام العشير. أبقي، مثلا، المسند الرئيس للنبلأ: أملاكهم العقارية الواسعة، وترك لهم النفوذ السياسي على الأفخاذ والبطون القديمة حيث كان النبلأ يلعبون دور المهيمن. وفي الوقت ذاته قلوم بصلابة مطالب الجماهير التي ألحت على إصلاحات جذرية، بخاصة إعادة التوزيع العام للأرض.

### طغيان يزسترات *pisistrate*

كان قدر سولون كقدر رجال السياسة غير الحذرين الذين يبحثون عن تجنب التدابير لنانجزة والوقوف منها تماما في الوسط: لم يسو حسابه مع أغنياء الأرض ولم يرض تماما رغبات الفئات الدنيا من المواطنين. "ظن الحزب الديمقراطي أنه واصل إلى قسمة جديدة عامة، وتصور النبلأ أنه سيتترك ذات المنظمة تعيش أو يبدل فيها بعض الشيء. لكنه عارض الطرفين". (بناء أثينا، الكتاب ١١، ٢).

لقد ألزم الغضب الشعبي سولون على الدفاع عن نفسه من كل الجهات، حتى ليتهتاج كئتب بين رهط من الكلاب"، كما يقول عن نفسه. طبعاً، سرعان مانتشب الصراع، أقوى مما سبق. وبعد أربع سنوات، لم يستطع الآثينيون أن ينتخبوا الأرثونت الأول، وتكرر الأمر بعد أربع سنوات. وفي العام ٥٨١، حاول الأرثونت دامازياس عبثاً أن يحتل السلطة.

لكن خبرة الأعوام السابقة كانت قد جعلت الصراع أكثر منهجية. وفي تلك الحقبة، يروي أرسطو في كتابه "بناء أثينا أن ثلاثة أحزاب ولدت. البديون *les pediens*، حزب أرستقراطي يقوده ليكورغ، يضم سكان سهل بديون الخصب حيث أملاك الأغنياء؛ كان يدافع عن مصالح أغني المالكين ويعمل لعودة النظام القديم. الحزب الثاني، البلاليون *les paraliens* (منطقة بحرية)، كان قاداته الاسمونيد *les Alcmionides*، واحدة من أعنى

١ - نفس المصدر.

أسر أثينا، كان قد قبل النظام الجديد ومثل مصالح الأوساط التجارية والصناعية في الساحل. كان قائد هؤلاء ميغاكلس *Megacles*، أحد أعضاء هذه الأسرة. حزب معتدل إجمالاً، لكنه لا يبتعد عن الإطار الذي أرساه سولون. والحزب الأوسع كان حزب الدياكريين *Diakriens* (الجبليين) الذين يسكنون شمال-شرق هضبة دياكر من أتيكيا، على تربة قاحلة، ضم الفلاحين سيئي النصيب من الأرض، الغاضبين مما لم يحدث لدى توزيع الأرض، مثل الفلاحين، الرعاة، المياومين، بل كل الشعب الكادح. وكان الحزب الأكثر ديموقراطية، الذي يتمنى انقلاباً كاملاً. كان على رأسه بيزسترات الذي، رغم أنه من عليّة النبلاء، كان قد قطع صلته بالارستقراطية وسعى إلى مساندة الشعب ودعمه.

ليست معروفة بشكل دقيق طريقة نجاح الدياكريين في العام ٥٦٠ في تحقيق النصر ولا كيف صار بيزسترات حاكماً مستبدّاً، ورئيساً للدولة الأثينية. القصص التي وصلتنا ذات صبغة طريفة ولا بد أن تكون صادرة عن خصوم بيزسترات. استناداً على هيرودوت "جرح [بيزسترات] نفسه وجرح بغاله، ثم رمى نير هذه البغال في الساحة، وهرب من خصومه الذين أرادوا قتله بينما كان يتنزه في الحقول، ووجه نداء إلى الشعب ليحميه..". كان مجلس الشعب واثقاً بكلامه وسمح له بأن يحيط نفسه برجال مسلحين". على ذلك، كما يقال، زاد عدد حراسه بشكل كبير، واحتل في ٥٦٠ الأكروبول وصار مستبدّاً طاعياً.

أياً كان الأمر، فقد اصطدم ظفر الحزب الديموقراطي في مجيء بيزسترات بمقاومة ضارية من قبل الأحزاب المعادية التي اتحدت ضده وطردته بعد جولتين من المعارك. استمر إبعاده الثاني عشر سنين. نفي بعد السقوط الأول لكنه بقي على اتصال مع رواده من دياكريا وجمع أسباب الصراع، مستغلاً مناجم الذهب من تلة بانجيه، في ثراس، وتحالف في الوقت ذاته مع الدول المعادية لأثينا، بخاصة إرتريا واويي. وبعد أن اطمأن للقوى العسكرية ودعم الفلاحين، أبحر بيزسترات في العام ٥٤١ إلى خليج ماراتون، وتحدى أعداءه في معركة بالين، واحتل أثينا تقريباً بدون قتال وبقي سيدها حتى مماته (٥٢٧).

اتسمت حكومة قائد الدياكريين بهزيمة ارستقراطية الدم بشكل ناجز. نفي الكثير من النبلاء، وقتل من بقي، وصودرت أراضيهم. هدفت تدابير بيزسترات إلى تقوية اقتصاد الفلاحين بخاصة ودعم الميلشيا المسلحة، الركن الرئيس لسلطته. دون أن يحقق إعادة اقتسام الأرض الذي طلبه الفلاحون، وزع مع ذلك على العناصر الفقيرة عدداً كبيراً من



الأمالك التي صادرها من النبلاء، وادخل نظام رصيد الدولة لصالح الفلاحين في حياتهم وخفف العبء الضريبي على الفئات الأفقر، على حساب الشرائح المرتاحة، واضعا ضريبة ١٠% على الدخل. كان أحد التدابير الأهم تعيين قضاة متنقلين ومحاكم من المشاعات الريفية -demes- التي تحل الخصومات الدقيقة. لكنه، ممثلا لمناطق أخرى، لم يستطع أن يعتمد كليا على دعم الدياكرين، فسعى للتحالف مع الباليان: لا بل تزوج ابنة قائدهم ميخاكلس. وإرضاء للتجار والصناع، جهز أسطولا عظيما للحرب والتجارة، لتروج التجارة العابرة مع الخارج. وفي أيام بزسترات، جهد الآثينيون لطرد الميليزيين من منطقة البونت *pont*، مصدر القمح الرئيس الذي تحتاجه أتيكيا. وأسس لهذه الغاية نقطة تركز على مضائق الدردنيل، بعد أن استولى على مدينة سيجي *Sigee*. وفي نفس الوقت، تمتت العلاقات بين الآثينيين ومصر. وهكذا نرى بزسترات، وهو يطور التجارة الخارجية، توجه نحو مستقبل سياسة أثينا الاستعمارية وشيد قواعد الانطلاق البحري لدولة أثينا.

وصدر أيضا إلى أعمال البناء الواسعة. بنى هيكل "طوله مائة قدم" في أثينا، على صخرة الأكروبول؛ وشرع بتمديد الماء والخزانات الضرورية لهذه المدينة التي تفقر للماء. وأحييت أعمال هامة عامة (نظمها مستبدون آخرون مثل بولكرات دي اسمس) العديد من الصناعيين والعمال. وفي أيام بزسترات، صارت أثينا مركزا للثقافة الإغريقية. فقد عرف الحاكم المستبد كيف يشد إليه كبار الشعراء، مثل أناكريبون *Anacreon*. وكلف ثلثة من الباحثين بجمع شتات الإلياذة والأوديسة ووضع نص واحد. وإرضاء للشعب، كان يقيم كل عام احتفالين تمجيدا للإله الريفي ديونزس. وفي أثناء هذه الاحتفالات تقام في أثينا أعظم التمثيليات المسرحية.

حوّل نشاط بزسترات هذا أثينا إلى مركز ثقافي هام ومنحها المقام الأول بين الدول اليونانية. وحازت المدينة شهرة دولية. إذ ساهمت الشروط المناسبة لتطور التجارة والمال بارتقاء العبودية، النظام التقدمي في ذلك العصر. "فالتجارة، الصناعة، والمهن الفنية، الممارسة على نطاق يزداد اتساعا بعمل العبيد، صارت فروع نشاط بارزاً"

لكن توفر القمح المستورد بسعر مناسب وجلت مجموعات من العبيد الأجانب لم يتأخر حتى انعكس انعكاسا محبطا على الاقتصاد الفلاحي.

<sup>١</sup> - ف.انجلز. أصل الأسرة، الملكية الفردية والدولة.

### سقوط البزستراتيين. اصلاحات كلستين *Clisthene*

مات بزسترات عن عمر منيد في العام ٥٢٧، تاركا السلطة إلى أبنائه الثلاثة: هيبباس، هيبارك، وتسالوس الذين اضطروا لمواجهة صعوبات كأداء داخلية وخارجية. وبعكس أبيهم الذي كان بسيطاً جداً في علاقاته مع الشعب، دلوا أنهم فوقيون وأجلاف. ولتأمين بذخ بلاطهم، كانوا يفرضون الضرائب على كل شيء في المدينة: طوابق المنازل، على الزوايا البارزة خارج البناء، وسوى ذلك.

كانت أوضاعهم بالغة القفلة بسبب تعثر العلاقات الخارجية. كان الفرس قد أخضعوا شواطئ آسيا الصغرى، أعدموا حاكم سامس بولكرات *Polycrate*، حليف أثينا، اجتاحت مصر وأخذوا المضائق المؤدية إلى مملكة بونت *Pont* (٥١٣). وهكذا عزلت أثينا عن شط البحر. ومن جهة أخرى، كانت تعاني من ضغط إسبارطة المتزايد، التي تحمي بحيرة الأرستقراطية في صراعها مع حكم الاستبداد وألجأت النبلاء المبعدين عن أتيكا.

فندرك تماماً، في هذه الظروف، رغبة نبلاء الأرض في التمرد ضد حكام أثينا. إذ حاكت مؤامرة بقيادة أرستقراطيين، هارموديس وأرستوجتون. كانا، كما يبدو، خصمين شخصيين لأحد أبناء بزسترات، هيبارك، الذي أهان أخت هارموديس. حدثت المحاولة في أثناء الاحتفاء بعيد بناته العظام، لأن المتآمرين اعتمدوا على مساندة الجمهور. مع ذلك لم يقتلوا سوى هيبارك. نفق هارموديس في ساح المعركة، أوقف أرستوجتون وأعدم فيما بعد. وبعد هذا أقيم لهما نصبان في أثينا وظفرا بلقب "شهداء الاستبداد".

وبعد أربعة أعوام من موت هيبارك، نفى هيبباس لعلاقته باجتياح إسبارطة المسلح (٥١٠). نجح السبارطيون باحتلال أثينا وأعادوا إليها الأولغارشية الأرستقراطية، وأقاموا عليها إزغورس، قائد المهاجرين. وخلال سنتين (٥١٠-٥٠٨) احتلت الحامية الإسبارطية الأكروبول وانتشر الإرهاب في أثينا. لكن رجوع الأولغارشية لم يعمر طويلاً: فانتفاضة شعبية مخيفة جمعت الدياكريين إلى الباراليين بقيادة كلستين زعيم الباراليين أحد السميونيد. طرد السبارطيون، ووزعت أراضي أوبي والأرستقراطيين على المعمرين الأثينيين.

انتخب كليستين أرشونت أول، وشرع في ٥٠٦ بنشر الديموقراطية في النظام الأثيني، أخذاً بالاعتبار الدور المتنامي للجماهير في حياة البلاد الداخلية.

كان هذا الإصلاح يرتبط صميمياً بتنظيم جديد، وحدات مستقلة، مؤلفة من قرية أو

قريتين أو ضيعة من أتيكيا. كان كل حي من أثينا يشكل وحدة، وللوحدات مجالسها، موظفوها، أراضيها وحتى أعيادها، على رأسها حاكم، منتخب لعام واحد، يحكم الشؤون المحلية ويأخذ لائحة برعيته. يسجل الشباب الذين بلغوا الثامنة عشرة على لوائح ويمنحون الحقوق المدنية. يعين المجلس العام نسبة أعضاء الوحدة الإدارية للمواطنة الأثينية وينفذ المعلومات المعطاة بشأنهم. ولقد صارت هذه الوحدات منظمات في غاية النشاط الإداري المحلي، حيث يمارس كل الأثينيون تدريبهم المهني.

الإصلاح الهام الآخر لكلاستين هو النهج الانتخابي، النابع من التقسيم الجديد لمواطني أثينا إلى قبائل. القبائل الأربع من العشير الموجود منذ القدم وأحصاء سولون وصانه، تلغى باعتبارها دوائر وتبدل بعشر قبائل إقليمية، ضمت كل منها في البداية عشر وحدات. لكن هذه القبائل لا تشكل أقاليم كاملة: ولكي تمثل كل منها المناطق الرئيسة الثلاث من أتيكيا، تضم عدة وحدات إدارية من المركز، من الساحل ومن الجبال. تتكون كل قبيلة إذن من ثلاثة أقسام تسمى ترتي أي (ثلاث) ليكون العدد الإجمالي ثلاثين. فنرى أن كل قبيلة مؤلفة من مواطنين من مختلف المهن والشروط؛ أما الأسر النبيلة الكبرى التي كانت قد انتسبت كلها إلى قبيلة معينة ولعبت فيها دورا مهيما، في الانتخابات، كانت قد تفتتت. فتقلصت إلى العدم القوة الرئيسية لأرستقراطية الدم ولغمت تقسيم المواطنين السابق إلى ثلاثة مراتب، تألفت حسب مناطق أتيكيا الثلاث. فحازت القبائل فضلا عن الطبيعة الإقليمية، وحدة البنية.

جدد كلاستان أيضا تنظيم المؤسسات المركزية في الدولة، بوضعها على سلم كل المجتمع العبودي. فمجلس الأربعمئة لسولون، صار المجلس الأعلى للدولة الأثينية، بعد أن أضيفت إليه مائة عضو. تنتخب القبيلة ٥٠ عضوا، ولكل وحدة إدارية في عدد من المقاعد يتناسب مع كبرها. وكان مجلس الخمسمئة المنظمة الإدارية الرئيسية لأثينا. يجتمع باستمرار، يناقش خمسون من أعضائه بالدور القضايا العاجلة، طيلة ١٠/١ السنة؛ يحمل مندوبون عن هذه القبيلة أو تلك، خلال هذه المدة لقب حاكم.

كان مجلس الشعب، المؤلف من كل الأثينيين المتمتعين بالحقوق المدنية، السلطة الفعلية العليا للدولة، التنظيم الديموقراطي العبودي الأعلى. يجتمع المجلس ثلاث أو أربع مرات بالشهر، برئاسة أحد الحكام، المتغير باستمرار. ومجلس الشعب يراقب ويوجه نشاط مجلس الخمسمئة؛ فكان في أساس سيادة أثينا التعاونية. أما سلطة مجلس الشيوخ والأرشوننت،

كانت محدودة. لم يعد الأرشونوت الأول يقوم الخزينة، بل عشرة خازنين يختارون كل عام، واحد لكل قبيلة. ينهض بالشؤون الحربية مجمع الاستراتيجيين، الذي ينتخب أعضائه العشرة، كما انتخب عشرة خازنين للخزينة. يقودون محاربي قبائلهم. ولا يحتفظ قائد الجيش بسوى بامتياز تشريفي هو رئاسة مجلس الاستراتيجيين واحد من أهم مؤسسات الديمقراطية الأثينية.

أخيرا، ولاستبعاد أي احتمال لقلب النظام القائم، بإصلاح الاستبدادية *les tyramie*، مثلا، أو تجديدها، أدخل كلستان *l'ostracisme*، أي نفي المواطنين "الخطرين"، أي أظناء التخطيط المدمر. مورس هذا التدبير بالشكل التالي: في بداية العام، يضع مجلس الخمسمائة بين يدي مجلس الأمة مسألة معرفة إمكانية تطبيق الـ *ostracisme* = نفي الخطرين. فإن أعطت غالبية الأعضاء جوابا بالإيجاب، تعقد جلسة أخرى، فيستطيع الحاضرون أن يسجلوا على قوقعة أو كسرة خرف الاسم الذي يراه خطرا على الدولة. ويقبل الاقتراح إن صوتت غالبية الستمائة لنفي المتهم. وبعد ١٠ سنوات، يعود المبعد إلى البلاد ويمارس حقوقه.

لم ينشر كلستان، ممثل التجار الأغنياء ومالكي العبيد، أي قانون لمصلحة الفقراء. إنما كانت مواقفه كلها تخص العلاقات السياسية وبنية الدولة. وكان العبيد الذين يشكلون الشريحة الأوسع من رعايا أتيكيا، والذين يؤسس عملهم الحياة الاقتصادية للمجتمع الأثيني، والمحرومين من أي حق، كانوا في طليعة ضحايا هذا الجهاز الذي دبجته ديموقراطية العبودية. كما حرم من الحقوق السياسية النساء والعناصر الخدمية والمضطهدة في المجتمع أنهت إصلاحات كلستان في أتيكيا مرحلة التحولات الاجتماعية والسياسية، التي دامت قرابة مائة عام لتفضي إلى تشكيل الطبقات الاجتماعية والدولة. والتبدلات المقصودة، التي نجمت في أثينا في القرنين السابع والسادس، لا تعود حصرا إلى كلستان ومن سبقه، سولون وبزسترات. فقد وقف عند خلق رويدا رويدا نهج ذكي من مؤسسات العبودية وتشريع محصلات الحركات الاجتماعية، التي وضعت حدا لمخلفات نظام العشير. ولقد كانت القوة المحركة هي الطبقة الأخيرة في الهرم الاجتماعي، بخاصة الفلاحين الشريحة التي تصارع نبلاء الدم الذين يهدفون استخدامهم. لكن الفلاحين عرفوا كيف يدافعون عن شرطهم الدقيق ليصيروا منتجين أحرارا وينخرطون في المجتمع المستعبد.

حدثت تطورات مشابهة في باقي حواضر اليونان المتطورة، لكنها لم تدرس بالتفصيل،  
لعدم توفر الوثائق.

## الفصل الثامن والعشرون

# الحروب الميديّة وتشكّل الاتحاد البحري الآثيني

### بواعث الحروب الميديّة وأهدافها

في القرن الخامس قبل الميلاد بلغت اليونان أوجها بفضل النتيجة المظفرة للحروب الميديّة التي تتابعت خلال النصف الأول من القرن كله. خلق هذا النصر شروطا لانطلاق الحضارة والاقتصاد اليونانيين.

ليس لدينا الكثير من المصادر حول هذا العصر. والشاعر أخيل *Eschyle* الذي، كما هو معروف، اشترك هو نفسه في معركة سالامين، لا يقدم في تراجيديته "الفرس *les perses*"، سوى مقاطع من هذه الحرب. وإلى هذه المصادر، يجب أن نضيف بعض صفحات تاريخ هيكاتيه لميليه وكثيرا من النقوش (بخاصة نقش حاكم سراكوز جيلون بمناسبة مجد ظفّره في هيمير، ومسلة نقش عليها اسم كل الدول التي اشتركت بالدفاع).

لكن المجموعة الرئيسيّة من المعلومات حول الحروب الميديّة هي "قصص" هيرودوت التي تروي أحداث ٥٠-٦٠ سنة بعد انتهاء القتال. هدف هذا المؤلف، حسب قول هيرودوت، هو: ".صيانة أعمال الناس والبربر من النسيان، وبعيدا عن كل هذه الأمور، تطوير البواعث التي دفعتهم إلى شن الحرب". لكن هيرودوت لم يكن بعيدا عن الذاتية، بل هدف (من الكتاب نصرة الآثينيين كمنفذي هيلاد *Hellade*، اليونان القديم).

ثمة مصادر أخرى عامة لدراسة هذه الحقبة من الزمن هي "المكتبة التاريخيّة" لديودور سيسيليا وسيرة ثمستوكل، أرسنيد، سيمون وبركليس، التي كتبها بلوتارك. لكنها، وقد ظهرت طبعا بعد الأحداث المدروسة، تستمد قيمتها من توثيق الأعمال التاريخيّة السالفة، التي لم تصلنا أبدا. وبالتالي، معلوماتنا في موضوع نصف القرن هذا ناقصة بشكل ملحوظ. أملنا في أن توسع معارفنا أرشيفات برسبولس، عاصمة سلاطين الفرس، المكتشفة حديثا، وتزودنا بمعلومات جديدة.

كان سبب الحرب التوسع المستمر والمنهجي للإمبراطورية الفارسية نحو الغرب. فقد ضمت في أيام داريوس الأول أراض شاسعة تمتد من الهند إلى بحر إيجه ومن القفقاس إلى مصر. كانت هذه الإمبراطورية مجموعة من الشعوب المتنافرة وحدها الغزو، عديمة الوشائج، متباينة في مستوى ثقافتها ومصالحها واهتماماتها. وكان الذهب الآتي من المناطق والأقاليم المحتلة، بشكل ضرائب، لا يتحول فقط إلى نقد، بل يكس في المشربيات الفخارية التي تبقى عشرات السنين في أقبية القصور الملكية.

كانت الأرستقراطية الفارسية تجهد في إخضاع واستغلال الشعوب المجاورة، وإلحاق الأراضي والعبيد. وكان المستشارون الملكيون، القادة العسكريون ومئات الموظفين الذي يديرون الأقطار الملحقة يصيرون شريحة اجتماعية حاكمة، مستفيدين مباشرة من هذه السياسة.

وكان التوسع مدعوماً من طرف أرستقراطية العبودية وتجار النخاسة لرق البحر المتوسط، بخاصة في فينيقيا. وكانت بعض الأوساط التجارية والصناعية من المدن اليونانية في آسيا الصغرى، المنذهلين بهتاسب الأسواق الشرقية، يتعاطفون مع الفرس. واجتياح فينيقيا، ليديا وسلسلة من حواضر آسيا الصغرى، جعل من الفرس دولة ضاربة عاتية بحرية، مدعومة بحلف هجومي مع جمهورية قرطاجة: فإن مشى الفرس إلى الغرب، توجب على الأسطول القرطاجي أن يهاجم سيسيليا لمنعها من مؤازرة يونان البلقان.

بدأ غزو الفرس لأوروبا في العام ٥١٣، يوم هاجم داريوس الأول السيثيين<sup>١</sup>، ليخضع الساحل الشمالي من البحر الأسود. لكنه لم يستطع أن يقهرهم. وبعد عدة معارك فوق أرض مولداڤيا الحالية، انسحب السيثيون، جارين وراءهم في السهب الصحراوي الواسع جيش العدو الجرار (٧٠٠ ألف رجل، إذا صدقنا الشهود). فلم يستطع الفرس أن يقاوموا هؤلاء الفرسان المهرة الذين يهاجمون فجأة ويضربون في الحال وينسحبون، مدمرين في دريهم الآبار، مناهل المياه والنبات. أنهكت هذه الاشتباكات المستمرة جيش داريوس، الذي لم ير نهاية لهذه الورطة القاضية في الصحراء، فرغب في مفاوضة السيثيين. لكن محاولته باءت بالفشل. فتراجعت القوات الفارسية، المتعبة، خائبة.

---

<sup>١</sup> - شعب من أصل إيراني، شكل دولة في سيثيا، لكنها تفككت في النصف الثاني من القرن الأول ق.م.

رغم الفشل في سيثيا، احتل الفرس شاطئ هلسيونت، المناطق القريبة من ثراس، بيزانسا، وشالسدوان، الأمر الذي فتح لهم دربا إلى مملكة البونت<sup>١</sup>. فانقطعت أية صلة بين اليونان والساحل الشمالي للبحر الأسود، وانتقلت التجارة مع هذه المنطقة من أيدي الأثينيين، الميغاريين ومدن من آسيا الصغرى إلى أيدي التجار الفينيقيين. واحتل الفرس عدة جزر شاطئية من آسيا الصغرى (شيو، ساموس، إلخ). وأخضعوا لسبوس، وقطعوا، في نفس الوقت، العلاقات التجارية بين مدن آسيا الصغرى واليونان البلقانية.

وفي العام ٥٠٠، بدأ الفرس تقدمهم نحو اليونان القارية. حاولوا احتلال أكبر جزيرة في سيكلاد، ناكسوس الغنية والخصبة. كان موجه هذه الحملة حاكم ميليت، أرسطاغوراس، الذي اشتراه العدو. لكن الأسطول الفارسي لم ينجح في انتزاع ناكسوس، الأمر الذي دفع أرسطاغوراس، حسب رأي هيرودوت، إلى خيانة ملك الفرس وإثارة ضده في العام ٤٩٩ المدن الإيونية التي كان نير المحتل قد أبهظ كاهلها: ففي حملة داريوس على السيثيين، حاول البحارة الأيونيون تدمير الجسر الذي أقامته قواته على الدانوب وإهلاك جيشه. لكن المنتفضين، غير القادرين، حسب رأيهم، على النصر بوسائلهم الخاصة، استجدوا بدول اليونان القارية. وهكذا نشبت الحرب الميديدية.

وضح ضعف اليونان وتشتتها منذ البداية. إسبارطة، المشغولة بإعداد الحرب ضد أرغوس وغير المتعاطفة أبدا مع أيونيا، الأرقى منها، رفضت دعم ومساندة أرسطاغوراس؛ وكوراثيا ومدن يونانية أخرى حليفة إسبارطة ومصالحها المحلية تفرض عليهم القتال المشترك، لم تازر هي الأخرى المتردين. بينما أرسلت أثينا فقط، التي كانت الهيمنة الفارسية البحرية تهدد مصالحها، أرسلت عشرين مركبا للمتردين. وبعثت مدينة أرتريا خمسة مراكب إلى أوبيا، التي تتاجر مع ميليت. لكن عدم كفاية المساعدة الأثينية اتضح بالصراع الشرس الذي دار بين الشرائع المتضررة من التوسع الفارسي وبين الذين تكمن مصلحتهم في علاقات طيبة مع هذه الإمبراطورية لاستمرار التجارة مع آسيا. وأيضا، رغم النجاح الأول (احتلال سارديا)، وبسبب عدم كفاية المساعدة الفعالة من اليونان الأوربية، انعزل المتمردون عزلا تاما.

<sup>١</sup> - مملكة في شمال شرق آسيا الصغرى، استقلت عن الفرس في العام ٣٠١ ق.م.



هزم الفرس اليونانيين في البر، أمام إيفيس *Ephese* (٤٩٨). ثم طلبوا سفنا من مصر وفينيقيًا الحليفين، لمتابعة الحرب على البحر. وقرب جزيرة لاس، على ضفاف ميليت، ذاق اليونان هزيمة ماحقة (٤٩٤)، الأمر الذي مكن الفرس من تطويق ميليت (مركز التمرد) برا بحرا واقتحامها. دمرت المدينة ومن بقي حيا أسر أو بيع عبدا. واحتل الفرس بيزانسا مرة أخرى. وهكذا احتلوا في العام ٤٩٤ مواقع مفتاحية في التجارة والإبحار إلى آسيا الصغرى واستعادوا سلطتهم في أيونيا.

### أولى حملات الفرس ضد اليونان

تذرع الفرس بوجود سفن يونانية وأريترية في معسكر الأيونيين، لشن هجوم على اليونان القارية. وفي صيف ٤٩٢، سارت إلى اليونان أولى الحملات الفارسية بقيادة مردونيوس، صهر داريوس الأول. تقدم الجيش برا وبحرا، عبر هلسبونت، ثراس ومقدونيا.

لكن الأسطول الفارسي غرق في رأس أثوس، في أثناء عاصفة عاتية. حسب هيرودوت، كانت الخسائر حوالي ٢٠ ألف رجل. أما جيش البر، فقد ذاق خسائر فادحة عندما حاول سحق مقاومة البريجس، القبيلة الثراسية التي أرادت أن تحول دون عبور الفرس. ومردونيوس نفسه جرح واضطر بعد لأي أن يتخلى عن متابعة العمليات. ومع ذلك، كان للحملة نتيجة هامة: احتل الفرس ساحل ثراس الغني واستطاعوا أن يقيموا فيه نوعا من الجسور المتحركة تساعد القوات على العبور في حملة قادمة إلى اليونان.

لم يكن فشل مردونيوس حادا ليثبط تصميم الفرس على التوسع. فأرسل داريوس إلى كل مدن اليونان سفراء مكلفين بالمطالبة "بالأرض والماء". انتهت بعض دول اليونان ذات النظام الأولغارشي التي تخشى الانتفاضات الشعبية، منها ثيساليا، بيوتيا، إيجين، وأرغوس، انتهت إلى الاعتراف بتفوق الفرس. لكن أثينا وإسبارطة رفضتا بوضوح دون أن تخشى قتل المسافرين. وفي بداية القرن الخامس، تشكل في أثينا حزب سياسي سمي "البحري"، بقيادة ثميستوكل تمكن أن يوسع قاعدة اقتصادية لأثينا باحتلال طرق تجارية وأسواق. فلأراد الحزب أن يخوض صراعا حاسما ضد الفرس، بخاصة اجتياح بعض المضائق، كونها هامة جدا للتجارة مع ساحل البحر الأحمر وثراس لتصدير بخاصة منتجات صناعية، مقابل القمح. فإغلاق المضائق كان سيضر كثيرا بهذه المكاسب.

ونهضت شريحة اجتماعية أخرى، بقيادة الثري والنبل ملتياد، حاكم ثرسونيز السابق، وتركها بعد الاحتلال الفارسي، لتتضم أيضا إلى الصراع ضد الغزاة. لكن ملتياد، باعتباره مدافعا عن مصالح المالكين العقاريين، اهتم بصيانة الأرزاق والالتزام بحرب دفاعية.

وهكذا كانت شرائح التجار والصناعيين، بإشراف وتوجيه ثمستوكل، والمالكين في الأرياف بقيادة ملتياد، في أثينا، وفي إسبارطة، قررت الأرسقراطية الحاكمة المقاومة والتصدي. في الوقت ذاته، كان الغزو الفارسي في نظر الشعب الاثيني نازلة فادحة ودفنا للديموقراطية. فكان الاثينيون إذن أمام حرب وطنية، دفاعا عن البلاد والحضارة. من هنا أتى التوازن الوطني الذي أنهض مختلف فئات السكان في أثينا.

في العام ٤٩٠، بعد ١٨ شهرا من الغزوة الأولى لليونان تقريبا، شرع الفرس بحملة أخرى. كانت خطة داريوس، هذه المرة، الإبحار إلى اليونان الوسطى، واليونان الشمالية كانت كلها تقريبا بين يديه. كان داتس، القائد العسكري المحنك يقود الأسطول الضارب، بينما كان الجيش بإمرة الشاب الأمير أرتافيرن، حفيد داريوس. وقد لعب هيبياس، المبعد من أثينا والذي يأمل، بمساعدة الفرس، العودة حاكما إلى هذه المدينة التي ما تزال تضم العديد من أنصاره، لعب دور المستشار في قيادة هذه الحملة.

اتجه الفرس مباشرة إلى سيكلاد وأبحروا إلى ناكسوس واجتاحوها. ثم وصلوا إلى أرتريا ودمروها. وبناء على رأي هيبياس، أبحروا إلى شرق أتيكا، قرب سهل ماراتون، المفتوح من جهة البحر، والمغلق بالجبال من كل الجهات. العدو باغت الاثينيين. وتبين أن وضعهم أسوأ من حال الإسبارطيين، المعادين لنظام كلستين، لكن هؤلاء لم يسارعوا إلى النجدة. وأعلنوا أنهم، احتراما للعادات، لن يباشروا الحرب إلا والقمر بدرا. لكن بلاتيا، المدينة البيوتية، المجاورة لأتيكا أرسلت، وحدها، ألف جندي. فاضطر الاثينيون إلى استنفار كل الرجال، حتى العبيد. بداية، فكروا أن يعتصموا خلف جدران المدينة، لكنهم بناء على إلحاح المالكين والكادحين قرروا المسير إلى ماراتون، على مرأى العدو. كان يتألف جيشهم من ١٠ آلاف رجل مشاة ثقيل السلاح، وألف مسلح من بلاتيا وسرايا خفيفة، وكان ملتياد، قائد الحزب الزراعي، يقود عمليا كل القوات كأحد الاستراتيجيين وثمة أريستيد، قلند محنك آخر في هذا الحزب. استحكم الاثينيون قرب هضبة بانتيليك، في مجال ضيق، منيع على الخيالة ويحمي طريق أثينا.

ليس لدينا معرفة دقيقة بعدد الجيش الفارسي. وحسب هيرودوت، كان الأسطول يضم ٦٠٠ سفينة، لكنه رقم مبالغ جداً. وفي كل حال، كان عدد الفرس أكبر بكثير من خصومهم وقد يكونون ٤٠ ألفاً. لكن مشاتهم كانت مؤلفة من عناصر متنافرة، غير منسجمة، مجندة من مختلف المناطق المحتلة.

وضع ملتياذ جيشه في أرتال طويلة، بحيث دعم الجناحين وأخلى الوسط أو المركز. أغلق منافذ الوادي الضيقة، فحرم الفرس من نشر خيالتهم، الذين عادوا إلى البواخر، تاركين المشاة وحدهم. استغل الأثينيون هذا الوضع الجيد، نزلوا من الجبل انقضاضاً وفتحوا معركة ماراتون الشهيرة.

في أثناء العراك، خرق العدو وسطهم، لكن الجناحين دخلا اللعبة في وقت معاً، مهددين بالوصول إلى مؤخرة الفرس المنخرطة في عمق الوضع الأثيني. أخيراً اضطر العدو إلى التراجع نحو السفن. تابعه اليونان حتى الشاطئ، لكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء إلا على سبعة مراكز فقط. وكما يروي هيرودوت: "تفق في هذه المعركة من الفرس، حوالي ٦٤٠٠ رجل؛ ومن الأثينيين ١٩٢" (١١٧،٦). مع ذلك، بعد أن جمع الفرس أكثر قواتهم على ظهر البواخر، قصدوا أثينا على عجل؛ واعتماداً على مساعدة أنصارهم في نفس المدينة أملوا أخذها من جهة البحر بهجمة مفاجئة. لكن الجيش الذي حمى وادي ماراتون، اجتاز بمسيرة انقضاضية ٣٠ كم تفصله عن المدينة. وبينما كان الأسطول الفارسي يدنو من فالير، مرسي أثينا الرئيسي، كان مظفروماراتون قد دخلوا في السور، بحيث ان الفرس خوفاً من مواجهة ثانية، بقوا على متن مركبهم وانطوا باتجاه آسيا.

وهكذا هزم الأثينيون هجوم الفرس الأول (لم يأت الاسبارطيون إلا بعد فوات الأوان)، وبخاصة على أيدي فلاحي أتيكيا -الزوجيت- الذين كانوا يشكلون نواة أو قلب الكتيبة. وصار ملتياذ، القائد الأعلى، البطل المظفر. ورفع له مواطنوه نصباً قرب القبر المشترك للمحاربين الذين سقطوا في ماراتون (ما يزال الضريح قائماً حتى اليوم). فجهد ملتياذ، المتمتع بشهرة طبقت الآفاق، في دفع حزبه إلى حرب هجومية. اقترح خلق أسطول من ٧٠ مركبا وإرسال حملة إلى الجزر الباقية تحت حكم الفرس. وعلى رأس جحفل هاجم ملتياذ جزيرة باروس وطلب من أهليها ضريبة من مائة طالان<sup>١</sup>. لكن الحصار فشل ورجع

<sup>١</sup> - وحدة وزن في اليونان القديمة تساوي من ٢٠-٢٧ كغ، أي هذا الوزن ذهباً أو فضة.

ملتئاد خائبا. ومثل أمام القضاء، وأدين بتأدية ٥٠ طالان غرامة ومات بعيد هذا الحكم متأثرا بالجراح التي أصابته في أثناء حصار باروس.

أما رئيس الحزب البحري ثمستوكل، رجل الأعمال والسياسي البارع، راح يسمى لتدمير النفوذ السياسي للأسر النبيلة. فأعد مخططا واسعا لبسط نفوذ أثينا البحري. سهل إنجاز المشروع استثمار حقول الفضة في أتيكيا، التي أنفقت، بناء على اقتراح ثمستوكل، في بناء أسطول لايقهر، وإدارة وتحصين المرافئ. وسحقت مقاومة حزب المزارعين بنفي قائده أرسنيد، وبجهود ثمستوكل، وضع الأثينيون في الماء ٢٠٠ مركب ثلاثي المجاذيف خلال عامين.

### حملة خرخس

في العام ٤٨٠، أي ١٠ أعوام بعد معركة ماراثون، بلغت الحرب ذروتها. مات داريوس في العام ٤٨٤، وخلفه أحد أبنائه، خرخس. ترافق تبدل الملوك هذا بفنن داخلية دامية، إحدى نماذج الاستبداد الشرقي، كالانتفاضات الخطرة التي قمعها خرخس في مصر وبابل. فضلا عن هذا، فقد وعى جيدا أن يونان أوربا كانوا أعداء شرسين ورهيبين، فأعد لهم بعناية حملة جديدة. وليضمن حرية العمل لأسطوله وتجنب خطر غرقه قرب رأس أثوس، حفز خرخس قناة عبر البرزخ الواصل بين شبه جزيرة أكتيا ولاير. أنجز المشروع بفن مدھش بمطرقة وإزميل المصريين والفينيقيين، فكان عريضا يتسع لعمارتين كبيرتين محاربتين. وبني في ثراس من مخازن التموين التي غصت بالماشية والأعلاف. وأقيمت الجسور فوق أنهر ثراس وحتى فوق مضيق هلسبون. وجند خرخس خلال أعوام جيشا جرارا اتبع تدريبا نوعيا في كابادوسيا، التي صارت مركز تجمعه. كل هذه الحملات، وغيرها كثير، لا تستطيع أن توازي هذه وحدها، يكتب هيرودوت.

كانت استعدادات الفرس القتالية قد ألزمت مدن اليونان بالاستعداد لمقاومة العدو مقاومة عامة. كان فقدان الوحدة السياسية، كما أشرنا، نقطة ضعف اليونان. إذ كان لكل مدينة مصالحها. والجوار المباشرون -اسبارطة وأراغوس، أثينا وإيجين، المدن البيوتيتية من شسيا وبلاتيا وثيبيا وغيرها- كانت تعيش كرها متبادلا. وعدة دول، مثل أرغوس، تساليا وثيبيا، كانت تطمح إلى الحياة وتبدو مستعدة لدعم الفرس ليصمدوا. وحسب هيرودوت، "إن أولئك الذين أعطوا الفرس الماء والأرض كانوا واقفين أن ليس ثمة ما يدعوهم لإغضاب

البربر، وكان من لم يعطهم، بالعكس، غارقين في الإرهاب، ولا تملك اليونان مراكب كافية لمقاومة الفرس، والناس راغبون عن الاشتراك في الحرب، لكنهم مضطرون للخضوع للميديين" (الكتاب ٧، ١٣٨).

كان الأثينيون بقيادة ثميستوكل أبطال الوحدة المتحمسين. وكانت الفئة الحاكمة في إسبارطة، رغم عدم رضاها عن أثينا الديمقراطية، كانت واعية أيضا ضرورة التضامن، لأن الإسبارطيين ما كانوا قادرين على مواجهة الفرس في البحر. وشكلت دول يونانية أخرى حلفا دفاعيا. وفي خريف العام ٤٨١، اجتمع ممثلون عن أثينا، إسبارطة، إيجين، أوبيا وغيرها من الدول على البرزخ، في معبد بوزيدون *Poseidon*، وأقسموا يمين الإخلاص للاتحاد الجديد. انضمت إليه ثلاثون دولة، لتعبر عن المحاولة الأولى لمنظمة لكل الإغريق. وعلن السلم الشامل بين الدول المتحالفة، التي أعلنت أيضا العفو الشامل عن المجرمين السياسيين. ولعل تفوقها العسكري المعترف به من الجميع، كلفت إسبارطة بقيادة القوات البرية والبحرية.

وفي خريف ٤٨٠، كرر الفرس خط سير مردونيوس، منطلقين من الشمال نحو اليونان، البعض على طول شواطئ ثراسيا، برا، والآخرين بحرا. يبلغ هيرودوت بوضوح بعدد جند خرّس. وكما قال، كان المشاة وحدهم ١٧٠٠٠٠٠ جندي، والكل، بما فيهم القباطنة، المنخرون، النساء، إلخ، ٥٢٨٧٣٢٠. ويضم الأسطول ١٢٠٧ مراكب. بينما يدعي بعض المؤرخين المعاصرين أن خرّس لا يستطيع أن يرسل إلى آسيا أكثر من ٢٦٠٠٠٠ قاتل. أيا كان الأمر، كان هذا، لذلك العهد، مشروعا فريدا من حيث الفكرة ومن حيث المدى: فرس، آشوريون، عرب، ليبيون، هنود وشعوب أخرى انطلقت بالتتابع ضد اليونان الدولة الصغيرة.

كانت بداية الحرب بائسة بالنسبة لليونان. اهتموا قبل كل شيء بحاضراتهم، فلم يهيئوا عملهم جيدا، فلم يقدروا أن يوقفوا العدو عند الحواجز الطبيعية التي تقدمها السلاسل الجبلية. تقدمت القوات الحليفة بداية نحو تساليا، أقبل الفرس واحتلوا معبر تامبيا بين جبال الأولمب وأوسا *Ossa*. لم تكن المعنويات في تساليا مستقرة، واعتبرت القيادة الإسبارطية هذا الموقف غير مطمئن، وسار الجيش اليوناني مباشرة إلى الحاجز الثالث، الذي يشكله البرزخ الذي يفصل اليونان الوسطى عن البلوبونيز. وسقطت تساليا بحقولها الخصبة بيد

الخصم. لم يكن مضيق ثرموبيل، مفتاح اليونان الوسطى، محميا بأكثر من ٣٠٠ مقاتل إسبارطي، بقيادة ليونيداس. تقول الأسطورة إن خائنا من أبناء البلد قاد الفرس بمعابر الجبال إلى مؤخرة خطوط اليونان. قاتل الفصيل الإسبارطي بشجاعة وأبىء كله بما فيهم قائدهم ليونيداس.

وأخليت اليونان الوسطى بدورها، فدمرها الفرس ونهبوها. واحتل خرخش على رأس جيشه البري، وخرب بدون شفقة بيوتيا وأتيكيا. لم يوفر سوى المدن البيوتية، بناء على أمر الكسندر، ملك مقدونيا الذي انتقل إلى العدو، متعاطفا مع الفرس. وبعد نهب معابد أثينا وقتل الناس الذي لجأوا إلى الأكروبول، حرق الغزاة المدينة. ولقد جند كل القادرين على حمل السلاح في أتيكيا، في الجيش البري والبحري، بينما أخلي على عجل النساء، الأولاد، الشيوخ والعبيد إلى جزيرة سالامين.

كان الأسطول هو الذي أنقذ اليونان في هذا الموقف الحرج. ففي أثناء معركة ثرموبيل، حقق الأسطول اليوناني، الذي كان يحمي خاصرة سرية ليونيداس، ظفرا مؤزرا، بإنزاله الهزيمة بالأسطول الفارسي قرب رأس أرتيميزيوم. وبعد مغادرة اليونان الوسطى انسحب نحو جزيرة سالامين.

ألح الإسبارطيون على بقاء الأسطول بعيدا عن خليج سالامين نحو السبرزخ، حيث تمركزت القوات الحليفة البرية، المكلفة بالدفاع عن البلونيزيز. ولقد بدأوا ببناء جدار على عجل عبر البرزخ، ليمنعوا الجيش الفارسي من التغلغل أبعد. لكن هذا الانسحاب كان يعني الإثنيين التخلي عن وطنهم. وبناء على إلحاح ثمستوكل فقط، وهو القائد الأعلى للأسطول اليوناني (الذي يمثل أكثر من نصف البحرية اليونانية كلها)، أمكن تقرير خوض معركة ضد الفرس في مضيق سالامين. وذهب ثمستوكل حتى تهديد الحلفاء: "إن لم تصغوا لسي، لن نتأخر عن أخذ عائلاتنا وننتقل إلى إيطاليا، في سيريس، وهي لنا منذ وقت طويل وحيث يعلن الوحي أن علينا أن نبني مستوطنة. وأننذ، نتذكرون قولي هذا!" (هيرودوت، ٨، ٦٢). على فرض أنه أنبأ خرخش بانطلاق قريب للأسطول اليوناني وأن هذا طوق سالامين من الجنوب، بدون علم اليونان، بطريقة إغراقهم في المضيق. وفي صباح الغد، دارت معركة قرب سالامين قررت مصير الحرب الميدية. أنزل الأسطول اليوناني، المؤلف من مراكب غير كبيرة تتحرك كيف تشاء في المضيق الأليف، دون هدنة ولا مهادنة، ضربات قاسية

بالأسطول العدو. بالمقابل اصطدمت العمارات الفارسية القاسية الثقيلة، المتزاحمة في هذا الساحل الضيق، وغرقت إثر هذه الواقعة. وبعد أن جمع خرخس فلول أسطوله، اتجه إلى آسيا الصغرى؛ وأكره أيضا على لملة أكثر سراياه، التي يستحيل تموينها بدون بواخر. بقي ٥٠ ألف يوناني تقريبا، بقيادة ماردونئوس، اضطروا هم أيضا لدى اقتراب الشتاء أن ينسحبوا إلى تساليا الخصبة.

يرسم الشاعر أخيل، الذي اشترك شخصيا بمعركة سلامين، يرسم لوحة أخاذه في تراجيديته "الفرس":

".. اختلط الحابل بالنابل. يبذل أسطولنا  
أول جهد؛ لكن مراكبنا، العديدة جدا،  
المتزاحمة في المضيق، لا تقدر أن تساعد  
بعضها؛ مجانيف تحطمت؛ واليونان، المهرة  
بالمناورة، يضرئونهم من كل صوب، ويغرقونهم  
أيعيدونهم على أعقابهم؛ يختفي البحر تحت  
الحطام والموتى؛ وتغطي الجثث الشطآن  
والصخور. والأسطول كله يولي الأكار  
مببلا مشتتا."

(أخيل، "الفرس"، ٤١١ وبعدها)

اليونان ينتقلون إلى الهجوم. اتحاد ديلوس البحري

لقد أفتع نصر سالامين اليونان أن اتحاد الدول يقدر ليس فقط أن يطرد الفرس خارج أرضهم، بل أيضا متابعة الحرب حتى النصر النهائي، لاسيما في نفس العصر، في سيسيلى، يوم هزم جيلون حاكم سيراكوز قرب هيمير القرطاجيين حلفاء الفرس. وأيضا في صيف العام ٤٧٩، يوم دخل مارودنيوس من جديد أتيكيا، ترك الجيش اليوناني استحكامات البرزخ وانتقل إلى الهجوم. وشغل الجيش اليوناني الذي وحد قلوب ٥٠ ألف رجل (قراية ١١٠ آلاف حسب هيرودوت)، بقيادة المحافظ بوزانياس السبارطي، شغل في أتيكيا مواقف جديدة على سفوح سثرون التي تشرف وتتحكم بدرب أثينا. فرضت القوة على مارودنيوس أن يتراجع إلى بيونيا، بعد أن دمرت أتيكيا مرة أخرى. نصب معسكره قلوب

بلاتيا لكي تقدر خيالاته أن تتاور في سهل بيوتيا الواسع. وهنا أمام بلاتيا، جرت أكبر معارك هذه الحرب؛ دامت عدة أيام. وكما في مراتون، كان تفوق السرايا الثقيلة اليونانية واضحا. تفرد الإسبارطيون، مشوا إلى العدو بسور لا يخترق، بينما احتل الأثينيون معسكرا منيعا. مارودونيوس ذاته مات في المعركة، الأمر الذي دب الهزيمة العامة في الجيش الفارسي. ثم أتى دور ثيبيا، التي كانت نقطة استناد لمردونيوس؛ أخيرا، دخل الحلفاء تساليا على أجدات ومخلفات العدو. تقول الرواية إن ثلة صغيرة فقط من الفرس بقيادة المزربان أرتباز استطاعت الهروب عن طريق مقدونيا وثراسيا. وهكذا تحررت اليونان القارية كلها.

وفي الوقت نفسه، طرد الأسطول اليوناني الفرس من بحر إيجه. وفي صيف العام ٤٧٩ نفسه، دارت معركة بحرية قرب رأس ميكال، نقطة تمركز البحرية المعانية. كان الفرس قد سحبوا بواخرهم إلى الساحل، خشية الاصطدام باليونان. ثم أبحر الأسطول اليوناني، بقيادة ملك اسبارطة ليوتشداس والأثيني خانتبوس (والد بريكلس)، وطوقوا المواقع الفارسية وأحرقوا المراكب التي لم تتعرض لخطر الإبحار. ألزم هذا النصر جزر ثاسوس، ساموس، لسبوس وشيو أن تفك ارتباطها مع الفرس وتتضمن إلى الاتحاد الهليني. وهكذا أفضت معارك سالامين، ميكال وبلاتيا إلى انعطاف حاسم. برهنت أن التمسك بالبحرية كان قوة قديمة بتخطي، في الساعة الحرجة، التفكير الداخلي في الدول أو بعض الفئات الاجتماعية، باسم الآمال المشتركة للشعب اليوناني.

بعد هذا خلقت الحرب الميدية جامعة أخرى للدول اليونانية، بقيادة أثينا هذه المرة، وأضيق من السابق. فبعد النصر المؤزر الباهر لميكال، انسحب الأسطول المتحد نحو هلسبوننت ليعزل الفرس عن أوروبا. لكن مراكب ليوتشداس البلوبونيزية تركت الأثينيين ليعودوا إلى اليونان. أما هذه الأخيرة، التي كان همها الأول التمون المنتظم بقمع بونت، تابعت العمل في البحر. فحاصر الأسطول الأثيني، الذي انضم إليه الموجودون في الجزيرة، قلعة سستوس في المكان الأضيق من هلسبوننتو، وبعد شهرين من التطويق، أجبر الحامية الفارسية على الاستسلام. وفي العام ٣٧٨، عقد تحالف بين المدن اليونانية من آسيا الصغرى والجزر من جهة أخرى، سمي تحالف ديولوس الدفاعي. كان هذا التحالف جامعاً مدن بحرية مهمتها تقديم الرجال والبواخر للحرب ضد الفرس. والحاضرات الصغيرة غير



القادرة بوسائلها الخاصة على بناء سفن، كان لها الحق أن تدفع سنويا مبلغا معيناً (لدينا لأثحاً ببعض النقوش). وفي جزيرة دالوس، قرب معبد أبوللون، كان الصندوق المشترك، الذي يضم ٤٦٠ تالان (قرابة مليون روبل ذهب). هنا اجتمع المجلس الاتحادي. كان الحلف يملك أرضاً واسعة، يشمل حتى ٢٠٠ حاضرة.

كان الأثينيون هذه المرة يقاتلون الفرس بمعنوية أعلى وأمل أمتن ويحققون نجاحات أوسع وأهم. وفي العام ٤٧٠، طرد الجنرال اليوناني سيمون العدو من شواطئ ثراسيا. فالتحقت بسيمون كل المدن اليونانية المرتبطة بالفرس. وتصدى اليونان للفرس في بامفيليا، على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى، عند مصب أورمدون (٤٦٨). أخيراً فتحت كل الطرق التجارية والجزر شواطئ بحر إيجه أبوابها أمام التجار اليونان. لا بل جهد الأثينيون في التغلغل في الأرض الفارسية. وفي العام ٤٥٩ قررت أثينا موازنة مصر المتمردة ضد الفرس وأرسلت لها خيرة بواخر أسطولها. على ذلك نجح الفرس في قمع تمرد المصريين، ودمروا تقريباً كل الأسطول اليوناني (٤٥٤). وبعد خمس سنوات، ٤٤٩، لاقى أسطول أثيني آخر، بقيادة سيمون، لاقى الفرس قرب قبرص، أمام مدينة سالامين. انتهت المعركة بظفر الأثينيين وطرد نهائي للفرس من شرق البحر الأبيض المتوسط.

كان تفوق اليونان بديهياً، وأكره الفرس في العام ٤٤٩ على عقد السلم، المعروف في التاريخ باسم سلم كالياس *paix de callias* (السفير الأثيني الذي مهر المعاهدة في سوز *Suse*، عاصمة ملك الفرس). بعد الحرب الميمنية، شرعت المناطق الغنية في آسيا الصغرى، وبحر إيجه والبحر الأسود، شرعت تخورها أمام اليونان الذين غرسوا فيها التجار الشرقيين. وبلغ الرواج الاقتصادي، والتفتح السياسي والثقافي لليونان في النصف الثاني من القرن الخامس، نقطة الأوج.

## الفصل التاسع والعشرون

### قمة الاقتصاد العبودي في اليونان

#### الاقتصاد في القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد

حتى في أوجه، في القرن الخامس، لم يشكل اقتصاد اليونان كلا متكاملًا. البلاد، كما هو معروف، تتكون من عدة دول ومناطق مستقلة تختلف بوضوح من حيث النهج الاقتصادي. وفي عدد من بقاع اليونان، بقي أسلوب الحياة القديم ساري المفعول. ايبيريا، أركانيا وإتوليا كانت أقاليم رعوية. وفي تساليا، بيوتيا، لوكرى، فوسيد وفي جزر بلوبونيز، كانت زراعة الأرض هي المهيمنة. المكان الأول بين الأمصار الزراعية يعود إلى تساليا، التي تصدر حتى مما يفيض عنها من القمح؛ وكانت تربي الكثير من الأنعام بخاصة الخيول. وفي اليونان الوسطى، تنسب الملكية الزراعية إلى بيوتيا. كان فلاحو بيوتيا هم الممونون العاديون للسوق الأثيني، حيث يبيعون نتاج حقولهم، السمك والطرائد. وفي اليونان الجزيرية، تتميز أوبيا بخصوبتها.

كانت الأقطار الزراعية والرعية متخلفة من الزاوية الاجتماعية والسياسية. فحسب شهادة ثيومسيديد، كان الأكانيين والأتوليان يعيشون في القرن الخامس كما في أيام هوميروس: يحملون أبدا أسلحتهم، تخطف النساء وتسبي، ولم يعرفوا بعد استخدام العبيد. وفي عدد من الأقاليم، كان يوجد مختلف أنواع العلاقة البدائية للشعب الريفي مع الملاك العقاريين. وفي إسبارطة، كما نعرف، كانت أراضي الحكام - السبارطيين - محروثة بتعب الأجراء المستعبدين وكان شرط هؤلاء يذكر بشرط..... تساليا... كريت، ..... أرغوليد.

وبعكس المناطق الزراعية، كان العديد من الحاضرات مثل أثينا، كورنثيا، أيجين، ميغار، ميليت وغيرها قد صارت قبل الحروب الميمنية مراكز كبيرة للتجارة والصناعة. وبعمامة، كانت أراضيهم غير ملائمة لزراعة الحبوب. وفي أنيكيا، مثلا، كانوا يزرعون بخاصة المزروعات التي تحتاج الكثير من العناية: الكرمة والزيتون. وقد ولد نقص القمح

رعية ريفية فائضة تسعى الى المهن، الى التجارة، محتاجة لتصدير منتوجها الصناعي واستيراد المواد الغذائية، والمواد الأولية والعبيد.

وكانت المهن والصناعات في الحضارات متطورة في القرن الخامس. يشير بلوتارك الى النجارين، النحاتين، صناع النحاس، البنائين، الجواهريين، صناع العاج، الرسامين، المزخرفين، المرصعين، الحبالين، الحائكين، الدباغين، مرممي الطرق، الخ.

الى هذه اللائحة نضيف الفرانين، الحلوانية، الأسكافية، البراذعية وغيرهم. وفي المدن الكبيرة مثل أثينا، كان يوجد أحياء كاملة تعمر بأناس من نفس المهنة، كانت ميليت مثلاً، للحلوانية، الأسكافية، البراذعية وكانت سيرلميك حي الفخارين. وكانت بعض المدن مشهورة بهذه البضاعة أو تلك. وكانت أثينا وكورنثيا مختصتين بصناعة السلع المعدنية، الأسلحة بخاصة، المفروشات، الحياكة، والفخاريات. وكانت مشربيات كورنثيا المطلوبة المصنوعة للتصدير منذ القرن الثامن تصل حتى ايتروريا. وفي أثينا وكورنثيا كانوا يهتمون أيضاً بتعمير السفن.

وفي القرن الخامس ق.م. كان يوجد في أثينا ورشات صغيرة، يعمل فيها أفراد الأسرة كلها، يساعدهم غالباً عبد أو عبدان، وأحياناً أكثر.

لم يكن أجر الصناعي يتجاوز دراهماً واحدة في القرن الخامس ودراختين في القرون الرابع. وكان الفقراء يأوون الى أكواخ تصعب تسميتها بيوتا: غرفة واحدة طولها عدة خطوات، بجدران من الخشب أو بعض الحصى الممزوج بالفخار وأرض صخرية ممهدة. كان الجدار الأساسي غالباً صخرة واحدة، ترتبط به الجدران الأخرى. بين السطح والسقف كان يقوم مسكن صغير يسكنه أصحابه أو يؤجرونه؛ يصعد إليه بسلم.

والمهنة في اليونان القديمة، لم تكن ابداً معتبرة عملاً مشرفاً. "إن المهن كلها عمل حقير، يكتب خوفون ("اقتصادي"، ٤، ٢)، ومن الأكيد والطبيعي أن ينظر إليها في المدن بازدرأ ومهانة". وينسب الكثير من الاحتقار للأجراء المشتركين أيضاً بالإنتاج، مع أن عددهم كان ضئيلاً.

بعد الحروب الميديّة، بخاصة في القرن الرابع ق.م، راح يظهر إلى جانب الورشات الصغيرة، مشاريع تنمو باستمرار تستخدم عبيداً. كان أغلب مؤسسيها أجنبياً أحراراً. يعلّ ظهور هذه المشروعات نمو التصدير من اليونان باتجاه المحيط. كان دموستاتان قد ورث

عن أبيه ورشة يعمل فيها ٣٢ عبدا في صنع الأسلحة. ويتحدث أيضا عن ورشة أخرى لصنع أسرة ينام عليها ٢٠ عاملا أعطيت لأبيه رهنا. وكان خطيب ليزياس يمتلك ورشة لصنع الدروع والتروس تستخدم مائة عبد. ويمتلك ورشة أخرى من نفس النوع تنتج مصابيح، آلات موسيقية وسواها. ونلمس هنا بداية تقسيم تقني للعمل. وفي ورشات التعدين، البعض يطرق الحديد، وآخرون يشحنون، وغيرهم يسقون المعدن. وورشات السيراميك تستخدم، عدا صناع الفخار، رسامين ودهانين لتزيين الأواني المنزلية. لكن الصناعات اليونانية لم تستخدم في القرنين الخامس والرابع الآلات. فما كانوا يعرفون أنثذ إلا التقنيات البدائية: العتلة، البكرة، مسن أو رحي، وغيرها، العاملة أساسا بقوة الإنسان العضلية.

وكمثل على سلع منتشرة في كل اليونان وخارجها، نذكر صناعات الفخار. ففي القرون الخامس، أنتج هنا المشربيات الرائعة المزدانة بصور على خلفية سوداء شديدة المقاومة، يبهز جمالها العين حتى اليوم. والقدر المصنوعة من الفخار المشوي كانت تحمل أحيانا شارة شيخ الورشة وشارة مفتش السوق، اللذين يتحليان بالكفاءة المحلية. على إحدى هذه القارورات نقرأ النقش التالي: "أوتميدس صنع هذه المشربية خيرا مما لن يستطيع صنعها أفروتيوس" (أحد المزاحمين).

بينما كانت السلع المصنوعة مازال تستخدم العبيد والعمال الاحرار، لم يبق لصناعة المناجم أو المقالع كيد عاملة سوى العبيد. تشهد على هذا مناجم لوريون الشهيرة، في جنوب أتيكا، التي تخص الدولة وتؤجرها للأفراد. كانت تبلغ حتى ٤٩م عمقا. من هذه الآبار، تذهب أروقة أفقية، مقطوعة في صخور صلبة، حيث ينتشر معدن الفضة. كان كل رواق يحفره عامل يعمل ١٢ ساعة، ويتتابع العمل ٢٤ ساعة ولايعطي إلا ١٠م في الشهر. وكان المعدن، الذي يفصل بالمعزقة والرفش، يكوم في سلة تسحب نحو الآبار عبر الرواق؛ كان ينهض بهذه المهمة الأولاد والمراهقون، ارتفاع الرواق متر واحد. يرفع المعدن بالسلال الكبيرة، بواسطة ملفات يدوره هؤلاء العبيد أنفسهم، ثم يجرش بحجر الرحي ومطارق حديد ثقيلة. ثم يغسله الفتيان والنساء في أحواض رخامية بماء جار، لتخليصه من الرصاص. ويصنع الفونت بأفران واسعة. نأخذ من هذا سبائك، يربطها المسنون والصبيان حزمًا ويرسلونها إلى أثينا على ظهور البغال. كان الرصاص يضغط بصفائح سميكة،

يحمل خاتم مالك العبيد. ولجلب الفحم، وخشب التدفئة وإرسال معدن لوريون، شقوا طرقا وبلطوها.

كان تطور المهن يتوافق مع رواج التجارة. فالتجارة الداخلية، بخاصة على أرض صلبة، بين مختلف دول اليونان في شبه جزيرة البلقان، بحاجة لمدى واسع. وكانت التجارة المحلية أساسا تجارة سلعية، تجارة سوق. كان ممثلوها النموذجيون الباعة الجوالين، الحانوتين، باعة المفروق، والفلاحين. وكان لكل مدينة مكان في السوق، الأغورا، الذي يشكل مركزها أو وسطها، تتجمع حوله الصروح العامة والمعابد. وثمة رف خاص لكل بضاعة: سمك، جبن، فخاريات، خمر... إلخ. ومكان خاص للنخاسة. وفي هذا الميدان العام، من المدن الكبرى، يزاول المبادلون والمرابون القابعون وراء مكاتبهم، كل أنواع العمليات المالية: يتلقون الفضة مكدسة، يكفون بإرسالها إلى طالبها، وإجراء الصفقات، وغيرها. كانت الفوائد عالية: ١٨% بشكل عام، وفي حال الارتياح أو الاضطراب التجاري، تصل إلى ٣٦%.

كانت المراكز التجارية والصناعية الكبرى في اليونان القديمة تشترك بتجارة البحر الخارجية، لأنها بحاجة للقمح، خشب البناء واليد العاملة (العبيد). وبعد هزيمة الفرس، استعادت اليونان اليد الطولى في بحر إيجه ومضائق بونت-أوكسن. وقد أضعف سحق القوات البحرية الفارسية بصورة غير مباشرة الفينيقيين، حلفاء الفرس والمزاحمين السابقين لعمارة السفن اليونانية. وتجدد التبادل بين اليونان ومستعمراتها في آسيا الصغرى، وكذلك التجارة مع الشرق، مصر، شلسدوك، ثراسيا، مقدونيا وبخاصة مدن ساحل البحر الأسود. وكانت مراكز التجارة اليونانية تبحر باتجاه اليونان-الكبرى، نحو سيراكوز، وتصل كمبرانيا، أوتراريا و، أيضا إلى الغرب، شواطئ الغول *Gaule* وإيبيريا.

أثينا، مثلا، كانت تجلب من ساحل البحر الأسود، مصر ويسييليا القمح، الماشية، السمك (المدخن، المملح، والمجفف)، الجلود، الفرو والصوف. وتستورد البرونز الأوتراري، البردي ونسيج الكتان من مصر. والسجاد البازخ والعطور من الشرق. والعاج من إفريقيا. وتستقبل شرائح العبيد، بحيث كانت عاصمة أتيكيا الديموقراطية، في القرنين الخامس والرابع ق.م مركز نخاسة هيلاد (اليونان قديما) الكبرى.

ومقابل البضائع المستوردة، تصدر اليونان زيت الزيتون، العسل، الرخام، الرصاص،

الفضة، السلع المعدنية، النسيج، والفخاريات. وقد كشفت اللقى الأثرية سعة التجارة الأثينية ومراكز التجارة والصناعة اليونانية الأخرى. ووجدت السلع اليونانية حتى في خاراكوف، فورونيج وسمولنسك.

ويعكس التجارة الداخلية الصغرى، كانت التجارة الخارجية الضخمة تأتي بمربح هائلة (حتى ١٠٠% مما يحمل المركب). ومنذ القرن الخامس ق.م. تطورت التجارة اليونانية بحيث أصبحت عابرة: فبعض البضائع، كالقمح، تأتي إلى البيرييه لتباع بدورها في الخارج. لذا كانت المدينة التجارية والصناعية ملزمة بتوفير لنفسها مرفأً مجهزاً. كان أهمها مرفأً بيرييه (الواقع على عدة كيلومترات من أثينا). تشكل جزيرة بيرييه ثلاث مراسي يستخدم اثنتان منها لإرسال السفن الحربية. والثالث في الغرب، هو البيرييه ذاتها، حيث مرفأً التجارة. بين المخازن والمستودعات المتواصلة، كان ثمة صرح يسمى (ديغما-العرض)، حيث تعرض البضائع وتقوم سوق المال. كان ثمة جدران تزنر المرفاء الثلاثة والبيرييه ذاتها المتصلة بأثينا بالـ"جدران العالية الطويلة". وكان في كورنثيا، إفيز، ديلوس، رودس، سيراكوز وغيرها، مرفأً رائعة.

نما الانتاج وعزز حياة الرعايا التي كانت على علاقة بالصناعة والتجارة: صنّاعيون، وسطاء، مياومون، عمال أرسفة ومستودعات، بحارة، أصحاب مشروعات، تجار ومرابون. ورغم التناقضات فيما بينهم، كان ثمة علاقات مشتركة: تطور التجارة والصناعة. وبخاصة، تراكمت الانطلاقة البحرية للدولة الأثينية مع السيطرة على الدول اليونانية الأخرى. بالنسبة للتجار، فتحت هذه الغزوات أسواقاً جديدة ووسعت نفوذ الدولة المالي؛ وبالنسبة لبعض شرائح الشعب، ترجمت إلى امتلاك أراض في المناطق الملحقة، وتوزيع النقد والخبز، التوظيف في المراكز العامة وازدياد الطلب على اليد العاملة، بخاصة في الأسطول. وبكلمة، تكون لكل الناس الأحرار مصلحة في استغلال العبيد وسحق مقاومتهم؛ هذا مع اختلاف حجم هذه المصلحة.

كان صنّاعيو المدينة وتجارها أوسع تعلقاً من الفلاحين بسياسة الحكومة الداخلية والخارجية وتموجاتها. وكان يهم أيضاً سكان مدينة أخرى مثل أثينا أن تحكم الجمهورية نفسها. فضائق أثينا بسكانها النشطاء، الخبراء بالسياسة، بعكس الريف الواسع، مما أنضى إلى أن يحتل أبناء المدن سلطة الريف وأرضه.

### العبودية في اليونان في القرنين الخامس والرابع ق.م

كانت دول الطليعة في القرنين ٥ و ٤ تعيش اقتصادا عبوديا راقيا. جمع كاتب أثيني، من القرن الثالث للميلاد، قد جمع في أعماله السابقة التي لم يصلنا منها شيء، معطيات حول ألوف العبيد التي كانت بحوزة بعض الدول: "كانت كورنثيا مزدهرة لأنها كانت تمتلك ٦٤٠ ألف عبد... حسب الإحصاء الذي جرى في الأولمبياد ١١٧ (العلم ٣١٢ ق.م)، كان سكان أتيكيا يعدون ٢١٠٠٠ مواطن أثيني، ١٠٠٠٠ أجنبي حر، ٤٠٠٠٠٠ عبد..." وينقل أرسطو في "دستور إيجين أن هذه كانت تمتلك ٤٧٠٠٠٠ عبدا" (أثيني، ٦، ٢٧٢ب). أن بعض العلماء الحاليين يشكون بهذه الأرقام. فبعض الحسابات المعقدة تجعلهم يخلصون أن عدد الأحرار في أتيكيا، مثلا، بما فيهم الأجانب الأحرار، كان آنذ يساوي تقريبا عدد العبيد؛ ويرى آخرون أن العبيد أكثر. فإذا ما فكرنا أن جزءا فقط من الناس الأحرار يقومون بعمل منتج وليس عندهم عبيد، النسبة الأولى -عبد واحد لحر واحد- تكفي لتأكيد الفكرة القائلة إن العبيد كانوا في اقتصاد أثينا للقرنين الخامس والرابع، هم المنتجون الرئيسيون. وليس لنا أن ننسى أن حقل عمل العبيد كان يتسع أبدا.

وككل مجتمع عبودي، لم تكن قوة عمل العبيد في اليونان بضاعة ولم تتم حيازتها بالاستئجار، بل بطريق غير اقتصادي: الإكراه، القهر والعنف. والعبد، حسب تعبير اليونان، ليس سوى "جسد" سلعة، أداة إنتاج بسيطة، نوع من إنسان آلي. تماما كالأدوات والبهاائم، كان العبد ملكية مطلقة لمالكة، له أن يبيعه، يشتريه، وحتى يقتله.

وكان المصدر الرئيسي للعبودية استيراد الأجانب الأسرى، القرصنة والحرب. وسكان سوريا، فريجيا، ليديا وأقاليم أسيوية أخرى، من بلاد البونت (السيث)، ثراسيا، ومصر كانوا يشكلون أغلب عبيد اليونان. كانت معاهدة المساجين أحد أهم الفروع المربحة وأهم مواد التجارة. ففي شيو، ساموس، إيفيز، كان يوجد أسواق لخاسة واسعة، حيث يمكن شراء من القرصنة ثل كامل من الأسرى ليعاد بيعهم في دول اليونان القارية. وفي ثراسيا، كانوا يستبدلون العبيد بالملح: كان الأمراء الثراسيون يتحاربون دوما فيما بينهم ولا يعدمون أبدا مساجين لهذه المبادلة. وكانوا يشترون في ثراسيا عبيدا فرادى؛ يقول هيرودوت أن الثراسيين "كانوا يبيعون أبناءهم للأجانب". وقد لاحظ بوليبي، بصدد البلاد البوننتية، أنهم "بين الأشياء الضرورية يقدمون الماشية وكمية كبرى من العبيد بنوعية أعلى كثيرا"

(٤، ٣٨، ٤). وأبناء العبيد واللقطاء ويصيرون أيضا عبيدا. فضلا عن هذا، ثمة عادة فسي كل اليونان تخول الأهل بيع أبنائهم. وفي أثينا، يلجؤون إلى هذا في حالة واحدة: يقدر الأب أن يبيع ابنته الساقطة. ويطبق الاستعباد على المدينين المعسرين: في أثينا، ألغى الاستعباد لقاء عدم وفاء الدين في أيام سولون، لكنه بقي في الأقاليم الأخرى من اليونان. وأخيرا، كان الاستعباد يعوض عن عقوبة تقضي بها المحاكم: في ليسيا (آسيا الصغرى)، لقاء عقوبة السرقة، وفي أثينا، لقاء عقوبة الربي بالمواطنة - أي حرمان الإنسان من مواظنته مقابل الربي أو اكتساب المواطنة مقابل الربي، إلخ.

كان سعر العبيد متبدلاً. من لا يعرف سوى الأعمال العادية يساوي ٢ أو ٢,٥ مين<sup>١</sup> وأولئك الذين يعرفون مهنة ما ٣-٤ مين. والعبيد الندماء أو يلقون بالـ "الأفراح" ١٠، ١٥، ٢٠ مين. إذا ما صدقنا الوثائق، نرى أن عبداً مشرفاً = ٤٠ ميناً.

كان عمل العبيد موظفا كثيرا في الورشات الحرفية، المناجم والمقالع. وأحيانا يكلفهم صاحبهم بفتح ورشة على نفقته. والعبد المكلف بدفع أجور عنده عبيد يعملون تحت إشرافه وهم تحت تصرفه فعلا، رغم انتسابهم القانوني إلى مالكة. وفي بعض الحالات، يؤجر العبد المشرف كعامل لدى الأفراد، بخاصة لدى الصناعيين الأحرار، ويؤدي قسطا من مرتبه لسيده. وقد يشتري المالكون عبيدا بالحصص ٣٠٠-٤٠٠ فردا ليؤجرهم بالتالي لأشخاص آخرين عليهم أن يعيدوهم بالأجل المحدد. هكذا كانت تحاز اليد العاملة في مناجم لوريون. وكان استخدام العبيد في المزارع أيضا ظاهرة منتشرة. فالمالك العقاريون الكبار وحتى الفلاحون المرتاحون يشترونهم ليجعلوهم يعملون في الاستثمارات.

ومألوف أيضا أن يعمل العبيد خدما. أسرة مرتاحة تملك ٥ أو ٦. والناس الأكثر تواضعا يكتفون بواحد. فممنزل أسرة غنية عالم مغلق، أي مكتفية ذاتيا، عندها طاحونتها، فرنها، نولها، وصناعيوها. وكان الصناعيون المشرفون ملزمين بالعمل في بيت السيد لدى أول نداء.

أما عبيد الدولة فيشكلون عينة قائمة برأسها. كان في أتيكيا فوج من العبيد السيث *Scythes* (ألف رجل) يخدمون في جهاز الشرطة. المبلغسون، الناسخون، المحاسبون،

<sup>١</sup> - مائة دراخما لدى قدماء اليونان.



وعمال النقد كانوا عبيدا عموميين. يعملون لمصلحة الدولة، يتمتعون بحرية واسعة، وأحيانا بشيء من الاحترام.

لا ينظر القانون إلى العبد نظرة إنسان. فأى هفوة أو ضرر أو إهانة تجاه السيد تعرضه للضرب المبرح، دون حساب عدد الضربات. كانت القاعدة أن يعامل العبيد بقسوة: "كل كلمة، أو تقريرا، موجهة للعبد تعتبر أمرا، يقول أفلاطون. لايجوز بخاصة المزاح مع العبد رجلا كان أم امرأة".

وفي الدول لكثيرة العبيد، كان الخوف من التمردات يكبح تحكم مالكي "الأدوات المتكلمة". هكذا، كان قتل عبد في أثينا معاقبا كجثة.

والعبد المساء إليه من قبل صاحبه أو سيده يقدر أن يحتكم إلى حق "الملاذ"، يلجأ إلى معبد تيزي أو محراب أومفيد. تقضي العادة ببيعه إلى مالك آخر. لكن الواقع، لاتقدم المعابد ملجأ آمنا. لايمكن استعادة العبد بالقوة، بل يمكن قسره بالجوع أو بالنار على ترك ملاذه. وكان مصيره معلقا آنئذ بالكاهن الذي يقضي بصحة دعواه.

#### مختلف أوجه نضال العبيد

كان كل هذا يفضي إلى نضال شرس طبقي. "حر وعبد، شريف وعامي، بارون وقن، سيد محلف ورقيق، وبكلمة، مضطهد ومضطهد، في تناقض مستمر، خاضوا حربا دائمة، أحيانا خفية وأحيانا مفتوحة... كتب ماركس وأنجلز في بيان الحزب الشيوعي. والشكل الأكثر انتشارا لهذا النضال الخفي للعبيد ضد سادتهم أو بالأصح أصحابهم كان هو مايسميه هؤلاء "كسل". يعبر هوميروس عن الفكرة هكذا:

هي ذي عادة الخدم، ما أن يغيب سادتهم أو

يضعفوا أو يفقدوا سلطتهم، حتى يتوانوا ولا

يفكرون أبدا بالقيام بواجبهم".

(أوديسا، نشيد ١٧، ٣٢-٣٢١)

ولما يتحدث مؤلفو الزمن القديم عن طريقة تعامل العبيد، يذكرون قبل كل شيء التدابير التي يجب اتخاذها ضد توانيهم.

وكان ثمة وجه آخر للنضال هو الأبق. لنكون فكرة عن توافر هذه الظاهرة، يكفي أن نعرف أن ثمة أخصائيين مهنتهم البحث عن الأبقين. وشاهد آخر تقدمه الأختام والأطواق

التي تميز العبيد عن الأحرار وتجعل هربهم أصعب. يقع البحث عن العبيد الهاربين وإعادتهم على عاتق السلطات؛ وكافاً من يعيد عبداً هارباً. يهرب العبيد فرادى أو جماعة. وأثناء الحروب، يستغلون ضعف الدولة وينتقمون من سيدهم ويأبسون جمهرة. لما احتل الأثينيون، في العام ٤٢٥، مرفأ بيلوس في مسينا، وكان أرقاؤهم السبارطيون يهربون، خشوا، حسب ثوسيديد، "من أن يعم التمرد كل المنطقة؛ كانوا إذن في غاية الاستنفار" (٤، ٤١، ٣). وفي العام ٤١٣، عندما احتل السبارطيون ديسيليا في أتيكيا، "أبق أكثر من ٢٠ ألف عبد، أكثرهم حرفيون". (ثوسيديد، ٧، ٢٧، ٥).

كان الشكل الأرقى لنضال العبيد ضد مضطهديهم هو العصيان. وفي القرنين الخامس والرابع، اتخذت تمردات العبيد في اليونان صفة عفوية. كان العصاة يهدفون تحرير أنفسهم، دون أن يفكروا بتحطيم نظام الرق واستبداله بآخر.

ولقد كان أول تمردات العبيد في اليونان وأقدمها في أراغوس في العام ٤٩٤. هيرودوت هو من يخبرنا هذا (٨٣، ٦). كان السبارطيون قد هاجموا وذبحوا أغلب الأرجيين. "أما مدينة أراغوس، فقد خلّت من الناس، حتى أن العبيد احتلوا كل الإدارات العامة. حتى كبر أبناء المدينة وصاروا بسن الرشد. أنشد عاد هؤلاء إلى أراغوس واستعادوا سلطتهم وطردوا العبيد الذين، بعد هزيمتهم، احتلوا تيرنث بقوة السلاح. وعاش الطرفان هنا رداً من الزمن في أتم وفاق؛ ثم أتى إلى العبيد عراف، كليادروس، أصله من فيغالي أركاديا؛ ألقنهم هذا الرجل بنمهاجمة ساداتهم. وهنا نشبت حرب عاشت مدة طويلة؛ وبعد لأي، استطاع الأرجيون، بعد مشقة، النصر". يشير هيرودوت على الأرجح إلى عصيان رقيق أراغوس، الذي يشبه أرقاء اسبارطة.

وفي العام ٤٦٤ نشب تمرد كبير قاده أرقاء اسبارطة ومسينا. وحسب بلوتارك، هزة أرضية حدثت في أسبارطة "في العام لتتصيب أرشداموس ملكاً". عم المدينة الاضطراب. "أرشداموس، الذي داهمه الخطر، حدس ما يخشى... قرع جرس النفير، كما لو كان العدو على أبواب المدينة، لكي تسارع الرعية لإحاطتهم بأسلحتهم.. فسارع العصاة من كل أنحاء الريف لنزح الاسبارطيين الذين نجوا من الهزة الأرضية؛ لكن عندما رأوهم مسلحين ومستعدين للمعركة، تراجعوا إلى المدن المجاورة، التي يدافع أهلها عنها، دعمهم المسيينيون، الذين من جهتهم هاجموا السبارطيين، وبدأوا ضد لسدمون حرباً مكشوفة".

بلوتارك. سيمون، ٢١). هكذا بدأت الحرب المسيحية الثالثة التي دامت قرابة عشر سنين. كان العبيد يشتركون غالباً بنضال مختلف شرائح الناس الأحرار، وهذا يساوي عندهم التحزب. وفي أثناء الصراع الذي نشب، في العام ٤٢٧، بين القلة والديموقراطية في جزيرة كورسيير، أرسل طرفا الصراع خلف العبيد في الأرياف واعددين إياهم بالحزبية. انضم الغالبية إلى الشعب" (ثوسيديد، ٣، ٧٣).

### دور العبودية في تطوير الاقتصاد اليوناني

يطرق العلم البورجوازي الحياة الاقتصادية في العصور القديمة بطرق مختلفة، لكنها دوما خاطئة. نقف عند وجهتي نظر متعارضتين: ك. بوشر وإد. ماير.

حسب بوشر، مرت الحياة الاقتصادية الأوربية في ثلاث محطات بارزة. الأولى هي محطة الاقتصاد الطبيعي المغلق أو "الخدمي" للعصور القديمة، حيث تستهلك المنتجات في أرضها؛ كان هذا اقتصادا بدون تبادل، ليس بحاجة للتجارة. منتجوها الرئيسيون هم العبيد. واقتصاد المحطة الثانية "مديني" للعصر الوسيط، يتم بالتجارة، هو الآخر؛ تذهب منتجاته مباشرة من المنتج إلى المستهلك، من الحرفي الحر إلى الزبون. والمحطة الثالثة اقتصادها "وطني" حديث، تجتاز منتجاته عدة منظمات قبل الوصول إلى المستهلك؛ هوذا "عصر دوران المنتج"، عهد التجارة المتطورة والمنتج الضخم المبني على الأجرة.

إن هذا الوصف التبسيطي للحياة الاقتصادية في العصور القديمة متعارض مع ما نعرف عن الصناعة والتجارة في مناطق اليونان المتقدمة. وخطأ بوشر المنهاجي هو اعتبار التبادل و المعيار، العنصر الأساسي، بينما يجب الانطلاق من تباين أساليب الإنتاج وعلاقات الإنتاج التي تلائمها.

ونظرية ماير أمر آخر تماما، لكنها خاطئة هي الأخرى. يبالغ بدرجة تطور الاقتصاد القديم ويحدثه. حسب هذا الباحث، يبدأ تاريخ العصور القديمة بالإقطاع، "عصر وسيط قديم". والمرحلة التالية، عند ماير، تعكس رأي بوشر، لأنه يضع في المقام الأول الدول ذات العلاقات الاقتصادية المتطورة، ويشبه ذروة الاقتصاد القديم بنهج الأجر في أوروبا الغربية للقرن الثامن عشر ويتحدث عن "رأسمالية قديمة". ويدلل ماير أن دور العبيد في إنتاج ذلك الزمن كان أضال مما يفترض بعمامة، فألى جانب الكادحين العبيد كان يوجد عدد كبير ينتسب إلى الناس الأحرار.

إنه مفهوم خاطيء بقضه وقضيضه. فمن المعروف أن تطور المجتمع اليوناني لم يبدأ بعلاقات إقطاعية. أما في الأوج الاقتصادي للعصور القديمة، لم يكن الفلاحون ولا الحرفيون المحرومون من المصادر قد صاروا أجراء، بل بائسون يعيشون من أرباح عارضة، عالة على الدولة. فليس ممكنا الحديث عن دور مهيمن للمأجورين في أوج الاقتصاد القديم، فالذي كان مهيمنا هو كدح العبيد، وعددهم يتزايد.

ففي القرنين الخامس والرابع ق.م. كان اقتصاد العبودية في بعض دول اليونان قد بلغ مستوى معين من التطور، وكان هذا بالتأكيد ظاهرة تقدمية. إننا "... ملزمون أن نقول، يكتب أنجلز، إن دخول العبودية في ظروف آنئذ تقدم كبير، حتى ولو ظهر قولنا متناقضا وشاذاً". فالعبودية هي فقط التي جعلت قسمة العمل ممكنة بين الزراعة والحرفة إلى حد بعيد، ثم، أن تكون الحضارة اليونانية *l'Hellenisme* ذروة العالم القديم.

على ذلك، كان مجتمع العبودية، المبني على العمل الإلزامي، محكوما بالجمود التقني. يصدر السبب الرئيس لهذه الظاهرة من أن العبد، كما يقول ماركس... "يعامل معاملة الحيوان وأداة العمل البعيدة جدا عن أن تساويه، ومن أنه إنسان. ولكي يحرم من هذه المتعة، يعامل ككائن مغفل *con amore*. وأيضا، مبدأ اقتصادي، مقبول في أسلوب الإنتاج هذا، استخدم أدوات العمل الأصعب والأثقل، لأن فظاظتها ووزنها يجعلانها تعيش طويلا". ولتأمين الحاجات المتزايدة للمجتمع من المواد المصنوعة، والتقنية بدائية، وبالتالي، إنتاجية العمل منخفضة جدا، ليس ثمة سوى وسيلة واحدة: زيادة عدد العمال ليتناسب مع حاجات المجتمع. والنمو المستمر لجيش العمال بالقسر غير الاقتصادي، أي بالحرب وبكل أنواع الإكراه، كان إذن الشرط الحتمي لتقدم الإنتاج القديم، مادام الناس الأحرار يتملصون من العمل اليدوي، بالمعتبر غير مشرف. "حيث العبودية هي الشكل المهيمن في الإنتاج، يصير العمل نشاط العبد، وأمرأ معيبا لدى الناس الأحرار".<sup>١</sup> إذن أو الخلاصة، سيفضي نهج عبودية الإنتاج إلى عرقلة تطور القوى المنتجة، ويخضع المجتمع القديم لأزمة مستديمة.

<sup>١</sup> - ف. أنجلز، أنتي دوهرنغ، الجزء الثاني، الفصل الرابع، ص ٢١٢.

<sup>٢</sup> - ك. ماركس. رأس المال، الكتاب الأول، المجلد الأول، ص ١٩٦.

<sup>٣</sup> - ف. أنجلز، جدلية الطبيعة، أرشيف ك. ماركس وف. أنجلز، العام ١٩٢٥، ص ٨٦.



## الفصل الثلاثون

# انطلاق الحركة الديمقراطية في اليونان بعد الانتصار على الفرس

### اليونان الظافرة

لقد أثارت الحروب الميدية حماساً ملتهباً لدى الجماهير الشعبية. إليكم هذا المثل الساطع: بعد اجتياح خرخس، لم تعد أثينا أكثر من خرائب. وصار يجب إنشاء دفاعات للمدينة. اشترك في هذا كل الأثينيين، شبيهاً وشباباً وأنجزوا العمل خلال شهر واحد. وأعيد بناء الأسوار بطول ٩ كم، ٣,٥ متر ارتفاع و٦ م سماكة، على أحسن وجه وبأقصر وقت. ما كانوا يستخدمون الملاط. بل كانت الحجارة تقص بكل عناية وإتقان وكأنها متلاصقة.

فقد وسم عصر الحروب الميدية بصراع سياسي حاد في بعض الحاضرات، لأن الحرب أوقدت النار تحت التناقضات بين مختلف فئات الطبقة المستعبدة. شمل أتيكيا، نيوتيا، اسبارطة وباقي دول البلوبونيز، ومستعمرات اليونان سيراكوز، أوليبيا، هيراكلي البونت.

ففي بيوتيا، استبدلت سلطة أرستقراطية الدم بسلطة الملاك العقاريين وأغنياء المدجنين الذين لا ينتسبون للأشراف. استعرت معاقبة الأرستقراطية البيوتية، أنصار الفرس، التي بدأت بتحالف اليونان بقيادة السبارطي بوزانياس، قاهر بلاتيه. حاصر بوزانياس ثيبيا وطلب تسليمه الخونة الأرستقراطيين وأعدمهم.

حكم بوزانياس اسبارطة ما دام ولي العهد بلاستوناكس قاصراً، وقاد مقاومة الطبقة المهيمنة السبارطية ضد الحزب المحافظ بقيادة الأفوريين، بهدف حرمان الأفورات من تفوقها وممارسة سياسية معادية لتوطيد سيطرة اسبارطة في اليونان، لزيادة عدد المدنيين المتمتعين بالحقوق المدنية، بإضافة شريحة ممن اقتطع أو استأجر أرضاً. ولتحقيق هذا

المشروع، اعتمد بوزانياس على الفرس؛ وبشهادة ثوسيديد: "وعد الأرقاء بالحربة والبورجوازية إن تمردوا معه وأزروا كل خططه (١، ١٣٢، ٤) وضع الأفوريين حداً لهذا النشاط. فاتهم بوزنياس بالتعامل مع الفرس، وأعدم. وبعيد هذا، في العام ٤٦٤، تمرد الأرقاء (الحرب الميسينية الثالثة المشار إليها أعلاه).

وفي أراغوس، جوار لاكونيا، أفضى التطوير الديمقراطي بعد الحروب الميديّة إلى ظفر الديمقراطيين وتوطيد أركان السلطة الديمقراطية. وامتد هذا إلى المدن اليونانية في المستعمرات. رأت سيراكوز سقوط الحكام المستبدّين (حوالي العام ٤٦٠ ق.م). واستقرار النظام الديمقراطي الذي عاش أكثر من ٥٠ عاماً. وفي هراكلي البونت والمدن اليونانية الأخرى على ساحل البحر الأسود، استبدلت الحكومة الأرستقراطية بحكومة ديموقراطية.

#### النضال السياسي في أثينا في العام ٤٧٠ - ٤٦٠

يقدم تاريخ أثينا في القرن الخامس ق.م. وقد انبسطت الديمقراطية وبلغت شأواً عالياً، أسطع مثل للصراع المظفر لديموقراطية العبودية. ففي أثينا، أشرف ووجه الصراع بين ظهرائي الطبقة المستعبدة حزبان: الحزب الزراعي المحافظ الذي يشكل الفلاحون وصغار الملاك غالييته. لأحد يجهل الصراع الشرس الذي دار قبل معركة سلامين بين الحزبين بشأن طريقة تنظيم الدفاع ضد الفرس الذين كانوا يعدون حرباً جديدة في البحر والبر. كان زعيم الحزب الزراعي، أرستيد، متأثراً بالإبعاد. وكانت الأوساط البحرية، بإمرة خانتئوس ثم ثمستوكل، قد أُنجزت برنامجها وبررته من وجهة النظر البحرية. لكن أتيكيا قد دمرت. وفي الريف، أغضبت سياسة الديمقراطية الناس، الذين رغبوا في العودة إلى الأيام السابقة، إلى "عادات الآباء"، أي عهد سولون يوم كان القمح مقياس الغنى.

كان يوجه الحزب الديمقراطي أو البحري التجار، المصدرون، تجار السلاح، ملاك الورشات البحرية، وشيوخ المشاريع. كان أغلب أعضائه من الحرفيين، أبناء المدينة الفقراء، من الكادحين الذين يهتمون بأعمال البحر والذين يسكن أغلبهم في البيريا: ربابنة، مجنّفون، حمالون، معمرّو سفن، موظفو مرافئ وبقية "متسولي البحرية"، كما يسميهم خصومهم السياسيون.

رفع الحزب الديمقراطي شعارين: *isononia* و *ise`goria*، يعني الأول المساواة

بالحقوق المدنية (حقوق متساوية بإدارة الأرزاق، الميراث، وغيرها) والثاني، المساواة بالحقوق السياسية (حق متساوي في التصويت الإيجابي والسلبي). وكانت سياسة الديمقراطيين الخارجية عدوانية؛ فتطور التجارة والصناعة يتطلب توسيع الدولة اليونانية، إلحاق أراض ومرافئ الغير، بناء مستعمرات ومستوطنات. وسمت هذه الحقبة بالعدوان بين اسبارطة وأثينا والإعداد للصراع من أجل الهيمنة في اليونان. فيحاول الديمقراطيون توحيد الدول في وجه الأحلاف الأرستقراطية التي تواكبت حول أسبارطة.

إن احتدام النضال بين الحزب الزراعي والبحري يسم النصف الأول مما يسمى "الخمسينية" (مرحلة مابين اجتياح خرخس في العام ٤٨٠ و بداية حرب البلوبونيز في العام ٤٣١ ق.م).

فقد لعب ثمستوكل، قائد الحزب الديمقراطي دورا بارزا في نهاية أعوام ٤٩٠ حتى نهاية أعوام ٤٧٠. إذ كانت شخصيته بالذات نموذجية لرجال الأعمال الجدد الذين يوجههم. لم يكن من علية القوم ولم يحصل على تربية طيبة، وبلغ المجد بقوة مواهبه فقط. يشير ثوسيديد أنه كان قادرا على الخروج من كل المأزق وعنده لكل معضلة حل. "دلك ثمستوكل بطريقة مذهشة على دور الطبيعة الكبير... ويفضل بصيرة متقدمة، ودون سابق إنذار، كان يتخذ قرارا حكيما، يكتب ثوسيديد (١٣٨،١).

كان سيمون، قائد الحزب الزراعي والذي خرطه في حقل السياسة أرسيتيد، من النبلاء الأثينيين: كان ابن ملتيد، قاهر ماراتون، ومن جهة أمه، حفيد أولوروس، ملك ثراسيا. أرسطراطي غني، عدو الديمقراطية والحوار يحتال على الشعب ليس بأعماله فحسب، بل بدرويه الملتوية. "فخلق من بيته محجة مشتركة لكل الناس..." (بلوتارك، سيمون، ١٢)، كان يقيم العديد من الولائم. ولقد هدم جدران حدائقه ليخول كل الناس أن يذوقوا ثماره. كان رجل سياسة محنكا وقائدا دربا.

وفي العام ٤٧٠، تفوق الحزب الزراعي المحافظ. وقائد الديمقراطيين، ثمستوكل، أدن ظلما بالإبعاد (٤٧١)، وما أن نفى، حتى استتصرى خصومه ورائه، واتهموه بالـ "ميدية". فوضعت محكمة أثينا خارج القانون. استسلم ثمستوكل للفرس، ومات عندهم بعد عدة أعوام.

رسميا، لم يحدث أي تغيير في النظام الأثيني، لكن دور مجمع الحكماء اتسع جدا.



فكان لهذه المؤسسة البالغة الحق في الاعتراض على القرارات التي يتخذها مجلس الشعب، إن بدا لها أن هذا المجلس يناقض القوانين. وكان مجلس الحكماء يسهر أيضاً على حقوق المواطنين ويدين الجرائم. وفي العام ٤٦٠، عاد الدور الرئيس في أثينا إلى سيمون. ولقد قلنا سابقاً أن سيمون قاد اليونان في معركة أورمدون (٤٦٨). وحقق النصر، وعلمت العمليات الحربية لمدة سبع سنين (حتى ٤٦١).

وفي نهاية الستينات، استعاد الحزب الديمقراطي نشاطه حتى أن أنصار سيمون اضطروا لإخلاء المكان لخصومهم. كان السبب المباشر لسقوط سيمون هو اقتراحه دعم السبارطيين ضد الأرقاء المتمردين في العام ٤٦٤. ورغم معارضة مجلس الشعب، أرسل الفصيل التأديبي إلى مسينا. تلقى السبارطيون النبأ بغضب وصرفوا الجنود الأكثينيين، خوفاً من أن يدعموا الأرقاء عوضاً من أن يساعدهم هم. أثار هذا الحدث غضب أثينا. فأقيل الستراتيجي سيمون وحكم عليه بالنفي.

### إصلاحات إفيالت

في نهاية الستينات من القرن الخامس، استعاد الديمقراطيون الراديكاليون السلطة. تولى الدور الأول إفيالت، قائد "فقراء البحرية". لم يقوم عمل هذا الرجل بشكل عام كما يجب. فلم يكتب أحد من مواطنيه حياة هذا الديمقراطي "المتطرف"، صاحب المناقب الفذة، ولا نعرف عنه سوى القليل. هو ابن سوفوندس، سليل أسرة أرستقراطية أقل نجمها. كان "أيضاً أنزه من أن يكرس للدولة" (أرسطو، دستور أثينا، ١، ٢٥). قريب من شرائح المجتمع الأفقر، كان إفيالت صديق المساكين الذين رأوه محامياً لهم ("Prostate de demos"). في نظره، الشعب هو السيد الفعلي للدولة. كان أعداء الديمقراطية يكرهونه، وانتقدوه "لأنه أعطى الناس كل الحرية، وأترع لهم الكأس فسكروا" أفلاطون. حارب إفيالت بكل قوته مختلسي ومبذري أموال الناس. وفي العام ٤٦٢ أقام عدة دعاوى على موظفين مختلسين ومحتالين. ولم يوفر حتى أعضاء مجلس الحكماء، مهيناً الرأي العام وإعادة تشكيل هذه المؤسسة. وقد انتزع مجلس الشعب، برئاسة إفيالت، من مجلس الحكماء، حق إلغاء القوانين التي شرعها الأكليروس. فضلاً عن هذا فقد مجلس الحكماء حق معاقبة الإخلال بالواجب؛ وأعطيت هذه الشؤون مجلس الخمسمائة ومحكمة الجنايات. وأخضعت للمراقبة الشعبية أعمال الموظفين من مختلف الأصناف. ولم يبق لمجلس الحكماء سوى مقاضاة القتل والجرائم الدينية.

ومن المرجح أن محكمة الجنايات كلفت في هذه الحقبة بحماية الدستور. وكان الجميع يتمتع بعد قسم اليمين، أن يعلن أن الاقتراح الذي درسه مجلس الشعب يكبح القانون. ثم تنتقل القضية إلى محكمة الجنايات. وإن رأت المحكمة أن الحق إلى جانب المعارض، يفرض الذين استنوا مشروع القانون، وفي حالات استثنائية يدانون بالموت. وإن كان الاعتراض غير وجيه أو غير شديد، تحمل الطرف الآخر الغرامة. اسم هذه المؤسسة: مؤسسة شكوى ضد خرق القانون أو اتهام ضد من خرقه.

تمنع هذه المؤسسة أعداء الديمقراطية من الاستفتاء على الدستور. وبهذا تؤمن الحماية القضائية للاستقرار.

ولقد نجم عن إصلاحات إيفيالت انطلاق الحركة الديمقراطية. كثيرا ما يدعى مجلس الشعب للاجتماع، ويضعف مجلس الخمسمائة نشاطه. كانت إصلاحات إيفيالت الاجتماعية كثيرة، لكن الزمن لم يمهل لإتجازها. كان النبلاء يكرهونه. وفي العام ٤٦١ نبح في الليل بمكيدة جبالة. ولم يعرف المجرمون. إنه على الأرجح ضحية أعدائه السياسيين أو أذنابهم.



## الفصل الواحد والثلاثون

### حكومة بيركلس

#### (٤٤٠-٤٥٠) إمبراطورية أثينا البحرية

بعد اغتيال إفيالنت، بقي الحزب الديمقراطي في الحكم بإدارة بيركلس، تلميذه وزميله. في الأعوام الخمس عشر الأولى، مارس الحزب سياسة إمبريالية أساساً. كانت هذه المدة حقبة حروب مستمرة تشنها جمهورية أثينا على الدول اليونانية (بخاصة على الجامعة البلوونيزية) وعلى الفرس، لتصدير إمبراطورية بحرية وترسي الهيمنة اليونانية. فبعد موت إفيالنت لم يعد الشعب الفقير هو سند الديمقراطية الأثينية، بل ممثلو الشرائح الوسطى المرتاحة.

لقد أثار النزاع التجاري بين أثينا وكرنتيا حرب البلوونيز. استقر الأثينيون على شواطئ خليج كورنثيا الذي يفتح لهذه المدينة دروب الغرب البحرية. فضلاً عن هذا وضعوا حامية في ميغار التي انفصلت، في العام ٤٦٠، عن بلوونيز، لتتضم إلى أثينا. كما حددت الحامية الأثينية كورنثيا من الشمال.

شنت كورنثيا اعتداءات دامت بشكل متقطع من ٤٥٩-٤٤٥. فشل الكورنثيون بعد دخول إسبارطة المعركة. تصدى السبارطيون للأثينيين في تنفرا (بيونثيا) في العام ٤٥٧، لكن الأخيرين بقيادة ميرونيدي، انتصروا بدورهم على البيونثيين واحتلوا كل بيونثيا تقريباً ولوكريد وفوسيد. تخطى تولميس الذي يقود الأسطول الأثيني بلوونيز، هاجم شطآنها وحاصر سيكيون. وأرسل الأثينيون حملة بحرية أخرى بقيادة بيركلس، إلى خليج كورنثيا. وأخيراً وقعت كل اليونان الوسطى تقريباً تحت الرقابة الأثينية. وتحالفت ثساليا مع المنتصرين.

وفي الوقت ذاته (٤٦١-٤٥٤)، شنت أثينا الحرب على مصر التي كانت قد انتفضت ضد النير الفارسي. وتلبية لطلب قائد المتمردين، الليبي أنهاروس، أرسلوا لهم ٢٠٠ مركب

ثلاثي المجاذيف. ولج الأسطول الدلتا، وبمساعدة المصريين المتمردين، طوّقت ممفيس. على ذلك، آل المشروع إلى نكبة: غرقت كل المراكب و٣٥ ألف رجل، أكثرهم أثينيون. وبعد هذه الهزيمة، أجبر الأثينيون على وقف القتال لمدة خمس سنوات بمعاهدة مع الجامعة البلوبنيزية.

تجددت المعارك في العام ٤٤٨، لكن ليس لصالح أثينا. فالفصيل الأثيني الذي أرسل لمقاتلة البيوتيين بقيادة تولمدس هزم شر هزيمة وأبدي تقريباً في كورونيا (٤٤٧)؛ سقط تولمدس في ساح القتال. وتحررت بيوتيا، ثم لوكريد وفوسيد. وتمردت أوبيا، التي كانت جزءاً من التحالف الأثيني. واقتحم السبارطيون أيتكيا ودمروها.

ومرة أخرى اضطر الأثينيون توقيع السلم مع الجامعة البلوبنيزية، ولمدة ثلاثين عاماً هذه المرة (٤٤٥). بموجب هذه الـ"معاهدة لثلاثين عاماً" حافظت كل الأطراف على ممتلكاتها قبل-الحرب والتزمت بعدم الانضمام إلى الجامعات الأخرى وعدم دعم أي عضو في إحدى هذه الجامعات، إن تمرد ضد الدولة القائدة. وتخلت أثينا عن فتوحاتها في بلوبونيز وميغار.

كانت نتيجة الحرب بشأن التفوق في اليونان فاجعة بالنسبة لأثينا. بتأثير النكبة المصرية. ولامبالاة اليونان بقواتهم، أفضى إلى هزيمتهم المتتالية أمام عدة خصوم. على ذلك، فقد نجحوا بمسعى مندوبهم كالياس بعقد مع الفرس معاهدة سلم لصالحهم، في العام ٤٤٩، حرم الفرس من الإبحار في بحر إيجه.

وفي أثناء حروب ٤٥٩-٤٤٥، لم تعد العلاقات بين أثينا وحلفائها، كما كانت في حلف ديلوس. فلم تعد حلف دول متساوية، بل صارت حلفاً بين أتباع ودولة مهيمنة. ومحاولات بعض الحلفاء (مثل، ناخوس وثاسوس) الانفصال عن الجامعة في العام ٤٦٠، قمعت بالقوة. فدولة أثينا تمتلك كل المناهل التي أسهم بها الحلفاء. وفي العام ٤٥٤، نقلت الخزينة الاتحادية من ديلوس إلى أثينا. وقد طلبت حكومة أثينا من حلفائها دعم القوات البرية والبحرية لإرسالها ليس فقط لمقاتلة الفرس، بل أيضاً ضد الدول اليونانية الأخرى. فضلاً عن تدخل الأثينيين في شؤون الحلفاء الداخلية: قسموا الأرض التابعة للجامعة إلى خمس قرعات يحكمها أساقفة. ووظف مواطنون أثينيون في بلدان حليفة. وكانت مؤسساتهم مستعمرات زراعية وحرثية. كان كل معمر ملزماً بالخدمة العسكرية؛ وكانت كل مستعمرة

بالمحصللة حامية تكمن مهمتها الأساسية في الحفاظ على طاعة الحلفاء. إذن، فقد حلف ديولوس طبيعته كجامعة طوعية بين بلدان مستقلة ومتساوية. فتحول إلى إمبراطورية لأثينا، وصار أعضاءه ملحقات بها.

إننا نجهل تفاصيل سبعة عشر عاما من الصراع السياسي بين التجمعات الزراعية والعسكرية (الديموقراطية)، الصراع الذي بدأ في العام ٤٦٢، أي منذ وصول الديموقراطيين. يمكننا فقط أن نؤكد أنه كان ضاريا وتحول إلى مصلحة الديموقراطيين. تسنم سيمون رئاسة المعارضة. عاد من المنفى حوالي ٤٤٥، ومات بعيد هذا. وتلاه ثوسيديد، ابن مليدياس (ليس المقصود المؤرخ ثوسيديد). لكنه نفي هو الآخر في العام ٤٤٤ أو ٤٤٣، ومنذئذ سيطر الحزب الديموقراطي تماما حتى العام ٤٣٠. ومثل بيركلس، القاضي المتجدد الانتخاب، الذي تسنم السلطة خلال ١٤ عاما، حقبة معروفة باسم 'حكومة بيركلس'.

### حكومة بيركلس

بيركلس، ابن خانسيبوس، وسليل أسرة أرستقراطية غنية، من جهة أمه أحد أحفاد كليستين. بعض أصدقائه شعراء وفنانون موهوبون: الفيلسوف أنكسفور الذي لامس المادية عن قرب، سقراط، الشاعر التراجيدي سوفوكل وهيرودوت، "أب التاريخ"، الذي عاش في أثينا في هذه الحقبة والنحات فيلياس وكثير غيرهم. كان بيركلس يتمتع بنفوذ عميق في مجلس الشعب. وكان يعتبر خطيبا موهوبا. وحيد عصره في فن الحديث أو القص، وكتب ذاائع الصيت. في ساح القتال، كان يقود الجيش بحنكة وبطولة. وهو القائد الكمي، مع أنه أصغر من سيمون.

في حياته الخاصة، كان يدل أنه تقدمي، دون فكرة مسبقة. تزوج من أسبتريا، امرأة نبيلة من ميليت، يقال إنها كانت عاهرة. كانت جميلة، ذكية، ومتقنة. في قلب حمى الحياة السياسية، عرفت كيف تحيط نفسها بأوعى رجال عصرها. وكان أشهر أصدقاء بيركلس يرغبون في خوض نقاشات معها. كانت امرأة جديرة، صديقة طيبة ورفيقة أريبة لرجل الدولة هذا.

لم يكن بيركلس يمثل أقصى يسار الحزب البحري (الديموقراطي)، بل وسطه. كان يدافع عن مصالح الشرائح الوسطى في المجتمع: التجار المرتاحين، أصحاب الدكاكين،

الصناعيين، الملاك العقاريين الطليعيين الذين يمارسون في أرضهم زراعة كثيفة، فلاحين أحيوا الأرض التي دمرها الفرس لتعود تراكب متطلبات السوق، والذين اهتموا بالتجارة الخارجية.

هكذا يتحدث ثوسيديد عن بيركلس كرجل سياسي فيقول: "بفضل رقيه الشخصي، وعمق آرائه، ونزاهته غير المحدودة، كان بيركلس يمارس في أثينا نفوذاً لايجارى. بقي حراً وهو يقود الناس... وبكلمة، استمرت الديمقراطية باسمه؛ إنما بالفعل كانت حكومة المواطن الأول" (ثوسيديد، ٦٥، ٢).

ولحماية وحدة طبقة العبيد، عمل بيركلس وحكومته لإرضاء جزئياً، وعلى نفقة الدولة، المطالب المالية والسياسية لفئات المجتمع الدنيا. وتتسب لبيركلس مؤسسة الأجر لممارسة الوظائف الانتخابية، تدفع باليومية. والقضاة، مثلاً، يتقاضون ٢ أوبول ١، الحكام ٤، وأعضاء مجلس الخمسمائة، ٥ أوبول. ليس هذا كثيراً؛ إذ كان الحرفيون يتقاضون أحياناً أكثر من هذا؛ هكذا، يتقاضى "المقلعجي" دراخما واحدة، أي ٦ أوبول في اليوم. لكن بالنسبة للأسعار القائمة، لاتبدو هذه الأجور قليلة.

ففي العام ٤٥٧، اختير أحد العوام لأول مرة حاكماً، ثم فتح الباب لتولي كل الوظائف. وبمعنى آخر، مؤسسة الأجور هي التي أعطت الطبقات غير المالكة إمكانية مزاوله حق الانتخاب.

وعينت أجور للجنود، للملاحين وللضباط. المجذف، مثلاً، يقبض دراخما في اليوم، الضابط يقبض الضعف أو ثلاثة أضعاف. وكانوا يمارسون نهج التوزيع المباشر على مده. ويقبض المواطنون نقوداً (من ٢ أوبول إلى دراخما واحدة) ليشتروا مقاعد في المسرح، ويقدر أن ينفقوا هذا المبلغ كيف شاؤوا. وكان يحدث أن يوزع الخبز مجاناً ("هبات" مصر واليوسفور). وفي أيام بيركلس، وزعت أرض شاسعة على من يحتاجها، خارج أتيكيا مبدئياً في الدول التي تشكل جزءاً من الامبراطورية البحرية. كان لهذه المستعمرات التي قلصت عدد الناس الذين لايملكون أرضاً أهمية استراتيجية وتجارية أيضاً. معروف أن أكثر من ١٠ آلاف أسرة حازوا نصيبهم.

كما شرع بركلس بأعمال ضخمة عامة بهدف تشغيل العاطلين عن العمل والمحتاجين، وغير هذا من الأهداف. كانت الأعمال عالية الثمن جدا: كل *partheon* يساوي ٧ آلاف تالانت. يذهب القسم الأكبر من المبلغ للفنانين، البنائين، الصناعيين، الحجارين واليد العاملة البسيطة. لقد ساعدت كل هذه المبادرات الفلاحين المرهقين (سكان المستعمرات، مثلا)، وعمال الأسطول وشرائح أخرى.

### دستور أثينا

لقد ارتدى دستور الديمقراطية العبودية في أثينا في هذه الحقبة شكله الأتم. السلطة العليا بيد مجلس الشعب المسؤول عن عدد كبير من المسائل. كما يدرس ويحل كل القضايا المرتبطة بحكومة الدولة.

يختار مجلس الشعب برفع اليد عشرة قضاة مكلفين بمهام خاصة (قيادة الجند، الدفاع عن حدود أتيكيا، تعمير السفن، إدارة بيرى *piree*، إلخ). ويتم توزيع هذه المهام برفع اليد أيضا. يراقب مجلس الشعب نشاط القضاة. إن اتصف سلوك أحدهم بالصفة الظنية، "تقاضيه المحكمة التي... تثبت العقوبة أو تعين مبلغ الغرامة". (أرسطو، دستور أثينا، ٦٣، ٣). وينتخب قادة الجيش، والأشخاص المهتمين بتربية الشباب (١٨-٢٠) أبناء المواطنين المتمتعين بالحقوق المدنية، وتدريبهم عسكريا، و برفع اليد أيضا. ويسمى مجلس الشعب موظفي المال، ومفتش الري، إلخ. يفضل الأشخاص الأكفا، ويستبعد الأغنياء القادرين على تجنيب الدولة الخسائر الناجمة عن خطئهم. ويراقب مجلس الشعب بسهولة كل ممثلي السلطة، لأن جهازه ضخم وله الحق في مقاضاة كل من اعتبر جانبا.

ويضطلع مجلس الشعب أيضا بالمهام التشريعية. لكل عضو الحق في إعداد مشروع قانون. ويشترك المجلس كله بمناقشة هذه المشروعات التي، بعد قبولها لدى المجلس، تحال إلى مجلس الخمسمائة. وبعد هذا يدرس مجلس الشعب مرة ثانية المشروع الذي لم يصادق عليه مجلس الخمسمائة، مع مراعاة رأي هذا الأخير. وبعد انتهاء النقاش، يطرح القانون على التصويت للمرة الثانية ويصير مبرما، ولا يصير ساري المفعول إلا بعد تصديقه من لجنة خاصة في محكمة الجنايات. أفضت هذه السنة وسنة الشكوى من خرق القانون أو اتهام من خرقة، إلى توطيد النظام الديمقراطي.

وليس مجلس الخمسمائة وهو أحد أجهزة الدولة أقل أهمية. ينتخب أعضاؤه بالقرعة.



تقدم كل وحدة إدارية مرشحها نسبة لعدد السكان، بحيث يكون لكل قبيلة ٥٠ ممثلاً. ونادراً ما يجتمع المجلس بنصابه الكامل. تنقسم الدولة كان إلى ١٠ ولايات، حسب عدد القبائل. وخلال السنة، يجتمع الولاة كل بدورها ويقيمون مجتمعين أكثر من شهر (٣٦-٣٩ يوماً). جعلت هذه العادة من المجلس مؤسسة تعمل باستمرار. يمتلك المحافظون مسكناً خاصاً بهم، ويأكلون على حساب الدولة. وفي كل يوم ينتخبون رئيساً جديداً. وفي القرن الخامس كان يرأس هذا الرئيس مجلس الخمسمائة ومجلس الشعب. ويستلم مفاتيح بيت المال ودار المحفوظات (الأرشيف)، وكذلك خاتم الدولة.

يجسد مجلس الخمسمائة الدولة في العلاقات الدبلوماسية؛ وهو الذي يستقبل السفراء ويقدمهم لمجلس الشعب. ويتمتع بحق مفتوح في توقيف المجرمين الكبار وتسليم شؤونهم للمحكمة أو لمجلس الشعب، إن كانت عقوبة جريمتهم تتجاوز صلاحية محكمة الجنايات. يضبط المجلس آراء الأعضاء. فمن حقه تحقيق الحقوق البدنية وتدقيقها وكذلك مناقب الأعطاء والولاة. يراقب الولاة تنفيذ قرارات مجلس الشعب ويسوسون اقتصاد الدولة، يفتشون الأعمال العامة، يسهرون على تربية الشباب، يجيبون عن حالة الأسطول ومستلزماته. وفي المدن، يمارس الولاة مهام الأمن ويدعون أعضاء المجلسين للاجتماع، ويقررون جدول أعمال جلساتهم. إن مجلس الخمسمائة ليس فقط الهيئة التنفيذية لمجلس الشعب، بل أيضاً مكتبه.

بعد تأسيس منظمة تضبط عدم خرق القانون وتتهم من خرّقه وإصلاح مجلس الشيوخ، أخذت محكمة الجنايات أهمية واسعة في أثينا. وفي أوج الديمقراطية، انتخب الهلياست ٢ بالقرعة. كانوا ستة آلاف (ستمائة لكل قبيلة)، منهم ألف عضو احتياط، ويوزع الخمسة آلاف، بالقرعة أيضاً، في اللجان القضائية. في أثناء الجلسات، يتكلم المتهم والمتهم، وبعدئذ يقترح الهلياست اقتراحاً سرياً، بواسطة حجارة صغيرة: حجر سليم للتبرئة، وحجر مقوب للاتهام.

في هذه الحقبة الزمنية، كانت المؤسسات القديمة، مثل كلية الولاة ومجلس الشيوخ، ما تزال قائمة، لكنها فقدت أفضليتها. كانت مهد الولاة الرئيسة تدقيق الشؤون القضائية ورفعها إلى المحاكم. ويهتمون أيضاً بالشؤون الدينية (تنظيم الاحتفالات، وواجبات

الأكليروس، إلخ). ومنذ إصلاح إيفيالت، صار مجلس الشيوخ ينهض، كما قلنا، بمهام المحكمة التي تحاكم القتلة والفوضيين ومنتهكي الحرمات.

كان هذا هو نظام أثينا في القرن الخامس ق.م. كانت أثينا "...دولة ذات شكل كلي الإلتفان: الجمهورية الديمقراطية..٣٠" كانت هذه الديمقراطية العبودية خطوة إلى الأمام بالنسبة للدول الأرستقراطية المتخلفة في اليونان واستبداديات الشرق. فقد عكس الدستور الأثيني نظاما اجتماعيا جديدا كان، بالنسبة لعهد، تقدما.

لكن لايجوز أن نبالغ بأهمية الديمقراطية القديمة، التي كانت ديموقراطية رقيق. ففي هذا المجتمع، كان السكان الأحرار يشكلون شريحة صغيرة من الرعايا العاملة، فالمنتجون الأهم والأوسع هم العبيد. ولم يتمتع هؤلاء بأي حق سياسي، وكانت تضطهدهم مؤسسات الدولة التي كانت تحارب كل طيف مقاومة يبدونها. وفي أتيكا، حيث يناهز العبيد عدد الأحرار، كانوا محرومين أيضا من أي حق إنساني. فالنساء اللواتي يشكلن قرابة نصف المجتمع الحر، وكذلك الأجانب الأجراء، لم يكونوا أحسن حالا من الزاوية السياسية. والمحصلة، كان سدس أو سبع سكان أتيكا فقط أصحاب حقوق.

كان دستور أثينا يغدق على المدينة على حساب حرمان الريف. كان مجلس الشعب يقيم كل صباح على بنيكس<sup>٤</sup> في أثينا. وكان التجار، الحانوتيون، المأجورين، المياومون وباقي المدينين يستطيعون حضور هذه جلسات. أما الفلاحون، بشكل عام ماكانوا ممثلين أولا يرسلون إلى الجمعية سوى عدد صغير من المندوبين، لأن الحضور يخسرهم يومين أو ثلاثة أيام، تكون أحيانا في أخرج أيام العمل الزراعي. لذا ماكان يتجاوز عدد المشتركين ألفين أو ثلاثة آلاف، من أصل ٣٥ ألف مديني حر في أتيكا. ولا بد من ذكر نقیصة أخرى في الديمقراطية اليونانية: حسب القانون، كان جميع رعايا الحاضرة مخولين استلام أي وظيفة في الدولة، ولما كانت هذه الوظائف غير مأجورة، فلم يدخلها سوى الأغنياء. ورغم أن بيركلس عين أجورا للمحلفين لم يكن أعضاء مجلس الخمسمائة والولاية والستراتيجيون مأجورين والحصيلة توظيف الأغنياء.

٣ - ف. أنجلز. أصل الأسرة، الملكية الخاصة والدولة. ص ١١.

٤ - هضبة في غرب أثينا، حيث تجتمع الجمعية الوطنية.

## السياسة التوسعية لديموقراطية أثينا العبودية

كانت ديموقراطية اليونان، البعيدة عن اتباع أهداف تحررية، تتوق إلى التوسع، إلى استغلال عبيد جدد وحلفاء جدد.

وكانت أثينا تأخذ مداخيلها من مرتبات الجمر، المرفأ، السوق، العدالة، التجارة، النخاسة، الرسوم المفروضة على الأجانب، والأمالك العامة. وكانت بعض حاجات الدولة تؤمن من الطقوس الدينية، التي كان يؤديها الأغنياء. وكانت على أنواع: *la trierchie*، مثلاً، أي التزام تجهيز مركب حربي؛ *choregie*، مبلغ ينفق لتطويق وإعالة جوقة تتشد في التمثيليات الدرامية، وسواها. وفي حال الضرورة، يفرض مجلس الشعب ضريبة خاصة، يؤديها سكان المدينة الذين يتجاوز دخلهم ٢٠٠٠ دراخما. على ذلك، لم يكن الدخل القومي ٤٠٠ تالنت يكفي لتغطية نفقات الجمهورية المتزايدة. ولتعديل الميزان، الميزانية الفدرالية (قاربة ٦٠٠ تالنت بالعام) تنصهر نهائياً مع خزانة أثينا التي تمتلك موارد مشتركة وتتفقها على رعاياها.

في أيام بيركلس، تقلصت عدوانية السياسة الخارجية لأثينا بعض الشيء، إنما بقيت سياسة امبريالية تستدعي حرباً دامية جديدة. كان "العدوان السلمي" لبيركلس يتميز بالأهداف التالية: (١) تعزيز القدرة البحرية لأثينا بتوسيعها بالطريق الدبلوماسي (اتفاقات، وغيرها)؛ تأكيد نفوذها في شرق وغرب عالم اليونان (بونت-أوكسن، إيطاليا، سيسيليا) بمعاهدات تحالفية. لم تكن هذه السياسة تدعم التجارة والطاقة الحربية لأثينا فقط بل أيضاً لاستمرار تفوقها في العام الهليني.

وهكذا، بعد معاهدة السلم مع الفرس، احتل مستعمرون شرسونيز من ثراس، ليموس وأميروس، الأمر الذي فتح بونت-أوكسن وسوق ستريمون في ثراس، الإقليم الغني جداً بثرواته الطبيعية، وكذلك أراضي وحدات إدارية فدرالية، خنقت محاولات تمرداها على يد حملات تأديبية. قاد بيركلس إحداها شخصياً. وقد رفض حكام ساموس وساطة أثينا في نزاعها مع ميليت. فأتاها بيركلس على رأس ٤٠ مركباً ثلاثي المجاذيف، قلب السلطة وزرع في ساموس نظاماً ديموقراطياً. وعندما عاد المعمرون الذين تمكنوا من الهرب إلى ساموس بمساعدة الفرس لاستعادة النظام القديم، هاجم بيركلس مجدداً هذه الجزيرة وبعد تسعة أشهر من الحصار، أكره المتمردون على الاستسلام. وأعيدت الديموقراطية. فاضطر الساميان لتحطيم استحكاماتهم، وتسليم أسطولهم ودفع الضريبة.

وفي العام ٤٣٧، توجه جحفل ضخم من الأثينيين بقيادة بيركلس نحو بونت-أو كسن. هدفت هذه الحملة الدبلوماسية فرض هيبة القوة الأثينية وضم المستعمرات اليونانية في حوض البحر الأسود إلى فدرالية أثينا البحرية، لم تكن النتائج بسيطة: فقد ألحقت سينوب بالاتحاد الفدرالي، وكذلك نيمفي (مدينة صغيرة على البوسفور السومري)، وعدة مستعمرات على الشاطئ الغربي لبونت-أو كسن. وعلى أرض بعض التحالفات (بخاصة سينوب) أقيمت مستوطنات. وهكذا امتلكت الإمبراطورية الأثينية نقاط ارتكاز على شط البحر الأسود.

ولترسيخ نفوذها في إيطاليا التي تتاجر معها منذ زمن بعيد، أقامت أثينا، بمبادرة من بيركلس، مستعمرة ثوريوا، ليس بعيدا عن سيبارس، التي خربها الكروتونيات. وانتسبت هذه المستعمرة ليس فقط لأثينا بل لمجمل العالم الهليني. وأرسل إليها معمر من مختلف مناطق اليونان، كثير منهم رجال مشهورون: الفيلسوف أمبدوكل، من أغرمينت في سيسيليا، الفيلسوف بروتاغورس من أبدير في ثراس، والمؤرخ هيرودوت من هكرناس. اشترك بروتاغورس بإعداد شريعة للحاضرة الجديدة. ووضع المعماري الشهير هبوداموس مخططا للمدينة بشوارع مستقيمة، تتقاطع بزوايا قائمة، بحيث يتوزع الضوء على كل المباني. كان مؤسسو المدينة يظنون أنهم بنوا مدينة-دولة نموذجية.

فيما بعد انفصلت ثوريوا عن أثينا وقبلت قضية خصومها. ردا على هذا، وقع بيركلس اتفاقات مع جزر زازينت وسفالينيا مع مدن ساجيت وليونتوا في سيسيليا، مع ريجيون ونابولي في إيطاليا، أخيرا مع جزيرة كورسير (٤٣٣). بهذه الطريقة، أمنت أثينا طريقا للتجارة مع الغرب.

لقد لاقت خطة بيركلس في توطيد الهيمنة الأثينية على كل اليونان تعبيرها في سياسة تضم كل الهلنيين. حاول عقد مؤتمر لكل اليونان توحى حل القضايا التالية: (١) خلق خزانة لهيلاد لترميم، حسب مخطط محدد، كل معابد اليونان التي دمرت في أثناء الحروب (الميدية؛ ٢) قمع القرصنة (٣) حماية السلم بين دول اليونان.

لكن المؤتمر لم يعقد، بسبب معارضة إسبارطة. وبعد هذا، اقترح بيركلس تعميم عبادة إيلوزيس *Eleusis* وإن تنفق أولى ثمار موسم كل البلاد الهيلينية على الإلهات الأيلوزية ديمتر وكورا. وهكذا تلتزم كل حاضرات اليونان بأفضلية العبادات الأثينية. لكن

واحدة لم تقبل الاقتراح. فشلت كل محاولات أثينا لتدعيم نفوذها السياسي عن طريق ترسيخ هيمنتها الدينية.

وفي "قرن بيركلس" بدت أثينا عاجزة عن فرض هيمنتها السياسية على اليونان، لكن نفوذها التجاري بلغ الأوج. إن سيدة البحر، أثينا، تصير المركز التجاري لليونان، وبيريا مرفأها الأغنى.

### أثينا، المركز الثقافي للعالم الهليني

في أواسط القرن الخامس، صارت أثينا أيضاً المركز الثقافي للعالم الهليني. "كان عصر بيركلس قمة تفتح وازدهار اليونان... يقول ك.ماركس. كان يأتي أثينا من الدول الهلينية الأخرى العلماء، الشعراء والفنانون: الفيلسوف أنكساغور من كلازمين (أيونيا في آسيا الوسطى)، السفسطائي بروتاغورس، ابن إدير في ثراس، السفسطائي غورجياس ابن ليونتتوا في سيسيليا. وديموكريتس ابن أبدير، الفيلسوف المادي الكبير ابن العصور القديمة، الذي زار كل الأرض اليونانية، وعاش أيضاً في أثينا. هيرودوت ابن هلكرناس، "أب التاريخ"، حيث حصل على حق المواطنة. والشاعر بندار والنحاس ميرون، مبدع "دسكوبول"، الاثنان الأخيران من بيوتيا، عاشا طويلاً في عاصمة أتيكيا؛ وفيدياس، سقراط، أخيل، سوفوكل، أوريبيد، أرسطوفان، المؤرخ العظيم توسيديد، ابن أولوروس، الممثل الكبير للثقافة الهلينية، كانوا قد ولدوا في أثينا.

لم يكن الفن الأثيني في أوج ازدهاره حكراً على صفوة الأغنياء مالكي العبيد. ففي "عصر بيركلس"، كان يحتفل في أثينا بأربعين عيداً في العام (كان أهمها الأعياد العظيمة لكل الأثينيين، والديونيز والينيين). فضلاً عن الأعياد الدينية، كان ثمة احتفالات فنية، ومباريات رياضية. ولقد حازت هذه الأخيرة من أيام برسترات الصفة الوطنية-القومية، بخلاف المنافسات العسكرية البحت التي كانت تجري في أيام شريحة من النبلاء. هكذا، كان الديونيز يقيمون تمثيلات مسرحية تدوم ثلاثة أيام. وكتب سرفوكل، أخيل، وأروبيد تراجيديات لهذه الأعياد، وكتب لها كراتتوس، أرسطوفان وغيرهما من كتبة الملهاة. وتصدر لجنة من عشرة أعضاء أمراً بالأوسمة. كان الأغنياء يضطلعون بالإنفاق على هذه التمثيلات، وكان هذا نوعاً من الخل. فيخضع مضمون الأعمال الفنية لنوع من المراقبة غير المباشرة من قبل الأغنياء.

إن أعمالاً إنشائية ضخمة صنعت من أثينا واحدة من أجمل مدن اليونان. فقد حظي مرفأها، البيري، بتحصينات لا تطل، من حواجز وأرصفة جديدة. وأهراءات ومخازن للقمح. بين "الجدران الطويلة" التي انتهت في العام ٤٥٥ والتي تصل مرفأ بيري بأثينا، أنشيء، بأمر بيركلس، جدار ثالث، يحصن المدينة والمرفأ تحصيناً أبدياً. وصار الأكروبول بعد الترميم مركزاً دينياً وثقافياً.

صارت مداخل المعابد، العمل التحصيني الذي يوصل إلى الأكروبول، نصير مجموعة أعمدة رائعة تتصف بالزهد والرزانة، ملتصقة بأروقة تزدان جدرانها برسوم ومنحوتات تستدعي الماضي الماجد لمدينة أثينا، تمثل إحداها معركة مراتون. وفي داخل الأكروبول، بين الصروح، امتدت المروج، وبسقت الأشجار، والأنصاب المرمرية والبرونزية وإلى يسار المداخل، على قاعدة عالية، انتصب تمثال لأثينا (الحامية). الإلهة تتقدم مسلحة، تأخذ بيدها رمحاً ترى نهايته اللامعة من بعيد وتقود البحارة إلى المرفأ (البيري).

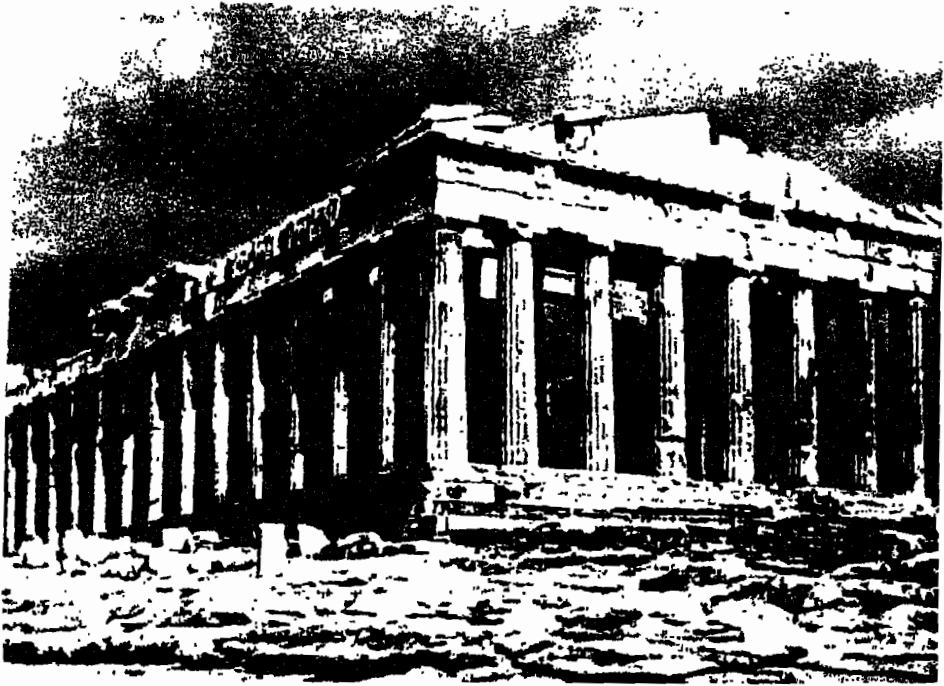
لكن الأبدية الأبرز في أثينا هي البارثيون *Parthenon*، إبداع المعمارين إكتيوس وكلكراتس، بني حسب الأسلوب الدوري العظيم، المغنتي بعناصر أيونية تسير أذواق المواطنين الجدد. وبكلمة كان المظهر الذي تفرضه الصروح الدورية يرمز إلى الطاقة المنبعا للجمهورية الأثينية.

وحسب التقليد الأيوني. وبعض الزخارف والمنحوتات البارزة التي أبدعها فيدياس- النحات الشهير. وفي داخل المعبد، ارتفع نصب عاجي وذهي، من عمل فيدياس. لتكرين فكرة عن أبعاده (١٤م)، يكفي أن نعرف أنها تضع على راحة يدها اليمنى صورة للنصر بقامة إنسان. يشكل هذا النصب جزءاً من ثروة الدولة (لنه يساوي قرابة ٢٠ مليون روبل- ذهب). وأقاموا مؤخراً في الأكروبول إرشتي *Erchtee*، (ملك خرافي لأتيكيا) ومعبد آخر، أصغر، هو معبد الظفر، الاثنان طرفتان من الأسلوب الإيوني. وعلى السفح الجنوبي الشرقي للأكروبول، بني الأوديون *Odion* (معبد الغناء)، للمباريات الصوتية. هوذا رأي بلوتارك حول الآثار التي بنيت في أيام بيركلس: "ماكان ينتهي كل من هذه الأبواب حتى

---

٥ - أسلوب استخدم في بناء وزخرفة المعابد اليونانية، والمتصف بالزهد والرصانة.

يأخذ بروعته طبيعة القدم؛ على ذلك إنها الآن تجسد الطلاوة والألق الحديث، روعة الشباب، حيث تتألق هذه الزهرة الجديدة التي تحافظ على انفعالات الزمن! لكن الكل غال جدا. البراثيون، مثلاً، يساوي كما قلنا، ٧ آلاف تالانت، أي سبع مرات ميزانية الدولة. لقد توجب على الدولة الحليفة لآثينا أن تغطي كل هذه النفقات، الأمر الذي كان يسعر غضبها.



الباريتون (القرن الخامس قبل الميلاد)

## الفصل الثاني والثلاثون

### حرب البلوبونيز

#### أسباب النزاع. حرب أرشداموس ٦

على ذلك، كان ازدهار أثينا عرضياً مؤقتاً: إن حرباً جديدة ضارية بين إمبراطورية أثينا البحرية والجامعة البلوبونيزية (٤٣١-٤٠٤) وضعت حداً لذلك الازدهار. شملت هذه الحرب، المسماة البلوبونيزية، تقريباً كل اليونان وحتى بعض الدول الأخرى: مقدونيا، ثراسيا وإيران. يشير ثوسديد أن هذا النزاع أثار حركة واسعة بين أغلب الشعوب وأنه كان الأعرق من كل ما سبق. فتناحرات الحياة الاجتماعية والسياسية في الدول اليونانية تسارعت وتفاقت بوضوح في أثناء السبعين سنة من هذا النزاع الأهلي وأفضت باليونان إلى أزمة حادة.

كان وراء حرب البلوبونيز أسباب سياسية واقتصادية عميقة جداً أعلنت أزمة في مختلف الدول لابل في مجمل المجتمع الإغريقي. يجب أن نذكر، أولاً، ألا مهرب ولا بد من التصادم بين أثينا واسبارطة، كنتيجة لنزاعهما من أجل الهيمنة. لقد طمعت إسبارطة بنجاحات أثينا، بخاصة حينما حاولت الدولة الأثينية بسط نفوذها ليس فقط في البحر، بل أيضاً على اليونان القارية. كان التطاحن من أجل وسط اليونان قد أثار الحرب الأولى، انتهت بصلح الثلاثين سنة أو صلح بيركلس: يتخلى الأثينيون عن بسط نفوذهم على القارة وتتعترف الجامعتان بحدودهما السابقة. طبعاً، ليس لهذه التسوية أن تحل نزاعاً حاداً بين دول تساند أنظمة لا لقاء بينها. فبينما كانت أثينا تعزز الديموقراطيين، كانت سبارطة تبني نظاماً أرستقراطياً رجياً. كل منهما يهدم قاعدة الآخر ويسمر التناحرات السياسية. فالنزاع بين أثينا وسبارطة عقد الصراع التجاري الأثيني مع كورنتيا وميغار اللتين



تشكلان جزءا من الجامعة البلوونيزية. وصارت كورنثيا عدوة أثينا الأعند والأشرس، بعد شروع أثينا ببسط نفوذها على مدن الشاطئ الغربي لشبه جزيرة البلقان، الواقعة على الطريق بين إيطاليا وسسليا. ولما كانت التجارة قد أخذت مدى أوسع منذ الحروب الميديّة، تفاقم الخصام على الأسواق الغربية. وكان الباعث الأهم لحرب أثينا ضد الجامعة البلوونيزية هو بالضبط التزام التجاري بين أثينا من جهة، وكورنثيا وميغار من جهة أخرى.

كانت الذريعة الأولى للحرب تدخل أثينا في صراع كورسير وكورنثيا من أجل "أبدا من" مدينة الأدرياتيك الغنية السوق. ساندت أثينا كورسير وأرسلت أسطولها ضد الكورنثيين، وكانت النتيجة الأساسية لهذا الدعم انضمام كورسير، الشهيرة بثرواتها وأسطولها، إلى الاتحاد البحري الأثيني. فأتسع الصدام بين أثينا وكورنثيا. وتبدت الذريعة الثانية أيضا في كورنثيا. كان سبب التصادم مدينة بوتيديا في شبه جزيرة شلسديك. فقد وجدت كورنثيا نفسها مضطرة للانضمام إلى الفدرالية البحرية، الأمر الذي صعد النزاع بين أثينا وكورنثيا. وقد جعل ارتباط بوتيديا المزدوج منها حلبة الصراع، المتمثل بالمطالب الأثينية التي، خوفا من ضياع بوتيديا، تتجلى في رفض الموظفين الكورنثيين وتدمير الاستحكامات التي تحمي المدينة من جهة البحر.

ردا على هذا، انفصل البوتيديون عن الاتحاد، بتشجيع من الكورنثيين، وحذا حذوهم حلفاء أثينا في شلسديك وتمردوا. فسير الأثينيون قوات ضخمة بريّة وبحريّة. وكانت الذريعة الثالثة للحرب قرار الجمعية الوطنية الأثينية (٤٣٢)، منع الميغاريين، حلفاء كورنثيا، من عبور مرافئ الاتحاد، الأمر الذي ينزل بتجارة كورنثيا ضربة قاصمة.

طلب اللاسدمونيون، بسبب شكاوى حلفائهم، أن يرجع الأثينيون عن قرارهم ودعوا لاجتماع ممثلي دول الجامعة البلوونيزية. وكان الكورنثيون أضرى أعداء أثينا في هذا النزاع. ادعوا أن "استبداديت"ها تهدد كل اليونان ودعوا إلى الحرب من أجل "إنقاذ الهلليين وتحريرهم من النير الأثيني. وقد وقف أكثر أعضاء الجامعة إلى جانب الحرب: استعادة استقلال الهلليين من استعباد الأثينيين، كان هذا شعار النزاع؛ استغلت إسبارطة المزاج القتالي لحلفائها، وأرسلت إنذارا نهائيا إلى أثينا باسم الجامعة البلوونيزية.

وفي أثينا، حث بيركلس، الستراتيجي الأول ورئيس الدولة، مواطنيه على عدم ترك

الساحة البلوبونيزية وعلى إعلان الحرب. يرى البعض أنه كان مدفوعا بدوافع شخصية. ففي تلك الحقبة احتد التناقض ضد بيركلس. فطالب الديموقراطيون الأكثر راديكالية، بإشراف كليون ، مالك إحدى المدايع، بزيادة أجور الموظفين وإعانات الدولة، وكذلك بسياسة غزو أكثر حزما وإصرار. وكان خصم بيركلس أيضا اليمين الذي يريد الصلح مع إسبارطة وتقليص التدابير المتخذة لصالح الشعب. فما أن تزعزعت مواقع بيركلس، حتى بدأ الهجوم لنزع الثقة منه. حتى أصدقاؤه، النقاش وقائد الأعمال فيدياس، والفيلسوف أنكسغور وحتى زوجته، أسبزي افتروا عليه وقاضوه. ربما كان بيركلس يعمل بدافع شخصي، من بين الدوافع، لكن الأساسي هو أن الديموقراطية الأثينية، التي تدافع عن مصالحها، اهتمت بإلغاء مزاحمة كورنثيا وميغار، وتطور التجارة والصناعة وبالمحصلة أرادت الحرب. لذا لم ينتظر مبعوث إسبارطة الجواب وغادر أتيكيا وهو يعلن: "سيكون هذا اليوم عند اليونان يوم حلول أفدح الآلام." (ثوسيديد، ٢، ١٢). فسعرت الأوساط المتنفذة الأثينية النزاع، عوضا عن البحث والسعي.

كانت خطة هجوم بيركلس تقوم على القتال في البحر، مستفيدا من تفوق أثينا البحري؛ أما أرض أتيكيا، لم يهتم بالدفاع عنها ورأى خطأ خوض معركة في البر مع البلوبونيزيين رغم أن جيشهم كان أضخم من جيشه. "إن ما يجب أن يحزننا، ليس خسارة البيوت والأرض، بل الرجال"، يقول بيركلس في خطاب استشهد به ثوسيديد (١، ١٤٠-١٤٤). فقد أهمل تماما مصالح الشرائح الزراعية وبنى آمالا عراضا على الطاقة البحرية للاتحاد. معتمدا على ضعف العدو في البحر وافتقاره للنقد. لكنه لم يحدس المضاعفات الداخلية والخارجية التي ستعطي الأحداث دورا غير متوقع.

سميت المرحلة الأولى من الحرب (٤٣١-٤٢١) حرب أرشدموس، نسبة لاسم ملك إسبارطة. بدأ النزاع باعتداء الاتحاد البيوتي على بلاتيا، حليفة أثينا. احتل العدو المدينة لأن الأرستقراطية فتحت له أبوابها. ومنذ هذه المعركة، راح ينجم بكل وضوح تعقيد المواقع القتالية والصراع الاجتماعي الحاد، الذي وسم الحرب كلها. فقد بدأ تدخل البلوبونيزيين بقيادة الملك أرشدموس بغارات مدمرة على أتيكيا. كان هذا في وسط الصيف، وكان القمح ينضج. دمر الغزاة المحصول، اقتلعوا الزيتون والكرمة، ونهبوا البيوت. احتل سكان الريف المدينة. بناء على اقتراح بيركلس، وأخلت البهائم من الجزر. وفي هذا الوقت، كان

الأسطول الأثيني يعمل في البحر ويسبب النكبات للبلوبونيزيين. وقاتل جزء من المراكب (١٠٠ مركب ثلاثي المجاذيف) على طول شواطئ بلونيز، فدمروا السواحل وشلوا التجارة الكورنثية؛ وحاصر لواء آخر بوتيديا في شلسديك. وبقي الأثينيون لبعض الوقت متفوقين.

لكن وضع الأثينيين المتجمهرين في أثينا راح يسوء من يوم إلى آخر. كان الخطأ في إهمال مصالح الريف. والمدينة تغص بالسكان، واللاجئون يقطنون الأكواخ، في الساحات العامة، في أبراج الاستحكامات وحتى في المقابر.

كان تدمير التراب الوطني، المرئي من أعلى الأكروبول، يغضب الشعب (بخاصة الفلاحين) الحاقدين على صانعي الحرب، لكن بيركلس، إخلاصا لخطته، كان يمنع الأثينيين من الانتقال للهجوم. تفاقم الوضع، انتشر الطاعون الوافد من مصر بسرعة عبر المدينة. رسم توسيديد لوحات رهيبة لهذا الوضع (٢، ٤٧-٥٤). كان الناس يموتون في الشوارع، حتى نابت المدينة بالجثث التي لم يتوفر الوقت لرفعها. وانهاled الغضب الشعبي على بيركلس، الذي اعتبر مسؤولا عن كل النكبات. فدعم الريفيون بنشاط أنصار وقف المعارك. حاول بيركلس تحييد هذه المساعي، بإقناع مواطنيه بأن عليهم أن يتغاضوا عن القلق الشخصي من أجل سلامة الدولة. يبدو أن مصلحة الدولة بمجملها كانت أهم لدى المواطنين من ازدهار بعض الأفراد في دولة في حالة انحطاط (توسيديد، ٢، ٦٠)، لكن الغضب كان يستعر ونفوذ بيركلس يتراجع. وفي العام ٤٣٠، لم يجدد انتخاب بيركلس الذي مارس مهامه كقائد استراتيجي، ومات بالطاعون في العام نفسه. يبرهن سقوط بيركلس أن سياسته المعتدلة لم تعد ترضي الأثينيين في حال استعارة التناحرات بين السكان المدنيين الراديكاليين وأبناء الريف المحافظين. عامان بعد موت بيركلس، كان كليون يقود التشريحة الرديكالية، التي لها الأغلبية في الجمعية الوطنية. وكان يقود المعتدلين نيسياس، أحد أغنياء العبيد.

لنقد قدمت لنا شخصية كليون بشكل هازل. يعلل هذا بداية أن توسيديد، أرسطو، بلوتارك، أرسطوفان الذين وصفوه لنا، كانوا معتدلين ولايتعاطفون مع الديموقراطية الراديكالية. توسيديد يسمي كليون "المواطن الأسفه". وأرسطوفان، في ملهاته، الفرسان، تمتع بأمر وصف عيوبه؛ ورأى أرسطو "أنه أفسد الشعب أكثر من أي شخص آخر بنزقه وحدة

مزاجه". على هذا، فقد كان قائدا مستقيما واسع النشاط والحيوية بين شريحتي الديمقراطية اليسارية، التي كان لسان مصالحها.

أما نيسياس، خصمه، كان يتمتع بدعم الأغنياء والأرستقراطيين. يصنفه بعض المحافظين مثل أرسطو بين أفضل قادة أثينا السياسيين. لكن بلوتارك، العدو الأزرق لكليون، يشير لدى مقارنته بنيسياس، أن هذا الأخير كان خائفا، يسهل ثنيه عن الإقدام، متطيرا، بدون مواهب متفردة. ترجع شعبيته إلى سلوكه الذرائعي.

لقد خاض الحزب الراديكالي، بقيادة كليون، الحرب بالمعية وجراة. وشن الأثينيون عمليات في البر والبحر.

وبقيادة قائد قادر، ديموستين، احتلوا بيلوس، الجهة البحرية من مسينا، لتحريض فقراء مسينا على الانتقال إلى حزبهم. وبولوج هذه المنطقة الآلهة بالفقراء بخاصة أنزل الأثينيون ضربة إلى النقطة الأكثر حساسية في الدولة السبارطية. لذا سارع السبارطيون إلى محاصرة بيلوس عن طريق البر، ومركزوا فيها أسطولهم، واحتلوا جزيرة سفاكتري، الواقعة قبالة بيلوس، وأرسلوا إليها أكثر من ٤٠٠ جندي. ووجه إليها الأثينيون أيضا أسطولهم، الذي تصدى للبلوبونيزيين. استلم كليون نفسه القيادة، وطوق سفاكتري بمساعدة ديموستين، وفرض الاستسلام على السبارطيين، وأخذ الجنود الموجودين في الجزيرة رهائن، ووضع شرط على البلوبونيزيين عدم مهاجمة أرض أتيكيا، وإلا نبحت الرهائن. وبدأ كليون العائد إلى أثينا مكللا بالمجد، سياسة هجومية واسعة المدى: احتل المرفأ الميغاري والنميسيا، وجزيرة سيثير، وأرسل حملة غازية إلى سيسيليا. لكن هذه العمليات كانت تتطلب نفقات ضخمة. فتوجب رفع الضرائب على أعضاء الاتحاد (٦٠٠-١٠٠٠ تالانت). فتشوشت العلاقة بينهم، الأمر الذي كان شؤما على دولة أثينا. وفي العام ٤٢٧، انفصلت ليسبوس بمساعدة اللاسدمونيين عن الاتحاد. واضطرت مدينة مثلين، مركز التمرد على الأثينيين، على الاستسلام أما القوات الأثينية بعد حصار طويل. ولم يستطع الأثينيون أن يجمعوا حلفاءهم إلا بالإرهاب.

وفي العام نفسه، نشب عراك مرير بين الأرستقراطيين والديموقراطيين في جزيرة كورسير. كان وراء هذا العراك الكورنثيين الذين، ليفصلوا كورسير عن أثينا، دعموا الأرستقراطية. ونشبت معارك دامية في الشوارع، اشترك فيها النساء والعبيد. "لقد أرسل

كلا الطرفين رسلا إلى الأرياف ليدعموا العبيد واعدن إياهم بالحرية، وانضم أغلبهم الشعب، كما يقص ثوسيديد (٧٣،٣). وتسعر الصراع الطبقي في الدول المتحالفة، بتشجيع البلوبونيزيين.

قد أثار انقضاى الأثينيين على البلوبونيز تعقيدات داخلية في سبارطة. ولتحويل انتباه العدو، دعمت اسبارطة، من جهتها، التمردات بين أحلاف أثينا. وبهذا الهدف وجه السبارطيون الحرب إلى الساحل الشمالي من بحر إيجه. حيث يوجد عدد من مدن الاتحاد، كان أهمها بوتيديا، أولينث وأمفولس؛ كان البلوبونيزيون يأملون تفكك حلفاء أثينا. ولم يكونوا خاطئين. فقد تحقق مشروعهم بغزو المستعمرات الأثينية على شواطئ بئراسيا، بفن قتالي حاسم وماهر، بقيادة الشاب السبارطي برازداس. وعلى رأس فوج من المتطوعين اجتاز بجسارة بيوتيا، وثيرساليا وتمردت على أثينا مدن شلسديك.

تمت الأحداث الحاسمة لهذه المعركة أمام أمفولس، المستعمرة الأثينية التي انتقلت إلى العدو. احتل برازداس المدينة بمساعدة أبنائها. كان المؤرخ ثوسيديد هو الذي يقود آنذ (في العام ٤٢٤) اللواء الأثيني قرب شواطئ بئراسيا. ولم ينجح بالحفاظ على المستعمرة، الأمر الذي جعل أثينا تنفيه. وتضع محله كليون قائد الجيش الأثيني، لتصلح الوضع. وفي العام ٤٢٢، انتهت معركة أمفولس الضارية بهزيمة قاسية للأثينيين (قضى فيها القائدان كليون وبرازداس). واتسع مدى التمرد في البلدان المتحدة.

أثارت الهزائم العسكرية الرأي العام الأثيني ضد حزب الحرب ووسعت نفوذ حزب الصلح، نيسياس. وفي العام ٤٢١ عقد صلح نيسياس الذي رسخ الوضع الراهن. وفي ملهاته "الصلح"، التي كتبت في نفس العام، يرفع أرسطوفان عاليا فرحة الحياة السلمية؛ وعوض الرمح "الملعون"، ليؤخذ المعول لغرس الكروم والزيتون. إن إهمال مصالح الفلاحين وبعض الحلفاء كان السبب الرئيس في هزيمة الديمقراطية الأثينية طيلة المرحلة الأولى من الحرب.

### المرحلة الثانية من الحرب البلوبونيزية

وقعت حملة سيسيليا الكبرى وحرب دسيليا لأن صلح نيسياس لم يكن متينا. فلم يحل التناقضات الأساسية لما قبل الحرب. ولم تنفذ شروط المعاهدة: احتفظ كلا الطرفين بالأراضي المختصة الواجبة لإعادة لأصحابها. ثم، وقف المجتمع الأثيني المدمر نفسه،

فضلا عن الصناعيين والتجار، إلى جانب تجدد المعارك. أمل كثير من الناس التخلص من ورطته عن طريق الغنائم والأسلاب التي تأتي بها معركة مظفرة فيما وراء البحار. ولقد لعب أحد ذوي بيكلس، ألسبياد، وقد صار على رأس الأوساط العدوانية لديموقراطية أثينا الرقية، دورا هاما في حياة أثينا السياسية انطلاقا من العام ٤٢٠. كان ألسبياد شابا موهوبا ورفيع الثقافة.

ولقد أكسبته ثروته، ظرافته، مروعته، تسامحه وفتنته الشخصية الغريبة، شعبية لا مثيل لها. لكن انعدام الاهتمام والتدقيق، والقدرة على التلاؤم مع الظروف وتغيير السلوك حسب الثوب الذي تلبسه الأمور، كلفه كل هذا لقب "الحرباء"<sup>٧</sup>. بنيت سياسة ألسبياد كلها على مشروعات الفتوحات الواسعة، التي تفرز المغامرة. فتبنى خطة جريئة لاحتلال مناطق غنية بالقمح في غرب البحر المتوسط: سيسيليا، إيطاليا وقرطاجة. وافق على هذا المشروع الأثينيون الشرهون للتوسع، الطامعون منذ زمن بثورات سيسيليا من الحبوب وغيرها.

استخدم سيسيليا حمايتها من اضطهاد سيراكوز ذريعة لحملة عليها. وأفاد منها ألسبياد لتحريض الأثينيين. وفي كل مكان، في الشوارع، في ميادين الرياضة، كان الكلام يدور حول سيسيليا فقط؛ رسمت خرائط لهذه الجزيرة، وليبيا، وقرطاجة. ورغم معارضة خصوم ألسبياد، وبينهم نيسياس، حصل الحزب الديموقراطي من الجمعية الوطنية على الموافقة بتنظيم حملة سيسيليا بقيادة ألسبياد، نيسياس ولاماشوس. وتجهيز أسطول ضخيم وجيش جرار (١٣٤ مركب ثلاثي المجانيق، ٤٠ سفينة نقل وقرابة ٢٠ ألف مقاتل).

لكن الصراع المريع بين الأحزاب في أثينا انعكس شؤماً، منذ البداية، على مسار الحملة. فعشية الانطلاق، مزقت صور الإله هرمس، حامي المسافرين، الموزعة على مفارق الطرق. لم يكن هذا في نظر اليونان الأسبقين مجرد تدنيس وانتهاك للحرمان، بل نذير شؤم. تحرص بعضهم أن خصوم ألسبياد، أنصار حكم الأقلية المتحكمة، كانوا والغبين في العملية. ورغبة منهم في استبعاد الحملة، نشروا شائعة تقول إن الفاعل هو ألسبياد نفسه، تلميذ "الفلاسفة الملحدون"، وألحوا على إحالته إلى القضاء. لكنهم لم يقدروا أن يصلوا إلى غايتهم في الحال، لأنهم خشوا القوات المخلصة كليا لألسبياد.

غادر الأسطول رسمياً البيري بالتاريخ المحدد. وما أن وصل إلى سيسيليا، حتى بدأ السبياد العمليات القتالية. لكن باخرة تصل، تحمل أمر عودته إلى أثينا ليقاضى: اتهم الآن بالتآمر على الديمقراطية. لكنه في الطريق، فرّ إلى اسبارطة. أفضى كل هذا إلى تفكك الجيش وانبعاث الفوضى مما هدد بالفشل لفقدان الجاهزية القتالية.

بعد رحيل السبياد، استلم نيسياس القيادة العليا. أبحر هذا بنجاح إلى سيراكوز، حاصر أولاً المدينة، بالمعية معاكسة لطبيعته، وحاول صعود الجدران بأضيق وقت. ضحك الحظ للأثينيين حتى أن السبارطي جلبوس استسلم في سيراكوز مع قوات المدن السيسيلية الأخرى، التي تقلد الدفاع عنها. وساعدت كورنثيا السيراكوزيين. وفي العام ٤١٣ عزز الأسطول الأثيني بـ ٧٥ مركب ثلاثي المجاذيف، بقيادة دمستين، الذي لمع نجمه في بيلوس. لكن وصول القوات من إيطاليا وبلوبنيز زاد من قدرة سيراكوز على المقاومة وفاقم في وضع الجيش الأثيني، فقرر الاستراتيجيون العودة إلى أثينا. يتحدث ثوسديد عن درامية وضع الجيش الأثيني المحاصر في سيراكوز. فبعد محاولة الأسطول العابثة أي خرق صفوف العدو وحرق مراكبهم، أراد الجيش الانسحاب إلى داخل الجزيرة. وأجبرهم تفوق العدو العددي والجوع على الاستسلام. وانتهت حملة سيسيليا إلى نكبة رهيبة: دمر الأسطول والجيش، استعبد من بقي حيا وأرسل إلى المقالع، وأعدم الاستراتيجيون (٤١٣).

وفي أتيكيا بالذات، خضع الأثينيون إلى نازلة شتعاء: كان السبارطيون قد احتلوا ديسيليا، المركز الاستراتيجي الهام جداً، الواقع في شمال-شرق أثينا. وهكذا عزلت المدينة عن الجزء من أتيكيا وأوبيا الذي يمدّها بالمواد الغذائية. لقد تصرف العدو هكذا بناء على إلحاح السبياد الذي، بعد أن لجأ إلى اسبارطة، كان يتحرق لثأر لوطنه. حتى الآن، كانت الغزوات البلوبونيزية قصيرة الأمد. إنما هذه المرة، تشبثوا بسيسيليا، ولم يغادروا أتيكيا، بل دمروها وشلوا اقتصادها. أكثر من ٢٠ ألف عبد أثيني، أغلبهم أصحاب مهن، انتقلوا إلى العدو. وتأثرت الصناعة وكل الاقتصاد الأثيني العبودي بهذه الخسائر. حدث هذا الوضع الأثيني الحرج اسبارطة على مضاعفة نشاطها في البحر لكبح هيمنة الاثينيين البحرية. لبناء أسطولهم، أهمل السبارطيون مصالح اليونان وعقدوا حلفاً مع الفرس، من أجل الحصول على معونات مالية. توجه السبياد إلى آسيا الصغرى، حيث تيسر له أن يعقد صلات صداقة مع المزربان تسافيرن. ونجح بضم أيونيا إلى أثينا، لكن السبارطيين، الذين

لم يتقوا به، أرسلوا مكانه قائد الأسطول ليزاندر. كان هذا الأخير رجلا موهوبا وديبلوماسيا محنكا، ماكرًا؛ كان يقول حيث لا يستطيع أن تحصل على لبدة الأسد، ارتد جلد ثعلب. أفسد ليزاندر أساليب السبياد. فتنت لهجته وعباراته الخنوعة سيروس، فحيد ملك الفرس، فوعده بإعطائه كل ما يريد. أفاد ليزاندر من خطوته لدى هذا الأمير لزيادة المعونات المالية الممنوحة لسبارطة لخلق أسطول بلوونيزي ضارب، يهيمن في بحر إيجه.

عجل كل هذا في وهن عزيمة الدولة الأثينية التي لاقت هزائم قتالية. أهمها تفكك الحلف الأثيني، الذي عزل مدن آسيا الصغرى وكل الجزر تقريبًا. وكانت خسارة حلفاء مثل سيو، لسبوس وميليت شديدة الأثر. الأمر الذي قلص كثيرا دفع الخيرات، وبلغت الأزمة المالية نسبا مهددة.

لقد هزت النكبات التي ضربت أثينا موقف الديمقراطية ودعمت معسكر الخصم. وانفطبت الصراع السياسي بعنف لم يعرف من قبل. فقد صارت الجماعات السرية الأولغارشية، التي أقسم أعضاؤها على قلب النظام الديمقراطي، الحلقات الرئيسية في هذا الصراع. وفي العام ٤١١ نجحت، بمساعدة الجيش والأسطول، بانقلاب أولغارشي وانتخبت عشر ولاء، والى لكل ولاية، لا يقل عمر كل منهم عن ٤٠ عاما. وكلف هؤلاء الولاية بإعداد دستور جديد. وبانتظار هذا، أقيم "نظام الآباء"، وكما يقول الأولغاركي: صار مجلس الأربع-مائة، المكون حصرا من أعتى الرجعيين، الحاكم الأعلى للدولة. وحسب ثوسيديد، "كان هذا المجلس يحكم بصورة استبدادية"، بتعذيب واضطهاد الديمقراطيين بدون رحمة. ألغيت مؤسسة سماع شكوى خرق القانون التي كانت تحمي القواعد الديمقراطية، وألغيت الوظائف المأجورة. لكن تبين أن هذه الأولغارشية المتطرفة غير مستقرة. فبعد أربعة أشهر من الحياة، اعدم فرنكوس، انتفون وغيرهما، أكثر الأولغاركيين حماسا وشطب من الوجود مجلس الأربعمائة.

كان الدستور الذي أعده الولاية يسلم السلطة لخمسة آلاف "شخص سلاحهم ثقيل". أي إلى البشرايح الوسطى من الشعب. كان ثرامين يكره الديمقراطية التي أتت بدولة حكمت العبيد والفقراء الذين، كما يقول، "كانوا مستعدين لبيع البلد مقابل دراهما" لكن ثرامين لم يكن يحب الأولغارشية أيضا. إنما كان ممثلا نموذجيا للبشرايح الوسطى المريحة، إنسانا متقلبا، يحدب على التسويات، لقب بـ"كوثرن" (حذاء تستعمل فردتاه للقدمين). (خونفون، الهالينيون، ٢، ٣، ٣٠).



لكن النظام المعتدل أو الوسط أثار أيضا الغضب بين شرائح ديموقراطية واسعة. كان بحارة ومجنفو الأسطول الموجودون آنذ قرب جزيرة ساموس، الشريحة الأكثر تنظيما. ولما كان الأسطول بدون قائد كفء يربح ثقة الطواقم، قرر استدعاء ألسبياد من آسيا الصغرى، قبل، أملا بتحقيق رغبته العارمة في العودة إلى الوطن. ومرة أخرى، غير مبادئه.

كانت المهمة الأساسية للأثينيين في هذه المرحلة من الحرب، التي دشنها ألسبياد، تقوم في تحرير هلسبونت وطريق ساحل البحر الأسود من البلوبونيزيين. فقد عمقت انتصارات ألسبياد العظيمة قرب أبديوس وسزيك نفوذ أثينا في البحر، وأكرهت بعض المدن التي انفصلت على العودة لتكمل الإمبراطورية الأثينية. وأفضت انتصارات ألسبياد القتالية إلى سقوط حكومة الـ ٥٠٠ (في العام ٤١٠) وإعادة النظام الديموقراطي. في هذه الحقبة لعب ألسبياد دورا كبيرا في إدارة الدولة، لكن نجاحات أثينا وانتصاراتها كانت أمرا عارضا. فقد استمرت إسبارطة تعزز وضعها على نفقة العجم. كان سيرس يساعد بسعة القوات السبارطية؛ إلى ذلك، كان لزاندر قد ركز بين يديه قيادة الجمعيات اللغارشية السرية التي يقضي بواسطتها على الديموقراطية. كان موقف ألسبياد غير مستقر، لأن الأوساط الحاكمة كانت تعيقه بكل السبل. دون أن يتخذ ضدهم أي تدبير. وبعد هزيمة بسيطة، تراجعت سلطته حتى في الأوساط التي هللت له حديثا. فاضطر إلى مبارحة أثينا وعاش ردا من الزمن في منفى تطوعي، على ضفة هلسبونت، ثم ذهب إلى فارس، بأمل دعم مليكها. لكن هذا أمر، على الأرجح بأمر من لأزنذر، بقتله في الطريق.

لقد نجم عن الصراع الضاري بين الأحزاب في أثينا تقلبات في سياستها الخارجية والداخلية. فالأحداث المرتبطة بمعركة الأرغوز، غير بعيد عن لسبوس (٤٠٦)، كانت متفردة في بابها. حوصر الأسطول الأثيني في مرفأ مثلين. لملم الأثينيون آخر مصادرهم، وجهزوا ١١٠ مراكب وجندوا كل الرجال القابلين للتجنيد، بما فيهم العبيد. لكن عاصفة منعت الاستراتيجية الأثينيين من مساعدة المراكب المشتتة ودفن الموتى. الأمر الذي خول الرجعيين، أعداء الاستراتيجية، رفع دعوى لمقاضاة المنتصرين وإدانتهم بالموت (كان ابن بيركلس أحد المدانين). وعند عقد الجلسة، ندم الأثينيون، حسب خنوفون، وقرروا محاكمة أولئك الذي ضلوا الشعب. طبعاً، كانت هذه الأزمات تضعف الوضع المتفاقم في دولة أثينا.

وكانت المعركة التي دارت في العام ٤٠٥ قرب أغوس-هوتاموس (نهر العنزة) فسي هلسبوننت حاسمة واستنفدت نصر الجامعة البلوونيزية. خسر فيها الأثينيون كل أسطولهم تقريبا. ثم ظهر الأسطول البلوونيزي، بقيادة لزندر، قرب بيريا وبدأ محاصرة الأثينيين بحرا وبرا. طلب المحافظون عقد الصلح، وشرع الديموقراطيون قانونا يدين بالموت أي اقتراح من هذا النوع. لكن الجوع والأمراض المتفاقمة أزم وضع المدينة المحاصرة، فاستسلمت أثينا في العام ٤٠٤. وقع الصلح بشروط قاسية جدا على الأثينيين الذين توجب عليهم:

(١) تسليم كل أسطولهم، عدا ١٢ حارسا؛

(٢) هدم التحصينات ("الجدران الطويلة")؛

(٣) حل الاتحاد البحري؛

(٤) دفن الديموقراطية.

تفتت الطاقة القتالية الأثينية؛ وأفل نجم الإمبراطورية البحرية الأثينية؛ وقمعت الديموقراطية اليونانية. فالتناقضات الأساسية، الملازمة للنظام العبودي القديم، تبدت بخاصة في أثينا، التي بلغت درجة عالية من النضج. ولم تعد طبقة العبيد تجد مصلحة في دعم أثينا التي تستغلها.

مهما كانت نتيجة الحرب البلوونيزية فاجعة، فلم تستطع قهر النظام الديموقراطي في دولة أثينا. صحيح أن سلطة أثينا انتقلت في العام ٤٠٤، بناء على طلب لزندر، إلى أيدي لجنة الغارشية، بأعضائها الثلاثين، الملقبين "الثلاثون الطغاة"، برئاسة كرتياس، الأرستقراطي الحقود، وثيرامين. حكموا الدولة بالإرهاب، بإهمال الشريعة وتنظيم حملة فعلية لطرد وملاحقة رواد الديموقراطية، وذبح أحيانا، خلف هذه الذريعة، رجالا أغنياء لاحتلال أرزاقهم. لم يبق أحد مطمئنا على حياته. وتقلص عدد سكان المدينة إلى ٣٠٠٠؛ وكان القانون الذي شرعه الطغاة يخولهم إعدام أي مديني لا ينتسب إلى هذه الطغمة. لكن سرعان ما شبت النزاعات بين الطغاة. ثيرامين، الأكثر اعتدالا، شطبه كرتياس من قائمة الـ ٣٠٠٠ مديني وحكمه بالموت. إن دعوى ثيرامين، يكتب خنوفون، تقدم دليلا فاضحا على التحكم والعنف الذي ساد في أيام الثلاثين (الهيلينيون، ٢، ٣؛ انظر ليزياس، خطابات، ١٣، ١٢).

على ذلك، لم يدم النظام الألغارشي سوى ثمانية أشهر. كان الديموقراطيون

المهاجرون قد كُتِلوا، بزعماء ثراسبول، قواهم في طيبة، ومن هنا هاجموا أتيكيا. واحتلوا بالتتابع البيري، أثينا والوزير، حيث حاول فلول الألغارشييين، الهاربين من أثينا، أن يعتصموا. وهنا ساهمت الصراعات الداخلية التي تمزق إسبارطة في سقوط الطواغيت الثلاثين. ولقد أُلْقِىَ تنصيب لزندر، الذي كان آنذاك يرأس مصائر الأثينيين، الأوساط السبارطية الحاكمة. فعمل ملك إسبارطة بوزانياس على مصالحة الديمقراطية الأثينية مع الألغارشييين المعتدلين، بدون معرفة لزندر. وهكذا عادت الديمقراطية الأثينية في العام ٤٠١ تماماً وبأشكالها السابقة، لكنها فقدت كل أسباب وإمكانات أن تصبح القوة السياسية المسيطرة والعامل الرئيس في توحيد اليونان.

## فهرس الجزء الأول

	المجتمع البدائي:
٥	الفصل الأول: افتتاحية
١٥	الفصل الثاني: القطيع البدائي، تشكل نظام القبائل
٢٧	الفصل الثالث: أوج النظام المشاعي البدائي
٤٩	الفصل الرابع: تفكك النظام المشاعي البدائي. تشكل الطبقات والدولة
	الشرق:
٦٧	الفصل الخامس: مدخل
٨١	الفصل السادس: سومر وأكاد
٩٥	الفصل السابع: بابل
١٠٧	الفصل الثامن: الحضارة البابلية
١١٧	الفصل التاسع: مصر القديمة
١٢٣	الفصل العاشر: امبراطورية مصر القديمة
١٣١	الفصل الحادي عشر: امبراطورية مصر الوسطى
١٣٧	الفصل الثاني عشر: امبراطورية مصر الجديدة
١٤٧	الفصل الثالث عشر: الحضارة المصرية
١٥٥	الفصل الرابع عشر: امبراطورية الحثيين
١٦٥	الفصل الخامس عشر: فينيقيا وفلسطين

١٧٩	الفصل السادس عشر: آشور، أوارتو وبابل الكلدانية
١٩٥	الفصل السابع عشر: إيران
٢٠٩	الفصل الثامن عشر: الهند
٢٢٥	الفصل التاسع عشر: الصين
	اليونان:
٢٤٥	الفصل العشرون: مدخل، مناهل المعرفة والتأريخ
٢٥٩	الفصل الواحد والعشرون: طبيعة اليونان
٢٦٣	الفصل الثاني والعشرون: الحضارة الإيجية
٢٧١	الفصل الثالث والعشرون: أخلاق اليونان ونظامها الاجتماعي
	الفصل الرابع والعشرون: بحث الطبقات الاجتماعية والدولة في اليونان
٢٨١	(الثامن-السابع) ق.م.
٢٨٥	الفصل الخامس والعشرون: الاستعمار اليوناني من القرن السابع حتى السادس ق.م
٢٩٣	الفصل السادس والعشرون: امبارطة
٢٩٩	الفصل السابع والعشرون: أثينا في القرنين السابع والسادس ق.م
٣١٣	الفصل الثامن والعشرون: الحروب الميديّة. تشكل الاتحاد البحري الأثيني
٣٢٥	الفصل التاسع والعشرون: قمة الاقتصاد العبودي في اليونان
٣٣٧	الفصل الثلاثون: انبعاث الحركة الديمقراطية في اليونان بعد النصر على الفرس
٣٤٣	الفصل الواحد والثلاثون: حكومة بيركلِس

## من منشورات دار علاء الدين للنشر والتوزيع

* مغامرة العقل الأولى	* لغز عشتار
..... فراس السواح	..... فراس السواح
* الحدث التوراتي	* دين الإنسان
..... فراس السواح	..... فراس السواح
* آرام دمشق وإسرائيل	* جلجامش
..... فراس السواح	..... فراس السواح
* الأسطورة والمعنى	* التاو
..... فراس السواح	..... فراس السواح
* بدايات الحضارة	* الرحمن والشيطان
..... عبد الحكيم الذنون	..... فراس السواح
* سويداء سورية	* من هم الموحدون الدروز
..... مجموعة من المؤلفين	..... جميل أبو تربية
* أضواء على الثورة السورية الكبرى	* العادات والتقاليد في محافظة السويداء
..... عطا الله الزاقوت	..... عطا الله الزاقوت
* السكان القدماء لبلاد ما بين النهرين	* سلسلة الأساطير السورية
..... د. سالم العيسى	..... د. مفيد عرنوق
* صرح ومهد الحضارة السورية	* كليوباترا وعصرها
..... مفيد عرنوق	..... د. يوسف شلب الشام
* المصادر التاريخية في الأندلس	* الفكر الإغريقي
..... د. نايف أبو كرم	..... د. محمد الخطيب
* أميرات سوريات حكمن روما	* تاريخ اليابان
..... د. خالد عيسى	..... د. يوسف شلب الشام
* الحضور اليماني في تاريخ الشرق الأدنى	* الحضارة بين النعمة والنعمة
..... فضل عبد الله الجمام	..... إحسان البني
* ببو غرافيا حياة لمشاهير الحكام في العالم	* التراث من منظور مختلف
..... د. خالد أبة الليل	..... عبد الغفار نصر
* أهم الغزوات في صفحات الإسلام الخالدة	* الانتهاك والجنس في التوراة
..... عبد أحمد عبد الكريم السعدي	..... خالص مسرور

\* الأسطورة في بلاد الرافدين

عبد الحميد محمد

\* إله الشمس الحمصي

ت إيرينا داوود

\* البلدان النامية-مشكلات العلاقات الاقتصادية

ت د ماجد علاء الدين

\* تاريخ القانون في العراق

عبد الحكيم النون

\* الديانة الفرعونية

ت نهاد خياطة

\* دراسات حول الأكراد

ت عبدي حاجي

\* الشركس في فجر التاريخ

برزج سمكوغ

\* حدث ذات مرة في سورية

سمير عبده

\* المسيحيون السوريون خلال ألفي عام

سمير عبده

\* السريانية العربية

سمير عبده

\* الإيديولوجية اليهودية

مفيد عرنوق

\* تيارات الفلسفة الشرقية

محمد حسن

\* دراسات في الفلسفة الأوروبية

سليمان حسن

\* التشريعات البابلية

عبد الحكيم النون

\* العولمة والتبادل الإعلامي

د صابر فلحوط

\* من أنساب العرب العاربة

صالح هواش المسلط

\* أساطير في أصل النار

ت يوسف شلب الشام

\* هل هبط آدم في القفقاس

محمد عمر بغدادي

\* الحضارات القديمة

ت نسيم ولكيم اليازجي

\* الجنس في العالم القديم

ت فائق دحدوح

\* الديانة الزرادشتية

نوري إسماعيل

\* شريعة حمورابي

ت أسامة سراس

\* طقوس الجنس المقدس

ت نهاد خياطة

\* موسوعة تاريخ القفقاس والجركس

محمد جمال صادق ابيه زاو

\* معجم الأساطير

ت حنا عبود

\* صراع بين الحرية والاستبداد

فارس الحناوي

\* تجارة الأسلحة في الخليج العربي

رحيم كاظم محمد الهاشمي

\* الإثنولوجيا

محمد الخطيب

\* الطريق إلى القيادة وتنمية الشخصية

ت سالم العيسى

\* دراسات في المكتبة العربية التراثية

عادل فريجات

\* الخيول الأصيلة في الصحراء العربية

أحمد عسان سبانو

\* المعراج والرمز الصوفي

د. نذير العظمة



















## هذا الكتاب

غزارة علمية، غنى معرفي.. تميز  
بالأسلوب، تفرد بالموضوع.

دراسة تتناول الحضارات القديمة بمنظار  
علمي تتصاعد من بداية الحضارات البدائية  
المشاعية، وترتقي إلى الحضارة السومرية  
فالأكادية فالبابلية، ثم الحضارة المصرية القديمة  
العريقة... حتى تصل إلى الحضارة اليونانية  
عظيمة الأثر في التاريخ الإنساني في جزئه  
الأول.

الكتاب مفيد للدارسين في كليات التاريخ  
والعلوم الإنسانية والاجتماعية، ولكل من يهتم  
بتاريخ الحضارة الإنسانية عبر عصورها  
المختلفة والمتعاقبة.

الناشر



يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة

دمشق ص.ب. ٣٠٥٩٨

هاتف: ٥٦١٧٠٧١

فاكس: ٥٦١٣٢٤١

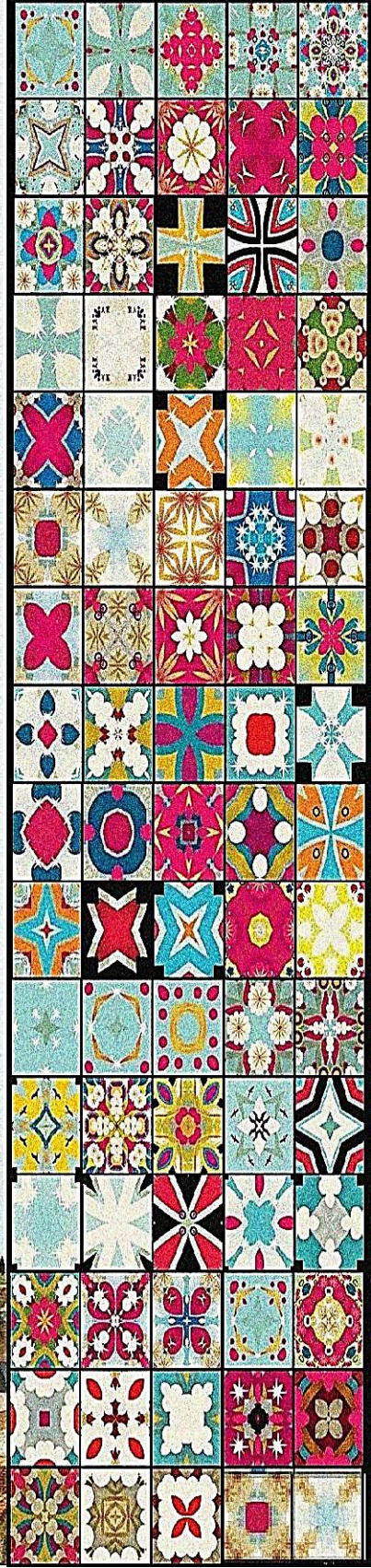
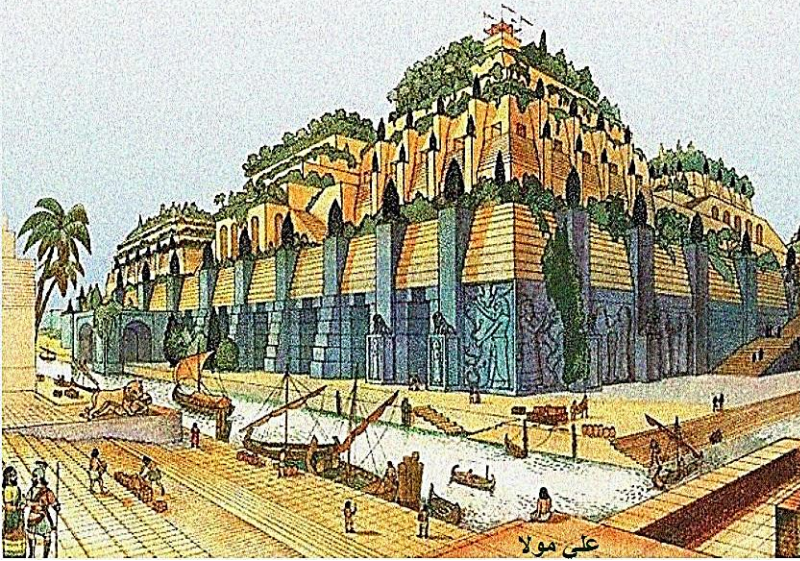


إشراف : ف . دياكوف / س . كوفاليف

# الحضارات القديمة

## الجزء الثاني

ترجمة : نسيم واكيم اليازجي







# الحضارات القديمة

الجزء الثاني



إشراف: ف. ديباكوف س. كوفاليف

# الحضارات القديمة

الجزء الثاني

ترجمة نسيم واكيم البازجي

منشورات دار علم الطين



حقوق النشر محفوظة  
لدار علاء الدين

دمشق - الطبعة الأولى ٢٠٠٠ - ١٠٠٠ نسخة

---

التنضيد الضوئي والإخراج الفني: سلام أبوكرم.  
التدقيق اللغوي الأستاذ: صالح جاد الله شقير.

يطلب الكتاب على العنوان التالي : دمشق ص.ب : ٣٠٥٩٨  
هاتف:- ٥٦١٧٠٧١ فاكس: ٥٦١٣٢٤١ -

- جميع الأفكار والآراء الواردة في الكتاب تُعبر عن وجهة نظر المؤلف.
- في حال أخذ أية مادة من الكتاب يرجى التنويه إلى المصدر.

## تقديم

في الجزء الثاني من تاريخ الحضارات القديمة نستمر بإطلائنا على المراجع البكر لحضارات الأقوام والشعوب القديمة والتي كان لها الدور البارز في تشكيل الخارطة الحضارية.. حيث تناول الجزء الأول من هذا الكتاب الموضوعات التالية: المجتمع البدائي، القطيع البدائي، النظام المشاعي البدائي وتفككه وتشكل الطبقات والدولة، حضارات الشرق: سومر، أكاد، بابل، الحضارة المصرية، الإمبراطورية الحثية، فينيقيا، فلسطين، آشور، إيران، الهند، الصين، الاقتصاد العبودي والحركات الديمقراطية، الحروب والتحالفات.. إلخ.

ويأتي هذا الجزء ليكمل البحث في معارج هذه الحضارات مروراً بالحضارة اليونانية، والهيلينية، والرومانية، والصراع بين روما وقرطاجة وأبحاث أخرى تتعلق بنفس الموضوع وتغنيه.

وقد راعينا الاستمرار بترقيم الصفحات متسلسلة ومرتبطة بالجزء الأول، لإيماننا بوحدة الموضوعات ووحدة الكتاب.



## الفصل الثالث والثلاثون

# الحضارة اليونانية في القرنين الخامس والرابع ق.م

### مدرسة، مسرح، فنون تشكيلية

"...نحن ملزمون، في الفلسفة وفي كل المجالات الأخرى، أن نرجع باستمرار إلى منتوج هذا الشعب الصغير، الذي أمنت عبقريته ونشاطه الشامل في تاريخ ارتقاء البشرية مكانا ليس لأي شعب آخر أن يدعيه"<sup>٨</sup>، يكتب أنجلز. وفي الحق، وحتى الآن، لم نستطع الانقطاع، في بعض النواحي، عن الاستفادة من الانجازات الهلينية: إن نقاشينا ومعماريينا يقبسون نماذج أعمالهم من اليونان الأقدمين. ومؤسسو الماركسية اللينينية، الذين أولوا عنايتهم بعمق لأعمال الفلاسفة، الديالكتيين والماديين اليونان، عارضوا غالبا "جبابرة الفكو" الأسبقين بالفلاسفة البورجوازيين.

إن الديمقراطية العبودية كانت التربة التي بعثت كنوز الحضارة الهلينية، التي قبست أمداءها المتميزة. فحياة أثينا الثقافية والسياسية، الأبعد عن أن تكون قمة حلقة مغلقة للصفوة، كانت تهتم إلى مدى بعيد بالشرائح الشعبية. على هذا، كان أغلب الناس الأحرار يعيشون من تعب الرقيق. وطبقات العبيد، خالقي القاعدة المادية للتطور الثقافي، كانت بذاتها محرومة من كل خيراتها. والقوى المبدعة للديموقراطية العبودية لم تكن متجهة نحو المكتشفات العلمية وابتكار أدوات ووسائل إنتاج جديدة؛ بل كان همها الوحيد تقدم الفنون والفكر المجرد.

إن تربية وتعليم النشء كانا يلعبان دورا هاما في حياة اليونان الثقافية. وفي أثينا والحاضرات الديمقراطية الأخرى، كان الأولاد يربون في البيت حتى الربيع السابع؛

<sup>٨</sup> - ف. أنجلز. ديالكتيك الطبيعة، ص ٥٢.



وحتى الربع الرابع عشر، كان ثمة مدارس خاصة، يتلقون فيها المعرفة الأولية المتوسطة بأجر متواضع: حيث يتعلمون القراءة، الكتابة والحساب، ويتلون عن ظهر قلب مقاطع أدبية، أكثرها من هوميروس. ويبدوون بالموسيقى. كان العلم الابتدائي واسع الانتشار. وماتزال موجودة الوسائل اليدوية لذلك العصر، لوحات مقاطع لتمرين القراءة. وفي القرون الخامس ق.م. كان سكان أثينا كلهم يعرفون القراءة والكتابة.

يتم المراهقون من ١٥-١٨ عاماً، في كليات يمولها أفراد الدولة. ويمارسون الرياضة وألعاب القوى. وفي المعاهد الرياضية، يمارس الفتیان تدريباً عسكرياً، لكي يتيسر لأغلبهم مكان بين المواطنين المجندين. لكن ليس الإعداد العسكري هو المهيمن في تربيتهم، خاصة في أيام بيركلس. وفضلاً عن ملاعب الرياضة وألعاب القوى، كانوا يهتمون بالتطور الروحي، الأدبي والفني لدى طلابهم، وكانت كل حياة المواطنين الأثينيين تخضع لتأثير النشاطات التربوية المنظمة. وليس سكان أثينا فقط، بل كل الناس الأحرار تقريباً يقضون وقت راحتهم في الأمكنة العامة: تحت السرادق، في الشوارع، حيث يتحدث الفلاسفة والخطباء وتدور مناقشات حيوية، وفي الجمعية الوطنية، حيث تخطب الشخصيات. عشرات آلاف المشاهدين يلتزمون في المسارح، التي كانت أيضاً مدرسة كبرى للفن والسياسة.

فمنذ فجر تطوره الثقافي، برهن الشعب اليوناني عن موهبته بإبداع ملاحم هوميروس. وفي حوالي نهاية القرن الثامن أو بداية القرن السابع، ظهر في بيوتيا هزيود، أول شاعر وصلباً اسمه وشعره. ومع الاحتفاظ بشكل الملحمة الشعبية، عكست أعمال ويوميات ونسب الآلهة لهزيود تفرد الكاتب وأهدافه الاجتماعية والسياسية، وهي أهداف المزارعين. ودلّل في الوقت ذاته أن تطلعات أخرى، غريبة عنه، غزت هيلاد: البحث عن السعادة والثروة في الرحلات البحرية الطويلة، والتماس مع البحر الصاخب.

في بداية القرن السابع، تقريباً في حياة هزيود، عرفت هيلاد وجوّدت القصيدة الغنائية التي تغني الأحاسيس الودية. وفي القرنين السابع والسادس، أنجبت الحواضر المتطورة: ميغار، متلين في جزيرة لسبوس، شيو، أثينا، بل ثيبس وسبارطة، الأكثر تخلفاً، عشرات الشعراء الموهوبين. ولقد اتسق هذا التفتح السريع للأدب والكلمة الحلوة مع حقبة الانطلاق الاجتماعية، السياسية والاقتصادية في هيلاد، حقبة تشكل الحواضر العبودية. وقد

كان عمل بعض الشعراء الغنائيين: أرشلوك، سولون ثخوني، ترباندر، تيرتي، إلخ، صدى النضال الاجتماعي والسياسي؛ وقد أغنى آخرون: شافو، أنكريون، الحب وفرحة الحياة. كما أعاد الشعراء الغنائيون طريقة صياغة الشعر وأبدعوا تدابير عديدة، اتبعها شعراء من أكثر البلدان. وكان عمل الغنائيين اليونان يستلهم القصيدة الشعبية والأغنيات الفولكلورية.

وقد انبثق عن حياة الشعب والفولكلور أيضا إنجاز آخر للثقافة الهلينية: المسرح والأعمال الدرامية. كان المسرح، المولود الأثيني، في القرن السادس ق.م، ينهل من الأعياد الريفية على مجد ديونيزيوس، الإله المعبود، فتعقد الرقصات والأغاني احتفاءً مجيء هذا الإله المائل في جمع من التيوس؛ إن هذا انعكاس للطوطمية التي نلقاها في احتفالات دينية يونانية أخرى.

كان المغنون المتزيون بجلود التيوس ينفذون "تراجيديات"، أي "أغاني تيوس"، تتحدث عن أهواء ومنازع ديونيزوس؛ كان الغناء يترافق مع الحركات، والإيماءات، والرقص. وشيئا فشيئا أخذت هذه الأغاني شكلا محددا، أعطاهما الشاعر والمغني أريون، في القرن السابع، شكلها النهائي، وعرفت باسم "قصائد المديح". وكان ثمة المغني الأول الذي ينفذ قصيدة المدح، وترد عليه الجوقة. كان هذا الحوار الشكل الأول للتمثيل المسرحي. وفيما بعد، في العام ٥٣٠، أدخل ثسيبس، أول كاتب دراماتيكي، الممثل. وهكذا ولد جنس أدبي جديد، ينفذه عدة أشخاص على مرأى مشاهدين وورث اسم تراجيديا. فوجدت الجوقة ودخلت المسرح اليوناني بصفة شخصية.

ظهر المسرح في الأعياد الريفية؛ ثم قدمت مجموعات ملتزمة ومنظمة مسرحيات في المدينة حيث أقيم للمشاهدين منصة خشبية، كبرت لتصير أخيرا صرحا منيعا شبه البيرك المعاصر. ومنذ القرن الرابع ق.م. بنيت المسارح بالحجارة. وكانت منشآت أبدية، واسعة في الغالب، معدة لاستقبال عشرات ألوف المشاهدين. مدارج نصف دائرية، قائمة في منحدر هضبة، مقطعة بمحاشي شعاعية.

كانت الصفوف السفلى أي الأمامية، المخصصة للوجهاء، فخمة الصنع. وفي الأسفل، ترك فناء دائري، التخت، لتجول الجوقة، وخلف التخت، ثمة مشهد، منصة ذات مداخل، وديكورات، وآلية معقدة لتقديم الأعمال غير الطبيعية: انطلاق الأشخاص، حلول الآلهة، وغيرها.

كانت التمثيليات تعرض عدة مرات في العام، في أثناء الأعياد الشعبية، وتستمر لأيام عديدة، في أوقات متناوبة. تعرض كل مرة عشر مسرحيات. ويستمر العرض من الصباح حتى مبيت الشمس. كان هذا عبارة عن منافسة. لكل مجموعة من المسرحيات، يختار حكم محلف يميز المنتصر والجائزة: إكليل.

كان الشعراء الأولون التراجيديون لا يكتبون إلا مناجاة من ممثل واحد واجوبة الجوقة. ثم وجد شكل آخر: الحوار المزدوج بلعبة الممثل. كان مضمون المسرحية أدبياً واسع المدى، في أي موضوع. وقد ظهرت في القرنين الخامس والرابع آلاف التراجيديات والملاهي تعالج بتوسع قضايا الحرية ومآل الحياة البشرية؛ والدولة والواجبات الحضارية؛ الحب، الواجب الأسري، حق السعادة الشخصية وسوى ذلك.

لانعرف سوى عدداً صغيراً من أعمال ثلاثة تراجيديين كبار في القرن الخامس: أخيل، سوفوكل وأوربيد؛ وأعمال أخرى كثيرة لم تصلنا سوى مجزأة مبعثرة. كتب أخيل (والي ٥٢٥-٤٥٦) قرابة ٩٠ تراجيديا لم تحفظ منها سوى تسع. إحداها، الفرس، وهي أسطورة برومتي، الجبار الجسور الذي سلب النار من زيوس ليعطيها للناس والذي ربط من أجل هذا إلى صخرة في القفاس. وقد أحييت ثلاثية أورستيا شخوص ملحمة هوميروس؛ عبر الصراع الدامي الذي يخوضونه، يدل أخيل إلى الشؤم الذي يهيمن على الناس وأمامه الآلهة بالذات عاجزون؛ يجسد التشاؤم الفكرة الغامضة حول قوة الصعود الاجتماعي الذي لامهرب منه ولا مفر منه ولا مقاوم له.

في أعمال أخيل ولأول مرة، يتدخل ممثلان يأخذان أدوار الذكور والإناث. وفي أيام أخيل كان تمثيل الممثلين وفاقيا. وبعدئذ، ادخل سوفوكل وأوربيد ممثلاً ثالثاً جعلت تمثيل المشاهد أكثر واقعية. كانا يعيشان في "قرن بيركلس"، الذي كان يتميز بازدهار كل فروع الحضارة الأثينية وبانطلاقة الحياة الاجتماعية والسياسية. وأبدع سوفوكل (حوالي ٤٩٦-٤٠٦) أكثر من ١٠٠ تراجيديا حفظت منها سبع بشكل جيد أشهرها أوديب ملكا وأنتيغون). الموضوع المهيمن في هذه التراجيديات هو الصراع بين الفرد والمجتمع. الخسارة الحتمية لمن يخرق القانون الاجتماعي. استبعد الآلهة، وصار الناس، بطباعهم ومنازعهم هم الذين يهتمون سوفوكل: "ثمة قوى كثيرة عاتية في العالم، لكن ليس في الطبيعة أقوى من الإنسان"، من أناشيد الجوقة في أنتيغون. وشخصها، المقدمون بشراً من لحم ودم، يشدون التعاطف الحار من عشرات آلاف المشاهدين.

وأوربيد (حوالي ٤٨٠-٤٠٦)، من أتراب سوفوكل، ينهل موضوعه من الحياة الحقيقية، شديدة التنوع، بالغة الحساسية والفعل والتعبير. ومثل سوفوكل، يقبس موضوعاته من الخرافات الهلينية القديمة. لكن أبطالها، معالجون بحيوية كاملة، يعيشون هموم حياة أثينا في زمن بيركلس. هكذا، في "المبتهلون"، يلقي، الملك الخرافي تيزي، خطاباً في أفضليات الديمقراطية ومكاسبها؛ وفي "ميدي"، يثير الشاعر مسألة الحقوق الإنسانية للمرأة. وفي ١٨ تراجيديا لأوربيد وصلتنا سالمة، نعيش مع الواقع الحي مجسداً بفن مسرحي.

وجنس مسرحي آخر، الملهاة، هو أيضاً أصيل في أثينا. ومثل التراجيديا، ولد في ديونزي؛ كوميديا (من كلمة *comos*) تعني تقريباً "أغنية فلاح جذل أو ثمل". كانت جوقات فرحة تغني مقاطع هجائية وفاحشة ضد أشخاص ريفيقي المقام إلى هذا الحد أو ذاك. كان كتاب الملهاة يستخدمون نفس شكل الحوار الذي ورد في التراجيديا الأولى، لكن المضمون الضاحك والهجائي-الساخر تطلب نموذجاً جديداً من المشاهد والأعمال الأدبية. وفي القرنين الخامس والرابع، وجد في أتيكا عشرات الشعراء "الهازلين"، كان العديد منهم شعراء عباقرة. لم تصلنا أعمالهم إلا قطعاً مبددة، بعض هذه الأجزاء طويل؛ لغة واحدة (١١ على ٤٤) مسرحيات رائعة لأرستوفان، الذي عاش في نهاية القرن الخامس وبداية الرابع، سليمة كلها. عكست هذه المسرحيات بأسلوب واقعي هازل الحياة الاجتماعية والسياسية لأثينا لمدة تقارب الأربعين عاماً. وقد سخرت بعناد من رجالات سياسية وقادة عسكريين كبار، مثل كليون في "الفرسان"، وشعراء (أوربيد في "الضفادع")، وفلاسفة (سقراط في "الغيوم")، وأحزاب وبرامج سياسية؛ حتى الشعب، سيد أثينا، يبدو هنا في شكل عجوز ممسوس ومضحك. وتحفظ كوميديات أرستوفان الرقة مع الفلكلور الذي بعثها، وتعكس، فيما تعكس، أسلوب الحياة وهموم الفلاحين ومصالحهم التي أهملتها الحرب بفظاظة. وأعمال أخرى ("الأشارنيون"<sup>١</sup> "الصلح"، "الفرسان") هي احتجاج على الولع والافتتان بالحرب الذي يعبر عنه المدينون؛ كتبت بلغة الشعب العذبة ولاينقصها السفه والسخرية الماجنة. وملحمة هومييرية تلهب المسرح أثناء التمثيل، لكن العوام لم يروا في هذا الهزل سوى متعة قدمت بعمل فني فقط: فورا صيغة هازئة قارصة، تطرح الكوميديات قضايا كبيرة ثقافية، اجتماعية وسياسية.

<sup>١</sup> - كوميديا لأرستوفان يحول فيها الشاعر بسخرية أنصار الحرب ضد اسبارطة.

ولقد بلغت فنون ملاد التشكيلية في هذه الفترة "الكلاسيكية" (القرنين الخامس والرابع) مستوى مدهشا. فثمة منحوتات صارت نماذج للأجيال القادمة. وحوالي نهاية القرن السادس أبدعت في أثينا مجموعة *Tyrannicides*؛ في أثناء اجتياح خرخس أخذت إلى فارس وانتجها مرة أخرى في بداية القرن الخامس كرتياس ونزيوتس. إنها المنحوتة، التي صورت مأثرة هرموديس وأرستوجتون<sup>١٠</sup>، تجسد فكرة الحرية المدنية. ويعكس عمل ميرون العبقرى الحياة في كل تنوعها: تمثل تماثيله بواقعية تامة مشاهد ريفية (مثلا، بقرة تخور)، والأحاسيس الأنف (أثينا ومرسياس)؛ ويمثل نصب *son Discobale* مصارعا شابا منتعشا بانطلاقة متينة، بحيث تبرز كل عضلاته، حية ومرنة. بعكس تماثيل البلوبونيزي بولكليت، مثل *le Diadumene* (الذي يتشح بعصابة، علامة الظفر) أو *Amazona*، وهما منحوتتان ساكنتان، بلا حياة، وفيدياس، صديق بيركلس، أبدع أعمالا فذة: التمثال العملاق زوس في أولمبي، وتماثيل أثينا بروماشوس وأثينا برثثوس في أثينا. كان فيجياس مدرسة، وصار تلامذته من بعده فنانين موهوبين، نحتوا بإشرافه إفريزات الباريتيون، بطول ٢٧٦م. إن هيلاد وبخاصة أتيكيا تمتاز أيضا بإتقان فن العمارة، حيث أبدعت صروح واسعة عمومية. فالمعابد، التي بنيت لغايات سياسية فضلا عن أهداف دينية كانت المؤسسات الأضخم في اليونان. وأبده الأكروبول، التي أبدعت في أيام بيركلس بإزامل فريق من الفنانين العباقرة، هي الأثر المعماري الهليني الأبرز. والمعبد المشيد في جزيرة إجين تجيدا وتخليدا للنصر على الفرس، ومعبد زيوس ومعبد بوزدونا تشهد حتى أيامنا على عظمة فن العمارة الإغريقي. إن لليونان أساليبها الخاصة التي صارت فيما بعد الجزء المتمم لهذا الفن. أهم هذه الأساليب وأقدمها هو مايسمى الأسلوب الدوري، المتميز ببساطة وكثافة وقور، تلمس في أبعاد وديكور الأعمدة وفي نسب الصرح العامة. وبعد هذا، ظهر في القرنين السادس والخامس، في مدن إيونيا التجارية الأسلوب الأيوني ذو الأعمدة الأرضق والمتوجة بتيجان أنيقة محلزنة، والباريتون مزيج من الأسلوبين الدوري والأيوني. وفي القرن الرابع، هل الأسلوب الكورنثسي، الأكثر تصنعاً، المتميز بكثرة وغلنى المقرنصات. إن شواطئ الأبيض المتوسط والأسود تغص بمخلفات المعابد المرمرية، المبنية وفق هذه الأساليب الثلاثة.

<sup>١٠</sup> - تأمر ضد الطاغية هيباس.

## الفلسفة والعلم

لا يقل دور اليونان الأسبقين في تطور الفلسفة والعلم. الفلسفة (اليونانية، حسب الحكمة)، وفي المعنى الذي ننسبه نحن الآن للكلمة، هو من مواليد هيلاد. فمواطنو الحضارات المتطورة في أيونيا استوعبوا مبكرا التراث الثقافي للشرق. كان هذا التراث يشمل الفكرة العلمية التي تجهد في تعليل ظاهرات الطبيعة؛ ففي الشرق، خلق الصراع الطبقي شروط موقف ناقد تجاه المعتقدات التي تغرسها الشريحة الحاكمة في المجتمع؛ الكهنة والنبلاء. كانت بابل ومصر تمتازان بتقدم واضح في الرياضيات، والفلك والعلوم الطبيعية. وعندما حل في أيونيا محل نبلاء الدم تجار جسورون مغامرون، رسخوا علاقاتهم التجارية بفعل الاستعمار، وتعززت وثبة فكرية جريئة. وكانت ميلين، حاضرة أيونيا الرئيسية، الوطن الأول لفيلسوف إغريقي هو ثالس *THALES* (حوالي العام ٦٠٠)، أبو المفهوم المادي العفوي. وكواحد من أبناء أسرة من التجار الفطنين، أدرك كل تنوع الطبيعة والحياة كموضوعة واحدة تسير ذاتها؛ ورأى، كل ما هو موجود ليس أبدا من عمل الإله، بل يصدر عفويا عن عنصر أولي هو الماء. وانشغل أيضا بالأرصاء الجوية والفلك، واشتهر بحدسه في كسوف الشمس في ٢٨ أيار ٥٨٥. إن ثالس هذا هو مؤسس الفلسفة المادية.

تلاميذه ومتموه، المنتسبون إلى مدرسة ميليت، يطورون ويعمقون نظريته الفلسفية والعلمية. ويؤكد أنكسمين *Anoximen* أن الطبيعة الحية والميتة أيضا، تطورت انطلاقا من الهواء، الذي ولد تكاثفه الأجسام الصلبة والسائلة، بينما ظهرت النار بعد تخلخل الهواء. ويعلمنا أنكسماندر *Anoximandre* أن المادة، التي يشير إليها بتعبير "لانهائي"، أساس العالم: ويفترض أنها أعطت الحياة للكائنات الحية. وكون "الإنسان نتيجة أولية للحيوانات الأخرى"، استبد، على مستوى ما، النظرية التطورية لدارون.

لكن التطور الباهر للمبادئ المادية في مدرسة ميليت، الناجم عن الصياغة الثورية للحاضرة العبودية، اصطدم بمقاومة النبالة المنحدرة. وترجمت هذه المقاومة بظهور الفلسفة المثالية، سليلة المجتمع المستر للنبالة الرجعية التي كانت تصارع حركة الشعب والنظام الديموقراطي المتنامي.

كان فيثاغورث (النصف الثاني من القرن السادس ق.م) أب الفلسفة المثالية. هرب من جزيرة ساموس بعد انتصار الشعب الذي جلب إلى السلطة المستبد بولكرات، فوجد ملاذا

له في كنف النبلاء حكام كروتون، الجزيرة الواقعة في جنوب إيطاليا. وفي كروتون، حينما استبدل الشعب التأثير النظام الأرستقراطي النظام الديمقراطي، شكل فيثاغورث مع تلامذته ومتابعيه جمعية سرية انتشرت في كل هيلاد ووضعت هدفاً لها النضال بدون رحمة ضد الديمقراطية.

لم تحفظ أعمال فيثاغورث. ومن الجدير بالذكر أن مواهبه في تطوير الرياضيات أمر لا يقبل الجدل. إنما هو نفسه وأتباعه بخاصة، وضعوا للعالم مفهوماً مثالياً. انطلاقاً من أن كل شيء يمكن أن يقاس ويعبر عنه بالأرقام، اعتبروا العدد الجوهر المقدس للكون. واحد، اثنان، ثلاثة، سبع، عشر صارت، عندهم، القوى الغامضة والغيبية التي تمسك العالم، وهي وراء انسجامة واتساقه.

كان الفيثاغورثيون يظنون أن نظريتهم للأرستقراطية فقط، فهي وحدها من يفهمها ويعالجها وهي التي تعينهم على حكم جماهير الناس.

لقد انعكس هذا الصراع بين المفهومين المادي والمثالي في النهج الفلسفي لعبقرية هراكليت ابن إفيز<sup>١١</sup> (نهاية القرن السادس وبداية الخامس ق.م). يضع هراكليت أسس المفهوم الجدلي للعالم. لم يصلنا شيء من أعماله أبداً، عدا مقاطع قصيرة معدودة وأحكام مبعثرة. على ذلك، وحسب هراكليت، كل مافي الوجود في حركة وتشكل. ومن مقولاته: "الكل يسيل"، "الأحد يستحم مرتين في ذات النهر"، "من الضروري أن نعرف أن الصراع هو الصبح والحكمة، وأن الكل يولد في الصراع حسب قانون الحتمية غير القابل للتقادم". ولقد قوم كلاسيكيو الماركسية نظريته عالياً. يعلق لينين على مقولته "العالم، وحدة الكل، لم يخلقه إله ولا بشر، بل كان، وسيكون نارا لاهبة أبداً تتقد وتنطفئ حسب قوانين..". فيقول: "استهلال رائع للمبادئ الجدلية"<sup>١٢</sup>.

إنما بلغ الفكر العلمي والفلسفي اليوناني ذروته مع ازدهار الديمقراطية العبودية، في أعمال ديموقريط العديدة، التي لانملك منها هي الأخرى سوى أجزاء متناثرة. لقد ساهم

<sup>١١</sup> - مدينة قديمة من أيونيا، على شط بحر إيجه. كانت مركزاً كبيراً مالياً وتجارياً منذ القرن السادس ق.م. كان فيها معبد لأرتمس معتبراً واحدة من أعاجيب الدنيا السبع، حرقه أروسترات؛ بنى القديس بولص كنيسة هذه المدينة في العام ٥٤م، وقد أدان المجمع الديلمي في العام ٤٣١م. نستوريس-المترجم.

<sup>١٢</sup> - لينين، "الدفاتر الفلسفية"، المنشورات الاجتماعية، باريس ١٩٥٥، ص ٢٧١.

ديموقريط (حوالي ٤٦٠-٣٧٠) يتقدم كل فروع المعرفة لزمانه: كتب مقالات في الفلك (أسباب الظواهر السماوية)، في الفيزياء (أسباب الظواهر الجوية) أسباب الظواهر الأرضية، وغيرها)، في البيولوجيا، في الرياضيات (حول تماس الدائرة والكرة، حول الخطوط والأجسام غير المعقولة، إلخ)، في الجغرافيا، والفن (الإقاعات والهرموني، والقصيدة، وسواها)؛ ونحن مدينون له بأعمال في التاريخ، في الزراعة، والفن العسكري. وبناء على معارفه الموسوعية وضع نظريته الفلسفية: كل الموجودات تتألف من جزيئات صلبة وغير قابلة للقسمة ("الذرات" باليونانية). وتتوزع أشكال الذرات وتوضعها يشترط تنوع الكون وتباينه؛ والكائنات الحية، ومنها الإنسان و"روحه" تتألف من ذرات، هي الأخرى. لكن إلى جانب عدد لا ينتهي من الذرات، ثمة فراغ بدون حدود، العدم، الذي يمكن الذرات من الحركة المستمرة، مبدأ كل حركات وتبدلات الكون. والطبيعة كلها، والمشاعر، والحواس، وأفكار الإنسان تنجم أيضاً من حركات الذرات. وأيضاً طور ديموقريط النظرية المادية المطابقة لفكره، لكنه صب جهده في تحليل مجمل الظواهر بأفعال آلية، فكان مادياً آلياً.

فضلاً عن هذا، اهتم ديموقريط بفاعلية بقضايا الحياة الاجتماعية والسياسية، كما تثبت عناوين مؤلفاته. ففي أعماله التاريخية، كشف أصل المجتمع المتحضر في زمانه. نبذ بصرامة دعوى "العصر الذهبي". في الماضي البعيد، كان الناس يعيشون شظف الحياة الحيوانية؛ علمهم البؤس أن يعيشوا جماعة، وبالتدريج، خلقوا شروطاً جيدة؛ كان أساتذهم الآخر هو الطبيعة التي يحاول الناس نسخ ظاهرتها، وتقليدها في حياتهم اليومية. وطرح ديموقريط أيضاً قضايا تتعلق بحياة الدولة وبنيتها.

ولقد ضمه هذا الوجه الفاعل الحي إلى تيار واسع علمي وفلسفي لهيلاذ في النصف الثاني من القرن الخامس، كان يدرس قبل كل شيء الحياة الاجتماعية والسياسية. سمي ممثلو هذا التيار *Sophistes* (الحكماء) الذي حوله خصومهم السياسيون والعلميون إلى لقب ساخر: " *le sophisti queurs* أي السفسطائيون-المتحذلقون". وبينما كان الفلاسفة الماديون منكبين على إجلاء حياة الطبيعة ورد فعلها ورد فعل الإنسان، طرح الحكماء أسس العلوم الاجتماعية. كانت أثينا النصف الثاني من القرن الخامس، التي كانت تتوافد إليها مختلف حاضرات هيلاذ، حقل نشاطهم الأول. كتب بروتاغوروس ابن أبدير *d'Abdere* مؤلفات



"أصل النظام السياسي"، "بنية الحياة (الاجتماعية) في العهد القديم" و *ses lois thouroi* هي النموذج الأولي للنظام الاجتماعي والسياسي المثالي من وجهة نظر الديمقراطية العبودية، وحسب بروتاغوروس، النظام الاجتماعي مبني على قانون هو نفسه للجميع، لأن كل الناس متساوون من حيث طبيعتهم. فمن البديهي أن تثير لديه مشروعية العبودية ووجود الآلهة الشكوك "أنا لست جديرا أن أقول إن كان (الآلهة) موجودين أم لا"، يقول بحذر.

وقد طور وتابع سوفيست عديدون أفكار بروتاغوروس. فدرسوا بخاصة قضية الدولة. واعتبر بعضهم (برودكوس، مثلا) الدولة قوة عظيمة إيجابية بينما أعلنها آخرون (أنتيفون) مصدر كل الآلام ومصيبة الحياة البشرية. وهكذا، نادى أنتيفون أن الحياة الاجتماعية يجب أن لا تكون مشروطة باستبدادية الدولة، بل بوحدة الوضع الأخلاقي والسياسي للقلب والعقل. وهكذا وضع بعض السوفيست نظرية ظهور الدولة على قاعدة اتفاق بين مؤسسي أول دولة. وفيما بعد، بخاصة في القرن الثامن عشر (روسو)، أخذت هذه النظرية مداها الأوسع.

بالتأكيد ليس صدفة أبدا أن يتزامن نشاط السوفيست مع ذروة الديمقراطية العبودية في أثينا. لم يكتف السوفيست بكتابة أعمالهم في هدوء غرفة العمل، إن صح التعبير؛ بل تدخلوا كخطباء فاعلين ودعاة حيويين لمبادئهم. ولقد اندمجت هذه النظرية الجديدة في كل مجالات الحياة الثقافية لهيلاد. كما عكس مؤرخا العصر الكبيران، هيرودوت وثوسيديد عكسا رائعا في أعمالهم نظريات السوفيست؛ إن تراجيديات أوريبود (ارجع إلى ماورد أعلاه) تزخر بأفكار هؤلاء الحكماء التي، بواسطة المسرح، تغلغل في أوساط الشعب. والاستحقاق الأوسع يخص السوفيست في خلق فن الخطابة وإعداد طرق المناقشة والجدال، التي تمكن من إثبات الطروحات ودحض ما لدى الخصوم. هكذا طرحت أسس المنطق، العلم الذي يعلمنا التفكير الصحيح انطلاقا من الأطروحات المحددة التي تواجهنا.

يصل بعض السوفيست، في نقدهم اللاذع لكل ما قبله الزمن بعامة، إلى نشر مذهب تشاؤمي كامل، إلى إنكار الضوابط الأخلاقية وتبرير المذهب الفردي بمغالة عدائية، الأمو الذي شد إليهم كره الأوساط المعادية للديموقراطية، الأولغارشية. استخدم منظروهم طرق وأساليب السوفيست لمصارعتها بسلحها. كان سقراط واحدا من ألد أعداء السوفيست، الذي لم يترك كتابا مكتوبا وكان متحمسا لمبدأ أفلاطون، تلميذه.

اتهم سقراط السوفيست بالشككية الجوفاء، بالافتقار للقناعات السياسية والعلمية، وعدم السعي سوى إلى هدف واحد هو المماحكة والنصر الشفهي على نقيضهم.

هؤلاء ليسوا حكماء يقول سقراط: إنهم يتاجرون بالحكمة، وليس لهم إلا إفساد تلامذتهم بالارتياب. وهو الآخر، شكك بإمكانية معرفة العالم الخارجي ("أنا اعرف أنني لأعرف شيئا")، وطالب بمعرفة الذات ("اعرف نفسك بنفسك"). ويؤكد سقراط أن المناقب السامية للمواطن، الضرورية لحكم الدولة، تؤخذ بالتربية والتعليم؛ فليس إذن كل مواطن يقدر أن يشترك بإدارة الدولة، بل فقط ذاك الذي تلقى إعدادا وافيا بالغرض. إن هذه العينة الأخيرة من المواطنين، كانت بالفعل مهمة لدى الديمقراطية الأثينية، الـ"صفوة" - الأرستقراطية- يجب، بكل حمية ونشاط، أن يصلحوا أنفسهم، أن يتحدوا ويرسخوا مواقعهم السياسية في المجتمع. وفي العام ٣٩٩، في أثناء حملة متطرفة من الصراع السياسي والاجتماعي، ادين سقراط بالموت كعدو لدود للديموقراطية: واتهم حتى، وليس بدون أساس، بتخريب الشباب سياسيا.

تشهد فلسفته على أزمة الديمقراطية العبودية في أثينا. تفاقمت هذه الأزمة بعد خسائر قتالية وتدهور القدرة العسكرية البحرية لأثينا في نهاية حرب البلوونيز. يومئذ انفصلت شريحة الأغنياء مالكي العبيد، التي كانت تمارس نفوذا ملحوظا على الحياة الاجتماعية، السياسية والثقافية في البلاد، انفصلت عن الجماهرة الشعبية. وفي تلك الحقبة ازدهرت الفلسفة المثالية، تاركة وزنا ثقيلًا على الفلسفة والعلم الماديين. ودخل الصراع بين المادية والمثالية مرحلة جديدة. وابتكر غني نبيل أثيني، أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧)، نهجا ناجزا للفلسفة المثالية، التي تعتبر حتى اليوم أساسا ونموذجا للفلاسفة المثاليين الرجعيين. أدخل أفلاطون إلى الفلسفة مفهوما بل "فكرا". ادعى أن العالم الأرضي غير واقعي، وهو ليس، سوى منعكس شاحب، ظل عالم واقعي، عالم الـ"أفكار"، لا يعرفه الإنسان إلا معرفة تقريبية. عالم الأفكار ليس ماديا: ليس ثمة بيوت، موائد، ولأجسام بشرية، ولا جبال، ولابحار، ولا أي شيء ملموس، بل فقط "أفكار"، جوهر غير مادي لكل الموجود المادي. يشبه أفلاطون الإنسانية بسجين في كهف، وجهه إلى الجدار، فلا يرى سوى ظلال العالم الخارجي الذي أنارته الشمس.

وحسب أفلاطون، فقط الناس الكاملون من يقدر أن يدنو من الحقيقة. فيجب إذن

خلق مجتمع يحمي النخبة، إذن، ضرورة تربية وعلم الأخيار، الذين هم الحكماء. وهم الذين يجب أن يكونوا حكماء") وأن يوجهوا كل الحياة الاجتماعية الخاصة للمواطنين بواسطة منفذين خاضعين لإرادتهم، يسميهم أفلاطون "محاربين". إن المحاربين، الذين يربون تربية عسكرية جادة، خليقون أن يعيشوا في نظام جماعي مثالي. يستثنى الحكماء والمحاربون من أي عوز مادي. والجمهرة الكادحة التي تخلق كل المناهل المادية في الدولة؛ وهي، الراححة تحب وزر الهموم والاهتمامات الحياتية، يجب أن تكون بعيدة عن الحكم والحكومة.

إن دولة أفلاطون "المثالية" هذه المعارضة كلياً لكل الانجازات الديمقراطية الهلينية؛ المرتكزة على سيطرة أقلية أرستقراطية مقاتلة، تذكر بالطبقة الحاكمة في إسبارطة. فمن الطبيعي، أن يحذب أفلاطون، العدو السياسي لديموقراطية أثينا، على السبارطيين ويؤيدهم. ولقد ارتبطت الفلسفة المثالية منذ ظهورها، بالإيدولوجيا الرجعية، المعادية للشعب والعلم.

وأرسطو (٣٨٤-٣٢٢)، تلميذ أفلاطون، استوعب، مثل ديموكريت، كل مجالات المعرفة. لكنه، بعكس هذا الأخير، كان ميالاً إلى المثالية، وهكذا، يعكس أزمة حضارة العبودية، المشار إليها أعلاه. تتجلى جدارة أرسطو في أنه منهج المعارف العلمية. وبتبحر نابغي وازن المعطيات المحققة في مختلف المجالات وأسس عدة فروع علمية. وسمى "physique" العلم الذي حافظ على هذا الاسم حتى اليوم؛ وهو أيضاً الذي كتب أول "botanique"، علم النباتات (عشب: botane)؛ ووضع أول المقولات في قوانين الفكر التحليلي، الكلي، إلخ) وأرسى العلم الهام الذي هو المنطق، مستفيداً من خبرة الحكماء: sophistes؛ ونحن مدينون له بـ "la politique" -السياسة- التي تدرس طبيعة الدول ومختلف أشكالها، والأخلاق، وعلم البيان، وعلم الشعر، وأعمال أخرى كثيرة. وهكذا أبدعت أو، بالحري، نظمت أعمال أرسطو عدداً من فروع العلم التي استمرت تطورها إلى اليوم.

ففي السياسة، يقدم بالتفصيل نظريته في الدولة، ملخصاً أبحاث أسلافه الكثر الذين هم السوفيست، بالتأكيد. إن أرسطو هو لسان حال إيدولوجيا العبودية المحددة جيداً. وقد رأى أن الدولة تتألف من ضيع، وتنقسم الضيع إلى أسر وتضم الأسرة الزوج، المرأة، الأبناء وبعض العبيد.

لا يعيش المجتمع المتحضر بدون عبيد. "العبد هو خير أشكال الملكية وأجود الأدوات"،

يقول أرسطو. على ذلك، اضطر للوقوف إلى جانب الأجوبة المسندة التي يقدمها خصوم العبودية، وأخذ الجدل معهم حيزا هاما في مؤلفاته. ورأى، في كل حال، أن الإنسان حر بطبيعته. وقال، كل البرابرة عبيد بالولادة.

ويمحص أرسطو كل أشكال نظام الدولة التي يراها ممكنة؛ يميز منها ثلاثة "مشروعة": الملكية، الأرستقراطية والجمهورية، وثلاثة "منحطة": الدكتاتورية، الألغارشية والديموقراطية. ويولي نظرية انقلاب الدولة اهتماما خاصا ويدرس بدقة أساليب الحذر منها. أخيرا، يصمم دولة مثالية يجب أن تكون حاضرة مغلقة، أساسا زراعية. شريحة عمالها محرومة من حق المدينة. ولما كان أرسطو عدوا واضحا لديموقراطية العبودية الأثينية، لذا مال إلى إسبارطة التي رأى نظامها قريبا من المثال.

إجمالا، كان أرسطو متأثرا جدا بأزمة ديموقراطية عبودية أثينا؛ وكان خصما لمؤسسات الدولة الواسعة، وللتجارة والحرف المتطورة، وللمدن الكبرى ذات السكان الحريئين والنشطين سياسيا.

إن تأثير أرسطو على تطوير الحضارة العالمية ضخما. فحتى نهاية القرن الخامس عشر، تمتعت مبادئه العلمية بمدى واسع لا يجادل. أما الطرح الأساسي لـ "سياسته"، التي تقول إن الأسرة هي خلية الدولة، كانت مؤيدة دائما من المنظرين البورجوازيين.

كنا ميزنا، في الفصل الذي يدرس المناهل، المستوى الرفيع للعلم تاريخيا في اليونان. ويميز ف. أنجلز، ويثمن عاليا الدور الرئيس للعلم والفلسفة اليونانيين، وبخاصة ممثليها مثل هيراكليت وديموكريت، ويقول: "هنا نحن إذن نعود لنوافق مؤسسي الفلسفة اليونانية الكبار، التي رأت أن الطبيعة كلها، من الأصغر حتى الأكبر، من حبة الرمل إلى الشمس، من وحيدة الخلية إلى الإنسان، تكمن في ولادة وموت أبديين، بغدق لا ينقطع، في حركة وتبدل دونما توقف. مع فارق أساسي أن ما كان عند اليونان استبصارا عاما، هو عندنا خلاصة بحوث علمية وتجريبية بح والتالي، يظهر أيضا بشكل أو صيغة بالغة الدقة والوضوح"<sup>١٣</sup>.

---

<sup>١٣</sup> - ف. أنجلز. دياكتيك الطبيعة.



## الفصل الرابع والثلاثون

### اليونان في النصف الأول

### من القرن الرابع ق.م

#### الأزمة في اليونان. سيطرة إسبارطة

لقد أنزلت حرب البلبونيز ضررا بالغاً باليونان. يكتب ثوسيديد (١، ٢٣)، "دامت الحرب مدة طويلة، وخلقت مصائب لم تعانيها اليونان في حقبة من الزمن أبداً. أباد لم تحتل المدن وتدمر هكذا أبداً؛ ولا هذا العدد من المبعدين، أو القتلى في المعارك أو في وسط التمردات... هزة أرضية زعزعت دفعة واحدة هذه المساحة الشاسعة من الكرة الأرضية، في بعض البلدان جذب قاحط، بعده الجوع؛ وأفة أقسى أيضاً، خربت ونكبت جزءاً من اليونان، الطاعون؛ مصائب مريعة انضمت إلى آلام هذه الحرب."

استهدفت أثينا وحاضرات أخرى متطورة تشكل جزءاً من امبراطوريتها البحرية، بشكل فريد. حتى إسبارطة المنتصرة خرجت من الحرب متعبة، بسبب انحطاط نظامها السياسي والاجتماعي الروتيني-النمطي الذي لم يعد يتلاءم مع متطلبات الحياة. فالتطبيق الحاكمة من السبارطيين راحت تتراجع وتتقلص، بسبب خسائر الحرب وخراب الأسر، التي فقدت أرضها. والسبارطي المدمر، الذي انتقل إلى صفوف الطبقة الدنيا، فقد صفته كمقاتل. تشكلت جماعات معادية للتأمر على النظام القائم، بمشاركة نشطة من الجماهير المدمرة. وفي العام ٣٩٩، أخذت مؤامرة بقيادة سنادون -أحد المدمرين- مدى خطيراً. أملوا تمرد كل الشرائح المدمرة، ووزعوا عليهم كل الأسلحة المتوفرة، حتى الباطانات، السفافيد والمناجل، بغية ذبح الملاكين العقاريين وتبديل النظام السبارطي. لكن المؤامرة قمعت بوحشية (انظر خنوفون، "الهليون"، ٣، ٣، ٤-١١).

على ذلك، بقيت إسبارطة، يومئذ، القوة الكبرى، الوحيدة في الحلبة الدولية؛ ماتبقى من هيللاد سوى عدة حواضر، دول صغيرة مستقلة بلغ الصراع الاجتماعي فيها ذروته. فبعد

حرب البلوينيز، اشتد سعار الاستثمار العبودي. واستأثرت واحتكرت التجارة والصناعة فئة من العبيد المعتقين. واستبعد الاستخدام الواسع للعبيد الفلاحين الأحرار.

أفضى تدعيم الاستغلال إلى تباين واضح في الثروة بين السكان؛ وفي أثينا وأراغوس وحاضرات أخرى، ظهر بين مموني الجيش وتجار القمح والمرايين، الأغنياء مالكو العبيد الذين يشترون الأرض، وبينون قصورا منيفة بأسلوب العمارة الكورنثي. تطلع هؤلاء الوافدون إلى إدارة الدولة. ومن جهة أخرى، ازداد عدد الفقراء، كان أغلبهم ملاكاً عقاريين صغاراً مدمرين. "سابقاً لم يكن ثمة مدينيون يحتاجون الضروري ويطلبون الحسنة في الشوارع، يشوهون المدينة، كما يكتب إزوكرات، أحد أعيان السياسة؛ والآن، البائسون أكثر من المالكين. يبحثون فقط عن تأمين قوت يومهم."

ألهمت هذه التناقضات العميقة أوار الصراع السياسي والاجتماعي في داخل الحاضرات. وتصدت الفئات الفقيرة في وجه الأغنياء وتعد الثورة؛ وأطلق الشعار المهدد التالي: "إعادة توزيع الأرض وشطب الديون". وفي العام ٣٩٢، اغتال فقراء كورنثيا عددا كبيرا من "صفوة" أرستقراطية المدينة. وفي العام ٣٧٠، نشبت انتفاضة مماثلة في أراغوس: قتل الفقراء بالعصي قرابة ١٥٠٠ غني ووزعوا أرزاقهم. وتدفق "حملة العصي" إلى مدن بلوبونيز الأخرى؛ وحسب قول أزوكرات، "ماكان الفقراء يفكرون إلا بنهب الفقراء".

..في الوقت ذاته، يبرز الميل الطوباوي لتبديل جذري في العلاقات الاجتماعية، بوضع الحياة المادية تحت رقابة الدولة. هذا ما نادى به خنوفون في مقولته "الثروة". وطرح الأمر ذاته بإلحاح ووضوح في كوميديا أرستوفان "جمعية النساء"، وقدمت على مسرح أثينا في العام ٣٩٢. الشخصية الرئيسة براكساغورا، قائدة النسوة، على فرض أنهم استلمن السلطة في أثينا، حيث تعرض برنامج نشاط هذه الحكومة النسوية: "الأرض أولا وخيراتها ستكون ملك الجميع كذلك الأرزاق الفردية الأخرى. ثم من هذه الثروة المشتركة، نحن النساء سنغنيكم، وسنوجه الاقتصاد ونفكر بكل شيء... سنقدم لكل كل شيء وبوفرة: الخبز، النقود، العنب، الأسماك، الحلوى، الأحصنة الخشبية، الحرير، الكستناء.. ومن الجدير بالذكر أن براكساغورا تبني هذه الحياة الرغدة من عمل العبيد، الذي، كما ترى، يجب أن يكون عاما أيضاً".

هذا كله تعبير عن تناقضات في أحشاء الطبقة الحاكمة. في هذه الحالة، قد يفضي النضال الاجتماعي، على الأغلب، إلى إعادة توزيع الأرزاق المنقولة وغير المنقولة والعبيد. ويجد العوام مخرجا آخر: مهنة الجندي التي تعدهم بالاغتناء عن طريق أسلاب الحرب. فتلقى كل مواطن هليني تدريباً عسكرياً؛ وكان فن الحرب الأكثر إتقاناً في هيلاد. وانخرط فقراء اليونان في جحافل الدولة التي تحتاجهم. وصارت اليونان المصدر الرئيس للمتطوعين إلى بلاد البحر المتوسط. وكان السوق الأكبر لهؤلاء رأس تينار، في جنوب لاكونيا.

لقد أقامت اليونان اتصالات وثيقة مع الفرس وبعض حكامهم. هكذا، حاول سيروس، حاكم آسيا الصغرى وأخ الملك ارتاخرس، في العام ٤٠١ ق.م. تسنم السلطة على رأس جيش جرار يضم ١٠ آلاف متطوع يوناني. وحقق الجيش اليوناني النصر على القوات الفارسية في كوناسا، قرب بابل، لكن سيروس، مدعي العرش، قضى في المعركة. وقام اليونان بانسحاب قاس عبر شرق قفقاسيا حتى ترابزونت، على البحر الأسود وخنوفون الذي كان يقود المتطوعين ترك مذكرات مؤثرة حول هذه المسيرة الماجدة وحول البلاد التي اجتازها.

عبرت الحياة السياسية في اليونان حقبة من الاضطهاد والحروب الداخلية. فقد أثار متطوعو سيروس اليونان نزاعاً بين إسبارطة وفارس. ولتوطيد وضع مهيمن في اليونان، جندت كل قوات هيلاد، بذريعة الدفاع عن حاضرات آسيا الصغرى. لكن هذه الحملة اليونانية، التي بدأت في العام ٣٩٧ بإمرة ملك إسبارطة أجلسا، كانت عبثاً. وقد أفاد منها كل اليونان خصوم إسبارطة. وصار خصمها الرئيسي طيبة، المدعومة من أثينا، ثم أراغوس وكورنثيا. وأقام الفرس حلفاً مع أعداء إسبارطة، وقبلت دول اليونان العون من عدو الأمم. فتمكنت أثينا من إقامة تحصينات بالنقود الفارسية، سميت الـ"أسوار الطويلة"، التي وصلتها ببيريا. ووضع قائد الأسطول اليوناني كانون بإمرة ملك فارس، الذي عهد له بسفنه.

كشفت "حرب كورنثيا" (٣٩٥-٣٨٧) عن ضعف إسبارطة. إذ استسلمت القوات البلوبونيزية، بإمرة ليزاندر وبوزانياس، في بيوتيا. لكن الشقاق بين القادة العسكريين أفضى إلى هزيمة هاليارت في العام ٣٩٥. وسقط ليزاندر، وأعدم بوزانياس فيما بعد (فقد



اتهم بجريمة التواني، فالهزيمة فموت ليزاندر). وأمام الخطر المحقق، بعث الحكام إلى أجزلاس، في آسيا الصغرى—أمرا بالعودة العاجلة إلى هيلاد.

بينما كان أجزلاس يعود إلى البر، سحق كانون في العام ٣٩٤، على رأس ألوية أتينية-فارسية، قوات إسبارطة وحلفائها في سنيد. وأتم حلف أثينا، طيبة، أرغوس وكورنثيا دفع السبارطيين إلى مضيق كورنثيا وبيوتيا، حيث ولجت قوات أجزلاس. وفي القطاعين، ميني وكوروني (ربيع وخريف ٣٩٤)، انتصر السبارطيون. لكنهم لم يعرفوا كيف يستغلون هذا الظفر: وبقي برزخ كورنثيا بيد الديموقراطيين المتحالفين: أثينا، أرغوس وكورنثيا.

أرسل الجنرال الأثيني أفكارات، الماهر في الدفاع، أمر قتال جديد، متمما القوات ثقيلة السلاح بقوات مشاة خفيفة لترج في المناورات السريعة. لقد فرض هذا الإصلاح القتالي فقر المواطنين، الذين لا يستطيعون تأمين السلاح الثقيل. وهكذا وجدت سبارطة نفسها منعزلة في جزيرة بلوبونيز.

فسارع الفرس بجرأة وتدخلوا في شؤون اليونان. وأرسلت إسبارطة المحرجة قائد أسطولها الحربي أنتلسدس إلى الفرس طلبا للعون (٣٩٢). وفيما بعد (٣٨٧)، التقى مبعوثو سبارطة بمبعوثي أثينا في سوز، بقيادة كانون Canon. رضي السبارطيون الاعتراف بسيادة ملك الفرس على بلادهم وكل هيلاد. وقبلوا بخاصة ضم وإلحاق كل الحاضرات اليونانية في آسيا الصغرى إلى الامبراطورية الفارسية. ولما ألح كانون على استقلال هيلاد، بما فيها حاضرات آسيا الصغرى، زجه الحاكم الذي برأس المفاوضات في السجن كخائن للملك، ومات فيه.

أخيرا نقل الحاكم تربازو إلى ممثلي هيلاد إرادة مليكه: "يرى الملك أرتخرس العدل في أن تلحق به مدن آسيا، وكذلك جزر كلاميذ وقبرص، وان تبقى مدن اليونان، صغيرة وكبيرة، مستقلة، ماعدا ليمنوي، أمبروس وسيروس التي ستكون، كما في الماضي تابعة لأثينا. وإن رفضت بعض الدول هذا الصلح، سأشن عليها الحرب، بالإتفاق مع من يرضى، في البر والبحر، بمراكبي وكنوزي". بمسعى سبارطة، طرحت فارس كسيده الوضع وفرضت قانونها على اليونان. فلا أثينا ولا طيبة ولا أي حاضرة يونانية تستطيع، في هذه الشروط، أن تصادم فارس المتحالفة مع إسبارطة ومابقي من هيلاد. وقد وضع صلح أنتالسداس، أو صلح الملك، الذي تم في العام ٣٨٧ اليونان عمليا تحت الهيمنة الفارسية،

الأمر الذي لم يستطع داريوس وخرخس تحقيقه بالسلاح. "لم يكن ثمة صلح، بل خيانة وشتيمة لليونان" كتب بلوتارك (أجزلاس، ٢٣).

لقد جنت اسبارطة ثمن هذه الخيانة بحق اليونان كلها حق ممارسة بنود "صلح الملك". وبديء بإخضاع حواضر بلوبنيز المعادية لإسبارطة؛ كانت مالتيني، أهم هذه الحاضرات، قد أبديت. وأولت سبارطة اهتماماً فريداً لخصومها، أثينا وطيبة، وأولينيث التي تطورت حديثاً في شبه جزيرة شالسديك وجمعت حولها عدة حواضر مجاورة. وفي العام ٣٨٢ نظمت اسبارطة غزوة ضد أولينيث و، في الطريق، احتلت غدراً كادمي، قلعة طيبة، ووضعت فيها حامية دائمة، وأقام السبارطيون في طيبة نظاماً إرهابياً، وسقط اسمنيك، أشهر ممثلي الديمقراطية في طيبة، ضحية هذا الإرهاب. وهاجر العديد من الديمقراطيين الطيبين إلى أثينا للإعداد لتحرير بلادهم من العبودية. وفي كانون أول ٣٧٩، ولجت جماعة من هؤلاء المواطنين، بقيادة بلوبداس ولبلاس راقصات، في أثناء إحدى الاحتفالات إلى مسكن ضباط سبارطيون وأصدقائهم وذبحهم. كما طرد متمرّدو طيبة الحامية السبارطية وعقدوا حلفاً مع أثينا. حاولت سبارطة عبثاً قمع التمرد لأنها أرثت الحقد العام باستبداديتها العسكرية المنفلتة.

### الاتحاد الأثيني البحري الثاني. ازدهار وانحطاط طيبة

في هذا الوقت، بدأت الديمقراطية الأثينية من جديد تجمع حولها الحواضر البحرية وتحالفهم. وفي العام ٣٧٨، مهر الاتحاد الثاني البحري الأثينين بمعاهدة حفرت نصوصها على شريحة ضخمة من الرخام، مازال سليمة. بنيت هذه الجامعة على مبادئ المساواة. "يستطيع اليونان والبرابرة القاطنين في البر وأبناء الجزر غير الخاضعين لملك الفرس الانضمام إلى الاتحاد. يبقى كل المتحالفين مستقلين ويحكمهم مجلس دائم من المندوبين، مقره أثينا ولا يرتبط بمنظمات الدولة الأثينية الديمقراطية. وكان هذا المجلس أيضاً مؤسسة قضائية عليا. تضمن الجمعية الوطنية قراراته. يشترك المتحالفون بخزينة يحدد مبلغها المجلس، عوض الضريبة التي فرضتها امبراطورية أثينا البحرية والتي كانت تبعث غضب الأحرار.

تضم هذه الجامعة الثانية أقل من الحواضر (حوالي ٧٠) من امبراطورية أثينا للقرن الخامس التي كانت تعد أكثر من ٢٠٠ حاضرة. وتخالفها بوضوح من حيث استقلال

ومساواة أعضائها. على ذلك، كانت أثينا تمارس أحياناً على حلفائها تدابير جبرية تشير اضطرابات سياسية عنيفة وتعرض صلابة الاتحاد للخلخلة.

لكن إسبارطة التي لم تشأ التسليم بفقدان هيمنتها، شرعت في البر والبحر حرباً ضد الحلف الأثيني. الذي كان مظفراً حيثما كان؛ وقد أكره قادته العسكريون الموهوبون، تيموثي وشابرياس، سبارطة أن تبدأ مفاوضات (في العام ٣٧٤)، كانت حصيلتها الاعتراف بالحلف الأثيني وتفوق سبارطة في جزيرة بلوبونيز. لكن سبارطة قطعت المفاوضات وحاولت مرة أخرى أن تسحق الاتحاد الأثيني. وألحقت كورسير، الجزيرة بالغة الأهمية من حيث الاستراتيجية والتجارة. وقد أفضى هذا الصراع الشاق إلى هزيمة سبارطة. وفي العام ٣٧١ أرسل ملك الفرس إلى هيلاد وفداً عرض "وساطته" لعقد الصلح. وقد أدت مفاوضات سبارطة إلى ترسيخ هيمنة أثينا في الاتحاد وحقوقها في الساحل الشمالي لبحر إيجه. ورضيت سبارطة بسحب حامياتها التي كانت قد أرسلتها إلى خلف حدودها. وهكذا تقلصت إلى العدم دعاوى سبارطة في التفوق على هيلاد.

في هذه الحقبة تدخل في المعركة بعد انقلاب ديموقراطي قوة جديدة هي طيبة، تطلب الاعتراف بهيمنتها في بيوتيا. ردت سبارطة هذه المطامع. وغادر المنسوب الطيبي، الديموقراطي البارز والمواطن المتحمس، المؤتمر علانية. وعلقت المفاوضات. فسارع السبارطيون، الذين يتطلعون أبداً إلى السيطرة، إلى إرسال حجاج من قواتهم إلى بيوتيا. لكن طيبة أبقت الكثير من مواطنيها في الأرياف، فتمكن إيامنونداس من إعادة تشكيل جيش بيوتي. وخلق قوات صدام ("لواء مقدس") وأبدع أسلوباً جديداً بالمعارك: هجوم الجنود بالرتل المائل. وفي معركة لوكتز (٣٧١)، خرق الجيش الطيبي، بعد أن وضع جوجو السفينة إلى أمام، كما المركب ثلاثي المجاذيف، صفوف العدو. وتلقت القوات السبارطية، المعتبرة لانتقهر، الفشل ويقتل قائدها، الملك كلونبروت. بدل هذا الحدث علاقات القوى في هيلاد. فإلى جانب أثينا، يعود المكان المهيمن إلى طيبة التي جمعت حولها بيوتيا والعديد من الحواضر. وفضلاً عن هذا، وفي جزيرة بلوبونيز، تصدى أركادي لسبارطة. وخشية من بيوتيا، تقربت أثينا من السبارطيين.

وقد أنزل إيامنونداس بأسبارطة ضربة قاسية: اجتاح لاكونيا حتى الخليج؛ ولم يعد الأرقاء والأجراء يخشون سادتهم، خاصة بعد أن اجتاز إيامنونداس مسينا وأعلن حريتهم.

وأعانهم على تنظيم دولة، لعبت منذذ دوراً هاماً. وفقدت سبارطة أغلب حاضراتها ورعاياها المستغلين. وتفككت الجامعة البلوبونيزية، وصارت أركاديا دولة مستقلة عاصمتها مغالوبوس (الـ"مدينة العظمى")، التي بنيت لتكون عاصمة.

وهكذا، في ستينات القرن الرابع، تشكلت أربع مجموعات سياسية في هيلاد: باسم مجموعة طيبة وأثينا. وخسرت سبارطة تفوقها. لكن هذه المجموعات لم تدم طويلاً، بسبب التنارع بين طيبة وأثينا على الهيمنة. ضمت طيبة جزءاً من الحاضرات الهلينية، والباقي تحالف مع أثينا وسبارطة. واتقد الصراع الداخلي الذي نشب في أركاديا. ودارت معركة بين الجامعتين في العام ٣٦٢ في مانتيني. ظفرت طيبة وسقط إلامنونداس. وقف حلفاء أثينا السابقون ضد طيبة وانكفأت جامعة طيبة عن لعب دور هام. في هذا الظرف، أفضت تناحرات مستعرة إلى تفكك الحلف الثاني البحري الأثيني. فاضطرت أثينا إلى بذل النشاط السياسي في البحر، الذي كان يتطلب مناهل ضخمة وسلطة وطيدة. لذا اكتسبت هيمنتها في الحلف طيبة الاستبداد واليد الحديدية. فعبرت حاضرات شيو، رودس، كوس، إرثري، وغيرها عن ميولها المعادية لأثينا وتركوا الاتحاد. ولم تثمر معارك أثينا الدامية ضد حلفائها السابقين ("حرب بين الحلفاء") وفي العام ٣٥٥ لم يكن حلف أثينا الثاني يضم سوى ٣٠ حاضرة.

وفي العام نفسه، رغم عدة محاولات للصمود والتكاتف، وجدت هيلاد نفسها مفككة مقطعة الأوصال: في الشمال، كانت مقدونيا تشد الخناق أكثر فأكثر على ترساليا؛ وكان العديد من أمصار اليونان المركزية تمارس سياسة مستقلة؛ وكان يتتابع صراع في بلوبونيز بين الأقاليم التي تستقل؛ وكانت الأقاليم-الجزر الشاطئية منعزلة سياسياً. وكسانت رغبة القوى الديمقراطية بتوحيد هيلاد تصطدم بمقاومة مراكز ضخمة معادية (أثينا. طيبة وأولينيث) من جهة، ومن جهة أخرى بقوى أوليغارشية أنشط مما كانت في القرن الخامس، كانت سبارطة موطنها الدائم.

وأيضاً، حوالي منتصف القرن الرابع، اجتاحت اليونان كلها أزمة سياسية حادة، بدت خانقة. إذ كانت اليونان المجزأة مطرح تدخلات واسعة بشؤونها من قبل الفرس.



## الفصل الخامس والثلاثون

### الطاقة المتنامية لمقدونيا

#### وحملات الاسكندر الكبير

##### بدايات السيطرة المقدونية في اليونان

حوالي نهاية حرب البلوبونيز، تبدأ مناطق جديدة، كانت متخلفة، مثل مقدونيا، أيبيريا، أركاديا، تلعب دورا هاما.

كانت مقدونيا بلدا جبليا واسعا. يقع في شمال غرب جزيرة البلقان؛ يحدها من الجنوب والجنوب الغربي ايبيريا، ترساليا وشبه جزيرة شالسدك؛ ومن الشرق، تجاورها بلاد الثراس، واتحدتا في القرن الرابع؛ ومن الشرق قبائل هليان العدوانية. كان المقدونيون يتكلمون لهجة يونانية، لا يفهمها الهلينيون.

كانت الجبال الغابية والسهل الخصب محرومة من الثغور على البحر، الأمر الذي أخر تطورها التاريخي. استمر المجتمع القبلي فيها حتى القرن السادس. كان اهتمام الناس الرئيس التدجين (بخاصة الأحصنة) وزراعة الأرض؛ وكان الصيد في الغابات التي تغطي الجبال مدرسة رائعة للحرب عند المقدونين. ترتبط التجارة والحرف كليا بالمدن اليونانية لسالسدك. كانت العبودية بعامة ذات طبيعة أبوية. ولكل منطقة قبلية نبلاء بالولادة، يلعبون الدور المهيمن ويمتلكون أراض مترامية الأطراف.

حافظ النظام السياسي طويلا على السمات الديموقراطية الحريية. وكان الملوك المقدونيون يحكمون حسب مبدأ الاستبداد؛ مع أن سلطتهم كانت محدودة وغير مستقرة؛ يضطلع المجلس "الوراثي" (أسرة الملك) بالدور الرئيس، المجلس الذي يضم ممثلي الأرستقراطية العسكرية والعقارية. وكان ثمة أيضا جمعية وطنية شعبية من النموذج القديم، الذي يجمع كل المحاربين.

وحوالي الربع الأخير من القرن الخامس، بالاستناد إلى حرب البلبونيز بخاصة، تبدأ مقدونيا بالخروج من عزلتها الاقتصادية، بتبادل البضائع مع اليونان، الذي أخضعها للتأثير المتنامي للاقتصاد والزراعة الهلينية. وقد أرسل ملك مقدونيا أرشلايس (٤١٣-٣٩٩) المدعي أنه حفيد هراقل، عرباته إلى الألعاب الأولمبية ودعا أوربيد إلى قصره. وقد بنى له مهندسون يونان ثكنات لكي يصد هجوم التراس؛ وكان القادة اليونان يدربون جيشه.

تطورت الوحدة العسكرية والسياسية المقدونية بخاصة في أواسط القرن الرابع، ففي عهد فيليب الثاني (٣٥٩-٣٣٦ ق.م) المعتبر مؤسس الدولة المقدونية.

تلقى فيليب الثاني تربية جدية في اليونان (كان مدة طويلة رهينة في طيبة، في بيت أبامونداس). كان رجل سياسة محنكا يعرف كيف يستخدم، لخدمة مصالحه، القوة العسكرية، الدبلوماسية والإقصاد. في عهده، دخلت مقدونيا في الحلبة الدولية، وسعت كثيرا حدودها وأضحت الدولة الأقوى في شبه جزيرة البلقان.

بداية شكل فيليب جيشا موحدا، بينما كان قبله لكل منطقة متطوعة شعبية؛ وتوصل إلى مركزة هذه الوحدات في عاصمة المملكة (بيللا)، تحت قيادة الملك العليا. اقتبس الصيغة اليونانية، وخلق الكتائب المقدونة الشهيرة، المتضمنة ١٦ صفا من الجنود المترارفين. كانت العناصر مسلحة بسيف ورمح بطول ٥م تقريبا. وبوضعها على أكتاف جنود المقدمة، تشكل هذه الرماح قنفذة فعلية من الحديد. ويجعل تنفيذ المناورات الدقيق والأريث من الكتيبة جسدا مقدودا من كتلة واحدة. وجند فيليب بين الحرس خفيف السلاح سلاح خيالة ثقيلة رائعا. فكانت الكتيبة، وقد حمى الخيالة مجنبتها، قوة قوية على أرض واحدة.

وكان التنظيم المالي تدبيرا آخر هاما لفيليب في بناء الدولة المقدونية. استخدم احتياطيه من المعادن الثمينة، التي كبرت عن طريق فتح المناطق الذهبية ومدن ثراسيا الغنية؛ وصك النقود؛ فتداول الناس نقد فيليب الذهبي إلى جانب النقد الهليني الفضي.

خلقت إصلاحات فيليب القتالية والمالية أساس جهاز الدولة البدائية، الأقل اعتمادا على اضطهاد واستثمار الجماهير الكادحة والأكثر اهتماما بالسياسة الامبريالية اللصة.

كما أفاد فيليب من الأزمة الحادة السياسية والاجتماعية التي أضعفت دول اليونان، واكتسب هنا العديد من الأنصار الذين لم يروا مخرجا سوى السيطرة المقدونية على هيلاد. أساسا، كان الأغنياء هم الذين يعانون من الاضطرابات الاجتماعية، من المتطلبات الباهظة

(الشعائر)، ومن المصادرات فراحوا يحلمون بدولة قوية تقمع الجماهير. وكان ثمة من يرغب في وحدة اليونان بقيادة مقدونية لدحر الفرس. كان فيليب يهتم كثيراً بأنصاره، فيكسبهم. لكن أغلب الشعب في أثينا والمدن الأخرى، دلك على موقف متصلب من فيليب ودعم القادة الديموقراطيين (ديموستين، هيبريد وغيرهما) الذين كانوا يقاتلون بدون هوادة ضد فيليب وي طرحون برنامج وحدة سياسية لهيللاد على قاعدة ديموقراطية.

تفاقم هذا الصراع بين الأحزاب المقدونية واللا-مقدونية بخاصة في أثينا.

كان قادة الحزب المقدوني: الخطيب إشين، الكاتب إزوقراط، الخطيب ورجل السياسة أوبول. وكانت أهدافهم متباينة. إزوقراط، وقد صار أستاذ الفصاحة، كان يبغى اتحاد اليونان بزعامة أثينا، لشن الحرب على الفرس. وعلى هذا الموضوع أوقف خطابه الشهير، حيث ناصر أثينا. لكن يأس إزوقراط من وحدة اليونان بدون عون خارجي، جعله يرى في فيليب موحد ومنقذ اليونان الأكفأ. وفي رسالة إلى فيليب ينصحه بقيادة اليونان متحدتين، لمصارعة الـ"بربر". وهكذا، لم يكن فيليب في عينيه سوى أداة نضال ضد الفرس. وعندما وعى أن الملك المقدوني صار مضطهد الهلننيين، انضم إلى صفوف الذائدين عن الحرية وانتحر بعد هزيمة شيروني. أما أوبول وإشين فقد تعكر موقفها فقط من فيليب وأثروا على سياسة أثينا لصالحه.

لكن الحزب اللا-مقدوني، كان بزعامة ديموستين. وكونه ابن صانع سلاح، وقائد الحزب الديموقراطي في أثينا، جعله يوقف حياته على النضال ضد الـ"بربري المقدوني وأغراضه غير المشروعة". وقد سميت خطاباته الشهيرة، العامرة بالغضب والغسل ضد فيليب، "الفيليبات".

لكن الصراع السياسي في أولنيث، وفي المدن التابعة لशलالسديك وشواطئ ثراسيا، أعطى فيليب فرصة إخضاعها لسلطته. ولقد استدعى هذا العمل الذي ضرب تجارة أثينا مع البحر الأسود، تدخل أثينا. قدمت الحرب المقدسة (٣٥٦-٣٤٦) للمقدونيين ذريعة التدخل في شؤون اليونان. فاحتل الفوسيديون الأراضي<sup>١</sup> الموقوفة لأبولون دالفيا. وبذريعة الدفاع عن مصالح المقام، تصدت تساليا وبيوتيا للفوسيديين. بداية، هزم التساليون، فطلبوا

---

<sup>١</sup> - سكان الإقليم اليوناني الواقع بين تساليا وبيوتيا، شمال خليج كورنثيا - المترجم -.



موازنة فيليب. واستمر القتال لكنه لم يحمل النصر لأحد. وفي العام ٣٤٦، عقد صلح، بتأثير إشين، أوبول وفيلوقراط، أنصار في أثينا، ضمن فتوح مقدونية في اليونان وثراسيا. أثارت هذه الأحداث نشاط الحزب اللا-مقدوني في أثينا. وبمبادرة ديموستين، تشكل حلف للدفاع عن الاستقلال دول اليونان الوسطى، بقيادة أثينا وطيبة. وكسب الأثينيون حق الإبحار بقواتهم إلى شواطئ ثراسيا. واستمر صراع فيليب ضد هذا الهجوم عدة سنوات بدون نتيجة. الأمر الذي دعاه فيليب، مستندا إلى أنصار مقدونيا، أن يقذف قواته محاربة اليونان الوسطى. جرت المعركة الحاسمة في العام ٣٣٨، بشيرون في بيوتيا. كان الأثينيون على رأس الجيش اليوناني. رتب المقدونيون قواتهم الرئيسية في الأجنحة، وقاد المجنبة اليسرى ابن فيليب، ألكسندر، ١٨ عاما. "كانت الموقعة طويلة وصعبة، يكتب ديودور، لأن المواطنين اليونانيين كانوا يقاتلون يائسين". وأقيم فيما بعد، في أرض القتال نصب كبير لأسد. يقول بوزانياس، كاتب ورحالة من القرن الثاني، إن هذا الأسد الحامي وضعه أهل طيبة فوق قبر مشترك، رمزا لبقظة وجرأة أولئك الذين سقطوا دفاعا عن الحرية الهلينية.

وسم هذا النصر والمؤتمر الهليني لكورنثيا، بداية حقبة طويلة للسيطرة المقدونية في اليونان. ولقد التزم مندوبو كل الدول اليونانية (عدا إسبارطة التي لم تشارك بالمؤتمر أبدا) الاعتراف بسيطرة مقدونيا وقبول تنظيم اتحاد بقيادتها. ومن جهته، ضمن فيليب حق الدفاع عن مصالح الأغنياء ملاك العبيد: وأعلنت الملكية الخاصة حقا مقدسا: ومنع تقسيم الأرض مجددا، وإلغاء الديون، ولاتحرير العبيد بقصد قلب الدولة. وأخيرا قرر المؤتمر، باقتراح من فيليب، إعلان الحرب على الفرس "تأرا من تدنيس المقابر الهلينية". كاد فيليب أن يكون لسان حال اليونان كلها، لكنه بالفعل شرذم الدول الديموقراطية خدمة للأولغارشية.

لم يستطع فيليب أن يحقق حملة ضد الفرس. فقد اغتيل في العام ٣٣٦، في أثناء قمة الإعداد للمعركة، خلال الاحتفال بزفاف ابنته. دبر هذا الاغتيال ممثلو النبالة الغنية في مقدونيا-العليا، الغاضبون من سياسته المركزية التي تضر حقوقهم. كما تم هذا بالتآمر مع الفرس. وربما كان ثمة خيط من خيوط الاغتيال يشده أهله، زوجته أولمبياس، وابنه ألكسندر، وريثا العرش.

## امبراطورية اسكندر المقدوني

الاسكندر المقدوني (٣٣٦-٣٢٣) واحد من ألمع شخصيات العهود القديمة. ولقد تركت عظمة إمبراطوريته الممتدة من بحر إيجه حتى حوض الهندوس ومن صحراء ليبيا إلى بحر كسبيان، بين أوروبا وآسيا، وقصر مدة حكمه التي خلالها حقق كل فتوحاته، تركت أثرا لايمحي من ذاكرة معاصريه وجعلته بطل أساطير عديدة.

. من المصادر الرئيسة لتاريخ الاسكندر، يجب ذكر أعمال كاتبي اليونان بلوتارك وأريان وأعمال المؤلف اللاتيني كانت كور (القرن الأول ب.م). نعثر في التاريخ القديم، إلى جانب أمثلة شخص الإسكندر، تقويمات شديدة العدوانية. هكذا، يستند أريان في مؤلفه على ذكريات مرافقي جيوش الاسكندر المعجبين به، بينما ينهض كانت كور ضد تعظيم شخصية الفاتح أو الغازي المقدوني. كما نعثر على أحكام مناقضة جدا لدى المؤرخين المعاصرين: دروزان، مثلا، يضعه في موضع المثال بينما يقدح به بيلوش.

تسبم الاسكندر العرش وهو في العشرين من عمره. وقد جعلت منه التربية اليونانية التي تلقاها على يد فيليب رجلا متقفا. وأرسطو، الذي كان مربيه في العام ٣٤٣ حتى ٣٤٠، لم يكتف بإعطائه معارف واسعة، بل رباه على حب الحضارة الهلينية وهيمنتها على اليونان كلها وكانت المطامع الإمبريالية تزكم أنوف محيط فيليب. الأمر الذي أفضى إلى استعمار مطامع ومطامح الاسكندر.

كانت بدايات ملكه بالغة الصعوبة وتطلبت من الملك الشاب الجراءة والصلابة. بدأ بتصفية الحساب مع متآمري النبيل المقدوني وكل ذويهم القابلين للدعاء باستلام السلطة. ثم خنق متمردي ثراسيا وإيليريا. وكانت إشاعة موته الكاذبة أمانة عصيان الدول اليونانية. وفي طيبة، أخذت صفة الجدية التامة. وبسرعة البرق، ظهر الاسكندر في بيوتيا، احتل طيبة، دمرها، وباع أهلها عبيدا.

بعد أن انتهى من خصومه في اليونان، أعد الاسكندر حملة الفرس التي داعب مشروعها أباه. لم يكد جيش الكسندر إلى آسيا (٣٣٤) كبيرا (٢٠ ألف عنصر مشاة. ٥ آلاف فارس و ١٦٠ سفينة). لكن فارس في عهود سلاطين تلك الأيام كانت تشبه بالفعل تمثالا عملاقا ذا أرجل من آجر. الشعوب مرهقة بالضرائب، ومختلف الالتزامات (بما فيها الخدمة العسكرية)، يطغى عليها الحكام، فتتمرد ضد النير الفارسي. كانت حركة التحرر

واسعة وقوية جدا في مصر. والجيش الفارسي، مهما كان قادرا وضاربا، فهو يفتقر للروح القتالية. كان مؤلفا أساسا من قوات جندھا الولاة تقاتل مكرهة. وكان المرتزقة اليونان، الذين يبلغ عددهم عشرين ألفا، كانوا قوة فعلية فاعلة. لكن لا يمكن الركون إليهم كليا في حرب ضد مواطنيهم. أخيرا حاول الولاة الفرس أنفسهم التمرد وخلع الأسرة المالكة. والأسرة المالكة نفسها عاجزة، عاطلة. وكانت الملكات وحاشيتهن يلعبن دورا هاما في القصر. واشتهر أحد عناصر الحاشية، المحظي الخصي باغراس، بتسليم العروش بالتتالي لملوك يقتلهم بعد التتويج؛ لكنه قتل خيرا بطعنة من صنيعته الرابع، داريوس الثالث كودومان.

وفي العام ٣٣٤، بعد أن حشد قواته في أمفوليس (على شاطئ إتراسيا)، مشى الكسندر إلى هلسبونت. كان الجيش المقدوني يعد عدة قرعات هليلينية (قربة ٧ آلاف عسكري). وبعد اجتياز هلسبونت، انقضت القوات المقدونية على طلائع الفرس قرب غرانيت (نهر يصب في برونند). ويحتل الكسندر بسهولة مدناً يونانية في آسيا الصغرى، استسلم أكثرها بدون قتال، على اعتبار هؤلاء الفاتحين محررين. لكن ميليت وهكارساس قاومتا ولم تسقطا إلا بعد معارك ضارية. عالج الكسندر المدن المحتلة بطرق متباينة: فسي بعضها يقنع بقضيته شرائح الشعب الديموقراطية، وفي مدن أخرى، يستند إلى الكهنوت، (في إفيز، مثلاً، حيث كان يوجد معبد أرتميس الشهير). وفي حالات، يعقد صلات قربى مع بعض الشيوخ الأعيان. هكذا، في كاريّا، اختارته الأميرة آدا.

وفي العام التالي، مشى جيش الاسكندر لفتح جنوب البحر الأبيض المتوسط. وعندما ولج تغور طوروس، "أبواب سوريا"، هاجمه الجيش الفارسي اللجب، بقيادة داريوس الثالث من الخلف. وقرب ضيعة إسوس، نجح الاسكندر، بهجوم مفاجيء من كتيبته وخيالته الثقيلة، بنشر الفوضى في صفوف الخصم المتراسة وأنزل به هزيمة ساحقة. هرب داريوس، تاركاً وراءه عسكره وعتاده، بما فيها درعه وعربته. وسجنت الأسرة المالكة التي ترافقه. أكرهت هذه النكبة داريوس على التفاوض من أجل الصلح. ويجيب الاسكندر برسالة غطرسة، يطلب فيها استسلاماً بدون شرط ولا قيد ويعلن نفسه "سيد آسيا".

ثم، غزا الجيش المقدوني جبيل، صيدا وصور، كانت جبيل جيدة التحصين ولم تحتل إلا بعد ستة أشهر من الحصار. وبهذه الحملة ضم الاسكندر إلى سلطانه فينيقيا كلها. وبعد

أن وطم سلطته في شاطئ البحر المتوسط، دخل مصر، حيث استقبله الشعب محررا. إن تأليه الفرعون في مصر العليا والسفلى، جعل الاسكندر يسعى أولا إلى كسب تأييد الكهنة. ويقدم العبادة الورعة للآلهة المصريين ويسافر ليحج عبر صحراء ليبيا، أمام معبد أمون، ليحصل على بركة الإله العظيم. حياه الكهنة كابن لأمون (أي فرعون مصري) وسيدوه على إمبراطورية العالم.

سعى الاسكندر إلى ترسيخ المفاهيم الإغريقية في البلدان الملحقة ليرسي فيها فتوحاته. ففي ممفيس، مثلا، نظم مباريات رياضية وموسيقية بمشاركة اليونان المدعويين لهذه الغاية. وأسس مدينة الاسكندرية، في غرب الدلتا، لنفس الهدف. واختار الاسكندر المكان بنفسه. ووزع إدارة مصر على عدة أشخاص. لئلا يعطي السلطة لحاكم واحد.

هكذا حقق الاسكندر، في بحر ثلاث سنوات تطلع النبالة الإغريقية-المقدونية في احتلال ساحل البحر المتوسط. كان الاتحاد الأثيني يحلم بهذا منذ عهد بركليس؛ وتحدث ديموستين في خطباته عن سيرة هيلاد الموحدة في العالم.

على ذلك، كان عليه أن يوطد سلطته في البلدان الواسعة الملحقة، الأمر الذي تطلب وقتا طويلا. يقول برمنيون، المرافق السابق لجيوش فيليب لالاسكندر، لدى اطلاعه على شروط الصلح التي اقترحها داريوس بعد موقعة إسوس: "أقبل، لو كنت الاسكندر". وماذا أجاب الاسكندر: "وأنا أيضا، لو كنت برمنيون".

رياستخدام الثروات المصرية والمواصلات البحرية الحرة مع هيلاد ومقدونيا، مشى الاسكندر، في العام ٣٣١، إلى ميزوبوتاميا عبر سوريا. هنا قرب الضيعة الأشورية غوغملا، على دجلة، دارت معركة أهم من كل معارك الحملة. كان الفرس قد جهزوا جيشا لجبا، بدت القوات الأغريكو-قدونية أمامه ضئيلة. لكن افتقار القوات الفارسية للوحدة، وكذلك فوضى وجبن داريوس الذي ترك جنوده في أوج المعارك، أمنت نصر الاسكندر. خسر الفرس الكثير من عناصرهم، وسحقت قدرة امبراطوريتهم. دخل الاسكندر بابل، حيث استقبله الشعب محررا. إن الاحتلال المتلاحق لعواصم الامبراطورية الفارسية: سوز، برسبولس، اسباتان، وضع بين يديه الثروات الخيالية من الكنز الامبراطوري (١٥٠ ألف تالنت). وحسب بعض المراجع، احرق القصر الملكي في برسبولس، العاصمة السابقة. لقد وضع موت داريوس<sup>١</sup> نهاية السلاطين الأشمنيد ومكن الاسكندر من إعلان نفسه

<sup>١</sup> - كان قد لجأ إلى ضفة نهر كاسبين وقتله غيلة ببسوس، والي باكتريان، في بارثيا.

خليفة الملك العظيم. آنئذ غير سياسته تجاه الفرس: دعم الأرستقراطية، قبل البزة الشرقية، اتبع الاحتفاء الآسيوي وأراد تقليده.

لكن مقاومة أبناء البلد، المقدمة خاصة في باكتريان وسوجدان، كبحت تقدمه نحو الشرق. على ذلك استولى الاسكندر على هذه المناطق في العام ٣٢٩، بحجة الانتقام لاغتيال داريوس. فهاجم البكتريون والساجديون، بقيادة سييتامين، رفيق جيوش بيسوس، ماراً بكندا (سمرقند) وذبخوا فيها الحامية المقدونية (٢٠٠٠ جندي). انضمت قبائل الماساجيت والساس المجاورة إلى المتمردين. أنهى الاسكندر التمرد بالترهيب والترغيب (القوة والدبلوماسية: هكذا، تزوج روكسان، ابنة أحد الأعيان البكتريين وحول العرس إلى مظاهرة سياسية فعلية. وشيد في أمكنة استراتيجية هامة، ميادين حصينة سميت كلها الاسكندرية، تطورت سريعاً. تقع أحدها، اسكندرية إيشاتيه (لينينباد)، في الطرف الشمالي من إمبراطوريته.

بعد إخضاع سوجدان وبكتريان، انطلق الاسكندر إلى الهند. وعلى رأس جيش جرار (مؤلف من مقدونيين، يونان وآسيويين) اجتاز المضائق ونزل في البنجاب (وادي الهندوس). كلفت عوائق هذه الحملة حياة آلاف الجنود ودواب الركوب. وفي طريقه تابع الاسكندر بناء الحصون والبيادين المنيعه. وقد جعل الصراع المستمر بين الحكام الهنود، الذي استغله جيداً، جعل الغزوة أسهل. وبعد أن اجتاز الهندوس والهيدياسب، قاتل ملك الهند الغربية، بوروس (آنئذ رأى المقدونيون لأول مرة فيلة المعركة). وهنا أسس الاسكندر مستعمرتيه الأخيرتين، نيكايا وبوكفاليا (سميت هكذا كذكرى بوسفال، حسان الاسكندر المفضل، الذي قتل في إحدى المعارك)، وذهب أبعد، حتى هيغار، هادفاً احتلال وادي الغانج. لكن هذه الحملة الطويلة والقاسية قد أنهكت الجيش. فتنامى الغضب حتى لدى الضباط الكبار، فأكره على العدول عن سياسته الشرقية ومشروعه "في جعل حدود الياپسة تخوماً لامبراطوريته" (أريان). فتفجرت المؤامرات بدءاً من العام ٣٣٠ بين الجنود (والشباب المقدونيين). تصدى الاسكندر لهذا الوضع بتدابير حازمة، دون تردد بقمع مقريه؛ وهكذا سقط بارمانيون، ملازمه ومعاونه، وفيلوتاس، ابن هذا الأخير، قائد الخيالة. وقتل كليتوس، صديق الاسكندر الذي تجرأ على الاحتجاج على سياسته الشرقية ودعم الفرس، قتل بضربة رمح من يد الملك في أثناء إحدى الاحتفالات.

وفي معسكر هيفاز، رفضت كل القوات، بما فيهم الضباط، متابعة الحملة. وبعد قضائه ثلاث ليالي تحت الخيمة، في عزلة مطلقة، أمر الاسكندر بتشكيل أسطول صغير على ضفة هيداسب، من أجل اجتياز الهندوس حتى المحيط الهندي. بدأ الانسحاب في العام ٣٢٦، وكان صعبا جدا. وعند الوصول إلى دلتا الهندوس، كلف الاسكندر نيارك بمتابعة الطريق البحري (غير المسبور آنذ) حتى الخليج العربي، بينما عاد هو نفسه عن طريق البر مع ما بقي من جيشه، مجتازا صحارى جيجروزيا اللاهية. وانتهت الحملة في بابل (٣٢٥).

في أثناء الحرب، وكذلك بعد وقف القتال، حاول الاسكندر بطريقة بدائية أحيانا صهر اليونان والفرس في بوتقة واحدة. كان يشجع الزواج المختلط: ففي يوم واحد، تزوج ١٠٠٠٠ جندي يوناني من بنات فارسيات. واتخذ الاسكندر زوجتين له، حسب عادات الملوك العظام، أميرتين فارسيتين. فراح نفوذ النبل الشرقي ينمو في الإدارة، في القصر وفي الجيش. ومن الجدير بالذكر ان الاسكندر كان في الوقت ذاته ينشر الهيلينية لدى الفرس؛ وتعلم ٣٠٠٠٠ ألف شاب فارسي من المقدونيين فن الحرب والعادات واللغة.

لكن سياسة الاسكندر هذه كانت تصطدم بمعارضة أقوى فأقوى. وفي العام ٣٢٤، في أوبيس، على دجلة، نشب تمرد الجند فعلا. قمعه الاسكندر بدون رحمة وأعدم ١٣ قاصرا، وشرع بتشكيل جيش جديد يسود فيه العنصر الفارسي. ومع ذلك التزم بإعطاء المقدونيين الامتيازات، بوعدهم بوضع أميز من وضع الفرس. وفي بابل، عاصمة امبراطوريته الواسعة، بدأ تنظيم هذه الامبراطورية وأعد حملة جديدة باتجاه الغرب، وأنذ مات بالبرداء في العام ٣٢٣.

لقد كان لفتح الامبراطورية الفارسية أهمية كبرى، لأنها أفضت إلى تقارب اقتصادي وثقافي بين الغرب والشرق. ولعب تأسيس عشرات المدن الجديدة ("الاسكندرية") دورا واسعا وعميقا في هذا التقارب، لأنها صارت مراكز تصهر الغريكو-مقدونيين بأبناء البلد الأصليين وتبادل المنجزات الثقافية. يقول ك.ماركس إن "انطلاقه اليونان الخارجية الواسعة تتزامن مع عهد الاسكندر".

على ذلك، يجب أن لاننسى أن غزو الشرق أفضى إلى تدمير الامبراطورية الفارسية، وإلى إقامة هيمنة جديدة، مؤسسة استعباد شرس للسكان الأصليين على يد الغريكو-مقدونيين؛ لكن هدم فارس لم يصحح شروط الجماهير الشعبية. فقد تلى نير

الإمبراطورية الفارسية المهترئة استغلال أكر وأقسى، مارسه المحتلون. وفي الوقت ذاته، كانت إمبراطورية الاسكندر الشاسعة وإمبراطورية الفرس تتشابهان في صدور الاثنان من فتح عدة دول تقع على مختلف المستويات الاجتماعية، الاقتصادية والثقافية. على ذلك، لم تحل الطبيعة غير المستقرة والوقتية لإمبراطورية الاسكندر المقدوني دون ظهور علاقات جديدة اجتماعية وسياسية، تمثل محطة جديدة في تطور المجتمع العبودي. وهنا شيد عالم هلايني جديد على أنقاض هذه الإمبراطورية.

## الفصل السادس والثلاثون

### الدول الهلينية

#### تفكك امبراطورية الاسكندر

لقد وُشمت حملة الاسكندر الشرقية بداية مرحلة سميت هلينية دامت حتى فتح آسيا الصغرى ومصر من قبل الرومان.

تمثل الهلينية أشكالا أكثر تطورا في مجتمع الرقيق الإغريقي، الذي يشمل أقاليم عديدة من الشرق، بينما ساهمت البلدان الشرقية، المرتبطة بدائرة الاقتصاد والثقافة الأوسطيين، في تقدمها. وفوق أرض امبراطورية الاسكندر نهضت دول مستقلة عظيمة، توفر خليطا عجيبا من المبادئ الشرقية والإغريقية. أي سلطنات مركزية من نموذج شرقي، شريحتها الحاكمة مؤلفة من اليونان، المقدونيين ومن الأرستقراطية المحلية الهلينية؛ كانت هذه، بوضعها المتميز، تعارض جمهرة السكان الأصليين المضطهدين من قبل الفلتح الأجنبي أيضا. فاستغلال الشعوب وحروب النهب تسمح للحكام الهلنيين بخلق قاعدة مادية لمهام ضخمة يمارسونها في الحياة الاقتصادية والثقافية. فآسيا الصغرى، آسيا الوسطى، المنطقة العربية، الهند، الصين كانت كلها تتاجر مع بلدان أوسطية. وفي بعض الدول الإغريقية حيث أخذت الحياة المادية مدى واسعا جدا، تطور العلم اليوناني كثيرا ومارس نفوذا واسعا على المستوى التقني.

لقد ساهمت العلاقات الاقتصادية بين بلدان الشرق واليونان في تفاعل ثقافاتهما. فالمراجع الرئيسة لتاريخ البلدان الإغريقية هي المعطيات الثرة لعلم الآثار، المتطور بفعل الحفريات المحققة في الزمنين الحاضر والمعاصر، والنقود حاملة رسوم الحكام الإغريق وكل أنواع النصوص. في مصر، اكتشف كم من ورق البردي، تشكل دراستها فرعاً خاصاً لعلم: *papyrologie* أي دراسة البردي.

قد عثرنا على معلومات حول الحقبة الهلينية عند مؤلفين قدماء مثل بوليبي (التاريخ



(العام)، ديدور سيسيليا (مكتبة التاريخ)، سترابون (جغرافيا)، بلوتارك (حياة فوسيون، أومين، دمترئوس بوليورست)، آبيان (الشؤون السورية).

بعد موت الاسكندر، اختصم قواده بضراوة بشأن السلطة. فالافتقار لوريث شرعي حرم الاسكندر من خليفة مباشر. لعب الجيش الدور الأهم في تعيين الحاكم. وبعد جدال عنيف كان يهدد بنشوب نزاع مسلح، سمي فيليب الثالث أريديه، أخ الاسكندر، المعتوه، ملكا. لكن السلطة انتقلت عمليا إلى بيردكاس، أحد رفاق الاسكندر ومقريبه، الذي سمي وليا. وبعد هذا، عندما وضعت أرملة الاسكندر روكسانا وليدا، سمي هذا أيضا عاهلا. وسمي قادة الاسكندر الآخرون ولاة في مختلف الولايات: بتولميه، ابن لاغوس، استلم مصر؛ أنتغونوس، فريجيا الكبرى في آسيا الصغرى؛ لزماك، ثراسيا. لكنهم لم يرغبوا في الاعتراف بوحدة الدولة ولا بسلطة الولي الأعلى. ولقد كانت الحقبة التي تلت الاسكندر دموية بالحروب بين الحكام، بداية بين "ديادوك"، ورثة الاسكندر، ثم بين "أبيغون". خلفائهم كان أول نزاع بين بيردكاس وبتولميه. وليبرز دوره، استولى بتولميه على جثة الاسكندر التي أراد البعض أن يدفنها في مدينة الأموات الملكية في مقدونيا. هاجم في سوريا قافلة الجثمان وأعاد جدث العاهل إلى مصر، ليدفنه في عاصمته، الاسكندرية. أكوه هذا العمل ومكائد بتولميه ضد بيردكاس أن يشرع هذا الأخير بتجريد حملة على مصر. لكن هذه القوات تاهت بين فروع النيل المستنقعية، حيث نفق الكثير من المقاتلين؛ فأعد ضباطه الذين يكرهونه لغطرسته وفضاظته، مؤامرة وقتلوه.

بعد وفاة بيردكاس، انتقلت الولاية إلى أنتباتروس. كانت الولاية تفترض وجود امبراطورية متكاثفة متحدة، لكن هذه الدولة العظمى كانت بالفعل تزداد تفككا. سلوكوس، وقد صار والي بابل، دخل في كوكبة الديادوك واشترك بنزاعهم المستمر. وبعد هذا، دعم وأكد أنتغونوس وولده دمترئوس بوليورست سيطرتهما في آسيا الصغرى، في سوريا، في فينيقيا وفي اليونان. خلق دمترئوس، القائد المحنك والمهندس العسكري، أسطولا رائعا واشتهر بآلات حصاره، البروج المتحركة ذات الطوابق التي بلغ ارتفاعها ٥٠م والتي تستدعي الإعجاب التام. لقب دمترئوس بوليورست (فاتح المدن).

أخيرا، وبعد ٢٠ عاما من موت الاسكندر، أفل نجم امبراطوريته نهائيا. تحالف بتولميه، سلوكوس، لزماك، كاساندرس ضد أنتيغوس دعي السطة العليا. استعرت الموقعة

الحاسمة في العام ٣٠١ قرب إيسوس، في فريجى العظمى. كان سلوكوس المساهم الأكبر في نصر الحلفاء، باستخدام قرابة ٤٠٠ فيل، تلقاها من ملك الهند تشاندراغوبتا عرفانا بالجميل لأنه تخلى له عن ممتلكاته في الهند. سقط أنتيغونوس في هذه المعركة، هرب ابنه إلى إفيز، حيث كان أسطوله. نجم عن معركة إيسوس، المعتمدة معلما في التاريخ الهليني، تشكيل ثلاث دول "هلينية" عظمى: مصر، سوريا، مقدونيا، يحكمها آل بتولميه، آل سلوسيد وآل أنتغونيد. لكن هؤلاء الأخيرين لم يوطدوا وضعهم في مقدونيا واليونان إلا بعد صراع ضار جديد. ومنذئذ، قدم تاريخ الدول الهلينية، التي ولدت على أرض امبراطورية الاسكندر المقدوني، خصائص ناجمة عن تركيبها وبنيتها.

### مملكة آل بتولميه

لقد حافظ أحفاد بتولميه، أبناء لاغوس، على حكم مصر حتى الغزو الروماني (في العام ٣٠ ق.م). فمن جهة، كانت حكومة مصر الهلينية مؤسسة على المبادئ الموروثة من الأزمنة السابقة: سلطة ملكية مستبدة، مركزية محكمة في كل مجالات الحياة، جهاز بيروقراطي متطور. بقي التقسيم الإداري على حاله السابق: استمرت مصر العليا والسفلى بنوماتها-قبائلها وتنظيمها المشاعي أو المشترك. ومن جهة أخرى، رأينا ظهور خصائص جديدة. هكذا، كان جهاز الدولة مكون من اليونان والمقدونيين حصرا، الأمر الذي أحال ابن البلد إلى مرتبة أدنى. وجعل النهج الإداري من السكان الأصليين شريحة مضطهدة، مستغلة.

كان آل بتولميه يعتبرون مصر ملكية خاصة لهم. كان الملك مالك سيادة الأرض، التي قسمها الأكبر مجاله: الـ"أراضي الملكية" يحرسها مزارعون صغار بالوراثة، الـ"المزارعون الملكييون". وما كان يميز وضع هؤلاء المزارعين في مصر الهلينية، هو أنهم ماكانوا أحرارا في نشاطهم الاقتصادي. كان هذا النشاط يسوى بدقة، بتحديد طبيعة وكمية المزروعات المسموح بزراعتها. لم يكن الفلاح قادرا على تغيير الضوابط المكتوبة وكان يلتزم بأداء غرامة ضخمة في حال العكس.

لم تكن أدوات الإنتاج ملك المزارعين؛ فالسلطات المحلية تزودهم بالمواد، كالقمح والدواب. يدفعون كل شيء عينا، فضلا عن هذا يقدمون جزءا من المحصول باسم ضريبة الدخل ومتطلبات متفرقة. وأحيانا يؤدي الحارث أكثر من نصف ما ينتج. واقتصاد

هؤلاء "الفلاحين" موضوع دوما تحت رقابة الموظفين. وتقوم بدقة حقول القمح والحصاد. ولم يكن المزارعون الملكيون مخولين مغادرة الأرض.

فضلا عن الأراضي "الملكية"، كان ثمة أراض "ممنوحة" يمكن استعادتها لكنها متقلبة بالضرائب والمراقبة. جزء منها يهبه الملك للمعابد والسادة. مثلا، عثر على أرشيف ضخ من ورق البردي لزينون، مسجل ملكية كبير موظفي أبولونيوس. تشير الوثائق أن هذا الأخير تلقى هذه الإقطاعة من ٣٠٠٠ هكتار هدية من بتولمي الثاني فيلادلفا. يضم قسم كبير من الإقطاعة ملكيات "المزارعين الملكيين"، الذين يهبون أبولونيوس، كمزارعة، حصة كبيرة من الموسم. وكانت مساحة أخرى من الإقطاعة يحرثها عبيد ومأجورون. هنا كان يشيد قصر السيد، مع الكثير من الخدمات التي تؤمن له الحياة الرغدة الهنية.

كان قسم آخر كبير من الأراضي الموهوبة للجنود، للبحارة الرواد وللضباط. بداية تعتبر كمنحة مؤقتة، لكنها شيئا فشيئا تصبح وراثية.

كل الثروات الطبيعية: مناجم وفحم، معادن وملح، ومقالع وسواها، تخص الملك أيضا. ونفس المركزية تميز الصناعة، التي كانت فروعها الأهم، مثل إنتاج الزيت والنسيج، حكرا ملكيا. ويكلف المزارعون العامون بشراء المواد الأولية بالسعر الذي حددته الدولة. أي بيع آخر معاقب بصرامة. والمواد الأولية المخزنة في مخازن الدولة ترحل فيما بعد إلى المشاريع الملكية. وكان الزيت أيضا ينتج في مشروعات تخص المعابد. لكن ورشات عصر الزيتون تعمل شهرين فقط، وهي برقابة الموظفين. وماتبقى من العام، كان مختوما بالشمع الأحمر. وكانت كل معاصر الزيت مسجلة. وكانت المناسج والمنسوجات منظمة أيضا، مع أقل من التقييدات. قسم كبير منها يخص مشروعات المعابد، الشهيرة بإنتاج منسوجات فخمة. وفروع الصناعة الهامة الأخرى: إنتاج الملح، الجعة، الزجاج، البردي، كانت أيضا حكرا جزئيا. وكانت كمية العمل والأجر مسواة بدقة. كان أغلب العمال أناسا أحرارا، لكنهم يعيشون أسوأ الشروط: مرتبطون بقبيلتهم، وليس لهم الانتقال إلى قبيلة أخرى إلا بإذن، ومن يخالف يعاد بالقوة. ويؤدي غرامة باهظة.

كانت التجارة محتكرة هي الأخرى. تذهب المنتوجات إلى المزارعين العامين وإلى الموظفين، منظمي التجارة الملكية. والحوول دون المزاحمة الأجنبية، أقاموا حواجز جمركية لعرقلة استيراد البضائع.

كانت التجارة الخارجية تحتل مكانا هاما في اقتصاد مصر الهلينية. كانت البلاد تصدر، إلى الدول الأوسطية، المنسوجات، البردي، الزجاج وبخاصة القمح. ومنذ بداية القرن الثالث، فيما يخص تصدير القمح، أقصت مصر مزاحمتها: ثراسيا وأقاليم آسيا الصغرى. وكان المستورد يتضمن بخاصة مواد الترف للشرائح الحاكمة. ومن المنطقة العربية، تستورد العطور، الذهب، الحجارة الثمينة؛ ومن الهند، العاج، المركبات الملونة، العطار والرز؛ ومن الصين، الحرير.

كان الدرب التجاري البري يعبر الجزيرة العربية وجنوب سوريا؛ والطريق البحري، عبر البحر الأحمر. لذا أوصل آل بتولميه قناة النيل إلى البحر الأحمر التي حفرت بأمر الفرعون نيشايو. كانت مراكب النقل تتسع حتى ٣٠٠ طن. وكان آل بتولميه يمتلكون أنفذ أقوى أسطول تجاري. وكانت دروب القوافل نشطة بشكل ملحوظ. وكانت كسل التجارة الضخمة حكرا على الملك، وكانت كل وسائل النقل (السفن، المطايا) مسجلة ومستخدمة في التجارة الملكية.

فتطور العديد من المدن بشكل كبير. صارت الاسكندرية مدينة ذات أهمية عالمية، واحتلت المقام الأول. وصفها سترابون في كتابه "الجغرافيا". كانت مدينة ضخمة، بنيت حسب تخطيط معماريين يونان: دنوكرات دي رودس وسوسترات دي كنيد. يقطعها شريانان، وفيها شوارع عريضة ومستقيمة (طول الشارع الرئيسي ٦ كم). البلاط، التقية وإضاءة الشوارع، والحدائق، الأروقة، المسارح، ميادين الخيل والملاعب، تشكل كلها خواص مدينة هلينية غنية وجيدة الإدارة. وكان حي القصور الملكية يتميز برونق فريد. كان هذا الحي يشغل ثلث المدينة. وكان كل ملك يبني قصرا، يباري روعة سابقه. رياض، حدائق أهلة بالحيوانات النادرة، مسابح فخمة، مساكن لزرافة من الخدم قرب مقام العاهل. وهنا تشاد المقابر الملكية، حيث ترقد جثة الاسكندر. وفي الحي ذاته، أقيم المتحف والمكتبة الرائعة الشهيرة. كان متحف الاسكندر ميدانا شاسعا للعلم والفنون والعلماء، المقيمون والمتغذون على حساب الملك، يعلمون، كما في أثينا، تحت الأروقة والماشى الظليلة. كانت المكاتب عامرة بعشرات آلاف المخطوطات. جهاز ضخ ينسخها ويدرسها. كان آل بتولميه يتباهون بثقافتهم ورعاية الفنون والعلم. وفي هذا المجال، تشهد ذات المركزية والرقابة التي عرفناها في الحياة الاقتصادية. شبه باحث قديم المتحف بقفص يعيش فيه

العلماء كما الطيور. (أثيني ٤٠١، *Athe'ne'e*).

كانت عظمة وأهمية الإسكندرية الاقتصادية تتبدى في مرفأيسها، رائعي الترتيب والإدارة. كانت المنارة، المبنية فوق صخرة في جزيرة فاروس، واحدة من معجزات العهد القديم. كانت برجاً ضخماً علوه أكثر من ١٠٠م، مكسو بالخام الأبيض. في قمته، توارث في الليل نار خشبية ينتشر ألقها في الأفق العبيد، بفعل مرايا معدنية. يشهد هذا الصرح، الذي كلف ثروة ضخمة - ٨٠٠ تالانت - على غنى آل بتولميه الأسطوري ومدى قدرتهم البحرية.

كان سكان الإسكندرية رعاياها الأصليين. خلاف الغريكو-مقدونيين والمصريين، كنا تلقى الفرس، السوريين، العرب، اليهود وسواهم، وهذا ما يثبت مرة أخرى الأهمية العالمية لهذه المدينة. كانت منقسمة، حسب المبدأ العرقي، إلى عدة أحياء مستقلة. ومن حيث المجتمع والسياسة، كان التمييز بين أبناء البلد الأصليين وبين الآتين الجدد غريكو-مقدونيين هو السمة الأبرز. فالبلد (شورا)، الأهله بآبن البلد، تقابل المدينة (بوليس) حيث يضطلع بالدور الأول اليونان والمقدونيون والمعمرون الآخرون. كان الملك سيد البلد المطلق، يملك هذا بحق الفتح. وكان السلاطين مؤلهين كما في مصر القديمة، تصاهر أشكال سلطتهم الاستبداد الشرقي. كانوا يحكمون بعون موظفين، أكثرهم مقدونيون ويوناني. على رأس الإدارات المركزية يقبع رجال المال، الذين بين أيديهم كل فروع إدارة خزينة الدولة. كان الموظفون يوهبون الأراضي ويتمتعون بكل أنواع الامتيازات.

والجيش، المكون من مرتزقة غريكو-مقدونيين، كان دعامة الملك وسنده. وآل بتولميه، شعوراً منهم بعلاقتهم بالتشكيلات المقاتلة، راحوا يغدقون عليهم الهبات. وقد حموا أيضاً الاكليروس المصري لأهميته الاقتصادية. كانت المعابد تملك أراض شاسعة، ومشاريع صناعية وعبيداً. وكان الكهنة وكذلك العناصر العسكرية والبيروقراطية معفيين من الضرائب. والشرائح المرتاحة من أبناء البلد الأصليين، الذين استخدمتهم الحكومة فيما بعد كسلطات محلية (مثلاً، أمراء قبائل)، والمزارعون العامون المتمتعون أيضاً بالامتيازات، كانوا جميعاً قد اغتتوا بسرعة واندمجوا بإرادتهم بالحضارة الهلينية.

كان "المزارعون الملكيون" يشكلون جمهرة الرعية. ولما كانوا مرهقين بالضرائب والالتزامات، مشلولين بتقييد دقيق لنشاطهم، كانوا مرتبطين كلياً بالمزارعين العامين،

بالمراقبين وبالموظفين من كل نمط وصنف، وكانوا يستغلون عمل العبيد في الزراعة والصناعة. وكانت معاملة العبيد متطورة جدا: كانوا مستوردين بخاصة من النوبة.

كان جهاز الدولة المصرية الهليني يبهظ كاهل جماهير الناس. كان منظمة تنهال على استنزاف الشرائح السفلى من الرعاية الأصلية، لدعم سلطة الفاتحين الغريكو-مقدونيين، والأكليروس والنبلاء، ولتأمين حياة الرغد والترف لبلاط آل بتولميه وحاشيتهم الضخمة. ولم يستند من تطور التقنية والتجارة، ومن كل إنجازات الثقافة سوى شرائح المجتمع العليا. كانت سياسة آل بتولميه الخارجية تهدف إلى تحصين حدود امبراطوريتهم في شرق البحر الأبيض المتوسط، أولا في حوض بحر إيجه ثم بسط سلطتهم على فينيقيا وسوريا، وأقاليم الشرق التي توحيدها التجارة البحرية والبرية. في الفترة الأولى من حكم آل بتولميه، كانت مصر تملك سيرين وعدة جزر في بحر إيجه (كريست، جزر السيكلاد، قبرص لسبوس، ساموس، ساموثراس) وأيضا فينيقيا، فلسطين، وجنوب سوريا. كان بتولميه الثالث إيفرجيت (٢٤٦-٢٢١) ينفرد بسياسة الغزو. فمضى إلى فتح آسيا الصغرى، واحتل ساردس وبابل.

تصدى لطمع آل بتولميه في بحر إيجه وسوريا الأنتيغونيد وسلوسيد. دافعوا بنجاح عن مصالحهم في آسيا الصغرى حتى نهاية القرن الثالث. وفي العام ٢١٧، صرعت قوات بتولميه الرابع في فلسطين، قرب رافيا، الملك السوري أنتيوشوس الثالث الأب.

لكن مصر تراجعت منذ القرن الثاني وفقدت هيمنتها في العالم الهليني. ومن أجل الحروب المستمرة التي كانت تخوضها، كان عدد المرتزقة الأجانب غير كاف بوضوح. وباستثناء اضطراب الملوك لمواجهة المقاومة الدائمة التي تضطلع بها الشرائح المضطهدة، أضعفت البلد النتائج الشؤم لسياسة آل بتولميه الداخلية، المبنية على استعباد الشعب الضعيف. ولقد تبدى النضال الطبقي العارم بالتمردات المستمرة، وبخاصة، بهجرة الفلاحين الجماعية؛ وهكذا تبلبلت حياة مصر واضطربت. فضلا عن هذا، زعزعت أسس الإمبراطورية الفتن والخلافات في قلب العائلة المالكة، التي كانت تفضي إلى انقلابات دموية على جهاز الدولة. فقاد استعارة النضال الاجتماعي والسياسي إلى انحطاط البلد.

انتهى تاريخ مصر الهلينية في ثلاثينيات القرن الأخير قبل الميلاد، عندما انتحرت كليوباترا، آخر ملوك بتولميه، بعد هزيمة أكتيوم واحتلال الإسكندرية من قبل الرومان، الذين ضموا مصر إلى إمبراطوريتهم.

## دولة السيلوسيدس *Seleucides*

كانت إمبراطورية السيلوسيدس مجمع شعوب عديدة وبلدا متتافرا، تشكل الجزء الآسيوي من سلطنة الاسكندر. وكانت جغرافيا هذه المناطق في غاية التنوع: وديان خصبة وأنهار غنية، جبال، صحارى وسواحل. كانت الشعوب التي تسكنها من مستويات متباينة اقتصاديا وثقافيا، منذ الوجود الرعوي البدائي حتى الحياة الحضارية في المدن الشهيرة. وكان السيلوسيدس يطلعون بمهمة صعبة الإنجاز: خلق من هذه البلدان والشعوب كلا منسجما. هذا ماكان يميز مملكتهم عن مملكة بتولميه، المتحدة من وجهة النظر العرقية والجغرافية.

يجب أن نشير أن دروب التجارة إلى الشرق (نحو الهند، آسيا الوسطى، والجزيرة العربي) تعبر مملكة السيلوسيدس وإلى الغرب (نحو البحر المتوسط). كانت دروبا نهريّة وبحرية، كالفرات والخليج العربي، وشبه ممرات قوافل. كان السيلوسيدس قد ورثوا المدن التجاريّة القديمة (بابل، دمشق وغيرهما) ومسالك التجارة التي شقّتها فارس؛ وكان التطور السابق قد خلق إذن شروط التبادل النشط بين الشعوب. وقد حدد هذا منذ البدء القاعدة الاقتصادية لإمبراطورية السيلوسيدس، بحيث منح تطور الصناعة والتداول المدن دورا كبيرا. واستمرارا لسياسة الاسكندر، تغلب السيلوسيدس على قرابة ٤٠٠ مدينة أخرى. رغبة في جعلها سدا منيعا لحماية الدولة. صار بعضها مراكز تجارية وصناعيّة ذات أهمية عالمية، مثل سيلوسيا على دجلة، وبخاصة انطاكية على العاصي، عاصمة الامبراطورية. فضلا عن هذه المدن، كان ثمة العديد من التجمعات العسكرية سميت *Katoikia*، كانت أحيانا تتحول إلى مدن، مثل ثكنة دورا-أوروبوس على الفرات. وكانت المراكز الحضارية اليونانية هذه تدعم النفوذ السياسي للأولغارشية الغريكو-مقدونية وتشكل جزرا هيلينية في محيط أبناء البلاد الأصليين.

واستنادا إلى تنوع أشكال الاقتصاد، التي تميز دولة السيلوسيدس، والعدد الكبير من المدن حيث تمارس الحواضر الإغريقية إلى جانب سلطة الملك العليا، كان صعبا على القيادات مركزة الحكومة كما فعل آل بتولميه. وهنا أيضا، كان الغريكو-مقونيون يتمتعون بوضع متميز ويسيطرون على أبناء البلد عوض الفرس. كانت السلطة الملكية مؤهلة، وكانت عبادة الملك رسمية. وكان الملك نفسه هو الذي يسمي الكهنة للممارسة

عبادته. كان السيلوسيدس يقولون إنهم سلالة الإله اليوناني أبولون، لكنهم في الوقت ذاته كانوا يدعون أخذهم السلطة من الإله البابلي بل-مردوك. ومن هنا أتى ازدواج سلطة السيلوسيدس. كان الملك يملك جهازا ضخما من الموظفين لجباية الضرائب، بإشراف أحد المختصين؛ أي ممارسة نهج معقد وذكي، بهدف استنزاف الرعية.

غير أن المركزية كانت أضعف مما في مصر. يملك الملك أكثر الأرض، لكن مساحات شاسعة ترك للمعابد، للمدن وللأفراد. وفي حقل الصناعة والتجارة، إلى جانب احتكار الملك لهما، كانت تتطور مشروعات خاصة.

كانت المدينتان الرئيستان أنطاكية وسليسيا، صلة وصل بين الشرق والغرب. أهم مدينتين بعد الاسكندرية. وكانت أغلب مدن اليونان تتمتع بالاستقلال. لها مجالسها وجمعياتها الوطنية، وموظفوها المنتخبون، ومعاهد للمراقبين، ودور رياضة وحلبات لألعاب القوى.

كان السيلوسيدس يولون المعابد أهمية أولى، جاهدين في كسب الدين لدعم نفوذهم بين الرعية. عدا أنهم كانوا يخططون لتوطيد أركان امبراطوريتهم بخلق منظمة عسكرية ونهج إداري واحد. فقسموا الدولة إلى ٧٢ ولاية، يحكمها رجل استراتيجي-محرك بالشؤون الحربية؛ وأدخلوا إليها نهجا نقديا وتقويما وحيدا، ومنذ العام ٣١٢ بدأ الس-عهد السيلوسيدس". ورغم كل هذا، لم تكن دولتهم قوية ولا مستقرة. كانت الشعوب هنا تتطلع إلى الحرية. وكان النير الضريبي وعسف الموظفين يفضي إلى تعميق وتوسيع التيارات الانفصالية. بلغت امبراطورية السيلوسيدس أوج امتدادها في عهد سيلوكوس الأول نكاتور (المنتصر، ٣١٢-٢٨٠) الذي بسط حدوده من آسيا الصغرى حتى الهند وملك على سوريا وفينيقيا. لكن التفكك بدأ في عهود أحفاده المباشرين. خسر أنطوشوس الثاني (٢٦١-٢٤٧) باكتريان وبارثيا. وبجهد مضن جمع أنطوشوس الثالث العظيم دولة كانت عند حد التبدد.

قاد هذا العاهل صراعا مستمرا ضد مصر. نجح مؤقتا في احتلال فلسطين وفينيقيا. لكن تدخل روما وضع حدا لدولة السيلوسيدس. فبعد هزيمة أنطوشوس (١٩٠ ق.م) أمام الرومان في مانيزيا، صارت سوريا عمليا محمية لروما؛ وأخيرا، في العام ٦٤، تحول ما بقي من الإمبراطورية إلى أقاليم رومانية.

إن الصراع الطويل من أجل استقلال فلسطين في عهد أنطوشوس إيفان (١٧٥-

١٦٤)، مثال على مقاومة الشعوب المضطهدة.



كان سبب هذه الحركة هو منع العبادة العبرية والأغارقة المفروضة من قبل أنطوشوس إيفان؛ ويهوذا، ابن ماثاثياس، الملقب ماكابي (طبعاً من الكلمة اليهودية ملكبيت، المطرقة)، ترأس الحركة الشعبية، التي استعرت بنضال حاد ضد العناصر الارستقراطية التي كانت قد ألحقت بالمضطهدين الأجانب. كانت القدس مركز الصراع. بداية، هزم المتمردون، وأعمل الملك مذبحاً هائلة: قتل الرجال، وبيعت النساء والأطفال عبيداً، ودمرت جدران القدس. لكن مقاومة اليهود لم تسحق، اتسعت الحركة وبلغت شرائح يهودا الناجحة والحرفية. وفي العام ١٤٢، استرجع سيمون ماكابي (أخ يهوذا) القدس وأرسى الاستقلال. استمر الصراع، لأن السيلوسيدس لا يمكن أن يعترفوا بخسارة القدس. لكنهم لم يستطيعوا احتلالها مجدداً.

#### امبراطورية الأنطونيد *Antigonides*

بعد موت أنتيباتروس (٣١٩)، احتل مقدونيا كساندروس الذي وضع أنصاره على رأس كل الدول اليونانية. وهكذا، عادت سلطة أثينا إلى دمتريوس دي فالير السذي حكم معتمداً على الحماية المقدونية. مارس مبادئ أرسطو، ففضى على ديموقراطية أثينا، وفرض الضرائب واحتل ثروة الفئات الغنية. واعتبره الأثينيون طاغية.

كان دمتريوس بوليورست، ابن أنتيغونوس، "محرر" الأثينيين وباقي اليونان. ظهر في العام ٣٠٧ في البيري مع أسطوله وأعلن بواسطة البشير أن أباه كلفه بتحرير الأثينيين وإعادة أعمال القوانين السابقة. طرد من أثينا دمتريوس دي فالير وأعاد الديمقراطية. مجده الأثينيون بل عظموه. وهبوا لقب الملك لأنتيغونوس ودمتريوس، رفعوا لهما الأنصاب، خلقوا قبيلتين جديدتين باسمهما، إلخ. لكن دمتريوس لم يستطع في هذه الحقبة أن يستولي على اليونان كلها. فدعاه أبوه إلى آسيا الصغرى ليقا تل ورثة الاسكندر المتحالفين. وبعد هزيمة أنتيغونوس ودمتريوس استطاع قرب إسوس فقط، أن يستعيد موقعه بفتح مؤزر لليونان، وعاد في العام ٢٩٧. احتل دولا يونانية وصار ملك مقدونيا (٢٩٣).

كانت حكومة دمتريوس في هيللاد (٢٩٣-٢٨٨) استبدادية جامحة جرجت كلبيته اليونان. هكذا، عندما كان العاهل يعيش في أثينا، كان يسكن البارتيون؛ وأعاد لمحظريه المال المنهوب من الناس تحت اسم ضرائب، إلخ. وقد أثارت إقامة دمتريوس في شبه

جزيرة البلقان مقاومة الملوك الهلنيين الآخرين. ونشبت نزاعات مع فيروس، ملك إبيريا؛ أما بتولميه، سلوكوس ولزمالك، فقد تحالفوا من جديد ضد دمتریوس. وفي العام ٢٨٨، اقتحم لزمالك وبیروس مقدونيا من الجهتين المتقابلتين واحتل بتولميه أثينا. ترك دمتریوس في اليونان ابنه أنتیغونوس غوناتاس، وعاد بأسطوله إلى آسيا الصغرى، حيث هزم في صراعه ضد سلوگوس، واضطر أن يستسلم في العام ٢٨٦. واضطر أنتیغونوس غوناتاس، الذي تسلم العرش بعد موت أبيه (٢٨٣)، أن يخوض معركة ضارية ضد آل غالاس (٢٧٩) الذين دخلوا البلاد ووصلوا دلفيا. أسس أنتیغونوس غوناتاس (٢٨٣-٢٣٩) أسرة الأنتيغونيد المقدونية. ووطد سيطرة مقدونيا في شمال ووسط اليونان، ووضع حاميات مقدونية في نقاط استراتيجية رئيسة: بيريا، منيشيا، كورنثيا، دمترید، إلخ.

كان أنتغونوس غوناتاس، الذي تربى بروح الفلسفة الإغريقية، تلميذ الرواقيين؛ أحاط نفسه بالعلماء والشعراء اليونان. واستنادا إلى قوة النفوذ الإغريقي وغياب الاستبداد، لم تكن سلطة الإنتيغونيد ملكية؛ فقد حافظت على طبيعة السيطرة. وفي صراعهم من أجل الهيمنة على حوض بحر إيجه، اصطدم الأنتيغونيد بآل بتولميه وآل سيلوسيدس. فضلا عن هذا، توجب على ملوك مقدونيا أن يرأسوا قبائل الشمال والشرق الذين كانوا يهاجمون ممالكهم. ومنذ نهاية القرن الثالث، يبدأ تغلغل روما في البلقان، وبعد صراع طويل، صارت مقدونيا في العام ١٤٨ ولاية رومانية.

#### مملكة برغام Pergame

ولدت هذه الدولة في منطقة برغام، بناها أحد خلفاء الاسكندر (لزمالك)، وبفعل وضع سياسي ملائم، نالت استقلالها في العام ٢٨٣. أوقف الملك أثال (٢٤١-١٩٧) المنتصر على الغالات، وسعه في آسيا الصغرى وعزز تحصين مملكة برغام. استغل ملوك أسرة الأتاليد بمهارة الصراع الدائم بين آل بتولميه وآل سيلوسيدس ومارسوا سياسة ذكية مع روما. بلغت مملكة برغام ذروتها في النصف الأول من القرن الثاني. كان هذا يوم تحولت روما إلى دولة متوسطة وصارعت مقدونيا وأنتوشیوس في سوريا. كانت روما بحاجة لمن يوازرها في الشرق، لذلك كافأت بسخاء ملك برغام أومين الثاني لقاء المساعدة التي قدمها، بإعطائه قسما كبيرا من آسيا الصغرى. أراض خصبة، مراعي غنية، غابات، معادن، مرافئ عديدة مزدهرة، كانت كلها بمثابة عناصر مناسبة ليزدهر اقتصاد برغام. حازت

بعض فروع الصناعة فيها شهرة عالمية. كان ديباجها وأصوافها ذاتي الصيت في الحوض المتوسط؛ وسميت مواد الكتابة المصنوعة من جلد العجول أو الخراف "parchemin"، نسبة إلى مكان إنتاجها الذي كان برغام. وكان أسطول ضارب يؤمن علاقاتها مع رودس، أثينا وديلوس.

كانت مملكة برغام التي تتضمن العديد من المدن، تشبه كثيرا الدول الإغريقية الأخرى. إذ كان ملوكها يحاولون أيضا احتكار فروع الاقتصاد الرئيسية. لكن تباين البلاد (سكان أصليون ومدن يونانية متطورة) منعت تحقيق مشروعاتهم. وفيما يخص الملكية العقارية، والصناعة والتجارة، كان فيها، إلى جانب ملكية الملك، ملكية المعابد والأفراد. ولقد أرث الاستغلال الوحشي للعبيد، للفلاحين والناس الأحرار المستخدمين في الورشات الملكية والخاصة، النضال الطبقي وألهب، في العام ١٣٣-١٣٠، عصيانا في أرسونكوس. من وجهة النظر الحضارية، لعبت برغام، أحد أصغر الممالك الإغريقية دورا هاما جدا. فقد أراد ملوكها أن يشتهروا بحماية الفنون والعلوم. وكمعجيين بالثقافة الإغريقية، كانوا يدعون إلى قصورهم العلماء، الفنانين، وبنوا المكتبة الرائعة التي فاقت من بعض الزوايا، مكتبة الإسكندرية. وكان الملوك أنفسهم يرعون معهد ألعاب القوى في برغام، حيث يربي الناشئة، بعد أن وضعوه تحت مراقبتهم المباشرة. وكان الملوك يدعمون الدين الإغريقي. ولقد تفرد ملوك الإغريق بتسمية كبار الكهنة واستخدموا الدين لتعزيز سلطتهم، بربطه بعبادة الملك.

كانت برغام شهيرة، بين المدن الهلينية، بجمالها وانتظامها. وكان معبدها الضخم الرائع، الذي شيد لتمجيد زيوس، أبهى آثارها وأجملها.

في منتصف القرن الثاني سقط الأتاليد في ربة الرومان، "حماتهم"، الذين صاروا سادة البلاد الفعليين. ترك أتال الثالث، الذي رأى عدم جدوى المقاومة، والذي خاف من تفاقم الصراع الطبقي، ترك مملكته للرومان. وفي العام ١٣٣، تحولت برغام إلى محمية رومانية باسم "الإقليم الآسيوي".

### رودس

في العالم الهليني احتلت جزيرة رودس مقاما متفردا. بموقعها بين آسيا الصغرى، سوريا، مصر والدول اليونانية البحرية والبرية، كانت وسيطا في غاية الأهمية بين المراكز

الهلينية. انتقال الدروب التجارية نحو جنوب بحر إيجة، وانتصار الاسكندر الكبير على صور، والمركز التجاري السابق للساحل الفينيقي، جعل رودس، في القرن الثالث، مرفأً بحرياً هاماً ونقطة انتقالية في غاية الأهمية. كانت البضائع الرئيسة القمح، الخمر، والعبود تعبر مرفأها. وكان عبورها يتجاوز عبور أهم المرفأ اليونانية، يوم كانت في أوجها. وكانت رودس شهيرة أيضاً بأعمال المراقبة. وبين مدينتيها، بعض الملوك الأجانب.

ونظراً لضيق مساحتها وعدم كفاية مناهلها الطبيعية لتغذية رعيّتها، كانت رودس تعيش من التجارة. لذا خاضت نصالاً ضارياً ضد القراصنة لتأمين البحر، وكان صراعها كبير الأهمية في تمتين الروابط البحرية بين الدول الهلينية. وكان تعمير السفن الحربية يقع على كاهل المواطنين الأغنياء الكبار. وكان بحارة رودس معروفين بحنكتهم.

واهتماماً منهم بتوطيد وحدة الدول الهلينية، الضرورية لتطوير علاقاتهم الدولية، قبل سكان رودس سلسلة من القوانين الناظمة لتجارة البحار. ومن حيث المظهر الخارجي، كانت المدينة تثبت ازدهار الدولة. يكتب سترابون: "إن مدينة الروديسيين تتجاوز بمرفأها، شوارعها، أسوارها وصروحها العامة الأخرى باقي المدن". لكن مجدهم، كان يتبدى في تجهيز أحواض سفنهم؛ فلم يسمحوا للأجانب بدخولها، لكي يصنوا سر أطقمها.

من حيث السياسة، كانت رودس جمهورية تجارية، فسلطتها في يد ثلة مغلقة من الأرستقراطية المتاجرة. فكانت ولاية ألغارشية متفردة. الجمعية الوطنية، المجلس والولاية هم عناصر السلطة. الدور الرئيس بيد ستة حكام منتخبين لسنة أشهر من أعضاء المجلس. والسلطة الحربية تخص قائد الأسطول. وكبار الموظفين جميعاً من محدّد أرستقراطي.

بدأ انحطاط رودس في منتصف القرن الثاني ق.م، يوم دعم الرومان، بعد أن صلبوا سادة البحر المتوسط، تفوق جزيرة ديلوس، بمنحها حق التجارة الحرة، المعفاة من الجمارك.

### بكتريان، سوجديان، خوارزم

كما تدل أعمال علماء الآثار السوفيات، بخاصة أعمال س.تولستوف، كانت آسيا الوسطى، لاسيما خوارزم، واحدة من المناطق الأقدم في الحضارة الإنسانية. فعند غزو آسيا الوسطى، اصطدم الاسكندر المقدوني بالعديد من القبائل الزراعية والرعيّة. وفي امبراطورية السيلوسيدس، كان دور أراضي آسيا الوسطى وشعبها يزداد أهمية. وفي العلم

٢٥٥، أعلن الوالي ديودوت نفسه عاهلاً على باكتريان وسوجديان. في تلك الحقبة، كان تطور اقتصاد وثقافة هذه البلدان الواقعة بين المجرى الأوسط لنهر إياكارت وأوكيس (اتلسير-داريا والأموداريا) قد بلغ مستوى عالياً؛ إذا ما صدقنا الكاتب الروماني جوستان، "كانت تسمى بلد المائة مدينة". وحسب معطيات علم الآثار الحديث، كان هذا الإقليم يخص بالمدن، وكان بعضها مدناً كبيرة. كانت مساحة باكتريس (اليوم بلكاه) ١٦ كم<sup>٢</sup>. ولقد ضُوب ديودوت النقود؛ وتشهد نقود هذا البلد الغريكو-باكتريين، التي وصلتنا، على تقدم تقني فذ.

في عهد ديودوت وأحفاده المباشرين، بقيت البلاد في علاقات ثقافية واقتصادية مع نواة ميزوبوتاميا-السورية من إمبراطورية السيلوسيدس. إنما بدأ الانحطاط السياسي لهذه الإمبراطورية، أيام نمو دولة آسيا الصغرى الحديثة السريع. وفي العام ٢٢٧، استلم السلطة القائد العسكري اللامع أوثديم، اليوناني الأصل، وبعون القبائل الأصلية (السساس Saces)، خاض صراعاً ضد السيلوسيدس أنطيوخوس الثالث. كانت دولته تشمل آسيا الوسطى، من بحر كاسبيين Caspienne حتى حدود الصين، تقريباً كل إيران والأراضي التي تتاخم المجرى الأوسط والأدنى من أمو-داريا وتنبسّط حتى السهوب والمناطق شبه-الصحراوية. وكان الشعب المزارع يعيش في ضيق ضخمة منيعة، ذات فن معماري رفيع. اكتشفت أوابدها ودرست في خوارزم على يد س. تولستوف، الذي سمى تلك الحقبة من تاريخ آسيا الوسطى "حضارة الكانغي civilisation de Kangui". كان مركز هذه المملكة العظيمة مدينة سمرقند، التي كان ريفها غاصاً بالسكان ويفيد من شبكة واسعة من الأقنية. كانت حديقة واسعة، "لؤلؤة إيران"، كما يقول الكاتب أبولودور. وكان وادي فرغانا، وهو جزء من دولة أوثديم، مزدهراً هو الآخر. وكانت الممالك مقسمة إلى مقاطعات إدارية، إيالات، وتضم أيضاً أمصاراً شبه-مستقلة. وكان في أمو-داريا بحرية حربية. وقد أقامت الدولة الغريكو-باكتري علاقات اقتصادية مع الصين والهند من جهة، ومع ميزوبوتاميا وسوريا من جهة أخرى. وكانت البعثات تنطلق إلى سيبيريا الغنية بالذهب.

من المرجح أن التنقيبات الجديدة ستطلعنا على العلاقات الاجتماعية والكثير من الظواهر الهامة من الحياة السياسية التي عاشتها هذه الدولة المحطة الأهم للثقافة الإغريقية من آسيا الوسطى، اكتشفت حديثاً على يد علم الآثار السوفياتي.

عدا الدول الهلنسية المذكورة، كان ثمة دول أخرى. كان أهمها البارثي والبونت التي يرتبط تاريخها بخاصة بتاريخ روما.

## الفصل السابع والثلاثون

### اليونان المملينية

بعد موت الاسكندر المقدوني، اشرأبت آمال التحرر من النير المقدوني لدى كل الدول اليونانية. وترأس أثينا هذه الحركة العارمة الشاملة. وتحول التمرد إلى حرب لامية (٣٢٣-٣٢٢)، باسم مدينة لاميا، في ثساليا، حيث حوَصر انتباتروس، حاكم مقدونيا، لكن النزاع، الذي كان بداية لمصلحة اليونان، انتهى بنصر مقدونيا وذبح العصاة. وتوطدت سيطرة مقدونيا من جديد، وأدين ديموستين، الذي اضطر إلى ترك أثينا بالموت غيابيا، وتجرع السم يائسا.

على ذلك، لم تسحق مقاومة أثينا الضارية. بل نشبت حرب جديدة بقيادة الأثيني كروموندس، في أواسط القرن الثالث. وانتهى النزاع بهزيمة اليونان أيضا. وخفقت الديمقراطية الأثينية. ولم تعد أثينا تلعب الدور الرئيسي في النضال من أجل استقلال وتحرير كل هيللاد. وبعد اندحارها، انتقلت السيادة في تاريخ اليونان إلى دول أخرى.

كانت أزمة الاقتصاد العبودي عميقة جدا في دولة متطورة مثل أثينا. وقد نجم تبدل الطرق التجارية نحو الجنوب الشرقي عن أهمية الشرق الأدنى المتنامية؛ وظهور المراكز الجديدة (الاسكندرية، رودس، وغيرها) التي احتلت طرقا دولية؛ وتفاقم الصراع الاجتماعي بين الجماهير البروليتارية والفئات الغنية، وأفضى كل هذا إلى تأخير دول اليونان القارية، المزدهرة سابقا. وبالمقابل، كانت الدول الأكثر تخلفا، حيث التناحرات الداخلية أقل بروزا، كانت أكثر استمرارا وأكثر تصميمًا على النضال الدائر.

اضطلع بالدور الأهم في حياة اليونان للقرن الثالث ق.م. اتحادات المدن، بخاصة اثنتان: الجامعة الإيتولية والجامعة الآشية. استطاعت الأولى (حوالي العام ٣١٤)، التي عززها التطور الحرفي والتجاري، أن تطرد احتلال الغالات في العام ٢٧٩. وضمّت أينوليا، بعض مناطق اليونان الوسطى، بخاصة دالفا، وجنوب ثساليا ومدنا أخرى.

والجامعة الآشية التي كانت تضم، عدا آشيا، مدن اليونان الأهم: سسيون، كورنثيا، ميغار، احتلت أخيرا القسم الأعظم من بلوبونيز.

بخلاف الاتحادات السابقة، كان المتحدون متساوين بالحقوق والاستقلال في شؤونهم الداخلية. وكان يوجد في الجامعتين، مؤسسات عامة للسلطة: (١) الجمعية العامة، تجتمع مرتين في العام، ويمكن أن يشترك فيها كل أعضاء التجمع المتحد؛ (٢) المجلس المنتخب، وهو المؤسسة الدائمة؛ (٣) الحاكم، المنتخب أيضا، رئيس السلطة العسكرية والمدنية.

يصدر الخلاف بين الجامعتين من حيث تكوينهما. فبينما تضم الجامعة الآشية المدن الكبرى التجارية، مثل كورنثيا أو ميغار، تضم الجامعة الإيتولية الصفة الأكثر ديموقراطية حيث تهيمن المبادئ الأولغارشية.

اكتسبت الجامعة الآشية أهمية فريدة في عهد الحاكم أراتوس (٢٤٥-٢١٣) الذي حولها، حسب بلوتارك، "إلى جسد سياسي متحد". شغل منصب الحاكم لـ ٣٣ سنة وعرف، بدعم من الأولغارشين، أو يوسع حدود الجامعة، فالحق مدنا كبرى مثل كورنثيا، ميغار وميغالوبولس. وكان لانضمام كورنثيا أهمية كبرى جدا، لأنها، عدا دورها الاقتصادي، كانت تحتل موقعا استراتيجيا من الدرجة الأولى. عقد أراتوس صلات صداقة مع مصر ومقدونيا. وبفضل نشاطه، أخذت الجامعة الآشية وزنا على المدى الدولي وبدأت تتدخل في حياة الدول البلوبونيزية. من الطبيعي أن يثير هذا التوجه الأولغارشي في الهيمنة مقاومة الدول الأخرى، بخاصة الدول الديموقراطية. فقامت علاقات عداء بين التجمعين المتحاربين من أجل السيطرة على اليونان.

كانت إسبارطة وحدها تمسك بيديها الدور الأول. ولقد بدلت العلاقات النقدية وتطور الملكية الفردية تبديلا هاما في القرن الرابع الاقتصادي المتخلف طبيعيا. ولقد سدد الحاكم السبارطي ابتادوس (في حوالي العام ٤٠٠) طلقة الرحمة إلى النظام المشاعي. حسب هذا القانون، يستطيع الإنسان أن يوصي كما يشاء (وحتى أن يبيع) نصيبه من الأرض. وتم، من جهة، تمركز الأرزاق العقارية بين يدي عدد محدود من السبارطيين (قاربة ١٠٠ أسرة نبيلة)، ومن جهة أخرى، خراب وإفقار وتكبير بالديون أوسع فئات إسبارطة. وتتبدل الأخلاق فجأة: كما يذكر بلوتارك، وتتحمس النبالة اللاسدمونية لجمع الفضة والذهب. ويحل البذخ والرغد مكان الشطف والتعشف السابق. وتتحول إسبارطة إلى عدد من الأسر فاحشة

الثراء وتصير حاكمية إسبارطة السلاح الرئيسي. وقد اضعف السلطة الملكية أكثر فأكثر خوض معركة بين الشخصيات الجديدة واندحار العائلات القديمة. ويخلق استعار التناحرات الداخلية وضعا سياسيا متأزما انتهى بانفجار، حثته إصلاحات الملك الشاب أجيس الرابع (٢٤٥-٢٤١).

ربي هذا المصلح ابن التاسعة عشر ربيعا بروح الفلسفة الرواقية التي تجدد دور الأرزاق المادية في الحياة. وكان يعتبر أخلاق إسبارطة القديمة الممثل الأعلى للحياة الاجتماعية ويؤمن بإمكانية تجديد دور بلاده بإعادتها إلى النظام الذي أقامه منذ قرون الخرافي ليكورغ. ففي القرنين الرابع والثالث ق.م. ظهرت فيها أعمال سياسية وفلسفية. واستنادا إلى هذا الأدب، اقترح أجيس العودة إلى النظام السابق بتوزيع الأرض على السبارطيين الفقراء والمحرومين من كل الحقوق. وخلق الأساس الزراعي، كان يجب، حسب أجيس، مصادرة من الأولغارشية الحقول التي حازتها رغم شريعة ليكورغ، وتقسيمها بالتالي إلى ٤٥٠٠ حصة أو سهم. وعند عدم وجود إسبارطيين، يكمل العدد بمن تلقى "تربية راقية". وشرع أيضا بخلق ١٥ ألف حصة خاصة بهم. وهكذا رفعت القدرة القتالية السبارطية، المؤسسة على المواطنين المحاربين وليس على المتطوعين. ورغب أجيس في بعث المؤسسات وعادات إسبارطة القديمة، بخاصة تربية الدولة، أي أخلاق التقشف والشطف. لكنه رغب في فرض هذا البرنامج من أعلى، دون إلغاء النظام القائم؛ وفضلا عن هذا، سعى إلى إرساء الوضع السابق. بداية نجاح نشاطه. وألغيت سندات الديون. لكن ما أن طالب الشعب بتوزيع الأرض حتى بدأ رفاق نضال أجيس (مثل أجزلاس المالك العقاري الغارق بالديون) مقاومته بحزم وحالوا إبعاد الملك. اقتنع أجزلاس بمؤازرة الجامعة الأشية له كونها ضد الجامعة الإيتولية. وكان لغياب أجيس نتائج مؤسسية على الإصلاح الذي، أمام معارضة ازدواج الرؤساء، لم يفض أبدا إلى توزيع الأرض. أحس الشعب بأنه غدر؛ ويس محرضو الحركة وخاب رجاؤهم. ولما عاد الملك إلى إسبارطة، لم يستطع مصالوة خصومه. ولما هدد من كل الجهات، اضطر أن يلجأ إلى أحد المعابد، فلم يتردد بعض الحكام من القبض عليه وقتله.

لكن هذه المشروعات انبعثت من جديد على يد كليومين، الذي صار ملكا في العام ٢٣٥. لابل كثرت الخطط ونشطت الأساليب. وفضلا عن التدابير الاجتماعية والاقتصادية،



كان ينوي البدء بإصلاحات سياسية: قمع الأولغارشية، دعم نفوذ إسبارطة الخارجي، وبسط هيمنتها على كل اليونان. وبعد تجهيز جيش مرتزقة ضارب، ناصر الجامعة الآشوية. وبعد أن دعم وضعه، رجع إلى إسبارطة وقام بانقلاب مستندا إلى قواته. اغتيل الحكام السبارطيون ورميت مفروشاتهم إلى الشارع، إمارة على إلغاء الحاكمية. وأبطلت *la gerousia*. ونفي أنصار الأولغارشية. وأتى ذوو التربية الصالحة والأرقاء ليضخموا صفوف المواطنين. ووزعت الحقول المصادرة إلى أسهم مشتركة. ومثل أجيس، سعى كليومين إلى عودة الأخلاق السابقة وتوطيدها واتبع هو نفسه السنن الماضية. وشكلت مملكته، وقد صارت مركزا ثوريا، خطرا كبيرا على الفئات المالكة في الدول المجاورة، بخاصة على الجامعة الآشوية. وفي أركاديا وكورنثيا، تعاطف كل الشعب مع كليومين وأرادوا أن يطلقوا طليقة الرحمة على الأغنياء.

كان أراتوس هو الذي يقود النضال الاجتماعي في إسبارطة. ولقد ضحى باستقلال هيلاد يوم دعا ملك مقدونيا، عدو اليونان المعروف، لمساعدته. يسمي بلوتارك هذه الخطوة "خطوة مدانة من يوناني". فبمساعدة انتغونوس دوزون، ملك مقدونيا، دحر كليومين في سلازيا (٢٢١) وهرب إلى مصر. وفي إسبارطة، ألغيت إصلاحاته لتعود إليها الأولغارشية.

ينبع فشل هذه الحركة بخاصة من أن عتق العبيد وإصلاح وضع الأرقاء لم يكن أبدا الهدف المباشر للمصلحين. هكذا، حرر كليومين بعض الأرقاء المشرفين على كآخر تدبير ليدعم جيشه في القتال ضد الجامعة الآشوية.

تفاقت الأزمة الاجتماعية في إسبارطة وأحرق الخطر بالأغنياء ملاك العبيد، بخاصة عندما انضم العوام إلى الأرقاء. وفي العام ٢٠٧، قاد نابيس، وقد صار أحد الطغاة المستبدين، المضطهدين المتمردين. وفي عهده، بلغت الصراعات الاجتماعية ذروتها. أعطى العوام والأرقاء حق المواطنة، أبعد الأغنياء ووزع أرزاقهم على المملكين. وسعيا لتعزيز القوات المسلحة، جند العديد من المرتزقة وتحالف مع كريت ليقرصن البحار مع قراصنة كريت.

إن بعض الباحثين القدماء مثل بوليبي، بلوتارك أوتيت-لايف، لسان حال الطبقات السيدة، يقدمون نابيس بطريقة مغرضة جدا: كان، باعتقادهم، طاغية فظا وشرها، يحيط

نفسه، حسب بوليبي "بالقتلة وقطاع الطرق". ونحن لانملك سوى معطيات. ضئيلة لإعطاء صورة صادقة عن عهده. والمؤكد أنه حقق إصلاحات جسورة وعرف كيف يخلق من إسبارطة دولة عزيزة الجانب، تحترمها مقدونيا وروما.

وبعد خمس عشرة سنة من الحكم، سقط نابيس في العام ١٩٢ في الصراع ضد الجامعة الآشية، الذي أثاره الرومان. قتله غيلة الإثوليون الذين دعاهم هو نفسه لمعونتة. وبعد موته، خنقت الحركة الشعبية بوحشية في إسبارطة، التي انضمت إلى الجامعة الآشية وتخلت هكذا عن استقلالها.

في تلك الحقبة، كانت سياسة مقدونيا الخارجية، وكذلك الدول الأخرى الهامة والجامعات الإغريقية، تتعلق بروابطهم بروما. احتل الرومان شبه جزيرة البلقان في نهاية القرن الثالث ق.م. كان الوضع ملائما جدا لأساليب المحتلين. كان تفكك العالم الإغريقي، والحروب الداخلية المدمرة، وتفاقم الصراعات الاجتماعية داخل الدول تفرش البساط أمام التدخل الروماني. وكانت سياسة الرومان تقوم على إذكاء هذا العداء والإفادة منه لإرساء سيطرتهم. فضلا عن أن الرومان كانوا يؤمنون دعم الأرستقراطية اليونانية بتشجيع الأحزاب الموالية لهم.

نجم احتلال الرومان لشبه جزيرة البلقان عن ثلاث حروب مقدونية، دامت متقطعة من العام ٢١٥ إلى ١٦٨. كانت حرب مقدونيا الثانية (٢٠٠-١٩٧) هي صاحبة السهم الأكبر في توطيد السيطرة الرومانية في البلقان. وقد حاول تيتس كونتيس فلامينيوس، الاستراتيجي والدبلوماسي الروماني الماهر، تقديم الغزو الروماني كـ "تحرير اليونان" من النير المقدوني. انتهت حملاته الموفقة ضد فيليب الخامس، التي تمت بالاتحاد مع الجامعات الآشية والإيتولية، أثينا وإسبارطة، بنصر سنوسفالس (١٩٧). كانت مقدونيا في النزاع الأخير، فسقطت هيلاد كلها بيد الرومان. وبعد التمرد الذي أجهض في العام ١٤٦، فقدت اليونان استقلالها نهائيا. وصار استقلالها منذئذ مرتبطا ارتباطا متينا بتاريخ روما، التي لم تكن أكثر من إيالة متواضعة.



## الفصل الثامن والثلاثون

### الساحل الشمالي للبحر الأسود

#### الإغريق والسيث *les Grecs et les Scythes*

لقد أغنت التنقيبات في شواطئ البحر الأسود الشمالي، التي أخذت أوسع مدى في النظام السوفياتي، كل عام العلم بكشوفات جديدة. فالعلم السوفياتي يسعى للكشف عن السمات الأصلية لحياة السكان الأصليين وتوطيد تفاعل ثقافة هذه الرعايا والمعمرين اليونان.

شرع اليونان بإبراز قيمة الساحل الشمالي للبحر الأسود في القرن السابع ق.م. كان هذا في بداية عمل تجار إيونيا الذين أتوا ليشتروا القمح، السمك والعبيد، وليبيعوا المنتجات اليونانية. ومنذئذ تبدأ أعمالهم التجارية، أو وكالاتهم ومكاتبهم، مثلاً، مكتب جزيرة بييرزان (في مصب الدنيبر). ثم، في القرن السادس يبرز الاستعمار المنظم من قبل الحواضر والذي ترجم إلى تعمير مقاطعات جديدة والإقامة فيها.

كان الاستعمار اليوناني على تماس حميمي مع سكان شمال الحوض البونتي<sup>١</sup>، وأهمهم السيث *Scythes*، المقيمون منذ القرن الثامن على الأرض الواسعة بين نهري الدون والدانوب. تكون أغلب هذه القبائل من تفكك نظام الأفخاذ والعشير والانتقال إلى المجتمع الطبقي. وعلى سهوب شط البحر الأسود كانت تعيش قبائل الرعاة، وفي منطقة الدانوب كان يعيش الفلاحون. ولدى السيث، وجدت العبودية بشكلها الأبوي وبرزت ملامح الفوارق الاجتماعية. ولقد ساهم التطور الحرفي (مهنة الجلود، الأصواف، الفخاريات) والتجارة (أساساً القمح، الدواب، السمك والعبيد) مع مستعمرات بونت-أوكسن إلى اغتاء أعيان المجتمع السيثي، وبخاصة نبلاء الدم والمقاتلون وأمراء القبائل. فقبورهم تغص بالأسلحة

<sup>١</sup> - نسبة إلى مملكة البونت القديمة الواقعة في شمال شرق آسيا الصغرى.

المزدانة بأحلى النقوش وأطعم الخيل الباذخة، وأواني الذهب والفضة، والزينات المتنوعة (الجواهر المعلقة بالعنق، والأساور والخواتم، وسواها). وقد اشتهرت مدن آسيا الوسطى (نكوبول، كيرنتش، وغيرها بأفخر القطع الذهبية والفضية، المكتشفة حديثاً في تلك المقابر. وكان الفنانون اليونان الذين يصيغونها بناء على طلب، وحسب أذواق أرستقراطية السيث، يزينونها بمناظر الحرب وعادات السيث.

*les Kourganes* أضرحة يتراوح ارتفاعها بين ١٥-٢٠م، وجد في غرفها السردابية، المتخمة بحاجات بديعة حزينة، فضلاً عن زوجة الميت، ومحاريبه، عبيده وأحصنته. كان السيث سليل عليّة القوم يرغب أن يأتي العالم الآخر مع حرسه الغفير الذي كان يرافقه في حياته. لكن إلى جانب هذه الصومعة الاحتفالية، ثمة قبور لبسطاء القوم. أغراضه المتواضعة -سيفه الحديدي وأوانيّه الفخارية عادية الصنع- تشير إلى الفرق البين بالثروة وشروط مختلف الفئات الاجتماعية.

مع تطور المجتمع السيثي وانقسامه الطبقي، كان لابد من تنظيم الدولة، بشكل يتصف بالبدائية. وانطلاقاً من منتصف القرن الرابع، كان التجمع السيثي تحت سلطة سلطان واحد، لكن هذا كان بالفعل تجمعا واسعا من القبائل. كان مركزه قرية كبيرة هي كمانكسا، قريبة مما يعرف الآن بنكوبول والتي اكتشفها حديثاً علماء الآثار السوفيات. وفي القرن الثالث خضع السيث أكثر فأكثر لاضطهاد السارمات *Sarmates* الذين كانوا يعيشون شرق نهر الدون. أمام هذه المطاردة، تحولت عاصمة السيث إلى القرم؛ حيث ولدت دولة في القرن الثاني، يحكمها ملك سكيلور، وخلفه ابنه بالاك. كان مقامهم في حاضرة السيث (المدينة الجديدة قرب سمفروبول). ولقد كشفت حفريات الأعوام الأخيرة في هذه الأمكنة حضارة غنية. كانت نيلنوف حصناً عجيباً تتخطى تحصيناته متانة مواقع المدن الساحلية. جدرانها من كتل حجرية مملطة بالآجر الممزوج وهو ميزة البنيان السيثي. ففي أحياء السكن، اكتشف الكثير من الحفر المحتفظة ببقايا القمح، الشعير والدخن، الأمر الذي يثبت وجود زراعة متطورة؛ وتؤكد أكوام عظام الحيوانات الأليفة التدجين الراقى. ويقدم فرن شوي الفخاريات اهتماماً واسعاً بهذه المادة. وتبرهن السلع العديدة المستوردة من أثينا، رودس، بيرغام، سينوب، مصر ومن المدن البوننتية الأخرى على تجارة السيث الرائجة في القرن الثاني ق.م.

اكتشف ضريح في فيلنوف وكان ذا أهمية بعيدة في دراسة الحضارة السيثية للقرن الثاني. كان يتضمن أكثر من ٧٠ رفاة إنسانية والعديد من هياكل الأحصنة. يكشف غنى ووفرة الحلى الذهبية (أكثر من ١٣٠٠ حلقة) عن بذخ ملوك السيث في تلك الحقبة. ونشير هنا إلى أن فن العمارة، وجداريات الداخل والمقرنصات تقدم العديد من السمات القومية. لقد لعب التداول في مملكة السيث في القرم دورا هاما، الأمر الذي كان يحث السلاطين والنبلاء على احتلال الشطآن بمدنها البحرية. كما شكل السيث تهديدا للدول اليونانية الكائنة على البحر الأسود.

### أولبيا وشرسونيز

كانت أولبيا، شرسونيز وبانتكاييه أهم المستعمرات اليونانية على الشاطئ الشمالي للبحر الأسود. وأولبيا، إحدى أقدم المستعمرات البونته، أسسها ميليت في القرن السادس ق.م. تقع عند مصب نهرين: هيبيانس (البوغ الآن) والبورستين (الدينير) اللذين يصلانها بمناطق السيث الداخلية، فاككتسبت أهمية تجارية متميزة في شمال غرب الشاطئ. وهرودوت الذي زارها، قال إنها "المركز الأهم في حاضرة السيث البونته". وكانت أيضا، نقطة انطلاق درب تجاري يذهب بعيدا في الشمال الشرقي، نحو الفولغا وجبال ريفي (الأورال). في أيام هرودوت (القرن الخامس ق.م)، كانت أولبيسا مدينة تجارية حصينة يتوافد إليها العديد من مهاجري هيلاد والأراضي البربرية. كان قومها خليطا، من اليونان والسيث. ففي مقبرتها العامة، كان يوجد منذ القرن السادس قبور سيثية ويونانية. لكن اليونان، في مرحلة تطور أعلى، كانوا هم أصحاب النفوذ. كان مخطط المدينة، ومنظر بيوتها وكل الهيئة الداخلية إغريقيا. كانت أولبيا مستعمرة عبودية، بمجلس شعبي وموظفين منتخبين. كان أخطر ما يتعرض له حياة هذه المستعمرة هو أنها مطرح تهديد دائم للعدوان من قبل القبائل، لأنها مفتوحة، بدون عائق طبيعي يحميها من جهة السهوب. ثمة وثيقة في غاية الأهمية لمعرفة تاريخها من القرن الثالث. عندما صارت المدينة في وضع حرج، هي قرار الدولة الذي يعظم بروتوجين، ابن أولبيا الغني وذائع الصيت. تعد الوثيقة إنجازاته في المدينة: بنى، على نفقته، الأبراج وجزء من التحصينات، وإعالة أثناء الضائقات التموينية الناجمة عن سلب العدو المناطق الغنية بالمواد الغذائية. تعطي هذه الوثيقة فكرة عن حياة الرعية القلقة.

في القرن الثاني اضطرت المدينة للاعتراف بسلطة ملوك الست. تظهر أسماؤهم على نقود المدينة، المستقلة سابقاً. وفيما بعد، في منتصف القرن الأول، على أثر زعزعة المملكة السيثية، احتلها ودمرها الجيت *les Gètes* القادمون من المجرى الأسفل للدانوب. عمّرت جزئياً بعد هذه النكبة، لكنها لم تعد إلى ماضيها المزدهر أبداً.

أما شرسونيز مستعمرة أحدث، انبثقت في الربع الأخير من القرن الخامس، على الأرجح في العام ٤٢٢. كان مؤسسوها من أصل هيراكليه (على الشط الشمالي من آسيا الصغرى) التي كانت مستعمرة لميغار. وبعد نزاع صعب بين الأرستقراطيين والديموقراطيين في هيراكليه، أجبر هؤلاء على الإجماع والإبعاد. وبناو شرسونيز في مكان أهل القبائل التورية المتخلفة، المعروفة بقرصنتها وضحاياها البشرية للإلهة العذراء. وفي أسطورة أفيجيني التي استوحتها تراجيديا 'أفجيني في توريد"، يفرض على البطلة الكاهنة أن تهلك الغرباء المفاجئين في هذه البحار. كان التوريون يعيشون أيضاً نظام العشير ولم يعرفوا العبودية، بسبب ضعف تطور قواهم المنتجة.

يرى بعض علماء الآثار أن شرسونيز بنيت في مكان قصبة تورية قديمة. وفي مقبرتها الجماعية، اكتشف كمية من القبور للسكان الأصليين تتضمن أوانٍ منزلية غير دقيقة الصنع. تقع شرسونيز في شبه جزيرة هيراكليه (كلمة شرسونيز تعني شبه جزيرة) وتذهب بعيداً في البحر وتمتلك ثغوراً رائعة، وقد استخدمت صلة وصل في تجارة الساحل الشمالي للبحر الأسود (*pont-euxin* قديماً) مع اليونان وآسيا الصغرى.

وكانت نقطة استراتيجية أيضاً: كانت الجبال التي تحدها من جهة البر والوهاد الوعرة تشكل خط دفاع طبيعي جيد. وحتى منتصف القرن الرابع، لم تكن المدينة محمية بسوى تحصينات غير كافية. لكنها، بعد توسع أراضيها ودحر العدو نمت، وبنت جدراناً بكثافة ٤م، وأبراجاً أبدية ومرافئ متينة، كشفت عنها التنقيبات حديثاً. دام ازدهار شرسونيز من القرن الرابع حتى نهاية القرن الثاني ق.م. في ريف شرسونيز كانوا يزرعون الأرض، ويمارسون التجدين؛ وكانت زراعة الدوالي في الأوج. كانت الفخاريات هي المهنة الأهم. تثبت قوارير ذات عروتين وأوانٍ متنوعة وقناديل فخارية تحمل بصمة البلد تعدد إنتاجها. وتسمح الأسماء الممهوره على السلع المصنوعة من الطين المشوي أن معلّمي بعض الورشات كانوا من السيث، الذين كانوا يشكلون جزءاً من القوم. ولما كانت المنطقة قليلة

الخصوبة، لم تستطع شرسونيز أن تصير مركزا لتصدير القمح، كـبعض مدن الجهة الشرقية من القرم، لكن تجارتها كوسيط للملح، لسمك، والخمر والزيت، كانت رائجة.

من حيث النظام السياسي كانت شرسونيز ديموقراطية عبودية. وفي نص اليمين الذي يؤديه مواطنوها، يرد: "لن أخرق الديموقراطية وأحول دون خيانتها وخرقها... سأخدم الشعب وأقدم الخير والفلاح للدولة والرعية". كانت منظمات السلطة العليا مجلس وجمعية الشعب؛ ويقود الستراتيجيون المنتخبون الميلشيات الشعبية.

في تاريخ شرسونيز، يحتل النضال مكانا هاما ضد القبائل الأصلية، وبخاصة السيث. وفي القرن الثاني ق.م، كما أشرنا آنفا، انبثقت دولة سينثية في القرم، كان سلاطينها ونبلاؤها يطمعون بإخضاع المدن البحرية. ولما كانوا غير أكفاء لحماية حريتهم، طلب قادة شرسونيز العون من ملك بونت متردات السادس. وهزم الجنرال ديوفونت، الذي أرسله، السيث واحتل فيلنوف، عاصمتهم، لكن ملك البونت قبض ثمن دخوله إلى شرسونيز بالقمح والفضة والجنود. دامت هذه العلاقة حتى موت متردات، في العام ٦٣، وبعدئذ خضعت المدينة لدائرة نفوذ روما. مع ذلك عاشت شرسونيز في عهد الامبراطورية الرومانية؛ وصارت مركزا هاما اقتصاديا وثقافيا في بيزنطة، التي أقامت روسيا كييف علاقات منتابعة.

### مملكة البوسفور

عدا المستعمرات الإغريقية المستقلة، تكونت في القرم، مملكة واسعة غريكو-بربرية: هي مملكة البوسفور.

كانت نقطة انطلاقها مستعمرة ميليت، وبانتكاييه (الآن كيرتش)، التي صارت فيما بعد العاصمة. وفي نهاية القرن الخامس وبداية القرن الرابع، اشتملت مملكة البوسفور العديد من المستعمرات اليونانية والحاضرات الأصلية في شرق القرم، وشبه جزيرة التامان والمجرى الأسفل لنهر كوبان. كان قومها أصلاء: سيث، ساند، ميوت، إلخ. منذ أقدم الزمن احتل اليونان هذه المناطق التي شدتهم بثرائها: القمح، السمك، والحيوانات؛ لكن العلاقات مع اليونان لم تنتظم إلا في القرن السادس واتضح هذا بتأسيس عدد من المستعمرات: بانتكاييه، تيودوسيا، نيمفي، فاناغوريا وسواها. يبرز مجد هذه المملكة الاقتصادي مع بداية القرن الرابع. ولوقوعها عند حدود العالم الإغريقي والسيث، خدمها البوسفور كوسيط



تجاري. وجعلت وفرة القمح، الدواب والأسماك، جعلت منها واحداً من مموني الدول الهيلينية الرئيسيين. وحوالي منتصف القرن الرابع، عقدت روابط متينة مع أثينا التي كانت تحتكر تجارة قمحها. كان نصف القمح الذي تحتاجه أثينا يأتي من البوسفور. وقد نمت دورها في هذا المجال بخاصة بعد نكبة سيسيليا (٤١٣) التي وضعت نهاية لتوريد القمح السيسيلي. وكانت البوسفور تصدر الكثير من العبيد إلى الأسواق اليونانية.

منذ القرن الخامس صارت دولة البوسفور دولة متحدة، تضم المدن اليونانية الواقعة على ضفتي مضائق كيرتش. وفي العام ٤٨٠، آلت السلطة إلى أسرة نبيلة إغريقية من *Archeanactides*، "حكمت في آسيا على البوسفور السومري" (ديودور). ربما كانت العاصمة آنذ هي فاناغاريا، الواقعة على الضفة الشرقية للمضيق. دانت المملك بقوتها وجبروتها إلى أسرة السبارتوسيد (بدءاً من ٤٣٨)، التي ربما كان زعيمها سبارتاكوس الأول ممثلاً للنبل السيئ-ثراسيين المحلي. ولقد أسس السبارتوسيد، بخاصة لوكون الأول (٣٨٩-٣٤٩) وابنه بارزادس الأول (٣٤٩-٣١٠)، مستندين إلى جيش من المرتزقة، إمبارطورية شاسعة تبدأ "من تور حتى حدود بلاد الفقفاس"، كما جاء في مخطوط لبارزادس (تقريباً من تيودوسيا حتى نوفوروسيسك الحالية. وفي الشمال بلغت حدودها مصب الدون، حيث تقع مدينة تانايس التجارية الضخمة. وفي القرن الرابع كانت "حاكميات البوسفور وتيودوسيا، تسمى ملوك السيند والميوت"؛ عملياً لم تكن القبائل الأصلية مستعبدة فقط، بل أيضاً أهل البوسفور اليونان. كانت السلطة فيها وراثية وكانوا يعتبرون أنفسهم سادة الدنيا. كان البوسفور قد صار دولة ضخمة غريكو-بربرية، عاصمتها بانثاكابيه.

كانت الطبقة الحاكمة تضم نبلاء البلد وسلالة الملك اليونانية وحاشيته، والأغنياء مالكي العقارات، وتجار القمح، تجار الأسلحة وصانعيها، ومعلمي الورشات. كانت المدن تتمتع بالاستقلال، تنتخب هي نفسها مجالس بلديتها، لكنها تقوم بالفعل مقام العاهل. كان أعيان المجتمع والسلطين أنفسهم قد تأغرقوا كلياً. كانت أسماؤهم يونانية، يحكون ويكتبون اليونانية، يبنون الهياكل والمعابد للآلهة اليونان ويحاطون بسلع صنعت في اليونان. لكن الحضارة المحلية استمرت، تسم بميسما الأصل الهلينية البوسفورية. إن الأوابد المميزة لحضارة البوسفور المادية هي الأضرحة، وأهمها على الأرجح "المقبرة الملكية

*Kourganes*\* في نواحي كيرتش. هضبة من الطين والحجارة ارتفاعها ١٧م تعلو قبوا بقبة ذات مراق. يدخل إليها بممشى بطول ٣٦م وقناطر ذات صقالات تجعله يبدو طويلا. إنه لمظهر مهيب فعلا. هذا النوع من القبور يميز السيثيين، مع وجود بين السلع الجنايزية الموضوعة في الأقبية سلع بأسلوب إغريقي.

في نهاية القرن الرابع، وجدت البوسفور في سوق القمح اليوناني منافسا عنيدا: مصر. فانعكس تقلص الصادرات سلبا على مالية الدولة. فاتخذ ملوكها منذ بداية القرن الثالث (سباتاكوس الثالث، بارزادس الثاني) كثيرا من التدابير لحماية هذا المصدر الرئيسي من الدخل. كانوا يرسلون القمح هدية إلى أثينا، ويرسلون إلى مصر، لدى بتوليميه فلاذلف، سفارات لتسوية قضايا تجارة الحبوب. ولقد أكره نقص المصادر السبارتوسيد على تقلييل نفقات تطوع المرتزقة، الأمر الذي أضعف طبعا قدرتهم العسكرية. وفي بداية القرن الثالث، لما ظهر السيث والسمارات في القرم، تعقد موقف البوسفور لأن السيث كانوا ينفذون باستمرار غزوات على أرضها ويفرضون ضرائب باهظة. وأمام استحالة الصمود أمام ضغوط السيث المستمرة، سلم آخر ملوك البوسفور، بارزادس الخامس، في العام ١٠٩ ق.م، السلطة إلى ملك البونت متردات السادس أو ياتور. أرسل الملك جنراله ديوفانت إلى شرسونيز لتسوية الأمور.

ترتبط هذه الحقبة من تاريخ البوسفور بحركة اجتماعية ضخمة: تمرد العبيد السيث في الشطر الأوربيمن البوسفور، بقيادة العبد الملكي سوماكوس. قتل المتمردون بارزادس الخامس ورغبوا في الإطاحة أيضا برأس ديوفانت. لكن هذا الأخير هرب منهم ولجأ إلى البونت. صار سوماكوس ملك البوسفور، فضرب النقد باسمه ورسمه وحكم قرابة عام. جيش ديوفانت في البونت قوات بحرية وبرية، أتمها في الشرسونيز وعاد إلى البوسفور. احتل المدن التي كانت بأيدي المتمردين، أسر سوماكوس ونفاه إلى البونت، ليقتله هناك على الأرجح. وبعد أن اقتصر بوحشية من المتمردين، أخضع البلاد لسلطة متردات أوباتور وفرض على الرعية ضريبة ٢٠٠ تالانت فضة و١٨ ألف مكيال من القمح. أدار البوسفور حكوم من متردات. للأسف، لايعطي المصدر الرئيس لتاريخ هذه الحقبة -قرار شرسونيز لتمجيد ديوفانت- سوى معلومات مختصرة جدا. لكن أهمية الانتفاضة كانت ولاشك هامة. إنها واحدة من أعظم عصيانات العبيد التي نشبت في هذه الحقبة في العديد من مراكز عالم العبودية.



## الفصل التاسع والثلاثون

### المضارة الهلينية

يشغل العالم الهليني شطرا رحبا من الإنسانية المتحضرة في العالم القديم ويتكون من عدة شعوب كان يسكن أغلبها شرق البحر الأبيض المتوسط وهو الذي، انطلاقا من القرن الخامس ق.م، راح يضيق أكثر فأكثر علاقاته. لقد دمرت فتوحات الإسكندر المقدوني الحواجز السياسية التي تحول دون التبادل الثقافي بين الشعوب، وغرست الحضارة الإغريقية بعمق في الشرق مع مئات ألوف المعمرين الآتين من اليونان. كان هؤلاء المعمرون يقطنون مئات المدن الجديدة التي صارت مستنبتات للثقافة الهلينية.

كانت المراكز الرئيسية للدول الهلينية، مدنا حديثة؛ وتراجعت إلى الصف الثاني حاضرات الشرق القديمة مثل بابل ومفيس؛ وأضحت إنطاكية واسكندرون مراكز عالمية، بكل معنى الكلمة.

كانت هذه المدن تنطبع بطابع التنظيم السياسي لجنسية السكان: كان ثمة أحياء يونانية، يهودية، وغيرها، لكل منها مجلسه ورئيسه الذي يتصل مباشرة مع السلطات العليا. وكانت الحياة اليومية الثقافية تغلي؛ وتشهد الوثائق (مخطوطات، بردي) نشاطا عارما لمختلف فعاليات المواطنين: جمعيات مهنية، ثقافية، أخلاقية، بما فيها النحل الدينية. إن هذه الأخيرة هامة من أجل دراسة حضارة جماهير المدن. ويدل المظهر الخارجي لمدن الهلينية إلى مستوى مدني رفيع. وكثيرا ما اتحدت مدن يونانية قديمة لتشكّل حضارة واسعة واحدة، ويعاد ترتيب وإدارة الساحات العامة وأحياء الصروح الرسمية، وتوزع المياه الجارية، والينابيع، والمساح، إلخ. كانت المسارح ومعاهد الرياضة بأبعاد أوسع مما في اليهود الأسبق، التي كانت تشد عشرات ألوف المشاهدين؛ إن أوابد معاهد الرياضة تدهشنا بتنسيق مخططاتها. وأخيرا، في كثير من المدن، ظهر نوع جديد من الصروح العامة: المكتبات. لقد تحدثنا أعلاه عن عظمة مكتبة الإسكندرية، وكانت مكتبة بيرغام أقل

أهمية: وباختصار انتشرت المكتبات أحدث في مراكز أخرى من العالم الإغريقي. ترافق هذا التوسع للحضارة الهلينية مع تبدلات نوعية: فقد تمثلت تراث الشرق الثقافي. وأخذت الفروع التي كانت، في الحضارة اليونانية الكلاسيكية، ثانوية، أهمية رئيسة: فقد بلغت التقنيات، العلوم الدقيقة، العلوم الطبيعية، الطب، الجراحة، التشريح مستوى لاسابق له. وبالمقابل، قدمت العلوم الاجتماعية، الفلسفة، الأدب وجزئياً الفنون دلائل الانحطاط، الأمر الذي يعلل تقلص النشاط الاجتماعي والسياسي لدى الجماهير.

فبناء المدن على نطاق واسع، وتطور التجارة البحرية، واتساع الحروب بين الدول الكبرى البحرية والقارية فرض إتقان التقنيات. ولقد حققت التقنية الإغريقية إنجازات مذهلة. فالسفن تقدر على نقل آلاف الناس. وتوفر ساحات السطح الأعلى للمسافرين الراحة التامة.

وفي الفن القتالي، كان المحل الأول للآلات الهجومية والتطويق: المنجنيقات ترمي إلى مسافات بعيدة سهماً وكتلاً حجرية ثقيلة؛ وكانت أسلحة القذف هذه نوعاً من المدفعية الباردة.

لا يمكن إنجاز هذه الأجهزة إلا بناء على مخططات وتصاميم يضعها مهندسون كفء، وجودهم في تلك الفترة أكدته كتابات العهد القديم.

ينجم هذا التطور التقني عن إنجازات علمية هامة. فقد خلق أوكليد (في النصف الأول من القرن الثالث ق.م) أساس الهندسة المستوية. تتضمن مؤلفاته ومؤلفات الرياضي والفيزيائي العبقري أرخميدس، العديد من مبادئ الرياضيات العالية.

وضع أرخميدس مقولات عديدة: التوازن، توزيع القطع المكافئ، الأجسام العائمة، انعكاس الضوء وغيرها، وبها وضع وطور مبادئ الميكانيك الأساسية، بخاصة نظرية العتلة أو الرافعة. وإليه ينسب هذا القول الجسور: "أعطوني نقط ارتكاز، أفجر أو أرفع لكم العالم". وأعد أيضاً نظرية الأشعة الحرارية بواسطة المرايا المسطحة والكروية، ومارسها، إذا ما صدقنا التراث، في أثناء دفاع سيراكوز ضد اليونان (٢١٢ ق.م) بحق آلاتهم الدفاعية ومراكبهم. ودرس معاصروه أصعب فروع الرياضيات وهو: نظرية الأعداد.

وليست أقل إعجازاً تطورات علم الفلك. فقد شرع إپرثيوس بقياس أبعاد الكرة الأرضية واستخدم لهذه الغاية الأسلوب المستخدم اليوم: المثلثات؛ واكتشف الرقم الأقرب

إلى الصحيح. وأرستارك دي ساموس، الذي ندين له بقياس "أبعاد ومسافات القمر والشمس عن الأرض"، إذ حدد بدقة الحجم النسبي للشمس والقمر. لكن الأهم هي الأعمال التي تخولنا أن نعي أن كل حركات الكرة السماوية يمكن فهمها، إذا قبلنا أن الشمس هي مركز مجموعة جرمية والأجرام تدور حولها. ولقد نسي عمل أرستارك العظيم وبعد ١٨٠٠ عام أعاده كوبرنيك وغاليليه إلى العلم. ووضع الفلكي الشهير في ذلك العهد، هيبارك، ملاحظات لم تعرف قيمتها إلا حديثاً.

ليست أقل إعجاباً كشوفات الطب الهليني، بخاصة الجراحة. يكشف هروفيل في كتاباته معارف عميقة في التشريح، اكتسبها بعد تشريح الأحداث. وعمد الجراح هراكليد دي تارانت، في العمليات، إلى التخدير؛ ولم يعد هذا المكتشف الهام، الذي اهتم تماماً، إلى الممارسة إلا في العام ١٨٦٠، أي بعد أكثر من ٢٠٠٠ عام من الإهمال.

وفي حقل العلوم الدقيقة، العلوم الطبيعية وبخاصة فن القتال، كان التطور سريعاً جداً. وليس خطأ أن نقول هذا في الفلسفة. فقد برز عشرات الفلاسفة شفاهاً وكتابةً في مدن العالم الإغريقي؛ لكن أغلبهم أكمل وطور نظريات الأسلاف، متعمقين بخاصة في قضايا الأخلاق الفردية. كان أشهرهم أبيقور (حوالي ٣٤١-٢٧٠)، تلميذ الفيلسوف المادي ديموقريطس، الذي تابع أفكاراً حول الذرة؛ لكنه درس بعمق حياة الإنسان وأولى عناية كبرى لجوهر السعادة البشرية وكيفية تحقيقها. تجنب الأبيقوريون الخوض بنشاط الحياة الاجتماعية وعملوا "في أن يحيوا مغبورين" ليبتعدوا عن تشویش عالمهم الداخلي (مبدأ "راحة الضمير"). تهدف نظريتهم المادية إنقاذ الناس من الخوف من الآلهة ومن الموت، الأمر الذي دعا ماركس وأنجلز إلى القول: "كان أبيقور في الزمن السابق الوحيد الذي رغب في تنوير الروح والذهن... لذا حافظ على كونه في نظر كل آباء الكنيسة، من بلوتارك حتى لوثر، الفيلسوف الملحد بكل أبعاد الكلمة *par excellence*."

ويبرز نفس التيار الفردي في مدرسة فلسفية أخرى لذاك العهد: مدرسة الرواقيين.

كان زينون مؤسسها، ابن جزيرة قبرص، المولود بين نهاية القرن الرابع وبداية القرن الثالث ق.م، وأغلب تلامذته من مدن الشرق الهليني. قسم الرواقيون الفلسفة إلى ثلاثة

<sup>١</sup> - ك. ماركس، الأعمال الكاملة، المجلد ٧، الأيلوجيا الألمانية، باريس ١٩٣٨، ص ٨٦-٨٧.

أبواب: الأخلاق، الفيزياء والمنطق. في الفيزياء، يؤكدون وحدة العالم المادية، وعلى أساسها كان عنصر النار الديناميكي. والحياة محكومة ومحدودة بقوانين ثابتة. وهكذا نرى أن فيزياء الرواقيين المشتقة، بداية، من نظرية هراكليت وأرسطو، كانت مادية إلى حد ما. لكن الوراقيين أولوا الأخلاق الدور الأهم: لكي يعيش حياة سليمة وسعيدة، يجب على الإنسان أن ينسجم ضميريا مع قوانين الطبيعة إن هذا الحكم العام العاقل العالمي في حركته المنتظمة، هو الواجب الأول للإنسان. تتمه الفضيلة التي تقضي إلى الحياة السعيدة الفعلية. وبالعكس، خرق هذا الواجب لمنفعة الفرد، لإرضاء نزعاته ورغباته، هو العيب. فلا يمكنك أن تكون سعيدا حقا إلا إذا كنت عاقلا وفهمت الحقيقة وفهمت بالتالي سلام النفس المطلق؛ أحزان هذا العالم لا تنال منه، لأنه يراها عادية. إنه غني في فقره، حر في قيوده، سعيد في مرضه.

كانت آراء الرواقيين الاجتماعية؛ والسياسية غالبا صدى النظريات اللا-ديموقراطية للاكوني<sup>١</sup> المرحلة السابقة، الذين يعظمون أولغارشية إسبارطة ويكرهون ديموقراطية أثينا. لكن نظريات الرواقيين تتضمن أيضا عناصر من الحق الطبيعي، الأمر الذي قاد روادها إلى القول إن الإنسان قبل كل شيء مواطن عالمي ("كوسمبوليت")؛ في ظل نظام الدولة العبودي ينادي بوحدة الجنس البشري.

لقد انعكس تفكك النظام العبودي على نظرية مدرسة الكليبين<sup>٢</sup>، التي كان مؤسسها أنتنثين، "هجيناً" كانت نظريته ونظرية تلاميذه (أشهرهم، ديوجين وتلميذه كراتس، معاصرو الاسكندر المقدوني) واسعة الانتشار بين الناس، الأحرار والعبيد. كان الكليبين، الممثلين المتطرفين لنظرية الحق الطبيعي، ينادون بالبساطة، بحياة قريبة من الطبيعة؛ وكانوا يهزؤون من التعطش للبخ والثراء، يجحدون سلطة الدولة والمجتمع على الشخصية البشرية. ولإظهار احتقارهم للأعراف عاش ديوجين عاريا في برميل، وسحق عقبتة الوحيدة، عندما رأى أنه يقدر أن يخرج منها. لذا لقبه "المجتمع الطيب" بالـ"كلب". من هنا

<sup>١</sup> - نسبة إلى مقاطعة لاكونيا.

<sup>٢</sup> - نسبة إلى مذهب الكلية الذي يقول باحتقار العرف والعادة والتقاليد الشائعة والرأي العام، أي الصلف، الوقاحة، والتهمك.

أتى اسم "الكليبيين" الذي أطلق على كل مدرسة رواد أنثتين ومطوريه. لكن العبيد والفقراء كانوا يثمنون نظريتهم، لاسيما أن الكليبيين كانوا يعرفون إعطاءها الشكل المثير للإعجاب والذي يقبل الرموز والمشاهد البسيطة المسلية. لكن هذه النظرية كانت تفنقر لجداول أعمال وتراجع لتصير بالنهاية دعاية سلمية للفوضوية والفردانية المغالية.

:كانت علوم الأدب في العهد الإغريقي واسعة الانتشار، لكنها غير جيدة النوعية (عدا بعض الاستثناءات). وكانت غريبة على المصالح الاجتماعية والسياسية التي كانت تنصدر أدب الحقبة السابقة. وكوميديات مياندر (الأخوة، البطل، وسواها) التي لم يصلنا منها سوى بعض الفصول والمقاطع، وملهاته الفظم، المكتشفة حديثا كاملة، ترسم بأمانة أخلاق المجتمع اليوناني في نهاية القرن الرابع.

ازدهرت القصيدة الغنائية؛ بمواضيعها المفضلة: الانفعالات الشخصية، البحث عن الرغبات الخالصة والهدف إلى حنان الطبيعة، بعيدا عن أتعاب المدينة. كان مركز تجمع الشعراء الغنائيين اسكندرية مصر. وتيوكريت، أحد ألمع شعراء القرن الثالث ق.م، ابن سينيليا، قضى فيها ردها رحبا من حياته. كان يكتب غزليات، وقصائد تتحدث عن سحر الطبيعة والأحاسيس التي يستلهمها ابن المدينة التعب. وكشعراء العصر الآخرين، كان تيوكريت يولي الشكل الشعري أهمية كبرى. وقد أثرى نظم الشعر بالنذويق والتجميل.

ويسم نفس الأسلوب المتصنع الفنون التشكيلية. وقد تشكلت مراكز مستقلة للحفر والنقش في الاسكندرية، في جزيرة رودس، في بيرغام وغيرها. وقد نحت ثلاثة نقاشين رودسيين: أجزاندر، أنثودور، وبولدور، مجموعة أثرية، اللاوكون *le Laocoon*، تمثل احتضار الكائنات البشرية التي خنقتها الثعابين البشرية: التعبير المتألم على الوجوه وتوتر العضلات وبروزها بشكل جعلها طبيعية وواقعية. وفي رودس صنع أيضا من السبرنز نصب لإله الشمس، بارتفاع ٣٠م. وقد أدرج "جبار رودس" بين عجائب الدنيا السبع. تمتاز مدرسة بيرغام للنقش بأستازيتها، ففي نهاية القرن التاسع عشر، انتشل من ميدان هذه المدينة هيكلا رائعا من المرمر للإله زويس، منقوش على ١٢٠ بنقوش مذهلة تمثل "حرب

١ - أسطورة إغريقية، ابن بريام وهيوكوب، كاهن أبولون في طروادة، خنفته مع ابنه حيتان خرافيتان. هذه الواقعة هي موضوع مجموعة شهيرة من النقوش القديمة. القرن الأول ق.م (في الفاتيكان)، المترجم.



العمالقة" (ضد الأرباب). إن هيكل بيرغام واحد من أروع الأمثلة على عظمة الفن الإغريقي، الذي كان له أن ينجو من عاديّات الزمن. لقد كان نقش العهد الإغريقي عظيمًا بالتاكيد، لكنه بالقياس إلى العهد الإغريقي الذي تقدمه، قدم شواهد على الانحطاط: مبالغة بالحركات، ذوق فظ، مذهب طبيعي.

ضمت الحضارة الإغريقية الشطر الأعظم من الإنسانية المتقدمة في حوض البحر المتوسط في القرنين الثالث والثاني ق.م. وقد استمرت حتى القرن التالي، عند انتقال مركز الحياة السياسية باتجاه الغرب، إلى روما. لكنه وهو يتحول شيئًا فشيئًا ثابر على الوجود في الشرق الأدنى حتى المرحلة اللاحقة من تاريخ البشرية: العصر الوسيط. ولقد أفادت شعوب الشرق منه، العرب خاصة، الأمر الذي منح هؤلاء إمكانية الاحتفاظ لمدة طويلة بالسودد الثقافي للعالم الآسيوي-الأوربي.

# روما

## الفصل الأربعون

### مصادر وتدوين التاريخ الروماني

#### مصدر وتاريخ إيطاليا وروما القديم (حتى القرن الثالث ق.م)

إن دراسة التنظيم الاجتماعي والسياسي لإيطاليا وروما عبر الأزمنة صعبة للغاية بسبب قلة بل ندرة المصادر. بداية يجب أن نلاحظ أن أثراً واحداً من الموروث الشعبي الشفهي عن الإيطاليين القدماء لم يصلنا، مثل أشعار هومروس، الغنية بالمواد لإعادة تركيب المجتمع اليوناني من أصوله وبداياته.

والحوليات القديمة الرومانية، التي رتبها علمياً (نيبوه، أولاً، في بداية القرن ١٩)، قد ضاعت أيضاً. لكننا نعرف أن خططهم ظهرت مبكراً (القرن الخامس-الرابع)، بشكل "تقاويم"، نوع من الجداول الحولية، تدون مع الأيام حيث قامت الجمعيات والحكام، وأحداث وأفعال مجلس الشيوخ. كانت التقاويم تحمل اسم القناصل، المنتخبين سنوياً (لذا سميت لوائح القناصل تقاويم). حرر هذه المدونات عادة الأحرار، بهدف عملي بحث، لتذكر وقت حدوث هذه الصفة أو تلك، ومتى بيع أو اشترى هذا البيت، أو ذاك العقار من الأرض، إلخ.

في العام ٣٢٠ ق.م. كلف مجلس الشيوخ الكاهن الأكبر، أن يدون تقاويم رسمية، لتعرض على البيت الملكي، ويطلع عليها من يشاء. ومنذ بدأت تصدر "جداول الأحرار" سنوياً. وعند امتلاء هذه الجداول، توضع في الأرشيف. ولقد شكلت هذه الحوليات والتقاويم، التي لم تصلنا، مع الخرافات وسنن الأسرة، المصادر الأساسية للمؤرخين الأوائل الرومان، ولهذا السبب استمرينا بتسميتهم: الحوليون. لكن المؤلفات هي الأخرى ضاعت.

يجب أن نذكر بخاصة أسفنا على ضياع أعمال "كبار الحوليين"، كما سمي مؤرخو الرومان من نهاية القرن الثالث حتى بداية القرن الثاني ق.م، الذين كانوا على اطلاع مباشر

على تقاويم وحوليات الزمن الغابر، وبخاصة، ضياع التاريخ الروماني الأول المتوالي، الذي كتبه باللغة اليونانية السناطور فابيوس بكتور، معاصر الحرب القرطاجية الثانية. ومؤسف أيضاً ضياع (عدا بعض الصحف) العمل التاريخي الأول الذي كتبه باللاتينية ماركوس بوسبيوس كاتون المراقب (٢٣٤-١٤٩) حوالي العام ١٦٠ ق.م: بعنوان الأصول. عالج كاتون في هذا العمل، كما يشير العنوان، أصول وأول مراحل تاريخ الشعوب والمدن الإيطالية، مستنداً إلى دراسة الحوليات والوثائق المحلية، والمخطوطات القديمة، وأعمال اليونان في تاريخ إيطاليا، وهي الأخرى لم تصلنا. كتب هذا العمل بلغة واضحة ودقيقة، عملية، مجردة من الزخارف البلاغية التي شوهت أعمال المؤرخين الرومان اللاحقين.

عدا بعض الصحف أو المقاطع لم يبق لنا شيء من "الحوليات الصغرى"، أي كتاب نهاية القرن الثاني والنصف الأول من القرن الأول: فالريوس أنتياس، لسينوس ماسر، كوانتوس إيليرس توبرو وغيرهم. ورغم تخميناتهم الجريئة وأحياناً حكاياهم، كمن يحاول نقل علاقات وأفكار الأزمنة الغابرة، التي وصلتهم منذ أيام الرومان، تحظى معرفة أعمالهم بأهمية بالغة. فقد أفادوا بسعة من "الحوليات الكبرى"، ويؤكد لسينوس ماسر أنه "اكتشف" من العهود القديمة "كتباً عن الكتان" (من وثائق الأرشيف طبعاً)، التي لم يستفد منها أحد. ولسنا نملك "الكتب الأربعين عن العهود القديمة لروما"، العمل الجاد للموسوعي ماركوس ترنتيوس فارون (Varron) (١١٦-٢٧).

لكننا نسمع صدًى هذه الكتب المفقودة في أعمال أوغست، مؤرخ تلك الحقبة، والتي كتبها باحثون مستقلون ومصنفو أعمال سابقهم. سنتحدث هنا عن ثلاثة مؤلفين من القرن الأول ق.م، حفظت أعمالهم خيراً من غيرها، ومنها نطلع على الأزمنة الغابرة اليونانية والإيطالية: ديودور دي سيسيل ودينيس من هالكارناس، الباحثان اليونانيان اللذان عاشا في روما، وتيت-ليف، أحد أبناء مدينة بادو.

كتب ديودور، معاصر قيصر وأوغوست، باليونانية حوالي العام ٣٠ ق.م، تاريخاً ضخماً بعنوان "مكتبة تاريخية". ومن الـ ٤٠ كتاباً التي يتضمنها لم يبق سوى الخمسة الأولى، ومن ١١ حتى الـ ٢٠، وأجزاء من باقي الكتب. عرض فيها تاريخ مصر، البحر الأبيض المتوسط، الهند، اليونان القديمة ثم روما منذ أقدم العصور. من الطبيعي أن سفراً

بهذا الحجم، لا يمكن أن يكون نتيجة بحث إنسان واحد. لم يقدم ديودور سوى تصنيفات مختارة، وملخصات، قريبة جداً من مصدرها الرئيسي، لأعمال تاريخية نوعية. وكما يبدو لنا، فقد كتب النص الذي يستوحيه، وهذا يخولنا أن نقول إنه استعار، بشكل مقنع بعض الشيء، مواد كبيرة الأهمية من هذه الحولية الرومانية القديمة.

ودينيس دالكرناس البليغ، معاصر ديودور، أقام في روما في العام ٢٩ ق.م. وألف فيها باللغة اليونانية "عهود روما القديمة" (التاريخ القديم لروما حتى منتصف القرن الثالث) بعشرين كتاباً، بقي لنا منها كاملاً تقريباً الإحدى عشر الأولى، وملخصات من غيرها. تاريخ عمله بالخطابات المفوّهة، ونماذج من الفن الخطابي الذي كان يعلمه. لكن دينيس دالكرناس، فضلاً عن فابيوس بيكتور، استقى من مصادر أخرى. بخاصة أعمال الحوليين الصغار، والأهم، أعمال ترنتيوس فارون. وقد صان ديونيس المصادر الأخرى من تاريخ الأدب الروماني الضائع.

أخيراً، العمل الشهير لتيت-لايف (العام ٥٩ ق.م) تاريخ روما "منذ تأسيسها حتى أيام أوغوست (العام ٩ ق.م) الذي يشكل وثيقتنا الأتم لمعرفة الموروث التاريخي الروماني. ومن ١٤٢ كتاباً من هذا العمل الضخم، العشرة الأولى، التي وصلت إلينا غير تامة، موقوفة على أصول روما. ومما بقي لامتلك سوى ٢١-٤٥ ضمناً، وبعض الأجزاء والملخصات من الكتب الأخرى.

إن تيت-لايف، كمنافسه دينيس، ليس مؤرخاً حقيقياً، بل عالم بلاغة وبيان، الذي نشر فصاحته في روما. فتاريخه مزدان بخطب طويلة، مصاغة بفن، يضعها على لسان شخصه. ولقد أخذ على عاتقه أن "يخلد في ذاكرة الناس مجد أول شعوب الأرض"، وفي الوقت ذاته، الإشارة إلى خطر الانحطاط الأخلاقي البادي في زمنه، أي متابعة التطور الهام في انحطاط الانضباط... الذي جلب أخيراً هذه الأزمات، حيث صار السوء غير محتمل كالمرض" (تيت-لايف، المقدمة، ٣-٩). إن تيت-لايف إذن في الأغلب مؤرخ أخلاقي ومواطن. وهو يمسك أيضاً عن الرجوع إلى المراجع الأولى. يعمل فقط على قص بأسلوب أدبي وأخاذ أحداث الماضي استناداً إلى معلومات تحدث عنها مؤرخون، أسلافه، وهو نفسه يعترف أنه عادة "من رأي الغالبية". رجع بخاصة إلى أعمال "الحوليين الصغار"، فلريوس انتياس، لسيوس ماسر وتوبرون.

فلا بد إذن من امتلاك العلم، استناداً إلى النصوص الموثقة، من أجل دراسة العهد

الأقدم من تاريخ إيطاليا وروما. لذا يرى البعض، إخضاع كل هذا الموروث الآثاري "لنقد لاذع" جارف، وعدم إمكانية كتابة تاريخ صحيح لروما إلا انطلاقاً من القرن الثالث ق.م. لكن مكتشفات أيماننا في مجال الآثار، واللغة، الأثينية والتاريخ المقارن تمكن علمنا أن يجد الضوابط التي تسمح بمراقبة التقليد القديم الروماني وتفتح أمامنا معرفة الماضي الأبعد لروما.

في كتابه "مدخل إلى التاريخ الروماني"، في مجلدين، (١٩٠٢-١٩٠٤)، كان ف.مودستوف، الممثل الشهير للمدرسة الروسية للتاريخ القديم، واحداً من أوائل من أشار إلى هذه الإمكانية. وقد صار رأيه القائل إن علم الآثار، الأثينية واللغات يفتح أمامنا حقلاً شاسعاً وغنياً لدراسة أقدم عهود تاريخ إيطاليا وروما، صار في هذه الأيام الرأي المسيهيمن في العلم. مع ذلك، لا يستند مودستوف إلا إلى أعمال علماء الآثار الإيطاليين للنصف الثاني من القرن ١٩ (أورسي، رغورني، إلخ). فمنذ إذن، اتسع ونما عدد وثائق علم الآثار لقبـل التاريخ والتاريخ القديم لإيطاليا نموا ملحوظا. ولقد حملت الحفريات العديدة، التي تجلـو المعالم القديمة لأقدم المستعمرات اليونانية في إيطاليا، الجديد والوافر، وبخاصة دراسة حضارة الإتروسك، الشعب الذي لعب دورا بارزا في الأزمنة الأولى من تاريخ إيطاليا.

مصادر تاريخ الجمهورية الرومانية من القرن الثالث حتى القرون الأول ق.م.

### والامبراطورية

يعيش المؤرخ بشروطا طيبة لدراسة العهود الأحدث، عهود عظمة وانهيار الجمهورية وازدهار الامبراطورية الرومانية. طيلة هذه الحقبة، كانت روما في علاقات متينة مع اليونان، التي كانت تمتلك تدوينا تاريخيا عالي التطور، وبتأثيرهما يتشكل ويزدهر الأدب التاريخي الروماني. وقد حفظ من تلك العهود توثيق غزير نقشي؛ ونحن نعرف من الكشوفات الآثارية، الكثير من الأوابد، الحاجات المتداولة وسواها.

بدأ اليونان الاهتمام بالرومان بخاصة بدءا بحروبهم معهم، التي أنتجت وضع اليونان في علاقة عميقة تجاه روما. كلفت هذه الأخيرة بوليب (٢٠١-٢٠٠ تقريباً) الذي، بعد أن لعب دورا هاما في الجامعة الآسية، التي خربها الرومان، عاش ١٧ عاماً في عاصمتهم كرهينة، بكتابة "تاريخ روما" الشهير بـ ٤٠ كتابا. حسب كلامه بالذات، لقد هدف هذا العمل هدفا أساسيا هو "الإطلاع على الوسائل، ومهارة السلوك، أي كيف أخضعت روما العلم كله

لقوانينها ، خلال ثلاثمئة عام" (بوليب الأول، ١). ناهلا من المراجع اليونانية والرومانية الهامة (بخاصة من فاييوس بيكتور، ومستوحيا حذر وروح توسيديد الناقدة ليضعها في العمل وتحرير الأسباب الأساسية للأحداث، كون بوليب لوحة واسعة تاريخية لكل حوض البحر الأبيض المتوسط، خلال حقبة تمتد من العام ٢٦٤ و١٤٦ ق.م. أولى المؤلف خلالها عناية واسعة للفتوحات الرومانية خلال القرنين الثاني والثالث ق.م. ورسم درسا مشكلا للتنظيم السياسي لروما، وجيشها، وذاكرا عددا من الوثائق الدولية ذات أهمية بالغة (مثل المعاهدة المعقودة بين الرومان والقرطاجيين. ورغم أن حكمه على الأحداث هو، بعامة، حكم ساسة زمنة الرومان، يبقى عمله في هذا المجال رفيع القيمة، ومن المؤلم جدا أن الكتب الخمسة الأولى فقط هي التي وصلتنا، بينما لم يبق من ٣٥ كتابا سوى مقاطع وصحاف مبددة.

. بتأثير التدوين التاريخي الإغريقي، بدأت أعمال الحوليين الرومان تبلغ درجة عالية من العناية. كان المؤرخ الروماني الأول الذي انكب على تقليد توسيديد وبوليب هو كليونوس سالستوس كريسيس (٨٦-٣٥ ق.م). وسالوست، هذا الظهير المتحمس للقيصر، ووالسي نوميدي، الذي تمكن بالسلب والفرصنة تكديس ثروة طائلة، عاش حياة عاصفة. في كهولته انسحب من الحياة السياسية بعد موت القيصر، انصرف كما قال، إلى تدوين تاريخ الشعب الروماني الذي يبدو جديرا بالذكرى. بدأ يربط بعض الفصول، الأبرز والأقرب منه زمانيا، مثل "مؤامرة كاتلينا" و"حرب جوغورتا" التي (كتبت حوالي ٤٣-٤١). تحدث فيها بخطوط رئيسة عن تدمير الأرستقراطية الحاكمة، ولـ "مؤامرة" كاتلينا، النابعة منه، سعى إلى معارضة "قائد الشعب الحقيقي"، ماريوس. وفي "تاريخه"، الأوسع، في خمسة كتب، اقترح كتابة العهد الأبرز في الحركة الديمقراطية، في أثناء السنوات التي تلت موت سيللا (بدءا من العام ٧٨). للأسف، لم يصلنا سوى فصول مبددة من هذا العمل، وهو اهم ماكتب.

إن الخط الأبرز في أعمال سالوست هو أسلوبه في وضع الأسباب السايكولوجية في المقام الأول. ولقد أخذ الرومان يومئذ من اليونان موضوعة المذكرات وادب التراسل، وتراجم الشخصيات والتكتائب الحي بين الأصدقاء حول الشؤون العامة. من هذه الثروة القلمية نملك مراسلة شيشرون إلى أصدقائه (أتيكوس وبروتس بخاصة) ومعارف (بومبي

وقيصر الهامين)، تشكل أحد المصادر عالية القيمة لنحكم على أحداث الفترة الواقعة بين ٦٠-٤٠ ق.م، التي احتل شيشرون فيها نصيبا مباشرا. كانت خطاباتة العديدة، هي الأخرى، تنتم بالراهنية. وبين المذكرات، يجب ذكر "المذكرات التاريخية" حول حرب الغول ليوليوس قيصر وتلك التي كتبت بعنوان "الحرب الأهلية"، التي أكملها هرتيوس وغيره من مرافقيه. والسيرة الذاتية لبعض شخصيات التاريخ الروماني (أتكوس، كاتون الشاب)، التي كتبها معاصر قيصر كورنيليوس نيبوس (مات حوالي العام ٣٢)، هي، بعامه، سطحية جدا. وبفضل النشاط الذهني المتقدم الذي ميز الأيام الأخيرة للجمهورية، استطعنا أن نعرف الكثير من التاريخ الروماني، علما أن الزمن لم يحفظ لنا من هذه الروائع الأدبية سوى القليل. ويحق لنا أن نأسف بشكل فريد ضياع حوليات تيت-لايف العشر، معاصر وشاهد الأحداث التي يدونها في هذا الجزء من السفر.

إن العهود الأولى الإمبراطورية خلقت شروطا قاسية في وجه تطور العلم التاريخي لدى الرومان. فالرجل المعروف، أزينوس بولليون، اضطر أن يترك مؤلفه غير كامل. وأعمال لابينيوس أحرقت بأمر من مجلس الشيوخ، وكذلك عمل كرموتيوس كوردس الذي كتب في أيام تيبير، بروح معادية لأصول النظام الملكي في روما. فضلا عن الأعمال الرسمية لتيت-لايف ودينيس دالكرناس التي كتبت في عهد أوغست، لم يبق لنا، فيما يخص الحقبة الممتدة من جوليان حتى أسرة آل كلود، سوى العمل التاريخي الصغير لفيليوس باتركولوس، بعنوان "التاريخ الروماني" بمجلدين: دون الثاني، حتى العام ٣٠م، الأحداث التي شارك بها المؤلف كضابط في جيش تيبير، حيث يمجّد المآثر الحربية ويمدح الفضائل الخاصة معاكسا للرأي العام.

فقط في عهود آل فلوفيان وأنطونين، ومع رسوخ الاهتمام بالرأي العام، ازدهر التاريخ مجددا. فالباحث اليهودي جوزيف (مواليد العام ٣٧، ومات على الأرجح في عهد دوميتيان)، الذي انضم إلى طرف الرومان، وسمي، بموافقة ورغبة الإمبراطور، فلافيوس، كتب باليونانية مؤلفات هامة: "تاريخ حرب اليهود ضد الرومان" (٧ كتب)، "العهود اليهودية القديمة" (٢٠ كتابا)، "سيرة ذاتية"، إلخ.؛ نقرأ فيها أيضا وثائق في التاريخ اليوناني والروماني، تعود بخاصة إلى أيام نيرون، فاسباسيان وتيتوس.

لكن كورنيلوس تاستوس (تاسيت) (حوالي العام ٥٥-١٢٠) هو أكبر مؤرخ روماني.

و"حولياته" و"تواريخه"، في ١٦ كتاباً، الأعمال الأساسية لمعرفة التاريخ الروماني في القرن الأول الميلادي، كتبت في عهد تراجان، بين ١٠٥ و ١٠٧. وبحسب الصغيران، "حياة أغركولا، فاتح بريتان *Bretagne* و"جرمانيا" (بالأصح "أخلاق الجرمان" تقدما ماكتب (حوالي العام ٩٨). يتضمنان كثيراً من المعلومات في الحياة والنظام الاجتماعي عند البريطون، الجرمن، الفنلنديين وغيرهم من شعوب أوروبا.

إن تاسيت، من أسرة فروسية، كلف مع ذلك بمهام رفيعة في الدولة:قنصل في العام ٩٧ وحاكم في آسيا في العام ١١٣. كان المعلق على معارضة مجلس الشيوخ في أيامه، رفع الجمهورية الرومانية القديمة إلى درجة المثال. ومن أجل هذا سماه أنجلز "آخر ممثلي" الذهن الأبوي العجوز<sup>١</sup>. دلل في حولياته أن كل الأباطرة الأوائل غيلان متوحشة، متعطشة للدماء، ولا يكف عن رثاء الجو المحيط المشبع بالحقارة والتملق، الناجم عن الإرهاب السائد في كل مكان، ففسد الترتيب المشيخي، الذي كان مستقلاً وموثوقاً. ولهذا أيضاً، رغم طرحه رواية الماضي بدون غضب ولا تحيز، امتازت أحكامه بالذاتية، الدرامية المغالية واللهجة الأخلاقية.

لكنه يعرف في الوقت ذاته كيف يعطينا سغراً من اللوحات في الأخلاق الرومانية، وحياة الترف والفسق في القصر، ونفوذ الساسة ورجال الأعمال الدجالين، والوضع السيء المرهق للجنود، المرميين على الحدود البعيدة، وعن تمردهم، وعن الدهماء الرومانية الرثة الثياب، والشوارع، والمسرح والسيرك، وعن حريق روما الرهيب في العام ٦٤، إلخ. وهكذا يثبت تاسيت أنه رسام أخلاق ماهر، لامثيل له بين مؤرخي العهد القديم. لكن أعماله، هي الأخرى، لم تصلنا إلا مجزأة ومبعثرة. فأكثر من ثلثي العمل ضاع.

تقريباً، مع تاسيت، كتب مؤرخان وكاتبان سيرة، اليوناني بلوتارك والروماني سوتوني، كانت كتابتهما، بخاصة كتابات الثاني، بشكل ما تنقيحاً وإتماماً لأعمال تاسيت. فالعلامة بلوتارك (٤٦-١٢٥)، في شيرونيه (في بيوتيا)، المربي والأخلاقي الشهير، كان واضحاً جداً في دراسة قضايا زمنه، الأخلاقية والدينية. لكنه في كتبه العديدة وفي مختلف الموضوعات وبخاصة في الأخلاق، كان يستند إلى التوثيق التاريخي الذائخ، الأمر الذي يشكل استحقاقه الرئيسي في عيون المؤرخين. وفي "الحيوات الموازية" لكتاب رجالات العالم اليوناني والروماني، التي خصصها بالحديث عن دور العيب والفضيلة في أعمال وأقدار

<sup>١</sup> - اقرأ ف. أنجلز "برونو بوير والمسيحية البدائية. كارل ماركس، فريدريك أنجلز "في الدين"، ص ١٩٧، دار المنشورات الاجتماعية، باريس ١٩٦٠.



هؤلاء الأشخاص، قيمة كبيرة جدا. غالبا مايتمترج بلوتارك ويضيع في تفاصيل حياة أبطاله ويتحسس للنادرة. "نحن لانكتب تاريخا، بل سير وتراجم"، هذا مايقله، هو نفسه. إنه بتزويدنا بمعلومات هامة مأخوذة من مؤلفات مفقودة، يشير إلى مصدرها، تقدم تراجمه لنا قيمة تاريخية عظيمة. ومن جهة الرومان يطلعنا على رجالات دولة الجمهورية (كميل، فاييوس مكسموس، فلانيوس، آل غراك، ماريوس، سيللا، كراسوس، بومبي، قيصر، شيشرون، بروثس)؛ وفي تراجم الأباطرة، لم يصلنا إلا سيرة غالبا وأوثون.

بينما ينتسب كايوس ترانكلوس (سوتيون) (٧٠-٦٠ تقريبا)، بعكس تاسيت، إلى الناس الراضين عن عصرهم. وكواحد من رعيال الموظفين المدنيين والعسكريين (كان جده يشغل منصبا في القصر، وكان أبوه محامي الفوج)، احتل سوتيون، في عهد أدريان، سكرتير المستشارية الإمبريالية. ومكنته مهامه من دخول الأرشيف السري للقصر، فحدثنا حسب هذه المعطيات عن "حيوات ٢ قيصر، من جوليان قيصر إلى دومتيان. وفضلا عن استخدامه الكثير من المذكرات، وقصص حاشية البلاط السابقين، دون إثارة ضجيج المدينة؛ يزودنا كتابه هذا بتوثيق وفير حول تاريخ القصر الإمبريالي في القرن الأول الميلادي. ويميز عمل سوتيون على اللامبالاة بالمادة السياسية، حس النكتة وتفصيل الأخلاق المأخوذة من حياة الأباطرة الخاصة. وهو يؤيد النظام الإمبريالي وينتظر منه "قدوم عصر سعادة وهناءة". لكن، على سطحية مفهوم سوتيون، فهو يعكس جيدا أوضاع الفئات الأخرى من المجتمع الروماني، كتلك التي قدمها تاسيت ويصحح نقص قصص هذا الأخير عندما يتحدث عن أحداث القرن الأول الميلادي.

وأبين Appien، يوناني من الإسكندرية، عاش في النصف الأول من القرن الثاني الميلادي، يمثل وجهة نظر رجال الأعمال والأوساط المثقفة الريفية. كان هذا الرجل الذي امتهن مهنة إدارية هامة- محامي الخزينة الإمبريالية، ثم جابي مالية- كان يرى، هو الآخر، النظام الإمبريالي بعين التعظيم الأبدي. فكتب عملا بنفس طويل، تلبية لرغبة الأرياف: "التاريخ الروماني"، باللغة اليونانية، منذ الملوك حتى عهد ترانجان بـ (٢٤ كتابا)، يكس فيه كل تاريخ تشكل الدولة الرومانية. مخططة بالغ التعقيد: بعد أن عرض في الكتب الثلاثة الأولى اصول روما وإخضاع إيطاليا، انتقل إلى وصف غزو الرومان وإلحاق مختلف الأصقاع بالامبراطورية، مخصصا لكل منها كتابا برأسه: سيسيل، إيبيريا، ليبيا،

مقدونيا، سوريا، إلخ. ومع هذا اضطر أن يوقف بعض الكتب للأحداث الخاصة بروما ذاتها، وتهم كل الإمبراطورية؛ والكتب التي تعالج الحرب مع هانيبال (الكتاب ٧)، كالكتب الخمسة المتحدثة عن الحروب الأهلية منذ آل غراك *Gracques* حتى الثلاثية الثانية، شكلت الجزء الأهم من العمل.

من البديهي أن لوحة بهذه السعة لن تكون عميقة؛ آبين لا يسعى إلى المناهل ويكتفي بتوثيق غير حذر. ينتج من هذا أن تجد عنده أخطاء كثيرة بالأسماء، بالتواريخ، وأيضاً من حيث خط تتابع الأحداث، إلخ. على هذا، يبقى سفره، خاصة مايتعلق بالحروب الأهلية، هاماً جداً بالنسبة لنا. أولاً، لأن آبين أخذ الكثير من المؤلفات التي لم تصلنا، مثلاً، "تاريخ الحروب الأهلية" لأزينوس بولليون، مذكرات سيللا، وأوغست، وغيرها. والأهم، كما أشار انجلز "من كل المراجع القديمة الخاصة بالصراع في أحشاء الجمهورية الرومانية، آبين هو الوحيد الذي يقول لنا بوضوح سبب الصراع ومضمونه، أي الملكية العقارية"<sup>١</sup>، الأمر الذي أكدته ماركس ملاحظاً أن آبين "...يسعى إلى إيجاد السبب المادي العميق للحروب الأهلية". ومن هذه الزاوية، يخلو عمل آبين من التوجهات الأخلاقية والبلاغية، فهو سفر رفيع القيمة. ونذكر أيضاً سفرأ عظيماً بـ ٨٠ كتاباً هو "التاريخ الروماني"، الذي كتبه بلغته الأم ديون كاسيوس (حوالي ١٥٥-٢٣٥، اليوناني الأصل، مستشار في مجلس الشيوخ، والسي في إفريقيا، سفير في دلماتيا في عهد آل سيفير *Severe*. بدأ بايني *Enee* الأمير الطروادي، وتابع، طبعاً، قصته حتى عصره. وصلتنا الكتب ٣٦-٣٩، التي تتحدث عن الأحداث الجارية منذ العام ٦٨ ق.م. حتى أيام كلود (٤٥ م) تامة. ومما تبقى لم يصلنا سوى أجزاء ومختصرات لاحقة. كان ديون كاسيوس يحاول الاقتداء بتوسيديد وبوليبي، لكنه يبقى بعيداً عن واقعية مؤرخي الحقبة الكلاسيكية. كان مشبعاً بإيمان عميق بما فوق الطبيعي، لذا تحدث بالتفصيل عن كل النبوءات وكل المعجزات، ودون أن يسعى إلى إقامة علاقة سببية بين الوقائع، يهتم بالإرادة السامية وقرارات القدر. حروب وأحداث القصر تحتل مكاناً رئيساً في سفره؛ ولا يبدو تدخل الجماهير الشعبية إلا بمناسبة التمردات، كقوة غامضة وفظة يجب قمعها. ورغم انتمائه إلى نبلاء المشايخ، تحى عن ذبذبات معارضة الإمبراطورية واكتفى بالحلم بمجلس شيوخ يوسع مجالاً للشورى، في ملك أمراء مسالمين

<sup>١</sup> - ف. انجلز، لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية، ص ٤٣-٤٤.

وطببي القلب. على ذلك، وحتى في الحالة المشتتة التي وصلنا بها، ورغم كل الأخطاء، يبقى هذا العمل مرجعا هاما لتاريخ نهاية الجمهورية والإمبراطورية في القرنين الأوليين للميلاد.

وأميان مرسلان (حوالي ٣٣٠-٤٠٠) كان آخر عظيم من كتبة تاريخ روما، يوم كانت الثقافة بالغة الانحطاط. يوناني الأصل (ولد في انطاكية)، عسكري ممتهن، شارك بعدة حملات مع الامبراطور جوليان وشاهد الكثير في أثناء رحلاته العديدة. وحوالي العام ٣٩٠ ألف سفرا محترما، "التاريخ" في ١٣ كتابا، تعهد بإتمام تاريخ تاسيت. كتب باللاتينية، وبدا كمن يترجم أفكاره من اليونانية إلى هذه اللغة الغربية، الأمر الذي عثم أسلوبه وشوشه، فهو مليء بالاستطرادات البلاغية. لكنه كان نافذ البصيرة يمتلك موهبة وصف المشاهد الحربية، التي خاضها مرارا وتكرارا، ومراقبة حياة وأخلاق العديد من الشعوب التي اتصل بها. وكان يتقن الإفادة من المراجع التاريخية ويركب مشاهداته بلوحات بالغة الحيوية أو بشخص معروفة بالانضباط والحكمة. يسعى إلى البقاء محايدا وصادقا ويرى أن إسقاط الوقائع وإفسادها خطآن متساويان. "المؤرخ الذي يهمل الأحداث مخادع وكذلك الذي يختار عما لم يقع أبدا" (٢٩، ١، ٥). لاتحدد مهمة التاريخ، في رأيه، بتعداد الوقائع، بل تكمن في جمعها حول الأحداث الضخمة. ولقد قدم بشكل فريد تفاصيل العهد الأقرب إليه والـ١٨ كتابا (من ١٤-٣١) من سفره التي وصلتنا، تطال فقط ٢٥ عاما، ٣٥٣-٣٧٨.

· إن الأعمال الأخرى في تاريخ عهود الإمبراطورية لاتقدم قيمة كبرى، لكن لايحوز المرور من فوقها لعدم وجود مصادر أخرى أهم. نذكر بخاصة "تاريخ أباطرة الرومان" (حتى ٢٣٨) لليوناني الاسكندراني هيروديان، الذي عاش في روما (حوالي ١٧٠-٢٤١). إنه واحد من أندر المراجع التي بحوزتنا حول عهد آل سيفير.

وفي القرن الرابع، كتب أوتروب "ملخص التاريخ الروماني"، في عشرة كتب، يعتبر وسطا بين التاريخ الشعبي والوجيز الكلاسيكي. إن هذا المؤلف، المكتوب بلغة واضحة ودقيقة، يفتقر جدا لأي مضمون. ومجموعة سير الأباطرة للقرنين الثاني والثالث، بقلم ستة باحثين، اقتداء بـ"حيوات" سوتيون، ليست عديمة الفائدة. ونحن لانعرفه إلا بنسخة نهاية القرن الرابع، وقد اتخم بالنصوص المدسوسة، والأحداث المخترعة والوثائق المزورة، فهو "إذن مصدر متهم، لايركن إليه، لكنه المصدر الوحيد الذي بين يدينا، لعدة احقاب من القون

الثالث المظلم. هو مجموعة لسير قصيرة للأباطرة حتى قسطنطين، كتب حوالي العام ٣٦٠، بعنوان عام "القيصرة"، منسوبة لأورليوس فكتور، الموظف الكبير في النصف الثاني من القرن الرابع.

أخيراً، أعمال الباحثين المسيحيين مفيدة كمرشد في دراسة روما الامبريالية. فعالم الكنيسة الكبير أوسيب ابن القيصرية (٢٦٣-٣٤٠) كتب "اول تاريخ إكلييريكي" شامل، مستخدماً ليس فقط مختلف التقاليد المسيحية وأعمال كتاب الكنيسة، بل أيضاً أرشيف الدولة، الذي دخله بفضل علاقات الصداقة مع الامبراطور قسطنطين، الذي كتب سيرته الذاتية. يتضمن تاريخه الاكلييريكي إذن كثيراً من المعارف القيمة حول التاريخ المدني، وبخاصة، حول أحداث القرن الثالث (حتى العام ٣٢٤). وفي القرن الخامس (٤١٧)، كتب الأب بولص أوروز، إسباني الأصل، بالروح المسيحية: تاريخه الشامل "منذ آدم حتى العلم ٤١٠م" تاريخ في سبعة مجلدات ضد الوثنيين)، حيث يبذل جهداً لإثبات أن الوثنية كانت حقبة من الحروب الدامية والاضطرابات المستمرة. بينما تسم المسيحية بدء السلام "مملكة الله". و"مدينة الله" للأسقف أوغستين (كتب أيضاً في بداية القرن الخامس) هو أيضاً بالروح عينها. كلما افتقرت مدونات لتاريخ الروماني، مع انحطاط الحضارة الرومانية، اتسعت الاهمية التي تمثلها لدراسة تاريخ روما الوثائق التي تزودنا بها علوم التاريخ المساعدة: علم الآثار، النقش، البرديغرافيا<sup>١</sup> والمسكوكات.

إن مجموعة من الأوابد الأثرية من عهد الإمبراطورية الرومانية تعيش على سطح الأرض، وأكثر منها تلك التي تكشفها لنا التنقيبات المتسعة كل يوم. مثلاً، نقوش أعمدة تراجان الرائعة ومارك-أوريل، تمثل بطريقة تامة وبواقعية مدهشة حملات هؤلاء الأباطرة؛ وأقواس نصر تيتوس وقسطنطين، "الباب الأسود" لتريفوس، وخرائب مجاري المياه، المدرجات، المعابد الرومانية القديمة، التي تحولت إلى كنائس مسيحية (مثل البونيون)، سراديب أموات رومان مع قبورها الكثيرة وجدارياتها ونقوشها الجدارية، تشكل شواهد تاريخية من النمط الأول. ونستقي توثيق بالغ الأهمية لتاريخ الحضارة، الاقتصاد، الأخلاق الرومانية من الحفريات؛ مثل مكتشفات قصر الإمبراطورة ليفيا في روما، دارة أدريان في تيبور، ومدن رومانية: بمبيي، مرسى أوستيا، ولامبيسا وتيمغاد في إفريقيا،

<sup>١</sup> - دراسة لغوية لمخطوطات البردي.

دورا-أوروبس على الفرات، وعدد ضخم جدا من ميادين الحدود الرومانية، والأبراج، والطرق الاستراتيجية، إلخ. إذا أهملنا كدسا لا يحصى من الأسلحة، من السلع المتداولة، والتزيينات، وشواهد القبور، وسواها.

ليست أقل أهمية، إن لم تكن أكثر، الكتابات النافرة أو المنقوشة. يعود أقدمها إلى زمن الملوك: الكتابة المنقوشة على "الحجر الأسود" الذي وجد في فورم البدائي، وعلى إنشاء دينوس، وعلى مشبك برونست، إلخ. لكنها نادرة جدا. بدءا من القرن الثالث ق.م، تظهر شواهد القبور الأولى كذلك المحفورة على قبور آل سيبون، وبدءا من القرن الثاني تظهر القرارات والشرعية ("شرعية توريا"، ١١١ ق.م). ولايفك عددها يتزايد بدءا من القرن الأول للميلاد، وهي تشكل أرشيفا غنيا، عارضة زرافة من واقعات الحياة العامة، الاجتماعية والاقتصادية والحياة الخاصة. يكون بعضها وثائق بالغة الأهمية، كنقش أنسير ("أعمال أوغست المقدسة")، خطاب كلود إلى ليون، مائدة فيلايا، من أيام تراجان، خطبة أدريان إلى الجند في لامبيسا، نقش أعمدة الميدان الامبريالي لسالنتوس بورنتانوس، في إفريقيا، قرار ديوكلتيان حول الأوسمة، إلخ. و"مجموعة النقوش اللاتينية"، التي بدأت تظهر في العام ١٨٩٣، تتضمن ١٦ مجلدا ضخما، متصلة بالعديد من الإضافات حيث تظهر النقوش المكتشفة حديثا. وقد نشر ف.لاتشيف الكتابات المكتشفة على الساحل الشمالي للبحر الأسود، مع ترجمتها.

وفي أثناء العقود الأخيرة، قدمت دراسة البردي، وأولها المكتشفة في مصر، معلومات قيمة حول تاريخ روما. واكتشفت النص المسمى كركلا ٢١٢، المانح حق المدينة للريفيين، ووثائق عديدة تخص إدارة الأموال في مصر في عهد الرومان، وكومة من وثائق الترتيب المنزلي وسمه الحياة اليومية: حسابات، رسائل أعمال وعقود، وحتى واجبات الطلاب المدرسية. مما أفسح الأمل في اكتشاف بعض المؤلفات التاريخية الضائعة: فقد وجد، مثلا، عرض جديد لمضمون بعض كتب تيت-لايف.

وتمثل النقود أيضا أهمية كبرى كمصادر تاريخية؛ يمكن أن نجد عليها ليس فقط صورة الأباطرة، بل تمثيلا لصروح وأعمال فنية شهيرة. وتضرب النقود أيضا احتفاء بذكرى أحداث هامة، تمجيда لفصيل أبلى في هذه المعركة أو تلك، إلخ. وخرافاتهم هي أحيانا إعلان برنامج: مثلا، بعد انتحار نيرون، ضرب الامبراطور غالبا نقودا تحمل هذه

الحكم: "حرية الشعب الروماني"، "بعث روما"، وغيرها. إن وزنها، عنوانها ومفردات أخرى، تخولنا الحكم على حدوث تبدلات في حالة البلد الاقتصادية.

### نتاج المؤرخين

بدأت دراسة التاريخ الروماني منذ عصر النهضة. فقد انكب الإنسانيون، شارحو المجتمع البورجوازي الذي يتشكل، بحثاً عن سمات طبقتهم، بحمية على دراسة تنظيم الدولة وحق الرومان في العهود القديمة. وفي القرنين السابع والثامن، مع قدوم الاستبدادية المطلقة إلى أوروبا، انصب اهتمام الباحثين بخاصة على التاريخ السياسي للامبراطورية الرومانية. وعن هذه الحقبة يتحدث المؤلفان الكبيران الأولان: مؤلفات الأب تلمونت، الفرنسي (تاريخ الأباطرة والمبادئ الأخرى الذين ملكوا خلال القرون الستة الأولى لظهور الكنيسة، ١٦٩٠-١٧٣٩، بستة مجلدات)، والانكليزي جيبون (انحطاط وسقوط الامبراطورية الرومانية. ١٧٧٦-١٧٨٨، سبعة مجلدات). رغم أصالة مفهومها، ليست هذه الأعمال بالفعل سوى تجميع لقصص الأقدمين، التي اهتم بها تلمونت وجيبون بثقة ساذجة، وصدقاها، بدون أي أثر لروح النقد.

لكن منذ القرن الثامن عشر، بدأت تتكون بفعل ضراوة الصراع الذي تخوضه البورجوازية التي تتشكل ضد "النظام القديم"، وجهة نظر جديدة، حادة، تجاه التقاليد القديمة. وقد دلل الإيطالي فيكو في كتابه "مبادئ علم جديد"، المرتبط بالطبيعة المشتركة للأمم (١٧٢٤)، أن الرومان، في بداية تاريخهم، كان لهم، كباقي الشعوب، ماضٍ "ديني" طوراً و"بطولي" طوراً آخر، وبالتالي، لم يكن موروثهم الثقافي، حتى القرن الثالث سوى أساطير وأوهاماً شاعرية. وكتب الفرنسي بوفور في العام ١٧٣٨ مقالة حول تقلب القرون الخمسة الأولى من تاريخ روما يقول فيها إن تاريخ روما القديم ليس إلا ابتكاراً لأطماع النبلاء الرومان وخطباء متصنعون يسعون لإرضائهم. أفضى هذا التيار الجديد إلى وهب التاريخ أسلوباً نقدياً علمياً.

إن أول من مارس ممارسة مثمرة، ليس فقط لتدمير المفهومات القديمة والساذجة المتكونة حول الماضي الروماني، بل لإعادة كتابة ماضي الشعب الروماني كتابة صحيحة، هو جورج نيبوهر (١٧٧٦-١٨٣١)، رجل الدولة الشهير في زمن الإصلاحات في بروسيا، ثم أستاذ في جامعتي برلين وبون. وقد طرحت دراسته "التاريخ الروماني" (في

ثلاثة مجلدات) الأسس الجديدة لدراسة تاريخ روما القديم. حاول نيبوهر أن يرجع مصادر الموروث الروماني الغابر في مخلفات العصر الحجري لدى الرومان وفي حولياتهم الأولى. فأعطى قدوة بالدراسة الحصيفة للتقاليد الرومانية ودلل على إمكانية تحرير بعض عناصر الشرعية. وكان أول من أشار، لدى الرومان، منذ فجر تاريخهم، وجود منظمة العشير، الأمر الذي يعتبره انجلز إنجازاً الأهم: "كان نيبوهر أول مؤرخ. ذا فكرة على الأقل تقرّبية...".<sup>١</sup>

وبين عامي ١٨٥٤-١٨٥٦ ظهر "التاريخ الروماني" الشهير لتيودور مومس وهو من ثلاثة مجلدات. ترجم إلى كل اللغات باعتباره علامة بارزة في الدراسات الرومانية، لم يكن مومس فقط عالماً كبيراً (ينسب له ١٥٠٠ عمل علمي، أبرزها وأهمها عمله الخالد في "الحق العام الروماني"). كما يجب أن نذكر، "دراسات رومانية" وكتابه "النقش اللاتيني"؛ بل كان أيضاً رجلاً سياسياً نشطاً جداً. يقتصر تاريخ روما، الذي يعرضه بالطريقة الأوضح والأكثر تفصيلاً، قبل كل شيء، على الـ "وحدة المفيدة" لإيطاليا التي قسمتها روما، وعلى النصر العظيم لروما على كل الشعوب المتوسطية المتعرضة للانحطاط أو اعتبرت غير جديرة بالتطور، وعلى تأسيس "السلطنة القتالية" على يدي العبقري قيصر. "كان قيصر منذ يفاعته، رجل دولة وكان هدفه أسمى ما يؤمل من أي إنسان". ويمتاز عمل مومس الكبير كله بالذاتية البورجوازية المتطرفة، بتوجهاته الأخلاقية ومناصرته للحدثة، فنقل أشكال وأفكار المجتمع البورجوازي في زمانه إلى الماضي. نادراً ما شددت اهتمامه الشؤون الاقتصادية، ودور العبيد مهمل تماماً في تاريخه. وقدم انتفاضاتهم كتمردات لاقيمة لها: حتى سبارتاكس "ليس أكثر من قاطع طريق". لهذه الأسباب، لم يحافظ كتاب "التاريخ الروماني" لمومس على أهميته حتى هذه الأيام إلا لسعة وثاقفته، بينما الصرح كله، الذي شيده الباحث، لا يصمد أمام النقد.

لكن العلماء الروس في النصف الأول من القرن التاسع عشر أوقفوا أعمالهم على موضوعات معينة من تاريخ روما، لكننا نعثر هنا أيضاً على منعكسات عصرهم، عصر النضال من أجل تحرير الفلاحين في روسيا، وهذا ما يعلل الاهتمام الذي يبذونه بالشرائح

<sup>١</sup> - ف. انجلز، "أصل الأسرة، والملكية الفردية والدولة"، ص ١٥٥، الطبعة الأولى.

المضطهدة من شعب الدولة الرومانية. فاستاذ الجامعة في موسكو، د. كريبوكوف (مات في العام ١٨٤٥)، درس المسائل الخاصة بعوام روما القديمة؛ وب. كودريافتسكي مؤلف العمل الشعبي حتى يومنا؛ "النساء الرومان" لوحات مستنقاة من تاسيت (١٨٥٦)؛ وس. اشفسكي أول من أوقف عمله على تاريخ الأرياف الرومانية المستغلة بوحشية وعلاقتها مع مركز الدولة الرومانية، ونحن مدينون له أيضاً بعمل جاد جداً، بعنوان "سيدوان أبولنير"<sup>١</sup>، "فصل من التاريخ الأدبي والسياسي *de la Gaule* في القرن الخامس (١٨٥٥). ورغم أن العهد الذي سبق الإصلاح في روسيا كان عقبة كأداء في وجه تقدم العلم، كانت المدرسة التاريخية الروسية تحلق بجناحين قويين.

إن ظهور أعمال ك. ماركس وف. أنجلز (بخاصة رأس المال لماركس وأصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة لأنجلز) مارس نفوذاً حاسماً في كتابة تاريخ علمي فعلاً لروما، وكذلك للعصور الأخرى. ولقد قوّم أنجلز عالياً أعمال ماركس في علم التاريخ: "كما اكتشف داون قانون التطور في العالم العضوي، اكتشف ماركس قانون تطور التاريخ البشري، يقول ماركس ثمة واقعة بسيطة، مخابأة حتى اليوم تحت الطمي الأيدلوجي. إن الناس يجب أولاً أن يأكلوا، يشربوا، يسكنوا ويلبسوا، قبل أن يستطيعوا الاهتمام بالسياسة، بالعلم، بالفن، بالدين، وغيرها... وأن إنتاج مواد الوجود الأولية، تشكل درجة في سلم الارتقاء الاقتصادي لشعب أو لعصر ما، وانطلاقاً من هذا تتطور مؤسسات الدولة والمفاهيم الحقوقية، الفن، وحتى الأفكار الدينية لهؤلاء القوم، هنا تكمن العلة، وليس العكس كما فعلوا حتى الآن". لقد أدخل ماركس إلى علم التاريخ مفهوم التشكيلة الاقتصادية والاجتماعية "كمجموعة من علاقات إنتاج معينة ووطد فيه مقولة أن تطور هذه التشكيلات هو استتالة أو تطوير التاريخ الطبيعي"<sup>٢</sup>. ودرس أنجلز دراسة معمقة العشير الروماني وكشف تطور تشكيلة الدولة في روما (أصل الأسرة، الملكية الخاصة والدولة، الفصل السادس "العشير والدولة في روما")؛ وحدد أيضاً الشروط والأسباب الاجتماعية لولادة وانتشار المسيحية (برونو بوير والمسيحية الأولى، تاريخ المسيحية الأولى).

<sup>١</sup> - شاعر لاتيني، أسقف كليمنت-فيران. ولد في ليون، بفرنسا.

<sup>٢</sup> - ف. لينين، الأعمال، المجلد الأول، المنشورات الاجتماعية، باريس.



لقد جهد "علم" التايخ البورجوازي بداية، في إخفاء، ثم تشويه و"دحض" النظرية التي وضعها ماركس وانجلز (المادية التاريخية)، لكن تفاقم الأزمة الرأسمالية المستمر أجبره، هو الآخر على الاهتمام المتواصل بالظواهر الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية في تاريخ روما القديم، وفي عهود التاريخ الأخرى. فصدرت سلسلة بحوث في تاريخ روما الاقتصادي (التاريخ الزراعي لروما لماركس ويبر، ١٨٩١، مثلاً). ونشر مومسن في العام ١٨٨٥ المجلد الخامس من كتاب بعنوان "تاريخ روما"، تنمة لهذا العمل الذي كتب بمستوى مغاير تماماً في المجلدات الأولى الثلاثة: يتضمن بالفعل وصفاً في غاية التفصيل، ومؤسلاً على النقوش، والحياة الاقتصادية والتنظيم الإداري للآرياف الرومانية في أيام الامبراطورية. وكتب ج. سالفولي كتاباً بعنوان "الرأسمالية في العالم القديم" (١٩٠٦). وفي سفره الضخم "عظمة وانحطاط روما" (١٩٠١-١٩٠٧)، اهتم عالم إيطالي آخر هو غيغليلمو فريرو كثيراً بالظواهر الاقتصادية والاجتماعية في التاريخ الروماني في القرنين الثاني والأول ق.م. لكن أحداً من هؤلاء الباحثين، الذين تابعوا، مثل مومسن، تحديث التاريخ القديم، نحى ولو قليلاً نحو الاعتراف بالطبيعة العبودية للمجتمع الروماني. بالعكس، فقد وقفوا إلى جانب إد. ماير (العبودية في العهود القديمة، والتطور الاقتصادي في العالم القديم)، ورأوا أن عدد العبيد، في القديم، كان مبالغاً به، وبشكل عام ليس ثمة أي فرق بارز بين العمل الرقي والعمل المأجور، رافضين هكذا مفهوم ماركس. وتمسك إد. ماير نفسه، وروبولمان وج. بيلوش؛ بالنظرية التي ترى أن الرأسمالية هي أوج مرحلة التطور الاجتماعي المتنامي من اتساع الحركة الثورية البروليتارية.

كان علم التاريخ الروسي يتابع طريقه الخاص. فقد نشر إ. غريفس، أستاذ في جامعة بطرسبورغ، الذي أقيّل في العام ١٨٩٩ كـ"متهم"، لكنه عاد بعد ثلاثة أعوام إلى عمله بناء على طلب الرأي العام، نشر أبحاثه "في تاريخ الملكية العقارية في روما" (١٨٩٩)، العمل رفيع القيمة حيث يصف المجالات النموذجية في أيام أوغست، هوراس وبومبنيوس أنيكوس. وأستاذ آخر في نفس الجامعة، عانى أكثر من زميله من العسف الحكومي، وهو ف. مودستوف، مؤلف العمل الهام "مدخل إلى تاريخ روما" (صدر منه الجزءان الأول والثاني، في العام ١٩٠٢-١٩٠٤)، وهو لم يفقد أهميته حتى يومنا هذا. كان مودستوف واحداً من أوائل مؤرخي العالم الذي أشار إلى ضرورة استخدام التوثيق الأثاري الذي يتجمع عندنا الآن، من أجل دراسة العهود الأولى من تاريخ إيطاليا وروما. ووضع أسس مدرسة جدية للتاريخ الروماني، مرتباً تمحيص المراجع مع تمحيص معطيات مختلف

العلوم المساعدة للتاريخ (علم الآثار، النقش، وعلم المسكوكات، وسواها). وكتب مودستوف أيضا "تاريخ الأدب الروماني، قدم فيه الوقائع الأدبية برباط منين مع التاريخ العام، الاجتماعي والسياسي لروما. وفي ذات الحقبة صدر "أبحاث في تاريخ السلطة الامبريالية في روما (مجلدان، ١٩٠٠ و ١٩٠٢) للأستاذ ي. إيريم، و"مختصر التاريخ الروماني" و"بحث في العهود القديمة للدولة الرومانية" (ملازم ١-٣، ١٨٩٤-١٩٠٢) للأستاذ ي. نيونشيل. وقد رقد أساتذة جامعة موسكو ر. فيبر و د. بتروشفسكي دراسة روما القيصرة بأبحاث هامة، مثل "مقالات في تاريخ الإمبراطورية الرومانية" بقلم ر. فيبر (١٩٠٨، الطبعة الثانية، ١٩٢٣) ظهر بعيد ثورة ١٩٠٥، ليقدم لوحة التحولات الاقتصادية والصراع الاجتماعي الضاري، التي أفضت إلى سقوط الجمهورية وأمرة أوغست. الطروحات هنا قريبة جدا من طروحات المادية التاريخية، لكنها تحدث، هي الأخرى، تعصرن الماضي رغم أن الهدف معاد قطعا لهدف المؤرخين الرجعيين، بل لمهاجمة الرأسمالية وليس لإعادة الاعتبار لها. وفي "أبحاث حول تاريخ المجتمع والدولة في العصر الوسيط" ١٩٠٧، الطبعة الخامسة ١٩٢٢)، يطرح د. بتروشفسكي التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للامبراطورية الرومانية، خاصة في عهد الانحطاط، متأملا مفصلا التطور الاقتصادي، وظهور الاستعمار ومختلف أنواع القنانة، إلخ. إن كل هؤلاء العلماء الروس لنهاية القرن ١٩ وبداية القرن ٢٠ غير ماركسيين، في الأغلب، ولم يتبنوا النظرية الماركسية في التشكيلات الاجتماعية والاقتصادية. فكانت أعمالهم في المستوى العلمي أرقى من أعمال أولئك المؤرخين البورجوازيين الغربيين، الذين ينطلقون من وجهات نظر مثالية.

إن أعمال ف. لينين الكلاسيكية (المادية ونقدية العلم، في الدولة، وغيرها) أعطت المؤرخين السوفيات توجهها واضحا ودقيقا ليصلوا إلى مفهوم ماركسي في الطبيعة العبودية للمجتمع القديم، في دور وأهمية تمردات العبيد وانتفاضاتهم، وفي وظائف الدولة، إلخ. وابتاع هذه الخطوط التوجيهية، انكب المؤرخون السوفيات على تحقيق وصية انجلز: "القيام بدراسة جديدة للتاريخ كله"، وبهذا الصدد، قدموا الكثير في مجال التاريخ الروماني. وفي الربع الأول من القرن العشرين صدر "روما القديمة" (الجزء الأول ١٩٢٢؛ الجزء الثاني، ١٩٢٣، للأكاديمي س. جيبيليف)؛ إن هذا العمل، رغم أنه لايمثل سوى عرضا موجزا، تضمن الكثير من الطروحات الهامة حول آخر *parisades* وانتفاضة سيث

<sup>١</sup> - نيميك، الأكاديمية الوطنية لتاريخ الثقافة المادية.

البوسفور (حوليات غيميك، ١٩٣٣)، بادئا سلسلة من الأبحاث حول تاريخ انتفاضات العبيد في العهود القديمة، التي لن يولها العلم البورجوازي أي اهتمام تقريبا. وفي العام ١٩٣٦، ظهر العمل الهام للأستاذ آ.مشولين، بعنوان "انتفاضة سبارتاكوس" الذي درس حركة العبيد في العهود الغابرة لأول مرة دراسة مستفيضة. وفي العام ١٩٣٧ صدرت مجلة "حوليات التاريخ القديم"، تضمنت عددا كبيرا من المقالات لعلماء سوفيات، موقوفة لمسائل التاريخ الروماني، وترجمات لأعمال باحثة في العهود القديمة، خاصة بتاريخ روما الغابر (القسم الأول للجمهورية، والقسم الثاني للإمبراطورية)، كانت هذه المجلة أول عمل باللغة الروسية يتضمن عرضا تفصيليا من حيث المنهج، كتب بطريقة حية ومفهومة من أوسع الجماهير، لكل التاريخ الروماني حتى سقوط إمبراطورية الغرب. وعلى أبواب خمسينيات القرن العشرين، ظهرت أعمال أخرى هامة في تاريخ روما. نشر ن.ماشكين، أستاذ في جامعة موسكو، مثلا، "تاريخ روما القديم" (الطبعة الأولى ١٩٤٧، الطبعة الثانية، المتضمنة معلومات جديدة هامة، في ١٩٤٩، والطبعة الثالثة في ١٩٥٦)، الذي صار وسيلة تدريس أساسية. وأصدر س.كوفاليف، أستاذ من جامعة لينينغراد، في ذات الحقبة: "تاريخ روما" (١٩٤٨)، عملا ليس أقل أهمية أو شمولاً. العملان معتبران فهرست مرجعا مفصلا. وفي ١٩٤٩، ظهرت الدراسة الوافية لـ ن.ماشكين، "أمارة أوغست"، التي درست الجذور الاقتصادية والاجتماعية والأسباب الرئيسة لولادة الإمبراطورية الرومانية؛ ويثبت المؤلف هنا أهمية الدور الذي لعبته في هذا التطور حركة العبيد المتنامية.

والمؤلف الذي صدر في العام ١٩٥٤، بقلم أو.كودريا فتسيف "الإيلات الإغريقية في شبه جزيرة البلقان في القرن الثاني الميلاد، مساهمة قيمة لدراسة معمقة لتاريخ الشعوب التي كانت تشكل جزءا من الإمبراطورية اليونانية. وأوقف عدد من البحوث لعلماء سوفيات على تاريخ الأفكار في المجتمع الروماني. سنذكر أهمها، في منشورات كلية التاريخ من أكاديمية العلوم، كتب س.أوتشانكو، "صراع الأفكار والأحزاب في روما عشية انهيار الجمهورية" (موسكو ١٩٥٢)، و ر.فيبير، "روما والمسيحية البدائية" (موسكو ١٩٥٤)، وأيضا: تاريخ الأدب الورماني، من منشورات جامعة موسكو، بإشراف الأستاذ ن.دراتاني.

ثمة واقعة مميزة، إذ يلاحظ في أثناء الثلاثين السنة الأخيرة ركود واضح في الإنتاج التاريخي الغربي. وفي عمله الضخم "التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للإمبراطورية الرومانية (ظهر بالانجليزية في ١٩٦٢، ثم ترجم إلى الإيطالية والألمانية)، يقول الأستاذ

البطرسبورجي م. روستوفتسيف: في العهود الفاشية، أرادت أبحاث التاريخ الروماني لباس الدعاية الأثرة للعرقية والعدوان، وفي مثاليه "المسلمون" و"موطدي النظام" يقدم الدكتاتور الدموي سيللا مثلا. يلمس تأثير هذه الأفكار أيضا في أعمال العلماء الفرنسيين، الانكليز والأمريكان. هكذا، عاب كبير مؤرخي فرنسا ج. كركوبينو (وزير في حكومة بيتان)، علب سيللا، في الكتاب الذي خصه به، لأنه اعتزل الدكتاتورية طائعا، وأفسح في المجال لقيام الملكية في روما؛ وفي عمل آخر، حول قيصر، أطرى كثيرا هذا الأخير. يذكر كركوبينو والفاشي الإيطالي بيس *Pais* بين من ساهم في كتابة العمل الضخم "التاريخ العام" الذي نشر بإشراف غوستاف غلوتز، وقد ورد فيه تقريبا كل ما ينسب لتاريخ الجمهورية الرومانية (١٩٢٦-١٩٣٦). وفي الحقبة ذاتها صدر في انكلترا: تاريخ كامبريدج القديم، عمل واسع أيضا، خصصت روما بستة كتب منه، (٧-١٢، ١٩٢٨-١٩٣٩). إن مجموعة المقالات هذه بسن قلم مؤلفين عديدين، متبايني المناهج العلمية، خالية من أي وحدة فكرية. تعتبر هذه المؤلفات مستندات مرجعية، بفضل ضخامة جهاز التوثيق الذي وضع تحت تصرفها. والطبعة الأخيرة من "الموسوعة العلمية لعلم العهود الكلاسيكية الذي نشر في ألمانيا منذ ١٨٩٤، تحت إشراف بولي-وروا وكرول، يمكن الرجوع إليه بهذه الصفة.

وقد برز تراجع العلم الرجعي البورجوازي أيضا بعد الحرب العالمية الثانية. لابل اختفى تقريبا بحث المسائل الاقتصادية والاجتماعية من صفحات العديد من المجلات التاريخية الصادرة في أوروبا الغربية وأمريكا. وفي الوقت ذاته يحاول تاريخ السياسة الخارجية وبخاصة التاريخ القتالي احتلال المقام الأول. وهكذا يعلن فرانز ألتيم، الأخصائي الشهير بالتاريخ الروماني من ألمانيا الغربية، في مؤلفه "نهاية العهود القديمة" في مجلدين، والمنشور في *Francfort-sur-leMain*، أن العنصر الرئيس في انهيار الامبراطورية هو تسليح الشعوب "البرابرة" بالخيالة المعززة بالأسلحة الثقيلة، الأمر الذي أعجز بل حكم سلاح المشاة الشهير. لكن الأزمة الخارجية فقط تستثير أزمة داخلية، ويقول ألتيم "الهيمنة أبدا للسياسة الخارجية" ويتبنى واحد من أبرز ممثلي المدرسة التاريخية الإنكليزية، الأستاذ في جامعة لندن سكوللار، يتبنى مقولة إرجاع كل التاريخ الروماني إلى أحداث السياسة الخارجية. وفي كتابه "تاريخ العالم الروماني" (لندن، ١٩٥١)، يسعى جاهدا لتبرير سياسة روما العدوانية، في القرنين الثالث والثاني ق.م، ويصفها "إمبريالية دفاعية"؛ بهذا المعنى— اتبع الرومان هذه السياسة لخير البلدان المحتلة، المتخلفة أو فريسة "الاضطرابات

الاجتماعية" (مثل، اليونان في القرنين الثالث والثاني ق.م<sup>١</sup>). وينصب اهتمام مؤرخي العهود القديمة بخاصة في السنوات الأخيرة على قضايا تاريخ الأديان، ومختلف النظريات والتيارات الأسطورية، وأعمال الإمبراطور الفيلسوف مارك-أوريل، أو "de l'isopostole" قسطنطين (الذي خصه المرخون البورجوازيون المعاصرون بسلسلة من الدراسات الوافية، تمجده لأنه ناصر الحزب المسيحي<sup>٢</sup>). إجمالاً، يقدم العلم البورجوازي الراهن كثيراً من البحوث القيمة حول مختلف النقاط المتعلقة بتاريخ روما القديمة، ففي الفروع اللغوية، الفلسفية، السياسية والفنية، وسواها، لكنه يتخلف بالآراء العامة، المسهبة والصادقة في آن معاً.

على ذلك ليس بميسور المؤرخ السوفياتي أن لايعترف في أي حال بأهمية بحث ودراسة تفصيلية للوثائق التاريخية التي يحققها العلم البورجوازي، بخاصة خلال العقود الأخيرة. ولابد من مواكبة المجالات العديدة، المخصصة لتاريخ الزمن الغابر، الصادرة في الغرب، التي تطلعنا بعامة وبطريقة تفصيلية على آخر الكشوفات في حقل التاريخ الروماني وتنتشر تقارير نقدية عن المنشورات الحديثة؛ وهي تصدر أخيراً مقالات واسعة الأهمية حول بعض القضايا الخاصة بالتاريخ الروماني. وثمة فائدة كبرى في الرجوع بهذا الصدد إلى "جريدة الدراسات الرومانية" (لندن)، و"مجلة علم الآثار" (باريس)، ومجلة الدراسات اللاتينية، وجريدة الدراسات القديمة (بورديو)، العهود القديمة الكلاسيكية (بروكسل). أخيراً يظهر ببطء في البلدان البورجوازية، وبذور فكر علمي ماركسي، أو قريب من الماركسية، وعلم جديد تقدمي. من ممثليه نذكر الإنكليزي غوردن شيلد (مصادر الحضارة الأوروبية)، والعالم الإيطالي جوليو لوزاتو في (التاريخ الاقتصادي لإيطاليا) والعديد من مؤرخي الجمهوريات الشعبية، مثل كازارو، دانوف، وديكوفسيوس.

<sup>١</sup> - نجد دراسة تفصيلية لهذه المؤلفات في "حوليات التاريخ القديم" العدد ٢، ١٩٥٤، ص ١١١-١١٤ و ١٩٥٥، العدد ٢ ص ١٣٢-١٤٠.

<sup>٢</sup> - انظر "حوليات التاريخ القديم" عدد ١، ١٩٥٠، ص ١٦٦-١٧٦.

## الفصل الواحد والأربعون

### إيطاليا القديمة

شبه الجزيرة الأبنينية؛ ميزات الجغرافية

تقع إيطاليا في شبه جزيرة الأبنينية *Apennins*، محاطة من جهاتها الثلاثة ببحار الأدرياتيك، الأيوني والتيراني. شمالاً، سلسلة الألب الوعرة التي تفصلها عن باقي أوروبا. ولقد لاحظ الجغرافي القديم سترابون بحق أن جبال الألب والبحر يشكلان "حصناً حصيناً لإيطاليا ضد الغزو. لكن البحر يشكل في الوقت ذاته مسلكاً مفتوحاً على كل الاتجاهات، سمح منذ القديم لإيطالية بإقامة علاقات مع شعوب حوض المتوسط الأخرى وتمثلت ثقافتها.

الميزة الأخرى لإيطاليا هي طيب مناخها. تتراوح الحرارة في الشتاء، بين +٦° (في كانون الثاني في روما و+١١° في سيسليا، الأمر الذي يسمح للأنعام بالبقاء في المرعى طيلة العام. ومنذ أقدم العصور، عرف الطليان غير الحبوب (شعير، حنطة رومية والذرة البيضاء، وغيرها) زراعة الكرمة، الكستناء والتوت؛ وقد أدخل اليونان والفينيقيون إلى إيطالية، الزيتون، البلح، الرمان (تفاح قرطاجة) إلخ. ومارس لطف المناخ دوره على عدة مناحي من حياة شعوب الطليان القدماء؛ على الثياب (جلباب وقميص) وعلى ابن الجنوب، مثل البيت اليوناني، المبني حول "باحة داخلية" سماوية، وبحرة في الوسط.

لكن إلى جانب التشابه الذي تمثله الشروط الطبيعية، من المناسب أن نلاحظ الفوارق في البنية الجغرافية بين إيطاليا واليونان. أولاً، مساحة الأرض الإيطالية (حوالي ٣٠٠ ألف كم<sup>٢</sup> هي على الأقل خمسة أمثال مساحة اليونان، وبالتالي، كان قومها أكثر بشكناً ملحوظاً. من هنا اتسم كل شيء في إيطاليا "بالضخامة". ثانياً، مع أن شبه الجزيرة الإيطالية هي، كما في البلقان، بلد جبلي، تبقى سلسلة جبال الأبنينوس أقل وعورةً، وأكثر قبولاً للتجاوز، ودعاماتها لا تجزيء إيطالية إلى مناطق منعزلة كما تفعل جبال اليونان الوعرة. ومجاري

المياه الإيطالية تسهل الوصول: البادوس، أو الاردان (الآن البو)، قابلان للإبحار ويجريان نحو الشرق، وكذلك هي أنهار الساحل الغربي: الأرئوس، التبير والفولترنو. لكن مجاريها السفلى غاصة بالطمي الرملي الذي شكل مستنقعات توسكانيا، الشهيرة بالملاريا، ومصبلت نهر أرئو ومستنقعات بونتانس، على ساحل لاتيوم، غير قابلة للسكن البشري وبناء المرافئ. فالساحل الإيطالي هو، بعمامة، أقل قبولا للإبحار من شواطئ اليونان، المجوفة بالخلجان والثغور.

أخيرا بعكس اليونان غير الخصبة والصخرية، شبه جزيرة الأبينس بلد زراعي. وكان كتاب الزمن الغابر يدهشون لخصب التربة الإيطالية. وحوض البو (*Goule cisalpie*) يتميز من هذه الزاوية، وكذلك السهل الغربي، المتضمن أترودي، لاتيوم وكامباني؛ تعطي هذه الأخيرة ثلاثة مواسم في العام. والمراعي الألبية والأراضي المستنقعية عند مصب مجازي المياه، المغطاة بالنباتات الوفيرة، تساهم بازدهار التندجين. حتى سمي البريتيوم *viteliu* (بلاد العجول) ومن هنا كانت على الأرجح كلمة إيطاليا. فالطبيعة الزراعية لهذا البلد أثرت في القديم على مجرى تاريخها الداخلي، الذي لم يكن أساسا إلا الصراع من أجل التربة بين شعوبها المتباينة ومختلف الشرائع الشعبية.

### حضارات إيطاليا (قبل التاريخ)

تثبتت بحوث علم الآثار أن شبه جزيرة الأبينس كانت مأهولة قبل جزر البلقان؛ وقد عرفت العصر القديم للحجر. ثمة (مغائر برسوم من عصر الحجر القديم في جبال ليغوري)، بينما لم يعرف هذا العصر في البلقان يومئذ. وعرف العصر الحجري الحديث في شبه الجزيرة كلها، في سيسيليا وسردينيا (بدءا من الألف الرابع قبل الميلاد). يثبت الكثير من مقابر عظام الحيوانات المتوحشة وقواقع الزواحف في أرض محطات العصر الحجري على الأهمية العظيمة للصيد والقنص في تلك الحقبة. فانطلاقا من الألف الثالثة ق.م، يبدأ، إلى جانب الحجر، استخدام النحاس (في صناعة مختلف السلع) (كالنقش على الحجر)؛ ويلاحظ أيضا بدايات التندجين، وبخاصة الحيوانات الصغيرة (صودفت عظام ماعز، خراف، خنازير، بكثرة في الحفريات.

تمثل عصر البرونز (الألف الثانية ق.م) في شمال إيطاليا الحضارة المسماة الأراضي الخصبة: كان سكانها يعيشون في تجمعات واسعة حصينة ويبنون أخصاصا وتديعة فوق

الماء، تكون عادة بشكل منضدة مربعة غير متساوية القوائم. استمر السكان بصناعة أدواتهم من الحجارة، ولكن هذا لم يمنع من تداول العظام والنحاس والبرونز. وفضلاً عن الصيد والقنص، اللذين بقيا اهتمامهم الأول، كانوا يمارسون التدجين؛ ويمكن أن نقول أنهم عرفوا الزراعة. وكانوا يحرقون موتاهم ويضعون المرمدة التي تضم الرماد، بصفوف كثيفة. في مدينة الأموات، بعيداً عن السور الذي يحصن تجمعهم.

وفي إيطاليا الوسطى والجنوبية، ارتبطت حضارة عصر البرونز، خلال الألف الثانية ق.م. بالحضارة الكريتو-ميسينية. وهذا مايسمى "حضارة الأبينس"، وهي أرقى بوضوح من حضارة الأراضي الخصبة. فهي تتميز بمنشآت لتصريف مياه منطقة لايتوم، وبالأسوار الضخمة والخزف الملون، المشابه للخزف الميسيني. وبالعكس الذي رأيناه في الشمال، العادة هنا دفن الموتى.

تسم الألف الأولى، في شبه جزيرة الأبينس، بداية عصر الحديد الأول (حوالي ١٠٠٠ عام ق.م) حضارة فيلانوفا، نسبة إلى محلة تقع ليس بعيداً عن بولونيا Bologne؛ اكتشف قريباً منها، في العام ١٨٥٣، آثار مقبرة واسعة تضم أوانٍ فريدة النموذج، تسمى "مخروطية مزدوجة *biconique*". تتميز هذه الحضارة، واسعة الانتشار، بأولى السلع الحديدية، في حقبة يهيمن فيها البرونز. وقد عاشت هنا تجمعات من نموذج حضري؛ فقد أنجز تماماً انتقال الاقتصاد إلى مرحلة الزراعة والتدجين. واختار سكان الشكل الدائري، المصنوعة من جذوع الصنوبر المقشر، وجدران من الغضار، الحياة العائلية باستثمارتها الخاصة. تثبت الكنوز الضخمة على غنى بعض الاستثمارات؛ وتشبي قطع الخزف اليونانية والسلع الفينيقية (الزجاجيات، العاج) التي عثر عليها هنا بداية التبادل التجاري مع الجوار. وتتسم حضارة فيلانوفا بانتقال إيطالية نحو مرحلة تاريخية.

### مسألة الرعية في إيطاليا البدائية

يفترض أن أقدم سكان شبه جزيرة الأبينس كانوا الليغور *les ligures* وأصهارهم من الشعوب الأخرى، التي سكنت إيطاليا الوسطى والساحلية منذ العصر الحجري الجديد، وطيلة عصر البرونز. وفي بداية الألف الثاني، تبدأ خلف الألب، حركة هجرة شعوب الأمصار الدانوبية والكارياتية، جدود الطليان في الأرجح وإلى هذه العناصر الطليعية تنسب حضارة الأرض الخصبة (انطلاقاً من الألف الثاني). تغلغل أول رعييل من حاكم هذا القوم



الآتي، مخترقا الأبيننس، ليحل في الجنوب الغربي من لاتيوم (لاتنس)، وفي الكامباني والبرتيوم (يكول) (وفي حوالي ١٢٠٠-١١٠٠ ق.م. تدفقت موجة جديدة من الشعوب المجاورة عرقيا للأولى، الـ"أومبرو-سبليان" والـ"أوسك"، من الشمال، لتقيم بخاصة في المناطق الجبلية من الأبيننس. يفترض أن الأمبريين هم مؤسسو حضارة فيلانوفا. وشكل البسانتان، السابان، السامنيث واللوكانيان فروعهم الساحلية. وربما انصهر قسم من السكان القدماء بالغزاة، الذين رقدوا الآخرين في المناطق الأقل ازدهارا (الليغور، مثلا، استقروا في الجزء الشمالي من الأبيننس، والسيكول في سيسيليا.

وفيما بعد استقرت شعوب أيليريان والتيرانيان أو أيروسك (بدءا من القرن العاشر) في شبه الجزيرة، وف يفترة أقرب، احتل السلت أو الغولوا كل الشطر الشمالي؛ لذا سمي سهل البوغول سيزالين (من جهة الألب) قبالة غول ترانسألين، فرنسا الحالية.

على أثر هذه الهجرات وهذا الاختلاط العرقي، يمكن أن نعثّر في شبه جزيرة الأبيننس، في العصر التاريخي، على اثنتي عشرة لغة، مع إهمال لهجات عديدة لمختلف الشعوب. وهم يشكلون بدءا من الجنوب، سلسلة من الأراضي الوطنية كان أهمها البرتيوم، لوكاني، أبولي، سامنيوم، كامباني، لاتيوم، بيسنوم، الأومبري، ايتروريوغول سيزالين.

لقد أدهش هذا الموزاييك العرقي القدماء. ويرى في هذا بحاثّة العهود القديمة وأغلب المؤرخين المعاصرين ومعهم أشهر الأخصائيين السوفيات النتيجة الطبيعية للهجرات التي أشير إليها أعلاه. إنما في الإجمال، يبقى أصل شعوب إيطاليا البدائية وعلاقاتها بالحضارات المكتشفة على أرضها، حتى الآن، وإلى مدى بعيد، قضية يجب حلها.

## الفصل الثاني والأربعون

### إيطاليا في عصر العشير

### (من القرن العاشر إلى السابع ق.م)

#### بقايا عصر الأمومة

في أيام النقش على الحجر وبداية عصر البرونز، وبخاصة في زمن حضارة الأرض الخصبة، عبر الإيطاليون محطة المشاعة البدائية (عصر الأمومة). كان اقتصادهم البدائي (صيد، قنص، تدجين صغار الأنعام، زراعة المعزقة أو المجرفة، الذي كان ما يزال عمل المرأة) يتطلب تكاتف الجهود في قلب المشاعات التعاونية الضخمة. ويمكن أن ندرك نموذج عصر الأمومة لهذه المشاعات البدائية، ببقايا هذه المنظمة التي نلاحظها لدى الإيطاليين بشكل جماعات اجتماعية موجودة منذ أقدم العصور، باسم "أفخاذ" (البطلون - أو الأخويات - اليونانية). وهكذا، في الأزمنة التاريخية، كان الشعب الروماني كله مقسما إلى ٣٠ فخذًا. يحمل كل فخذ اسم جده (تيتيا، فوتيا، رامنا، إلخ). وكان أعضاؤه يجتمعون من حين إلى آخر إلى ولائم، بقية الشراكة القديمة في الأرزاق والوجبات. وكان شيوخ الأفخاذ، المكلفون بالسلطة الكهنوتية، يسهرون على إبعاد الأجانب عن حيضهم. ثانياً، ثمة عدد من التقاليد (مثل خرافة اختطاف رفاق روملس للسبايات) وهي ذكرى غامضة بعيدة للزواج الجماعي، في زمن مجتمع الأمومة. وثمة أخيراً آثار الطوطمية التي تميز عهد الأمومة في أسماء بعض الشعوب الإيطالية وفي عبادة بعض الحيوانات المعتبرة مقدسة: الأفعى، الإوز والذئب، في روما.

#### الانتقال إلى العشير الأبوي. الليتيوم وأصول روما

لقد أفضى التطور الاقتصادي إلى الانتقال التدريجي من الصيد، القنص وزراعة المعزقة ومركز المرأة، إلى تدجين الحيوانات الضخمة وزراعة المحراث، التي يمارسها

الرجال. مما ساهم بتشكيل وحدات اقتصادية أمتن، تتطلب تكاتف جهود أقل امتدادا من المشاعات القديمة للصيادين والقصاصيين. من هنا استبدل عهد المرأة وذروته عصر البرونز بمنظمة الأبوة. وبسبب الشروط الملائمة مبكرا استمر متينا خلال حقبة طويلة. إننا على اطلاع واف حول منظمة المجتمع الأبوي في لاتيوم وبخاصة في روما.

اللاتيوم، سهل مستنقي وعر (حوالي ٢٠٠٠ كم<sup>٢</sup>)، يشغل وسط شاطيء إيطاليا الغربي. أجداد اللاتين، الذين أقاموا فيه، كانوا على سلم الحضارة بمستوى أدنى من مستوى أسلافهم، ممثلي حضارة الأبيننس. كانت منشآت تصريف المياه كثيرة، والمستنقعات عديدة هنا؛ كان اللاتين منذ الزمن السحيق يعيشون في أكواخ بائسة على التلال، منكبين بشكل رئيسي على التدجين والزراعة في الوديان الأكثر جفافا. لم يكن عندهم مدن، لكنهم كانوا يبنون على ارتفاعات عسيرة مواقع لجوء (استنادا إلى الرواية، كان ثمة منها ثلاثون، مع المناطق الملحقة بها). كان أهمها ألب-لا-لونج، باعتبارها مركزا دينيا، حيث يلتئم سكان المناطق الثلاثين يوم العيد المشترك لجوبتير اللاتين.

والضبعة اللاتينية الواقعة على الحدود الشمالية لبلاد الأتروسك والسابان، التي بنيت حوالي العام ١٠٠٠ ق.م. كانت هي القرية التي سميت فيما بعد روما. كانت سبعة قرى رعوية، مبعثرة في قلب غابة كثيفة والمستنقعات الموحلة، في قمم سلسلة التلال، التي تمتد على طول التير. وعلى بعد ٢٠ كم من مصبه. وقد شكلوا منذ القديم حلفا "بين التلال السبع"، وقلة مشتركة، مربعة الشكل، فوق بالاتان. على التلة الأقرب، المسماة فيلبيا، بنيت مقبرة مشتركة لأسلاف ("أرباب المساكن") والموقد العام، هو معبد تيسنا الدائري، حيث تنتقد نار دائمة. بهذه الصور المتواضعة قدم لنا علم الآثار واللغة بدايات روما. وعلى ضوء النقد العلمي الحديث، تنتشر الخرافات العديدة والعجيبة حول أصول روما و"بنائها" على يد رومولس وريموس، وكأنها ابتكارات كهنة وثمره الفرضيات الساذجة للعلم القديم، وبخاصة المؤرخون اليونان للقرنين الثالث والثاني ق.م، إن حسابات الباحثة الروماني فارون، معاصر قيصر، الذي يدعي بثقة أن تاريخ "بناء روما" كان بين ٧٥٤-٧٥٣، تمتعت طويلا بثقة لاتستحقها من المؤرخين السابقين.

تقع القرى التي شكلت روما على التير، النهر الكبير والوحيد في لاتيوم الذي يسمح لمراكب البحر أن تصعد حتى أفانطان *Aventin*. فضلا عن هذا النهر، يمر في أسفل بالاتان

"فياسالاريا" القديم الذي يصل إلى مستنقعات الشاطئ المالحة، ومنذ أبعد الأزمنة، بني في هذا المكان، على التيبر، الجسر الخشبي، الذي خصص لحماية جماعة الأحيار المدعوة لأن تصير في المستقبل الهيئة الكهنوتية الرئيسة لروما، وعلى الكرينال، الهضبة المجاورة، اختار تجار السابان مقاما لهم، وبنوا قلعته، في قمة صخرة الكابول، المشرفة على الشاطئ. وبفضل هذا الوضع المعزز، صارت "الهضبات السبع" منذ القرنين الثامن والسابع أقوى نقطة في المنطقة ومركز الاتحاد العسكري والديني لرعايا اللاتين، ووسعت جنباتها؛ واندماج تجمع الكرينال بمدينة "الروابي السبع"، وأخضع لينغور الافانتان بالقوة؛ ثم، حسب الرواية، احتلت ألب-لا-لونج ودمرت، وانتقلت رئاسة الاحتفاء بجوبتير اللاتيني إلى روما البدائية التي بدأت صعودها، والتي، كما يفترض بعض المؤرخين، كانت مذكورة على لائحة المتحدين باسم فيليا *Velia*.

#### العشير الروماني. باترسيان وكليان. بليبان

يتبدى التنظيم الاجتماعي سهل اللاتيون بشكل أبوي واضح الملامح. فقد كان الشعب الروماني منذ أقدم العصور جمعا من البطون تعيش اقتصاديا في بوتقة مغلقة، أي مشاعات بدائية تنصرف أساسا إلى التنجين. وقد ساهم الاستثمار المشترك للأنعام والمراعي إلى اتحاد هؤلاء الـ"رعاة" في مشاعات أبوية ولذا كانت الأرض ذاتها معتبرة ملكا مشتركا للبطن، رزقه القومي. وكانت الملكية الخاصة، في بداية المرحلة الأبوية، محدودة بفيض الأنعام، والأسلحة والحلي، وأثاث المنزل، وحديقة صغيرة، ٥,٠ هكتار تقريبا. وكانت الأرض العذراء معتبرة ملكا للشعب كله؛ يتوجب على كل أعضاء العشير إحيائها، وتكون خاصة بهم كلهم.

ثمة قوة أخرى توحد المشاعة هي التزام أعضاء البطن كلهم بحمل السلاح في أيام الحروب، التي كانت تعتبر آنئذ الشكل المتفرد للنشاط الاقتصادي: غزو الجوار، للاستيلاء على الأسلاب والأنعام بخاصة ودحر غارات الأعداء. والثأر أيضا يدخل في مهام ميليشيا البطون.

وكما في مشاعة الأمومة، كان العامل الأيديولوجي يساهم في تلازم وترابط البطن الأبوي: فكرة الأخوة الحتمية لكل أحفاد جد مشترك، صاحب القبر الأسطوري الذي هو المكان المقدس لكل أعضاء البطن ومركز مدينة أموات العشير وعبادة الأسلاف. ولإثبات

أروماتهم، يحمل كل أعضاء البطن الاسم ذاته، المشتق من اسم جدهم: آل جولي، سلالة إسول، آل كلودي-منحدون من كلوزوس، وهكذا.

الجد أو أب الأسرة يمارس سلطة مطلقة، مع حق الحياة والموت، على كل أعضاء البطن. وفي الزمن الأقدم، هو الذي يقبل الأولاد بين العشير، يبيع البنات زواجا والصبيان عبيدا، يبعد أو يعاقب من يخرق عادات الأسلاف، يمتلك بدون رقابة حرث العشير وضرعه. وكان الزواج الخارجي يتم خطفا أو سبيا أو شراء للخطيبة؛ والنساء الزوجات، باعتبارهن غريبات عن العشير، يحتفظن باسمهن السابق ولا يتمتعن بأي حق.

ولقد أنضى تطور القوى المنتجة والأهمية المتنامية للملكية الخاصة، بعد تكديس أسلاب الحرب، إلى فارق في الثروة وتمييز بين الناس، يوصف بعضها بأنه كبير إي (١٠٠ ضعف حسب الرواية). وشكل شيوخهم، وأخوة الشيوخ وأبنائهم، مع ذريتهم، شكلوا بالتالي أرستقراطية دم، ويسمون بأبناء الشيوخ. واستنادا إلى وضعهم المتميز في قلب البطن، امتلك الشيوخ وأبنائهم الأرض، وهي حتى آنئذ ملك عام، وأزراقا أخرى، وحتى معبد البطن. ويعتبون أعضاء البطن الآخرين في خانة الموالي، الموضوعين تحت تصرفهم، يأخذون حصتهم من الأرض من الشيوخ ويلتزمون باعتبارهم سادتهم (أي مكان الأب)، وبخدمتهم في البيوت، والذهاب إلى الحرب بقيادتهم، ويساعدونهم على أداء الفدية إن كانوا أسرى، ومعهم بناتهم، إلخ. ويلتزم السادة بمساعدة الموالي على تحقيق العدالة، وبكلمة، هم حماة. وكان ثمة أجانب ومحررون أيضا مقبولين كموالي في العشير.

#### كان هذا الفرق أول إمارة على تفكك نظام العشير.

ودلالة أخرى، أظهرت تطور التفكك الذي كان قد بدأ، هي تشكل شريحة ثانية أدنى، أقل مستوى. أكثر عددا من الموالي: العوام. يختلف المؤرخون في السراي حول منشأ وشرط هذه الجمهرة من الشعب الروماني البدائي. لكن يبدو جيدا أن العامة تمثل، بأغلبيتها، الرعية السابقة الخاضعة للاتيوم، صاحبة المستوى الثقافي الأعلى من قاهر يهايوم استولى عليها، لكنها نزلت من هذا المستوى بوضوح بعد الفتح. إلى هذا العنصر أضيف مستوطنون أتوا من نقاط عديدة في إيطاليا. كالعوام، وليسوا منظمة عشائرية، يعيشون في نظام مشترك، بل تحت قبة نظام الاقتصاد الخاص، الأسري. للمرأة في أسرة العوام وضع أكثر استقلالية، وربما كان هذا أحد الأسباب التي حالت دون الزواج بين العوام والأشراف.

فالعوام لا يعرفون عبادة الأجداد؛ كانت معبودتهم الرئيسة هي سيريس *Ceres*، إلهة الخصب، التي كانت يرتفع معبدها خارج أسوار المدينة، فوق رابية أفانتان.

كان العوام يعيشون في تبعية مضنية تجاه نظام الأبوة. الذي كان مؤلفاً بعاملة من صغار المزارعين، فيه يمارس البعض حرفة صناعية أو شيئاً من التجارة الصغيرة. بدون مراعي وبدون أرض صالحة للزراعة، كانوا ملزمين باستئجار أسهم من الأشراف حائزي هذه الأرض؛ ويضيفون إليها أحياناً "مؤازرة" من الحبوب، من الدواب، إلخ. وإن اجذب الموسم، أو نزلت بالقوم جائحة مدمرة كالغزو أو المرض، يعود الفلاح إلى حالة المدين المفلس، وبالتالي، بحسب الحق القديم، يصير عبداً لدى الدائن. وإن كان دائنوه كثيراً، يقول قانون اللوائح الأنتني عشرة (٦٠٣) "لهم الحق أن يقتسموا جسده، ولاوزر عليهم". فضلاً عن هذا، كان العوام معتبرين، حسب تعبير انجلز "أتباعاً"، عليهم تفرض "الضريبة". لايسمح لهم بالاشتراك بأسلاب الحرب، وليسوا من ميليشيا القوم. ويذكر قدماء البلحثين أن العامة كانوا يهونون إلى "شرط الاستعباد" لسلطة الأشراف.

هي ذي السمات التي ميزت المجتمع الروماني، وطبعا المجتمع اللاتيني والإيطالي البدائي، منذ بداية الألف الأولى ق.م؛ المجتمع المتطور من العشير الأبوي، طبقة الأشراف، وظهور الشرائح الاجتماعية المرتبطة بها: كالعناصرين المدمرين، الموالي والعوام "بدون جدود" المهدهدين أبداً بالرجوع إلى العبودية.

#### المؤسسات السياسية وحضارة روما البدائية

يمكننا القول بوجود ثلاثة أركان للسلطة، في روما، منذ أقدم العصور: الملك، مجلس الشيوخ، ومجلس الشعب.

لم يكن عاهل روما ملكاً بالمعنى الحديث للكلمة، بل بالأصح شيخ قبيلة، يمثل المصالح العامة للعشير. يقود الميليشيا المتحدة. يحاكم المتنازعين لينتقي الثأر، وكان أكبر كهنة المعبودات المشتركة، التي كانت عبادتها تتعلق بظواهرات الطبيعة (فيستا، وغيرها). لم يكن الملك وراثياً، بل منتخبا من شيوخ القبائل ومن "الشعب الروماني".

حسب الرواية، بقي الحكم ملكياً في روما حتى العام ٥١٠ ق.م. ومن السبعة المحفوظة أسماؤهم، الثلاثة الأخيرون فقط<sup>١</sup>، سرفيوس توليوس وتاركوين الثاني، يعتبرون شخصيات تاريخية؛ نقرأ أسماءهم في النقوش الأترورية<sup>١</sup>. أسلافهم الأربعة روملس، الـ"مؤسس"

<sup>١</sup> - من أتورريا التي كانت تقع قديماً في غربي إيطاليا.

الخرافي للمدينة، نومابومبليس، المعتبر منظم العبادة الرومانية، تولى هوستلس وأنكوس مارتوس - هم من المدى الأسطوري يصدر تاريخ ملوكهم من الخرافة.

وركن السلطة الثاني هو مجلس الشيوخ، أي مجلس قادة القوم، إذا سمي الشيوخ "آباء". وحسب السماع، كانوا مبدئياً ١٠٠، ثم مع قبول عشائر جديدة في المشاعة. ازداد العدد إلى ٣٠٠ (عضو لكل بطن).

كانت الجمعية الشعبية في روما مؤسسة قائمة منذ أقدم الأزمنة: "الشعب" الذي كان يشكل المشاعة الرومانية يلتئم فيها، منقسماً حسب العادة إلى أفخاذ. ومن إجماع الأفخاذ يأخذ الملك سلطته وحقه بالقيادة العليا. يدعو الملك الجمعيات إلى الاجتماع، لبحث قضايا الحرب والسلام، سن القوانين، قبول عشائر جديدة، إلخ. الأشرف وحدهم ومواليهم يشتركون بالاقتراع، و"العوام بدون حدود" مستثنون.

أساساً، كانت روما البدائية ماتزال مجتمعاً بدون طبقات، وتتصف إدارة الشؤون العامة بالأبوة، المشاعة وما قبل-الدولة. مع بدء ظهور ترهصات أو أشكال جنينية لحكومة موجهة ضد الموالي وضد العوام التي يتزايد استبعادهم.

كانت زراعة الرومان واللاتين ماتزال بمستوى أولي. وضيعهم مؤلفة من خصوص دائرية، مصنوعة من الأغصان، وجدران مطلية بالغضار؛ وكانوا يجهلون استخدام القرص الدائري لصنع الفخار وكانت أنبتهم في الأغلب من خشب؛ يرتدون جلود الحيوانات، ثم ظهرت حياكة الصوف؛ وكان الحليب ومنتوج الحيوانات المدجنة الأخرى يشكل أساس غذائهم.

في ديانتهم تسيطر الإحيائية<sup>١</sup>: الاعتقاد بأرواح لا تحصى. كان عندهم مثلاً روح المعبر *l'esprit de la porte* وجانوس، روح المدى الزراعي، وبوتينا، وغيرهم. يجدر الذكر أرواح الأسلاف المتوفين: الآلهة البيتية، أرواح الموتى، أرباب المساكن، وغيرها. ولاتقاء أذى هذه الأرواح الشريرة وتهديتها، يلجأ إلى عدة طقوس وحشية، والتأليه، والتعويدات والتضرع. ولقد استمر طيف هذه الشعوذات حتى العصور التاريخية.

---

<sup>١</sup> - الاعتقاد بأن النفس هي مبدأ الفكر والحياة العضوية في آن واحد.

## الفصل الثالث والأربعون

### تفكك مجتمع العشير في روما

#### (القرن السابع - السادس ق.م)

التقدم الاقتصادي والاجتماعي في لاتيوم وروما. بدايات النفوذ اليوناني انطلاقا من القرن السابع دخلت روما عصر الحديد الثاني. وفي أثنائه، يهيمن استخدام هذا المعدن. وفي الوقت ذاته انتشر استخدام الدولاب والقرن للفخار، الأمر الذي يثبت أن المهنة الصناعية بدأت تختلف عن الزراعة. ويؤكد نموذج جديد للسكن السردابي بشكل مربع الانتقال إلى الزراعة المستقرة. ويشير متاع المقابر إلى تطور المبادلات (سلع العنبر والعاج من مصادر أجنبية، وصناعة الخزف والزجاج الفينيقية). ويحتل معيار تبادل جديد، بشكل أساور نحاسية بوزن معين، محل الدابة. ويفقد العشير الأبوي بوضوح أهميته لمصلحة الأسرة. وينبئ أحد العناصر المساهمة بتسريع التطورات الاقتصادية أن السحل الغربي والجنوبي لشبه جزيرة الأبيننس غص بشبكة كثيفة من المستعمرات اليونانية (كومس، ريجيون، سيباريس، هراكلية، تارانت، إلخ)؛ وعلى الشواطئ الشرقية والجنوبية لسيبيليا كانت هذه الشبكة أكثر كثافة (كانت سيراكوس أهم هذه الحاضرات). نشر المعمرون اليونان بين السكان الأصليين طرقهم التقنية، بالغة التطور ليومئذ، وأذواقهم وأخلاقهم. وفي إيطاليا الوسطى، لاحظنا مبكرا نفوذ مستعمرة الشالسيديين في كومس، ومن هنا أتى الأتروسك، وبوساطتهم حصل اللاتين على أبجديتهم، التي ليست أساسا سوى اشتقاقا من أبجدية شالسس (تنسب أولى النقوش اللاتينية إلى منتصف القرن السادس ق.م). استنادا إلى العثور في الحفريات اللاتينية على أكوام من بقايا الخزف القديم. كانت أثينا تمارس نفوذا ثقافيا ملحوظا على لاتيوم وروما. وفي بداية القرن الخامس، بني أول معبد، بالأسلوب اليوناني (معبد ديمترسيوس)، فوق ثلة أفانتان. يوم أسس فنانو كومس للكابيتول sa



*ce le bre Louve* . وشكل النفوذ الواسع للثقافة المادية والروحية الإغريقية المتطورة بالتأكيد عامل تحريض لتقدم الحياة الاقتصادية و الاجتماعية في روما.

### الأتروسك وحضارتهم

لقد مارس الأتروسك على جيرانهم الشماليين في لاتيوم وروما نفوذا عميقا. ولم يحل العلم حتى الآن قضية الأتروسك وحتى اسم هذا الشعب لم يستقر: يسميهم اليونان "تيرين"، ويسيهم المصريون "تورش"، ويسيهم الرومان "توسي"؛ وبشهادة دينيس ابن هالكارناس واستنادا إلى النقش الأتروسك، كانوا يسمون أنفسهم "رازيني". ورغم اكتشاف أكثر من ١٠ آلاف نقش أجنبي، ما تزال لغتهم مجهولة. لا ينتسب الأتروسك في أي حال، إلى الشعوب المسماة أيتالوت. يرى هرودوت أنهم من أصول من آسيا الصغرى، وأغلب العلماء المعاصرون يقبلون هذا الرأي. يرى البعض فيهم معمرين من طروادة هاجروا إلى إيطاليا الوسطى بعد سقوط هذه المدينة وزوال دولة طروادة من آسيا الصغرى. ولقد عثر بالفعل في حضارتهم على الكثير من عناصر آسيا الصغرى، إيجيين أو كريتيو-ميسيين.

منذ القرنين السابع والسادس، كانت الصناعة والتجارة تزدهران عند الأتروسك، وكان لهم مدنها (تاركيني، فييس، كار، فتولوني، وغيرها)، وكان المجتمع الطبقي قد تشكل. يثبت هذه الواقعة وجود في أتروري أرستقراطية عسكرية وكهنوتية ملاك عبيد وطبعا مالكي الأراضي، يعيشون وقادة جيشهم في قصور حصينة في قمة الجبال. واستنادا إلى بذخ غرف الأضرحة في القرن السادس، كان اللوكمون يمتلكون ثروات طائلة، لا يأتي شطرها الأعظم من استثمار الأرض، بل كانت ثمرة حروب السلب والقرصنة.

كانت شعوب أتروري، أومبري وحوض البو الأوسط، الخاضعين للأتروسك، يعيشون بدرجات متباينة من حيث ارتباطهم بالليكومون: كان بعض هؤلاء الأتباع يسمون لوتن، وغيرهم، الأكثر خضوعا للاستغلال، يسمون هتيرا. وكان هؤلاء الناس الخاضعين، ملزمين بمختلف الضرائب والسخرات (بناء استحكامات المدن، القصور، قبور اللوكمون، والأفنية، وسواها). وكانت جماهير العبيد تشكل طبقة بنفسها.

لم يصلنا من مؤسسات الأتروسك السياسية سوى القليل من المعلومات. كان الملوك يحكمون بعض المدن، لكن كان ثمة أيضا، ما عرف بـ"ملك الملوك" المنتخب، على رأس اتحاد المدن الاثنتي عشر الأقدم، يقود جمعيات ممثليهم، وبنفس الوقت الكاهن الأكبر. كان

يحيط نفسه بالمجد والسودد والرفاهية (السجف والديباج، الخف الأحمر، الكرسي العلجي)؛  
يمشي برفقة اثني عشر حامل فأس-ويحمل حراسه ومنفذو أوامره البلطة وحزمة من  
القضبان.

في دين الأتروسك، ثلاثية الألوهية الأسمى: تينيا (جوبيتر)، أوني (جونون)، ومنرفا  
(منيرف) تشغل المقام الأول. تنتظم عبادة هذه الآلهة السماوية العظيمة وغيرها من  
العبادات الثانوية في ديانة الأتروسك مع الإيمان بما لا يحصى من الأرواح، الطيبة  
والشريرة. للحصول على عون الآلهة وتجنب فجور الأبالسة الشريرين، يسعى الكهنة إلى  
السحر والشعوذة. ولتهدئة الآلهة والشياطين، يضجون بالبشر. كان السحر والشعوذة  
والتعزيم، والتنبؤات الصادرة من طيران الطيور. وفحص أحشاء الحيوانات، والنبوء  
والرعود، تشكل فن الكهنة واللوكمون السري. هكذا، بالارتباط مع ظهور الطبقات مضاف  
إلى استغلال لا يرحم تمارسه الأقلية على الأكثرية، تصان فكرة أن ابن الشعب لا يستطيع  
الحصول على رضى الآلهة أو الحماية من شرور الأبالسة إلا بواسطة أرستقراطيته  
العسكرية والكهنوتية.

### روما في عهد ملوك الأتروسك المظفرين

لقد ألقت كشوفات العلم الأتروري -نسبة للأتروسك- المعاصر، وبخاصة أعمال الآثار  
الإيطاليين الآن (دوكاتي، بالوتيفو وغيرها) بعض الضوء على تاريخ روما القديم. وقد ثبت  
منذ الآن، مثلاً، أن الأتروسك أسسوا في القرن السابع ق.م. امبراطورية واسعة تضم  
بخاصة اللاتيوم وشطرا كبيرا من كامبانيا. والقرى القديمة على الهضبات السبع، وهي آنئذ  
تحت قبضتهم، تحولت إلى مدينة من نموذج أتروري، وصارت عاصمة إيالة اللاتين في  
أتروريا. واسم روما بالذات وعلى الأرجح، هو الآخر، من أصل أتروسك. وتحت نفوذ  
المنتصرين، صارت مركزاً للصناعة الحرفية والتجارة، وصارت سورا من الجدران ونوا  
فيها ارتفاقات المياه؛ ونهض في الكايبنتول بالأسلوب الأتروري، معبد لجوبيتر في الغالب  
"أوبتموس ماكسموس"، جعله الرومان معبدهم الرئيس. والاقتباسات العديدة، في مجال  
الحياة، الاقتصادية والأخلاق التي أخذها اللاتين والرومان يومئذ من الأتروسك، ساهمت  
بتطورهم المادي (محراث أكثر إتقاناً، تقنية المهن والبناء، بيت من نموذج جديد بساحة  
داخلية، ونقد: الآس النحاسي والأبجدية) وفي مجال الإنتاج (استخدام أوسع لعمل الرقيق).

حسب الرواية الرومانية، حكم روما في القرن السادس ق.م. ثلاثة ملوك أتروسك: لوسيوس، تركينيوس بريسكس (تركين الشيخ)، الذي تسميه الخرافات الرومانية ببساطة "لوكومون"؛ وقد خلف سرفيوس تاليوس الذي، استنادا إلى جدارية محفوظة حتى الآن والنقش الذي تحمله، ليس إلا المحارب الأتروري مستزنا، الذي قلب تركين الشيخ؛ وأخيرا لوسيوس ترلينيوس الثاني أو تاركين العظيم، الذي تقدمه الروايات الرومانية كمستبد متوحش، جلد ومضطهد الشعب. وحسب أي احتمال، كانت سلطة هؤلاء الملوك الثلاثة، المظفرين الأتروسك، ذات الطبيعة الاستبدادية تتميز بوضوح عن سلطة ملوك البلاد السابقين.

في هذه الحقبة حدث، حسب الرواية "إصلاح سرفيوس توليوس". ينسب إلى هذا الأخير سلسلة من التدابير التي اتخذها على التوالي ملوك روما الأخيرون، والتي وصف ف.انجلز طبيعتها ومبدأها، فقال: "إذن، في روما، أيضا، قبل تكتيس ما عرف بالـ"ملكية"، سحق النظام الاجتماعي القديم المبني على وشائج الدم، وحل محله دستور دولة جديد فعلي، مبني على إعادة توزيع الأرض وتباين الثروات".<sup>١</sup>

لاشك أن السبب الرئيس لهذه التبدلات يكمن في استعارة الصراع بين العوام، وقد دعمهم تطور الإنتاج، والأشراف الذين فقدوا في عهد الأتروسك كثيرا من هيمنتهم. والنتيجة الطبيعية لهذا الصراع هي تسريع تفكك مجتمع العشير. ومن جهة أخرى، أفضت مصالح السادة الأجانب، هي الأخرى، إلى إهمال حالة الأمور السابقة، لأنهم اعتبروا الأشراف أتباعا لهم، وكذلك العوام البسطاء. إذن، يبدأ التمييز بين الناس ليس حسب الانتساب القبلي بل فقط حسب الثروة. وخلال خمس سنين كانوا يحققون تمزيق الشعب وأرزاقه وانتسابه إلى "الطبقات" الخمس حيث صنف الناس حسب ثروتهم والضرائب التي يدفعونها. وقد نرى في هذا مبدأ تقديما، لأن المعيار هو الملكية الشخصية وليس الإطار القبلي. كانت الزراعة هي مصدر الحياة الرئيس، فشكل الملكية الأساسي هو الأرض. فمن يملك حصة كاملة (٥ هكتارات) يسجل في خانة الشريحة الأولى حسب الإحصاء. وبعد، في القرن الثالث ق.م. نقصت كثيرا قيمة الآس، والسبيكة السميكة من وحدة نحاسية، عادت

<sup>١</sup> - ف.انجلز، أصل الأسرة، الملكية الخاصة والدولة، ص ١٢٠.

إلى التداول وصارت تساوي ١٠٠ ألف أس. ويصنف من يملك ٤/٣ الحصاة (٧٦ ألف أس)، أي مساحة أرضه ٢/١ هكتار، يشكلون الشريحة الخامسة. وأولئك الذين لا يملكون دعة عذرة، ومعهم أيضا الحرفيون والتجار يعتبرون "خارج الصف"، ولا يحصون إلا "بالرأس"، مع الفقراء المدقعين، الـ "البروليتاريا".

يفيد هذا التقسيم الجديد في إعادة توزيع مختلف المخصصات، الخدمة العسكرية، وأيضا، كما يبدو، لدور الضريبة. فالمدينة، مع أرباضها، كانت مقسمة إلى أربع دوائر. وتوزع المخصصات النقدية والخدمية حسب انتسابهم لهذه "الشريحة" أو تلك. فكل الرعية، الأشراف كما العوام، ملزمون بالخدمة العسكرية، وكل يسلم نفسه على نفقته، تناسبها مع ثروته العقارية. الأغنى يخدم على حصان (أو بالتالي، يشكلون ١٨ مائة)، ومواطنو الطبقة الأولى بسلاح ثقيل كامل (٨٠ وحدة مئوية)، ومن الطبقتين الثانية والثالثة بالسلاح الخفيف (٤٠ وحدة مئوية)، وأخيرا يشكل من لا أرض له والبروليتاريا الوحدات المئوية الخمس خارج الصف، بواقون، عمال سلاح، إلخ). وهكذا يتألف فيلقا الجيش الروماني من ١٩٣ وحدة مئوية.

يخلط هذا التنظيم كل عناصر القوم الروماني القديم، الذين يشكلون شطرا من القبلان أم لا. وحسب التقليد المحفوظ لهذا الموضوع، اعتبر العوام، رغم الأعباء الجديدة كالتزام الخدمة العسكرية التي ما كانوا ملزمين بها، "إصلاح سرفيوس توليوس"، الذي جعلهم يساوون الأشراف بهذا الصدد، على رأس انتصاراتهم على الأرستقراطية الدم واستمروا طويلا في اعتبار هذا الملك "محسنهم".

يمكن أن نرى هذا الأمر منذ الآن البذرة التي أنتجت فيما بعد "الجمعيات الناجبة بالوحدة المئوية". لم يكن لهذه الجمعيات بداية ماكان لها فيما بعد أي تمثيل الشعب، لأن الملوك المستبدين لا يتنازلون عن سلطتهم برضاهم.

### سقوط سيطرة الأتروسك ونهاية العهد الملكي

يرى المؤرخون الرومان أن سقوط هيمنة الأتروسك كان في العام ٥١٠. رغم أن هذا التاريخ غير دقيق أبدا، إذ لاشك أن الأتروسك طردوا من روما في حوالي العام ٥٠٠ ق.م. بدأ العصيان في الأرجح بانفصال مدينة لاتيوم، بدعم من المستعمرات اليونانية (كومس)، عدو الأتروسك الدهري. اندحر الأتروسك بهذا الصراع وأعلن تمرد في روما،

قاده الأشراف وخاضه الشعب كله؛ فطبقة الأشراف، الغاضبة من انتزاع ميزات الوراثية من قبل ملوك الأتروسك، مدعومة بالشعب، الرازح تحت وزر الضرائب والسخرة التي فرضها آخر ملك أتروسكي هوتاركين الثاني، واضطر هذا الأخير إلى الهرب إلى أتورريا، مع رجاله المسلحين.

وهكذا أفل نجم "العهد الملكي" من تاريخ روما وانتهى معه عهد كامل من تطوره الاجتماعي. كان مجتمع العشير قد تبدد وانهار نهائيا: وبدأ عصر جديد، قضى على ماسبق وأسس على أنقاضه مجتمع جديد-طبيقي، وبالترابط مع هذه الواقعة، ظهرت أشكال تقدمية للدولة الرومانية.

## الفصل الرابع والأربعون

### روما في وضع خارجي حرج أول أيام استقلالها

(٥٠٠-٣٥٠ ق.م)

### عسكرة المجتمع والأخلاق

#### روما وجيرانها في القرن الخامس

بعد انعتاقها من نير الأتروسك، اضطرت روما لمساندة سلسلة من الحروب الباهظة الكلفة ضد جيرانها المباشرين. تذخر أول كتب "التاريخ" لتيت-لايف بقصص عن أهم مآثر الأبطال التي أفرزتها هذه الحروب.

قاتل الرومان قرابة ١٠٠ عام (في أثناء القرن الخامس) ضد الأتروسك الذين لم يسلموا طبعاً بخسارة لاتيوم وروما. لكن روما ذاتها انتقلت إلى الهجوم؛ ففي العام ٣٦٠، احتلت مدينة فييس الأتروسكية ودمرت وانتقل خط الدفاع إلى الأمام ٣٠ كم خارج سور روما. بينما كان الرومان يخوضون حروبهم مع الأتروسك، اضطروا طيلة النصف الأول من القرن الخامس، التصدي للهجمات الآتية من الشمال الشرقي ضد لاتيوم من قبل السابينين. ومن الشرق والجنوب، كانت الشعوب الجبلية (الأوك والغولسك) يشنون غزوات مستمرة على سهل لاتيوم، عادة في منتصف فصل الصيف، في أيام الحصاد. فلم تستطع روما الدفاع عن نفسها ضد أعدائها الذين يهاجمونها من كل صوب إلا برفع جاهزيتها القتالية كل عام وأن يحمل الشعب كله السلاح.

في بداية القرن الخامس، حصلت روما على حلفاء بشخص اتحاد أرسينين، جامعة من المدن اللاتينية يرأسها أرسيا، وشعب هرنيك أيضا تحت تهديد العدوان الأتروسكي. وفي العام ٤٩٣، عقدت معاهدة تعاون متبادل مع اللاتين، في الحرب. أزر هذا الحلف الثلاثي، الذي يضم بمئاته شعوبا أخوية، روما في الدفاع عن استقلالها وتوطيده، والمساهمة بنفس

الوقت باستقرار العلاقات العام بين الشعوب، الاستقرار الذي رسم لإيطاليا الوسطى كلها، في بداية القرن الرابع ق.م.

لكن، في أثناء العقود الأولى من هذا القرن، نزلت بشمال إيطاليا ووسطها داهية دهياء أي غزوة السلت أو الغولوا، الذين كانوا قد أقاموا في أوروبا الغربية والوسطى من المحيط الأطلسي حتى المجرى الأوسط لابل، فيما بعد حتى مجرى الدانوب الأسفل. وفي نهاية القرن الخامس، احتل عدد من شعوب الغولوا (بوايين، سينومين، إلخ)، بعد أن اجتازوا مضائق الألب، احتلوا سهل البو، الذي جعلوه لاغول سيزالبيين. ومن هنا مشى السلت نحو الجنوب، فتحوا أومبريا، وبدأوا باحتلال مدن الأتروسك. -يكتب تيت لايف- "عدو لم يُر قبلاً ولم يسمع به أحد تقدم من شواطئ المحيط وآخر حدود العالم". تقول الرواية إن الغولوا، بقيادة برينوس، (طبعاً، ليس هذا اسم علم إنما تأتي كلمة برينوس بمعنى من أراد قيادة السلت) أبادوا الجيش الروماني عن بكرة أبيه، عند ملتقى نهري أليا والبو، على بعد ١٥ كم من روما. ولجأت بعض الشراذم البائسة إلى فييس. و"صار يوم أليا" واحداً من أعتم ذكريات التاريخ الروماني. وبعد ثلاثة أيام من المعركة، احتل الغولوا روما، أحرقوا وذهبوا جمهرة كبيرة من القوم (٣٩٠ ضحية حسب الرواية الرومانية، و٣٨٧ حسب أرسطو). لم يبق واقفاً سوى قلعة الكابيتول، وتوارت الحكومة الرومانية، مع فصيلة خائفة، قاوموا بظفر حصاراً دام ستة أشهر. وحسب الخرافة، لم تخل روما إلا بفدية قدرها ١٠٠٠ ليبرة ذهبية.

تتابعت غارات السلت أربعين سنة أخرى. أنهكت روما وفقدت سيطرتها على لاتيوم واضطرت إلى العودة إلى الصراع لتركيز وضعها. وفي أواسط القرن الرابع فقط كان عندها مايكفيها من القوات لتجيب على الغارة بغارة. وفي حوالي العام ٥٠ من هذا القرن، تمت هزيمة الإيكس والفوالسك نهائياً، واحتل الرومان في تلك الحقبة مدينة كار الأترورية. وانطلاقاً من العام ٣٤٩، أوقف الغولوا أعمالهم في لاتيوم. حلفاء روما واتسعت أرضها حتى صارت ٦٠٠ كم<sup>٢</sup>.

مع ذلك، لم تتعرض روما في تاريخها لتهديد ضخم كهذا إلا في الـ ١٥٠ سنة الأولى من وجودها مستقلة، وكان هذا بنشر قواتها حتى الحدود الأخيرة التي حفظت لها حريتها وأمنت لها أرضها.

## الإصلاحات العسكرية في القرنين الخامس والرابع وبداية هيمنة الجيش

### الروماني

قطعت الحروب المنهكة، التي استمرت دون انقطاع تقريباً مدة ١٥٠ عاماً، علاقات روما الاقتصادية والثقافية مع جيرانها الذين كانوا يعيشون مستوى عالياً من التطور. فنقص المواد، والحبوب واضح، وتوقف استيراد البضائع من اليونان القارصة. وجمد استيراد الصناعيين والتجار، الذين كانوا قد ازدهروا في أيام الأتروسك. بالعكس، كبر دور الملاك العقاريين والشرائح الزراعية، وقبل كل شيء، برز دور الأشراف الذين سلبوا أراضي الناس -الموالي- وعلى أرض القبائل الجديدة، على طول الشاطئ الأيمن للتبر، في جنوب روما وحتى قمم الألب، في مستنقعات رونتان، أقام المعمرون ليحرقوا الأرض. ولقاء حرث مستعر، لجأ الرومان إلى تجفيف الحقول المستنقعية، وتحولت لاتيوم كلها إلى بستان مزدهر استمر حتى بداية العصر الوسيط. وحسب الرواية، لم يتبرم الآباء الشيوخ من حرث أرضهم بأنفسهم أو حفر أفنية تصريف المياه. وكانت "البساطة الريفية" القاسية، وإيجابية أرض بأرض وذهن عملي فظ معتبرة منذذ إمارات سلفية وفضائل نوعية للشعب الروماني في العهود القديمة.

فضلاً عن هذا، رهن هذا الشعب كل طاقته لدعم نضال مستميت من أجل استقلاله وحرية. يقول أنجلز بهذا الصدد إن الجيش الروماني خلق "... أجود نهج لقتال المشاة ابتكر طيلة العصر، يوم لم يكن العالم يعرف استعمال البارود".<sup>١</sup>

إن كانت نواة الجيش الروماني قد تألفت سابقاً من جحفلين، فهي تضم الآن أربعة، لأن العمليات القتالية جرت على مختلف النقاط المهددة في آن واحد. وتعداد الجحفل الذي تراجع إلى النصف، هو الآن ٤٢٠٠ رجل فقط، على أهبة القتال (سلاح ١٢٠٠ منهم خفيف)، عدا الخيالة، الموسيقيين، مساعدي البنائين وعناصر أخرى خارج الصف. لكن انشطار الوحدة القتالية الأساسية كان يعوض بإلحاق بكل وحدة سوقة مساوية لعدد القوات المتحالفة، وكان سلاح الخيالة يضاعف عادة. فضلاً عن هذا، فالحرب تدور في بلد جبلي ووعر، ضد عدو سريع الحركة، لذا قسم كل فيلق إلى وحدات صغيرة، لإنجاز مهمة

<sup>١</sup> - ف. أنجلز "الجيش"، الموسوعة الأمريكية الجديدة، المجلد الثاني، رقم ٤، ١٨٥٨، ص ١٢٨.



مستقلة، في كل جحفل ثلاثون فصيلة، ولكل منها بواقها ورايتها. كان الفيلق يشكل جسداً، واضح المفاصل وفي غاية التعقيد، من وحدات قتال صغيرة، تعمل مستقلة، إنما تبعاً لخطة مشتركة، إذن لا يشكل الجحفل كله وحدة قتالية واحدة، كالكتائب اليونانية، بل لكل واحدة رقعة معينة مسؤولة عنها، مع الاحتفاظ بفواصل بين الرقعة والأخرى. الخط الأول، من عشر شرادم، مزودة برماح قصيرة، خلفها يصطف في الخط الثاني، بين فرجات الأولين، عشر شرادم أخرى من جنود مدربين، وأخيراً، في الخط الثالث، شرادم السلاح الثقيل، من أكفأ المحاربين. تخوض هذه القوات المعركة تدريجياً، والصدمة الساحقة من شرادم السلاح الثقيل تبيد العدو الذي أنهكه الخطان الأول والثاني. يقدم تيت، لايف وصفا رائعاً لهذا التكتيك عالي الإتقان.

في ذات الحقبة، تبدل سلاح الجحافل، وبخاصة، وبسبب شح المعدن، صنعت أسلحة الدفاع من جلود غير مدبوغة، كثيفة ومقاومة، وادخرت القطع المعدنية لأشد الضرورات. لكن هذا التقدير نفسه ساهم في جعل القوات الرومانية أسرع، أقدر على المسير الطويل والانقضاض على مؤخرات العدو.

وتحسن التسليح الهجومي أيضاً. فادخال الزوارق، المسلحة بنفس الوقت برمح وحربة، منتظماً بإحكام مع كميات سلاح الرمي بالأسهم والرمح الطويل، كان أهم تجديد. والسيف القصير (٦٠-٧٥سم) ذو حدين ورأس من الفولاذ المسقي، سمح بالطعن كيفما اتفق. وفي هذه الحقبة أيضاً اختار الرومان، لنصب وإقامة معسكراتهم، مخططاً متقناً ناجزاً ودائماً، وهو عبارة عن مربع يخترقه ممران يتقاطعان في الوسط. يحيطه خندق من كل جهاته وسور ترابي متوج بشباك قصبي شد إلى بعضه.

كانوا يسهرون جيداً على معنويات وثقافة الجيش القتالية. وينزلون عقوبات صارمة بمن يخرق الانضباط ويخون الواجب القتالي. ويمتدحون مآثر الشجعان في أثناء الخطابات التي تلقى في اجتماع القوات، ويخصونهم بهدايا وأوسمة.

### الجمهورية العسكرية والنبيلة في بداية القرن الخامس ق.م

لقد أفضى الاهتمام الكبير بقضايا الحرب إلى إعادة تنظيم جذري للجهاز الحكومي، بمنح عسكري شامل وكامل. ومع اختفاء السلطة المطلقة التي كان يمارسها ملوك الأتروسك (احتفظ أحد الكهنة بلقب ملك)، صارت الحكومة "حكومة الشعب" وسميت الدولة

الرومانية لهذا السبب جمهورية. لكن استمرار الحرب جعلنا نفهم بكلمة "شعب" الشعب المسلح فقط. ولذا صار مجموع الجيش المؤلف من مئات، ليقرر المسائل العسكرية المطروحة، وبخاصة خوض الحرب أو وقف القتال، وانتخاب الجنرالات السنوي، الركن الأهم في الحكومة. لم تكن تعقد هذه الاجتماعات إلا مرتين في العام، في الربيع والخريف، في معسكر مارس -أذار- (الموقوف لإله الحرب)، الكائن خارج المدينة، على ضفة التيبر.

كان القائد الذي يدعو القائد الذي جمعية الناخبين للاجتماع يلقي خطبة يختتمها بطرح السؤال التالي على الشعب: "أتريدون، يا سكان روما، أن تعلنوا الحرب على هذا الشعب أو ذلك؟" ويذكر أيضا الأشخاص المدعويين لممارسة قيادة القوات.

لم يكن يقبل أي نقاش، أو احتجاج، ويحال الأمر في الحال على التصويت. آنئذ تتقدم القوات، وكل مائة تعبر عن رأيها وهي مارة (كان ثمة أشخاص معينون يجمعون الأصوات داخل المئويات). يقترح أولا ١٨ قائد مائة خيال. ("أصحاب الامتياز"، هكذا يسمون لأنهم أول من يعطي رأيه. ويأتى بعدهم ٨٠ قائد مائة مشاة (حملة السلاح الثقيل). فإن وقفوا إلى جانب الخيالة، تكون الأكثرية قد ضمنت (٩٨ قائد مائة). وفي هذه الحالة لا يستشار قادة الـ ٩٥ مائة الآخرون. وفي حال العكس، يستمر التصويت حتى يتخذ قرار ما. وهكذا، نادرا ما يستشار قادة المائة الأفقر، ويلعب صوت الأجور سلاحا، أي الأغنياء الدور رغم كل شيء، كانت جمعية الشعب هذه، المجندة والمنظمة على أساس المائة، تشكل الشكل الجنيني للديموقراطية العبودية الرومانية. وليس للجمعيات القديمة الفردية سوى حق تأييد القادة المنتخبين إلى مجالس المدن المشيخية وتوليهم، حسب الشعيرة، سلطة العاهل، والوظائف التي آلت إلى الشكلية العابثة.

في الأيام الأولى، ينتخب حاكمان من الأشراف فقط. وهما يشكلان الركن الثاني في حكومة الجمهورية الرومانية. يسمى كل منهما حاكم شرعي. وهما قائدا الجيش، مخولان سلطة غير محدودة في الحياة المدنية. كانا ينزلان عقوبة قاسية بمن يخرق "أمر القاضي"، أي القرار الذي يخول هذين الحاكمين ممارسة مهامهما (كان الجاني يضرب بمقرعة ويقطع رأسه ببلطة). وكانت العقوبة تنفذ على الفور من قبل حامل الفأس، الذي يحرس ١٢ قاضيا، حاملا على كتفه بلطة محاطة بحزمة من القضبان. كان حامل الفأس

يطوي حزمة القضبان عند اجتماع الجمعية الشعبية، بناء على أمر القاضي إشارة إلى المصدر الشعبي لسلطة القاضي.

على ذلك، ومع تراجع الهمة العسكرية، وإرساء العدالة، سعوا إلى تقليص سلطة القضاة أو الحكام الاستبدادية. كان يحق لكل قاض التدخل بالقرارات التي يتخذها قاض آخر، وهذا ما يلزم القاضيان على التصرف بانسجام بين بعضهما. ولذا كان القضاة ملزمين بالتشاور بين بعضهم ولذلك كثيرا ما سمو قناصل أو (مستشارين)، لكي تزاح تدريجيا الصفة العسكرية.

ثمة مؤسسة من عينة أخرى لدى الحاكم، وزراء المال، الذين تتنامى صلاحياتهم لتحديد من سلطة القاضي. كان يشغل وزارة المالية بداية وزيان، ثم أربعة اعتبارا من العام ٤٢١، وكان الأربعة مستشارين لدى القاضي. كان القضاة يسمونهم، ثم، في النصف الثاني من القرن الخامس، صارت هذه الوظائف انتخابية. وكان وزير المالية مسؤولا عن تصريف الشؤون الجنائية والانضباطية، وتوجيه الشؤون الإدارية، من حيث الاقتصاد والمال بخاصة. ولا يتم صرف أو أداء أي مبلغ حتى للمستشار بدون تدخل الوزير. وتطال صلاحياته أيضا جباية الضرائب، والتعويضات والضرائب الجنائية، لدى بيع الأسلاب وأسرى الحرب، وصك النقوش، إلخ. كل هذا، مع الحفاظ على وظائف ملازم المستشارين، الذين يرافقونهم إلى الحرب ويحلون محلهم عند الإصابة أو المرض، وغيره.

كان التقليص الأهم لسلطة الحاكم هو إحداث مؤسسة تدريجية لممارسة حق من أدين بالموت في دعوة الجمعية الشعبية للاجتماع. تقول الرواية أن هذه المؤسسة تعود إلى العلم ٥٠٩، لكن الأرجح أن الجمعية الشعبية لم تصبح حقيقة فعلية إلا في حقبة أحدث بكثير. وكان حملة الفأس يتخلون عن البلطة لدى دخولهم المدينة، ولا يعيدونها إلى أكتافهم إلا عندما يتوجه الحاكم مع الجيش إلى المعركة. على ذلك، في حال الخطر الاستثنائي، الخارجي أو الداخلي، كانت السلطة المطلقة تعود للقيادة العسكرية العليا لتسمية دكتاتور، يختار من الأشراف المعروفين بكفاءتهم ونزاهتهم، لسنة أشهر فقط، بسلطة كاملة؛ لذا كان الباحث اليوناني يعرفون الدكتاتور باسم طاغية. وكان العرف يقضي بأن يتمتع الدكتاتور بكامل سلطته الاستثنائية قبل انقضاء هذه المدة، إذا كانت الظروف التي استدعت تسميته لم تعد موجودة.

لقد طالت عسكرة الجهاز الحكومي مجلس الشيوخ أيضا: فالحكام العسكريون السابقون، المدعون للبقاء حتى انتهاء مهامهم، كانوا يكملون صفوفهم. ولهؤلاء الشيوخ فقط حق الكلام وإلقاء الخطابات واقتراح تدبير ما، في أثناء اجتماع مجلس الشيوخ؛ والآخرين يتمتعون فقط بحق التصويت الذي يتم وهم يصطفون هنا أو هناك، الأمر الذي أفضى إلى السخرية منهم بتسميتهم "سلاح المشاة".

بعد هذه العسكرية لم يتأخر مجلس الشيوخ عن إخضاع كل الحكام لتنفيذ قراراته. فالجمهورية الرومانية منذ بزوغها، كانت تجسد السيطرة الأرستقراطية العسكرية والأبوية لمجلس الشيوخ.

تتضح طبيعة هذا النظام في الاشتقاق العام الذي اختير لتسميته، الذي يندرج في معارف الحرب، الأبنية الرسمية والأعمال الرسمية، تحت أربعة أحرف طقسية  $S P Q R$  (*Senatus papuluque romanus*) -مجلس شيوخ الشعب الروماني. وبهذه البادئة الرمزية، يوضح الحرف الذي يشير إلى مجلس الشيوخ بطريقة شرعية تماما قبل الإشارة إلى الشعب، الأمر الذي يوضح الواقع الاجتماعي للجمهورية الرومانية.



## الفصل الخامس والأربعون

# القضاء على مخلفات العشير وتشكيل المجتمع الطبقي والدولة في روما

### تمرد العوام وبدء التنظيم العامي

تم القضاء على مخلفات نظام العشير في روما كما في اليونان بالطريق الثوري. بعد زمن طويل من "إصلاح سرفيوس توليوس". والمصادر التي تتحدث عن هذه الحقبة من التاريخ الروماني غير كافية أبدا. تطفح أعمال دنيس ابن مدينة هاكلرناس بالاختراعات الخيالية لحوليات وشعراء من الأزمنة السابقة وكذلك التقاليد المزهوة التي تتحدث عن "مآثر" أسلاف الأسر الشهيرة في روما. "فقط يمكن التأكيد، كما لاحظ ف. أنجلز حول موضوع بداية هذه الثورة، أن الصراعات بين العامة والأشراف هي السبب"<sup>٢</sup>.

كانت الشريحة المهيمنة من "الشعب الروماني"، النبلاء المنظمون من قبائل وعشائر، تسعى لصيانة امتيازاتها السلفية. ولقد استغل سقوط الملكية لتركيز السلطة بيد زمرة من الأسر النبيلة (قبائل فابيا، فاليريا، كلوديا). وكان النبلاء في الوقت ذاته يجهدون لديمومة المشاعة القديمة اقتصاد القبيلة، التي كان يزداد افتقارها للأرض، لأن المراعي وأسهم الأرض القائمة في مجال القبيلة والممنوحة بصورة وقتية لأعضائها ومواليها أخذ مع الزمن صفة الملكية الخاصة، الوراثية وغير القابلة للتصرف. وبالتالي، فقدت مشاعة القبيلة مبرر وجودها الاقتصادي وعمليا تفككت.

في هذه الشروط، تنامي اهتمام النبلاء بالأراضي المشاع، غير الموزعة على القبائل أو امتلكت أثناء الفتح، واتجهوا للدفاع بشراة عن حقوقهم السلفية واحتكار التمتع بها.

<sup>٢</sup> - ف. أنجلز. أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة، ص ١١٩.

في هذا الوقت تشكلت شريحة ريفية من العوام المرتاحين وراحت الأسر الغنية العامة (قبائل ليسنيا، منوسيا، سمبرونيا وغيرها) تطلب بإلحاح مشرب للمساواة بالحقوق السياسية مع الأشراف، والسماح بالزواج بين العوام والأشراف ودخول الحاكمية. وكانت قضية الديون تقض مضجع الشرائع الدنيا العامة. وفي القرن الخامس، هوت جمهرة من العوام، تعيش في أراضي الأشراف، إلى جحيم العبودية بسبب العجز عن إيفاء الديون، وهدد الباقون بالمصير ذاته.

كانت القضية الرئيسية، بخاصة لدى سواد الناس، هي قضية الأرض، أي التمتع بالـ"أرض المقدسة" وإشغال الأراضي الموات بحقوق متساوية مع الأشراف. فكان العلمي إذن، الذي يحمل حكومة الأشراف مسؤولية كل المصائب والأوصاب، على أهبة الاستعداد لدعم المطالب العامة من شريحته القائمة.

ارتدى النضال الذي قاده العوام شكل الانفصال، وكثيرا ما ذكرت في الموروث هجرة وانسحاب العوام. تشير المصادر إلى كثير من هذا (من العام ٤٩٤-٣٤٢). وقد قامت عصيانات خطيرة على الأولغارشية الحاكمة، من قبل سواد الجيش، الذين كانوا يهددون بالتحول إلى تمردات مسلحة. والجيش المنتفض، الذي تشكل منذئذ من العوام أساسا، كان يرفض، في الأوقات الحرجة عسكريا، الذهاب إلى الحرب أو يترك مواقعه ويتجه نحو المدينة. وكانت نقطة تركز العوام الغاضبين دوما في هضبة أفانتان. حيث ينهض معبد الإلهة العامة سيريس (ديمتر)، أي حي مرفأ روما. هنا، كان المنتفضون يشكلون "كتائب مقدسة"، تحت قيادات منتخبة. وبعد الارتباط بأيامين وصيغ لعانية ("الاحتفالات" أو "التضرعات" لسيريس)، كانوا يفدون نحو المدينة، التي يخرجون منها من باب الهضبة *porte colline*، أي الشرقي، ليعسكروا على بعد ٣٠٠٠ خطوة من سور الحاضرة، على التلة التي اتخذت فيما بعد صفة "التقديس". طيلة هذا "الانسحاب"، كانت حياة المدينة الاقتصادية ترتكس، وتهمل حراثة الحقول، ويستولي الجيش على المون الموجودة في أراضي الأشراف، الذين كثيرا ما هدمت مساكنهم. ومن هذه الحدود العزلاء، كان العدو يغزو ويدمر وينهب الأرض الرومانية.

كان الأشراف والقادة العسكريون مرغمين على تقديم امتيازات لتوطيد الألفة مع المتردين. كان مجلس الشيوخ يرسل وفدا مؤلفا من أشخاص شعبيين ومحكيين،

وبوساطتهم كان الطرفان يصلان إلى وفاق. وبسلسلة من هذه الامتيازات المنزوعة من الأشراف، كان العوام يتابعون تدريجيا تحقيق برنامجهم.

### خلق جمعيات عامية ومنصب محامي شعبي

منذ بداية القرن الخامس، بعد أولى هذه الانفصالات، ظهرت "جمعيات العوام"، أي الاجتماعات، التي أعطاهم الأشراف الحاكمون لكل جماهير الشعب العامي؛ وكانت قراراتهم ذات طابع إلزامي لكل المجتمع العامي. كانت هذه الـ "جمعيات العامة" تقام على أرض المعرض، في أيام السوق الذي يجمع التجار والفلاحين. من المرجح أنه بعد "الانسحاب الثاني" الذي تنسبه الرواية إلى العام ٤٧١، بدأت القبيلة تجمع الجمعية العامة. ومنذئذ، سميت الجمعية القبلية، التي تطمح للعب دور جمعية الشعب كله.

واستنادا إلى الرواية أيضا. وفي العام ٤٤٩، التزم القنصلان م. فالريوس وم. هورتويس دعوة كتائب المائة للتصويت على قانون يقر أن الاستفتاء الشعبي له قوة القانون في مواجهة الشعب الروماني. وبالفعل، صار العديد من قرارات الجمعيات القبلية، مثل قانون كانليا في العام ٤٤٥، الذي يمنح الزواج بين الأشراف والعوام، مرعي الإجراء. لكن التحول النهائي لهذه الجمعيات إلى مجالس عشائرية شرعية لم يتم قبل القرن الرابع. تقول الرواية أن العوام، منذ الانشقاق الأول (٤٩٤)، انتخبوا على التلة المقدسة أول محامي الشعب أو بكلمة أدق حكم العامة. كانت شخصية هؤلاء المحامين "مصونة مقدسة" وكان من يقاومهم يقذف به من أعلى صخرة تربليان، إلى تلة كبتولن. وكانت واجبات المحامين، الذين منذ تلك الحقبة ينتخبون سنويا من قبل الجمعيات القبلية، تكمن بالتدخل لمصلحة العوام ضد أي سلطة للأشراف، حتى الاستشارية، بطريق "السلان-نشقاق"، أو تعارض تدابيرها، إن هي أدت مصالح العوام. وكان المحامي يستطيع إيقاف أي عمل قضائي وعرض القضية أمام سلطته القضائية. يرأس المحامي العام اجتماعات وجمعيات العوام، التي له حق دعوتها، ليتحرر من مقترحاتها. وفي شخص المحامين العامين، يكسب العوام، ضد تحكم الشريف، مدافعين عن السلطات الواسعة بدون استثناء.

كانت هذه السلطات مقيدة بحدود جديدة. أولا، لايمارس المحامون العامون الـ *imperium*، أي القيادة العسكرية. ثانيا، سلطة للمحامين العامين محدودة بسور المدينة،



أي لامتد إلى الأرياف. وطيلة مدة مهمته السنوية، المحامي العام ملزم بعدم ترك المدينة ولا المبيت خارج مسكنه، المفتوح الباب أبداً، بحيث أن أي صاحب حاجة يقدّر أن يتوجه إليه في أي وقت. وبتسمية الدكاتاتور وانطلاقاً من لحظة إعلان حالة الحصار، كانت تعلق ممارسة السلطة الشعبية..

كان محامو الشعب بداية اثنين. وفيما بعد صاروا أربعة أو خمسة، وأخيراً عشرة. وتدرجياً بسطوا سلطتهم حسب أهوائهم (فرض الغرامات والتوقيف، إلخ)؛ لابل بدؤوا بمراقبة أعمال مجلس الشيوخ؛ وقوفاً في الأبواب، أو جالسين على مقاعد يجلبونها معهم، يتابعون المناقشات والقرارات. فإن مثلت هذه الأخيرة صفة ضارة أو معادية لأحد العوام، ينهض المحامي العام ويقدم اعتراضه.

### المجلس العشائري وقانون اللوائح الاثنى عشر

كان أهم إنجازات الشعب الروماني هو القانون المكتوب. وكان عرف القبيلة: "عوف وعادة الأسلاف" يشكل سر طبقة الأشراف، الأمر الذي يفتح الباب واسعاً لتحكم قضاء المستشارين. ولمعالجة هذا الوضع، عقد مجلس الشيوخ جلسة في منتصف القرن الخامس، بناء على إلحاح هيئة المحامين العامين، من أجل كتابة ونشر القوانين.

حسب الرواية، لم يمارس هذا الإصلاح إلا بعد صراع ضار، حتى الضرب بالأيدي المسلحة بين أنصار التقنين وشريحة من الأشراف الراغبة في الحفاظ على الحالة القائمة. في العام ٤٥٢، انتخبت جمعيات المائة لجنة من عشرة أعضاء، منحت سلطات دكاتاتورية، مكلفة بتدوين القوانين. عملت سنتين. وفي العام ٤٥١، كانت حكراً على الأشراف. بينما في العام ٤٥٠ تشكلت من خمسة أعضاء أشراف وخمسة من العوام، برئاسة أحد أشهر ممثلي الأشراف، أنيوس كلوديوس. وكانت حصيلة أعمالها نشر شريعة نقشت على اثنتي لوحة برونزية. لم يصلنا هذا الأثر كما هو أصلاً، ولانعرف سوى بعض مواده محفوظة كما ذكرت في أعمال القانونيين الرومان للعصور المتقدمة. تمثل أكثر مواده الصفة القديمة وكانت أمنية فقط لنصوص الحق القديم المألوف. ففي أصول المحاكمات المدنية، مثلاً، لم تكن المحاكمة سوى حكماً بين المتخاصمين، للمدعي حق جلسب المدعى عليه بالقوة ليمثل أمام القاضي، "بوضع السيد عليه" (لوح ١، ومادة ١ ومايليها). وعلى الخصم نفسه أن يقدم شهوده. وفي الحق الجنائي يسود مبدأ القصاص: من سبب تشويهاً جسدياً يكون عرضة لتشويه مشابه. وعقوبة الموت لمن أحرق أو من نوى تسبب ضرر

بحقل آخر، وبمن سعى "إلى تعزيمه ضد الحصاد" أو "من غنى أغان شريرة". وبعض العقوبات تمثل طبيلة التراثيل الدينية، إلخ.

في الوقت ذاته ثمة نصوص في شريعة الألواح العشرية تستوحي توجهات تقديمية، كتلك التي تهدف الدفاع عن الملكية الفردية، وإضعاف تحكم شيوخ القبائل وأنسنة التشريع القديم حول الديون. مثل إعطاء المدين مهلة ثلاثين يوما بعد إعلان عدم قدرته على الوفاء؛ وإن رماه الدائن في الحبس، لا يحق له أن يفرض عليه الجوع؛ وأن لا تزن الأغلال والحديد التي تكبله أكثر من ١٥ ليبرة. ولا يجوز أن يسجن المدين أكثر من ٦٠ يوما؛ بل يجب أن يساق إلى الميدان، وفي أيام السوق، لا أحد يرغب بشرائه، إلخ. يجدر الاعتراف بالطبيعة التقدمية لهذه الشريعة، رغم أهمية مخلفات "حق العرف" السلفي، التي كانت قد شاخت يومئذ.

**خاتمة الصراع بين العوام والأشراف: تسوية الشروط، تشكيل طبقة واحدة من مالكي العبيد، تنظيم جهاز الدولة.**

بعد المجلس العشاري، تابع العوام، الذين ربما انضم إليهم الموالي، نضالهم الذي كلى بانتصارهم.

بداية ، سنت قوانين لمصلحة الشريحة العليا من العوام. وفي العام ٤٤٥، أقرت مبادرة المحامي العام كانوليوس التي تسمح بالزواج بين الأشراف والعوام. وانطلاقا من العام ٤٤٤، عندما احتال العوام على المستشارية، بديء بانتخاب محامين عامين عسكريين مخولين السلطة الاستشارية (عادة عشرة)، يملكون كل ما يملكه المستشار، عدا حق دخول مجلس الشيوخ. وانطلاقا من العام ٣٩٠ وحتى ٣٦٧، حلت المحامات العامية العسكرية تقريبا كليا محل المستشارية. بين هؤلاء كان لابد من وجود عدد من العوام.

طبعاً كان الأشراف يدافعون بعناد عن امتيازاتهم السياسية. وهكذا بديء، انطلاقاً من العام ٤٤٣، بانتخاب، كل خمس سنوات ولثمانية عشر شهراً، مراقبين، يختاران من المستشارين الممتازين، الذين كانوا مكلفين بمراقبة المواطنين وأرزاقهم، لإعادة توزيعها على الشرائح المناسبة. كانت الرقابة العامة تتم أمام الشعب المجتمع في حقل أذار *MARS*. وكانت كل إعلانات الأرزاق تدقق بصرامة وتولى أخلاق المواطنين أهمية قصوى. وربما أفضى السلوك الذميم (حياة عابثة، فاسدة، ماجنة، إلخ) إلى تفهقر طبقي. يرفع المراقبون

اللوائح لمجلس الشيوخ ويستطيعون ترقين "غير الجديرين". وقد صارت هذه السلطة الواسعة للمراقبين، المتعلقة بمراقبة الأخلاق، بين يدي الأشراف وسيلة قوية لكبح التطور الاجتماعي. فضلا عن هذا، وضعت معرفة كل المسائل الخاصة بالأرض والمناجم العامة، وشق الطرقات، أفنية المجارير، والصروح العامة، إلخ. وضعت أيضا في أيدي المراقبين. ومن هنا ارتبط كثير من رجال الأعمال بالمراقبين، الأمر الذي خول هؤلاء الأخيرين ممارسة نفوذهم على النشاط والسلوك السياسي للعناصر الجريئة من العوام الذين كانوا يشكلون الخصوم السياسيين الأخطر على الأشراف.

لكن الشرائح الأدنى من العوام قد حظيت، هي الأخرى، ببعض المكاسب على المستوى الاجتماعي والاقتصادي. فقد ازداد توزيع الأرض أكثر فأكثر من الأراضي الملحقة حديثا. هكذا، بعد الاستيلاء على فييس في العام ٣٩٣، قرر مجلس الشيوخ توزيع أراضي هذه المدينة، بمعدل ٧ أسهم للشخص.

في أثناء الأعوام التي تلت غزوة الغولوا التدميرية، في العام ٣٨٧ ق.م، بلغ الصواع أوجه. بل نتحدث مصادرها بتعبير غامضة عن أعوام كاملة من "الالغارشية". حاول الأشراف عبثا سحق الحركة الشعبية على يد سلسلة من الدكتاتوريات، وفي العام ٣٦٧، ألزم الدكتاتور ومجلس الشيوخ على تصديق مشروع قانون المحامين العامين: س. ليسنيوس ستولون ول. سكتيوس لترانوس، الذي لأجله أو ضده صارح الطرفان بضروا منذ عشرة أعوام. قام قانون ليسينيا وسكتيا على ثلاث نقاط أساسية من برنامج العوام: المسألة الزراعية، وقضية الديون والمسألة السياسية. أولا، بفضل هذا القانون تمتع كل المواطن الرومان بالأرض العامة، وألغى احتكار الأشراف لهذا المرفق، ووضعت حدود ثابتة. حسب الرواية، ماكان يجوز لأحد أن يمتلك أكثر من ٥٠٠ سهم أو ٥٠٠ رأس ماشية، لكن هذه الأرقام كانت كبيرة جدا وغير متلائمة حتما مع الواقع. ثانيا، كان اهتمام المدنيين ينصب على إلغاء الديون. أخيرا، ألغى منصب المحامي العام العسكري والسلطة الاستشارية وعادوا إلى انتخاب مستشارين سنويين، على أن يكون أحدهما عاميا حتما.

وكانت الحاكمية في الوقت ذاته، بصفتها امتيازاً لطبقة الأشراف، منفصلة عن الاستشارية، لتشكيل مكتب قضائي مستقل، مخصص للأشراف. والحكام (بداية كانوا اثنين) ياتون بعد المستشارين أو القناصل. وخلقت أيضا حاكمية جديدة للأشراف، حاكمية قضاة

كراسي العاج (أي قاض بلدي له الحق بكرسي عاجي في مجلس الشيوخ): كانوا مكلفين بتنظيم الأعياد والاحتفالات العامة الخاصة بالعبادة، والحفاظ على الأمن والنظام في المدينة. مع ذلك، وبعد سنتين، في العام ٣٦٥، سمح للعوام بدخول هذه الحاكمة، دون أن يتخلوا عن دخول القضاء المدني وكل المهام الأخرى، بما فيها الدكاتورية. وفي العام ٣٥٧ حصل العوام الفقراء على تحديد أعلى فائدة للدين ١٠%، وأخيراً ألغى قانون بوتليا العبودية الناجمة عن الدين وحرر المواطنون الرومان الذين رسفوا بقيود العبودية بسبب الدين.

وهكذا كانت نتيجة هذا الصراع الطويل إلغاء أغلب مخلفات مجتمع العشير السابق. ولم يعد الأشراف والعوام يشكلون من الآن سوى طبقة حاكمة واحدة، طبقة المواطنين الرومان الأحرار. ولم يعد يتميز المواطنون فيما بينهم بأرومتهم أو محتدهم، بل بثروتهم ومهامهم. ومنذئذ بدؤوا بتسمية القوم الفقير ساكن المدينة بالعوام، وبخاصة الفقراء المدقعين. وقد بدأت أرسقراطية الصف الجديدة، سلبية الشرائح العليا من الأشراف والعوام، تسمى النبالة أو النبلاء، أي "الجديرة بالصدارة"، "بالشهرة"، وفيما بعد الأفضل، أي، "الأحسن". فكل مواطن روماني، بدون استثناء، له أن يصير نبيلاً، إن نجح ببلوغ الحاكمة العليا.

إلى جانبهم تشكلت الطبقة الخادمة، أي العبيد، المحرومين من حريتهم بإكراه مباشر وغريب على الواقع الاقتصادي: أسرى حرب، أسرى اللصوصية أو القرصنة، إلخ. وفي شريعة الألواح العشر، أشير مراراً إلى العبيد والمحربين. كان هؤلاء الأسرى الغرباء ملكية بكل معنى الكلمة، سلعة لدى المحتل، كأي غنيمة، ثمرة الحرب وقطع الطرق، شيء يمكن استبداله ببيعه وقتله. "رقيق أو أي دابة أخرى"، هو التعبير المعتاد الذي نجده حتى في حقوق العصور المتقدمة الرومانية. مع ذلك يمكن الافتراض أن العبودية كانت منتشرة جداً في روما في القرنين الرابع والخامس، لأن الاقتصاد الطبيعي كان مازال موجوداً إلى مدى بعيد.

ومع تكون المجتمع الطبقي في روما، انطلق الجهاز الحكومي انطلاقته الأوسع. وكانت السمات الأساسية لدولة العبودية هذه شكله العسكري وديموقراطيته الصورية.

في هذه الدولة، كانت السلطة معتبرة صادرة من "الشعب الروماني"، من التعاون التام بين المواطنين الرومان الأحرار. ففي كل مسألة هامة كان ضروريا "طلب موافقة الشعب". بينما كانت السلطة الفعلية بعيدة جداً عن السلطة الشعبية. أولاً، كانت قرارات الجمعية الشعبية التشريعية ذات طبيعة إدارية عامة فقط، ولم تكن تتخذ إلا بناء على اقتراح الحكلم.

وليس لهذه الجمعية أبداً حق التدخل في الشؤون الإدارية وفي السياسة السائدة. ثانياً، حتى الجمعيات القبلية، الأكثر ديمقراطية بين الأشكال الثلاثة للجمعيات الشعبية، لم تكن تمثل سوى مصالح متوسطي وكبار المالكين العقاريين، لأنها تشكلت في القرن الرابع من سبع عشرة قبيلة ريفية وأربع قبائل مدينة فقط، فضلاً عن أن المزارعين الصغار، أي الفلاحين، نادراً ما ينزلون إلى روما ليشاركوا في الانتخابات والتصويت. وكانت الجمعيات المنوية دافعة ضريبة الاقتراع مبدئياً وتعطي الأغلبية المطلقة لـ ٩٨ منوية من الشرائح المتوسطة والكبيرة. أخيراً ينحصر دور الجمعيات العشائرية بالمصادقة على قرارات جمعيات المنوية. وهكذا فتح المجال واسعاً لتزوير الإرادة الشعبية. أضف إلى هذا أن الحكام الأعلى، الذي يرعون الأمور، لا يعدمون وسيلة لإيجاد أساس ديني لتعليق أو إلغاء أي قرار وحتى حل الجمعية.

كان الحكام يلعبون دوراً بالغ الأهمية في حياة الدولة الرومانية: قنصلان، حاكمان شرعيان ثم الأربعة، مراقبان، كرسيان عاجيان، ٤ وزراء خزينة، ١٠ قبائل من الشعب، قاضيان عامان، أعضاء العديد من الجمعيات والموظفون النوعيون (من أجل ضرب النقود، وحراسة المدينة في الليل، إلخ).

كانت هذه الحاكمية التي تشكل السلطة الحاكمة حكراً على زمرة مغلقة من أرستقراطية الطبقة الجديدة، النبالة، التي تقاوم ضم "موالي جدد" إلى صفوفها. كان النبلاء ينضمون إلى هذه الزمرة باحترام مبدأ مجانية الوظيفة العامة، وحسب هذه القاعدة ليس لأحد أن يشغل مهمة أعلى إلا بعد أن يمر بمهمة أدنى. ولابد من مراعاة وبحزم فواصل الزمن للارتقاء من درجة إلى أخرى وشروط العمر. مثلاً، ألا يقل عمر القنصل عن ثلاثة وأربعين سنة، وأن يمر بكل المراتب السابقة. وهكذا تحولت النبالة الرومانية إلى أولغارشية مغلقة، حيث يقتسم الأعضاء المهام فيما بينهم. وكان صعباً جداً على "رجل جديد" ولوج وسطهم.

إلى ذلك، كان سيد دولة روما الحقيقي هو مجلس الشيوخ. كانت الخزينة بيديه، الأمر الذي ربط الجنرالات به، لأن التمويل ودفع رواتب الجيش لا يتمان إلا بأمر مجلس الشيوخ. وبمجلس الشيوخ ترتبط أيضاً كل تدابير الشؤون الاقتصادية. وفوق هذا، هو الذي يوزع الوظائف ومراكز السلطة على الحاكم، ويقدر أن يمدد مدة الحكم إلى أكثر من سنة،

باعتباره "قنصل محنك" أو "محام عام نزيه"، يدقق ويصادق على تقاريرهم، يميزهم أو يرفض النصر أو الترحيب، وغير ذلك. يستقبل الشيوخ ويرسل السفراء، يصدق أو ينقض المعاهدات. لايجرؤ أي حاكم أن يقترح على الجمعية الشعبية أي مشروع قانون دون موافقة أولية المجلس الشيوخ. ونجح مجلس الشيوخ بسحق سلطة المحامين العامين التي كانت بداية خطرة عليه، وذلك بضمهم إلى صفوفه ليجعل منهم شركاء له.

كانت الطبيعة العسكرية البارزة جدا صفة أخرى للدولة الرومانية، المنظمة السياسية للفلاحين المحاربين، الذين كانوا في وقت مع مقاتلين ومزارعين. وكان الجيش الروماني أساسا فلاحيا، لأن قاعدة المائة، التي بناء على أهميتها يتم تجنيد الفيلق، كانت امتلاك سهم من الأرض. وابن المدينة حتى الميسور، لكن لا أرض له، لا يقدر أن يخدم إلا خارج الجيش. وكانت خدمة الخيالة وفقا على مالكي الأرض، أغنى من الفلاحين البسطاء، والذين كانوا يحملون اللقب الماجد "فارس". وأخيرا أخذت حروب القرن الرابع طبيعة صناعية في ذاتها، تهدف إلى حيازة أرزاق مادية بواسطة أعمال هجومية مستمرة ضد الجيران. نجم عن هذا أن يبقى كل الحكام الكبار (عدا المراقبين والمحامين العامين) قبل كل شيء قادة عسكريين، يمارسون قيادة، ولايستلمون وظائف مدنية إلا استثناء، إلا في أثناء الهدنة والفواصل بين الحروب. وكان مجلس الشيوخ نفسه يشكل إن صح التعبير الأركان العامة الدائمة للدولة الرومانية. وقد وحدت المرحلة التالية من تاريخه، تاريخ الحروب الإيطالية، ثم الفتوح خارج شبه الجزيرة، مرحلة ولادة الإمبراطورية الرومانية المتوسطة.



## الفصل السادس والأربعون

### فنم وتشكيل اتحاد روماني - إيطالي

#### حروب السامنيث. فتح إيطاليا الوسطى

بدءا من القرن الرابع، في جنوب إيطاليا ووسطها، بسبب التطور الملحوظ للقوى المنتجة، تشكلت اتحادات حربية بين الشعوب التي كانت حتى آنذ تعيش عشائر منعزلة. وفي حوالي العام ٣٨٠، صارت جمعية السامنيث، التي تضم كل الأرض الجبلية، من شواطئ كامبانيا حتى جبل غارغانو والبحر الأدرياتيكي، قوة ضخمة. فقد نزلت فصائل المقاتلين السامنيوث الجبلية المسلحة، بحثا عن المرعى والأسلاب، إلى سهول أبوليا الخصبة واحتلت مدن كامبانيا الثرية، مثل كابو وكاموس. وانضوى العديد من مقاتلي السامنيث كمتطوعين في خدمة المدن الإغريقية (سيراكوز بخاصة) وعادوا إلى الوطن، محملين بالأسلاب، والأسلحة الوفيرة لدى اليونان ومفاهيم في فن الحرب الهليني. وفي منتصف القرن الخامس، صار السامنيث سادة إيطاليا كلها تقريبا، في جنوب فولتورنو.

لكن توحيد شعوب شبه الجزيرة كان هم دأب روما الأول، لأن بعض المدن الإيطالية، تملك الأرض الأوسع والأكثر سكانا (حوالي ٦٠٠٠ كم<sup>٢</sup>)، وتتمتع بتنظيم اجتماعي وسياسي أرقى نسبة إلى شعوب إيطاليا الأخرى. ولقد أفرز استقرار العبودية ونفوذ العوام المنعمين السياسي في روما، أفرز اختيار سياسة عدوانية. وبفضل التنظيم الرائع للجيش وعسكرة الدولة، خرجت روما ظافرة من سلسلة من الحروب الصعبة وصارت الدولة الأقوى في إيطاليا.

كان أول عمل لسياسة العدوان فتح كابو، وكامبانيا الغنية حتى حدود أرض نابولي (٣٤١). لكن غزو كامبانيا أثار أولى النزاعات المسلحة مع السامنيث. والرواية الرومانية المحاكة حول هذه الصدامات، قدمتها كأول حرب للسامنيث (٣٤٣-٣٤١). ثم انفجرت ضد روما عصيانات في كل المدن اللاتينية، بما فيها حلفاؤها السابقون. وبعد عامين من



الصراع، الذي سمي "حرب اللاتين" (٣٤٠-٣٣٨)، نجحت روما بإخضاع كل مدن اللاتيوم، المحافظة مع ذلك على صفة "الأحلاف اللاتين".

بسبب كامبانيا أيضا، اضطرت روما مرتين لمساندة صراع الرومان إلى السامنييت. وفي أثناء حرب السامنييت الثانية (٣٢٧-٣٠٤ ق.م)، اضطرت الرومان إلى نشر قواتهم حتى آخر الحدود. رغم أنهم حاربوا تحت راية ما سمي: "صناعيون وعمال"، عرف الرومان عدة نكسات وعدة هزائم. أهمها نكبة الفورش كودين *Faurches Caudine*، يوم طوق السامنييت الجيش الروماني وأكرهوه على الاستسلام، متحملا شروطا مخجلة: أجبر كل الجنود، أن يمشوا عراة تحت النير "كما الدابة، عرضة لتهكم وسخرية المنتصرين.

لكن الحرب الأكثر ضراوة كانت حرب السامنييت الثالثة (٢٩٨-٢٩٠)، في أثناءها تكتلت ضد روما كل شعوب إيطاليا الوسطى من أبوليا حتى وادي البو، وانضم إليهم الغولوا. وقد قررت معركة سانتنيوم، في أومبريا، بإنهاء القتال بانتصار روما نصرا مؤزرا. دمرت ونهبت سامنيوم بدون رحمة. وفي العام ٢٩٠ كانت إيطاليا الوسطى كلها في قبضة الرومان. انتهت الحرب بقيادة القنصل مانيوس كوريوس دنتاتوس، المفترض أنه استولى على عدد كبير من المدن لم يستطع أن يعدها كلها في تقريره أمام مجلس الشيوخ.

### الحرب ضد تارانت وبيروس. إخضاع جنوب إيطاليا

بعد فتح وسط إيطاليا، حولت الأوساط الحاكمة في روما أهدافها نحو جنوب إيطاليا، حيث كانت المدن التجارية الغنية تحافظ على هيمنتها. وبحجة مؤازرة المدينة اليونانية توريوا ضد اللوكانيان، طردت الحكومة الديموقراطية في أقوى مستعمرة يونانية في الميدي قادة الحزب الأرستقراطي، نصير إبرام حلف مع روما، وأعلنت الحرب. طلبت مساعدة بيروس، ملك إيبيريا، أحد ورثة اسكندر المقدوني، الطامح بالسيادة على البحر الأبيض المتوسط الغربي. وفي العام ٢٨٠، أبحر بيروس إلى تارانت، على رأس جيش من ٢٠ ألف رجل، محنكين ومسلحين على الطريقة المقدونية؛ وأشرك أيضا ٢٠ فيلا هنديا. فضلا عن مليشيات المدن اليونانية، ضم بيروس إليه بقايا السامنييت، اللوكانيان والبروتيان فبلغ تعداد جيشه قرابة ٤٠ ألف مقاتل. قاتل، قرب هراكليه، قوات القنصل ب. فالريس لافينيوس ووصل إلى أبواب روما. لكن الوقت توفر للرومان ليدعموا السوقات العسكرية من أتوري، وجندوا حتى البروليتاريا، واضطر بيروس أن يقاتل وهو يتراجع إلى أبوليا.

ودارت معركة أخرى في العام ٢٧٩ في أسكولم؛ انهزم فيها الجيش الروماني وتكبد خسائر جسيمة، حتى أن بيروس اعترف بهذا، وقال: "إن كنا حققنا نصرا آخر كبيرا... فقد فقدنا ما لا يمكن تعويضه".

استنادا إلى بلوتارك (بيروس، ٣٣) كان المعاصرون يشبهون هذا الملك "بمقامر يقود أسعد الضربات لكنه لا يعرف كيف يفيد من ثروته". وظلنا منه أنه ساد إيطاليا، وعوضا من أن ينهي القتال ضد روما، سارع ليشرع بغزو سيسيليا. صرف هنا ثلاثة أعوام. لم يفعل شيئا سوى كسب أعداء جدد من قرطاجة كانوا قد عقدوا حلفا مع روما. ولما عاد بيروس إلى إيطاليا، في العام ٢٧٥، أنزل به الرومان المتأهبون جيда هزيمة حاسمة على حدود سامنيوم الجنوبية، قرب بينيفانتن فاضطر أن يعود إلى اليونان حيث قتل في مغامرة جديدة. واستسلمت فلور جيشه، الذين لجؤوا إلى تارانت حيث حوصرت برا على يد الرومان وبحراً على يد الأسطول القرطاجي، (٢٧٢). وهكذا أنجزت روما فتح إيطاليا. ولتوطيد موقعهم في جنوب شبه الجزيرة، قاتل الرومان على الشاطئ الشرقي لكلاير الميدان الأقوى والأمنع لبروندزيوم، الذي انضم إلى عاصمتهم بطريق الحرب، وأسسوا فيه مستعمرات قوية.

### الاتحاد الإيطالي في عهد سيطرة روما

أخضعت روما إيطاليا، لكنها لم تنظمها بدولة واحدة. فقد تكونت هي ذاتها على مبدأ المدينة القديمة ("حاضرة")، بشكل جمعيات قبلية مدنية وريفية، فوحدت إيطاليا على نفس المبدأ، بنهج اتحادي شديد التعقيد، استناداً إلى معاهدات فرضها المنتصر.

كانت شروط هذه الوفاقات تختلف، حسب ظروف كثيرة (حزم المقاومة، الموقف المعادي أو بالعكس، الصديق تجاه روما في تلك الأيام، إلخ). كان الشكل الأنسب "اتفاق على قدم المساواة"، ينص على احتفاظ المتعاقدين بكامل استقلالهم، عدا إعلان الحرب ودبلوماسية خاصة. وطبقت هذه الشروط على المستعمرات اليونانية، والعديد من المدن الأتروسكية، وبعض حاضرات لاتيوم، المرتبطة بروما بمعاهدات سابقة. بعكس السلمنية، اللوكنيان، الإبروتيان الذين انتزع منهم ثلث بل نصف أراضيهم، ومنعوا من إقامة أي علاقة خارجية مع الشعوب الأخرى. وحافظوا على عاداتهم وشرائعهم لكن روما اشترطت أن يكون أنصارها من حكامهم المنتخبين من صفوف الأرستقراطية. وعلى الأرض

المصادرة من المنهزمين، أقامت مستعمرات عسكرية، يسكنها مواطنون رومان أو "متحدون لاتين" متميزون. وهكذا، رغم إعطائهم صفة الحلفاء، لم يعاملوا إلا كأرقاء. بين "الاتفاق على قدم المساواة" وشروط "الحلفاء" الأتباع، ثمة عدد من الدرجات الوسيطة؛ فضلا عن هذا، احتفظت روما بمراجعة المعاهدات لمصلحة الأكثر خضوعا والأكثر حرمانا، لإعطائهم شرطا أفضل، وأحيانا نفس حق المدنية الرومانية. ساهمت هذه السياسة "فرق تسد" إلى إرساء سيطرة روما في الحلف الذي أسسته في إيطاليا. ووزعت أسهما من الأرض في المستعمرات، على الفلاحين الرومان المحرومين. على أن يحق لأغناهم أن "يشغل"، أي يستأجر من الدولة، البقاع غير الموزعة من الأرض المحتلة، وهكذا تشكلت حقول واسعة (للتدجين بخاصة، في جنوب إيطاليا). وهكذا، ندرك أن الشرائع الغفيرة من المجتمع الروماني وحتى شريحة الفلاحين في مجملها ساهمت في الفتوحات، بالتهب، بتدمير وإبادة الشعوب والقبائل الأضعف، وأن الـ"وحدة" ذاتها جعلت من هؤلاء الأخيرين رعايا روما.

## الفصل السابع والأربعون

# الصراع بين روما وقرطاجة من أجل الهيمنة على غرب البحر المتوسط

روما في بداية القرن الثالث ق.م

لقد جعل فتح إيطاليا من روما واحدة من أقوى دول البحر المتوسط وواحدة من العناصر الأهم والأبعد نفوذاً في السياسة العالمية لذلك الزمن. في العام ٢٧٣، أرسل ملك مصر بتولميه فيلادلف إلى روما بعثة لتعرض لديها صداقته وتحالفه وفي العام نفسه أبحر السفراء الرومان لأول مرة إلى الإسكندرية، لرد هذه الزيارة .

فضلاً، عن هذا، أمن امتلاك المدن التجارية الكبرى لشبه جزيرة الأيبينيين (كابو، نابولي، تارانت وغيرها)، ومنع الحلفاء من التجارة المباشرة فيما بينهم، للتجار الرومان احتكار التجارة الوسيطة لكل إيطاليا. فظهر تعاقد المبادلين الذين، خلاف عمليات النقود، كانوا يهتمون أيضاً بالاعتمادات والربى؛ وتجار المواشي، ومالكو القطعان الوفسيرة التي ترعى تحت رقابة رعاتهم العبيد، في المراعي، أكثروا الحقول العامة، في أبولي، لوكانيا وبريتيوم، والتجار الذين احتكروا التجارة الخارجية وصدروا إلى اليونان بخاصة القديد، الصوف والجلود، التي كانت تتاجر بها سابقاً المدن اليونانية في جنوب إيطاليا.

كان هؤلاء التجار والصناعيون الجدد، وقد وعوا أهميتهم، يسعون إلى توجيه السياسة الرومانية نحو مصالحهم. هكذا، حاول أحد أنصارهم، المراقب أبيوس كلوديوس في العام ٣١٢ أن يؤمن لهم الدور الأهم في مجلس الشعب الروماني: أعاد توزيع سكان العاصمة بين كل القبائل الرومانية، بحيث جعلهم سادة الاقتراع. صحيح أن هذا الإصلاح قد ألغاه خلفاؤه المباشرين، لكن الاضطرابات الشعبية للعام ٢٨٧ أجبرت مجس الشيوخ أن يقر قانون هورتانزيا، الذي بموجبه يتخلى عن حق تصديق قرارات المجالس القبلية، التي كانت العناصر التجارية والصناعية تمارس عليها مع ذلك تأثيراً متزايداً. فكانت هذه

القرارات منذ صدور ما تكسب قوة القانون بدون مصادقة مجلس الشيوخ.

بسبب انطلاقة اقتصادها، تركت روما في العام ٢٦٨ نقدها البرونزي الذي لايلائم إلا المبادلات المحلية، لتختار معيار الفضة المستخدم لدى اليونان. كان ضرب النقد يتم في أقبية معبد جونومونيتا ("المنذرة") ومن هنا كان اسم النقد. وصار الدرهم الفضي، حامل صورة الإلهة روما، الوحدة النقدية. لهذا السبب حفر عليه رقم ١٠، وكلمة *denarius* ذاتها تعني "١٠ أس". وفي مصلحة الأوساط التجارية والصناعية، بسط أبوس كلوديوس كثيراً الأبجدية اللاتينية فجعلها أنسب لتدوين العمليات التجارية، ونشر مولا سينيوس فلافيوس صيغ الأحكام القضائية، التي بقيت حتى آئتد سر الأحبار.

في النصف الأول من القرن الثالث ق.م. حاز ممثلو هذه الفئة التجارة قوة مكنتهم من أن يفرضوا على روما، مباشرة بعد احتلال إيطاليا، أن تدخل في صراع ضد الخصم العنيد في حوض غرب المتوسط، أي المستعمرة السابقة الفينيقية قرطاجة. ولقد سمي لينين الحروب الفينيقية أو القرطاجية، من أجل السيطرة على غرب المتوسط، حروباً إمبريالية قديمة، لأنها نجمت من نزاع المصالح بين الأولغارشيات الاستعمارية والغازية في روما وقرطاجة، وسببت استعمار التناحر غير المعروف قبلاً، وأفضت إلى دمار ونكبة الجماهير الشعبية في الدولتين المتحاربتين.

### قرطاجة

أسست في القرن التاسع قبل الميلاد، وهي المدينة الفينيقية، أو "المدينة الجديدة" الشاغلة موقعا مناسباً بشكل استثنائي على شبه جزيرة يفصلها برزخ عن القارة الأفريقية. لها مرفأ رائع مؤلف من حوضين: خارجي مخصص للتجارة، وأرصفت للسفن التجارية، وداخلي، مجهز لاستقبال ٢٢٠ سفينة حربية، فيه عدد من المستودعات أو الأرصفة والرسائات، وبيوتها الطابقية، التي تؤوي الدكاكين والمخازن، كانت محمية، هي والمرفأ، بسور منيع. يقدر كتاب العهود القديمة (بوليب، سترابون) سكانها بـ ٧٠٠٠٠٠ نسمة، تقدير مبالغ بعض الشيء، كما يبدو.

على أساس اقتصادهم البحري الواسع، كان القرطاجيون قد أسسوا إمبراطورية ضاربة تجارية واستعمارية، تشمل كل شواطئ وجزر البحر الأبيض المتوسط الغربي كانت قد فصلت مستعمراتها ووكالاتها في أفريقيا (ليبتي، أوتيل، تالسبوس)، على شاطئ

مراكش الحالي، في جنوب إسبانيا (غادس، وغيرها)، في سيسيليا الغربية (بانورم، دريبان، ليليبى)، في كورسيكا، في سردينيا والبليار. كانت حكومات قرطاجية تدير شؤون الشعوب الملحقة، فبرزخ المشروع، وجراً ومهارة البحارة الفينيقيين، صبوا في مدنهم ثروات طائلة: العبيد السود، شوائب الذهب، عاج الشاطئ المحيطي لأفريقيا الغربية، تصدير بريتانيا، وعنبر بحر الشمال. كان بوليب يرى قرطاجة أغنى مدينة في العالم.

وللدفاع عن امبراطوريتها وتوسيعها، كانت قرطاجة قد خلقت جيشاً رائعاً، مكوناً جزئياً من سوقات أبناء البلد (لوميد، ليبان)، جزئياً متطوعين، مجندين من الشعوب شبه البربرية: ليغور، سيلت، سامنيت ("كامبانيان"). كانت هذه الجحافل، بقيادة القرطاجيين مجهزة جيداً ومعززة بعدد كبير من فيلة الحرب. وكانت البحرية الحربية رفيعة الإتقاد. كان القرطاجيون أول من بنى سفناً ضخمة بخمسة صفوف من المجاذيف ("الـ"فهود")، أوسع وأسرع بكثير من الثلاثية اليونانية.

في قرطاجة، كانت السلطة السياسية بيد نفيف من الأثرياء مالكي العبيد، من التجار ومالكي الأرض، لأن الزراعة كانت أيضاً تلعب دوراً هاماً في الحياة الاقتصادية لهذه المدينة: كانت تمتد في وادي بغيرادس الخصب حقول واسعة تستخدم بخاصة العمل الرقيق. من هنا، طبع الجزء الأكبر من تاريخ قرطاجة الداخلي بالصراع بين الطرفين، التجار والزراع، الذين لا يترددون أمام أي سبيل من أجل الاستيلاء على مراكز متقدمة. يؤكد أرسطو (السياسة، ٢، ٨، ٥-٦) بهذا الصدد أن كل الخدمات كانت تتم في قرطاجة. كان "مجلس الخمسة"، يمارس السلطة الدكتاتورية، إلى جانبه محكمة الرهيبية المؤلفة من "مئة قاض"، الذين كانوا عملياً مرتبطين بالحكام الكبار - "الملك"، وكان يتألف مجلسهم الأعلى من ثمانية وعشرين عضواً، والقائد العام - كانوا مختارين من صفوف أغنى الأسر (كانت أسرة ماغون أغناها وأوسعها نفوذاً). وكان مجلس الشعب مقتصرًا على التعبير عن الغضب الشعبي. ولتبرير أعمال حكامهم اللا-إنسانية، كان الكهنة يوجبون الشعب: يقدمون للربة تانين (استارتيه الفينيقية)، الأضاحي من العبيد، والمساجين، والمجرمين وتقدم الذبائح لبعل (مولوش)، برمي الجثث في شدة الوثن المعبود المتائب؛ ويستبدل الأغنياء أبناءهم بأبناء الفقراء (بلوتارك، "في الخرافة"، ١٣). وقد استمرت التضحية البشرية عند القرطاجيين مدة أطول ما لدى باقي الشعوب.

لقد وصل اضطهاد القبائل والشعوب الملحقة حداً لا مثيل له سابقاً له. والضرائب

المفروضة على الليبيين (سكان أفريقيا الأصليين) تعادل نصف دخل الفلاحين. وكان العبيد يشكلون واحدة من أهم سلع الاقتصاد القرطاجي، مما دعا لتقليب الفينيقيين بـ"مطاردي الإنسان"، وكانت اليد العاملة العبدية مستخدمة أيضاً في كل مجالات أغنياء أفريقيا وسيشيليا. إذن كانت العلاقات الاجتماعية متوترة جداً في قرطاجة. وفضلاً عن المعلومات التي تصلنا حول الصراع بين الزمر الأولغارشية، يحدثنا الباحثون القدماء عن إضرابات "الرعاع" الكثيرة، أي الكادحين بشرط حر، والعبيد، والجنود.

كانت التناقضات الاجتماعية الداخلية تشكل النقطة العطوب في الدولة القرطاجية المبنية على العبودية. لم تبلغ هذه التناقضات بعد أوج احتدامها في روما، آنئذ، بل كانت بنيتها الاجتماعية أكثر تجانساً لبدائيتها.

### الحرب الفينيقية الأولى (٢٦٤-٢٤١)

استمرت العلاقات بين روما وقرطاجة علاقات صداقة وتفاهم مادامت العناصر الزراعية مهيمنة في روما ومادام للدولتين أعداء مشتركون في شخص اليونان والأثروسك. لكن مع تطور التجارة الخارجية الرومانية، بدأت هذه العلاقات بالتفاهم. وبدأ التجار والصناعيون الرومان بخاصة يقلقون من طاقة القرطاجيين وتنامي دولتهم، فقد كانوا بعد هزيمة بيروس في سيشيليا، قاب قوسين من احتلال الجزيرة كلها. لذا بدأ ميدان روما يضطرب لدى انتشار الخبر الجديد أن المدينة السيشيلية لسينا، المهيمنة على المضيق بين سيشيليا وإيطاليا، سقطت بيد القرطاجيين في العام ٢٦٥ ق.م. سابقاً، ففي حوالي العام ٢٨٠ ق.م، احتلت عصابة من المرتزقة السامنيث (الـ"مامرتن" أو أبناء مارس-آذار، كما كانوا يسمون) هذه المدينة، في طريق العودة من سيراكوز. وخوفاً من انتقام طاغية سيراكوز، هيرون الثاني، طلب المامرتن عون القرطاجيين، الذين كانوا قد وضعوا حامية في مسينا، وصاروا عملياً سادة المدينة والمضيق.

وتحت ذريعة موازنة المواطنين الطليان، في وضعهم الحرج، تدخل أبيوس كلوديوس، ابن الأسرة المتنفذة، وسيد التجار والصناعيين، "في قضية مسينا" ونجح في جعلها حالة حرب. ورغم إرادة مجلس الشيوخ، أوكّل مجلس الشعب القنصل أبيوس كلوديوس بـ"إنقاذ" مسينا. قاد هذا الأخير القضية بثورة عارمة وهبته في أوساط مجلس الشيوخ لقب "رأس الأحرار": فرض على القرطاجيين سحب حاميتهم من مسينا، وبدون

إعلان الحرب، خاض عمليات حربية ضد سيراكوز والقرطاجيين. انتقل هيرون على عجل إلى جانب الرومان ودخلت قرطاجة في نزاع مفتوح ضد روما (٢٦٤). يعطى بوليبيس رواية ألقّة وتفصيلية لهذه الحرب في الكتاب الأول من عمله "في التاريخ".

بدأت الحرب بصورة موفقة جدا لصالح لرومان الذين صاروا بسرعة سادة سيسيليا أهم مدن اليونان. ومع ذلك، لم ينجحوا في احتلال حاضرات رئيسية قرطاجية منيعة: بانورم، دربان وليليبي، حيث اضطروا لانتظار هجوم القرطاجيين المعاكس. والستزمت روما إذن ببناء أسطول حربي ضارب من ١٠٠ سفينة-فهد. جهز الرومان مراكبهم بعبارات عائمة، في أطرافها كلابات، تتشبث بجوانب السفن العدو، الأمر الذي خولهم القتال على ظهر السفن، لأنهم لم يتكلموا على مناورات بحارتهم غير المحنكين. وبفعل هذا التكتيك الذي فاجأ القرطاجيين، أنزل القبطان س.دوليوس، على رأس هذا الأسطول، هزيمة منكرة بالبحرية القرطاجية، في مياه جزر ليباري، قرب ميبس الجزيرة السيسيلية. فمنحه مجلس الشيوخ وسام النصر، وعلى شرف هذا النصر البحري الأول، رفع في الميدان العام عمود النصر الحيزومي، وزين بمهاميز السفن العدو المدمرة.

لكن الرومان بالغوا في تقدير نجاحاتهم. فبعد إنزال هزيمة أخرى بالأسطول القرطاجي، في رأسينوم، قرب ثغر هيمير على الشاطيء الجنوبي لسيسيليا (٢٥٦)، أبحر إلى أفريقيا جيشان قنصليان (حوالي ٥٠ ألف رجل)، ودمرا الأرض القرطاجية المزدهرة حتى مجرى باغرداس. وأرسل من هذه الحاضرة ٢٠ ألف إنسان كعبيد. لكن الجنود الفلاحين الذين تعاني أرضهم من هذه الرحلات الطويلة، الأمر الذي فرض عليهم ألا يتركوا في أفريقيا سوى ١٥ ألف رجل وأربعين مركبا حربية بإمرة القنصل م.أتيولوس رغولوس، وهذا بدوره مكن القرطاجيين، بعد تجنيد مرتزقة جدد، من سحق جي رغولوس الصغير.

وليطفح الكيل وتتفاقم المأساة، غرق الأسطول الروماني المؤلف من ٣٦٠ مركبا، في أثناء محاولته موازنة ما تبقى من قوات روغولوس، قبالة شواطئ سيسيليا في طريق العودة. وفي العام ٢٤٩ ق.م، ولدى محاولة احتلال دربان، وبعد أعمال قاتلة الطائشة، وقع لواء القنصل ب.كلوديوس بولشركله بين يدي القرطاجيين. وهكذا بلغت خسائر الرومان إجمالا ٧٠٠ سفينة-فهد، فاضطروا إلى التنازل عن سيادة البحر.

بدأت السفن القرطاجية باحتلال الشواطئ الإيطالية، وكان عليها أن تبني على الساحل



الأثروري سلسلة من المستوطنات المنيعه.

ومن العام ٢٤٩-٢٤١ ق.م، كانت كفة السلاح تميل إذن نحو قرطاجة، وكان الرومان يذوقون أيضا الفشل في سيشيليا. دام حصار دريبان وليليبييا طويلا، ونهض يونان من الحزب الديموقراطي من مدن الشط الغربي لتعزير حامياتهم. وكان القائد الأعلى القرطاجي أمكار باركا ("البرق") قد قطع كليا مواصلات الرومان، محتلا على جبل إيريكس وضعا منيعا، على أواخر المدن التي يحاصرونها. لم يرسل مجلس الشيوخ نجدات أخرى إلى سيشيليا، لأن الخزينة كانت فارغة. وكان الفلاحون الرومان منذ زمن قد أضنتهم الحرب وخربت وضعهم حتى بدوا وقد ضاعوا.

آنذ عمر التجار والصناعيون، الذين أثاروا هذا النزاع والذين كانوا في رأس المستفيدين من حصيلته، وسلحوا على نفقتهم، وبالهبات الفردية والاكنتاب التعاوني، أسطولا جديدا من ٢٠٠ سفينة سريعة من نموذج جديد. وفي العام ٢٤١، أبصر القنصل س.لوتاتيوس كاتولوس على رأس هذا الأسطول وأنزل هزيمة نكراء بالأسطول القرطاجي في جزر آغات: أغرقوا ٧٠ مركبا معاديا وأسروا ٥٠، وقطعوا دريبان وليليبييا عن العاصمة، فاستسلما، وخضعت قرطاجة لبدء مفاوضات مع المنتصرين.

بنصوص معاهدة السلام للعام ٢٤١ ق.م، التزمت قرطاجة بالتخلي عن ممتلكاتها البرية في سيشيليا وكذلك في الجزر الشاطئية، ودفع غرامة ٤٢٠٠ تالانت خلال عشر سنوات، وإعادة بدون فدية جميع المسجونين الرومان وعدم تجنيد بالتالي مرتزقة آخرين في إيطاليا. وصارت سيشيليا الغربية أول "ضاحية" لروما، وتفتح بحار الغرب من الآن أمام بحرية الحرب والتجارة والمشاريع العسكرية والتجارية الجديدة.

### قرطاجة وروما بعد الحرب الفينيقية الأولى

أضعفت هذه الحرب الخاسرة قرطاجة بحيث لم تستطع الإنفاق على انسحاب ٢٠ ألف جندي من جيشها من سيشيليا. ولقد تمرد هؤلاء المرتزقة التائهون على وجوههم (٢٤١). وانضم إليهم أبناء البلد الأصليون (الليبيون) المستغلون بشراسة وعبيد المزارع القرطاجية، بحيث بلغ عدد العصاة قرابة ١٠٠ ألف رجل. وبعد احتلال أوتيكا، حاصروا قرطاجة. أبادوا عذابا وتنكيلا كل السجناء القرطاجيين، قطعوا أيدي الأغنياء الليبيين، أنصار قرطاجة، وأرسلوهم هكذا إلى هذه المدينة. كان قادتهم، الليبي ماتوس والعبد سبانديوس،

يتمتعون بشعبية واسعة. أدرك أعداء المدينة هيرون ومجلس الشيوخ طبيعة هذا التمرد الطبقي، فهبوا لمؤازرة الحكومة القرطاجية: بإرسال المؤن، بالسماح بتجنيد مرتزقة جدد من الشعوب الإيطالية. دام هذا العصيان ثلاث سنوات وأبيد بوحشية (في العام ٢٣٨ ق.م). وأتت الضربة النهائية للتمرد على يد أملاكار باركا، المدافع المظفر عن سيسيليا. قبض على سبانديوس الآتي كمفاوض وأمر بصلبه، وسحق الليبيين والعبيد الذين بقوا بدون قائد؛ وقضى على مقاومة يائسة، قاتل وسجن ماتوس، الذي سلم إلى العذاب والتتكيل في قرطاجة. كتب بوليب "حرب المرتزقة" بالتفصيل، ورآها أشرس من كل الحروب المعروفة، وهذا طبيعي لأنها ارتدت الخاصة الطبقية بكل وضوح.

بعد الانتصار على المرتزقة، كلف أميلكار بإقرار سلطة قرطاجة في محيطها الغربي وأن يخلق في إيبيريا (إسبانيا) قاعدة قوية إعدادا لحرب جديدة مع الرومان. أنجز أميلكار بنجاح هذه المهمة؛ احتل مناجم سيرانيافادا، وبعد إخضاع جبلي إيبيريا، جند منهم جيشا من ١٥٠ ألف مقاتل. وعندما قتل في معركة خاسرة، تابع صهره أسدربال الإعداد للحرب. وشيد قرطاجة جديدة (قرطاجنة)، فصارت الميدان الأمنع في الدولة الأسبانية. قرابة ٢٠ ألف عبد للعمل في مناجم فضة المنطقة. وجذرا من بقطة الرومان، عقد أسدربال معهم معاهدة جعلت إيبير حدا لمناطق نفوذ الدولتين: والتزم القرطاجيون بعدم تخطي شمال هذا النهر.

في روما، وضع النصر على قرطاجة، الذي أثرى عددا كبيرا من الخاصة، على جدول أعمال السياسة الرومانية وفتح أراض جديدة خلف البحار. لابل رأينا بين الأرستقراطية الحاكمة شيوخا تولوا شخصا التجارة، أو بواسطة المحررين الذين يديرون أعمالهم. وهكذا احتلوا في العام ٢٣٨ ق.م سردينيا وكورسيكا، اللتين انضمت حامياتهما إلى جانب المرتزقة القرطاجيين المتمردين في ليبيا. واستخدم السادة الجدد الكلاب البوليسية لاصطياد الناس، ومطاردة أبناء الجزر الذين بيعوا فيما بعد عبيدا. وفي العام ٢٢٩، بذريعة مكافحة القراصنة الإيليين، احتل أسطول روماني كورسير، وصفت قوات بريّة مملكة إيبيريا، التي تحكمها الملكة توتا، وجعلوها ترسانة أسلحة في شمال شبه جزيرة البلقان.

أورثت هذه السياسة الخارجية للأوساط التجارية والصناعية معارضة جماهير الفلاحين ووسعت نفوذ الحزب الشعبي الجديد. تبنى هذا الحزب إصلاح اللجان المؤوية

بحيث يكون لكل طبقة ٧٠ مئوية تصوت. وبالتالي، صارت الطبقة الأولى أقلية، أي لها كلها (مع الفرسان) ٨٨ مئوية مقابل ٢٨٥ للطبقات الأخرى (عوضا عن ٩٨ ضد ٩٥، حسب التوزيع السابق). وهكذا انتقلت قضايا السلم والحرب، أي توجه السياسة الخارجية، وكذلك انتخاب الحكام الكبار، إلى أيدي الطبقة الوسطى. وبدأ صغار ومتوسطو مالكي الأراضي يضعون في السلطة ممثلهم الذين يعملون لحيازات عقارية في إيطاليا والإعمار الزراعي. وفي العام ٢٢٣، اقترح المحامي العام الشاب س. فلامنيوس "الرجل الجديد" قانونا يوزع على الفلاحين الأراضي الواقعة شمال بيسنوم، التي يعود فتحها للعام ٢٨٠. كان المستفيدون من هذا التوزيع كثرا فتوجب تخصيصهم بقبيلتين جديدتين (٣٤ و ٣٥).

وفي العام ٢٢٣، انتخب فلامنيوس قنصلا وبدأ بتنفيذ خطة فتح الغول سيزالين بدعم من الحزب الشعبي بغية طرد وإبادة الغول وإقامة على أرضهم مستعمرات رومانية. أعلن فلامنيوس عليهم حربا موفقة انتهت باحتلال مدينتهم الرئيسة مديولنوم (ميلانو)، وتشكيل الإيالة الرومانية من غول سيزالين. وأسس فلامنيوس في حوض البو عدة مستعمرات (بلاسانتيا، كريمون)، خصص سكانها بأرض واسعة ٣٠ سهما للأسرة. ضمت "فيافلامنيا" هذه المستعمرات إلى روما.

في العام ٢١٨، تبنى قائد شعبي آخر، كلوديوس للجمعيات الشعبية قانونا حمل اسمه، منع الشيوخ من مزاوله التجارة وامتلاك بواخر ضخمة تجارية. مر هذا القانون لكن، بعد أن أثار غليانا عاما، رغم أنه لم يوافق عليه في مجلس الشيوخ سوى فلامنيوس.

تحققت في هذه الحقبة من الزمن تبدلات عميقة، صححت النظام السياسي والاجتماعي القديم في روما، ليكون في المسار الديموقراطي الأكيد. ولهذا السبب نفسه، أمكن ظهور وسيلة في مجلس الشيوخ، قلعة النبلاء الذين رأوا الأرض تميد تحت أقدامهم، لتحويل اهتمام الجماهير الشعبية من الشؤون الداخلية إلى القضايا الخارجية. لذا سارعت الدبلوماسية الرومانية إلى بدء الحرب الثانية ضد قرطاجة التي نشبت في العام ٢١٨، أي عام إقرار مجلس الشيوخ قانون كلوديا.

### الحرب الفينيقية الثانية (٢١٨-٢٠٨)

في العام ٢٢١ ق.م، استغل مجلس الشيوخ موت أستروبال، الذي قتله وطني اسباني، وفسخ المعاهدة التي عقدها مع هذا الجنرال، وأخذ تحت حمايته المدينة الغريكو-إيبيرية

ساغونت، الواقعة في جنوب نهر الايبر. وكان هانيبال ابن ميلكار قد سمي وهو في الخامسة والعشرين ربيعا، قائدا أعلى للجيش القرطاجي في إسبانيا. وقد جعله أبوه يقسم، وهو طفل، أن يكن حقا دينا أبديا للرومان. كان هانيبال قد تلقى تربية رائعة على يد أساتذة يونان، وسرعان ما صار قائدا لامعا. ولقد ترك لنا نيت-لايف (٤،٢١) صورة متقنة لهذا الرجل الفريد، تجسد كما يقول، المكر والفظاظة الفينيقية، العدو الأزرق لروما؛ وهذا ما يثبتته لنا بوليب (٣،١)، الذي كان، مع المؤرخ الروماني، مرجعا الرئيس لدراسة الحرب الفينيقية الثانية. اختلق هانيبال ذريعة لإعلان الحرب، ومشى إلى ساغونت واحتلها بعد حصار دام ثمانية أشهر ثم باع كل من بقي حيا وأرسل جزءا هاما من الأسلاب إلى قرطاجة لتوزع على الأشخاص المتنفذين. فأرسل الرومان على عجل سفيرا إلى قرطاجة بغية تسليمهم هانيبال كمسؤول عن "العنف الواقع على حلفاء الشعب الروماني". رد "مجلس الشيوخ" القرطاجي بالرفض وأعلنت روما الحرب على قرطاجة (٢١٨ ق.م.).

اعتمد مجلس الشيوخ الروماني على نصر سريع وحاسم؛ هيا نزولا في إفريقيا ليهزم قرطاجة. لكن هانيبال أفسد كل خطط الرومان، إذ سار برا إلى إيطاليا (في ربيع ٢١٨)، على رأس جيش محنك، يعد ٩٠ ألف ليبي وإيبيري مشاة، ١٢ ألف فارس وعددا لجبا من الفيلة. اضطر، وهذا صحيح، أن يشق طريقه بالسيف، عبر المناطق غير الخاضعة في شمال إسبانيا، وفتح معبرا بالقوة، والتهديد والترغيب على طول ساحل الغول *la Gaule* الجنوبي. بلغ هانيبال الرون بجيشه بعد أن خسر نصف مراكه، وليس إلا في نهاية أيلول حتى شرع بعبور جبال الألب العقبة الكأداء، في فصل يجعل المضائق غير سالكة؛ وخسر هنا جمهرة من الجند والمطايا لسقوطهم من سفوح الجبال المغطاة بالثلج. وبعد ١٥ يوما، نزل الجيش في سهول الغول سيزالين، ولم يبق مع هانيبال سوى ٢٠ ألف جندي مشاة، ٦ آلاف فارس وثلاثة فيلة. لكن السيلت المنضمين إلى روما وقفوا على الفور بإمرتهم. وبعد أن دحر طليعة الرومان في تيسين، اجتاز سهل البو، وعلى ضفاف تريبيان في كانون الأول ٢١٨، هزم جيوش القناصل تيبيريوس سامبرنيوس وف.كونليوس سيبيون اللذين سارعا لصدده.

أثارت خسارة غول سيزالين وكل المكتسبات الأرضية الأخرى التي حققها الحزب الشعبي خلال السنوات السابقة، في روما، هيجانا عارما، وتجدد الدفاع عن مصالح الشعب.

وفي العام ٢١٧، انتخب حظي الشعب س.فلامينوس قنصلا، وتلقى رغم أنف مجلس الشيوخ، قيادة الجيش المتمركز في أرتيوم، لحماية طريق روما.

لكن هانيبال قلب المواقع التي يحتلها الخصم في هذه المنطقة الجبلية. ففي أثناء أربعة أيام اجتازت قواته المستنقعات المعتبرة متعذرة الاحتلال من توسكانيا، بثمن باهظ من الرجال والرواحل (نفق آخر فيل وفقد هانيبال عينه)، لكنهم نفذوا أخيرا إلى مؤخرة الجيش الروماني وإلى درب روما الذي فتح أمامهم. سارع فلامينوس لمصاولة العدو، لكنه وقع في الكمين الذي نصبه له القرطاجيون، في المضيق القائم بين بحيرة ترازمين والجبال التي تحيط بها؛ وهنا نفق مع جيشه (٢١٧). لم تكن هذه النكبة الثانية للرومان فقط، بل هزيمة للحزب الشعبي.

على ذلك، عوض أن يسير هانيبال فورا إلى روما، شرع أولا بتمزيق الحلف الروماني. سار ساحل الأدریاتيك كله، تقدم إلى لوكانيا، ثم، عن طريق سامنيوم، نفذ إلى كامبانيا، معلنا أنه محرر الشعوب الإيطالية، وأنه أتى ليحطم النير الروماني. في طريقه، كان يحطم بلا رحمة كل المستعمرات والحاضرات الرومانية واللاتينية. ولم يتأخر الدكتاتور كونتس فابيوس، خالق مجلس الشيوخ، عن التحول إلى عدو أزرق للشعب، بسبب تكتيكه الذي أقر بكل حذر ويقظة؛ متجنباً الالتزامات الحاسمة، كان يكتفي بمطاردة العدو، مناورا بموازاته على دروب الجبل، تاركا مزارع المستوطنين الصغيرة لقدرها، في السهل والوديان. مدينا بتكتيه هذا إلى لقبه ("المخاثل").

وفي العام ٢١٦ ق.م، انتخب ل.إميلیوس بولوس، أحد أعضاء مجلس الشيوخ، وس.ترنتیوس فارو، ممثلا للحزب الشعبي. أهمل مجلس الشيوخ مطالب الشعب وأمر القناصل بفتح معركة حاسمة. لكن الخلاف كان يسم العلاقة بين القنصلين، وبدأت المعركة بأوضاع ليست لمصلحة الرومان، في وادي أوفدوس، قرب كانس (في وسط صيف ٢١٦). في كانس، سحب هانيبال جزءا من تفوق فروسيته، وبفضل المواقف الحاذقة، حاصر وأباد تقريبا جيشا كاملا من الرومان يعد قرابة ٨٠ ألف رجل. ولم ينج سوى القنصل فارون وبعض جنوده من الحصار.

بعد كانس أضحى وضع روما مأساويا. انتفض الغولوا السيزالبيين جماهيريا وأبادوا القوات الرومانية التي كانت قرب أمنيوس. وفي الجنوب، انفصل السامنييت، اللوكانيان،

والبروتيان عن روما. وانتقل عدد ضخم من اليونان الكبرى إلى جانب هانيبال؛ كابو، بالذات، خانت روما. وأبحر جيش قرطاجي من ٢٥ ألف رجل إلى سيسيليا، احتل أغرجانت ودعم الانتفاضة في سيراكوز التي، في العام ٢١٤ ق.م، شكلت قضية مشتركة مع قرطاجة. ومملك مقدونيا فيليب الخامس، انضم نهائيا إلى هانيبال، وهاجم المواقع الايليرية للرومان. وفي إسبانيا، حطم أسدروبال، أخوه هانيبال، جيشين رومانيين بقيادة بوبليوس وسنيوس سيبون. وفي العام ٢١١، شن هانيبال، بمساعدة مادية من قرطاجة هجوما على لاتيوم ووصل حتى روما: قرب باب كوللين، أطلق أول حربة في هذه المدينة، دلالة على حقه. وبدأت الدولة الرومانية تشارف على الانهيار.

لكن روما نجت مرة أخرى بفعل تضحية وبقطة شعبها الكادح. فبعد كانس، خمدت المعارضة الشعبية. نهض كل الرجال السليمين بدءا من الـ ١٧ ريبعا، بين الرومان، وبقي الحلفاء مخلصين. وفي العام ٢١٤، امتلكت روما ١٨ فرقة. وجندوا أيضا ٨٠٠٠ عبد متطوع، شكلوا فرقتين. وبرهنت الحكومة الرومانية يومئذ عن بقطة وتبصر كبيرين في التعامل مع قواتها المقاتلة. واعتبر تكتيك فابيوس كونكتاتور في المماثلة نموذجا.

اقتداء به، أوجز القادة الرومان مهمتهم في إبعاد هانيبال عن تحقيق خطته الأساسية: حل الحلف الإيطالي وتوحيد أعداء رومان في حلف آخر؛ وهكذا بعزل جيش هانيبال المنهك، بمنعه من كسب تعزيزات جديدة ومناهل جديدة، حسب الرومان أن يروا هذا الجيش مفككا وغير قادر على خوض حرب طويلة.

تطلب الأمر من روما عشر سنوات، من ٢١٥-٢٠٥، لتحقيق خطتها الآجلة، شديدة التعقيد، والتي ضربت بقسوة اقتصاد إيطاليا. خلال السنوات الخمس الأولى، ٢١٥-٢١٠، نجح الرومان بتوطيد مواقعهم في شبه الجزيرة، خلف خط من المستعمرات المنيعة القائمة على طول مجرى ليريس، ثم التقدّم نحو كامبانيا وسامنيوم. وفي العام ٢١١، أخذوا كابو والمدن الأخرى من كامبانيا التي تغيبت وسقطت بعدئذ. وذبح جميع حكام المدن المتمردين أو سلموا للتكبل، وبيع القسم الأكبر من الناس بالمزاد العلني، ونقل من بقي إلى أتروريا. وتحرك خط الدفاع الروماني بعدئذ إلى حدود أبوليا ولاكونيا، بحيث وجد هانيبال نفسه محاصرا أخيرا في جنوب إيطاليا.

في ذات الوقت أرسلت قوات كبيرة إلى سيسيليا. وعقد القنصل م. كلوديوس مرسوس

معاهدة مع سكان الجزيرة القدماء، السيكل، الذين كانوا يكرهون اليونان، مستغليهم، ودخل سيراكوز. أدار الحملة ووجهها عالم الرياضيات الشهير أرخميدس، ولم تحتل المدينة إلا بعد حصار دام سنتين، في العام ٢١١: نشر المنتصرون هنا مذبة رهيبة ونهبوا المدينة. وفي العام ٢٠٩، سحق الرومان نهائيا الجيش القرطاجي المدافع عن سيسيليا واحتلت قاعدته الأساسية، أغريجانت. احتل الرومان سيسيليا وأغلقوا أفق النهوض أمام القرطاجيين. وهوت الحياة الثقافية المتفتحة في هذه المدن إلى سبات ونوم عميقين وتراجعت الجزيرة كلها إلى إقليم روماني زراعي، وإلى حقول واسعة من قطعان العبيد. في اليونان أخيرا، حقق الرومان نصرا على فيليب المقدوني حليف هانيبال (في أثناء الحرب الأولى المقدونية). اضطر فيليب للتخلي عن مشروع الهجوم على إيطاليا، وفي العام ٢٠٥، عقد صلحا مع روما.

لكن الضربة الأقسى لهانيبال صدرت من المعارك المظفرة التي دارت في إسبانيا على يد الجيش العامل بقيادة قائد في عامه الرابع والعشرين، ب. كورنيليوس سيبيون، ابن القنصل الذي قتل في العام ٢١١ في شبه جزيرة إيبيريا. وفي العام ٢٠٩، احتل سيبيون بهجوم عاصف مناجم فضة قرطاجة، ترسانتها الشاسعة، مخازنها وورشاتها الحربية. وشكلت المناطق الشرقية والجنوبية من البلاد فيما بعد الإقليم الروماني من إسبانيا. على ذلك، لم ينجح سيبيون في منع أخوي هانيبال، أسد روبال وماغون، من السير نحو إيطاليا، بما تبقى لهم من قواتهم، لمد يد المساعدة لأخيهم الأكبر. لكن هذه الإمدادات انتهت إلى عدة مآسي الواحدة تلو الأخرى؛ صرع أسدربال مع جيشه، في معركة دارت في سينا غاليكا في أومبريا، ورمي رأسه في مخيم هانيبال (٢٠٧)؛ وفشل ماغون بمهمته الإبحار إلى ليغوريا. إذ حوصر في خليج تارانت، فحرم من أي أمل بتعزيز جيشه، ولم يعد هانيبال مصدر خطر لروما.

بعد ١٣ عاما من الحرب، تمكنت الحكومة الرومانية من العودة إلى مخططها الأول الهجوم المباشر على قرطاجة. وفي العام ٢٠٥، انتخب سيبيون قنصلا وكلف بهذه العملية. رغم أن مجلس الشيوخ رفض الأسس، بحجة خواء الخزينة، تمت الحملة الإفريقية، بفضل المساهمات التطوعية من الأغنياء الرومان وحلفائهم. فقد جذب طعم الغنيمة العديد من الالتزامات السابقة.

بعد أن أرسل جيشه من سيسيليا إلى إفريقيا، على ظهر مائة مركب تقل، أبحر

سببيون إلى أوتيك وبدأ بتدمير وادي باغراداس، أهراء قرطاجة الرئيس، لإرغام المدينة على الاستسلام جوعاً. وبفعل تغيب ملك النوميد، ماسنيسا، الذي انتقل إلى جانب الرومان، كان سبيون يقود سلاح خيالة محنكا، وكان مجلس الشيوخ القرطاجي قد أرسل الرسل إلى سبيون، لمناقشة عقد الصلح، لكن مجلس الشعب الذي رفع رأسه مجدداً، قرر استدعاء هانيبال وكلفه الدفاع عن مسقط رأسه.

كان هانيبال ينتظر هذه الدعوة منذ زمن: كان يدرك أن عودته إلى قرطاجة بمبادرة شخصية، غير مبررة بسبب إخفاقه. في كروتون جمع فلول قواته على متن بعض المراكب، متجنباً لحسن الحظ الأسطول الروماني (٢٠٣ ق.م). وفي أفريقيا، جهز قواته مجنّداً المرتزقة وجزئياً من النوميد، خصوم مسينسا. واستناداً إلى عدم ثقته بالنصر، اقترح هانيبال الصلح على سببيون، لكن هذا الأخير رفض العرض.

بدأت المعركة الحاسمة، في العام ٢٠٢، قرب زاما، جنوب قرطاجة، وانتهت بنصر مؤزر للرومان، بفضل تفوقهم بالخيالة، مع ذلك حاول هانيبال خرق تجمعهم، موجهاً إلى هذه النقطة ٨٠ فيلاً. استسلم مجلس شيوخ قرطاجة بقضيه وقضيضه إلى معسكر سببيون، الذي قبل خوض المفاوضات. كانت شروط السلم (٢٠١) التي أملاها قاسية جداً. ألا تحافظ قرطاجة إلا على جزء صغير من المواقع في أفريقيا، وليس لها أن تعلن الحرب على جيرانها إلا بإذن من الحكومة الرومانية، وعليها أن تسرح جيشها، وتدمر كل أسطولها المحارب، عدا ١٠ من ثلاثيات المجاذيف، وكل فيلته؛ والتزمت قرطاجة بإعادة كل المغنم التي كسبتها أثناء الحرب، وإعادة كل المساجين والفارين؛ وبقاء الجيش الروماني في أفريقيا حتى الجلاء عنها؛ أخيراً فرض المنتصر غرامة باهظة ١٠ آلاف تالانت. ولتأمين تنفيذ شروط المعاهدة، يحق لسببيون انتقاء ١٠٠ رهينة من أبناء أنبل الأسر القرطاجية لإرسالهم إلى إيطاليا. ومنذئذ فقدت قرطاجة جبروتها بل حريتها، لأن الرومان لم يتخلوا عن التدخل بشؤونها الداخلية، الأمر الذي أكره هانيبال على الهرب إلى الشرق ليحل في كنف الملك السوري أنطيوخوس، ليستدرجه إلى خوض صراع جديد ضد روما.

احتفظت روما بنصرها على عدوها الأخطر. وسببيون الذي جلب من أفريقيا ١٣ ألف ليبرة من الفضة، صار الشخصية الأولى في الدولة، ووهب لقب الظافر الـ"أفريقي". لكن حرباً لخمسة عشر عاماً على أرض إيطاليا ذاتها سببت خسائر فادحة اقتصادية. أكثر



من نصف الرومان سقطوا صرعى: حسب إحصاءات العام ٢٢٠، كانوا ٢٧٠٠٠٠، وفي إحصاء العام ٢٠٧، لم يعدوا سوى ١٣٧١٠٨ رجل ملزمين بخوض الحرب.

كانت الخسائر التي نكبت الشعوب الإيطالية أقسى وأدهى، لأن سكان ٤٠٠ مدينة، وأيضا مناطق كاملة، صرعوا بالسيوف، جزئيا سيف هانيبال، وأيضا ببعثات الرومان الانتقامية: كان الرومان قد باعوا كل سكان كابو وتارانت كعبيد، وأبادوا تقريبا كل سكان بروتيوم، إحدى المدن التي بقيت مدة أطول، والأعداء إخلاصا لهانيبال. حتى في الحواضر التي هرب سكانها من أوار الحرب وأهوالها، انخفض مستوى حياة الناس كثيرا بسبب إهمال الأرض، والسوق المستمرة، ضرائب الحرب الباهظة، التهايب الأسعار وجنونها (سعر الملح تضاعف، مثلا)، انخفاض قيمة النقد، إلخ. وغزت أسراب من اللصوص وقطاع الطرق إيطاليا، باذرة حيثما حلت الرعب والانحطاط الخلقي.

إنما في ذات الوقت، لابل بعد الحرب الفينيقية الأولى، تنامي ازدهار الشرائح العليا من المجتمع الروماني، وبخاصة فئات الصناعة والتجارة. فقد ورث التجار الرومان كل الصفقات والعلاقات التجارية من كابو، تارانت وسيراكوز. وبفضل المصادرات لأملاك الحلفاء غير المخلصين، كبرت مساحة الأملاك العامة وكانت كلها تقريبا قد سقطت بين يدي طواغيت الأعمال الذين وظفوا بنشاط في الزراعة فوائدها وأرباح وأسلاب الحرب وغنائمها. أما الشعب، الذي لم يقتسم شيئا، فقد اشتروه، في أثناء أعوام ١٩٠ و ١٨٠، بتأسيس مستعمرات جديدة في مكان المدن المدمرة في كامبانيا وبروتيوم، وفي غول سيزالين (موتينا، بارما، بونونيا). واختفى حزب الشعب المستضعف وفاقد الاعتبار لمدة طويلة عن المسرح السياسي وعزف عن معارضته تحكم الأثرياء الرومان المندفعين. لهذه الأسباب، اتبعت السياسة الرومانية، في العقود التي تلت النصر على قرطاجة، بدون عقبات، الدرب الذي أشارت إليه النبالة المغتنية والـ"فرسان" الذين بنى ازدهارهم المتزايد أبدا على مكاسب الحرب ومداخل المستعمرات. وما أن احتل حوض البحر المتوسط الغربي، حتى بدأت الشرائح المسيطرة في روما، دون وضع حدود لتعطشهم للتوسع، وعلى الفور، بغزو الشرق.

## الفصل الثامن والأربعون

### بداية الهيمنة الرومانية على الشرق

#### الحرب المقدونية الثانية

لقد نجحت روما بفرض نفوذها (ثم هيمنتها) على حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي، بشكل أسهل مما حققت فتح الغرب: توطد التفوق الروماني خلال عقد من الزمن (٢٠٠-١٩٠)، بينما كلفها قهر قرطاجة ٦٣ سنة علما أن هذا النجاح تحقق بسبب العلاقات الدولية القائمة آنذ. كانت قرطاج وحدها تحتل موقع السيد في الغرب في القرن الثالث، إمد في الشرق نشب صراع مستمر بين مدن مستقلة وتحالفاتها (جامعات بيونيين، أشيين، إيتولييين)، الدول الصغيرة العديدة والدول الكبرى الإغريقية (مقدونيا، سوريا، مصر). فضلا عن صراع طبقي عارم كان يضعف قدرتها على المقاومة الخارجية. كانت هذه المصادفة تخول روما أن ترد ليس فقط بالسلاح، بل أيضا بضرب هذه الدول ببعضها، بدبلوماسية ماهرة.

بفعل هذين السبيلين، صرعت الأولغارشية العسكرية والرقية لروما مقدونيا بأربع سنوات، فورا بعد الحرب الفينيقية الثانية. كان سبب اشتعال الحرب المقدونية الثانية (٢٠٠-١٩٧) مؤازرة الملك فيليب الخامس هانيبال؛ فضلا عن توسيع جيروته شرع بتشجيع الاضطرابات في البلاط المصري، بغزو الممتلكات المصرية في آسيا (كاريا وليديا) واحتل مدنا من هلسبوننت سستوس وأبيدوس، وسكلادس. وعندما، لهذا السبب، اجتمعت رودس، بيرغام وأثينا ضده، طلبت مساعدة روما، رأى الحزب الحاكم في هذه المدينة أن الريح مؤاتية للتدخل في شؤون الشرق. اصطدم مجلس الشيوخ، وهذا صحيح، بمقاومة حاسمة من طرف مجلس الشعب؛ ورفضت جمعيات الشعب الناخبة، فكرة إعلان الحرب على مقدونيا، واعتبرتها مغامرة جهنمية من قبل القادة العسكريين المتعطشين للنهب، لم يمر الاقتراح إلا بالاقتراع الثاني، وبعد احتجاجات عنيفة.

في أثناء السنتين الأوليتين من الحرب، حاول جيش روماني صغير حوالي ٢٥ ألف مقاتل عبثا اختراق اليونان الشرقي عن طريق إيليريا، بينما كان فيليب يحاصر أثينا ويدمر ضواحيها. وفي العام ١٩٨، أرسل الرومان إلى اليونان، كقائد أعلى ت. كينكتيوس فلامنيوس، رجل السياسة الشاب والمحك، المعروف بإعجابه بالثقافة الإغريقية ("تصير الهلينية"). عرف هذا المندوب كيف يقنع اليونان أن هدف الحرب كان "إنقاذ الهيلينيين من النير المقدوني". عبر الإبيريون أولا من جهة فلامنيوس؛ اليونان الوسطى كلها والبلبونيز. دل الأدلاء الإبيريون فلامنيوس إلى معابر في الجبال، عبرها قاد جيشه إلى تساليا، حيث تقوم سلسلة من التلال تحمل اسما رائعا، سينوسيغال (رؤوس الكلب)، وحقق النصر على فوج فيليب المقدوني الماجد. التمس هذا الأخير بخجل من مجلس الشيوخ صلحا جعلت نصوصه مقدونيا فجأة كيانا من الدرجة الثالثة: أعلنت كل المدن والأراضي اليونانية التي تحتلها مقدونيا حرة ومستقلة، ومنع على ملك مقدونيا تكوين جيش أكثر من ٥٠٠ رجل وأكثر من خمسة مراكب حربية؛ والتزم أخيرا بدفع تعويض من ١٠٠ تالانت. وهكذا قضي على هيمنة مقدونيا في اليونان، المستمرة ١٥٠ سنة، وسيطرتها في البحر المتوسط الشرقي.

في أثناء الاحتفالات الإثمية 'sthmiques' للعام ١٩٦، أعلن فلامنيوس رسميا حق كل شعوب الحاضرات اليونانية في أن تعيش بـ"دون ضرائب، ولا حامية، بل تحكم نفسها حسب شرائعها" (بوليب، ١٨، ٢٩). لكن الحماس الذي أثاره هذا الإعلان لدى اليونان، تلتته عاجلا خيبة الأمل. لأن، فلامنيوس، بالاتفاق مع لفيف من مجلس الشيوخ، راح يضطهد الأحزاب الديموقراطية ويستبدل حكوماتها بحكومات أولغارشية، يرتبط وجودها بمساندة روما لها خوفا من شعوبها.

كان تدخل الرومان حاسما بشكل استثنائي في إسبارطة. نظم فلامنيوس حملة تأديبية ضد "طاغية" هذه الحاضرة، نابيس، الذي طرد منها الأغنياء ووزع أرزاقهم على العبيد، والفقراء والجنود المرتزقة. أجبر نابيس على عقد الصلح، والتزم بعودة المنفيين، وبرجوع

---

<sup>١</sup> - احتفالات يونانية تقام في كرنثيا كل ٤ (ثم سنتين) سنوات على مجد بوسيدون، إله البحر لدى اليونان.

العبيد المحررين إلى ربة مالكيهم، وتسريح الجيش، وتدمير الأسطول وبأداء غرامة من ٥٠٠ تالانت. وبعيد هذا قتل، عاد المهاجرون الرجعيون إلى إسبارطة، وقاموا بتنظيم الأولغارشية واقتصوا بشراسة من أنصار الديمقراطية.

أيضا بعد عودة الفصائل الرومانية في العام ٩٤ ق، استمرت روما بالتدخل بالشؤون الداخلية للدول اليونانية، ناشرة الأولغارشية في كل مكان ومثيرة، بالتالي، حقد الأوساط الديمقراطية.

### الحرب ضد أنطيوخوس الثالث السوري

إن الوضع المهيمن الذي احتلته روما في اليونان جعلها في خصام مع أكبر دولة هيلينية، سوريا، التي كان يحكمها أنطد أنطيوخوس الثالث الكبير. وهذا الأخير الذي كان يحلم بإعادة بناء إمبراطورية الاسكندر، استغل ضعف مقدونيا ليحتل، في آسيا الصغرى والدرنيل، مدنا وأراض كانت خاضعة سابقا لآل بتولميه وفيليب. كان أنطيوخوس يستعد للحرب ضد روما، بنشاط مستعر منذ أن أوى هانيبال، الهارب من قرطاجة، وأضحى روح حزب الحرب في سوريا (١٩٥).

كما صرح أنطيوخوس بدوره أن هدف الحرب ضد روما كان "عتق اليونان"، ووعده بعض اليونان (الجامعة الايتولية)، الأكثر غضبا من سياسة روما في البلقان، بتقديم المساعدة لكل هيلاد.

على ذلك، عندما أبحر أنطيوخوس، في العام ١٩٢، إلى اليونان الوسطى، مستندا إلى هذا الدعم، لم ينشب التمرد العام ضد الرومان. والجامعة الآشية، بيرغام ورووس، التي كانت تخشى عدوانا سوريا، وقفت نهائيا إلى جانب روما. وللغاية ذاتها، قدم بتولميه الخامس، ملك مصر، للحكومة الرومانية إعانات مالية ضخمة. ودخل جيش روماني من ٢٥ ألف رجل إلى تساليا وانضم إلى الجيش المقدوني. التهبت المعركة الحاسمة في ترموفيل (٩١ ق)؛ انهزمت القوات السورية وأجبر أنطيوخوس على الانسحاب إلى آسيا الصغرى. ثم حطم أسطول روما، بيرغام ورووس، الذي كان يقاتل موحدا في عدة لقاءات، وكان الأسطول السوري وقسم منه بقيادة هانيبال - في بحر إيجه، الأمر الذي مكن الرومان من نقل المعركة إلى أرض آسيا الصغرى. أوكلت الحكومة هذه المهمة إلى قاهر قرطاجة الشهير، بوليوس كورنيليوس سيببون الأفريقي، رغم أنه رسميا بإمرة أخيه،

لوسيو كونيوس سيبيون، قنصل العام ١٩١. اجتاز الجيش الروماني إيبيريا، مقدونيا وثراسيا، وتخطى الدردنيل، وبعد أن ضم قوات بيرغام، سار إلى ساردس حيث كان ملك سوريا قد حشد جيوشه. ودارت معركة طاحنة واحدة قرب مانيزيا (بين ساردس وسميرن)، في كانون أول ١٩٠، قررت مصير آسيا الصغرى. رغم أن الرومان قاتلوا واحدا إلى ثلاثة، فقد بددوا قوات أنطيوخوس وأوقعوا بها الهزيمة؛ لأن تلك القوات التي كانت تتألف من جمع من الشعوب والأمم المتنافرة كإمبراطوريته؛ فقد وضعوا كتفا إلى كتف، اليونان، والعرب الممتطين الجمال وخمسين فيلا هنديا.

بعد مانيزيا، انتقلت كل الحاضرات اليونانية في آسيا الصغرى إلى سلطة الرومان، الذين استولوا على ساردس، حيث أتى رسل أنطيوخوس يطلبون الصلح من سيبيون. كانت شروط هذا الصلح قاسية جدا على سوريا؛ إذ أجبرت على ترك كل ممتلكاتها في آسيا الصغرى حتى سلسلة طوروس، ودفع غرامة ثقيلة ١٥٠٠٠ تالانت، وتسليم كل الفيلة، تدمير كل الأسطول عدا ١٠ مراكب والاعتراف بالحماية الرومانية. وأعطيت الأراضي التي انتزعت من أنطيوخوس في آسيا الصغرى إلى بيرغام ورودس. كما أعطت حرب سوريا ١٩٢-١٨٨ روما الهيمنة التامة على شرق البحر الأبيض المتوسط، وبدأ سفراء الدول الشرقية، أثناء المفاوضات ينادون الرومان بـ "سادة العالم" (بوليب، ٢١، ١٦، ٨). على ذلك، ولتأمين سيطرتها على الشرق، استخدمت روما أساليب جديدة خلاف ما كان في الغرب؛ لم تقلص روما البلدان الملحقة مؤقتا إلى أقاليم، بل تركت لهم حكومتهم، وأقامت بينهم نهجا متوازنا. وهكذا غدت دبلوماسيتها المحنكة العداوة والتفرقة بين هذه الدول التي راحت تسودها. وهكذا، كان صوتها سيدا حيثما سمع، إذ وجهت سياسة الدول الشرقية المعقدة، في تلك أهدافها وخدمة مصالحها.

## الفصل التاسع والأربعون

# سحق حركات التمرد الوطني وترسيخ السيطرة الرومانية على البحر الأبيض المتوسط

### الحرب المقدونية الثالثة (ضد بيرسيه<sup>١</sup> Persee)

لقد عاشت روما حوالي خمسين سنة في حرب ضارية لسحق مقاومة الجماهير الشعبية في الدول والبلدان المحتلة. وفي أثناء أعوام ١٨٠ و ١٧٠، طُبعت الأحزاب الديموقراطية اليونانية بكل وضوح بمعاداة الرومان، بسبب حمايتهم للأوساط الأرستقراطية والبلوتوقراطية في اليونان. وبدأت كل الأنظار تصب على مقدونيا، المكروهة بعامه حتى آنئذ، وعلى ملكها بيرسيه. وريث فيليب الخامس، الشاب ذو الهيئة الأخاذة، الماكر والضعيف، والذي كان إلى ذلك "أهلاً بقوته الجسدية، لملاقاة العقبات بهمة نشطة" (بوليب، ٢٥، ٣، ٤). كان الجميع يرونه قائد الصراع ضد النير الروماني.

جند بيرسيه جيشاً من ٣٠ ألف مقدوني و ١٠ آلاف مرتزق، وألزم السكورديك والبستارن، من شعوب الدانوب، على قتال شمال إيطاليا؛ عقد لقاءات مع الديموقراطيين اليونان، وسوريا وقرطاجة. ورودس، الحليف الأمين حتى آنئذ للرومان، خذلتهم أيضاً. لكن أومين فقط، ملك بيرغام، الذي استمر يخشى بعث مقدونيا، كان يطلع روما على هذا التحالف الذي تشكل ضدها. وفي العام ١٧١، أعلن مجلس الشيوخ للمرة الثالثة الحرب على مقدونيا.

أما بيرسيه، خشية من دعوة جماهير اليونان للقتال، اكتفى إجمالاً بالدفاع عن أراضي مملكته. وفيما بعد، في معركة دارت رحاها في الميدان الحصين المقدوني، بيدرا، حاصر قنصل العام ١٦٨، ل. إميلیوس بولس، الجيش المقدوني، الذي أباده الرومان عن بكرة أبيه خلال ساعة واحدة. كان بيرسيه قد هرب بجبن، دون انتظار نتيجة المعركة، ليحط رحاله

<sup>١</sup> - آخر ملك مقدوني، ابن وخليفة فيليب الخامس.

في جزيرة ساموثرات، لاجئاً إلى أحد المعابد. واستسلم للمنتصرين بعد أن تركه الجميع. فأرسل إلى روما، حيث مات أسيراً.

تفككت الدولة المقدونية إلى الأبد وقسمت إلى أربعة أقاليم مستقلة. صادر الرومان أملاك التاج، أغلقوا مناجم الذهب والفضة وفرضوا على الشعب ضريبة باهظة. والدول اليونانية التي تعاطفت مع بيرسيه عوقبت بإجراءات دموية. ففي إيبيريا، دمر الرومان وسلبوا ٧٠ مدينة، وباعوا ١٥٠ ألف من السكان عبيداً. وطافت بعثة من ١٠ أعضاء من مجلس الشيوخ، بمساعدة ممثلي النبالة المحلية، أنصار روما، في أرجاء اليونان، بحثاً عن "خائني الدولة". وأعدم من عبئ من أجل الاستقلال، ونفي الأغنياء إلى إيطاليا. لم يبق من جامعة الأثينيان *Acheenne*، سوى حوالي ١٠٠٠ إنسان بينهم مؤرخ المستقبل، بوليبيد، الذي اضطر أن يعيش حوالي ٢٠ سنة رهينة في روما). وانتزعت أملاك رودس على ساحل آسيا الصغرى، وأنزل الرومان ضريبة بتجارتها، بخلق مرفأ حراً في جزيرة ديلوس (١٦٧)، وأعطى لأثينا. وسرعان ما أضحت ديلوس مركز تجارة بحر إيجه كله. وفي الوقت ذاته ازداد ارتباط الدول الهلنسية بروما. وفي سوريا، أكد خليفة أنطيوخوس الثالث، أنطيوخوس الرابع، أن "قرارات مجلس الشيوخ بالنسبة له مثل قرارات الآلهة". وكان ملوك مصر يأتون إلى روما بضعة وتذلل يطلبون عون مجلس الشيوخ.

إن هذه السياسة الماكرة التي تمارسها أولغارشية الرومان العبودية في الشرق لم تكف، في أعوام ١٦٠ و ١٥٠ ق.م، عن تفعيل دورها المسيطر في العلاقات الدولية لحوض شرق البحر المتوسط. لكنها في الوقت عينه كانت تورث كره الرومان لدى كل شعوب الشرق، وتهيء بهذا اختراقاً عاماً جديداً.

التمرد في اليونان (١٥٠-١٤٦). الحرب ضد من انتحل شخصية فيليب

*pseudo philippe* و ضد الجامعة الآشية *acheenne*.

كانت مقدونيا، التي سحقها روما بدون رحمة، قد صارت الموطن الرئيس لحركة التحرر. ونشبت فيها انتفاضات ضد الحكومات الأرستقراطية التي تفرضها روما منذ السنوات السابقة، بينما نهضت مقدونيا كلها في العام ١٥٠ وتراصت حول مغامر، أندرسكوس، ابن فراء من آسيا الصغرى أدعى أنه فيليب ابن بيرسيه. أمن أندرسكوس دعم بيزنطة والحاضرات اليونانية الأخرى، ووضع قادة ثراسيا تحت تصرفه عدة سوقات. وعلى رأس جيش لجب، صرع الجحافل الرومانية التي مشت لملاقاته ودخل تساليا. لكن الحاكم الروماني كوانكتيوس ميبتلوس، الذي أرسلته روما بقوات ضخمة، أوقف تقدمه في اليونان الوسطى وحصره في مقدونيا. وأخيراً بفعل خيانة أحد ضباط أندرسكوس، تلسستس،

الذي، انتقل وكل خيالاته إلى العدو في أخرج الأوقات بعد أن اشتراه الجنرال الروماني، وحقق ميتلوس نصرا مؤزرا على خصمه، في بيدنا (١٤٩). سجن المغامر أندرسكوس وأعدم في روما، ولقب ميتلوس بـ"ابن مقدونيا". وفقدت مقدونيا، إيبيريا وإيليريا ماتبقى من استقلالها، وتقلصت إلى إقليم، في حكومة حاكم روماني (١٤٨). لكن طيلة ٥٠ سنة، بعد سحق تمرد أندرسكوس، انبعث مأكرون كثر في مقدونيا، ونشبت انتفاضات في أكنة مختلفة.

في وسط اليونان وجنوبها، انفجرت الانتفاضة الشعبية في العام ١٤٧. كان مركزها الجامعة الأشية. وبعيد انتصارهم على بيرسيه، سارعوا إلى حل هذه الجامعة، فاصلين عنها ما استطاعوا من المدن. وضد روما نشب عداء ضار لدى الآشين. وبعد هزيمة فيليب-الدعي أعد دياوس وكرتولاييس، قادة الحزب الديمقراطي، العصيان على الملأ، "داعين في كل مكان مجلس الشعب". وأخذ نشاط الجماهير "والصناعيين والأتباع" انطلاقا لم تعرفها الجامعة الأشية. "إذ كانت كل المدن فريسة تعصب مخيف، -كما قال بوليب، نصير روما، كانت كورنثيا هكذا أكثر من أي مدينة أخرى دون تمييز طبقي" (٣٨، ٨-١٠). ومن بليونيز ربحت الحركة بيوتيا، منطلقة من طيبا، مركزها الرئيس.

حاول كرتولاييس دعم انتفاضة بيوتيا، لكن ميلوس، مصلح مقدونيا، الذي واصل جمع الشمل، صرعه. فلجأ شعب طيبة كله إلى الجبل لئلا يقع بين يدي الرومان. صرع كرتولاييس، اتخذ وديوس الذي استلم القيادة مكانه، تدابير اجتماعية جذرية، لدعم المقاومة الشعبية. قرر إلغاء الديون وإسقاط الضرائب المتأخرة؛ حرر المساجين وعبا جميع القادرين على حمل السلاح. أعتق ١٢ ألف عبيد، وشكل منهم وحدة للدفاع عن كورنثيا، مركز الانتفاضة. وفرض على المواطنين الأثرياء مساهمات قاسية لتسوية ميزانية الحلفاء المدمرة، الأمر الذي أغرقهم، "يقول بوليب"، في الوهن والذعر.

عمت الحركة أرجاء بليونيز، الأمر الذي ألزم الرومان بإرسال جيش آخر إلى اليونان، بقيادة القنصل موميوس، مدعوما بسوقات كريتيّة، برغامنية وغيرها. حقق المتمردون بداية بعض النجاح، لكن ضخامة قوات موميوس أنزلت بهم هزيمة نكراء. صرع ديوس، وهجم موميوس على كورنثيا واستباحها وأحرقها. ذبح السكان الذكور الراشدين، والنساء والأولاد والعبيد الذين أعتقهم ديوس، بيعوا بالمزاد في العام ١٤٦ ق.م.

دمرت كل المدن التي اشتركت بالعصيان، وحظر على أهلها حمل السلاح. ألغيت المؤسسات الديمقراطية واستبدلت بمؤسسات مثوية وأولغارشية. حلت كل الجامعات وفرضت الضريبة على بلاد الإغريق كلها. وألحقت اليونان الوسطى الجنوبية بولاية



مقدونيا، باسم أشاي *Achaie*. حافظت إسبارطة، أثينا ودلفيا على شيء من الاستقلال الوهمي، احتراما لماضيها المجيد.

كانت هذه التدابير الاضطهادية على الأرجح من صنع موميس، القائد الأعلى للجيش المحتل، ولجنة مجلس الشيوخ. لكن السلطات الرومانية كانت تدعم الأغنياء. إذن لاتقع مسؤولية تجميد ما بقي من استقلال اليونان على السلاح الروماني بل أيضا على كبار مالكي العبيد في البلاد، الذين يشكلون الشرائح العليا من المجتمع اليوناني، والذين خانوا شعبهم وسعوا بالاحتلال الروماني إلى ضمان النظام القائم وكل النظام المبني على الاستعباد ضد تهديد الثورة الاجتماعية.

### الحرب الفينيقية ونهاية قرطاجة (١٤٩-١٤٦)

نهضت قرطاجة من جديد بعد الحرب الفينيقية الثانية، وانطلقت تجارتها الشرقية انطلاقا ملحوظة، خاصة مع مصر ومع مملكة البونت *pont* على البحر الأسود. ولقد أزججت مزاحمة التجار القرطاجيين كثيرا رجال الأعمال الرومان وتجارهم، الذين كانوا بقيادة م. بورسيس كاتون. كانت خطباته كلها في مجلس الشيوخ تنتهي بهذه الكلمات: "في نهاية المطاف، يجب تدمير قرطاجة". لذا أصرت حكومة الرومان على منع ملك النوميدي ماسنيسا من احتلال المواقع القرطاجية رويدا رويدا على الساحل الإفريقي، لأن ماسنيسا كان منذ العام ١٥٠ قد صار سيد ١٢٠ ضيعة ومدينة في ليبيا. وأتت محاولة قرطاجة للدفاع عن أملاكها ذريعة للرومان لإبادة خصمها القديم التاريخي. وأبحر جيش جرار إلى أفريقيا، وفسر القرطاجيون الإنذار، التهديد بخوض الحرب، بأن دمروا مدينتهم بأيديهم وقبعوا في أعماق أراضيهم، على بعد ١٥ كم على الأقل من الساحل، أي التخلي عن التجارة البحرية والتحول إلى شعب مزارع. وجوابا على هذه المطالب شب تمرد شعبي. ذبح عددا من أعضاء مجلس شيوخ قرطاجة كانوا يستكينون أمام روما ويتذللون، وأعتق العبيد وراح الشعب، بنشاط محموم، يصنع السلاح، يعمر السفن ويرمم الحصون؛ وعبيد جيش كبير يؤمن المؤونة للمدينة. واستلم قيادة الدفاع رجل محنك، هو أسد روبال.

طيلة عامين (١٤٩-١٤٧)، أثبت المهاجمون عجزهم عن كسر بطولة مقاومة الشعب القرطاجي. وكان أثر الأسلحة الرومانية نافلا جدا بل مشبوها. فاتفق حزب التجار والصناعيين آنئذ مع الأوساط العسكرية والأرستقراطية على تسليم القيادة العليا في أفريقيا لأبرز ممثلي رجال الحرب، الرجل الجدير والمتقف، بوبليس كورنليس سيبيون إميلانس (ابن بول إميل)، الذي اختاره ابن سيبيون الأفريقي). ولقد بدل نشاط هذا الأخير تبديلا جذريا موقف قرطاجة. احتلت كل الأحياء السكنية في المدينة، وأغلق البرزخ المعزول

بالخنادق والمسائر الترابية، فجاج المحاصرون، وأخيرا حطم الجيش القرطاجي في معركة سقط فيها قرابة ٨٥ ألف مقاتل.

وفي ربيع العام ١٤٦، بدأ سيبيون هجوما رهيبا من مركز المدينة ومن ثكنة قرطاجة أو قلعتها، حيث كان قد لجأ كل من بقي من السكان.

أمر سيبيون بإحراق وتدمير العمارات الضخمة ذات الطوابق الخمسة ليتوفر له ساح معركة حر. دام الهجوم ستة أيام بلياليها دونما توقف، وفي اليوم السابع تمكن الرومان من احتلال بيرسا، قلعة قرطاجة.

خضعت قرطاجة لاقتحام وحشي، أدانه بوليب نفسه، رغم أنه معتاد على تأييد الرومان. دمرت المدينة حتى جذورها، وأعلن مكانها "مقدسا" (منع تشييد أي مبنى). ذبح بالسيف كل الناس تقريبا، وبيع من بقي عبيدا. وخول الجنود سرقة الخاصة، وثروات الصروح العامة، وأضيفت غنائم المعابد إلى الخزينة الرومانية. وشكلت أرض قرطاجة، عدا الشطر المتروك للحليف نوميديا، الإيالة الرومانية في إفريقيا، وبعد تدمير كل المدن تقريبا، تحولت كلها إلى إقليم زراعي، وصارت المزارع القرطاجية حقولا شاسعة للنبلاء الرومان. واستراحت الأولغارشية الرومانية من مزاحمة قرطاجة.

**التمرد في إسبانيا. فيرياث وحرب نومانس.**

اصطدم الغزو الروماني أيضا بمقاومة ضارية في إسبانيا، حيث استمر الصراع المسلح قرابة مائتي عام<sup>١</sup>.

بعد الحرب الفينيقية الثانية، احتل الرومان في إسبانيا (أيريا) شريطا ساحليا ضيقا، في جنوب وشرق البلاد، من البرنييه إلى جبل طارق. كانت هذه الأرض تشكل بيتيك وتوردتانيا (اليوم غرناطة والأندلس)، المناطق الأخصب، الأغنى بالمعادن الثمينة والأرقى في إسبانيا. كان الأمر عكس هذا في وسط، غرب وشمال شبه الجزيرة، المأهولة بأحرار ومحاربي قبائل كربتان، سلتبير، لوزتيان، وغيرهم، الذين مايزالون يعيشون وفق النظام القبلي. وهنا أيضا اصطدمت مشاريع الفتح الروماني بمقاومة عنيدة؛ وبخلاف جيرانها في ميديا، لم تخضع هذه الشعوب لفقدان استقلالها، فالتهمت التمردات باستمرار.

كان تمرد لوزتانيا شارة بدء حرب التحرر، "حرب النار" كما يسميها المؤرخ اليوناني (بوليب، ١، ٣٥). كان راعي لوزتاني بسيط، اسمه فيرياث، الذي كشف عن قيادة ماهرة

---

<sup>١</sup> اقرأ أبيان. التاريخ الروماني. الكتاب السادس، إيبريكا.

ويقفزة وصار بطلاً إسبانياً، وروح ومنظم هذا التمرد. وفي وقت ما، في حوالي العام ١٣٥، كان وضع الرومان في إسبانيا حرجاً جداً فاضطروا لعقد صلح مع فيرياث لصالح هذا الأخير تماماً؛ إذ سمي فيرياث "صديق الشعب الروماني" وبقيت كل الشعوب المتمردة في الأراضي التي احتلتها.

لكن مجلس الشيوخ رأى أن هذه المعاهدة "غير لائقة أبداً للشعب الروماني". فالقائد العام للجمهورية في إسبانيا، أمر بذبح فيرياث أثناء نومه بسيف خونة جندهم هو (في العام ١٤١، و١٣٩ حسب مراجع أخرى). ثم أحرق جيش روماني جبار لوزتانيا في عهد دسموس بروتس وأهرق دم سكانها، لا بل احتل غاليسيا، "عند حدود العالم". وفي العام ١٤٠، كان الرومان سادة الشطر الغربي من شبه الجزيرة الإيبيرية، حيث بدؤوا يؤسسون المستعمرات.

إن حرب نومانس (١٤٣-١٣٣)، في بلد محاربي سلتير، على المجرى الأعلى لداريوس (دورو)، تقدم نموذجاً مبهرًا عن البطولة التي كان يجترحها سكان إسبانيا القدماء دفاعاً عن استقلالهم. وأحد حلقات هذا النضال، التي تخجل المعلومات الرومانية، هي هزيمة القنصل س. هستلوس مانسنوس في العام ١٣٧، بعدها اضطر لعقد صلح ذليل. أدانته مجلس الشيوخ لأنه خضع للنومانثان (الذين رفضوا استقباله)، وألغيت المعاهدة التي عقدها. ولترسخ نفوذها، أرسلت الحكومة الرومانية لمصاولة النومانثان المقاتل المظفر القرطاجي، سيببون إميليان، قنصل العام ١٣٤. أحاط سيببون نومانس بخطر التفافي، معزز بالأبراج، ودمر ضواحي المدينة. ولأول شارة تعاطفية مع النومانثان، من قبل سكان محلات مجاورة، كان المحاصرون يقطعون اليدين، ويقود سيببون شخصياً حملات التأديب. وانتهى المحاصرون بالاستسلام بعد أن أضناهم الجوع. وسقط الكثير منهم في أثناء الاستسلام. أمر سيببون ببيع من بقي حياً، حطمت المدينة، وتوزع الجيران أراضيها. لكن هذه التدابير البربرية لم تهدئ أحرار إيبيريا إلا لبعض الوقت؛ وبعد نصف قرن، شبب تمرد جديد، ليس أقل عنفاً.

وقد واجه الرومان أيضاً مقاومة ضارية من طرف الأمم "البربرية" الأخرى، في إيبيريا، دلماسيا، غول ولغوريا. فرأوا أن أي تصرف مشروع، كالحيلة والمكر والتصنع، وخرق الوعود، والاتفاقات والمعاهدات، ترغيب ورشوة بعض القادة لإرهاب الآخرين، النهب، ونفي وإبادة الشعوب. كان هذا هو المسلك الدامي الذي مشاه الرومان للسيطرة الشاملة" تسويغاً لبناء "امبراطورية جبارة رومانية".

## الفصل الخمسون

# انطلاقة الامبراطورية الرومانية العبودية في القرنين الثالث والثاني ق.م

### الولايات وطرق الاستغلال في روما

كانت الفتوحات الرومانية في القرنين الثالث والثاني قد حققت أعمق الثورات في كل مجالات الاقتصاد الوطني. فالتطورات السلمية في الزراعة، التعدين، الصناعة الحرفية والتجارة، المستندة بمجملها إلى عمل المنتجين الصغار الأحرار. أبعدها إلى المقام الثاني حروب الفتوح والاقتصاص المستمرين. فالقوة العاشمة للسلاح، للغنائم وكل مكاسب الحرب الأخرى، كانت قد صارت المصدر الرئيس لاغتناء الأفراد وكذلك الدولة. صارت "إيالاتها" عند روما الغرض الأساسي لاقتصاد الغنائم. في تلك الحقبة، كانت كلمة "إيالة" لا تطلق إلا على البلدان غير الإيطالية، "المكتسبة بالنصر"، المعتبرة "غنيمة للشعب الروماني"، مع كل المال الحي أو الجامد، الأراضي والأرزاق، الحيوانات والناس. وفي العام ١٣٠، كانت هذه الإيالات تسعاً: ستا غربية - سيسيلى، سردينيا، كورسيكا، الغول سيزالبيين، أفريقيا، وثلاثا شرقية - إيليريا، مقدونيا (مع أشاي) وآسيا (مملكة برغام القديمة).

منذ أن يصير الرومان سادة هذا البلد أو ذاك، حتى يقع تحت نهب منظم. وما أن تنفذ السكان أمر تسليم ذهبهم وفضتهم للخرينة الرومانية، حتى يسارع الجند إلى سرقة ما تبقى. مع ذلك، لم يمارس هذا العمل - السرقة - سوى نصف الجيش، يكتب بوليبي، ويبقى النصف الآخر على أهبة الاستعداد. الجنود المعنيون للنهب يلتزمون بجلب الغنائم إلى قيادتهم، والمحامون العامون يوزعون، ليس فقط على من بقي كاحتياطي، بل أيضاً على من كان يحرس الخيم، والمرضى". (بوليب، ١٠، ١٦). حصة الأسد تذهب للضباط، وبداية للأمرءاء، منهم والقناصل والحكام، وكذلك للحكام العسكريين في الإيالات الذين يسميهم

مجلس الشيوخ من هؤلاء الآخرين (بعد انقضاء ولايتهم)، ويمنحون لقب "والي"، و"حلكم"، وسلطة غير محدودة.

بعندئذ، كل المناجم، المقالع، السبخات المالحة، الورشات البحرية، المؤسسات المرفئية غير المنقولة، وأحياناً السهول الشاسعة، وبساتين الزيتون وكل المثمرات، والغابات، تصادر لمصلحة الدولة. وتباع كل هذه الأرزاق بالمزاد العلني، تحت مراقبة رجال الإحصاء والأطباء، الذين يسمون في روما "العشارون". والسكان، أو بالأصح من بقي، يتوجب عليهم ضريبة متوسطة عشر مدخلهم. يتغير مقدارها سنوياً بسبب العقود التي يعقدها رجال الإحصاء مع العشارين المكلفين بالتغطية. وأحياناً، كما في سيسيليا، تكون الضريبة عينية لإهراءات روما.

أخيراً، يرفع حكام الولايات الاحتجاجات والابتزازات التحكيمية الأخرى. وإلى مداخل الحكومة الرومانية، المقدرة بواسطة رجال الصحة، يجب أن نضيف الغرامات المفروضة على الدول المنحدرة، التي تحافظ مؤقتاً على استقلالها. مثلاً، في العام ٢٠١، التزمت قرطاجة بدفع ١٠ آلاف تالان، أنطيوخوس السوري ١٥ ألفاً، فيليب الخامس المقدوني ١٠٠٠ والايوليون ٣٥٠ تالان، إلخ.

إن سيلاً ضخماً من الثروات: الفضة، المعادن الثمينة، الأعمال الفنية، أرزاق وبضائع من كل نوع، تسيل نحو روما من كل البلدان الملحقة.

### مناهل العبودية. عدد العبيد؛ سعرهم

كان تجمع اليد العاملة العبدية يتم بنفس الطرق الإضافية-الاقتصادية، بنفس أساليب اللصوصية والإكراه والابتزاز في الأرزاق المادية المصادرة. كانت هذه هي السمة النوعية لتطور العبودية كأحد أشكال الإنتاج.

كانت روما من هذه الزاوية في وضع متميز. فقد احتلت المناطق الأكثر تقدماً من وجهة نظر الاقتصاد والأكثر تمدناً في حوض البحر المتوسط، حيث انتظم الإنتاج شكل أفضل مما كان في إيطاليا، مع يد-عاملة أمهر.

وبفعل قرب البلدان المحتلة، لم يكن نقل العبيد يشكل عبقة قاسية. لذا كان رجال الغنائم من الشرائح الجديدة من المجتمع الروماني يهدفون إلى تحويل جماهير سكان البلاد المحتلة إلى خدم وتركيز العبيد في إيطاليا. فأضحى العبد المنتج الهدف الرئيس، وبدءاً من هذا العهد أخذ توظيف اليد العاملة المستعبدة انطلاقته القصوى.

هكذا كان القانونيون الرومان يحددون المصادر الرئيسية للعبودية: "يولد أو يصير عبداً". وبالفعل، أعطى تكاثر اليد العاملة العبدية (بالولادة) نسباً كبيرة. وكان العبيد الذين يولدون في البيت يسمون ربعيين وكان ثمنهم عالياً. فهم معتادون منذ الطفولة على الاستسلام والخنوع. على ذلك، في الحالات الأغلب -يصير عبداً- من يهوى لسبب ما من الشرط الحر إلى الشرط العبد. لذا كان أناس هذه الفئة يسمون بعامّة في روما ("الأسرى").

يصنف في هذه العينة أولاً المدينون المعسرون. فقانون بونتليا *poetelia* للعام ٣٦٠ لا يخص إلا المواطنين الرومان. وعبيد الذين العائشون بين الطليان، محرومون من حق الحاضرة الرومانية، وفي الولايات، استخدم العشارون بسعة هذا الأسلوب لإخضاع الناس إلى شروط الرق. وثانياً، يصير "الأيتام" عبيداً، الأطفال المتخلى عنهم، اللقطاء والمبروقون، الذي كانوا يعتبرون ملك من يغذيههم. وكان هذا أيضاً قدر الرجال الأحرار الذين يقعون في أيدي قطاع الطرق والقراصنة ويبيعهم خاطفهم.

لكن حروب القرنين الثالث والثاني المستمرة تقريباً، كانت ترمي باستمرار إلى الأسواق العريضة بقطاع المساجين، المستمرين، مصدر الرق الأساسي. يكفي أن نذكر أن بول-إميل، فاتح إيبيريا، أخضع للعبودية ١٧٠ ألف إنسان من ٧٠ مدينة من هذه البلاد.

صارت تجارة الرقيق شكلاً من الاقتصاد الأليف الأكثر ربحاً. وكان طواغيت تجار اللحم البشري يتابعون الفصائل العسكرية ويشترون مباشرة في المخيمات مساجين الحرب، الذين يبيعهم وزراء المالية للأفراد، "تحت التاج" وكان هؤلاء التجار أنفسهم يشترون من خدم الامبراطورية الأسرى، الذين يقعون في أثناء الغزوات والحروب الداخلية بأيدي الملوك "البرابرة"، المرتبطين بعلاقات سلمية مع روما.

كانت قد تشكلت عدة مراكز ضخمة، متخصصة بهذا النوع من التجارة (مسينا عند مصبات الرون، أكيليا على الشاطئ الشمالي للأدرياتيك، ومن شرشونيز توريك). وقام أهم الأسواق في جزيرة ديلوس، حيث يباع، استناداً إلى سترابون، في بعض الأيام حتى ١٠ آلاف عبد. وفي روما ذاتها، على رصيف الـ "طريق المقدس" عند كعب الكابيتول، افتتح بصورة دائمة، معرض للعبيد، حيث تباع الدواب. كان سعر العبد المخصص للأعمال العسيرة أو الكبيرة ٢٠٠٠ سسترس، والعبد المتعلم بـ ٨٠٠٠، والطباخ الماهر حتى ١٠٠٠٠، إلخ.

بصورة دقيقة لا يمكن معرفة عدد العبيد الإجمالي في روما وإيطاليا، في القرن الأول، لكنه كان يتجاوز في الأغلب عدد الناس الأحرار. ولم يكف هذا العدد عن الازدياد مع الزمن، وفي أيام الامبراطورية، كان كثير من الأغنياء يملك ٢٠٠٠٠ عبداً، "حشود من الأفنان وقطعان من الرقيق"، كما يقول شيشرون مداعباً. انتشر تداول هذه الملكية حتى صار للعبيد الموصوفين أنفسهم عبيد. وصارت العبودية أساس الإنتاج.

### أشكال وطرق استغلال العبيد

بعدة انطلاقة الاقتصاد السلعي، بلغ استغلال اليد العاملة الرقيقة عند الرومان تطوره الأبعد والأتم. يعرف فارون *Varran* العبد بـ "أداة ناطقة"، ليميزه عن الـ "أداة المجترة" وعن الـ "أداة الصامتة أو الصماء". وكان المالكون الرومان، خشية الموت، الهرب أو التشويه، وغيره مما قد يصيب هذه الـ "أداة الناطقة"، لا يكتفون فقط بالبحث عن انتزاع أكبر ربح ممكن، بل استهلك نفقات حيازتهم بأقصر مدة ممكنة. ينتج من هذا أن الكدح المطلوب من العبيد يدفع إلى أبعد حدود طاقتهم الجسدية.

كان هذا الاستغلال الذي لا يرحم يتقل قبل كل شيء على العبيد الزراعيين، الذين كانوا يشكلون جمهرة العبيد الرومانيين. وفي علاجه للزراعة، التي كتبت في العام ١٦٠، يطلب كاتون من المسؤولين زيادة أعباء العبيد، دون مراعاة الوقت ولا يوم العطلة. مرتسان في العام فقط، بمناسبة أعياد رأس السنة ونهاية السنة، يتحرر العبيد من العمل. والاقتصاد الدقيق الجزئي، الذي يمكن من انتزاع من العبيد ليس فقط فضل-القيمة، بل جزء من الإنتاج الضروري لاستمرار حياتهم، كان شكلاً إضافياً من الاستغلال. وهكذا يبقونهم جائعين أبداً. كان وسطي تعيين العبد الشهري ٢٥-٣٠ كغ من الحنطة الرومانية، التي يدقونها بأنفسهم في جرن، ويصنعون منه خبزاً أو يأكلونه بشكل عصيدة، ونصف لتر من زيت الزيتون وحقنة من الملح (كاتون في الزراعة، ٥٦-٥٩). ويشربون عصير العنب الحامض الممدد كثيراً بالماء، يغلى خمسة أيام، ويحرك باستمرار بعصى (المرجع السابق، ١٠٤). ويستلم العبد لعام كامل كنزة، ومعطفاً قصيراً لسنتين. وتنتزع منهم ثيابهم الرثة ليصنع منها أغذية. ويتلقون قبقاباً خشبياً لعامين. وفي حقول سيسيليا الواسعة، وصف ديودور نفسه هذا النظام "بالسفاهة، والجشع المنقطع النظير، والخبث تجاه العبيد، والخداع الحقيق". فكان أغلب العبيد في سيسيليا مضطرين لسرقة غذائهم وثيابهم.

كان العبيد خاضعين لاستغلال لايرحم أيضاً، في مختلف صناعة الاستخراج وصناعة التحويل، في المناجم، والمقالع، وصناعة الأجر، والزيوت، والطواحين، والأفران، وورشات السيراميك والنسيج. ففي تجارة الطحين، مثلاً، كان يوضع في رقبة العبيد أطواقاً حديدية لئلاً يلتهم بفمه قبضة طحين، في أثناء العمل (بلوب، الأسرى، ٣٥٧). وفي الحديث عن عمال المناجم في مصر، يقول ديودور: "لايرتاح لالمرضى، ولا المشوهون، ولا النساء نظراً لضعفهم. الكل يعمل بدون استثناء، تحت السوط حتى يقع أخيراً، وقد هذه التعب" (ديودور، ٣، ١٢ و ١٣).

لايمكن، طبعاً تسخير العبيد بهذا الشكل إلا بوسائل الاضطهاد والإرهاب اللإنساني. وكان الضرب بقبضات اليد في الوجه كثيراً ما يؤدي لقلع الأسنان أو العينين، وهو المعاملة المتداولة. يشير الكتاب القدماء كثيراً إلى العصي والسياط، والأكف المحروقة، بالحديد المحمى حتى الاحمرار، للسارقين، والألسن-للثرائين، في عداد العقوبات التي يتعرض لها العبيد؛ والناجون كانوا موسومين بأحرف: هارب. والأقل طاعة، العبيد "السيئون"، كانوا يرسفون بسلاسل الحديد ويوضعون في سراديب، أو يكلفون بتدوير حجر الرحى، وفي المقالع؛ وأخيراً وهذا الأدهى، كانوا يصلبون.

كان وضع عبيد المدن لدى أغنياء الرومان يختلف كثيراً عن وضع العبيد العاملين في الإنتاج. بين البوابين، والحجاب، والطباخين، والموسيقيين، إلخ. وبين خادمات السيدات، كان يوجد عدد، تشبه أعمالهم السيئة. على ذلك، كان صاحب مالك العبيد، الذي يعتني كثيراً بذويه أو أصدقائه، قاسياً جداً معهم.

### العبد غير موجود بنظر القانون الروماني

لضمان هذا النظام الإرهابي والتحكمي المتسلط، عرف رجال القانون الرومان كيف يضعون صيغة عميقة التعبير: "العبد ليس إنساناً"، نقرأ هذا في اللوائح (١٤، ١، ٤). يحدد المشرع كايوس هذا النص قائلاً: "العبيد، حيوانات وسلع أخرى". مجموعة القوانين، ٧، ١، ٣ (فقرة ١١) والمشرع الروماني الشهير أولبيان يعبر بصورة أوضح: "العبد أو أي دابة". (مجموعة القوانين، ٦، ١، ١٥، الفقرة ٣).

بهذا الحكم الأساسي، يعطي القانون الروماني سلطة غير محدودة لمالك العبد، مشبها إياه بشيء ما، دابة. فللمالك عليه حق الموت والحياة؟ وأن يزيد بكل الوسائل مدخول عمله قدر الإمكان.



ينجم عن هذا أن العبد كان محروماً من أبسط الحقوق المدنية. وحتى اسمه السابق يختفي عند تحرره، ويفرض له لقب مستعار، تماماً كذلك التي تعطى للحيوانات، كمثّل سيروس، سيتوس، ليديا، حسب أمته الأصلية، أو هكتور، أجاكس، هياسنس، نرسييس حسب أبطاله الأسطوريين، إلخ. وثمة نقوش كثيرة على القبور تمكننا من وضع قائمة حقيقية بألقاب العبيد هذه.

فضلاً عن هذا، لايعطي القانون الروماني العبد حق الزواج والأسرة. فليس بينهم سوى مساكنة مؤقتة، حسب إرادة وأمر المالك؛ فمن أجل اعتبارات الاقتصاد العائلي كان المشرف ملزماً أن يتزوج المرأة الخادمة. وكان أولاد هذه المساكنة ملك صاحب الأم، وليس لأهلهم عليهم أي حق.

لايعترف القانون للعبد بأي حق في التملك. وكل ما قد يدخره العبد يستطيع السيد أن ينتزعه. أحياناً، يضع هذا الأخير بتصرف العبد ملكاً ما، أدوات مهنية، مثلاً، ليبسر له فتح ورشة، تاركاً له حق التمتع بجزء من المردود. لكن، بحسب نظرية المشرعين الرومان، "يولد الوفّر ويموت بإرادة السيد"، ومايربحه العبد، أو وفّره، يمكن أن ينتزع منه في كل لحظة.

أخيراً ليس العبد مسؤولاً عن أعمال أمام المحاكم. والتعويض الناجم عن ضرر الحقّ العبد بشخص ما، يؤديه السيد، الذي يستطيع التملص بتسليم العبد إلى الجهة المتضررة. وكانت القضية تعرض لزاماً أمام القضاء ويكون العبد شاهداً، وإذا خرج من هذا الاستجواب مشوهاً أو مات، يتلقّى السيد تعويضاً نقدياً.

هكذا تشكل، في الامبراطورية الرومانية، بدءاً من القرن الثاني ق.م، مجتمع أخذ فيه العبد يتطور وينمو بشكل غير معروف في العالم القديم.

## الفصل الواحد والخمسون

# ظهور المزارع الكبيرة وطرد طبقة الفلاحين من الأرض

### تشكيل حقول واسعة في إيطاليا تحريثها يد عاملة أجنبية

اغتنى النبلاء، وأوقف الفرسان فائض مصادرهم النقدية واليد العاملة الأجنبية لحيازة الأملاك الواسعة في الأرياف، ليحرثها العبيد. وكان الفرسان الذين يفضلون الاهتمام بالربا وجباية الضرائب، كانوا يوظفون شطراً من أموالهم في الصناعة والتجارة. على ذلك، كانت السلع الصناعية تصنع في ورشات صغيرة، وتصدر إلى الأسواق الأقرب، والتاجر لا يستطيع، بالتالي، التدخل في هذا إلا لمشتري قليل الأهمية. وليس للتجارة الرومانية أيضاً، وبخاصة التجارة البحرية، سوى طابع الوساطة ولا يتيسر لها أن تزاخم تجارة شعوب شرق البحر الأبيض المتوسط. ولقد وقفت الأعمال التجارية الرومانية والإيطالية، عديمة الخبرة، ومهارتهم وعلاقاتهم مع زملائهم الشرقيين (اليونان، آسيا الصغرى، السوريين، الفنيقيين، واليهود)، عند إعادة بيع بضائع الشرق، واقتصررت التجارة البعيدة على سوريا والاسكندرية. إذن كانت التجارة، بعمامة، عملاً تحف به الصدامات والأخطار، وقلّة الشرف.

بالعكس، كانت حيازة الأرض السبيل الأنسب، الأمن وحتى "أشرف" لجني المردود. فامتلاك الحقول الواسعة يشجع الأشراف: وفي شخص العديد من المعمرين، المزارعين، صغار المالكين، حاضرات الجوار، التي تشكل زين الغني العقاري، كان يحوز ناخبين تحت تصرفه، وتجعله الانتخابات يرسم درجة جديدة في سلم هرمية الحكام، وتؤمن له المقام المناسب في حكومة الولاية، وتزوده، بالتالي، بجني غنائم كبيرة.

في (الحروب الأهلية ٧٠١) يصف ولادة هذه الممتلكات العقارية الواسعة. يقول: في أيام الخضوع لإيطاليا، كانت الأراضي المحتلة منقسمة إلى عينتين: (١) الأراضي المحروثة،

التي أفرزت، ليتم توزيعها على المحرومين الرومان، لافرق إن بيعت أو أجرت؛ (٢) الأراضي البور، تمثل المساحة الأوسع، وتشكل "الملك العام"؛ لكل من يرغب يقدر أن يحتل قطعة منها، على أن ينقذ الدولة سنوياً مبلغاً قد يصل إلى ١٠/١ المحصول من المزروعات و ٥/١ الثمار؛ وكانت المخصصات المطلوبة من المستثمرين تحسب بنسبة معينة. كانت هذه الأحكام تهدف إذن إلى إرضاء الفلاحين الصغار. "وكانت النتيجة مع ذلك معاكسة تماماً: فالأغنياء، وقد احتلوا الشطر الأكبر من هذه الأرض الموات، وتأسيساً على التقادم الزمني المكسب يكون الأمل لديهم أنها لن تنتزع منهم، فراحوا يضمون إلى أراضيهم حصص جيرانهم الفقراء، إما بشرائها نقداً، أو احتلالها بالقوة، بحيث في نهاية المطاف، يصيرون أصحاب مزارع واسعة".

لكن هذه المزارع لم تتشكل عن طريق شراء، بل باحتلال الأملاك العامة. فبسبب الاهتمام المتزايد الذي يوليه للزراعة شيوخ العائلات الكبيرة والأغنياء، شهدنا في إيطاليا ازدهار الأعمال الزراعية. وفضلاً عن الترجمات (أبحاث القرطاجي ماغون وعلماء الزراعة اليونان، مثلاً)، ظهرت مؤلفات عديدة مبتكرة حول الزراعة. إن أعمال م.بورشيوس كاتون (حوالي العام ١٦٠ ق.م)، م.ترانتيوس فارون (حوالي العام ٤٠) ول.جونيو كولوميل (أواسط القرن الأول ق.م) وصلتنا كاملة.

يقدم بحث كاتون "في الزراعة" اهتماماً فريداً، فيما يدلنا إلى المزارع الضخمة يومئذ حيث نشأت. فشكل الزراعة الذي تبناه كاتون هو مشروع زراعي ذو طبيعة تجارية: "على المالك أن يسعى لأن يبيع أكثر ما يمكن وأن يشتري أقل ما يمكن". لذا، عند شراء عقار ما، ليس صحيحاً أن تهتم فقط بخصوبة التربة، بل أن تتأكد أن بجانبها تعيش مدينة كبرى، بحر، نهر قابل للإبحار أو درب جيد ومطروق من أجل نقل وبيع البضاعة. وفي الحقول جديدة النموذج، أبعدت زراعة الحبوب إلى الصف الثاني، وعلى سؤال: ماهي الزراعات المربحة وغير المربحة؟ يجيب كاتون: "أولاً، الكرمة، لأخذ الخمر الكثير، ثانياً: بستان مروي لزراعة البقول، ثالثاً: "حقل صفصاف لجدل السلال"، ورابعاً: حقل زيتون، وخامساً: مرعى، سادساً: أرض قابلة للزراعة، سابعاً غابة". (كاتون، ١، ٧) وفي الحقول الواقعة قرب المدن، البستنة خير الزراعات، بسبب الحاجة الدائمة لمنتجاتها.

هكذا، في القرن الثاني، بدأت الحقول تنظم بغية البيع بالجملة في الأسواق؛ وفقد استثمارها طبيعته المغلقة والرتيبة.

كان العامل الرئيسي وعملياً المشرف على الحقل هو مختار عادة من العبيد المطيعين الأمناء، المزارعين الجيدين والمتعلمين. تأتي بعده، امرأة متزوجة وطباخة، وهي عادة زوجته. تسهر على حفظ النظام في الاستئمار، تهيء غذاء العمال والمؤنات، إلخ...

يتألف الجهاز العامل أساساً من العبيد، ويشهد حساب اليد العاملة الأجيعة لوحدة مساحة محروثة (مثلاً ١٤ عاملاً لمائة مسكبة من الكرمة، حسب كاتون وخبراء آخرون، سازوما) إن عبيد الفيللا كانوا مرهقين بشكل مهين. مع أنهم لا ينفذون إلا الأعمال المتداولة ذات الخاصة المنتظمة إلى هذا الحد أو ذاك. وفي الأعمال العاجلة جداً، نجدة الحصاد مثلاً، يجبرون على استخدام العمال الأحرار، الذين يتلقون أجره عملهم ٨/١ أو حتى ٥/١ المحصول. وفي قطاف الزيتون، يتفق مع قادة كبريات رابطات عمال المقطوعية. وكانت الأراضي غير الملائمة للعمل أو تقع في أمكنة موبوءة تؤجر للمعمرين، للفلاحين الفقراء الأحرار، الذين يحرثونها مع عائلاتهم. وكانت عقود الخمس سنوات تجدد لنفس المدة.

وبحث كاتون أيضاً شاهد قديم، فيما يدل أن العمل الزراعي كان يشكل آنذاك قمة خبرة الأجيال المتعاقبة. وتتلخص نصائحه في موضوع الحراثة السريعة، في استخدام عدة أنواع من الأسمدة، تطعيم الأغراس الغضة، إلخ.

فيما يخص الأدوات، كانوا يستخدمون في القرن الثاني، وبعده، أدوات ري ضخمة وبداية، نفس سكة الحديد، ذات المعازق، مناجل ومقابض حديد، مستخدمة منذ أيام الملوك. الجديد في هذا المجال الـ *trapetum*، نوع من المكبس الزيتي، وحجرا رحى يحركها حمار (كاتون، *ch*، ١٠)، وكانوا مايزالون يعصرون العنب بأقدامهم ويطحنون الحبوب بالأجران الحجرية. هنا يظهر بالتأكيد هذا الظرف الفريد للعمل المسأجور الذي يحسده ماركس هكذا: "العبودية، وسوء المعاملة والمبدأ الاقتصادي، المطبق في أسلوب الإنتاج هذا، يتلخص باستخدام أدوات عمل صلبة وثقيلة لئلا تتلف". فالاستئمار الضخمة التي تستخدم اليد العاملة الأجيعة كانت، بالتالي، تتخطى في نفق تقني مغلق وكان تطورها يصطاد بحاجز منيع لا يمكن تجاوزه ولا عقلنته.

لكن الأمر الأخطر على مالكي العبيد هو أن هؤلاء لن يكتفوا بتخريب سرراً أدوات

---

١ - ماركس. رأس المال، لكتاب الأول، المجلد الأول. ص ١٩٦.

وحيوانات العمل. بل قد يتحول غضبهم إلى اضطرابات مكشوفة بالقوة وتفضي إلى سوقة وتدمير الحقول. فالتكهين المخيف لهذا التوقع يستشف بوضوح من كلام كاتون: "كن يقظاً مع الجوار ولا تترك عبيدك يخاطونهم. وإن كان جوارك طيبين معهم، الأسهل لك أن تبيع ما يجب بيعه واستتجار عمال... وإن حدث مكروه، لا يرضي الله، سيسارعون بطيب قلب للدفاع عنك" (الفصل ٤). إن كاتون يخشى، كما يبدو، من تسمية سريعة لهذه الداهية، التي يقض توقعها كالكابوس مضجع كبار الملاكين العقاريين ويجعل رؤوس أموالهم الموظفة في الأرض في مهب الريح.

**حرمان الفلاحين الرومان والطلليان من الأرض؛ وظهور "الدهماء المدينية".**  
"الاستثمارات الضخمة خسرت إيطاليا"، يلاحظ بلين، في القرن الأول. وبالفعل، دمرت الحروب المستمرة في القرنين الثالث والثاني والضرائب الاستثنائية الباهظة التمويل، وتوسع توظيف اليد العاملة الأجيعة في الزراعة، وفيض القمح الرخيص من البلدان المحتلة، دمرت كلها الاستثمارات الصغيرة وخلقت في إيطاليا شروطاً ملائمة لانتزاع ملكية عدد كبير من المزارعين. ولقد استغل كبار الملاكين الدمار العام للفلاحين الرومان والطلليان، إما بشراء من الفقراء الأسهم المجاورة لأراضيهم أو بنزعها بالقوة (أبليان، الحروب الأهلية ١، ٧). ويشير بلوتارك إلى أن الأغنياء استعدوا لاستتجار، بواسطة بعض السوق، أسهم الفقراء من الأرض التي انتهوا إلى احتلال شطرها الأكبر، وكان الفقراء أيضاً قد طردوا من أراضيهم.

كان هذا الحرمان الفلاحي يتطور بصورة عشوائية في مختلف أصقاع إيطاليا وعلى كل جال لم يكن قد تم بعد. كانت مناطق التندجين في ميدي (بروتيوم، لوكانيا، أبوليا) هي الأكثر تضرراً. أما في كامبانيا، لوتيوم وأتروريا، ثمة العديد من الاستثمارات الصغيرة، تهزل وتترنح، ولدى السامنيت، البلجيان والمارسييس، كانت الاستثمارات الفلاحية مائتال سليمة، وفي هذه الأصقاع الجبلية، لم تتوسع الاستثمارات الكبيرة أبداً. أخيراً، في شمال إيطاليا، كان الغول السيزالين، منطقة ملكيات ريفية صغيرة ومتوسطة؛ وكان المعمرون الطليان واللاتين، الذين أخذوا أكثر من ٣٠ سهماً من أرض الغولوا المبادرين أو المطرودين، يعيشون براحة وهناءة في هذه البقعة الخصبة.

على ذلك، فقد تراجع عدد الاستثمارات الفلاحية في القرن الثاني: كان عدد أبناء

المدينة، في عمر الدعوة لحمل السلاح، الذين يملكون حسب صنف المائة ملكية عقارية قد نقص ٢٠ ألف بين أعوام ١٦٩ و ١٣٥، وبقوا لا يقلون عن ٣٠٠٠٠٠.

من هؤلاء المحرومين، الذين نزعت منهم حصتهم العقارية، بقي البعض في البلاد، بصف مستوطن مزارع، وصار الآخرون مياومين، يعملون بأجر نقدي، أو بنصف أجر. لكن أرباح هؤلاء العمال الزراعيين كان ضئيلاً جداً وموسمياً فقط. فليس مدهشاً أن يكون فكر البروليتاريا الزراعية معادياً لكبار الملاكين، وأن يحلموا باقتسام حقولهم وأرزاقهم الأخرى.

لكن، منذ نهاية القرن الثالث، هاجرت جماهير الريفيين المدمرين والمملقين إلى المدينة، بحثاً عن أسباب الحياة. وعمل البعض مهنيين؛ وفي القرن الثالث، فتح في روما العديد من المخازن، والمصايغ، وأحواض لدعك الجوخ أو الجلد وحوانيت لصنع الأحذية. وبدأ آخرون أعمالاً تجارية صغيرة أو فتحوا نزلاً أو مطعمًا. وثمة من عمل في البناء، في البحر، في العتالة، إلخ.

لكن الغالبية لم تجد أعمالاً دائمة ومحددة، فعاشوا مشردين، معوزين وطفيليين. كانت هذه الجمهرة من خاويي البطون تقضي يومها في الساحات العامة والأسواق بحثاً عن عمل مؤقت يكسبهم فلساً أو اثنين، ليلتلعوا ما يقيت. الكوميديون التعساء يستأجرون منهم "مصفيين"، والمرشحون للوظائف الانتخابية يقدرون أن يشتروا منهم عدد الأصوات الضروري، وشكل منهم الأغنياء ماشاؤوا من الأتباع والموالي.

في روما والمدن الإيطالية الكبرى الأخرى تشكلت شريحة من المعدمين، كان يسميهم المعاصرون باحتقار الدهماء المدنية. واستخدمت اليد العاملة الرقيقة الرخيصة في كل فروع الاقتصاد الموجودة في ذلك العهد، منعت الدهماء المدنية من أن تصير طبقة من المأجورين الأحرار وحكم عليها بحياة البطالة والجوع دون وسيلة حياة أخرى سوى الربح العارض وإحسان الأغنياء. والنتيجة الطبيعية لهذه الشروط، أن تفقد الدهماء المدنية أهلية العمل ورغبة العثور على عمل دائم. لذا كان ماركس، الذي سماهم "بطالة الأنذال" الرومان، يفرق بين البروليتاريا العمالية في أوروبا الجديدة: و"البروليتاريا الرومانية التي كانت تعيش على حساب المجتمع، بينما يعيش المجتمع المعاصر على حساب البروليتاريا

الجديدة<sup>١</sup>. ففي حركة روما الاجتماعية لم تكن الدماء المدينية، بعكس البروليتاريا المعاصرة، لم تكن قوة مجابهة وثورة، بل كانت تلعب دوراً ضاراً بشكل استثنائي، لكبح التقدم الاجتماعي.

---

<sup>١</sup> - ك.ماركس، ١٨ برومير للويس بوناپرت، باريس، دار النشر الاجتماعية الأممية ١٩٢٨،

## الفصل الثاني والخمسون

# الثورة الثقافية في روما منذ نهاية القرن الثالث حتى بداية القرن الثاني

لقد تراكمت التبدلات الاجتماعية والاقتصادية الناجمة عن تحول روما إلى امبراطورية عظمى عبودية بحر-أوسطية مع تغير ليس أقل عمقاً بكل أوجه الحياة الرومانية، ثورة حقيقية في حقل الحضارة المادية والروحية.

قبل كل شيء، صارت روما مدينة ضخمة، من حيث امتدادها، ومن حيث عدد سكانها. تدفق الناس في أرجاء إيطاليا كلها، وتوافد إليها الأجانب ليقيموا فيها، يونان، سوريون ويهود بخاصة. وأضحت عاصمة كل عالم البحر المتوسط. شيدت فيها صروح عامة رائعة وبيوت خاصة، رصفت الشوارع بالحجارة، وبلطت الأسواق والميادين، أقيمت سدود جديدة على التيبر. إنما في الوقت ذاته، وحتى من حيث المظهر الخارجي، كانت روما تشهد بصورة جلية التناقضات العميقة التي كانت في أساس هذه الامبراطورية الشاسعة التي خلقتها. فإلى جانب أكواخ الدهماء القذرة، بدأ المقاولون يبنون بيوت سكن رخيصة أحياناً من ثلاثة طوابق، عدا القبو. بنيت بالأجر على هيكل خشبي، فتنهار أحياناً تحترق كثيراً. كانت الطوابق تجهز بسلام ضيقة وتقسم إلى حجرات صغيرة محرومة من أسباب الراحة، حيث تتكدس الأسر الفقيرة. والقمامة، المرمية في الأدوار والشوارع، كانت تشكل بؤراً عفنة تنتشر الأوبئة. وبجوار هذه الأكواخ الوسخة، تدفقت الأحياء حيث يشيد الإغنياء الجدد داراتهم (بخاصة في البالاتان، وهي الأصل لكلمة قصر *palais*)، حسب النمط الهلنستي، بأعمدته وحدائقه ونباتات الزينة المعرشة والمقلمة بأشكال فنية. فيها الشقق المريحة، غرف الحمام، بلاط الموزاييك، الجدران المغطاة بالرخام الثمين واللوحات الجدارية، الأثاث المذهب، والعاج، إلخ. إن الدارات المدنية للكرستقراطية الرومانية، المشهورة في كل الأنحاء بروعتها (مثل تيبور واليوم تيفولي) ومحطات الاستحمام تتميز



بترف باذخ. لقد ترك النبلاء الرومان أنفسهم يغرقون في الملذات الجسدية. دونما تردد أمام أي نفقة للاحتفال حيث يعيش المدعوون الشراهة والنهم المنفلت والسكر بدون حدود. ولقد اختفت نزاهة وتكشف الأخلاق القديمة: بثيابها المتواضعة التي كانت ترتديها النساء المهيئات، وحل محلها السجف والفرو والديباج، وأتى أسلوب المظلة ومراوح ريش الطاووس، والتسريحات النسائية المبتكرة. آنذ بدأت شهرة النمش، ومذابح الحيوانات المتوحشة من أجل جلدها وشعرها، والمصارعات الدامية، صارت مشهدة عاما مألوفا. حتى ذلك العهد، لم تقبل هذه المقاتل إلا في المآتم، كواحدة من مخلفات الضحايا البشرية. لكن مع هذه العيوب الغربية بدأت تنتشر أيضا القيم الثقافية للحضارات الأجنبية اليونانية بخاصة. "اليونان الأسيرة، كما لاحظ هوراس فيما بعد، غزت قاهرها المتوحش وفتنت بالفنون الريفية لاتيوم" فمنذ بداية القرن الثاني ق.م صار المربي اليوناني الملحق الضروري لكل بيت روماني.

بتأثير هذا الشغف بالهيلينية بدأت تتشكل ثقافة جديدة رومانية منذ نهاية القرن الثالث وحتى بداية القرن الثاني ق.م.

إن المربي العبد يوناني الأصل، نيرانتان ليفيوس أندرونيوس هو أيضا أي الأدب الروماني؛ فقد ترجم إلى اللاتينية أوديسة هوميروس (حوالي العام ٢٤٠ ق.م) وكتب بالأسلوب اليوناني أولى الكوميديات والتراجيديات الرومانية.

لكامبانيا، المطبوعة تماما بالطابع الإغريقي، تدن روما بشاعرها الثاني سنيوس نافايوس، كاتب أول قصيدة ملحمية لاتينية "الحرب الفينيقية" (بسبعة كتب). وترجم نافايوس كوميديات وتراجيديات يونانية وكتب ("أثواب النبلاء"، هكذا سميت لأن شخوصها كانوا يرتدون، على الطريقة الرومانية قفطانا. في أحد أعماله، نقرأ هذه العبارة: "لقد أحببت الحرية أبدا وأبدا وضعتها فوق المال". كان نافايوس، الطامح لأن يصير "أرستوفان الرومان"، يسخر من عيوب بعض الرجال العتاة، الأمر الذي كلفه حريته فرمي في السجن؛ والطرده من روما، والموت في المنفى (حوالي سنة ٢٠٠).

ونفس الروح الديمقراطية تشف من أعمال بلوت (تييتوس ماسيوس بلوتوس، حوالي ٢٥٤-١٨٤)، مهاجر فقير من أومبريا.

فبعد أن جرب، جميع أنواع المهن في روما، صار بلوت، الذي دخل المسرح بشخص

خادم، صار هو نفسه كاتب كوميديات شعبية بحتة (وصلنا منها ٢١ ملهة). انتقل أثرها إلى اليونان، لكن مع الإدعاء أنها تسخر من "أخلاق الرومان" تفصح في المجال أنها ليست غريبة على روما. فقرحتها الساخرة تستوحي بخاصة بعض مظاهر المجتمع الروماني الجديد؛ من حيث العسكرية المظفرة في (الجندي المتبحر)، والتعطش للثروة في (القدر) وفي الوقت ذاته يشيع حماسا ملتهبا تجاه الفقراء والعبيد العدو ستيتشوس *stichus*.

لكن الرجعية السياسية، التي بزغت في روما في النصف الأول من القرن الثاني، كان لها شعراؤها أيضا. كان أنيوس كالابري الأصل، الذي وصل إلى روما في العام ٢٠٤، الشاعر الغنائي للأرستقراطية الرومانية؛ وكان يسخر على المكشوف من "نافيوس الفظ" ويطنب في إطرء سيبليون الإغريقي. وفي شعره، كان يمجّد الأبطال الرومان، من إيني *Ene* حتى فابيوس ماكسموس، "المماطل"، ويكره الشعب. لكنه تحدث أيضا، شعرا عن نظريات الفلاسفة الماديين والعقلانيين اليونان (إيشارم وأقيمير). مات في العام ١٦٩، حاصلا على حق ابن المدينة. ولقد رفع له آل سيبليون نصباً في مقبرة أسرهم.

ابن أخ أنيوس، اشتهر الشاعر والرسام باكونيوس (٢٢٠-١٣٠) بتراجيدياته التي اقتتدت بأخيل، سوفوكليس وأوريبيد، لكن الشعب ظل غير مبال بأعماله. وهو لم يهتم بأعمال الشاعر الكوميدي بوبليوس أفير، أحد أنصار الاتجاهات الأرستقراطية (حوالي ١٩٠-١٥٩)، الذي حرره عضو مجلس الشيوخ ترانتيس لوكاموس. وفي كوميدياته (كلها ست)، كان ترانس شارحا أذواق وروح النخبة المستنيرة من المجتمع الروماني. وهو صاحب هذا القول الذي صار مثلاً: "أنا إنسان؛ إنساني لأشيء غريب علي".

الفنون الجميلة بدأت تزدهر، بفضل الروائع الكثيرة المقتبسة من المدن اليونانية، والداخلة إلى روما بخاصة بواسطة بول-إميل (١٦٨) ول. موميوس (١٤٦). ومنذ انتشر أسلوب الأعمال المختارة، ولما كانت الأصول لانفي بالطلب بديء بنسخ النماذج اليونانية (أبولون بلغدير واحد من هذه الأعمال). كانت لوحات المعارك هي أهم ما طلب من الرسامين اليونان. ثم صار للرومان رساموهم. ومنذ العام ٣٠٤، أبدع أحد أحفاد فابيوس بريشته صورة لمعبد "الخلاص"، ومن هنا أتى لقب بيكتور الذي انتقل إلى ذريته.

اشتهر الشاعر باكونيوس أيضاً باللوحة التي رسمت في معبد هرقل، من كل أعمال القرنين الثالث والثاني لم يصلنا للأسف سوى شطر صغير من قبر يعود للقرن الثالث. مع

أننا نعرف الكثير عن النحت والنقش الروماني لذلك العهد. وقد ولدت عادة صلب قالب شمعي لقناع المتوفين، عادة إبراز سيمائهم، في الحجر أو الرخام، مع الإلحاح على الشبه الدقيق، مع كل تفرداتهم وحتى عيوب الوجه. ومن هنا كان فن الرسم النصفي الروماني بواقعية أخاذة. ومن أنصاب رائعة من ذلك الزمن لم يبق سوى بعض البقايا من البازليك<sup>١</sup> الإميلاني *basilique emilienne*، الذي أقيم في العام ١٧٩.

وبتأثير الفلسفة اليونانية تغيرت المفاهيم الساذجة السالفة أيضا، على الأقل في أعلى مراتب المجتمع. كان لسيبيون إميليان صديق هو الفيلسوف اليوناني بانتيوس الذي، كالمؤرخ بوليب، كان يرافقه في حملاته. فكان انصار الموروث الروماني القديم، المصطفون خلف كاتون، عاجزين عن منع تغلغل أفكار الفلاسفة اليونان. وكذلك كان عبثا تصرف أعضاء مجلس الشيوخ الذين نفوا مرة الفلاسفة اليونان من إيطاليا.

بدأ التأريخ الروماني يتطور بدءا من نهاية القرن الثالث. فكتب عضو مجلس الشيوخ فابيوس بكتور حوالي العام ٢٠٠ أول تاريخ روماني، منذ تأسيس المدينة حتى زمنه، استنادا إلى التسلسل التاريخي الرسمي، وتقاليد الأسرة والمصادر الأخرى. كان هذا العمل الذي يقترح أن يدل اليونان إلى جبروت الدولة الرومانية، قد كتب بلغتهم. وكتب "أغلب الحوليين" الآخرين، الذين أتوا بعد فابيوس، ل. سانسيسوس، المانتوس (مقاتل في الحرب الفينيقية الثانية) وبستونيوس ألبنيوس (حوالي العام ١٥٠)، كتبوا أيضا باليونانية. بينما كتب كاتون باللاتينية "أصوله"، التي وصلنا أجزاء منها. سرد في هذا التاريخ ولادة روما وأولى عهودها، والعديد من الحاضرات الأخرى، مستندا إلى التسلسل التاريخي، والنقوش والآثار الأخرى.

يقول، معارضا المبالغة في الأهمية التي ينسبها المؤرخون للرجال العظام: "ليس القنصل بول هو من صرع بيرسيه، بل الشعب الروماني".

كان من الطبيعي أن تبدأ العلوم الطبيعية والرياضية بالازدهار أيضا في روما، في هذا العصر. فبدون معارفهم بالرياضيات، بالميكانيك، لما استطاع المعماريون والمهندسون الرومان أن ينجزوا أعمالا ضخمة (البازليك، أفنية الري، الجسور)، وأن يعمرُوا سفنا من

---

<sup>١</sup> - مبنى روماني مستطيل في أحد طرفيه جزء ناتئ نصف دائري-المترجم.

مجازيف خماسية، إلخ. لكننا لانعرف اسم أي رياضي، فيزيائي أو ميكانيكي روماني من ذلك العصر. معروف فقط أن ضابطا رومانيا تنبأ بكسوف الشمس في العام ١٦٨.

كما تمت ثورة عميقة في مجال الدين. فمذ القرنين السادس والخامس ق.م. مع تطورات الزراعة، بدأت الإحيائية البدائية تتبلور في عبادة الآلهة التي ترأس أعمال الحقول. واحتلت قوى الطبيعة، المؤثرة في عمل الفلاح أهمية واسعة: إذ صارت لدى الرومان "الآلهة الأبوية". فكان فيفكتور وريبارتور، إلهي الحرث، أنستور، إله البذر، بروسربين، إله الإنبات، فلورا، إلهة الإزهار، ماتورا، إلهة النضج، إلخ. كان يرأس هذه الآلهة العديدة سيدة الفلاحين ثلاثية الآلهة (كلية الخير، كلية العظمة): جوبتير، إله السماء، العاصفة والمطر، وفيما بعد إله الخمر، مارس، إله الحقول، والأعمال الزراعية وفي الوقت ذاته إله الحرب أما كيرينوس، لم تحدد مهامه بعد بوضوح.

كان الخط الأهم في هذه العبادة العامة الرومانية هو خاصية العقلنة العميقة، العادية، وفي غاية النفعية. فيرفع الصلاة لهذا الإله أو ذاك، مسعى لإقامة علاقة معه تعاقدية، إلزامية لكلا الطرفين: عطاء بعباء (*do at des*) يكون الانطلاق من هذه الفكرة إن كانت كل الصيغ المتوجبة في إتمام العمل الديني مراقبة بدقة وكل الشروط مصاغة بوضوح، وهكذا يتم الضمان الذي تلتزم به الآلهة، هي الأخرى، وتقدم التزاماتها. إن هذه الصياغة الطقسية للعبادة الرومانية القديمة يجب أن تظمن المزارع الصغير، عبد ارتباطاته، الذي كان بعامه روماني من الزمن الغابر.

إنما منذ عهد السيطرة الأتروسكية، مع انطلاقة المهن والتجارة في روما، وإقامة علاقات أمتن مع الأجزاء المجاورة في إيطاليا، أخذ عدد متزايد أبدا من "الآلهة الجدد الأجانب مكانا في الدين الروماني.

إن جونون ومنيرفا اللذين أتت عبادتهما من أثروريا، مع جوبتير، يشكلون "ثلاثية الكابيتول، وصاروا الآلهة العليا للبانثيون<sup>١</sup> الرسمي. وحوالي العام ٥٠٠، بدأ تعبد اليونان لهرقل وتابعيه ديونسوس وبوللوكس، أبولون وأرتميس (ديانا)، يتغلغل في روما. وتعبد ديميتير وتابعيه ديونسوس وكوري، الذين سمو الآلهة الرومانية القديمة المقابلة، سيرس،

<sup>١</sup> - مجمع الأرباب عند القدماء - المترجم.

ليبر وليبرا، وفدت من سيسيليا، وهذا ما يعلل شراء القمح المستمرة من هذه الولاية لكفاية حاجات روما. ومعبدهم المبني في العام ٤٠٦ على رابية أفانتان، وصار قلعة للدهماء، بني على النمط الإغريقي، وكان التعبد فيه مشهورا " على الطريقة اليونانية *a'la greque*، ومع راهبات يونانيات: في ذات الوقت، انتقلت عبادة أبولون إلى روما، طبعا من كومس - إحدى المستعمرات اليونانية، و"كتب العرافة" وفدت كمجموعة إرشادات من النبيات الشهيرات اليونانيات.

كان الدين الروماني يقدم بالتالي، في منتصف القرن الثاني، من اغرب العناصر القديمة والجديدة. كانت الشرائع العليا من المجتمع قد صارت لامبالية، بل متشككة بقضية الدين. ورجال دولة هامون، في ممارسة وظائفهم، يتهمون على الملأ على تكهنات (س.فلامنوس، مثلا). وفي أوساط الشعب، في روما كما في إيطاليا، شكلت عدة طوائف يونانية (أورفست، ديونزيك، إلخ)، أخويات سرية، على نمط كاهنات باخوس اليونان، التي تهودت أو تراجعت عن الوثنية.

كان الشيوخ الرومان ينجحون أحيانا، وهذا صحيح، بإثارة ردود فعل وحشية عارضة ضد هذه الهرطقات، مثل دعوى بكشنال للعام ١٨٦، التي قضت على سبعة آلاف إنسان. لكن أي تدبير بوليسي لم يكن قادرا على صرف الناس عن تحطيم نير دين الدولة. فلم تعد الحكومة الأولغارشية الرومانية تملك هذا الكابح الروحي الذي كان يشكل أحد سبل السيطرة على الفئات السفلى من الناس الأحرار.

## الفصل الثالث والخمسون

### بدء الحركة الثورية لدى العبيد

المتطردون العبيد في إيطاليا في أثناء النصف الأول من القرن الثاني ق.م

كان تأسيس امبراطورية عبودية واسعة، وما ولدت من علاقات اقتصادية واجتماعية، قد خلق في روما وفي الولايات، في بداية القرن الثاني ق.م. جملة من التناقضات الاجتماعية الحادة.

الأولى، التناقض الأساسي، كان التناحر بين العبيد وسادتهم، الذي احتدم بخاصة منذ بداية القرن، بسبب تنامي استخدام اليد العاملة الرقيقة.

فمنذ العام ٢٠٠، ومع مضاعفة الحقول الكبرى، أخذت حركة الرقيق طابع التمردات المحلية بسعة هامة، اشترك بها مئات بل ألوف العبيد، لكن على مدى إقليمي محدود نسبيا. الانفجار الأول من هذا النوع أشار إليه تيت-لايف (٣٢-٢٦)، حوالي العام ١٩٨، في المستعمرة الرومانية سيتيا، من لاتيوم. كانت هذه المستعمرة المقر الرئيس لمجموعة رهائن قرطاجية من عائلات متميزة، كانوا يعيشون فيها عيشة البذخ، وكانوا محاطين بعدد ضخم من عبيدهم، طبعا الإفريقيين. كان هؤلاء الأخيرون قد وضعوا هنا لمهاجمة، في يوم عيد، المسرح، حيث يجتمع سادتهم مع سكان سيتيا الأحرار. وبعد ذبح الموجودين، اقترحوا الوصول إلى مرفأ سيرسيوم المجاور، ليحتلوا سفنا تحملهم إلى وطنهم. فشلت المكيدة، لأن الخوثة وشوا بهم إلى سلطات العاصمة. جمع حاكم روما ٩٠٠٠ جنديا، ووصل في الوقت المناسب إلى سيتيا: سلم عدد كبير من العصاة على الفور للتعذيب، وأسر فيما بعد الـ ٥٠٠ الذين هربوا. إن مؤامرة عدد من الرجال الشجعان، يعينون لحظة المبادرة، ويرسمون العودة إلى الوطن، والخيانة المفضية إلى فشل المشروع، -هي الشروط المميزة لعشرات الانفجارات من هذا النوع.

يذكر تيت-لايف (٣٦، ٣٣) انتفاضة أخرى أضخم، نشبت في العام ١٩٦، في

أثروريا، إحدى الولايات التي يهيمن فيها كبار الملاك الريفيين. كان المتمردون قد نجحوا بتشكيل جيش حقيقي، ألزم السادة بإرسال جيش كامل لمقاتلتهم. انهزموا نتيجة معركة نظامية، قتل أكثرهم أو سجن، صلب قاداتهم، عوقب الآخرون أو أعيدوا إلى ساداتهم. المقصود هذه المرة عصيان جاد حاسم جدا بأبعاده، في الجوار المباشرة لروما.

وفي العام ١٨٥، انتفض رعاة أبوليا ولم يقمعوا إلا بعد جهد: "كانوا يغثرون على الطرقات والمراعي العامة" (تيت-لايف، ٢٩، ٣٩)، وقد استطاعوا عزل الميدي وألزموا اللواء التأديبي المرسل لقمعهم أن يرحل عن تارانت. وبعد سحق العصيان، أعدم الحاكم يوستوميوس ٧ آلاف عبد متمرّد، لكن الحكم لم يستطع أن يقضي على الجميع لأن "عسدا كبيرا منهم قد هرب"، واستمروا يقاومون بضراوة. وسلم الباقي للتعذيب، فضلا الأذى الضخم الذي لحق بالكيهم لخسارتهم كمنتجين.

لقد أثرت عصيانات العبيد، في بداية القرن الثاني، على أقاليم عديدة، وفي هذه الانتفاضات، كانت مقاومة الجماهير الرقيقة أكثر فأكثر جرأة وتلازما، رغم محافظتها على الطابع المحلي، إنما في النصف الثاني من القرن الثاني، نشبت حركات بعنف لا مثيل له، شمل ولايات بكاملها وهدد بالتحول إلى حريق شامل. هكذا كانت تمردات عبيد سيسيليا، أتاكنيا وإقليم آسيا، التي زعزعت بعمق كل العالم الرقيق.

### تمرد عبيد سيسيليا الأول (١٣٨-١٣٢). تمرد أرسطونكوس في برغام

كان تمرد العبيد الأول، في سيسيليا، الذي دام ٧ سنوات كاملات، كم قال أورو "ذبالة مشتعلة نشرت حريقا في أمكنة عديدة". "أبدا لم تنتشب انتفاضة عبيد تماثل التي انفجرت في سيسيليا"، يكتب ديودور (٢٥، ٣٥)، مرجعنا الرئيس في هذا الحدث.

كان نهج الاستثمارات الضخمة التي أحيها العبيد ذا جذوة قديمة في سيسيليا حيث بدأ يتطور منذ أيام الاستعمار اليوناني والقرطاجي. وإلى سيكيل *Sicules* الأصليين أضاف اليونان جموعا من العبيد المستوردين واشتروا الكثير من العبيد السوريين، العمال المهرة والحراث الطيبين.

"كان في سيسيليا ما لا يحصى من العبيد، يقول ديودور، حتى أن الناس الذين يسمعون هذا القول يرفضون تصديقه ويرون أنه يبالغ". ولما سقطت سيسيليا بيد الرومان، لم يطرأ على هذه المجالات الواسعة من اليد العاملة العبد سوى تبديل السيد. ("كان أغلب مالكي

العبيد فرسانا رومانين"، يكتب ديودور)، لكنهم استمروا في التطور متبعين الخط ذاته.

كان عبيد سيسيليا ضحايا استثمار بربري، حتى في الزمن القديم. كانت حبوب، وخمر، وزيت زيتون الحقول السيسيلية، المصدرة إلى روما، والمدن الإيطالية الأخرى، وعن طريق كورنثيا، تباع في بلوونيز، بأرباح ضخمة. وكان المالكون يدفعون إلى التوفير في نفقات الإنتاج ليوزعوا ما استطاعوا الغذاء والثياب إلى عبيدهم الذين كانوا يتحولون إلى قرصنة الدروب ليؤمنوا عيشهم.

وفي الوقت ذاته، كان نهج الزراعة الضخمة يوظف العبيد في تنظيم مختص، يدفعهم بسهولة لأن يصيروا ثورين، ليناضلوا ضد سادتهم المكروهين.

بدأت الحركة في سيسيليا أيضا بمكيدة بين العبيد الذين يعملون في حق المالك الكبير داموفيلوس الذي اشتهر بهذا الاسم وكذلك زوجته ميغالس لقسوتهم الشاذة مع العبيد. كلنت اراضي داموفلس تقع في الشطر الأخصب من سيسيليا، قرب هينا.

كان العصاة بداية قلة، حوالي ٤٠٠، لكن قائدهم كان يشبه إنسانا نابعا من الناس. كان سوريا اسمه أونوس ("المضحى"، لقب نموذج للعبد)، مهرجا مأخوذا من لندن أحد كبار السادة العقاريين في المنطقة، وعرف كنائب "للإلهة السورية العظمى". اختار العبيد أنسب وقت، الحصاد على أشده في العام ١٣٨، فصل تجمعهم في الحقول، فاجأوا مدينة هينا بالسلاح ووقف إلى جانب عبيد المالكين الذين سلكوا معهم سلوكا إنسانيا. وأعادوا إلى كاتان تحت الحراسة ابنه داموفلس، الذي كان قد توسط لصالحهم.

توبع مثال هينا مرارا في مدن سيسيليا الشرقية الأخرى. وفي أغريجن، مركز إنتاج الزيتون، كان على رأس التمرد سائس الخيل كليون، الذي كان قد انصرف في فتوته للصوصية في جبال توروس، وجمع حشدا من ٥٠٠٠ رجل. وانتفض العبيد أيضا في مسينا، ليونتيوم، كاتان وتورومانيوس. وصل عدد المتمردين، حسب ديودور، حتى ٢٠٠ ألف رجل. وكان موقف الدهماء المعسرة في المدن منذرا بالخطر. "كان الناس المساكين، يقول، دون إبداء أي تعاطف مع الأغنياء، يبتهجون؛" رجال من العامة، عبيد يغزون الأرياف، ويحرقون الدارات".

كانت حاشية الحكام على رأس القوات المحلية عاجزة عن كبح هذه الحركة التي احتلت سيسيليا الشرقية كلها، ولم يستطع جيشان أرسلتا من إيطاليا أن يقمعوها. حكم العبيد



العصاة لأربع سنوات الشطر الأعظم من كل سيسيليا، حيث أسسوا دولتهم، وعاصمتها هينا، وحيث عاشوا، حسب قول ديودور، "في ازدهار تام".

كان تنظيم دولة العبيد هذه يؤثر الفصول بشكل استثنائي. كان يقدم ترتيباً مبتكراً لنظام عاهلي وديموقراطي. كان العصاة وبينهم كثير من السوريين قد "انتخبوا" قائدهم أونوس، ملكاً باسم أنطيوخوس، الذي اشتهر بعدة ملوك من الأسرة الحاكمة السورية، التعبير الساذج عن سلطتها المطلقة وجبروتها. إنما، رغم أن هذا "الملك" المنتخب كان يرتدي، حسب العادة، ثوب الملوك ويعتمر تاج الملوك، وله "ملكة"، لم يكن أبداً عاهلاً على النمط الهليني. "باعتباره ملك دولة المتمردين، جمع أونوس مجلس الشعب"، يقول ديودور. وكانت تعمل إلى جانبه أيضاً محكمة شعبية، تقيم فسي المسرح، أكثر أعضائها من المتمردين؛ كانت تشكل إن صح التعبير صيغة أخرى من الجمعية الوطنية، من طبيعة قضائية. كان إلى جانب الملك "مستشارية" مؤلفة من أبرز الشخصيات بين العبيد: السيسيلي كليون، الذي رفع إلى جنرال أعلى، وأخوه كومانوس، واليوناني النابغة آشيسوس، وكثير غيره. كان أكثر ما يفاجئ مالكي العبيد، هو حلول الوثام بين هؤلاء الآخرين، ورغم أنهم من أمم عديدة، اعترفوا طوعاً بسلطة أونوس.

ما يشد الانتباه أيضاً التدابير الاقتصادية التي اتخذتها "مملكة العبيد" هذه، الأمر الأهم -يؤكد ديودور بدهشة (٤٨،٢،٣٥)- هو أن العبيد العصاة، يهنمون بالمستقبل بحكمة، لم يحرقوا الدارات الصغيرة، لم يحطموا الأدوات والآلات التي كانت بين أيديهم ولم يمسوا بسوء أولئك الذين استمروا يحرثون أرضهم، "حالمين طبعاً بالعودة هم أنفسهم إلى شرط الفلاحين الصغار الأحرار والمستقلين، بعد توزيع الاستثمارات الضخمة. وفي المدن، "أمر أونوس بعدم إيذاء صنّاع الأسلحة، الذين أرسلوا إلى العمل، بسلاسل الحديد"، من أجل حاجة جيش المتمردين.

كان خطأ الحركة الأخطر، الذي سلمها إلى هزيمة محتمة، هو طبيعتها الدفاعية، وعجزها عن الخروج من الإطار المحلي وإقامة علاقات مع الأماكن الأخرى لتمرد العبيد التي تفجرت في نفس الحقبة في الامبراطورية الرومانية. يتحدث ديودور عن مؤامرة من ١٥٠ عبداً في روما، وعن حركة انبثقت في أتيكيا، اللتين شارك بهما قرابة ألف عبد، من المتمردين في ديلوس وغيرها.

أهمها، حركة أرسطونكوس، نشبت في العام ١٣٣ في برغام، التي كانت منذ مدة قريبة "الولاية الآسيوية". ذكرها ديودور، سترابون، وبعض كتاب روما الآخرين اللاحقين، وبعض النقوش التي تتحدث عنها وصلتنا. يقول ديودور إن آسيا "شهدت أحداثا كذلك التي شبت في سيسيليا" والخوف من العبيد الذين دفعتهم استبدادية سادتهم إلى آخر الشوط أغرق حاضرات عديدة في كوارث دهياء". وإلى عبيد بيرغام انضم "غير-المالكين"، العمال الأحرار في الورشات الضخمة الملكية لصناعة السجاد والرق <sup>١</sup> Parchemin وكذلك الفلاحون، والمزارعون الصغار في الأطيان الملكية. كان على رأس الحركة أرسطونكس "سارق السلطة الملكية تعسفا" (كان الأخ غير الشرعي لأتال الثالث Attale III، الذي أوصى بمملكته للشعب الروماني). كان أرسطونكوس قد وعد المتمردين بإقامة في برغام هليوبوليس المثال ("مدينة الشمس")، محققا فكرة الرواية الطوباوية الشعبية جدا في ذلك الزمان، التي كتبها بهذا العنوان إيامبولوس، وصف هذا الأخير، "هليوبوليس"، جزيرة خيالية سعيدة، يعيش الناس فيها بمساواة، بأخوة وحرية تامة؛ حيث كان يعمل الجميع بمحض إرادتهم من أجل الخير العام ويوقفون أوقات فراغهم للأفراح المتوفرة للجميع، بهجة الطبيعة، والفنون والعلوم (اقرأ ديودور، ٢، ٥٥-٦٠).

تيسر لأرسطونكوس أن يقنع شريحة ضخمة من المملكة القديمة في برغام، رغم أنهم توحدوا ضد كل القوى التي تهدد سطوتها الثورية الاجتماعية الناشئة: مدن آسيا الصغرى الثرية، على رأسها إفيز، نيكوميد، ملك بيثيني ومستشار بوليوس كراسس، المرسل من روما على رأس جيش جرار. أرسطونكوس هزم كراسس المندحر في معركة ضد المتمردين "أبناء مدينة الشمس".

إن طبيعة هذه الحركات المشتتة، الجبارة بذاتها، خولت روما أن تهزمها الواحدة بعد

الأخرى.

ففي العام ١٣٢، تولى القنصل بوليوس روبلوس، الذي اشتهر في روما بقسوته، القتال الحاسم ضد مملكة العبيد في سيسيليا. وبعد حصار طويل، لما ألزم الجوع المدافعين

---

١ - من Peregame، حيث أقيم لأول مرة، كما يقال، أول مصنع للجلود المعدة لكتابة المخطوطات أو الطباعة. وأخذ ألقاب النبلاء: الألقاب لاثريد قيمة الإنسان - المترجم.

الذين يبذلون مقاومة يائسة، بأكل لحوم بعضهم، احتل بخيانة تورمانيوم، أحد الشوارع المتمردة الرئيسية. كان المساجين، والمعتدون، يرمون من أعلى الصخور. "مشى روبليوس ضد هينا... وهذه أيضا لم يستطع أن يأخذها إلا بالخيانة، لأن موقعها جعلها مئيدة" (ديودور، ٣٥، ٢، ٢٢). وقتل كليون وهو يحاول الهرب. حوالي ألف رجل من النخبة، كانوا حرس الملك أنوس، دافعوا عنه حتى آخر رجل منهم، و"أمام النهاية الحتمية، قتلوا بعضهم بسيوفهم". ومات أنوس في سجن روماني. يقول أورو إن ابليوس قتل في هينا أكثر من ٢٠ ألف عبد.

في العام ١٣٠، انتهت روما من قمع تمرد أرستونكوس. أكره هذا الأخير، الذي هزمه أسطول إفيز، على الانسحاب إلى الداخل، حيث حاصرت قوات القنصل بريننا، التي ضمت قوات ملك بيتيني وكابادوس. وسحقت الانتفاضة. سجن أرستونكوس وأرسل إلى روما حيث جندل في سجنه (١٢٩).

تمرد العبيد الثاني في سيسيليا (١٠٤-١٠١ ق.م). تمرد سوماكس في

#### البسفور

رغم القمع والاضطهاد البربري، شبت انتفاضة ثانية عامة للعبيد في سيسيليا بعد ثلاثين سنة، واستمر أوارها ثلاث سنوات.

بدأ التمرد في العام ١٠٤، مدفوعاً بالأعمال غير العادلة للوحش حاكم سيسيليا، لسينوس نرفا، الأعمال التي أجبت حقداً عارماً لدى العبيد. بناء على أمر مجلس الشيوخ، الذي سببته شكاوى الولايات والملوك المتحالفين، بدأ نيرفا حملة، تهدف إلى البحث عن العديد من الناس الأحرار الذين هوا إلى حمأة العبودية لعسره عن وفاء الدين، والذين كانوا يعيشون في "عائلات" رقيقة لدى كبار الملاكين وفي السرايب؟ وبعد أن حرر حوالي ٨٠٠ من بينهم. استعبدوا ظلماً وأيقظ الأمل لدى العديد من العبيد الآخرين، أقفل الحاكم البحث بعد أن اشتراه المالكون. وبالتالي راح يسعى إلى قمع الحركة التي انبعثت من جديد، محرضاً على المتمردين قطاع الطرق السيسيليين. فرد العبيد بتمرد مفتوح. امتدت هذه الانتفاضة الثانية بخاصة في الشطر الغربي من الجزيرة. كان مركزها ضواحي ليليبيا، حيث نصب العبيد أثينيون قائداً، وهو مولى في واحد من أكبر استثمارات المنطقة. وفي نفس الوقت، قرب هراكليه، في أنحاء جبل كابريون، جمع سوري اسمه سلفيوس، عراف

وساحر، حوله قرابة ٢٠ ألف عبد متمرّد. كان التمرد هذه المرة ذا طابع زراعي بحت: لم ينجح المتمردون باحتلال أي مدينة، لأن عبيد المدن، عوضاً من أن ينضموا إلى المتمردين، ساعدوا سادتهم في الدفاع عن مدينة مورغانتيوم. توجب إذن على التمرد أن يبحثوا عن مكان يجعلونه عاصمة لهم، واختاروا جبل تريكالاً.

أقاموا هنا قصراً ملكياً، إلى جانبه كان يوجد ميدان خصص لمجالس الشعب. انتخب سلفيوس ملكاً، باسم "تريفون"، لكن القائد الحقيقي كان الجنرال أتينيون، رجل ذو طاقة ثورية عجيبة، حفظ الرومانيون ذكراه كأخطر عدو. واقتداء بأميلكار، نظم الحرب من أنصار من مختلف المشارب، مدمراً مخازن الرومان، قاطعاً دروب الاتصال في كل سيسيليا، مبيداً فصائل كاملة. وأمره: "احفظ البلاد كملكك الشخصي، بدوابها وأرزاقها"، يستحق الإعجاب. وكان أتينيون يسعى بكل قواه للحوّل دون سرقة المزارع الضخمة، لأنه لم يضم إلى قواته إلا الرجال الأشداء وأمر الآخرين بالانصراف إلى أعمالهم العادية. كما اهتم بتموين جيشه.

أخذت الحركة مدى واسعاً جعل ديودور يقول إن سيسيليا كلها كانت ضحية الـ"قوضى". شغرت المحاكم، انقطعت الصلات بين المدن، ولم يعد الموظفون يسهتمون إلا بالاعتناء تحت جنح الاضطرابات الدائرة. كان لصوص المدينة يسرقون ويهربون.

لكن ذات الضعف والوهن الذي سبب فشل التمرد الأول رأيناه هذه المرة أيضاً: نقص المبادرة الخاصة الأساسية الدفاعية للتكتيك. الأمر الذي مكن الحاكم لسنيوس لكولس من طرد المتمردين بداية من شرق سيسيليا، ثم تمزيق قواتها في معركة نظامية، ومحاصرة تريوكالا. لكنه لم ينجح في إبادة الحركة. ففي العام ١٠١، اضطرت روما لإرسال جيش قنصلي بقيادة مانيوس أكيللوس. وبعد موت سالفوسن صار أتينيون "ملكاً". تقول الخرافة إن مانيوس هو القاتل، بمعركة فردية، بحضور الجيشين الأمر الذي أفضى إلى هزيمة العبيد. وسقطت تريوكالا بعد مقاومة يائسة. وكان القمع هذه المرة وحشياً بشكل متفرد؛ جماهير لا تحصى علقت على الصليبان أو عذابات أخرى؛ وأرسل ألف منهم إلى روما حيث أجبروا على إبادة بعضهم، في السيرك، كما المصارعين.

وضعت سيسيليا منذ الآن تحت نظام إرهابي دائم، ليبقى العبيد في خوف مستمر. في

أيام شيشرون كان العبيد ما يزالون ممنوعين من حمل السلاح، أو الموت لافوري عقابا؛ "كل قرارات وأحكام الحاكم تتابعت لاستمرار عزل العبيد من السلاح" (شيشرون، "المصاييح"، ٥، ٧). والواقع أن عبيد سيسيليا بعد ثلاثين سنة، أيام عصيان سسبارتاكوس، ماكانوا بعد قادرين على حمل السلاح.

ولقد تزامنت الانتفاضة السيسيلية الثانية طبعاً، من حيث الزمن، مع تمرد سوماكوس، على رأس عبيد سيث من مملكة البوسفور، التي ربما كانت صداها البعيد. وهي غير معروفة إلا في نقش وجد في شرسونيز، لمجد ديوفانت، القائد مثرديات السادس أو باتور، ملك البونت. كان ديوفانت أكره ملك البوسفور، يسارزادس، على الاعتراف بتابعيته لمثرديات، لكن هذه التابعية أغضبت موالى بارزادس، فحمل عبيد سيث السلاح، بقيادة سوماكوس. قتل بارزجاس، هرب ديوفانت ونجا، وسمي سوماكوس ملكاً على البوسفور. وجدت نقود تمثل قسماً هليوس، الجبهة محاطة بتاج ذي إشعاعات: فحلم "مدينة الشمس" لم يكن غريباً إذن عن هذه الحركة. لكن بعد سنة أشهر، كما يقول النقش، وصل ديسودور من (البونت، في آسيا الصغرى) مع جيش بري وبحري، وانطلق من مدينتنا (شرسونيز)، بعد أن أبحر على متن ثلاثة مراكب نخبة من أبناء المدينة، واحتل تيودوسيا وبانتكابي (كيرش). وعاقب مقاتلي التمرد، وسوماكوس، قاتل الملك بارزادس، وقد سقط بين يديه، أرسله إلى مملكة ميثريدات وهكذا أقام سلطة ميثريدات أوباتور.

تثبت موجة تمردات العبيد التي جابت الامبراطورية الرومانية النضال الطبقي، العنيف والضاري، الذي كان يمزق مجتمع العبودية. لكن هذه التمردات تكشف أيضاً بخاصيتها المحلية والمنعزلة، عن ضعف حركة العبيد.

## الفصل الرابع والخمسون

### الحركة الديموقراطية

#### في روما وإيطاليا (٩٠-١٥٠)

##### عهد الإصلاحات؛ الأخوان غراسك

بالتوازي مع تمردات العبيد، كانت تتطور باتساع مستمر حركة الفئات السفلى من الناس الأحرار، في المدينة والريف. كانت هذه الحركة الديموقراطية، أو كما يقال في رومان حركة "الشعبيين"، استمراراً لحركة فلاحي النصف الثاني من القرن الثالث، التي كانت قد شبت بدءاً من المنتصف الثاني للقرن القادم.

كانت تساهم بهذه الیقظة، أولاً، الأسباب ذاتها للاضطراب الديموقراطي، - لدى طبقة الفلاحين، من أجل انتزاع الأرض الذي تتابع على أشده، وحياة "الدهماء المدينية البائسة"، لكن تطورات حركة العبيد، المحرصة بمثلها الجماهير الشعبية الحرة بدعم مطالبها بصورة أنشط، استمرت أيضاً تلعب فيها دوراً هاماً. ولقد استطاعت انتفاضة سيسيليا أن تؤثر بشكل مباشر على تجديد نشاط الحركة الديموقراطية في إيطاليا، في أن هذه الولاية، المدمرة بتوحيش، كفت لفترة عن أن تكون أهراء روما، الأمر الذي حرض رفع أسعار القمح. وبالتالي، تفاقمت أيضاً من جهة شروط حياة جماهير المدن، ومن جهة أخرى، تأكيد بشدة رغبة الفلاحين الذين انتزعت أسهمهم من الأرض باستعادة ما فقدوه. فكانت مسألة القوات والمسألة الزراعية قد أخذتا الأولى والثانية، احتداماً وراهنية بشكل منفرد.

وكان ثمة مسائل أخرى مرتبطة بمسائل إدارة الامبراطورية والولايات. ففي العام ١٤٩، أقر مجلس الشعب قانوناً لإحداث "لجنة بحث في تعسف السلطة" الذي تمارسه حكومات الولايات. وبعد ١٠ سنين، ١٣٩، سن قانون الاقتراع السري كتابة في جمعيات الناخبين.

وهكذا أعد برنامج واسع من التدابير الديمقراطية. وانطلاقاً من العام ١٣٠ أحيى الميدان العام بوضوح: وفدت إليه شرائح واسعة من المستعمرات والبلدات البعيدة، كان الخطباء يلقون خطابات ملتهبة، وغطيت جدران البيوت والآثار الجنائزية بشعارات تدعو إلى الدفاع عن مطالب الشعب بشكل أجراً. ودارت نسخ من الرسائل بين أنصار الإصلاح (نعرف، مثلاً، رسائل كورنيليا، أو الأخوين غراسك)، وتداولها بين الناس، وقد شكلت نوعاً من مكتب أو مصلحة لتدبير هذا الهجاء والانتقادات السياسية، الساخرة أحياناً.

ليس بميسورنا أن نحكم للأسف على هذه الأحداث إلا من أعمال بلوتارك (حياة تيربوس وكايوس غراكشوس) وأبيان (الحروب الأهلية، الكتاب الأول، فصول ٧-٢٧). لكن هذين المؤرخين، اللذين عاشا في الحقبة الامبريالية، أوردا أحداثاً غير مألوفة وغامضة القسم الأكبر من ابتكار الشخصي بحث، إلى جانب التراجم أو السير الذاتية، مرجئة إلى المقام الثاني دور الجماهير الشعبية.

لقد بلغت الحركة الديمقراطية نقطة الأوج مع انتخاب إلى منصب المحامي الشعبي، في العام ١٣٣، تيربوس سمبرونيوس غراكشوس، الشاب الغني النبيل الروماني. كان نزاع عنيف مع مجلس الشيوخ، بشأن مسألة شخصية قد وضع الطموح تيربوسو فسي صفوف المعارضة الشعبية. كان هذا الانتقال طبيعياً لأنه تزوج من سمبرونيا سخت نسيبه إمليان، وكان مركز نوع من الرابطة السياسية التي تحلم بعودة "الأخلاق القديمة" بإحياء الزراعة الصغيرة وجيش الفلاحين الروماني السابق. ولقد حاول أحد هؤلاء "الشيوخ الرومان" س. ليلبوس بحث مسألة أراضي الحقل العام.

لما صار تيربوس محامي الشعب، أحيى، غير عابئ بغضب مجلس الشيوخ ونقمتهم، مشروع القانون المعادي للنبلاء، محاولاً تسوية احتلال أراضي الأملاك العامة. يثبت بلوتارك (تيربوس غراشوس، ٩) بوضوح أن القانون كان عادياً ومعتدلاً جداً. يكتب أبيان (الحروب الأهلية، ١، ١١)، كان يهدف أساساً إلى زيادة كدح المواطنين الرومان وليس راحتهم. يتفق بلوتارك وأبيان على تأكيد أن تيربوس غراشوس كان قلقاً بشكل استثنائي لرؤية إيطاليا تخنق العبيد مجدداً، فأثار "ماكابده حديثاً، في سيسيلى، مالكو هذه المنطقة من قبل عبيدهم... وذكر أن الحرب التي اضطر الرومان لخوضها في هذه الجزيرة ضد هؤلاء المتمردين لم تكن سهلة ولا سريعة، بل طالت واستطالت..." (أبيان، الحروب الأهلية، ١، ٩).

لم يكن مشروع تيبيريوس غراكشوس بالفعل سوى دعوة إلى تنفيذ نصوص قانون ليسينيا وسكستيا، للعام ٣٦٧، حول أراضي الأملاك العامة، مع بعض الشروح والتعديلات، التي تصون بخاصة مصالح كبار المالكين. "إن هؤلاء الناس الذين يستحقون العقاب لعدم طاعتهم، والطرد بعد دفع الغرامة التي امتلكوها خارقين نص القانون، يجب عليهم أن يرفعوا أيديهم، ودفع ثمن الأرزاق التي حازوها بدون وجه حق، وأن يتركوها للمواطنين الذين يحتاجونها ليعيشوا". (بلوتارك، تيبيريوس غراكشوس، ٩).

يقترح المشرع تحديد حق حيازة الأراضي من الملك العام بـ ١٢٥ هكتاراً على الأكثر، إنما مع تصحيح يسمح، بطريقة خفية، بتكبير هذه الحصاة إلى ٢٥٠ هكتاراً: وبالفعل يقدر كل مستلم، إن كان عنده ولدان أن يحوز لكل منهما ٦٢,٥ هكتاراً. مازاد عن هذا يعاد إلى الملك العام، لكن تعويضاً منصفاً تقدمه الخزينة للمالكين السابقين لقاء إصلاح هذه الأرض التي تركوها أو الأبنية التي بنوها عليها. والأرض التي استعادتها الدولة يجب توزيعها بـ ٣٠ مسكة لكل فلاح فقير، بأتاوة مقسطة، وبشكل أبدي. وكانت لجنة خاصة من ثلاثة أعضاء مكلفة بالإشراف على إعادة توزيع الأملاك العامة.

"مهما كان هذا الإصلاح بسيطاً، فقد أَرْضَى الشعب"، كتب بلوتارك (تيبيريوس غراكشوس، ١٠)، لكنه اصطدم بمقاومة ضارية من قبل كبار مرابي الأرض العامة. وبتحريض منهم، عارض المحامي الشعبي ماركوس أوكتافيوس، المالك الكبير، إقرار القانون وحال دون مروره.

أمام هذه المقاومة، لم يكن ممكناً تحقيق إصلاح تيبيريوس غراكشوس إلا بتبني مسبق لتعديلات دستورية هامة. فاقترح تيبيريوس على مجلس الشعب اعتقال المحامي العام أوكتافيوس "باعتباره عاملاً ضد مصالح الشعب" (أبيان، الحروب الأهلية، ١، ١٢)، وانتخاب شخص آخر كمحام عام أكثر اهتماماً بواجبات مهمته. وهكذا دخل المبدأ الجديد جذرياً، الغريب على الدستور الروماني القديم للمراقبة الشعبية على الحكام الشرعيين: في روما كان كل الموظفين العامين غير قابلين للعزل حتى نهاية الأجل الذي انتخبوه له. ولما لم يكن ثمة قوانين مكتوبة جذرية، كان يمكن أن يفضي اقتراح تيبيريوس إلى تخصيص أي حاكم بإرادة مجلس الشعب.

لذا لم يتم هذا إلا بعد امتلاء الصدور نفوراً وغلاً. ترجى طويلاً، وباستمرار



أوكتافوس أن يرفع اعتراضه. وحتى ، بعد أن أقرت سبع عشرة قبيلة الأولى اقتراحه بالإجماع، من أصل خمس وثلاثين، أوقف تييريوس الاقتراح وترجى أوكتافوس من جديد أن يعدل عن موقفه، لكن الإصرار والرفض العنيد جعله يعود ثانية إلى التصويت حتى النهاية. أقل أوكتافوس، وانتخب أحد أنصار تييريوس محاميا عاما مكانه؛ وأقر الشعب مشروع قانون إعادة توزيع الأملاك العامة، الذي قدمه مجددا تييريوس وصار بحكم القانون. وانتخب جمعية زراعة، اشترك فيها غراكشوس نفسه، وأخوه الأصغر كايوس، في سن ١٨ عاما، وحموه أبيوس كلوديوس، من مؤسسي القانون. يدل بلوتارك وأبيان أن مصالحا معتدلا مثل تييريوس، فقط تحت ضغط الضرورة، يضطر لاتخاذ أعمال حاسمة، أثارت استنكار وحقد النبلاء.

لكنه أثار انفجارا رهيبا بين الـ"متفائلين" بسبب التدابير التي اتخذها فيما بعد (استدعتها، هي الأخرى، مقاومة النبلاء) لتقليص صلاحية مجلس الشيوخ في إطار الإدارة المالية والمحلية. ولما طلب الأعضاء الزراعيون الثلاثة تحديد الاعتمادات الضرورية لإتمام مهمتهم، عين لهم مجلس الشيوخ، بناء على تقرير المالك الكبير بوبليوس سيبوني نازيكا، الحبر الأعظم والعدو الأزرق للإصلاح، أجرا زهيدا هو ٩ أس في اليوم. ولتحصل على النقود، اقترح تييريوس عن طريق مجلس الشعب قانونا ثالثا "حول إدارة الإقليم الآسيوي". وبذريعة أن هذا الإقليم وصية من الملك أثال للشعب الروماني شخصا. رفع مجلس الشيوخ يده عنه، وتحولت إدارته إلى مجلس الشعب، ووضع دخله بتصرف لجنة الإصلاح الزراعي، كان يجب اقتطاع مبلغ من هذه العائدات، لتغطية النفقات الأولى لإحياء الأرض الموات. بفعل هذه التدابير، استطاعت اللجنة بعد لأي أن تمارس عملها، ونعرف أنها خلال السنوات التالية، وزعت حتى ٧٠ ألف سهم، من الأملاك العامة التي زادت بما استعادتها من مختصبيها (ولقد عثر على أنصاب تحمل نقوشا وكتابات للأخوين غراسك).

لكن حقد النبلاء ومجلس الشيوخ على المشرع الذي كبل سلطتهم الدهرية كان قد بلغ أقصى الحدود. فرموه بشلال من الأحقاد وسعوا إلى طرق مجرية مثل طمعه بالعرش ، يقولون: ليس ثمة مبرر ليتمتع مرة أخرى ويصير رجلا متميزا" (أبيان ، الحروب الأهلية، ١٣، ١). ولم يتردد المدافعون عن النظام الأرستقراطي في التآمر المباشر على حياته: كان النبلاء مستعدين لكل أنواع العنف من أجل صيانة سطوتهم.

وقعت النكبة عندما طلب تيبريوس منصب المحامي العام مرة ثانية، في العام ١٣٢. جرت الانتخابات في شروط ليست في مصلحة تيبريوس، لأن مجلس الشيوخ خرق العادة وحدد التاريخ في فصل الصيف، عندما يكون "أبناء الحواضر في الحقول... مشغولين بأعمال الحصاد" (أبيان، الحروب الأهلية، ١٤، ١) لكن أبناء المدن أولوه دعمهم الكبير، وصدق الاقتراح لصالح ترشيحه. لكن بفعل مكر بعض محامي الشعب الذين عارضوا إعادة انتخابه، تحول الاقتراح إلى مجابهة وجهها لوجه. اشترك مجلس الشيوخ، الذي يقيم غير بعيد عن الميدان العام *Forum*، في معبد إلهة الأخلاص؛ بهذه المشاجرة. تسلم أعضاء مجلس الشيوخ بقوائم الطاولات والمقاعد والطنافس، وخلف الحبر الأعظم، الذي لا يقف الشعب في وجهه احتراماً له، شقوا طريقاً إلى حيث يجلس غراكشوس وقتلوه مع ثلاثمائة من أخلص أنصاره. وحسب بلوتارك، رميت جثته المشوهة بحقد في التبرير، وكذلك جثث رفاقه. "لكن حقدهم وانتقامهم لم يقف هنا؛ فقد حكموا على بعض أصدقائه بالنفي دون اللجوء إلى أي قضاء، وجندلوا كل من استطاعوا العثور عليه". (بلوتارك، تيبريوس غراكشوس، ٢٤).

يلاحظ أبيان بحق أن القوانين في روما، بدءاً من هذا الزمن راحت تترك مكانها لصوت الواقع وأفعال العنف" (الحروب الأهلية، ١، ١٧) والمسؤولية تقع في هذا على كاهل النبلاء أنفسهم، الذين ماكانوا يختارون شكلاً سياسياً آخر إلا الذي يؤمن سيطرتهم دون مشاركة أحد، بل يتنبذون كل "حق" وكل "عدالة أو مساواة" ما أن يبتعد جدول أعمال الإصلاح عن مصالحهم. قضى تيبريوس غراكشوس نحبه لأنه لم يع أن هذه المبادئ ذات قوة نسبية فقط. ربي على "احترام القانون"، فكان يعتقد بسداجة بإنجاز الإصلاحات بطريق السلم والدستور.

كان هذا مصير، بعد اثنتي عشرة سنة، أخيه الأصغر كايوس غراكشوس، الذي رغب في السير على دربه وإتمام مهمته. كان خطيباً كبيراً، وكانت فصاحته المتقدمة تشد الجماهير الشعبية. انتخب محامياً عاماً ١٢٣، أي بعد عشر سنين من مصرع أخيه البكر مصرعاً مأساوياً. على ذلك رأى كايوس غراكشوس عدم إمكانية قيادة الشعب بطريق أكثر حسماً؛ كان فعلاً المتمم المباشر لبرنامج وتكتيك تيبريوس المعتدل، لكنه سعى إلى توحيد جميع العوامل المعادية لمجلس الشيوخ والنبلاء، ليعطي قرارات مجتمع الشعب السلطة المطلقة،

وعلى الأقل كما اعتقد، قوة لاتقاوم. وليكسب لقضية الشعب كل خصوم مجلس الشيوخ، وقف كل جهوده على برنامج تام من المطالب الديمقراطية، فانتخب محامي الشعب لسنيتين متتابعتين (١٢٣-١٢٣) ق.م.

عند الفلاحين تم البرنامج الزراعي بالتدريج. استعادت لجنة إعادة التوزيع، المعلقة، نشاطها، وانتخبت إلى جانب كايوس أحد أصدقائه، المستشار فلفيوس فلاكوس، رجل نابغة وجسور مثله. سُن قانون عسكري يحسن شروط حياة خدمة الفلاحين من هذا العبء الباهظ.

وأقر قانون ثالث، كبير الفائدة لطبقة الفلاحين، برنامج واسع لفتح الطرق، والأعمال العامة المباشر بها في كل إيطاليا يجب أن تقدم أرباحا دسمة لصالح ابن الريف الضعيف. كما وجدت الكثرة من أبناء الحواضر مصالحها. ويلاحظ أبيان أن غراكشوس فتح هذه الورشات، "يهتم بأغلب العمال والكادحين من كل الشرائح". وبناء أهراءات واسعة عامة في روما، لتعبئة الحبوب المستوردة من وراء البحار، وتنفيذا لـ"قانون الحنطة" الذي أتى به غراكشوس للاقتراع وأقر، استفاد سكان المدن من توزيع القمح شهريا، بسعر معقول ٦,٣٣ أس لـ (٨,٧ ثمنية من الطحين)، بواقع ٥ ثمنيات للمواطن. حسن هذا التدبير كثيرا من شروط حياة الشعب البسيط. واهتم كايوس غراكشوس كثيرا بكسب الفرسان لمعارضة مجلس الشيوخ: مرر لهذه الغاية الـ"قانون القضائي"، بموجبه يؤخذ القضاة من الفرسان وليس كما في السابق من مجلس الشيوخ. وبقانون خاص "في إدارة الإقليم الآسيوي"، وسع ملاك الفرسان وأعطاهم بعض الامتيازات، التي تقيهم من مزاحمة التجار الشرقيين الذين ينافسونهم جباية الضرائب في هذا الإقليم الغني، واحتكار مشاريح الدولة، إلخ. وقدم مشروع استثمار الأقاليم في مصلحة جماهير المواطنين الرومان، وشرع ببناء (باسم جونونيا) مستعمرة على انقاض قرطاجة؛ وطرح أيضا قضية حق ابن المدينة للحلفاء اللاتين والإيطاليين.

بفعل هذه التدابير، حسب عبارة أبيان، "انقلبت حتى أسس الدولة الرومانية" (الحبوب الأهلية، ١، ٢٢). لم يصن مجلس الشيوخ سوى سلطته الأخلاقية، إنما القوة والنفوذ كانا بيد الفرسان والشعب. تعددت مجالس الشعب جدا، وكثيرا ما أشار الخطباء إلى أن النظام الأرستقراطي استبدل بالديموقراطية. وهم يلقون خطبهم في الميدان العام، كانوا يديرون

ظهرهم لمجلس المشيخة، حيث يقيم أعضاء مجلس الشيوخ، ليخاطبوا الشعب (بلوتارك، كايوس غراكشوس، ٥). إن دور هؤلاء القادة، المحامين العامين، وبخاصة، دور غراكشوس، كبير فورا. توزعوا فيما بينهم بالقرعة مصير تنظيم مستعمرات ما وراء البحرا، ونهض غراكشوس، فضلا عن هذا بإدارة الشؤون المتعلقة بالمستعمرات: "كان يمشي محاطا بلفيف من المقاولين، المهنيين، السفراء، الرجال المحليين، جنود وعلماء، محدثا كلا منهم بود وترحاب" (بلوتارك، ك. غراكشوس، ٦). لقد صار محامي الشعب الحاكم الأول في روما.

على ذلك، كان كايوس غراكشوس يزدي مكانة مجلس الشيوخ والنبلاء، التي ماتزال قوية، جورة تكسر الاسنان. ولقد سعى النبلاء، حسب كلمة بلوتارك، لإبعاد الناس عن غراكشوس إلى وعود كاذبة تماما بل مخادعة، واستسلموا إلى حماة الديماغوجيا. كان أحد زملاء كايوس غراكشوس في مؤسسة المحامي العام، ليفيوس دروسوس، "يترك لمجلس الشيوخ ممارسة منصبه كمحام عام" (بلوتارك، ك. غراكشوس، ٨). اقترح تأسيس حتى اثنتي عشرة مستعمرة في إيطاليا، رغم عدم توفر الأرض، فلم يكن مشروعه إذن سوى محاولة ديماغوجية لكسب عطف المواطنين بوعود جوفاء. وحين اقترح غراكشوس إعطاء حق المواطنة للحلفاء الإيطاليين، نصح القنصل فانيوس نفسه، رغم أنه من أنصاره، نصح الشعب عدم الاقتراح لصالح القانون لأن الآتين الجدد سيقاسموننا القمح والميادين في الفوروم.

كان لهذه الحملة الحاقدة أثرها: فقد كايوس غراكشوس نفوذه وحظوته لدى الشعب: لم ينتخب تالثة إلى منصب المحامي العام، ونجح الطرف الأرستقراطي بتمرير قنصل رجعي عتيق، هو لوسيوس أو بيمبوس. ورفض مجلس الشعب حق المواطنة للحلفاء وقرر مجلس الشيوخ خطر بناء مستعمرة على "أرض قرطاجة الملعونة". وعلى أثر صدام حدث في الشارع بين أنصار وخصوم غراكشوس، قتل في أثناؤه واحد من حاملي فؤوسه، استغل أوبيكيوس الحادث في مجلس الشيوخ، مدعيا أن أعداءه يحرضون على ذبح الموظفين العاميين. تشبث مجلس الشيوخ بغبطة بهذه الذريعة، ووظف أوبيمبوس في سلطة غير محدودة، وانطلق هذا الأخير إلى اضطهاد الحزب الشعبي بتوحش. لكن فولفيوس فلاكوس، الأجرأ والأصلب من غراكشوس، سلح رجاله واحتل آفاتان، المركز القديم لحركات الدهماء. واقترح على الأرجح، ولو متأخرا، دعوة الشعب إلى التمرد. لكن، كما يقول

بلوتارك، لم يشأ غراكشوس أن يتسلح، وخرج من بيته، بثوب القضاء، وكالعادة، ذهب إلى الميدان العام، ليس معه سوى خنجر صغير في نطاقه "بينما يحقق الخبثاء العدالة بالحديد والعنف". "لم ير أحد كايوس يقاتل"، رغم أنه متميز بالبسالة. هاجمت قوات أوبيميوس الأقاتن. قتل غراكشيوس وفولفيوس فلاكوس أثناء الفوضى والانكسار واشترى رأسيهما المبتورين بوزنهما ذهباً (في العام ١٢١). ثلاثة آلاف "شعبي صرعوا في أثناء المجازر الوحشية التي تتالت، وتوقفت الحركة الديمقراطية إلى حين بسبب الانتقام غير المعروف الذي بدأه النبلاء، متحررين من خوفهم بعد النصر.

هكذا انتهى العهد، الإصلاح الأول، من الحركة الشعبية في روما، المحكوم عليه بالإخفاق بسبب التكتيك الحذر جداً والمعتدل جداً الذي مارسه قادته، وسياستهم التصالحية والتوافقية. بعكس قادة حركات العبيد، أولئك الذي قادوا الشعب كانوا رجال مواجهة، "رفاق طريق" بمعنى ما، من أرومة نبيلة، والذين لم ينقطعوا أبداً عن إيدولوجيته. بهذا بدلاً من دفع الحركة إلى الأمام كانوا يكبحونها. كانت المحصلة الأولى لنشاطهم إبراز الدرس السياسي الذي نجم عنه، أي بالإصلاحات التشريعية التي سنّها مجلس الشعب، يستحيل سحق سلطة الأرستقراطية الوطيدة التي لا تتردد أمام أي وسيلة للدفاع عن سلطتها. إن الأخوين غراكشوس ساهما رغماً عنهما بتسكير النضال السياسي وإيقاظ الوعي السياسي لدى الجماهير الشعبية، التي انتقلت إلى تكتيك أرفع وأصلب عوداً.

### ماريوس: محاولة دكتاتورية عسكرية ديموقراطية

بعد موت كايوس غراكشوس، حكمت روما رجعية شرسة خلال عشر سنين. وضع المنتصرون في خدمة ظفرهم لتوطيد وضعهم أراضٍ مغتصبة من الأملاك العامة وتوقعوا كل محاولة تهدف توزيعاً جديداً. وبحسب قوانين بابيوتوريا اعتبرت كل الأراضي المحتلة والأسم التي وزعتها اللجنة الزراعية ملكية خاصة لمن كان قد تمتع بها، وحلت اللجنة بناء على هذا الواقع تتابع حركة رفع اليد، التي كان الفلاحون ضحيتها، من جديد، كما أشار أبيان (الحروب الأهلية، ١، ٢٧): "حاز الأغنياء من جديد حصة الفقراء، أو انتزعوا بالقوة، تحت مختلف الذرائع"، الأمر الذي كان يلهب هياج المملّكين.

سارع النبلاء المنتصرون لاستغلال جبروتهم وليختنوا بالطرق الأكثر تكاليفاً وسفاهة: أبداً لم يمارس الابتزاز، الاختلاس، شراء الضمير العام على يد الحكم، بهذه الوقاحة

والانحطاط. وكانت العائدات الاحتياطية توفر حياة بذخ لامثيل لها يعيش المبستزون فوق مستواهم، لئلا يبقوا وراء الآخرين. وإذا اضطروا للاستدانة، بحثوا عن مصادر غير مشروعة للإثراء.

بدأ تفكك النبلاء الحاكمين ينعكس على وضع روما الخارجي. فرغم سعة مواردها المادية والحرب، عجزت الجمهورية، خلال ست سنين (١١١ - ١٠٥) أن تضع حدًا للميليك أبج مثل جوغورثا *Jugurtha*، بعد أن ذبح ذويه وسلب ثرواتهم، كان يدمر منهاجيا الجنرالات أبناء النبلاء الكبار الرومان، الذين أرسلوا ضده عدة حملات كان على رأس إحداها -لوسيوس أو بيمبيوس هذا الذي قمع بوحشية أنصار كابوس غراكشوس.

كان هؤلاء الجنرالات المباعون يتظاهرون بمحاربتهم؛ لكنهم كانوا يقدمون لجوغورثا، عند الضيق فرص النجاة، يعيدون له من سجن من أتباعه والسلاح والفيلة التي استولى عليها. زار جوغورثا مرة روما حيث استخدم كل مواد التخريب وقال وهو يرحل: "مدينة للبيع، من يشتري!" كانت شعبيته واسعة جدا لدى السكان الأصليين من شمال إفريقيا الذين يكرهون الفاتحين الرومان بحيث هددت الولاية الإفريقية.

وفي العام ١٠٩ أرسل ضد جوغورثا رجلا نزيها، ومن أسرة نبيلة، كوانتس كاسيليوس، ميتليوس، الذي أنزل بخصمه هزيمة قاضية على ضفاف ميتول، لكن الأمور تمت بتهاون وغفلة فلم ينجح ميتلوس بتحقيق نصر حاسم. والمؤرخ الروماني سالستيتوس كرسبس، معاصر يوليوس قيصر، قص بالتفصيل هذه الفضيحة "حرب جوغورثا"، الذي كشف الانحطاط الأخلاقي، وعجز وضرر الأولغارشية المشيخية المفككة، المشتتة.

في الشمال لم يكن الوضع أفضل. بداية، طيلة الأعوام ١٢٠، كان الرومان قد أتموا شؤونهم بتفوق واحتلوا الغول الترازالين الغنية. وفي العام ١١٨، بعد نصرهم على الأولبروج والأرفيرن، أسست مستعمرة رومانية هامة في مكان مدينة ناربون، المدينة القديمة المحصنة، وولاية جديدة ولاية غول نربونيز، فوق الأرض الواسعة الكائنة بين الألب والبرينيه. لكن بعد العام ١١١، خضعت نربونيز لغزوة مدمرة على يد السامبر، الشعب الجرمانى، الذي ضم قبائل من العرق السلتي-توتون، أبرون وتغورين. وبعد أن صرع ثلاثة قناصل ومشرع، أباد سنة ١٠٥ جيشين كبيرين قرب أروزيو (أورانيج)؛ يوم سقط ٨٠ ألف روماني، كما في معركة سانس الشهيرة.

ساهمت هذه الظروف كلها ببعث حركة ديموقراطية جديدة وتكاتف قوى المعارضة: الفلاحون، فقراء المدن والفرسان. على ذلك، واستنارة بفشل التكتيك الدستوري الذي اتبعه الأخوان غراسك وأكثر فأكثر اغتياضا من تجاوز وتحكم المنتصرين، كان الشعبيون الآن يمتلكون وضعاً أرسخ: كانوا يبحثون عن جندي مندفع وجدير، واحد منهم، يوقف النكبات والهزائم في ساح المعركة ثم، بنفس السبل القتالية، يحقق الإصلاحات الداخلية.

وجدوا هذا الرجل في كايوس ماريوس، محامي عام سنة ١١٩، ابن فلاح من المدينة اللاتينية أربنوم. كان ريفي التصرف وقليل الثقافة، أدهش الشعب ببساطته كجندي، بطريقته في مخاطبة الناس وأيضاً بمواهبه الطبيعية وجرأة طروحاته الديموقراطية. وسرعان ما صار ماريوس معشوق الشعب. مؤلفاً من فرسان، تجار، مهنيين وفلاحين، باسم ماريانست -أنصار ماريوس- دعم ترشيحه إلى كل الانتخابات ورفعته إلى أرفع الأمجاد. وبعد أن مارس مهمة الحاكم، خدم ماريوس كمحافظ في إسبانيا. ثم أوصى لمتلوس في نوميديا، وفي العام ١٠٧، انتخب قنصلاً، مع تكليف عاجل لإنهاء الحرب ضد جوغورثا. بدءاً من هذا العام، وبفعل شعبيته المتنامية، أعيد انتخابه ست مرات متوالية، الأمر الذي لم يحدث بعد في روما. هكذا فتح هذا العهد لست سنوات خلالها ساد في روما الديموقراطيون الماريانيست، الملفتون بحميمية حول قائدهم الجديد.

يفعل المتطوعين الذين انضموا جمهرة إلى جيشه، أنهى ماريوس خلال ستة أشهر، حوالي خريف ١٠٦، بمعركتين نظاميتين، الحرب ضد جوغورثا التي تركتها الحكومة الأرستقراطية تترجر ست سنوات. وبعد ستة أشهر، نجح لوسيوس كونيوس سيللا، وزير مالية ماريوس بالقبض على جوغورثا في أثناء حملة جريئة على مؤخرات العدو. تابع القائد الأبق الذي اقتيد إلى روما، وعليه كل الشارات الملكية، ظفر ماريوس، وأعدم في أسفل الكابتول.

في العام ١٠٤ كلف ماريوس بالقيادة العليا للحرب ضد السامبر والتولون، الحرب التي كانت موضع اهتمام فريد لدى العناصر الديموقراطية، لأن الولايات المهددة كانت بالضبط هي الأهم عند الجماهير الشعبية، وبخاصة، الغول السيزالين بمستنعمراتها الزراعية؛ على ذلك كان الرعب مخيماً على روما. لذا أعد ماريوس بكل عناية هذه المعركة خلال عامين.

وفي هذه الفترة، على الأرجح، أنجز إصلاحه الحربي الشهير الذي دون منذ زمن بعيد في برنامج الحزب الديمقراطي (كما تثبت بعض تدابير ك. غراكشوس). من جهة ليخفف عبء الخدمة العسكرية، بدأ الجيش يتقاضى راتبا منتظما، فضلا عن تزوده بالسلاح والطعام على نفقة الدولة، الأمور المذكورة في قانون كايوس غراكشوس. كان المشاة يتقاضون ١٢٠٠ أس في العام، وضعفهم، ٢٤٠٠ أس، لقائد المائة، و ٣٦٠٠ أس للفراس. ومن جهة أخرى، عدل منهج التجنيد لمصلحة الفلاح. ولتشكيل الأفواج، وجه دعوة أولا للمتطوعين، الذين يأتون زرافات، تضم بخاصة العناصر غير المالكة ولاعمل لها عند بروليتاريا المدينة، وهذه كانت فقط لإتمام الصفوف، وعند الحاجة، يسعون إلى التجنيد. وهكذا تحولت الميليشيا الشعبية القديمة إلى جيش محترف ومرتق، بالفعل، لم يتحول بعد إلى جيش دائم. ومن وجهة النظر التقنية، أنجزت إصلاحات هامة أيضا: خلقت وحدة جديدة تكتيكية مستقلة: كتبية مؤلفة من ثلاث فصائل أو أكثر. وكل فوج مؤلف من عشر كتائب، ٣٠ فصيلة، ٦٠ مئوية، ببنية منتظمة ودقيقة. ودعما لسلاح الأفواج المحاربة: ضم عددا كبيرا من آلات الحرب، والقوات "القدوة" وغيرها.

فضلا عن هذا كانت هذه الإصلاحات ذات نتائج اجتماعية ضارة: تقليص تسليح السكان المدنيين، وإبعادهم عن الحياة العسكرية، الإغضاء عن عادات القتال، بينما كانت تولد بوجد إلى جانب وخارج جماهير المواطنين قوة مسلحة رهيبة من الجنود المحترفين المهرة بفن القتال. إن هذا الفصل بين الجيش والشعب يسفر عن أصداء مدمرة لدى كل أقدية الحركة الديمقراطية في روما.

في العام ١٠٢، أتم ماريوس استعداداته، وعلى رأس جيش ضارب، خاض الصراع ضد السامبر وحلفائهم. وفي معركة دامت يومين قرب أكس، المستعمرة الرومانية الصغيرة في شمال ماسيليا، تحدى حشود التوتون، الذين حاولوا غزو إيطاليا من الشمال، ثم بعد أن احتل غول سيزالين، مشى لمواجهة السامبر، الذين تغلغل أكثرهم هنا عن طريق ممرات الألب، وألت المعركة الضارية التي دارت في حقول فيرسيل (غرب ميلانو) إلى إبادة هذه الأمة. سقط أكثر المقاتلين؛ سجن ٦٠٠٠٠ وبيعوا كعبيد، ووقع كذلك ٩٠ ألف توتون وغيرهم في أيدي الرومان.

وبينما كان ماريوس ينتصر على السامبر والتوتون، أنجز معاونه، القنصل مانيوس



أكيلبيوس مهمته، في العام ذاته مع التمرد الثاني لعبيد سيسيليا، الأمر الذي أفضى إلى اتساع شعبية ماريوس بشكل لا مثيل له: فسمي "منقذ روما"، "رومulus الثاني"، وتوقع منه الناس إصلاحات اجتماعية جريئة. قاد هذه الحملة بعقريّة نادرة واحد من أقدر قادة الحزب الديموقراطي ل. أبليوس ساتورنينوس، محامي عام مرتين (١٠٣ و ١٠٠)، وهو الذي قدم يد العون غير مرة لماريوس في الانتخابات. وفي العام ١٠٠ ق.م، قدم ساتورنينوس مشروعاً ضخماً أعده مع ماريوس كان يشكل تطوراً لتشريع الأخوين غراسك الزراعي. نص على إقامة عدد كبير من المستوطنات في الأقاليم وأولا في غول نربونيز التي أخليت من السامبر والتوتون، ثم أيضاً في إفريقيا، سيسيليا ومقدونيا. وأعطى ١٠٠ جوجورا للأسرة، أولا الجنود، ثم المحنكون ورفاق سلاح ماريوس، ثم على المواطنين الرومان، وأخيراً حتى على حلفائهم الإيطاليين. ولئلا يصير هذا القانون إلى ما صارت إليه إصلاحات الأخوين غراسك، طلب من مجلس الشيوخ أن يقسم يمينا على تنفيذه.

نوقش المشروع في مجلس الشعب في جو متوتر جداً. كان الشعبيون أنفسهم منقسمين بشأنه. كان مدعوماً بحزم من أبناء الأرياف، وبخاصة، الإيطاليين، الذين خدموا مع ماريوس وبإمرته وكانوا لأول مرة على قدم المساواة الحقوقية مع الرومان. تجمعوا بأعداد ضخمة في روما، بدعوة من سعاة بريد خاصين، بمبادرة أبوليوس ساتورنينوس. وفي روما بالذات، بالعكس، كان الشعب المعتاد على سيطرة إيطاليا، ضد المشروع "لأنه يؤمن مصالح الإيطاليين". يكتب أبيان أن معركة حقيقية دارت في الميدان العام *Forum* حول صناديق الاقتراع بين أبناء الأرياف الطليان وأبناء المدن (أبيان، الحروب الأهلية، ١، ٢٩-٣٠).

عدا *les optimates*، المعارضون طبعاً، كان الفرسان خصوم المشروع الرئيسيين هم؛ وبالفعل كان مشروع رفع قيمة "أملاك الشعب الروماني" بالاستثمار على نطاق واسع، واستجلاب حشود من المواطنين الرومان والطليان، كان تماماً في غير مصلحة المزارعين العامين والمرابيين الذين يشكلون الصف الفروسي. وعداوة الفرسان للكتلة الديموقراطية وانشقاقهم عنها ألزم ماريوس، الذي شكل ثروة واتحد مع النبلاء بزواجه من أخت يوليوس قيصر، على تغيير موقفه. وكان ماريوس أصلاً، متحالفاً بشكل صميمي، قبل هذا الزواج، مع الجناح اليميني من الحركة الديموقراطية، الذي شكله الفرسان، وبعد الزواج مال إلى تفاهم وصلح مع مجلس الشيوخ. وهكذا ساهم بتسريع تفكك الحزب الديموقراطي وتشجيع

سحب الثقة من قائده، بين الأعضاء الأكثر تطورا ونشاطا في هذا الحزب.

لقد نتج عن انتخابات العام ١٠٠ أزمة حاسمة. تراجعت شعبية ماريوس، حتى أن الشعبيين دعموا ترشيح الحاكم س. سرفلس غلوسيا، إلى مجلس الشيوخ الخطيب المتألق واحد أبرز أنصار ساترنيوس. ومع أبيليوس، انتخب محاميا للشعب المغمور ل. إكتيوس، العبد السابق الذي عرف أنه ابن تيريوس غراكشوس. كان النبلاء والفرسان قد قدموا مرشحيهم الذين استقبلهم الشعب بالعصي، وقتل ميمبوس، أحد مرشحي النبلاء، بهذه الطريقة. وتحول الصراع الانتخابي إلى تمرد مسلح حقيقي، بمساندته نجح أبيليوس ساترنيوس، غلوسيا، ابن غراكشوس المزيف "والريفيون" بدعم من جنود ماريوس، من احتلال الكابيتول. فأعلن مجلس الشيوخ أن الدولة في خطر، وكتب إلى القناصل الديموقراطيين ماريوس وفاليريوس فلاكوس لاتخاذ تدابير استثنائية، كفتح الترسانات، وتسليح كل "المواطنين الطيبين" وقمع التمرد.

وبشهادة شيشرون، "مجلس الشيوخ كله... ووراء الفرسان، حملوا السلاح، وانضم إليهم كل الحكام، وكل شباب عليا القوم بالولادة" (من أجل رابيريوس السابق، ٢٠-٢١)، وأحيطوا، طبعاً، بأتباعهم، بمواليهم ومن أعتقوا من العبيد. وأرسل رماة نبال كريتيون، جمهرة مرتزقة للهجوم على الكابيتول. وعندما استسلم المحاصرون، لم يشأ ماريوس، الذي نفذ قرار مجلس الشيوخ على مضض، أن يموت أنصاره السابقون فاكتفى بحبسهم في مبنى مجلس الشيوخ. لكن أبناء الأسر النبيلة، الذين رأوا في هذا العمل حيلة بل خديعة، صعدوا إلى السطح، ونزعوا القرميد، ورجموا الأسرى، وكان أبيليوس بينهم: كان قاتل هذا المحامي العام الفارس الشاب المدعو رابيريوس.

بعد هذا القمع الثالث للحركة الشعبية وهذه المجزرة لقادتها، سقطت الحركة في سبات لعشر سنوات. فقد خسر ماريوس نصاعته الشعبية، بعد أن تراجع عن مواقف فانسحب مؤقتاً من الحياة الشعبية وسافر بحجة زيارة معابد الشرق. لكن الأمر لم يكن أكثر من هدأة واستراحة، سبقت انفجاراً أشد هولاً، زعزع هذه المرة ليس فقط روما، بل كل إيطاليا وحتى الأقاليم. عرفت هذه المرحلة الثالثة من الحركة الديموقراطية في تاريخ روما باسم "الحرب الاجتماعية".

## الحرب الاجتماعية في إيطاليا وانتفاضة أقاليم الشرق

لقد شد النضال الاجتماعي إلى فلكه جماهير من الشعب الإيطالي تزداد أبداً. وبالفعل كان ينيخ على الحلفاء الطليان وزر الخدمة العسكرية في الجيش الروماني، بينما كانوا محرومين من توزيع القمح ومن استئجار الأرض. ولقد أجبر غضبهم المتنامي قادة الديموقراطية الرومانية، كايوس غراكشوس، فولفيوس فلاكوس وأبيليوس ساترنيوس على طرح "القضية الاجتماعية"، أي توسيع حق المواطنة للحلفاء الطليان.

بدءاً من السنة الأولى من القرن الأول، تأهب الطليان أنفسهم للنضال الواسع المكشوف. وفي التسعينات رأينا، تحت اسم "إيطاليا"، تشكل حلف سري، يمد فروعه في كل اتجاه، ويتواصل أعضاؤه بواسطة سعاة البريد، ويتبادلون الرهائن، ويكدسون السلاح والمناهل لكي يرفعوا علم التمرد على روما.

إن مبادرة ديماغوجية صاخبة من المحامي الشعبي م. ليفيوس دروسوس الابن، ابن عدو كايوس غراكشوس سنة ١٩، حتمت عليهم التصرف أخيراً. وكان دروسوس، ممثل الفرع النبيل، المعتدل والميال إلى الامتيازات، يسعى لرفع سلطة ونفوذ الأرسنقراطية المحطمة باختيار بعض المصالحات الجزئية. ولإتمام التوافق العام وتهذنة الخواطر، اقترح بداية إصلاحاً واسعاً في مجلس الشيوخ والمحاكم. فمجلس الشيوخ يجب أن يتألف من ٣٠٠ عضو من النبلاء و٣٠٠ عضو من الفرسان، ومنهم يجب اختيار القضاة. وفضلاً عن هذا، ولجعل الجماهير الشعبية أكثر قبولاً لفكرة هذه الحكومة الجديدة المختلطة، لابد من توزيع القمح بسعر منخفض على مؤسسات المستعمرات الجديدة في إيطاليا و西西لييا، واقترح أخيراً منح حق المواطنة لكل الحلفاء الطليان، بتسجيلهم في القبائل العشر الجديدة التي وجدت لهذه الغاية. لكن مشروع دروسوس لم ينتج سوى إثارة الغليان لدى كل شرائح المجتمع الروماني والطلياني، حيث لا أحد يريد، سوى محركي هذه الإصلاحات، سماع الحديث عن توافقات ومصالحات. فاضطر دروسوس، مثل الأخوة غراسك، إلى السعي إلى سبل أكثر ابتكاراً: القيام باتصالات مع المنظمات السرية لدى الشعوب الإيطالية، وتبادل معها أيامين المؤازرة المتبادلة. ثم، لما ضرب في عتبة بيته، راح يضطهد منظماتهم، فنشبت الانتفاضة المبيتة منذ زمن.

بدأت في أسكولوم، عاصمة بيسنوم، التي قتل حاكمها وهو يحاول قمع أحد مراكز

الحركة. ثم انتقلت بسرعة إلى شعوب الجوار (مارسس، بلنيان)، وكل منطقة سامنيوم الجبلية، حيث يعيش، فضلاً عن الشامنييت، عدد كبير من الغولوا الآتين من شمال إيطاليا، وتقريباً كل كامبانيا، أبوليا، لاكونيا وكلابر، بلاد يعمرها قوم ضخم من الفلاحين، بدأت تحس بالفعل أنها مهددة بتوسع الاستثمارات الشاسعة.

انضم إلى المتمردين عدد كبير من العبيد الزراعيين، الهاربين من الأملاك الكبرى، وشكلوا حملات كاملة. ولم تلتحق المستعمرات الرومانية المحصنة إحصائياً لقادة حامياتها. ولما احتل السامنييت الضيع الرومانية: كامبانيا، نولا، ستابيا، منتورن، ساليرن، وقف المعمرون العسكريون والعبيد فوراً إلى جانبهم وذبحوا الضباط التابعين للعائلات النبيلة الذين رفضوا الاقتداء بهم. وحدث نفس الأمر في أبوليا، حيث كان المتمرديون يعملون بقيادة جوداسلوس.

ارتدت الانتفاضة خواص الحرب الداخلية الضارية التي سميت في الحوليات الرومانية الحرب الاجتماعية. لم يكتف المتمدون بتشكيل جيش نظامي من ١٠٠ ألف رجل، على النمط الروماني، وضعوا بقيادة *deux imperators*، المارسي كوانتس بومبيديوس سيلو والسامنييت ك.بابيوس موتلوس، بل أسسوا حكومة فدرالية إيطالية. أخذت عاصمة لها كورفنيوم، عند البلجيان، حيث يقوم مجلس شيوخ من نواب كل الشعوب المتمردين، وكلفوا ١٢ حاكماً بالشؤون الإدارية والقضائية، وحيث ستنلثم جمعية شعبية إيطالية. وضرب نقد فدرالي يحمل كلمة "إيطاليا"، وصورة الثور، مرافق الفلاح ومساعدته، ناطحا بقرنيه الكلابة الرومانية المتوحشة المحطمة.

في أثناء ١٨ شهراً الأولى من هذه الحرب (٩٠-٨٩)، تقدم المتمدون بوضوح على الجيوش الرومانية المرسله ضدهم. وتعرض القنصل ب.روتليوس لوبوي، لهزيمة رهيبة وسقط صريعاً في ساح المعركة. وصرع زميله لوسيوس جوليس قيصر. وكانت روما ذاتها عرضة للخطر: إذ وصلت المعركة إلى تخومها المباشرة.

تفاقم وضع الجمهورية لأنها كانت مضطرة لدعم حرب صعبة جداً في الشرق. وأسفرت الحرب الاجتماعية لسنة ٨٩، عن انتفاضة عمت كل أقاليم الشرق تقريباً. وعلى شواطئ البحر الأسود تشكلت دولة إغريقية جديدة وقوية، سميت دولة البوننت *le pont*. ولدت هذه المملكة في كبادوسيا الشمالية، منذ القرن الثالث، لكنها وصلت ذروتها في عهد

مثريدات السادس أوباتور (١١٤-٦٣) وكانت تمتد آنئذ على كل جنوب أوكسن.<sup>١</sup> كانت تضم في تلك الأيام أرمينيا الصغيرة، كولشيد، مملكة البوسفور التي تسنم مثريدات عرشها بعد قمع تمرد سوماكزس بقيادة معاونيه ديوفانت ونيوبتوليم. وكانت المدن اليونانية على الشط الغربي، أستريا، تومي، ممزامبريا، أبولونيا، أيضا تحت رقابة مثريدات وصكت نقودا تحمل صورته<sup>١</sup>.

كان هذا العاهل يرعى جيشا من ٣٠٠ ألف رجل وبحرية حربية من ٤٠٠ مركب، يمتطي متن قسمها الأكبر القراصنة. استغل مثريدات صعوبات روما في إيطاليا، وشن عليها حربا شعواء في العام ٨٩. هزمت قواته بدون صعوبة قواتهم المدعوة على عجل، واحتلت بيثيا والإقليم الروماني في آسيا؛ واحتل أسطوله بقيادة أرشلايس مضائق وجزر بحر إيجه (عدا رودس)، وغزى اليونان عن طريق تراثيا ومقدونيا.

استقبلت الشعوب المرهقة بأسلاب واضطهاد الإدارة الرومانية وعشاريها في كل مكان مثريدات وأعوانه كمحررين؛ وانتفضت أثينا قبل وصول قواته. ورغبة في كسب المزيد من تعاطف الشعب، أعلن مثريدات ببياناته الإصلاحات الضخمة الاجتماعية التي كان ينوي تحقيقها في البلاد المتحالفة معه: إلغاء الديون، اقتسام الأرض وعتق العبيد، وبناء على أوامره ذبح الموظفين، المرابين والتجار الرومان في كل مكان وبمساعدة السكان النشطة. صرع في المعركة حوالي ٨٠ ألف؛ وزعت أملكهم وعتق عبيدهم. وكان مثريدات على علاقة وطيدة مع المتمردين الرومان، الذين وعدهم ان يسارع لمؤازرتهم.

لقد جعلت الأزمة النقدية التي لاسابق لحدثها، والناجمة عن الحرب الاجتماعية وفقدان الأقاليم الشرقية الغنية، جعلت وضع روما في الويل والثبور. صكت الحكومة النقود الفضية بتغطية ثمنها فقط واختفت النقود ذات العيار الصحيح. طالب الدائنون بإلحاح شديد تسديد ديونهم على الفور. ولتخفيف حمل المدينين، اقترح الحاكم أولوس سامبرنيوس أزيو تأجيل الديون المستحقة، لكنه قتل في أثناء إضراب الدائنين الساخط.

وهكذا، حوالي العام ٨٠ ق.م، بلغ الصراع الاجتماعي في روما وممتلكاتها ذروته.

<sup>١</sup> - خص أبيان هذا الملك بالفصل ١٢ من عمله "التاريخ الروماني" وهو بعنوان "Mithridatica".

## الفصل الخامس والخمسون

### بداية الدكتاتورية العسكرية العبودية. سيللا

#### قمع تمرد الحلفاء الإيطاليين

في هذا الوضع المفجع مارست روما لأول مرة، على نطاق واسع منهاجا جديدا في التجنيد، أبدعه ماريوس. تطلبت الحرب قوات جرارة، ١٨٠٠ لواء على الأقل حسب بعض المراجع- والسوقات الفلاحية غير مؤمنة. فلجؤوا بسرعة إلى المرتزقة والمتطوعين؛ واستأجروا كتائب كاملة من البربر (غولوا ونوميد)، وبدأوا لأول مرة بتطويع المحررين. لكن جماهير المتطوعين كانوا من عامة الناس، مشدودين إلى الأجور وأمال السلب. ولتدفع رواتب المرتزقة، صادرت الحكومة ثروات المعابد وعائداتها المكسدة منذ أقدم الأزمنة في الهياكل الرومانية. وأخذ الجيش الروماني من الآن الطابع المهني التام وغير الشعبي، الأمر الذي يدل إلى سلوكها في أثناء هذه الحرب الداخلية: كانت المدن الداخلية تنهب، تماما كالمدين الغربية، ويبيع سكانها عبيدا. والجنود لا يقدررون عاليا إلا القادة الذين هم بعيدون عن منع هذا التجاوز المفرط، كانوا هم أنفسهم يشتركون فيه.

لقد حاز لوسيبيوس كورنيلوس سيللا شهرة مدوية في أثناء هذه الحرب. حفيد أسرة ضخمة مواطنة مدمرة. ذكي ومتقف، مغامر سياسي يهتم فقط بمكسبه الشخصي وكان مؤمنا بنجمه إيمانا عميقا، وكان سيللا ممثلا نموذجيا لأرستقراطية ذلك العهد المفككة (اقبوا بلوتارك، سيللا). كان في قيادة حملة تأديبية ضد الطليان، سعى بكل السبل إلى شراء الجند، مغريا إياهم بمنح نقدية، مغمضا عينيه عن بعض السرقات؛ الأمر الذي أكسبه شعبية واسعة.

بهذه الجحافل وهؤلاء الجنرالات توصلت روما، في العام ٨٩، إلى تحقيق النصر تحت راياتها. أباد سيللا، في كامبانيا، قرب تولا جيشا ضاربا بقيادة لوسيوس كليانتي، أحد أشهر قادة المتمردين، الذي صرع في التحام مع ٥٠ ألف رجل من قواته. ثم، بعد أن تغلغل

سيللا في جبال سامنيوم، تحدى جيش السامنييت، واستولى من الحركة على ميدان بوفيانوم المنيع، حيث كانت عاصمة الحلفاء. وأخضع سنيوس بامبيوس سترابو، قنصل عام ٨٩، معشوق آخر للجند، بلد سابان وبسنوم. وهزم قائد حملة الإبادة الثالثة متيلوبيوس ولوكانياس اللتين تعرضتا "لمذبحة رهيبة" (أبيان، الحروب الأهلية، ١، ٤٦-٥٣).

مع ذلك لجأت روما إلى الدبلوماسية التي وظفتها بنشاط في بذر الشقاق بين صفوف الحلفاء. ومن العام ٩٠، مثلاً، صرح مجلس الشيوخ أن روما ستمنح حق المواطنة لكل الإيطاليين الذين ظلوا مخلصين لها ولم ينضموا إلى المتمردين (قانون يوليا). وأعطى قانون بلوتيا-بابيريا، في العام ٨٩، لنفس الغاية، حق المواطنة لكل المتمردين الذين يلقون السلاح خلال شهرين، الأمر الذي أفضى أيضاً إلى تفكك الجامعة الإيطالية. كان الأكثر ميلاً إلى الصلح من "الحلفاء" هم ممثلي الأغنياء والفئات العليا، الذين رضوا بالمساواة المدنية مع الرومان، والجدير بالذكر أن المدن الكبرى، حيث يقيم الأغنياء "المفاوضون" الطليان، قد بقوا تماماً خارج التمرد لابل أعادوا سفنهم التجارية للرومان للمساهمة في سحق التمرد. صحيح أن الإيطاليين، مسجلون في ١٠ قبائل تكونت حديثاً (يقول البعض إنها ثمانية)، الأمر الذي قضى على نفوذهم السياسي. لم يكن هذا الامتياز قليل الأهمية. فباستثناء السامنييت اللوكانيان والمارسيس الذين لم يصلحوا، ألقى الطليان كلهم سلاحهم في العام ٨٨ وقبلوا الإلحاق والخضوع.

على ذلك، كانت الحرب الاجتماعية ذات مدى بعيد في إيطاليا. فقد تحول التحالف السابق رومانو-إيطالية إلى دولة موحدة، وضع سكانها الأحرار على قدم المساواة، على الأقل بصدد الحق المدني. وصارت كل المدن الإيطالية قادرة على تشكيل بلديات من النمط الروماني وأضحت روما عاصمة الدولة الإيطالية. فضلاً عن ازدياد عناصر الأحزاب المناضلة: وسع النبلاء الطليان صفوف *optimates* والفرسان، بينما شهد الدهماء الرومان نمواً ملحوظاً وتوطيداً بواسطة ممثلي الفئات السفلى من المدن المتحدة.

### الانقلاب العسكري الأول ورد الفعل في روما لسنة ٨٨ ق.م

لقد خول الصلح الإيطالي حكومة روما أن تباشر الحرب ضد مثيردات وتصدر إلى قمع تمرد الولايات الشرقية. كانت كل القوات جاهزة منذ نهاية الحرب الاجتماعية قد تحشدت في نولا، وكامبانيا، لتشكل "جيش ضارب للرق"، موقوف على العمل في اليونان

وآسيا. وكانت قوات سيللا التي تميزت بتفرد في الحرب الاجتماعية تشكل القسم الأعظم من العناصر، وقد تلقى سيللا بعد ترفيعه إلى مجلس الشيوخ لهذه الغاية من قبل حزب المشايخ في العام ٨٨، قيادة الحملة إلى الشرق.

لكن المسألة الشرقية كانت تهز بشكل استثنائي الأوساط التجارية والمرابين، الرومان والإيطاليين، الذين يملكون في هذه المنطقة عشرات المشاريع وبخاصة في الولاية الآسيوية. لم تقبل هذه الفئات أن يستخدم سيللا، "تصير ومرؤوس الـ *optimates*، بعد أن ينتصر على مثيريات"، سلطته كقائد عام ليحرمهم احتكار شؤون آسيا. وبالفعل أيضا بإلحاح أن قيادة جيش الشرق لماريوس، الذي كان نصيرهم. كانت هذه أيضا رغبة الشرائح الوسطى والدنيا من المواطنين الطليان الجدد، الذين يكرهون سيللا وجنوده بسبب فظاظتهم. أضف إلى هذا أن جمهرة من الطليان تأذت كثيرا ودمرت في أثناء الحرب الاجتماعية ترغب في أن تسند إليهم مهمة ما في هذه الحملة الواعدة بأسلاب دسمة.

بشكل عام، أحييت حرب الشرق صراع الشرائح في الـ *Forum*، حيث اتسع مدار الحزب الديمقراطي وعزز بمنح حق المواطنة لجمهرة من الـ "أحلاف" السابقين. وليس سوى تحديد الحقوق السياسية للمواطنين الجدد بتسجيلهم في القبائل العشر المكونة حديثا قد عرقل هيمنة العناصر الديمقراطية.

وصارت مسألة المساواة الكاملة بين المواطنين الجدد والقدماء وتوزيع الأولين على القبائل الخمس والثلاثين الأصلية هي القضية الأساس.

وقدم مشروع قانون بهذا المعنى في العام ٨٨ من قبل أحد أنصار ماريوس، الشاب ومحامي الشعب الجريء والديموقراطي بوبليوس سلبسيوس روفوس. كان القانون يمثل أيضا إصلاحا دستوريا عميق الأهمية، محولا طابع مجلس الشعب من روماني بحت إلى إيطالي، بل حاز العنصر الإيطالي فيه الهيمنة. أثار هذا التدبير، بحق، هياجا لم يعرف بعد في روما، في كل الأحزاب؛ وفي الجمعيات الأولية واللقاءات الشعبية حيث كان المشروع قد رفض، بدأت العصي والحجارة دورها، وإلراجاء الاقتراح، سيعلن القنصلان المنتميان إلى الجناح الأرستقراطي، سيللا وكوانتس بامبيوس روفوس، موعدا جديدا وبعده كل الذين ذكروا دعوة مجلس الشعب الذي يجب ان يبدي رأيه في القانون. مع ذلك أقر قانون سلبسيا ووزع الحلفاء السابقون على كل القبائل الرومانية. وبعيد هذا سن مجلس



الشعب قانونا ينزع من سيللا قيادة جيش الشرق، وسمي مكاركوس مكانه. من هنا، أعطي حق تنفيذ سوقات جديدة، الأمر الذي يحقق رغبة المتمردين السابقة.

لكن خصوم الديمقراطية الواعين تماما الأهمية الحاسمة للحركة، كانوا مستعدين لاتخاذ التدابير الأكثر تطرفا من أجل اتقاء تجميد سلطتهم. وهرب القنصلان سيللا وبامبيوس روفوس، من روما بعد أن رفضا الطاعة لما اقترعه مجلس الشعب. عاد سيللا فورا إلى نولا، حيث وجد جنوده فدفعهم إلى تمرد مكشوف، أما الألويا المعسكرة حول هذه المدينة أعلنت موقفها ضد الحكومة الجديدة، ورجم محامو الشعب الذين أرسلهم ماريوس، وطلب المتمردون من سيللا أن يمضوا على رأسهم إلى روما.

زاغ سيللا عن أي اقتراح أو توافق، وبعد أن احتل كل الأبواب، بدأ هجوما مركزيا على العاصمة، حسب كل قواعد فن القتال. كان الناس يساندون الديمقراطية، وأرسل ماريوس مبشرين يعدون بعق كل العبيد. ولاقى جيش المتمردين إذن في روما مقاومة يائسة.

يصف بلوتارك (سيللا، ١٢) معركة الشوارع الرهيبة التي دارت آنئذ، فيقول: "يصعد الناس العزل من السلاح إلى السطوح ويمطرون سيللا بكسرات الأجر والحجارة التي تمنعه من التقدم وترده على أعقابهِ حتى الأسوار. ويظهر سيللا فجأة في هذا الوقت، وبعد أن رأى ما حدث، ينادي جنده ليرموا بالنار إلى البيوت، وهو نفسه أخذ مشعلا ملتهبا، ومشى في المقدمة ويأمر رماة السهام قذف السطوح بنبالهم المشتعلة". سحقت مقاومة تشكيلات الدفاع التي اتخذها الديمقراطيون على عجل، قتل سلسيوس، ونجى ماريوس وبعض القادة المنهزمين وسقطت روما بيد سيللا وجنده (٨٨). كان هذا النصر ذا مغزيين. بداية، كان نصرا لجيش جديد على حكومة مدنية: دل الجيش أنه لم يكن درع الدولة الرومانية ولا حامي سنده، وأن إرادته أكبر وزنا من إرادة مجلس الشعب، ومجلس الشيوخ وباقي المؤسسات الحكومية العادية.

وثانيا، إن ما جرى كان نصرا للحزب الرجعي، نصر حزب الأعيان الذي قرر عدم التراجع أمام أي سبيل. كانت أولى التدابير التي اتخذها سيللا تهدف إلى تدمير التنظيمات الديمقراطية وتجميد كل مؤسسات الدولة التي تعبر عن إرادة الشعب. ومنذ صباح احتلال المدينة، دعي الناس المروعون للقاء "مجلس الشعب" الذي تحت ضغط المنتصرين المباشر

سن دستوراً جديداً، حرم الشعب من أي دور سياسي ومن أي سلطة. ألغيت قوانين سولبيسيوس، وانضم الحلفاء من جديد إلى القبائل العشر المجتمعة. قلص دور المواطنين إلى المرتبة الثانية. وكانت الجمعيات الانتخابية، الأكثر ديموقراطية، ممنوعة، وبقيت فقط الميليشيات المئوية، حيث تسود الطبقة الأولى، المؤلفة من الأغنياء. وتراجعت أهمية مؤسسة محامي الشعب إلى العدم، لأن هؤلاء المحامين حرّموا من أهم سلاح لديهم، حق الاعتراض. وأخيراً، أدخل إلى مجلس الشيوخ ٣٠٠ عضواً من أنصاره واعتبره الجهاز الأعلى في الدولة. وفرض إحالة كل اقتراح إلى أن مجلس شيوخ وهو من أتباع سيللا، قبل أن يعرض على مجلس شعب تابع وعاجز كالميليشيات المئوية (انظر أبيان، الحروب الأهلية، ٥٩، ١).

وهكذا عادت الحياة السياسية في روما أربعة قرون إلى الوراء، وانتهت أول محاولة من الديموقراطية المتحدة تبغي إعادة تنظيم الدولة الرومانية على قاعدة إيطالية، انتهت بهزيمة نكراء.

#### حكومة ل. كورنيليوس سينا

على ذلك، كان انتصار الرجعية الأرستقراطية الأول وهما عارضا. إذ اضطر سينا وجيشه أن يغادروا روما في الحال لبدء معركة الشرق، حيث تتوسع رقعة التمرد أكثر فأكثر. كان شعب روما يكره سيللا ونظامه: رفض مرشحوه لمنصب القنصل، وفي العام ٨٧، اختار الشعب عوضاً عنهم شخصيات بعيدة جداً عن تحقيق مشاريع ووجهات نظره: ثيوس أوكتافيوس، من عائلة كبرى لكن من طبع سهل العريكة، ولوسيس كونيلى سينا، نصير ماريوس وسلبكوس فعلاً. "يذكر أولئك الذين يعتقد أن انتخابهم يؤذي سيللا كثيراً ويذله"، بلوتارك (سيللا، ١٤).

بعيد هذا جرت محاولة رفع دعوى ضد سيللا وإعادة العمل بقوانين سلبسيوس. ولما انتهت بمذبحة شعبية، شنها أنصار سيللا وأتباعهم المسلحين، في ذلك اليوم، إذا استخدمنا عبارة شيشرون، "كان الفورم غاصاً بالضحايا وبركة من دماء مواطنينا" (حوالي ١٠ آلاف قتيل). غادر القنصل الديموقراطي كورنيليوس سينا روما مع ستة من محامي الشعب وحشد جيشاً لقتال أنصار سيللا. قدمت له مدن الحلفاء المال. وهكذا فعل الكثير من الوجوه، أعداء الهدوء والجمهورية، تركوا روما ليقفوا إلى جانب سينا". (أبيان، الحروب الأهلية، ١،

٦٦). وانضم إليه كل قادة الديمقراطية، كينتوس سرتوريس، كايوس ماريوس الشاب، ابن ماريوس، وابن أخيه م. ماريوس غراتديانوس هربا من الموت. وماريوس نفسه عاد من ملجنه في أفريقيا وشكل فيلاروري جيشا ثانيا انضوى تحت رايته سكان المدن والريف "الرعاة والحراثون الأحرار" (بلوتارك، ماريوس، ١١).

بفعل انضمام جماهير العوام، في الريف والمدينة، أخذ البرنامج الديمقراطي لتلك الحقبة طابعا راديكاليا مؤكدا. لم يكتف قاداته كجدول أعمال الحزب: العدالة التامة في الحقوق لكل المواطنين، بل كانوا مستعدين لتحريك سلسلة من الإصلاحات الاجتماعية (قانون زراعي، قانون الديون). ولأسباب تكتيكية ذهبوا حتى أعثقت أعداد ضخمة من العبيد الذين شاركوا في القضية، دون أن يقصدوا إلغاء العبودية من الأساس.

في أتروري، جند ماريوس "تكتات كاملة من عبيد الريف"؛ وسينا، منذ مذبحة المواطنين الرومان على يد الـ *optimates*، في العام ٨٧، دعا العبيد لموازرتة، الأمر الذي اتخذه مجلس الشيوخ ذريعة ليحرمة من وظيفة القنصل. ولما تم انضواء جيشي سينا وماريوس مع بعضهما، دخلا العاصمة وقطعا وصول المؤونة "...أرسل سينا مبشرين إلى المدينة، ليعدوا بالحرية العبيد الذين أتوا إليه بدافع ذاتي. فانضم عدد ضخم إلى هذا المعسكر". (أبيان، الحروب الأهلية، ١، ٩٦). وهكذا بدأ العبيد يلعبون دورا هاما في النضال السياسي، الأمر الذي أخاف بعض الشعبين.

فاضطرت حكومة سيللا شديدة الرجعية أن تستسلم بعد محاولات مقاومة بسيطة؛ فعاد الدستور السابق والسلطة الديمقراطية إلى روما. وانتخب القائدان الشعبيان البطلان قنصلين للعام ٨٦، س. ماريوس للمرة السابعة وسينا للمرة الثانية؛ ولما مات ماريوس بعد شهر واحد، انتخبت مكانه شخصية حزبية وجبهة، هول. فالريوس فلاكوس. واعتبر بيت سيللا عدوا، فدمر، وصودرت أرزاقه. وأعلن أصدقاؤه، من الجناح المغرق في الرجعية، أعداء الوطن وأعدموا؛ وصودرت أملاكهم ودمرت بيوتهم. وعرضت رؤوسهم في الميدان العام، إلى جانب منصة إلقاء الخطب. لم يعدم منهم سوى حوالي خمسة عشر زعيما.

غير أن قادة الديمقراطية كانوا بعيدين عن إظهار نفس الاعتدال تجاه العبيد المحررين حديثا، كجنود سنا، الذين كانوا يسعون للانتقام من سادتهم السابقين. "إن سينا الذي منعهم عدة مرات من تكرار الجريمة دون أن يستفيد، طوقهم في ليلة ليلاء وذبحهم عن

آخرهم على يد جيش من الغولوا". (أبيان، الحروب الأهلية، ١، ٧٤) تكشف هذه الواقعة عن الوجه الحقيقي لهذه الطبقة من هذه الديمقراطية القديمة العبودية. واتخذت تدابير جريئة في الحقل السياسي لخمس سنوات، دون انقطاع، ٨٦-٨٢، كانت القنصلية بيد قادة الديمقراطيين، البعض متنفذون والآخرين جسورون. انتخب سينا ثلاث مرات متتالية، حتى موته، في العام ٨٤ ق.م. واستلم سينيون كاديوس هذا المنصب ثلاث مرات. كان هذا عودة للنهج الذي أرساه ماريوس بين العام ١٠٦-١٠٠، توكيل طويل للقائد الديمقراطي، وفي العام ٨٢، سمي كايوس ماريوس الثاني، ابن ماريوس القديم، قنصلا مع بابريوس كاريون، رغم أنه كان في عامه ٢٧، ولم يستلم أي وظيفة في هرم الحكم. لكن ل.فلاكوس، قنصل العام ٨٦، حقق واحدة من آماني الناس، شرع قانونا يلغي ٤/٣ الديون، بما فيها الأجور، الحمل المرهق للمدفعين. سحب النقد قليل القيمة من التداول واستبدل بقطع عالية العيار، وصار محقق هذا الإصلاح، الحاكم م.ماريوس غراتديانس، حسب تعبير شيشرون "الإنسان الأعز لدى العامة. وفي العام ٨٤، أقر بناء مستعمرة كابو الهامة بمبادرة م.جونيوس بروتوس؛ وكان الشعبيون، يتأهبون، بوضوح، لتحقيق برنامجهم الإصلاحي الزراعي.

لقد خضعت الحياة الاجتماعية في شبه الجزيرة إلى تحول راديكالي، تطبيقا وتنفيذا لمطالب الإيطاليين، لأن هؤلاء الأخيرين شكلوا من الآن السند الأساسي للديموقراطية الرومانية. فأعيد تشكيل الحاضرات الإيطالية على نمط البلديات الرومانية ووزع المدنيون الجدد على كل القبائل التي يحكمها حكام منتخبون، وانتخب إلى مجلس الشيوخ ١٠٠ عضو وكذلك أعيدت مجالس الشعب. وتم هذا في الأرياف حيث أدار "أعضاء البلدية" المنتخبون الشؤون المشتركة. أخيرا جهز جيش جديد للشرق وأرسل، بقيادة القنصل فلاكوس، واحتل الولاية الآسيوية. اجتاز فلاكوس إيبيريا ومقدونيا، عدوتي روما، واتجه إلى البوسفور وخاض عمليات كللت بالنصر ضد متريدات على الأرض الآسيوية. أبدا لم تحقق حكومة روما، التي صارت إيطالية فعلا، حركة بهذه الجراءة، والإبداع والنتائج.

### الحرب ضد متريدات. الحرب الأهلية الأولى ودكتاتورية سيللا

لكن خصوم الديمقراطية الرومان والطيالان ماكانوا نائمين. كانوا يهاجرون زرافلت، ليلتحقوا بجيش سيللا العامل في اليونان. كان سيللا وقواته في وضع صعب، وهذا صحيح.

واعتبر سيللا عدوا للوطن، فلم يتلق من روما أي دعم بالعدة أو الرجال، وكان فلاكوس مكلفا بقتاله وقتال ميثريديات وإجباره على الخضوع للحكومة الديمقراطية الرومانية. في هذه الحال، كانت اليونان كلها تحارب، كان أوسطول ميثريديات راسيا في بيريا، بقيادة خير قائد، أرشلاوس. وكان جيش البونت البري، -أكثر من مائة ألف رجل، وكواكب خيالة عديدة، وعربات حرب، وغيرها- يتقدم عبر ثراسيا، مقدونيا وتساليا، لمد يد المساعدة له. وربما بدا وضع سيللا وجيشه الذي يضم خمسة جحافل، متروكا مهملا من حكومته بالذات، بلا رجاء ولا أمل.

هنا ظهر بصورة متألفة الدور المستقل الذي لعبه الجيش وقادته. قرر سيللا، القائد العام، والمبعدون الرجعيون، الملتجئون إليه، إهمال حكومتهم الرومانية وجعل الحرب ضد ميثريديات الشأن الأهم.

للحصول على المال، فرضوا الرسوم تحكما على الأقاليم اليونانية المستمرة بإخلاصها لروما، تساليا وإيتوليا، ونهبوا الهياكل الشهيرة في أولمبيا ودلفيا وجردوها من ثرواتها المقدسة. والبدائع القديمة الذهبية والفضية أحالوها إلى أجزاء وصهروها ليصكوا منها نقودا ويضعون عليها رأس سيللا عوضا من رأس الإلهة روما. وزعوا بكرم وفوضى هذه المناهل الثرة على الجند، الذين سموا سيللا السعيد: "امبراطورا". حشد سيللا وأنصاره في صفوفهم حشدا من المرتزقة اليونان المستعدين للانضمام إلى جانب أي طرف، فقط من أجل الغنائم. وأرسل سيللا المحتاج لأسطول إلى شرق البحر المتوسط مساعده لـ لسنسيوس لوكولس، ليستأجر مراكب القراصنة الكريتيين، السيلزيين والفينيقيين، ولكنهم لم يتفقوا.

قاد سيللا بعناده المعروف حصار أثينا والبيريا، مركز التمرد في اليونان، رغبة في الانتهاء من هذا الحصار قبل وصول جيش البونتيك من الشمال. ولما أضنى الجوع أثينا، سقطت، "مذبحة رهينة دون رحمة بدأت.. لم يوفروا امرأة ولا طفلا، أمر سيللا بقتل الجميع عشوائيا" (أبيان، ميثريديكا، ٣٨). وسلمت هذه المدينة، الغاصة بالكنوز الغنية، للنهب، وخضعت بيريا للمصير ذاته، فأحرقت ودمرت. ثم، خلال معركتين نظاميتين في بيونيا وشيرونيا وأرشومين، هزم سيللا، الذي عزز جيشه وصار عشرون جحفا، هزم جيشين جرارين بونتيين، مطهرا هكذا اليونان كلها من قوات ميثريديات. وعن طريق شواطئ ثراسيا، عبر إلى آسيا، حيث وجه ضربة قاصمة بميثريديات، الذي خارت قواه نهائيا. على

هذا، لم يعد سيللا وأصدقاؤه الرجعيون يهتمون بمثيريدات، بل بمستقبل جيش الديمقراطية الرومانية في آسيا والوضع في روما. وليطلق يديه ويحرر موقفه اشترى سيللا الحاكم أرشليوس، وعن طريقه عقد معاهدة مع مثيريدات، في العام ٨٥؛ في داردنوس على هلسبون<sup>١</sup>. التزم مثيريدات بموجبها بدفع تعويض ألفي تالانت، ولقاء هذا، حافظ تماما على مملكته البونت كلها، مع لقب "صديق وحليف الشعب الروماني".

بعد توقيع هذا الصلح المذل لروما مع عدوها الأزرقي، مشى سيللا ضد الجيش الروماني في آسيا، وطوقه في ضواحي برغام. رفض جنود هذا الجيش، الذي يمزقه الشقاق منذ زمن، ان يقاتلوا قوات سيللا وانضموا إلى جانب هذا الأخير، لاسيما بمكافأة مرتزقة. وهكذا خسرت روما هذه الولاية الآسيوية من جديد، وصار سيللا سيدها، مع مجلس شيوخ غير شرعي، شكله الرجعيون. تحملت هذه المنطقة الغنية نفقات مدمرة لصيانة عسكر سيللا وعانت ابتزازا واغتصابا لم يعرف لها مثيل: اضطرت أن تدفع الضريبة المتخلفة طيلة سنوات الحرب الخمس وتعويضا من عشرين ألف تالان، أي أكثر بعشر مرات من تعويض مثيريدات.

بعد أن أنهى شؤونه في الشرق، مشى سيللا إلى روما، في العام ٨٣ ق.م، بجيشه وأسطوله الجبار. ولدى انتشار خبر إبحاره من برزوديوم، هبت إيطاليا كلها، ملتفة حول الحكومة الديمقراطية الرومانية: وخلال أيام تشكل جيش جرار للدفاع عنها، يعد استنادا إلى البعض ٢٠٠ كتيبة، واستنادا إلى آخرين حتى ٤٠٠ كتيبة (من ٢٠-٤٠ جحفا)، بقيادة ١٥ جنرالا، حسب رواية سيللا نفسه.

اضطر سيللا وقواته إلى نضال دام سنة ونصف لسحق هذه المقاومة. يرجع نصر سيللا وانصاره بهذه الحرب الأهلية القاسية، ٨٣-٨٢، إلى جملة من الظروف الملاءمة لحزبه في تلك الشروط. فمنذ نزوله في برونديزيوم، بدأ جيش سيللا يكبر بسوقات جهزتها على نفقتها العائلات الرومانية الكبيرة، كانت تتوافد نحوه من كل صوب. وانضم إليه مثلوس بيوس، أشرس صانع صلح في الحرب الاجتماعية، بكل جحافله. والتحق به الشباب الأرستقراطي بحماس غامر. وقاد إليه الشاب ماركوس

<sup>١</sup> - الاسم القديم للدرنيل- المترجم.

مراسوس، الذي قتل أباء وأخاء الديموقراطيان، جمهرة من المرتزقة الأسبان؛ وقدم له الشاب سنيوس بامبييه، الذي يمتلك أملاكاً واسعة في بيسنوم، خدماته لسيلا على رأس لواء كامل، طوع من أتباعه. وبفضل مساندة أغنى الشرائح، صارت خزينة سيلا بما لا يقاس أكثر جاهزية من جاهزية الحكومة الديموقراطية، التي أرهقتها الاضطرابات لمدة سنوات. استغل سيلا بمهارة هذا المكسب لتفكيك القوات غير المتجانسة، وغير الوائقة بنهوض الجماهير الديموقراطية. كان الجنود ينفرون من الذهاب إلى الحملات البعيدة ولا يريدون الدفاع عن أوطانهم.

قبل إبحار سيلا إلى إيطاليا، حاول سينا أن ينتج لملاقاته في إيريا، لكن قسماً من جنوده كانوا قد تمردوا، لحظة الإبحار إلى إنكون، ورجموا بالحجارة هذا القائد البطل من الحركة الديموقراطية.

جرت العمليات بصورة مأساوية بالنسبة للديموقراطيين في جنوب إيطاليا: بخسارة محدودة، نجح سيلا من بدء المعركة أن يهزم قسماً كبيراً من قواتها، وأن يحاصر جيش ماريوس الشاب في برينست، ويجمده حتى نهاية الحرب. كان سيلا قادراً إذن أن يحتل كل إيطاليا الجنوبية تقريباً، وأن يستولي على روما وأن يطرد خصومه إلى شمال إيطاليا، حيث كان يقوم خليفة سينا، بايروس كاربون، قنصل العام ٨٢، بمقاومة شاقة وصلبة.

من الجميع، كان السامنيون هم الذين قاتلوا بكل حزم وعناد، مدركين جيداً أن شعبهم الذي لعب دوراً جيداً في الحرب الاجتماعية، سيعامل بدون رحمة من قبل سيلا والرجعيين الرومان. فاتجه جيش ضارب من السامنيون بداية إلى برينست، بقيادة بونتيوس تلزنسوس، لإنقاذ ماريوس الشاب، لكنه وقد فشل المشروع مشى بمناورة جريئة مستقيماً إلى روما، بهد تحريرها من المحتل سيلا. وفي أثناء المعركة الضارية بل المستميتة التي دارت أمام باب كولين، صد سيلا، لكن كراسوس، بضربة مفاجئة لمجنبة ومؤخرات السامنيون الذين خرقوا جبهة سيلا، أنقذ قائده وأنهى المعركة بإبادة العدو. حوالي ستة آلاف سامنيون كانوا قد استسلموا وسبقوا إلى السيرك وذبحوا جميعاً. وبعد هذا خضعت سامنيوم كلها لدمار كان يذكر بعد قرن بالصحراء.

انتهت هذه الحرب الأهلية الطاحنة أخيراً، في العام ٨٢ ق.م. وحل محل الحكومة الديموقراطية نظام الإرهاب العسكري المنتصر والرجعيون الرومان الملتفون حوله بعناد.

لقد تجاوزت المذابح المخيفة كل تخوف. "نشر سيللا الموت في المدينة" يكتب بلوتارك (سيللا، ٤٠). وأمام الرومان المجتمعين، المرتجفين من الرعب، أعلن بوضوح "أنه لا يريد مسامحة أحد من أعدائه". (أبيان، الحروب الأهلية، ١، ٩٥). كتب لوائح ونشرها بأسماء من أبعد، ومن قتل. كافاً بسخاء القتلة والجلادين وعاقب بوحشية كل من قدم أي مساعدة للمنفيين. لم يذكر في هذه اللوائح سوى وجوه الحزب الديمقراطي، ومائة ممن أعضاء مجلس الشيوخ وحتى ١٦٠٠ فارس -لكن حسب تعبير بلوتارك "ليس هذا سوى نقطة في بحر مقارنة مع إجمالي الضحايا". ألوية مسلحة هاجمت إيطاليا، وأبادت سكان المدن الذين سجلوا إخلاصهم للحكومة الديمقراطية؛ حضر سيللا شخصياً الإبادة العسكرية لسكان برينست. ونشرت لوائح المبعدين في الولايات مثل أفريقيا أو بامبيي، المرسلة لهذه لغاية، وبذبح كل الديمقراطيين الذين لجؤوا إليها.

كان ذبح الديمقراطيين يترافق طبعاً مع مصادرة أرزاقهم جملة وتفصيلاً وأراضي الحاضرات كلها. بيعت كل هذه الأملاك بالمزاد العلني، بسعر بخس، وزعه سيللا على غانياته، على مادحيه وعلى الممثلين المتملقين، أو سرقة ضباطه. اغتنى كراسوس بشكل استثنائي، والثروة التي كدسها، بفضل المضاربات من كل نوع، جعلته أغنى رجل في روما. عدا ثمار النهب والغنائم، تلقى جنود سيللا (٢٣ جحفل) أيضاً شطراً كبيراً من الغنائم: تقديراً لما فعلوه وزع عليهم سيللا ١٢٠ ألف سهم من الأراضي المصادرة. ويجب أن نسجل أن سيللا، كما فعل الديمقراطيون، أعتق ١٠ آلاف عبد، من أملاك خصومه، ومنحهم حق المواطنة، وجعلهم أتباعه، وأعطى الجميع صفة المولى. وصار بعض المعتنقين من أخصائه وموضع ثقته.

توج سيللا عمله بإبادة ممنهجة لكل إيطاليا الديمقراطية، بدستور العام ٨٢ ق.م. الجديد، الأكثر رجعية من دستور العام ٨٨ بغية قمع أي محاولة ديموقراطية. بمبادرة من أحد أنصاره، فاليريوس فلاكوس، ("قانون فاليريا")، أعلن سيللا دكتاتوراً لمدى الحياة وذا سلطات غير محدودة: بإرادته يغير القوانين، له حق الحياة والموت على كل مدني روماني، ومصادرة الأرزاق والتصرف بها على هواه. وهب أو إعطاء التاج للملوك الحلفاء، وشيد له نصب مذهب في الميدان العام، نقش عليه: "كونيليوس سيللا، فيليبكس إمبراطور".



كان سيللا وأنصاره يكرهون بشدة المؤسسات التي أسستها الإنجازات الديمقراطية. لذا ألغى من جديد منصب المحامي العام، وجرده من سلاحه، وليفقد هذه المؤسسة اعتبارها، أعلن أن من يزاولها غير جدير بمزاولة منصب قضائي أو تنفيذي آخر؛ انتزعت مكاتب القضاء من الفرسان وأعيدت لمجلس الشيوخ؛ وأبطل توزيع القمح أو الأرض على الشعب نهائيا.

وجهت هذه التدابير بمجملها ضربة قاصمة للحركة الديمقراطية الرومانية والإيطالية لم تنهض من تحتها. انخرطت الدولة الرومانية في طريق جديد، أفضى إلى دكتاتورية عسكرية وعبودية.

## الفصل السادس والخمسون

### أزمة النظام الجمهوري

دكتاتورية سيللا. أولغارشية السلطة (٨٢-٧٠) ق.م

ثمة اتجاه ملائم للمفاهيم الدارجة تماما، لدى مؤرخي أوروبا الغربية المعاصرين (ج. كركوبيتو، ف. شور)، وهو أن سيللا كان المثال والقدرة، والرجل الذي "أنقذ الجمهورية من التعصب الديماغوجي-الذرائعي". يذم فقط "لأنه تخلى طوعا عن سلطته العليا مع أن أحدا لم يطلب هذا منه.

شاعرا بالأمان التام، بين الرجال الذين يرتجفون فرقا أمامه، اعتزل سيللا الدكتاتورية شكلا، في العام ٧٩، دون أن ينتحى فعلا عن أي من الحقوق المرتبطة بهذه المهمة. منسحبا إلى ملذاته في بيته الريفى، حيث "كان يقضي الأيام بالقصف والمجون" (بلوتسارك، سيللا، ٤٥)، دبح قوانين لمدن الضواحي، يدعو إليه القضاة والحكام الذين كانوا يجلبونه ويميتهم بأيدي خدمه. ولما مات في العام ٧٨، أقيمت له في ميدان مارس، جنازة ملكية. حمل جسده إلى مثواه الأخير، محاطا ببِلطات حملة الفؤوس، الموسيقى العسكرية وألفى تاج ذهبي. واكب مجمع الأحبار ومجلس الشيوخ كله محفة التشييع، ودلف رجاله من كل إيطاليا. "... مايزال حامل النعش يخشى، هو بالذات، وجيشه، وأجوبته الموت، كما لو كان مايزال حيا". هكذا يصف أبيان بأسلوب رائع أولى الأحزان الإمبريالية في روما (أبيان، الحروب الأهلية، ١، ١٠٧).

مات سيللا، فوجد النظام الجديد الأولغارشي الرجعي، الذي فرضه على روما، وجد نفسه مقطوع الرأس، وبالتالي، غارقا في حالة من الفوضى والعجز التام. حتى عن التفكير بأي انقلاب. أثار موت سيللا انطلاقة استثنائية لعمليات رجال الأعمال والمضاربين من كل نوع. وليس فقط الفرسان وجباة الضرائب، وضامنو بيت المال، والمرابسون، ومنظمو الجيوش والغشاشون كانوا خلال وقت قصير ينهارون بسبب الخسائر الناجمة عن هذه

الأزمة في نهاية الثلاثينات، بل أيضا اغتنى بعضهم بشكل فضائحي على حساب ألام العوام، طيلة هذا العهد القاتم الموسوم بكل أسباب الظلم والعنف والدمار، بين عامي ٨٠ و ٧٠. حقل واسع من النشاط فتح أمامهم، في الولايات الشرقية التي أعيد احتلالها، وكبلت بوزر التعويضات والعقوبات من كل نوع، تأمين نفقات الجيوش، البيع بالمزاد العلني، وبأسعار تافهة، للأراضي والبيوت وباقي الأرزاق المسجلة. إن هؤلاء "الناس الأشراف"، كما يدعوهم عادة شيشرون. كانوا يحتفرون بطانة الملك الرجعية البطانة العاملة على استمرار الحياة الرومانية في إطار خائق من الماضي؛ ويحلمون بحكومة قادرة وحربية، أنسب لتطلعاتهم الاقتصادية. فانطلقت نظرتهم الشرهة إلى مصر، سوريا، منطلق الفرات، وأيضا، نحو مناطق الهند الخيالية، والصين وأرمينيا والقفقاس. فشنوا حربا ضد مثيردات الذي فتح لهم درب الشرق.

بهذا الصدد كانت آراؤهم منسجمة مع عدد كبير من أقرب رفاق سيللا، الذين ما كانوا في حياة الدكتاتور، يوافقونه على حلفه المتين مع الرجعيين. هكذا كان وضع معاونيه الشباب سنويس بامبيه، الملقب "الكبير" بسبب نجاحاته العسكرية، وخصمه، لسنيوس كراسوس، "الغني". كان بامبي، المالك العقاري الثري، يمارس أيضا الربا على مدى واسع، ويوظف ثروته الطائلة في العمليات المثمرة المالية، في إيطاليا وفي المحميات. ولقد اشتهر كراسموس بمضارباته المريبة، في أيام إيعادات ومصادرات سيللا، التي جنى منها الملايين. كان يشتري بسعر بخس الحقول الجيدة، ولا يتردد عن أن يحوزها بالعنف والتهديد. وعندما تشب إحدى الحرائق الكثيرة في روما، يأتي إلى مكان الكارثة مع فريق من عمال الإطفاء المؤلفين من العبيد ويفتدي بسعر مناسب من المالك المنكوب البيت الذي ما يزال يحترق وكذلك أملاك الجوار، ويعيد بناءها بأيدي عبيده المعماريين. وبهذه الوسيلة، يكتب بلوتارك، امتلك قسما كبيرا من روما. كان يحوز عدة مناجم فضة، وأراض على علاقة وطيدة مع الكثير من الحرائث الذين يرفعون قيمتها. لكن هذا لاشيء إذا قورن بما يجلبه له عبيده". كان يبحث أيضا عن الشعبية، دون أن يخشى أن يقع في الديماغوجية. كان "الرجل الأمهر في كسب ود الناس بمديحهم"، وكان يخاصم إن شاء بنبوغ معروف (بلوتارك، كراسوس، ٧).

كان بامبيه، كراسوس ومزاحمهم الكفاء إميليوس لايبديوس، والأقل شهرة منهم

يمثلون في حياة سيللا، المعارضة في معسكر الدكتاتور، بين أعوام ٨٠ و ٧٠، التقت وجهات نظرهم أكثر فأكثر مع وجهات نظر جبة الضرائب والفرسان لإدانة نهج الحكومة جملة وتفصيلا. وانتقل ليبيد إلى الحزب الديموقراطي وراح يطعن على المكشوف سيللا ونظامه، وفي العام ٧٧، ترأس إضرابا فعليا أرثه بقايا الحزب المارياني، رغم انه كان آنذ قنصلا في الحكومة التي أتت بعد الدكتاتورية السيللية. وأقام علاقات مع الديموقراطي الجموح المنافع ماركس جونيس بروتس، الذي دفع إلى التمرد فلاحي الغول السيزالين: الحركة الحاسمة التي قضت على ليبيد بعد استيلاء بامبيه على موتينا، وموت بروتس، الذي أعدم في هذه المدينة.

كان كل الغاضبين على نظام سيللا ينظرون بأمل إلى إسبانيا، حيث بقي قادة من الديموقراطية الرومانية التي خفقت لنفسها ميدانا مربحا منيعا جدا، بفصل الأذكفاء الذين تحالفوا مع حركة التحرر الوطني لهذه الولاية. وشكلوا مجلس شيوخ لهم من المنفيين، وحكامهم ووزراء ماليتهم، وحافل من التمردين الإيبيريين، المسلحين والمدربين على الطريقة الرومانية، بقيادة ضباط رومان من الجذب الشعبي. كان قائد هذه الدولة الديموقراطية رومانو-إيبيريين أحد الأصدقاء الموثوقين ورفيق سلاح سينا، كونتس سرتويوس، الضابط الماهر الجريء، المنظم المعروف. سمي محافظا في أسبانيا في عهد سينا وتمكن من معالجة بعض مشاكل سكان الأقليم: قلص الضرائب، أعفى السكان من عسكرة القوات، وخلق مدارس للإيبيريين (بلوتارك، سرتوريوس، ٧-١٤).

كانت كل أسبانيا، حتى إيبيريا، قد نهضت عفويا لدعم سرتوريوس، وفي روما، كانوا ينتظرون رؤيتها تمشي إلى إيطاليا، على مثال هانيبال. فقد اضطرت الحكومة الرومانية أن تخوض ضده صراعا ضاريا لمدة ثماني سنوات (٧٩-٧١)، زودت أسبانيا بخيرة قواتها وأكفأ قادتها (كاسليس، بامبيه)، الذين مع ذلك، ذاقوا هزيمة حاسمة. وليس إلا بفعل مؤامرة حبكها أفراد جنباء تسللوا إلى محيط سرتوريوس، وذبحوه، نجح بامبيه أخيرا بقمع أسبانيا. حرق بامبيه أرشيف سرتوريوس (٧٢)، ليقضي على كل الدلائل الذكية بينه وبين العديد من وجوه روما.

كان عجز الحكومة الأولغارشية كبيرا بحيث مولت الحرب الأسبانية بأموال الخاصة وقادتها "جيوش الخاصة" لبامبيه ومتلوس. وكانت حرب الشرق التي شبت في تلك الحقبة،

مشتركا فرديا (اقرأ أبيان، متريداتيكا، ٦٩ وبعد). أدرك ملك أن معاهدة دردنوس (٨٥) لم تكن سوى هدنة، أعد نفسه بنشاط لصدمة حاسمة، فتمون بالخشب لبحريته، عمر بواخر، كوم أسلحة وجمع حتى ٢ مليون بود قمح، في مستودعاته الحربية على شواطئ البحر الأسود.

كان تحت تصرف مثيريات أسطول حربي جبار من حاضرات اليونان من ضفاف أوكسن، وكان واتقا من تحالف الشعوب البربرية، الموزعة على القوس الساحلي الواسع، الممتد من شرق القفقاس حتى الدانوب، أي حتى البلقان. كان حليفه ونسيبه تيغران الكبير، ملك أرمينيا المقتدر، الذي تعد دولة آنذ ليس فقط كل شرق القفقاس، بل أيضا سوريا، بحيث كان تيغران يسمى "ملك الملوك"، وفخر بأربعة ملوك يتبعونه. ويأتي أخيرا فراتس الاسم الأقل عتوا لملك فارس، هو الآخر وعده بدعمه، الذي كان ينظر بقلق شديد إلى التغلغل المتزايد لرجال الأعمال، التجار والمرابين الرومان في آسيا.

وعندما خسر نكوميد، ملك بيتيني، الديون التي فرضها على جباة الضرائب، أوصى وهو يموت بمملكته للرومان الذين كانوا يستعدون لوضع اليد عليها، لكن مثيريات سبقهم ودخل المملكة واحتلها (٧٤). انتفضت بيتيني كلها واستقبلته بغبطة، بأمل أن يكسر نير المرابين العاتي والمضاربين الرومان. وولجت شعوب ثراسيا ومقدونيا من الجنوب. وغزت بحر إيجه مراكب القراصنة، حلفاء مثيريات، وكان الوضع يذكر بالنكبة التي زعزعت الشرق الروماني قبل ١٥ عاما.

وفي العام ٧٤، أرسلت حكومة روما ضد مثيرياتات القنصلين، م. أورليوس كوتا ول. لسينوس ليكولس، اللذين لم تستطع إعطاء كل منهما أكثر من إقليم. وبالتالي هزم مثيريات خصمه كوتا على الغوركوتا وطوقه في شالسودان. إما ليكوس، الذي كان ذراع سيللا الأيمن، اتبع في هذه الحرب أساليب سيده: جند هو نفسه قواته في البلاد وعلى مناهل البلاد وأرزاقها، فاجبر مثيريات على الانسحاب نحو الشرق. وأرسل لمطاردته أسطول المؤلف في الوطن، في الحاضرات اليونانية للشاطئ الغربي من آسيا الصغرى الذين خشوا مثيريات، لأنه خانهم في الحرب السابقة. وجه لوكولس أشرعته نحو الشرق، على طول ضفاف آسيا الوسطى، احتل مدن بيتيني وغزا اليونان، وكبر جيشه بنداء جديد للمرتزقة الطامعين بالغنائم، فمشى نحو الشرق، وأتعب قاداته من استيعاب حماسه للصوصية.

دام الخضوع والدمار الممنهج لمملكة البونت المتروكة لقدرها على يد العاهل سسنتين (٧٢ و٧١). وبدأ القادة القابعين في التكنات المنيعه الانتقال جمهرة إلى جانب لوكوس وابن مثريدات نفسه، ماشارس، حاكم اليوسفور، بعد أن دعم لمدة طويلة وعن طريق البحر سينوب، عاصمة البونت، التي يحاصرها الرومان، خان أباه وبعث إلى لوكولس تاجاً ذهبياً. وكانت الحاضرات اليونانية الكبرى مثل هركلييه وسينوب، التي تدين بازدهارها لوجود دولة البونت القوية التي بناها مثريدات، الحاضرات الاطول والأحزم مقاومة، الأمر الذي كلفهم الدمار على يد الرومان (انظر ممنون، تاريخ هاكلييه، ٤٧-٥٢).

مع حملة لوكولس، دخلت منطقة البحر الأسود لأول مرة في فلك الإمبراطورية الرومانية. مثلت الجيوش الرومانية على سواحل هذا البحر الجنوبية والغربية وشكالت ولايتي بيتيني والبونت. اجتاز أخو سفير المشرع، ماركوس لسنوس لوكوس، العامل ضد الثراس حلفاء مثريدات وضد البسترن، اجتاز البلقان، وصل ثغر الدانوب وأدخل إلى الحلف الروماني المستعمرات اليونانية على ساحل ثراسيا، استرا، تومي، كلاتس، أودسس وغيرها (٧٢-٧١)، فارضاً على الحاضرات نيراً غليظاً من التأكيد والغرامات التي لاتنتهي.

إن التهكم والابتزاز، والاعتصاب والعنف الذي مارسه الحكام السيليين-سيللا، بإشراف مجلس الشيوخ وأتباعهم الكثر، مورس بقسوة أيضاً في الأقاليم الأخرى. ومحافظ سيسيليا، دولابيللا، خليفة الدكتاتور المتوفى، اشتهر، بسلب بلا عقاب أوابد الفن القديم، المعابد والدارات فريدة المثال. فجمع هكذا مختارات ضخمة وثمينة. ومساعدة س. فيرس، فيما بعد محافظ سيسيليا (٧٣-٧١)، عمل أيضاً بنفس الوقاحة والسفه. وبهذه المرافعات الشهيرة *les verrines* (٧٠) وشى شيشرون المدافع عن مصالح جباة الضرائب والفرسان المتضررين من هذه المنافسة، "بمآثر" فيرس في سيسيليا، ليظهر بطريقتة محكمة إدارة رجال سيللا.

لقد أسفر النظام الرجعي الذي تركه سيللا لروما عن تخريب حكومة الجمهورية ونصرة العوامل الاجتماعية الأكثر التباساً.

### تمرد سبارتاكوس

في هذه الشروط التي تحمل الدمار القريب، هيأت الجمهورية الرومانية العبودية لتمرد

جديد وهائل، بقيادة سبارتاكوس، الذي اكتسح هذه المرة كل إيطاليا (٧٣-٧١)<sup>١</sup>. وفي كتابه الهام في الـ"دولة"<sup>٢</sup>، حدد لينين بدقة وإيجاز هذه الأحداث، فقال: "كان سبارتاكوس بطلا عظيما في واحدة من أعظم عصيانات العبيد، منذ ألفي سنة تقريبا. خلال أعوام كثيرة من حياة الإمبراطورية الرومانية، المبنية كليا على العبودية والتي كانت تبدو وطيدة الأركان، هزها وزعزها تمرد العبيد الهائل المسلح وحشد، بقيادة سبارتاكوس، جيشا جرارا".

يدعو مؤرخو الزمن القديم، وعيا منهم لأهمية وطبيعة هذه الحركة، عادة، "حرب العبيد" أو "حرب سبارتاكوس"، ويكتب أوتروب، أنها كانت "حربا ربما أصعب من الحرب التي شنّها هانيبال". ومن الاهتمام التفصيلي الذي أعطاه سالوست بعد ٣٠ عاما في "تاريخه"، لم يصلنا لسوء الحظ إلا بعض المقاطع العجاف. والكتب الثلاثة (٩٥، ٩٦، ٩٧) التي خصها تيت-لايف لهذا العصيان قد ضاعت هي الأخرى، فمراجعتنا الرئيسية تنحصر في شيء من مقاطع بلوتارك في "حياة كاسيوس" (الفصل ٨-١١) وأبيان في "الحروب الأهلية" (١، ١١٦-١٢٠)، إجمالا ليس أكثر مما أعطانا ديودور لتمرّدات العبيد في سيسيليا. ولا يمكننا أن نضيف سوى بعض الجمل المبعثرة، في مختصرات الكتابين ٩٦ و ٩٧ لتيت-لايف، وكذلك من كتب فلور، أوتروب، أورو وكتاب آخرين. ونحن لا نملك نقشا واحدا يتعلق بهذه الأحداث. فقط، جدارية اكتشفت حديثا في بامبي تمثل، على الأقل افتراضا، سبارتاكوس على ظهر جواد، في أثناء صولته الأخيرة ضد الرومان<sup>٣</sup>.

بدأت الانتفاضة بمؤامرة، كما كانت تبدأ بشكل عام حركات العبيد، لكن المنتفضين كانوا هذه المرة رجالا اعتادوا امتشاق السلاح: اشترك فيها حسب بلوتارك ٢٠٠ عنصر من مدرسة مصارعين، كانت في كابو. لكن ٧٤ منهم فقط استطاعوا الهرب، وفي أثناء هربهم تسلحوا بسكاكين المطبخ، والسفافيد، والعصي، ثم بأسلحة جلادين كانت لدى موكب

<sup>١</sup> - يشير أوزور وأوتروتروب بصورة دقيقة إلى العام ٧٣، في عهد قنصلية م. لسنينوس وكاسيوس فاريوس.

<sup>٢</sup> - لينين. في الـ"دولة". منشورات باللغة الأجنبية، موسكو ١٩٥٤، ص ١٩.

<sup>٣</sup> - لقد جمعت كل المقاطع والصحاف التي بقيت من مؤلفات القدماء حول هذه الحروب، في مؤلف الأستاذ أ. ميشولين "تمرّدات سبارتاكوس"، م. ١٩٣٦.

ما وقع بين أيديهم، وبعض أسلحة الحرب، ولجؤوا إلى مخابى منيعة في سفوح فيزوف. لكن هذا الحدث، العادي جداً في ذلك الزمان، كان نقطة انطلاق لحركة محلية عجزت قوى الأمن عن قمعها. بعد الحرب الاجتماعية وحملات سيللا، بامبيه، لوكولس، خنقت إيطاليا العبيد أكثر من أي وقت آخر، والمتمردون السابقون، الإيطاليون، الثراسيون، الغاليت، مساجين بعد نضال ضار، هم الذين كتموا حقداً كبيراً على روما وأفعالها الحربية. كان قائد هؤلاء اللاجئين، سبارتاكوس، ثراسي الأصل. "كان قد خدم في جحفل ما (في قوات ميثريدات)، وكأسير بيع كعبد" (أبيان، الحروب الأهلية، ١، ١١٦)؛ كان رجلاً مميزاً بقوة الجسدية والشجاعة الاستثنائية مضافة إلى حذر ولطف أكبر من ثروته، بكثير ويليق لأن يكون يونانياً لا بربرياً" (بلوتارك، كراسوس، ٨). والقائدان الآخران، أونومايس وكركوس، اللذان ينتميان إلى عرق محارب وجموح هو أحد أعراق الغولوا في آسيا الصغرى (الغالات)، كانا أيضاً قد خدما في صفوف جيش ميثريدات، فسي أثناء حربه ضد سيللا. ولم يتردد عدد من نفس المعدن عن الانضمام بحماس كبير إلى نواة التمرد، وهذه سرعان ما كون على سفوح فيزوف وحدة من سبعة آلاف رجل. يؤكد بلوتارك أنهم كانوا يضمون نساء، وبخاصة، زوجة سبارتاكوس، التي كانت من الأمة ذاتها.

يجب أيضاً أن نقيم وزناً للحالة الروحية التي كان يعيشها شعب إيطاليا الحر وبخاصة كامبانيا التي دمرتها الحروب الاجتماعية والأهلية، ومصادرات سيللا، والتي شوشتها نداءات الحرية التي كان يوجهها إلى العبيد قادة الانتفاضة الإيطاليون، ثم الحزب الشعبي. في هذه الحروب الداخلية، كان تجنيد جحافل كاملة من العبيد يتم من كل حذب وصوب؛ والجحيم الذي كان يفصل سابقاً العبيد عن الناس الأحرار من الطبقة السفلى كان قد تقلص بشكل ملحوظ. ويمكن أيضاً أن نصدق أقوال أبيان، القائلة أن فلاحين فقراء، أحراراً، انضموا إلى الحركة، ويذكر ساللوست، أن المليشيات المحلية كانت تنفر وتشمئز من القتل ضد المتمردين: "كان البعض يهرب، لأحد يعرف إلى أين، رغم الأوامر القاسية؛ وآخرون يرفضون الخدمة بخزي" (تاريخ، ٣، ٦٧، ١). وهكذا اتسعت الحركة جداً، واستطاع سبارتاكوس أن ينزل ضربات قاسية بخصومه، لابل أن يهزم عدة مرات المليشيات المحلية بقيادة الحكام كلوديس، فارنيوس وسفرائهم المرسلين من روما. وقتل واحد من هؤلاء،



كوسنيوس. ووجد الحكام معسكرهم، وحملة فؤوسهم، وخيول القتال وقد خطفها المتمرديون، الذين قاموا بغزوات ارتجالية على مؤخرات القوات الرومانية واستخدموا كل الحيل الحربية (انحدروا دون أن يروا من أعالي صخورهم بواسطة سلالم جدلوها من أغصان الكروم، وهبطوا فجأة على العدو أو الأصح، أقاموا الجثث بمثابة الحرس، وانتزعوا الخيام دون جلبه في جنح الليل.

لكن الانتفاضة أخذت مدى واسعاً عندما ربح سبارتاكوس، على رأس قوة قادرة، ربح من كمبانيا، جنوب إيطاليا، ليعمل في مناطق تدجين لوكانيا وبرتيوم، "يوم انضم إليه من الرعاة العبيد" كل الرجال المحاربين المهرة (بلوتارك، كراسوس، ٩). وكان قد نجح في تكوين جيش حقيقي، يقدره أبيان بـ ٧٠ ألف رجل. كانت كل الأرض الواسعة من متبونتوم على خليج تارانت حتى كونسانتيا في وسك برتيوم كانت تحت سلطة المتمردين (أوروز، ٥، ٢٤، ٢). عن هذه الحقبة يتحدث أبيان: إن مدينة توريوم كانت النقطة الرئيسة لتجمعهم، حيث يتمون استعداداتهم الضخمة لمتابعة النضال. "احتل الجبال التي تجاور توريوم؛ واستولى على المدينة ذاتها. منع التجار من بيع الذهب والفضة، ومنع أنصاره من أن يشتروا شيئاً من هذا. وماكانوا يشترون سوى الحديد والبرونز، وبثمن مرتفع وكانوا يرحبون بمن يبيعهم هذين المعدنين. بحيث يتجهزون بالضروري فقط؛ وبتسلح جيد كانوا يغزون من حين لآخر الشعوب المجاورة. وتقاتلوا مرة أيضاً مع القوات الرومانية، وهزموها، وعلى حسابها كونوا غنيمة ثرية". (١، ١١٧).

وبفعل عجز وغفلة الحكومة السيللية -سيللا- يبدو أن سبارتاكوس كان يتأهب طيلة عام ٧٣. لم يكن راضياً عن تسلح قواته، فحاول ضبطها. وكانت الغنيمة توزع أيضاً وكان تداول الذهب محرماً. يسجل سالوستر بدهشة أن سبارتاكوس، كان كبيراً "بقواته جسداً وروحاً، يتصرف في الأغلب بقناعة وليس بأساليب الوحشية واللاإنسانية المعروفة في انضباطية الرومان الحربية.

يكتب المؤرخ ذاته، مثلاً أن سبارتاكوس كان يحذر من الإفراط بالعنف الدموي الذي قد يرتكبه العبيد، عند احتلال القرى. كان يمجّد تقاليد أتينيون، أمراً "بصيانة البلد كما يصاب الملك الشخصي". لكن خلافات حادة، تصل لحد الفرقة والانشقاق، تنور بين القادة بهذا الصدد، ودوماً استناداً إلى سالوستر "قد تنشأ حرب فعلية في معسكر العبيد، في موضوع

خطة العمليات". "انشق كريكس وأخوته في المحتد، غولوا وجرمن"، الذين كانت الصناعة العادية تنهب في وطنهم، وأقاموا معسكرهم في أبوليا، قرب جبل غارغانو. وهنا حاصرهم الرومان وأبادوهم.

لكن سبارتاكوس كان آنذ قوياً بحيث أن حرباً متواصلة ضده صارت، حسب تعبير بلوتارك، "واحدة من الحروب الأكثر كلفة والأخطر" تتحمل روما مسؤوليتها (كراسوس، ٩). كان عليها أن تسير ضده كل قواتها القتالية، جيش قنصلي العام ٧٢، ل. يوليوس بوبلكولا وس. كورنيلس لانتوس، لكن محاولة تطويقه انتهت بهزيمة محكمة.

وبقي شطر من متاع الرومان بيد المتمردين. يؤكد أوروز بدون التباس أن "القنصلين، بعد أن حشدا قواتهما بدون جدوى، انهزما بعد معركة رهيبة". فضلاً عن هذا، فقد انتقل سبارتاكوس، على رأس جيش يصل إلى ١٠٠ ألف رجل، مسلحين ومجهزين بعتاد غنمه من الرومان، انتقل بحزم إلى الهجوم، لأول مرة في تاريخ الحركة العبودية. من سامنيوس، حيث بدأ القتال الذي تكلمنا عنه، مشى نحو الشمال عن طريق الجبال حتى متينيا (قرب سهل البو حيث هزم مشترع غول سيزالبين، ك. كاسيوس لونجينس، الذي حاول أن يسد عليه درب.

في الحالة الراهنة واستناداً إلى مراجعنا لن نستطيع أن نعين بطريقة لا تقبل الرد الأسباب التي دعت سبارتاكوس لأن يتوجه إلى الشمال بداية بجيشه ثم يعود به إلى الجنوب. إن بعض المؤرخين القدماء، محاولة منهم للتغلغل في خطط سبارتاكوس، نسبوا إليه الرغبة في الخروج من إيطاليا مع جيشه. "كان سبارتاكوس يثبت أنه كان آنذ قوياً وجباراً" يكتب، مثلاً، بلوتارك، مقوماً بحق جبروت المتمردين القتالي، لكن، يتابع (لننتقل عياناً إلى الظروف)، فقبل أن ينهز بانتصاراته، اتخذ تدابير في غاية الحكمة، وبدون أن يزهي بالظفر على الآلة العسكرية الرومانية، قاد جيشه إلى الألب، مقتنعاً بصحة خطته لكي يجتاز هذه الجبال وأن ينسحب كل إلى بلده البعض إلى الغول، والآخرين إلى ثراسيا" (كراسوس، ٩). (سالوست) ويؤكد بلوتارك مستنداً إلى المرجع ذاته أيضاً أن مسيرة سبارتاكوس كانت أصلاً ذات طابع "انسحابي" إلى خلف الألب والغول، لما وصل أحد القنصلين لسد الطريق عليه، بينما يدفعه القنصل الآخر نحو مؤخراته. (الحروب الأهلية، ١، ١١). لكننا نجد لدى أبيان شاهداً في غاية الأهمية، يثبت أن سبارتاكوس، بعد أن قطع

مضائق الألب، راجع نفسه، وقرر العودة إلى روما: "سبارتاكوس.. [القناصل] ليقهر الواحد بعد الآخر، ويفرض عليهما الانسحاب مشتتين. ولقد قدم سبارتاكوس ٣٠٠ ضحية رومانية قربانا لكريكس. وأخذ بجيشه البالغ ٢٠ ألف رجل مشاة وعلى عجل الطريق إلى روما، بعد أن أجرق كل العناد النافل، وأعمل السيف برقاب المساجين، وصرع كل دواب الحمل... وقف الكثير إلى جانبه لينضموا إلى جيشه؛ لكنه لم يشأ أن يقبل أحدا". (المصدر السابق) ويؤكد بلوتارك (كراسوس، ١٠، ١١، ١) أيضا وجود هذه الخطة، وكذلك فلور، الذي استقى معلوماته من تيت-لايف ("مزدحمًا بانتصاراته قرر سبارتاكوس السير إلى روما").

يعلل مؤرخو هذه الأيام بأساليب متغيرة هذا السلوك الغريب والمتقلب لقائد العبيد المتمردين. يفرض البعض أن سبارتاكوس فقد سطوته ونفوذه على جيشه الذي أراد المتابعة لنهب روما؛ ويؤكد آخرون أن الفيضان منعه من اجتياز نهر البو، أو أن سبارتاكوس خاف مقاومة البلدان الريفية في الغول غرب الألب، أو أخيرا تهب صعوبات عبور الألب. الفرضية الأقرب إلى المنطق هي أن سبارتاكوس، مدفوعا بنألقه القتالي، وضع خطة السير إلى روما.

وهكذا بدأ جيش العبيد الرهيب التوجه إلى الجنوب. كانت روما تعاني من ضائقة، وكان آخر رفاق سيللا، الذي كان جاهزا آنئذ في العاصمة، ل. لسنوس كراسوس، "بطل معركة باب الكولين، الذي استلم السلطات الدكتاتورية"، قد وضع على رأس قوات الجمهورية، بما فيها فلور الجيوش القنصليين اللذين بددهما سبارتاكوس. كمالك كبير للعبيد يهتم بحبوبة بسحق التمرد. تكاثفت معه جمهرة من هذه الفئة، أمام هذا الخطر المحدق أعيد العمل بالتدابير الانضباطية المتوحشة الممارسة في العصور الغابرة: أبيت الوحدات التي هربت من الجبهة: كانوا يقتربون على عشرات الجنود، ومن يصيبه القدر يقتل. هكذا صرع كراسوس ٥٠٠ رجل دفعة واحدة؛ بل يتحدث أبيان عن ٤٠٠٠ إعدام. فدعي جيش م. كوكولس على عجل من ثراسيا، وجيش بومبييه من إسبانيا.

على رأس القوات الضخمة، المسحوبة من كل إيطاليا، حاول كراسوس سد طريق سبارتاكوس، عند تخوم بسنوم. لكن مناورته التطويقية فشلت: والجحفلان المكلفان بحركة التفافية بقيادة السفير ميموس، تبعثرا فلولا وشرادم، لكن جمهرة من الجند هربت ونجست، بعد أن ألفت السلاح. إنما أبيان يزودنا بهذه الواقعة الهامة: "رغم هذا النجاح، عزف

سبارتاكوس عن مشروعه الأول في السير إلى روما، لأنه أحس أنه لم يتقن بعد فن الحرب، وأن كل هذه الحشود لم تشكل جيشاً مناسباً (الحروب الأهلية، ١، ١١٧). وبعد معركة بسنوم، تابع سبارتاكوس إذن سيره نحو الجنوب، مقدراً عبور سيسيليا. وهنا يأتي ما ينقله لنا بلوتارك: "إن سبارتاكوس، الذي اجتاز لاكونيا وانسحب نحو البحر، لدى مصادفة قراصنة سيسيليين، كون مشروع عبور سيسيليا وتخصيصها بألفي رجل؛ كفى هذا العدد لإعلان العبيد الحرب في هذه المدينة، الحرب التي، لم ترمد نارها بعد، لم تكن بحاجة لسوى مشعل بسيط ليلتهب المجتمع كله" (بلوتارك، كراسوس، ١٠). كان الشطر الأكبر من قواته في شبه جزيرة رجيوم، في طرف بروتيوم، ومن هنا راقب بهدوء أعمال كراسوس ليطوقه: "مد كراسوس من بحر إلى آخر خندقاً طوله ثلاثمائة مرحلة، وعرضه وعمقه ١٥ قدماً بنى عليه سوراً سميكاً وعالياً بشكل مذهش" (المصدر ذاته). وعندما تبين أنه لا يستطيع الاعتماد على التمرد في سيسيليا، لأن القراصنة كانوا قد خانوا ولم يقدموا المراكب الموعودة، وعبيد سيسيليا، المكبلين بنظام رهيب، لن يجروا على الانتفاض من تلقاء أنفسهم، هجم سبارتاكوس في جناح عاصفة ثلجية من ليل شتوي، على خطوط المحاصرة فوجد نفسه عند مؤخرات العدو. "خشى كراسوس أن لا يرغب سبارتاكوس في السير مباشرة إلى روما"، التي كان دريها مشرعاً.

لكن في تلك البرهة وصلت الجيوش المدعوة من تراسيا وإسبانيا. الأمر الذي فرض على سبارتاكوس أن يمشي أولاً إلى قوات لوكولس، المهيأة للإبحار إلى برونديزيوم، قبل أن يتوفر لها وقت التمرکز والانتشار. لكن برونديزيوم، المرفأ الروماني الهام الحربي على البحر الأيوني، كان في غاية التحصين والمناعة من أن يؤخذ من الهجوم<sup>١</sup>. فالتف سبارتاكوس آنئذ حول كراسوس، بحثاً عن المعركة الحاسمة. قبيل هذا كان جيشه أصيب بهزة ما لأن جمهرة غاضبة من الجند تخلت عنه، على رأسها كايوس كانكوس (الأرجح أنه من متبتي إيطالي) وكاستوس. ولقد دمر كراسوس الاثني عشر ألفاً هؤلاء الذين شكلوا وحدة منعزلة. وجرت المعركة الأخيرة بين سبارتاكوس وكراسوس في ضواحي شمال

---

<sup>١</sup> - ليس لسبارتاكوس أبداً أن يفكر بالانتقال إلى اليونان بحراً، لأن نقل جيش جرار كهذا يحتاج مئات المراكب.

لوكانيا. "دام القتال طويلا وضاريا؛ لأن رجال سبارتاكوس كانوا يقاتلون بيأس. لكن سبارتاكوس جرح أخيرا في فخذه بضربة سهم. سقط على ركبته. وبحماسة درعه، راح يقاتل أولئك الذين هاجموه، حتى استسلم، هو وعدد كبير شكل حلقة حوله. ومن بقي من جيشه، تشتت وبعد موت القائد تحول إلى فلول. كان عد الصرعى، من جانب الجلادين، لا يحصى. فقد مات هنا ألف روماني. وكان محالا العثور على جثة سبارتاكوس." (أبيان، الحروب الأهلية، ١، ١٢).

يقدم بلوتارك رواية أخرى لموت سبارتاكوس: قبل المعركة، "حينما أتى له بحصانه، انتضى سيفه وقتله: "لقد مكنتي النصر أن أجد كفاية من الخيول الطيبة بين خيول أعدائي، وإن هزمت، فلست بحاجة له". وبهذه الكلمات اندفع إلى وسط الأعداء. سعيا للوصول إلى كراسوس... قطع بيده نطاقين كانا يحيطان جسده. أخيرا، تركه من حوله، بقي وحيدا بين الأعداء، وسقط صريعا لكن بثمن غال جدا" (كراسوس، ١١).

حتى بين قصص كتاب العهد القديم، نشعر بالاحترام العميق لهذا القائد العبد المتمدود، الذي صار بين الشعب بطلا خرافيا. وصار اسمه شبحا مخيفاً، لدى كل المجتمع المبني على العبودية، الذي عاش في خوف يقض مضجعه من تمرد جديد من هذا النوع.

سحقت حركة العبيد. وصرع سبارتاكوس. وفلول جيشه التي تبعثرت بين الجبال، أبيدت شيئا فشيئا. صلب كراسوس ستة آلاف سجين في الطريق من كابو حتى روما؛ والعصابات التي تمكنت من الوصول إلى الشمال، أبادها بومبييه، الذي كان يتناول "باقتلاع جذور هذه الحرب" لكن قضية سبارتاكوس، التي هزمها السلاح، كانت ظافرة خلقيا، وإذا كان مؤرخو العالم العبودي، مثل بلوتارك وأبيان، اللذين عاشا في القرن الثاني بعد الميلاد، يحملون حكما مبصوما بالتعاطف مع شخصية سبارتاكوس، فذلك لأنهم رأوا منذئذ أن أساليب استغلال العبيد الممارسة في أيام كراسوس كان مرفوضة وخطرة. لقد عكس المؤرخون روح الأجيال الجديدة من مجتمع العبودية. التي بدأت ترى أن عمل العبد بعامه لم يعد مجديا وراح ينتقل إلى أشكال أخرى في استثمار الكادحين، -الوفر، الاستيطان. إن هذا التطور البليغ تجاه العبودية لمس منذ تمرد سبارتاكوس وجعل يطلق أهميته التاريخية على حركات العبيد لأعوام ٧٣ و٧١: ولقد شرع بالانتقال إلى علاقات أخرى اجتماعية واقتصادية، أكثر تقدما وتقدمية.

## آخر حركة للشعبيين في روما. "مكيدة كاتلينا"

لقد تزامن تمرد العبيد مع تجدد نشاط الحركة الديمقراطية في روما. فمنذ العلم ٧٧، حاول الشاب كايوس يوليوس كيزر (تولد ١٠١ ق.م) ابن أخ زوجة ماريوس وصهر سينا، الذي نجا بأعجوبة من مذبة ذويه، وكان يعتبر واحدا من القادة الذين بقوا من الحزب الديمقراطي، حاول التصدي بجرأة لأحد الكواسر من السيسيليين -سيللا-، كورنليس دولابيللا، الصديق الشخصي للدكتاتور. وفي العام ٧٣، عام انتفاضة سبارتاكوس، نصح محامي الشعب الجسور، س. لسنوس ماسر، المؤرخ، الذي درس بعناية التغيرات المفاجئة للفضال بين العوام والأشراف، نصح الشعب، مقتفيا خطى أهليه، أن لايقااتلوا لمصلحة الأغنياء أو ينضموا إلى قضيتهم ورفض الخدمة العسكرية. واستنادا إلى سالوست. هتاك أستاذ نظام سيللا، هذه الـ"عبودية الشاملة، التي جعلت من الشعوب حيوانات". وبعد هذا، وفي العام ٧١، رفع شيشرون، الذي كان ينتمي للديموقراطية، دعوى مدوية ضد اختلاسات فيرس الذي ولاه سيللا على سيسيليا. وقد أصبحت "مرافعات" شيشرون بالفعل بصمة الاتهام لكل النظام الفضائحي وأنزلت به ضربة قاصمة.

وفي العام ٧٠، عبر رجال من أنصار سيللا على المكشوف لضرب الديمقراطية. وبعد النصر على سبارتاكوس وسرتوريوس، وصلوا معا إلى أبواب روما، كل مع جيشه وبهدف القيام بانقلاب لحسابه الشخصي. وهنا تنازعوا تأييد الفرسان والشعب، واعدن بإحياء النظام الذي دمره سيللا. ونجح قادة الديمقراطية الرومانية، مستغلين خصوماتهم، في تحقيق نصر مؤزر: وأملوا على القائدين عقد معاهدة تتجنب الحرب الأهلية؛ فضلا عن هذا، وعلى حساب منصب القنصل الممنوح للثلاثين (رغم أن بومبيه مايزال في الرابعة والثلاثين من عمره ولم يحتل أي منصب حكومي كبير، حصل الديمقراطيون على حق عودة الجمعيات العشيرية الانتخابية، والفعالية القبلية بكل مداها، والرقابة: وبأشر المراقبون فوراً تنقية مجلس الشيوخ، وطردوا ٦٠ من أبرز لصوص الزمر السيللية. ثم حصلوا على إصلاح المحاكم: لم يبق لأعضاء مجلس الشيوخ سوى ثلث القضاة، وما بقي، كما كان الأمر قبل الدكتاتورية، يقسم بين الفرسان وما يسمى اليوم وزير مالية، الذين يشكلون نوعا من صغار التجار، والأمر شديد التميز هو عودة مكاتب استئجار جباية الضرائب إلى أسيا. هكذا، في العام ٧٠، أبطل الدستور الكورنيلي كله وأحيى النظام الجمهوري لزمن ماريوس وسينا.

خلال السنوات التالية، تحرك الحزب الديمقراطي، وقد تعلم من هزيمته الحديثة، تحرك بطريقة أكثر انتظاما ووسع برنامجه. وانتسب إلى الحركة النقابات المهنية والجمعيات الشعبية. كانت هذه المؤسسات موجودة في روما منذ زمن سحيق، لكنها كانت تشكل آنذ رابطات شعبية حقيقية وتكون بشكل ما قاعدة "الحزب الشعبي"؛ وبسبب امتداد حق الحاضرة في كل إيطاليا، ما كان عملها يمارس فقط في روما، بل في بلديات إيطاليا كلها، من هنا كان نفوذها يتغلغل في القرية، في الاستثمار الفلاحية المرهقة بالديون، بين العمال الزراعيين، في مستعمرات محنكي ماريوس سيللا، بومبيي، كراسوس، إلخ. كان العدد الأكبر من هؤلاء المعمرين مدمرين ومكبلين حتى أعناقهم بالديون، بسبب عدم أهليتهم، وعدم معرفتهم لشؤون الزراعة ومزاحمت كبار المالكين. وقد اشتركت بالحركة النساء ذوات الذهن المنفتح، مثل شمبرونيا، (من اسرة غراسك)، أرملة م. جونيوس بروتس، قائد تمرد شمال إيطاليا قتل في العام ٧٨، وعدد كبير من الشباب الرومان، منهم يوليوس قيصر الذي قدمت أسرته أنصارا لماريوس وسينا. وفي اللقاءات والاجتماعات غير القانونية الديمقراطية، كان الحضور يطرح قضية إلغاء الديون ("فتح سجلات جديدة للدائنين") وقضية "القانون الجديد الزراعي" المنصف الذي يؤمن التمتع بالأرض فقط لأولئك الذين يعملون بها حسب العرف القديم. وعدم الشك بالنفوذ الذي تمارسه على الرأي العام الروماني يومئذ النظريات الاجتماعية اليونانية والخطباء والفلاسفة الرواقيون والأبيقوريون الآتون للتعليم في روما.

اهتم المؤرخون القدماء في الحقب اللاحقة (سالموست، مثلا، في مؤامرة كاتالينا) وبعده المؤرخون المعاصرون (مومسن بخاصة) بتقديم نشاط الحزب الديمقراطي الروماني في تلك الأيام المضطربة، فقط بمراى المؤامرات الكارثية لزمرة من الطامعين المتنفذين والأوغاد، جارين وراءهم على عجل لفيفا من الطائشين، المباعين والمجرمين. صفات تليق بهم تماما. لكن هذا لا يبعدنا عن الاعتراف بأن الحركة كانت تحمل نقاط ضعفها. قلة الثقة بقواها، انتظار الإنقاذ من منقذ، "سيللا مقلوب"، إن صح القول. فقد أولت الديمقراطية الرومانية الجديدة ماريوس عبادة فعلية. وفي العام ٦٩، كان يوليوس قيصر، كما ينبغي بلوتارك، يتمتع بشعبية واسعة لدى العامة، وانتخب تلك السنة وزيرا عاما، وأقام مأتما مهيبا لخالته جوليا، أرملة ماريوس، وتجرأ أن ترافق الجنازة صور لماريوس، لم تظهر منذ

مجيئ سيللا سيدا إلى روما، وتعلن ماريوس وأنصاره أعداء الوطن...، لكن الشعب... بتأييده شديد الوضوح، يشهد على اختياره وحبه له (المصدر السابق). وبعد هذا أقام قيصر في الكابيتول أنصابا مذهب لماريوس وانتصاراته، الأمر الذي استقبل بترحاب حماسي من قبل الشعب وأثار في مجلس الشيوخ فضيحة حقيقية.

وبومبيه، الذي اتحد نهائيا مع الجناح المعتدل في الحزب الديموقراطي، سعى بشرف ليصير "ماريوس الجديد". ولعدم وجود شخصية كفاء لهذا المنصب، دعم الحزب الشعبي الآخرون قيصر الذي مايزال فتى. ولمداواة الجوع الذي أرقق روما في العام ٦٧، والذي اتضح في وحشية القراصنة ووظف مجلس الشعب، باقتراح من محاسب الشعب أوليوس غابينيوس، بومبيه، وأعطاه سلطات غير معروفة. عرف بـ"دكتاتور البحر" ومهمة شن حرب طاحنة ضد هذه القرصنة، واستلم لثلاث سنين قيادة كل شواطئ البحر المتوسط، وقيادة كل المراكب والقوات المحتشدة فيه (١٢٠ ألف رجل و ٥٠٠ باخرة)؛ ووضع تحت تصرفه ٦ آلاف تالانت -مبلغ ضخـم- ووضعوا بإمرته ٢٥ معاونا. "أبدا، قبل بومبيه، لم يستلم أحد هذه السلطة على البحر"، يكتب أبيان (مثيريات، ٤٩).

وعندما انتهى بومبيه من هذه المهمة بجدارة مذهشة -خلال ثلاثة أشهر فقط- فقد نظف البحر من القراصنة وأمن المؤونة لروما الجائعة، استلم في العام ٦٦ مهمة أوسع منصب أن يحل محل الأرستقراطي لوكولس، المكروه شعبيا لدى الفرسان، لينهي الحرب مع مثيريات ويسوي أمور الشرق. طرح هذا الاقتراح على مجلس الشعب بمبادرة محلي الشعب مانليوس ودعمه قيصر، فأثار غضبا رهيبا لدى الرجعيين.

أعلن هؤلاء عدم صحة استلام رجل واحد سلطات بدون حدود، القانون "المعادي لتقاليد الجدود"، وبعبارة أخرى، الدستور الجمهوري. فاضطر الشعبون أن يتصدوا في الفوروم لشيشرون، الخطيب المفوه. لم يكن خطابه من أوله إلى آخره سوى تقريظ لحبيب الشعب الجديد.

واستنادا إلى قانون مانيليا، صار بومبيه السيد الحقيقي لآسيا الصغرى. غزا البوننت، طرد أولا مثيريات من كولشيد، ثم أجبره على الهرب إلى البوسفور. بعد أن تركه حتى ابنه، افرناس، مات عدو روما اللدود هذا في العام ٦٣ في بانتكابه، بعد فشل محاولته السير إلى روما بموازرة السيث والثراس في شمال البلقان. وماتزال قمة الجبل حيث



القصر الذي مات فيه تحمل الآن اسم "مثريدات". أرسل فرناس جنته إلى بومبيه الذي كافله بتسليمه حكومة البوسفور.

واضطر تيغران، ملك أرمينيا وصهر مثريدات، وقد هوجم دفعة واحدة من الرومان والبارث، أن يمثل في القيادة العامة لبومبيه ويحصل منه، لقاء فدية من ٦ آلاف تالانت على الصلح، ويقائه بلقب ملك أرمينيا و"صديق الشعب الروماني، وهذا يعني التبعية والولاء. وفيما بعد شن بومبيه حملة على شعوب ألبانيا (أذربيجان) وإيبيريا (جورجيا) حلفي مثريدات. لكن صعوبات الحرب، في هذه البلدان الجبلية، فرضت عليهم إنهاء هذه الحملة، مكتفين بإخضاع سكان شرق القفقاس. وعلى السواحل الجنوبية للبحر الأسود، شكل ولايتين جدينتين، بيتيني واليونت. وانطلاقاً من روما، اجتاز ما بين النهرين الغربي، فتح مملكة السلوسيد، المنهارة، وحولها أيضاً إلى إقليم روماني في سوريا في العام ٦٤. ولملكها الأخير، أنطيوخوس، لم يترك سوى أرض صغيرة من كوماجين، في شرق هذه الحقول القديمة. وفي غلاسيا، كبادوسيا وجودي، نصب ملوكاً جددًا، مجرد أتباع لروما.

وكانت روما قد وضعت يدها على أراض واسعة، الضفاف الشمالية لمملكة البوننت حتى الفرات وتخوم مصر؛ ولم تكن الغنائم أقل روعة وضخامة، لكن يمثل هؤلاء القادة، صنعت الديمقراطية الرومانية بيديها مستقبل سيادتها وسوددها، معتادة ممارسة سلطة ملكية وغير مستعدة للتخلي عنها.

لكن كراسوس، خصم بومبيه، اتخذ موقفاً مغايراً. فلبعض الوقت، كان قد حلم، هو الآخر، بأكاليل غار مارس وداعب مخيلته مشروع احتلال مصر الثرية، بل طائلة الثراء. لكنه، وقد اصطدم بمقاومة حازمة من العناصر المحاذية التي رأت أن وضعها كاف لإمبراطور كبير، التزم بالعمل بوسائل أخرى، أكثر تمويهاً. اقترب كراسوس إذن من قيصر والقادة الآخرين من الجناح اليساري في الحزب الديمقراطي ولتفتيت سلطة وشعبية بومبيه، في غيابه، راح يمول، من ثروته الطائلة، الحملة الهادفة لإجراء تدابير راديكالية، في الحقل الداخلي.

وبمؤازرته حقق الحزب الديمقراطي النصر في انتخابات العام ٦٦: وتسمية مرشحيه ب. كورنيلس سيللا (الذي، رغم أنه ابن أخ الدكتاتور، كانت آراؤه السياسية مغايرة تماماً لآراء عمه) وب. أوترنيس باتوس، إلى منصب القنصل؛ انتخب كراسوس مراقباً،

وقيصر قيما للمدينة. لكن لما خشي مجلس الشيوخ من هيمنة الديمقراطيين في الحكومة شل، بمناورات مبهمه، القنصلين، بتهمة شراء المقترعين وانتخب اثنين من اتباعه، وعقد القادة الحزب الديمقراطي اجتماعا (قيصر، ك. كالبورنيس بيزون، ل. سرجيس كاتلينا) في مسكن كراسوس، حيث احتدم النقاش فوصل إلى مناقشة مشروع انقلاب الدولة. أسفر عن قتل أعضاء مجلس الشيوخ الذين نسجوا هذه المكيدة وتابعيهم، ثم، وقد صار وحيدا، سمي كراسوس مديرا، في أثناء "خلو العرش"، وقيصر كقائد للخيانة؛ وما استتب الوضع، حتى عادت سلطة القناصل الديمقراطيين الذين رفقهم مجلس الشيوخ (سويتون، قيصر، ٩).

ثمة أسباب ما تزال غامضة حالت دون تنفيذ المؤامرة التي حاكها كراسوس (المسماة عادة "أول مؤامرة لكاتلينا" رغم أن هذا الأخير لم يلعب فيها سوى دور ثانوي). شاعت القضية وفشى سرها، لكن نفوذ كراسوس ساهم في خفقتها، وكان المتضرر الوحيد هو كالبورنيس بيزون، الذي أبعد منفياً بذنبه إلى إسبانيا.

كل هذا يشهد عودة نشاط العناصر الراديكالية الديمقراطية، المهيأة لمبادرات جسورة. وفي نهاية العام ٦٤، قدم الشاب محامي الشعب سرفليوس رولوس، إلى مجلس الشعب مشروعاً لقانون زراعي واسع المدى. نابعاً من مجموع محامي الشعب: حيازة أراض واسعة وتوزعها على الفقراء على نفقة الدولة؛ تغطي النفقات غنائم الحملات إلى ما وراء البحار، ومنتوج بيع الأملاك العامة والمشاريع الصناعية ومناجم الدولة، إلخ. في الولايات. كانت مدن ومستلحات الولاية مخولة استرداد ضرائبها النوعية والعينية، وتحويلها إلى مبلغ مالي واحد. ولتنفيذ كل هذه العمليات المالية والزراعية، على مجلس الشعب أن يختار عشرة أعضاء مخولين سلطات إدارية، مالية وقضائية واسعة جداً. كان هذا الإصلاح يعيد، بالتالي، إلى أيدي العشارين تقريباً كل السلطة، وهكذا يبعد مجلس الشيوخ عن الأقاليم، الأموال، والأملاك العامة؛ وهذا يفضي إلى القضاء على تأجير الضرائب وإلى توسيع ملحوظ في الملكية الصغيرة، وتضييق الأملاك الواسعة، المحرومة من اليد العاملة الرخيصة.

وانتشر الصخب إن مشروعاً زراعياً من هذا النوع، يضيق الخناق على الأسر الكبرى، وعلى كبار المالكين، والعشارين -جباة الضرائب- الديمقراطيين المعتدلين أنفسهم. وكما كان قد حدث في العام ١٠٠، قطع الفرسان علاقتهم بالشعبيين. وانتخب

شيشرون، نصير "أشراف رجال الأعمال والمحترمين منهم"، قنصلاً في العام ٦٣، وسمي أيضاً "قنصلاً ديموقراطياً"، ونجح بتشكيل كتلة من أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان، وإفشال مشروع سرفليوس رولوس أمام مجلس الشعب، ألقى ضده ثلاث خطب مصممة بمهارة. ساعياً وراء كل الخيوط الديماغوجية، السخرية، الكذب، والنميمة، والتودد توصل إلى تكتيل عوام المدن ضد المشروع، حتى أجبر مقترح المشروع على سحبه.

ولقد مكنت خطابات شيشيرون (الخطاب الثاني "حول القانون الزراعي"، ٩-١٠) من فهم الاتجاهين اللذين يغلبان في الديموقراطية الرومانية؛ الاتجاه الأول: "سلم، حرية وحياة بدون هموم"، الأمر "الديموقراطي الفعلي" في نظر شيشرون يمثل مصالح الفرسان و"أشراف الناس" بعامّة؛ الاتجاه الثاني الدفاع عن مصالح الفقراء، في خدمتهم، كما تعلن هذه الشريحة من الشعبين، يجب أن توضع كل السلطة وكل مناهل الدولة المادية. كان هذا، لدى شيشرون، نظرية "ضالة" تهدم أسس ليس فقط السلطة بل أيضاً رفاهية أو سعادة الشعب الروماني، وتشكل "شكلاً جديداً من المذهب الاستبدادي ولا تقدم سوى "بذر الضيق على الفوروم Forum (المصدر السابق، ٨).

كان قائد هذه الشريحة، الخطر جدا في عيون "أشراف الناس"، الحاكم السابق، من العام ٦٥ حتى ٦٣، ل. سرجيوس كاتلينا، الذي كان يجمع حوله عددا كبيرا من أعيان الناس من المجتمع الروماني وأيضاً من صف مجلس الشيوخ، الذين كانوا يعانون من أزمة اقتصادية أو من تحكم مجلس الشيوخ. نذكر بخاصة القنصلين اللذين شلها مجلس الشيوخ في العام ٦٦، أوترونيس باتوس و ب. كورنليس سيللا، والحاكم ب. لانتوس سورا وس. ستغوس ومحامي الشعب ل. بسنثيا، والفرسان، وكذلك العديد من ممثلي المستعمرات والمستحقات. كان قيصر أيضاً قد ربط جزئياً بهذه الفئة، ليلعب دوراً هاماً، لا يشغل إلا مهام وزير مالية والإشراف على المدن، وكما في الماضي، بقيت هذه الشريحة مع كراسوس. لكن الجماهرة التي تبحث عن مؤازرتها موجودة، باعتراف شيشرون ذاته، وعدوها المخيف في الكثرة الواسعة من المدن والأرياف التي ترهقها وتغنيها الحاجة والعوز (شيشرون، كتلنر الثاني، ٢٠-٢١). ويؤكد سالوس أيضاً أن العصيان يربح... العوام في المدن، والشباب في الأرياف، الذي يجرر حياة باتسة ليكسب قوته بعرق جبينه... وكل الفقراء بعامّة. "إن هذا الوباء الوبيل يطعن أغلب الناس... كل الشعب يتمنى

التبديل بشرافة وجشع، ويصفق لخطط ومشروعات كتلينا" (مؤامرة كتلينا، ٣٦ و٣٧).

كان شيشرون يرى في كتلينا وحشا خرافيا، "يتمنى أن يضع الكون كله على النار والدم" (شيشرون، كتلنير الأولى، ٣)؛ أما أصدقاؤه وأنصاره، ليسوا كلهم سوى "عصبة سافلة من الأوغاد الناهيين والغارقين في الفجور" (شيشرون، كتلنير الثانية، ١٠) إن هذه المسبات ليست أكثر من التعبير عن الخوف والكره الذي يثيره لدى المالكن الطابع الجذري للحركة. وشيشرون نفسه يخطر بشكل كلبى صديقه بومبيوس أتيكوس أن لا يثق بكل ما يقوله في خطبه: "أنت تعرف تفجري عندما أتكلم بهذا الموضوع" (شيشرون، رسائل إلى أتيكوس، ١، ١٤، ٤). كتلينا، بالفعل، مثل بومبيه وكراسوس، جندي منشق عن معسكر سيللا إلى معسكر الشعبين، في الماضي أذبل مثلهما وليس أقل فسقا من الآخرين في حياته الخاصة. ورغم كل شيء لم يغتن بالابعد والحرمان، او يغذي أحاسيس عميقة معادية للأولغارشية الحاكمة (سالوست، مؤامرة كتلينا، ٢٠). ومنذ العام ٦٥، كان شيشرون قد سعى للتقرب منه.

واستنادا إلى معلومات المراجع المعادية، الوحيدة التي وصلتنا (خطب شيشرون ومؤامرة كتلينا لسالوست)، كان برنامج هذه الشريحة من الحزب الديموقراطي يتضمن إلغاء الديون، وقانون زراعي جديد وانتزاع السلطة من الأولغارشية. يكتب سالوست بأسلوبه الاتهامي أنهم كانوا قد "وعدوا بمراجعة الديون، حرمان الأغنياء ونفيهم، مناصب الحكم المدنية، البابوية والنهب العام" (مؤامرة كتلينا، ٢١، ٢). وبالفعل، ذات المسائل التي طرحت قبل عشرين عاما في عهد سينا، كانت على جدول الأعمال. إن برنامجا كهذا لا يمكن طبعا إلا أن يشد عطف ومساندة الشرائح الدنيا من الشعب الروماني والإيطالي التي كانت راضية عنه تماما مثله مثل برنامج شيشرون وأنصاره، الديموقراطيين المعتدلين والمحافظين.

حاول هذا الجناح الراديكالي من الحزب الشعبي ثلاث مرات أن ينتخب كتلينا إلى منصب المستشار أو القنصل، ليحقق برنامجه، وأخفق في المرات الثلاث، للأعوام ٦٥، ٦٤، ٦٣، بسبب المقاومة المتكاملة ولم يتراجع أمام أي سبيل من الأولغارشية الرجعية وديموقراطيي اليمين المتحالفين معها. وفي العام ٦٣ كان كتلينا أقرب من الآخرين إلى الظفر: جماهير الفلاحين والمعمرين من أتروريا والمناطق الأخرى المجاورة لروما توافدوا

إلى روما ليدعموا ترشيحه، وكان محامي الشعب بستينا قد أعد عوام العاصمة؛ والنساء، الشباب وخاض حملة حاسمة لمصلحة قائد الراديكاليين. وكان الجناح اليساري للديموقراطية في ذلك العام أقوى من كل ما مضى: وحبیب آخر للشعب يوليوس قيصر، كان قد انتخب حبرا أعظم رغم منافسة أمير مجلس الشيوخ كايوس لوتاتوس كاتوس وطابور كبير من حزب الـ *optimates* بوبليوس سرفليوس ايزوركوس. وفي العام ذاته، انتخب قيصر حاكما للعام ٦٢.

في انتخابات العام ٦٣، وضع الـ *optimates* كل ثقلهم والأعبيهم ليهزموا كتلينا. اشتري مرشحهم، منافس فيرس، على المكشوف المقترعين حتى أن مناوراته أثارت فضيحة مدوية. بعثت، حتى لدى النبلاء المحافظين، احتجاجات أشرف الناس مثل كاتون، الذي أدانها. وشيشرون، القنصل، غضب من هذا الوضع، ووقف بعنف إلى جانب مورينا ونشر شلالا من النميمة الغريبة ضد كتلينا وأنصاره ووصفه بـ "قاتل مستأجر"، "متآمر، والرمح بيده" (برومورينا، ٤٩). وحصل من مجلس الشيوخ على إعلان حالة الحصار وتأخير الانتخابات لإجبار الفلاحين، المرهقين من انتظار كهذا، على العودة إلى بيوتهم، وفي الوقت ذاته، أغلق هيئات رجال المهن والجمعيات الشعبية. وأخيرا في يوم جمعيات الناخبين (٢٦ تشرين أول ٦٣)، ولإرهاب المقترعين، أحاط ساحة مارس بالقوات وظهر هو نفسه، مدرعا ومحاطا بموكب من أولاد الذوات المسلحين. في هذه الشروط قال بالحرف: "من أراد إنقاذ الدولة من هذا الطاعون انتقل على عجل إلى جانب مورينا" (انظر برومورينا، ٥٢) ولم ينجح كتلينا.

إن فشل الشعبين لثلاث مرات، محاولين بالطريق الشرعي الاشتراك بالحكومة، هو إذن نتيجة لسلوك انتخابي كربه وضغط الأرستقراطية. فمن الطبيعي جدا أن تدفع هذه الطرق الديموقراطيين المغتاضين إلى السبيل الوحيد الذي بقي مفتوحا أمامهم، سبيل اللجوء إلى السلاح. وبدأ الـ "كتلينير" (أنصار كتلينا وبرنامجه) الإعداد له، بعد الفضائح الانتخابية للعام ٦٣. واستادا إلى شيشرون وسالوست، لم تقر خطة التمرد وبيت بها نهائيا إلا في ليل ٦/٧ تشرين الثاني، في أثناء اجتماع لقادة الحركة، في بيت أحد المتآمرين م. بورسيس لوكا. ولقد تقرر الإفادة من غضب وإدانة مقترعي الأرياف الذين شكلوا عفويا جماعات متمردة (الأهم كان قد تشكل منذ نهاية تشرين أول في أتروري بقيادة قائد المائة السابق ماتليوس) و،

بمساعدة المفوض المرسل من روما، بتنظيمهم في جيش، عليه أن يمشي إلى العاصمة. واقتداءً بسينا في العام ٨٧ اضطر "الفنصل كتلينا"، الممنوع بشكل غير شرعي من أن يحقق مهمته، أن يترأس الموقف. والحاكم لانتوليوس، ومحامي الشعب بسينا وقادة آخرون راديكاليون، يسكنون العاصمة، حرضوا العوام. وقد تلقى السيد م. سباريوس مهمة الرجوع إلى أبوليا، ليدعو فيها الرعاة العبيد إلى الانتفاضة. وعرض اثنان من المتآمرين قتل شيشرون في صبيحة اليوم التالي بالذات.

كان المقصود تكرار انقلاب العام ٨٧ (شيشرون يسمي كتلينا "سينا الثاني")، بطرق أخرى، سبيل المكيدة سيئة الإعداد وفي ظروف عامة متباينة تماماً إن في روما أو في الأقاليم. فمُنذ ٢١ تشرين أول بالفعل، حصل شيشرون من مجلس الشيوخ على القانون الحربي؛ فجيوش القائدين المسميين، ك. مرسوس وك. متلوس الكريتي، كانت عند أسوار روما، منتظرة النصر مهياة مباشرة لقمع الحركة التي رأت النور في المناطق الإيطالية. كان شيشرون قد اطلع على خطة المتآمرين، بفعل شبكة تجسس جيدة التنظيم، ومنذ الثامن من تشرين الثاني، أمام مجلس الشيوخ المجتمع في جلسة غير عادية، فجر "معركة كتلينا الأولى" الشهيرة، حيث يتباهى بمعرفة كل شيء، مكرها كتلينا على مبارحة روما على عجل؛ عوض الجيش الذي يعتمد عليه هذا الأخير، اضطر أن يكتفي، برئاسة جمهورته الصغيرة من فلاحي مانتليوس، المسلحة إلى هذا الحد أو ذاك، والمطوقة بقوات الحكومة. كان المتمردون قد أخذوا شارة لهم نسر ماريوس الفضي، الذي كان كتلينا يحفظه في بيته. في جنح الاضطراب الذي خلقته هذه الأحداث، بذر شيشرون الرعب بين سكان روما، بخطبه المهولة والخاصة بالمبالغات المبتكرة التي ألقاها في الميدان العام *Forum*، (ذاكرا وملوحا أن المتبردين، قرروا إشعال النار في روما، في عدة أماكن، وذبح الناس الطيبين، لتحويل المدينة إلى مغارة لصصوص وقطاع طرق). وبناء عليه، أوقف كبار أنصار كتلينا، لانتلوي، ستغوس وآخرين، الباقين في روما، والذين مكنته غفلتهم من القبض على التراسل مع نواب الغولوا أولوبروج، المعروف لدى لصصوص الحكومة الرومانية. وفي الغد أخرج ملهاته بمحاكمة "أنصار كتلينا" أمام مجلس الشيوخ، غير المخول السلطات القضائية، وخنقهم بحضوره، في سجن مامرتين، في أسفل الكابتول. أرسل الفنصل أنطوان ضد كتلينا وقوته المؤلفة من ٣ آلاف رجل (بعكس سيناء، رفض أن يضم إلى صفوفه العبيد

الوافدين من كل حدب)، وفي كانون الثاني ٦٢، أكره كثلينا، يائسا من كسر الطوق الحديدي المحكم حوله، على خوض المعركة. بدأ القتال في واد جبلي، قرب بستورا، (ليس بعيدا من فلورانس)، صرع كثلينا وأنصاره في التلاحم. وخنقت بؤر الحركة المشتتة في نقاط عديدة من إيطاليا: بروتيتيوم، أبوليا، بسنوم، بسرعة.

لإشهار هذا النصر، أمر مجلس الشيوخ بالتضحية، وبشهر من الإفراح العامة. لكن رغم كل جهوده، لم ينجح بالإجهاز نهائياً على الحركة الشعبية. يتحدث ديون كاسيوس عن الإضرابات المستعرة التي استمر نشوبها في إيطاليا العام ٦٢ و ٦١، ضد مجلس الشيوخ؛ وكان عليهم من جديد إعلان الحصار، وإرسال الحكام لقمع السلاح الغاضب في المحميات، وخلع الحكام الكبار (الحاكم يوليوس قيصر، محامي الشعب مثلونيوس) اللذين نهضا، في مجالس الشعب، ينهضون ضد الـ *optimates* (ديون كاسيوس، التاريخ الروماني، ٣٧، ٤٢-٤٤). وشيشرون نفسه اضطر أن يعترف أن الشعب استمر بتمجيد ذكرى كثلينا والاحتفال بذكرى موته في ساح معركة بستوريا (شيشرون. بورفلاكو، ٩٥).

أنهى شيشرون حزينا جداً مدة قنصليته. وفي أثناء الاقتراع على إعدام "المتآمرين" عارض عدد كبير من الشيوخ، على رأسهم قيصر، والتأم اجتماع ضم جمهرة عريضة من الأحرار والعبيد لانتزاع المدانين من أيدي الجلادين. كتب ديون كاسيوس: في نهاية مهمته، كان شيشرون عدو العنف العام "وبعد أن أثبت نفوره في عدة مناسبات، فرضت عليه الجماهير السكوت، عندما أراد أن يدافع عن نفسه... في آخر يوم من قنصليته". (كاسيوس ٣٩، ٣٧).

## الفصل السابع والخمسون

### سقوط الجمهورية

#### الحكم الثلاثي الأول ونهايته

انتهت حركة عتق الأقاليم، وتمرد العبيد الغريب وحركة الشعبين بزعة أسس الدولة الرومانية. وقد أثبتوا بكل وضوح أن القوة الوحيدة الخليفة بدعم المجتمع العبودي والحفاظ عليه هي: الجيش وقادته المعروفون. لذا، لدى الشرائح السفلى من الشعب. المذهولة بهزائمها، كما في قلب الأرستقراطية التي تنسبت بالسلطة، تلتفت الأموال أكثر فأكثر نحو جندي "منقذ". وأيضاً، خيم رعب هائل على روما، لما علم في خريف ٦٢ أن سينون بومبييه، "العظيم"، أبحر أخيراً مع قواته إلى برونديزيوم. وبدهشة عامة، لم يشأ "سيللا الديمقراطي"، (كما كانوا ينادونه بخوف في الأوساط المحافظة) اقتفاء أثر سلفه وسيده فلم يقيم بقلب الدولة بل تصرف بالعكس كمواطن يحترم الدستور: بعد أن كافأ بكرم وأريحية جنوده وضباطه، ترك جيشه وعاد إلى روما، مع لفيف متواضع، لينتقى أمجاد النصر ويحتل المركز اللائق به وبكفاءته في المجتمع والحكومة. كمالك لأراض اقتصادية مدمرة، ليست في مصلحة الديمقراطية، التي كان حليفها العارض.

كان بومبييه يخوض زويرة السياسة الرومانية، وبدا أضعف بكثير مما توقع. وكان خصومه العتاة، لوكولس، كراسوس وغيرهما، يحسدونه، فمجلس الشيوخ يخشاه ويعارضه في كل شيء، بينما تعامله الجماهير الشعبية بلا مبالاة. رغم دعاية أنصاره الديماغوجية أكره على انتظار النصر قرابة العام، ولم يأت النصر إلا في آب ٦١؛ ولم يحصل من مجلس الشيوخ على تصديق التدابير التي اتخذها لتنظيم البلدان المحتلة بأسلحته وتوزيع الأراضي الموقوفة لجنوده.

حاول بومبييه، بحثاً عن حلفاء، التقرب بداية من شيشرون، "أب الوطن"، ليجد في شخصه سنداً في مجلس الشيوخ، لكن شيشرون، الذي كان يقوم عالياً وشائجه الجديدة مع



الـ *optimates*، رفض التعاون المقترح، تعاونوا ربما جعله يندم كثيرا فيما بعد. فلم يبق أمام بومبيه إلا أن يبحث عن عون لدى قادة الحزب الشعبي وإن يعقد كما في العام ٧٠ صلحا جديدا مع خصمه القديم كراسوس ومع قيصر، حبيب الشعب الحديث، الذي تمت حدة نزاعاته المتنامية مع مجلس الشيوخ بديماغوجية أسرة. ففي أثناء السنة العاصفة من حكمه (٦٢)، اعترض بعنف وحسم ضد العقوبات التي كانت مستمرة بطعن أنصار كتيلينا ووشى باختلاسات قادة الشريحة الرجعية (كتولوس)، إلخ. حتى حاول مجلس الشيوخ إعفاءه من مهمته، لكن مظاهرة جماهيرية شعبية أكرهته على سحب القرار بعدما نشر.

وهكذا عقد، في العام ٦٠، صلح فريد سري بداية بين الأشخاص الثلاثة الأكثر نفوذا وشعبية في روما: بومبيه، كراسوس وقيصر: وهذا ما يدعى "أول حكم ثلاثي". ولقد أشار بلوتارك بحق أن هذا الاتفاق كان بمثابة انقلاب دولة حقيقي "... لقلب الحكومة الأرستقراطية" (بلوتارك، قيصر، ١٣). كان هذا "الوحش ذو الرؤوس الثلاثة"، وهو تعبير فارون المحافظ، يمثل فعلا دكتاتورية تعاونية وخفية.

ومرت التدابير الملائمة للثلاثة من الآن فصاعدا بدون أي عقبة. ودل قيصر، قنصل العام ٥٩، إلى جعلهم يقترعون بمهارة لاسابق لها، بدون اهتمام باعتراضات زميله بيبولوس. لهذا السبب قال الفكهون إن هذا العام كان عام "قنصلية يوليوس وقيصر". لم يدع مجلس الشيوخ وتم العمل بمجلس الشعب.

أقر قانون زراعي قريب جدا من مشروع رولوس: الأموال التي يجلبها بومبيه من الشرق تنفق على شراء الأراضي وتوزع بين معاونيه؛ ومابقي من الملك العام في إيطاليا (وبخاصة في الريف الخصب) وزع أيضا؛ استفادت ٢٠ ألف الأسر كبيرة من هذا التدبير. وصدقت كل القرارات التي اتخذها بومبيه في الشرق، ورسخ كل الملوك الذين سلمهم عروشا أرسى ملكهم، مثل فيما بعد ملك مصر، بتولميه أوليت، الذي أتى شخصا إلى روما وسلم الثلاثة المبلغ الضخم، ٦ آلاف تالان مقابل لقب "صديق الشعب الروماني". وحصل الفرسان ورجال الأعمال، المتفاهمون مع كراسوس، على مكاسب ضخمة بتقليص سعر استئجار المزارع إلى الثلث، الأمر الذي أعطى قيصر شعبية واسعة بين رجال المال هؤلاء، وهذا ما عاد عليهم بأقسام أساسية عديدة في مشروعهم. "غضب الفرسان غضبا شديدا من شيشرون، وقطعوا مجددا علاقتهم بمجلس الشيوخ وتوجوا قيصر إلها"، يكتب

أبيان (الحروب الأهلية، ٢، ١٣). فأقام هذا الأخير، بفضل هذه السياسة المحنكة حلفا جديدا من الأنصار، أقوى من الشعب. وغير غافل عن شؤونه الشخصية، بل أمن، منذ أول آذار ٥٩ منصب محافظ، يضم ثلاث ولايات دفعة واحدة، ولخمس سنين: غول غرب الألب، نربونير وإيليريا.

كان كل هذا يتم تحت ستار إنجاز إرادة الشعب: وبغية وضعه في الصورة، أوجد قيصر مكاتب إعلان لـ "أعمال الحكومة" تلصق على ألواح بيضاء كبيرة في مختلف أحياء المدينة، وتنمها منشورات تتحدث عن أهم الأخبار الصادرة من كل مكان؟ كان هذا بشكل ما أول صحيفة معروفة في التاريخ. وفتحت الروابط الشعبية والنوادي مرة أخرى. وجند عملاءه الثلاثة فيها من نوع المحامي الشعبي كلوديوس، الأصوات الضرورية لتمرير اقتراحاتهم إلى الجمعيات الانتخابية. هذا هو كلوديوس نفسه الذي عمل على اتهام شيشرون، ليميت بدون محاكمة مواطنين رومان، أنصار كتلينا. وفي العام ٥٨، أجبر شيشرون على الذهاب إلى المنفى، ويهدم بيته في البلاط الإمبراطوري. وليسخوا سلطتهم، عقد الثلاثة فيما بينهم وشائج عائلية: زوج قيصر ابنته جوليا، وهي في الرابعة عشرة، لابن الخمسين بومبيز وتزوج هو نفسه شابة مثل جوليا، كالبيرنيا، ابنة كالبيرنييس بيزون، الذي سيشغل منصب قنصل في العام القادم.

حكم الثلاثة منسجمين هكذا قرابة ثلاث سنوات، وطيلة هذه المدة، كان المهيمن هو بومبيز، ولم يكن قيصر، إن صح التعبير، أكثر من مدير، لكنه الأنشطة والأكفأ في شؤون "الشراكة". على ذلك، لم تكن دكتاتورية الثلاثة هذه، المقنعة بجدول أعمال ديموقراطي، سوى الانتقال نحو الملكية. كان قيصر بمناقبه الشخصية، يتلائم قيصر مع هذا الدور خيرا من بومبيز. كان رجل دولة حقا-خطيبا مفوها، نافذ البصيرة جسورا بالسياسة، كاتباً موهوباً، رجل مجتمع متألفا. وكان في الوقت ذاته كلبيا، لامباليا بأي مبدأ أخلاقي، محتقرا أيضا الأرستقراطية التي ينتمي إليها بالدم، والديموقراطية التي كان قائدها التقليد العائلي، والديني، حبرا أعظم كان حرا تماما في تحقيق أحلامه وخططه المستوحاة من طموح لا حدود له. ولتساوى مع رفاقه في الثلاثية، ماكان ينقصه سوى ثروتهما ومجدهما العسكري، ولتقدم عليهما، كان بحاجة لجيش وقفا على التضحية بالنفس.

إن السنوات الثلاث الأولى من معاون قنصل لدى الغوليين حققت له مايعوزه وأكثر.

استلم قيصر منصبه في العام ٥٨، مباشرة بعد انقضاء وكالته القيصرية، محافظاً على وساطة أتباعه المطلعين على كل شؤون روما ومتابعاً التأثير فيها. لقد قدم حساباً ليس بدون تدويق على الأرجح، وليس بدون تكتّم في بعض الحالات، بالطريقة التي تجعله وفيما بمهمته في أراضي الغول، التي افضت إلى احتلال هذا البلد وتشكيل ولاية أخرى شاسعة وغنية، رومانية، في "إيضاحاته الرائعة حول حرب الغول" (بثمانية كتب لثماني سنين إقامة في غول-كتب الأخير سفيرة أوليس هرتيس).

بمسلسلة من العمليات الجريئة والمتوجة بالنجاح، حققها جيش صغير، مؤلف من أربعة ألوية (رفع هذا لعدد فيما بعد إلى ١٠ ألوية)، صار قيصر سيد البلاد خلال ثلاث سنوات. لكن مشروعه المدعوم بخصب وغنى المنطقة الممتدة بين الألب، الرين والمحيط الأطلسي، التي يسميها الرومان "الغول المشجر" أو "غول شرق الألب" كان ضحية صراخ ضار، نتيجة تفكك مجتمع العشير. حرب ضرورس ملتبهة أبداً بين العديد من شيوخ القبائل الذين، حسب تعبير قيصر، أعادوا شعبهم "تقريباً إلى عهد العبودية". ولقد أفاد من هذا الوضع جوار شرق الغول، الهلفيت والجرمن، ليشنوا عليهم غزوات مستمرة. وهكذا تمكن الجرمانى أريوفست، ملك السويف من احتلال كل الشطر الشرقي من الغول تقريباً، والحشود الهلفيت المتحمسين بدون أمل لاستعادة قراهم الألبنية القاحلة، كانت متلهفة لاحتلال أراض جديدة في المجرى الأدنى لفارون واللوار.

وصل قيصر وهزم الهلفيت وأجبرهم على العودة إلى أرض جدودهم. ثم انتصر على أريوفست وطرد الجرمن إلى ضفة الرين اليمني. وأخضع خلال عامين، رغم مقاومة ضارية، البلجيك، أقوى أمم الغولوا وأكثرها احتراباً، المقيمة شمال السين، بينما فعل سفيره بيبيلس كراسوس (ابن أحد الثلاثة) ما فعل معلمه مع الأمرور كان والأكتان، في الغول الغربية. وفي نهاية العام ٥٦، كانت الغول كلها بيد قيصر ووسطوة حامياتها رومان، معسكرة في مخيمات منيعة؛ كانت الضريبة السنوية المفروضة على هذه الولاية الجديدة مرهقة (٤ ملايين سسترس)<sup>١</sup>.

ولقد سرقت كنوز معابد الغولوا التي لاتحصى (كان الكهنة الغاليون يتمتعون بنفوذ

<sup>١</sup> - عملة رومانية قديمة - المترجم.

وتأثير استثنائيين) على يد القيصر ومقربيه وعلى يد موجات المغامرين من كل جنس، والوافدين من كل صوب إلى معسكره. عدا الغنيمة، كان الجند يتلقون راتبين وما يشاؤون من مواد المعيشة؛ ولقد وزع عليهم العبيد أيضا. كان قيصر يومئذ متقلا بالديون بسبب نفقات الحياة الضخمة والهدر بدون حساب والهبات المقدمة للشعب، لأنه كان ممن كبار الأغنياء ومن أوسع مالكي العبيد. كان يوزع الدراهم، الأغراض الثمينة، العبيد بالألوف على الأعيان المتنفذين، ليوسع عدد أتباعه. وفي العام ٥٥، بدأ البناء، في العاصمة، فورم جديد، المجهز بأفخم الصروح ("فورم جوليان")، وقد كلفه شراء الأرض فقط، لهذا المشروع ١٠٠ مليون سسترس.

إن هذا التفوق هو بذور الانشقاق الأولى بين الثلاثة الكبار. فمنذ العام ٧٥ راح بومبييه يناور ضد محامي الشعب كلوديوس، الرجل الموثوق الأول لدى قيصر ورأس مواليه، بدعم خصمه ميللون وساعيا للتقرب من شيشرون. وبعد ١٦ شهرا من النفي، أعفي هذا الأخير، بناء على اقتراح بومبييه وعاد مظفرا إلى روما. ورغم نفوذ قيصر، كان بومبييه وكراسوس يسعيان أيضا لتقلد مناصب هامة في الأقاليم وجني عون عسكري. وفي العام ٦٥، ولتذليل خلافاتهم وتسويتها، اجتمع قيصر، بومبييه وكراسوس في لوكا، المقر الشتوي لقيصر. كان هذا اللقاء مؤتمرا فعليا لملوك بدون عروش، ولا يقل عدد أتباعهم أو مراقبيهم عن ٢٠٠ عضو من مجلس شيوخ. اتفق سادة روما فيما بينهم لإقامة توازن مسا. يستلم بومبييه وكراسوس المهام القنصلية في العام القادم (٥٥) ثم المحافظات، بومبييه في إسبانيا، وكراسوس في سوريا. كان قيصر مستمرا لخمس سنين قائدا في الغول. وأعطيت الإدارات المناسبة للأتباع المخصصين الذين يؤمنون ليس بدون مشقة حركية تنفيذ هذا الاتفاق، لأن الانتخابات جرت في شروط عاصفة جدا، بسبب مقاومة الـ *optimates* الضارية (كساتون الابن وغيره).

لقد سوى لقاء لوكا الخلاف وقتيا، لكن وفاق الثلاثة ظل سائرا نحو تفككه الجمعي. فلم ينتظر كراسوس انتهاء قنصليته، حتى سافر إلى ولايته السورية. عطشا شرها للغنائم والانتصارات، التي أشعلتها في صدره أمجاد قيصر (كراسوس، ١٤). "...بعيدا عن إرواء أطماعه بحكم سوريا والبارث<sup>١</sup>، بل انطلق إلى ألعاب الأطفال أمجاد لوكولس ضد تيغران

١ - شعوب السيث التي ضمت إلى إيران في أيام حكم الساسانيين - المترجم.

وانتصارات بومبيه على مثريدات؛ وفي أماله المجنونة، كان يرى بكتريان، الهند والبحر الخارجي التابع لأسلحته" (نفس المصدر، ١٦). على ذلك، ما إن وصل كراسوس إلى سوريا حتى انكب على تحضير جدي لحملة الشرق، وسرقة المعابد أيضاً (منها معبد القدس)، وابتلاع الفدية من المدن والملوك الحلفاء، واستبدال المال بتقديم قرعات المجندين، وغير ذلك. وبدون استعداد، بدأ العمليات الحربية، وفي صيف ٥٣، على رأس سبعة جحافل، ترك نفسه ينساق وراء البارث في سهول ما بين النهرين الغربية الجرداء، حتى وجد نفسه مطوقاً قرب كارس (غير بعيد عن غديس) بخيالة البارث ثقيلة السلاح حيث أيبّد مع جيشه كله.

في بداية النصف الثاني من القرن الأول ق.م تقلص الثلاثة الكبار إلى اثنين كبيرين قيصر وبومبيه. لكن بومبيه كان يبتعد أكثر فأكثر عن حليفه القديم ويسعى للتقرب من أعدائه، أوساط روما المحافظة، الذين يرون في هيمنة بومبيه، أقرب إلى المصالحة، وأقل ضرراً، مقارنة بهيمنة قيصر "الديماغوجية" المخيفة. ومنذ العام ٥٧، بسبب جوع روما، وبفعل عون شيشرون الكبير، صب بومبيه كل طاقته لتأمين الغذاء للعاصمة. وعوضاً من الذهاب لاستلام حكومته في إسبانيا، كان يدير شؤون هذا الإقليم المدنية والعسكرية بوساطة سفرائه. وفي العام ٥٢، من جراء الصراع الانتخابي الضاري الذي تحول إلى معركة حقيقية في الشوارع بين زمر كلوديوس وميلون المسلحة (كلوديوس قتل ميلون)، وبقيت روما في حاكمية واحدة، وظف مجلس الشيوخ هذه الظروف لتقليد بومبيه سلطات استثنائية، شبه-دكتاتورية: بناء على اقتراح الرجعي المنطرف كاتون، العدو الأول لقيصر، سمي "قنصلاً بدون رصيف" "كان بومبيه آنذ في قمة قوته في روما، لأنه كان مدعوماً من أعضاء مجلس الشيوخ، دعماً حرم منه قيصر لأنه لم يفعل شيئاً لصالحهم في أثناء قنصليته" (أبيوم، الحروب الأهلية، ١١، ٢٥).

في أوساط روما المحافظة، بدؤوا يتحدثون بصراحة، آنذ، عن انتهاز الظرف لإصلاح شامل في الدولة، بروح عاهلية مجلس الشيوخ، برئاسة بومبيه. كان هذا الإصلاح هو النظرية التي طورها شيشرون في مؤلفه "ربوبليكا" الذي نشر في العام ٥١. "الحريّة بدون كابح، يكتب، تحول بذاتها شعباً حراً إلى عبيد" "وإذا قارنا أشكال الدولة في حالتها النظرية، لانرى عيباً في النظام الملكي، بل أنا مقتنع ألا بد من وضعه فوق كل الأشكال

الأخرى بدرجات؛ بشرط وحيد هو جعل منصب الملك انتخابيا، كما كان ملوك روما الأسبقون وخاضعا لسلطة مجلس الشيوخ. ويجب أن لا ينفر "أب الوطن" من أن يرى هذا المنصب "كمدبر" أو "أمير" الجمهورية.

على ذلك كانت "إمارة" بومبيه قصيرة المدة، وهو لم يدم إلا بفضل وضع قيصر الصعب في الغول بين العامين ٥٥ و ٥٠. اضطر قيصر، بالفعل، إلى طرد غزوة جرمانية جديدة، غزوة أوزبيت والتانكتار الذين، اجتازوا الرين بحشد ضخم، خمسمائة ألف رجل، كما يقال، من شعوب تريفير غطوا أراضي الأرياف الخصبة. نجح المحافظ بطرد قسم من هؤلاء المتدخلين، بفضل حيلة غادرة: جلب إلى معسكره قادة الجرمان، تحت ستار التفاوض، وسقط فجأة على "البربر" الذين كانوا ينتظرون نتيجة المباحثات، وذبح أربعين ألفا. من أجل هذا "الخرق لشرف السلاح الروماني وهذا الاعتداء على الثقة المطعونة" اقترح كاتون على مجلس الشيوخ تسليم "الخؤون" لانتقام الجرمان.

ثم اجتاز قيصر الرين مرتين، ليدب الرعب لدى شعوب الجرمان، وبخاصة، السوف، الذين كانوا يعدون غزوات جديدة. وفي العامين ٥٥ و ٥٤، حاول بأسطول ضخم عمر لهذه الغاية، حاول احتلال بروتانيا، "جزيرة ذات مساحة لاتصدق"، راغبا في قطع التعزيزات التي ترد إلى الغولوا. لكنه أخفق هذه المرة (انظر شروحات وتعليقات قيصر، ٤، ٢٠-٣٦ و ٥، ٨-٢٣).

لكن قيصر وقع في وضع خطر جدا أمام تمرد الغولوا العام الذي نشب في سنة ٥٢. كان على رأس التمرد قائد يقظ محنك من الأفرين، هو فرسنجتوريكس، الذي نجح باستنهاض ضد الرومان حتى الحلفاء السابقين: الأدوين، وأعطى التمرد الطابع الوطني فعلا. ذبح العديد من الحاميات الرومانية وشتت الغولوا قسما من خيم الجنود المبعثرين على امتداد هذه البلاد الواسعة. وذاق قيصر نفسه طعم الهزيمة تحت جدران جرغوفيا وتجنب بصعوبة كاداء أن يقبع مكرها في معسكره المنيع. فبعد أن جهز ثلاثة جحافل جديدة، توصل أخيرا أن يحاصر فرسنجتوريكس مع قسم كبير من قواته في أليزيا، لكن الغولوا نهضوا جمهرة (حوالي ٣ آلاف رجل لينفذوا قائدهم. فحوصر قيصر نفسه والتزم أن يدافع عن نفسه بين خطين من الخنادق المنيعة، أي المتمردين والمطوقين. وهنا لا بد من الاعتراف بمهارة أخصائيي التحصينات لدى قيصر: فهم فقط الذين أنقذوا جيشهم من

ضياح محقق. فقد رفعوا طوقا مضاعفا مستمرا من المعازل ومن كل نوع: متاريس خشبية محصنة بأبراج، خنادق عميقة، أفخاخ مسلحة بأوتاد حادة الرأس، وجذوع الأشجار وسواها. (قيصر، تعليقات على حرب الغول، ٧، ٧٢٠٧٣). وبغطاء من استحكاماته، اقتنص الجيش الروماني اللحظة الملائمة ليمنع بضربة غير منتظرة الجيش من مساعدة الغولوا الذين، من جراء نقص المؤن، لم يقدروا أن يصمدوا طويلا تحت أليزياء. وبعد مقاومة ضارية أجبر الجوع المطوقين على الاستسلام وتسليم فرسنتوريكس. وهكذا قتل قائد الغولوا عند قدم الكابيتول، بعد أن لاحق على قدميه عربة قيصر المظفرة.

وليس إلا بعد قمع دام خضع له الغول كله، عقابا لهم على انتفاضتهم، تيسر لقيصر أن يصفي حسابه مع بومبيه ومع الحزب الرجعي الذي كان يرفع رأسه أكثر فأكثر في روما. وطرح على مجلس الشيوخ الطلب إلى قيصر أن يقلص قيادته التي دامت طويلا وأن يسمى خلفه. وردا على هذا، طلب بصخب محامو الشعب ج. كوريون، أنطوان وكاسيوس، أن يتخلى بومبيه أيضا عن سلطاته. وهنا أمر القنصلان أميليس باولس وس. كلوديس مرسل، المنتميان إلى الليف الأرسقراطي الأكثر عداء لقيصر، أمرا بومبيه أن يمضي إلى قيصر كعدو، من أجل الدفاع عن الوطن، وتسليمه قيادة كل القوات في إيطاليا. دون المبالاة باحتجاجات محامي الشعب الذين أثاروا قضية الاعتداء على شخصية المحامين المقدسة، هربوا لينضموا إلى قيصر: وهكذا أعطوه ذريعة شرعية ليخوض حربا مكشوفة ضد بومبيه وكل حزب الشيوخ "للدفاع عن حقوق الشعب الأبدية" أو، كما يعلن قيصر نفسه، "...ليؤمن حريته وحرية الشعب الروماني المقموعة من قبل عصابة ما" (قيصر، تعليقات على الحرب الأهلية، ١، ٢٢).

### الحرب الأهلية (٤٩-٤٥). دكتاتورية قيصر

سارع قيصر واحتل إيطاليا وروما، قبل أن ينجز بومبيه تجهيزاته. وكان القسم الأكبر من قواته، التي استدعاهما من غول غرب الألب، لم يتسن له وقت لوصولها، في بداية كانون الثاني ٤٩، على رأس جحفل واحد، اجتاز فجأة روبيكون. التي تشكل تخم إيطاليا وإقليمها، واحتل أرمنوم. وسرعان ما انتشر رعب لاسابق له: "لم يكن الأمر فقط، كما في الحروب الأخرى، رجال ونساء يركضون تائهين في أرجاء إيطاليا. ... وغمر روما نفسها طوفان من الشعوب لاجئة إليها من كل صوب، وباضطراب، في عاصفة هوجاء، لم يكن

ممكنا لأي حاكم التصدي لهذا لا بالحكمة والعقل ولا بالسلطة". أعلن بومبيه مغادرة العاصمة أمرا الحكومة ومجلس الشيوخ اللحاق به، وكذلك "كل أولئك الذين يفضلون على الاستبدادية وطنهم والحرية" (بلوتارك، قيصر، ٣٣). لكن بومبيه وأنصاره من الأرستقراطية ومجلس الشيوخ، لم يلق أي دعم من الشعب الإيطالي. فالفرسان، العوام، والحاضرات الإيطالية كانوا جميعا وبحزم من حزب قيصر. ورغم المسير الإلزامي الذي باشره إلى الجنوب، عبر أومبريا، بسنوم وبلدان السابان، لم ينجح قيصر في حرمان بومبيه وحاشيته المشيخية والحكام الآخرين، من الإبحار إلى براندزيوم، للوصول إلى الشرق، حيث يعتمد بومبيه على علاقاته القديمة لتنظيم المقاومة. وخلال شهرين صار قيصر سيد إيطاليا كلها، ضاماً إليه القوات المشتتة بدون قائد، احتل روما بدون قتال، واستولى على الكنوز التي تركتها الحكومة وهربت. وبُعِد هذا أعلن نفسه دكتاتوراً (٤٩). دامت الحرب الأهلية، التي أخذت هذه المرة مدى فريداً، خمس سنين، طالت أرض الامبراطورية الرومانية، وتقريباً كل الأقاليم. لم يكن بميسور قيصر، وهو بدون أسطول ضارب وجحافل جرارة، أن يشرع على الفور بمطاردة بومبيه إلى اليونان، حيث استطاع هذا الأخير أن يحشد قرب براشيوم، إيبيريا، أحد عشر جحفاً، وسبعة آلاف فارس، وقوات كبيرة مساعدة، شكّلت من يونان، ثراس، غالات سيسيليا، كبادوسيين وشعوب أخرى شرقية، وأسطولاً قديراً ينهض إلى ٦٠٠ مركب. في هذه الشروط، بحث قيصر بداية عن خلق قاعدة صامدة في الغرب وأن يحشد فيها قوات على الأقل معادلة. أخذ سيسيليا وسردينيا وأرسل كوريون ليحتل أفريقيا، على رأس جحفلين. فشلت هذه الحملة، لأن كبار الملوك في نوميديا كانوا إلى جانب بومبيه. هلك كريون وكل جيشه، بسيف جوباء، ملك النوميد. وصل قيصر إلى اسبانيا ليثير هذا الإقليم الغربي على بومبيه، واحتلها بعد صولة بسيطة ضد سفراء خصمه، أفرائيوس بتريوس وفارون، الذين انتقلت أغلب قواتهم إليه. وليس قبل العام ٤٨، استطاع أن يسير إلى بومبيه، مع ١٠ جحافل و١٠ آلاف خيال غولوا. وبعد اجتياز صعب لبحر إيجه، في أشد أيام الشتاء، وخسائر عارضة أمام دراشيوم، استغل قيصر غياب قائد محنك لدى بومبيه أو عدة جنرالات يقتسمون القيادة، وتحدى هذا الأخير قرب فرسال (في تساليا). وقبض على جميع أعضاء الحكومة الهاربة تقريباً؛ وعدد كبير، مثل شيشرون، أوقفوا القتال تلقائياً لأن قيصر لم يلجأ إلى النفي والإبعاد بل كان جدول



أعماله "الرحمة والرافة". أما بومبييه، الذي بحث بعد الهزيمة عن ملجأ في مصر، قتلته أنصار الملك الشاب بتولميه الثاني عشر، القاصر، الذي أراد الانضواء برغبته إلى قوات قيصر، والتزم بمشاركة عاهلهم ضد أخته كليوباترا في حربها ضده.

لكن كل هذا لم يمه الصراع. لأن قيصر، المنطلق لمطاردة بومبييه، تدخل في شؤون مصر، رغبة في وضع اليد على الكنوز الملكية. وبذريعة الانتقام من ذبح بومبييه غدر، الذي دفن ممجدا عسكريا، وعلى ذكراه أقام ضريحا ضخما، قتل عناصر الجريمة، عزل بتولميه وأعطى العرش لكليوباترا. أثار تدخل قيصر هذا انتفاضة قادها أنصار الملك المخلوع، المسماة حرب الإسكندرية، وصلنا عنها بحث كتبه أحد أصدقاء قيصر الصدوقين، وعرف كتتمة لـ "شروحات الحرب الأهلية".

إنما اضطر اضطرارا أساسيا أن يقاتل ثلاث سنوات أخرى أنصار بومبييه الكثر، وحلفاءه، "البومبيين"، في آسيا الصغرى، أفريقيا وإسبانيا. ففي الشرق، بعد موت بومبييه، كانت حامية فرناس، ملك البوسفور، واحدة من أمهر وأقدر الذين تابعوا الصراع. دخل البونت، مملكة أبيه السابقة، صرع دوميتيوس، سفير قيصر، وأخذ مدينة أميازس، الموالية للرومان، وباع كل سكانها. أجبرت أعماله المتطورة قيصر أن يجرد له حملة، بغية إنقاذ السيطرة الرومانية في آسيا. كانت حملة سهلة، صحيح: فأول صولة، قرب زيلا، شنت جيش فرناس وأكرمه على اللجوء إلى بانتكابي (كيرتش)، حيث قتله أتباعه المتمردون. وعلى أثر حملة زيلا بعث قيصر رسالة إلى روما من ثلاث كلمات: "*veni, vidi, vici*".

إن هاتين الحربين، حرب الإسكندرية وحرب فرناس، اللتين أقيمتا قيصر في الشرق، سمحتا إلى شتات حزب بومبييه أن يخلقوا قواعد متينة في الغرب. ولكي يقمعها، شن قيصر معركتين صعبتين وفي غاية الخطورة في أفريقيا (٤٦) وأسبانيا (٤٥). في أفريقيا، كان على رأس البومبيين القنصل لوسيوس سيبليون والحاكم م. بورسيوس كاتون، العدو اللدود للدكتاتور. وبمهارته المعروفة وجه هذا الأخير إلى نوميديا ملك موريتانيا بوكشوس ووجه جنده لمصارعة الفيلة، السلاح الذي ما اعتادوا قتاله. ثم في تابسوس، هزم خصومه شر هزيمة؛ وهلك كاتون وجوبا. وتقلصت مملكة نوميديا إلى إقليم روماني، وفي عهد حكومة سلوستس كرسبس، مورخ المستقبل.

١- آت، رأيت، انتصرت. جملة مألوفة الاستخدام جدا، للتعبير عن سهولة وسرعة نصر ما - المترجم.

ولقد اضطر قيصر إلى بذل جهود مضنية حتى تمكن من قهر حصن بومبيه الأخير، إسبانيا، حيث لجأ من بقي حيا من حزب "بومبيه الأب" إلى أبنية سنيوس بومبيه وسكتس بومبيه. وتحت تأثير فشله، بذل هذا الحزب لبوسه الأرستقراطية ومال إلى الديموقراطية. تمثيلاً لسرتتوس، كان حليفاً صدوقاً للعناصر الايبيرية الأصلية، مجندين بينهم جيشاً قوياً نظامياً، انضم إليه العبيد. ومثل قيصر، اعترف فيمابعد، بمعركة ماندا الرهيبة، ولإشعال شجاعة جنده، قاتل على رأسهم كجندي، "بعكس المعارك السابقة، حيث قاتل من أجل النصر، سقط من أجل الحياة. لكن بهذا اللقاء أيضاً، هزم البومبيون، وأكره قائدهم الوحيد الذي بقي حياً، أن يركب البحر، مع الملتاعين الباقين من قوى الحزب في إسبانيا، ليعيش قرصاناً.

"إن قيصر بعد أن انتهى من الحرب الأهلية، يوجز أبيان، أخذ من جديد دربه إلى روما، القادرة والمخيفة كما لم تكن يوماً معه" (الحروب الأهلية، ٢، ١٠٦). يعترف المؤرخ نفسه أن هذا النصر كلفه غالباً جداً: "أمر بإحصاء كل مواطني روما، وكان عدد السكان قد تراجع إلى نصف ماكان عليه قبل الحرب، لكثرة الشقاق الداخلي الذي عانت منه الجمهورية..." (نفس المصدر، ٢، ١٠٢).

خضعت روما مجدداً إلى حكم العسكر، كما في عهد سيللا، إنما بشكل أكثر ليونة. والجند الذين أحسوا القدرة الحاسمة، اضطربوا، عصوا، طلبوا مكافآت واسعة وعدوا بها. كان تمردهم في العام ٤٧، قبل الحملة الأفريقية، خطراً بشكل استثنائي؛ احتشدوا في مضمار مارس، وطلبوا بصخب التوزيع المباشر لـ *donativum* وإجازاتهم. تعرض ساوست، حامل وعود قيصر الجديدة للقتل. وكانت المدينة عرضة للسرقة. لكن ظهور قيصر الذي قدم إليهم بجرأة، وسلوكه الأريب والحازم تجاه المتمردين أنقذ روما من النهب. وبالموازنة بين التهديدات والوعود، عرف قيصر كيف يهدئ حركات الجنود الغاضبة والرهيبة وإعادتها إلى إطار الطاعة. لم يجنوا أقل مما أرادوا وأجبر قيصر أن ينقص إلى النصف عدد المحاصيل التي تراجعت من ٣٠٠ ألف إلى ١٥٠ ألف. وفي العام ٤٦، تلقى قيصر أمجاد النصر أربع مرات (على الغولوا، ومصر، وفرناس ونوميديا)؛ ولقد وفى قيصر بعهده: "أعطى كل جندي ٥ آلاف دراخماً قديمة، ولقائد المائة ١٠ آلاف، ولقائد الألف أو الخيال ٢٠ ألفاً.

ولقد جنت هذه الأبهة الانتصارية، كم ورد في الموروث ٦٠ ألف تالانت نقداً، و٢٨٠٠ قطعة ذهبية تزن ٢٤١٤ ليرة ذهبية". (أبيان، الحروب الأهلية، ٢، ١٠٢). لكن قيصر افتقر للوقت ليتم توزيع الأرض على أبطاله، بدءاً بالرتبة العليا (وزع على ٨٠ ألفاً). وراح هؤلاء يعيشون الرغد والرفاهية والقصف والمجون. والشيء الهام الذي اتقاه قيصر هو النفى، المذابح، والمصادر، كما في عهد سيللا.

كان قيصر نفسه لا يخفي أن سلطته ترتكز أساساً على الجيش. ومثل سيللا، كان لقبه الرئيس هو الإمبراطور، الذي مارسه كاسمه الشخصي: "الإمبراطور قيصر، أب الوطن، الموجه الأبدي" هذا ما نقرأه على النقد الذي ضرب في عهده. وإلحاق ألقاب "أب الوطن" و"دكتاتور" يعني أن هذه السلطة العسكرية طالت أساساً كل المجتمع المدني وأن الجمهورية تحولت إلى الأبد إلى ملكية عسكرية.

كانت الدكتاتورية العسكرية المظفرة التي يمارسها قائدها، في الأربعينيات، ذات طابع ليس أقل رجعية ومعاداة للشعب من دكتاتورية سيللا، قبل خمس وثلاثين سنة. رغم أنهم كانوا يقيمون صلات مع الديمقراطية. وبالفعل، كان قيصر لمدة طويلة القائد المعترف به من الديمقراطية وحزبها، وكان ينتظر منه انقلاب مستوحى من برنامج كتلينا: الأمر الذي يعلل الذعر الذي تلبس في العام ٤٩ كل العناصر المحافظة وكبار الملاكين، الهاربين من إيطاليا مع بومبيه.

لكن تطلعات وآمال الشعب انهارت. ورغم الأزمة الاقتصادية الخائفة التي عمت روما، بنتيجة الحرب الأهلية، اكتفى قيصر بتخفيض فوائد الديون جداً وتقييم الرهونات بنفس القيم كما في الماضي. وقمع الإضرابات على الفور وبقسوة نموذجية. وفي العام ٤٨، أقيل الحاكم روفوس وأبعد عن روما، لأنه اقترح على مجلس الشيوخ إلغاء الديون. وأعلن الحصار على المدينة لخلق حركة المتعاطفين مع روفوس؛ وخلق التمرد الذي حاول هذا الأخير بعثه في جنوب إيطاليا، بمساعدة ميلون الذي كان قد عرف منذ أعوام سابقة بديماغوجيته، خنق بالحديد والنار؛ وهلك هذان القائدان في أثناء حملة القمع. وفي العام التالي، ٤٧، حين قدم محامي الشعب ب. كورنيس دولابيلاً المطالب ذاتها، التي دعمها بكل حزم العوام الرومان، الذين أقاموا متاريس في كل الدروب المؤدية إلى الفوروم *Forum*، لمنع مقاطعة الاقتراع، ارتكب معاون قيصر الأول، قائد خيالاته، مارك أنطوان وحاكم روما

في غياب الدكتاتور، مذبحه حقيقية في شوارع العاصمة. حطمت قواته المتاريس وشنتت مجلس الشعب، وسقط حتى ٨٠٠ قتيل وقذف بالعديد من الناس من أعلى صخرة تربيين *Tarpienne*. عاد قيصر على عجل، ودلل على عدم الموافقة على ما ارتكب مارك انطوان، وكف عن مطاردة دولابيل، وأعلن تأجيل الأجور المنخفضة لمدة عام، لكنه بنفس الوقت أغلق كل النوادي والتجمعات الشعبية.

إذ كان يحاول بكل السبل صرف الشعب عن الحياة الاجتماعية والسياسية، بالأعياد والاحتفالات الباذخة المنقطعة النظير، وشد متعاطفيه بكرم بتوزيع المال، القمح، اللحم، الولايم العامة (في إحدى هذه المناسبات، أقيمت ٢٢ ألف مائدة في الهواء الطلق). ولم تعد مجالس الشعب والانتخابات سوى شكلية عابثة: أو يسمى قيصر نفسه الحكام، أحيانا لعدة سنين، أو يخاطب القبائل بالرسائل، طالبا منهم -وهذه الطلبات هي أوامر- أن ينتخبوا مرشحيه. ويبحث فضلا عن هذا عن تحويل الرأي العام عن القضايا السياسية الكبرى مركزا اهتمامه على الشؤون المحلية، وبهذا الهدف ذبح قانونا حول الإدارة البلدية للحاضرات الرومانية، التي توسع حقوقها.

بسط قيصر، ملتصقا الشعبية في الأقاليم حق الحاضرة الرومانية، الذي وهبه دفعة واحدة لسكان غول غرب الألب، بينما تلقى غول شرق الألب، القانون اللاتيني؛ من هنا كانت المستعمرات القديمة العسكرية التي شيدت في المحميات، تحكم نفسها هي الأخرى، لكن الهيمنة بقيت معطاة للشريحة المرتاحة والـ"هادئة" من الناس. على ذلك، لم يبتعد قيصر أبدا عن الفئات السفلى، واستمر يعتبر نفسه قائد الحزب الشعبي.

كان ترسيخ السلطة الملكية يترافق طبعا مع الميل إلى المركزية والبيروقراطية الإدارية. صرح قيصر قائلا: الجمهورية "ليست سوى اسم بدون معنى و... ليؤخذ كلامي "قوانين". (سويتون، قيصر، ٧٧)، كان يهدف أيضا أن يجعل كل مؤسسات الدولة دوليب بسيطة إدارية. ومجلس الشيوخ، المنقلص إلى دور تجمع استشاري -ضم إليه كثيرا من قادة المائة عند انتهاء خدمتهم- نهض إلى ٩٠٠ عضو. وزاد عدد الحكام إلى ١٦، ووزراء المالية إلى ٤٠، وقضاة بلدية؛ وكان المحافظون الخاصون المختارون من بين ضباطه، يسهرون على حفظ النظام في روما. وفي الوقت ذاته، لتوحيد المحاسبة وتسهيل الأعمال الإدارية صك نقد جديد من الذهب وصار العملة المتداولة الوحيدة، ووضع تقويم

جديد، يلازم المرحلة، لإتمامه شكلت لجنة من الفلكيين الدائمين. تألفت السنة الشمسية، وهي الأساس، من ٣٦٥ يوما وربع اليوم، والأشهر، عدا شباط الذي حافظ على ٢٨ يوما كما الأمر في الدورة القمرية، تكون من الآن، دوريا، ٣٠ و ٣١ يوما.

كان قيصر معجبا جدا بأشكال الحكم التي وجدها في الشرق، وبخاصة الملكية الهلنستينية، كالتي كانت في مصر، بملوكها المؤلهين، بسلطة غير محدودة، وعظمة البلاط والجهاز البيروقراطي الضخم. جلس في مجلس الشيوخ على عرش من ذهب، وارندى بزة النصر، والجهة محاطة بأكاليل من غار، ومعطفا وحذاء أحمر أرجوانيا كمئداس ملوك روما السابقين؛ وراح يتذكر باستمرار أصله الإلهي، لأن أسرته تتباهى بانحدارها من فينوس. وبني معبد، أهدي "للمعبود جوليس" أو "جوبيتر جوليس"، وخلقت هيئة من الأحرار لتعبده. ومملكة مصر، كليوباترا، أتت إلى روما بدعوة منه؛ وتوقع الناس زواجهما الذي يخول قيصر حمل لقب ملك. ولا يعود أنصار قيصر يقلقون إن هم توجهوا أنصابه بالذهب أو قدموا له الإكليل أمام الملأ. لكن الوقت لم يأت: كان الشعب يتامل من هذه المظاهر العاهلية، وكان على قيصر أن يعزف عن إعلان نفسه ملكا، ريثما يتم إعداد الرأي العام لتقبل هذه البيعة.

وفي العام ٤٥، شرع قيصر الإعداد "لحملة ضخمة إلى الشرق" ضد البارث، الذين كانوا يهددون بدخول أو غزو الأقاليم الرومانية الواقعة على تخومهم. ارتأى، والدرب مشرع، إخضاع الجيت، الذين أسس ملكهم، آنذ، مملكة جبارة في أسفل الدانوب. بهذه المناسبة، كان أتباعه ينشرون بإلحاح ضجة وإشاعة تقول إن النبوءات القديمة تسند لملك قهر ملوك الشرق. فقط لكن قبل أربعة أيام من قيادة قواته (١٤٥ مارس) ٤٤، قتل قيصر، في مجلس الشيوخ، بأيدي زمرة من المتأمرين الجمهوريين.

وهكذا لم يستطع قيصر إنجاز مهمته وتوطيد النظام "الإمبريالي" العاهلي والعسكري، الذي فرضه على روما، كما أنه كان قد دمر الجمهورية تدميرا كاملا لا عودة له، كما كلن الأمر بعد موت سيللا.

انطفاء آخر حركة جمهورية. الثلاثية الثانية، تحريم وإبطال الملكية العقارية الواسعة في إيطاليا

كان منفذو المؤامرة وجوه أعضاء مجلس الشيوخ الجمهوريين، وشاغلو أرفع المراكز في الجيش وأقرب المقربين من البومبيين السابقين، ومن عفى عنهم. وكان على رأس

المؤامرة عضوان من أسرة جوليان بروتس الرومانية الثرية: الحاكم ماركوس جوليان بروتس، الجمهوري المتعصب وبنفس الوقت محظي قيصر، حمو ديسموس جونيس بروتس، الذي ولاه الدكتاتور حكومة الغول غرب الألب، والثاني، الحاكم كايوس كاسيس لونجنس، إذا ما أهملنا الحديث عن غيرهما. وكانوا كلهم ٦٠.

لكن وجهيهم كانوا في الصفوف الخلفية لكبار النبلاء، الذين كانوا يكرهون قيصر. لذا اختاروا، لهلاك هذا الأخير، سور مجلس الشيوخ الذي، كما أملوا، يجب أن يحقق مخططهم في قتل "الطاغية" وإعادة الجمهورية. وبالفعل، لم يبق أي عضو في مجلس الشيوخ بأي حركة للدفاع عن قيصر عندما طوقه القنلة. نجح الاغتيال، ساند أغلب أعضاء مجلس الشيوخ المتآمرين وأعلنوا إلغاء كل القرارات والأوامر التي اتخذها قيصر. ورغب البعض في منع دفن "الطاغية" وطلبوا أن ترمى جثته في النهر، وفق العادة القديمة. كان خوف المتآمرين الوحيد وأنصارهم الأرستقراطيين الرومان، قيام عمل حربي بقيادة معاوني قيصر الأقرب، القنصل مارك-أنطون وقائد الخيالة، م. أمليوس، اللذين كانا يقودان كل قوات حامية روما. وللتصدي لهذا الخطر، احتل الجمهوريون الكابيتول وجندوا لحمايته زمراً من المصارعين.

لم يكن "الشعب مهياً لمتابعة المتآمرين" (أبيان، الحروب الأهلية، ٢، ١١٩). بالعكس طارد القنلة ورجمهم. وبعد عدة أيام من موت قيصر، عندما حمل جدته إلى الفورم، وتليت على الجمهور وصية الميت، التي تخص كل مواطن بارث محترم، هجم الشعب المنتفض ودمر بيوت أعضاء مجلس الشيوخ والنبلاء. كان يقود المتمردون محرض ماهر، معتق طبعاً اسمه هروفيل (وتقول بعض المراجع أن اسمه أماتيوس)، المعتبر حفيد ماريوس. كان يعتبر قيصر محامي الفقراء، هلك تحت طعن الأغنياء، بعد أن حض الشعب على ذبح كل أولئك الذين ولغوا في هذه الجريمة وأعضاء مجلس الشيوخ جميعاً. التحق العبيد والمنتفضون بالحركة، التي تعاطف معها أعوان قيصر، المجتمعون في روما بعدد ضخم.

إن الخوف الذي أشاعته هذه الاضطرابات الشعبية قرب لفترة ما قسادة قيصر من الحزب المشيخي وحتى من مغتالي قيصر. وفي جلسة مجلس الشيوخ الأولى، رضي أنطون وليبيد بعودة الوضع الجمهوري؛ كانت السلطة العليا بيد مجلس الشيوخ والعاهلية بيد الهيئات الانتخابية. وكدليل على الوفاق بين القادة والمتآمرين، سلمهم أنطون وليبيد أولادهما رهائن. وتخلّى القيصريون ليس فقط عن العفو عن القنلة بل سمحوا لهم بالاحتفاظ

بالحاكميات والاقاليم، وضمن مجلس الشيوخ من جهته الصلح التالي: يتخلى الجمهوريون عن رغبتهم في فضح ذكرى قيصر كطاغية، وعن مصادرة أملاكه، وكذلك عن إلغاء كل أعماله وتعييناته. وبعيد هذا، بناء على اقتراح أنطوان، سُن قانون يلغي إلى الأبد الدكتاتورية ويعترف لكل الناس بحق قتل كل مراب جديد.

بعد هذا الوفاق الوقتي والخبث، انطلقوا إلى قمع الحركة الشعبية. وبأمر من أنطوان، أعدم هروفيل بدون محاكمة. وعندما احتشد أنصاره في ميدان الفورم، أمر أنطوان ودولابيل، زميله في القنصلية، بتسيير القوات ضدهم. قتل البعض وهم يدافعون عن أنفسهم، وسجن البعض وأعدم (منتصف نيسان ٤٤).

على هذا، أعطى أنطوان مجلس الشيوخ بعض الامتيازات ولنفسه كقنصل حق الإعداد لعودة القيصرية وتسوية الأمور مع خصومه. بناء على طلبه، وعدم رضى مجلس الشيوخ، سماه مجلس الشعب محافظا لغول غرب الألب محل دسموس بروتس، أحد قتلة قيصر. وبذريعة تحويله إلى إقليمه، دعا إليه أربعة جحافل كانت في مقدونيا. فضلا عن وضع اليد على ثروة قيصر الطائلة، بدأ بتجنيد حملات قوية من قادة المائة، تحت ستار الحماية من الديموقراطيين الغاضبين من إعدام أماتيوس. لكن انشاقا بعث في بنية الحزب القيصري: كان بعض، المحنكين المزودين بأراض، يساندون سياسة عودة الوفاق الوقتي مع مجلس الشيوخ، يؤيدهم أنطوان، ويريد الآخرون عملا أكثر حزما ضد قتلة قيصر ومحرضيهم. وسرعان ما رأى أنطوان خصما خطرا في شخص شاب في ربيعته الثامن عشر، هو أوكتاف، حفيد إحدى أخوات قيصر، كان مقربا إليه قبيل موته، ولهذا السبب سمي كايوس يوليس كيزر أوكتافيانس. كانت ثروته ضخمة، خالف ما أوصى له به قيصر، أسرة ثرية.

لقد وطد الشقاق بين القيصريين والحرب بين قاداتهم وضع الحزب المشيخي. كان شيشرون في مجلس الشيوخ ومجلس الشعب ينفجر ضد أنطوان (*Ses 14 philippiques*). كان التسليح ينشط وضريبة الحرب ترتفع، التي لم تجب منذ ١٢٥ سنة. كلف بروتس وكاسيوس بتجهيز الجيش والأسطول للذود عن الجمهورية، ووضع بإمرتهما كل الحكام الرومان في شرق البحر الأيوني. وكان ينتظر وصول إلى روما آخر أبناء بومبيه، سكتس، والعودة التامة للنظام البومبوي. واتخذ مجلس الشيوخ، حتى تجاه أوكتاف، موقفا مهينا ومعاديا. واستدعى الخوف من بعث الاولغارشية المشيخية تدخل القوة الحاسمة يومئذ،

الجيش. كان الجنود يحاولون منذ زمن، لكن عبثاً، التوفيق بين أنطوان وأوكتاف، المفروض عليهم، بنشر سخائنه الأريحي ووعوده الحاسمة بمعاقبة قنلة قيصر. وبعد معركة متينة، قرر الجنود أخذ القضية بأيديهم وبعثوا وفداً إلى مجلس الشيوخ: شهر الوفد السيف، وطلب القنصلية لقائده، الذي لم يتم بعد العشرين ربيعاً. غضبوا من الرفض وسيروا القوات إلى روما وبدأ القتال في ميدان مارس، فأكره مجلس الشيوخ على الإذعان لرغبتهم. ولإرضائهم، ألغى القنصل الجديد العفو الممنوح لقتله قيصر، وبدأ سلسلة من الاعتقالات والإعدامات بين الجمهوريين ووزع بيد سخية على الجند (٢٥٠٠ دراخما لكل منهم) من مال الخزينة.

في هذا الوقت، تمركز جيش آخر جيش ليبيد، في الغول غرب الألب، وأجبر قائده، المحايد، أن يقف صراحة إلى جانب أنطوان، وهكذا ضم السبعة عشرة جحفاً بقيادة أوكتاف، الذين رفعوا القناع عن مطلبهم من مجلس الشيوخ.

وفي خريف العام ٤٣، اجتمع القادة القيصريون الثلاثة الكبار في جزيرة رينوس الصغيرة، قرب بونونيا، وبعد مؤتمر لثلاثة أيام، عقدوا فيما بينهم اتفاقاً قرئ على القوات. قرروا عودة الدكتاتورية العسكرية، ويستلمها أنطوان، ليبيد وأوكتاف. وقد منحتهم هذه الدكتاتورية التعاونية، التي تسترت باسم الثلاثية مراعاة لدستور الجمهورية، ممارسة السلطة المطلقة لخمس سنين، حتى أول كانوا الثاني ٣٧. ثم وعلى الفور احتل الثلاثة روما وبعد إعفاء الحكومة، ولتغطيتهم مادة شرعية، ضمنوا اتفاقهم بالاقتراع على "قانون"، فرضوه على مجلس الشعب بعد أن أحاطوه بقواتهم. هوذا أصل "الثلاثية الثانية" التي، بخلاف الأولى، كانت ذات طابع رسمي بمعنى الكلمة.

وبعيد هذا، بحجة الانتقام لموت قيصر وإرضاء للجنود، أهرق الدم في أرجاء إيطاليا، ونهبت خيراتها بأمر من الثلاثة الكبار. وعلى مثال سيللا، دمجوا لوائح بالابعاد. وهلك ٣٠٠ عضو من مجلس الشيوخ و٢٠٠٠ فارس، وجمهرة من الأغنياء، منهم شيشرون، هلكوا دون محاكمة وصودرت أرزاقهم. كان الجند يقتلون المبعدين حيثما وجدوهم ويحملون رؤوسهم إلى روما، ليحفظوا بالثمن ٢٥٠٠٠ دراخما ويعتق العبد الذابح. ولمكافأة القوات، سلمت لهم ١٨ مدينة الأروغ في إيطاليا (كابوا، فينيسيا، بنفانت، أرمنيوم وغيرها: يطرد السكان، ووزعت البيوت، والأثاث، والأرض والعبيد على جنود الجيش القيصر. وبيعت الأراضي المصادرة بالمزاد وهكذا أغنت هذه العمليات المجزية جداً جمهرة من المضاربين،



والموظفين والضباط القيصريين. ووسع الثلاثة الكبار أنفسهم ثرواتهم، بتسجيل ذويهم في لوائح المنفيين، ليستولوا على أرزاقهم. كان هذا نهبا غريبا، بفضلته وزعت أوسع الأملاك وغير شطر كبير من الأرض والأرزاق اسم مالكة (انظر، في الحروب الأهلية، ٤، ٥-١٥، التفصيلات المربعة التي يعطيها أبيان لهذا الموضوع).

على ذلك، لم يجد الثلاثة الكبار، في نهب إيطاليا، المناهل الكافية لتغطية التزاماتهم تجاه الجنود. فسارعوا بالتالي لبسط نفوذهم على أغنى أقاليم الشرق، التي كان قد سرقها هي الأخرى آخر الجمهوريين الذين كانوا سادة آنذ. وأعد بروتس وكاسيس، اللذان كانا في مقدونيا جيشا جرارا (١٨ جحفا)، وسار إلى روما. وبالمقابل مشى أنطوان وأوكتاف على رأس ٢٠ جحفا، إلى اليونان، وفي خريف العام ٤٢، اصطدموا بقوات بروتس وكاسيس، ليس بعيدا عن أمبولي، قرب فيليب. دام القتال شهرا كاملا، بشيء من الغلبة للجمهوريين، الأوفر مؤونة والأفضل تسليحا وتنظيما. لكن انتحار كاسيس، الناجم عن فشل جزئي، زرع القيادة الجمهورية، وفي نهاية تشرين الثاني ٤٢، هزم جيش بروتس شر هزيمة، وخرق بروتس اليانس، جسده بسيفه، وانضمت قواته إلى أنطوان (اقرأ بلوتارك، بروتس، ٣٨-٥٣، وأبيان، ٤، ٥٧-١٣٦).

سجلت معركة فيليب أقول الجمهورية إلى الأبد وترسيخ الدكتاتورية القيصرية. لكن الثلاثية، الباقية الجهاز الأعلى التعاوني في الحكومة الرومانية، وزعت على أعضائها الأقاليم. كسب أنطوان، الذي اعترف له زميلاه بأسبقيته حكومة أغنياء الأقاليم الشرقية، كما ادعى. لإرضاء أطماع الجند، قرابة ٤٠ جحفا. وتكفل بتنفيذ المشروع الذي بدأه قيصر: الحرب ضد البارث. ووقع الغرب (إيطاليا، غول، اسبانيا) بين يدي أوكتاف، مع مهمة توزيع الأرض على الجنود المحنكين (٢٠٠ سهماء أي ٥٠ هكتارا للرأس). وبدأ أيضا الحرب ضد سكس بومبييه، الذس احتل سيسيليا، وساد البحر. وأخذ ليبد أفريقيا وثلاثة جحافل.

هذا، وفي نهاية العام ٤٢، لم تكن الدكتاتورية التي أنشأها قيصر قد عادت فقط، بل توطدت بوضوح، بشكل تعاوني، صحيح، وليس بين يدي شخص واحد. كانت الثلاثية الثانية فعلا الدكتاتورية المفتوحة للجحافل، بوساطة حكومة مؤلفة من ٣ جنرالات يتمتعون بأوسع نفوذ وأعمق ثقة لدى الجنود، وبضغط منهم جنوا "تأييد الشعب".

## الفصل الثامن والخمسون

### أمارة أوغوست

انحلال الثلاثية الثانية. أوكتاف يحتل السلطة العليا

مع ذلك، على مثال الأولى لم تتأخر الثلاثية عن إفساح المجال تدريجياً لدكتاتورية أحد أعضائها. وهذه المرة أيضاً، فرض أحد الثلاثية نفسه، والذي كان يبدو الأقل أهمية وصدارة، لكنه دل على أنه الأمهر، الأكثر تشبهاً والأنفذ بصيرة، والذي عرف كيف يخلق أجود وأصمد سند.

بعد انتصار فيليب، تابع أوكتاف دون توان سياسة النفي والمصادرة ليغمّر الجنود بالمكافآت؛ عدا أملاك المبعدين وزرع على الجنود أرزاق سكان ست عشرة مدينة من أهم مدن إيطالية، كما رأينا أعلاه كانت (اثنتان من الثماني عشرة حاضرة كانت قد وقعت بين يدي سكستس بومبييه). وأسفرت هذه التدابير عن أزمة اقتصادية رهيبة وفوضى غريبة في إيطاليا. لم يكن المالكون يخفون كرههم "للجلاد" أوكتافيو. وتجلّى غضبهم بتمرد واسع نشب في العام ٤١، حرب بيروس (اشتقاق من مدينة أتروريا الواقعة على هضبة صخرية جيدة التحصين أضحت مركز الانتفاضة). كان على رأس الحركة لوسيوس أنطونيس، أخذ أخو أحد الثلاثة الكبار وفولفيا، زوجة هذا الأخير، التي كانت تسعى لنزع الثقة من أوكتاف وتأمين السلطة كلها لأنطوان. لكن أوكتاف أخذ بورس، المحاصرة بثلاثة جيوش؛ وسلمت المدينة للنهب وأحرقت. وهلك ٣٠٠ عضو من مجلس الشيوخ ووجوه أخرى معروفة من النبلاء أمام معبد "الإله قيصر".

لن يكتب لنظام إرهابي عسكري كهذا طول البقاء. لكن أوكتاف لتوطيد وضعه سعى إلى التصالح مع الطبقة المالكة وأصحاب العبيد في إيطاليا، فقد أصبح هو نفسه مالكا عقارياً كبيراً، بحياسة الأراضي بسعر بخس، في أيام الإبعادات. فمُنذ الثلاثينات، أخذت سياسته وجهة جديدة: بدع من النواة القيصريّة الهامة التي اغتننت مثله، هدف التقارب مع

من بقي من النبلاء الأغنياء الكبار والشرائح المالكة من البلدات الإيطالية. وترجمت هذه السياسة بالهدوء، ثم بإنهاء الإبعادات والمصادرات، والإعفاء عن المنفيين والهاربين، وعودة الاستقلال البلدي للحاضرات الإيطالية، الخاضعة حتى آنئذ للحكومة العسكرية (سفراء يمثلون السلطة الحاكمة).

وبدئ بنفس الوقت، في الأوساط المنعمة من المجتمع الإيطالي، بعد فشل حرب بروس، سياسة سلبية معينة، اتجاهات لامبالية، الاعتكاف في الحياة من أجل التمتع بهدوء بما تبقى من الثروة، والتلائم مع نظام أوكتاف الذي راح يمارس أكثر فأكثر شيئاً من الرحمة والحلم. ساهم بهذا الضباط الذين ارتقوا إلى صفوف مالكي الأفيان والعبيد، والجنود القدماء الذين صاروا معمرين (مستعمرين). كانت السلطة الثلاثية فقط قادرة على حماية حيازات هذه الفئة الجديدة من مالكي الأرض.

لكن واحداً من أسباب التغيير الهامة لصالح أوكتاف انتصر على سكستس بومبييه الذي، من مركزه في سبيليا، طال إيطاليا الجائعة والمهددة بتمرد العبيد مجدداً. ضم بومبييه، المفتقر إلى الرجال، طوعاً، المبعدين الهاربين والعبيد الذين يشكلون بوضوح عناصر قواته البرية والبحرية. بل كان القائد العام للقوات البومبية المعتق منودور. والثلاثة الكبار الذين كانوا عاجزين عن إنهاء بومبييه اضطروا لعقد اتفاق معه. وفي العام ٣٦ استطاع أسطول أوكتاف بقيادة أغريبا، جنراله البطل، أن يبيد نهائياً أسطول ملك القراصنة هذا، على الساحل الشمالي لسبيليا. فقد أزر تحالف أوكتاف مع المبعدين المهاجرين إلى هذا الإقليم، ساعد أغريبا على احتلال كل سبيليا. وكما كتب أوكتاف في سيرته الخاصة، "أعادهم إلى سادتهم، تاركاً لهم الاهتمام بمعاقبتهم"، فقد سجن خلال هذه العملية ثلاثين ألف عبد. وصلب ستة آلاف لم يعثر على سادتهم. واحتفاء بهذا النصر المؤزر في "حرب العبيد"، رفع مجلس الشيوخ لأوكتاف نصباً من ذهب في ميدان الفورم ومنحه منصب المحامي الشعبي إلى الأبد.

بفعل دعم الشرائح المنعمة في المجتمع الإيطالي والجنود المحنكين المغتربين، أخذ أوكتاف المنصب الأول في الثلاثية.

في العام ٣٦، أبعد منها ليبيد، تاركاً له المهمة الفخرية، كبير الأخبار. وبدءاً من هذا العام، وضع غرب الامبراطورية الرومانية كله مع الجحافل المعسكرة فيه، بين يدي أوكتاف. كانت العلاقات بين رئيسي الثلاثية، أوكتاف وأنطوان، قد توترت منذ حرب بروس. مع ذلك اضطر أنطوان أن يقبل الاتفاق المؤقت والصلح مع أوكتاف، لأن ابن مالك

البارث، باكورس، كان، في العام ٤٠، قد خرب الأقاليم الرومانية الغنية في آسيا: سوريا وفينيقيا، فوجدت روما نفسها مهددة بضياح الشرق. انتهى هذا الاتفاق إلى معاهدة وقعت في العام ٤٠ عرفت بمعاهدة برونديزيوم التي اكدت في العام ٣٧ اتفاق تارانت الذي مدد خمس سنوات للثلاثية.

كان الإعداد لحرب قاسية وخطرة ضد البارث قد أجبر أنطوان على البحث عن تحالف متين مع أغنى بلدان الشرق، مصر. لابل تزوج ملكة مصر كليوباترا، وأعطاهما لقب "ملكة الملوك"، وأقطع أبناء هذه العاهلة أملاكاً من أقاليم الشرق الرومانية. لكن حملة أنطوان على البارث آلت إلى الفشل: لكنه نجح بعد جهد جهيد في تجنب ما أصاب كراسوس ونقل عبر أرمينيا من تبقى من جيشه (العام ٣٦ ق.م). أفاد أنصار أوكتاف من الوضع بهمارة لمهاجمة أنطوان. وتمت القطيعة في العام ٣٢ ق.م. بدأ أوكتاف بانقلاب حقيقي في روما: تقدم من مجلس الشيوخ مع مرافقة ضخمة من جيشه، عزل ٤٠٠ من أعضائه، أنصار أنطوان وأكره القنصلين على اللجوء إلى هذا الأخير. وبخرق العادة الدهرية، ألزم الراهبات على تسليمه وصية أنطوان (فيما يخص كليوباترا وأولادها)، وتلاها على مجلس الشعب، الذي أقال أنطوان من سلطاته في الثلاثية. وأعلنت الحرب على كليوباترا لأنها استلمت أملاك الشعب الروماني.

بدأ القتال بين جيشي الخصمين عند الشط الشرقي لبحر الأدرياتيك، حيث هيا أنطوان، في خليج أمبراسيا، قاعدة نزول في إيطاليا، قصد انتزاعها من أوكتاف. من الزاوية القتالية، كان أنطوان أقوى، لكن أوكتاف كان يتمتع بدعم كل المجتمع العبودي الإيطالي-الروماني وحتى اليوناني، والذي وقف إلى جانبه. فضلاً عن هذا كان جنود أنطوان يعانون الجوع، لأن السكان المحليين رفضوا تزويدهم بالمؤن؛ فبدأت الاضطرابات في الجيش. استغلالاً لهذه الظروف، رغم أنه أقل عدداً، أنزل أسطول أوكتاف، بقيادة أغريبا، في الثاني من أيلول ٣١، وفي رأس أكتيوم، هزيمة ساحقة بأسطول أنطوان. هرب هذا الأخير إلى مصر، تاركاً جيشه البري، الذي استسلم، بدون قتال، إلى أوكتاف. وفي العام ٣٠، استلم أوكتاف آسيا، سوريا، فينيقيا، فلسطين وجزا مصر، آخر بلد شرقي مستقل. انتحر أنطوان وكليوباترا، وتراجعت مصر إلى محمية رومانية، لكن بوضع خاص، جعل منها بشكل ما ملكية خاصة لأوكتاف وأسرته.

وفي العام ٣٠، التأم شمل الدولة الرومانية، بعد ١٢ عاماً من التفكك، وأخلت الدكتاتورية العسكرية المكان للملكية التس استلمها أوكتاف. وانفتح عهد جديد، عهد

الإمبراطورية الرومانية.

أوكتاف يجدد تنظيم القاعدة الاجتماعية لحكومته، آخر عشرين سنة من القرن

الأول ق.م.

ساد أوكتاف وحده الإمبراطورية الرومانية، لكنه لم يقتف خطى قيصر بل تجنب العودة التامة إلى نظام الدكتاتورية العسكرية أو يختار نظام الملكية المطلقة من النمط الهلنستي. اتبعت سياسته الداخلية ترسيخ دكتاتورية الجيش ومالكي العبيد، دكتاتورية محافظة في إبعادها وأهدافها، لكنها تقي وتصون مراسم الجمهورية. وكانت تستند إلى تحالف كل الفئات المالكة والمستعبدة، ولم يكن العامل العسكري مدعوا لأن يلعب فيها دورا ضد الثواب المناسب، لأجل الدفاع عن مصادر الرفاهية وتوسيعها.

تشكل سيرة أوكتاف الذاتية المنشورة بعنوان "أعمال أوغست المقدسة" مرجعا في غاية الأهمية، للتعرف إلى الخط العام في سياسته الداخلية. وهذه الألواح، المنقوشة في مدخل ضريحه، وصلتنا بشكل نسخ. أتمها نسخة أنسير، ولذا تسمى الوثيقة نفسها غالبا "منحوتة أنسير". والأنسب الرجوع إلى هذا السند بكل حذر، لأن أوغست لا يضمنه سوى أعماله الحسنة، بل يبالغ غالبا، وليس بدون تشويه الأحداث.

إن أهم الاستحقاقات التي ينسبها لنفسه، منذ السطور الأولى (الفقرة ٣)، وإليها يعود كثيرا، هو أنه حرر وكافأ جنوده، ويشير بخاصة إلى توزيع حوالي ٣٠٠ ألف سهم من الأرض، وأنفق دراهمه وأسس عددا كبيرا من المستعمرات العسكرية (٢٨) في إيطاليا وفي أرجاء الامبراطورية.

لكن أوكتاف لم يكافئ بكرم فقط، بل عرف كيف يخضع لسلطته كل القوات العسكرية في الدولة. وبعد أكتيوم، قلص أوكتاف في اليونان أيضا عدد الجيش العام، ولم يبق تحت السلاح سوى ٢٨ جحفا هم الجنود الأقل خطرا والأكثر انضباطا (١٥٠ ألف تقريبا). استمر هذا العدد وما يناسبه من الكتائب المساعدة طيلة عهد أوغست. كان يجب على كل عسكري أن يخدم عشرين سنة، خلالها يكون كل وقته في خدمة الدولة. كان ذهاب أول جيش دائم مرتزق في الدولة الرومانية. يتقاضى الجندي مرتبا سنويا ومخصصات تقاعد (سهم من الأرض أو مبلغ من المال ليؤمن أيامه الأخيرة). كان الجيش يربط على الحدود، بعيدا عن العاصمة. يعيش الجندي في الثكنة وليس له حق تأسيس أسرة.

كانت هذه القوات خاضعة لانضباط صارم. لم يترك أوكتاف في روما سوى حرسه

الخاص، "قياديته"، أي تسع كتائب في كل منها ١٠٠٠ عسكري، وأفواج من الشرطة ("كتائب المدينة")، غير قادرة على ممارسة أي ضغط في الشؤون السياسية. ويمسك أوكتاف بيديه كل إدارة الجيش ويتدخل بكل شاردة وواردة حتى تسمية قادة المائة. ويوقع دوما بلقب: امبراطور<sup>١</sup>، جاعلا هذا اللقب مثل قيصر اسمه الخاص.

في نفس الوقت انفصل فجأة عن الفئات الديمقراطية في المجتمع الروماني، التي بحث أوكتاف لديها عن دعم وسند في العامين ٤٤ و ٤٣. وفي أعمال شعراء القصر، التي تعكس الأوضاع الجديدة لحاميتهم، ظهر في حوالي العام ٢٧، تعبير مهين للشعب هو "النذل الخسيس"، "حري بالاحتقار والمقت" (هوراس، أناشيد، ٢، ١٦، ٣، ١، ٢). وبعد هذا، تراجع الاقتراح على القوانين وانتخاب الحكام في الهيئات الانتخابية إلى شكلية عابثة، ومن هنا، لم تتأخر الحياة الاجتماعية والسياسية النشطة حتى آنذ، عن السقوط إلى البلادة. ولخلق أي نشاط، سمم الشعب بترو بكل أنواع النزوات، موفرا له فقط "الخبز والأفراح". وارتفعت جناية الجندي اليومية من القمح من جديد إلى ٣٠٠ ألف، أي خميس موديس<sup>١</sup> للجندي. واستلم أوكتاف بيديه شخصيا تنظيم وصول القمح من الأقاليم. فضلا عن هذا، في الفصل الخامس عشر من "أعماله" يعدد ليس بدون تملل توزيع الدراهم على الشعب. ومن الطبيعي جدا، أن يشرع الجمهور الروماني بتفضيل الحظوات والمسرحيات وهي التعبير الرهيب عن إرادة العاهل في الهيئات الانتخابية. ومن بين التدابير الهامة الأخرى المتخذة لتوطيد النظام العبودي، التقييد الذي أضيف إلى حق عتق العبيد. وفي العام ١٠، أعيد العمل بالقانون القديم الذي يحكم بالموت على كل العبيد-الخدم، في حال قتل أو ذبح أي من سادتهم.

تابع أوكتاف تدريجيا سياسته في التقرب من الشرائح العليا في المجتمع العبودي. طهر مجلس الشيوخ، في عدة مناسبات، من عناصر الصدفة، الذين تغلغلوا فيه في أثناء الحرب الأهلية. ورفعت ضريبة عضوية مجلس الشيوخ إلى مليون سسترس، منها مائة ألف فقط على الأقل تعوض بعقار. وصار عدد أعضاء مجلس الشيوخ ٦٠٠ عضوا، يجب أن يكونوا جميعا قد مروا في واحد من المناصب الحكومية ذات الكرسي العاجي، وازداد عدد هؤلاء الآخرين، بحيث يزداد عدد المتمتعين بامتيازات قنصلية، حكومية، إلخ. أمجاد عظيمة وحقوق هامة (صدرية مطرزة ببند عريض من الأحمر الأرجواني، أمكنه شرف

<sup>١</sup> - عبوة أو وزن روماني.

في المسرح والسيرك، أعلى مقامات الجيش والإدارة الإقليمية) مصانة كلها لهذه النواة الصغيرة العليا والغنية في مجلس الشيوخ. وحددت الطبقة الثانية، الفرسان، بـ ٤٠ ألف سسترس. فقد لبسوا الصدرة المزركشة بشريط ضيق من الأرجوان، والحلقة الذهبية، مكانهم في المسرح، يلي مقعد مجلس الشيوخ، والوظائف الهامة الإدارية وفي الجيش محفوظة لهم. منهم يختار قادة الحرس الحكومي، والولاة، أي كبار الموظفين المكلفين بإدارة الشؤون الاقتصادية والمالية في المحميات ( في الإيالات الصغيرة، يستلمون مهمة الحكام الفعليين)، إلخ. وكان ممثلو النبلاء الأغنياء في البلديات يخضعون من الآن للحاكمية الرومانية، الأمر الذي يفتح لهم باب مجلس الشيوخ.

النقوش الضخمة المهداة لأوغست "المنسق والمحسن" تثبت رضى أوساط هذا النظام الجديد. وكانت النخبة المثقفة آنذ (هوراس وفرجيل مثلاً) تظاهر أوكتاف وتسانده أيضاً. وهكذا طلق هذا الأخير القوى التي ساهمت باستلامه سيادة الامبراطورية الرومانية: فمن ديموقراطية قيصر السالفة، التي استمرت كامنّة تحت الرماد، في أثناء دكتاتورية قيصر، والتي علا اشتعالها لفترة بعد أفكار آذار ٤٤، لم يبق أي أثر لها خلال العشرين سنة الأخيرة من القرن. وبعد اكتيوم، كان أوكتاف قد صار ممثلاً ورئيس كل طبقة ومتوسطي مالكي العبيد في إيطاليا، وعلى هذه القاعدة الجديدة، راح يرتفع، ببطء محسوب، صرح عاملي جديد من نموذج جديد-الامبراطورية.

### الإمارة

أدرك أوغست جيداً، بعد قيصر، أهمية التقاليد والعادات لدى الشرائح العليا من المجتمع الروماني، فعرف كيف يدبر نوعاً من الصلح، "يتستر فيه العاهل حسب تعبير سنيك، بعباءة الجمهورية". أخذ هذا النظام، وهو ليس إلا ملكية متتكرة، الاسم المقبول ظاهرياً حتى لدى الجمهوريين، "الإمارة"، الذي يعطي الدور الأول في الجمهورية "للمباديء"، أي المواطن الأول، "بسبب يقظته، حلمه، عدالته ورحمته"، كما يعلن النقش المدهن على شرف أوكتاف، المحفور على ترس ذهبي في مجلس مشيخة جوليان، الصرح الحكومي الأول.

بعامه، يعتبر ١٣ كانون ثاني من عام ٢٧ يوم بداية الإمارة. ففي جلسة رسمية لمجلس الشيوخ ألقى أوكتاف في هذا اليوم خطاباً أعلن فيه، أن استقرار النظام يجعله يتخلى عن كل سلطاته ويعود إلى حياته الخاصة. وبالتالي، بالفعل، طرح كل استحقاقات الملكية الهلنستية، راغباً عن تسمية "إلها"، مبعداً عن حاشيته كل المظاهر الشرقية في القصور

الإغريقية وقال، على الأقل بالكلام، ليس راغبا بالتخريب، بل بإقامة وتوطيد المؤسسات الجمهورية ثانية.

لكن هذا ليس إلا ملهة سياسية، حيث يضاف المكر إلى النفاق، لأنه في الجلسة نفسها، "خاضعا" لرغبات مجلس الشيوخ والشعب، رضي بتسليم حكم كل المحميات الحدودية، حيث لم يستتب الأمن بعد، وبشكل عام، كل الأراضي التي تحشد قوات مقاتلة. فحافظ بهذا على سلطاته العامة، مع لقب امبراطور. ورضي مجلس الشيوخ، وهذا صحيح، إعفاءه من حمل إدارة "الممتلكات السابقة الخاضعة (كورسن سدينيا، سيسيليا، أفريقيا وآسيا، برغام)، التي بقيت محميات "مشيخية"، يحكمها محافظون يسميهم مجلس الشيوخ. لكن إلى هذه المحميات أيضا يرسل الإمبراطور وفوده، الحكام، المكلفين بتجنيد القوات، بوضع ضريبة الحرب، وإدارة أرزاقه، وغيرها، إن هذا الازدواج الظاهري بالسلطة، الموزعة بين الإمبراطور ومجلس الشيوخ، خولت أنصار أوكتاف الزهو باحترام المؤسسات الجمهورية.

قد أضيفت فيما بعد إلى هذه السلطات الأساسية امتيازات عديدة أخرى. ففي العام ١٩، استلم أوكتاف "القنصلية الدائمة": الحق باسم عشر فائس (حامل فأس) و، في مجلس الشيوخ الذي يرأسه، الحق بكرسي عاجي بين كرسيي القنصلية لسنة واحدة، حق دعوة مجلس الشعب، إدارة الانتخابات، إصدار الأوامر التي تبدو له ضرورية، إلخ. ومنذ العام ٣٦، صار أوكتاف محامي الشعب الأبدي، وأكد لهذه السلطات لنفسه في العام ٢٣، ضامنا هكذا تسهره وحقه في الاعتراض على أوامر مجلس الشيوخ ومجلس الشعب. وبدءا من العام ١٢، أضحى كبير الأحرار ومحافظا على الإشراف على المؤن، منظما خزينته الخاصة الأغنى من خزينة الدولة السابقة، المتروكة لتوجيه مجلس الشيوخ. وكان أوكتاف يضطلع دوريا بالسلطات الضرورية لإنجاز الإحصاء، وتطهير مجلس الشيوخ، إلخ. إن تركيز كل الاستحقاقات بيد واحدة جعله عمليا عاهلا وحده. ولقد جهد أنصار النظام الجديد في خلق انطباع مؤداه أن هذه السلطات لن تمكن أوكتاف من ممارسة التحكم الملكي، بل تمنحه فقط "سلطة" لا تناقش وتجعله "المواطن الأول" في الجمهورية، -مبادئ. وهكذا اعتاد أوكتاف أن يسمى رسميا منذ العام ٢٧. وألحق بهذا اللقب لقبان ساميان آخران: أوغست أي الجليل و"أب الوطن".

### سياسة أوغست، المحافظة في الداخل والعدوانية في الخارج

إن الرغبة في الإشارة إلى أنه، في سياسته الداخلية، كان يهدف فقط إلى ترسيخ أسس



المجتمع الاستعبادي وبعث أيام الجمهورية السالفة، تظهر وغيرها بتشجيع أوكتاف على دراسة هذا الماضي، وتاريخه. وهو نفسه يطلع تيت-لايف على اكتشاف الأوابد ووثائق التاريخية. وكان فرجيل مفعما بالأمجاد والمكفات لمحمته إنياه <sup>1</sup> *Enaide*. وأوفديوس نازو المنكوب اعتمد على قصيدته *Fastes* ليحظى مجددا برضى أوكتاف. وحوالي العلم ٩ ق.م. ظهر "علم الآثار الروماني لدينيس ابن هلكارناس.

إن تعظيم الماضي، الذي وجد تعبيره في هذه الأعمال التاريخية شبه-الرسمية، انعكس في الاهتمام الذي أبدته حكومة أوغست، بالحفاظ على دور مهيمن "للشعب الروماني القديم". بعكس قيصر، الذي وسع كثيرا دور الحاضرة، نادرا ما ظهر هذا الحق في أيام أوغست، بل فقط بلقب شخصي، لخدمات استثنائية. كان المعنقون مسجلين بين (الأجانب) أو كانوا أشخاصا متمتعين بالحق اللاتيني. فثمة خط فاصل حاسم بين الرومان واللا-رومان، هو إبراز الحق الروماني بالسيطرة واستثمار الشعوب الأخرى.

كما واهتمت الإمارة أيضا بإحياء "الأخلاق القديمة". وسنت سلسلة من القوانين بغية توقيف الأسرة الرومانية، التي تعاني التفسخ، بإعادة الاعتبار للسلطة القديمة في الحياة والموت لأب كل أفراد البيت الروماني والعبيد. وإعمالا لـ"قوانين إيوليا"، يستفيد المواطنون الذين أنجبوا ثلاثة أولاد من وضع متميز، في العمل الإداري؛ وتقلصت حقوق العازب: وكانت أرزاق الزوجات الشائنات معرضة للمصادرة (كالعقوبة التي طالت ابنة أوحيدة أوغست).

كما سعى أوغست لإحياء الروح الدينية، وهي الأساس الآخر للحياة الرومانية السالفة. ويعتبر الورع أساس الفضائل المدنية. رمت المعابد القديمة، وبنيت معابد جديدة في كل مكان، منها "ضريح قيصر المقدس"، في مكان محرقته المأتمية. وأوليت عبادة الامبراطور الحديثة عناية خاصة، لانتشارها بخاصة في المحميات، والمعبر عنها بإقامة معابد لأوغست وأنصاب للإلهة روما.

لم تكن سياسة أوغست الخارجية هي الأخرى سوى تنمة لسياسته روما العدوانية التقليدية. ولقد تم إلحاق روما والغول في عهده. فضلا عن هذا، ساد الرومان، بعد أن

<sup>١</sup> - ملحمة لفرجيل بـ١٢ نشيدا (٢٩-١٩ ق.م) تأخذ هذه الملحمة نفس المقام لدى الرومان الذي تأخذه الأوديسة والإلياذة لدى اليونان - المترجم.

<sup>٢</sup> - قصيدة أسطورية لأوفديوس (بين عامي ٣ و ٨ بعد الميلاد) - المترجم.

سحقوا السالاس، الذين كانوا يعيشون في سفوح الألب الجنوبي، الممرات الرئيسية لهذه السلسلة الجبلية (سمبلون وسان-برنار في العام ٢٥). ثم في عهد أبناء أوغست المتبنيين، دروسس وتبريس، غزيت الألب الوسطى والشرقية وأسست محميتان جديدتان، في أعالي وادي الرين والدانوب-الريتيا والفاندلسي<sup>١</sup> (العام ١٥ ق.م). وقبيل هذا، بلغ الرومان السريير الأوسط للدانوب، الذي كان قد صار محمية ببونيا<sup>٢</sup> (العام ٩ ق.م). وفي ذات الوقت، بعد صراع ضار ضد الجيت والميسيين، وتدمير قواهم المنيعه نجح الجنرالات الرومان بتأسيس مخفر مسيتين في أسفل الدانوب، حيث أسوا مستعمرة ميسيا<sup>٣</sup>، التي ضمت المستعمرات اليونانية استرس، تومس وغيرهما. وقد بدأ نفوذ روما ينتشر في كل الشاطيء الشمالي للبحر الأسود، فاضطرت ديناميا، ملكة اليوسفور السابقة الجبارة أن تتزوج، ملك اليونت بولمون، وأن ترفع أنصاها لأوغست، نقش عليها: أوغست "سيد الكون، منقذه والمحسن إليه".

إن هذا النجاح العسكري، على طول الرين والدانوب، لا ينسب فقط للرغبة في "وجود الحدود الطبيعية" ضد العالم البربري، في الشمال كما يقدمه غالبا المؤرخون البورجوازيون المعاصرون، وسعيا وراء تمجيد وتبريد "قضية أوغست". إن نشوب أقصى صراع وأعنفه على الطرف الآخر من هذه الحدود الطبيعية، وراء الدانوب والرين، (على أرض ألمانيا الغربية الحالية)، يدحض هذه الفرضية. ولقد بدأت العمليات الهجومية في هذه المنطقة، العام ٢، بقيادة دراس، الذي هزم خلال أربع سنوات كل الأمم الجرمانية بين الرين والألب. وبعد موت دروسس: ابن أوغست المتبنى المحبوب (نتيجة سقوطه عن الحصان، عند العودة من إحدى الحملات)، خلفه تيبير، ابن الامبراطور المتبنى الثاني، وبفضل حملاته في العام ٩ ق.م. أمسى كل شمال غرب ألمانيا حتى مصب الألب محمية رومانية، باسم جرمانيا. ولم يبق إلا هزم مملكة الماركومانس العظيمة، الذين يعيشون على رواقد الألب، ولهذه الغاية جهز الرومان جيشين جرارين.

لكن هذا التوسع أوقفه التمرد الرهيب الذي شنته شعوب بنونيا ودلماسيا في جنوب بنونيا التي أرسلت إليها كل قوات جيش الدانوب بما فيها جحافل ميسيا. وفي روما، فريسة

١ - شمال سويسرا وبلغاريا الحاليتان.

٢ - في هنغاريا والنمسا الحاليتان.

٣ - في صربيا وشمال بلغاريا الراهنتان.

الرب، كان ينتظر غزو إيطاليا، فدعى كل الناس القادرين على حمل السلاح لخدمة الوطن، وشكلت أفواج من العبيد، المتطوعين. انصرفت ثلاثة أعوام (٦-٩ ب.م) من القتال حتى استطاعت القوات الرومانية، بقيادة تيبير، قمع هذا التمرد.

لكن بعد ثلاثة أيام من إعلان النصر على البانونيان والدلماس، علمت روما بانتفاضة جديدة حازمة حاسمة هي الأخرى انطلقت في جرمانيا. كان أومنيوس، قائد الشيروسسك الشاب، قد أباد حتى آخر رجل، بما فيهم جنراله العام ب. كنتليس فاروس، أي جيشا رومانيا من ثلاثة ألوية وتسع تجريدات مساعدة، جارا إياهم كلهم بحيلة حربية إلى غابة توتبرغ-الكارثة<sup>١</sup> (في العام ٩ ق.م). ومن جديد أغرق هذا الداهية الدهياء روما في ذهول وإرهاق لا يوصف. وأوغست، اليائس، ترك شعره ولحيته أشهرا بدون تزيين، و"كان يضرب من وقت إلى آخر رأسه بالبواب، وهو يصرخ: كنتليس فاروس، أعد لي قواتي". (سويتون، أوغست، ٢٣).

لقد ضاعت كل ألمانيا ما وراء الرين، ولم تستطع روما استعادة نفوذها فيها، رغم حملات تيبير وجرمنكوس، ابن دروسس، خلال عامين ١٢ و ١٣. بل اكتفوا بالدفاع عن ضفة الرين اليسرى، بحوالي ٨٠ ألف رجل (٨ جحافل)، وسلسلة من المواقع المنيع، التي أحدثت لحماية الإقليمين الجديدين في جرمانيا العليا والسفلى. كانت هاتان الضربتان القاصمتان اللتان وجهتهما طبيعة العالم البربري إشارات إنذار للصراع القادم، يوم يتحتم زوال امبراطورية روما العبودية.

عندما مات أوغست، في العام ١٤ ب.م. صدر قرار صنّفه في صف الآلهة، وسجى جسده مع الأماجد الاستثنائيين في الضريح الذي أعد مسبقاً. وسمي شهر وفاته منذئذ "أوغست" -أب- على ذكره. لكن كان مستحيلاً توقع عودة هذا النظام السياسي الذي أسس ليبقى أبداً. في كل حال، وفي وصيته، طلب أوغست من أحفاده توفير نفقات السلاح والتسلح واتباع سياسة خارجية مسالمة.

<sup>١</sup> - قرب مدينة أوسنابروك الحالية في وستفاليا.

## الفصل التاسع والخمسون

# الحضارة الرومانية في أيام نهاية الجمهورية وإمارة أوغسطس

أن نظام الدكتاتورية العسكرية الموضوع بخدمة الدولة العبودية، بإبعاد وبعثرة نشاط الجماهير الاجتماعي والسياسي، مارس تأثيراً سيئاً على الحياة الثقافية، الناشطة جداً في أثناء العصر العاصف في القرن الثاني والنصف الأول من القرن الأول ق.م. فقد ساهمت نقاشات الفورم الحامية، والدعاوى السياسية، ونشاط المعاهد والجمعيات الشعبية قبل كل شيء بتفتيح فن الخطابة. كان الأخوان غراسك خطيبين كبيرين؛ وفي أيام ماريوس اشتهر م. أنطونيس (جد المثلث، قنصل العام ٩٩) ول. لسنيوس كراسس، ببلاغتهم. وبعد هذا سمي كوانتس ورتنيس هورثلس (قنصل العام ٦٩)، نصير النبلاء، "ملك المنصة"، لكن بتأثير مدرسي البيان في القصور الهالينية، كانت خطاباتهم مدحية، متكلفة، مصطنعة، بينما امتازت خطابات يوليس قيصر، قائد الديموقراطية المعروف، بالعكس، بانسجام مبسط وكانت تشد الجمهور بحماسيتها. لكن الخطيب الأشهر هو ماركوس توليس شيشرون (١٠٦-٤٣ ق.م)، الذي تأخذ بلاغته الحضور بين منحيين. كان قد تعلم الخطابة على مدرسي البيان في رودس وأثينا. وكان يعد العدة كلما اضطر للظهور أمام الملأ، ناسجاً خطاباته حسب خط صارم، ماهر يأسر الحضور بنبراته المؤثرة. وأغلب خطاباته محفوظة لأنه كان يلقيها مأناً يكتبها. وعرفت عنه إتهاماته ضد فيرس، حاكم سيسيليا الجلال، وخطابه إعطاء كل السلطات لبومبيه، وتلك التي أعدها وتلاها في القانون الزراعي، و *ses cati linaires et ses philippiques* ضد أنطوان. عرض المباديء

١ - اسم اعطى لأربعة خطابات لشيشرون كتلينا، في العام ٦٣ ق.م المترجم.

٢ - خطابات سياسية لشيشرون ضد أنطوان. المترجم.

العظمى لفنه في أبحاثه أوراتور، برتس وغيرهما.  
وفي أيام الأخوين غراسك، ولد الهجاء والهزء<sup>١</sup>، كنوع من القصيد الروماني البحث، كنوع من استعراض الأحداث الراهنة، الذي يقدم الفوضى وعيوب الحياة الاجتماعية. بسخرية في روما، يرون أن "مبتكر الهجاء" الشاعر كايوس لوسيليوس (توفي في العام ١٠٢)، هو ابن المستعمرة اللاتينية سويسا. كان يكتب بلغة بسيطة، "للشعب"، بشكل سداسي المقاطع، الشعر الأكثر حرية يومئذ، ولم يوفر في أهاجيه الأشخاص الأكثر نفوذاً.

في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الأول ق.م. كان المسرح أيضاً قد تحرر من منع معالجة القضايا الراهنة. كان الباحثون الجدد، تيتيوس، معاصر الأخوان غراسك، ت. كينتوي آثا، الذي كان في أيام ماريوس وسينا، ول. أفرائيوس، يطرقون بجرأة الموضوعات التي تحرك المجتمع الروماني ويلبسون أشخاصها أثواباً رومانية، ولذا سميت أعمالهم "ملهاة بثوب قاضي أو محامي أو أستاذ. يقدمون للمسرح صغار الناس-صناعيين، فلاحين، -وأحياناً- يسخرون أيضاً من طيش وعبث النبلاء. وكان ممثلو الطبقات المتنفذة يتحدثون بكره عن هذا النوع من المسرح.

وكانت الحكايات الشعبية القديمة قد صارت المسرح المفضل لدى الرومان. وأخيراً حفظت التراجيديا خطوات هامة. كتب أكسيس (المتوفى حوالي العام ٨٥) حتى ٥٠ تراجيديا، في موضوعات مقتبسة من التاريخ والأسطورة اليونانيين لكنها معالجة بشكل مبدع؛ وكان النضال ضد المستبدين، طرد الملوك (بروتس)، والانتفاضات الشعبية، موضوعاته الأثيرة. وكما يقص شيشرون، كانت الجلسات الأهم والسمات الأصح في هذا الفكر الحر، تأثير، حتى في عهد الثلاثية الأولى، عاصفة من التصفيق على مقاعد المسرح كلها.

قد جعلت الشروط الجديدة التعلم في غاية الضرورة. وكانت الآداب التي تنتشر العلم بقسوة، كانت تعلم في الشوارع، بمبلغ رمزي ٨ أس في الشهر، مبادئ القراءة والكتابة والحساب. وكان تعليم الحلقة الثانية يدرس في مدارس "أساتذة القواعد" (الأدب اللاتيني

<sup>١</sup> - منذ أبعد الأزمان، سمي الهزء نوعاً من القديد المستخدم في القرى، بمناسبة أعياد الحصاد، وتبيل الأغاني المرححة بالفكاهات.

واليوناني، ومبديء في الهندسة والموسيقى). وكان التعليم العالي من اختصاص أساتذة البلاغة، -أغلبهم يونان مقيمون في روما (يعلمون فن الكتابة والفلسفة). كانت هذه المدارس، وبخاصة "مدارس القواعد"، موجودة أيضا في مدن إيطاليا الأخرى، ومفتوحة أيضا، كما يقول هوراس، للأطفال المعتقين والجنود.

مع بث العلم، كانت مؤلفات الشعر والنثر تكبر باستمرار، وقد ولدت حلقات أدبية، حيث يتلو الكتاب من مؤلفاتهم، قبل أن ينسخوها بعشرات النسخ بواسطة ناسخ عبد لدى الناشرين وتباع في حوانيت كتب الفورم والشوارع المجاورة. وقد قدمت عشرات بل مئات الكتب على المسارح في عهد أوغست، لأنها لاتلائم توجه سياسته الجديدة. ومعلقات قيصر الشهيرة في حرب الغول (٨ كتب) وفي الحرب الأهلية في العامين ٤٩-٤٨ (٣ كتب) هي نموذج هذا النوع من الأعمال الأدبية، مكتوبة للطبقات المنعمة من المجتمع المثقف.

كانت القصيدة الرومانية هي الأخرى في قمة ازدهارها. ومع انحطاط التقاليد القديمة، رفعت الفردية رأسها في المجتمع الروماني، والغنائية، -التعبير عن الأحاسيس الشخصية، ازدهرت. كان الغنائيون الرومان يأخذون القصيدة الهلينية مثلا لتلك الأيام، المننقة، المفخمة، التعليمية، المشبعة بالمقارنات والصور الأسطورية. من أعمال هؤلاء الشعراء لم يصلنا سوى شعر ك. فالريس مكنلوس (مات حوالي العام ٥٤)، الذي نجح جزئيا في التحرر من الأسلوب المنمق (الاسكندري)، لغناء أشعار إيقاعية، بدون تزويق أو زخرفة، في الأحاسيس والأفكار الأثيرة، حبه للسبيا (كلوديا) والألم الذي تركته في جوارحه خيانتها. وكان كتول، نصير الجمهورية، يعبر بقصائد ساخرة عن كرهه لقيصر وحاشيته. وإنجاز آخر لكتول هو أنه أول من أدخل إلى القصيدة اللاتينية تناسق الوزن الشعري الأيولي *eolien*، المقتبس من اليونان. ويمكن، بكلمة، اعتباره مؤسس القصيدة الغنائية الرومانية.

وقدم العلم الروماني أيضا إنجازات هامة. كانت البذور قد انتقلت على يد اليونان الذين راحوا يزورون أكثر فأكثر العاصمة وقيمون فيها أحيانا. والفيلسوف اليوناني الكبير بانانيس (١٨٠-١١٠)، كاتب أهم بحث في "الواجب"، كان يعيش في كنف سيبيون إميليان، وتلميذه، العالم الشهير بوزدونيوس (١٣٥-٥٠)، فيلسوف، مؤرخ، جغرافي وفلكي، زار روما مرارا. وكان أستاذ بومبيه، شيشرون وفارون. ولفيف من أساتذة البيان، الفلاسفة،

الشعراء من درجة أقل كانوا مستقرين في روما، حيث يعلمون الشباب الرومان. م. ترانتيوس فارو (١١٦-٢٧) واحد من أكبر العلماء الرومان في أواخر أيام الجمهورية. جمهوري مقنع، كان يسمى الثلاثية الأولى "وحش بثلاثة رؤوس" ويشهر سلاحه بيده ضد قيصر. أكره على الانسحاب من الحياة العامة، أوقف ما بقي له من العمود في جمع وثائق حول الماضي الذي كان غالبا عليه. سوانف الشعب الروماني، أعلام الترجمة، وتسجيلات لمواقع معروفة، للعادات والتقاليد القديمة والدين القديم، أهم أعماله السبعين. وهو الذي حدد "تاريخ تأسيس روما" بين عامي ٧٥٤ و ٧٥٣ ق.م. في نهاية حياته ألف أيضا موسوعة، يعرض فيها أسس كل العلوم المعروفة حتى عهده. لم يصلنا منها للأسف سوى شطر صغير (الربع تقريبا دراسة اللغة اللاتينية وبحث في الزراعة).

شيشرون هو الآخر وضع بصمته في العلم بعدد من المؤلفات، حيث يبسط أفكار اليونان الفلسفية. يكتب بالمعية بشكل حوارى، ليخلق فكرته المجردة أكثر قبولا لدى القارئ. وألف أبحاثه "في الجمهورية" *les Tusealanes*<sup>١</sup>، في الواجبات، إلخ. منعت انتقائيته تبني إحدى النظريات الفلسفية. ورغم طابعها السطحي، مارست أعماله نفوذا واسعا في ارتقاء الأفكار الفلسفية في روما، خلال قرون. وشيشرون هو واضع علم المصطلحات الفلسفية الرومانية.

لكن ألمع ممثلي الفكر العلمي الروماني في النصف الأول من القرن الأول ق.م، هو الشاعر الكبير تيتوس لوكرتيوس كاروس (لوكريس) (٩٨-٥٥) كاتب أهم وأشهر قصيدة فلسفية "في الطبيعة". حياته مجهولة تقريبا، لكن يفترض أنه ينتمي للفرسان وأنه كان الأقرب إلى الحاكم ميموس الذي أوصى له بقصيدة، الذي نشره شيشرون بعد وفاة الكاتب. كان لوكروس واحدا من التلامذة النجيبين لنظرية أبيقور المادية. شعره، وهو في ثلاثة أجزاء، مؤلف من ٦ كتب. الاثنان الأولان يعرضان النظريات المستوحاة من نظريات ديموكريت وأبيقور، في الذرة والفراغ غير المحدود التي يراها مبادئ الكون الواقعي الوحيدة. ومن حركة هذه الذرات في الفضاء تولد كل الظواهر وكل حالات

<sup>١</sup> - من مدينة توسكلوم، حيث كتب شيشرون كتابا بهذا العنوان (٤٥ ق.م) - المترجم.

الطبيعية. ويعالج الجزء الثاني (الكتابان الثالث والرابع) طبيعة "النفس" التي، هي الأخرى، مادة كباقي أجزاء الجسم وتموت معه؛ ويدرس لوكريس في هذا الجزء مختلف ظاهرات الحياة الفيزيائية، التي تعود هي أيضا إلى مبدئها المادي. أخيرا، في الجزء الثالث (الكتابان الخامس والسادس) يعطي لوحة ضخمة لأصل العالم، ولادة الحضارة ووصفا لبعض ظاهرات الطبيعة المريبة أو المخيفة. ومن الشرط الحيواني، ارتقى الإنسان بجهوده الخاصة، ودون أي مساعدة من الآلهة، إلى الحياة الحضارية، رغم أنه مازال يعيش شر وخير عيوب المجتمع البشري، وبخاصة يعيش جشعا لحدود له، "النحاس مرذول والذهب ممجد" (البيت ١٢٧٥). ولوكريس، رائد أبيقور ومتبنيه، يقرظه بخاصة لأنه تجاوز إنسانية الخرافات القديمة، وصايا العصور المظلمة، الآراء الدينية المسبقة، خوفا من الموت، التي يعالجها الكهنة والأفكار الخائفة حول الحياة بعد القبر. الدين يلد الجرائم، والضحايا البشرية، ولهذا السبب هو شائن ومقزز في عيني لوكريس.

لكي يتناول نظريته أكبر عدد من الناس، عرضها شعرا، ليحلي عسل القصيد اللذيذ "الحقائق المجردة. إن عمل لوكريس، الشاهد على الصراع الاجتماعي الضاري الدائر في روما، مفعم بإلحاد مناضل، غريب عن روح نظرية أبيقور، التي تطالب "بطمأنينة النفس". لم يكن لوكريس وحيدا في نشر مفاهيم مادية. فقد كان قيصر أيضا (رغم أنه كبير الأحبار) غير غريب على الآراء الإلحادية والمادية. فمن المحتمل أن تكون تلك الحقبة عرفت الكلمة الشهيرة: "لن يستطيع عرافان أن يراقبا بعضيهما دون أن يسخرا".

فانطلاقة الحضارة، في السنين الأخيرة من عهد الجمهورية، حددها طيش الحركة الاجتماعية التي كانت تدعو إلى الحياة الثقافية للفئات العديدة جدا في المجتمع الروماني والإيطالي. وفي أيام إمارة أوغست، ساهمت العناصر الإيطالية المندمجة في المجتمع الروماني في إدخالها إلى "العصر الذهبي" لحضارتها. لكن "العصر الذهبي" هذا أوصلها إلى نقطة الأوج. وعندها هوت حياة الناس الاجتماعية، في عهد الدكتاتورية العسكرية، إلى جحيم البلادة، لم يبق للحياة الثقافية الرومانية سوى موضوع خدمة مصالح الفئات العليا، المنتصرة، والمساهمة بتنفيذ خططهم. التي أخذت ألقا مبهرًا خارجيا وهي تعيش انحدارها الداخلي.

لقد ارتدى أوغست أبهة لأنه كسى بالرخام مدينة وجدها أجرا" والمعابد العديدة



والصروح الأخرى، التي شيدت في عهد أوغست، كانت تقصد تمجيد الحكومة الجديدة وترسيخ جبروت روما العبودية، وكثير منها نسب إلى هذا الحدث أو ذلك من حياة الأمير نفسه. ولقد شيد معبد أوبولون الفخم، مثلا في ذكرى انتصار أكتيوم، الذي اعتبر هذا الإله مساهما فيه؛ ومعبد جوبيتر تونانت، في الكابيتول، لتذكير أن الصاعقة وفرت أوغست وقتلت عبدا أمامه. ويحمل بعض الصروح أسماء أعضاء من أسرته: رواق ليفيا، زوجة الأمير، وبازليك جوليا، ابنته، إلخ. وفورم أوغست الجديد، المبني بالرخام الثمين، يتميز ببذخه وروعته؛ ولم يكن مع ذلك مخصصا للشعب، بل للمحاكم ومؤسسات الدولة الأخرى. وفضلا عن حمامات الحمة الفخمة، بنى اغريبا، صديق أوغست، بانتيون، معبدا دائريا واسعا، وقفا على آلهة كل شعوب الامبراطورية الرومانية المجددة. شيدت كل هذه الصروح بالأسلوب الهليني، الفخم والمصطفى والذي يعطيها مشهرا متعاطفا، باردا ورسميا.

يمتاز النحت في ذلك الزمن بالأكاديمية ذاتها. وكانت الشوارع، الساحات العامة والمعابد المزدانة بأنصاب للأبطال الرومان، قد بدأت برومبس. وكانت تماثيل الأمير كثيرة جدا. أشهر نصب أوغست، هو الذي اكتشفت قرب بريما بورتا، والسذي يمثل له مدرعا، بوضعية جنرال منتصر، بينما يعرف الجميع انه لم يكن رجل حرب. وعلى شرف أوغست "المسالمة"، أقام مجلس الشيوخ "معبد السلام" الضخم، مزدانا بمقرنصات أثرية تقدم الامبراطور وأسرتة سائرين على رأس مجلس الشيوخ والشعب. على الآثار الفنية، كالقطع، الحجارة المنحوتة، إلخ، نرى أوغست جالسا بين الآلهة، يستلم وثائق خضوع المحميات. واقعية الفن الديموقراطي الروماني إلا في معالجة الثياب والديكور. الوجوه والسمات مؤدجلة *idealises*: الفنانون يفقدون مع الزمن، حربتهم، وعفويتهم الأخاذة: بل كانوا ملتزمين بالخضوع إلى القانون المفروض من فوق.

حرية التعبير، إبان إمارة أوغست، لم تعد مقبولة في باقي المجالات الثقافية. وتقلص فن الخطابة إلى تمارين عابثة بلاغية. وكان المؤرخون يتحملون مضايقات الرقابة. والقيصري أرنئوس بولليون، الذي لم يستحسن سياسة أوغست تجاه أنطوان، اضطر أن يترك عمله في تاريخ الحروب الأهلية ناقصا. والمؤرخ والخطيب كاسيس سפרس نفى إلى جزيرة كريت، لأنه انتقد بشكل لاذع أعمال أوغست وأتباعه. وأحرقت أعمال ت.لبنوي بأمر من مجلس الشيوخ، لأن مؤلفها من رواد الجمهورية. وتيت-لايف نفسه، لأنه قسّط

بومبييه وسماه أوغست "بومبي". في هذه الشروط، يأخذ التاريخ، مع تيت-لايف ونديس بن هلكرباس طابعا رسميا. إذ بدأ يشيد بدون حدود بأعمال روما العظيمة وينكر على المكشوف الحركات الشعبية وقادتها (قدم تيت-لايف، مثلا، كل قادة العوام في القرن الخامس والرابع، كصانعي اضطرابات وديماغوجيين).

فقط العلوم البعيدة عن السياسة، مثل الفلسفة والقضاء (القانون المدني)، استطاعت أن تتطور دون عوائق، في عهد إمارة أوغست. وشيوخ علم القواعد اللغوية جوليس هجنوس وفريس فلاكس (مؤلف القاموس) عاشوا في هذا العهد. وفي ذلك العصر تشكلت مدرستان متنازعتان في شؤون القضاء، هما مدرستا أنتستيروس لابيوس وأتيوس كيبيتو، اللتان انكبنا على تفسير ومنهجة الحق. وبدأت الشريحة المتميزة في المجتمع تتحمس وتنزع إلى الفلسفة. ولم يكن هذا الحماس وبالتالي الشهرة لنظرية لوكريس، بل إلى المدرسة الرواقية، الأكثر انسجاماً مع فكر النبلاء الرومان، فاقد جبروتهم السالف، لأنها كانت تعلم تلاميذها أن يسلكوا سلوكاً شخصياً يجعل أرواحهم خالدة، هادئة وغير مبالية بالظروف الخارجية.

النشاط الاجتماعي، الذي لا توظفه الحياة السياسية، تابع نموه في روابط أدبية عديدة التيارات. وصارت المطالعات العامة لأعمال رجال الأدب والمناقشة الأدبية هي الموضة أو الذارجة. وأسمعتنا المعارضة صوتها. وحفظت مثلاً قصيدة بعنوان "اللعنة"، التي ربما كان ناظمها فالريس كاتون، صديق كاتون، ينذر بعقوبات السماء الـ"محارب الملحد" الذي احتل له أرزاقه.

ولما وعت حكومة أوغست أهمية الأدب كقوة اجتماعية راحت تسعى إلى سيادتها أيضاً. فتشكلت روابط أدبية شبه رسمية، حول شخصيات من حاشية النظام تمتلك فيما تمتلك مصادر هامة لتأمين الحياة المادية لمؤلفين كبار تشدهم إليها. هكذا ولد منتدى ش. سلفنيوس ماسناس، محافظ روما. وجمع ميسن حوله أشهر شعراء العصر، مثل فرجيل، هوراس، وبوربرس. ونشبت بينهم وبين شعراء المعارضة مجادلة حامية، وبفعل حمايتهم الأعلين، نجح الأولون أخيراً بإبعاد خصومهم.

أهم شاعر في عهد أوغست هو ب. فرجليوس مارو (٧٠-١٩)، الذي مارس تأثيراً واسعاً ليس فقط على الأدب الروماني بل على الآداب العالمية. ولد فرجيل في ضواحي مانتو، حيث كان يملك عقارا صغيرا. ورغم أنه تلقى تربية ألق، حافظ طيلة حياته على

شيء من "الريف"، في مظهره الخارجي، كما في عواطفه ومصالحه. وفي أعماله الأولى، "العرويات"، غنى سحر الريف، مقلداً غزلية تيوكريت المرفهة. وفي أيام الإبعاد، خسر فرجيل حقله، والمسعاي التي بذلها لاستعادة حقوقه قربته من بعض الأعضاء المتنفذين في حزب القيصر. وفي بداية الثلاثينات صار صديقاً لرابطة ميسين وبعد سنوات، بناء على طلب ميسين وربما أوكتاف نفسه القلق من انحدار الزراعة الإيطالية، كتب. "زراعياته". إنها قصيدة زراعية في تناول العامة، أوقفت كتبها الأربعة الأولى على الزرع والضرع، زراعة الكرمة، وتربية الطيور والنحل. ونما المشروع وغزرت خيراتاه في طبيعة زراعية. لكن في هذا العمل، واضح نفوذ حماء الشاعر. وفي مقدمة الكتاب الأول، اهتم فرجيل بإعلان أن قيصر أوكتاف عبادة جديدة تألفت بسرعة في السماء كنجم ساطع. وبالتالي أظهر رغبته في تشييد معبد من مرمر ليوضع فيه نصب للإله الجديد.

كان الطلب الثاني من فرجيل هو نظم القصيدة الملحمة *Eneide*، التي كتبت لتمجيد

ماضي روما والجد الأسطوري لأوغست، تروايان إيني *Troyen Enee*. في ١٢ نشيداً من إينيد، يقص فرجيل استناداً إلى التقاليد القديمة وتخيلاته الشخصية، كيف وصل إيني بعد تطواف طويل إلى ضفاف لاتيوم مع ولده إيول *Iule* وجمهرة من المحاربين التروايين، وهو جد أسرة الملوك اللاتان، ومنهم روملس وريموس، مؤسسو روما، معتبرون من نفس الأرومة، وفي "نبوءات" يدخل فرجيل الفصول الماجدة من تاريخ روما الحديث، وأحداثاً تخص أوغست وأسرته. لا ينسجم الموضوع كثيراً مع الموهبة المسالمة والدمثة للشاعر، غير القدرة على تصور التقوى والورع، والمآثر البطولية، والحروب والمعارك. فضلاً عن استمرار تملق وإطراء أوغست وأقاربه بدون حدود وبشكل محقق. يقال إن فرجيل، بعد عمل ١١ سنة في هذه الملحمة، ولم يتمها، أراد، قبل أن يموت، حرق هذا العمل الذي يعتبره شائناً. نشرت إينيد بأمر من أوغست، درست، وكان لها الكأس المعلى في القرن الوسيط والأزمنة الحديثة. لكن العلم المعاصر يرى أن الشاعر الكبير كان قادراً على إعطاء عمل أوفى وأروع لو لم يلزم بمعارضة عبقريته. وقد سمي بلنسكى الناقد الروسي المعروف فرجيل "هوميرس الكابي".<sup>١</sup>

<sup>١</sup> - ف. بلنسكي، أعمال مختارة، منشورات ياسية، ١٩٤٨، مجلد ٢، ص ٥١١ (منشورات روسية).

بعد موت فرجيل، خلفه كوينتي هورايوس فلاكوس (٦٥-٨)، كبير مغني روما، أميرا للشعراء. كان أبوه، المعتق، قد أعدّه للأعمال الإدارية، وبعثه ليتم تربيته في أثينا. ولقد فوجيء هوراس فيها بالحرب الأهلية ٤٤-٤٣ وخدم في جيش بروتس وكاسيس. ولما عاد إلى روما بعد العفو الشامل للعام ٤٠، وجد وظيفة ناسخ لدى وزير المال، لأن جنود الثلاثية احتلوا بستان أبيه، و"الفقر الجريء"، حسب تعبيره هو، جعله يهتم بالشعر. وفي أعماله الأولى، الإيبود<sup>١</sup> والهجاء، نحس آثار مثالياته القديمة للجمهورية.

قد خولت محاولات هوراس الأولى الارتباط بفرجيل الذي ضمه إلى رابطة ميسين. وفي الأيام الأولى، مع ذلك، استقبل هذا الأخير ببرودة الشاعر المنشق عن المعارضة. لكنهما شيئا فشيئا عقدا صداقة؛ وتلقى هوراس هدية من ميسين حقلا معطاء، وهكذا انضوى في وسط سادة روما الجدد. وطرح عليه أوكتاف أن يصير أمين سره الخاص. وفي أناشيده، يدعو هوراس إلى التمتع بالحياة، وكتب أشعارا في الغزل؛ ناسيا ولعه بالجمهورية، فرح بنصر أكتيوم وابتهل أن يعود "قيصر" سالما معافى من هذه الحملة. وفي العام ١٧ قرظ هوراس، بناء على طلب أوغست ومدحه "تشيده الدهري"، وفي كتابه الرابع من الأناشيد، يطنب ويختال بمآثر أبناء أوغست المختارين، تيبير ودروسس. وفي آخر سنة من عمره، كتب هوراس رسائل شعرية إهداء لأوغست، بيزون وأصدقائه الآخرين، في موضوعات في الحياة العادية، أو بالأصح فلسفية وأدبية. وفيما يخص الشكل، كانت أناشيد هوراس، قمة القصيدة الغنائية الرومانية، لكننا لانلقى فيها نبرة الحرية الفخور؛ ولا هذه الأفكار المتقدمة التي كانت تخصب أعمال الشاعر في عهد الجمهورية. إن كارل ماركس يرى هوراس شاعرا "فرحا جدا"، رغم نزقه، لكنه يلومه لـ "زحفه أمام أوغست".

أما مصير الشاعر الثالث الكبير في أيام أوغست، ب. أوفديس نازو (٤٣ ق.م. - ١٨ م). كان مأساويا بشكل فريد. هو ابن فارس ثري من سولنوم، في بلاد البلنيان، خضع لنفوذ وبيل من عليّة المجتمع الروماني المنهارة، التي، تخلت عن الحياة العامة وعن شؤون الدولة، راحت تبذر وتسرف بالإنفاق، وكان أوفيد شاعر الحب الطائش المبتذل. في العشرين من عمره، نشر بعنوان "فخريات" مجموعة من الرسائل المفترض أن ثلاث

<sup>١</sup> - قصيدة من أبيات متعاقبة قصيرة وطويلة.

بطلات أسطوريات كتبها لعشاقهن، هن: بريزديس، ديدونيا وميديا. وصاروا فيما بعد أحبابهن، حيث نشر بصدق فريد حبهم لكورين. لكن ظهور "فنه الغرامي" أثار فضيحة مجلة في أروقة القصر والحاشية: ففي هذا الشعر الماجن، المحاكي بسخرية الأعمال التعليمية، يعلم الرجال والنساء مختلف أساليب الافتتان والتعلق بالحبيب. وفي العام ٨م، نفي أوفيد إلى مدينة تومس النائبة، على الضفاف الغربية، الموحشة يومئذ، للبحر الأسود. وهنا كتب أوفيد "المراثي" والـ<sup>١</sup> Ponttiques، فيها يتلمس عفو أوغست. في هذه الأعمال يفيض الصدق والوصف الريفى المحزن المتأني عن شظف حياة الشاعر المبعد.

. وبوشكين، الذي قدم أوفيد في المنفى بطريقة مؤثرة في قصائده "الخجريات"، رأى بحق أن هذه المراثي البوننتية تتقدم كل أعمال الشاعر الأخرى. ولقد ترك لنا أوفيد عمليتين هامتين آخرين، التقاويم (وصف شاعري للطقوس والتقاليد المتعلقة بالروزمة الرومانية)، والـ"تحولات"، حيث يتحدث عن أناس تحولوا إلى حيوانات أو نباتات بإرادة الآلهة، غالباً في أثناء مغامرات غرامية.

لقد أفاد شعراء مشهورون آخرون، معاصرون لأوفيد، مثل تيبول وبروبري، وحتى الشعراء، مثل سوليسيا، أفادوا لدى دراستهم هذا النوع من الشعر الغزلي، الفضائحي، حيث يضيع الإنسان في شقوق الحياة الخاصة والمشاعر الشخصية.

---

<sup>١</sup> - قصائد كتبها أوفيد في مملكة البونت القديمة المعروفة بمقاومتها للغزو الروماني.

## الفصل الستون

# توطيد النظام الملكي. أسرة جوليو-كلوديين الخلفاء المباشرون لأوغست ونضالهم ضد المخلفات الجمهورية. تيببر (١٤-٣٧)

لدى موت أوغست أعيد طرح قضية الملكية، التي لم تتمكن بعد في روما، لأن مبدأ الوراثة، وهو هنا المحول الأساسي، لم يكن قد حسم بعد. فمن حيث الأخلاق والتقاليد الجمهورية في روما، كان هذا جديدا تماما، لا بل يبدو غريبا كليا، غير شرعي، أخرق. لذا اصطدم أول خليفة لأوغست، ابنه المفضل تيببر، منذ بداية أمارته بعداء وحتى بمعارضة حاسمة، في الجيش وبين أهم أسر المجتمع العبودي، الممثلة، في مجلس الشيوخ، الأمر الذي كان السبب الهام في الفصول الدرامية التي تكاثفت في عهد ملكه الذي دام ثلاثا وعشرين سنة (١٤-٣٧). (اقرأ تاسيت، حوليات، ١، ١-٦؛ سوتيون، تيببر؛ ديون كاسيس؛ ١، ٥٧-٥٨).

الدى مجيء أمير جديد إلى السلطة، شب تمرد في أضخم جيشين، بنونيا والرين. عامل الجنود الضباط غير الشعبيين معاملة سيئة، وطلبوا في اجتماعاتهم تقليص مدة الخدمة إلى ١٦ سنة، وقضية الحكم، والراتب الذي يتقاضاه هؤلاء الأخيرون وطلبات أخرى من هذا النوع. لكن الأساسي، كما يلاحظ سوتيون، هو رفض الجيش الجرمانى الاعتراف بأمير لم ينتخبه، وضغطه العنيف على جرمنكوس الذي كان يقوده ليحتل العرش؛ لكنه رد بحزم. (تيببر، ٢٥). وهكذا كشفت تمردات الجند "سر الامبراطورية" الأكبر (تاسيت)، أي أن الجند كانوا في هذا الأمر هم السادة الحقيقيين، وموجهي قدرهم، بل الذين يقررون بخاصة قضية من هو سيدهم. اضطر تيببر أن يرسل إلى بانونيا دروسس، ابنه، الذي نجح بمختلف الامتيازات أن يهديء ويخضع الجمهرة الهائجة من الجنود. لكن هذا لم يحل دون

ذبح القادة الأنشط والأكفأ سرا. وعلى الرين أيضاً، بفعل التدابير الحاسمة وبعض الامتيازات أيضاً، هذا الوضع جرمالكوس الذي، بمخاطرة شخصية، حافظ حتى النهاية على وضع مشروع بالنسبة لتيبر، خاله (انظر تاسيت، حوليات، ٣٣-٥٢).

لكن مجلس الشيوخ سبب لتيبر موضوعات حادة تنذر بالخطر. خارجياً، نشر أعضاء مجلس الشيوخ شائعات مبالغ فيها ومفادها "أن تيبر نفسه، حسب قول تاسيس، كان لا يستسيغ هذا الزحف الخادع أمامه"، وأنه اعتاد لدى خروجه من مجلس المشيخة أن يدلي بهذه الأقوال المليئة احتقاراً: "الله، كم هيء هؤلاء الناس للذل والمهانة!" (حوليات، ٣، ٦٥). وأمام عدم رضاه عن منحه لقب "أب الوطن"، اقترح مجلس الشيوخ أن يسمى شهر أبلول "تيبريس" تمجيداً للأمير، وشهر تشرين أول "ليفوس"، تمجيداً لوالدته، الأمر الذي رفضه تيبر بحزم. لكن هؤلاء الشيوخ أنفسهم كانوا يغتابون الأمير ويفترون عليه، وينشرون شائعات تحريضية، ويدبجون أهاجي لاذعة بل سامة. تفاقمتم الأمور وحيكمت مؤامرات خطيرة في أوساط مجلس الشيوخ: وتعاطف لفيث واسع من نبلاء الدم حتى مع دجال ماکر، العبد كلمنتوس، الذي روج أنه حفيد أوغست.

كان تيبر يعيش وضعاً خطراً جداً، يشعره بإنداز مستمر، لاسيما أنه كان ذا طبع قاتم، غير اجتماعي ومرتاب أو اتهامي. بداية حاول أن يرى الجميع احترامه للسلطات والمؤسسات الاجتماعية. وصرح أنه خادم مجلس الشيوخ وكل المواطنين، ينهض لدى استقبال القناصل، ويقبل حرية النقاش. بل منع أحداً يناديه بلقب "سيد": فهو سيد العبيد فقط، كما يقول، وكان امبراطور الجنود، وأمام مجلس الشيوخ والشعب فهو أمير فقط.

لكن هذا السلوك لم يعد له شعبيته. ورأى مجلس الشيوخ في هذا العمل جبناً وخداعاً، بل مكرّاً يكشف الحاقدين. كان يخشى القيام بأي مبادرة، بل راح يعتاد أكثر فأكثر تسليم الشؤون الهامة إلى مجلسه الخاص، المكوّن بقسمه الأكبر من رجال لا يشغلون أي وظيفة عامة، إنما اختارهم لجدارتهم وحكمتهم. وفي الوقت ذاته، كان يغذي في المدينة كرهاً ضد العوام، الذين كانوا يتململون من إلغاء توزيع القمح وإقامة المهرجانات، وأيضاً ضد رفع أو زيادة الضرائب، التدابير التي اتخذها تيبر مضطراً، بسبب عجز الميزانية. وقد أفضى به هذا الوضع إلى إلغاء كلياً التجمعات الشعبية وأعاد كل الوظائف الانتخابية إلى مجلس الشيوخ. وقد تسارع أيضاً ابتعاد الأمير عن مواطني ونبلاء العاصمة. بعد موت جرمانيوس

الشعبي جدا في روما، وقد حدث الموت في العام ١٩: وقيل إنه مات مسموما على يد بيزون ، حاكم سوريا من ذوي تيبير. ومنذ تحول تيبير، متخليا أكثر فأكثر عن دمايته، في بداية ملكه، إلى طاغية شرس وغريب الأطوار. ليكرهوني، عوض أن يحترموني" (سويتون، تيبير، ٥٩)، كان هذا مبدأه الذي أسند إليه نظاما إرهابيا فعليا. ودعيت الكتائب الحكومية التسع، وهي حاميات في مدن إيطالية عديدة، إلى روما، وتحشدوا في معسكر منيع قائم على أبواب العاصمة (في العام ٢٣م)، وراحوا يهددون السكان المدنيين، وصار قائدهم، محافظ الحاكمية، الشخصية الثانية في الدولة، بعد الأمير.

هذا هو الدور الذي لعبه، من العام ١٧-٣١، ل.إيليس سيجن، الفارس البسيط، الذي عرفه كيف يكسب الثقة غير المحددة لتيبير. فقد صار يد الأمير الضاربة، وروما كلها ترتعش تركع أمامه. ويبعث القانون الجمهوري السالف الذي يعاقب على كل إهانة تلحق بعظمة الشعب الروماني"، كان سيجن أحد أولئك الذين خنقوا بالحديد والنار آخر آثار الحرية الجمهورية. اعتقل الناس ، عذبهم وأعدم بعضهم لاتهامات عابثة أو وشايات كاذبة ومغرضة.

كان تيبير يعيش خوفا دائما، فترك المدينة نهبا للذعر والضيق. وفي العام ٢٦، سافر بداية إلى كامبانيا، ثم استقر نهائيا في جزيرة كابري الرائعة، التي يحميها شاطئها الصخري الشاقولي. "بنى فيها ١٢ قصرا، بأسماء وأشكال معمارية مختلفة؛ كان منهمكا كليا بشؤون تستهلك كل وقته، لكنه بعدئذ، استسلم للبطالة المقيتة" (ناسيت، حوليات، ٤، ٦٧). وفي هذا الوقت استدعى تيبير الناس الذين كان قد اتهمهم وعرضهم للموت تحت العذاب الرهيب. وفي العام ٣١، نزلت عقوبة ظالمة بالجبار سيجون، الذي ارتاب تيبير لرغبته في احتلال السلطة العليا. وبحذر دائم، قدم سيجن القيادي الكبير في الحاكمية، للمحاكمة وأدانته مجلس الشيوخ، الذي كان يمدحه حتى الأمس القريب، ثم نفذ الحكم بوحشية، به وبأسرته دون رافة بطفل أو مرافق أو امرأة.

أخيرا، في العام ٣٧، صرعه مقربوه ومخطيؤه والمحافظ الجديد ماكرون، روح المؤامرة، بخنقه تحت وسائده، بينما كان في دور النفاذه من مرض خطر. لكن الغضب لم يطل إلا شخص الأمير وليس الأمارة. فقد اعتاد الناس هذا النهج حتى أن الذين كانوا غاضبين من الملك ما عادوا يفكرون إلا باحلال شخص محله. أما الأمارة فقد أخذت طابعا



عاهليا مكشوفاً، بفعل استبدادية تيبير، بتجميد الاجتماعات الشعبية، والمركزية والبيروقراطية المتنامية، وسوى ذلك. فالنظام الذي رسخه تيبير لم يكن يخص إلا أوساطا محدودة من طواغيت الحاشية، النبلاء، وجزء فقط من سكان العاصمة. أما المحميات، التي كانت تشكل أساس الإمبراطورية الرومانية، ارتاحت من المعاناة، وعرفت إدارة خيرا من السالفة. كان مبدأ تيبير يقول إن "الراعي الجيد هو من يجب أن يجز أنعامه وليس اللحم" (سويتون، تيبير، ٣٢). ولقد وطد نهج إدارة المحميات بواسطة السفراء والجباة الذين يعينهم الأمير ويخصهم لمراقبة اللجان الإمبريالية الحاسمة. كان بيدل على عجل الحكام الفاسدين ويترك الجيدين في مقاماتهم مددا طويلة. غير أن التفكك السريع للمجتمع البدائي واتساع النهج العبودي في المحميات الغربية أثارا أحيانا انفجارات عنيفة من الغضب الشعبي. ففي نوميديا، اضطر الرومان أن يحاربوا ثماني سنوات كاملة ضد الموريين *les Maures*، والشعوب الأخرى الأصيلة، المنتفضة بقيادة نوميد تكفرناس (١٧-٢٤). وفي الغول، ففي العام ٢٤، دعا جوليس فلورس وجوليس سكروفير، التزيفير والأديين إلى التمرد. وصف تاسيت في (الحوليات، ٣، ٤٢) المتمردين "بجماعة بؤساء دمرتهم الديون"، العزل سوى من سلاح الصيد، فقمعوا بسهولة. لكن نبلاء المحميات كانوا إجمالا راضين عن نظام تيبير. كانوا يرسلون وفودا إلى الإمبراطور تحمل له آيات التعظيم الكبير، يقيمون لهم الأنصاف التي تحمل مدائحهم، ليس بالإطراء البحث والاستجداء، بل خوفا من الحركات الشعبية.

أما سياسته الخارجية، السلمية والحازمة، خلقت الإحساس بسلم دائم، ففي مصلحة النشاطات الاقتصادية، وساهمت كثيرا، أيضا، بشعبية تيبير في المحميات. خمدت نار الحروب، بخاصة مع الجرمان، والنزاعات مع الجيران (أرمينيا، البارث، إلخ). سويت بالطريق الدبلوماسي. وكمكنا أن نعتبر أن العلاقات بين المحميات وروما، تحولت، انطلاقا من تيبير، إلى وشيجة أكثر عضوية، على المستوى الداخلي، وصارت الإمبراطورية الرومانية وحدة سياسية أكثر انسجاما والتزاما.

**كانغولا (٣٧-٤١) وكلود (٤١-٥٤).**

إلى أي مدى تطورت الأفكار والعادات الملكية في روما، في عهد تيبير، وفي الوقت ذاته كم حمل توطيد النظام الجديد من معاناة المجتمع، نقرأ هذا لدى خليفتي تيبير المباشرين. كانت روما قد استقبلت خبر موت هذا الأخير باستبشار وحبور. أراد الشعب

حرمائه من الضريح ورمى جثته في نهر التير. تلقى بكل مظاهر الحماس، ابن جرمكس، كايوس، شابا في الثالثة والعشرين ربيعا، الذي تلقى لقب قيصر، الذي ربطه تير بشخصه في أواخر عهده، كواحدة من نزواته. دخلت الجماهير مجلس الشيوخ وأكرهوه على تسمية الشاب كايوس أميرا قيصرا. وقدموا الضحايا كل يوم ابتهاالا لصحته وازدهاره، وسموه "شمسا". ولقبه الجنود كالغولا (من *caliga* - المداس العسكري)، إشارة إلى أنه، وقد ولد في المعسكر، فهو قريب من الجنود. لا يفكر بإعادة الجمهورية.

وأكد كالغولا، بتوجيه من مشنثاريه المحنكين، ادهم مآكرون، سلطته وشعبيته بمهارته، في بداية إمارته. أعلن عفوا عاما، وصرح أن ليس ثمة "أذان تستمع للشوشة، وأسرف بتوزيع القمح والاحتفالات، وقدم كل الاحترام لمجلس الشيوخ؛ وأعاد نشر الكتيبات عارضا وضع الدولة وقام بمحاولة لبعث التجمعات الشعبية. وأثبت أيضا بالغ اهتمامه بحاجات المحميات.

لكن كالغولا، المحروم من الخبرة والاتزان (يعتبره البعض مجنونا)، لم يتخلف عن تعظيم نجاحاته الأولى، المحققة بسرعة وسهولة. لم يعتبر أوكتاف أوغست مثالا يقتدى، بل سلفه الأجرأ الدكتاتور يوليس قيصر، وبخاصة التلميذ المخلص لهذا الأخير، مارك-أنطون. ومثل قيصر وأنطون، كان مثاله السياسي الملكية المطلقة من النموذج الهليني، بشكلا الأمثل: فراعنة مصر. أحاط كالغولا نفسه بلفيف من القيصريين والأنطونييين الحازمين، الذين لم يرتدوا قناعا جمهوريا مثل أوغست وذبذباته المحترسة، وأرادوا أيضا سياسة خارجية أكثر فاعلية وإضاءة، وبخاصة في الشرق. وقد فكر كالغولا نقل العاصمة إلى الإسكندرية.

لم يتأخر هذا التمصير عن الظهور، لدى كالغولا، بالشكل الأكثر إثارة. فعبادة إيزيس، المحرمة في عهد تير، عادت. وعلى متن باخرة جبارة عمرت لهذه الغاية، أتت من مصر المسلة الهائلة، القائمة أبدا أمام كاتدرائية القديس بطرس في روما. وعلى نمط فراعنة مصر، قرر كالغولا تزويج أخته بروزيللا، ولما ماتت هذه الأخيرة فجأة، قرر تأليها باسم بانتيه (الإلهة الشاملة). وكقيصر، رفع إلى مصاف الآلهة. ارتدى أمام الناس ثوب جوبتير واحتفى بعثون ذهبي وحمل الصاعقة. وحافظ على قصر فخم، على الطريقة الشرقية، وملاهيها الباذخة. كان هذا يتطلب مبالغ طائلة، أمنتها حكومة كالغولا، بلا حشمة، بمصادرة بلا رحمة كل ما هنالك، بما فيها اغتصاب أموال الأغنياء.

دمرت هذه السبل بسرعة شعبيته العريضة وكل مظهر خارجي. وقد لجأ كالغولا ورواده، هم أيضا، إلى تدابير القمع الكاوية لخنق تملل وغضب العاصمة. وأعيد إلى العمل قانون قذح بالذات الملكية. جلب بعض الضباط المشتبه بهم إلى القضاء أو الذين فقدوا الحظوة وفقدوا معها الحياة. ودارت ساعة تقول: إن الامبراطور المعتوه قرر إعدام كل جنود الجحفل الجرمانى الذين اشتركوا، قبل ٥٢ عاما، بالتمرد الذى قمعه والده جرمنكس.

تمادى كالغولا كثيرا. وفي ٦ كانون ثانى ٤١ ب.م، بعد أربع سنوات من الحكم، قتله ضباط حرسه، الذين انقضوا عليه، في أحد أروقة القصر المعتمة. كان الرأي العام قد عبيء ضده، حتى قتلوا زوجته وابنته وهي في سنتها الأولى.

مع ذلك، رغم نهائيتين دمويتين لمحاولتين هامتين لإدخال العاهلية الإغريقية إلى روما، كانت مخلفات التقاليد الجمهورية ضعيفة جدا في روما عند موت كالغولا، ومنذئذ يجب النظر إلى "الإمارة" كمرحلة أقل نجمها نهائيا واتجه الوضع إلى المذهب الامبريالى المطلق. ولم يكن الصراع يتجه نحو توسيع السلطة، بل نحو أشكال الميراث، ومعرفة من هو الإمبراطور الجديد ومن سيسميه.

على الأرجح، أقيمت في مجلس الشيوخ الملتئم بعد موت كالغولا خطبة ملتهبة ضد "الاستبداد". اقترح بعض الخطباء هدم كل المعابد المكرسة لقيصر وأوغست، والعودة إلى المؤسسة الجمهورية. كان أغلبهم يميل إلى الحفاظ على الإمارة، بشرط أن يتولاها شخص خليف بها. لكن عجز مجلس الشيوخ عجزا تاما لم يتأخر الكشف عن نفسه: ".. في الغد، تحرك مجلس الشيوخ، العامر بالانقسامات ومختلف الآراء، بلا حزم ولا حسم. طلب النلس المحيطون به بصوت عال سيدا واحدا وسموا كلود" (سويتون، كلود).

كان مرشح "الشعب" آخر ذرية بيت جوليان، الأخ الأصغر لجرمنكس وعم كاليغولا؛ اكتشفه رجال الحكم، قتلة هذا الأخير، بينما كان مختبئا مروعا في واحدة من زوايا القصر المهمل، اقتاده الجنود عنوة إلى معسكرهم وأعلنوه امبراطورا رغما عنه. اخذا بعين الاعتبار أوضاع الشعب والجنود، سلم مجلس الشيوخ بطواعية الأمير الجديد كل السلطات الامبراطورية. وهكذا رغم إرادته، وعملا بمبدأ الوراثة العائلي، صار كلود سيد الإمبراطورية الرومانية، بصفته حفيد أوغست.

حسب رأي كباردارسي ذلك العهد، كان كلود أقل الناس جدارة بهذا المنصب. فقد عرف بطبعه الغريب وتواضع عقله؛ فحتى وصوله إلى كرسي العرش، في الرابعة والخمسين من عمره، كان يعيش حياة بسيطة وبالغة الاعتزال، غير مبال بسوى بدراسة التاريخ (كان تيت-لايف معلمه لبعض الوقت).

لكن عهده الذي دام ثلاثة عشر عاما، لم يكن العهد الذي أفضى إلى توطيد النظام العالمي. كان كلود يهتم كثيرا بالقضاء، مبديا أحيانا في هذا المجال "طبعاً كلي التقلب" (سويتون، كلود، ١٥). وكان تموين روما أهم اهتماماته، فأسرف في تمييز التجار الذين زودوا العاصمة بأسباب غذائها؛ وتم إنشاء مرفأ جديد في أوستي، عند مصب التيبر. وشيد خزان ضخّم لجر المياه إلى روما؛ كانت أقواسه ذات الثلاثة طوابق تدهش بضخامتها زوار الريف الروماني، وخلال ١١ عاما حفروا قناة لإخلاء بحيرة فوسن التي سمحت ببرد المستنقعات وري وحرث آلاف الهكتارات.

في الشؤون الإدارية العامة، العسكرية والمالية، التي لايفقها كلود أبداً، فسلمها كلها إلى رجال أكفاء، اختيروا بالأفضلية من بين عبيده الأرفع معرفة وثقافة ومن أعتق اليونان والسوريين. وأوكل إليهم مختلف فروع الإدارة، دون أن ينبهر بعلامات السخريّة التي يضعها البعض حول هذا الموضوع، قائلين: "كان الأمير صنيعة عبيده". لقد رمى هؤلاء المعنّقين، وهم بدون أصل ولاوطن لهم، لم ينسوا أبداً أن يكسوا من غنائمهم ثروات ضخمة، رموا بالتدريج مجلس الشيوخ وكل الحكام السابقين إلى الصف الخلفي، وفي هذا العهد وضعوا أسس نهج المركزية الإدارية للحكومة الامبريالية.

ينهل هذا النهج أصله من ولاية أرزاق الأمير الخاصة. لكن الولاية الإمبراطورية بتدمير أمور الثروة الخاصة والدولة، قدرت بسهولة أن تتحول إلى مستشارية حكومية فعلية بمختلف فروعها وخدماتها في المؤسسات الإدارية.

وكان مكتب المحاسبة قد صار وزارة فعلية، وزيرها بالاس؛ يوناني ماهر وموسوعي المعرفة. وكان رئيس مكتب المراسلات سكرتير كلود الشخصي، الذكي والمحنك المعثق نرسيس: كان هذا المكتب مسؤولاً عن وزارة الداخلية والخارجية والدفاع، الأمر الذي جعل من نرسيس الرجل الأبعد نفوذاً في الإمبراطورية، وهو الذي يحدد سياستها الداخلية والخارجية. وكان العالم اليوناني بوليبيدير "مكتب الدراسات، وكالسييت يدير مكتب

الغزوا، المتعلقين بالمحكمة العليا، المكلفة بالنظر في الشؤون ذات الأهمية الاستثنائية ومحكمة النقض. ونذكر أيضا مكتب المنشورات الهجائية" الموجهة إلى الإمبراطور، الذي يشكل، إن صح القول، مستشارية شخصية للأمير. وكان لكل من هذه الخدمات جهاز من كل المراتب، والمعارف، وغيرها، من الرئيس حتى آخر مستخدم، مجندين من المعتقـين وينطبق هذا على عبيد الإمبراطور.

كان من الطبيعي تماما أن يضع هؤلاء الرجال الجدد السياسة الرومانية فـي دروب جديدة. ولقد وزعوا بسعة حق المواطنة، الذي سرعان مامنح لشعوب ومدن بدون تمييز. كان المحميون الأولون الذين اضطر النبلاء لقبولهم في بلدانهم هم الأدوبيين، الغولوا، ممثلي المحمية التي يشملها كلود برعاية خاصة (ولقد اطلعنا على خطابه في مجلس الشيوخ بهذه المناسبة عن طريق منحوتة محفوظة في ليون). ولتسوية الأمر المشيخي، عززت حكومة كلود تقدم الفرسان وفتحت أمامهم المهمة العسكرية على مداها الأوسع: إذ شغلوا منذئذ كل الملاكات المتوسطة في الجيش-أخذ منهم قادة الكتائب المساعدة وكواكب الخيالة، وحكام الوحدات. وهكذا بدأ تطور التسوية العامة لشعبيته الإمبراطورية: اقتراب أبناء المحميات من الرومان، واختفاء عوائق تحسين شروط الحياة داخل المجتمع.

في عهد كلود، دخلت السياسة الخارجية الرومانية في حقبة من النشاط العارم. وتوسعت الامبراطورية كثيرا. وفي العام ٤٣، شرع جيش جرار (حوالي ٥٠ ألف رجل) بقيادة جنرال محنك، أولوس بلوتيسوس، فتح بريطانيا، محاولة كررت مرتين على يد يوليوس قيصر. وأبحر الرومان إلى مصب التاميز، ومن هنا انتشروا في الشطر الجنوبي من الجزيرة. دارت هنا معركة طاحنة، بحضور الإمبراطور، قرب كملودنوم (كولشستر)، المنطقة الخاصة بالبريطانيين. وبعد انتصارهم، جعلها الرومان مركز تحشدهم العسكري وعاصمة محمية بريطانيا الجديدة. وصارت لندن أيضا مدينة رومانية ضخمة (اقرأ في موضوع فتح بريطانيا: سوتيون، كلود، ١٧؛ تاسيت، حوليات، ١١، ٣١-٤٠؛ ديون كاسيس، ١، ١٩-٢٢).

وحقق الرومان نجاحا مؤزرا على الدانوب والبوننت. وسيطرت الجيوش الرومانية، بقوة وهي تتقدم في بانونيا، على مجرى الدانوب الأوسط كله، أي المسافة التي شكلت سلسلة من المواقع المنيعـة ومخيمات القوات، -لوريكوم، فندوبونا (فيينا)، كارننتوم -موقع

حصين جدا حيث تتحشد حامية كاملة)، وغيرها. وعلى أسفل الدانوب، أٌبُذت مملكة ثراسيا في العام ٤٦، وتقلص جنوب البلقان إلى محمية، يحكمها والي روماني. واجتمعت كل الأراضي الواقعة على مصبات الدانوب (دوبروشيا) في ميزيا *Mesie*. وصارت هذه المحمية الأخيرة حصن روما عند مفرق طرق غزوات شعوب شرق الدانوب (دانشيا، جيت، بسترن، سرمات، غيرها). وأقيمت تحصينات منيعة أيضا على مجرى الدانوب الأسفل سنجدونم (بلغراد)، أوكس، نوفي، وغيرها.

وصلت روما أخيرا إلى ضفاف البحر الأسود القصية. وفي العام ٤٦م، خلع جيش روماني غازي كبير، بقيادة ديديس غالوس، واصلا إلى بانتكاييه طبعاً عن طريق البحر، خلع وأسر وأرسل إلى روما ملك البوسفور مثريدات الثالث، عدو الرومان اللدود. وتزوج هؤلاء الأخيرون أحد أنصارهم، كوتس، الذي دعا في رقيماته إمبراطور روما "المحسن إليه" ودفع تزلفه حتى سمى تيبيريوس يوليس كوتيس، وكأنه أحد أتباعه. وتلفت البوسفور حامية رومانية، لتعاقب على خضوع هذه المملكة.

في ذات الحقبة، نصب الرومان على عرش أرمينيا أحد أتباعهم، الأمير مثريدات الإبيرزي، وتمركز في هذا البلد فوج روماني للمراقبة قرب إيريفان. وعادت يهودا *Judee* من جديد محمية رومانية. وأخذوا من مورتانيا محميتين أخريتين. وهكذا عرفت روما عهداً توسعياً جديداً قادها بعيداً عن حدود عالم البحر الأبيض المتوسط.

لم تكف فضائح مججلة وألغاز أرستقراطية تقض مضاجع القصر، طيلة حكم كلود. فالمشايخ والنبلاء، غير الفرحين يهمسون ضد الإمبراطور ومعاونيه كانوا يحكون أحياناً المؤامرات. ففي العام ٤٢، مثلاً، حاول سفير دلماسيا، فوريس كميليس سكرابونيانس، تحريض محميته على التمرد، لكن بعد أيام قتله جنده، لأن "إحياء الجمهورية"، وهو هدفه الأول، لم يثر أي صدى عاطفي أو حماسي في الجيش.

كما سبب سلوك زوجات كلود المتواليات -بداية فالاريا ميسالينا، التي اشتهرت بعيوبها، ثم بعد إعدامها (في العام ٤٩)، أُنْتُ المتعجرفة الجشعة الشابة *la Jeune* أغريبين، ابنة جرمكس، أحداثاً فضائحية، وعقوبات دامية. دعم باللاس، المعتق اليوناني الذي يدير الأموال، بعد أن سيطر كلياً على الضعيف كلود، دعم أغريبين كثيراً فتمادت ولقبت "أوغستا". وبعد أن وضعت على رأس الحرس الامبراطوري أحد تابعيها، أفرانيس

بورس، أهلك عددًا كبيرًا من خصومها ومنافسيها، وأجبرت كلود على تبني ابنها من أول زوج لها، سيني دمتيس أنهباريس، نيرون، ابن الخامسة عشر (في العام ٥١). وسمي "أمير الشباب" وتلقى سلطات المحافظ. وإعدادًا لتتصيب ابنها هذا سميت الإمبراطور (في العام ٥٤).

تثبت كل هذه الأحداث، المؤلف في القصور الشرقية والإغريقية، أن روما أيضًا، انطبعت في حوالي أواسط القرن الأول الميلادي بطابع العاهلية، رغم استمرار الحاكم الأعلى باسم "أمير" والنظام بـ "الجمهري".

### نيرون (٥٤-٦٨) ونهاية الأسرة الحاكمة يوليو-كلودية.

يشكل حكم نيرون، آخر أمير من أسرة يوليو كلودية، الشاهد الأبلغ والأتم على تحول الإمارة إلى عاهلية. ولأول مرة يستلم قاصر تاج روما، ولإيدين ابن أغربين بترفيعه إلى الإمارة إلى الثورة في القصر، لأنه بالفعل ليس صاحب ذرة حق بهذا المنصب. شلت أغربين معارضة الأوساط العسكرية المتنفذة بإعدامها على الفور نرسيس، أمين سر كلود، وأعادت الإدارة الدفاعية إلى ديد بورس؛ فأمنت التدابير الأمنية الانتهازية الهدوء بين جماهير العاصمة.

على غرار العاهليات الشرقية، كانت السلطة الفعلية، في عهد أمير شاب عديم الخبرة، بين يدي امرأة، أغربين أوغستا، أمه، وأنصارها (باللاس، بورس، سيناك وشركائهم). كان عليهم أن يتملقوا الكبار بعض الشيء، كما ورد في الخطاب-البرنامج الذي دبجه سيناك وألقاه الشاب نيرون أمام مجلس الشيوخ؛ ولقد توطدت قسمة البلد إلى أقاليم، مشيخية وإمبراطورية؛ وكان حكم المحظيين وتدخل أهل الأمير بشؤون الدولة قد أدينا. ومع ذلك كان مجلس الشيوخ يعقد جلساته في قصر الأمير لكي تتمكن أغربين، المختبئة خلف ستارة، متابعة المناقشات، وكانت تحضر استقبال السفراء الأجانب.

على ذلك، وبسبب التوظيف الجيد للجهاز الحكومي وبواقع أن نيرون لا يبالي أبداً بشؤون الدولة، سميت الخمس السنوات الأولى من حكمه "عهد نيرون السعيد" (٥٤-٥٩). وكان نجاح السياسة الخارجية يترجم حسب تطورات جديدة في التوسع العسكري للإمبراطورية الرومانية، في الشرق، منذ زمن بعيد، يترجم غرض أوساط روما العسكرية والمالية. وهجوم البارث على أرمينيا، التي تعتبرها روما بلداً تابعاً، دفع "حملة نيرون

الشرقية"، التي بدأت في العام ٥٧. وبعد ثلاث سنوات من الإعداد الجاد، ولج أرمنييا العام ٥٨، عن طريق كبادوس، جيش روماني لجب، بقيادة قائد محنك، هو دومتيس كوربلون. وبدعم ملك إيبيريا (جورجيا) فاراسمان، استولى وأحرق عاصمة أرمنييا السالفة، أرتكسلتا. وانتزعت تغرنسرت، العاصمة الجديدة، على دجلة في العام التالي (٥٩). وطرد الملك تردات (أخ ملك البارث فولوجيز)، ووضع الرومان على عرش أرمنييا تبغران الخامس، الذي عاش ردا من الزمن رهينة الرومان والذي كان قد هضم وتمثل تماما الثقافة الرومانية. وترك جيش ضخم في أرمنييا لدعمه وحمايته. وارتبطت إيبيريا وشعوب الساحل القفقاسي (موسك) بروما. وفي العام ٦٣، تقلصت مملكة البونت إلى محمية أو إقليم.

وفي وقت واحد، كان جيش كبير، بقيادة سفير ميزيا تيبريس بلوتيس سلفانس، يعمل متبعا ضفة البحر الأسود الشمالية. وبعد إخضاع العديد من الشعوب القاطنة في شمال الدانوب الأسفل (جزء من الدارسيين، السارمات، الروكسلان)، احتلت الجحافل الرومانية تيراس (العام ٥٧)، أولبيا ووصلت شرسونيز، وأنقذت هذه المدينة التي يحاصرها السيث. تمركز الرومان بمنعة في القرم. وتلقت شرسونيز حامية وصارت قساعة للواء الروماني. وبعد هزيمة التوريين الأصليين، غطي الشاطيء الجنوبي لشبه الجزيرة بمخافر رومانية منيعة، كان أهمها شاراكس (على بعد ٥ كم من المدينة الحالية بالطا). وكانت البونت قد أصبحت بحرا داخليا رومانيا، وحوالي العام ٦٠ خضع كل ساحلها لروما. لكن مجد نيرون أقل في هذه الحقبة من الزمن تقريبا، ليتترك مكانه لبرهة ثمانية سنوات من التحكم والفوضى الإدارية. كان نيرون فاسقا منذ طفولته بسبب تربيته في وسط فاسد كقصر كلود. فما كاد يشب في الإمارة، حتى أعطى نزواته كلها الحرية كاملة وحل من البلاط وشوارع روما مسرحا لقصفه وعربدته، وكل أنواع الفضائح. وتبنى القيصر الشاب المذهب الكلي لمولوك الشرق: كل شيء مباح للعاهل.

كان هذا هو مبعث الخلاف بين نيرون وأمه، فثمة حظية الامبراطور، الفاجرة والفضة بوبي Popee، تدفعه للتخلص من أمه أغربين: ولقد أرسل نيرون لفيفا من الحكام لقتل أمه (العام ٥٩). وأعلن رسميا أنها تأمرت على سلطته بل على حياته؛ وصدر قرار خسيس سيجيز تحطيم أنصاب أغربين وسحب نقدها من التداول.



بعيد جيشان القصر هذا، مات بورس (ربما مسموما) وأبعد سنيك وكثير غيره ممن اعتقهم كلود وسلمهم مختلف مواقع المسؤولية ليحل محلهم محظيون أطوع وأكثر زلفى. سلمت الشؤون الحربية للمحافظ الجديد تجلان، الرجل الماجن المنحط، الذي صار حظي نيرون العاتي، كما كان سيجلن لدى تيبير. ثم أرسلت زوجة الإمبراطور، أوكتافيا، ابنة كلود، إلى المنفى، ومنه إلى القبر، وتسنى لنيرون أن يتزوج بوبي التي، حسب عبارة تاسيت "عدا القلب النقي، كان عندها كل شيء: الجمال، الذكاء والثروة".

انطلاقا من العام ٦٠ يبدأ عهد الإنفاق الذي السابق له لتأمين ملاهي البلاط الشاذة، الأمر الذي سماه سويتون بكل حق "جنون التبذير". تتالت الاحتفالات والقصف من كل نوع ببهجة لانظير لها. كان خدم القصر يرتدون أعلى الثياب، وانتعلت البغال الفضة، لكن الأمر الذي حفر كهفا للخزينة هو المنشآت الصناعية الضخمة الباذخة، وبخاصة، "البيت الذهبي". هكذا كان يسمى القصر المنيف الذي، بأروقته، حدائقه، غدرانه، ومعارض الوحوش، كان يشغل عدة أحياء في مركز روما بين البالاتان والاسكلان. وبعد أن تم كل شيء زاره نيرون وقال: "أخيرا تيسر لي أن أسكن كرجل". (سويتون، نيرون، ٣١).

لقد أفضى هذا التبذير إلى فوضى مالية وعجز متواصل ودائم. حتى اضطروا إلى تعليق دفع رواتب القوات وتعويضات تقاعد المحنكين. ولتعبئة صناديق الدولة، بدلوا النقد: لليرة فضية صكوا ٩٦ فلسا عوضا عن ٨٤. وسعوا في الغالب إلى تمويهات وقتية في المصادرات الضخمة لأرزاق الأغنياء، واتهموا بدم السلطة العليا، بذرائع وهمية وعابثة. وصادروا أيضا تركات الموتى، الذين "برهنوا على الجحود بالإمساك عن ترك وصية هامة للكمير".

كان سلوك نيرون المخجل موصوفا من الناحية الأخلاقية لدى علية مجتمع إمبراطورية الاستعباد الرومانية. كما أن الإمبراطور لم يعد يبالي بشؤون الدولة إلا حسب نزواته، كذلك فقد النبلاء الرومان أي اهتمام بالسياسة. فاستسلمت هذه الطبقة المنحلة نهائيا للشهوات الجسدية، إلى ألعاب السيرك والمسرح. "في الملاهي والمسارح، ويذكر سويتون: يقوم أشخاص من الجنسين بأدوار مسلية... ولقد أسس (نيرون) مدرجا خشبيا يقدم فيه مشهد المصارعين. وجعل ٤٠٠ عضو من مجلس الشيوخ يصارعون ٦٠٠ خيال... واختار مصارعين ضد الحيوانات" (نيرون، ١١-١٢، تاسيت، حوليات، ١٥، ٣٢). وكان نيرون،

رأس هذه الصفوة الرومانية الفاسقة والمنحطة، يهتم بأكاليل غار الرياضة والمسرح أكثر بكثير من اهتمامه بملكته. وليس بدون مواهب أدبية وموسيقية اعتبر نفسه طاقة فنية وظهر على المسرح منشداً، مغنياً، موسيقاراً، ومعلماً فروسية وحتى مصارعاً. وأوقف العام ٦٧ كله لدورة فنية في اليونان، حيث اشترك في الألعاب الأولمبية والبرزخية. ولكي يكافئ اليونان الذين قوموا مواهبه جيداً، أعطاهم استقلالهم، وما يزال محفوظاً الخطاب الذي ألقى بهذه المناسبة.

لقد أسفرت الفوضى الإدارية والمالية عن سلسلة من النتائج المدمرة في السياسة الخارجية وفي حياة العاصمة والأقاليم. وانتهت حرب الشرق بشكل معيب للرومان. فقد غزا البارث أرمنيا وطردها ممثل الرومان، الملك تيخران الخامس. والجيش الذي أرسل لمؤازرته بقيادة ل. كزنيوس باتوس، الممالك وعديم الخبرة القتالية، حاصره فرسان البارث قرب رونديا على رافد شرقي الفرات الأعلى ولم ينجح إلا باستسلام مذل، متنازلاً للبارث عن أسلحته وكل عدده الحربية (العام ٦٢). ولم ينجح كوربلون إلا بتهذئة الوضع جزئياً: إذ تخلت روما عن عرش أرمنيا لمثيريدات، أخ ملك البارث فولوجيز.

إن إهمال وقصور المعاونين كان سبب كارثة لا سابق لها فتكت بروما في العلم ٦٤: اشترأيت السنة الحريق ثمانية أيام والتهمت قرابة عشرة أحياء من ١٤ حياً في المدينة. وأهلك النار العديد من السكان؛ استغل اللصوص الذعر والهلع وعجز السلطات، فنهبوا البيوت المحترقة. أما نيرون، كان يتأمل من أعلى برج مشهد الداهية الرهيبة، وحسب الشائعات التي دارت آنئذ، قال أبياتا من الشعر في سقوط طروادة. لكنه وقد كان مهتما بتأمين الأراضي الواسعة التي التهمها الحريق، لبناء "بيته الذهبي"، راح الناس يعتبرونه فاعل هذه النكبة المروعة وسموه "مشعل الحريق". الأمر الذي فرض على الحكومة تصعيد قضية "مشعل الحريق الفعلين". وكان المتهمون الكثر قد أوقفوا ولقوا مصرعهم تحت التعذيب الوحشي. "ألبسوا جلود دواب لجعل الكلاب تفترسهم (في ميدان المصارعة)؛ وربطوا إلى صلبان، أو دهنت أجسادهم بالراتنج اللزج القابل للاحتراق، فصاروا مشاعل تضيء ظلمة الليل". (تاسيت، حوليات، ١٥، ٤٤).

وفيما بعد اعتز مفسرو الكتاب المقدس المسيحيون بمقطع من حوليات شرح بمهارة حيث طرحت مسألة "مشاعل نيرون"، ليقدموا هذه العذابات كـ "أول اضطهاد للمسيحيين".

استغل فلول النبلاء غضب الشعب، وحاكوا مؤامرة في العام ٦٥: اقترح المتآمرون قتل نيرون، في ملعب البهلوانيات أو المصارعة، يوم يأتي لأمر ما، ويرفعون إلى الإمارة النبيل، الغني والشعبي ك. كلبوزنيس بيزون. كان بينهم الكثير من الرجال المعروفين، مثل لوسان، مؤلف <sup>١</sup> *Pharsale* وأيضاً، كما يبدو مرجحاً وجود عمه سنيك. لكن بيزون وقادة الحركة الآخرين، بدوا جبناء، مترددين وكشفت المؤامرة. وكانت الاعتقالات، التعذيب، والإعدامات التالية لاتحصى. بيزون، لوسان وسنيك ذبحوا بأمر من نيرون. كان هذا الأخير يحلم منذ زمن بمصادرة الثروة الطائلة التي يكدها مربيه سنيك، الذي لم يكن فقط أكبر باحث في زمنه، بل فضلاً عن هذا، مراهبا جشعا. هكذا أثبتت عليه مجتمع روما بكل وضوح تفككها التام وعجزها الكامل عن لعب دور سياسي كبير.

لقد حملت الحركات التي نشبت في الأقاليم ضربة قاصمة لحكومة نيرون المتفسخة. ففي كثير من حالات الابتزاز والعنف المتماذي من قبل الموظفين الرومان على معاوني نيرون الذين، في عجزهم وقصورهم، وعدم ممارستهم سوى المراقبة الباهتة، أثاروا اضطرابات شعبية أخذت شكل انتفاضات خطيرة، لأن الأرستقراطية المحلية، الغاضبة من مجرى الأحداث في روما، حاولت تجير هذه الفوضى لمصلحتها. وفي العام ٦٠، تمردت غالبية الأمم البريطانية الخاضعة حديثاً مثل إيسينيان، ترينوبانت وغيرها. كانت ملكة الإيسينيان، بواديسي، على رأسهم. استولوا وعلى كملودنم، عاصمة بريطانيا الرومانية ودمروها، ثم لندنيوم (لندن)، ثاني مدينة. ذبح المعمرون والتجار الرومان، مع نساءهم وأطفالهم، بعدد ٨٠ ألفاً.

وقد نجح محافظ بريطانيا، سونتيس بولنس، بجهود مضنية، بعد عودة كل ما لديه من احتياط، بجذب جيش المتمردين إلى أحد المضائق، حيث اضطروا أن يقاتلوا بشروط غير مواتية، وأنزل بهم هزيمة رهيبة. وذبح الرومان بدورهم قرابة ٨٠ ألف بريطاني. ومع هذا ولعشر سنين، كانت تهاجم قواتهم شطر الجزيرة المحتل، لأن بريطانيا بقيت في هياج وغليان دائمين.

---

<sup>١</sup> - قصيدة ملحمة للوسان، ترسم الصراع بين قيصر وبومبييه؛ عمل متألق من الروايق السامية لكنه كثير التخميم والتعظيم (القرن الأول الميلادي- المترجم).

كان الاحتجاج في قمته في يهودا، في بداية الستينات. كان الشعب يعيش هنا تحت نير مزدوج: نير الفاتحين الرومان، ونير مستغليهم المحليين، الكهنة والأغنياء؛ انتشرت بين هؤلاء الأخيرين نظرية الفريسيين "دكاترو في القانون"، وهم مفسرو الكتب المقدسة وهم الذين وضعوا الأساس الأيدولوجي للتيوقراطية اليهودية. فضلا عن العشر، كان يتوجب على الشعب بموجبها أن يؤدوا للمعابد بواكير محصولهم من القمح، والثمار، والعسل والدواب للأضاحي.

هربا من الدمار والبؤس، لجأت طلائعهم إلى الشمال، الجليل، حيث تمتد مساحات واسعة غير محروثة على ضفاف بحيرة طبريا. كان أكثرهم ينتسب إلى طائفة الـ"زِيلُوت *Zelotes*" (أنصار الحرية المتحمسون). وقد صار أجراهم وطلعتهم "قتلة مستأجرون *sicaires*" (من *sica* = خنجر)، كانوا يزرعون الرعب، بذبح أبغض مستثمري الشعب. كلن هذا، في بداية النصف الثاني من القرن الأول ق.م. مصير الكاهن الكبير جوناثان الذي كان مكروها بشكل فريد. وكان الإيمان بمجيء قريب لملك محرر أو "مسيح *mwssie*"، رسول يهوه، واسع الانتشار بين الزيلوت. ومنذ العام ٦م، أعلن يهودي جليلي نفسه "ملكا لليهود"، وشهر السلاح في الجليل؛ وقد كثر هؤلاء المتمردون بالنتابع.

وفي العام ٦٦ شبت انتفاضة دامية منفردة، كانت نقطة انطلاق حرب اليهودية (٦٦-٧٣). كان الوالي الروماني جيسيس فلورنس، باغتصاباته وابتزازاته اللا-مثيل لهان هو من أوقد نارها؛ تمادى كثيرا بل أرسل وحدة من القوات الرومانية إلى القدس وترك أشقى عناصره يتسابقون إلى النهب الوحشي. فمشى الحاكم السوري ك.سستيس غالوس لمد يد المساعدة لفلورس، مع قوات ضخمة. لكنه لم يستطع أن يحتل المعبد، الذي اتخذته المنتفضون حصنا منيعا لهم. وبمشقة وجهود جبارة أخرج من القدس قواته المحنكة جدا وقد كانت قاب قوسين من التطويق والإبادة.

التهبت نقطة أخرى في نفس الوقت في الجليل حيث يسيطر القتلة والزيلوت، ووجد الشعب البسيط في حنا الجليلي قائدا فذا بطلا. وكان متمرّدو القدس والجليل على اتصال دائم بوساطة جماعات مسلحة.

١ - حكومة إلهية يشرف عليها رجال الدين- المترجم.

بلبلت هذه الحركة الشعبية الأوساط الحاكمة في القدس فاضطرت بداية أن تظهر تعاطفا معها. لكن القطيعة كانت سريعة جدا، لأن التيقراطية في السلطة تخشى قبل كل شيء شعبها. ولقد وقف الكاهن الكبير ووجوه الفريسيين ضد قرار إلغاء التضحية اليومية للإمبراطور، معلنا التفاهم مع روما؛ وسال الدم غزيرا في شوارع القدس، التي طرد منها أنصار روما نهائيا؛ وأحرق المتمردون بيت كبير الكهنة وبيوت أعيان ممثلي الإكليروس والفريسيين.

انتقلت قيادة الحركة كليا إلى أيدي الفصيل المتطرف من الزيلوت، وعلى رأسهم جان، سيمون وألعاذر، المستندون إلى الفلاحين، الصناع والعبيد المعتقين. وأعلن التجمع الشعبي الملتئم في المعبد نفسه السلطة العليا. وقسم يهودا إلى ١٢ دائرة، ونظم الإدارة العامة للتمرد، وأرسل ممثليه إلى الجليل والمناطق اليهودية الأخرى.

رغم وجوده على رأس قوات ضخمة، أجبر فلافيوس فسبازيانس، المكلف بقمع التمرد، أن يقود العمليات ببطء شديد، متقدما تقدما تدريجيا، مدمرا كل البلدات في طريقه، ومعلقا على الصلبان كل من وقع بين يديه. وهكذا احتل الجليل، واستولى على مركزي المقاومة الهامين، طبريا وجوتاباتا. وفي الجليل، انتقل أحد وجوه الفريسيين، يوسف، إلى صفوف الرومان، وصار تابعا لفسبازيان، وسمي فلافيوس يوسف، واهتم فيما بعد اهتماما كبيرا بالأحداث في كتابه "تاريخ حرب اليهود ضد الرومان". على ذلك، استمرت المقاومة في كل يهودا تقريبا، ودافعت القدس المحاصرة بتشبث استثنائي.

لم يكن الموقف قد اتضح نهائيا في يهودا، حتى نشب في ربيع العام ٦٨ تمرد أخطر أيضا في غول. كان الأدريون، السكانس، والأرفيرن وغيرهم، من بين هذه الأمم الأقوى والأكبر عددا، قد حملوا السلاح، وكان الأدهى لدى حكومة نيرون وجنود على رأسي المتمردين السفير الإمبراطوري في الغول، يوليوس فاندكس، الغولوا الأصل. فقد جمع على عجل آلاف الناس. وفي خطاباته وتصريحاته، كان فاندكس يعلن تحت القسم أن هدف التمرد الوحيد هو تحرير الإمبراطورية الرومانية من نير الطاغية وقلب نيرون هذا البهلوان المتوج.

لاقى نداء فاندكس في الحال صدى مشجعا لدى حكومات وقوات الأقاليم الغربية الرومانية الأخرى. ماكان الجنود يعرفون نيرون ولا يحبونه. كانوا يغارون من مرافقة الحكام المتمتعين بأناقة السيد الصغير، التي تجريها خدمة الحرس في البلاط واستعراضات

العاصمة. وكانت قيادة الجيش العليا، السفراء والمحافظون يتوقعون التعرض، هم أيضاً، لمصير كوربلون، مصطلح البونت، الذي دعاه نيرون، للانتحار لأنه يحسده على مجده. وعلى الفور مشى اقتداء بفاندكس سفراء أسبانيا الأقرب وأسبانيا الأبعد، سرفيس سلبسيوس غالباوم، سلفيوس أوتون، وكذلك محافظ أفريقيا ل. كلوديس ماسر، الذي دعا الجميع للانتفاض والسير إلى روما. كانت قوات الرين تشكل أنفذ أقوى جيوش روما، التي سحقته ميليشيات الغولوا وقتل فاندكس بسيفه، مقدرا مسبقا قضيته الخاسرة، لكن هذه القوات سرعان ما انتفضت هي الأخرى، ضد نيرون، مطالبة بإلحاح بتنصيب قائدهما فرجنس روفس إمبراطورا. وكانت كل المحميات الغربية والقوات المتمركزة فيها، في العام ٦٨، في حالة تمرد مكشوف.

كانت حكومة نيرون في حالة فوضى وتفكك كاملين. أما هو، كان يرسم الخطط الأكثر وهمية: كان يفكر، مثلا، بالمثول أمام المتمردين، يفتنهم بغناؤه وقبائره. وأعطى الأمر بإعداد الديكورات ودعوة لفيف من الممثلين. لكن مساعديه ذاتهم خانوه: وقف تجلان، بأمل إنقاذ وضعه وحياته، إلى جانب غالبا، وبالوعد بدوام العطايا، ألزم الجند الحكوميين على إعلان هذا الأخير إمبراطورا. ولم يبق إلا مجلس الشيوخ ليوافق على الانقلاب: أعلن نيرون عدوا للشعب وأدين بالموت. الكل هجر نيرون، فضاغ، ولم يبق أمامه إلا الانتحار، بعد أن فشلت محاولات الهرب. وصرح وهو يموت: "أي فنان يموت في جانحي!"

إن موت نيرون لم يعن فقط نهاية حكم أسرة جوليو-كلوديين التي حكمت روما منذ حوالي قرن. بل يعني، فضلا عن هذا، نهاية السيطرة التي مارستها روما وشرائح المجتمع الرومانو-إيطالي العليا، على الأقاليم. وكان على الإدارة الإمبراطورية، التي خلقها هذا الحكم، من الآن فصاعدا أن تخدم مالكي العبيد في عالم البحر الأبيض المتوسط قاطبة.



## الفصل الواحد والستون

# الحرب الأهلية للعام ٦٨-٦٩ وتوسع القاعدة الاجتماعية للإمبراطورية. حكم أسرة فلافيان

### الحرب الأهلية للعام ٦٨-٦٩

كما تم الأمر منذ مائة عام، كذلك اليوم: العنصر الأساسي في الانقلاب هو الجيش. يلاحظ تاسيت بكل حق في هذا الصدد أن "نهاية نيرون... أسفرت عن انفصالات عدة لدى القوات وقادتها؛ لأن أحد أسرار الدولة أذيع: لا يمكن إقامة إمبراطور إلا في روما" (التاريخ، ١، ٤).

لكن تركيبة الجيش، في العام ٦٨، لم تعد أبدا كما كانت في أيام قيصر وأوكتاف. كانت إلى حد بعيد إقليمية. وانطلاقا من النصف الثاني للقرن، لم يعد سكان روما والاطليان بعامّة يخدمون إلا في الحرس الإمبراطوري أو في الوحدات المقيمة في المدن. وتنتحشد الفيالق أساسا بين سكان المدن الإقليمية. وكانت القوات المساعدة تمثل طبعا غير روماني ومن أصول عرقية أخرى واضحة المنشأ: تتألف من ممثلي مختلف الأعراق المعادية الشرسة، التي تصون عادة مصالحها القومية؛ كان ثمة وحدات بتافية، أسبانية، ثراس، سيسيليين وغيرها. ومن جهة أخرى، كانت تقوم وشائج متينة بين الجنود والسكان المحليين بفعل التجمعات التي تولد في جوار المواقع المنبوعة والمعسكرات، وحيث كان يعيش صناعيون، حانونيون، خمارون وأعمال أخرى لتأمين حاجات الجند. وكانت مستعمرات المحاربين القدماء، المحنكين، تساهم كثيرا بتقريب الجيش من الأهالي المحليين. وهكذا كان لكل جيش روماني شكله الأثني-العربي وسيماءه الإقليمية، مع محافظة القادة الرومان على الانضباط الحربي الروماني. وكانت اللاتينية هي اللغة الرسمية، وعبادة الإمبراطور الذي يقام له نصب في مدخل المعسكر الرئيسي وبكلمة أسلوب الحياة الرومانية.



يمكن إجمالاً تقسيم الجيش الروماني إلى ثلاثة تجمعات ضخمة ذات خاصيات ومضالاح شديدة الوضوح. بداية تجمع جيش الرين، الأقوى قتالياً، مع ثماني تجريدات محتشدة بخاصة في مناطق الغول، والعديد من ملحقاته الجرمانية. حسب الأصول الجرمانية، تغطي الفيالق عمراتها وبواخرها بجلود الدببة والأوس. ثم يأتي جيش الشرق (ثلاثة فيالق في سوريا، ثلاثة في فلسطين واثان في مصر)، حيث يخدم في الأغلب رجال من آسيا الصغرى، وغالباً، غالات وكبادشيين شبه إغريقين. كان جنوده يرتدون الخيتون ويبتهلون لآلهة الشرق: "الشمس غير المرئية" ومثرا *Mithra*. أخيراً، جيش الدانوب، - الذي يضم فيالق ميزيا وبانونيا، يشكل التجمع الثالث. كانت تركيبته الأثنية أصلاً من أبناء البلد: بين جنوده الكثير من الغولوا والإسبان، بينما كان الثراس، والإغريق هم الأكثر عدداً. كان جيش الدانوب على علاقات طيبة مع جيش الشرق، وكثيراً ما مد له يد المساعدة.

كان كل جيش يتشبت برباط جمعي؛ لكل جيش ثقاليده، وأعيانه واحتفالات انتصاراته السنوية. ويهدف كل جيش الآن لتصيب قائده إمبراطوراً، لكي يغدق عطاياه على مساعديه ومخطييه نقد خلف نيرون مباشرة سرفيس سلبسيس غالباً، سفير إسبانيا القريبة، الذي كان أول من انضم إلى تمرد فاندكس والذي نصبته الحاشية الإمبراطورية إمبراطوراً لروما. كان أحد الأعضاء الأكثر تميزاً في مجلس الشيوخ بالدم والثروة، قائداً فذا ومديراً مجرباً (كان في ٧٢ من عمره). منذ قدومه إلى روما، أعلن غالباً نفوذه لدى النظام التحكيمي، وأنه "سفير مجلس الشيوخ والشعب". وضرب كلمة "حرية" على النقود. كان غالباً يسعى بوضوح لإرضاء تطلعات الشرائح العليا من المجتمع الروماني والإيطالي، بينما كان قاسياً تجاه الجنود لا بل هدد بإصلاح انضباط الحرس الإمبراطوري المتهاون.

لهذا بالذات لم يتسن له أن يحافظ على السلطة سوى سبعة أشهر. اشترى أحد مقربيه، الطموح م. سالفيس أوتون، الحاشية الملكية التي أعلنته إمبراطوراً في ١٥ كانون الثاني ٦٩؛ وذبح العجوز غالباً ومستشاريه وخليفته المسمى، بيزون، سليل واحدة من أهم الأرومات الأرستقراطية.

لكن أوتون نفسه لم يحكم سوى ثلاثة أشهر رغم الدعم المسعور من الحاشية والعوام الرومان الذين أعاد عليهم بسعة. فقد رفض تجمع الرين طاعته منذ مجيئه، وسمى إمبراطوراً أحد قادته، سفير جرمانيا السفلى، أولس فتيليس. كان الأمير القادم سينا بأوسع

معنى، واحداً من أبرع وأحط متملقي بلاط كلود ونيرون، مشهوراً فقط بجشعه، وقد نجح بشد اهتمام الجند بمحاولاته غير المحدودة. ترك الحدود مكشوفة تماماً، فمشى إليه طابوران من جيش الرين. دارت معركة ضارية في ٤ نيسان ٦٩، في بيدريك، قرب كريمونا، بين الفيالق الجرمانية التي اجتازت الألب وقوات أوتون الإيطالية: ذاق هؤلاء هزيمة منكسة. وتركوا وراءهم ٤٠ ألف قتيل. وقتل أوتون بسيفه. ودون أن يهتم المنتصرون بدفن قتلاهم انتشروا في أنحاء إيطاليا الأربعة لتتهب كما لو كانت بلداً معادياً. وفرضت التعويضات على من نجى من الدمار. دمرت هذه اللصوصية والمجون الانضباط الذين كان يفاخر به جيش الرين. فتن نجاح الفيالق الجرمانية الجيشين الرومانيين الآخرين الجرارين، المقيمين في الدانوب وسوريا. فتمردوا وأعلنوا تيتس فسبازيانس إمبراطوراً. ودون انتظار قوات الشرق، خاضت فيالق ميزيا وبانونيا ودلماسيا معركة بقيادة رائد بسيط، سفير الفيالق السابع م. أنطونيس يريمس. وفي صولة ليلية عاصفة، حققت فيالق الدانوب أمام كريمونا نصراً تاماً على قوات الرين التي تخلت عن مجدها الغابر. وبعد شهرين في كانون الأول ٦٩ أخذت روما من الهجوم، بعد معركة دامية في الشوارع، خلالها لم يتردد أنصار الإمبراطور فيتيلوس عن حرق معبد "جوبتير أوبتمس مكسموس" الشهير، في الكابيتول، حيث كدس الأرشيف الروماني. قبض الجند على فيتاليس، في أحد أروقة القصر، حيث لجأ، وذبحوه بوحشية.

منح مجلس الشيوخ، خوفاً من نفس المصير، فسبازيان، الغائب، موافقته. أرجأ هنا الأخير دخوله ستة أشهر إلى العاصمة، التي كان حكمها تلك الفترة ضباطه، أنطونيس يريمس ولسنيس فريانس، بينما كان هو سفيراً في سوريا. انتهى التمرد العسكري الكبير لعامي ٦٨-٦٩ بنصر مؤزر لجيوش الشرق على العاصمة والحكومة المركزية الرومانية.

### الامبراطورية في عهد الفلافيين

أفضت أزمة العامين ٦٨-٦٩ إلى تنظيم جديد عميق لكل نهج الدكتاتورية العسكرية لدولة العبودية. فقد قدم انتصار جيوش الأقاليم ظفراً لعنصر العبد على العنصر الروماني والطلاياني، وانتقلت روما إلى مرحلة جديدة وأرقى في الملكية القديمة، استناداً إلى مجتمع العبودية في حوض البحر المتوسط كله، وبخاصة في المدن والعائلات الكبرى الإقليمية. ولم يتخلف عالم العبودية عن الدخول في مرحلته النهائية المتفتحة، الأمر الذي يمكن أن

يسمى "العصر الذهبي" لإمبراطورية (القرن الثاني الميلادي).

تبدى هذا التطور إلى هذا الحد أو ذاك في عهد الفلافيين، الأسرة الحاكمة الأولى التي خلقت أسرة يوليوس-كلودين، والتي مع ذلك لم تحكم روما سوى ٢٧ عاماً (٦٩-٩٦). كانت هذه الأسرة غامضة المنشأ والموقع حتى آنذ سليله شرائح وسطي من المجتمع الإيطالي. كان الجد المؤسس لأسرة تيتس فلافيوس سبازيانس فلاحاً من بلاد السابان وصار قائد مائة؛ وكان أبوه جابي ضرائب. ولم يرب فسبازيان، في المهنة الإدارية والعسكرية الإقليمية إلا بدافع الحماس والنشاط والدهاء القروي. امتاز عهده (٦٩-٩٦). بروح التكتيك والادخار. مع هذا، لم يكن فسبازيان يهدف أبداً أن يحكم بيد صارمة، ولم يرض أن يتدخل أحد في قراراته، وأكره مجلس الشيوخ أن يمنحه سلطات واسعة جداً، متمتعاً بحق إنجاز كل الأعمال التي يراها ضرورية لخير الدولة.

كقائد مجرب، كان أول همومه القضاء على الفوضى في الجيش وإرسال القوات الإيطالية إلى الحدود. وأمن لوحده المخلصة خير المعسكرات. بخاصة في سوريا، وأرسلت "الفيالق المنهزمة" إلى تخوم الدانوب الخطر: والحاميات الأبعد في الشمال الشرقي آلت إلى حرس نيرون الشخصي، رفعها هو خاصة باسم الفيالق الإيطالية، التي كان جزء منها حامية في قصور توريد المنبعة ( في شاراكس قرب يالطا).

ثم لقاء جهد جهيد، قمعت الإمبراطورية الرومانية كل الحركات الانفصالية في الأقاليم وقبل الكل تمرد يهودا. ولقد أفاد متمردو هذه المنطقة من الهدنة ليلموا شملهم ويعززوا موقعهم. كان حنا جسكال الذي نجح في العبور من الخليل إلى القدس على رأسهم منذ ٦٧، كانت هذه المدينة الضخمة ذات الـ ٦ آلاف ساكن، المنبعة فقط بموقعها في وسط ممرات ووديان ضيقة وعميقة (وادي يوشافات، مثلاً) ومحمية بسور مزدوج مزود بـ ١٦ برج، كانت مركز المتمردين الرئيسي.

جيش من أربعة فيالق وتجريدة مساعدة بقيادة تيتس، بن فازبازيان، شرع بداية بأعمال الحصار الطويلة والمرهقة التي دامت عدة أشهر، وفي آب من العام ٧٠ تيسر للرومان الهجوم. لقد تجدد المشهد المأساوي لسقوط قرطاجة، أخذت أولاً المدينة السفلى، ثم المدينة الوسطى بقصرها، وأخيراً المعبد، في قمة جبل مورياح الذي ينهض في وسط المدينة. هلك القسم الأكبر من السكان في أثناء معركة شوارع رهيبة ومن فاته الموت بيع

عبداً أحرق المعبد وقت الهجوم، نهبت المدينة، وعلى أنقاضها أقام الفيلق العاشر الروماني معسكره. ورغم أن النضال استمر في يهودا حتى العام ٧٣، حقق تيتس الذي عاد إلى روما ٧١ نصراً كاسحاً، وأقيم أيضاً في ميدان فورم قوس المجد لقاهر اليهود، تمثل أفايريه جنوداً يحملون إلى الكابيتول أشياء القدس المقدسة، الهيكل، الأبواق الضخمة، والشمعدان ذا الأغصان السبعة.

قمع التمرد في الغول وعلى الرين ليس بأقل قسوة. نشب هذا العصيان بين أمة الباتاف المحاربة المقيمة في نهر الرين وقد ضمت سابقاً جيرانها من الغريزون والكانينغات، كان على رأسي المتمردين يوليس سفلوس، أمير باتافيا، الذي خدم طويلاً في الجيش الروماني. احتلت قوات فنتليس (حسب تعبير تاسيت) لم يبق على الرين إلا أشباه فيالق) على عجل كل مواقع الرين الحصينة تقريباً. ثم امتدت الحركة إلى الغول حيث أعلن رجلان من كبار عائلات تريفير هما يوليس كلاسكس ويوليس تيرور إمبراطورية الغول المستقلة. اضطر فاسبازيان أن يرسل إلى الرين قائده الفذ بتليس سريانس على رأس قوة ضخمة، ليخنق هذا اللهييب المتأجج، وخوفاً من القوات الشعبية وقف النبلاء الغوليون إلى جانب الرومان. "بعد عدة معارك نجح سريانس في إخضاع جرمانيا: أسفرت إحداها عن عدد ضخم من القتلى من الجانبين، وازدحمت الجثث في النهر المار في تلك المحلات"، هذا ما قاله باختصار ديون كاسيس بصدد نهاية هذا التمرد (٣،٦٦).

في العام ذاته قمعت فتنة البونت، التي نجح قائدها المعتق أنيسيت بداية أن نقل جزءاً من تجهيزات أسطول البونت إلى منطقته.

انكبت حكومة فاسبازيان على تسوية شؤون أموال الدولة، التي دمرها تدمير نيرون وإسرافه وحروبه الأهلية، وأثار فاسبازيان الذي سعى بالبساطة والتواضع إعطاء المثل بالادخار، أثار غضب وسخرية المتملقين الفاسقين، وهزأهم أيضاً من الضرائب الجديدة لتغطية الميزانية الهالكة: ضوعفت بعض الضرائب القديمة، ووضعت الرسوم حتى على المقابر والقبور وعلى آبار المراحيض وعلى المراحيض، ووضع أمام أنف ابنه تيتس كاره هذا التدبير قبضة من النقود وقال: "النقود لارائحة لها"، لكنها في نفس الوقت أزرت المدن والناس الذين دمرتهم الزلازل والحرائق، ففي روما لإيجاد عمل للشعب قامت أعمال الترميم لإنجاز الكابيتول وبدئ ببناء مدرج فلاقيان في مركز المدينة، يتسع لخمس وثمانين ألف مشاهد.

بهذا الصدد، اقتفى فسبازيان سياسة قيصر وكلود، وتوسع بإعطاء حق المواطنة لأبناء المحميات. وبعد منح ابنه الرقابة، أخذ لوائح بأعضاء مجلس الشيوخ والفرسان، وأضاف إليها عددا كبيرا من ممثلي الأسر الكبيرة الإقليمية.

وفي أثناء حكمه القصير الذي دام سنتين فقط (٧٩-٨١)، تابع تيتس سياسة أبيه. شقت الطرق من الأقاليم إلى روما، واستمرت الأعمال الكبرى العامة (أنجز الكولزيه)، وقدمت مساعدات واسعة لسكان الريف، الذين عانوا الكثير من ثوران بركان فيزوف الريب، الذي دمر بومبيه وكثيرا من المدن، في ٢٤ آب ٧٩.

وثالث الفلافيين، ابن فاسبازيان الأصغر دوميتيان، الذي حكم مدة أطول من مدة حكم ذويه (٨١-٩٦)، مارس بحزم وجسارة السلطة المطلقة بفعل الدعم الواسع الذي لاقاه خارج إيطاليا. لكنه، بالمقابل، كان أكثر منهم تعرضا لعداء أصدقاء الماضي والوشاية، بعد موته المأساوي.

كان طبع دوميتيان صعبا، تسلطيا وحذرا؛ اعتلى العرش بعد موت تيتس المبكر، اتخذ موقف التعاطف والإثارة بخاصة تجاه مجلس الشيوخ، طالبا أيضا أن يسمى "سيدا". وأبعد مجلس الشيوخ إلى الصف الخلفي تماما. واستعبد الفرسان، المتزايدون أكثر فأكثر في مجلس الشورى الإمبراطوري. ولتأمين نفقات الدولة الضخمة، استمرت جباية الضرائب بدون رحمة، باستيفاء الضرائب المتخلفة من كبار السادة وعلية الموظفين المعتادين على الإعفاء من أداء مستحقاتهم، وأنذروا إن لم يؤدوها تصادر ممتلكاتهم دون صخب؛ فراحوا ينادون "دوميتيان حيوان جارح" و"مبتز مغتصب". كانت أعمال حكام الإقليم خاضعة لمراقبة في غاية الحزم والحسم. وأظهر دوميتيان، هو أيضا، تسامحه الكبير في منح حق المواطنة لأبناء الأقاليم؛ إسبانيا كلها تلقت الحق اللاتيني. ولأول مرة، أرسلت الحكومة إلى مدن الإقليم "قيمين"، كان دورهم رعاية سعادة الناس في هذه المدن وتنظيم أموالها، كما كان الأمر في القرن الثاني.

كانت حكومة دوميتيان تسهر بكل عناية على حماية الإقليم من العدو الخارجي. فكل القوافل المقاتلة محتشدة على حدود الإمبراطورية الأخطر، إلى الرين والدانوب، المعرضة أبداً لتهديد الغارات البربرية.

على الرين، دل الكات أنهم خطرون بشكل استثنائي. ففي العام ٨٣، أنزل دوميتيان،

على رأس ٤ فيالق، هزيمة قاصمة بالشعب الجرمانى، خلف معمعة قاسية جدا، في منطقة غابية ومستنقعية البلد الذي احتل هكذا بين الرين والمان مع "الحقول الدكمت" في أعلى الرين، الذي احتله فسبازيان، مساحة واسعة دفاعية، على ضفة الرين اليمنى. وعلى طول ٣٠٠ كم، جهزت هذه البقعة بأعمال تحصين مترابطة مع شبكة دروب قتالية وميادين المؤخرة المنيعة. هوذا أصل "المبادر" الجرمانو-رتيان، الخط الدفاعي العظيم، الذي يغلق كل الحدود.

كان الدفاع عن الدانوب الأدنى يتطلب جهودا ضخمة جدا. ونتيجة اضطرابات ٦٨ و ٦٩، اعتادت أسراب من الخيالة الروكسالان أن تشن غارات خلف الدانوب. تضاف إلى هذه غزوات الداس *Daces* المتزايدة الآتية من تراسلفانيا، منذ أن جمع أحد قادتهم، دكابال، تحت سلطته عددا كبيرا من القبائل. وفي العام ٨٧، أنزل الداس هزيمة نكراء بمحافظ الحاكمية كورنليس فوسكس الذي، على رأس جيش جرار، حاول التغلغل في بلادهم الجبلية والغابية، حتى سمرجنثوا، عاصمتهم. لقي الجنرال الروماني الهلاك على يد هذا الداهية، مع الشطر الأكبر من قواته. ووقعت كل الأمتعة والأعتدة بين يدي الداس. وذاق الإمبراطور نفسه، الذي كان على الحدود، فشلا مرا، على يدي الداس وحلفائهم الكواد والمركومان. "كان هذا أول هجوم موفق للبرابرة على الإمبراطورية"، كما لاحظ ماركس في عمله "ملاحظات تاريخية" وأكره دوميتيان على عقد مع دكابال معاهدة تنال من مجد روما، إذ اشترى انسجامه بالمال والتزم بتزويد الداس بالسلح، والمهندسين لتعليم صنع أجهزة وإقامة استحكامات، مخصصة للعمل ضد الرومان أنفسهم.

إنما في الوقت ذاته بدئ، من الجانب الروماني، ببناء وعلى عجل، على مجرى الدانوب الأسفل، نهج استحكامات دفاعية ليست أقل مناعة مما على الرين. إن هذه الخطوط الحصينة (٦٠ قصرا شامخا مرتبطة بتكنة على اليابسة) هي ما يسمى اليوم "سور تراجان". ولتأمين أصلب دفاع، قسم إقليم ميزي إلى شطرين: الأعلى (صربيا الحالية) والأسفل (شمال بلغاريا ودوبوشجا). وخلق أسطول محارب على الدانوب.

لقد أسهمت هذه الأحداث بتسعير النزاع بن حكومة دوميتيان من جهة والأرسقراطية

١ - ك. ماركس. ملخصات تاريخية. أرشيف كارل ماركس وف. انجلز، المجلد الخامس، ص ٦.

المسيحية والأوساط الثقافية التي ارتبطت بها (ال"فلاسفة") من جهة أخرى. وترجم غضبهم بداية إلى طوفان الخنازير البرية، والنكت والقصائد الهجائية الساخطة على الإمبراطور، والتي تذخر بها أعمال كتاب ذلك الزمن، تاسيت، مارتيا ل وجوفنال. وانطلاقاً من العام ٨٠، شرع الغاضبون بحبك المؤامرات؛ رد دوميتيان على هذه التصرفات بنفي العديد من كبار الموظفين، ثم بدأ قطع الرؤوس.

وفي العام ٨٨، وجدت المعارضة ضالتها في شخص شديد الخطورة هو أنطونيوس سارتوننس، سفير جرمانيا العليا، الذي أعلن نفسه إمبراطوراً، وحرص على التمرد فيلقين من حامية موغونتاكوم (ميانس)، وعقد حلفاً مع الكات، الذين أخضعوا حديثاً، وشعوب جرمانية أخرى، واقترح تجديد محاربة روما. ولمنعه من نهب إيطاليا من جديد، اضطّر دوميتيان أن يوجه إلى الرين قوات من أسبانيا ذاتها والدخول شخصياً في عراك مع ساتورننس. ولقد حالت كارثة الرين دون انضمام هذا الأخير إلى الجرمان. وهنا وقعت صدمة دامية، قتل ساتورننس، وبدد جيشه فلولا، وتنازلت المذابح والإعدامات؛ وتلى المتآمرين الكثير من مجلس الشيوخ الأظناء بتعاطفهم مع قضية سارتوننس.

انطلاقاً من العام ٩٠، تنازلت المؤامرات، ولجأت حكومة دوميتيان إلى الإرهاب. كانت علاقات الدساسين، الجبناء والمبتزين، تمكن من فبركة دعاوى غريبة، أفضت إلى زج كثير من الأبرياء. كان دوميتيان قاسياً جداً مع "الفلاسفة"، لأنه رأى فيهم إيدولوجيين أعدائه: فنفي من روما الأديب الكبير ديون كرزستوم والأبيقوري أبيكتير. واضطهد أيضاً اليهود "والمسيحيين" الذين بدأوا يفصلون عن تجمعاتهم، لأن نظرياتهم أفضت إلى تهويد العديد من الوثنيين من أسر المعارضة النبيلة وحتى البلاط.

في العامين ٩٥ و٩٦، ارتدى الصراع عنفاً جعل دوميتيان يشعر بأنه وحش مطارد. فلم يعد في طمأنينة حتى في قصره؛ فأمر بإقامة سقوف وجدران زجاجية في الغرف التي يعيش فيها، ليتسنى له أن يلاحظ دوماً ما يحدث حوله وخلفه. وفعلاً حكمت المكيدة في محيطه المباشر، والإمبراطورة ذاتها، دومتيا لونجينا، ابنة كوربلون، اشتركت فيها، مع محافظي الإمبراطورية وكبار موظفي البلاط. وفي أيلول ٩٦، قتل دوميتيان في غرفة نومه.

كتب سويتون "إن مجلس الشيوخ، كان في قمة الغبطة. واجتمع زمراً ومزق ذكرى الأمير الميت بحقد لا مثيل له. ونزع شعاراته وصوره" (دوميتيان، ٢٣).

## الفصل الثاني والستون

### الإمبراطورية في عهد الأنطونيين

"العصر الذهبي" للإمبراطورية الرومانية؛ الأنطونيون الأوائل.

إن العمل الذي بدأه الفلافيون لإعادة تنظيم الدولة لتكون ملكية مطلقة من نمط جديد، مستندة إلى كل شرائح مجتمع العبودية في عالم البحر المتوسط، استعاده خلفاؤهم الأنطونيون (٩٦-١٩٢). فكانت العصور الأكثر تألقاً في تاريخ الإمبراطورية الرومانية والمسماة "العصر الذهبي".

والتعبير نفسه لحكم أسرة الأنطونيين اصطلاحياً تماماً: فقد اعتادوا هذه التسمية لسلسلة من الأباطرة الرومان للقرن الثاني، الذين حكموا بالتتابع المباشر: نيرفا (٩٦-٩٨)، تراجان (٩٨-١١٧)، أدریان (١١٧-١٣٨)، أنطونين (١٣٨-١٦١) مارك أوريل (١٦١-١٨٠) وكومود (١٨٠-١٩٢). باستثناء الأخيرين (كان كومود ابن مارك أوريل)؛ كانوا قد سموا باسم جدودهم، الذين اختاروهم من الأشخاص الأشهر والأقدر في محيطهم، وتبنوهم في حياتهم، فخلفوهم في السلطة، وحتى هذا الاسم الجماعي أنطونين، تلقوه بعدئذ، ليس نسبة لأولهم، بل نسبة إلى رابعهم، الذي رأت السلالة أنه الأشهر ولقب أنطوان التقي. وعدا نيرفا، الذي ينتسب إلى أسرة قديمة مشيخة رومانية، يمثلون جميعاً هذه السمة المشتركة أي النبل الإقليمي، وكانوا جميعاً (عدا الأخير، كومود) رجالاً من خارج الذرية، منظمين وإداريين رائعين، في مقامهم السني، يحسبون أنفسهم في خدمة الدولة في التفضيل الواسع الذي أخذه هذا التعبير منذئذ. وبمراقبة الأشكال الخارجية للاحترام تجاه المؤسسات الحكومية الرومانية القديمة ومجلس الشيوخ بخاصة، كانوا ملتزمين بوضوح في درب التسلط، الذي كانت الأقاليم قد اعتادته منذ زمن، وحكموا "حكماً استبدادياً" فعلياً، على هواهم. ففي مجال السياسة الداخلية والخارجية، كانوا يسلكون نوعاً ما كمؤسسي سلطة طبقه مالكي العبيد في حوض المتوسط كله، وهي السيد الجديد للإمبراطورية الرومانية منذ الحرب الأهلية ٦٨-٦٩.



كان أول هذه الأسرة الحاكمة م.كوسيس نيرفا، الشيخ المسن ابن السبعين سنة، استثناء بينهم لقبه الرئيسي في عين أقرانه الذين رفعوا إلى سدة الحكم يأتيه من اشتراكه في ثورة القصر للعام ٩٦، الذي انتهى بدوميتيان. ونيرفا حسب تعبير تاسيت، "وفق ما بدا محالاً منذ زمن؛ بين امتيازات الأمير وحقوق الشعب الحر" (حياة أغركولا، ٣). أقسم رسمياً أن لا يعدم أي شيخ. توقفت دعاوى الطعن أو القدح برأس السلطة، واستمر النمامون وكانت ضحاياهم لاتعوض. واستعادت المنتديات الأدبية نشاطها؛ وفي هذا العصر كتب تاسيت عمله الأول "حياة أغركولا"، حيث يحيي "فجر هذا القرن الذهبي". وقد غمر الشاعر مارتيال نيرفا بالمديح: "هو ليس سيّداً، إنما امبراطور وأعدل الشيوخ" (١٠، ٧٢). لكن حكومة نيرفا المشيخية اصطدمت بريب الجيش العادية، واضطر إلى اختيار وتعيين وريثه، أحد أبرز قادة تلك الحقبة، سفير جرمانيا م.أوليبس تراجانس، الذي تفرد في أثناء قمع تمرد ستورنس. وبعد أربعة أشهر من موت نيرفا، صار تراجان امبراطوراً.

كان تراجان (٩٨-١١٧) ابن بيتيك، الإقليم الأسباني الأقرب إلى روما. وكان أول امبراطور من نبل إقليمي فتح الفلافيون أمامه الباب واسعا للوصول إلى السلطة أو، كما يقول ماركس "... أول غريب يعتلي عرش روما" بفضل بروز طاقاته القتالية والإدارية، مضافة إلى تصرفات بسيطة، مستقيمة ومحبوبة. كان تراجان آنذ في الثانية والأربعين من عمره، اكتسب شعبية عريضة في أوساط الشعب والجيش ثم، سمي رسمياً "خير الأمراء". في عمله الحكومي، كان تراجان يحاول ترتيب ليرالية نيرفا وتوفيقها مع استحقاقات السياسة الداخلية والخارجية لدوميتيان والفلافيين بعامه. وبرهن على تسامح واسع تجاه الأقاليم، وبخاصة، المدن الإقليمية. في عهده رأينا الإقليميين يرفعون أمام مجلس الشيوخ أو المحاكم العادية دعاوى ضد حكامهم أو أتباعهم، يطالبونهم الحساب عن ابتزازاتهم والامتيازات التي خصوا أنفسهم بها، والقمع والسلب. وتطورت تطورا واسعا مؤسسة الوصاية، التي عرفت في أيام دوميتيان: لا تكون التسمية للمدن فقط بل للمنطقة بكاملها. وكان الإمبراطور المطلع على أدق التفاصيل الإدارية الإقليمية، يطلب تقارير معللة ويسجل هو نفسه التدابير الواجب اتخاذها. وما تزال محفوظة المراسلة بين تراجان وسفير بثينيا-

<sup>١</sup> - ك.ماركس، ملخصات تاريخية، أرشيف ك.ماركس وف.انجلز، مجلد ٥ ص ٦ (منشورات روسية).

بوننت، بولين الشاب، حيث ناقشا، فيما بينهما، بعض القضايا المحلية، مثل بناء مسابح عامة في أمازيا، وخلق مؤسسة إطفائيين متطوعين في نكوميديا، والنفقات السنوية للبيزنطيين وإرسال رسائل تهنئة لإمبراطور ميزيا وحاكمها.

كانت إيطاليا التي يتفاقم قنوطها مع تناقص استثمار الأقاليم، تسبب، هي الأخرى، كثيرا من المتاعب للحكومة. وقبل غيرها من أجزاء الإمبراطورية الأخرى، راحت تتظاهر فيها علامات تفكك النهج الاقتصادي المبني على العبودية، كما تشهد رسالة بولين الشاب الذي أدان مبكرا جدا استغلال عمل الكادحين الأحرار. وترك التراجع المتزايد في الزراعة الإيطالية قلقا عميقا؛ ولعلاج هذا التدهور الزراعي، صدر قانون يفرض على الشيوخ توظيف جزء من ثروتهم في صناديق تعاونية، ورصدت الحكومة، لمساعدة صغار ومتوسطي المزارعين، مبالغ معتدلة ٥%، من أموال الخزينة.

اتخذت تدابير تهدف دوما عرقلة إفقار إيطاليا. وأحدثت صناديق "التعليم اليتامي" حتى السادسة عشرة واليتميات حتى الرابعة عشرة. وفي روما حيث بديء بتوزيع هذا النوع من الإعانات منذ بداية عهد نيرفا، كان المستفيدون بحدود خمسة آلاف. وفي عهد تراجان، شمل التعليم الابتدائي كل إيطاليا. وحسب الرقيم الذي وصلنا، من فاليا، سوعد من هذه البلدة الواقعة في شمال إيطاليا ٢٨٠ فتى. واقتفى الأغنياء خطوة الحكومة، وشيدوا الكثير من هذه المؤسسات المجانية في إيطاليا والأقاليم؛ بولين، مثلا، وهب خمسمائة ألف سسترن، كونها، مسقط رأس، واعطى كاليا ماكرينا لترسينا مليون سسترن، واهبا فوائد هذا لمبلغ لتربية ١٠٠ صبي.

تابع تراجان بنجاح واسع سياسة الفلاطين الخارجية الخلقة، الدفاعية أساسا، لأنها كانت تهدف الدفاع عن الأقاليم المعرضة للغزو، لكنها في حال النجاح لاترفض توسيع حدود الإمبراطورية. لقد دخل تراجان التاريخ كآخر منتصر روماني.

مهمتان كبيرتان عسكريتان فرضتا على حكومة تراجان؛ الدفاع عن حدود أسفل الدانوب ضد الداس *Dase*، الذين تنتمى قوتهم أكثر فأكثر، والثانية التصدي للحمالات الشرقية، على الفرات، حيث كانت إمبراطورية البارث لا تكف عن تشكيل خطر محقق. حقق أهم وأول هذه الأهداف بغزوتين قاسيتين ضد الداس (١٠١-١٠٢ و ١٠٥-١٠٦). وبعد الإعداد الضخم، شق طريق حربي على طول الدانوب، بناء جسر حجري على

النهر بـ"أبواب حديدية"، حشد جيش جرار من ١٢ فيلقاً، بدأت القوات الومانية زحفها المحترس والتدريجي في قلب داسيا. وبعد الاستيلاء على عاصمتها سرمزجتوزا، حاول دسبال لفت انتباه الرومان إلى مجنبتهم، بغارة تدميرية لميزيا. لكن تراجان نفسه اتجه، بالقوات الرومانية المتحركة، لنجدة مواقع الدانوب الأسفل المحاصرة، ثم بدا الهجوم على داسيا وأخضعها حتى سفوح جبال الكربات الجنوبية. فانتحر دسبال وقادة الداس الآخرون، وأباد الرومان جزءاً من هذه الأمة، ولجأ من فاته الموت إلى ما وراء الكاربات. وعاد البلد المدمر إلى محمية رومانية، وبناء على دعوة الحكومة توافدت إليها جمهرة من إيطاليا الشمالية، من دلماسيا، وثراسيا ومن آسيا الصغرى، مساهمين بإكسائها باللباس الروماني سريعاً. لقد أغرت ثروات داسيا الباطنية، هذه الجيوب الذهبية الشهيرة، مارست جذباً فريداً، وفتح عدد كبير من مناجم الدولة أو الخاصة في هذه المحمية.

أتخمت ثروات داسيا الخزينة الرومانية وسمحت بتمويل برنامج الأعمال العامة المكلفة جداً الذي وضعه تراجان. دعم الحصن بثلاثة أسوار حجرية رفعها دومتيان في ميزيا السفلى. وبنى على ضفاف الدانوب الأسفل ميدانين جديدين لفيالقه التي تحرس نقاط العبور الخطرة. وعلى ضفة الدانوب اليسرى، في مولدافيا وبساربيا، أقام الرومان العديد من رؤوس الجسور المنيعة على طول بروث، دنستر وسرث التي سميت هي الأخرى باسم تراجان. ويثبت اسم هذا الامبراطور الذي يصادف في تقاليد السلاف القديمة اتصالاتهم الأولى مع الرومان في تلك الحقبة.

أعد تراجان بكثير من العناية الحرب ضد البارث الذين، في النزاعات الماضية، كبّدوا الامبراطورية الرومانية خسائر كبيرة. فمُنذ العام ١٠٥ و١٠٦، احتل سفير سوريا كورنليس بالما بمبادرته شبه جزيرة سيناء ومساحات واسعة من الأرض بين فلسطين والصحراء العربية، التي شكلت الإقليم العربي الجديد مع مدينتي البتراء وبصرى. من هايتن المدينتين يعبر الطريق الكبير الذي يربط دمشق بالبحر الأحمر، وتحمية تحصينات "الحدود العربية". بدأت الحملة ضد البارث، التي كان باعثها كالعادة الخلافات بين الدولتين حول موضوع أرمينيا التي يرغب ملك البارث تسليم تاجها لابنه، بدأت في العام ١١٤. احتل تراجان، حليف ملكي القفقاس في كولشد وإيبيريا (جورجيا)، كل أرمينيا وولج ما بين النهرين، وهو يعبر مجرى دجلة، استولى على عاصمتي البارث، سلوسيا وستسفون ووصل إلى "محيط"

أي الخليج العربي. وأنشد دخلت الإمبراطورية الرومانية بتماس مباشر مع حضارتي الشرق  
الخالدين: قبيل هذا، كان الجنرال الكبير الصيني بان تشاو قد سحق فلول هونغ فو واحتل  
تركستان، وخيمت طلائعه على الضفة الأخرى للخليج العربي. وأسست على أنقاض  
إمبراطورية البارث ثلاثة أقاليم رومانية هي: أرمينيا، ما بين النهرين، وآشوريا. وكثيرا ما  
حلم تراجان باحتلال الهند.

لكن كما كان الأمر مع الإسكندر المقدوني، فالصعوبات التي تجعل الحملة شبه محالة،  
لم تتخلف عن ذر قرنهما. كانت خطوط التموين والتواصل في ذلك الزمن بعيدة وكأداء.  
والشعب إجمالا لا يمثل كتلة سلبية يمكن إخضاعها وتمزيقها بسهولة. وإن استقبل اليونان،  
الكثير في المنطقة، تراجان بحماس، كما فعلوا مع الاسكندر، وأظهر الإيرانيون لا مبالاة بهم  
بنظامهم الاستبدادي، فالعرب واليهود، المشتتون هنا وهناك بعد دمار فلسطين، خاضوا  
بحزم الصراع ضد الغزاة الرومان. وفي إديس، سلوسيا ومدن أخرى مما بين النهرين،  
شبث التمردات، التي قمعت بالحديد والنار، وأغرقت بالدماء. وعلى شواطئ البحر  
المتوسط، في مصر، في بنغازي، في قبرص، نشبت انتفاضات أعنف وأشرس: حيث ذبح  
الرومان واليونان بعشرات الألوف. واضطر تراجان نفسه أن يعترف أن انتصاراته في  
الشرق كانت مبكرة جدا، ترك مساعده يتمون عمله، وقرر الرجوع إلى روما ومات على  
درب العودة، في آسيا الصغرى، في العام ١١٧.

### أدريان وأنطونين الورع

ب. إيلين أدريانس (١١٧-١٣٨) خلف تراجان. ومن أصل إسباني مثله، كان أدريان،  
العسكري المحنك، رفيق تراجان ومساعدته في كل الحروب. وكان في الوقت ذاته رجلا  
اتقن ثقافة عصره إتقاناً شاملاً. "كان أدريان رقيقاً على كل ما يشد الفضول" وذا معرفة  
موسوعية، وشاعراً، وموسيقياراً ورساماً موهوباً، ونحاتاً معمارياً، رحالة لا يتعب، جوالاً  
أبداً ليرى بعينه كل المناطق الشهيرة. طبيعة متبحرة إلى أبعد حد، يرغب في أن يكون  
الأول في كل مجال ولا يسمح لأحد أن يتفوق عليه بشيء. في السياسة، كان أوتوقراطياً  
حتى الصميم، يرغب في فعل كل شيء بذاته: "إرادة العاهل هي القانون الأعلى" (دجست،  
١، ٤) - كان هذا هو مبدأه الأساسي طيلة فترة حكمه. في تطوافه الدائم في كل الأقاليم، من  
بريطانيا حتى سوريا ومصر يشعر الآخرين برقابته وسهره الشخصي على الإدارة الإقليمية  
وأحوال القيادات العسكرية.

أتقن هذا الإداري الصبور والمتسلط نهج الأرستقراطية الإمبراطورية الذي أرسى أسسه كلود ودوميتيان. جعل الخيالة شريحة من الموظفين الفعليين، منهم ينتقي أتباعه المتنفذين. لم يعد الإحصاء إلزاميا، ويسمى أدريان أيضا المهام المدخرة لصنف الفروسية، بعد عدة سنوات من الخدمة في الإدارة. ومجلس الإمبراطور، مؤلف من أشهر المشرعين، رئاسة المحافظ الإمبراطوري الذي كان في تلك الحقبة عادة، هو الآخر، فقيها كبيرا، يناقش ويعد تقارير لكل الشؤون الهامة، قبل أن تخضع لقرار الإمبراطور. وبأمر من أدريان، يجمع عضو من المجلس، سلفيوس جوليانس، في مؤلف واحد أوامر الحكام مرعية الإجراء، التي تشكل "الأمر الدائم". وبعد اطلاع الإمبراطور وموافقته، يصير هذا المؤلف شريعة الإمبراطورية الأساسية، التي يدخر الملوك احتكار إتمامها. وتصلت صلاحية القضاة السالفين-أي الحكام وقيمي المدن، وشكلت محاكم جديدة مؤلفة من موظفي الحكومة، سموا "قضاة"، موضوعين برقابة محافظ المدينة، الذي يسميه الإمبراطور. يتميز هؤلاء الموظفون حسب تصنيفهم بألقابهم ونعوتهم التشريعية: صاحب سمو، كلي السعادة، نبيل المولد وبتفصيله الهندام وتسريحة الشعر (زركشة الثوب، وعصبة الجبين، إلخ).

على منوال الفلافيين، رتب أدريان اقتصادا حازما بالأموال. ولهذه الغاية ألغى كليا النظام القديم لتلزييم جباية الضرائب. ونظمت جباية المداخل الواسعة للإمبراطورية بعناية فردية جدا. وإدارة هذه المجالات الزراعية الواسعة، أملى أدريان نهجا خاصا يطور ويحدد التعليمات المعطاة في أيام الفلافيين بهذا الشأن. واستنادا إلى النصوص، كانت هذه الأملاك تؤجر لخمس سنين لمتعهدين كبار، وهم بدورهم يؤجرونها، أسهما صغيرة، لـ"مستوطنين" يؤدون ما عليهم نقدا أو عينا، ويعملون ستة أيام في العام بدون أجر (سخرة) على الأرض التي يخصها المراقب لنفسه. ويحق للجميع إشغال أرض موات لكن بشروط. وتنظم نصوص مشابهة استثمار مناجم الدولة ومشروعاتها الأخرى. يفرض على الحكام ممارسة رقابة حازمة على العلاقة بين المتعهد أو المراقب وبين المستوطنين، وقد أوجدوا لدى الإدارة المركزية مهمة محامي الخزينة، الذي كان نوعا من الفقهاء، ملتزما الدفاع عن الخزينة الإمبراطورية أمام المحاكم. ويجب أن تتم المراقبة المالية في أجهزة ومؤسسات الحكومة كل ١٥ سنة.

إن سعة عمل أدريان الإداري، الهادف صهر الإمبراطورية الرومانية الشاسعة في كل

عضوي، أسفرت عن إرجاء المهام العسكرية. كانت حكومته تفضل العمل الدبلوماسي الماهر والمرن. هكذا، لإنهاء حرب الشرق، تخلى تراجان عن فتوحاته فيما بين النهرين وانسحب إلى تخوم الفرات القديم، الأمر الذي أغضب كثيراً بعض رفاقه في السلاح بل وأعدام العديد منهم. لكن وعيه للخطر المتفاقم في الخارج، جعله ينظم الجيش بشكل مثالي. خلق تجريدات خفيفة، مؤهلة للاستطلاع والمناوشات على الحدود. وجهز الجيش الروماني لأول مرة، على نمط السرمات والبارث، بألوية من الخيالة الثقيلة، مسلحة بالدروع. وأولي تحصين منطقة حدود الدانوب والرين عناية خاصة وضخمة. وفي بريطانيا، شيد من بحر إلى آخر "جدار أدريان" الجبار، والذي ما يزال قائماً في شمال انكلترا.

كانت القوات المسلحة ضرورية أيضاً لقمع الاضطرابات الداخلية والتمردات التي بدأت تأخذ طابعاً خطراً أكثر فأكثر. وقد قسى أدريان أكثر من تراجان على الشعب اليهودي المتمرد. وتصلف حتى منع إقامة محفل السبت، وأقام في مكان القدس المستوطنة الرومانية إيليا كبتولينا، ورفع معبداً لجوبيتر في نفس مكان معبد يهوه. أثار هذا العمل تمرداً جديداً أكثر عنفاً من سابقه، فقد تمرد سكان فلسطين اليهود، بقيادة زعماء كفء - الكاهن ألعازر وسيمون المسمى باركوشبا "ابن النجم"، الذي يراه اليهود مسيحاً *Messie*، أرسله الله لإنقاذ "الشعب المختار". وفي بداية الخمسينات من القرن العشرين، عثر في كهف مجاور للبحر الميت على رسالة موثوقة من ابن النجم إلى قائد قوة متمردة. استولت الجماهرة الناضبة على إيلياكبتولينا، وذبح المستوطنون الرومان عن آخرهم. وتوجب مرور ثلاث سنوات (١٣٢-١٣٥) لقمع تمرد أهالي يهودا الثاني. وبنفس أساليب التقدم البطيء، كان الرومان يبيدون كل من وجدوه في دريهم، حتى أخضعوا هذا البلد البائس للسلطة. وعادت فلسطين صحراء. ومنع من بقي حياً من السكان اليهود زيارة القدس، سوى مرة واحدة في العام. واضطروا لوضع حامية من فيلين جاهزين لاستتباب "النظام" في هذه المدينة، الذي لم يضطرب بعدئذ.

لقد اعتبر عهد أنطونين (١٣٨-١٦١)، خليفة أدريان، لدى الطبقة السامية في مجتمع روما وكل حوض البحر المتوسط، حقبة الازدهار الأولى في الامبراطورية الرومانية، ولدى الامبراطور نفسه الملك المثالي. لهذا السبب بقيت صفة "الورع" مرتبطة تقليدياً باسمه. مثل تراجان، وأدريان، ممثلي الشريحة العليا من النبل الإقليمي، كان أنطونين أحد

أنباء أسرة أوليس نربون، الغنية والشهيرة، التي امتلكت أطيانا شاسعة في الغول وإيطاليا. كانت العلاقات طيبة ومستقرة بين الإمبراطور ومجلس الشيوخ، المؤلف منذ الآن بمجملة من الأغنياء الإقليميين مثله. عادت إدارة إيطاليا إلى مجلس الشيوخ (في عهد أدريان، كان يحكمها قناصل يسميهم الأمير)، وكان هذا الأخير شريكا بإدارة الأقاليم والسلطة التشريعية؛ ولم يعدم أي عضو من مجلس الشيوخ طيلة عشرين عاما. وكان هم الإدارة الأساسي تسوية أمور المال وشؤون المحاكم. قال ماركس واصفا حكومة أنطونين: "في عهدهما ازدهرت المحميات، ووضع حكامها تحت مراقبة حازمة".<sup>١</sup>

لكن الواقعة المتميزة في إنهاك روما المستمر، هي رفض الأمير بعناد أي غزو خارجي. "كان أنطونين يفضل حياة أي مواطن على أن يقتل ألف عدو"، كتب أحد كتّاب سيرته. وكان يسعى لترسيخ وضع روما بتسليم عروش الدول الحدودية لدمسى وإمعات رومانية. وهكذا أعطى عرش البوسفور لرومتالسي، الذي يأتي إلى روما ملتصقا بهذا الفضل. وتراجعت الحروب إلى عمليات حدود ضيقة في بريطانيا، حيث وسع الرومان أرضهم ١٠٠ كم نحو الشمال، وعلى الرين. وعلى ضفاف البحر الأسود الشمالية، وأجزاء من القفقاس الشمالي، القائمة في مدن البنت الأغريقية، وبخاصة، في أوليا؛ لكن قوات ميزيا الرومانية سارعت لموازة هذه المدينة الأخيرة وحالت دون نهبها.

وفي أمكنة كثيرة تمت أعمال تحصين دفاعية جبارة وبخاصة على الحدود، كـ"جدران أنطونين" (المصانة حتى الآن في بريطانيا). وقد سارع الإمبراطور الروماني، لدى إحساسه بنفاذ ديناميته الدفاعية، وأغلق أهم حدوده، في وجه العالم البربري الواسع المحيط به.

شارفت "حقبة السلام الروماني الطويلة" على الانتهاء؛ وأفل "العصر الذهبي" للإمبراطورية الرومانية في بداية النصف الثاني من القرن الثاني. وبعد موت أنطونين الورع في العام ١٦٦، وجدت روما نفسها في وقت واحد أمام إمبراطورين، مار أوريل ولوسيس فيرس. ابن الميت المختار. ولقد استبعد الانشقاق بين الحكام هذه المرة بفضل،

<sup>١</sup> - ك. ماركس: ملخصات تاريخية، أرشيف ماركس وأنجلز، المجلد الخامس، ص ٦ (منشورات روسية).

ولاشك، شخصية مارك أوريل الفذة، هذا "الفيلسوف الملك"، كما دعي في القديم، مؤلف كتاب بعنوان "لذاته"، أعظم أبدة من الفكر الرواقي القديم. ورغم عجز زميله التام، احتمل مارك هذه الثنائية بالسلطة طيلة ثماني سنوات، أي حتى موت لوسيس فيرس في العام ١٦٩. لكن هذا الاقتسام للخطر للسلطة بين إمبراطورين يحكمان معا كثر جدا.

لقد تلا "السلام الروماني" الطويل الذي ميز عهدي أدريان وأنطونين عهد جديد من الحروب، يوم وجدت روما نفسها من الآن في خط دفاعي. إذ كان يمارس ضغط عنيف في وقت واحد على القطاعين الأخطر للحدود الرومانية، الفرات والدانوب. وفي العام ١٦١، غزى ملك البارث فولجوير اعتمادا على قلة خبرة خلفاء أنتونين وعلى البلبلة التي امل وجودها بينهم، غزا أرمينيا، وطرد من العرش صنيعة الرومان، سوهموز، ووضع مرشحه مكانه. ودحرت قوات الحكام الرومان التي حاولت المقاومة في كبادوس وسوريا، وانتشر البارث كالشلال في سوريا. فاضطر حكومة مارك منذ أيامها الأولى تقريبا أن تحشد كل جهودها في تجهيز حملة إلى الشرق دامت أربعة أعوام بالتمام (١٦١-١٦٥). وكانت بداية هذه الحرب سعيدة جدا لدى روما.

نظفوا سوريا وأرمينيا من البارث، وتغلغلوا بقيادة أفديس كاسيس، حتى اعماق ما بين النهرين، ومرة ثانية في التاريخ، استولوا على عاصمتي البارث، سلوسي وستسفون (فسي هذه الأخيرة أحرقوا القصر الملكي). لكن مارك أوريل لم ينجح بتسوية قضية الشرق نهائيا: إذ لم تعد القوات الرومانية تكفي للنهوض بهذه المهمة. فضلا عن جائحة الطاعون التي أضعفتها وانتشرت في أصقاع الإمبراطورية. غطت القوات الجاهزة في الشرق حدود ميزيا، وتفاقم ضغط شعوب شرق الدانوب. لهذا السبب وقع الصلح مع البارث في العام ١٦٦. أخلى الرومان ما بين النهرين، وحافظوا على رأس جسر على الضفة الفرات اليسرى.

وفي العام ١٦٨، اجتازت الشعوب الجرمانية الدانوب: المركومان، الكواد، والفندال، التي انضمت إلى سارمات-إيازيج، متجهة إلى الإمبراطورية الرومانية التي أضنتها الحرب، والطاعون والجوع. وخرق سور الدفاع الروماني في الأقاليم الشمالية الأربعة: رينيا، نوريك، بانونيا وداسيا. وفتحت عنوة معابر الألب الحصينة ودمرت كل ما وجدت في دربها، وانتشرت في فينيسيا وحاصرت أكيلي. وحشدوا بسرعة كل القوات الجاهزة،



وجندوا بعض المصارعين والعبيد، فاضطر الامبراطوران للتعرض شخصياً لهذا الخطر الداهم الآتي من المركومان. فأجبر مارك أوريل على قضاء ماتبقى من عهده على الحدود الشمالية، ساعياً إلى دحر المركومان، الكواد والإيازيج إلى وراء جبال بوهيميا والكاريبات ليحمي الامبراطورية من هذه الجهة بهذا الحصن الجبلي الجبار وسد طريق الغزاة. وهكذا استقرت القبائل البربرية، الراغبة في خدمة الرومان، على طول الحدود، الأمر الذي أدى إلى انتشار الروح البربرية في الجيش الروماني.

وفي هذه النقطة أيضاً، لم يستطع مارك أوريل إنجاز عمله. بدأ الدفاع الروماني ينذر بالخطر من كل الجهات. وصار الوضع قلقاً في بريطانيا وعلى الرين. وكانت إسبانيا معرضة لغزوات القرصان البربر من موريتانيا. ونشبت انتفاضات واضطرابات في الأقاليم الشرقية. وفي مصر، كان الرعاة المتمردون، الذين لجؤوا إلى الجزر المستنقعية والمنيعه في الدلتا، قد دمروا جيشاً رومانياً ومشوا إلى الاسكندرية، بقيادة الكاهن إزودور. وفي سوريا، كان الحاكم الروماني، أفديس كاسيس، بطل الحرب ضد البارث، قد رفع راية التمرد وأعلن نفسه امبراطوراً. فاضطر مارك أوريل سحب قوات من الدانوب على عجل للتصدي لكاسيس. لكن هذا الأخير، تخلى عنه أنصاره، وقتله ضباطه. وازداد الوضع تعقيداً بموت مارك أوريل بالطاعون، في العام ١٨٠، في فيينا، أمام نقاط الدانوب، حيث كان يعد حملة جديدة ضد الموكومان.

تفاقمت الأمور أكثر، طيلة ١٣ سنة وهي حكم كومود (١٨٠-١٩٢)، ابن مارك أوريل؛ وتبدى الانحطاط في بلاط السلطة المركزية. وكومود، الرجل الفظ، التركيبية الحية لأبيه، ماكان يرتاح إلا بين المصراعين تاركاً محظييه ومخطيائه يحكمون مكانه. مع أن هؤلاء كانوا قد قتلوا عدداً كبيراً من رفاق سلاح أبيه ومزقوا إدارة الامبراطورية. أوقف كومود الحرب ضدالجرمان، بعيد مجيئه، لأنه كان راغباً عن التضحية بمسرات حياته في العاصمة لقاء أي أمر خطر. وفي ٣١ كانون أول ١٩٢، خنقه ندماءه في غرفة نومه.

هكذا انتهت أسرة الأنطونيين و"العصر الذهبي" للامبراطورية، كاشفاً عن إمارات الضعف السياسي لنذير شؤم. ولاحت في الجو بوادر أزمة أكثر خطراً في وضع الدولة الداخلي. كانت هي التي حددت، إجمالاً.

## الفصل الثالث والستون

### العلاقات الاجتماعية والاقتصادية

#### في القرن الثاني الميلادي

##### أعراض الأزمة

لقد نجم الضعف المتنامي في الإمبراطورية الرومانية في نهاية القرن الثاني، في شطره الأبرز، عن فقر إيطاليا، مركزها الدائم. لم يكن الاقتصاد الإيطالي متطوراً، لأنها اعتادت الحياة على ثمار نهب الأقاليم. ولم يتكون فيها، كما في اليونان والشرق. مراكز مهنية ضخمة. بل استمرت صناعة الخزف الفني القديم في أرنييوم، وحتى الأتروسك، مزدهرة لبعض الوقت، في القرن الأول، وكذلك غزل الصوف في مدن شمال إيطاليا وصناعة بعض المعادن، الآتية من اليونان (البرونز والحديد، والفخار والآجر في كامبانيا (في كيمس وبومبيه، مثلاً). لكن هذه الورشات الصغيرة كانت تخدم بخاصة الزبون المحلي، وماعدا صناعة الفخار في أرنييوم، استبعدت أيضاً في القرن الثاني أمام منتجات ورشات الغولوا، ولم تعد تلقى منافذ تصريف خارجية.

في القرن الثاني، انتقلت الزراعة الإيطالية من الازدهار إلى البوار: وكان الأباطرة قد تراجعوا ليكرهوا أعضاء مجلس الشيوخ على شراء الحقول واضطروا للنضال ضد محاولات تطوير المراعي على حساب الحبوب والأشجار المثمرة. كان بليين الشاب، معاصر تراجان، يشكو باستمرار في رسائله خراب المالكين الصغار والمزارعين، وينسبه لـ "سوء الزمن". ويرثي الانخفاض العام لقيمة الأرض: إن الحقل الكبير الذي كان سعره لا يقل عن ٥٠٠ ألف سسترن، هو الآن بأقل من ٣٠٠ ألف.

رغم صدور عدد من القوانين لدعم الأسر عديدة الأفراد، لم تكف نسبة المواليد عن الانحدار، واضطر كل أباطرة أسرة أنطونين إلى بسط أكثر فأكثر نهج "المؤسسة الغذائية". وفي المجتمع الروماني-إيطالي، برزت اللامبالاة السياسية، والهروب من التزاماتها

الاجتماعية، وبخاصة، الخدمة العسكرية، وتقهر الحياة الخاصة، والكل يترافق بانحطاط أخلاقي عميق، وتسيب معنوي رهيب. وبالتالي، عزفت روما، يعني إيطاليا، عن تبوء مركز الصدارة، أمام أمصار الإمبراطورية الرومانية الشاسعة. ولم تعد سوى طفيلي أعرج، يقبع في أعلى مستويات الشراة.

بالعكس، في الأقاليم، في أيام الأنطونين، أدركت الحياة الاقتصادية والثقافية أوجها. وكان الشرق قد أبل من أضرار سيللا، لوكيلس، بومبيه، قيصر، بروتس وكاسيس الرهبة. وبعثت إلى الحياة مجددا المراكز الصناعية والاقتصادية في بيتينيا، بيرغام، سوريا ومصر، بمهنا الباذخة المتطورة-كالأنسجة والسجاد. أوراق البردي، والعطور والخزف الفني، وغيرها.

نمت بل ازدهرت صناعة الخمور في جزر بحر إيجه، والزيتون، والزراعة الصناعية، لكن الأقاليم الغربية بدأت تراحم الشرق. ففي الغول وفي جرمانيا الغربية (على شواطئ الموزيل)، حدد اتساع استخدام اليد العاملة العبدية انطلاقا اقتصادية واسعة: تحول الكثير من الأرض إلى زراعة الكروم وعبثا أمر دومتيان بقلع نصف الأشجار لأن لاتراحم مصانع النبيذ في غول وموزيل مثيلاتها في إيطاليا. وفي غول، بخاصة في الميدي، وضاف الرين، ولدت أيضا مراكز ضخمة للصناعة الحرفية: تعدين، نسيج، خزف، زجاج، التي انتشرت منتوجاتها في كل أوروبا الوسطى، وبريطانيا وأسبانيا. وأضحت أقاليم الدانوب، وبخاصة، بانونيا وميزيا، أهراءات روما الجديدة، التي لاتقل وفرة عن سيبيليا. وخطى التعدين خطوات واسعة في إسبانيا، حيث استخرج بكميات كبيرة الذهب، الفضة، النحاس، الرصاص والقصدير. وكانت نوريك<sup>1</sup> شهيرة بحديدها، وداسيا بذهبها. وأنشئ عدد كبير من المدن العظمى: لندن، نربون، ليون، تريف، فيينا وغيرها في أفريقيا. وارتفع عدد منها إلى مصاف المستعمرات الرومانية، وحصل سكانها على حق المواطنة، وصار غيرها بلديات، وثالثا كغالبية الحاضرات اليونانية، كانت تتمتع بالاستقلال وتعتبر "أحلافا" أو "كأحرار".

وتكرس العديد من الأقاليم ومدنها العظمى للمبادلات الاقتصادية المتزايدة ازدهارا،

<sup>1</sup> - إقليم قديم في الامبراطورية الرومانية يقع بين الدانوب والألب الكرني-المترجم.

مستبعدة إيطاليا المفتقرة والمنحطة، لا بل عابرة إلى توسط المفاوضات، مع رجال الأعمال الرومان. وكانت التجارة الخارجية كلها بين يدي تجار إقليميين. وبدأ التجار اليونان والسوريون أسفار عمل طويلة إلى الهند وسيلان، بمساعدة الرياح الموسمية التي اكتشفها بحارتها؛ ووصل البعض إلى الصين. وأتوا بالتوابل، والحجارة الثمينة، والأنسجة الهندية والخزير الصيني. كان التجار الغولوا يهبطون إلى الرين والدانوب؛ وعبر نهر الفستول كانوا يصلون إلى البحر البلطقي واسكندنافيا. ولقد عثر على مخابئ نقد رومانية على المجري الأسفل لنهر دفيينا الغربي، حوالي ريغا، في جزيرة غوتلاند.

بفضل ممارسة الاستقلال البلدي، المدعوم أكثر فأكثر، خيمت حياة سياسية متوثبة في مدن الإقليم، كما تشهد العديد من المخطوطات؛ تذكر هنا الحملات التي تسبق انتخاب قضاة المدن (قادة العشرة، قيمو المدن، أمناء بيت المال)، ونشاط مختلف التجمعات المهنية (الهيئات)، تواتر المؤتمرات لممثلي الأقاليم كلها، المدعوة للاجتماع بحجة إرسال إمارات الإخلاص للإمبراطور، ومناقشة المتطلبات المحلية وإطلاع السلطات على شكاويهم ورغباتهم. أشهرها التجمعات الإقليمية في لودنم (ليون)، حيث كان يلتزم نواب مختلف مناطق الغول، وتجمعات الوفود من خمس مدن (المدن اليونانية الخمس الواقعة على شواطئ البوننت الشمالية) في تومس، التي تنظم الاحتفالات العامة، والألعاب، وسواها. إذ كانت المدن قد اعتادت أن تعيش حياة مستقلة، وقد ذرت قرنها هنا تيارات انفصالية قوية: وتوارى كل اهتمام بنشاط الحكومة المركزية.

إلى جانب رموز التفكك السياسي هذه، بدأنا نلاحظ بدءا من النصف الثاني للقرن الثاني إمارات بالغة الدلالة على كساد وانحيار الاقتصاد المبني على اليد العاملة العبدية. "لقد أقل زمن العبودية السالفة... ولم يبق أي شارة تستدعي بقاءها.."، كما دل أنجلز.

في القرنين الأول والثاني، كان يمكن أن نلاحظ، خاصة في الأقاليم، تطورا ملحوظا بوسائل الإنتاج. فقد ظهر في اليونان وشمال إيطاليا عربة ذات عجلات وسكة محراث عريضة، وفي الغول استخدمت الحاصدات، وانتشرت طواحين الماء، وفي الورشات بدأوا باستخدام الرافعات، الأجر المشوي بعناية وحتى الإسمنت أو الملاط. وعرفت أدوات المهن أيضا تحسينات هامة، كما تشهد التنقيبات الأثرية، وبخاصة، تنقيبات بومبيه. وبدأت اليد العاملة تشكل عقبة في وجه أي عقلنة للإنتاج، والحفاظ على استخدام الأداة الأكثر بدائية،

الأمر الذي كان يخلق حالة تنافى تقدم وسائل الانتاج. ففي زمن أرسطو، حسب قوله هو، "كان العبد أفضل شكل للملك"، وفي القرنين الأول والثاني، صار امتلاك العبد أحد الأشكال الأخطر والأسرع زوالاً. ولقد شرعوا تمرداً متنامياً أبداً ضد سادتهم. في الأرجح تراجعت التمردات عما كانت في القرنين الثاني والأول ق.م: فالإدارة الحازمة وأمن الامبراطورية اليقظ كانا يخنقان مواطن التمرد منذ أول شرارة. هكذا، في عهد تيبير، في العام ٢٤، بدأت ترتسم حركة عبيد في أبوليا، قادها حاكم في المعاش، ت. كورتيسيس. فأرسل على الفوج فوج ضارب من روما، بقيادة أحد محامي الشعب، "قبض واقتاد زعيم الحركة ومساعديه الكبار ليلقوا عقابهم" (تاسيت، الحوليات، ٤، ٢٧). لقد نشبت ولاشك انفجارات صغيرة أخرى من هذا النوع، لكن مراجعنا رأتها غير جديرة بالإشارة.

في عهد الامبراطورية، كان العبيد يعبرون عن حقدهم وكرهم لسادتهم بخاصة يقتل هؤلاء الأخيرون والوشايات المستمرة، الكاذب أكثرها، طبعاً، والتي تعرضهم إلى إرهاب الطغاة مثل نيرون، دومتيان، كومود وتضعهم في أقسى حالات الإنذار الدائم. والمثل الروماني "كلما كثر العبيد كثر الأعداء" كان دائراً في هذه الفترة.

أخيراً "نوعية" العبيد ذاتها قد ساءت: هم الآن "برابرة" حقيقيون: جرمين، سرقات، داس، إلخ. لأن نهج استعباد الشعوب المتحضرة صار من مخلفات الماضي، كانت الأقاليم قد صارت أعضاء بحقوق متساوية في المجتمع الروماني. وانقطعت سبل وفرة العبيد، أي العمال الموصوفين. فشرعوا يعتنون بهم ويحاولون استخدامهم بطريقة أكثر تعقلاً: ترك الكثير منهم حراً يعمل في الخارج لقاء أجر أو مرتب: وأعطوهم وقرأ، بشكل قطعة أرض، حانوت، ورشة، وأعتقوهم، مع إبقائهم في عهدة السيد، وأعفي هذا الأخير من رعايتهم أو الاحتفاظ بهم.

تبدلت بالتالي النظرة إلى العبيد وحتى طريقة معاملتهم. فمنذ أواسط القرن الأول الميلادي، أمر كولميل "الرأفة بالعبيد". ولم يعد السيد يأنف من الحديث معهم وحتى ممازحتهم. كان سنيك يؤكد أن العبودية غير طبيعية، معادية للطبيعة والحرية حقهم؛ "أنت والعبد من طبيعة واحدة"؛ "عبيد، هم هؤلاء! لا، إنهم ناس، رفاق حياتنا، أصدقائنا المتواضعون". رد أدريان وأنطونين قرارات تمنع السادة من قتل عبيدهم؛ وحرّم أيضاً بيع الزوجين كل على حدة؛ وأعطى العبد حق الوصية، إلخ. لا باعث لهذه الإنسانية، طبعاً،

سوى الرغبة في الحصول على أكبر فائدة من العبيد بتحسين شروط حياتهم. في الريف بدأ الاستيطان يتسع جدا ويمهد للعبور إلى أشكال جديدة لاستغلال المنتجين المباشرين "كان المستوطنون طليعة أقدان القرن الوسيط"، كتب أنجلز، منطلقا من أن وسائل الإنتاج كانت بعهدة المنتجين أنفسهم. كان هؤلاء المستوطنون من أصول عديدة: عبيد مقيمون في الأرض، برابرة أتوا يعيشون على الأرض الرومانية، وبخاصة، جماهير من أحرار المدن، استأجروا أسهما ومزقا من أراضي الحقول الشاسعة. وقد قبل مالكو الأقطان الوفيرة نهج المزارعة الضيقة ولم يحرقوا سوى الجزء الأصغر من أراضيهم عن طريق العبيد. وفي القرن، كانت المزارعة بعامية تتم بأجر عيني (حوالي ٣/١ المحصول)، وكانت العادة تنتشر أكثر فأكثر في الأقاليم طلب عمال مرتبطين بأرض مزروعة بل أيضا مستوطنين أحرارا، سخرة لمصلحة المالك، الذي كان قد أجر جزءا كبيرا من الحقول وبالتالي يؤجر من الباطن إلى فلاحين صغار. هذه السخرة، الخفيفة في البداية (٦ أيام بالسنة) تنقسم بالتدريج، جراء تحكم وتعسف كبار الملاك وأغنياء المزارعين المستأجرين؛ وتزداد أيضا الأتاوات والمداخل، بخرق العقود والنصوص الشرعية؛ وبحجة ديون متخلفة، كان المستوطنون في غالب الأحيان يمنعون من ترك سهمهم في نهاية الأجرة، ويقترب شرطهم أكثر فأكثر من العبيد الأقدان.

يمكن تصور هذه الحالة بوضوح، بفضل مخطوط أو رقيم مفصل كشف في الإقليم الأفريقي في العام ١٨٧٩، وهو عبارة عن عريضة مرفوعة إلى الإمبراطور كومود من مستوطني حقل ساتس برنتانس الإمبراطورية (الذي سمي الرقيم باسمه)، ليشكوا عسف وكيد المزارعين المستأجرين والموظفين الذين يحمونهم. "ارحمونا، يكتبون للأمير، وتفضلوا وأمرهم بأمركم السامي أن لا يطلبوا منا أكثر مما نص عليه القانون إديان وأوامر ولا تكلم، أي بثلاث مرات وأن لا نتطلع نحن، فلاحيك، من أراضيكم، ونخضع لكيد مستأجري حقول الخزينة". وأجاب الإمبراطور على هذا الاسترحام: "... على المستأجرين أن لا يطلبوا منهم ظلما وعسفا، وأن لا يخرقوا الأصول الثابتة"، لكن هذا الأمر، الذي لم يكن أكثر من أمنية، معتدلة جدا، بقي بدون مفعول، طبعا، وتتابع استعباد المستوطنين بدون توان أو تهاون، بل بإيقاع متسارع أبدا.

١ - ف. أنجلز. أصل الأسرة والملكية الفردية والدولة، ص ١٣٩.

وهكذا وعلى أبواب القرن الثاني الميلادي، قارب "العصر الذهبي" لإمبراطورية  
الاستعباد بكل وضوح نهايته، واتضحت أكثر رموز الأزمة الاقتصادية والاجتماعية العميقة  
التي ستسفر عن الانهيار التام للنهج الذي أسس على ظهر العبيد والعبودية.

## الفصل الرابع والستون

### الانحطاط الثقافي. ظهور المسيحية

#### الحضارة في القرن الثاني الميلادي

يسمى عهد أنطونين أحيانا "قرن النور". ليست هذه العبارة صحيحة إلا إذا نظرنا نظرة سطحية لتطور الحضارة الرومانية وانتشارها على بقعة واسعة جدا.

صارت روما بالفعل في ذلك العصر المدينة الأعظم والأجمل من كل مدن حوض البحر المتوسط أو، كما كان يقال بحرارة أنثذ "في العالم" أهلة وراقية (كانت حضارتا الهند والصين غير معروفتين جيدا لدى اليونان والرومان). كان المظهر الخارجي لروما قد تغير كثيرا بعد حريق عامي ٦٤-٦٩. كان آل فلافيوس قد أنجزوا أعمال ترميم باهرة. وفي عهد آل أنطونين الأول، بني فورم نيرفا الرائع وفورم تراجان، المحاطان بأبهة مدهشة، ومنها مكتبة أولبيا المتميزة بديكورها الفريد. هنا كانت تنهض مسلة تراجان الجبارة، وقد علاها نصب ذهبي للإمبراطور يشكل الضريح قسما منه: داخل القاعدة حفظ رماده في مرمدة ذهبية، وكان جذع المسلة مزدانا بمنحوتة رائعة تمثل حملته ضد الداس. وكان أدريان قد أعاد بناء البانتيون ببذخ لا سابق له؛ وبني، هو الآخر ضريحا ومد جسرا على التيبر لوصله بالمدينة. وليحتفي بذكرى انتصاراته على ماركومات والسرقات، كان مارك أوريل، مثل تراجان، نصب مسلة أخرى ارتفاعها ٣٠ م، (لكن نصب الامبراطور استبدل برسم لرسول). وكان الأعيان، اقتداء بالإمبراطور، قد بنوا مقامات في المدن رائعة ودارات في الريف. كانت شوارع روما مبلطة تحفها السواقى من الجانبين؛ والينابيع التي تزين الميادين تتضح الماء المجلوب من بعيد بالأقنية.

وكان ذوق اللياقة والرفاهية منتشرا بسعة في الأقاليم بواسطة الأعمدة، وأغنياء التجار، والموظفين والعسكريين الرومان. وكانت أقاليم الغرب والشمال الأكثر قبولا للرومنة: أسبانيا، غول الجنوبي، جرمانيا الرينانية، وأقاليم وسط وأسفل الدانوب. وفي



شوارع مدن الإقليم يدور العابرون تحت أروقة على النمط الروماني، وشيدت الكاتدرائيات والأقنية، والصهاريج، والأحواض والينابيع، والحمامات والمدرجات والسيركات. عشرات المدارس فتحت، تدرس اللغة والأدب اللاتينيين (هذه الحياة المدرسية مقدمة بشكل حي نشط على المنحوتات التي عثر عليها في تريف). كان أساتذة البلاغة يأتون ليعلموا فن البلاغة والفصاحة للشعبية الإقليمية. وكانت الاجتماعات العامة، حيث تلقى الخطب وتقرأ أعمال الشعر والنثر، من بنات التطور؛ وكانت توجر أوسع الأبنية لهذه الغاية. وكانوا يرسلون الدعوات للعلماء ورابطاتهم. وكانت اللغة اللاتينية تسمع حيثما توجهت، وليس بدون أخطاء صرفية-نحوية.

لكن بدءاً من منتصف القرن الأول الميلادي، تحقق في الأوساط العبودية للإمبراطورية الرومانية انحسار واضح جداً بالنوعية، في كل المجالات الثقافية. يعلل هذا قبل كل شيء بفعل استرخاء النهج الإمبراطوري الذي يقسم المجتمع إلى أغنياء، مالكي العبيد: يسبحون برغد العيش، وإلى جانبهم شريحة لا تملك شيئاً "ومحرومة من كل حقوق الدولة مع أنها حرة، كذلك العبيد لا يملكون أي حق أمام سادتهم"<sup>١</sup>. إن الإمبراطورية تقمع كل تعبير عن الشؤون الاجتماعية، بخاصة إذا صدر عن الشعب. هذا هو سبب الاضطهاد الشرس الذي تعرض له فيدر *phedre*، كاتب الحكايات الأسطورية في حكم أسرة جوليو-كلوديين. (وصلنا منها ١٣٥، وفي حياته نشر خمسة كتب)، يترجم فيدر، المعتق المسكين، بشكل استعاري، احتجاج الطبقة السفلى، المقموعة في روما، وكرهها "للعتاة والمتجبرين" في نظام الأباطرة الدموي، وعسف محظييه المفضلين، وبخاصة سيجان *Sejan*. كانت حكايات فيدر واسعة الانتشار بين الناس المساكين، ونجد ذكراً لها في النقوش الأثرية لجدران بومبيه.

لقد أسفر نير الإمبراطور الثقيل عن نشر، حتى بين أوساط سادة هذا المجتمع العبودي، روح تبلد الذهن، إطفاء كل اهتمام بالشؤون العامة وتحريض بالعكس على شراهة المتع الجسدية الأخس. كان في كل مجالات الفن، الشكلية، الذوق السطحي والأسلوب المصطنع، على حساب الأساسيات. هكذا كانت تراجيديات سنيك الغامضة والمهذبة،

<sup>١</sup> - ف. أنجلز، "برونو بوير والمسيحية البدائية"، ك. ماركس وف. أنجلز، "في الدين" ص ١٩٦، دار المنشورات الاجتماعية، باريس ١٩٦٠.

مربي نيرون-أوديب، أغاممنون، ميدي، فيدر، إلخ... التقليد البلاغي للنماذج اليونانية الشهيرة؛ وبمقتضى التطير الذي كان يغمر كل المجتمع الروماني يومئذ، كان العنصر التراجيدي واضح جدا في هذه الأعمال المفعمة بالمجازات البغيضة والمشاعر المفرطة. ومثل آخر على التشدق المنتفخ نجده في "المديح الدعي" لتراجان، المليء بالمداهنة الخسيسة، التي كتبها بلين *Pline* الابن، الغني والموظف الكبير، صديق الأمير. فكان تملقه وإطراؤه، خلال القرون الثلاثة التالية، نموذج الكثير من المسرحيات الأخرى من هذا النوع، أي تقرير الأمير-الملك. ومجموعة رسائل الكاتب ذاته (١٠ كتب)، عمل من قيمة أدبية أخرى نهائيا، رغم أن أسلوبها ما يزال توفيقى ومصطنع، رغم أهميتها من حيث الأساس وتشكل سيماء وثائق تخولنا الحكم على الوقائع الاقتصادية، والطرق الإدارية، والثقافية في حياة وأخلاق المجتمع الروماني في بداية القرن الثاني. والكتاب العاشر، المتضمن مراسلة بين بلين وتراجان، يقدم أهمية فريدة.

وقد تحول فن السخرية والهزء، وهو النوع المهيمن منذئذ في الأدب الروماني، تحولا ملحوظا. اضطروا الساخرون إلى التخلي عن نقد السياسة الراهنة، كما فعل بجرأة لوسيليس سابقا، وكذلك كاتول، في هجائياته، وهوراس أيضا في أول سخرياته، واكتفوا بنقد عيوب مختلف الأوساط الاجتماعية، وأحيانا لبعض الأفراد، وفضح بعض الوقائع الماجنة في الحياة الخاصة، وتمزيق الأخلاق العامة. بهذه الروح أتى فالريس مرتيالس (حوالي ٤٢-١٠٢)، من إسبانيا إلى روما حيث عاش في كنف وجوه القوم، وكتب في عهد دومتيان وتراجان هجائيات عديدة (١٢ كتابا)، فيها الكثير من السطحية، لكنها على ذلك قارصة: خلف السخرية، لم يهاجم بعمق لكنه يحسب أنه يصف بنوع من الحسد سلوك المتملقين الماجن، وبعمامة، حلقات من أعيان العالم الروماني؛ يأخذ غالبا هدفا لسخرياته معلميه السالفين الذين خالطهم وخالفهم. ويهزأ أيضا من المعتقين المغتنيين، من الأطباء الدجالين، من المحامين ذائعي الصيت، من الخمارين المحتالين، ومع ذلك كان مستعدا لأن يزحف أمام الأغنياء، ليظهرهم "معلمين طبيين"، كراما مع الفقراء المعدمين. وكان مارتيال مَاهرا بوصف حياة هؤلاء البؤساء. وبعد ٢٠ سنة، خضع دسمس جونييس جفناي (حوالي ٥٥-١٢٧) إلى نقد أقذع وأخشن، في الـ ١٦ أهجية، وزعزعة المجتمع الروماني. وجوفنال، المالك الريفي الصغير، الذي عاش لهذه الظروف في وضع أكثر استقلالية من مارتيال،

يفضح بلا تردد حياة الأغنياء والأعيان العابثة، والمنهل الجرمي لثرواتهم، وتملقهم ومداونتهم الكبار بشكل مخجل، وقسوتهم مع ضعاف الناس وأخلاقهم الهابطة. وفي أهجيته السادسة الشهيرة، يشخص جوفنال انحلال أخلاقية نساء عليّة المجتمع الروماني، فظاظنتهن غير الانسانية مع نساء عبيدهم، اللواتي يتحملن إزعاجاتهن وتطيرهن وباقي العيوب. ويذكر جوفنال بأسى عميق الحياة المتضورة التي يعيشها فقراء روما، المتخمة بالذل والضعف. لكنه لا يدعوهم للاحتجاج بصورة نشطة بل يكتفي بنصحهم بمغادرة بأسرع وقت هذه الحياة المدمرة والبحث في القرية عن حياة أهدأ وأكرم.

فالحياة، الأخلاق، الأذواق الأدبية، مفهوم عالم الشرائع الوسطى والسفلى للمجتمع الروماني في القرن الثاني مكتوبة على الشكل الأروع في رواية خيالية رائعة بعنوان "التحولات" (أو الحمار الذهبي). كاتبها، أبولي (منتصف القرن الثاني-بداية القرن الثالث ميلادي) مواليد أفريقيا، فيلسوف من التيار الأسطوري وعالم البلاغة، دار كل العسلم ورأى كثيراً من الأشياء، يقص مغامرات الشاب لوسيس، المتحول حماراً بقوة السحر. هذا ما خول أبولي، ناقلاً بطله من سيد إلى آخر، أن يبسط أمامنا رواقاً من الرسوم واللوحات الشخصية تمثل الشرائع الاجتماعية الأكثر تبايناً، ويرصع قصته بكمية من الأحداث المتباينة والأنباء الأسطورية كقصة في الحب والروح *Amour et psyche* الشهيرة) وتبيل كل هذا بقصص من الأحداث الاعجازية، الافتتان، العبادات الأسطورية والتعزيم. على ذلك تنتهي الرواية بأعجوبة: يستعيد لوسيس الشكل الإنساني، برعي بعض فسلات الورد من تاج الكاهنة إيزيس الذي يمشي على رأس موكب على شرف الآلهة. وتتناوب عناصر الهزء أو السخرية، الخيالية والأسطورية كارتياً مع مشاهد غزلية لمعالجة واقعية تماماً ترضي أذواق الناس الأكثر تبايناً، الأمر الذي أسهم بشعبية واسعة لهذه الرواية في مجتمع يبحث عن إخلاء البشاعات الواقعية من العالم الخيالي والأحاسيس الحية.

لكن أبرز ما يميز هذا العصر المنحدر ثقافياً هو طرد من المسرح الأعمال الجادة، التراجيديات والكوميديا، الباحثة في الراهنية، وإحلال محلها هذه الهزليات الماجنة المسماة "إيمانيات"، أغلبها فاحشة محظورة تداولها، و"عالم الجان" الزاهي أو الفخم والفارغة من المعنى. وصار السيرك وسباق العربات يشغل الآن الموقع الأول، وكان المجتمع الروماني المتحمس لهذه المشاهد أو المسرحيات التي قسمت جمهور السيرك منذ عهد كالغولا إلى

مشارب، -"البيض"، "الحمز"، "الزرق"، و"الخضر"، حسب لون قبعات حوزيهم المفضلين؛ وهكذا كانت المبارزات ومعارك المصارعين في المدرجات. وانتشرت ألعاب المصارعة ليس فقط في الأقاليم الغربية المرومة، بل أيضا في الشرق، حيث كانت تسود الثقافة الهلينية التي كانت تجهل قبل الآن هذه التنوعات الدموية.

إنما في الشطر اليوناني من الامبراطورية الرومانية، كان هذا الانهيار الثقافي، رغم كل شيء أقل بشاعة. فهو مازال ينبج كتابا كبارا: بلوتارك (٤٥-١٢٥) تقريبا، هنا كتب "حيواته الموازية" و"أعماله الخفية"؛ وعالم البلاغة الشهير ديون كرزستوم (نهاية القرن الأول - بداية القرن الثاني الميلادي، في ترحاله المستمر، اعطى دروسا في المدن اليونانية التي زارها؛ والرواقي إبكتيت (حوالي ٥٠-١٢٥)، (عبد أعتقه عبد)، كان يدهش بعمق أبحاثه الأخلاقية وقوة إقناع حكمه وأقواله المأثورة. وكان التفوق الثقافي اليوناني ماثلا في عيون الصفوة الرومانية، ومارك أوريل كتب "أفكار" باليونانية، متوجها إذن إلى اليونانيين قبل غيرهم. وديون كاسيس (حوالي ١٥٥ - ٢٣٥)، السيناتور الروماني والمعجب جدا بروما القديمة، كتب أيضا باليونانية أبدته "التاريخ الروماني" بـ ٨٠ كتابا.

لكننا في الوقت ذاته، نلاحظ في كل الإنتاج الثقافي يومئذ انحطاط الفكر العلمي؛ فقد اختفت الثقة في ان العقل البشري قمين بكشف الأسرار وقوانين الطبيعة، الأمر الذي نقرأه واضحا لدى ممثلي المادية اليونان، ديموقريط وأبيقور، وأرسطو الفيلسوف، في قصيدة "الطبيعة"، والمفكر الروماني لوكرس، معاصر شيشرون وقيصر. ونرى عودة للمعتقدات التي رमित منذ زمن والقوى الأسطورية التي لاتدرك. وفي نهاية الجمهورية، كان الأجل الرومان الكبار، (مثل قيصر) يسخرون هم أنفسهم من هذه الآراء، التي لم تبقى آنئذ، بشكل خرافات فظة، إلا لدى الشرائع غير المستنيرة من عامة الناس. أما الآن، مع الانحطاط الثقافي، انبعثت مجددا، ووجدت تربة مهياة وأنصارا متحمسين لها حتى في الأوساط المثقفة، إنما فقدت منذ الآن أي هدف قابل للحياة، والإيمان بها ذاتها والقوة الملازمة لها.

الاهتمام بالمعجز، بالغيبى، بأمور الآخرة، واضح لدى سويتنس ترانكللس (٧٥-١٦٠) في تابه "حياة ١٢ قيصرا" حيث تختلط وثائق حياة الأباطرة الأولين، بالتخمين، بالحدس وبالأعجوبي. توسيد وبوليب يعتبران هذه الاشياء "هزليات عابثة"، لكن الطلب كثر جدا على هذه الحماقات في المجتمع الروماني للقرن الثاني الميلادي، وكثر السحرة

المشعوذون، المنجمون، وقدسوا بسرعة في روما حتى أن الحكومة الإمبراطورية اتخذت ضدهم عدة تدابير حازمة في عدة ظروف؛ أبعدهم، قتلهم، محاولة عبثا وقف انتشار هذه الجائحة الأسطورية. لكن أكثر الأباطرة وعيا تركوا الداء يسري: كلود، مثلاً، دشن رسمياً مدرسة إلهية، واهتم أدريان جداً بالتنجيم، بل وبالسحر والتعويذ.

بهذه الحالة الروحية والذهنية استقبل المجتمع الروماني بحماس إصلاح أوغست الديني ورغبته في بعث الإيمان الروماني السالف. لكن البديهي أنه، إذا أحيى المجتمع بغبطة إصلاح الدين، معتبراً إياه الوسيلة الأنجح لكبح المواقف والأوضاع المحرصة لدى الجماهير الشعبية، فقد ترك الشعب نفسه يفتتن ويضيع في أبحاث دينية، حيث كان يجد بديلاً لنشاطه السياسي السابق. فقد التحق ممثلو العائلات الكبيرة بتشوق إلى الأخويات الدينية التي أقامها أوغست: "الأخوة أرفال"، "اللوبيرك"، "التييتيان" وغيرهم، الذين أعلدوا التقديس للشعائر الأكثر بدائية: تلاوة بل وإنشاد الصلوات بلغة قديمة وكلية الغموض، رقصات وحشية، "النطاطون"، أي البعد عن الرصانة، بأذنان ذئب معلقة بالخصر، إلخ. وعبادة الأباطرة عبادة "أوغست وروما"، "عبقرية أوغست"، "إلهة أوغست"، لم تنجح أبداً. وبالـ"تأليه"؛ لترفع لهم المعابد في روما وبخاصة في الأقاليم، وفي كل مدينة من مدن الكهنة المختارين من بين الأسر الأكثر تميزاً - وتخصص عبادتهم بمؤتمرات إقليمية لتوجه لهم الصلوات والأضاحي الرسمية. وبنيت الكليات الأوغستية على حساب المعتقدين الأغنياء، بخاصة. وفي المراقبي تنصب أنصاب للأباطرة، وتحت الشواهد واصفة إياهم بـ"المحسنين والمنقذين".

على هذه التربة المعدة سلفاً انتشرت بسهولة الأساطير الشرقية التي تغلغلت من كل جنب في شرائح المجتمع الروماني. كان عندهم الكثير من المفاتن حتى أن رموزهم كانت تؤكد لروادها كشفها أسرار الكون وحياة ما بعد الموت، ومعنى الحياة وسبل تحقيق الغبطة الأبدية، الموعود بها من يرفع الصلوات والطقوس المنصوص عنها. ومنذ أن صارت مصر إقليماً رومانياً، انتشرت عبادة إيزيس، "سيدة الكون"، "ملكة السموات" "الممتلئة نعمة والمسارعة للنجدة"، انتشرت بسرعة في روما، وفي عهد كالغولا، وجدت حماية خاصة في القصر. وفي عهد كلود، نجحت نجاحاً هائلاً العبادة الأصلية لآسيا الصغرى، "أم الآلهة" سيبيل، ومساعدتها أتييس، الذي مزقته الوحوش ثم بعث ثانية ليفدي البشر، وفي عهد

الفلافيين، حمل جنود الجيش السوري المنتصر إلى روما والأقاليم العبادة الإيرانية لمثرا *Mithra* "قاهر الموت"؛ وظهرت محارب هذا الإله آنئذ في روما وبخاصة في حاميات الرين والدانوب (ميانس، كرننتوم وغيرها من الميادين الرومانية الحصينة الهامة). والعبادة السورية "للشمس غير المرئية" حظيت أيضا برواد كثر. وأخيرا، بعد تشنيت اليهود، وبعد هدم القدس، عرفت وحدانية اليهود وطوائفها، انتشارا واسعا جدا.

في كتابه "مساهمة في تاريخ المسيحية البدائية"، حدد أنجلز بأسلوب أسر "البابلية الروحية" السائدة آنئذ في العالم القديم. فيشير إلى أن الناس في روما واليونان، بل في آسيا الوسطى، في سوريا ومصر، كانوا يقبلون بدون نقد خرافات مختلف الشعوب، مع مساهمة تامة بالاحتتيال على التقوى والورع والسحر البحت؛ عصر سيادة صنع المعجزات، تمجيد الرؤى، الترهات، طفرة الروحانيات، التقديس، طرق صنع الذهب، القبلانية<sup>١</sup> وكل أنواع السحر الأخرى. هذا هو الوضع الذي ولدت فيه المسيحية. ظهرت بين ظهرائي شريحة من الناس تصغي، قبل كل شيء، بشراة إلى خيالاتها الما-ورائية أو الغيبية.

### ظهور المسيحية وتاريخها في القرنين الأول والثاني

ولدت المسيحية وانتشرت بداية في الأوساط الاجتماعية السفلى والمستغلة، الشعب "المضطهد والمعذب"، الناس الأحرار المدمرون وعلى أبواب فقدان حريتهم، صغار المهنيين، البروليتاريين والعبيد.

كانت الجماهير الشعبية العبدية، المضطهدة والمدمرة اقتصاديا والقابعة في بؤس الإمبراطورية الرومانية، قد بحثت في البدء، في القرنين الثاني والأول ق.م. عن مخرج في النضال المكشوف، وفي التمرد. لكن فشل كل الانتفاضات دل أن مقاومة السلطة الرومانية كانت دون جدوى. لذا ولد لدى الشرائح السفلى وانتشر بسرعة انتظار "المنقذ السماوي" من آلام وتعاسة الأرض.

كان هذا الأمل قد تبدى بقوة فريدة في يهودا بعد الآلام والمعاناة، فنزعوا في القرن الأول إلى الخلاص الأعجوبي الذي يجب أن يأتي من "ملك اليهود"، المسيح *Messie*، المرسل من الله، وكذلك في آسيا الصغرى حيث تعيش عدة مستعمرات يهودية. وعلى ذلك،

<sup>١</sup> - تفسير اليهود للتوراة صوفيا ورمزيا حسب التقاليد كما كان يفعل الأقدمون.

أمن السكان الأصليون في هذه المنطقة بآلهتهم المنقذة أو العبادات واسعة الانتشار: يذكر، مثلا، إله هرمس ترسمجست (ثلاثي العظمة)، إله التدجين والزراعة عند اليونان القدماء، المفروض أن يأتي لينقذ أتباعه. وكان ثمة عبادة أخرى لإله الفريجيين سابوزيس Sabozios، إله الزراعة القديم شبيه ديونيزيوس Dyonisos اليوناني، الذي كان يعتبر فاديس. وفي الأقاليم الشرقية من الإمبراطورية، ظهر الكثير من الأنبياء المتعصبين الذين شددوا عددا كبيرا من الأنصار وأسسوا طوائفهم مدعين مجيء "المخلص". كانت إحدى هذه الطوائف اليهودية نواة المسيحية.

إن أقدم عمل نملكه من الأدب المسيحي هو "رؤيا يوحنا" (٦٨ أو ٦٩ م). كان كاتبها أحد المبشرين بمجيء المسيح (باليونانية: كرسست)، اسمه جان Jean، من جزيرة باتمس. يتوجه إلى أعضاء الكنائس السبع (مشاعات) في آسيا الصغرى، الذين ينتظرون قدوم كرسست Christ، لكنه من اليهود فلم يصر بعد مسيحيا.

في رؤيته، يقص يوحنا كيف كشف له أن "نهاية العالم" قريبة، وأن كريست "حملى الله" سيدين العالم الخاطئ "في الدينونة الأخيرة". ستحل العقوبة قبل الكل على بابل، الـ"فاجرة الكبرى"، الجالسة على متن حيوان ذي سبعة رؤوس، والتي تشن حربا على "القديسين"، أي على المؤمنين؛ هذه الفاجرة هي روما، والسبعة الرؤوس هم الأباطرة. وكريست على رأس جيش الأصحاء سيصرع الحيوان وكل رواده في نار جهنم، ثم يخلق سماء جديدة وأرضا جديدة وسيبني قدسا جديدة. آنئذ يبعث الأصحاء إلى حياة جديدة وسيفتح مملكة كريست السعيدة، اللانهاية لها أو الأبدية. وفي رؤيا جان تتموج أيضا نبرة حربية، والحماس الشديد للصراع.

وانتشر الـ"خبر الطيب" بقرب مجيء المخلص بين مئات المهاجرين، الحجاج والدعاة (الرسل) واستقل بغبطة بين كل "المضطهدين والحزانى"، عبيد وفقراء المدن، وبخاصة، النساء.

لم تتخلف الحركة اليهودية، البسيطة بداية، عن أخذ طابع شعبي عريض، أولا في الأقاليم الشرقية حيث تسود اللغة اليونانية (آسيا الصغرى، سوريا مصر، ثم في الأقاليم الغربية (أفريقيا الرومانية).

في بداية القرن الثاني ظهر أدب واسع شفوي ثم مكتوب: أقوال وأمثال سائرة.

رسائل، "رؤى أو تجليات" تتبادلها الكنائس فيما بينها-أعمال زاخرة بالحكايات الهزلية والخرافات المتنوعة. وفي الثلث الأول من القرن الثاني انتشرت بين المؤمنين بيسوع أسطورة تقول: إن يسوع "ملك السموات" كان قد أتى إلى الأرض، بشكل إنسان متواضع وباسم يسوع الناصري، قرية صغير في فلسطين، وعانى شخصياً أو بالجسد كل الآلام وكل أوصاب فقراء الناس. وفي هذا الموضوع كتبت أناجيل عديدة، صارت أربعة منها مقبولة فيما بعد والأكثر انتشاراً -أناجيل مرقس، متى، لوقا، يوحنا.

تقول الأناجيل: إن يسوع ولد، في عهد اوغست، في أسرة نجار جليلي، يوسف النجار، من زوجة هذا النجار، "مريم العذراء" ومن "روح القدس". عاش مغموراً ثلاثين عاماً، ثم شرع يتنبأ ويفعل الأعاجيب. كان يشفي بالكلمة، يقيم الموتى، يجتمع حوله فقراء الناس وأبسطهم يركز بهم بالتواضع والمحبة؛ والتأمت حوله عصابة من التلاميذ. اعتبره كهنة القدس وممثلو السلطة الرومانية عاصياً، وأدانته المحكمة العليا بالموت على الصليب. صدق بلاطس البنطي، حاكم يهودا حكم المحكمة وصلب يسوع، لكنه قام في اليوم الثالث وكان، بالتالي، أول إنسان يقهر الموت. ثم صعد إلى السماء، بعد أن وعد بالنزول ثانية في الحال إلى الأرض ليدين الأحياء والأموات، وليقيم مملكته الأبدية. إن هذه الرواية الإنجيلية أسطورة، لأن العناصر الأسطورية واضحة فيها، أولاً، وثانياً لأن المصادر التاريخية لذلك العصر، لا تحوي أي إشارة توحى بهذا.

كانت الكنائس الأولى منظمة على مبدأ المساعدة المتبادلة: يعيش أعضاؤها كما في معسكر في العراء، بانتظار "نهاية العالم" القريبة. على رأس هذه المخيمات يعيش الـ"شيوخ" (الكهنة)، يساعدون "الشمامسة الإنجيليين"، وأقفر الناس الأحرار، العبيد يمكن أن يصيروا كهنة. يتحدى المسيحيون الأغنياء ويقولون "أسهل على الجمل أن يدخل ثقب الإبرة من أن يدخل غني ملكوت السموات". ولم يكن مسموحاً للأغنياء دخول الكنائس إلا إذا وزعوا أرزاقهم على الفقراء.

في بداية الدعوة، كان المسيحيون يجتمعون سرا في المقابر السردابية، المسماة (ديماس)، في قبو الكنيسة يدفنون موتاهم، كما كانت تفعل النقابات المهنية وغيرها من (الشعب الصغير). وعلى قبورهم، كانوا ينحتون بالملقط أو المقص رموز آمالهم: النعجة، الراعي الطيب، الخمرة أو السمكة (باليونانية) ----- تشكل حروف هذه الكلمة اسما



متشابه الحروف تعني "يسوع المسيح، ابن الله، المخلص". كانت هذه اللقاءات موقوفة على قراءة الـ"رسائل" والأناجيل، ثم يدخل أحد الحضور في غيبوبة (حلول روح القدس عليه) ويرسل بعض كلمات التقوى والنبوءات. كان الوثنيون يقبلون في الكنيسة بعد أن يغسل ماء "المعمودية" كل ذنوبهم السابقة، وينتهي الاجتماع بوليمة متواضعة من خبز وخمر تقام عند الفجر.

منذ البدء، كان الدين المسيحي الجديد، يركز بالخضوع والتسليم. وكان تأثيره شوماً منذ المرحلة الأولى لتطوره، لأنه حول الجماهير الشعبية عن النضال ضد المضطهدين، ليزجهم في حقل الأحلام.

قد أفضى الطابع السلبي للكنيسة منذئذ بالضرورة إلى زعزعة المسيحية وتفككها، متخيلة عن كونها دين الكادحين، المضطهدين، المعوزين والعبيد، لتكون ديناً كباقي الأديان في المجتمع الطبقي، أداة ضغط طبقي وسنداً للطبقات السائدة. وفي الوقت ذاته تبدلت التركيبة الاجتماعية للكنيسة. إلى جانب الفقراء دخلها الأغنياء، ودفعوهم إلى الصفوف الخلفية. أغرقوا الناس بهباتهم: صار بعض أعيان النبلاء سادة الكنائس المسيحية كلها (أسرة متالوس النبيلة، مثلاً، أو مارسيا، محظية الامبراطور كومود).

في أثناء القرن الثاني، تسارع هذا التطور وفي بداية القرن الثالث، تعرضت طبيعة الكنائس المسيحية إلى تحول جذري. كان بعضها قد صار مالك اطيان ضخمة، بيوت للإيجار، وميزانيات ومبالغ ضخمة من المال. وأن تكون كاهن كنيسة عمل مربح، حتى أن بعض المخاطلين والمغامرين ارتدوا هذا الثوب، مستغلين سذاجة البسطاء (اقرأ "موت برغرنس بقلم لوسيان دي ساموزات). في المواعظ، بدأت تسمع ملاحظة جديدة: قيل فيها إن العبيد يجب أن يخضعوا للسادة، لأن كل سلطة آتية من الله. وراح يظهر موظفون كبار الـ"أساقفة" الذين كانوا يسهرون على كنائس المحافظة كلها، مرتبطين بمركز المنطقة (متروبوليت)، التي أضحت مقام هذه السلطة الدينية السامية.

بدون أمر الأساقفة لا يستطيع الاكليروس المنتخب ممارسة مهمته، إدارة المعمودية ورئاسة الصلوات المشتركة. وبدأ أساقفة المدن الكبرى اسكندرون وأنطاكية، وأساقفة رومل فيما بعد، يتمتعون بسلطة فريدة. إذ تضاعفت الطقوس، المقتبسة من الأديان الأخرى. وصار العماد والتناول "أسراراً لغزية"، تشبه الألفاظ التي يمارسها متعبودو سيبيل أدونيس؛

ومن عبادة الإله مثرأ أخذ أساس خرافة ولادة يسوع في مغارة. وتعميم النظريات الرواقية، وبخاصة، رواقية سينيكا، التي سماها أنجلز "كفيلة المسيحية"، مكن من إقامة نهج أخلاق مسيحي يرتكز إلى مبادئ الضعة والصبر. ولقد حاول فيلون اليهودي، الكاتب الإسكندراني (بداية القرن الأول)، الذي رآه أنجلز "أب المسيحية"، التوفيق بين اليهودية والفلسفة اليونانية؛ وهو الذي أوحى بالنظرية المسيحية التي ظهرت في القرن الثاني، في "فعل". الملائكة، الوسيطة بين الله والناس، والـ"روح الدنس"، إلخ.

في القرن الثالث بدأ الأساقفة يجتمعون بمجمعات كنسية، ليقرروا أي اقتراحات وأي نظريات يجب أن تكون مقبولة بشكل دائم وإلزامية وأي منها يجب إدانته ورفضه. وهكذا من الأدب المسيحي الغزير لم يعترفوا إلا بالأنجيل المذكورة أعلاه، و"أعمال الرسل"، ورسائلهم الواحد والعشرين ورؤيا يوحنا. واعتبرت الكتابات الأخرى أعمالاً "مزورة" يجب تحريم استخدامها؛ وبشكل عام، كل خروج عن "النظريات الصحيحة" أعلن أخطاء مؤذية، ومنها ما اعتبر إجرامياً يجب معاقبته: انتزاعه من مجمع المؤمنين، أو حتى تحريره.

كانت نتيجة هذا النشاط الأسقي والمجامع الكنسية حشد التجمعات المسيحية المشتتة حتى أنشأ في منظمة متينة تضم كل الإمبراطورية الرومانية، لم تتخلف عن تشكيل قوة اجتماعية هامة. لكنها حوت في جنباتها تيارات متباينة متعادلة خاضت منذ إذ صراعاً حاداً وضارياً. لم يستطع الكثير من الناس، وبخاصة الفقراء، الخضوع للنهج الجديد التسلسلي المفروض على المؤمنين ودافعوا عن حرية البحث والتقصي. فكانوا لهذا في المضطهدين وأعلنوا "ملحدين" وفصلوا من الكنيسة.

كانت البدعة التي لاقت نجاحاً باهراً هي بدعة المونتانيست، أو تلامذة مونتانس، أحد المبشرين المتعصبين من فريجي، الذي كان عند مريديه "روح القدس المجسد" وسيط بين الله والبشر). وماكانوا يعترفون بأي تراتب إكليريكي، بأي قانون إلزامي، بأي طقس وضعي. كانوا بحرية التبشير السالفة كرمى لمن يعتقد أن "روح القدس" زاره. انتشر مذهب مونتانس بخاصة في أفريقيا الرومانية، حيث وجد بين أنصاره واحداً من كبار كتاب نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث، ترتليان (ولد في قرطاجة وصار كاهنًا). يدين له الانتشار الواسع للإيمان المتعصب: "أعتقد هذا لأن هذا محال، غير معقول". وفي مؤلفاته العديدة، أدان ترتليان العلم، الذي كما يرى جعلته الأنجيل بدون جدوى، ويؤكد أن عبادة الأوثان لا تقوم فقط بتمجيد صور الآلهة الوثنيين، بل تكمن في كل شكل فني يهدف لتمثيل

الأمور الأرضية. ولقد أمر بالصوم الدائم لأن آدم سقط في الخطيئة بسبب تفاحة. كانت الهرطقة، الأكثر انتشاراً بين المسيحيين المتقنين والمطلعين على الفلسفة الهلينية الغنوطوسية أي المعرفة. كان الغنوطوسيون يبحثون عن توفيق النظرية المسيحية مع "الحكمة الوثنية". ونجم من هذا خليط غريب من الفيثاغورسية. الأفلاطونية والعناصر الأخرى المتباعدة. وقد حاول الغنوطوسيون إن يتصلوا بشكل مجدي مع "القوى الغيبية، بواسطة عمليات سحر واستدعاء الأرواح. وكانوا بهذا الخصوص أسلاف "مستدعي الأرواح"، و"خيمائي" القرون الوسطى.

في القرنين الأول والثاني الميلاديين، أوحى المسيحية، بشكلها الأرثوذكسي أو تظاهراتها الهرطوقية، الارتياب والحذر للطبقات الوسطى في المدن، لكل الريف تقريباً وموظفي الامبراطورية ذبح المسيحيون أكثر من مرة، ونسبت إليهم كل الكوارث الطبيعية، -القحط، الطوفان، قلة المطر، وسواء. وفي كثير من الأعمال الأدبية المصانة حتى الآن (مثل، "الأقوال الصحيحة" لسلس و"موت برغرنس" دي لوسيان) حملة شعواء ضد المسيحية التي لُفظت كما تُلفظ أغلظ الخرافات أو المعتقدات الباطلة. يسخر سلس خاصة من النظرية المسيحية في "نهاية العالم" والدينونة الأخيرة: "أليس عبثاً فكر هؤلاء الناس القائلين عندما يوقد الله النار، كالطباخ، ستشوى كل البشرية، أما هم وحدهم سيبقون، سليمين، وليس فقط الأحياء بل سيبعث من مات منذ زمن بعيد بلحمه وعظمه -إن هذا لتركة جيدة للشعر!" فالمسيحيون يرون حتى الفلاحين في مقدمة أعدائهم، ومن هنا أتت كلمة "وثني" لتشير إلى عدم الإخلاص بشكل عام<sup>١</sup>. وكان العاهل وولاته يرون في المسيحيين عناصر سيئة، يرتابون بالاحتجاج والمساهمات، لم يساهموا بعبادة الإمبراطور. وتراجان، في رسالته إلى بلين، أمر بمعاقبة المسيحيين الذين رفضوا بوضوح التضحية عن روح الأباطرة، لا بل في عهد مارك أوريل، نزلت عقوبات قاسية بأشخاص متحمسين للدين الجديد. على ذلك، كان اضطهاد المسيحيين في القرن الثاني قصير المدة، وإجمالاً، كانت الحكومة الرومانية في "عصر التتوير" متسامحة دينياً. وسرعان ما نمت المسيحية ومنذ نهاية القرن الثاني، بدأت تمثل قوة اجتماعية جبارة ساهمت بدمار مفهوم العالم القديم.

<sup>١</sup> - فلاح=paysam، وثني=païen

## الفصل الخامس والستون

### أزمة القرن الثالث والإمبراطورية الرومانية

بين عامي ٢٣٥-٤٧٦

استبدادية آل سيفير (١٩٣ - ٢٣٥ م). أزمة القرن الثالث

أسفر التفكك المتزايد لمجتمع العبودية عن فوضى تدريجية في الجهاز الحكومي للإمبراطورية الرومانية. وفي الوقت نفسه نما الوضع العسكري كما كان في أثناء الثلث الأخير من القرن الثاني (بخاصة حروب مارك أوريل ضد البارث والماركون)، ونمت بشكل استثنائي أهمية العناصر العسكرية، وأعطوا الدور القائد في الدولة الأمر الذي أثار سلسلة من الانقلابات العسكرية والحروب الأهلية.

إن هذا العهد من الانقلابات فتحته القوات الإمبراطورية المنحلة والفاسقة. فبعد اغتيال كومود، أتى إلى الحكم إمبراطوران خلال ستة أشهر: ب. هلفيس برتلكس وم. ديرييس جوليانس. كان الاثنان محاربين جيدين، إداريين محنكين لم يأتيا إلى الحكم إلا بشراء الحرس، وعد هلفيس برتلكس بـ ٣٠٠٠ لير لكل منهم، وديرييس جوليانس ضاعف المبلغ، أي ٦٢٥٠ لير. "العاصمة والإمبراطورية الرومانية بيعت بالمزاد، كما في السوق أو في الحانوت"، كتب ديون كاسيس (التاريخ الروماني، ٧٣، ١١).

حسداً من نجاح رفاقهم في العاصمة والغنائم التي حصلوا عليها، شرعت القوات المحتشدة في الأقاليم، هي الأخرى. بتنصيب قادتهم أباطرة.

الجيش السوري أعلن س. بسينيس نيجر، والجيش في بريطانيا د. كلوريس ألبنس، وفيالق الدانوب والرين، سفير بانونيال. سبتيمس سפרس. حرب قاسية (١٩٣ - ١٩٤) شبت كالحريق في أرجاء الإمبراطورية. في شرقها كما في غربها. لكن جيش الدانوب، بقيادة سبتيم سيفير، دحر خصومه، واستولى على روما وأسس بعد أن وصل إلى العرش، الأسرة التي حملت اسمه (١٩٣ - ٢٣٥).

كان سبتيم سيفير (١٩٣ - ٢١١) أول إمبراطور جندي. ابن مدينة قرطاجة (المستعمرة الفينيقية ثم الرومانية في شمال إفريقيا) - من أعمال لبّيس ماجنا *Leptus Magna* - ويتكلم اللاتينية بنبرة هليينية، متحمس لهانيبال مولع به، فكان إذن غريباً تماماً عن روما. ضرب بيد لا ترحم الارستقراطية الرومانية، التي وقفت إلى جانب خصومه: أبيد عدد كبير من أسر الأعيان؛ ومكنته المصادرات الوحشية، كما في أيام منافي سيللا والثلاثية الثانية، من إشباع خالصه. ضوعف راتبهم، وصار من حق الجندي البسيط أن يدخل صف الضباط. وسرح سبتيم سيفير الفصائل الإمبراطورية المشكلة في إيطاليا، وألف حرساً جديداً، اختاره من صفوة جيوش الأقاليم، بحيث صارت روما تغص، كما يشكو ديون كاسيس، بخليط من العسكر، بسيماء غابية تتكلم لغة البربر المتمردين بطريقة فظة (٧٢، ٢) وخول الجندي الزواج، وأذن للقوات المعسكرة على الحدود بامتلاك قطعة أرض، ليعيش كل مع أسرته وفي موطنه، ولا يأتي إلى الثكنة إلا من أجل التمارين القتالية. "أرض الجند، وتقدر أن تهمل من بقي"، هذا مع علمه لأولاده .

على ذلك، شرع سبتيم سيفير بوضع الجيش في خدمة سياسة خارجية حازمة. شن حملة موفقة على البارث (الذين احتل الرومان عاصمتهم سلوسيا وكلزفون؛ ثلاث مرات)، وسع كثيراً الممتلكات الرومانية خلف الفرات ومات في أثناء حملته على بريطانيا. لكن التمردات العسكرية التي توقفت مؤقتاً في عهد سبتيم سيفير، تجددت على أشدها في عهد خلفائه. كان ابنه ماركوس أورليس انتوننس، لقب كركلا (٢١٢ - ٢١٧)، حسب تعبير مومش، (صورة هزلية لأبيه): قزم حقيقي من حيث القامة، هزيل، فاسق وشرس. خاض كركلا مشروعاً خطراً في الشرق، بغية ضم ليس الهند فقط بل والصين وتجاوز اسكندر المقدوني. لكنه ما كاد يبدأ الحملة حتى قتله أحد ضباط حاشيته.

كانت الشؤون الداخلية توجّه بإشراف أم كركلا، المرأة الذكية، الإمبراطورة جوليا دومنا، يساعدها خيرة المشرعين من زمن (بابريان، مثلاً). وهذا ما يعلل شهرة مرسوم كركلا في عهد أسوأ الأباطرة، المرسوم ٢١٢ الذي أعطى حق المواطنة لسكان كل الأقاليم. نص المرسوم: (أمنح كل الناس غير - الرومانيين الساكنين على أرض الإمبراطورية. عدا البربر المقيمين كمستوطنين، حق المواطنة الروماني وكل الأشكال المستقرة من المؤسسات البلدية). كان هذا القرار تتويجاً لكل سياسة الإمبراطورية

الرومانية، الهادفة إعطاء حق المواطنة إلى أكبر عدد ممكن من الأقاليم. لكن كبح الجنود صار منذ الآن محالاً. فالجيش السوري نصب قاتل كركلا، ماكران (٢١٧ - ٢١٨) إمبراطوراً، لكن سرعان ما نجحت جوليا مازا، أخت جوليا دومنا، بشراء هذه الفصائل السورية ونصبت حفيدة، فاريث أفتش باسيانس، ابن الرابعة عشر ربيعاً، والذي اعتبر ابن كركلا الشرعي. كان هذا الفتى كبير كهنة الإله السوري الغبال (Baal - Gabale)، وفرض الكثير من الخرافات على جيش الشرق، فلقبه جنوده إغبال. وبعد صراع سري قصير المدة خان الجند ماكران وقتلوه، عاد إغبال بأبهة وعظمة إلى روما، برفقة الحجر الأسود "المقدس" إميز Emese وأشياء أخرى آسيوية مقدسة. لم يكن الكسول والماجن يهتم إلا بالتضحية "لإلهه الأكبر، تاركاً تدبير كل الأمور لجذته جوليا مازا وأمها جوليا سميثاس، اللواتي أعطيتا ألقاب "أوغست"، "أمهات المعسكرات ومجلس الشيوخ" واللواتي حكمن بواسطة محظيته.

وفي العام ٢٢٢، قتلت الحاشية الإمبراطورية إغبال وأمه سامساس، ورموا جثتيهما في التبرير. لكن جوليا مازا، المتأمرة، نجحت بجعلهم ينصبون حفيداً آخر لها هو ألكسيان، في الثانية عشر ربيعاً، واعتبر هو الآخر ابناً شرعياً لكركلا. بدأ الإمبراطور الجديد حكمه باسم م. أورليس سفروس ألكسندر أو، كما ينادى عادة، الكسندر سيفير (٢٢٢-٢٣٥).

سعى ألكسندر سيفير وأمه جوليا ماميا إلى التقرب من مجلس الشيوخ وأدخلوا إلى الحكومة خيرة المشرعين (أولبيان، مثلاً، الذي سمي محافظ مقر الحاكم). اهتم المشرعون بتحسين أعمال المحاكم، والإدارة، وشؤون المال. لكن جهودهم كانت تفتقر الحسم والفعالية. وكانت دساتير البلاط الدائمة تعرقل أو تعطل كفاح رجال الدولة، وكان الوضع العام مزعزجاً جداً. التمردات تنتشب في الأقاليم، المرابون يظهرون عند التخوم القتالية. وفي روما نفسها تمرد الحكام وقتلوا رئيسهم أولبيان.

أما السياسة الخارجية لن تكون في هذه الشروط إلا سيئة. وفي الشرق، انبثقت مملكة الفرس الجبارة على أنقاض إمبراطورية البارث، وهدفت إعادة عاهلية الاشمنيد القديمة بالتدريج، لداريس وخرخس. ولما استولى الفرس على ما بين النهرين الرومانية وكبادوسيا، صارت حملة الشرق بقيادة الكسندر سيفير ضرورية، لكنها فشلت (٢٣١-٢٣٣). ولما وصل الإسكندر، الميال للسلم الكتيبي، إلى الرين، مدفوعاً من أمه حتماً، وبدأ

كقائد غير جدير حملة ضد الجرمان، قتله الجنود العصاة وأمه جوليا ماميا، في خيمتهما، وأعطوا الإمارة إلى قائد المرهقين، مكسمين، ابن ثراسيا، الراعي السابق، ذي القدر العملاق والقوة الهرقلية، ضابط خارج من الصف والمحبوب جداً بينهم (٢٣٥).

انطلاقاً من هذه الحقبة فتحت في الإمبراطورية الرومانية أزمة سياسية حادة دامت أكثر من ثلاثين سنة (٢٣٥-٢٦٨). ومكسمين، الذي يسميه كاتب سيرته "أثينيون الثاني وسبارتاكوس الثاني"، الذي أباد منهجياً الأغنياء والوجهاء، لكي يوزع ثرواتهم على جنوده، لم يعد إلى روما، بل استمر يحوّص في الشمال صراعاً لارجاء له ضد الجرمان، والإيزيخ والداس. ومنذ ٢٨٣، كانت الأرستقراطية التي تكرهه، قد أثارت ضده في بحر عام واحد أربعة أباطرة اختارتهم من مجلس الشيوخ، غورديان الأول والثاني في أفريقياسا، بالبان وبوبيان في رومال ذاتها. لكن الأربعة ذبحهم الجند خلال أشهر، والولاة، الغلضبون من ماكسمين، اختاروا إمبراطوراً فتى ابن ١٣ عاماً، غورديان الثالث، حفيد غورديان الأول. دامت هذه الحقبة من الانقلابات العسكرية أكثر من ١٥ عاماً، تتالي خلالها على روما ١٠ أباطرة.

تسجل الـ ١٥ عاماً التالية ٢٥٣-٢٦٨، عهد تفكك تام للإمبراطورية الرومانية. إمبراطوران، على الأرجح، حكما اسماً في روما، اختارهما الجند هما: فالريان (حتى العام ٢٦٠ وابنه غاليان. وقد قدم كل إقليم إمبراطوره، لذا سمي مؤرخو العهود القديمة هذا العصر "عصر الثلاثين من الأسر المستبدة. وفي الغرب، تشكلت "إمبراطورية الغولوا"، كانت جزءاً منها جرمانيا، الغول، بريطانيا، وإسبانيا. حكمها لعشر سنين قسائد روماني اسمه بوستمس، بجيشه، وإدارته ونقده وتجاهل كلياً الحكومة الرومانية. وسوريا وأسسها الصغرى ومصر انفصلت أيضاً لتشكل مملكة جديدة، كان على رأسها حاكم تدمر، سبتيموس أودناس الذي سمي "الأتوقراطي" و"قائد الشرق". ولما مات في العام ٢٦٧، اختارت هذه المملكة الواسعة أرملة زنبوبا. في أقاليم الدانوب، أعلن بعض الطامعين أنفسهم أباطرة، وفي أثناء الصراع ضد أحدهم أريلولس، الذي سار إلى إيطاليا ووصل ميلانو، قتل غاليان بيد ضباطه (٢٦٨).

إن شلل السلطة المركزية والاقتطاعات المستمرة من قبل القوات المكلفة بحماية الحدود جعلت الوضع الخارجي للإمبراطورية الرومانية كارثياً. هوجمت تخومها في كل

مكان، وانقضت الشعوب البربرية، التي ماتزال تعيش مرحلة المشاعة البدائية، من كل صوب، كطوفان لا يقاوم، على العالم العبودي في حوض البحر الأبيض المتوسط. والفرائك المحاربون، مسلحين ببيلطاتهم الغربية، حطموا التحصينات الرومانية على المجرى الأسفل والأوسط لنهر الرين ودخلوا الغول الوسطى. والألمان، شعب جرمانى آخر، ما أن سادوا ريتيا ومضائق الألب، حتى اندحروا إلى إيطاليا وفي العام ٢٦١، وصلوا أبواب ميلانو. طردهم غاليان لبعض الوقت، لكنهم جددوا غزواتهم في العام ٢٧٠ ودخلوا هذه المرة إيطاليا الوسطى. وهددوا روما.

على الدانوب الأسفل، كان الوضع أخطر. إذ تشكل في هذه المنطقة تجمع واسع من الشعوب الجرمانية، السارمات، التراث ربما هم السلاف -الأولون. كان أكثرهم دينامية الغوت، المهاجرون من ضفاف البلطيق، هكذا سمي جميع أعضاء هذا النوع من التحالف. وانطلاقاً من ٢٣٠، بدأ الغوت ينهبون ويدمرون منهاجياً كل ساحل البحر الأسود؛ استولوا على استريا وتيرا، خربوا أولبيا، غزوا بين الس ٢٥٠ و ٢٦٠ مملكة البوسفور والتوريد. على فليكاتهم المحفورة من جذوع الأشجار، وسفن أسرت في مدن البوسفور وأمكنة أخرى. ربخوا البحر، وثغوراً على الدنيبر، والبوغ والدانوب، نهبوا حاضرات بتتبا وبفلغونيا الثرية وتغلغلوا في بحر إيجه عن طريق هلسبونت حتى المركز القديم للحضارة اليونانية، إفيز وأثينا. وقد أسهمت الثروات الطائلة التي كدسها قادتهم في أثناء هذه الحملات اللصوصية في ولادة أسلوب منتقى سمي "الغوتيكي" الذي استخدموه فسي تزيين عدة خيولهم بالصفائح الذهبية لأهداف تخيلية، المرصعة بالأحمر الروماني، والستراكواز والطلاء عديد الألوان.

بدأ الفرس هجوما غاضبا على الفرات. وفي العام ٢٦٠، أباد سابور، عاهل إمبراطورية فارس الجديدة (الذي جعل مجددا بيرسبوليس عاصمة)، أباد جيش الإمبراطور فالريان. أسر هذا الأخير وأجبر أن يحنى ظهره ليدوسه العاهل عند صعوده إلى الحصان؛ وأرسل ضباطه وجنوده ليحفروا قنوات على ضفاف دجلة. واحتل الفرس أنطاكية، العاصمة، أغنى مدن سوريا، ونهبوها.

وكما الحروب الأهلية المستمرة، قضت غزوات البرابرة المدمرة، والجوع والجائحات على شعب الإمبراطورية حتى نضبت قواته المقاتلة، شرعوا، للدفاع عن



حدودهم ضد البرابرة، يجندون برابرة آخرين، ملحقين بالجيش الروماني. وصار هذا السلوك، الذي بدأ مع مارك أوريل، نهجاً متبعاً، في الأعوام الرهيبة التي تلت موت الكسندر سيفير. كان هؤلاء "الحلفاء" يستلمون أراض ليقيموا عليها، بشرط تلبية دعوة الخدمة الإلزامية وإعداد أولادهم لها.

ثمة عينة أخرى من المستوطنين العسكر، مقيمون في منطقة الحدود، سموها "ليتس *Letes*". وهكذا بدأ البرابرة برضى الحكومة الرومانية، التغلغل زرافات على أرض الإمبراطورية، حتى في المناطق الإيطالية أصلاً، مساهمين ببربرتها في ظل علاقات اقتصادية على كل الإقليم. دمرت غزوات البربر والأعمال القتالية كل احتياطات المون، وصار محالاً القيام بالبذر والجني في الوقت المناسب. والمغتصبون، لدى احتلالهم منطقة ما، يمنعون على الفور أي تصدير، ليغذوا جيداً ويجهزوا جنودهم وقطعت القرصنة البحرية على يد "الغوث" وغزوات الفرس المتتالية كل طرق التجارة الكبرى بين المراكز الرئيسية الصناعية والتجارية في الشرق. وتحولت المدن الخاوية، بسبب هجرة السكان إلى الريف، إلى أمكنة لجوء وتكنات وأحيطت على عجل بالدفاعات. ولنقص الوسائل، استخدموا لرفع أنقاض الصروح العامة، حجارة القبور والآثار الأخرى ذات القيمة الفنية العظيمة أحياناً. ووهنت حياة البلديات التي كانت متألفة؛ وبسبب الفقر العام، انقطعت المساهمات التطوعية بنفقات النفع العام، ولم يكف وزر الضرائب عن قصم الظهور؛ وصارت وظائف قادة العشيرة والسلطات البلدية باهظة الثقل بشكل استثنائي، مليئة بالارباك وشرع الكل يبحث عن التهرب من الأعباء العامة. ويرغم الزيادات المنفلتة بالضرائب، كانت خزينة الدولة خاوية أبداً. وكثيراً ما استحال على الناس دفع الضريبة. كانت الدولة تعيش أساساً من صك النقود غير المغطى فافتقدت المعادن الثمينة وكان لابد بالتالي من التزوير وتخفيض قيمة النقد أكثر فأكثر، أي ما يعرف اليوم بالتضخم النقدي. في عهد كركلا بدؤوا بصك قطعة ذهبية، أخف من القطعة السابقة بـ ١٧%. فاختفت على الفور القطع السليمة. فوضع في التداول نقد جديد، سمي "أنتونينيانس"، واعتبر يساوي ٢٠/١ من (أورو *aureus*)، لكن قيمة الفضة فيه أقل بالفعل بـ ٥٠% مما يجب أن يكون. تفاقمت الأمور بعدئذ: صكت نقود فضية، كانت بالفعل نحاسية ٥٠%، ثم ٢% فقط من المعدن الثمين). فلم يعد الشعب يقبل النقد إلا بالوزن، مفضلاً على ذلك النقد النحاسي

الصغير، لأنه أقل تزويراً وينطلق من نهج المقايضة البدائي. وهوت المبادلات التجارية بالفضة إلى درك الكساد وحلت محلها المبادلات العينية.

بعثت شروط الحياة غير المقبولة حركات عاتية لدى الطبقات السفلى. وفي العام ٢٣٨، اندلعت في أفريقيا انتفاضة من العبيد والمستوطنين، مكنت كبار المالكين من النهوض ضد الإمبراطور-الجندي ماكسمين، الكريه، لصالح مرشحهم إلى العرش غورديان الأول. قمعت الانتفاضة بوحشية على يد الفيالق الأمنية لماكسمين، المعسكرة في إقليم نوميديا المجاور. وفي مصر أخذت حركة رعاة البقر مدى واسعاً. وانطلق المعوزون يبحثون عن ملجأ في انسحابات رعاة البقر المنيعه، مخبئين في أهوار القصب ومستنقعات النيل، حيث خرجت حظائرهم ضد المراكز الإدارية والحاميات الرومانية. وأثبتت الحكومة الإمبراطورية عجزها عن صد رعاة البقر طيلة القرن كله.

كانت مناطق الغول منذ نهاية القرن الثاني فريسة اضطرابات مستمرة سببها العبيد، المستوطنون، فقراء المدن، والجنود الفارون. كتب المؤرخ هورديان: "كان هؤلاء المجرمون يهاجمون كبريات المدن، يقتحمون السجون، يأخذون من الأغلال المعتقلين أباً كانت جريمتهم، يعدونهم بالطمأنينة والأمان والعودة إلى المجتمع" وكان كومود مضطراً أن يشن صراعاً صلباً ضد هؤلاء "المشردين"، كان على رأسهم لبعض الوقت جندي فار جسور ومنظم جيد اسمه مترنس. وفي أثناء فترة الفوضى السياسية فسي القرن الثالث، ازداد عدد هؤلاء "الفاسقين" و"قطاع الطرق" وفي حوالي العام ٢٧٠، شكل العصاة، الفلاحون، المستوطنون والعبيد الزراعيون تجمعات ضخمة. كانوا بقيادة محنكة، إيلان وأماندس، الذين أخذوا ألقاب الأباطرة، وصكا النقود، وغيرها. وسقطت بين أيديهم أوسع وأهم مجالات السلطة، اقتسما وأتباعهم الأرض، الأنعام والوسائل. وكانت غول الريف كلها بين يدي المتمردين. "تحول الحراث إلى جندي مشاة، والراعي إلى خيال"، هذا ما يشكو منه شاهد عيان. لم يبق خارج حصونهم سوى المدن الكبرى، مأوي الأغنياء. على ذلك، في العام ٢٧٠، تمكن الباغود من احتلال، بعد حصار دام ٧ أشهر، مدينة أوعستودنم (أوتون)، عاصمة الأديبين السالفة، بفضل رد شطر من جيش "الإمبراطور" الغولوا تيتركس، الذي انتقل إليهم. أما الأغنياء والنبلاء ذبحوا، اقتسمت أرزاقهم، وصارت المدينة رماداً.

في كل مكان كان العبيد ينتفضون وينضمون إلى أية حركة تمرد. ومنذ عهد سبتييم سيفير، كان يعمل في إيطاليا فصيل الصعلوك بوللا، المؤلف من ٦٠٠ رجل، كلهم تقريباً عبيد الإمبراطور. كان لهؤلاء الصعاليك أنصار في كل مكان. تصورهم الخرافات حماسة الشعب. وقدم العبيد جهداً كبيراً في تمرد مستوطني أفريقيا، وفي حركات رعاة البقر في مصر وإبلاغود في غول. وعلى أبواب العام ٢٦٠، حسب كاتب سيرة الإمبراطور جوليان، كان في سيسيلى "نوع من حرب العبيد". تكاثف العبيد مع المستوطنين والشرائح الأخرى المضطهدة من الشعب الروماني واستقبلوا بالأحضان الغزاة البرابرة، باعتبارهم محرريهم ومعنقيهم من نير الأغنياء الرهيب والموظفين الغيلان. قاد الجلبون الألمان في شعاب الألب، تتبعهم جماهير العبيد عند انسحابهم من إيطاليا. ولما اجتاز الـ"غوت"، الذين يعدون ١٥ ألف مقاتل، بقيادة زعيمهم الفذ كنيفا، الدانوب وغزوا البلقان غزوة تدميرية، شكل الفلاحون والعبيد بشكل عفوي كواكب من الفرسان والمشاة، وانضموا إليه ففجحوا باحتلال واحدة من أبرز مدن مقدونيا، فيليبوبوليس. وعندما حاول الإمبراطور ديسس الانضمام إليهم وإعادة الغنائم لهم، قبل أن يعبروا الدانوب ثانية، هزم الـ"غوت" الجيش الروماني وأبادوه في دوبروشا. هلك ديسس أثناء القتال، مع ابنه البكر الذي ضمه إلى الإمبراطورية (حزيران ٢٥١).

لقد أسفرت أزمة القرن الثالث عن تجدد نشاط النضال الطبقي، لاسيما في الإمبراطورية الرومانية نفسها، المؤسسة على العبودية، التي وجدت نفسها في حالة من التفكك التام والعميق.

### المحاولات الأخيرة لإصلاح إمبراطورية العبودية. ديوكليتيان وقسطنطين

كانت الأوساط المهيمنة الرومانية في وضع يمكنها من بذل جهد أخير لتأخير تفكك مدمر لاقتصاد العبودية وانهيار الإمبراطورية. ففي أثناء الأعوام العاصفة من القرن الثالث، كانت المدن تعاني من الأزمة الاقتصادية ومن غزوات النهب المتوالية. فاختفى الكثير من الاستثمارات الزراعية الصغيرة والمتوسطة. وبالعكس، ليس فقط عزبات الأسر الكبيرة نهضت بسرعة، بفضل غنى مالكيها، بل نمت أيضاً على حساب الملكيات الصغيرة. كما ازداد كثيراً عدد الاقطاعات الشاسعة. لأن عصبية من الضباط امتلكتها بالحيازة؛ فقد عرفوا كيف يستفيدون من الخصومات الداخلية بين الطامعين بالامبراطورية

والمغامرات العسكرية لجني الثروة وتعزيز شريحة مالكي الأرض الكبار. الأمر الذي جعل رفع ملاكات قيادة الجيوش بخاصة قيادة الدانوب، في أثناء السنوات السبع عشرة التي تلت موت غاليان، لوائح بكبار القادة الأفذاذ، الذين توصلوا إلى إنقاذ الوضع ولو إلى حين.

كانوا كلهم تقريبا منحدرين من أبسط المستوطنين العسكر في إيليريا، ولذا سموا بعامّة الأباطرة الإيليريين. وكانوا كلهم قد وصلوا إلى أرفع درجات السراتب العسكري، وحازوا كلهم إقطاعات ضخمة وحكموا، بالتالي، بالتواصل المتين والتأييد الكامل مع كبار المالكين الطليان والإقليميين. ولمصلحة هذه الأوساط الاجتماعية انتزعوا من رؤوسهم بدون رحمة كل ما يمكن أن يفضي، وبدون تردد، إلى إرسال فصائل كاملة من الجند لتنفيذ أعمال عاجلة في إقطاعات كبار المالكين. لقاء هذا، جنى الأباطرة الإيليريين بعض الاستقرار العام، في المجالات الداخلية والخارجية. لكن عهدهم، عادة، لم يكن طويلا: فكثيرا ما نبحوا بنجر جنودهم وضباطهم.

كان أشهرهم أورليان (٢٧٠-٢٧٥)، الملقب "اليد الحديدية" لقوته الهرقلية وطاقته الاستثنائية وإرادته التي لا تقل. أنفذ روما من غزو الألمانس، تحدى الـ "غوت" والفاندال وطرده إلى خلف الدانوب كل أعداء روما الخطيرين؛ واحتل هكذا غنائم لا تحصى وأخذ جمهرة من الأسرى، الذين حلوا محل النواقص من العبيد والمستوطنين على الحدود. وقمع أورليان بوحشية حركات العبيد والمستوطنين. وكرر هذا في الأقاليم، في مصر بخاصة، دمر تدمر (٢٧٢)، اقتاد إلى الأسر الملكة زنوبيا وابنها؛ وعادت الغول المنشقة إلى الحظيرة، بعد أن اعترف إمبراطورها تتركس، أحد أحفاد بوسطيمس الذي، خوفا من تطور حركة الباغود، اعترف طوعا بسلطة أورليان، الذي، لهذا السبب، دعي "المصحح الموحد".

على هذا، كان الصلح والتوحيد مهمين جدا واستقبلا بحرارة. توجب مغادرة داسيا وإخلائها من المستوطنين الرومان على شاطيء الدانوب الأيمن، تأمين خدمة الإمبراطورية، وإحلال على الأرض الرومانية البحث فاندال، باستارن، شبه الوحوش، وبرابرة آخرين، وتوجب تحصين روما بحماس عاجل ورممت الاستحكامات والقلاع الضخمة وبروج أورليان. وكوسيلة تخلص من العقبات المالية، ضربت النقود المزورة

رفض الجمهور قبولها وتداولها، فشبت انتفاضة في روما، لهذا السبب، في العام ٢٧٣. أرثها عمال صك النقود، وسرعان ما دعمتهم كل شرائح السكان الفقيرة.

يشهد سقوط سبعة آلاف جندي من القامعين، عل جبروت ومدى هذه الحركة الشعبية، أو هذا الـ"عصيان النقدي"، كما يسمى عادة. تقلصت الإمبراطورية بشكل رهيب، وتضايقت، وهبط مستوى ثقافة سكانها، لكن تفككها التام والنهائي أرجئ إلى حين.

خدمت الأزمة السياسية، خلال العشرين عاما من حكم ديوكليتيان (٢٨٤-٣٠٥). وإيلريان هو الآخر، الابن المعتق، الذي مر بكل المراتب الحربية، عديم اللباقة والثقافة، رفعه إل العرش الضباط الأمراء في جيش الشرق بعد ذبح سلفه نومريان وقتل بيده منافسه أبير. وسوى بجرأة قتالية، وعاجلة، القضايا الإدارية الراهنة والمعقدة، واضعا في المقام الأول شؤون الدفاع وتنظيم المؤخرة.

لكنه لم يعد إلى رومان بل اختار مقراً له مدينة نكوميديا، على بحر مرمرة، الملائم جداً للسهل على الدفاع عن الحدود الرومانية الأكثر تهديداً، الدانوب والفرات. ولحماية الغرب، اختار شريكاً، "أوغست" آخر، مكسميان، رجلاً من بلاده، ضابطاً فذاً ومحكماً. اتخذ مكسميان عاصمة له ميلانو التي تحمي معابر الألب من جهة جرمانيا والغول، مؤمناً هكذا الاتصال بخط الرين الدفاعي. كان "كل أوغست" يلحق به معاوناً يسمى قيصر؛ ديوكتيان أخذ غالاريس (الذي أقام إدارته في سيرميم، على نهر الساف *Save*)، أحد روافد الدانوب)، ومكسميان أقام إدارته في تريف *Treves*، على نهر موزيل). وزج كل أوغست ابنته من قيصره، مهيناً هكذا خلفاء له؛ وقرر قتالياً أن يتنازل "كل أوغست" بعد عشرين عاماً، لخليفته. وهكذا استقرت حكومة أربعة قادة عسكريين، كان بينهم وشيجة تفاهم واعتراف بديوكليتيان، الأعم والأقدم بالخدمة، واعتبرت السلطة عامل ترجيح في حال الشقاق.

لقد أعطت هذه القسمة للسلطة لبعض الوقت النتائج المرجوة، من وجهة نظر الشرائح العليا في المجتمع الروماني. توصل الإمبراطوران والقيصران في مدة قصيرة نسبياً إلى التغلب على عدد كبير من المغتصبين الذين استمروا بالظهور وعلى التمردات الشعبية. وتحدى مكسميان الباغود ودمر مخيمهم الرئيس القائم على نهر المارن في بلد آل

باريزي (٢٨٦). وبالعبادات والإعدامات الجماعية، أعيد "الهدوء" إلى الغول. وجمد قسطنطين كلود محاولة قائد الأسطول الروماني في الشمال، كروزييس، الذي بغى أن يخلق امبراطورية في بريطانيا. وردت أيضاً هجمات الجرمان، الإيازيج، الكارب والفرس. ومكن الانتصار على الفرس من استعادة حامية أرمينيا وتنصيب فيها أحد أتباع روماء، ترددات الثالث. ومن جديد أحكم إغلاق الحدود بنهج دفاعي منيع وأقوى من أي وقت مضى.

لكن لترسيخ هذه النجاحات العسكرية، توجب تحقيق تبدلات هامة جداً اجتماعياً واقتصادياً في كل شروط العيش والحياة الاجتماعية الماضية. ومن أجل تحقيق التحالف الجماعي بطريقة أو بأخرى والعمل الأكيد لمصلحة الحكومة المركزية من كل سكان الأقاليم الرومانية الذين لا يشكلون سوى تكتل مجرد من أي تواصل، وجب السعي إلى نهج استبدادي، مجرب في الشرق منذ زمن. وقضي بدون وازع على كل ما تبقى من الحقوق المدنية، كالحرية الفردية أو الاستقلال البلدي. بدأ الأمر بسلسلة تدخلات عنيفة بسلطة الحكومة في الحياة الاقتصادية وتخفيض قيمة النقد المهلك للناس: بسبب افتقار الذهب (كانت مناجم داسيا قد ضاعت)، تراجعت قيمة النقد الذهبي إلى الثلث، ودنير الفضة، الذي تددى بشكل رهيب في أثناء القرن الثالث، تحول رسماً إلى شبه نقد نحاسي. فاخترقى الذهب على الفور، وطارت قيمته طيراً مجنوناً أو لاتعرف له بلغة البشر تسمية؛ كما يصف القرار ٣٠١.

ولقد حرصت هذه الحالة حكومة ديوكلتيان على خوض صراع ميئوس منه ضد المضاربة، التي رآها سبب هذه الظواهر الاقتصادية. يقول القرار ٣٠١، الذي تحدثنا عنه: يعرض نفسه لعقوبة الإعدام كل من احتكر، أو روج لرفع الأسعار، ويوصم بعار "الجريمة غير المحتشمة"، "اللس الماهر الذي يضخم ثروته عشرة أضعاف مما يثير الحنق والغضب".

وبموجب القرار ٣٠١، ثبتت الأسعار لكل السلع الغذائية، والأنسجة، والجلود، والمعادن وعربات النقل، والتجهيزات ومواد أخرى، وكذلك الأجور لمختلف صنوف العمال من المياوم الزراعي حتى مهنيي كل المستويات. والموجهون، وحراس المواشي، وحملة الماء، ومنظفو المجاري لا يتقاضون أكثر من ٢٥ دنير نحاسي في اليوم، إن كانوا مطعمين. البنؤون، الحطابون، النجارون، الحدادون، الخبازون، الأكلون على مائدة

صاحب العمل يضاعف لهم الأجر، أي ٥٠ دينيرا؛ والفنان الدهان أو الرسام ١٥٠ دينيرا؛ المحامي، الذي ينظم دعوى ويوجهها إلى من يلزم ٢٥٠ دينيرا؛ معلم المدرسة الابتدائية ٧٥ دينيرا للتلميذ الواحد والشهر الواحد. استاذ اللاتينية، اليونانية والهندسة ٢٠ دينير؛ أستاذ الأدب (البلاغة والفصاحة) ٢٥٠ دينيرا، إلخ. "من يخالف هذا الأمر يعرض رأسه"، بهذا التهديد الصريح ينتهي التدخل المفصل لهذه الوثيقة التاريخية الهامة.

كما كان متوقعا منه، لم يأت القرار إلا بتأزيم الفوضى الاقتصادية، وسرعان ما أبطله قسطنطين، خليفة ديوكاتيان.

أمام فشل هذا التجديد المالي والاقتصادي، اضطرت الحكومة إلى اللجوء الصريح إلى نهج الإعانات العينية ونهج الأعمال الإلزامية. وصار المحصول السنوي المساهمة الرئيسية. وبوجب التحصيل، لجأوا كل خمس سنوات إلى إحصاء الناس العام، وكل رأس، حسب حالة أزواجه، تفرض عليه رسوم لمختلف المساهمات العينية، التي تقررها الحكومة لخمس عشرة سنة. والمزارعون يدفعون من المحصول السنون حبوبا، خمرا أو زيتا، أو لحما وسواه، والمالكون الكبار يجيبون، عن الإقطاعات التي يسكنها منتجعون مباشرون بصفة مستوطنين، بالتخالص الشامل والمنتظم لهذه المساهمات. ولا يدفع ضريبة نقدية إلا التجار ومهنيو المدن، وكذلك العوام من كان في المدن، لكن هذه الضريبة لم تعد تلعب دورا هاما في ميزانية الدولة. وبالتالي، نفقات إعالة حاشية قصر مكسكيان، المقيمة في ميلانو. وصار الإمبراطور الروماني أشبه بهذا الصدد بسلطين فارس السالفين أو دولة الفراعنة.

ولتأمين تغطية مساهمات كل سكان الإمبراطورية، ربطوا بمهنتهم وصناعاتهم: موظفو الدولة، التجار وحوانيتهم، المهنيون بورشاتهم ونقاباتهم. الابن يتابع صنعة الأب. والحكام، والخوارنة، كما يسمون اليوم، لا يستطيعون تغيير مهنتهم: كانوا ملتزمين بالسهرة على ما أداه الناس بانتظام عن كل المخصصات العينية وكانوا مسؤولين بكفالة صارمة، عن كل تأخير. والعمال الريفيون من كل العينات، مزارعون أحرار، مستوطنون وحتى العبيد ثابتون على حصتهم من الأرض، كانوا أكثر ارتباطا بالقنانة. كانوا جميعا مسجلين على قوائم الإحصاء ومرتهنين لضريبة عينية على الرأس اسمها ضريبة الأعناق. وكان المستوطنون قد فقدوا حق مغادرة الأرض. والهابيون، أحرارا كانوا أم عبيدا، يلتقطون

ويعادون مكبلين بالحديد إلى أرضهم وسيدهم. وعلى كبار الملاكين، وبخاصة، على أولئك النبلاء المشيخيين، الملقين بالـ "أنقياء"، تفرض الحكومة واجب الدفاع عن منطقتهم والسهر على سكانها. وكانوا مكلفين بتحصين بيوتهم، التي كانت تتحول إلى قصور منيعة فعلية، وصيانة قطعان ماشيتهم وتزويد الجيش بالمجندين، المأخوذين من أتباعهم. وكانوا مكلفين أيضاً بفتح أسواق في إقطاعاتهم، وتنظيم التجارة والسهر على تنفيذ لائحة الأسعار، وممارسة حتى وظائف العدالة والأمن، وسواها.

كان جهاز "بيزنطة الرومانية"، كما اتفق على تسميتها بدءاً من عهد ديوكلتيان يذكر بملوك الشرق المستبدين، الذين كانوا على ذلك نسخة مقصودة. كان العاهل يتصرف كإله نزل إلى الأرض. وينادى "المقدس"، والـ "سيد" ويخاطب بصفة الجمع للشخص الثاني *Vous*. يظهر بالطليسان الشرقي، والرأس محاط بالغار الذهبي. يثبت على هذا التاج أشعة ذهبية منطلقة إلى كل الجهات، كما أشعة الشمس (أورليان هو الذي ابتكر هذا). منذ اعتلائه العرش، تطلبت المراسم السجود بين يديه على الركبتين، قرب قدميه ليقبلاً. كان مقامه مسمى "القصر المقدس"، ومجلسه الأعلى، المسمى آنئذ (اجتماع)، سمي منئذ (لقاء يبقى حضوره واقفين)، لأن أحداً لا يجرو على الجلوس بحضرة شخص الإمبراطور "المقدس". سلطته، النابعة من "السيادة" غير محدودة، ولذا سمي هذا الشكل من العاهلية أو الأصح الاستبدادية التي وصل إليها الإمبراطور "هيمنة".

كان المساعدون المباشرون للإمبراطورية محافظ الحاكمية (في عهد ديوكلتيان كانوا اثنين: واحد لكل أوغست وعدة حكام آخرين، على رأس الخدمات الإدارية المركزية، مع جهاز كبير من الموظفين والناسخين. ولتسهيل الإدارة، قسمت الإمبراطورية إلى ١٠٠ إقليم عوضاً عن ٤٧ بصورة تقلص الحافز الأرضي لحكامها من مختلف الصنوف: محافظون، مصححون ورؤساء الحامية، حسب سعة وأهمية الإقليم بسبب صعوبات النقل، ورداءة الطرق، وسوى ذلك. والأقاليم، الأقل مساحة، اجتمعت في ١٢ أسقفية، دوائر إدارية، أكثر اتساعاً. على رأس الأسقفيات وضع "ممثلو محافظ الحاكمية"، مرتبطون مباشرة بهذا الأخير. وكانت السلطة العسكرية، المستقلة أبداً عن السلطة المدنية، بين يدي قادة الفرق الإقليمية؛ كان قسم كبير من الجيش حاميات في الأقاليم، لصيانة واستقرار النظام والأمن، بينما لم يترك لمواكب الإمبراطورية سوى أفواج مخترفة من "حرس-



الحدود". بسبب بعثرة هذه القوات، تقلص عناصر الفرقة إلى ١٠٠٠ رجل، وكبر عدد الفرق كثيرا: كان عندهم حتى ١٧٥ فرقة؛ في القرن الرابع. كانت هذه التدابير تهدف إلى تنظيم مراقبة متبادلة لمختلف السلطات الإقليمية وتجعل ظهور المغتصبين أكثر صعوبة. يخبر المكلفون أو الأتباع الخاصون الذين يجوسون الإمبراطورية كلها، بالتفصيل الحكومة المركزية عن الطوارئ والمفاجآت. كان هذا التكاثف في الوظائف يفرض حملا جديدا على الناس.

وكما الاستبداد الشرقي، فتشت العاهلية الرومانية عن سند إيدولوجي في الدين. كان أورليان قد حاول تجديد وبعث الدين الوثني القديم بدعاية نشطة لعبادة الشمس. ودعم ديوكليتيان ما استطاع، بهدف إلباس السلطة الإمبراطورية الدعامة الدينية، إحياء عبادة جوبيتر، الذي أعلن نفسه أبنا له. ولهذه الاعتبارات اضطهد المسيحيين بوحشية في العام ٣٠٣، معتبرا إياهم مدنساة تعرقل قداسته وتهدم الأسس الإلهية لسلطته. طرد المسيحيون من الجيش، حرمت اجتماعاتهم، دمرت بيوت عبادتهم وأحرقت كتبهم. وأهلك العديد من كهنتهم وأساقفتهم، وفرض على مؤمنهم التضحية للآلهة السابقة، تحت طائلة التعذيب. هذا ما دعي في تاريخ المسيحية، "الاضطهاد الأعظم"، واعتبر بعده كل العنف الذي تعرض له المسيحيون مرارا على يد أباطرة آخرين أمرا بسيطا.

كان متمم عمل ديوكليتيان، لتحويل الإمبراطورية الرومانية إلى وضع استبدادي من النمط الشرقي، قسطنطين، الابن الطبيعي لقيصر قسطنطين كلور (هيلين، أم الإمبراطور الجديد كانت خادمة بسيطة في حانة للعسكر). كان يذكر أورليان بقوته البدنية الاستثنائية. وفي العام ٣٠٥، لما تخلى ديوكليتيان، المخلص للمبدأ الذي وضعه هو بالذات، حول مدة خدمة الأباطرة تخلى رسميا عن العرش وفرض على شريكه مكسميان أن يقتدي به، ولما كان القيصران على رأس عملهما، غالريس في الشرق وقسطنطين كلور في الغرب، دار صراع رهيب بين القيصرين الجديدين والأوغستين.

وهكذا فتح عهد آخر من الفوضى الدموية. في أثناءها تذابح الخصوم بوحشية، وهلكت النساء بهذه المناسبة والأولاد وأنصار المدحورين. أخيرا، بقي قسطنطين منتصرا على كل منافسيه، أو الذين أرسلهم إلى العالم الآخر، وصار في العام ٣٢٣ سيد الإمبراطورية الرومانية الوحيد، وبعد تجربة ١٨ عاما من الحروب الداخلية، تخلى عن

نهج الولاية الربعية الذي أقامه ديوكليتيان. وأخذ نظام العاهلية المطلقة بين يدي قسطنطين شكله الأتم والأنجز.

ولدعم وتوطيد نهائي لهذا النظام الاستبدادي، غادر قسطنطين روما إلى غير رجعة، وفي العام ٣٣٠، أعلن رسمياً بيزنطة، المدينة اليونانية القديمة عاصمة للإمبراطورية. وبعث فيها مجلس شيوخ في مقام الحكومة، لم يتخلف عن إحاطة نفسه بأروع الصروح الحكومية، والمعابد الآبدة، سمي أكثرها باسم قسطنطين: مدينة قسطنطين. قاطعاً الصلة بوضوح، بهذا التصرف وفي غيره، مع التقاليد القديمة، وأنجز قسطنطين بجرأة، جملة من القرارات والمراسيم، إذ فرض نظام الخدمة على كل الناس، ووضعه بتصرف الدولة. وبعد تأمين سلطتهم، عاد الحق عملياً إلى السادة في جلد العبيد حتى الموت، كتدبير "إرشادي". سمح للأبناء أن يبيعوا أبناءهم. وحرّم بحزم، ليس فقط المستوطنون المكبلون بالحديد (القانون ٣٣٢)، بل أيضاً الكهنة، المهنيون والتجار ممن تركوا أعمالهم ومكان إقامتهم الدائم. وكان عدد الموظفين يربو بدون توقف، ولم يعد الجهاز الإداري أكثر من أداة وحشية لاضطهاد لا يحتمل، ينيخ بغلظة على كاهل الجميع.

كان قسطنطين المتطير، قليل الثقافة يبحث متحمساً عن سند ودعم سلطته في الدين، متبعاً في هذا، وبكثير من الجرأة أيضاً، منحى أسلافه. ومهما قست حكومات ديوكليان وخليفته غالريس وأحد القياصرة الجدد، مكسميان دييا *Daia*، فقد بدا محالاً استئصال المسيحية. التي صارت قوة اجتماعية جبارة وجيدة التنظيم. كان في كل مدينة عدة تجمعات مسيحية، بأساقفتها، كهنتها، وشمامستها، وتمتلك مصادر غنية. في الإدارة، كما في الجيش، كان الكثير يدافع عن المسيحيين ويتبنى طروحاتهم: وفي قصر ديوكليتيان بالذات تعاطفتا معهم زوجته بيسكا وابنته فاليريا. وقبصر قسطنطين كان يحترمهم، ولا ينفذ قرارات ديوكليتيان ضدهم على أرض الغول وبريطانيا، الخاضعتين لسلطته. وأجبر الإمبراطور غالريس أيضاً في العام ٣١١ أن يضع نهاية "لاضطهادهم".

منذ مجيئه، انخرط قسطنطين في هذا الطريق ووجد دوماً سندا قويا حول الكهنوت المسيحي، في نضاله الطويل والعنيد ضد منافسيه. لذا، منذ العام ٣١٣، بعد انتصاره على مكسانس (ابن مكسمين)، الذي سيده على إيطاليا، أصدر بالاتفاق مع لوسنيس، الذي كان آنذاك شريكه في التاج، قرار ميلانو الذي يعطي الحرية كاملة لجميع المتعبدین في كل

الأديان، بما فيها المسيحية. وقبلت التجمعات الدينية أن تساهم ببناء الصروح المدمرة، وإصلاح الأراضي والأطيان التي صودرت في أسام الاضطهاد الأكبر. وما صار قسطنطين عاهلاً مطلقاً، حتى شرع يعامل الكنيسة المسيحية على خير وجه، وأعفى وزراءها من التعويضات والسخرة. وقدم قصره لآثران هدية لأسقف روما. ومع أمه هيلين، اهتم ببناء معابد مسيحية في فلسطين، بيت لحم، غولغوتا والقدس. رغم أنه لم يهتد إلى المسيحية إلا على فراش الموت، وأنه حافظ حتى النهاية على لقبه كحبر أعظم وبنى أيضاً بحماس شديد معابد للآلهة السالفين في عاصمته، وأعطى الكنيسة المسيحية وضعاً متميزاً فعلاً. وكان هذا الوثني، اهتماماً منه بوحدة الكنيسة، يعطي توجيهات تخص مختلف قضايا الكهنوت، ولذا حضر مجمع نيقيا في العام ٣٢٥، الذي كان مسرح مناظرات لاهوتية حامية حول: هل الابن "يشارك الأب في الجوهر" أم "يشبه الأب"، وحيث أعد أعقد "رمز إيماني"، المعروف برمز نيقيا.

وهكذا تحولت الكنيسة المسيحية إلى وسيلة جديدة وقوية بيد السلطة الإمبراطورية. وانصب الاضطهاد منذ الآن على البدع والهرطقات الدينية كجرائم على أمن الدولة، توقع ضرراً بالأيديولوجيا الرسمية؛ وبعد مجمع نيقيا، أبعد قسطنطين وسجن كـ"متمرد" كساهن الإسكندرية أريس الذي، مع أنصاره الـ"أريين"، تجرؤوا أن يدعموا، في القضايا الدينية، وجهات نظر أخرى لما تبناه الإمبراطور وذلك المجمع المطيع الخاضع له. لكن، وقد عدل الإمبراطور رأيه، استدعي أريس من المنفى، وأرسل مكانه خصمه الأسقف أثناس، زعيم غالبية "أباء" نيقيا. وأضيف إلى أشكال الاضطهاد الحكومية الممارسة، بالتالي، الاضطهاد الديني، وهكذا رأى الشعب انطفاء آخر أشعة الحرية.

### احتضار وسقوط إمبراطورية العبودية الرومانية

كانت الـ ١٥٠ سنة الأخيرة من حياة الإمبراطورية الرومانية أعوام احتضار مؤلم. ففي كل أمصار العالم العبودي للبحر المتوسط الملتئم تحت هيمنتها، كان يتتابع، بعد موت قسطنطين (٣٣٧)، تفكك النهج الاقتصادي المبني على استغلال الكدح العبودي وخور طبقة مالكي العبيد، مترافقا مع تجدد مستمر لنشاط الحركة الثورية لدى الشرائح السفلى والغزوات البربرية؛ وكان يتشكل في الوقت ذاته، في الأقاليم الإمبراطورية، دول عديدة، تخضع لتجمعات مسيطرة أخرى ونظام آخر لم يعد عبودياً. كان هذا النظام الأخير، وهذا

صحيح، مستمر منذ سنين طويلة، لكنه عوضا من أن يشكل أحد أسس التقدم الاجتماعي صار منذ زمن عقبتة الرئيسية؛ وإلى جانبه، كانت أشكال أخرى من العلاقات الاجتماعية تزداد أهمية.

قد اتسع وتسارع انهيار النظام العبودي في أثناء القرنين الرابع والخامس. ولقد حولت القرارات الحكومية التي تخص عادة هذا الإقليم أو ذاك، شيئا فشيئا، على كل أصقاع الإمبراطورية، المستوطنين إلى "عبيد الأرض" من الأب إلى الابن، ومالكي الأرض إلى "سادت"هم و"حماتهم" الطبيعيين. وبديء باعتبار أرزاق المستوطنين الشخصية ملكا لسادة التراب، وحرّم الزواج بين المستوطنين ومن يعتبر حرا بالقانون. على ذلك، كان اهتمام الحكومة الرئيسي بحجم المساهمات الزراعية العينية، وبخاصة، ضريبة الأعناق، وأيضا بمختلف أنواع السخرة المتوجبة للدولة، لشق الطرق وترميمها، والنقل والورشات العامة، وغيرها، الأمر الذي أدى ليس فقط إلى قمع هرب المستوطنين بل اشتداد القسوة عندما يطرد السادة المستوطنين من الأرض. كان هؤلاء الأخيرون معتبرين دافعي خراج، "مرتبطين بالقنانة الزراعية"، كعبيد الأرض، لكن ليس لسادتهم؛ يبيعهم بدون الأرض، ولا يبيع الأرض بدونهم ولا انتزاعها منهم بأي شكل.

كانت الدولة تسعى إلى تحديد المداخل التي يدفعها المستوطنون إلى المالكين (ثلاث المحصول عادة)، لتتجنب عجز المستوطنين المرهقين عن دفع المساهمات المتوجبة للدولة التي تشكل طبعا ثلثا آخر من إيراداتها. وهكذا تساوى "عبيد الأرض" (قانون ٣٦٦)، مع المستوطنين. لم يتحسن وضعهم، وهذا صحيح. إلا قليلا، استنادا إلى شهادة كاتب كنسي في بداية القرن الرابع، القديس يوحنا فم الذهب؛ يقول: "كانوا يعاملون المستوطنين كالبغال أو الحمير، بل الحجارة، ولا يسمح لهم بالتألم أو الشكوى". إجمالا، كان وضع مستوطني القرنين الرابع والخامس أقرب إلى وضع العبيد منه إلى وضع أقران عهد الإقطاع.

بنفس الطريقة كان المهنيون مرتبطين إلى ورشاتهم. كانوا جميعا خاضعين للإحصاء وملتزمين أن يدفعوا للدولة مداخل عينية. وقد أجبروا على تشكيل روابط متحالفة بكفالة متضامنة. وكان لفروع الإنتاج الأهم للجيش، والقصر والإدارة بشكل عام (المناجم، السلاح، البناء، النسيج) مشاريع الدولة الضخمة حيث يعمل العبيد، المدينون، والعمال

الأحرار. وكان محرما على هؤلاء وبحزم ترك مهمتهم؛ وكنا من يعمل بشؤون التسليح موشومين بالحديد المحمي. وكان أبناء الجند منذ السادسة عشرة من عمرهم يسجلون في قوائم الخدمة العسكرية، ويوضع وشم على ذراع هؤلاء المجندين. والمعدمون، والصوص، وبشكل عام، الأحرار قانونا، بدون مهنة محددة، كانوا يوضعون تحت وصاية أولئك الذي كانوا قد "ذكروا بظالتهم" أو أرسلوا إلى بيوت العمل، "لأن لا يبقوا عبنا على الأرض".

كان كل المالكين الصغار. العائشين في المدن ويملكون قطعة أرض من ٢٥ دونما، مسجلين بين المشيخين؛ مشكلين الشريحة العليا من سكان الريف، يشغلون مناصب قضائية بلدية، ويكلفون بإعادة توزيع الضرائب والمخصصات المطلوبة من المدن. كان وضعهم قد انهار فراح كل منهم يهرب كما يستطيع من مهامه الشرعية: التحق أكثرهم بالجيش، تزوجوا من عبيد، ليسجلوا بين هؤلاء الأخيرين، إلخ؛ لكن المعوزين والفارين هؤلاء كانوا يطاردون، ليعادوا بالقوة إلى شرطهم المسجل بالولادة أو بالثروة.

تبرز هذه اللوحة من الفقر والاستعباد، بتناقض واضح، الثروة والسلطة التي يجنيها بعض الأفراد من الشرائح العليا، وبخاصة، حاشية القصر، وندماء الأباطرة وامتليقيهم، وقادة الجيش، وكبار المالكين العقاريين من نبلاء مجلس الشيوخ. والأرض، وقد صارت القيمة الكبرى، دفعت الأغنياء والقادرين المتنفيين المتسلطين إلى السعي بكل السبل لتوسيع أطيانهم، التي تنامت بنسب لا سابق لها. إن الدارات الحصينة الباذخة ذات القاعات البهية، المبلمطة بالخزف، المجهزة بالتدفئة المركزية، وحدائقها ذات الأشجار المقلمة بأشكال خيالية، وأحواض السمك والحقول على مد النظر، حيث تعمل "قطعان العبيد" وصفت بحماس بأقلام الشعراء، بخاصة أوزون (القرن الرابع)، في قصيدته موزيل *Moselle*، وسيدوان أبولينير (القرن الخامس) في كتابه "رسائل". إن هؤلاء الأشخاص "الشهيرين"، الذين أدركوا الحياة جيدا، كانوا يحولون مجالاتهم إلى أشكال الدول المستقلة، حيث يتهربون من تنفيذ القرارات الإمبراطورية؛ يسعون إلى إعفاء أنفسهم وذممهم من أداء الضرائب، آخذين لخدمتهم الشيوخ الهاربين ويشدون إلى أرضهم مستوطني الآخرين. يكرهون القصبات والقرى المحيطة على اللجوء إلى حمايتهم؛ وكان الناس الأحرار في التجمعات الريفية المجاورة والفلاحون الصغار مكرهين على التسليم بملكيتهم لهم

ولأرزاقهم، التي منحت لهم وقتها، لتحضى من اغتصاب أتباعهم وكيد الجنود والموظفين الإمبراطوريين. لقد ناضل أباطرة القرنين الرابع والخامس ضد هذا الشكل من منح الأرض، وهدد بمصادرة أرزاق أولئك الذين يعطون حمايتهم كأولئك الذين يسعون إليها، لأن هذا النهج يضر بمداخل الخزينة، ويرى السادة أنفسهم أقوى من الدولة المركزية ولا يبالون بتعليمات الحكومة. ولقد ساهمت الحماية كثيرا بتوسيع أرزاق الكنيسة لأن كبار الموظفين الإكليريكيين، بفضل وضعهم الممتاز، شرعوا، هم أيضا، بتقليد السادة الكبار من الوجهة الروحية. إذ تطوعوا لحماية كل "الضعفاء" وأراضيهم وأرزاقهم الأخرى، التي لا تترك لهم إلا كامتياز مجاني" بشرط تأدية مختلف الخدمات والمخصصات لصالح شفيعهم الروحي.

لقد وضع جشعهم للسيطرة ممثلي الشرائح العليا، وكبار مالكي الأرض، الوقتين والروحيين، في مواجهة دائمة مع السلطة المركزية وأجهزتها المحلية، سادة ومشرفي الأقاليم، وكلاء الأسقفيات وأتباعهم الكثر. من هنا انبعث فيما بعد النظام الإقطاعي، مع التجزئة والتقسيم الذي يميزه. فكلما توطدت هذه القوى المبعدة عن المركز، ضعفت السلطة المركزية، وضاعت جهودها لحماية استمرارية ووحدة هذا المجتمع المتفكك المعارض لتوجهاتها التوحيدية.

فضلا عن هذا، وبعد قسطنطين، نادرا ما وجدت السلطة المركزية، وضاعت بين يدي شخص واحد. فموت قسطنطين قسم الإمبراطورية، وكأنها ملكه الشخصي، على أولاده الثلاثة وحفيديه. كان بكر هؤلاء القياصرة، الأجلاء، قسطنطين الثاني، في العشرين من عمره، والأصغر في الرابعة عشرة. فالصراع الدموي بين الأخوة، الذي كان المصلحة الطبيعية عن هذه الوصية، تأزم أكثر بظهور عدد من الطامعين والمغتصبين، دام ١٦ عاما وانتهى في العام ٣٥٣ بظفر أصغر أبناء المتوفى، قسطنطين الثاني. وسرعان ما نهض ضده ابن عمه جوليان الذي نجح بتوطيد السلطة دون اقتسام خلال سنتين (٣٦١-٣٦٣). وضد تجبره وتحكم نبلاء الأرض الكبار، سعى جوليان إلى عون الشرائح الوسطى وفقراء المدن.

لكن الصراع الأشرس ضد الكهنوت الكنسي المغتني ومحاولته اليائسة، لبعث الوثنية اللاعبة، أفضت إلى فوضى أعظم من كل الاضطرابات التي حدثت في عهد كسل الأسر

المستبدة. لقبت الكنيسة بـ"أبوستاتا *Apostat*" هذا المدافع الأخير عن الدين الوثني القديم والثقافة السابقة الدنيوية. فبعد موته (هلك في إحدى الحملات الفاشلة ضد الفرس)، تجزأت السلطة حوالي ٢٠ عاما، خلالها حمل التاج أحيانا فتيان بل أطفال، مثل غاليان (في الرابعة) وفالاتيان (في الثانية).

ولآخر مرة اجتمعت الإمبراطورية بين يدي تيودوسيوسن رجل الحرب (٣٧٩-٣٩٥). فقد قسى جدا ضد المغتصبين وضد الاضرابات الشعبية. وفي تسالوميك، دفع الجنود إلى السيرك وقطعوا رأس سبعة آلاف مواطن، انتقاما لأحد قادتهم، قتل في هذه المدينة. وكذلك، صارع بدون رحمة ضد مخلفات عبادة الأوثان؛ أمر بتحطيم المعابد المعجزة، مثل ساربيم في الاسكندرية وحظر تحت طائلة الموت الطقوس، والأضاحي والاحتفالات الوثنية. وبحث بحماس عن رعاية وعطف الأساقفة وشخصيات الكنيسة الأعيان، راغبا في أن يجد في تأثيرهم على الناس دعما للسلطة الإمبراطورية المزعزعة. وهكذا خضع بتذلل للإدانة القاسية التي أنزلها به مطران ميلانو، أمبرواز عقابا له على مذبح ميلانو، وتحمل بصبر عقوبة الحرمان المؤقت. لكن تيودوسيوس على فراش الموت، رأى جيدا، هو الآخر، أن يقسم الإمبراطورية الرومانية بين ولديه القاصرين: أركاديس إمبراطورا في الشرق وهونوريوس إمبراطورا في الغرب. وسمى بربريين وزيرين لرعاية الشابين: وضع الغولوا روفن إلى جانب أركاديس وفاندال سيتلون إلى جانب هونوريوس ومنذئذ صار شعار النسب الإمبراطوري نسر برأسين. وانطلاقا من هذه الحقبة (٣٩٥)، قسمت الإمبراطورية فعلا إلى شطرين شطر غربي وآخر شرقي، سمي فيما بعد الإمبراطورية البيزنطية.

في هذه الحالة من الانحطاط التام والانهيار الكامل الشامل، تلقت الإمبراطورية الرومانية طلقة الرحمة من القوى الثورية التي كانت تعمل ضدها بزخم ما يزال يتسع ويتسع. إن الحركات الشعبية في نهاية الإمبراطورية الرومانية لم تدرس جديا حتى الآن، لكن يمكن مع ذلك ملاحظة نمو هذه الحركات حيثما توجهنا.

ولقد كانت رهيبه بخاصة في الجزء الغربي من الإمبراطورية حيث كانت الملكية الزراعية مزدهرة بشكل فريد. وفي العامين ٣٦٨-٣٦٩، كانت بريطانيا مسرحا لاضرابات مدعومة من الجنود بسبب تأخر دفع رواتبهم، جعلت الاضطرابات العنيفة

الجزيرة كلها فريسة الجلبين السكوت والبيكت (الإكوسيين)، المستقلين عن روما. وبعد جهود مضنية استطاع "الكومت" (القائد الحربي) تيودسيس، والد الإمبراطور أن يقمع الحركة الشعبية والتصدي لهجمات السكوت. وفي ذلك الوقت، شبت من جديد في منطقة الغول كلها انتفاضة الباغود، التي ظلت مهملة لبعض الزمن، ولم تجد من يذكرها، بعد الهزيمة التي ألحقها بها مكسميان شريك ديوكلتيان بالإمبراطورية.

في نهاية القرن الرابع، امتدت هذه الحركة إلى إسبانيا، وفي منتصف القرن الخامس، أخذت نسب الحرب الفلاحية الجبارة. وفي الوقت ذاته "امتشق السلاح كل العبيد تقريبا وانضموا إلى الباغود"، كما يفيد كاتب حوليات معاصر.

وفي الإقليم الإفريقي في نوميديا وموريتانيا بخاصة، انتشرت، في العام ٣٤٠ حركة طورا يخفيها الرماد، ثم تشب مجددا، سميت حركة "المصارعين" (أبطال الله) أو "المشردون"، كما يسميهم أصحاب العقارات. وكان الريفيون، وقد عاشوا البؤس حتى الثمالة، يشكلون "تجمعات واسعة من الرجال والنساء الهائمين على وجوههم"، حسب تعبير أوغستان، أحد كتاب بداية القرن الخامس. وكان العبيد الفارون يلتحقون بهم أو كما يقول أوغستان ساخرا "يضعون أنفسهم تحت حمايتهم". وكان المصارعون يعتبرون المسيحيين "الحقيقيين"؛ وكانوا سيصفون بالخيانة والمكر أولئك الذين يظلون خاضعين للسلطات، ويسمون الأغنياء أبناء الشيطان. كانوا ينهبون الملكيات الكبيرة، يحرقون السدارات، يذبحون مالكيها، ولا يوفرون أعضاء الإكليرس المغتنيين ويدمرون الكنائس. ما كانوا يكتفوا بضربنا بالعصي والسيوف، يقول أوغستان بل يخربون لنا أبصارنا بالكلس والخل، بقسوة لا سابق لها، يسرقون بيوتنا، وبجوشهم الجرارة يجوبون البلاد باذرين الدمار، النهب والحرائق". وتتضم هذه الشرائح المعدمة إلى قطعان البربر الراحلة أبدا ويخوضون مع القوات الحكومية معارك منتظمة حقيقية. وفي العام ٣٧٢، دمر شيخ البربر فيرمس، زعيم إحدى هذه الحركات، عددا من المدن على ساحل موريتانيا، استولى على قيصريّة وطلب من الإمبراطور أن يشركه بالسلطة. فأرسل إليه مخمد فتن بريطانيا، تودوسيس، المرفع إلى رتبة سيد الفروسية، وليس إلا بعد سنتين من القتال الضاري استطاع أن يعيد "الأمن" إلى أفريقيا، كما فعل في الجزيرة.

وانطلاقا من العام ٣٧٥، يصير وضع الإمبراطورية الرومانية أكثر فأكثر مأساوية.



تيار جديد من البربر يتخطى الحدود، نتيجة ما عرف بهجرة الشعوب الكبرى. ومن حدود الصين الغربية تتوافد إلى السهوب الأوربية مجموعات القبائل من الهان (هيوينغ-نو)، التي صارت سيدة الحوض الشمالي للبحر الأسود، من الدون حتى الكاربات. وخضعت لهم الشعوب التي سماها الكتاب "الغوت"، لكن مجموعة أخرى من الوزغوت أو الغوت الغربيين، طردوا من موطنهم القديم، اجتازوا الدانوب وأقاموا عند تخوم الإمبراطورية. وأكروها الحكومة الرومانية أن تخلى لهم ميزيا *Mesie* وشطرا من تراسيا وأن تقبلهم بصفة حلفاء. ولقد تمرد الحلفاء الجدد غير الراضين عن النظام الإمبراطوري وتكيد ومضايقات الموظفين: شبت انتفاضة جبارة، دعمها مستوطنو البلد، وعمال مناجم تراسيا والعبيد. أبادوا جيشا رومانيا قرب أندرنويل، وهلك الإمبراطور فالانس في المعركة (٣٧٨).

تمكن الإمبراطور تيودوسيوس من تهدئتهم لبعض الوقت بإعطائهم أراض جديدة فسي تراسيا ومقدونيا، لكن بعد موته، عاد الوزغوت إلى القتال. وبقيادة ملكهم ألاريك، نهبوا شبه جزيرة البلقان، ثم التفتوا نحو الغرب، مشوا إلى إيطاليا تغلغلوا في نفس الوقت، من جهة الشمال، في الفاندال والبرغوند، سالكين مضايق الألب. استطاعت قوات ستلكون، جنرال إمبراطورية الغرب هونوريس أن تحمي إيطاليا من غزوة البربر، بفضل العم الآتي من بريطانيا، الغول والرين. لكن ستلكون، ضحية المكائد النموذجية في القصر الروماني الممزق هلك على يد هونوريس وانصب على البلد طوفان حقيقي من البربر. توقف الوزغوت في إيطاليا، وفي العام ٤١٠، طوق ألاريك روما. توافد العبيد إلى جيشه في كل إيطاليا، تمرد عبيد روما، فتحوا له الأبواب، وبالاتفاق مع الغوت، أخضعوا المدينة إلى نهب رهيب وأحرقوها. مع ذلك، أخلى الوزغوت إيطاليا، وفي طريقهم نحو الغرب، أقاموا في أكتانيا على ضفاف الغارون وشمال إسبانيا. وجنوب شبه الجزيرة احتله الفاندال، الذين عبروا من هنا إلى إفريقيا، التي راحت ضحية حرائق التمردات الشعبية، واحتلوا قرطاجة. في غضون ذلك، كان شمال الغول قد سقط في أيدي الفرانك، وكان شطرها الغربي قد احتله البورغوند.

وبدءا من العام ٤٥٠، صار وضع الإمبراطورية أكثر خطورة: تغلغل الهون، في عهد أتيلا، الملقب "ذراع الله"، تغلغلوا حتى الغول، لكنهم ردوا على أعقابهم بقوة الفرانك

الجيدة التنظيم، والوزعوت والبورغوند، المقيمون في البلد، بقيادة الجنرال الروماني إتيوس (معركة حقول كثالونيك، على ضفاف المارن، ٤٥١)، انقضوا على شمال إيطاليا، ونهبوا حتى أتروريا ذاتها. وفي العام ٤٥٥، احتلت روما مرة ثانية ونهبت بدون رحمة بقيادة فاندال جنسريك الآتي من أفريقيا عن طريق البحر مع عصاباتة المقاتلة. بعد نهب روما هذا، لم يبق في المدينة سوى سبعة آلاف قاطن: كان آخر الأباطرة قد كفوا منذ زمن عن اعتبارها عاصمة واختاروا مقاما لهم رافين، المحمية ذات المستنقعات غير السالكة. وكانت إيطاليا كلها تنخص بالبربر: كانت قواتهم المرتزقة هي قوة الأباطرة المقاتلة الوحيدة. وفي العام ٤٧٦، رأى قائد أحد هذه الجيوش البربرية، مصفي التركة، أو دواكر، أن الغرب لم يعد بحاجة لإمبراطور: فأرسل الشعارات الإمبراطورية إلى القسطنطينية، وأقصى الإمبراطور الصغير روملس أوغستول إلى إحدى دارات كامبانيا وأعلن نفسه ملك إيطاليا. لذا اعتبر العام ٤٧٦ عام سقوط إمبراطورية الرومان العبودية الغربية. وانتقلت السلطة كليا إلى زعماء من مختلف الأمم الجرمانية.

وقد وقعت أحداث مماثلة في النصف الشرقي من الإمبراطورية، حيث كان السلاف، مع العبيد والمستوطنين، هم الذين لعبوا في القرنين الرابع والخامس دور حافري قبر الإمبراطورية. كانوا معروفين لدى تاسيت باسم فينيد. وفيما بعد بديء بذكر أمة سلافية أخرى: الآنت. شكلوا جزءا من تحالفات الشعوب التي يسميها الباحثون اختصارا الغوت، ثم الهانس. وفي القرن الرابع ظهرت لأول مرة كلمة سلاف تحسنت سن قلم المؤرخ الإغريقي بروكوب، في كتابه "تاريخ حروب جوستينان".

كتب بروكوب بالتفصيل غزوات السلاف المستمرة، الذين "يعيشون على مساحة كبيرة من ضفاف إستر (الدانوب)، في الجهة الأخرى من النهر". ورغم جهود الإمبراطور جوستينان (٥٢٧-٥٦٥) لإعادة بناء خط دفاعي للدانوب، ظل الدانوب أبدا ممرا للبربر، والأرض الرومانية كلها مفتوحة لغزواتهم" (٣، ١٣). "في إيليريا وفي كل تراسيا، أي في اليونان كلها، من البحر الأيوني حتى ضاحية بيزنطة، منذ بدء عهد جوستينان في الإمبراطورية الرومانية، كان الهانس، السلاف، والآنت، في أثناء غزواتهم المستمرة، يكبدون سكان هذه المناطق ألما لا تطاق. أعتقد أن كلا من هذه الغزوات كلفت الرومان مائتي ألف قتيل وسجين، بحيث صارت البلاد أشبه بصحراء سيسييا *Scythie* (بروكوب، تاريخ سري، ٨، ٢٠).

بعيد هذا، في عهد خليفة جوستنيان، في نهاية القرن السادس، لم يعد السلاف يكتفون بهذه الغزوات الدورية، بل بدؤوا يتجولون جماهير في شبه جزيرة البلقان كلها. هذا ما يثبته في عمله "تاريخ الإكليروس" جان إيفيز، مؤرخ آخر من القرن السادس، مشكلاً صدى للضائقة التي سيطرت في الأوساط الحاكمة في الإمبراطورية: "بعد ثلاث سنوات من موت جوستان وبعد عهد تيبير (في العام ٥٨١)، غزت أمة السلاف اليونان الكبرى - هيلاد- كلها، وتسالونيك، وأقاليم تراسيا، واستولت على مدن عديدة وحصون حصينة، حارقين ناهبين ومسيطرين على كل البلد، حيث تقيم منتصرة، كما على أرضها بالذات... يدمرون، يحرقون، يسرقون البلد حتى جدران السور (من القسطنطينية)؛ واختطفوا قطعان الإمبراطور وغيرها من الغنائم. وهكذا عندما وجدوا، واستقروا وسرقوا الأقاليم الرومانية، فاغتنوا، ادخروا الذهب والفضة، وقطعان الأحصنة وأكوام الأسلحة. وتعلموا بل أجادوا خوض الحرب خيراً من الرومان، الذين كانوا حتى الأس القريب فظين، وما كانوا يجرؤون على الخروج من غاباتهم وسهوبهم (٦، ٢٥) وصحيح أيضاً أن شطر الإمبراطورية الشرقي عرف، خيراً من الغرب، أن يتلائم مع الظروف الجديدة ويعيد تنظيم واستثمار اليد العاملة العبدية في الاقتصاد الإقطاعي: وهكذا عاشت بيزنطة القرن الوسيط قرابة ألف عام، حتى ١٤٥٣، عام احتلال الأتراك القسطنطينية.

هكذا تم، في منتصف الألف الثاني الميلادي، أقول النهج المؤسس على العبودية. وانطلاقاً من نهاية القرن الثاني، تباطأ بوضوح تطور التفكك الاجتماعي بسبب وجود دكتاتورية الشرائح العسكرية الاستعبادية التي عاشتها الإمبراطورية الرومانية. لكن هذه الإمبراطورية، بقمعها الحركات الثورية للعبيد، للمستوطنين، وفقراء المدن، والتضحية لصد غزوات "البربر" بكل أرزاق الطبقات الشعبية، وبكل الإنجازات الثقافية السالفة، لم تكن تفعل سوى تكتيل ضدها كل القوى الثورية وأعدائها الخارجيين، الذين صفوها نهائياً، وغيبوا نجمها، وكل النظام الاجتماعي الذي بنته.

## فهرس الجزء الثاني

٣٣٥	الفصل الثاني والثلاثون: حرب البلوبونيز
٣٦٧	الفصل الثالث والثلاثون: الحضارة اليونانية في القرنين الخامس و الرابع ق.م
٣٨١	الفصل الرابع والثلاثون: اليونان في النصف الأول من القرن الرابع ق.م
٣٨٩	الفصل الخامس والثلاثون: الطاقة المتنامية لمقدونيا. حملات الإسكندر الكبير
٣٩٩	الفصل السادس والثلاثون: الدول الهلينية
٤١٣	الفصل السابع والثلاثون: اليونان الهلينية
٤١٩	الفصل الثامن والثلاثون: الساحل الشمالي للبحر الأسود
٤٢٧	الفصل التاسع والثلاثون: الحضارة الهلينية
٤٣٣	تسلسل الأحداث تاريخياً
٤٥٣	الفصل الأربعون: مناهل وتدوين التاريخ اليوناني
٤٥٧	الفصل الواحد والأربعون: إيطاليا القديمة
٤٦٣	الفصل الثاني والأربعون: إيطاليا وروما في عصر العشييرة (القرن العاشر-السابع ق.م)
٤٦٩	الفصل الثالث والأربعون: تفكك مجتمع العشييرة في روما (القرن السابع-السادس ق.م)
	الفصل الرابع والأربعون: روما في وضع حرج فسي الخارج أول استقلالها
٤٧٧	(٣٥٠-٥٠٠) ق.م. عسكرة المجتمع والأخلاق
	الفصل الخامس والأربعون: القضاء على مخلفات العشييرة. نهاية النظام القبيلي
٤٨٧	وتشكل المجتمع الطبقي والدولة في روما
٤٨٧	الفصل السادس والأربعون: فتح إيطاليا وتشكل الاتحاد الرومي- الإيطالي
	الفصل السابع والأربعون: الصراع بين روما وقرطاجة من اجل الهيمنة على
٤٩١	غرب البحر المتوسط

٥٠٥	الفصل الثامن والأربعون: بداية الهيمنة الرومانية على الشرق
	الفصل التاسع والأربعون: سحق حركات التحرر الوطني واستتباب الهيمنة
٥٠٩	الرومانية على المتوسط
٥١٥	الفصل الخمسون: انطلاقة الامبراطورية العبودية الرومانية في القرنين ٣ و ٢ ق.م
٥٢١	الفصل الواحد والخمسون: ظهور المزارع الكبيرة وطرد طبقة الفلاحين من الأرض
	الفصل الثاني والخمسون: الثورة الثقافية في روما في نهاية القرن
٥٢٧	الثالث حتى بداية القرن الثاني
٥٣٣	الفصل الثالث والخمسون: بدء الحركة الثورية لدى العبيد
٥٤١	الفصل الرابع والخمسون: الحركة الديموقراطية في روما وإيطاليا (١٥٠-٩٠)
٥٥٧	الفصل الخامس والخمسون: بداية الدكتاتورية العسكرية العبودية. سيلا
٥٦٩	الفصل السادس والخمسون: أزمة النظام الجمهوري
٥٩١	الفصل السابع والخمسون: سقوط الجمهورية
٦٠٩	الفصل الثامن والخمسون: إمارة أغسطس
٦١٩	الفصل التاسع والخمسون: الحضارة الرومانية بنهاية الجمهورية وإمارة أغسطس
	الفصل الستون: توطيد النظام الملكي. أسرة جوليو-كلوديين. الخلفاء المباشرون
٦٢٩	لأوغست ونضالهم ضد المخالفات الجمهورية
	الفصل الواحد والستون: الحرب الأهلية ٦٨-٦٩ وتوسع القاعدة
٦٤٧	الاجتماعية للامبراطورية. حكم أسرة فلافيان
٦٥٥	الفصل الثاني والستون: الامبراطورية في عهد الأنطونيين
	الفصل الثالث والستون: العلاقات الاجتماعية والاقتصادية في
٦٦٥	القرن الثاني بعد الميلاد
٦٧١	الفصل الرابع والستون: الانحطاط الثقافي. ظهور المسيحية
	الفصل الخامس والستون: أزمة القرن الثالث والامبراطورية الرومانية بين علمي
٦٨٣	٢٣٥-٤٧٦م

## من منشورات دار علاء الدين التاريخية

* لغز عشتار	* مغامرة العقل الأولى
.....فراس السواح	.....فراس السواح
* دين الإنسان	* الحدث التوراتي
.....فراس السواح	.....فراس السواح
* جلجامش	* آرام دمشق وإسرائيل
.....فراس السواح	.....فراس السواح
* التاو	* الأسطورة والمعنى
.....فراس السواح	.....فراس السواح
* الرحمن والشيطان	* بدايات الحضارة
.....فراس السواح	.....عبد الحكيم الننون
* من هم الموحدون الدروز	* سويداء سورية
.....جميل أبو ترابة	.....مجموعة من المؤلفين
* العادات والتقاليد في محافظة السويداء	* أضواء على الثورة السورية الكبرى
.....عطا الله الزاقوت	.....عطا الله الزاقوت
* سلسلة الأساطير السورية	* السكان القدماء لبلاد ما بين النهرين
.....ت مفيد عرنوق	.....ت سالم العيسى
* كليوباترا وعصرها	* صرح ومهد الحضارة السورية
.....ت يوسف شلب الشام	.....مفيد عرنوق
* الفكر الإغريقي	* المصادر التاريخية في الأندلس
.....ت محمد الخطيب	.....ت نايف أبو كرم
* تاريخ اليابان	* أميرات سوريات حكمن روما
.....ت يوسف شلب الشام	.....ت خالد عيسى
* الحضارة بين النعمة والنقمة	* الحضور اليماني في تاريخ الشرق الأدنى
.....إحسان البني	.....فضل عبد الله الجثام
* التراث من منظور مختلف	* بيو جرافيا حية لمشاهير الحكام في العالم
.....عبد الغفار نصر	.....ت خالد أبة الليل
* الاقتباس والجنس في التوراة	* أهم الغزوات في صفحات الإسلام الخالدة
.....خالص مسرور	.....عبد أحمد عبد الكريم السعدي

\* الأسطورة في بلاد الرافدين

عبد الحميد محمد

\* إله الشمس الحمصي

ت. إيرينا داوود

\* البلدان النامية-مشكلات العلاقات الاقتصادية

ت. د. ماجد علاء الدين

\* تاريخ القانون في العراق

عبد الحكيم النون

\* الديانة الفرعونية

ت. نهاد خياطة

\* دراسات حول الأكراد

ت. عبيد حاجي

\* الشركس في فجر التاريخ

برزج سمكوغ

\* حدث ذات مرة في سورية

سمير عبده

\* المسيحيون السوريون خلال ألفي عام

سمير عبده

\* السريانية العربية

سمير عبده

\* الإيديولوجية اليهودية

مفيد عرفوق

\* تيارات الفلسفة الشرقية

محمد حسن

\* دراسات في الفلسفة الأوروبية

سليمان حسن

\* التشريعات البابلية

عبد الحكيم النون

\* العولمة والتبادل الإعلامي

د. صابر فلهوط

\* من أنصاب العرب العاربة

صالح هواش المسلط

\* أساطير في أصل النار

ت. يوسف شلب الشام

\* هل هبط آدم في القفقاس

محمد عمر بغدادي

\* الحضارات القديمة

ت. نسيم واكيم البازجي

\* الجنس في العالم القديم

ت. فائق دحدوح

\* الديانة الزرادشتية

نوري إسماعيل

\* شريعة حمورابي

ت. أسامة سراس

\* طقوس الجنس المقدس

ت. نهاد خياطة

\* موسوعة تاريخ القفقاس والجركس

محمد جمال صادق ابه زاو

\* معجم الأساطير

ت. حنا عبود

\* صراع بين الحرية والاستبداد

فارس الحناوي

\* تجارة الأسلحة في الخليج العربي

رحيم كاظم محمد الهاشمي

\* الإثنولوجيا

محمد الخطيب

\* الطريق إلى القيادة وتنمية الشخصية

ت. سالم العيسى

\* دراسات في المكتبة العربية التراثية

عادل فريجات

\* الخيول الأصيلة في الصحراء العربية

أحمد حسان سبانو

\* المعراج والرمز الصوفي

د. نذير العظمة





في الجزء الثاني من هذا الكتاب يزيدنا المؤلف غزارة علمية،  
وغنى معرفي إذ يلقي الضوء على الجانب الحضاري والصراع  
بين الطبقات المستغلة والمضطهدة بكونه العامل الأساس  
للتطور، ويتابع المؤلف خيط هذا الصراع صعوداً وهبوطاً عبر  
تلك الحضارات، ويرصد الثورات والتمردات ضد الظلم  
والاستبداد.

يبدأ هذا الصراع من حرب البلبونيز حتى أزمة القرن الثالث  
والإمبراطورية الرومانية بين عامي 235-476 وما بينها من  
صعود حضارات وهبوط أخرى.

الكتاب ذو قيمة تاريخية واجتماعية وثقافية عليا لكل دارسي  
التاريخ والعلوم الإنسانية، ولكافة القراء.

والكتاب مفيد للدارسين في كليات التاريخ والعلوم الإنسانية  
والاجتماعية، ولكل من يهتم بتاريخ الحضارة الإنسانية غير  
عصورها المختلفة والمتعاقبة.



علي مولا